al-Muqtabas

المقتبس

مجلة أدبية علمية اجتماعية

تصدر في كل شهر عربي بالقاهرة

لمنشئها

محمد كرد علي

المجلد الثالث

١٣٢٦ — ١٩٠٨

قيمة الاشتراك خمسون قرشاً مصرياً تدفع سلفاً

AL MOKTABAS

REVUE MENSUELLE, LITTÉRAIRE

SCIENTIFIQUE ET SOCIOLOGIQUE

Paraissant au Caire

Rédacteur - Propriétaire

MOHAMMED KURD-ALI

Abonnement 13 francs

"Tome III - 1908"

طبع بمطبعة الظاهر امام محكمة الاستئناف بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعالى جدك اللهم خلقت الجماد والنبات والحيوان ، وكرمت ابن آدم بنور العقل وفضل البيان ، فاستخدم عناصر الارض وجواهر السماء ، وأدرك سر الفلك وسير الفلك ودقائق الماء والهواء ، طوى البحار ، بالبخار ، والبيداء ، بالكهرباء ، وسوى الاطواد ، والانجاد ، فأصبحت بعد الجهاد ، بعض الوهاد ، واحال اليابسة بحرا ، والبحر برا ، وصير من المجاهل الخالية ، معالم نافعة ، ومن القفار الخاوية ، رياضاً ممرعة ، فجمع بعلمه الى المخلوق مصنوعا ، وغدا الوجود من مادتي الطبيعة والعقول مجموعا .

سبحانك ابدعت نظام الكون والفساد ، وجعلت لكل شيء سبباً في المعاش والمعاد ، فلم تفقر فقيراً الا لحكمة ، ولم تغن غنياً الا بتيسيرك له اسباب النعمة ، ولا اهلكت من الأمم الا الظالمة لنفسها ، ولا رفعت منها الا الناظرة في يومها وأمسها ، فمن قانونك ان يسعى كل حي لبقائه بالفطرة ، وان لا يكون النشوء لساعته بالطفرة ، ومن استهان بالجزئيات لا يحرز الكليات ، ومن لم يعمل الفكر السليم لا يعرف حقائق الكائنات ، ناموس مطرد لا تغيره الازمان ، ولا يبليه الجديدان ، فتقدست أسماؤك ما أعظم سلطانك في السماء والارض ، وما ابهر آثار هديك في الرفع والخفض .

وبعد فهذا المقتبس على رأس عامه الثالث يدعو الى ما أنشيء للاخذ به من مذاهب التعليم والتهذيب ، والعلم والعمل مقدمة الاصلاح وبغيرهما كل سعي ضائع ، والسلم لا يصعد اليه من رأسه ، والبناء لا يقوم على غير

أسسه، فلسان حاله ومقاله ربوا البنين والبنات، تصلح لكم الحكام والحكومات، وقوموا الوجدانات، وحسنوا الملكات، تصح الآداب وتسلم الديانات.

يتوفر على احياء القديم القويم، واحتذاء مثال الجديد المفيد، ويقتبس من كل نافع كيف كان قائله، ويمثل بعض ما جدَّ للانظار وان تشعبت مسائله، يورد الحاضر ويذكر بالغابر زيادة في الاعتبار والاستبصار، وينشر ما انطوى مما فيه حياة اللغة وجدّتها، واللغة مبدأ سيادة الامة ومفتاح سعادتها، يخاطب الافراد قبل المجموع، ويقدم تعليم الصغار على الكبار، يقين ان الضعيف لا يتغلب على القوي بغير سلاح، ولا يكتب النصر لمن لا يستحقه، والاجسام تتكون من الذرات، كما تقوم المجتمعات بقوى أفرادها، وبصرهم بما ينمي الثروة ويحفظ البيضة ويجود الاخلاق

ولقد أرادنا بعض المفكرين على ان نتمحض في هذه المجلة لفرع خاص تعرف به، وموضوع معين لا تتعداه، ليكون ذلك أجمع للفائدة، وانفع في الأثر، وعذرنا اليهم بأن الاخصاء في علم واحد والبحث فيه من عامة أطرافه يستدعي مواد كثيرة وقراء يتلون ما يكتب بالقبول ليرجى معها حياة العمل طويلاً، ولو اقتصرنا على البحث في آداب اللغة مثلاً كما أشار بذلك بعض النبهاء لاقتضى لنا مادة واسعة يكاد يكون أكثرها مفقوداً وان نستعين بخمسة على الاقل من المؤازرين المتمكنين من هذا الفن. ثم أين مجامعنا العلمية وخطب العلماء ومحاوراتهم في هذا الموضوع ليتسنى لنا نقلها أو تحصيلها كل مدة فانا نرى مجلات الاخصائيين في الغرب ينشئها على صغر حجمها عشرات من المشتغلين المنقطعين وهناك الجمعيات والمجامع تعد منها ولا تعدها.

هذا ما نقوله لمن نصحوا لنا بالتمحض لفرع من الفروع التي تخوض

فيها المجلة الآن في جملة ما تخوض فيه بقدر ما تسمح به الحال . وانا على يقين من انه متى كثر سواد المنورين على الاساليب الصحيحة تصدر لهم بطبيعة الحال عشرات من أمثال تلك المجلات المنشودة باللسان العربي واذ ذاك يعرف الناس ان للمطبوعات ثمناً لا بد من قضائه في أوقاته ولا يقع لاربابها مثل ما وقع لنا في السنة الغابرة من حذف نحو أربعمائة اسم من سجل المشتركين وكان نصفهم طلبوا الاشتراك برسائل منهم فلما ذكروا بوفاء ما عليهم سكتوا اللهم الا بضعة عشر واحداً منهم .

على ان طلبات الاشتراك ما زالت ترد علينا من بلاد ما كنا نظن أهلها يقرأون العربية ويرغبون في المجلات مصحوبة بقيمتها على الطريقة الغربية يشترك بعضهم عن رغبة من تلقاء أنفسهم وبعضهم بارشاد بعض الغيورين وعددهم لا يزال في نمو . ولا نكتم القراء ان مجموع ما ورد على الادارة في الحولين الماضيين لم يوف حتى الآن ثمن ما صرف في الورق والطبع والبريد فقط كل هذا ونحن نعد ما لقيناه ضرباً من ضروب الرقي في الافكار ونرى المقتبس ينجح نجاحاً كبيراً يوم يقوم بنفقاته . اذ من العبث الاعتماد على العلميات الآن وعدها مذهباً من مذاهب المعاش الطبيعي ما دام الشرق العربي متأخراً بمعارفه هذا التأخر المحسوس لا سيما وان المتصدين للتأليف في الغرب قاسوا قبلنا من أممهم ما لم نقاس نحن بعضه وما زال حال من ينقطعون عندهم للابحاث التي يقتضي فهمها شيئاً من العلم بالنسبة لمن يشتغلون بالموضوعات الساذجة الهزلية دون ما نتوهم بكثير فلا فضل لنا اذاً فيما نفادي به .

وهنا نتقدم الى من يتناولون المجلة في هذا القطر وغيره من الاقطار ان يعودوا أنفسهم ارسال اشتراكاتهم من أول السنة بدون مطالبة على نحو

ما تجري عليه الأمم المتمدنة خصوصاً وكلهم الآن من أهل الرغبة المختارين. وقد زدنا في حجم المقتبس بحيث يقع مجلده آخر السنة في ثمانمائة صفحة جيدة الطبع والورق وكان في السنتين السالفتين ستمائة واثنتين وسبعين صفحة واستكثرنا من المواد التي تقتبس منها أو نعرب عنها من مجلات وموسوعات أفرنجية وأسفار ممتعة عربية مع ابقاء قيمة الاشتراك بحالها . والله نسأل ان يحقق آمالنا لنقوم ببعض الواجب وهو يهدي السبيل .

الادب الصغير

لابن المقفع

عني بنشره الاستاذ الشيخ طاهر الجزائري

توطئة للناشر

من اعظم ما تدعو الحاجة اليه علم تهذيب الاخلاق لتوقف نجاح الامم عليه وهو فن ذو افنان تحتاج اليه الافراد على اختلاف طبقاتها . ومع قلة ما انتشر من كتبه ففي جلها من عدم التنقيح وانسجام العبارات ما يصد كثيراً من الطالبين عن الاقبال عليها . ومن ثم كثر بحثنا عن كتب تفي بهذا المطلب مع رشاقة مبانيها لتكون الفائدة مدرجة وهو اقصى آمال الذين يسعون في احياء اللغة العربية واعادتها الى ما كانت عليه في عهدها الاول . ولما ذهبت الى مدينة بعلبك سنة ١٣٢٣ رأيت عند بعض الافاضل الواردين عليها مجموعاً استعاره من بعض اعيانها فرأيت فيه الضالة المنشودة وهي رسالة الادب الصغير لعبدالله بن المقفع الكاتب الذي يضرب ببلاغته المثل فكتبتها بخطي في نحو يوم وارجو ان ييسر لنشرها من عرف بحسن الطبع ليعم بها النفع والله الموفق .

وهذا بيان الرسائل التي في المجموع المذكور : (١) كتاب عجائب امير المؤمنين علي ابن ابي طالب رضي الله عنه وهو في نحو ثلاث كراسات يشتمل على ما نقل عنه من بدائع الاحكام (٢) ذكر الخلائف وعنوان المعارف تأليف الصاحب ابي القاسم اسماعيل بن عباد اوله « الحمد لله الواحد العدل وصلى الله على النبي وخيرة الاهل قد اسعفتك بالمجموع الذي

التمسته في نسب النبي عليه السلام وبنيه وبناته واعمامه وعماته وجمل من غزواته وسائر ما يتصل بذلك » وهو اثنتا عشرة ورقة وفي آخره: وكتب في رجب سنة عشرين واربعمائة (٣) رسالة الى احمد بن ابي دؤاد في فضل العلم وهي ٣ اوراق وفي آخرها: وكتب في شهر ربيع الاول سنة عشرين واربعمائة (٤) ويتلوها كتاب الادب الصغير الذي نقلناه وهو في الصفحة اليسرى من آخر ورقة من الرسالة السابقة بخط كاتب واحد فتكون كتابتها في التاريخ المذكور ولم يذكر في آخرها تاريخ (٥) ويتلوه كتاب ذخائر الحكمة تأليف ابي بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي وهو في نحو ثلاث وعشرين ورقة (٦) مختصر من كتاب جاويدان خرد في حكم الفرس والهند والروم والعرب تأليف احمد بن مسكويه وهو في اكثر من كراس .

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فان لكل مخلوق حاجة ولكل حاجة غاية ولكل غاية سبيلاً والله وقّت للامور اقدارها وهيأ الى الغايات سبلها وسبب الحاجات ببلاغها فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد . والسبيل الى دركها العقل الصحيح . وأمارة صحة العقل اختيار الامور بالبصر . وتنفيذ البصر بالعزم . وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الادب وبالادب تنمى العقول وتزكو فكما ان الحبة المدفونة في الارض لا تقدر على ان تخلع يبسها وتظهر قوّتها وتطلع فوق الارض بزهرتها ونضرتها وريعها ونمائها الا بمعونة الماء الذي يغور اليها في مستودعها فيذهب عنها اذى اليبس والموت ويحدث لها باذن الله القوّة والحياة فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغرزها من القلب لا قوّة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الادب الذي هو ثمارها وحياتها ولقاحها . وجلّ الادب بالمنطق وكل المنطق بالتعلم ليس حرف من حروف معجمه ولا اسم من انواع اسمائه الا وهو مرويّ متعلم مأخوذ عن امام سابق من كلام او كتاب وذلك دليل على ان الناس لم يبتدعوا أصولها ولم يأتهم علمها الاّ من قبل العليم الحكيم . فاذ خرج الناس من ان يكون لهم عمل اصيل وان يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون ان احدهم وان احسن وابلغ ليس زائداً على ان يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلائد وسموطاً واكاليل ووضع كل فص موضعه وجمع الى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسناً فسمي بذلك صائغاً رفيقاً — وكصاغة الذهب والفضة صنعوا فيها ما يعجب الناس من الحلي والآنية — وكالنحل وجدت ثمرات اخرجها الله طيبة وسلكت سبلاً جعلها الله ذللاً فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً اليها مذكوراً به امرها وصنعتها فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه او يستحسن منه فلا يعجبن به اعجاب المخترع المبتدع فانه انما اجتباه كما وصفنا .

ومن اخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه فلا يَرَينَّ عليه في ذلك ضؤولة فانه من أُعين على حفظ قول المصيبين وُهدِيَ للاقتداء بالصالحين ووفق للاخذ عن الحكماء فلا عليه ان لا يزداد فقد بلغ الغاية وليس بناقصه في رأيه ولا بغائضهِ من حقه ان لا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه وانما حياة العقل الذي يتم به ويستحكم خصالٌ ست : الايثار بالمحبة · والمبالغة في الطلب · والتثبت في الاختيار · والاعتقاد للخير · وحسن الوعي · والتعهد لما اختير واعتقد · ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً ·

اما المحبة فانما يبلغ المرء مبلغ الفضل في كل شيء من امر الدنيا والآخرة حين يؤثر بمحبته فلا يكون شيء امرأ ولا احلى عنده منه · واما الطلب فان الناس لا يغنيهم حبهم ما يحبون وهواهم ما يهوَون عن طلبه وابتغائه ولا يدرك لهم بغيتهم نفاستها في انفسهم دون الجد والعمل · واما التثبت والتخير فان الطلب لا ينفع الا معه وبه فكم من طالب رشدٍ وجده والغي معا فاصطفى منهما الذ منه هرب والغي الذي اليه سعى فاذا كان الطالب يحوي غير ما يريد وهو لا يشك بالظفر فما احقه بشدة التبين وحسن الابتغاء · واما اعتقاد الشيء بعد استبانته فهو ما يطلب من احراز الفضل بعد معرفته · واما الحفظ والتعهد فهو تمام الدرك لان الانسان موكلٌ به النسيان والغفلة فلا بد له اذا اجتبى صواب قول او فعل من ان يحفظه عليه ذهنه لأوان حاجته واما البصر بالموضع فانما تصير المنافع كلها الى وضع الاشياء مواضعها وبنا الى هذا كله حاجة شديدة فاننا لم نوضع في الدنيا موضع غناء وخفض ولكن موضع فاقة وكدّ ولسنا الى ما يمسك بارماقنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى ما يثبت عقولنا من الادب الذي به تفاوت العقول · وليس غذاء الطعام باسرع في نبات الجسد من غذاء الادب في نبات العقل · ولسنا بالكد في طلب المتاع الذي يلتمس به دفع الضر والعيلة باحق منا بالكدّ في طلب العلم الذي يلتمس به صلاح الدين والدنيا ·

وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عونٌ على عمارة القلوب وصقالها وتجليةِ ابصارها واحياء للتفكير واقامة للتدبير ودليلٌ على محامد الامور ومكارم الاخلاق ان شاء الله ·

الواصفون اكثر من العارفين · والعارفون اكثر من الفاعلين · فلينظر امرؤ اين يضع نفسه فان لكل امرئ لم تدخل عليه آفة نصيباً من اللب يعيش به لا يحب ان له به من الدنيا ثمناً · وليس كل ذي نصيب من اللب بمستوجب ان يسمى في ذوي الالباب ولا ان يوصف بصفاتهم · فمن رام ان يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف اهلاً فليأخذ له عتاده وليعدّ له طول ايامه وليؤثره على اهوائه فانه قد رام امراً جسيماً لا يصلح على الغفلة ولا يدرك بالمعجزة

ولا يصبر على الاثرة وليس كسائر امور الدنيا وسلطانها ومالها وزينتها التي قد يدرك منها المتواني ما يفوت المثابر ويصيب منها العاجز ما يخطئه الحازم

وليعلم ان على العامل اموراً اذا ضيعها حكم عليه عقله بمقارنة الجهال . فعلى العامل ان يعلم ان الناس مشتركون مستوون في الحب لما يوافق والبغض لما يؤذى وان هذه منزلة اتفق عليها الحمقى والاكياس ثم اختلفوا بعدها في ثلاث خصال هن جماع الصواب وجماع الخطإ وعندهن تفرقت العلماء والجهال والحزمة والعجزة

الباب الاوّل من ذلك

ان العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره فيعلم ان احق ذلك بالطلب ان كان مما يحب واحقه بالاتقاء ان كان مما يكره اطوله وادومه وابقاه فاذا هو قد ابصر فضل الآخرة على الدنيا وفضل سرور المروءة على لذة الهوى وفضل الرأي الجامع العام الذي تصلح به الانفس والاعقاب على حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلاً ثم يضمحل وفضل الاكلات على الاكلة والساعات على الساعة

والباب الثاني هو ان ينظر فيما يؤثر من ذلك فيضع الرجاء والخوف فيه موضعه فلا يجعل اتقاءه لغير المخوف ولا رجاءه في غير المدرك فيترك عاجل اللذات طلباً لآجلها ويحتمل قريب الاذى توقياً لبعيده فاذا صار الى العاقبة بدا له ان فراره كان تورطاً وان طلبه كان تنكباً .

والباب الثالث من ذلك هو تنفيذ البصر بالعزم بعد المعرفة بفضل الذي هو ادوم وبعد التثبت في مواضع الرجاء والخوف فان طالب الفضل بغير بصر تائه حيران ومبصر الفضل بغير عزم ذو زمانة محروم . وعلى العاقل مخاصمة نفسه ومحاسبتها والقضاء عليها والاثابة لها والتنكيل بها .

اما المحاسبة فيحاسبها بما لها فانه لا مال لها الا ايامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة وما جعل منها في الباطل لم يرجع الى الحق فيتنبه لهذه المحاسبة عند الحول اذا حال والشهر اذا انقضى واليوم اذا ولى فينظر فيما افنى من ذلك وما كسب لنفسه فيه وما اكتسب عليها في امر الدين وامر الدنيا فيجمع ذلك في كتاب فيه احصاء وجد وتذكير وتبكيت للنفس وتذليل لها حتى تعترف وتذعن

واما الخصومة فان من طباع النفس الامارة بالسوء ان تدعي المعاذير فيما مضى والاماني فيما بقي فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها

واما القضاء فانه يحكم فيما ارادت من ذلك على السيئة بانها فاضحة مردية موبقة وللحسنة

بانها زائنة منجية مربحة . واما الابانة والتنكيل فانه يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ويرجو عواقبها وتأميل فضلها و يعاقب نفسه بالتذكر للسيئات والبشع بهاوالاقشعرارمنهاوالحزن لها .

فافضل ذوي الالباب اشدهم لنفسه بهذا اخذًا واقلهم عنها فترة وعلى العاقل ان يذكر الموت في كل يوم وليلة مرارًا ذكرًا يباشر القلوب و يقذع الطماح فان في كثرة ذكر الموت عصمة من الأشر وامانا باذن الله من الهلع

وعلى العاقل ان يحصيَ على نفسه مساويها في الدين وفي الرأي وفي الاخلاق وفي الآداب فيجمع ذلك كله في صدر او في كتاب ثم يكثر عرضه على نفسه و يكلفها اصلاحه و يوظف ذلك عليها توظيفًا من اصلاح الخلة او الخلتين والخلال في اليوم او الجمعة اوالشهر فكلما اصلح شيئًا محاه وكلما نظر الى ثابت اكتأب

وعلى العاقل ان ينفقد محاسن الناس ويحفظها ويحصيها و يصنع في توظيفها على نفسه وتعهدها بذلك مثل الذي وصفنا في اصلاح المساوي

وعلى العاقل ان لا يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس ما استطاع الاَّ ذا فضل في الدين والعلم والاخلاق فيأخذ عنه او موافقًا له على صلاح ذلك فيؤيد ما عنده وان لم يكن له عليه فضل وان الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمى الا بالموافقين والمهذبين والمؤيدين وليس لذي الفضل قريب ولا حميم هو اقرب اليه واحب ممن وافقه على صالح الخصال فزاده وثبته ولذلك زعم بعض الاوَّلين ان صحبة بليد نشأ مع العلماء احب اليهم من صحبة لبيب نشأ مع الجهال .

وعلى العاقل ان لا يحزن على شيءٍ فاته من الدنيا او تولى وان ينزل ما اصاب من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب ولا يدع حظه من السرور بما اقبل منها ولا يبلغنَّ سكرًا ولا طغيانًا فان مع السكر النسيان ومع الطغيان التهاون ومن نسي وتهاون خسر

وعلى العاقل ان يؤنس ذوي الالباب بنفسه ويجرئهم عليها حتى يصيروا حرسًا على سمعه و بصره ورأيه فيستنيم الى ذلك ويريح له قلبه و يعلم انهم لا يغفلون عنه اذا هو غفل عن نفسه .

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على نفسه ان لا يشغله شغل عن اربع ساعات ساعةٍ يرفع فيها حاجته الى ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها الى اخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه و ينصحونه في امره وساعة يخلي فيها بين نفسه و بين لذتها مما يحل و يجمل فان هذه الساعات عونٌ على الساعات الاخر وان استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوَّة لها

وفضل بلغة وعلى العاقل ان لا يكون راغباً الا في احدى ثلاث خصال تزوُّدٌ لمعاد او مرمةٌ لمعاش او لذة في غير محرم

وعلى العاقل ان يجعل الناس طبقتين مختلفتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الانسة واللطف والبذلة والمفاوضة ولا يدخل في هذه الطبقة الا واحدٌ من الف كلهم ذو فضل في الرأي وثقةٍ في المودّة وامانة في السر ووفاء بالاخاء

وعلى العاقل ان لا يستصغر شيئاً من الخطاءِ في الرأي والزلل في العلم والاغفال في الامور فان من استصغر الصغير اوشك ان يجمع اليه صغيرًا وصغيرًا فاذا الصغير كبير وانما هي ثلم يثلمها العجز والتضييع فاذا لم تُسد اوشكت ان تنفجر بما لا يطاق ولم نرَ شيئًا قط قد أُتي الا من قبل الصغير المتهاوَن به

قد رأينا الملك يؤتى من قبل العدو المحتقر ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لا يُحفل به ورأينا الانهار تنبثق من الجدول الذي يستخف به — واقل الامور احتمالاً للضياع الملك لانه ليس منه شيءٌ يضيع وان كان صغيرًا الاَّ اتصل بآخر يكون عظيماً

وعلى العاقل ان يجبن عن الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً وأن ظن انه على اليقين ·

وعلى العاقل ان يعرف ان الرأي والهوى متعاديان وان من شأن الناس تسويف الرأي واسعاف الهوى فيخالف ذلك ويلتمس ان لا يزال هواه مسوَّفًا ورأيه مسعفاً

وعلى العاقل اذا اشتبه عليه امران فلم يدر في ايهما الصواب ان ينظر اهواهما عنده فيحذره ·

من نصب نفسه للناس اماماً في الدين فعليه ان يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والاخدان فيكون تعليمه بسيرته ابلغ من تعليمه بلسانه فانه كما ان كلام الحكمة يونق الاسماع فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب ومعلم نفسه ومؤدبها احق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم

ولاية الناس بلاءٌ عظيم

وعلى الوالي اربع خصال هي اعمدة السلطان واركانه التي بها يقوم وعليها يثبت — الاجتهاد في التخير — والمبالغة في التقدم — والتعهد الشديد — والجزاء العتيد

اما التخير للعمال والوزراء فانه نظام الامر ووضع مؤونة البعيد المنتشر فانه عسى ان يكون بتخيره رجلاً واحداً قد اختار الفًا لانه من كان من العمال خيارًا فسيختار كما اختير ولعل عمل العامل وعمل عماله يبلغون عددًا كثيرًا فمن تبين التخير فقد اخذ بسبب وثيق

ومن اسس امره على غير ذلك لم تجد لبنيانه قواماً . واما التقديم والتوكيل فانه ليس كل ذي لب او ذي امانة يعرف وجوه الامور والاعمال ولوكان بذلك عارفاً لم يكن صاحبه حقيقاً ان يكل ذلك الى عمله دون توقيفه عليه وتبيينه له والاحتجاج به عليه واما التعهدفان الوالي اذا فعل ذلك كان سميعاً بصيراً وان العامل اذا فعل ذلك به كان متحصناً حريزاً واما الجزاء فانه تثبيت المحسن والراحة من المسيء

لا يستطاع السلطان الا بالوزراء والاعوان ولا تنفع الوزراء الا بالمودة والنصيحة ولا المودة الاّ مع الرأي والعفاف واعمال السلطان كثيرة وقلما تستجمع الخصال المحمودة عند احدوانما الوجه في ذلك والسبيل اليه الذي يستقيم به العمل ان يكون صاحب السلطان عالماً بامور من يريد الاستعانة به وما عند كل رجل من الرأي والغناء وما فيه من العيوب فاذا استقرّ ذلك عنده عن عمله وعلم من يأتمن وجّه لكل عمل من قد عرف ان عنده من الرأي والنجدة والامانة ما يحتاج اليه فيه وان ما فيه من العيوب لا يضر بذلك و يتحفظ من ان يوجّه احداً وجهاً لا يحتاج فيه الى مروءة ان كانت عنده ولا يأمن عيوبه وما يكره منه

ثم على الملوك بعد ذلك تعهد عمالهم وتفقد امورهم حتى لا يخفى عليهم احسان محسن ولا اساءة مسيء

ثم عليهم بعد ذلك ان لا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يقروا مسيئاً ولا عاجزاً على الاساءةوالعجز فانهم ان تركوا ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء وفسد الامر وضاع العمل . اقتصاد السعي ابقى للجمام وفي بعد الهمة يكون النصب ومن سأل فوق قدره استحق الحرمان .

سوء حمل الغنى ان يكون عند الفرح مرحاً . وسوء حمل الفاقة ان يكون عند الطلب شرهاً . وعار الفقراهون من عار الغنى . والحاجةمع المحبة خير من الغنى مع البغضة . والدنيا دول فما كان منها لك اتاك على ضعفك وما كان عليك لم تدفعه بقوتك . اذا جعل الكلام مثلاً كان اوضح للمنطق وابين في المعنى وآنق للسمع واوسع لشعوب الحديث

اشدالفاقةعدم العقل . واشد الوحدة وحدة اللجوج . ولا مال افضل من العقل . ولا أنس آنس من الاستشارة — ممايعتبر به صلاح الصالح وحسن نظره للناس ان يكون اذا استعتب المذنب ستوراً لا يشيع واذا استشير سمحا بالنصيحة مجتهداً للرأي واذا استشار مطرحاً للحياء ومعترفا للحق

القسم الذي يقسم للناس و يمتعون به نحوان فمنه حارس ومنه محروس فالحارس العقل والمحروس المال

والعقل باذن الله هو الذي يحرز الحظ و يؤنس الغربة و ينفي الفاقة و يعرّف النكرة و يثمر

المكسبة ويطيب الثمرة ويوجه السوقة عند السلطان ويستنزل للسلطان نصيحة السوقة ويكسب الصديق وينفي العدوّ

كلام اللبيب وان كان نزرا ادب عظيم ومقارفة المأثم وان كان محتقرًا مصيبة جليلة ولقاء الاخوان وان كان يسيرًا غنم حسن ·

قد يسعى الى ابواب السلطان اجناس من الناس كثير اما الصالح فمدعوّ واما الطالح فمقتحم واما ذو الادب فطالب واما من لا ادب له فمحتبس واما القويّ فمدافع واما الضعيف فمدفوع واما المحسن فمستثيب واما المسيء فمستجير فهو مجمع البرّ والفاجر والعالم والجاهل والشريف والوضيع

الناس الا قليلا ممن عصم الله مدخولون في امورهم فقائلهم باغ — وسامعهم عياب — وسائلهم متعنت — ومجيبهم متكلف — وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل — وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف — والامين منهم غير متحفظ من اتيان الخيانة — وذو الصدق غير محترس من حديث الكذبة — وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة — والعازم منها غير تارك لتوقع الدوائر — يتناقضون البنى — و يترقبون الدول — و يتعاطون القبيح — و يتعاينون بالغمز — و يرعون في الرخاء بالتحاسد — وفي الشدة بالتجاذب

ثم قد انتزعت الدنيا ممن قد استمكن منها واعتكفت له فأصبحت الاعمال اعمالهم والدنيا دنيا غيرهم واخذ متاعهم من لم يحمدهم وخرجوا الى من لا يعذرهم فأصبحنا خلفًا من بعدهم نتوقع مثل الذي نزل بهم فنحن اذا تدبرنا امورهم احقاء ان ننتظر ما نغبطهم به فنتبعه وما نخاف عليهم منه فنجتنبه

كان يقال ان الله تعالى قد يأمر بالشيء ويبتلي بثقله وينهى عن الشيء ويبتلي بشهوته فاذا كنت لا تعمل من الخير الا ما اشتهيت ولا تترك من الشر الا ما كرهت فقد اطلعت الشيطان على عورتك وامكنته من ازمتك فأوشك ان يقتحم عليك فيما تحب من الخير فيكرّهه اليك وفيما تكرهه من الشر فيحببه اليك · ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير التحامل على ما يستثقل منه وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما تحب منه

للدنيا زخرف يغلب الجوارح ما لم تغلبه الالباب والحكيم من لم يغض عليه طرفه ولم يشغل به قلبه اطلع من ادناه فيما وراءه وذكر في بدئه لواحق شره فأكل مرة وشرب كدرة ليحلولي له ويصفو في طول من اقامة العيش الذي يبقى ويدوم غير عائف للرشد ان لم يلقه برضاه ولم يأته من طريق هواه

لا تألف المستوخم ولا تقم على غير الثقة . قد بلغ فضل الله على الناس من السعة وبلغت نعمته عليهم من السبوغ ما لو ان اخسهم حظاً واقلهم منه نصيباً واضعفهم علماً واعجزهم عملاً واعياهم لساناً بلغ من الشكر له والثناء عليه بما خلص اليه من فضله ووصل اليه من نعمته ما بلغ له منه اعظمهم حظاً واوفرهم نصيباً وافضلهم علماً واقواهم عملاً وابسطهم لساناً لكان عما استوجب الله عليه مقصرا وعن بلوغ غاية الشكر بعيدا ومن اخذ بحظه من شكر الله وحمده ومعرفة نعمه والثناء عليه والتحميد له فقد استوجب بذلك من ادائه الى الله والقربة عنده والوسيلة اليه والمزيد فيما شكره عليه خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة

افضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح ان يستصلح بما اوتي من ذلك ما استطاع من الناس و يرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله وحب حكمته والعمل بطاعته والرجاء لحسن ثوابه في المعاد اليه وان يتبين الذي لهم من الاخذ بذلك والذي عليهم في تركه وان يورث ذلك اهله ومعارفه ليلحقه اجره من بعد الموت

الدين افضل المواهب التي وصلت من الله تعالى الى خلقه واعظمها منفعة واحمدها في كل حكمة فقد بلغ فضل الدين والحكمة ان مدحا على السنة الجهال على جهالتهم بهما وعماهم عنهما

احق الناس بالسلطان اهل الرأفة واحقهم بالتدبير العلماء واحقهم بالعلم أحسنهم تأديباً واحقهم بالغنى اهل الجود واقربهم من الله انفذهم في الحق علماً واكملهم به عملاً واحكمهم ابعدهم من الشك في الله تعالى واصوبهم رجاء اوثقهم بالله واشدهم انتفاعاً بعلمه ابعدهم من الاذى وارضاهم في الناس افشاهم معروفاواقواهم احسنهم معونة واشجعهم اشدهم على الشيطان وافلجهم بالحجة اغلبهم للشهوة والحرص وآخذهم بالرأي اتركهم للهوى واحقهم بالمودة اشدهم لنفسه حياء واجودهم اصوبهم بالعطية موضعاً واطولهم راحة احسنهم للامور احتمالاً واقلهم دهشاً ارحبهم ذرعاً . واوسعهم غنىً اقنعهم بما اوتي . واخفضهم عيشاً ابعدهم من الافراط واظهرهم جمالا اظهرهم حصافة

وآمنهم في الناس اكلهم نابًا ومخلباً
واثبتهم شهادة عليهم انطقهم عنهم
واعدلهم فيهم ادومهم مسالمة لهم
واحقهم بالنعم اشكرهم لما اوتي منها

افضل ما يورث الآباء الابناء الثناء الحسن والادب النافع والاخوان الصالحون

فصل ما بين الدين والرأي ان الدين يسلم بالايمان وان الرأي يثبت بالخصومة فمن جعل

الدين خصومة فقد جعل الدين رأيًا ومن جعل الدين رأيًا فقد صار شارعًا ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له

قد يشتبه الدين والرأي في اماكن لولا تشابهها لم يحتاجا الى الفصل

(للكتاب بقية)

الخاصة والعامة

قال الراغب : الناس ضربان خاص وعام فالخاص من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون التقليدات ومن الاعمال ما يتبلغ به الى جنة المأوى دون ما يقتصر به على الحياة الدنيا والعام اذا اعتبر بأمور الدين فالذين يرضون من المعارف بالتقليدات ومن اكثر الاعمال بما يؤدي الى منفعة دنيوية واذا اعتبر بأمور الدنيا فالخاص ما يختص بأمور البلد مما يخرم من افتقاده احدى السياسات المدنية والعام مالا يخرم بافتقاده شيء منها . وهم من وجه آخر ثلاثة خاصة وعامة واوساط والاوساط هم المسمون في كلام العرب بالسوقة فالخاص هو الذي يسوس ولا يساس والعام هو الذي يساس ولا يسوس والوسط هو الذي يسوسه من فوقه وهو يسوس من دونه . ومن وجه آخر ثلاثة اضرب اصحاب الشهوات وهمهم الجدة واليسار والاكل والشرب والبعال واصحاب الكرامة والرياسة وهمهم المدح واستجلاب الصيت والمحمدة واصحاب الحكمة وكل واحد منهم يستعظم من هو من جنسه . قال بعض الحكماء : ما من انسان الا وفيه خلق من اخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات لكون الانسان مشاركاً لها في الجنسية وان كان مباينًا لها في النوعية فمن الناس غشوم كالاسد وعائث كالذئب وخب كالثعلب وشره كالخنزير وجامع كالنمل ولج كالذباب وبليد كالحمار والوف كطير الوفاء وصنع كالسرفة (١) وآنف كالاسد والنمر وغيور كالديك وهادي كالحمام ومنهم حسن المنظر والمخبر كالاترج ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبلوط ومنهم قبيح المنظر حسن المخبر كالجوز واللوز ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلى والمؤمن الخير هو في الحيوانات كالنحل يأخذ اطايب الاشجار ولا يقطف ثمرًا ولا يكسر شجرًا

---

(١) دويبة تتخذ بيتًا مربعًا من دقاق العيدان تجمعها بمثل غزل العنكبوت وفي المثل: اصنع من سرفة واخف من سرفة

ولا يؤذي بشرًا ثم يعطي الناس ما يكثر نفعه ويحلو طعمه ويطيب ريحه وهو في الاشجار كالاترج يطيب حملاً ونورًا وعودًا وورقًا والمنافق الشرير هو في الحيوانات كالقمل والارضة وفي الاشجار كالكشوث (١) فلا اصل له ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا زهر يفسد الثمار وييبس الاشجار وكالشجرة التي قل ورقها وكثر شوكها وصعب مرتقاها .

هذا ماذكره الاصفهاني في وصف طبقات الناس وما يرجى منهم من المنافع وما يخشى من مضارهم قاله منذ زهاء ثمانمائة سنة ويقال مثله بعد قرون كما يصح اطلاقه على ألوف من السنين من قبل . ويرى الناظر في هذه الحياة الدنيا من سلطان الاوهام الكثيرة تأثيرًا في دفع الناس بعضهم عن بعض ولولا ذلك لاختل النظام او كاد . وكان معظم تأثير الاوهام في خلال القرون الوسطى ايام انتشار الاقطاعات وتسلط الاشراف ورؤساء الديانات في الغرب اما في الشرق — ونريد به البلاد العربية — فان الاوهام كانت تتسلط على الناس بعد الاسلام بحسب حال الحكومات المتغلبة من العقل والجهل والدين والالحاد ولذلك اتت على العامة ادوار كانوا يعتقدون ان الخاصة من طينة غير طينة البشر فهم احق بالتقديس فقدسوهم ورفعوهم فوق اقدارهم ولم تكن نفوس الطبقة العالية من التهذيب بحيث تحسن استعمال هذه الامتيازات التي امتازت بها بل استعملتها ذرائع الى الاستكثار من الثروة من غير حلها وللتبجح بالباطل بما لم يأمر به شرع الهي ولا عقل انساني ولذلك صرت ولا تزال ترى بين الطبقة العليا والدنيا من الفروق ما لا تراه في اكثر الامم اللهم الا الهنود والصينيين فان مسافة الخلف بين طبقات الناس هناك مما يعجب منه ايضًا

انتبه اهل الغرب لسر الاجتماع البشري اكثر منا . والغالب ان سلطة الاشراف اواهل الطبقة العالية بلغت عندهم قبيل نهضتهم مبلغًا لا تطيقه نفس بشرية فكان القيام على نزع تلك السلطة من اول الاصلاح عندهم ثم بقيت الطبقات تتقارب بعضها من بعض والى اليوم لم يبلغ هذا التقارب اشده عندهم ولكنه لو قيس بما بين مختلف الطبقات في شرقنا لعد غاية الارتقاء .

اذا تقارب الخاصة من العامة وعرف كل حقه ولم يتعده تستقيم احوال المجتمع وتقوى دعائمه وتنبث في نفوس ابنائه روح التضامن الحقيقي واذا بقيت كل طبقة مقتصرة على اهل طبقتها يحدث بين الطبقات من سوء التفاهم ما لا يكون منه حضارة ولا غبطة . العامة هم

---

(١) نبت يعلق بالاغصان ولا عرق له في الارض ويسميه الفلاحون في غوطة دمشق بالشخوت اذا سطا على القنب او غيره من المزروعات الصيفية اهلكها وكم اهلك فيها من اموال ولم توجد طريقة لرفع ضرره

سواد كل امة وهم القائمون على الزراعة والصنائع المختلفة والاعمال الصعبة والخاصة افراد قلائل . وقوتهم بافكارهم وعقولهم في الاعم الاغلب من احوالهم . والعاقل ينبغي له ان يحسن الانتفاع من كل شيء في هذا الوجود فما الحال بانتفاعه من مخلوق مثله لو علمه بعض الضروريات لكان عمله له ولغيره اتم واعم .

مضى العهد الذي كان العلم فيه مقصورًا على اهل طبقة خاصة ككهنة قدماء المصريين واشراف اليونانيين والرومانيين ورهبان الاديار والصوامع في القرون الوسطى . مضى ذاك الزمن وما نظن يعود مثله على البشر بعد وقد اخذت حضارة الغرب تنفذ انوارها حتى الى القفار ويستنير بها المتمدن والمتوحش بحسب ما رزق من قوة بصر وبصيرة . طوي ذاك البساط بما عليه جملة ولن يعود الى سالف حاله بعد ان توفر جمهور كبير من علماء الغرب يخطبون العامة في مجالسهم بما لا يعلو عن افكارهم ويعلمونهم في مدارس ليلية اقاموها لتعليم من لم يسعده الحظ بالتعليم وبعد ان انشؤا جرائد لهم خاصة ووضعوا المجلات والكتب ليلقنوهم الافكار الصحيحة والمعارف اللازمة من ايسر الطرق واخصرها وبعد ان فتحوا لهم المعارض والمتاحف ودور التمثيل لتكون منهم مقومات العقول على طرف الثمام وبعد كل ما اقاموه لمنفعتهم من اسباب التعليم يستحيل ان يغالط عامتهم في حقائق الاشياء بعد اليوم وقد غولطوا فيها زمنًا طويلا .

قال سيايل (١) : لا غنية للديمقراطية عن خيرة رجال كما لا يسعها الا ان تقدر الذكاء والعلم والفضيلة حق قدرها . ولا مشاحة في ان الديمقراطية تأتي على الحواجز التي كانت تحول بين الطبقة العالية وجمهور الامة فتدكها من اساسها وذلك لان المجتمع يختار كبار الرجال من جمهور اهل البلاد ممن ينشئون ابدًا بين ظهراني عامة الناس ولا يزالون ينمون ويتجددون بما يصدر اليهم من حوض القوة والنشاط واعني بهذا الحوض العامة . فاذا اعتزل اولئك الرجال واقتصروا على الاجتماع بابناء طبقتهم محتقرين ما عداها فانهم يقضون على انفسهم بالضعف وعلى امرهم بالفشل . ليس الشعب هو الجمهور بل هو الامة وهو الحاكم المتحكم . والفكر لا يكون الا مجردات ونظريات اذا لم يكن له كيان وحقيقة تؤثر في عقول ابناء الامة وارادتهم . وعلى الطبقة الخاصة من الناس وهي في الاصل ممتزجة بجهلاء الامة واهل الوضاعة منهم ان يكون لها اتصال بالشعب وعليها ان تعمل على اقناعه لتنال ثقته تتصل به وتشركه في معرفة الحقيقة السامية التي تخضع لناموسها الارادات مختارة وعلى مجموع من

---

(١) كتاب التربية او الثورة لجبرائيل سيايل يطلب من مكتبة ارمان كولين بباريز
Gabriel Séailles : Éducation ou Rolution , Librairévie Arman Colin paris

يتألف منهم المجتمع الديمقراطي ان يشتركوا بالحياة العقلية لانهم كلهم يشتركون في الحياة الوطنية اه

ولقد وَقَرَ في نفوس خاصتنا زمناً طويلاً بان اجتماعهم بالعامة يعد منقصة وسُبة ولذلك كانوا واكثر من يتطالون الى التشبه بهم من اهل الطبقة الوسطى في العقول يشمئزون من الاختلاط بغير طبقتهم كأن العلم بزعمهم يفسد اذا أُلقي على من ينتفع به او انه تذهب بركته ويزول بهاؤُه ورواؤُه وقد كان هذا الخلق يقوى في الشرق على عهد ضعف الوازعين الديني والسياسي وانحلال التربيتين البيتية والمدرسية ·

وما مجالس الوعظ ايام الحضارة الاسلامية الا من بركة تلك العقول الكبيرة والتربية الراقية فكنت ترى امثال الحسن البصري والفخر الرازي وابن الجوزي ومئات غيرهم في المساجد والمنابر يعظون العامة بعلومهم ما حرموا منه فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم · بدأ ذلك على عهد الخليفة الرابع فكان يأتي بواعظ العامة ويسأله فان رآه متمكناً من العلم بحيث لا يضل الناس بكلامه اذن له بالوعظ والا منعه وما كان جلة العلماء يستنكفون من تفهيم العامة كما كانوا يعلمون الخاصة

وظاهر ان ما كانوا يلقونه على مسامع جمهور الناس من انواع العلوم لم يكن في صعوبته كالذي يلقونه على خواصهم ولذلك قلما كان يتأتى العبث بعقول العامة في القرون الستة الاولى للاسلام فقربوا من الخير والسلامة من اكثر خاصة العصور المتأخرة ممن جعلوا الدين سلماً الى الدنيا وقشور العلم للمباهاة · ومقادير الخاصة والعامة في كل امة نسبية في الغالب فقد يكون رجل من طبقة الخواص فى امة فاذا قيس بغيرها من الامم الراقية لا ننزله الا منزلة العوام ·

قال الاصفهاني : لاشيء اوجب على السلطان من مراعاة المتصدين للرياسة بالعلم فمن الاخلال بها ينتشر الشر وتكثر الاشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر وذلك ان السواس اربعة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم والولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والحكماء وحكمهم على بواطن الخاصة والوعظة وحكمهم على بواطن العامة وصلاح العالم بمراعاة امر هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة وفساده في عكس ذلك ولما تركت مراعاة المتصدي للحكمة والوعظ ترشح قوم للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم لها فاحدثوا بجهلهم بدعاً استغووا بها العامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم ·

فكل قرين الى شكله كأنس الخنافس بالعقرب

وفتحوا بذلك طرقًا منسدة ورفعوا بها ستورًا مسبلة وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوا اليها بالوقاحة وبما فيهم من الشره فبدعوا العلماء وكفروهم اعتصابًا لسلطانهم ومنازعة لمكانهم واغروا بهم اتباعهم حتى وطئوهم باخفافهم واظلافهم فتولد من ذلك البوار والجور العام اه

ولقد بقي من دروس الوعظ او القصاصين كما كانوا يدعون قديمًا اثر ضئيل في بعض البلاد الاسلامية ولكن ضررها يربو على نفعها لان من يتولون امرها في الاكثر قلما يدركون مبلغ اقوالهم وتأثيراتهم ومعظمهم ممن تزببوا قبل ان يتحصرموا فراحوا على قلة علمهم وعملهم يدعون الى الخرافات في الاغلب يستسهلون الكلام في الزهد في الدنيا وذكر فضائل الايام والمواسم واكثر خطب الجمع من هذا القبيل او هي ادهى وامر . اما الخاصة الحقيقيون في الامة فقد اضطرتهم الفوضى في العلم والنظام الى ان يقبعوا في بيوتهم ويكونوا احلاسها واقتصروا اليوم من تعليم العامة على من يلوذون بهم من اهلهم واصحابهم وجيرانهم والعشرة تعدي جرائيها .

القيام على تعليم العامة عندنا ليس بالامر الحديث كما هو في الغرب ولكن اصوله بليت بين اظهرنا ونمت اي نمو عندهم شأن الأمم الراقية والنازلة هذه يمسخ فيها كل شيء حتى جمال وجوه اهلها وتلك يرتقي فيها كل شيء حتى موبقاتها وشرورها . ولا نقصد بتعليم العامة ان نعلم ما يصدهم عما هم بسبيله من امور المعاش ولكننا نقصد ان يعلموا كعامة ابناء اليابان القواعد الاساسية القليلة ليستحيل بعدها التلاعب باهوائهم ويكونوا عونًا للخاصة في كل عمل نافع لا عثرة في سبيل كل مشروع ينهضون بلا سبب معقول ويسكنون كذلك .

نريد ان يعلم العامة القراءة والكتابة البسيطة ومبادىء التاريخ والجغرافيا والحساب والاقتصاد والصحة وتدبير المنزل وشيئًا من آداب الدين التي لا تعلو عن افهامهم وعندها يشاركون الخاصة في الفهم ان لم يكن في معظم مسائل الوجود ففي بعضها وهناك من الفائدة للخاصة ما لا ينكره عاقل ويكفي انهم لا يعدون غرباء كأنهم من عالم آخر اذا نزلوا بين قوم في الارياف والقرى والدساكر اذ يجدون فيها من يزيل عنهم موجبات الوحشة ويقدرهم قدرهم في الجملة . هذه الطبقة من العامة اذا كثرت في الشرق العربي مثلاً تكون حاله احسن مما هي عليه بما لا يقاس ويقل تبرم المتعلمين المنورين من عشرة الاميين العاميين ولا سيما في المدن الصغرى حيث لا عقل يفكر الا في الامور البسيطة من المعاش وقل من يشارك في الشؤون العامة .

قال الجاحظ تقول العرب: لولا الوئام لهلك الانام وقال بعضهم في تأويل ذلك لولا ان بعض الناس اذا رأى صاحبه قد صنع خيرًا فتشبه به لهلك الناس وقال الآخرون انما ذهب الى انس

بعض الناس ببعض كأنه قال انما يتعايشون على مقادير الانس الذي بينهم ولو عمتهم الوحشة عمتهم الهلكة ·

واذا لم يتيسر لبلادنا الآن ان تؤسس لها مجامع ومدارس لهذا الضرب من التعليم فما احرى كل من رُزق علماً خرج به عن العامية ان يجمع حوله طائفة من اهله وجيرانه يرشدهم ويلقنهم بحسب ما يعرف ويصحح لهم افكارهم القاء ويعلمهم مالم يسعدهم الحظ بتعلمه في كتاب. ولا اعلم في بلادنا احداً يهتم لتعليم العامة وتصحيح الافكار مثل الشيخ طاهر الجزائري على اتساع مادته في العلوم المختلفة اتساعاً لم اره في عالم عربي وقد انتبه بعض علماء فارس لهذه النكتة فاخذوا ولا سيما في العهد الاخير يخدمون العامة بما ينفعهم ويطبقون لهم المدنية على حسب عقولهم وهم هناك بضعة عشر رجلاً ورأسهم المجتهد السيد جمال الدين فقد قرأت له خطباً في هذا الموضوع لا تقل في جودتها عن خطب ارنست لافيس وجبرائيل سيايل وغيرهما من فلاسفه فرنسا المعاصرين ممن لا يرون حطة في اقدارهم ان يتنزلوا لتعليم العامة لاعتبارهم اياهم عمد اخبية المجتمع وقواعد بنيان بني الانسان ·

ان يوماً نرى فيه هذه البلاد مملوءة بخزائن كتب يختلف اليها العامة فيتناولون فيها ما شاؤا من المطبوعات والاسفار البسيطة النافعة ومدارس ليلية ونهارية ابتدائية لتعليم الكبار والصغار والبنات والصبيان ومعارض ومتاحف في كل مديرية او متصرفية او عمالة لهو يوم سعيد يسوغ بعدها لامتنا ان تدعي انها راقية تستحق استقلالها في سياستها اذ حررت العقول من ظلمتها ·

الرياضة المعقولة

قلّ استعمال الالعاب الرياضية في هذه البلاد لان الفقير لا يقدر فوائدها قدرها ويروض جسمه من حيث لا يشعر باعماله اليدوية وحركاته اليومية اما الغني فيرى في الاكثر ان اللعب لترويض الجسم منقصة وسُبة لا ينطبق مع الوقار والرزانة · ولما كان اجدادنا ينصرفون الى الالعاب المختلفة آونات فراغهم كانت اجسامهم اصح وامراضهم اقلّ. دام ذلك الى عهد قريب وضعفت الالعاب الرياضية بيننا بضعف العلوم ويدلك على عناية قومنا بالرياضة قديماً انهم افردوها بالتأليف وعددوا ضروبها واساليبها.

ولقد كان صلاح الدين الايوبي ونور الدين زنكي اذا استراحا قليلاً من جهاد

الصليبيين يصرفون شطرًا من اوقاتهما في ركوب الجياد والسباق في سهل اللوان بظاهر دمشق ولا يريان بذلك نكيرًا. ولما انكر احد علماء ذاك العصر على احدهما ما يأتيه من هذه المسليات المضيعة للاوقات قال له : انا نستعين بها على تقوية اجسامنا لئلا تضعف عن النزال ومقارعة الابطال . ولم يزل في بعض بلاد الشام اثر من آثار هذه الالعاب بين ابناء الطبقة المتوسطة والدنيا ومن اهمها ركوب الجياد للسباق والركض والوثب والسباحة ولعب العصا والصراع كما ترى منها بعض الشيء في هذا القطر .

بيد ان الغربيين سبقونا اشواطًا الى كل محمدة ومن جملة ما يمتاز به خاصتهم وعامتهم عن خاصتنا وعامتنا الالعاب الرياضية يأتونها كأنها من الضروريات كالاكل والشرب والنوم. حتى قال بعضهم ان على نسبة ارتقاء الالعاب الرياضية في امة تقوى اجسامها وتطول اعمارها وتصح عقولها والعقل السليم في الجسم السليم. ادركوا ان غاية الحركات الطبيعية بث القوة في عامة الجسم لا جعلها قاصرة على بعض الاعضاء فانبساط القلب المفرط ينشأ من الافراط في انهاك احد الاعصاب بالعمل وافناء قوى بعض الحواس . فترى الجبار ممن اعتاد رفع الاثقال قويَّ العضلات ولكنه ضعيف الساقين اذا أُريد على الجري انقطع نفسه وخانته رجلاه ولئن كانت اعضاؤه متينة فآلته التنفسية سيئة السير ولا يعالج هذا النقص الا بتمرينات منظمة حتى ان المصارع نفسه ليحتاج الى الرشاقة في حركاته اذا عرض له اتوموبيل في سكته او حريق في داره ليتأتى له ان يقفز ويصعد الدرج ويزحل على الحبل . اما عامة الناس فهم كلما استحكمت قوتهم وزادت خفة اجسامهم يستعدون لتسلق الجبال وحمل الاحمال والقفز والسباق . وهذا الميل الى كل ضرب من ضروب الرياضة وان أُريد به التسلي فهو من الضروريات لقوام البنية حتى يكون من الناس كما يقول الفيلسوف هربرت سبنسر « حيوانات صالحة » اي اناس لهم من تراكيبهم الطبيعية ومن اعصابهم وحواسهم الباطنية ما يؤهلهم للقيام بما في طاقتهم بدون ان ينقص عضو من عضو شيئًا او يقوى عصب بضعف اخيه . ولذلك كثرت اساليب الرياضة وكلها تدور على قوانين طبيعية مبنية على علم التشريح والحياة والميكانيك . وممن قام يدعو الى طريقته في الرياضة رجل من اهل السويد اسمه لنج نظر في الطرق المتبعة في التريض تخالف المتبع منها في التربية الطبيعية التي من شأنها اعداد اناس منبسطة قلوبهم فاستعاض عما كان اهل الرياضات يستعملونه من قبل بالتجارب من الالعاب باساليب له معقولة معتقدًا ان احسن رياضة لتحسين الجنس الانساني في مجموعه لتقليل اسباب الضعف ولتقوية الابدان تقوية تامة . تعلم هذا الرجل التعليم العالي وانصرف الى اللاهوت والادب لاول امره فصنف فيهما وألَّف فشغله ما هو

فيه من الاشغال العقلية عن النظر في الالعاب الرياضية الى ان التقى بمهاجرين فرنسويين في كوبنهاغ اوائل القرن الماضي فعلماء المسايفة « لعب السيف والترس » فمهر فيها حتى عين معلماً لحمل السلاح في كلية لوند وكان حاد الفكر والتصور صعب المراس لا يقف في امر يتعاطاه عند حد التوسط فاهتدى بذكائه الى ان وراء المسايفة واحسان الكر والفر مقصداً اسمى فاخذ نفسه بدرس منافع هذا الفن ونظر في التشريح وعلم النفس وتوغل في التاريخ فرأى ان السكندينافيين كانوا يستعملون الرياضة واليونان من قبلهم كذلك . وتبين له ان ما هو ماثل في مصانع اليونان وتماثيلهم من جمال الوجوه وتناسب الاعضاء وصحة الجسوم انما كان بفضل الرياضات التي يرتاضونها وثبت له ان تحسين النسل وجماله وجودة الصحة الطبيعية والاخلاقية تنشأ من استعمال الرياضة المعقولة ·

قام هذا الخاطر في ذهنه ولم يرتج وجدانه الا عند ما تقدم الى حكومة السويد ان تمنحه شيئاً من المال يستعين به على نشر طريقته فردته رداً غير جميل وعدته مخرقاً اخرق فسخط من ذلك وهو غضوب عبوس الا انه لم ييأس · وكان نجاحه في ثباته على المطالبة · فصدر الامر الملوكي سنة ١٨١٣ بانشاء مجمع علمي للالعاب الرياضية في استوكهلم عهد اليه ادارته ووفق الى تحقيق الافكار التي كانت تخالج صدره وان كانت تلك الافكار مشوشة مرتبكة لاول امرها الا ان العمل يجليها والبحث يهذب اصولها وفروعها وساعده على نياته ما تم للعلم من الاكتشافات الحديثة وزيادة انتشار فن الطب ومعرفة ما بين اعضاء الجسم من الصلات ·

اما طريقته فهي في الحقيقة مجموع اعمال صحية غايتها تقوية الاعصاب وان يقاوم المرء المؤثرات المضرة ويستعد لدفع الاخطار التي تحيق به · وبفضل الجهاد الذي جاهده نجح في اعماله زاد في مدة نصف قرن معدل قامات الجنود في تلك البلاد ثلاثة سانتيمات وطالت الاعمار فصار معدل الزيادة تسع سنين عن ذي قبل · ولما ثبت ذلك بالبرهان والاحصاء ارادت بعض دول الغرب ان تجري على طريقة السويديين فادخلت طريقة لنج الى المدارس الجامعة وثكن · الجند ولكن العنصر اللاتيني لم يفلح كثيراً في الجري على تلك الخطة لان اهل شمالي اوروبا ارقى منه في معنى التوفر على الواجب والمبالغة في الخضوع لضروب السخرة المملة فلا يتبرمون من تكرار حركات واحدة وحضور جلسات طويلة على نمط واحد كما يتبرم اهل العنصر اللاتيني ·

وبعد فان من فوائد السباق وفضائله في التربية انه يضطر صاحبه الى تعلم النظام ويعده للقيام بالفروض الجندية ولذلك ترى الجدافين في القوارب وهم مضطرون الى تطبيق

حركاتهم بعضهم على بعض وان يسيروا بنظام تام يأتون في ذلك مثالاً من امثلة النظام والتكافل وكذلك الحال في لاعبي الكرة بخضوعهم لامر زعيمهم . هذه الالعاب احسن مدرسة للشبان كل يوم لانها لا تبقي عضلة الا وتحرك في خلالها وتثير الحركات التنفسية مع رفع الاعضاء و بذلك يقوى الصدر وتكبر رقعته وتحسن ضربات القلب وتتصلب الاعصاب وتمرن المفاصل .

ولكن هذه الطريقة في الالعاب على ماهي عليه من النفع بحيث جرى العمل بها في الثكن والمدارس يصعب ان يجري عليها من يتعلمونها بعدُ لان الثكنة او المدرسة اذا خصصت للجندي والتلميذ ساعة كل يوم للرياضة فمن الصعب على من يدخل في مدرسة هذا العالم ان يصرف هذا القدر من وقته كل يوم . بيد أن القوم اخترعوا صوراً من الالعاب لا يحتاج معها المرء الى شيء من الادوات ولا تأخذ له من الوقت اكثر من عشر الى خمس عشرة دقيقة .

وقد كثر تحدث الناس في اسكاندينافيا مهد طريقة لنج بطريقة اخترعها مولر الدانيمركي وما وفق الى اتقانه في كل فرع من فروع الالعاب وهذا الرجل يحسن تعاطي المجداف والسباحة والتزحلق Patinage والصراع والمشي وحمل الاثقال والقفز والملاكمة والسير السريع وقد نال من ذلك ١٢٣ جائزة حتى قال فيه احد المصوّرين : انك ياهذا اجمل مخلوق رأيته في حياتي . بل انه كتب مؤخراً انه سيزيد نفسه جمالاً ورقة مع انه الآن في الاربعين من سنه . وتاريخ هذا الرجل غريب في بابه وذلك ان اباه كان مختل الصحة مبتلىً بعدة امراض وهو كان في صغره كثير الامراض ايضاً وقد قال عن نفسه :اني لما ولدتني امي لم يكن وزني اكثر من ثلاث لبرات ونصف بحيث كانت علبة لفائف تسعني وفي السنة الثانية أُصبت بزحير كدت اهلك عقيبه كما أُصبت في تلك السن بجميع امراض الاطفال . ولما دخلت المدرسة اصبحت امرض كل سنة مرتين او ثلاثاً بالحمى والبرداء والاسهال وغيرها فانت ترى ان ما لي من الصحة والقوّة الآن لم ارثهما واني لم اكن من اهل العافية والسلامة في طفوليتي

ففي سنة ١٨٧٤ « وكان عمره اذ ذاك ثماني سنين » وقعت اليه كتب بالالعاب الرياضية مترجمة من الانكليزية والالمانية ولما قرأها ربت فيه ذوق التمرينات الطبيعية واخذ يتمحض لها وترك دروس اللاهوت التي كان اخذ بدراستها لاول امره وتعلم الهندسة العسكرية ثم صار مهندساً ملكياً وبعد ان قضى عشر سنين في هذه الصناعة عين مديراً لمصح في جوتلاند « شبه جزيرة دانيمركية » وهناك نشر كتاباً في الالعاب الرياضية سماه

« طريقتي » انتشر انتشاراً غريباً فطبع منه من ٣ اغسطس سنة ١٩٠٤ الى شهر مايو من السنة التالية ثلاثون الف نسخة هذا وسكان الدانيمرك نحو مليونين ونصف فقط . وترجم الى الالمانية فطبع منه ٧٠ الفاً والى الانكليزية فطبع منه ٢٥ الفاً والى السويدية ٢٠ الفاً والى الافرنسية ١١ الفاً . ولئن كان لنشر هذا الكتاب يد في التفنن بالاعلان عنه فان سهولة طريقته كانت اعظم سبب لانتشاره اذ ليس فيها قيود ولا تعقيد بل ان الربع الساعة يقضيها المرتاض في غسل جسمه كله ومحن جلده (دعكه)وتمغيز بدنه تكفي فيمحن جسمه وهو يستلقي على قفاه و يتلوى و يتوتر و ينثني بحيث لا ينتهي من اغتساله الا وقد تحركت جميع اعضائه واعصابه و يكون قد نظف جسمه وبشرته .

وهذه الطريقة نافعة اكثر من غيرها من الالعاب الرياضية لانها تجعل تنبيم البشرة وغسلها من الاعمال الرئيسة وتلين اعصاب البطن وتجعل لتنفيس الجلد شأناً عظيماً . وقد كتب موللر اني ضحكت من اناس من ارباب المسابقات والصراع يغتبطون بان اجسامهم لا ترشح عرقاً عند ما يتعاطون اعمالهم مع اني موقن بان مسام اجسامهم مسخة بالادران والادهان البشرية وصفرة وجوههم وا كمداد الوانهم اكبر دليل على سوء صحتهم . وقد علق موللر على ترويض البطن شأناً كبيراً في تحسين الهضم والعون على انتظام وظائف الاحشاء وتحسين حالة الكلى والكبد .

وسواء شاعت طريقة لنج او طريقة موللر او طريقة الجيوجيتسو «١» اليابانية في الالعاب

«١» الجيوجيتسو رياضة يابانية من فوائدها التغلب على القوة الوحشية. جاء في مجلة الطبيعة انها شاعت في بلاد اليابان منذ الفي سنة وما برحوا يعلمونها في كلياتهم وفي معسكراتهم بل وفي كل مكان يختلف اليه الشبان وهي عندهم الرياضة المحبوبة كما تجد عند الاوروبيين الصراع والملاكمة والمسايفة . فالجيوجيتسو او الجيوجيتس كما يلفظها اليابان هي علم باصول يعرف بها الانسان ان يدفع عن نفسه القوة الوحشية ويتغلب عليها بمعرفة علم بنية الابدان الذي يمكنه من ايلام خصمه الماً شديداً من دون عناء كبير وذلك باللين والرشاقة. وللنظر في موقع الخصم دخل كبير في التغلب عليه .

ولقد ألف في جندلة الخصم بدون سلاح وهي رياضة الجيوجيتسو رسائل كثيرة كما ألفت كتب في لعب الخيل ومطاردة الصيد وقنص الاسماك ولعب السيف واطلاق الرصاص والسهام والالعاب الرياضية ولكن رأى فريق من العلماء في فرنسا ان لا يقتصروا في علم هذا اللعب على النظريات فانتدبوا احدهم الى يابان ليتعلم الجيوجيتسو بالعمل ففعل وعاد فاسس في باريز مدرسة لتعليمها

الرياضية فان ما يهم في هذا الباب انتشار الرياضة البدنية بين جميع الطبقات لا ان تبقى محصورة في طبقة خاصة فيجب ان يتعلم الطفل اعتياد العناية بجسمه وغسله وتقويته ومحنه وان يواظب على ذلك مادام حيًّا . ومن اجل هذا تجد الحكومات الاوروبية تنشط جمعيات الالعاب الرياضية .وقد كتب وزير حربية فرنسا الى جمعية اتحاد الالعاب الرياضية في العهد الاخير يقول : يجب ان لا تبقى بعد الآن غير طريقة واحدة في التعليم الطبيعي تستعمل في الثلاثة ادوار من ادوار التربية الوطنية وهي المدرسة والمجتمع والجندية وهذه الطريقة هي كبر الصدر وسلامة الرئتين والقلب وتقوية الساقين . طريقة تحسن جسم المرء ادبيًّا وصحيًّا وتعده كأحسن الناس للحياة والعمل والقتال اذا اقتضت الحال .

رب اسرائيل في جزيرة أسوان

جزيرة أسوان Eléphantine هي اول الجزر العظيمة الواقعة في مصب الشلال وتدعى ايضًا الجزيرة وكانت قديمًا مأهولة بجماعة من النوبيين وهي عبارة عن قريتين تابعتين لاسوان وتعد عاصمة تخونت « التخوم » ومدينة « ابو » او « كوبهو » العظمى قال لاروس في معجمه الاوسط : وكان امراؤها نحو اواخر السلالة الخامسة او السادسة يغزون الصحاري المجاورة او شواطئ البحر الاحمر او يتجرون معها وكانت ملوك السلائل المنفية تنزلها عند ما تريد الاشراف على احوال التخوم واستعمر سكان هذه الجزيرة بلاد النوبة الشمالية بين السلالة السادسة والحادية عشرة . ولقد ضعفت مكانتها عند ما توسعت في التخوم نحو الجنوب على عهد ملوك الثيبيين واصبحت مدينة يرحل اليها للتجارة والزيارة ولما جاء المصريون الى جوار الشلال عند ما انفصلت الحبشة عنهم في الدولة الثانية عشرة استعادت مركزها الحربي الا ان ارتقاء أسوان Syène المعدودة من جملة احيائها على الحدود بين الحبشه ومصر على عهد الدولة الفارسية ثم على عهد الدولة اليونانية قد اضر ضررًا بليغًا بحالتها كما سقطت على عهد الرومان ولم تكن على عهد الفتح البيزنطي والعربي غير انقاض وقد بقي من المعبد الكبير قطعة من بابه انشأها توتموسيس الثاني وجددت على عهد الاسكندر الثاني ولا يرى من عادياتها الا صخور مشتتة بين خرائب المدينة او مسدودة بالرصيف القديم ومقياس النيل الذي جدد على عهد القياصرة وعني بأمره احد علماء الفلك من العرب محمود باشا الفلكي سنة ١٨٧٠ وقال بوليه في معجمه التاريخي والجغرافي انه كان في جزيرة أسوان قديمًا معبدان

جميلان يرد عهدهما الى زمن اماناهو بتو الثالث وقد خربا حوالى سنة ١٨١٨ لتبنى بانقاضهما ثكن في أُسوان ·

وقال ياقوت في معجم البلدان وأُسوان بالضم ثم السكون وواو والف ووجدته بخط ابي سعيد السكري سُوان بغير الهمزة وهي مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر واول بلاد النوبة على النيل في شرقيه وهي في الاقليم الثاني طولها سبع وخمسون درجة وعرضها اثنان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة وفي جبالها مقطع العمد التي بالاسكندرية · قال ابو بكر الهروي و باسوان الجنادل و رأيت بها آثار مقاطع العمد في جبل أُسوان وهي حجارة مانعة ورأيت هناك عموداً قريباً من قرية يقال لها بلاق او براق يسمونها الصقالة وهو مانع مجزع بحمرة ورأسه قد غطاه الرمل فذرعتُ ما ظهر منه فكان خمسة وعشرين ذراعاً وهو مربع كل وجه منه سبعة اذرع وفي النيل هناك موضع ضيق ذُكر انهم ارادوا ان يعملوا جسراً على ذلك الموضع · وذكر آخرون انه اخو عمود السواري الذي بالاسكندرية · واشار ياقوت الى ما بأُسوان من التمور المختلفة وانواع الارطاب وقد ذكرها البحتري في مدحه خمارويه ابن طولون بقوله :

هل يُبلقيني الى رباع ابي الجيـ ـش حِظارُ التغوير او غوره
وبين أُسوان والعرا ق زها رعية ما يغبها نظره

ونسب الى أُسوان قوم من العلماء · وقال المقريزي في الخطط ما يقرب من هذا القول في أُسوان وبتطويل اكثر · هذه هي أُسوان وقد قرأنا في جريدة الطان للمسيو كلرمون كانو من اعظم علماء الآثار الشرقية في الغرب فصلاً وصف فيه ما عثر عليه من آثار تلك الجزيرة الازلية فرأينا تعريبه مع مراعاة الاصل قال : ان مجموع الاكتشافات الحديثة التي ظفرنا بها في هذه الجزيرة قد وقعت بين العلماء اعظم موقع وهي تهم تاريخ التوراة في الغاية · هذه الاكتشافات اليهودية لم يعثر عليها في طور سيناء مهد اليهودية ولا في القدس مقرها بل عثر عليها فيما وراء ذلك من البلاد على تخوم مصر والنوبة على بضع دقائق من دائرة الانقلاب في جزيرة للشلال الاول على النيل في مكان لم يكن يتوقع ان يرى فيه رب اسرائيل « يهوه » Jehovah بعيداً الى هذا الحد ويرد عهده الى خمسة قرون قبل المسيح · وقد قام يقول لنا بلسان من يتعبدون به ممن رافقوه الى تلك البلاد من ابناء اسرائيل اموراً جديدة ربما تغير بها تفسير الكتاب المقدس وبذلك صح لنا ان نقول ان النور جاءنا من الجنوب اليوم ولم يكن ينتظر ان يجيئنا بعد منه شيء ·

ومعلوم ان بلاد الفراعنة ما زالت قديماً وحديثاً مخصبة بضروب الاكتشافات الاثرية

فهي البلاد التي ازهر فيها ورق البردي فكانت ميدانًا مباركاً لعلم الآثار اتانا ولم يبرح يأتينا بكتابات قديمة خطت على هذه المدارج الرقيقة من ضروب الكتابات المصرية واليونانية واللاتينية والقبطية والعربية وغيرها فكان لنا منها كنوز ادبية حقيقية في صورة اوراق من البردي ولنامنها كل يوم قطعة جديدة ومادة ندهش بها ونسر . فبالامس اكتشفت قطع من روايات مياندر الشاعر الهزلي ففرح بها اهل الادب . وقبلها بقليل كان اكتشاف آثار للمسيح تصل بنا الى اصول النصرانية وما يدرينا ماذا خبأته لنا مصر غدًا من الآثار ولعل اكتشاف اليوم سيكون توراة اقدم من التوراة المعهودة وان ما اكتشف حتى الآن ليدعو الى الامل في ذلك .

ولكي نمثل للانظار طبيعة الصكوك اليهودية وخطارتها التي ظهرت للوجود في أسوان نقفي الحال بان نرجع قليلاً الى البحث في المسألة من اصلها . فقد كانت مصر عجيبة بما اكتشف فيها من اوراق البردي التي كتبت عليها لهجات اجناس من البشر مختلفة كثيرة ممن تعاقبوا احتلالها فيما سلف الا انها ضنت الى اليوم كل الضنانة باخراج كتابات باللغات السامية القديمة اللهم الا بضعة عشر قطعة من البردي كتبت بحروف آرامية عثر عليها منذ نحو ثلاثين سنة . ولئن اختلفت آراء علماء المشرقيات في امر هذه الكتابات لصعوبة حلها فالرأي المجمع عليه يكاد يكون متفقًا على امر واحد وهو ان تلك الاوراق هي من عهد البطالسة اليونان كما هو الحال في بعض المنقوشات على الخزف والمزبورات على الحجر المخطوطة بلغة وحرف مشابه لها مما عثر عليه حتى الآن في مصر .

واذ سنح لي الزمن منذ سنين بالتوفر على البحث في هذا الموضوع تبين لي حل آخر يخالف رأي غيري واستندت على امور مختلفة استنتجت منها بان جميع هذه الصكوك الآرامية يجب الرجوع بها الى اقدم مما قدر لها من العمر اي الى عهد الفرس الحخمانيين وعهد دارا وكسركس وارتا كسركس .

واذ صح ان الامر كذلك فيكون منها اثر تاريخي نادر لانها لم تقف عند ابدال شيء من التاريخ بل يكون منها تغيير تام في المحيط السياسي والديني . تبين لي هذا الرأي المخالف للآراء كلها من تأويل احدى قطع تلك الاوراق من البردي المكتوبة بالآرامية المعروفة ببردي تورين فقد قرأت فيها رأس محضر رسمي أرسل الى احد المرازبة في مصر وعليه اسم ميتراوهيشت Mithrawahicht وهو اسم آرامي لا محالة ورأيت تناسبًا في التعبير المستعمل بين هذ المعروض وبين الذي ارسله الى الملك ارتا كسركس حاكم بلاد السامرة بشأن منع اعادة بناء معبد القدس الذي شرع فيه اليهود ثم تم على يد نحيميا وهو المعروض الذي

حفظ بنصه الآرامي في كتاب استرادس المتعلق بالتوراة . وظاهر ان هذا الاستنتاج التاريخي يتناول مجموع النصوص الاخرى الماثلة لها التي صدرت من تلك البلاد ولم تلبث ان تحقق امرها بما تهيأ لها من الاكتشافات المتعاقبة في مصر وغير ذلك من الكتابات والرقوق الآرامية التي كتب عليها التاريخ بحروف جلية من عهد كسركس ودارا وارتا كسركس فثبت ما قلناه بالبرهان .

ومن جملة اوراق البردي المكتشفة مؤخراً ورقة ذكرت فيها بعض الحوادث التي حدثت سنة اربع عشرة لعهد الملك دارا الثاني الموافقة لسنة ٤١١ قبل التاريخ المسيحي . وقد غلط المسيو اوتنج احد علماء الالمان الذي عهد اليه نشر هذه الاوراق في قراءة عدة فقرات منها واذ اخذت انظر فيها بعده تبين لي انها عبارة عن شكوى عامة او معروض عام ارسله الى المرزبان في مصر جماعة من غير المصريين وربما كانوا من اليهود لاقامة الحجة على اعتداء مدرسة الكهنة المصريين وعبثهم بقبر الرب خنوم في جزيرة أسوان وبذلك عرفت هذه الجزيرة بانها مركز ساني آرامي جليلة القدر جداً من العهد الفارسي لا سيما وقد اسعد الحظ باكتشاف صكوك مماثلة لها . وقد اردت الحكومة اذ ذاك على المبادرة في الحفر والبحث في تلك الارجاء التي هي كالمعدن المملوء بالخيرات ولكني كنت كمن يعظ في قفر او يصرخ في واد . وما جاء ربيع سنة ١٩٠٤ حتى تبين اني لم اكن ضالاً فيما دعيت اليه فعثر بالعرض بعض الوطنيين ممن كانوا يحفرون في خرائب أسوان في تربة نشادرية يسمونها سباخاً ويستعملونها في تسميد الزرع على نحو عشر قطع من اوراق البردي مطوية مختومة فابتاعها في الحال المسيو موند واللادي وليام سيسيل وكانا اذ ذاك في مصر وبعد مدة نشرها المستر كولي من كلية اكسفورد . وكان فيها نصوص سالمة عظيمة بحروف آرامية لطيفة تشبه القطع المعروفة حتى الآن من كل وجه وكلها بلا شك من صنع اليهود النازلين في جزيرة أسوان ومدينة أسوان الواقعة على الشاطيء الشرقي للنيل امام الجزيرة . لاجرم ان هذا الحادث مهم في ذاته ولكنه ليس مما يدهشنا لاننا نعرف بان اليهود في سفر الخروج تركوا لغتهم العبرانية القديمة الوطنية وتعلموا اللغة الآرامية وكتابتها وكانت هذه اللغة شائعة في مديريات المملكة الفارسية . كما ترك اليهود اموراً كثيرة اخرى ليس هذا محل ذكرها .

هذه الخطوط المكتوبة على البردي هي حجج حقيقية مسجلة غريبة للغاية يرد عهدها بالتدقيق الى كسركس وارتا كسركس ودارا بالسنين والشهور والايام مع بيان موافقة حساب السنين الآرامية والمصرية وهي مرتبة على ستين سنة مضت بين سنة ٤٧٠ الى ٤١٠ قبل المسيح وقد دونت بطلب الاحزاب بمعرفة احبار من اليهود ووقع عليها توقيعات

جمة لتصديق عليها بشهادة كثيرين وهي تدور على مسائل كثيرة من التعامل كالبيوع والشراء والهبة في العقارات والاراضي ومسائل الاسواق والاحكام وحل الاختلافات امام المحاكم او على طريقة ودية وعقود زواج ونظر في مسائل الطلاق مع خلاصتها الشرعية سواء كان للمتزوجين او لاولادهما ووصف من ادق ما يكون وافيده لجهاز المتزوجين وتقدير اثمانه قطعة قطعة والمواريث وقسمة العبيد المنتقلين بالارث الى غير ذلك.

وبعد فان مجموع هذه المستندات المنقطعة القرين التي ظهرت سالمة من بعض دفاتر بعض البيوت قد اتتنا بجملة من الفوائد هي غاية في مكانتها وذلك لانها دلتنا على وجود شعب عظيم من الاسرائيليين في أسوان قبل المسيح بخمسة قرون وعرفتنا بلغته وكتابته واخلاقه واوضاعه ومعتقداته وصلاته مع الحكومة الفارسية والشعب المصري وغير ذلك. ومن جملة المسائل التي تحل بواسطة هذه الاوراق او توضع موضع البحث مسألة دونها كل المسائل الا وهي التي لها علاقة برب اسرائيل وما له في تلك البلاد من الشأن . فقد رأينا اسمه مذكوراً فيها عدة مرات بدون حرج كما صار ذكره بعد. فكان القوم هناك يقسمون برب اسرائيل كما يقسم بالارباب المصرية (كانت ساتي ربة جزيرة أسوان) عند ما يراد القسم ثم انهم لم يبالوا بالحظر التقليدي عليهم وانشئوا في ذاك الرجا البعيد معبداً لعبادة رب اسرائيل غير مبالين ان ينافس معبد القدس وليس المعبد الذي اقاموه عبارة عن كنيس بسيط او مصلى صغير بل هو معبد حقيقي مستوفٍ للشروط وفيه مذبح تراق فيه دماء الضحايا ويصعد منه دخان البخور كأن اليهود اذ ذاك في هاتيك الجزيرة هم في عهد عزهم واسعد ايامهم كما كانوا في صهيون .

اصغت الحكومة الفرنسوية لطلبي وارسلت بعثة علمية تحت رئاستي الى أسوان في السنة الماضية للبحث عن حارة اليهود فيها او لتحديد موقع معبد رب اسرائيل ان امكن وكانت هذه المسألة من اعقد المسائل لان معرفة موقع المعبد كانت معلقة على معرفة ما اذا كان موجوداً في مدينة أسوان المنفصلة عن الجزيرة بذراع من النيل او على العكس كما كنت اظنه في الجزيرة نفسها . وانا اقطع منذ الآن ان المسألة مبتوتة في هذا الشأن .

ولقد دامت الحفريات اربعة اشهر يعاونني فيها اخلص تلاميذي واقدمهم المسيو كليدا فقاسينا في عملنا عرق القربة وكانت اعمالنا لاول عهدها تدعو الى اليأس ولا سيما فيما يتعلق بغايتي الخاصة . وذلك انا لما وصلنا الى الجزيرة رأينا بعثة المانية قد سبقتنا اليها منذ مدة فاختارت دوننا بطبيعة الحال الموقع الحسن لاجراء الحفر واختارت اقدم بقعة يرجى ان يكون فيها خير كثير ويسهل على المعاول ان تحفر فيها .

فاكتفينا بما اغفلته تلك البعثة من الاراضي واخذنا نجيل فيها قداح انظارنا ونضرب فيها معاول عمالنا ولم يأتنا الحفر مدة شهرين بغير بعض الآثار المصرية واليونانية ولكنها كانت بكثرة ونادرة بنوعها ومنها عدة مسلات فرعونية وتمثالان جيلان لتوتمس الثالث مصنوعة من حجر الكرانيت الاسود ولا سيما قبر الرب خنوم اوشنوب اكبر ارباب أسوان وهو الذي لم يكن على اتفاق مع اليهود الذين وقعوا على الشكوى المذكورة آنفاً . وعثرنا على قاعة تحت الارض لم تمس باذى تحتوي على نواويس من الكرانيت والحجر الرملي جعلت عليها اغطية مذهبة وجملت باجمل زينة من الصور والنقوش وهناك خمسة عشر كبشاً محنطة مقدمة للثور ابيس على نحو ما اكتشف مثالاً من ذلك قديماً ماريت الفرنسوي في مدينة منفيس .

كل هذا حسن ونافع في ذاته ولكنه لم يقف دونه غرضي . لاني لم اتحمل مشقة السفر الى أسوان للبحث عن العاديات المصرية بل للبحث عن الآثار اليهودية . وبعد ان كدنا نصل الى أخريات وقت بعثتنا عثرنا بعد الجهد الجهيد على حارة اليهود الآرامية وظفرنا بكمية من النقوش المزبورة على الفخار مغشاة بكتابات آرامية يهودية . وقد كتب معظمها من وجهين . وهذه الكتابات النادرة على كثرة الخرق فيها قد اطلعتنا على جزء من المراسلات الودية اليومية التي جرت بين يهود جزيرة أسوان واخوانهم يهود مدينة أسوان وقد كتبت في زمن واحد هي واوراق البردي الآنف بيانها وبخط واحد ولغة واحدة حتى ان في جملة الموقعين عليها نفس الاشخاص الذين عرفناهم بتلك الاوراق البردية . وذكر فيها اسم رب اسرائيل بصورة من الاملاء خاصة لم تكن تعهد . ولا شك انه متى تمت قراءة هذه الآثار الفخارية نطلع على امور جديرة بالنظر وكبيرة الخطر والقيمة .

وقد كان داهمنا الحر بخيله ورجله فاوقفت العمل في شهر ابريل وسنعاوده بعد اسابيع بفضل ما جاد به المجمع العلمي ووزارة المعارف من المال وما مد به يده من المساعدة رصيفي المسيو ادمون روتشلد واني على ثقة من اننا نوفق هذه المرة الى الظفر بموقع معبد رب اسرائيل وقد اكتشفت البعثة الالمانية التي كانت تعمل بالقرب منا برئاسة المسيو روبنسون اوراقاً من البردي الآرامية اليهودية وُكِل امر قراءتها للمسيو ساشو من برلين وقد نشر كلامه على ثلاثة منها . واهمها صك رسمي ذو شأن عظيم يفيد فوائد كثيرة في تاريخ اليهود والتوراة وهذا الصك عبارة عن محضر مؤرخ في اليوم العشرين من شهر مارهزوان من السنة السابعة عشرة لحكم دارا (٤٠٨ قبل المسيح) بعث بها الى السيد باكوهي والي الفرس في بلاد فلسطين ارسلها اليه يدوناه ورصفاؤه من كهنة أسوان باسم جميع سكان تلك المدينة من اليهود ولقد اتى الموقعون على ذلك المحضر بعبارات تكاد تكون بمعناها مشاكلة لما في ورقة البردي

المعروفة باسم تورين وكلها دائرة على الدعاء له بان يمنحه رب اسرائيل بركاته ودعاءً له ان يحفظ عليه رضا دارا مولاه ورضى الال الملوكي وقد ذكروا له ان الكهنة المصريين لمعبود خنوم في أُسوان قد كادوا لهم مكيدة عند ما تغيب مرزبانهم في مصر المدعو ارسام الذي كان قصد الملك بدعوة منه وتربصوا بهم الدوائر عند واليها المدعو ويدانج الذي رشوه بالمال فحصلوا منه على امر يوعز به الى قائد أُسوان العسكري ان يذهب لتخريب معبد رب اسرائيل في جزيرة أُسوان قائلين ان هذا المعبد كان انشيء قديماً على يد آبائهم وكان موجوداً قبل ان يفتح كمبيز مصر فلم يرَ بداً من احترامه على حين خرب سائر معابد المصريين ويفهم من ذلك ضمناً ان المعبد كان بناءً هائلاً مبنياً بالحجر النحيت وهو ذو سبعة ابواب اثرية وعمد من الحجارة وسقف من خشب الارز . وقد نفذ امر الوالي ويدرانج بلا شفقة في الحال واعان الجند جمهور من المصريين فخربوا المعبد المقدس وحرقوا ما فيه وحطموه ونهبوا الاواني الذهبية والفضية وسائر الاعلاق النفيسة . فعم الحزن سكان اسوان باسرهم رجالهم ونسائهم واولادهم من اجل خراب معبدهم ولبسوا الحداد واخذوا ينتحبون بكاءً وصاموا وضرعوا الى رب اسرائيل ان ينتقم من الظالمين . واضرب القوم عن التزين وتعاطي الخمر فاصبح النساء كالايامى . وبعد حين نكب الوالي ويدرانج وجاد بنفسه مضطراً وهلك جميع من نفذوا امره في خراب معبد ابناء اسرائيل فكفروا بذلك عما جنت ايديهم بيد ان اصحاب المحضر لم ينالوا الى ذاك اليوم على كثرة ما بذلوا من المساعي رخصة باعادة بناء معبدهم بحيث قضوا ثلاث سنين في حزن لانهم لا يتمكنون من تقديم الضحايا الدينية وايقاد البخور وعرض الذبائح على معبد رب اسرائيل . وعبثاً توسلوا ايام نكبتهم بخراب معبدهم بيا كوهي والي بلاد اليهودية ويوهوهان الكاهن الاعظم في القدس وبسائر الكهنة رصفائه وباخيه استان اناني وامراء اليهود في فلسطين فلم يأتهم جواب ولذلك وضعوا آمالهم ثانية في باكوهي ان يرضى عنهم ويجعلهم في حلٍّ من اعادة بناء معبدهم في أُسوان كما كان من قبل وهم لقاء هذا المعروف الذي يسديهم اياه يقدمون لاسمه الضحايا الى رب اسرائيل على المذبح الذي يقيمونه لتمجيده وعبادته قالوا وان جميع يهود أُسوان رجالاً ونساءً واولاداً لا ينفكون يباركون على باكوهي ويدعون له ثم هم زيادة على الضحايا والذبائح يقدمون له دخلاً قدره الف بدرة من الفضة خلٍّ عنك الذهب الذي اخبروه بانهم سيؤدونه اليه اذا رضي باجابة طلبهم (ما اقدم البخشيش في الشرق) وذكروا في الختام بانهم اطلعوا على ذلك كلاً من دلاياح وشلماياح ابني سانابالايات حاكم بلاد السامرة وان الكاهن ارسام لا يعرف من ذلك شيئاً .

اما الصك الثاني فيكاد يكون مخرقاً كله ويحتوي مع بعض اختلاف على صورة ثانية من هذا المحضر الذي احتفظ مرسلوه بصورته ومسودته · وفي الصك الثالث عبارات كثيرة تشير الى ان يهود أسوان رخص لهم باعادة معبدهم بفضل توسط باكوهي ودلاياح فاعادوه الى ما كان وعمروه بالعبادة ومما لا شك فيه ان بعض الاوراق التي لم تقرأ قد ذكرت فيها اكلاف المعبد ونفقات بنائه ·

وهنا لا ارى بيان فائدة هذه الاوراق وموقعها من نفوس العلماء فقد احيت في نظرنا رجالاً اشتهر امرهم في التاريخ وهم من الطراز الاول وذكر فيها اسم يوهوهانان الكاهن الاعظم في بيت المقدس وسانابالات والي السامرة وهما مذكوران في التوراة ووالي اليهودية باكوهي وقد ذكره فلافيوس جوزيف المؤرخ اليهودي باسم معرف عن اليوناني وهو باكواس وهذه الورقة هي صفحة صحيحة من عهد حوادث ينبغي اضافتها الى سفر نحيميا · فهل يكون من حظ البعثة الافرنسية ام من حظ البعثة الالمانية يا ترى الظفر هناك بتوراة يرد عهدها الى ما قبل المسيح بخمسة قرون في حفرياتنا الجديدة ؟

مطبخ الفقير

من مبحث للدكتور فيليكس رينيول في المجلة الباريزية

طعام المتوحش غليظ كبنيته

اصبح افقر البائسين لعدنا في مأمن من الجوع على ان المتوحش لا يزال عرضة للمجاعة لا لأن الطعام المذخور عنده قليل بل لانه يجهل الزراعة وتربية الماشية · وتختلف موارد عيشه من الصيد والقنص كثيراً اذ ليست ابداً منه على طرف الثمام · وما مثل المتوحش الا كالجوارح الكبيرة من النمر والفهد يصيد الصيد تلذذاً بالقتل وهو لا يحسب للغد حسابه ولما كان على جهل بطريقة تجفيف اللحم والتقديد اصبح من الصعب عليه ان يدخر اللحوم لاوقات القلة · وهناك امور من الخرافات المضحكة تزيده بلاء · وذلك انه يرى بعض الحيوانات مقدسة ويعتقد انها اجداد قبيلته فاذا رآها اتخذها طوتمه وحاميه ويعد نفسه اذا قتلها كلها بانه خرق الحرمة وعبث باقدس المقدسات · يتقزز المتوحش من جميع الاطعمة التي لم يعتد

تناولها قط فان تغذى بلحوم الصيد تأنف نفسه من تناول السمك وان اغتذى بالسمك يعاف اللحم . ومع هذا تراه يعمد الى اختيار الاطعمة الغليظة . ان جاع عمد الى الحبوب البرية والجذوع الخشبية واسترط الحشرات والديدان واخذ القمل عن اخيه بقضمه (١) ومعلوم ان لا شيء يخلو من صوالة مغذية حتى التربة الصلصالية التي تغتذي منها ديدان الارض احسن تغذية والانسان يسير على مثالها فيكون من اكلة التراب ولكن امعاءه لا تهضمه فينتفخ بطنه ويحدث التهاب في الاحشاء يكون منه الموت

اذا اسعد المتوحشين الحظ فقتلوا حيوانًا كبيرًا او صادوا سمكة ضخمة يقعون عليها كالحيوانات الجائعة . فقد وصف لنا ارباب الرحلات شراهتهم الحيوانية فان الصانيين من قبائل الهوتنوت في افريقية الشرقية اذا ضربوا فرس بحر يفتحون جثته وهو حار ويأكلون احشاءه كما تأكلها الكلاب . واذا سقط حوت على الشاطيء يخف سكان اوستراليا الجياع عراة كيوم خلقوا وينغمسون في الدهن ويبلعون قطع لحم الحوت الكبير بلعًا ولا يرجعون عنه الا وقد امتلأت كراشهم وشبعوا وانتفخت بطونهم فينامون بعد ذلك طويلاً . بيد انه لا يجب علينا ان نسخط مما يبلغنا عن اولئك المنحطين في سلم المدنية فان فلاحينا يأتون في ولائمهم من الاكثار من الطعام والشراب ما لا يقفون فيه عند حد ولولا ان انواع الاطعمة تختلف لقلنا انهم المتوحشون بعينهم .

المتوحش اذا لم يتخير رديء الاطعمة فهو لا يعرف الطبخ ولا اعني بذلك انه لا يجيد طبخ طعامه بل انه لا يعرف كيف يطبخه ولا شك انه لم يعهد الى الآن قوم مهما انحطوا في دركات التقهقر يجهلون ايقاد النار . ولكن من القبائل من لا تحسن الانتفاع بها وهي توقد جذوة على الدوام لتظل النار عندها بلا انقطاع . ولا عهد لهم باواني الطبخ لما ثبت من ان بعضهم يجهلون صنع الفخار فيلقون حجرًا محميًا في الماء اذا ارادوا تسخينه وهم على جانب من الكسل بحيث يؤثرون ان يأكلوا معظم المآكل نيئة كالديدان والهوام والاسماك ويقضمون بفكوكهم القوية الجذوع القاسية والاثمار الليفية .

قال المترفه بريللا سافارين الفرنسوي مؤلف كتاب فسيولوجيا الذوق (١٧٥٥ ـ ١٨٢٦)

---

(١) لا يظن القاريء ان في هذا القول مبالغة فان قبائل التشوكش في سبيريا كما قال الرحالة نورد انسكيولد يأكلون القمل الذي يمشي على الطبول . والرجل وامرأته من هنود كويانا في اميركا الجنوبية يبحثان كالقرود عن القمل ويقضمانه وكذلك حال الشحاذين من الصينيين .

قل لي ما تأكل اقل لك من انت . وهذه الحكمة يتيسر لعلماء الانسان ان يطبقوا عليها ابحاثهم وذلك ان طعامه قلما يكون صالحاً للاكل وان للمتوحش فكوكا ضخمة مستطيلة واضراساً غليظة واعصاباً للمضغ قوية . وعند ما يتحضر تحسن اطعمته وتخف قوة شدقيه واسنانه .

يقول المسيو حنا فينو انه ليس بين الاجناس المتمدنة من البشر فروق كثيرة وعلى العكس في الاجناس المتوحشة فان بينها و بين المتمدنة اختلافاً كثيراً في الصور الظاهرة والحواس الباطنة . وظن بعض علماء الانسان بان هذه الاختلافات هي على اطلاقها على انها مما يمكن تعديله و بذلك يتسنى لنا تعليلها . ولقد كانت اول الاكتشافات في اول عهد الحضارة هي اكتشافات الطبخ فقد رفع القدماء الى مصاف الارباب الاذكياء الذين علموهم زراعة الارض وتدجين الحيوان وصنع الخبز وتخمير المشروبات .

افراط المتمدنين في المآكل . الاطعمة التي يتقزز منها والتي يرغب عنها

قلنا ان المرء اليوم يكاد يكون في مأمن من الجوع ولكن الشر الذي عجز الوجود ان يسومه اياه اصبح خاضعاً له بواسطة الحروب مختاراً . فاذا حوصرت مدينة يعمد الجياع من اهلها الى تناول الاطعمة القذرة كالكلاب والقطط وجرذان المجاري وسائر اصناف الحيوان و يذكرون ان الجلد والعشب والخشب لها بعض الخصائص في التغذية وللضرورة احكام .

تجد مائدة الفقير في الاوقات المعتادة مغشاة بالاطعمة التي هي اكثر تغذية والطف طعوماً مما يقنع به اخوه الفقير الحقير ولذلك يستهين بالاغذية التي تطيب بها نفس اخيه المتوحش فتعاف نفسه الحبوب والجذوع والحشرات والديدان وكل ما يدب و يطير علماً منه بان مثل هذا الغذاء لم يُخلق له . على ان جودة التخمير قضت على الفرنسيس ان يتناولوا الخاذ الضفادع والحلزون . والانكليز يتقززون من الفرنسيس مع انهم لا يستنكفون من تناول فطير الغراب .

الفقير كالمتوحش عدو التجديد Misonéiste في كل ماله علاقة بغذائه فهو يأبى تناول احسن طعام اذا لم يعتده منذ طفوليته . ولم ننس ما قاساه بارمانتيه في القرن الثامن عشر حتى صير البطاطا مألوفة بالاستعمال بين الناس . وقد مضت اعوام قبل ان يقبل الفقير باستعمال لحوم الخيل مع انها مغذية جداً ولا نزال الى الآن في جهاد حتى يألف الناس استعمال السمن النباتي المستخرج من الجوز الهندي على ان في استعماله اقتصاداً وهو سهل الهضم لذيذ الطعم يأبى العملة الاعتماد عليه و بعض اهل الطبقات الوسطى تقبل عليه .

نحن كالمتوحش نسرف في الطعام . و يصعب تقدير كمية الطعام التي تلقى كل يوم في

علبة الفضلات وليتنا نحسب الارغفة البائتة التي تطرح طرح الزوائد ولبت جمعيات الاحسان تمكن من جمعها لتعمل بها ثريدا او حساء لالوف من الفقراء · ولا يخلو واحد فينا من الاسراف في الطعام حتى الجند في ثكنهم فانهم يلقون بفتات الخبز الاسمر · اما سائر الاطعمة فلا ننتفع بها لكثافتها على ان فيها ما لا يزدرى به وينفع كل النفع · تملأ كل صباح في اسواق باريز عجلات الصوالات والفضلات بمواد يسهل استعمالها وذلك ان القوم يطرحون رؤوس الاسماك ولا سيما « الكابيلو » و « الكولين » ولو اخذت لصنع بها حساء لطيف ·

وربما اعترض معترض فقال ان هذه الفضلات قليلة واذا صارت تباع ترتفع اثمانها على انا لو فرضنا ان رأس سمكة الكولين بيع بخمسة وعشرين سنتيما وصرف في الارز والطماطم والبصل والبقدونس والصعتر والملح والثوم والنار نحو فرنك يكفي الحساء المستخرج على هذه الصورة بفرنك واحد لاطعام ثمانية اشخاص ·

تعمل سلاطة مقبلة باوراق القضبارون (سفورجنة) وان سفير (الاوراق الذابلة) النجل اذا استعملت كما يستعمل السبانخ تطيب وتلذ وان الجزء الاخضر من الكراث الذي يطرح في العادة يمكن الانتفاع به في الحساء حتى ان الاوراق الخارجية وبقايا (قرمية) الملفوف تحتوي على مواد مغذية · نعم ان الناس يخشون من اليافها الصلبة ولكن اذا اجيد اجيد طبخها واطيل الاطالة اللازمة وسحق سحقاً كافياً لايخشى منها · والناس يلقون ايضاً فضلات رؤوس البقر على حين تستخدم في زيادة طعم حساء البقول ولكن العامل يصنع منها مرقاً بالخضر وهو لا يعرف الا المرق المطبوخ بالبقول الناشفة المقسمة احسن تقسيم ويأبى اباؤه ان يغتذي بمثل هذه الفضلات ·

وهناك بعض المواد يمكن الانتفاع بها في الغذاء على شرط ان تحضر تحضيراً خاصاً ولطالما بحث الباحثون من اجل الانتفاع بالالياف العظمية tissu osseux فان الكلاب يأكلها جيداً واذا لم يستطع الانسان ان يجري على مثاله فذلك لان ماضغيه واحشاءه ضعيفة · ولقد حاول كثيرون منذ قرون ان ينتفعوا بالعظام او بالهلام (الجلاتين) المستخرج منها ليطعمها الفقير واستعملت طريقة الكيماوي « ابرت » في استخراج الهلام من العظام لحفظ المأكولات ولكن الجلاتين المستخرج على تلك الكيفية لم يستعمل الا في المصنوعات وقد ثبت من بعده ان الجلاتين اقل تغذية مما كان يذهب اليه الناس من قبل فهو يزيد الحرارة في الجسم ولكنه لا يقوى على تقوية انسجتنا ولا تجد فيه خاصية اللحم والالبومنيد · اذا تغذى الكلب بالجلاتين خاصة يموت لساعته ·

جمود الفقراء وغيرهم على احسية واحدة

يقول علماء الاقتصاد حيثما يخرج رغيف يولد انسان . يريدون بذلك ان سكان كل بلد على نسبة غناها في غذائها واذا كان الجمهور يزهدون في جميع هذه المواد النافعة في التغذية التي تكثر سواد الناس اما في طاقة دور الاحسان ان تستخدمها وتحسن استعمالها ؟ كانت العقيلة روبرت اول من فكر سنة ١٨٤٠ في تحضير وجبة طعام لفقراء باريز لقاء اربعة فلوس وطعامها مؤلف من حساء بالملفوف وقطعة من الثريد والخبز وقدح من الخمر . ثم كان عقيب ذلك ان صار يقدم حساء بلا مقابل للفقراء وكان بريبان اول رجل من اصحاب مطاعم الفقراء اخذ يوزع الطعام على المساكين . ومع ما دخل هذه المطاعم من الادوات التي تهيء الاطعمة اسرع من ذي قبل وعلى صورة احسن مثل ادوات القطع والفرم والسحق فان هذه المطاعم لم ترتق الارتقاء المطلوب وامثال هذه الادوات تستخدم للانتفاع بالمواد التي تطرح ولا تستعمل بالنظر اصلابتها وذلك بان تحيلها الى ثريد يسهل تشبيهه بالثريد المعروف وهكذا الحال في انواع الاطعمة فان مطاعم الشعب لا تبحث اصنع حسائها عن الحبوب التي تكثر تغذيتها وتقل قيمتها كالارز والشعير والقرطمان .

ولعل هذا ناتج من ان للفقير من عزة النفس ما يحمله يأنف من بعض الاطعمة حتى انك لو قدمت له طعاماً مؤلفاً من الفضلات اللذيذة لرأى في المسألة نظراً . وكثير من الفنادق توزع بقايا الطعام على الفقراء . وقد قال احدهم يوماً وخدام احد الفنادق يريدون ان يطعموه : انهم اكلوا الاطايب ولم يتركوا الا الاخابث . واظهر من هذا صراحة ما قاله لدكتور فيرون : اريد ان اعرف ماذا جرى للكمأة فانني لا اجدها قط .

الا وان كل اختراع في هذا السبيل ليصعب ويسوء قبوله بين هؤلاء الزبن وما اظن انه لو قام احد المحسنين في هذا القرن وانشأ يطعم الفقراء من الفضلات التي تطرح في الازقة على طريقة علمية الا ويكون شأنه شأن سويه الفرنسوي منذ ستين سنة . وهذا الرجل كان من اعظم الطهاة اشتهر في وقته وله شراب منسوب اليه كما له مَرَق اشتهر به فقد كان مديراً لمطابخ « ريفورم كلوب » في لندن . فزعم انه اكتشف طريقة لمكافحة القحط في ايرلاندا واسس في احد شوارع دوبلين بامر الحكومة مطعماً للشعب واحتفل بافتتاحه فحضر الاحتفال جمهور كبير من الناس ومنهم رئيس اساقفة دوبلين ونائب ملك ايرلاندا وقدم للناس سبعة انواع من الطعام على اخونة لطيفة وفي اوان حسنة وكانت نكهة انواع الحساء تنبعث كالعطر واستطاب الناس تلك الاحسية واقبلوا على محله اقبالاً غريباً يغدون خماصاً ويروحون بطاناً . دام الحال على هذا المنوال شهراً واولمت الولائم لسويه في المدينة حتى ان نائب الملك

دعاه لتناول الطعام على مائدته . واخذ الفقراء يباركون اسمه لانه كان لهم بمثابة المسيح الذي انقذهم من مخالب الجوع والمخمصة وفي خلال ذلك عزمت دار الندوة ان تقرر انشاء مطابخ للشعب تشبه مطعم سويه في بلاد الاقاليم انقاذًا للناس من فتكات الجوع وعندها خطر لسويه ان ينشر كراسة يكتب فيها كيفية تحضيرة هذه الانواع من الاحسية قائلاً ان لحومها قليلة وكثير منها خالٍ من اللحم بالمرة فقامت الجرائد المعارضة تشهر عليه حربًا عوانًا قائلة ان انواع هذا الحساء لا تغذي طاعمها وتفسد بنية الانسان وينشأ عنها امراض شديدة بل مهلكة وذهبوا الى ان انكلترا رأت في هذا الطعام القتال احسن واسطة لالقاء السلام في ايرلاندا للتخلص بصور شريفة من أُلوف من البائسين المعربدين لان وجودهم كان على الدوام سبب القلق على سياستها وحملاً ثقيلاً على الميزانية . فاضطر صاحبنا سويه الى السفر خفية توقيًا مما يلحقه من الاذى وربما كان صُلب .

تعليم العامل كيف يحسن ابتياع طعامه واجادة طبخه

لسنا ندعو المحاويج وحدهم الى الانتفاع من علم التغذية بل ان العامل والمتوسط على اختلاف طبقاتهما بل جميع ابناء الوطن يتيسر لهم ان يستفيدوا منه فقد اجاد لاسال احد زعماء الاشتراكية في المانيا (١٨٢٥ — ١٨٦٤) بقوله ان المسألة الاجتماعية هي اولاً مسألة طعام واكل . وقد اثبت الاطباء لاندوري ولابي وروم هذه النظرية التي قال بها ذاك الاشتراكي فاذا كان السل منتشرًا في المدن الكبرى فهو ناشيء في الاكثر من قلة التغذية يضاف اليها اسباب اخرى من البؤس كالتعب والادمان على الشراب والعادات الرديئة .

والذي يظهر لمن ينظر في الامور نظرًا سطحيًا ان العامل يغتذي احسن تغذية ويختار اجود انواعها وان امرأته تبتاع للبيت يوم يقبض زوجها اجرته احسن الحاجات البيتية فيكثر اهل البيت من الاكل ومن الغد تنقلب وليس عندها شيء فتحمل زوجها على الاقتراض ريثما يقبض عمالته ومن اجل هذا تجد في حي الفقراء في باريز اجود انواع البطاطا واحلاها واحسن اجناس السمن والسمك فتبتاع زوجته ما شاءت منها بدون حساب وكيفما اتفق لها على حين لو اشترت بالجملة ودققت في حسابها لكان ما يكلفها بالمفرق فرنكاً وربعًا لا يكلفها اكثر من خمسة وثمانين سانتيماً في الجملة .

ثم ان العامل معتقد بان كل طعام رخيص الثمن فيه ربحه وهو لا يحسب تلك الفضلات التي لا تؤكل . فمن وزن اللحم يجب اسقاط العظام والجلود « الجلاميط » والعراقيب ومن السمكة احشاؤها وحسكها ومن البيض قشره ومن الجبن قشرته ولكل خضرة نفاية ولكل ثمرة قشرة او بزرة او ساق « عقب » ثم ينبغي ان تلاحظ كمية الماء الموجودة في المواد

وان لا ينسى ان البقول الناشفة ولو كان ثمنها اغلى فانها خير من الطرية لقلة المائية فيها ولحم العجل وان كان ارخص من لحم البقر فليس هو احسن منه لما فيه من المائية وقلة التغذية وهكذا لكل بقل ولحم فضلات وحثالات وعندي ان تجمع هذه المعلومات في شكل قائمة تنشر في كراسة ليعرف جميع الناس ان مئة غرام من اضلاع العجل تعادل في تغذيتها ١٢٩ غراما من صدره ولا يفوت الناظر قيمة التتبيل والوقود . على ان علماء الاقتصاد لا يحسبون في العادة حساب هذه النفقات و يعدونها طفيفة مع ان لها شأناً في تحضير الطعام

وهناك شيء آخر لا يحفل به عيال العملة واعني به الوقت وذلك ان نساء العملة يشتغلن ايضاً في المعامل حتى اذا جاء المساء يضطررن لان يسرعن في تحضير الطعام فلا يجدن ايسر من « البفتيك » والاضلاع والمشوي ولذلك يكثر استعمال هذه الانواع في احياء العملة وربما ابتعن اللحم المقدد والثريد المصنوع والبقول المطبوخة الحاضرة . اما وانه يصعب فصل النساء الفقيرات عن معاطاة الاعمال فمن العبث ان يعلمن اساليب الطبخ والتفنن فيه فما اجدر ان يعنى الطباخون بتحضير اطعمة خاصة بالطبقات النازلة بثمن بخس ومؤلفة من مواد جيدة

من المتبلات اللذيذة التي ذقتها واستطبتها وهي من تحضير المسيو مونتانيه ولا تكلف الانسان اكثر من عشرة سانتيمات مربب التفاح وكيفية صنعه ان تأخذ ٥٠٠ غرام من التفاح من الجنس المعروف بر ينت (Reinette) و٢٠٠ غرام من الخبز البائت و٢٥ غراما من السمن و٥٠ غراماً من السكر و٣ ديسلترات من الماء . وهذه المواد لا تكلف اكثر من خمسين سانتيماً بالجملة وتكفي لطعام ستة اشخاص . وكيفية تحضيرها ان تقشر التفاح وتقطعه قطعاً كبيرة وتقطع الخبز قطعاً ناعمة وتلت اسفل الصفحة «الطبق او الصحن» بعشرة غرامات من السمن وترش ملعقة صغيرة من السكر ثم تضع سافاً من الخبز وسافاً من التفاح وهكذا الى ان تأتي عليهما ثم تضيف اليهما ما بقي من السكر والسمن وتقسمه الى قطع وتبله بالماء وتضع الصفحة عشرين دقيقة في الفرن وتتناول ما فيها في الحال . ثم انه يمكن ان يجوّد هذا المربب اكثر من ذلك بزيادة نفقة قليلة وان يجعل دسيلتران من اللبن بدل الماء يضاف اليه بيضة مملولة ويمكن زيادة كمية السكر وان تحسن رائحته بان يوضع فيه قشرة من الليمون او البرتقال او القرفة

يجب تغيير الطعام بحسب العمل وما يجب على العامل معرفته

هب ان العامل يعرف ان يبتاع طعامه و يطبخه فان المسائل الاقتصادية والصحية ليست وحدها هي التي يطلب حلها بل ان الاهم منها هي المسألة الفسيولوجية التي يجب ان يكون لها مبدأ صريح اذا اراد العامل ان يضمن صحته وعمله . فان الفسيولوجي يعلمنا بان الطعام يجب

تنويعه بحسب نوع العمل بحيث يكون منه ثلاث منافع : اصلاح الانسجة التي تبليها اعمال الحياة واعطاء الحرارة التي تحفظ على الجسم حرارته وايراث القوة اللازمة لكل عمل عضلي . فنحتاج للقيام بهذه الحاجيات الثلاث الى ثلاثة عناصر اولية الالبومنيد من اللحم والبيض والبقول والدهن الحيواني او النباتي وهيدرات الكربون او الدقيق الذي يكثر في البقول فالالبومنيد يصلح من انسجتنا والدهن يعطي الكالوري والدقيق يعين على العمل ويعطي المرء كمية من الحرارة . ولجعل التغذية على نظام مخصوص يجب ان يوضع موضع العناية لا المناخ والفصل (اذ من البين ان في الشتاء يحتاج الجسم الى كمية من الكالوري اكثر من الصيف) ولا اختلاف احوال الحياء (اذ ان المرأة الحبلى او التي ترضع والولد الذي ينمو يحتاجان الى انشاء انسجة جديدة فيهما) بل ينبغي ان ينظر الى نوع العمل .

ومنذ مدة بحث الدكاترة لاندوزي وهنري ومارسل لابي في تغذية مئة من العملة والمستخدمين في باريز فكان لبحثهم رنة كبرى وذلك انهم قسموا العملة الى اربع طبقات جعلوا في الاولى جميع العملة الذين يعملون اعمالاً بدنية كالنجارين والحفارين والنقالين والحمالين وصناع الحديد الخ . هؤلاء العاملون يكثرون من تناول اللحم فيأكلون (Coltineur) مئتي غرام في اليوم وقلما يتناولون المعجنات المغذية والبقول والدقيق (Féculent) والسكر و٤٠٠ غرام من الخبز و١٩٠ غراماً من البقول ونصف لتر من الحساء ولا يتناولون سكراً بل يفرطون في تناول المسكرات على انواعها فيكرعون ثلاث ليرات من الخمر و١٥٠ سانتيمتراً مكعبا من الابسنت و٤٠ سانتيمتراً مكعباً من الالكحول على درجات مختلفة . والطبقة الثانية العملة الذين يعملون اعمالاً معتدلة كمن يشتغلون في المصانع او المعامل الميكانيكية والنجارة الخفيفة والقفالين وغيرهم فهؤلاء يتناولون ايضاً لحماً كثيراً فيأكلون ٢٢٥ غراماً منه وقليلاً من المواد النشوية والمعجنات المغذية والاحسية والبقول والاطعمة المعمولة بالسكر فيأخذون ٤٠٠ غرام من الخبز و٧ غرامات من السكر وربع لتر من الحساء ولتراً من الخمر و٥٠ سانتيمتراً مكعباً من الالكحول من درجة خمسين .

والطبقة الثالثة من العملة الملازمون للجلوس ككتاب الادارات ومستخدمي المخازن وعملة المكاتب التجارية وغيرهم فهؤلاء يكثرون من كل شيء ولا سيما من اللحم والالبومين النباتي والبيضي فيأكلون ٥١٠ الى ٥٤٠ غراماً من الخبز و٤٠ غراماً من السكر والشوكولاتا ولا يأخذون حد الكفاية من البقول الطرية والمأكولات المعمولة بالسكر ويكثرون من المقبلات الالكحولية والمشروبات فيأخذون ثلثي لتر من الخمر و٨٠ سانتيمتراً مكعباً من الالكحول على خمسين درجة وعلى العكس من ذلك فانهم لا يشربون ماء نقياً بقدر ما يجب

ومعلوم ان الماء ينفع في تنقية الانسجة غير العاملة في الجسم · والطبقة الرابعة عبارة عن العملة والمستخدمين كالخياطات و بائعات الازياء (Midinette) ومستخدمات المحال التجارية وغيرهن فانهن ايضاً يرتكبن اغلاطاً كبيرة تخالف قواعد صحة الغذاء فيأ كلن اطعمة كثيرة قليلة التغذية والادام كالسلاطة والفجل والمرق المخلل والقثاء والثمار الرديئة واقلّ من حد الكفاية من كل نوع فيتناول الفرد منهم ٢٥٠ غراماً من الخبز و ٧ غراماً من اللحم و ٨٠ غراماً من البقول وربع لتر من الخمر ·

ولا يفوتك ان المستخدمين الملازمين للجلوس وحدهم يأ كلون في الصباح قبل تعاطي اعمالهم وما عداهم فانهم يبدأون باشغالهم على الريق ·

ويرى الاطباء المشار اليهم انه يلزم للعامل الذي يبذل من قوة جسمه ٣٦٠٠ من الكالوري كل يوم وللعامل المعتدل ٢٦٠٠ وللعاملين الجالسين على كراسيهم ٢١٠٠ ولبائعي الازياء ٢٠٩٠ وهو حد الوسط الكافي ولا ينبغي تطبيقه بالحرف بل ان ذلك يختلف باختلاف الاشخاص وقاماتهم ووزنهم واعمالهم · فاذا احب العامل الالبومين لتغذيته فعليه بسمك الارنكة والجبن ونخذ الخنزير والبقول الناشفة فان فيها بغيته بثمن معتدل وعلى العكس في اللحم والبيض فانها مواد غذائية تعد من نعيم البطون · ولكي يحصل على الهيدروكربون عليه ان يستعمل البطاطا فانها في الدرجة الاولى برخصها ثم الارز والخبز والسكر والبقول والثمار الناشفة · واذا اراد الادهان فليعمد الى دهن الخنزير وشحمه وانواع الجبن والشوكولاتا

هذا وقد عرف جميع المشرعين مكانة تنظيم التغذية وقد حرم موسى على العبرانيين لحم الخنزير والحيوانات المقدسة لفكر ديني كما حظر مانوي على الهنود لحم البقر · وما زالت معتقدات المتوحشين بشأن الحيوانات التي يعدونها اجدادهم واعتقادهم بالطوتمية موجودة الى اليوم عند ابناء هاتين النحلتين وتجعل لهذا الحظر وجهاً من الشرع · وقد كان ليكورك اوّل من سن للاسبارطيين ان يتخذوا اطعمة عامة يعتمد عليها كالحساء الاسود اما الآن فان الافكار اكثر حرية في هذا المعنى فلا تقدر الحكومة ان تستعبد ارادة المحكوم عليهم في طعامهم فليس احسن من ان نعمد الى طريقة الامتناع من طريق الخطابة والكتابة وعلى اندية كليات الشعب خاصة ان تبين امثال هذه الموضوعات وان تنشر كراريس رخيصة لنشر هذه الافكار · والتعليم الديني الذي يعلم في المستقبل هو تعليم التغذية في الحقيقة ·

الاسرة (١)

قامت الاجتماعات البشرية الاولى على مناسبات طبيعية منشأوها روابط عصبية وميل الى ارض واحدة واتحاد في العادات واجتماع على اسباب المعاش ولم تتألف لاول امرها الا من أسرات منفردة ثم تقارب بعضها من بعض فتألفت منها جماعات جدد . وما احتيج في العقود الزوجية بادىء بدء الى اقامة الحفلات لان الرجل والمرأة كانا يعملان كلاهما اعمالاً شاقة تضطرهما الى جهاد متواصل ويختلطان اكثر من اختلاطهما اليوم . وما كان يطلب من النساء ما يطلب منهن على عهد التمدن الحديث او ما يطلبنه لانفسهن فيه من اساليب الظرف والكمال فان هذا كله لم يكن في تلك الادوار معروفاً كما لا يشاهد الآن في العناصر المنحطة من البشر . وكان بين الرجال والنساء من التمازج الذي يسقط دونه التمايز والنساء عن صلة القربى والابناء ينسبون لأمهاتهم .

ثم حدثت رغبة التزوج بزوجة فنشأ من ذلك الزواج بالبيع اي ببيع حقيقي عند الشعوب الاولى و بالبيع في الظاهر فيما بعد ثم نظم الزواج انواع التنظيم المختلف . فتيسر بذلك للاغنياء و زعماء القبائل ان يأخذوا عدة زوجات ونشأ من اجل ذلك الضر بعد ان كان الابناء يدعون لأمهاتهم . وما زال الضرّ اي تعدد الزوجات شائعاً في آسيا وافريقية وذلك للعادة المتبعة في تسليم الاعمال اليدوية للنساء بحيث يكون منهن اعظم مساعد و ينتفع بجهادهن احسن انتفاع .

الضر وان كان من طبيعته جائراً فهو خطوة نحو التقدم اذا قيس بما كان البشر يألفونه من قبل من نسبة الابن لامه وذلك لان الاب والام معروفان فيه . فقويت درجات القرابة أكثر من ذي قبل وغدا من السهل على الناظر اذا رجع الى الماضي ان يأتي بسلسلة متصلة من الاباء . ونشأت من احترام الاجداد ولا سيما في الشرق عبادة خاصة ما زالت في بعض انحائه على قوتها .

جرت عادة الشعوب الآرية منذ عهد بعيد ان تقتصر على زوجة واحدة وكان من نتائج هذه العادة اكرام المرأة واحترام حريتها و رضاها كل الاحترام وحل الشعور بالحب محل توحش القرون الاولى واصبحت المرأة ملكة في بيت زوجها وان تكن مستعبدة من حيث الاخلاق . وحدث من عواقب الاقتصار على واحدة من النساء في اوروبا نظام الاسرات ففرضت على كلا الزوجين واجبات كثيراً ما كانت موضع المناقشة وقد تعدل

(١) معربة عن كتاب الحياة الاجتماعية لارنست فان بروين

فيقبلها الرأي العام والقانون . وهكذا جرى عقد تبادل الواجبات بين الزوجين على غير قاعدة المساواة فاليونان والرومان لم يقولوا بتعدد الزوجات ولكنهم لم يمنعوا التسري ولطالما رأوا ان لا مانع من التزوج بامرأة غير المرأة الاصلية على طريقة نصف شرعية ولذلك لم تكن الفتاة اليونانية محررة من قيود العبودية كل التحرير فهي في طفوليتها طوع ارادة ابيها واذا تزوجت اصبحت تحت حكم زوجها واذا ترملت يكون امرها بيد اقربائها او بكر اولادها . ولم تمتز العقلية الرومانية على ما كان لها من الحرمة عن الرجال بامر ولا خلصت من وصايتهم عليها .

وكان نفوذ المرأة في شمالي اوروبا بين البرابرة ضئيلاً وكذلك عند امم السلت والغاليين وحالها احسن بقليل عند الجرمانيين ولذلك اقتضى لها حركة عقلية قوية للاستمتاع بحريتها . ولقد كانت النصرانية بتمجيدها الأمومة عوناً على رفعة شأن المرأة الادبي واعلاء مقامها وتكريمه اكثر مما كانت . ومع هذا فنكاد لا نخلو حالها من نقد ويوشك ان لا يكون موقفها معه بعيداً عن الحرج . ويكفي للاقتناع في هذا الباب ان يدرس المرء ما يتعلق بالمرأة من مواد القانون درساً موجزاً ليعرف حالها اذ ذاك . على ان هذه القوانين ما برح حكمها الى اليوم نافذاً في معظم الممالك الاوروبية .

فقد جاء في تلك القوانين بشأن المرأة بان عليها ان تطيع زوجها وتفقد بعقدها عليه جنسيتها واسم أسرتها واسم بلدها وحرية التمتع بحقوقها وليس للزوج ان يتنازل عن الحقوق التي منحه القانون اياها ويحظر على المرأة ان توقع على عهد مدني او شرعي بدون اذن من زوجها او ممن يرجع اليه امرها . وتفضل القانون عليها فمنحها حق الايصاء وهي لا تستطيع وان تجردت عن مالها ان تكون لها صفة امام المحاكم ولا ان تمنح مالها وتبيع وترهن وان تأخذ شيئاً بثمن او بلا ثمن دون توسط زوجها فيه واذا لم يكن لها زوج فالشرع يتولى ذلك منها واذ كان الزوج يشرك زوجه في الاموال ساغ له ان يتصرف لا بريع املاكها فقط بل ان يملك في بعض الاصقاع وارداتها الناتجة من عملها بالذات .

ولا يحق للمرأة ان تنظر في مستقبل اولادها . ويحظر عليها اذا كانت اميرة ملكية ان تجلس على سرير الملك في كثير من الممالك وان دل تاريخ بعض الملكات في انكلترا والمانيا وروسيا على ان صولجان الملك في ايدي النساء لم يكن دونه في ايدي الرجال قوة وسطوة وقد بذلت العناية من وراء الغاية ولا سيما في العهد الاخير في تعديل القانون الذي لا يمنح الزوجة وهي في حجر الاسرة الا شطراً محدوداً من العمل فسوغ المعارضون تلك القيود الموضوعة وعللوها بقلة حنكة المرأة وتجاربها وما يعتريها من التأثرات النفسية والبواعث المحركة

لها بدون ان ينظروا اذا كانت هذه الدواعي في الخطإ والاعمال النابية عن التدبر كثيرًا ما اثرت اثرها وان معظمها ناتج من ذلك القانون نفسه الذي يزعم بانه غير جائر . لاجرم ان التعليم الذي تتعلمه المرأة اليوم على قلة كفايته وغنائه اذا توسع فيه وجرى تحسينه بحسب سنة العقل لا يلبث ان تظهر نتائجه في الحال . واذا رُبي عقل ام البيت المقبلة وأشعر قلبها الاحساس بما لها من المكانة ينشأ من ذلك اساس تربية الولد الذي يطلب اليها ان تراقب تأثراته الاولى وتديرها بيدها .

يجب ان تكون المرأة رفيقة الزوج لا خادمته . واذ انها شاركته في نعيمه وبؤسه فلها الحق ان تشركه في حياته واعماله وامانيه في المستقبل وان تستند الى معونته وحمايته في جميع الاحوال واذا احترمت في ذاتها تظل امينة معه فهي حارسة التقاليد البيتية فاذا خانت وادخلت عنصرًا اجنبيًا الى بيتها في وقت ضعفها فتكون قد ارتكبت عملاً شائنًا توبخها نفسها عليه ويؤدي ذلك بها الى نفاق وكتمان لا ينطبقان مع طبيعتها الشريفة وتضطرب نفسها اي اضطراب كلما تمثلت لها فعلتها .

فالزواج على ما يتمثل لفكر عادل مستقيم يفرض ان هنالك احساسًا حقيقيًا بين الزوجين المقبلين وانهما على كمال الاستمتاع بقواهما في المال والقدرة على العمل ليضمن بقاء الأسرة وهذا الشرط الاخير كثيرًا ما يصعب تنفيذه وياللاسف ومنه ينتج ان بعضهم قد يطيلون امد عزوبتهم الى اجل غير مسمى مع ما في امتناعهم عن الزواج من الاستهتار والشذوذ . ويعقد بعضهم من العقود الزوجية كل ضعيف ضئيل يكون الداعي الاعظم فيها مصلحة خاصة واغراض ذاتية . ومن هنالك انت المفاسد وهي ناشئة من عادات رديئة وكثيرًا ما تكون هي الجرائم بعينها . وقد ظهر في بعض الزواج من التنافر في الطباع والاخلاق ما اقتضى معه ان يتلافى امره بالسماح بحل رابطته . وما الاذن بطلاق الزوجين المتنافرين الا اقرار شرعي على امر ثابت اصبح دوامه لا يطاق .

وكل ما يفصم عرى عقود الزواج وان كان معقولاً في ذاته لا يخلو من حسرة تلحق الابناء الذين ولدوا من ابوين يريدان الانفصال والطلاق . وبهذا النظر تعين على زوجين يرغبان في الطلاق ان لا يقدما عليه الا بعد التأمل الكثير لتحاميا الوقوع في مصائب تربو آلامها على ما صارت اليه حالهما .

ولقد دعا تعدد الزواج المتسرع في عقده دون النظر في المستقبل والتدبر في قلة ملاءمته الى القدح في نظام الزواج نفسه في صورته الحاضرة وتعظيم امر الزواج المدني اخيرًا اذ ضمنت فيه حالة الاولاد الذين يولدون منه ببعض ضمانات خاصة فلا يقوم الزواج بمدنيات باجراء

شعائره المدنية او الدينية بل بانشاء صك بسيط تكون شروطه معلقة على ارادة المتعاقدين . ولعله يأتي من هذا التغيير المتطرف ضرر بالطريقة المستعملة الآن في الزواج . على اني قلت آنفًا ان الزواج الذي لا يفكر في عاقبته ويتم الرضى فيه دون العناية بما يحدث عنه من المسئوليات قد اصبح شائعًا فليس من العبث اذًا ان يجعل لمراسيم الزوجية بعض الشروط ليفهم المتعاقدان كل الفهم خطارة ما عقد لها عليه . وبذلك يصبح احترام المرأة على اساس راهن . فاذا كانت الوعود التي تسبق عقد الزواج الحرفي بحيث تضمن للمرأة مكانة اجتماعية فلا تعرضها لاحتمال اهواء النفوس التي يصعب الاعتذار عنها فانها لا تختلف عن الشروط الزوجية الشائعة ولا موجب اذ ذاك للتغيير واذا نقص من حرية الطرفين شيء يلحق المرأة من ذلك القسط الاعظم . فهي التي تستفيد في الواقع من الزواج خاصة لان الزواج يعود منه في الغالب على الرجل زيادة موارد ثروته . وان المرأة لا تتمتع بجمالها وتستوفي شروط التحبب اليها زمنًا طويلاً فماذا تكون حالها يا ترى اذا شاخت ولم يكن لها بمقامها الطويل في بيت زوجها والتمتع بما تستحقه من الحقوق في حياتها ما يجعلها موضوع الحب الدائم والاحترام من زوجها ؟ فكل عقد لا يوليها حالة ثابتة لا يتأتى لها معه مهما بلغ من جمالها وطهارة اخلاقها ان تأمل الوصول الى انواع سعادات الامومة التي هي خاصة بالزوجة الشرعية . ثم تدعي حالة الولد عناية فائقة من الاب والام حتى ينمو النمو القانوني في طبيعته واخلاقه على انه لا يستطيع ان يسير بما امكن من الحكمة والتعقل ليجعل قياده بيده الا اذا بلغ اشده او كاد . فمصلحة الاجتماعية تقضي بان يعيش ابواه معًا حتى يبلغ تلك السن ويستلزم ذلك قضاءهما اعوامًا معًا فاذا انقضى ذلك الدور ايكون الانفع للزوجين بان يفترقا ليبدأ آحياة جديدة بعد فوات الوقت . وانه ليرجى حرصًا على مصلحة الزوج وزوجته ان يكون الزواج دائمًا ولا يحل عقده الا في احوال نادرة .

قلت انه يجب ان يفرض في الزواج وجود عواطف في الحب متبادلة بين الراغبين فيه مصحوبة بحرية التمتع بمال يكفي لاعالة الاسرة ولا يلزم اكثر من ذلك في الحقيقة للافراد حتى يكون الزواج شرعيًا . وهنا سؤال وهو انه هل تكفي هذه الشروط من حيث الاجتماع الا يلزم النظر في صحة الزوجين لمصلحة الاولاد الذين يولدون منهما ؟ ايسمح لبعض من اصيبوا بامراض تنتقل بالوراثة او معدية ان يعقدوا زواجا وينقلوا بتأثيرهم وسوء غفلتهم العدوى الى أسرة جديدة اخرى ؟ هذه مسألة حرية بان توضع محل النظر لانها من ادق المسائل ولا يتعذر حلها لو جرى فيها كما يجري في دور تربية الحيوانات حيث يعزل السقيم عن السليم لاول وهلة اما في المبدإ الذي يستلزم اولاً العناية بتحسين النوع فانه تحذف

انه بحسب القياس الاعضاء الضعيفة الكثيرة او السيئه التركيب لما في وجودها من الضرر الذي يلحق المجموع . ولك ان ترجع الى القواعد الطبيعية الظاهرة لتبرير هذا العمل فترى فائدة الانتخاب الطبيعي تجري مجراها حولنا في ذوات الاعضاء فنشاهد ابداً في طبقة الكائنات النباتية والحيوانية فناء كمية عظيمة من الجراثيم لقلة غنائها في المحيط الذي تظهر فيه او لضعف تركيبها عن المقاومة .

الا يكون المرء قد عمل بسنة العقل وبما يقضي به الواجب اذا ارجأ بذاته ومحض ارادته واخلاصه عدم ايلاد اشخاص يصبحون عرضة لعامة المصائب الطبيعية منذ ولادتهم . ومن المحقق ان المرء لم يتأثر وجدانه من هذا القبيل . فكان الحق للاب في الازمان السالفة ان يستحيي من يولد له من البنين والبنات أو يقتلهم ومتى رأى ولده ضعيفاً ضئيلاً يقدمه للموت بلا شفقة . ولقد نشأ في القرون الحديثة شعور وان لم يكن حديثاً في الناس الا ان ارتقاء التمدن جعله عاماً ونعني بهذا الشعور « الرحمة » فهي اليوم تعارض ما كان يجري سالفاً من قتل الاحياء الساقطة . لان من لا يعجبك ظاهر حاله لفساد تركيبه الطبيعي لا يجب ان نحكم عليه باسقاطه من المجتمع بل يتيسر ان يشغل من اعمال الاجتماع الكثيرة حيزاً يعمل فيه عملاً . فالحال تقضي اذاً بايجاد وسائط اخرى تكون الى الاعتدال لتحسين اجناس الناس .

وقد اقترح بعضهم ان يفحص المرشحون للزواج فحصاً طبياً تفادياً من سوء الاستعمال ولو امكن تطبيق هذه الطريقة الواقية لنشأ عنها نتائج حسنة اذ الظاهر ان تطبيق القول على العمل لا يخلو من شبهة . وذلك لان الاهواء البشرية اذا ضيق عليها على هذه الصورة لا تلبث ان تخرج عن حد ما رسمه القانون وتعمد الى التزوير والى الشهادات الطبية التي تنال بالشفاعات لتجنب هذه القيود والاوامر . ومتى اصبحت هذه القوانين معمولاً بها وتعذر الزواج الشرعي على بعض الناس لا يلبثون ان يعمدوا الى الزواج الحر فيخلصون على هذا الوجه من كل قيد وسلطة .

ولا دواء لهذه الادواء الا التربية اذا سارت على سنة العقل وكانت الغاية منها ترقية العواطف الشخصية بالآداب العالية . فالتربية هي التي تعلم اولئك الذين حظر عليهم الزواج لضعف فيهم انه اذا جار القانون عليهم ولم يرض لهم الاشتراك في النسل والحب فهو يوجب عليهم اذا ارادوا الخضوع لما اوصى به الشرف والواجب ان يتنحوا عما يجعل العاهات فيهم دائمة .

اتجد تناقضاً في هذا الاستنتاج وفي شعور الآداب العالية التي دعوت اليها ؟ لا اظن ذلك . بل اني اعتقد ايضاً في بعض الاحوال الخاصة مثل قلة اسباب معاش الأسرة انه

يستحب لربها ان يتجنب زيادة عدد اولاده بدون روية لعلمه بانه يحكم عليهم بالحرمان والفقر منذ ولادتهم . وليس معنى هذا ان نقبل رأي مالتوس (١) كأنه حقائق في قوله بعدم التناسب بين نمو السكان ومواد معاشهم وان نقص التوازن بين الاحياء وما يحيون به لا بد من وقوعه على انه اذا ظهر ذلك فيكون من عدم التساوي في توزع الاجناس البشرية على سطح الكرة الارضية .

ترى العناصر الانسانية تتكاثف في بعض الحال بحيث يؤدي بها ضيق مضطربها الى النزاع على اصغر قطعة من الارض التي كادت تفقد قوتها الانباتية على حين ان هنالك اراضي واسعة نادرة بخصبها وهي لا تزال بوراً . بيد ان مصاعب كثيرة تحول دون الافراط في الاكثار من الجنس الانساني . وبعد فان للطبيعة اسباباً ملطفة ما زالت نواميسها غير معروفة حتى معرفتها ولكن لها عمل لا يسع احداً انكاره على ضروب التناسل في عالم النبات كما في عالم الحيوان .

فقد ذكرت بعض الحوادث النادرة فيجب الآن ان ادخل في التعميم بان اصور سلطة الاب على نحو ما هي معروفة عند ارباب الافكار الحديثة . كانت سلطة الاب على اولاده مطلقة في القديم وجعلت الوصايا العشر برّ الوالدين من اقدس واجبات الابناء فاذا قال الولد لابيه أفٍ وخرج عن طاعته يعاقب بالموت . ومثل هذا القانون كان نافذاً في آثينة وان كان بشدة اقل . وكان لرب الأسرة في رومية الحق المطلق ان يقمع ما ارتكب ابناؤه واهله من الاغلاط ولم تكن صلة القربى منظوراً اليها بانها نتيجة عقد بين الزوجين ولا يتيسر حلها اللهم الا عند الجرمان والصقالبة (السلافيين) وما كان الابن حراً بالخروج من أسرته بمحض ارادته بل من الضروري استحصال رضى والده يمنحه اياه في صورة كأنه يحرره من رقه .

وغير نكير ان الطفل على جهله في كل شيء محتاج للتعليم والتهذيب فيجب عليه الطاعة لوالديه ويجب عليهما ان يحباه كثيراً ويحترماه بما بينهما من الصلات وبما يعاملانه به من المعاملة الحسنة لتكون تلك الطاعة مبنية على العطف والطبيعة . يجب ان نقوى فيه الرغبة في التعليم والعادة على الافتكار والشعور بالعدل وطيب السريرة تلك الصفات التي تضيق

---

(١) هو اقتصادي انكليزي مات سنة ١٨٣٤ ومن رأيه ان يمنع ارباب العاهات عن الزواج لئلا يزيدوا النسل البشري اعضاء ضارة وان نمو السكان يزيد في الارض عن نمو ما يقيتهم من الزرع والضرع فيجب ان يقال الناس من الايلاد وقد طبق مبدأه على نفسه فلم يتزوّج الا في الثامنة والثلاثين ورزق ثلاثة اولاد .

خناق على اهوائه وتجعله عضواً نافعاً في حياته المستقبلة . فاذا اعتاد ذهنه الاشتغال يقوى ويجود كما يقوى الشعور بالمسئولية . يجدر ان نترك له حريته وان يستعاض عن اخضاعه لاوامر والديه بنصائح فيها العطف والحنان . فاذا طلب الى الولد وقد استكملت سنه ان يحتفظ كل الحفظ بما يلزم به من الطاعة وهو على كمال الاستحكام في قواه فيعد ذلك اجحافاً بحقوقه واحراجاً لصدره . وعلى الوالد في تلك الحال ان لا يكون الا بمنزلة صديق يؤخذ كلامه بالاجلال لا ان يكون بمنزلة معلم يسيطر على مستقبل ليس له منه ناقة ولا جمل .

كان التبني يسهل كثيراً في القديم فوضعت له القوانين اليوم قيوداً وشروطاً . واخذت الصلات العائلية في الانحطاط عند الطبقات التي هي اكثر من غيرها انغماساً في الحضارة في اوروبا واميركا فكان للحياة الخاصة في سالف الازمان صفة ثابتة نتجت من النظام الاجتماعي الموضوع الذي فُقد في المدن الكبرى لهذا العهد . وكان من ازدياد صلات الامم بعضها مع بعض وتمازج العناصر المختلفة تعديل كثير من العادات المتأصلة والآراء التي كانت تجل سابقاً فزاد الارتباط بين الافراد والمجموع الذين هم بعضه ودعت سهولة التنقل الى حدوث تغييرات في المحيط فنشأ عن ذلك بحكم الطبع تأثرات جديدة اثرت في الحركة العقلية فاتسع مداها وانصبغت بصبغة الانسانية . على ان موازنة الاخلاق القديمة قد سرت اليها امور كثيرة القت فيها الاضطراب وزعزعت منها الاركان وستصلح بالضرورة اذ لا يقوم مبدأ الاسرة على اساسه الطبيعي بدون شيء من التضامن . وكل اجتماع بشري عُرّض للزوال بعدُ عقيماً لا ثمرة فيه بتاتاً .

نبأ مصر

﴿ وحالة الاجتماع فيها للسنة الماضية ﴾

نسيمٌ بوادي النيل غيرُ بليلِ وظلٌ بهذا الروض غيرُ ظليلِ
فلا الارض تلك الارض خصباً لاهلها ولا النيلُ في ارض البلاد بنيلِ
نفضنا يدينا وانزوينا مذلةً وأضيعُ ما في الناس حقُّ ذليلِ
لنا كل يوم أُنفُ رأيٍ وما لنا عليها من الافعال فردُ دليلِ
نقلد ألفاظ السياسة عمرَنا وندهل عند الحزم أيَّ ذهولِ
ويابعدَ ما بين (الصليل) وهوله وان قربا لفظاً وبين (صهيل)

فلاسفةٌ فيما نقول فلم نزل ... نصول على الدنيا ببعض نقولِ
وما من حديث بات غير مشقق ... ولا من جدال بات غير فصول (١)
أفي كل يوم كاتبٌ يشرع القنا ... ليقلب جنب الارض بعد قليل
أفي كل يوم صارخٌ ذو حميةٍ ... يضجُّ بقالٍ في البلاد وقيلِ
أفي كل يوم شاعرٌ ذو حفيظة ... يخط سطورًا من دماء قتيلِ
أيحسب ميزان السياسة في الورى ... كميزان مفعولاته وفعول
وأنبئتهم يستصرخون ليوقظوا ... نيامًا بليلٍ في المطال طويلِ
فياباذخ اليمّ اضطربت ولم تزد ... على نزوات أعقبت بخمول (٢)

***

أألآنَ والغرسُ الذي تمطرونه ... ملايينُ لم تثمر ببعض عقول
صغارٌ وجبنٌ خالعٌ في كبارهم ... واصغرهم غالته لفظة «غول»(٣)
تخيلتمونا أهل كل عزيمةٍ ... كما خال قصرًا ناظرٌ لطلول
ولا طولَ فينا غير نوع تطاولٍ ... ولا فضل فينا غير بعض فضول
بكل سبيل نزمعُ السير للعلى ... ونرتدُّ للسفلى بكل سبيل
تآدوا لغايات المنى بأداتها ... فما جلَّ لا يبغيه غير جليل
ألا إنما الداءُ الغميض عقولنا ... وما شجرٌ ينمو بغير أصول
وأهونْ بتفريج الامور ولفها ... اذا القيت يومًا لغير جهول

***

تباين ما بين الرجال وكلهم ... على زعمه بالامر خير كفيل (٤)
فياعصبة الاحزاب ردوا حلومكم ... وجرُّوا على غير الثرى بذيول
فقد سطعت في مصر منكم عجاجة ... ولكنها لاحت بغير صليل
عجاجة صيفٍ قد اثارت قتامها ... خيولُ سباق لا ضراغمُ غيل(٥)
وما انتمُ في امرٍ شيءٍ من الهوى ... فما بال واشٍ بينكم وعذول
واحييتموها سنةً جاهليةً ... عداء اصيل فيكم «ودخيل»

---

(١) الحديث المشقق الذي يشتق بعضه من بعض وهي كناية عن ترديد كل قائل ما يقوله الآخر (٢) باذخ اليمّ موجه المرتفع (٣) اشارة الى مبدء تربيتنا المهول من التفزيع بالبعبع والغول (٤) تباين ما بينهم انقطع كل عن صاحبه (٥) اشارة الى استباق اكثرهم غاية الشهرة من غير اتحاد على مبدءٍ يناضلون عنه بحماسة فطرية

تخلوا بأمر العلم واستجمعوا له قواكم فان العلم خير دليل (١)
ولا تخلطوه بالنفاق تقيةً وجبناً فظهر الحق غير ذلول
فما لكمُ الا الذي تعملونهُ وان تبدلوا منه فشر بديلِ
ألما تزالوا قاصرين فامركم ضياعٌ اذا لم يعتصم « بوكيل »
تقوا عارها من سُبةٍ تتركونها لجيلٍ ويُلقيها الزمان لجيلِ

***

أرى فئةً كالغانيات تدللاً تميل مع الاهواء كل تميل
تخال الفتى منهم على ظلمة النهى لالوان ثوبيه سماء اصيل(٢)
ملولٌ كما شاء الهوى واقنداؤه بمن حوله من خلقٍ وخليل
وما وجد الاعمال يوماً وانما ليستحسنوا فيه دلال ملولِ
وظن الفتى أن « التمدن أنثوي » فتابع فيه كل ذات حليلِ
تماجن في اشكالها من مصبغٍ الى كل مجلوٍ وكل صقيل
الى اللفظ حتى ما تكاد شفاهه تبين بلفظٍ منه غير نحيلِ
الى اللحظ حتى ما تكاد جفونه تطارح لحظاً منه غير عليلِ
دلال جميل بالجمال مهنا فآهٍ عليه من دلال جميل

***

اولئك هم شباننا لو عرفتمُ وهم كل من في مصر غير قليل
مظاهر نبلٍ نافقوا في اصطناعها ألا قبحت من صنعة لنبيل
أحلنا على غيب القضاء همومنا واية سلوى في القضا لمحيلِ
وما نحن « اهل الحكم » ندفع دفعهم فان لم ينيلونا فايُّ منيلِ
هم عوّدونا الذل ثم تطوّلوا فمنوا علينا بين كل قبيلِ
ومن عوّد الذل الرجال حلا له فخارٌ اذا ما قابلوا بقبول
فيامصر انت السيف صقلاً وجلوةً ولكن بلا حدّ (ولو بفلول)
ويا كفَّ مصر ذلك السيف والوغى فان تستطيعي بعد ذاك فصولي

***

لجمعنا بما لا تضمرون حزارةً واكثرنا من عالمٍ ومعيلِ

---

(١) تخلى بالامر انفرد به وافرده بالعناية (٢) الثوبان هنا هما الثوب الظاهر كله والثوب الباطن بعضه كالقميص وما اليه

فياشؤمها من ازمةٍ تركتكمُ واولاكمُ بالفخر كل بخيل
وكم أُسرةٍ تمسي المضاجع منهمُ تقلب طول الليل كل هزيلِ
يعدُّ رغيفُ الخبز فيهم وليمةً لدى كل منضمٍ هناك ضئيلِ (١)
اخاف على ارض البلاد ونيلها ذهابهما رهناً لكل نزيل
فنمسي على نيل البلاد وارضها كأَنا على ماءٍ (وبعض وحولِ)
جريتم سِراعاً للغنى تطلبونه بكل طريق فاهنأُوا بوصول (٢)
وإما اراد المقعدُون سلامةً فما « لصعود » بينهم « ونزول »
تصيحون بالمحتل نستعبدونه مراغمةً ما انتمُ بعدُولِ
الا فاطلبوا اثباتنا في بلادنا فان ضياع الملكِ بدء رحيلِ
ومن يطلب الامر البعيد ويهمل الـ قريب يضع امريه بعد حصولِ
انظماً نفسي الآن والماء في يدي وأترك للانهار بلَّ غليلي
فلا تتوانوا انما الوقت فرصةٌ تمرُّ ومرُّ الوقت غير ثقيلِ

مصطفى صادق الرافعي

على رمل الاسكندرية

ايه ايتها الامواج الخالدة كم شاهدنا من امواج الانسانية ومن بحورها الفانية ·

امام عيونك الزرقاء وفي ظل ابتسامتك الفضية كم تبخر بحر ونضب وكم تبددت تحت اقدامك موجة هادرة شامخة من امواج البشرية ·

على هذا الساحل الذهبي الجميل قاتلت الملوك قديماً فتغنت باخبار مواقعها ارباب الفنون ورددت صدى غزواتها السن الشعراء ·

بالقرب من صدى هديرك الهائل هاجت امواجهم وماجت فعادت الى حيث لا يبلغ مدك ولا تبصر عيونك الرمل والصخور ·

عادت امواج انفسهم المضطربة الى حيث لا نبع الا نبعك الدافق من ميازيب ذهبية في بساتين من النور الازلي الروحاني ·

---

(١) المنضمُّ الضامر (٢) هذه التهنئة في اسلوب التهكم على اهل الجحيم من قوله تعالى (ذق انك انت العزيز الكريم)

هناك نبعك ايتها الامواج وهناك ايضاً نبع الانسانية ·

***

انت هجت قديمًا في صدر الاسكندر فجئت به الى هنا ليبني لك هذه المدينة الزاهرة ·
انت حملت انطونيوس اليها ليطفيء لوعة غرامه ·
انت منحت القيصر قسطاً من عظمتك فخاض عبابك طمعاً بملك عظيم بل شغفاً بوجه وسيم ·
واراك الآن هائجة في قلوب الصغار والاذلاء كما هجت قديمًا في قلوب الملوك والامراء ·
اراك مضطربة مبتسمة معاً اذ تشاهدين على ساحلك هذه الامواج المزدوجة من بحر الانسانية ·
هي تتمازج على الرمل في كنف الصخور تمازجك في بطن امك ·
هي امواج من النفس يحنّ بعضها الى بعض ويهيج بعضها على بعض ويختفي زبد الواحدة تحت زبد الاخرى و يذوب زجر الهائجة تحت مدّ المدبرة ·
الحب ايتها الامواج يؤيدك ·
والحب يحمل اليك هذه الامواج القلقة الفانية ·
ومهما عظم اضطرابها على سواحلك الذهبية فراحتها اخيرًا تحت ابتسامتك الفضية الازلية ·

***

لا تعجبي من هياج هذا الانسان واضطرابه فما هو سوى طوائف من الاسماك والحيوانات البحرية تختبط في بحر من النفس لا يرى مدينتنا من المدن الكائنة تحت امواجك ·
ايها البحر الهائل ايها الرقيب الازلي وفيها من الحيتان والدلافين ما يزري بحيتانك ودلافينك ·
فيها يهدر بحر من هذه الانسانية المتكالبة ·
ولكل موجة من هذا البحر الغريب لون يختلف عن الآخر ·
لكل موجة صوت لا يشبه اخاه ·
لكل موجة شكل ومنهج وعبوسة وابتسامة ·

***

هذه الاسكندرية وفي بحرها تشاهدين الآن ما لم تشاهديه فيما مضى من الزمان ·
امامك الآن امواج مزبدة من نهر التايمس الهادىء · وامواج هادئة من نهر المسيسبي المتدفق وامواج كرواسي الجبال من انهر الرون والرين والدانوب والسين · وامواج عليلة لطيفة من بحر الاحمر وبحر الهند وبحر فارس ·
هي الامواج يتلاطم بعضها ببعض ويمتزج بعضها ببعض و يبتلع بعضها بعضاً و يقتل بعضها بعضاً

او يعطف بعضها على بعض والكل يهلك نفسه في هذه الحركة الدائمة . في هذا العراك الشديد والضجيج المديد .

يشيدون الصروح ويهدمونها . ويؤسسون الممالك ويبيدونها . فيتلاشون اخيرًا تحت اقدامك . وانت باسمة ضاحكة تسخرين منهم وامواجك منك كالظلال تحمل اليهم نبأً من الابدية .

***

بحر الانسانية يفيض ويزبد ويهيج ويهدأ ويتجزر ويتصبب ويعكر ويرسب ويتلاشى وانت باقية الى الابد .

تشاهدين هذا الزمان كما شاهدت اباطيل الازمنة الغابرة .

تسمعين ضجيج ابطال هذا الجيل في «البورص» كما سمعت صليل رماح ابطال الاجيال الماضية في ساحات القتال .

وتستقبلين الشمس كل مساء كما تستقبلينها يوم لم يكن على سواحلك مدن ولا عمران ولا نبت ولا حيوان .

لبنان امين ريحاني

نحن على منطاد

نحن من ارضنا على منطاد جائل في شواسع الابعاد
طائر في الفضاء عرضًا وطولا بجناح من القوى غير باد
ايها الارض سرت سيرك مثنى ذا نتاجين في زمان أحاد
فتقلبت في نهار وليل ذا مضل وذاك للناس هاد
في بلاد يكون سيرك تأو بًا على انه سرى في بلاد
فيك دفع وفيك يا ارض جذب لك ذا سائق وذلك حاد
فلك دائر على الشمس طورًا في اقتراب وتارة في ابتعاد

***

ليت شعري وما حصلت من الآ راء الا على خلاف السداد
لبقاء نقلنا الارض في تس يارها أم نقلنا لنفاد
نحن في عالم تقصف فيه عارض النائبات بالارعاد

شأننا العجز فيه نوجد أنى   قذفتنا يد الخطوب الشداد
ضاع جذر الحياة عنا نخلنا   انها كالاصم في الاعداد
شغلتنا الدنيا بلهو ولعب   فغفلنا والموت بالمرصاد
ضل من رام راحة في حياة   نحن منها في معرك وجلاد
كلما قد أجلت في ام دفر   فكر مستبصر بها نقاد
قلت قولاً افاد من قبل فيه   فيلسوف القريض غير مفادي
« ان نجحا في ساعة الموت اضعا   اف خسار في ساعة الميلاد »
انما هذه الحياة جروح   اثخنتنا والموت مثل الضماد
كل امر يهون ان أطلقت أر   واحنا الموثقات بالاجساد
لا تلمني اذا جزعت فاني   ماملكت الخيار في ايجادي
طال عتبي على عدات الليالي   مثلما طال مطلها بمرادي
كدرت عيشيَ الحوادث حتي   لا اري الصفو غير وقت الرقاد

***

صاح ما دل في الامور على الاشـ   ـكال الا تفحص الاضداد
فاعتبر بالسفيه تمس حليماً   وتعرّف بالغيّ طرق الرشاد
واللبيب الذي تعلم اتيا   نَ المعالي من خسة الاوغاد
ايها الغرّ لا تغرّك دنيا   ك بكون مصيره لفساد
خف من غاص في الغرور كما في   لجة الماء خف ثقل الجماد
ياخليليَّ والخليل المواسي   منكما من يقوم في اسعادي
خاب قوم اتوا وغى العيش عزلاً   من سلاحي تعاون واتحاد
قد جفتنا الدنيا فهلاّ اعتصمنا   من جفاء الدنيا بحبل وداد
لو عقلنا لما اختشى قط محسو   دون وقع الأذاة من حساد
فمتاع الحياة احقر من ان   يستفز القلوب بالاحقاد
أنا والله لا أريد بان أو   قع شرّاً ولو على من يعادي
انّ لي ان سمعت انة محزو   ن انيناً مرجعا في فؤادي
ان نفسي عن همها ذات شغل   بهموم العباد كل العباد
لا احب النسيم الا اذا هـ   ـبّ على كل حاضر او باد

***

ايها الناس انّ ذا العصر عصـ   ـر العلم والجدّ في العلى والجهاد

عصر حكم البخار والكهربائيـ   ـة «والماكنات» والمنطاد

بُنيتْ فيه للعلوم المباني   ز أُقيمت للبحث فيها النوادي

فاض فيض العلوم بالرغم ممن   ضربوا دونهن بالاسداد

ان للعلم في الممالك سيرًا   مثل سير الضياء في الابعاد

اطلع الغرب شمسه فحبا الشر   ق اقتباساً من نورها الوقاد

ان للعلم دولة خضعت دو   ن علاها عوالم الاضداد

ما استفاد الفتى وان ملك الار   ض باعلى من علمه المستفاد

لا تسابق في حلبة العزّ ذا العلـ   ـم فما للهجين شأو الجواد

ان اموات امة العلم احيا   ء حياةَ الارواح والاجساد

وكأين في الناس من ذي خمول   صار بالعلم كعبة القصاد

***

ربّ يوم وردت دجلة فيه   موردًا خاليًا عن الوراد

حيث ينصبُّ في سكوت عميق   ماؤها لاثمًا ضفاف الوادي

وهبوب النسيم يكتب في الما   ء سطورًا مهتزة في اطراد

يمحي بعضها ويظهر بعض   فهي تنساب بين خافٍ وباد

وتئن المياه لي بخرير   كأنين السقيم للعوّاد

قمت في وجهها أُردّد طرفي   ساكنًا والضمير مني ينادي

واقفًا تحت سرحة ناح فيها   طائر فوق غصنها المياد

منشدًا في النواح شعرًا غريزيـ   ـًا حزينًا كأنه انشادي

جاوبته افنانها بأنين   من حفيف الاوراق والاعواد

ايها الطائر المرجع فوق الـ   غصن هل انت نائح ام شاد

بين ماء جارٍ ولحن شجيّ   منك ياطائر استطار فؤادي

يامياهًا جرت بدجلة تجتا   ز مرورًا بجانبي بغداد

ان نفسي الى الحقيقة عطشى   افنشفين غلة من صاد

كنت تجرين والرصافة والكر   خ خلاءٌ من رائح او غاد

ايها الماء اين تجري ضياعًا   وحواليك قاحلات البوادي

فمتي تفطن النفوس فيحيا   بك سقيًا موات هذي البلاد

لو زرعنـا بك البقاع حبوبًا لحصـدنا النضار يوم الحصاد
افيدريـ خليج فارس ماذا فمـه منـك بالع بازدراد
انت والله عسجد ولجين لو اتينا الامور باستعداد
فاجرِ يامآء ان جريت رويدًا باناة ومهـلة واتآد
علنا نستفيق من رقدة الفقـ ـر فنغنى بفيضـك المزداد
سلكتك السما ينابيع في الار ض امدتك ايمـا امـداد
فتفجرت في السفوح عيونًا نبعت من مخازن الاطواد
واذا ما انتهيت في جريان عدت للبدء في متون الفوادي
هكذا دار دائر الكون من حيـ ـث انتهى عاد راجعًا للمبادي

بغداد معروف الرصافي

مطبوعات ومخطوطات

الحياة الاجتماعية وتقلباتها

Ernest Van Bruyssl .- La vie sociale et ses évolutions. Paris , Librairie Ernest Flammarion

هذا كتاب اخرجه مؤلفه للناس باللغة الافرنسية في الشهر الماضي في نحوار بعمائة صفحة وقسمه الى عشرة اجزاء ذكر في الاول الأُسرة ومقر الأُسرة وفي الثاني طوائف الناس وتاريخهم وحالة العالم الحاضرة وفي الثالث العواطف الدينية ومظاهرها وتأثير المعتقدات الدينية الاجتماعي وفي الرابع الاوضاع القانونية وتعديل تنظيم القانون وفي الخامس المصالح المادية واتساعها ومكانتها بين الامم والحلات البحرية والاستعمارية ونتائجها وفي السادس الصنائع والفنون والهندسة والنقش والتصوير والموسيقى وفي السابع الآداب وانتشار القديم والحديث منها وفي الثامن نظرة في العلوم وما نتج من الاخصاء فيها على التوالي وفي التاسع طريقة التعليم على اختلاف العصور وفي العاشر نشوء الافكار السياسية والمنازع الاجتماعية. هذه فصول الكتاب وكلها مفيد نافع توخى مؤلفه بعد التجارب الطويلة ان يجعله معلمًا للقارئ يتنزل لتعليمه لا ان يلقي عليه مسائل قد لا يفهمها الا كبار العلماء . فجاء كتابه نافعًا للخاصة والعامة جامعًا العمليات الى النظريات قال المؤلف في مقدمته :

« كنت في قرطجنة على شاطئ البحر والظلام ملق سدوله على السماء فلا ترى فيها الا

ما ازدانت به من زينة الكواكب والسكون يجف بي وقد ملىء اسرارًا وساد الآكام والسهل حيث كانت هذه المدينة الفينيقية في سالف العصور محاطة باسوارها الثلاثة وفيها معابدها وقصورها وارصفتها الزاهية واليوم لا يرى فيها الا بضعة حوائط مبعثرة يردعهدها الى العصر الروماني واكوام من الانقاض يحدق بها فلاح عربي بمجراثه وقباب باهتة واحواض نصفها مملوء وقبور مدنسة وقطع من عُمد ملقاة بين باقات نبات البرواق والفحم .

وأيت ثمت صورة لا تنسى فذكرت بتلك الخرائب المبعثرة ما طرأ من التبدل العظيم على الحياة الاجتماعية فكان منه انحلال في بعض الاصقاع وتحسين في اخرى ومابرح قابلاً للتحول بما فيه من النقص الظاهر لاتساعه وانبساط محيطه فادى بي التأمل الى ان اخذت أفكر في القوانين التي لاتتبدل احكامها في هذا الوجود ولم يبرح امرها مجهولاً في الاغلب

وما تاريخ الانسانية في الحقيقة الا سلسلة من الحوادث لو بحثنا فيها بحثاً منطقياً لرأينا بعضها متشعباً من بعض فاذا اوردت هذه الحوادث الغزيرة فلا ترى فيها الا اتعاباً للذاكرة بدون ان يستنير بها الفكر واذا جمعت على ترتيب حسن بقطع النظر عن تفاصيلها العديدة فتكون مملوءة بالفوائد . الا وان الاشتغال في اتمام هذه الباكورة العامة التي تتضمن درس المجتمعات البشرية منذ ابتدائها وتتبعها في نشوئها التدريجي وتضعها موضع التطبيق والعمل بحيث تصف ما فيها من المنازع والمناحي لما يساعد على نشر هذه الافكار الكثيرة ويدعو الى التوفر على ابحاث اهم واحدث .

خطر لي هذا الخاطر ساعة وانا في خلوة وامامي ماضي البشر الذي يوحي الى القلب ما يوحي . فاهاب بي ان اشرع بمثل هذا العمل على حين لم اجهل صعوبته وذلك لانه اقتضى ان اوضح فيه مجموع ما ظهر من بدائع عقول البشر في السياسة والعلوم والفنون والادب وهو متوقف على جميع انواع البحث على صورة تكاد تكون كدائرة المعارف بما تجمع وتضم . وفي هذا التأليف من الفائدة ولو لم يستوف حقه انه يسهل تقويم كثير من المشاكل الاجتماعية التي لا تزال موضوع البحث وان يرسم قانوناً صريحاً لمجموع الاعمال العقلية امام الناظر لاحدث الاضطرابات الدنيوية الحديثة والاخلاص رائد القول في الاستنتاج بحرية فكر فلا تورد الا بعد تمحيصها كل التمحيص . هذه الامور حملتني على ان اتم ما قام في ذهني وان اضم نتائجه في الصفحات التالية اه . وقد عربنا منه في غير هذا المكان مبحث الاسرة وسننقل للقراء اهم مباحثه .

المزهر

للسيوطي كتب لا تحصى افردها بمؤلف خاص ومنها الجيد ككتاب المزهر وكتاب

الاتقان في علوم القرآن . اجاد في المزهر كل الاجادة فافاض في متعلقات علم اللغة وكتب فيه فصولاً بديعة انتقاها من الكتب المعتمدة فجاء الكتاب مفرداً في بابه وقلّ من كتب فيه من المتأخرين مع انه من اجلّ الفنون التي عُني بها المتقدمون . وقد تعرض فيه لكثير من اسرار اللغة العربية وهو من اهم ما يعنى به المستشرقون في هذا العصر. وهنا كلمة ينبغي ان تقال وذلك ان كثيراً من المؤرخين ومنهم أُناس من مؤرخي عصر السيوطي قد بخسوه بعض حقه فزعموا انه نقال غير نقاد يجمع بين الغث والسمين وهذا على اطلاقه مما ينتقد عليهم لانه قد اجاد الانتقاء في مثل هذا الكتاب على انه قد اظهر اعظم اجتهاد في أُصول اللغة العربية وذلك في الاقتراح في اصول النحو ناظر

طبع هذا الكتاب الشيخ محمد سعيد الرافعي على اجمل شكل وحرف بعد ان طبعت الطبعة الاولى في المطبعة الاميرية منذ زمن وقد اختار له ورقاً صقيلاً رقيقاً فوقع الجزآن منه في قدر سبعمائة صفحة متوسطة القطع خفيفة الحمل و يباع في المكتبة الازهرية بالقاهرة بعشرة قروش مجلداً وهو من الامهات التي لا يسع احداً من المشتغلين بالعلم ان يزهد فيها

الاضداد

بلغت عناية العلماء باللغة ان افردوا كل فرع من فروعها بكتاب وهو غاية ما يتصور في العناية ومن ذلك الاضداد وهي الكلمات التي تدل على الشيء وعلى ضده كالجون فانهم قالوا انه يطلق على الابيض وعلى الاسود وقد انكر ذلك ابن درستويه والف كتاباً في انكاره بناه على ان ذلك مناف لحكمة الوضع وخالفه الاكثر في ذلك والفوا فيه ومنهم قطرب والتوزي وابو بكر ابن الانباري وابو البركات ابن الانباري وابن الدهان والصاغاني فانهم اثبتوا ذلك والفوا فيه وكتاب الاضداد لابن الانباري المتوفى سنة ٣١٨ ﻫ من انفس ما أُلف في هذا النوع وقد تعرض في اوله لسبب وقوع مثل هذا في اللغة ودفع اعتراض المعترضين وافاض في هذا الموضوع افاضة واسعة وكتابه من اهم ما كتب ناظر

طبع هذا الكتاب الشيخ محمد سعيد الرافعي صاحب المكتبة الازهرية وكان طبع في اوروبا من قبل وقد عُني الشيخ احمد الشنقيطي بضبطه وشكله وتصحيحه فجاء في ٣٨٠ صفحة متوسطة جيد الطبع وهو يطلب من طابعه بمصر باثني عشر قرشاً فنحض على اقتنائه .

رسائل الفارابي

هي ثمان رسائل منسوبة للحكيم ابي نصر الفارابي المشهور بالمعلم الثاني الاولى في الجمع بين رأيي افلاطون وتلميذه ارسطاطاليس فيما يظن انهما اختلفا فيه وذلك في مسألة حدوث

العالم وقدمه وفي اثبات المبدع الاول وفي وجود الاسباب منه وفي امر النفس والعقل وفي المجازاة على الافعال خيرها وشرها وفي كثير من الامور المدنية والخلقية والمنطقية ٠ والرسالة الثانية في الابانة عن غرض ارسطاطاليس في كتابه المعروف بما بعد الطبيعة اشار فيه الى الغرض الذي وضع فيه هذا الكتاب المبين المقصد ٠ والرسالة الثالثة في معاني العقل قال في اولها اسم العقل يقال على اشياء كثيرة الاول الشيء الذي يقول به الجمهور في الانسان انه عاقل الثاني العقل الذي يردده المتكلمون على السنتهم فيقولون هذا مما يوجبه العقل او ينفيه العقل الثالث العقل الذي يذكره ارسطاطاليس في كتاب البرهان الرابع العقل الذي يذكره في المقالة السادسة من كتاب الاخلاق الخامس العقل الذي يذكره في كتابه النفس السادس العقل الذي يذكره في كتابه ما بعد الطبيعة ثم افاض في بيان كل واحد منها وماهيته ببيان مثل ابي نصر ٠ والرسالة الرابعة فيما ينبغي ان يقدم قبل الفلسفة ذكر فيها الاشياء التي يحتاج الى تعلمها ومعرفتها قبل تعلم الفلسفة التي أُخذت عن ارسطو وهي تسعة اشياء منها بيان ما ينبغي ان يبدأ به قبل تعلم الفلسفة قال فيه : اصحاب افلاطون يرون انه علم الهندسة و يستشهدون على ذلك بقول افلاطون (لانه كتب على باب هيكله من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا) وذلك ان البراهين المستعملة في الهندسة اصح البراهين كلها واما آل ثوفرسطس فيرون ان يبدأ بعلم اصلاح الاخلاق وذلك ان من لم يصلح اخلاق نفسه لم يمكنه ان يتعلم علماً صحيحاً والشاهد على ذلك افلاطون في قوله من لم يكن نقياً ذكياً فلا يدنُ من نقي ذكي و بقراط حيث يقول ان الابدان التي ليست بنقية كلما غذوتها زدتها شراً واما بواثيس الذي هو من اهل صيدا فيرى ان يبتدأ بعلم الطبائع لانها اعرف واقرب عنده وآلف واما اندرونيقس تلميذه فيرى ان يبتدأ بعلم المنطق اذ كان الآلة التي تمتحن الحق من الباطل في جميع الاشياء ٠ قال ابونصر وليس ينبغي ان يرذل واحد من هذه الآراء ومنها الحال التي يجب ان يكون عليها الرجل الذي يؤخذ عنه علم ارسطو قال فيه : هي ان يكون في نفسه ما قد تقدم واصلح الاخلاق من نفسه الشهوانية كيما تكون شهوته للحق فقط لا للذة واصلح مع ذلك قوته الناطقة كي تكون ارادته صحيحة ٠ والرسالة الخامسة في مسائل مهمة في علم الحكمة عبر عنها باوجز عبارة قال في آخرها عناية الله تعالى محيطة بجميع الاشياء ومتصلة بكل احد وكل كائن فبقضائه وقدره ٠ والرسالة السادسة فيما يصح وما لا يصح من احكام النجوم ومما قال فيها : التجارب انما تنفع في الامور الممكنة على الاكثر فاما الممكنة في الندرة والممكنة على التساوي فانه لا منفعة للتجربة فيها وكذلك الروية واخذ التأهب والاستعداد انما ينتفع بها في الممكن على الاكثر لا غيره واما

الضروريات والممتنعات فظاهر من امرهما ان الروية والاستعداد والتأدب والتجربة لا تستعمل فيهما وكل من قصد لذلك فهو غير صحيح العقل واما الحزم فقد ينتفع به في الامور الممكنة في الندرة والتي على التساوي . والسابعة في مسائل متفرقة سئل عنها الحكيم الثاني ومنها اي افضل الحفظ ام الفهم فقال :الفهم افضل من الحفظ وذلك لان الحفظ فعله انما يكون في الالفاظ اكثر وذلك في الجزئيات والاشخاص وهذه امور لا تكاد تتناهى ولا هي تجدي وتغني لا باشخاصها ولا بانواعها والساعي فيما لا يتناهى كباطل السعي والفهم فعله في المعاني والكليات والقوانين وهذه امور محدودة متناهية وواحدة للجميع والذي يسعى في هذه الامور لا يخلو من جدوى ثم قال :فاذا كان معوّله على الاصول والكليات وعرض له امر من الامور امكنه ان يرجع بفهمه الى الاصول فيقيس هذا بهذا وقد تبين ان الفهم افضل من الحفظ . والرسالة الثامنة في فصوص الحكم وهو كتاب من كتبه المهمة شرحه السيد محمد بدر الدين النعساني ومنه : اذا عرفت اولاً الحق عرفت الحق وعرفت ما ليس بحق وان عرفت الباطل اولاً ولم تعرف الحق على ما هو حقه فانظر الى الحق فانك لا تحب الآفلين بل توجه بوجهك الى وجه من لا يبقى الا وجهه .

هذه هي الرسائل كما ترى وللفارابي كتب كثيرة مهمة من اهمها بالنسبة الينا كتاب احصاء العلوم وترتيبها وبلغنا انه طبع في اوروبا وشرح كتاب الخطابة لارسطاطاليس وكتاب الالفاظ والحروف وكلام في الملة والفقه المدني جمعه من اقاويل النبي صلى الله عليه وسلم وكلام له في الشعر والقوافي وكتاب في اللغات وكتاب شرائط اليقين ورسالة في ماهية النفس . وقد قدم له طابعه محمد امين افندي الخانجي مقدمة تناها بترجمة الحكيم ابي نصر وترجمة افلاطون وارسطاطاليس وهو يطلب من مكتبته بالقاهرة بقرشين ونصف وعدد صفحاته ١٧٦ صفحة صغيرة .

امالي السيد المرتضى

من اشهر كتب الامالي امالي السيد المرتضى ابي القاسم علي بن الطاهر ابي احمد الحسين المتوفى سنة ٤٣٦ وهو في التفسير والحديث والادب طبع في بلاد فارس فاعاد طبعه احمد افندي ناجي الجمالي ومحمد امين افندي الخانجي واخوه في مصر في اربعة اجزاء من قطع الوسط وبلغت صفحاته نحو سبعمائة صفحة . وقد سبق لنا ان وصفنا هذا الكتاب بيان اطول عند صدور الجزء الاول منه وقد كانت قيمته بالاشتراك عشرين قرشا وهو الآن بعد تمام طبعه بخمسة وعشرين يطلب من مكتبة الخانجي [illegible] .

الايمان

كل ما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ في الشريعة والفقه والرد على المخالفين هو آية في حسن اسلوبه وغنائه . وكتاب الايمان هذا من جملتها طبع في الهند للمرة الاولى واعاد طبعه هذه الآونة احمد افندي ناجي الجمالي ومحمد امين افندي الخانجي واخوه بمصر هو يباع عندهم بستة قروش وعدد صفحاته ١٩٠ صفحة من القطع الكبير .

منجم العمران

في المستدرك على معجم البلدان

عُني محمد امين افندي الخانجي بطبع معجم البلدان لياقوت الحموي الذي كان طبع في اوروبا وارخص ثمنه فاقبل على ابتياعه المغرمون بآثار السلف وقد جمع في مجلدين جاءآ في نحو ٧٥٠ صفحة ما فات المؤلف من ذكر الممالك الاوروبية والاميركية لان تقاسيمها حدثت بعد زمنه كما اكتشفت اميركا بعده بسنين طويلة مستنداً في ذلك من كتب المتقدمين على كتاب جزيرة العرب للهمداني وكتاب معجم ما استعجم للبكري وكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي وكتاب الاشراف للمسعودي وكتاب البلدان لابن الفقيه وغيرها من الكتب القديمة كما اعتمد في الجمع على زهاء ثلاثين كتاباً من كتب المحدثين في الجغرافية والتاريخ ولم يتعرض لذكر القرى والمحال والهضاب والجبال لان المؤلف الاصلي بالغ في البحث عنه وانما عمد الى ما للناس فيه فائدة من حادثة تاريخية او اثر جميل اوشيء غريب من احوال الصناعات والتجارات والمتنزهات وغير ذلك . وكنا نود لو صرف العناية اكثر من ذلك الى تمحيص المنقول فان في اكثر المؤلفات الحديثة في العربية في هذا الشأن من الاغلاط ما يكاد يرفع الثقة الا قليلاً . وعلى كل فنشكر لامين افندي توفره على احياء الكتب النافعة للخاصة والعامة ونرجو ان يكثر في طابعينا وكتبيينا من ينظرون الى منفعة المطالعين نظرهم الى منفعتهم الخاصة ليستفيدوا بذلك ويفيدوا . ويطلب معجم البلدان وذيله من الطابعين بثمنة وعشرين قرشاً بدون تجليد .

الركوسية

عُرف الاب انستاس الكرملي في بغداد بسعة الفضل وبعد الغور في المباحث اللغوية والتاريخية بما نشره حتى الآن في المجلات العربية والافرنجية . وامامنا الآن من قلمه هذه النبذة الاخيرة بالافرنسية نشرت في مجلة الانتروبوس (الانسان) الصادرة في النمسا

L'Anthropos, Revue internationale d'ethnologie et de linguistique. Salzburg, Autriche

في الركوسية وهم فئة قال بعض علماء العرب انهم طائفة بين النصرانية والصابئة وقال آخرون والحق معهم وعليه الاب انستاس انهم كانوا طائفة نصرانية فقط بدون ان يعرفوا ما هي معتقداتهم · ومن رأي المؤلف ان الركوسيين ليسوا الا كروسيين قلب اسمهم من كيروس بطريرك الاسكندرية الذي اعلن سنة ٦٣٣ للمسيح عقيدة وحدة الارادة في السيد المسيح (عليه السلام) (Monothélisme) واذا صح رأيه في هذه الطائفة وهو ما نسلم له فانا نرى استنتاجه بان عدي بن حاتم الطائي هو من ابناء هذه النحلة كما استشهد ببعض الاحاديث في ذلك مردود لما ان الحديث المستشهد به غير معروف · وكيف يمكننا ان نقول بان عديًا كان كروسيًا او ركوسيًا قبل وفاة النبي (عليه السلام) اي قبل سنة ٦٣٣ وهي قبل اعلان المجمع الاسكندري لهذا المذهب بسنة · وكذلك الحال في الاخطل فليس لدينا ما يثبت انه كان من اهل هذه الطائفة بمجرد انه كان يلبس لباس عدي

ا · ج

مخطوطات اسبانية

M. Lucien Bouvat-Sur quelques manuscrits de la Société Asiatique Relatifs à l'Espagne, extrait de la Revue Hispanique

هي رسالة بالافرنسية كتبها المسيو لوسين بوفا احد علماء المشرقيات الذي عرف القراء بعض فضله بما نشرناه معربًا من بعض ابحاثه وقد امتاز بالشرقية منها عامة والاسلامية خاصة · تكلم في هذه الكراسة على بعض كتب عربية كان اهداها اللورد كينغسبورغ الايرلندي للجمعية الآسياوية سنة ١٨٢٤ اي بعد تأسيسها بسنتين في جملة ما اهداها من الكتب الاسبانية والعربية والفارسية والتركية والهندية واليابانية · وقدم المؤلف مقدمة في ذكر المتبرع بتلك الكتب فقال انه طبع كتابًا ضخماً في « العاديات في المكسيك » لم يتم انفق عليه لا اقل من اثنين وثلاثين الف جنيه فكان فيه افلاسه وموته سجينًا لعجزه عن قضاء دينه واثبت فيه ان التمدن المكسيكي انتشر بفضل اناس من مستعمري الاسرائيليين · وافاض الناشر في وصف تلك المخطوطات العربية التي لها علاقة باسبانيا وا كثرها مطبوع في اوروبا ونقل منها شذرات بالعربية وقد نشرتها المجلة الاسبانية واخرجت منها نسخًا على حدة فجاءت ناطقة بفضل مؤلفها وتحقيقه فيما يخوض عبابه من الابحاث

تقرير المجمع العلمي السمثسوني

Annual report of the Board of regents of the Smithsonian Institution 1903

انتهى الينا تقرير هذه الدار العلمية في واشنطن وهي التي أسست سنة ١٨٤٦ بـ ٥١٥١٦٩

دولاراً اوصى بها لها احد اهل الخير من الاميركان المدعو سميثسون لتنفق في مشروع علمي يكون منه زيادة انتشار العلوم بين الناس ومساعدة رجال العلم على البحث ونشر مباحثهم في مجلدات وارسالها الى كل مكتبة مهمة في العالم. والعلوم التي يجيز هذا المجمع عليها في الاكثر هي الحيوان والنبات والجيولوجيا وعلم الآثار والفلك وقد وقفت عليه اموال اخرى فجاوز رأس ماله الآن زهاء مائتي الف جنيه · ونسبت الجمعية لواضع اساسها الاول · واعضاء هذه الجمعية المؤسسون رئيس الولايات المتحدة ونائبه وقاضي القضاة ورؤساء الدوائر التنفيذية وقد وقع هذا التقرير في ٥٧٦ صفحة متوسطة مطبوعاً اجود طبع وفيه خلاصة اعمال الجمعية ونفقاتها ومقالات العلماء وابحاثهم كما ان فيه رسوماً كثيرة ومصوّرات جميلة جدير بان تزدان به المكاتب ليكون من جملة العبر للشرق تنعي عليه توانيه عن اللحاق بالغرب في العلم والعمل

سير العلم

التمتمة

عنيت لجنة التعليم الابتدائي في مدينة لانكاستر بانكلترا بالبحث في احوال الاولاد الذين يتلجلجون في القاء دروسهم فثبت لمن عهدت اليه النظر في ذلك ان الاطفال يتمتمون ولا سبيل الى نزع هذه العادة منهم الا بالتمرين ورياضة الصوت وتعويده على عدم التردد في الكلام فجمع لذلك صفاً مؤلفاً من اربعين من البنات والبنين واخذ يعلمهم على اساليبه في تقوية التنفس وتحسين التلفظ وبعد عناية ستة اسابيع طفق الاولاد يقرؤن بصوت جهوري ساعات بدون تلعثم ثم زوّدهم الاستاذ بنصائح يجرون عليها في بيوتهم بمراقبة اهلهم · وهذه الطريقة تستدعي عناية فائقة من المعلم والمتعلم وكثيراً من الثبات ولا بد من التوفر على ترويض الصوت على هذا النحو حتى تزول التمتمة كل الزوال وقدارتأت اللجنة المشار اليها ان تنشأ فرق خاصة في كل مدرسة لهذه الغاية كما تؤسس فرق استعدادية في جميع مدارس المعلمين ·

حواس النبات

قال علماء النبات منذ نحو خمسين سنة بان للنبات حياة كحياة الحيوان وقام اليوم احدهم في هولاندة ليثبت بان للنبات كالحيوان حواس وان خفيت عن الانظار فلها حاسة الذوق وحاسة

السمع وحاسة اللمس . فالنبات على ما يقول بحسب الفصيلة التي ينسب اليها يتغذى بمواد يؤثرها على غيرها لانه يرى فيها لذته ويستطيبها . وللنبات حاسة الذوق والدليل على ذلك التحلب فان نموّه معروف بتزاوج الذكر بالانثى وهكذا ايد مدعاه في قوله ان للنبات ذوقاً وسمعاً ولمساً .

الانحطاط البشري

نشر الدكتور اميل كنغ من علماء الفسيولوجيا في برلين كراسة ليس فيها علامة خير على مستقبل البشر فقال ان الانسان قد انهك قواه وتركيبه الفسيولوجي فاصبح عرضة للامراض حتى انك لترى هذا الانحطاط بادياً في كثير من الناس واذ كانت هذه الحال تنتقل من احيال الى اخرى فقد نشأ عنها تغيرٌ عام في النوع الانساني يؤيد ذلك تعدد الاصابات بالسرطان الذي نسبه في الاكثر لحياة الانسان على هذا العهد الحديث وزاد بان امراض القلب قد كثرت وان معظمها ناشيء من ضغط الدم على الاوعية الدموية الناتج من الافراط في العمل والجهاد والاسراع والتعب على اختلاف ضروبه . واثبت بان معدة الانسان تسوء حالها من حين الى آخر وان سوس الاسنان وسقوطها قبل الاوان مما يزيد في ضعف المعد زيادة محزنة . وزاد بان الناس اذا ظلوا يعيشون كما يعيشون وسط هذا التمدن الموهوم فسيجيء يوم ليس ببعيد كما يظن الظانون فيكثر فيه الانتحار كل يوم بسبب ما يلقاه المنتحرون من الاوصاب والاوجاع التي لا تطاق . قالت المجلة التي عربنا عنها هذا المقال : لا شك ان رأي العالم الالماني لا يخلو من مبالغة وغرابة ولكن فيه شيئاً من الحق ايضاً وذلك لان حياة البشر في تناقص وتشوه ما عدا احوال استثنائية فبعد ان ادرك المرء ان خير ما له صحة يتمتع بها تراه مع هذا يسرف فيها اي اسراف كولد طائش ورث من اهله مالاً فيوفر على انفاقه بكلتا يديه . وقد جرت عادة الصينيين ان يضعوا جوائز سموها جوائز الفضيلة يمنحونها لمن يحسن الخلاص من الامراض فهلا اقتدت اوروبا بهم في هذا السبيل؟

البيوت الغريبة

اخترع شيخ الكهربائية في هذا العصر المستر اديسون الاميركي قوالب تكلف ثمانية آلاف جنيه وتبنى بها مساكن ذات ثلاث طبقات لا يكلف واحدها اكثر من مائتي جنيه وبناؤه في اربع وعشرين ساعة في ارض رملية يستعمل ما يستخرج من رملها في بناء حوائط الدار واسسها كالسمنت وبهذا الاختراع قد خدم الانسانية اجل خدمة خصوصاً وهو يقول انه لا يريد ان يربح من اختراعه بل يجعله وقفاً على نفع البشر فبارك الله به وباختراعه وانسانيته

حاصلات البن

بلاد البرازيل اعظم الممالك اخراجاً للقهوة في الارض والبن المعروف بالسانتوس مشهور في جميع الاسواق التجارية في العالم . وسانتوس مرفأ تجاري من مرافىء تلك البلاد تجيء اليها القهوة من اطراف الجمهورية البرازيلية ومنها تصدر الى اقطار المعمور فتنسب القهوة اليها . وقد قُدّر محصول القهوة في العالم من سنة ١٩٠١ الى سنة ١٩٠٢ بنحو تسعة عشر مليون كيس وبـ ١٧٦٨٥٠٠٠ كيس من سنة ١٩٠٢ الى ١٩٠٣ وبـ ١٥٧٣٠٠٠٠ كيس من سنة ١٩٠٣ الى ١٩٠٤ وبـ ١٤٩٠٠٠٠٠ كيس من سنة ١٩٠٤ الى ١٩٠٥ وكان حظ البرازيل من هذا المحصول اكثر من حظ الامم جمعاء فاصدرت سنة ١٩٠٢ اربعة عشر مليوناً ونصف مليون من الاكياس التي يبلغ واحدها ستين كيلو وسنة ١٩٠٣ ١٣٣٨٠٠٠٠ كيس وسنة ١٩٠٤—١٠٣٠٠٠٠٠ كيس وسنة ١٩٠٥—٩٦٤٠٠٠٠ كيس

البحرية الالمانية

من القاعدة التي اتخذتها انكلترا في استعمارها ان تكون بحريتها موازية لبحرية دولتين عظيمتين من دول اوروبا الا ان المانيا قد كادت تخل لها تلك القاعدة فقد قررت ان تبني سنة ١٩٠٨ ثلاث دارعات كبرى وفي كل من سنة ١٩٠٩ و١٩١٠ ثلاثاً مثلها ومدرعتين سنة ١٩١١ ومن سنة ١٩١٢ الى ١٩١٧ كل سنة دارعة عظمى وطراداً عظيماً فيكون مجموع ما ستبنيه في تسع سنين ١٧ دارعة و٦ طرادات عظمى و٢٩ طراداً صغيراً وقد بلغت ميزانيتها البرية والبحرية زهاء مليار مارك اي ما يربو على ١٢٠٠ مليون فرنك فزادت ١٢٣ مليون مارك عن السنة الماضية ولا تزال الزيادة تزيد سنة عن سنة والمانيا تريد ان يكون لها المقام الاول ببحريتها كما لها المقام الاول ببريتها وهنالك مؤتمر السلام في مدينة الهاي ينادي اعضاؤه بنزع السلاح والاجتماعيون ينادون بالسلم والسياسيون لا يرتاحون الا للحرب .

تجارة كريت

في احصاء اخير ان واردات هذه الجزيرة المعروفة عند كتاب العرب بجزيرة اقريطش قد بلغت في السنة الماضية ١٥١٨٥٠٧٣ فرنكاً وصادراتها ١١٢٢٤٤٤٩ فرنكاً واهم ما يرد اليها الدقيق والانسجة واهم ما يصدر منها زيت الزيتون ثم الخروب والزبيب والصابون قالت مجلة الاستعمار ان تجارة هذه الجزيرة وزراعتها وعدد سكانها ليست متناسبة مع سعتها وخصب ارضها وجودة مناخها وموقعها الجغرافي فان مساحتها تبلغ نحواً من عشرة آلاف كيلو متر مربع وليس فيها من السكان اكثر من ثلثمائة الف نسمة

لغة الجغطاي

كتب المسيو لوسين بوفا في مجلة العالم الاسلامي بحثاً في هذه اللغة قال فيه : ان معنى جغطاي في الاصل « المحتشم الشجاع » وهذا الاسم اذا أُطلق على انسان عند الترك في آسيا الوسطى يُراد به مدحه ولذلك دعي جنكيز خان بجغطاي وسميت هذه اللغة باسم المملكة العظيمة التي شاعت فيها وقد قسمها بيرسين منذ ستين سنة في كتابه « البحث عن اللهجات التركية» الى ثلاث فصائل الاولى الجغطائية الشرقية او التركستانية وهي عبارة عن لغة الويكور والكومان والجغطائي والاوزبك والتركمان والتركستاني ولغة قازان المكتوبة والفصيلة الثانية هي التتارية او الشمالية (كيشاك) وهي عبارة عن لغة القرغيز والباشكير والنوجاي والكوموك والكاراتشاي والميشريالك والسبيري والفصيلة الثالثة التركية اوالغربية وهي عبارة عن اللهجات الداغستانية والازيرية المنتشرة في بلاد القريم والاناضول والروم ايلي . وقسمها ارمنيوس فمبري المستشرق المجري بعد عشرين سنة من ذاك التاريخ الى ثلاث فصائل رئيسة وهي الصيني التاتاري (الترك انكشغري) والجغطاي الصرف او الاوزبكي والتركماني يضاف اليها في الدرجة الثانية لغة القبشان والقرغيز والقره قالباق كما يضاف اليها لغتان قريبتان من التركية كل القرب وهما اللغة الياقوتية والشوفاشية

قال وقد اعتبرت لهجة الويكور اقدم ضروب اللهجات التركية واكتشف بعضهم مخطوطات نادرة في اورخون من بلاد المغول منذ نحو عشرين عاماً كتبت بلغة تركية اقدم من جميع تلك اللهجات خالية من الالفاظ العربية التي طرأت على اللهجات التركية عقيب ان دان اهلها بالاسلام . ومن الغريب انها اقرب الى التركية العثمانية من لغة الويكور واللهجات التركمانية ويقال على الجملة ان لهجات سكان الشرق من الاتراك تمتاز عن لهجات سكان الغرب بما فيها من الالفاظ العويصة المهجورة ولها الفاظ خاصة بها استعاض عنها الترك العثمانيون بالفاظ عربية وفارسية او افرنجية (افرنسية وايطالية وانكليزية ويونانية وصقلبية وغيرها) ولفظ سكان الشرق شديد حلقي وبعض اللهجات كلغة القريم وآذربايجان مثلاً هي رابطة بين اللهجات

ثم وصف اللغة البخارية واللغة الخوقندية واللغة الاوزبكية الشائعة في خيوة وما تمتاز به كل منهن وقال ان الاحوال السياسية التي جرت في آسيا الوسطى في القرون الاخيرة كان من نتائجها التأثير في كل لهجة من تلك اللهجات فلم تحفظ كيانها كما كانت . اما الجغطاي اليوم فهو اللغة الاوزبكية يتكلم بها في ثلاث امارات تحكم عليها الآن روسيا وهي خوقند وبخارى وخيوه ما عدا من نزح ممن يتكلمون بلغتهم الى الافغان . ولئن ساغ تحديد البلاد التي يتكلم فيها بتلك اللهجة فان عدد من يتكلمون بها كثيرون وقد قدّر فمبري

عدد من يتكلمون بالاوزبكية بمليوني نسمة منهم مليون في بخارى وحواليها وسبعمائة الف في خيوه ومائتا الف تحت حكم الافغان · وقدّره آخرون بثلاثة ملايين وثلثمائة الف ولكن بدون ان يذكر فيه العناصر واللغات ·

وقد وصف الاستاذ فمبري اخلاق الاوزبكيين وعاداتهم فقال ان سكان المدن منهم ما برحوا اذا نظرت فيهم ترى عليهم اثرًا من آثار المدنية الزردشتية ومن ذلك انهم مازالوا محافظين كل المحافظة على عيد النوروز وهو اول يوم في السنة عند الفرس الموافق للاعتدال الربيعي وما برح اوزبك بخارى كمجوس الفرس في يزد وكرمان يرقصون حول نار يوقدونها من القش ويجب على العروس عندهم ان توقد نارًا لطرد الارواح الشريرة عند ما تدخل للمرة الاولى الى بيت زوجها ولا يسوغ لها ان تستدبر تلك النار · ويتوقى اهل البادية منهم ان يبصقوا في النار او يلقوا فيها قاذورات ويعزون للشمس كما يعزون للنار ان فيها خاصية شفاء الامراض كما يعتقدون معتقدات قدماء الايرانيين في الارواح والجن · وذكر عاداتهم في مآكلهم ومشاربهم وقال ان التدين يغلب عليهم كثيرًا بدون تعصب ولا يكادون يعرفون الرياء وهم يقدسون الاولياء ولكن اقل من خيوة وبخارى وخوقند وقلما يحجون وهم اشبه باتراك الاناضول منهم باتراك بخارى ·

ثم قال ان الترك العثمانيين كانوا يحتقرون قديمًا المتكلمين بلغة الجغطاي او الاوزبك اي التركية الاصلية القديمة ويصفونهم بالغلظة ويسمون لغتهم بالجفاء على ان تجافيهم عن اصل لغتهم لم يزدهم الا انهيال الالفاظ الدخيلة عليهم حتى صارت التركية العثمانية مزيجًا من لغات امم شرقية وغربية ولو احتفظوا باصول لغتهم لكان لهم من الفاظها مادة يمكنهم ان يعبروا بها عن افكارهم ومع هذا انتبهوا في العهد الاخير واخذ بعض علمائهم يبحثون في الرجوع بها الى اصولها ونشروا نصوصًا قديمة من اللغة الجغطائية كما ينشر علماء المشرقيات آثار الشرق القديمة ثم وصف مملكة الخوجة في تلك البلاد وما تعاقب عليها من الملوك وكيف سقطت الآن في يد الروس وقال انه لا يرجى لاهلها بعد الآن نفوذ ديني ولا سياسي ·

نظر الوقادين

قدم احدهم الى جمعية امراض العيون في باريز رسالة قال فيها ان كثيرًا من الوقادين في الاتوموبيل والاومنيوس مصابون بامراض في عيونهم فينشأ منهم لضعف ابصارهم ضرر على الراحة العامة وخطر على حياة الركاب والمارة ومن العجب ان يطلب من الميكانيكي ان يكون حاد النظر وتفحص عيناه فحصًا طبيًا دقيقًا ولا يطلب مثل ذلك من الوقاد و « الدواق » واثبت ان ٨ في المئة من الوقادين ضعاف البصر · وصادف ان رأى وقادين كانت مقلهم

(قرنيتهم) كثيفة بحيث لا يبصرون وبعضهم مصابون بغبش النظر وبلغ الحسر اي قصر النظر ببعضهم انهم اذا رأوا في رابعة النهار قطيع غنم ظنوه غباراً وان وقع نظرهم على جبل اتخذوه سحاباً ومنهم من لا يبصرون الا بعين واحدة فاذا أصيبت الصحيحة بعارض يصبحون عميان لا محالة . ومن رأيه ان تفحص عيون الوقاد والسواق قبل ان يناط بهم العمل كالمجمل هذه الرسالة موضع التنفيذ لان الحوادث التي نشأت من ضعف الابصار من هذا القبيل طالما جلبت المضار والاخطار .

تلفون جديد

اخترع الاخوان لوريمه اللذان لهما في تاريخ التلفون يد طولى آلة يخاطب بها الانسان من يريد من تلقاء نفسه بدون ان يخاطب مركز ادارة التلفون اولاً لتفتح له طريق من يجب مخاطبته . وقد جعلت الآلة بحيث لا يحدث منها لبس في التخاطب ولا انقطاع ولا يفهم احد ما يدور بين المتخاطبين كما هو الحال الآن وذلك على طريقة تسهل على المتخاطبين وتوفر من العاملين وتكون سرعة التخاطب بهذا التلفون في الليل اكثر من سرعتها في النهار وقد جرب اختراعها في كندا فظهرت نتائجه الحسنة .

طباعة العميان

كان العميان في اكثر مدارس الغرب يتعلمون القراءة في كتب جعلت لهم خاصة بحروف نائئة عرفت بحروف برايل اما الآن فقد اخترع احدهم اختراعاً جديداً بحيث يمكن للعميان ان يقرؤا الخطوط التي تطبع بحروف كالعادة الا ان نصف الحرف الاول يجعل بطبع ناتيء ونصفه الآخر بطبع عادي غير ناتيء وبذلك يمكن للمبصرين والعميان ان يقرؤا الكتب المطبوعة على هذا النحو .

ورق النرد الطبي

ثبت بالفحص الطبي ان جراثيم العدوى يكثر انتقالها بورق النرد لتنقلها من يد الى اخرى خصوصاً وبعض الناس يبلون اصابعهم بريقهم ليتناولوا الورق و يناولوه بسرعة . فتساعد على نقل جراثيم النزلات والسعال وامراض الحلق وغيرها رطوبة الاماكن التي يلعب فيها اللاعبون والرطوبة من اشد المعينات على نماء الاحياء الضارة . وقد ارتأى احد الاطباء الانكليز ان يجعل ورق اللعب من القماش ليمكن تطهيره وتعقيمه بعد كل لعبة وربما كان لاستعمال هذه الاوراق الصحية شيء من النفع لصحة الاجسام .

انقاذ السفن

اخترعت آلة لتعويم السفن الغرقى وذلك بجعل هواء مضغوط في جدران السفينة الغارقة ضغطاً اشد مما يقابله من العمق، وقد جربت في تعويم الغواصات وربما انفعت في تعويم البوارج

حوادث الخطوط الحديدية

جربت حكومة المانيا من مدينة برلين الى ستيتين عدة طرق لتعريف سائق القطار ما امامه من الاشارات اثناء الضباب توقياً من الاخطار فلم ترا حسن من وضع كل مئة متر صفارة من الكهربائية تجعل على علو ثلاثة مترات فتصفر وتنبه السائق الى الاشارات التي امامه .

عدو المحار

أصيب المحار او سمك البدلان في شواطيء فرنسا ولا سيما على بحر المانش بعدو ازرق من الخث (نبات الماء) الذي يعلق بالحصا فلا يرتفع عنه كما يعلق على المحار فاذا امتلأ هذا الخث ماء بلغ بحجم البيضة واحياناً بحجم اليد فاذا علق بالمحار لا يتركها حتى يقتلها وقد قدر ما فسد من هذا السمك في شهر مايو من سنة ١٩٠٦ باربعمائة الف سمكة وذلك في (بارك بروتون) وحدها ولم يجدوا طريقة للخلاص من هذا العدو الا القاء حزم من الشوك في الماء تمزق الخث

المانيا والسل

يؤخذ من تقرير الصحة في المانيا ان فيها ٨٧ مصحاً Sanatorium للشعب فيها ٨٦٤٨ سريراً منها ٥٧٧٢ للرجال و٢٦٥٨ للنساء و٢٩٢ للرجال والنساء بدون استثناء وفيها ٣٥ مصحاً خاصاً تحتوي على ٢١١٨ سريراً و١٧ مصحاً للاولاد المسلولين فيها ٦٠٠ سريراً و٦٧ مصحاً للاولاد المصابين بداء الخنازير فيها ٦٠٩٢ و يعمر فيها اليوم ١١ مصحاً للامة فيها ثمانمائة سرير وعشر دور خاصة بمداواة هذا المرض وداران آخران تشيدان حديثاً هذا ما عدا دور النقاهة التي اقامتها المانيا وجمعياتها في الغابات وغيرها

سماعة جديدة

اخترع احد جراحي لندن سماعة جديدة للصم استعاض فيها عن المعدن بالمطاط وكان المعدن تتأثر منه حاسة السمع بعض التأثر والمطاط يسهل مسه و يلطف وضعه .

أهم الكتب

قيل ان الصاحب ابن عباد كان يستصحب في سفره احمالاً من الكتب للتسلية والاستفادة فلما ظفر بكتاب الاغاني استغنى عنها كلها واكتفى بحمله معه والغالب ان الناس في اوروبا

سئمت نفوسهم من كثرة الكتب او كادت وخافوا ان تكون لهم كما قال ابن خلدون عائقة عن التحصيل فعرضت احدى المجلات الدولية التي تخوض المباحث الحرة على المعاصرين من العالمين ان يبينوا لها آراءهم فيما يختارونه من الاسفار التي تؤلف مكتبة يعتمد عليها المرء في خلوته وجلوته ولا تكون اكثر من اربعين كتاباً تبحث في الفلسفة والاخلاق والفنون والادب .

التصوير عن بعد

Le télestéréographe

هذا اللفظ الافرنجي معناه التصوير عن بعد اخترع مسماه احد علماء الالمان منذ مدة فقام مخترع افرنسي اليوم يتم ما بدأ به السابق فتمكن من نقل مسودة فوتوغرافية بالفحم الى مسافة بعيدة واخرج صورة منها في صورة تشبه الاصل وليس في القيام بذلك ادنى صعوبة

تلوين الجوهر

ثبت ان الحجر اللطيف المعروف بالكوروندون المعتبر بعد الماس بقيمته يتأتى تلوينه حتى يصير جوهراً لطيفاً وكذلك بعض الاحجار الكريمة . ولكن الاحجار الكريمة تبقى على نفاستها وغلائها ويمكن تلوين الياقوت الاحمر بلون آخر وان كان من الثابت ان الاحجار تعيش وتموت كالنباتات فان ذلك مما يسر السبيل على المخترع ان يلوّن الاحجار الكريمة الواناً غريبة

غذاء الانسان

نشر شيتدن من اساتذة كلية يال الاميركية كتاباً في الاكثار من التغذية ولا سيما في الاكثار من تناول اللحوم واورد امثلة كثيرة في هذا الباب . واثبت الآن ان التغذية المعتدلة هي من الشروط المهمة في حسن الصحة ومتانة الاعضاء ومرونتها . وقد استعمل هذا الاستاذ بذاته مع بعض رصفائه من الاطباء طريقة التقدير في الطعام ولا سيما في الالبومين اللازم كل يوم فجادت صحتهم ايما جودة وطبقت هذه القاعدة على جنود في الخدمة مضطرين كل يوم الى معاناة الاعمال الصعبة فثبت ان اعصاب ظهورهم وسوقهم وصدورهم واذرعهم قد قويت اي قوة وان خير طريقة لاتقاء الامراض ان نقدر كمية الطعام على ما ينبغي ولا سيما اللحوم

الديكتوغراف

Le dictographe

آلة اخترعت مؤخراً في اميركا تمنع ان يسمع احد صوتك وانت تكلم احداً بالتلفون او يفهم كلامك او يجعل الهواة التباساً في حديثك وحديث من تكلم

تقهقر انكلترا

قالت المجلة الباريزية ان انكلترا لم يعد لها المقام الاول في التجارة والصناعة كما كانت منذ مئة سنة فقد بلغ ما اصدرته سنة ١٨٢٠ من المصنوعات مليار فرنك اي انه يعادل ما اصدرته فرنسا والولايات المتحدة معاً او النمسا والمانيا او يوازي مصنوعات العالم اجمع اذا أخرجت منه تلك الدول الاربع · ونزل ما اخرجته سنة ١٨٨٠ الى خمس الحاصلات الصناعية وفي سنة ١٨٩٤ الى السدس ولم تبلغ الصادرات الانكليزية مندسنة ١٨٩٤ الى سنه ١٩٠٢ سوى ثلاثة عشر في المئة وصادرات فرنسا ستة عشر في المئة والمانيا تسعة وثلاثين في المئة والولايات المتحده ستة وستين في المئة · وكانت اليابان قديماً من احسن الزبن للمصنوعات القطنية الانكليزية الا انها اخذت تصنع مثلها في بلادها من ذاك العهد وتقدمت صنائعها تقدماً غريباً فكانت تنسج سنة ١٨٨٦ ستة ملايين لبرة من القطن فاصبحت تنسج سنة ١٨٩٥ — ١٣٥ مليون لبرة اي ان مصنوعاتها زادت اربعة وعشرين ضعفاً في تسع سنين وغدت اليابان التي كانت تبتاع سنة ١٨٨٤ بثمانية ملايين دولار من المصنوعات القطنية لا تشتري سنة ١٨٩٥ سوى نصف ذلك

الجزائر والصحراء

نشرت مجلة العلم في القرن العشرين مقالة بحث فيها كاتبها في اصول سكان جنوبي الجزائر والصحراء فقال ان اهم عنصر في سكان الجزائر هم البربر والعرب والأول زارع والآخرون يقيمون على تربية المواشي وكثيراً ما كان هذان العنصران يتمازجان وقد اثر هناك الدم الزنجي ايضاً قال ومنذ استولت فرنسا على تلك الانحاء اخذ كثير من قبائل الطوارق يعتاضون من رعي الماشية او يسيرون القوافل واصبح بعضهم زراعاً يحرثون ويفلحون ·

الدين في الصين

نشر احد الباحثين من الانكليز مقالة قال فيها ان الدين يرجع القهقرى في الصين فلا يقل فيها المتدينون بالكونفوشيوسية اوالبوذية او الطاوسية بل ان النصرانية هناك لامستقبل لها ايضاً ·

أولاد الفقراء

بحث بعض العلماء في السنين الاخيرة في قامات اولاد الفقراء ووزنهم ونسبتهم مع اولاد الاغنياء فثبت ان الاغنياء اعظم واقوى (المقتبس ٢ — ٤٤٤) وقد عينت الحكومة الانكليزية نخبة من الاطباء والعلماء ففحصوا ٧٢٨٤٨ صبياً في المدارس العامة

في غلاسكو سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ فنظروا اليهم من حيث مساكنهم لان سعة المسكن دليل على سعة العيش في الغالب فثبت لهم ان ٨ في المئة يعيشون في مسكن ذي غرفة واحدة و٥٨ في المئة في مسكن ذي غرفتين و٢٤ في المئة في مساكن ذات ثلاث غرف و١٠ من المئة في مساكن ذات غرف كثيرة واثبتوا ان قامات البنين والبنات من الخامسة الى الثالثة عشرة تضعف بحسب صغر المساكن التي يسكنونها وايدوا بالبرهان ان عظم المساكن اذا كانت دليلاً عاماً واضحاً على حالة الثروة فان قامات الاطفال ووزنهم تضعف بحسب ضعف الاسرة في السعة و بسطة العيش ·

ترجمة التوراة

قالت المجلة : ترجمت التوراة الآن الى اربعمائة لغة وقد اورد الباحث فيزجيرالد بعض المصاعب العظيمة التي تحول دون نقلها الى اللغات الهمجية التي كثيرًا ما تعوزها اهم الكلمات اللازمة · مثال ذلك ان اهل تاهيتي ليس عندهم لفظ يعبر عن « الحشمة » ولعلهم لا يعرفون هذا المعنى ومتوحشو الماوريس في زيلاندا الجديدة ليس عندهم كلمة « شريعة » والبلاد التي لم تدخل اليها التوراة بعدُ هي بلاد العرب والفرس والسودان ·

مطاط جديد

اكتشف في التونكين شجر جديد من المطاط من النوع الجيد وهو كثير في عدة ولايات من تلك المستعمرة ولم يكن يعرف من شجره في الهند الصينية غير نوع كان يصعب استثماره كثيرًا وقلما يأتي بمطاط جيد ·

ضرائب فرنسا

كان سكان فرنسا سنة ١٨٠٨ يدفعون ضرائب للحكومة ٢١ مليارًا فاصبحوا يدفعون سنة ١٨٩٦ — ١٤٢ مليارًا من الفرنكات ولم يتضاعف في خلال تلك الحقبة من القرن عدد سكانها على حين انشؤا يدفعون سبعة اضعاف ما يدفعون و زاد عدد الدفاتر التي أُخذت من صناديق التوفير منذ سنة ١٨٦٩ — ١٨٩٧ من ثلثمائة الف الى ستمائة الف و بلغت المبالغ المودعة ١٤٨ مليونًا وكانت ٥٢

تشغيل الاولاد

عدوا من دواعي الخجل على القرن التاسع عشر ان ينصرم و يخلف للقرن العشرين مسألة من اصعب مسائله الاجتماعية الا وهي تشغيل الاطفال من البنين والبنات في المعامل والمصانع والمناجم يعملون بايديهم وهم ضعاف الاجسام ولما يبلغوا نموهم المطلوب فتستولي عليهم

الامراض المختلفة . وقد دلت الاحصاآت في فرنسا سنة ١٩٠٥ على ان عدد العاملين من الاولاد بلغ ثلثمائة الف وعدد العاملات من البنات مائتين وستين الف عاملة وان بعض المعامل يكتفي اصحابها بعامل كبير لقاء ثلاثين من هؤلاء الصغار لرخص اجورهم وشدة همتهم ولطالما اظهرت تقارير مفتشي المعامل ان بعضها تستخدم في السراولادا من ابناء الثانية الى العاشرة وتطعمهم خسيس الطعام وتشغلهم عشر ساعات ولذلك صدق ماقاله احد اساتذة العلم في المجمع الطبي الباريزي من ان ١٤١ من كل ١٨٩٦ ابناً وابنة يموتون بالسل الظاهر

نفقات الكليات

احصى احد اساتذة التعليم العالي ما تنفقه فرنسا والمانيا على كلياتهما فتبين ان المانيا تصرف ٣١ مليون فرنك على التعليم العالي في السنة وفرنسا تنفق ٢١ مليوناً على حين يبلغ سكان الاولى ٥٦ مليون نسمة وسكان الثانية ٣٩ مليوناً هذا ما خلا بعض الكليات القديمة في المانيا التي لها واردات سنوية تبلغ خمسة ملايين فرنك فمعدل ما يصيب المكلف في المانيا نفقة على التعليم العالي ٥٤ سانتيماً ومعدل ما يصيب الفرنسوي ٥٦ سانتيماً ونصف . وقد قالت بعض المجلات وليس هذا مما يعاب على الفرنسيس ولكن الحقيقة انه ينشر كل سنة في المانيا ثلاثة اضعاف ما ينشر في فرنسا من المطبوعات في التاريخ الحديث وينشر في المانيا خمسون ضعف ما ينشر في فرنسا من المطبوعات في التاريخ القديم ولكن ترى هل كل ماتنشره المانيا عقود ودرر .

عمال التجارة

رأى سفير فرنسا في لندن ان خير واسطة لنشر تجارة أمته في بريطانيا ان تبعث اليها باناس من بنيها تدربهم على الاعمال التجارية على الاسلوب الانكليزي وعندها تعهد اليها ان يكونوا وكلاء عن بيوتها التجارية وان نقل الاشخاص الذين يصرفون المصنوعات ينفع اكثر من الاعتماد على اناس من الانكليز لتصريف المصنوعات الفرنسوية وما حك جسمك مثل ظفرك . ولذلك بدأ المجمع التجاري في باريز بارسال كثيرين الى ليفربول يدرسون الاعمال على الاسلوب الانكليزي وسيكون ذلك مقدمة لنشر البضائع بين امة اخرى

تجارة الكتب

لم تكن فرنسا تصدر الى ايطاليا من الكتب سنة ١٩٠٣ سوى نصف ما تصدر المانيا اليها اي ان الاولى تصدر الى ايطاليا باربعمائة الف فرنك والمانيا تصدر الى ايطاليا بثمانمائة فاصبحت فرنسا تصدر الى ايطاليا فى السنة الماضية ٦٣٦ الف فرنك والمانيا ٩١٦ وورد

على فرنسا في السنة الماضية ٨١٧ قنطاراً من الكتب المغلفة ومثل هذا القدر ورد على المانيا وفرنسا والمانيا في مقدمة بلاد اوروبا باصدار الكتب ·

المعتوهون

تبين ان احسن طريقة في اختبار المعتوهين ممن وقعت لهم عوارض وقتية وليسوا من العته في شيء هي التي جرت عليها مدينة غلاسكو في بلاد الانكليز فانهم هناك قبل ان يلقوا المصاب في مستشفى المجاذيب يجعلونه تحت المراقبة بضعة ايام وبذلك كان يظهر ان خمسين في المئة لا يصلحون للبيمارستانات وستجري اكثر مدن اوروبا على هذه الطريقة في استثبات حال المجانين·

الملكة فيكتوريا

نشر في العهد الاخير في انكلترا كتاب ضخم في ثلاثة مجلدات وهي رسائل الملكة فيكتوريا والدة الملك ادوارد السابع ملك الانكليز الحالي التي تولت الملك ٦٤ عاماً مما لم يعهد لملك في تاريخ انكلترا ان تولى امر الناس هذا الزمن الطويل وكان ابنها هو وكاتم اسراره مساعدين في اعداد هذه المفكرات ليكون منها للشعب الانكليزي صورة حقيقية من قلب الملكة فيكتوريا وافكارها بدون تغيير الحقيقة التاريخية او تعديلها وبدون ان يغفلوا عن ذكر الاوهام التي كانت مستحكمة فيها لاول عهدها وهذه المجلدات هي عن الخمس والعشرين سنة الاولى من حكمها ·

الانتحار والتربية

الف احد علماء الافرنج كتاباً في التربية وانتحار الاولاد فاثبت ان عدد المنتحرين من الاطفال يزداد سنة عن سنة وان الداعي الى الانتحار هو الغيرة والغضب والكبر والخصومات الاهلية ومضادة الاميال والاجهاد العقلي وسوء معاملة الوالدين وفي تضاعيف ذلك مايبدو في المنتحر من ضعف الارادة الناتج من مجتمع قليل المتانة وبالجملة فان القرف من الحياة يأتي ابداً من ضعف المزاج ولا وسيلة لدفع الاولاد عن الانتحار الا باطعامهم جيداً وتنويمهم طويلاً وتقوية اعصابهم بالجري على التدابير الصحية والمعالجة بالماء البارد وادخال السرور على قلب من كان فيه استعداد لذلك والتخفيف عليه اذا ضاق صدره· ومن رأيه ان تأثير المعتقدات الدينية والقراءة في الكتب الصحيحة من احسن المؤثرات في عقل المستعد للانتحار وابان بالامثلة والشواهد ما ينال الشبيبة من المخاطر اذا حشيت عقولها بالمعارف فوق طاقتها ·

اخطار المسكرات

ذكرت مجلة المعين الاجتماعي انه أُحصيت محالّ بيع المسكرات في فرنسا سنة ١٩٠٥ فكانت ٤٧٣٥٩٣ محلاً وما برحت آخذة بالزيادة منذ قرن قالت : وان الحكومة لا تجهل ان جميع اصلاحاتنا الاجتماعية تكون من العبثيات وجميع تربيتنا لجمهور الامة وحرياتنا السياسية والمدنية ونظامنا الدستوري تصبح أبهة باطلة واثرًا بعد عين اذا ظل باعو المسكرات يسممون الناس عندنا كما هم الآن . وقد امر وزير الداخلية بان تحقق احوال دور المجانين فاثبتت اللجنة التي عهد اليها النظر في ذلك في ٣٦ ولاية انه زاد عدد المعتوهين بتعاطي المسكرات منذ عشر سنين ٥٧ في المئة وان نصف المصابين بالجنون كان لتعاطيهم الابسنت والاشربة المقبلة . وفرنسا ساعية في ابطال المشروبات الضارة واغلاق معظم محال بيعها جريًا على مثال معظم الامم الراقية في الغرب

القرى والمدن

تشكو معظم بلاد الغرب من كثرة زهد الفلاحين في قراهم وانقلابهم الى المدن يتعاطون فيها الاعمال الصناعية وغيرها وقد وضعت فرنسا احصاء لذلك فظهر لها ان سكان الارياف كانوا فيها سنة ١٨٤٦ — ٧٥ في المئة من مجموع الامة فنزل معدلهم اليوم الى ستين في المئة هذا مع ان فرنسا ارقى البلاد الاوروبية بزراعتها . وقد غادر الحقول من سنة ١٨٧٢ الى ١٨٩١ نحو اربعة ملايين ونصف من الريفيين ولحقوا بالمدن والعواصم وفي الاحصاء الذي تم سنة ١٨٩١ كان سكان باريز ٢٣٠٠٠٠٠ منهم ٨٠٠٠٠٠ باريزيون اصليون والباقون ريفيون .

غلاء المعيشة

يقول الاقتصاديون ان السبب في غلاء الحاجيات هذه الايام كثرة الذهب في الايدي فقد زاد محصول الذهب في العشر سنين الاخيرة ضعفي ما كان عليه فكان مجموع ما في العالم من الذهب سنة ١٨٩٦ عشرين مليارًا فاصبح في العام الماضي ثمانية وثلاثين مليارًا من الجنيهات فالجنيه هو الجنيه وقيمته قيمته ولكن ما كان يتيسر للمرء ان يبتاع به من البضاعة لا يتيسر له ان يبتاعها به الآن لانها قلت وعلى هذه النسبة تضاعفت اثمان اللحوم والفراخ او زادت الثلث عما كانت عليه منذ عشر سنين . والمتأخر في هذا الباب آخذ باللحاق بالمتقدم

الدعوة الى السلم

اول من دعا الى السلام في العالم هو الفيلسوف الهولاندي ايراسم المدعو فولتير اللاتين

فرأى سنة ١٥١٧ ان يجتمع ملوك الارض الى مؤتمر عام في مدينة كامبري الفرنسوية تحت زعامة الامبراطور ماكسيمليان وفرنسيس الاول وهنري الثامن ملك انكلترا

مطاعم الشعب

كانت مدينة ليون سنة ١٨٩٢ اول من فتح مطاعم للشعب تبيع الوجبة باربعين سنتيماً وهي تحوي على لحم وبقول وجبن وخمر فيربح المطعم من كل وجبة سنتيمين ونصفاً ويربح من يقومون بهذا العمل ستة في المئة الا ان سويسرا ارادت ان تفوق فرنسا في هذا السبيل فانشأ بعض اهلها في مدينة زوريخ مطعماً ونُزلاً للشعب معالمين على رابية هناك من اجمل المناظر البديعة وجعلت الاجرة عن كل يوم ثلاثة فرنكات ونصفاً عن الطعام والشراب والمنام ومن اراد ان يمسك له محلاً في الصيف يجب عليه ان يخابر ادارة الفندق قبل ستة اشهر

العلم والاحسان

تبين بالاحصاء ان النفوس رغبت في الثلاث سنين الاخيرة عن مد يد المعونة لدور الاحسان فقد كان ما جادت به النفوس في فرنسا سنة ١٩٠٤ — ٢٤ مليون فرنك من الوصايا والنفع في سبيل الخير فنزلت سنة ١٩٠٦ الى ثمانية عشر مليوناً ولكن ثبت ان من يوصون لدور العلم والمجامع العلمية يكثر عددهم وما تجود به ايديهم فقد كان ما جادت به نفوس الفرنسيس في هذا السبيل سنة ١٩٠٥ مليوناً ونصفاً من الفرنكات فبلغ سنة ١٩٠٦ ٢٫٣٨٩٫٠٠٠

الاميون في بولونيا

ثبت بالاحصاء ان سكان فارسوفيا عاصمة بولونيا قديماً التي هي اليوم من اعمال روسيا يكثر عدد نفوسها كثرة غريبة فقد بلغوا مليوناً من النفوس ولكن الأميين فيهم كثار بلغ معدلهم ٤١ في المئة من الرجال و ٥١ من النساء وان عدد الأميين في بولونيا اكثر منه في جميع الولايات الروسية في اوروبا الغربية فان صح ما قالوا فما نقول مصر والاميون فيها تسعون في المئة والبلاد العثمانية وما نظن الاميين فيها يقلون عن ثمانين في المئة ٠

الاحسان العام

ذكر بعض المحققين من الانكليز ان انكلترا في مؤخرة الشعوب الراقية من حيث جودها بالمال على البائسين فان فينا من هذا القبيل خير من لندرا و برلين خير من فينا وكوبنهاغ خير من برلين فترى الشيخ العاجز في بلاد الدانيمرك موضوع العناية العظمى ولا يكلف اكثر من سبعة فرنكات على صناديق الاحسان على حين ان الرجل في انكلترا

يموت جوعاً اذا لم يمد يده فيشحذ ويكاف العاجز فيها على المكافين من الاهلين زهاء عشرة فرنكات ·

الورق في اميركا

اكدت مجلة المجلات النيويوركية ان مجاعة من الورق ستنتشر في الولايات المتحدة بعد بضع سنين وذلك ان صنع الورق من الاشجار قد كاد يفنيها فاذا دامت الحال على هذه الصورة في قطع الاشجار لصنع الكاغد لا يمضي ربع قرن حتى لا يبقى شجر ولا ورق وقد اوردت مثالاً لذلك احدى جرائد نيويورك التي تطبع ثمانمائة الف نسخة في اليوم على ثمانين صفحة كبيرة قالت ان هذه الكمية من الورق التي تصرفها جريدة واحدة تحتاج الى ٩٧٧٩ شجرة من علو عشرين متراً ثخينة وطلب الكاتب من الحكومة ان تنظر في حال الغابات التي تحطم لتصنع منها تلك الورقات والصفحات ·

معامل اللبن

رأى احد المفكرين ان مراقبة الحكومات لمعامل اللبن (الحليب) من اهم الخدم التي تخدمها لامما وذلك لان اللبن يستعمله الناس عامة فاذا لم يكن سليماً يزيد في عدد الوفيات وقد ظهر بالاحصاء ان معدل وفيات الاطفال قد نزل في روشتر من اعمال ولاية نيويورك الى اربعين في المئة لان حكومتها راقبت اللبن مراقبة صحية دقيقة

سياح اليابان

ينتشر ميل اليابانيين الى السياحة في الارض ولم يقصروا سياحاتهم على بلاد الصين والشرق الاقصى بل هم يقصدون بلاد الغرب ايضاً وقد رأى احد عظماء مفكريهم ان السياحة تطلب لكل من يشتغل طول السنة بالاشغال العقلية وان في المدن اليابانية المنقطعة كمدينة كيتو ونيكو وها كون غنية عن ارتياد البلاد البعيدة الا انه ينقصها فنادق على الطرز الحديث ومحال للسماع ومحال للسباق وقال ان اليابان من هذه الوجهة متقهقرة فرثى لها من اجل ذلك ·

المدنية الحديثة

بحثت احدى المجلات اليابانية عن الطرق الحقيقية التي يجب سلوكها للاخذ باهداب هذا التمدن الحديث فقالت كل ما يسلك في هذا السبيل لغو واثم ان لم ينظر فيه لسعادة البشر وهذه السعادة لا تنال الا بترقية الاخلاق الشخصية وتحسين الذوق وهذا لا يتأتى الا بنشر التعليم والتهذيب ·

خطب ومحاضرات

اخذ حديثًا نادي المدارس العليا في هذه العاصمة يدعو بعضًا من المشتغلين بالعلم والادب لالقاء خطب ومحاضرات على بعض اعضائه فممن خطبوا فيه رفيق بك العظم واحمد بك كمال واحمد بك زكي وعمر بك لطفي وهم من اساطين النهضة المصرية اليوم . فقد خطب الاول في « التدوين في الاسلام » خطبة قال فيها : اذا قيل ان العرب أمة أمية فليس هذا القول على اطلاقه بل ربما أُطلق هذا الوصف على عرب البادية اطلاقًا اعم من اطلاقه على غيرهم من سكان المدن وارباب الدول البائدة كسكان اليمن ومدن نجد والحجاز والعراق والجزيرة واطراف الشام الذين عرفت لهم دول ذات حضارة ومجد كالتبابعة في اليمن والمناذرة في العراق والحوارث في اطراف الشام الذين منهم ملوك تدمر في شرقي سوريا واليهم تنسب الزباء « ذنوبيا » وزوجها ازينة (اوزينوس) ومنهم ملوك غسان في جنوب سوريا وتاريخهم مشهور معروف .

فهؤلاء الشعوب لا يجوز ان يطلق عليهم وصف الأُمية الا بالنسبة لحالة كل عصر كانوا فيه وانما غموض تاريخهم وطموس آثارهم اضاف تاريخهم الى التاريخ القديم فكان مجهول الحقيقة الا قليلاً مما وقف عليه الباحثون من الآثار الكتابية للحميريين في اليمن والكتابات النبطية في شمال الحجاز وسيكشف دؤوبهم على البحث وتتبع الآثار اكثر من ذلك . وحسبكم شاهدًا على ان الأُمية لا يجوز اطلاقها على كل العرب ما كان موجودًا من كتب اهل الحيرة الى اوائل القرن الثالث الهجري بدليل ما قاله هشام بن محمد بن السائب الكلبي في كتاب الانساب وهو اني كنت استخرج اخبار العرب وانسابهم وانساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ اعمار من ولي منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة .

اما عرب الحجاز فالمعروف عن الكتابة عند سكان المدن منهم قبيل البعثة انها كانت موجودة ولو مع الندرة يدلك عليه كتابة المعلقات السبع التي كانت على الكعبة والصحيفة التي تعاقدت فيها قريش على رد الحقوق وانصاف المظلوم وعلقوها على الكعبة والمعروف انهم كانوا يكتبون العربية تارة بالخط النبطي واخرى بالخط الحيري الذي عرف بعد ذلك بالكوفي ومرة بالخط العبري . ثم ذكر ان الحديث كتب ان لم يكن كله فجله على عهد الرسول واصحابه والحديث يشمل اكثر تاريخ الخلفاء وكذلك كتب فن النحو الذي املاه علي بن ابي طالب على ابي الاسود الدؤلي واما في عصر التابعين وتابعيهم فقد كانت العناية بكتابة الاخبار اكثر واقبل الناس على اقتناء الكتب وجمع الكتبات ومن ذلك ما رواه ابن عبد البر عن هشام بن عروة عن ابيه انه احترقت كتبه يوم الحرة وكان يقول وددت لو ان عندي كتبي

باهلي ومالي وكانت وقعة الحرة في سنة ثلاث وستين في خلافة يزيد بن معاوية وكان ابن شهاب الزهري اذا جلس في بيته وضع الكتب حوله فشغلته عن كل شيء وهو من اهل المئة الاولى ولم يأت القرن الثاني حتى كثرت الكتب في فنون شتى خصوصاً فنون العربية والادب فاذا كان ذلك كذلك هل يبقى مجال للريب في ان العرب دونوا علومهم في الصحف من ابتداء القرن الاول وهل يستراب في صحة هذه العلوم على ما ثبت معنا من انها كتبت مدعومة بالرواية لتكون ابعد عن سهو الكاتبين وتحريف الناسخين .

قال وهذه الطريقة في النقل لا تعد ثلمة في تاريخ الاسلام ينطرق منها اليه الوهن والتجريح بل تعد تحقيقاً للاخبار بالغاً حد الامانة والتمحيص لم تسبق اليه امة من الامم غير المسلمين اما تلك الكتب التي دونت في الصدر الاول فانها ادمجت في الكتب الجامعة التي ألفت بعد ارتقاء التأليف كما يرى في كتب الفنون التي اشتغل بها العرب ودونت بعد القرن الثاني معزوة لقائليها .

وخطب احمد بك كمال في « التوحيد عند قدماء المصريين وتكوين ارض مصر والنيل وفي اصل الخليقة واصل المصريين » فقال ان صيغة التوحيد عند المسلمين موافقة تقريباً للصيغة التي كان يدين بها المصريون قبل عصر الملوك و يدلنا على ذلك رسوم هيروغليفية وجدت في اوراق البردي القديمة فترجم صورة هذه الصيغة عندهم بما يأتي : « الله وحده لا ثاني له يودع الارواح في الاشباح انت الخالق تخلق ولا تُخلق خالق السموات والارض » وقال ان علماء الآثار المصرية كانوا يعتقدون الى ما قبل عشر سنين ان قدماء المصريين وثنيون ولكن زال هذا الاعتقاد باكتشاف هذه الصيغة وان التوحيد اتاهم من نوح عليه السلام بدليل قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » اذا قيل ان الشرك كان شائعاً عند قدماء المصريين بدليل قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام « أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار » فيقال ان يوسف كان سجيناً عند فرعون مصر وان عقيدة الشرك لم تدخل مصر الا مع الرعاة (الهكسوس) الذين دخلوا مصر قبل عصر الأسرات ولذلك كان المصريون يطلقون على بلاد العرب اسم بلاد الوثنية وقال انه جمع اسماء الاصنام بالعربية فرأى اسماء تشابهها بالهيروغليفية . واستطرد الى ذكر البردي فقال انه كان يزرع في الوجه القبلي وان اللوتس (له ثمر كالشعير يقتات به) كان ينبت في الوجه البحري وان المصريين سطروا علومهم من طب وهندسة وحساب على اوراق البردي واللوتس . وهذان النبتان رمزان على من يحكم الوجه البحري والقبلي فاذا رأيت كرسياً مرسوماً عليه صورة البردي واللوتس فاعرف ان الملك الجالس عليه كان يحكم الوجهين القبلي والبحري

وقال ان قدماء المصريين كانوا يعتقدون ان النيل ينبع عند أسوان ثم علموا انهم مخطؤن في اعتقادهم وان منبع النيل ابعد مما كانوا يتوهمون فلما وصلوا الى بحيرة « نو » اعتبروها اصلاً واطلقوا عليها هذا الاسم ومعناه (ماء) والمصريون هم الذين عرفوا الجهات الاربع فكانوا يطلقون على الجهة التي يأتي منها النيل قرن الارض اي طرفها ولذلك قيل عن ذي القرنين انه ملك المعمور لكونه اخذ بطرفيها و يطلقون على المقابلة لها بحري والشرق على مطلع الشمس وقالوا عنه بخ اي الميلاد . وعرف المصريون الجنة والنار لانه وجدت رسوم للنار والزبانيه والحساب الاخروي في آثارهم . وان النيل لم يكن له مجرى ثابت بل كان يفيض سيحاً وكان منحصرًا بين جبال برقة وليبيا . والبحر الابيض يضرب الى الفيوم واسم الفيوم بالهيروغليفية بيوم ومعناه الماء وكان هناك للنيل خزان كبير وما زال طمي النيل يرسب في قمة الدلتا و يتقدم نحو البحر حتى تكون الوجه البحري وكان يتفرع عند اكاسور امام انبابه الى فرعين فيذهب احدهما الى دمياط والثاني الى ابي قير وكان يتولد عند بنها . فرع ثالث يسمى فرع سمنود الذي طم بعد ذلك فتكون من الفرعين الباقيين والبحر شكل الحرف اليوناني المسمى دلتا واول بلد أنشئت في مصر لصلاحية ارضها للزرع هي اسيوط .

وكان موضوع محاضرة احمد بك زكي « هل تخيل العرب اكتشاف اميركا قبل كريستوف كولومب » فقال ان لفظة تاريخ ليست عربية وان الهرمزان الفارسي الذي كان في مجلس عمر بن الخطاب عند ما جمع هذا الصحابة يشاورهم في امر التوقيت قال اننا معاشر الفرس نأخذ مبدأً معلوماً نجعله بداية التوقيت ونسميه ماهروز فاصطلح العرب على هذا وجعلوا يوم الهجرة النبوية اول التوقيت الاسلامي وخرّج لفظة ماهروز بان الهاء حرف صامت او ناطق عند الافرنج وكذلك عند العرب فتسقط الهاء على انها حرف صامت فتصير ماروز ونسمح لانفسنا في ابدال الزاي خاء فتصير ماروخ و يتصرف منها ارخ يؤرخ تاريخاً

ثم تكلم على شغف العرب بنقل كتب الفلسفة والعلم وكيف كان المأمون يحارب فتزهد نفسه في اخذ البلاد او تكثير الجزية ولا يريد من المغلوبين على امرهم من الملوك والاقيال الا كتب العلم وان هذا مما لا يعهد له نظير في فتوح العصور المتأخرة وذكر كيف ان هذا الخليفة انتدب يوحنا ابن البطريق المصري الى بلاد الروم ليبحث له عن كتاب ارسطو في السياسة فاخذ ينتقل من دير الى دير ومن عالم الى عالم حتى عثر عليه ونقله الى العربية وقال ان البحر المتوسط كان على عهد المأمون بحيرة محاطة بملكه وجزيرة صقلية من جملة ملك العباسيين ثم استطرد على عادة محاضرات العرب الى ذكر صقلية لما ملكها روجر الثاني وقال ان عماله كلهم كانوا من المسلمين

وبهم كان يقتدي ويهتدي كما نحن اليوم نأخذ عن الافرنج كل شيء . وتكلم على الاخوة المغرورين او المغرورين وهم جماعة من قبيلة واحدة من العرب قاموا من اشبونة معتمدين على الصبا وعددهم ثمانون عربياً للبحث عن ارض جديدة في المحيط فلم يتمكنوا اذ هاجمهم في الطريق عدد لا يحصى من البواشق فرجعوا وقصوا اشياء غريبة فسموا بالمغرورين وسمي دربهم في لشبونة بدرب المغرورين وهذا ما ايده الشريف الادريسي في جغرافيته . وفي رواية ثانية ان المغرورين كانوا ثمانية رجال كلهم ابناء عم ركبوا البحر في اوّل هبوب الريح فجروا بها نحواً من ١١ يوماً فوصلوا الى بحر كريه الرائحة كدر الماء كثير الطروش قليل الضوء فعادوا ونزلوا بجزيرة كثيرة الاغنام وأخذوا لملكها فاكرمهم ولما سألهم عن حالتهم قصوا عليه ما حدا بهم فلم يرَ الا ان يركبهم في سفينتهم ويصحبهم بجماعة من عنده عصبوا عيونهم اياماً فلما توسطوا البحر تركوهم ليضلوهم عن الطريق ولما وصلوا الى مكان هناك سألوا جماعة من البرابرة عن المسافة بينهم وبين لشبونة فقال الزعيم مسيرة شهرين فقال القوم وا أسفي وسمي المكان أسفي والمغاربة يحذفون منها الالف . وبذلك تبين ان الثمانية او الثمانين المغرورين قد ساروا احدعشر يوماً حتى وصلوا الى جزيرة آسور عام ١٤٣٣ م وان العرب لم يستطيعوا مواصلة سيرهم لضعف الوسائل .

وكانت محاضرة عمر بك لطفي في اصل البنوك والمصارف فقال كان في القرون الوسطى في ايطاليا اناس يحترفون بابدال العملة يجلسون في الطرقات العامة وامامهم منضدة (ترابيزة) موضوع عليها نقود للصرف وتلك المنضدة تسمى بالايطالية « بانكا » ثم ترقت وظيفة هذه الطائفة واتسعت فاخذ الناس يحفظون نقودهم عند هؤلاء الصيارف وصارت مصارفهم محلاً للودائع والامانات ثم اخذوا سكة (عملة) وهمية بدل السكة الحقيقية التي كانت معرضة للتلف فاصبحت كاوراق البنوك اليوم واول مصرف حاز اسم بنك مصرف مدينة البندقية سنة ١١٥٧ والصين اول البلاد التي احلت حكومتها سنة ٨٠٧ م العملة الاصطلاحية محل عملة النحاس ورأى ابن بطوطة هذه العملة الاصطلاحية كما وصفها الرحالة جون مورفيل سنه ١٤٢٧ م ولم يظهر اثر للعملة الاصطلاحية في البلاد الغربية الا في سنة ١١٢٢ اثناء حصار اهل البندقية لسور فان الدوق ميكيلي الذي كان قائماً باعمال الحصار اصدر اذ ذاك عملة من الجلد عليها علامات الدوقية ورسومها فصرفت بالنقد لاربابها عند ما وردت على البندقية وسنة ١٢٤٠ اصدرت مدينة ميلانو لاول مرة في اوروبا اوراقاً لها حكم العملة الحقيقية . . ولعل النادي يطبع خطبه ومحاضراته تعميماً لفائدتها

المقتبس

الجزء الثاني من المجلد الثالث

صفر سنة ١٣٢٦ موافق مارس (آذار) سنة ١٩٠٨

الادب الصغير

لابن المقفع

عني بنشره الشيخ طاهر الجزائري

العجب آفة العقل واللجاجة قعود الهوى

والبخل لقاحُ الحرص والمراء فسادُ اللسان والحمية سبب الجهل والأنف توأمُ السفه والمنافسة اخت المداوة

واذا هممت بالخير فبادر هواك لا يغلبك واذا هممت بشر فسوّف هواك لعلك تظفر فان ما مضى من الايام والساعات على ذلك هو الغنمُ

لا يمنعنك صغر شأن امرىء من اجتباء ما رأيت من رأيه صواباً واصطفاء ما رأيت من اخلاقه كريماً فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها

من ابواب الترفق والتوفيق في التعليم ان يكون وجه الرجل الذي يتوجه فيه من العلم والادب فيما يوافق طاعةً ويكون له عنده محمل وقبول فلا يذهب عناؤه في غير غناء ولا نفنى ايامه في غير دَرَك ولا يستفرغ نصيبه فيما لا ينجع فيه ولا يكون كرجل اراد ان يعمر ارضاً تهمة فغرسها جوزاً ولوزاً وارضاً جلساً فغرسها نخلاً وموزاً

العلم زين لصاحبه في الرخاء ومنجاة له في الشدة

بالادب تُعمرُ القلوبُ وبالعلم تستحكمُ الاحلام فالعقل الزاكي غير الصنيع كالأرض

الطيبة الخراب · ومما يدل على معرفة الله (وهو) سبب الايمان ان وكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا صغير اوكبير عيناً فهو يصرّفه ويحركه فمن كان معتبراً بالجليل من ذلك فلينظر الى السماء فيعلم ان لها ربّاً يجري فلكها ويدبر امرها · ومن اعتبر بالصغير فلينظر الى حبة الخردل فيعرف ان لها مدبراً ينبتها ويزكيها ويقدر لها اوقاتها من الارض والماء يوقت لها زمان نباتها وزمان تهشمها · وامر النبوة والاحلام وما يحدث في انفس الناس من حيث لا يعلمون ثم يظهر منهم بالقول والفعل ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلاّل على ذكر الله تعالى وتعظيمه واجتماع من شك في الله تعالى وكذّب به على الاقرار بانهم أُنشؤا حديثاً ومعرفتهم انهم لم يحدثوا انفسهم فكل ذلك يهدي الى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الامور مع ما يزيد ذلك يقيناً عند المؤمنين بان الله حق كبير ولا يقدّر احد انه باطل

ان للسلطان المقسط حقاً لا يصلح لخاصة ولا عامة امرٌ إلاّ بارادته فذو اللبّ حقيق ان يخلص لهم النصيحة ويبذل لهم الطاعة ويكتم سرهم ويزين سيرتهم ويذبّ بلسانه ويده عنهم ويتوخى مرضاتهم ويكون من امره المواتاة لهم والايثار لاهوائهم ورأيهم على هواه ويقدّر الامور على موافقتهم وان كان ذلك له مخالفاً · وان يكون منه الجدّ في المخالفة لمن جانبهم وجهل حقهم ولا يواصل من الناس الاّ من لا تباعد مواصلته اياه منهم ولا تحمله عداوة احد له ولا اضرارٌ به على الاضطغان عليهم ولا مواتاة احد على الاستخفاف بشيء من امورهم والانتقاص لشيء من حقهم ولا يكتمهم شيئاً من نصيحتهم ولا يتثاقل عن شيء من طاعتهم ولا يبطرُ اذا اكرموه ولا يجتريء عليهم اذا قرّبوه ولا يطغى اذا سلطوه ولا يلحف اذا سألهم ولا يدخل عليهم المؤونة ولا يستثقل ما حملوه ولا يغتر بهم اذا رضوا عنه ولا يتغير لهم اذا سخطوا عليه وان يحمدهم على ما اصاب من خير منهم او من غيرهم فانه لا يقدر احد على ان يصيبه بخير الا بدفاع الله عنه بهم

مما يدل على علم العالم معرفته بما يُدرَك من الامور وامساكه عما لا يدرَك وتزيينه نفسه بالمكارم وظهور علمه للناس من غير ان يظهر منه فخر ولا عجب ومعرفته بزمانه الذي هو فيه وبصره بالناس واخذه بالقسط وارشاده المسترشد وحسن مخالقته خلطاءه وتسويته بين قلبه ولسانه وتحريه العدل في كل امر ورحب ذرعه فيما نابه واحتجاجه بالحجج فيما عمل وحسن تبصيره · من اراد ان يبصر شيئاً من علم الآخرة فبالعلم الذي به يعرف ذلك ومن اراد ان يبصر شيئاً من علم الدنيا فبالاشياء التي هي تدلّ عليه

ليكن المرء سؤولاً وليكن فصولاً بين الحق والباطل وليكن صدوقاً ليؤمن على ما قال وليكن ذا عهد ليوفى له بعهده وليكن شكوراً ليستوجب الزيادة وليكن جواداً ليكون

للخير اهلاً وليكن رحيماً بالمضرورين لئلا يبتلى بالضر وليكن ودوداً لئلا يكون معدناً لاخلاق الشيطان

وليكن حافظاً للسانه مقبلاً على شانه لئلا يؤخذ بما لم يجترم وليكن متواضعاً ليفرح له بالخير ولا يحسد عليه وليكن قنعاً لتقرّ عينه بما أوتي وليسرّ للناس بالخير لئلا يؤذيه الحسد

وليكن حذراً لئلا تطول مخافته

ولا يكن حقوداً لئلا يضر بنفسه اضراراً باقياً

وليكن ذا حياء لئلا يستذم للعلماء فان مخافة العالم مذمة العلماء اشد من مخافته عقوبة السلطان

حياة الشيطان ترك العلم وروحه وجسده الجهل ومعدنه في اهل الحقد والقساوة ومثواه في اهل الغضب وعيشه في المصارمة ورجاؤه في الاصرار على الذنوب

وقال: لا ينبغي للمرء ان يعتدّ بعلمه ورأيه مالم يذاكره ذوو الالباب ولم يجامعوه عليه فانه لا يستكمل علم الاشياء بالعقل الفرد

اعدل السير ان تقيس الناس بنفسك فلا تأتي اليهم الا ما ترضى ان يؤتى اليك

وانفع العقل ان تحسن المعيشة فيما اوتيت من خير والاّ تكترث من الشر بما لم يصبك

ومن العلم ان تعلم انك لا تعلم ما لا تعلم

ومن احسن ذوي العقول عقلاً من احسن تقدير امر معاشه ومعاده تقديراً لا يفسد عليه واحد منهما الآخر فان اعياه ذلك رفض الادنى وآثر عليه الاعظم

وقال: المؤمن بشيء من الاشياء وان كان سحراً خير ممن لا يؤمن بشيء ولا يرجو معاداً

لا تؤدي التوبة احداً الى النار ولا الاصرار على الذنوب احداً الى الجنة

من افضل اعمال البر ثلاث خصال الصدق في الغضب والجود في العسرة والعفو عند القدرة

رأس الذنوب الكذب هو يؤسسها وهو يتفقدها ويثبتها ويتلوّن ثلاثة الوان بالامنية والجحود والجدل يبدأ صاحبه بالامنية الكاذبة فيما يزين له من السوآت فيشجعها عليها بان ذلك سيخفى فاذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة فان اعياه ذلك ختم بالجدل فخاصم عن الباطل ووضع له الحجج والتمس به التثبت وكابر الحق حتى يكون مسارعاً للضلالة ومكابراً بالفواحش

لا يثبت دين المرء على حالة واحدة ابداً ولكنه لا يزال اما زائداً واما ناقصاً

من علامات اللئيم المخادع ان يكون حسن القول سيء الفعل بعيد الغضب قريب الحسد حمولاً للفحش مجازياً بالحقد متكلفاً للجود صغير الخطر متوسعاً فيما ليس له ضيقاً فيما يملك

وكان يقال اذا تخالجتك الامور فاستقبل اعظمها خطراً فان لم يستبن ذلك فارجاها دركاً فان اشتبه ذلك فاجدرها ان لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته

وكان يقال الرجال اربعة اثنان يُختبر ما عندهما بالتجربة واثنان قد كفيت تجربتهما فاما اللذان يحتاج الى تجربتهما فان احدهما برٌّ كان مع ابرار والآخر فاجر كان مع فجار فانك لا تدري لعل البر منهما اذا خالط الفجار ان يتبدَّل فيصير فاجرًا ولعل الفاجر منهما اذا خالط الابرار ان يتبدل فيصير برًّا فيتبدل البر فاجرًا والفاجر برًّا

واما اللذان قد كفيت تجربتهما وتبين لك ضوء امرهما فان احدهما فاجر كان في ابرار والآخر برٌّ كان في فجار

حق على العاقل ان يتخذ مرآتين فينظر من احداهما في مساوي، نفسه فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها وينظر من الاخرى في محاسن الناس فيحليهم بها ويأخذ ما استطاع منها

احذر خصومة الاهل والولد والصديق والضعيف واحتجج عليهم بالحجج

لا يوقعنك بلاءٌ تخلصت منه في آخر لعلك ان لا تخلص منه

الورع لا يَخدع والاريب لا يُخدع

ومن ورع الرجل ان لا يقول ما لا يعلم ومن الارب ان يتثبت فيما يعلم

وكان يقال عمل الرجل فيما يعلم انه خطأ هوى والهوى آفة العفاف وتركه العمل بما يعلم انه صواب تهاون والتهاون آفة الدين

واقدامه على ما لا يدري أصواب هو ام خطأ جماحٌ. والجماح آفة العقل

وكان يقال وقر من فوقك ولِن لمن دونك واحسن مواتاة اكفائك وليكن آثر ذلك عندك مواتاة الاكفاء فان ذلك هو الذي يشهد لك ان اجلالك من فوقك ليس بخضوع منك لهم وان لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم

خمسة مفرطون في خمسة اشياء متندمون عليها الواهن المفرّط اذا فاته العمل والمنقطع من اخوانه وصديقه اذا نابته النوائب والمستمكن منه عدوّه لسوء رأيه اذا تذكر عجزه والمفارق الزوجة الصالحة اذا ابتلي بالطالحة والجريء على الذنوب اذا حضره الموت

امور لا تصلح الا بقرائنها لا ينفع العقل بغير ورع ولا الحفظ بغير عقل ولا شدة البطش بغير شدة القلب ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحسب بغير ادب ولا السرور بغير امن ولا الغنى بغير جود ولا المروءة بغير تواضع ولا الخفض بغير كفاية ولا الاجتهاد بغير توفيق

امورٌ هن تبعٌ لامور فالمروآت كلها تبع للعقل والرأي تبع للتجربة والغبطة تبع لحسن الثناء والسرور تبع للامن والقرابة تبع للمودة والعمل تبع للقدر والجدة تبع للانفاق

اصل العقل التثبت وثمرته السلامة

واصل الورع القناعة وثمرته الظفر

واصل التوفيق العمل وثمرته النجح

لا يذكر الفاجر في العقلاء ولا الكذوب في الاعفاء ولا الخذول في الكرماء ولا الكفور بشيء من الخير

لا تؤاخين خباً ولا تستنصرن عاجزاً ولا تستعينن كسلاً

ان من اعظم ما يروّح به المرء نفسه ان لا يجري لما يهوى وليس كائناً الا لما لا يهوى وهو لا محالة كائن

اغتنم من الخير ما تعجلت . ومن الاهواء ما سوّفت . ومن النصب ما عاد عليك . ولا تفرح بالبطالة ولا تجبن عن العمل

من استطعم من الدنيا شيئاً فبطر واستصغر من البر شيئاً فتهاون واحتقر من الاثم شيئاً فاجترأ عليه واغترّ بعدوّ وان قلّ فلم يحذره فذلك من ضياع العقل

لا يستخف ذو العقل باحد واحق من لم يستخف به ثلاثة الاتقياء والولاة والاخوان فانه من استخف بالاتقياء اهلك دينه ومن استخف بالولاة اهلك دنياه ومن استخف بالاخوان افسد مروءته

من حاول الامور احتاج فيها الى ست الرأي والتوفيق والفرصة والاعوان والادب والاجتهاد وهن ازواج فالرأي والادب زوج لا يكمل الادب الا بالرأي ولا يكمل الرأي بغير الادب

والاعوان والفرصة زوج لا تنفع الاعوان الا عند الفرصة ولا تنفع الفرصة الا بحضور الاعوان . والتوفيق والاجتهاد زوج فالاجتهاد سبب التوفيق وبالتوفيق ينجح الاجتهاد

يسلم العاقل من عظام الذنوب والعيوب بالقناعة ومحاسبة النفس

لا تجد العاقل يحدث من يخاف تكذيبه ولا يسأل من يخاف منعه ولا يعد مالا يجد انجازه ولا يرجو ما يعنف برجائه ولا يقدم على ما يخاف العجز عنه وهو يسخي نفسه عما يغبط به القوّالون خروجه من عيب التكذيب ويسخي نفسه عما ينال به السائلون سلامته من مذلة المسألة

ويسخي نفسه عن فرح الرجاء خوف الاكداء

ويسخي نفسه عن محمدة المواعيد براءته من مذمة الخلف

ويسخي نفسه عن مراتب المقدمين ما يرى من فضائح المقصرين

لا عقل لمن اغفله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه وليس من العقل ان يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها

حاز الخير رجلان سعيد ومرجوّ والسعيد الفالح والمرجوّ من لم يخصم والفالح الصالح ما دام في قيد الحياة وتعرض الفتن في مخاصمة الخصماء من الاهواء والاعداء

السعيد يرغبه الله في الآخرة حتى يقول لا شيء غيرها فاذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا ولم ينقصه من سروره فيها والشقيّ يرغبه الشيطان في الدنيا حتى يقول لا شيء غيرها فيعجل الله له التنغيص في الدنيا التي آثر مع الحزن الذي يلقى بعدها

الرجال اربعة جواد وبخيل ومسرف ومقتصد فالجواد الذي يوجه نصيب آخرته ونصيب دنياه جميعاً في امر آخرته

والبخيل الذي لا يعطي واحدة منهما نصيبها

والمسرف الذي يجمعهما لدنياه

والمقتصد الذي يُلحق بكل واحدة منهما نصيبها

اغنى الناس اكثرهم احساناً

قال رجل لحكيم: ما خير ما يؤتى المرء قال: غريزة عقل قال: فان لم تكن قال فتعلم علم قال: فان حُرمه قال: صدق اللسان قال: فان حرمه قال: سكت طويل قال: فان حرمه قال: ميتة عاجلة

من اشد عيوب الانسان خفاء عيوبه عليه فانه من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره ومن خفي عليه عيب نفسه ومحاسن غيره لم يقلع عن عيبه الذي لا يعرف ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصرها ابداً

خصال يسر بها الجاهل كلها كائن عليه وبالاً منها ان يفخر من العلم والمروءة بما ليس عنده ومنها ان يرى بالاخيار من الاستهانة والجفوة ما يشمته بهم

ومنها ان يناقل عالمًا وديعاً منصفاً له في القول فيشتدّ صوت ذلك الجاهل عليه ثم يُفلجه نظراؤه من الجهال حوله بشدة الصوت وكثرة الضحك

ومنها ان يفرط منه الكلمة او الفعلة المعجبة للقوم فيذكر بها

ومنها ان يكون مجلسه في المحفل او عند السلطان فوق مجالس اهل الفضل عليه

من الدليل على سخافة المتكلم ان يكون ما يُرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول او يجاذب الرجل الكلام وهو يكلم صاحبه ليكون هو المتكلم او يتمنى ان يكون صاحبه قد فرغ وانصت له فاذا انصت له لم يحسن الكلام

فضل العلم في غير الدين مهلكة وكثرة الادب في غير رضوان الله ومنفعة الاخيار قائد الى النار

والحفظ الذكي الواعي بغير العلم النافع مضر بالعمل الصالح والعقل غير الوازع عن الذنوب خازن للشيطان

لا يؤمننك شر الجاهل قرابة ولا جوار ولا الف فان اخوف ما يكون الانسان لحريق النار اقرب ما يكون منها وكذلك الجاهل ان جاورك انصبك وان ناسبك جنى عليك وان الفك حمل عليك ما لا تطيق وان عاشرك آذاك واخافك مع انه عند الجوع سبع ضار وعند الشبع ملك فظ وعند الموافقة في الدين قائد الى جهنم فانت بالهرب منه احق منك بالهرب من سم الاساود والحريق المخوف والدَّين الفادح والداء العياء

كان يقال قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك ولا تقارب به كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك وتذل نفسك ويرغب عنك ناصرك ومثل ذلك مثل العود المنصوب في الشمس ان أملته قليلاً زاد ظله وان جاوزت الحدَّ في امالته نقص الظل

الحازم لا يأمن عدوه على كل حال ان كان بعيداً لم يأمن من معاودته وان كان قريباً لم يأمن مواثبته فان رآه متكشفاً لم يأمن استطراده وكمينه وان رآه وحيداً لم يأمن مكره

الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بمواده من الانهار

الظفر بالحزم . والحزم باجالة الرأي . والرأي بتكرار النظر وبتحصين الاسرار

ان المستشير وان كان افضل من المستشار رأياً فهو يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالودك ضوءاً وعلى المستشار موافقة المستشير على صواب ما يرى والرفق به في تبصير خطاء ان اتى به وتقليب الرأي فيما شكا فيه حتى تستقيم لهما مشاورتهما

لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء ولا الخب في كثرة الصديق ولا السيء الادب في الشرف ولا الشحيح في المحمدة ولا الحريص في الاخوان ولا الملك المعجب بثبات الملك

صرعة اللين اشد استئصالاً من صرعة المكابرة

اربعة اشياء لا يستقل منها قليل النار والمرض والعدوّ والدين

احق الناس بالتوقير الملك الحليم العالم بالامور وفرص الاعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضا والمعاجلة والاناة الناظر في الامر يومه وغده وعواقب اعماله

السبب الذي يدرك به العاجز حاجته هو الذي يحول بين الحازم وبين طلبته

ان اهل العقل والكرم يبتغون الى كل معروف وصلة وسبيلاً والمودة بين الاخيار سريع اتصالها بطيء انقطاعها ومثل ذلك مثل كوب الذهب الذي هو بطيء الانكسار هين الاصلاح والمودة بين الاشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها كالكوز من الفخار يكسره ادنى عبث ثم لا يوصل له ابداً

والكريم يمنح الرجل مودّته عن لقاءة واحدة او معرفة يوم واللئيم لا يصل احدًا الا عن رغبة او رهبة وان اهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم امرين و يتواصلون عليهما ذات النفس وذات اليد فاما المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون المستمتعون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض متاجرة ومكايلة

ما التبع والاعوان والصديق والحشم الا للمال ولا يُظهر المروءة الا المال ولا الرأي والقوّة الا بالمال ومن لا اخوان له فلا اهل له ومن لا اولاد له فلا ذكر له ومن لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة ومن لا مال له فلا شيء له والفقر داعية الى صاحبه مقت الناس وهو مسلبة للعقل والمروءة ومذهبة للعلم والادب ومعدن للتهمة ومجمعة للبلايا ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدًا من ترك الحياء ومن ذهب حياؤُه ذهب سروره ومن ذهب سروره مقت ومن مقت أُوذي ومن أُوذي حزن ومن حزن ذهب عقله واستنكر حفظه وفهمه ومن أُصيب في عقله وفهمه وحفظه كان اكثر قوله وعمله فيما يكون عليه لا له فاذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمنًا واساء به الظن من كان يظن به حسنًا فان اذنب غيره اظنوه وان كان للتهمة وسوء الظن موضعًا وليس خلة هي للغني مدح الا هي للفقير عيب

فان كان شجاعًا سمي اهوج
وان كان جوادًا سمي مفسدًا
وان كان حليماً سمي ضعيفًا
وان كان وقورًا سمي بليدًا
وان كان لسنًا سمي مهذارًا
وان كان صموتًا سمي عييًا

وكان يقال من ابتلى بمرض في جسده لا يفارقه او بفراق الاحبة والاخوان او بالغربة حيث لا يعرف مبيتًا ولا مقيلاً ولا يرجو ايابًا او بفاقة تضطره الى المسألة فالحياة له موت والموت له راحة

وجدنا البلايا في الدنيا انما يسوقها الى اهلها الحرص والشره فلا يزال صاحب الدنيا ينقلب في بلية وتعب لانه بخلة الحرص والشره

وسمعت العلماء قالوا :لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق ولا غنى كالرضا واحق ما صُبر عليه مالا سبيل الى تغييره

وافضل البر الرحمة ورأْس المودة الاسترسال ورأْس العقل المعرفة بما يكون ومالا يكون وطيب النفس وحسن الانصراف عما لا سبيل اليه وليس في الدنيا سرور يعدل صحبة الاخوان ولا فيها غم يعدل غم فقدهم

لا يتم حسن الكلام الا بحسن العمل كالمريض الذي قد علم دواء نفسه فاذا هو لم يتداوَ به لم يغنه علمه والرجل ذو المروءة قد يكرَم على غير مال كالاسد الذي يهاب وان كان عقيرًا والرجل الذي لا مروءة له يهان وان كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وان طوق وخلخل

ليحسن تعاهدك نفسك بما تكون به للخير اهلاً فانك اذا فعلت ذلك اتاك الخير يطلبك كما يطلب الماء السيل الى الحدور

ان اولى الناس بفضل السرور وكرم العيش وحسن الثناء من لا يبرح رحله من اخوانه واصدقائه من الصالحين موطوءاً ولا يزال عنده منهم زحام يسرهم ويسرونه ويكون من وراء حاجاتهم وامورهم فان الكريم اذا عثر لم يستقلّ الا بالكرام كالفيل اذا وحل لم تستخرجه الا الفيلة

لا يرى العاقل معروفًا صنعه وان كثر كثيرًا ولو خاطر بنفسه وعرضها في وجوه المعروف لم ير ذلك عيبًا بل يعلم انه انما اخطر الفاني بالباقي واشترى العظيم بالصغير

واغبط الناس عند ذوي العقول اكثرهم سائلاً منجحًا ومستجيرًا آمنا

لا تعدّ غنيًّا من لم يشارك في ماله ولا تعد نعيماً ما كان فيه تنغيص وسوء ثناء

ولا تعدّ الغنم غنماً اذا ساق غرمًا ولا الغرم غرمًا اذا ساق غنماً ولا تعتد من الحياة ما كان في فراق الاحبة

ومن المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الاخ اخاه وافضاء كل واحد منهما الى صاحبه بثه واذا فرق بين الاليف والفه فقد سلب قراره وحرم سروره

وقال : ما نزال نتخلف عقبة من البلاء الا صرنا في اخرى لقد صدق القائل الذي يقول: لا يزال الرجل مستمرًا حتى يعثر فاذا عثر مرة واحدة في ارض الخبار لجّ به العثار وان مشى في جدَد لان . هذا الانسان موكل به البلاء فلا يزال في تصرف وتقلب لا يدوم له شيء ولا يثبت معه كما لا يدوم لطالع النجوم طلوعه ولا لآفلها افوله ولكنها في تقلب وتعاقب فلا يزال الطالع يكون آفلاً والآفل طالعًا انتهى

الاخصاء في العلوم

المخصي هو الذي ينفرد بدراسة فن واحد من اخصى الرجل اذا تعلم علماً واحداً والنتفة (كهمزة) من ينتف من العلم شيئاً ولا يستقصيه قال في التاج: وكان ابوعبيدة اذا ذكر له الاصمعي يقول ذاك رجل نتفة قال الازهري: اراد انه لم يستقص كلام العرب انما حفظ الوخز والخطيئة منه اي القليل. فالاخصاء وهو موضوع بحثنا هنا يتوقف عليه نجاح العلم وارتقاؤه ولا يقال عن أمة انها مرتقية في علومها الا اذا كثر فيها الاخصائيون في كل علم من علوم الحياة والاجتماع وكل من تفردوا في الغالب وطار ذكرهم في الآفاق وتناقلت اعمالهم الاجيال بعد الاجيال والعصور غبَّ العصور كانوا بلا مراء من اهل الاخصاء صرفوا وكدهم الى معاناة علم واحد والنظر في دقائقه وخفاياه ودرسه من عامة اطرافه.

وَهِم قوم ان الاخصاء في العلوم يرتجل ارتجالاً فالمهندس يتعلم الهندسة وحدها والاثري يدرس علم الآثار والمؤرخ التاريخ والكيماوي الكيمياء والطبيعي الطبيعيات والفلكي الافلاك فيبرّزون وترتقي مداركهم. ولكن دلَّ تاريخ العلم في الامم القديمة والحديثة على انه لا يخصي في علم الا من سبق له ان شارك في علوم كثيرة ولو مشاركة بسيطة لان للعلوم علاقة بعضها ببعض كعلاقة البشر بعضهم ببعض فكما انه لا يتيسر النفع لامة ان تبقى وراء تخومها منعزلة عن جاراتها فكذلك العلم الواحد وهو ثمرة عقول العالمين لا يتقن الا اذا قدمت له المقدمات وشدا صاحبه شيئاً من اكثر ما ينفع. وقلما سمع بان رجلاً اثر في انهاض امة او خدم علماً او نفع نفعاً يذكر وكان ما تميز به وحده هو كل رأس ماله العلمي والعقلي حتى ان نفس علماء الدين في الاسلام الذين اثروا تأثيراً كبيراً كانوا مشاركين في علوم الدنيا مشاركة تامة والغزالي والماوردي والفخر الرازي وابن تيمية وابن حزم وابن القيم وابوحاتم الرازي والجاحظ وغيرهم كثيرون لم يؤثروا في قومهم ولم يزالوا مؤثرين الا لانهم سعوا في تنمية ملكات عقولهم بالعلوم الرياضية والتاريخية فعرفوا كيف يسلكون ولذلك ترى لكلامهم قبولاً لا تراه لغيرهم ممن لم يشاركوا مشاركتهم في العلوم الدنيوية.

وكذلك الحال فيمن عرفوا بالعلوم المدنية كنصير الدين الطوسي وابن رشد وابن سينا والفارابي وعبداللطيف البغدادي وابن الهيثم والبتاني والبيروني ومئات غيرهم لم ينفعوا في علومهم التي تفردوا فيها الا بعد ان عرفوا من علوم الدين ما حسنت معه سيرتهم وسريرتهم

واذا امعنا النظر في تاريخ هذه الامة نجدها لم تعهد الاخصائيين في العلوم المدنية الا في اواخر القرن الثاني او في منتصف الثالث على حين بدأت بالنقل وتعلم علوم الحضارة منذ القرن الاول للهجرة ولما عمت هذه العلوم وخصوصاً الفلسفية نشأ بحكم الطبع اناس منفردون

ودام هذا التفرد على اشده الى اواخر القرن السادس ثم اخذ يضعف بضعف طرق التعليم وزهد الحكومات في العلم الا ما كان منه تحت ستار الآخرة تمويهاً على عقول السذج · وفساد السياسة فساد العالم فكيف بالعلم وهو الذي لا تنفق سوقه الا في ارض الراحة والطمأنينة ولا يقوى الا بالبواعث والدواعي ·

وكأن العقول في اهل هذه البلاد ضعفت بعد اشتغالها الطويل قروناً فاخلدت الى الراحة طوعاً او كرهاً في القرون الخمسة الاخيرة التي لم تبق منها الا حثالة من فروع الدين واللغة فقط وقلّ في كبار المشتغلين من اهلها بعقولهم من يصح ان يدعى نتفة في علم فضلاً عن اخصائي · او كأن ضعف امة قوة اخرى كما قال بعضهم :

حياةُ بعض مماتُ بعضٍ حياةُ كلٍّ محالُ فرض

فقد كنا هنا كلما ضعفت عقولنا و زهدنا في ترقية مداركنا وانصرفنا الى التافه الذي لا يؤبه له قويت الامم الغربية بعلومها ومدارك اهلها وطفق العلم يعم افرادها جيلاً بعد جيل حتى جاء القرن الثامن عشر الميلادي وقد كثر الاخصائيون فيهم وزادوا في القرن التاسع عشر اي زيادة واتى هذا القرن العشرون وقد كاد يعم العلم قضهم وقضيضهم وذكورهم واناثهم · ومن جمهور المتعلمين يخرج في العادة الاخصائيون وهم اما مسوقون بنابل من طبيعتهم الى اتقان فن او فنين والتبريز فيهما على الاقران او ان احدهم ينمي في نفسه الميل الى فن ينفع الناس نفعاً حقيقياً · قال عبدالله بن مسلم بن قتيبة :من اراد ان يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ومن اراد ان يكون اديباً فليتفنن في العلوم · وقال احد الحكماء :اقصد من اصناف العلوم ما هو اشهى لنفسك واخف على قلبك فان نفاذك فيه على حسب شهوتك له وسهولته عليك ·

ما ظهر في الغرب امثال نيوتن ولابلاس وكيتي وشيلر وهيكل وهيجل وفيختي وماكولي ولايبنز وسبينوزا وكانت وكونت وديكارت وشوبنهور وروسو وفولتير وديدرو ودروين وهاكسلي ومئات غيرهم الا بعد ان نظم التعليم عندهم تنظيماً حسناً وعم الاصلاح اصوله وفروعه فصار الاخصاء في افراد منهم الآن على ما يعجب منه بل اصبح العلم الواحد ينقسم الى فروع كثيرة ويشتغل في كل فرع منه عدة افراد · فواحد للميكروبات وآخر للعدسيات وبعضهم للاجواء وآخرون للاضواء وغيرهم للماء وفريق للسماء وافراد للكهرباء وطائفة للكيمياء وآخرون للميون وبعضهم للجنون وهكذا تجد لكل ما يخطر ببالك وما لا يخطر من فروع المعرفة مئات من الاخصائيين ومئات من المجامع العلمية الخاصة بها والمدارس الموقوفة عليها · ويحق ما قال احد اساتذة كلية اكسفورد في مأدبة أقيمت لجماعة من اساتذة الانكليز

في كلية السوربون بباريز منذ شهور ان كانت القرون الوسطى هي قرون التعميم في التعليم فان هذا العصر عصر الاخصاء فيها ·

اما هذه البلاد على ما دخل اليها حتى الآن من قشور علوم الغرب فليست الا كاوروبا في قرونها الخامس عشر او السادس عشر تحتاج الآن الى تعلم ما يخرجها عن حدّ الامية ثم ان نتعلم البسائط من اوليات العلوم واللغات فاذا تمت لها هذه الامنية ينشأ فيها بحكم الطبع اولئك الاخصائيون الذين تتطاول نفوسنا الى الاستكثار منهم بين اظهرنا لقيام جامعتنا واحكام ملكات العلوم فينا والانتفاع بحقائقها ودقائقها في العمليات لا الاقتصار على النظريات منها كما نحن فيها حتى اليوم اللهم الا الطب والهندسة والحقوق ·

ان من يقول بان الاخصائيين اليوم بيننا ينبغي ان يكثروا بين اظهرنا وجمهور الامة في التعليم كما ترى هو كمن يريد ان يعلم التعليم العالي لمن لم يتعلم مبادىء القراءة والكتابة · فحالنا الآن اذا قست ما اخذناه من بحور العلوم الزاخرة الى ما هي عليه حقيقتها حال من لم يعرف القراءة البسيطة واهله يريدون ان يعلموه الفلسفة التي هي علم العلوم او كمن هو في سفر بعيد وتريده ان يقطع اليوم في دقيقة وان يعدي من سيف البحر الى سيفه الآخر ولا سفينة لديه او كمن تريده على ان يخطب في علم ما وراء الطبيعة في صحراء افريقية ·

قال لاروس في معجمه الكبير : اتسعت معارف البشر النظرية والعملية بعد استقرار امرها فاحتاج الناس ان يقسموها بحسب استعدادهم وحاجاتهم الى اقسام لا آخر لها ينقطع اليها افراد ويبحثون في مضامينها فالاصول من المعارف هي المعلومات العامة وتفرعاتها هي الاخصائيات · ولقد كان بادىء بدء كل شيء مفهوماً في الفلسفة فكانت لفظة عام عند الامم الجاهلة تتناول جميع العلوم وتنقسم الى قسمين المحسوسات والمعقولات ودعيت علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة · اما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيماً معقولاً ولا جارية على طريقة معقولة وكان ارباب الافكار يحتقرونها فلا يمارسها الا الصعاليك ينصرفون اليها تقليداً ويخلفون في تعلمها آباءهم بدون وقوف على القوانين الميكانيكية او الطبيعية التي كانوا يعملون بها على الدوام ·

ثم حسنت حال الانسان بالتدريج ودخلت الاعمال في طور نظام وانتظمت العلوم الرئيسة لا سيما الآداب والفنون وعلوم النظر والعلوم العملية اي التجارة والصناعة والحرف ونشأ الاخصاء في كل فرع من فروع هذه الطبقات · فالطبيب مضطر الى تعلم امور كثيرة ولا يخصي في تعاطي فرع واحد الا في المدن اما في القرى فيمارس كل فرع من فروع الامراض الباطنية والخارجية · وهكذا الحال في الاعمال التجارية والصناعية فان كل

حرفة او مهنة تنقسم الى اقسام تدعى تقسيم الاعمال . وقد دخل كل علم اليوم في دائرة الاخصاء حتى ما يلزم الطاهي والبائع والسوقي من المعارف فاصبح من الضروري بالنظر لتكاثر اعمال البشر وانتشارها ان يزيد ابداً الاخصاء في كل علم وشأن . واذا نظرت الى الاخصاء من حيث العلم فانه دليل الكفاءة وبدونه لا يكون عالم فان المبادىء الاولية من جميع العلوم هي ولا شك نافعة لكل الناس حتى العامة ومتى حاز المرء قسطاً من هذه العلوم السطحية ورأى ان يتبحر فيها يجب عليه تعيين الموضوع الذي سينصرف اليه وبدون ذلك يتقدم المرء في علمه تقدماً بطيئاً ويخلط فيه ويبقى متوسطاً والى الضعف . والاخصاء ضروري ايضاً في العلم العملي اي في المعامل والاعمال اليدوية وذلك للاسراع فيها ويرى ارباب معامل الابر والخياطة في لندرا ان في تقسيم الاعمال اقتصاداً كبيراً .

اذا قسمت الاعمال واخصى المشتغلون بالعلوم وتوسعوا فيها فالاخصاء يؤدي ولا جرم الى الضعف الادبي . وذلك ان العاملات مثلاً اذا قضين نهارهن في عملهن السهل اللطيف في الظاهر كأن يتوفرن على ادخال الخيوط في ابرهن فانهن لا يفقدن شيئاً من حواسهن ولكنه ثبت بالاحصاء انهن يفقدن حاسة النظر في اقرب وقت اما القوى العقلية والقوى المماثلة لها فانها تتأذى ايضاً . اما في العلم المحض فان من ينصرفون الى الاخصاء ككثير من الرياضيين والمهندسين والفلكيين يعيشون في العالم كأنهم ليسوا منه ويدهشون معاصريهم بغرابة اخلاقهم وتشتت افكارهم التي جرت مجرى الامثال . وبالجملة فيقضى على كل مخص في العلم او في الصناعة ان يحرز حظاً من المعارف لاول امره وان يخصي في علمين او ثلاثة فاذا مارس احدها اراح غيره اه

وقال الراغب الاصفهاني في الذريعة : حق الانسان ان لا يترك شيئاً من العلوم امكنه النظر فيه واتسع العمر له الا ويخبر بشمه عرفه وبذوقه طيبه ثم ان ساعده القدر على التغذي به والتزود منه فبها ونعمت والا لم يصر لجهله بجهله ولغباوته عن منفعته الا معادياً له بطبعه

ومن يكُ ذا فم مرّ مريض   يجد مرّاً به الماء الزلالا

فمن جهل شيئاً عاداه والناس اعداء ما جهلوا بل قال الله تعالى واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم . وحكي عن بعض الفضلاء انه رؤي بعد ما طعن في السن وهو يتعلم اشكال الهندسة فقيل له في ذلك فقال : وجدته علماً نافعاً فكرهت ان اكون لجهلي به معادياً له ولا ينبغي للعاقل ان يستهين بشيء من العلوم بل يجعل لكل حظه الذي يستحقه ومنزله الذي يستوجبه ويشكر من هداه لفهمه وصار سبباً لعلمه . ولقد حُكي عن بعض الحكماء انه قال: يجب ان نشكر ايادي الذين ولدوا لنا الشكوك اذ كانوا سبباً لما حرك خواطرنا لطلب العلم

فضلاً عن شكر من افادنا طرفًا من العلم ولولا مكان فكر من تقدمنا لاصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن فهم مصالح دنياهم فضلاً عن مصالح اخراهم . فمن تأمل حكمة الله تعالى في اقل آلة يستعملها الناس كالمقراض حيث جمع بين سكينين مركبًا على وجه يتوافى حداهما على نمط واحد للقرض اكثر تعظيم الله تعالى وشكره ويقول سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين .

ومن اجمل ما يروى في باب الانفراد بعلم والالمام بعلوم اخرى ما قاله ابو حاتم السجستاني قال: قدم علينا عامل من اهل الكوفة لم ار في عمال السلطان ابرع منه فدخلت عليه مسلماً فقال: ياسجستاني مَن علماؤكم بالبصرة قلت: الزيادي اعلمنا بعلم الاصمعي والمازني اعلمنا بعلم النحو وهلال الرازي افقهنا والشاذكوني اعلمنا بالحديث وانا أنسب الى علم القرآن وابن الكلبي اكتبنا للشروط فقال لكاتبه: اذا كان غدًا فاجمعهم لي فجمعنا فقال: ايكم المازني فقال ابوعثمان انا . فقال: هل يجزيء في كفارة الظهار عتق عبد اعور . فقال المازني: انا صاحب عربية لست بصاحب فقه . فقال: يازيادي كيف تكتب بين رجل وامرأة خلعها زوجها على الثلث من صداقها فقال: ليس هذا من علمي هذا من علم ابي حاتم . فقال لي: ياابا حاتم كيف تكتب الى امير المؤمنين تصف فيه خصاصة اهل البصرة وما اصابهم في الثمرة من الجوائح وتسأل النظر لهم فقلت: انا صاحب قرآن لست بصاحب بلاغة وكتابة فقال: اقبح بالرجل يتعاطى العلم خمسين سنة لا يعرف الا فنًا واحدًا حتى اذا سئل عن غيره لم يجر فيه جوابًا لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا لاجاب .

ومن استقرى تاريخ العرب يجد من امثال الكسائي مئات كما قلنا ممن كتب لهم التقدم في علوم كثيرة فقد ذكر ابن خلكان وابن ابي أصيبعة في ترجمة كمال الدين بن يونس المتوفى سنة ٦٣٩ وهو ممن لم يشتهروا كثيرًا بيننا انه تبحر في جميع الفنون وجمع من العلوم ما لم يجمعه احد وتفرد بعلم الرياضة وكان الفقهاء يقولون انه يدري اربعة وعشرين فنًا دراية متقنة منها المذهب والخلاف العراقي والبخاري واصول الفقه واصول الدين والحكمة والمنطق والطبيعي والالهي والطب وفنون الرياضة من أقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وانواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة والارثماطيقي وطريق الخطأين والموسيقى والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره الا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها واستخرج في علم الاوفاق طرقًا لم يهتد اليها احد وكان يبحث في العربية والتصريف بحثًا مستوفيًا وكان له في التفسير والحديث وما يتعلق به واسماء الرجال يد طولى وكان يحفظ من التواريخ وايام العرب ووقائعهم والاشعار والمحاضرات شيئًا كثيرا وكان اهل الذمة يقرؤن

عليه التوراة والانجيل وشرح لهما هذين الكتابين شرحاً يعترفون انهم لايجدون من يوضحهما لم مثله وكان في كل فن من هذه الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه قال صاحب وفيات الاعيان: و بالجملة فان مجموع ما كان يعلمه من الفنون لم يسمع عن احد ممن تقدمه انه قد جمعه قال ابو بشر ثمامة بن الاشرس النميري المعتزلي وكان خصيصاً بالمأمون: رأيت رجلاً يتردد على باب المأمون ورأيت عليه أبهة اديب فجلست اليه ففاتشته في اللغة فوجدته بحراً وفاتشته عن النحو فشاهدته نسيج وحده وعن الفقه فوجدته رجلاً فقيهاً عارفاً باختلاف القوم وبالنجوم ماهراً وبالطب خبيراً وبايام العرب واشعارها حاذقاً فقلت له من تكون وما اظنك الا الفراء فقال: انا هو .

وكان القاضي ابوالفرج المعافى النهرواني فقيهاً اديباً شاعراً عالماً بكل فن قال ابن خلكان ذكر احمد بن عمر بن روح ان اباالفرج المذكور حضر في دار لبعض الرؤساء وكان هناك جماعة من اهل الادب فقالوا: في اي نوع من العلوم نتذاكر فقال: ابوالفرج لذلك الرئيس خزانتك قد جمعت انواع العلوم واصناف الادب فان رأيت ان تبعث غلاماً اليها تأمره ان يفتح بابها و يضرب بيده الى اي كتاب منها فيحمله ثم يفتحه و ينظر في اي العلوم هو فنتذاكره ونتجارى فيه وقال ابن روح: وهذا يدل على ان ابا الفرج كان له انسة بسائر العلوم وكان ابو محمد الباجي يقول اذا حضر القاضي ابوالفرج فقد حضرت العلوم كلها . وقال: لو اوصى رجل بثلث ماله لاعلم الناس لوجب ان يدفع الى ابي الفرج المعافى وكان ثقة مأموناً في روايته . هذا ما حضرنا من امر الاحصاء والاحصائيين ولعل بعض مؤازرينا يكتبون فصلاً واسعاً في حالة الاحصاء عند الغربيين والطرق التي يعتمدون اليها بتفصيل اوسع واشفى

تاريخ ابن الساعي

وقفنا على قطعة من كتاب الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير (١) قال في كشف الظنون انه تأليف الشيخ تاج الدين علي بن انجب بن الساعي البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤ (خازن كتب المستنصرية)وهو تاريخ كبير في خمسة وعشرين مجلداً بلغ فيه الى آخر سنة ٦٥٦ والتاريخ مرتب على السنين وهذا الجزء وهو مخروم من اوله وآخره يبدأ من حوادث

(١) استخرجه من دشت من الورق احمد بك تيمور من علماء القاهرة وسراتها وهوالذي عرف بانه قطعة من الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير

سنة ٥٩٥ وينتهي في حوادث سنة ٦٠٦ أي ان فيه حوادث عشر سنين تامة ذكر فيه ماوقع فيها من الكوائن السياسية والطبيعية وترجم كثيرًا ممن توفوا في تلك الحقبة من الزمن ولا سيما القاضي الفاضل والعماد الكاتب والفخر الرازي وابو السعادات ابن الاثير الجزري صاحب النهاية وهو موجز العبارة سهل الانشاء

ومعلوم ان الدولة العباسية كانت على ذاك العهد آخذة بالضعف ولذلك نقرأ نموذجًا من هذا الضعف في مسطور هذا التاريخ منها ان ابن ليون صاحب ارمينية اغار على اطراف حلب وغنم ونهب وقتل ومنها ان صاحب الكرج كان يغير على بلاد المسلمين ومنها ان ملوك الطوائف كصاحب غزنة وهراة والشام ومصر كانوا يتقربون لبغداد تقربًا ظاهريًا . وفي تلك المدة بدأ الصوفية يرد ذكرهم مع الفقهاء والوعاظ والقراء . واخذت العادة تسري بتقبيل «العتبة الشريفة بباب النوبي الشريف» حتى ان نظام الدين محمد بن عبد الكريم السمعاني لما انفذ رسولا من علاء الدين محمد خوارزمشاه وتلقي بموكب الديوان العزيز ونزل بباب النوبي الشريف وأريد على تقبيل العتبة امتنع عن تقبيلها فأهين والزم بتقبيلها مكرهًا ولما جاء رئيس علماء بخارى قبل تلك العتبة أسوة غيره من العامة والخاصة . وفي هذا التاريخ الفاظ واصطلاحات لذاك العصر منها ماورد في ترجمة ابي منصور بن نقطة المشجر وانه كان مجيدًا في صنعة الغناء وعمل الكان ومنها ماذكره في ترجمة الامير قيصر العوني «نسبة الى الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة كان مملوكاً افرنجي الجنس الا انه كان موصوفاً بالحسن والملاحة واللطف فقدمه الوزير على جميع مماليكه وكان يخرج في الاعياد في صدور موكبه بالقباء والعمامة القصب الكحلية والى جانبه خادم له من خدم الوزير بالاهبة أيضاً»

وقد ذكر فيه ماوقع سنة ٥٩٧ في مصر من الغلاء العظيم الذي اهلك معظم أهلها وهو جملة من كتاب الاعتبار في أخبار الديار المصرية لموفق الدين عبد اللطيف البغدادي . وهذا الكتاب طبع قديمًا في مصر . وترجم كثيرًا من المسيحيين والاسرائيليين وغيرهم من غير اهل الاسلام ووفاهم حقهم واليك مثالاً من ذلك بالحرف: «ابو سعيد الحسن ابن خالد بن المبارك بن محضر النصراني الماردينى الملقب بالوحيد كان مؤثرًا للوحدة والانقطاع واظب على الاشتغال بالعلم في اول شبابه واتقن علم الاوائل وبرّز فيه ثم رفض الاشتغال وكان بينه وبين قطب الدين بن ايلغازي بن أرتق ملك ديار بكر صحبة في سن التربية فكان يعاتبه على الانقطاع عنه ويندبه الى خدمته الى ان اجاب فتقدم عنده وصارت له المنزلة الرفيعة والاحترام والتقدم وندبه بارق شاه بن قلج لوزارته فابى ثم قصد بغداد واقام بها مدة عند الجاثليق ابي حكيم ماري بن ايليا بن الحديثي ثم عاد الى بلده وكان قد رزق طبعًا في نظم الشعر فمن ذلك قوله:

ومعتدلٍ ساجي الجفون كأنما بعينيه سيف سُلَّ للقتل والفتك
اذا رام عند الوصل ترك دلاله ترد عليه طبعه صولة الترك
وما عذل العذال الاّ جهالة اذا لم ازل مغرى الحشاشة بالهلاك
وما تركت مني الصبابة في الهوى سوى جسد مثل الخلال ام السلك
أشفعه فيما يريد بحسنه ولا اتعدى في الهوى طاعة النسك
ولكنني ارعى مباسم ثغره والثم من لألائها موضع الضحك

وقوله

لقد اثرت صدغاه في لون خده ولاحا كفيء من وراء زجاج
تري عسكرَ الروم في الزنج قد بدت طلائعه تسعى ليوم هياج
ام الصبح بالليل البهيم موشح حكى آبنوسًا في صفيحة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده فسيجه من شعره بسياج

وقوله في جواب كتاب

وقفت على فحوى كتابك معلنًا بشكرك اني بالثناء خليق
وما خلته الا كأكناف روضة تناثر فيها لؤلؤ وعقيق
وراق بسمعي منه لفظ كأنما معانيه سحر للقلوب وثيق
وان تك افعال الجميل تقدمت فانك في بحر الوفاء غريق
فلا تولني فوق الوداد تفضلاً فليس باعباء الثناء أطيق
ولم يك بدعًا ما قصدت من العلى فانك بالطبع الكريم خليق

وقوله في مثله

اتاني كتاب انشأته انامل حوت ابحرًا من فيضها يغرف البحر
فواعجباً أنّى التوت فوق طرسه وما عودت بالقبض انمله العشر

كان مولد ابي سعيد هذا في سنة سبع واربعين وخمسمائة وتوفي في سنة ستمائة »

وللمؤلف عناية باخذ التقاليد الصادرة عن الملوك وغيرها من الصكوك الرسمية ولو كتب لكتابه كله البقاء لانتفع به كثيرًا في هذا الباب لان فيه ولا شك ما يغفله اكثر المؤرخين. ومما ذكره تقليد فخر الدين ابي الحسن محمد بن محمد المختار الكوفي نقابة الطالبين ببغداد قال المؤرخ : وقد وقفت عليه وهو بخط المكين ابي الحسن محمد بن محمد بن عبدالكريم القمي كاتب ديوان الانشاء المعمور حينئذ ومن انشائه ومن خطه نقلت . وهنا اورد العهد وهو في اربع ورقات ولولا ان في بعض الكتب المطبوعة ما يماثله من التقاليد وربما فاقه باسلوبه وبلاغته لاقتبسناه

ومن فصول الكتاب المهمة ما ذكره في نقل الفتوة وما تجدد فيها سنة اربع وستمائة .
والفتوة كما في التاج لغةً الكرم والسخاء وفي عرف اهل التحقيق ان يؤثر الخلق على نفسه بالدنيا والآخرة وصاحب الفتوة يقال له الفتى ومنه لا فتى الا علي وقول الشاعر

فان فتى الفتيان من راح واغتدى   لضرّ عدوّ او لنفع صديق

وعبر عنها في الشريعة بمكارم الاخلاق ولم يجيء لفظ الفتوة في الكتاب والسنة وانما جاء في كلام السلف واقدم من تكلم فيها جعفر الصادق ثم الفضيل ثم الامام احمد وسهل والجنيد ولهم في التعبير عنها الفاظ مختلفة والمآل واحد . قلنا والفتوة فيما نرى كما يظهر من هذا التقليد الصادر عن الناصر اشبه بجمعية سياسية . والعهد الصادر عن الخليفة الناصر لدين الله الذي نحن بصدده هو « في هذه السنة أهدرت الفتوة القديمة وجعل امير المؤمنين الناصر لدين الله رضي الله عنه القبلة في ذلك والمرجوع اليه فيه وكان هو قد شرف عبد الجبار بالفتوة اليه وكان شيخًا متزهدًا فدخل في ذلك الناس كافة من الخاص والعام وسأل ملوك الاطراف الفتوة فنفذ اليهم الرسل وقد البسهم سراويلات الفتوة بطريق الوكالة الشريفة وانتشر ذلك ببغداد وتفتى الاصاغر الى الاكابر واتفق ان الفاخر العلوي كان رفيقًا للوزير ناصر بن مهدي وكان له رفقاء فاختصم احد رفقائه مع رفيق لعز الدين نجاح الشرابي وصار بذلك فتنة عظيمة بمحلة قطفتا حتى تجالدوا بالسيوف فانتهى ذلك الى الامام الناصر لدين الله رضي الله عنه فانكره وتقدم الى الوزير بجمع رؤوس الاحزاب وان يكتب في ذلك منشور يؤمرون فيه بالمعروف والألفة وينهون عن التضاغن ويقرأ بمحضر منهم ويشهد عليهم بما يتضمنه فمن خالفه أخذ سراويله وأبطلت فتوته وعوقب بما يرى من العقوبة واحضر الفاخر العلوي وقال الوزير للحاضرين اشهدوا عليَّ اني قد نزلت عنه وقرأ المنشور عليهم المكين ابو الحسن محمد بن محمد القمي كاتب ديوان الانشاء المعمور وهو من انشائه وهذه نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم . من المعلوم الذي لا يتمارى في صحته ولا يرتاب في وضوح براهينه وادلته ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه هو اصل الفتوة ومنبعها ومنجم اوصافها الشريفة ومطلعها وعنه تروى محاسنها وآدابها ومنه تشعبت قبائلها واحزابها واليه دون غيره ينسب الفتيان وعلى منوال مؤاخاته الشريفة النبوية نسج الرفقاء والاخوان وانه كان عليه السلام مع كمال فتوته ووفور رجاحته يقيم حدود الشرع على اختلاف مراتبها ويستوفيها من اصناف الجناة على تباين جناياتها ومللها ومذاهبها غير مقصر عما امر به الشرع المطهر وقدره ولا مراقب فيما رتبه من الحدود وقرره امتثالاً لامر الله تعالى في اقامة حدوده

وحفظ المناظم الشرع وتقويم عموده فانه عليه السلام فعل ذلك برأى من السلف الصالح ومسمع ومشهد من اخيار الصحابة ومجمع فلم يسمع ان احداً من الامة لامه ولا طعن عليه طاعن في حد اقامه وحقيق بمن اورثه الله مقامه وناط به شرائع الدين واحكامه وانتمى اليه عليه السلام في فتوته واقتفى شريف شيمته وكريم سجيته ان يقتدي به عليه السلام في افعاله ويحتذي فيما استرعاه الله تعالى واضح مثاله غير ملوم فيما يأتيه من ذلك ولا معارض فتوة ولا شرعا فيما يورده و يصدره وقد رسم الله على المراسم العلية المقدسة النبوية الامامية وزادها نفوذاً ممعضوداً بالصواب وتأييداً ممتد الاطناب محكم الاسباب على كل من تشرف بالفتوة برفاقة الخدمة الشريفة المقدسة المعظمة الممجدة المكرمة الطاهرة الزكية الامامية الناصرة لدين الله تعالى شرف الله مقامها وخلد ايامها واعلى كلمتها ونصر رايتها ان من قتل له رفيق نفساً نهى الله تعالى عن قتلها وحرمه وسفك دماً حقنه الشرع المطهر وعصمه وصار بذلك ممن قال الله تعالى في حقه حيث ارتكب هذا المحرَّم واحتقب عظيم هذا المأثم ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ثلاثة ان يُنزل عنه في الحال في جمع الفتيان عند تحققه لذلك ومعرفته ويُبادر الى تغيير رفقته مخرجاً له بذلك عن دائرة الفتوة التي كان متسماً بها مسقطاً له من عداد الرفاقة التي لم تعم نواحيها ذلك خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم وان كل فتى يحوي قاتلا ويخفيه ويُساعده على امره ويؤويه تنزل كبيره عنه ويغير رفاقته ويتبرأ منه وان من حوى ذا عيب فقد عاب وغوى ومن آوى طريد الشرع فقد ضل وهوى والنبي عليه السلام يقول من آوى محدثاً فعليه لعنة الله وملائكته والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ولا حدث اكبر من قتل النفس عدواناً وظلما ولا ذنب اعظم منه وزراً واثماً فان الفتى متى قتل فتى من حزبه سقطت فتوته ووجب ان يؤخذ منه القصاص عملا بقوله وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص وان قتل غير فتي عونا من الاعوان او متعلقا بديوان في بلد سيدنا ومولانا المفترض الطاعة على كافة الانام الناصر لدين الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحرب بالقتل فكأنما عيب على كبيرة فسقطت فتوته بهذا السبب الواضح واجب القصاص منه عند كل فتى راجح وليعلم الرفقة الميمونة ذلك وليعملوا بموجبه ويجروا الامر في امتثال ذلك على مقتضى المأمور به وليقفوا عند المحدود في هذا المرسوم المطاع ويقابلوه بالانقياد والاتباع ان شاء الله تعالى وكتب في صفر من سنة اربع وستمائة وصلى الى كل واحد من رؤوس الاحزاب منشور بهذا المثال فيه شهادة ثلثين من العدول ثم كتب تحت كل مرسوم ومنشور ما هذا صورته: قابل العبد بما تضمنه هذا المرسوم المطاع وقابله بما

يجب عليه من الانقياد والاتباع والامتثال وهو الذي يجب العمل به فتوة وشرعاً وهـذا المعروف من سيرة الفتيان المحققين نقلا وسمعاً وقد الزمت نفسي اجراء الامر على ما تضمنه هذا المرسوم الاشرف فمتى جرى ماينافي المأمور به المحدود فيه كان الدرك لازماً لي والمؤاخذة مستحقة على ما يراه صاحب الحرب ثبت الله دولته واعلى كلمته وكتب فلان بن فلان في تاريخه » اه

ومن العهود ما صدر عن الخليفة العباسي لرئيس اليهود قال ابن الساعي : « وفي تاسع ذي القعدة المذكور ولي ابن وهبة رأس مثنية (؟) اليهود وكتب عهده بذلك وسلم اليه فقرأه على اليهود في الكنيسة وهذه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الواجب شكره الغالب امره العلي شانه القوي سلطانه السابغة نعمته البالغة حكمته المنفرد بالجلال والاقتدار المصرف على مشيئته مجاري الاقضية والاقدار الدال على وحدانيته ببديع فطرته المانع لعجائب صنعته من ان تتعذر في الاوهام كنه معرفته الهادي الى سبيل الرشاد من شاء من خلقه الهامي سحاب فضله على كل مقر بربوبيته عارف بحقه الذي اصطفى محمداً صلى الله عليه وعلى آله من اكرم ارومة واعلى محتد وجرثومة واشرف العرب منصباً وامجدها أماً واباً واعزها قبيلاً واوضحها في المكارم سبيلاً وارسله الى الاحمر والاسود نبياً واختاره من اصناف الامم عربياً وايده بالحكم أمياً وجعله منصوراً بملائكته محمياً وابتعثه بالبرهان الساطع والدليل القاطع ونسخ بشريعته المطهرة الملل السالفة والشرائع فلم يزل صلى الله عليه وسلم وعلى آله بامر الله صادعاً ولانف الباطل جادعاً ولما انزل الله مبلغاً ولجهده في نصح الامة مستفرغاً فصلى الله عليه وعلى آله وعلى سلالة عمه ووارثه وصنو ابيه العباس الذي طهره من الادناس وفرض مودتهم وطاعتهم على جميع الناس الخلفاء الراشدين وأئمة الحق المجتهدين صلاة لاانقشاع لغمامها ولا انقطاع لتواصل دوامها والحمد لله الذي اصار الى خليفته في ارضه ونائبه في خلقه الامام المفترض الطاعة على سائر الامم الناصر لدين الله امير المؤمنين ووارث الانبياء والمرسلين حجة الله على الخلق اجمعين من مواريث انبيائه ومآثر خلفائه في ارضه وامنائه ماهو احق بحيازة مجده وارتداء علائه واخذ ميثاق طاعته على الامم في الازل والزم الاواخر منهم ما الزم الاول وفرض على خلقه الاقتداء به والائتمام وحاز له وراثة الخليفة عن الخليفة والامام عن الامام زاده الله شرفاً الى شرفه وادام على العالمين ما منحهم به من شمول عدله وحصانة كنفه فالمسلم والذمي والمعاهد في ظل اياديه الشريفة وادعون وفي رياض الامنة راتعون وبما يكلأهم من عين رأفته اليقظى هاجعون لايكدر لهم شرب ولا يذعر لهم سرب وحكم عدله يوجب النظر العام في مناظم امرهم وجوامع مصالحهم ورعاية جمهورهم لما وكله الله تعالى اليه من سياسة

عباده وناطه بشريف آرائه واجتهاده . وبلما ضرع دانيال بن العازر بن هبة الله في ترتيبه رأس مثنية عوضاً عن العازر بن هلال بن فهد الدارج على قاعدته وجاري عادته وانتهى ما يتحلى به عند اهل نحلته و يتصف به واستحقاقه لما ضرع فيه بحسن طريقته فيهم وسلامة مذهبه رسم اعلى الله تعالى المراسم الشريفة المقدسة المعظمة الممجدة المكرمة النبوية الامامية الطاهرة الزكية الناصرة لدين الله زادها الله اجلالاً ممتد الرواق ونفاذاً في الاقطار والآفاق ترتيبه رأس مثنية على عادة الدارج المشار اليه حيث كان ابن الدستور رأس مثنية ايضاً وان يكون له النظر في الولاية عليه من جميع الاماكن التي جرت عادته بتوليها والتصرف فيها وان يتميز عن نظرائه واشكاله باللبسة التي عهدت لامثاله وسبيل طوائف اليهود وحكامهم بمدينة السلام واكناف العراق الانتهاء في ذلك الى المأمور به والرجوع الى قوله في توسط امورهم والعمل بموجبه وان يخرجوا اليه من الرسوم التي جرت عادة من تقدمه بها بالاماكن التي كان يتصرف فيها من غير معارضة له في ذلك مع قيامه فيما يأتيه ويدبره بشرائط الذمة والتزامه ومحافظته بالامتثال و بواجب الاعتصام والاجلال ان شاء الله تعالى و به الثقة وكتب في تاسع ذي القعدة من سنة خمس وستمائة والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الذي ختم النبيين وهو سيد المرسلين المصطفى على سائر الخلق اجمعين » .

والخليفة الناصر لدين الله هذا هو الذي تقدم كما قال ابن الساعي « بانشاء دور ضيافة لفطور الفقراء في شهر رمضان في سائر محال بغداد شرقيها وغربيها فوقع الشروع في ذلك على يد قوام الدين نصر بن ناصر صدر المخزن المعمور وُسلم الى كل ثقة من اهل محلة مقدار من العين وامر باثبات فقراء اهل كل محلة وان يجري لكل واحد في كل يوم رطلين من الخبز الفائق وقدح طبيخ فيه نصف رطل لحم ضأن فاثبت في كل دار مقدار خمسمائة نفس زائداً وناقصاً فعم الفقراء والضعفاء هذه الصدقة وانتفعوا بها وتفرغ بالهم في هذا الشهر واستراحوا من السعي في تحصيل القوت والاهتمام به فالله تعالى يجعل ذلك نوراً يسعى بين يديه هذا سوى ما يفرق على الفقهاء في جميع المدارس والصوفية في سائر الربط والمنقطعين في الجوامع والمساجد والزوايا من الغنم والدقيق والذهب اجزل الله بذلك ثوابه وخفف به حسابه » .

كيف كانوا يسيحون

كتب احد الباحثين فصلاً ضافياً تحت هذا العنوان في « المجلة » فآثرنا تحصيله لجمعه بين الفائدة والفكاهة قال : ان السفر اليوم لا يتعدى حد السباق السهل اللطيف فهو قليل النفقة وفي مكنة كل انسان ان يقوم به ولم يكن كذلك في الازمان السالفة . بل كان التنقل ولا تدعو اليه الا الحوادث او الاشغال لا اللذة وحب الانتقال يستلزم صنوفاً من المتاعب والمصاعب والمخاطر يصعب علينا الآن تصوُّرها.

لم تكن وسائط النقل في القديم لتتعدى الحمار والحصان والجمل والعجلات والهوادج فينزل المسافرون في فنادق لم تكن وافرة العدد . ولقد كان عند العبرانيين فنادق غير مستوفية لشروط النزول فيها حتى ان ارباب الحشمة كانوا يربأون بانفسهم عن قصدها فكان لهم في كل مدينة احباب يستقبلونهم فينزلون عليهم وهم يقابلونهم بالمثل وينزلونهم في بيوتهم عند ما يسافر هؤلاء ايضاً. دام هذا الحق بين الأسرات مرعياً معمولاً به واصبح القرى عندهم من اقدس الفروض ولكنه لم يلبث ان اعتوره القلب والابدال.

ولم يمض زمن حتى انقلبت كيفية الضيافة في بلاد اليونان والرومان والعبرانيين وذلك لانه من الصعب ان يؤوي الانسان كل قادم واقتصروا في انزال الضيوف على معارفهم واصحابهم ومن لهم مقام سام في قومهم او يحملون وصية لا بد من تنفيذها وكانوا يرسلون من عداهم الى الخانات على نحو ما يقوم اليوم ابناء القرى في ايواء الجند وضباطهم خلال الحرب . وعمت هذه العادة على عهد الفيلسوف اليوناني تيوفراست (٣٧٤ — ٢٨٧ ق.م) وقد وصف المؤرخ توسيديد هذه الخانات او المضافات بانها دور كبيرة طولها مائتا قدم وهي مقسومة الى مساكن عالية وسفلية مفروشة وفيها سرر من حديد وقلز

لم تكن تعرف الفنادق في ارض اليهودية ولكن كان منها على طريق مصر رأى بعضها موسى وامرأته صفورة على انها لم تكن ذات بهجة ونيقة بل هي عبارة عن مرابط للبهائم وبالقرب منها آبار فيقضي على المسافر ان يأتي معه بجميع ما يلزم لغذائه . ولا تزال الخانات في المدن والمضافات في الارياف ببلاد الشرق الى عهدنا هذا على هذه الصورة لا تفوق القديمة بوضعها ولا باستعدادها .

وكانت فنادق الاجرة عند العبرانيين سيئة السمعة وقد صرح بلوتارك المؤرخ اليوناني بأنه لا يجب ان يتعب المرء فيها نفسه بل عليه ان يعمل ما يهوى ولا يحفل بجيرانه فكنت ترى فيها محلاً للمائدة واصطبلاً للبهائم ومكاناً للمركبات . وقد وصف افلاطون اصحاب

الخانات في عصره بانهم لصوص متجبرون اهل قحة وسلاطة يزدرون بمن يعطيهم قليلاً من الاجرة وهي صورة تصدق ولا جرم على بعض اصحاب الفنادق في عصرنا ·

من كان يظن ان البلاد التي تفردت في تلك الاعصر براحة السائحين فيها هي بلاد فارس ؟ فقد كان البريد ينقل فيها (ولا يزال كذلك) مع السعاة على الخيل فينقلون من محطة الى اخرى الاوامر وقد توفرت اسباب الرفاهية في تلك الفنادق الفاخرة · وعُهد عند الرومانيين ضربان من الفنادق منها الفاخر وهو ما كان ينزل فيه السائحون والجند وكانت تحت مراقبة الحكومة وقد ذكر المسيو كالي بانه رأى مثالاً منها عند ما اقام في البوسنة والهرسك · والحكومة النمسوية تلاحظ تلك الفنادق وتشرف عليها ولكن كانت تلك الفنادق للطبقة العالية من الناس وربما حلّ فيها الملوك فهل يسوغ ان ينزل هؤلاء مع الصعاليك وربما وصل اليهم منهم اذى · اما الفنادق العامة فكانت منازل حقيرة قال فيها هوراس الشاعر اللاتيني : « اذا رغب المرء ان ينزل في احد هذه الفنادق التي يراها على طريقه من كابو الى رومية فالعقل ان يترحل واذا رضي لنفسه النزول احياناً فلا ينزلها الا اذا بلغت به الحال ان تلوث بالوحل الى ظهره وتبلل بالمطر الى عظمه » وكنت ترى امثال هذه الاكواخ على الطريق في ايطاليا بكثرة وهي ممقوتة حتى لقد شكا بلين العالم الروماني من ان الفرش لم تكن وثيرة بل كانت محشوة بعيدان القصب على مثال الريش وكان طعامها غليظاً · ومن اجل ذلك كان الاغنياء السائحون يحملون معهم ادوات مطابخهم وبعض ارباب الشرف يصحبون معهم عجلات تحمل لهم البطيخ والثمار التي لم تنضج لئلا يحرموا من الفاكهة ويحمل كل منهم معه اواني السفرة كما لا تزال العادة في روسيا الى اليوم ان يأتي المسافر ومعه بادوات الفراش لنومه · وكانت فنادق رومية وخاناتها كثيرة ولاسيما من طريق ابين وهي كامثالها في بلاد الغاليين سكان فرنسا الاقدمين من حيث قلة العناية وسوء الخدمة · وعلى عهد المؤرخ بوليب اليوناني (٢٠٤ — ١٢٢ ق · م) احدثت طريقة اخذ شيء من الدراهم من كل مسافر اجرة مبيته في احد الخانات وكان ثمن غذاء الرجل ومبيته يعادل في اليوم ثلاثة سنتيمات بسكة زماننا ·

وفي القرن السابع للميلاد بدأ المسيحيون في الغرب يحجون الى الارض المقدسة وفي تآليف ادمان وويليبالد أسقف اشتياد سنة ٧٣٠ اشارات كثيرة تدل على ما كانت عليه اسباب التنقل في القرن السابع والثامن على ان الحج الى البيت المقدس بدأ قبل ذلك العهد ببرهة طويلة · فقد كتب كاهن لم يذكر اسمه منذ سنة ٣٣٣ جدولاً ذكر فيه الطريق من بوردو الى القدس ذكراً مجرداً · وفي خلال تلك المدة كان للنورمانديين فضل السبق

على سائر الامم الاوروبية بتحمسهم في مثل هذه الزيارات يضاف اليها في الغالب رغبتهم في جمع المال والاتجار فكانوا يتحاشون تجشم اهوال البحر ولذلك كنت تراهم يقطعون المسافة برًا فيمرون بفرنسا و بجزء عظيم من ايطاليا ثم يركبون البحر من نابولي او كايت او سالرنا وهي المواني التي كانت تتقايض المتاجر مع سورية . وفي السنين الاولى من القرن الحادي عشر للميلاد اجتمع اربعون سائحًا من النورمانديين وردوا العرب على اعقابهم عند ماغاروا على سالرنا وانشأوا لهم دولة نورماندية في جنوبي ايطاليا .

وكانت الحملات الصليبية الاولى على الشرق تسير برًا من طرق متعددة . وقد ساعدت العادة في الحملة الثالثة على ادخال تسهيلات كثيرة في تسفير تلك الحملات الضخمة فانشأوا يؤثرون الرحيل من البحر . وكانت المدن لم بعض افرادها تتعهد بتقديم لوازم السفر . فقد قاول ريكاردس قلب الاسد ملك الانكليز في حرب الصليب ميناء مارسيليا على ان تقدم له عشرين سفينة و ثمانية مراكب متوسطة الحجم لنقله ونقل اتباعه الى الارض المقدسة وكان قد تقدم فن الملاحة وكثر التفنن في احداث السفن الكبيرة والصغيرة و بلغ عدد الاسطول الذي اجتمع في ايكومورت في الحملة الصليبية السابعة الفًا وخمسمائة سفينة وقد قضى الصليبيون الذين سافروا الى فلسطين من طريق الاستانة ثمانية اشهر .

وما لنا وتلك الحملات وما قاسته من المتاعب في قطع المسافات فان اخبار الافراد الكبراء ومنهم من كانوا يسيحون لاشغال لهم او للزيارة احق بالتدوين . فقد كانت الهوادج والمحفات مألوفة لكبار الاغنياء يركبونها في أسفارهم ولهم عجلات ضخمة خاصة بهم غريبة في شكلها و بطئها ومعها كانت البقر التي تجرها قوية فانها لا تكاد تجتاز بضعة كيلومترات في النهار الا بشق الانفس وذلك لوعوثة الطرق وكثرة البطائح ولطالما اضطرت السائحين ان يحملوا على ظهورهم ما كان يحملهم .

وقد كثرت الاديار والصوامع في القرون الوسطى في اوربا فكنت تراها حيثما انقلبت في المدن والقرى تؤوي المسافرين وتطعمهم (على نحو اديار جبال سورية الى اليوم) واذا دفع المرء من تلقاء نفسه شيئًا من الدراهم للدير الذي اطعمه وآواه فانما يدفع ما لا يتجاوز القدر الذي كان يلزمه لو نزل في خان او فندق بعد ان ينزل على الرحب والسعة ويكفى المؤونة بفضل اصحاب الدير . وهذه الاديار على الصورة التي وصفناها تعد والحق يقال اعظم حسنات القرون الوسطى تأتيها تلك الاديار ضاحكة مستبشرة وهي لا تريد ممن تسدي اليهم معروفها جزاءً ولا شكورًا .

ولقد كان الحاج الى البيت المقدس يدفع في القرون الوسطى خمسًا وخمسين دوكا

(سكة ذهبية تختلف باختلاف البلاد) ليركب البحر من مدينة البندقية الى يافاومن ذلك ثمن الطعام . وكان المترفون من الفرنجة يتزودون باللحوم والمآكل المغذية كما يحملون الحصر والفرش والخموز والماء وتحمل السفينة مائة راكب . وقد صرفت احدى السفن سنة ١٤٨١ خمسين يوما في البحر للسفر من البندقية الى يافا وفي هذه المدينة يتلقاهم العرب وبعد ان يقوم خمسة ايام في مكان رديء يركبونهم الحمير الى القدس ويحمونهم من البدو ومن الباعة . قال احد الرهبان ممن رافقوا تلك العصابة ولم يكن العرب يعتدون الا على المأكولات والمشروبات يطيلون ايديهم عليها ليملؤا بطونهم .

وقد كثر التأنق في السياحات خلال القرن الخامس عشر على كثرة الاضطرابات التي حدثت فيه بحيث اصبحت اساليب النقل اكثر رفاهية من القرون التالية . وشاع على عهد الملك شارل السادس (١٣٨٠ — ١٤٢٢) استعمال الجياد والبغال وكان النساء يركبن رديفات للرجال ومن بعده كثر ولوع الناس بالبغال منذ سنة ١٥٤٠ وصار الناس يسيحون على ظهورها لا فرق في ذلك بين الاساقفة ورؤساء الاديار والحكام ومستشاري المملكة والزعماء . وسهل على الناس انشاء محطات كثيرة للبريد بين البلاد ان يسيحوا بسرعة . والاثقال (العفش) يحملها الخدم على ركائب أخرى يتبعون ساداتهم . وعلى ذلك العهد قل الامن في الطرق وشاعت الخرافات في فرنسا بما حملت اليها المانيا من الافكار فاصبح القوم يكثرون من الاعتقاد بالسحر والسحرة والطوالع السيئة وشاع ان اصحاب الفنادق على وفاق مع الشياطين ومع ذلك كان القتل يكثر في الفنادق وتزورها الارواح فيفزع السياح ولا يسع اصحابها ان يأخذوا النازلين فيها الى دورهم وهم يوهمونهم بانهم ما داموا معهم فلا تسطو عليهم الشياطين ويتلاعبون بهم ويستعملون من اساليب الدهاء والجربذة الوانا فصار القوم يعتقدون ان الفنادق مسكونة بالجن .

وفي اواخر القرن الخامس عشر عنيت الحكومة الفرنسوية بالسائحين واخذت توعز الى ارباب الفنادق ان يرفقوا بمن ينزل عليهم فحددوا اسعار المآكل والنوم وكتبوها على واجهات نزلهم وكانت الاجور غالية بالنسبة لذلك العصر وكانت فنادق اسبانيا سيئة الحال اذا قيست بالفنادق الفرنسوية وذلك من حيث الوساخة وسوء الخدمة وكآبة الداخل من بنائها والخارج منه . اما فنادق المانيا وايطاليا فكانت احسن من فنادق تينك المملكتين لكثرة اختلاف السائحين اليها .

جاء القرن السادس عشر وقد اشتهرت اوروبا بنهضة الآداب والفنون ولكن الاخلاق بقيت على توحشها على المبالغة في التنطس في ابداء الافكار . وكلما كان ينتشر الادب والعلوم

والفلسفة واللاهوت والتصوير بين الناس وتصفو النفوس وتسمو الى قمم الحقائق والعظمة والكمال كانت العادات تنحط الى دركات التوحش فتكثر الحروب والسلب والقتل من اجل امور تافهة وكل اختلاف في الاذواق يسوّى بحد الخناجر واقل نزاع ديني يكفي لنشوب ثورة في البلاد ٠

يلبس الرجال ثياب الديباج والمخمل و يزين الظرفاء آذانهم باقراط و يعطرون شعورهم و يمسكون بايديهم الخناجر وهم يلبسون القفافيز (الكفوف) بسرور يوازي سرور من يحمل آنية الملبس او يروح بمروحة ٠ اما النساء فكن يكتسين الالبسة الحريرية والاطواق الغليظة اللؤلوء والزنانير المحلاة بالجواهر ولم تكن تلك الابهة تخفي اخلاق الرجولية فيهن بل كن يطلقن العيارات النارية كما يطلقها فرسان الالمان ممن جعلوا اطلاق النار صناعة لهم وعندئذ اخذت الاذواق تتحسن في فرش الدور والقصور وتسير نحو الرفاهية والملائمة بيد انه لم ينشأ من ذلك تحسين في اسباب السياحة ولا في موارد الفنادق والخانات وظلت على حقارتها على نحو ما كانت عليه في القرون الماضية او اكثر

وقد كثر اقبال الفرنسيس على السياحة في القرن السادس عشر ومن اهم السياحات التي تؤثر عن ذاك القرن سياحة الرحالة الجسور آرامون فانه خلف ايضاحات نافعة عن زيارته للاستانة سنة ١٥١٨ ومما ادهشه ما شاهده من حذق بعض ابطال العثمانيين اذ ذاك ورشاقة ايديهم فقال انه رأى احدهم بلع بيضة بدون ان يكسرها وبعد ربع ساعة اخرجها سالمة ٠ ووصف القافلة عند منصرفه الى فارس فقال انه كان معهم عشرة اعلام واربعون جملاً وثمانية عشر بغلاً واحدى عشرة دابة اخرى وهودج يُقله بغلان وكانوا خمسة وخمسين سائحًا راكبين على احسن صورة مسلحين سافروا من الاستانة سنة ١٥٤٨ فرجعوا الى فرنسا في اوائل سنة ١٥٥٠ بعد ان زاروا البلاد العثمانية والفارسية والقدس ومصر ٠

ورحل الرحالة فيليب دي فرسن سنة ١٥٧٢ الى الاستانة فرأى سوق النخاسة قائمة فيها والاماء والعبيد من اطراف الارض يعرضون للبيع ومن اراد ابتياع أمة يكشف عن وجهها القناع ولكي يتمكن من معرفة سحنتها وصباغها لا يستنكف من البصاق عليه ليتأكد فيما اذا كان صبغة او هو خلقة بلا تصنع ٠ وقد سار في الطريق التي كانت متبعة في القرن السادس عشر للذهاب من فرنسا الى الشرق برًا وهو راغوس — نوي بازار — اسكوب — تاتار بازارجق ٠

ولا يذهبن الفكر الى ان جميع السائحين كانوا يصرفون وقتًا طويلاً لقطع المسافات فلم يكن جميع الناس كالرحالة موننين في رفاهيته وبطئه يسيرون على هواهم فان البارودي

لا كارد قضى اثنين وعشرين يوماً للذهاب من الاستانة الى فونتينبلو في فرنسا وقد عدت هذه السرعة من الغرائب التي يفتخر بها · وبعد ان زار برتراندون دي لابروكيير القدس رجع راكباً من الاستانة الى فرنسا من طريق بلاد الفلاخ وبلغراد وبست في خمسين يوماً وقف في الطريق اياماً مرات كثيرة ·

وكثرت على ذاك العهد الرحلات العظيمة فرحل يعقوب كارتيه ثلاث رحلات متواليات الى كندا وطاف دراك الانكليزي الهند الغربية وطاف الهولانديان بارانتز وهمسكرك للبحث عن منفذ الى بلاد الهند من شمالي اميركا وفي رحلتهما امور نافعة فقد كتبا رحلتهما سنة ١٥٩٦ وكأنهما دوناها امس بل انك اذا تلوت ما كتباه يتجليان لك كأنهما الرحالتان المتأخران نوردا لسكيولد ونانسن فقد اعربا فيها عن آمال كآمال هذين الرحالتين وقاسيا مثل ما قاسيا من قلة وجوع وبرد ونصب ·

كل هذا والمركبات قليلة فلم يكن في اوائل سنة ١٦٠٠ في باريز سوى اربع مركبات منها واحدة للملك والفنادق فيها مما يضحك ومضى قرنان بعدها والقوم في اوروبا عدتهم البغال والخيل والمركبات وسياحاتهم تختلف باختلاف اغراض السائحين ومبلغهم من الشجاعة حتى جاء البخار والكهرباء فقصرا المسافات وسهلا السفر بعد ان كان قطعة من العذاب وبعد ان كانت تصرف الايام الطويلة في الرحلات ويتعارف الناس الى بعضهم ويقضون الايام والليالي في المحادثات اصبحوا الآن يصلون اسرع من البرق الخاطف ولعل الاتوموبيل الذي رغبت النفوس في السفر فيه اليوم بدل السكك الحديدية سيبطل بعد حين كما بطلت العربات والهوادج والمحفات ويرى ابناء ابنائنا ما لا يخطر لنا ببال فقد اصبحت الخانات قصوراً فيها كل ما طاب ولذ والحوافل بعد ان كانت يجرها البقر والخيل اصبحت تجر بقاطرة بخارية ·

القضاء على الشقاء

كتب فريدريك باسي احد اعضاء مجمع العلوم الادبية والسياسية في باريز مقالة في الشقاء الانساني وتخفيف ويلاته او نزع شأفاته فقال انه على كثرة الباحثين في تخفيف ويلات الانسان والكاتبين فيه ما زال الناس يقولون بان الشقاء ان لم يزد عما كان فهو لم ينقص ولم يوفق احد من اولئك العالمين الى فتح دور النعم والرخاء العام · ومهما كان من

حسن نية واضعي القوانين وواضعي الادوية فليس من السهل الاهتداء الى طريقة تنهض الانسانية من كبوتها المزمنة في يوم وليلة ولا من الهين اللين القضاء على ما يحف بالبشر من الآلام والاوصاب ٠

ومع هذا فلا ازال اقول ان هذه المعضلة ليست مما يتعذر حله وهذا الداء لا بد من شفائه وهو مما يجب على كل ذي ذمة يحترم طبيعته ويهتم لما يلقى عليه من اعباء المسئولية ان يسعى الى بلوغ تلك الضالة المنشودة سعيها ويعقد ناصية الامل بشفاء الداء ٠ ولا يتم ذلك بسن القوانين واتخاذ الذرائع الخارجية للحيلولة دون هذه الويلات لنقف عند حد القشور دون النفوذ الى اللباب بل لا يرجى الفوز بهذه الامنية الا اذا غيرت الافكار والاخلاق ولا يدخل التغيير والاصلاح اللذان يقللان من الشر ويدفعانه الا اذا أُدخل الاصلاح من الداخل لا من الخارج على من يتألف منهم المجتمع ٠ وما على من يود الوقوف على اسباب هذا الشر والشقاء الا ان يبحث ويستقصي وعندها يتجلى له فيما اذا لم تكن الاسباب كلها اختيارية ومعظمها مما يدخل في طوقنا ويصدر عن ارادتنا ٠ فاذا صحت ارادتنا وطردنا شيطان الجهل الذي يضل عقولنا وابتعدنا عن الشهوات المفسدة والسيئات والخطيئات المهلكة وكلها مولدة للشقاء فنكون قد قضينا على الداء في موطنه واجتثثنا عرق الفساد من اصله ٠

لا ينبغي الخلط بين لفظتي الشقاء والفقر واختلاف طبقات الناس فالفقر نسبي ٠ وليس من لوازمه ان يكون مضنيا ٠ فقد قال البارون روتشيلد الغني المشهور في نحو النصف من القرن الماضي عند ما بلغه موت اغادو من اغنياء الاسبان : ياحسرتا على اغادو فقد كنت اظنه في سعة من العيش اكثر من ذلك ٠ وذلك لانه بلغه انه لم يترك سوى ستين مليوناً من الفرنكات ٠ وقالت عجوزة للفيلسوف جول سيمون عند ما زار منازل مدينة ليل للبحث في حالة ساكنيها : الحمد لله على ان لنا احذية من قش ٠ تريد ذلك تشبيه نفسها بجيرانها الذين قُضي عليهم ان يضطجعوا على الارض بلا غطاء ولا وطاء ٠ ومن المحقق ان الفقر يحالفنا من بعض الوجوه اذ ليس في الناس انسان الا ويحرم من الاستمتاع بلذة شريفة ولا يُصد عن امنية مطلوبة ٠ ولكن هذا الحرمان اذا لم يبلغ حده فينا وفي الموجودات التي نعزها لا يمس جوهر الحياة ومتى حصلنا بفضل العمل والعناية الكثيرة اليومية على ما يبلغنا الضروريات الى حد محدود واخذنا بحظ من الطعام واللباس والمسكن والمنام لنا ولذوينا ٠ متى حصلنا بفضل الكد على ما نقدر به قدر كفاية انفسنا بانفسنا ونستحق به ان نحيا فلا يحق لنا ان نتكلم في الشقاء واذا فعلنا فنكون قد جلبنا على انفسنا الاهانة ٠ وما على المرء الا ان يغتبط وهو

في ثيابه القليلة بل وعليه ان يفاخر بها ويباهي بسعادتها اذا كان غنيًا عن مسألة احد على حين لا يظفر بزخارف الحياة الدنيوية والبذخ العالمي الا باراقة ماء الوجه ومقاساة الهموم والغموم ·

الشقاء حالة تصيب المرء بغلطات ارتكبها هو مباشرة او هو نتيجة سيئة لاغلاط ارتكبها من يلوذ به او هو عقبي سوء سلوك سببه الجهل والفساد والشهوة والمطامع السيئة وانحلال عرى التضامن فيصير به الانسان كلاً على غيره عاجزًا ماديًا او ادبيًا عن كفاية نفسه وآله تنقطع حيله عن المقاومة وتحرير النفس من ربقة العبودية والانحطاط الذي اصابه او قبل به فامسى غريقًا في لجة مزبدة بالنقص الانساني وما هو الا الفضيحة والالم والخطر على مجتمعاتنا · بيد اني اكرر ما قلت بان هذا الانحطاط وذاك التسفل الذي يصيب كثيرين من البشر يسهل تعيين تأثيراته المضنية التي كانت سببًا فيه وان من السهل وضع الدواء لداء هذه العوارض ما خلا الحوادث والنكبات التي قد يتأتى تخفيف ويلاتها ايضًا ·

قال الكاتب لابولاي اذا اردت ان تنزح بحر الآلام البشرية فلا تحاول ان تأتي ذلك باتخاذ بعض الكؤوس الكبيرة تجعلها سلاحًا في يد المشترع فان البحر تجري اليه المادة على الدوام وخير ما تأتيه ان تحول دون تلك المصادر التي تأتي اليه بالمياه · اصلح الغلط وافثأ سورة الغضب وسدد الاميال الفاسدة واجعل الحكمة عوضًا من الجنون وحسن الالفة بدل الشقاق وعندها ينزل ذاك البحر اللجي عن معدله بالطبع وتحسن الحالة العامة · لنفهم هذه النصيحة ولننظر ما هي تلك المجاري والانهار التي تجري الى ذاك البحر الذي لا يغاث الناس فيه ويهلك من يهلك ·

فالحرب هي اول المدمرات والمهلكات · اما الحرب فلا احاول ان اقضي عليها بعد الذي نعلم من تنافس الامم فيما تتخذه من اسباب الحذر والحيطة · وما دام يخشى شر الحريق فلا احسن من الاستسلا الآن الى اصحاب المضخات ودفع مبالغ لضمانة البيوت والمحال واذا لم نؤد اليهم ما يلزم لاعالتهم فلا نلومن الا انفسنا · ولعله يقال بان المال الذي يصرف في هذا السبيل فاحش ولكن اذا توصلنا الى الغاء الخطر فلا معنى اذ ذاك للانفاق على الضامنين وارباب المضخات واذ ان خطر الحرب صعب تقليله وهي مخاطرة يمكن توقي الوقوع فيها اكثر من خطر الحريق لان الحرب توقد نارها الحكومات والامم فهي اذًا شر لا يجري دائمًا بالرضى لانه كثيرًا ما يتحمل الناس مصائبها مكرهين وما الحرب الا صناعية تضمحل ذات يوم فتصل الامم بكثرة ما تعلمها التجارب الى درجة تعلم معها انها لا تربح شيئًا من تحاسدها والحاق الاضرار وان الاربح لها ان تحترم انفسها وتتعاون وما يقال في تحاسد الامم ومنافستها

وتباغضها يقال ايضاً في الاحقاد الاجتماعية وشدتها ٠ما سبب ما نرى من بوادي الحرب وبوادرها مهما كان من تجليها او خفائها بين الأمم والجماعات الا اننا نعتقد في الغالب بان الاغراض والحقوق متغايرة و يصعب بث روح السلام فيها لان عظمة الأمة وقدرتها وثروتها تجلي لنا كأنها غنائم قضي علينا ان نتضارب من اجلها وليست ارثًا عامًا عهد الينا تنميته بحسن العشرة والمعونة المتبادلة فبدلاً من ان نفتح تخومنا للتجارة لتأتينا بما ينقصنا من الغلات ونفتح لنا مصارف نصرف فيها ما يزيد عندنا منها لا نفكر الا في وضع العقبات في تلك التخوم لانا موقنون بان الواحد اذا كسب يلزم عنه ان يخسر الثاني وهذا لاننا لا نعلم ان رأس المال هو ثمرة العمل وبذر لا يحفظ و ينمو الا اذا استحال الى اجور وبذلك يضم الى العمل المنتج قوة اخرى تقضي قضاءها على الهموم والاحقاد ٠ الا فلنصلح الأفكار ولنعدل الاحساس ولنحكم الرضا والمعونة المتبادلة بدلاً من التخوف والحسد

ليس ثمت غير الخطيئات العامة كعداوة الاجناس بعضها لبعض وعداوة اهل اللغات المتباينة وعداوة الدين وعداوة الطبقات وهناك خطيئات شخصية كلما زادت تصبح خطيئات عامة ولا تبقى قاصرة على فاعليها ٠ كان علماء الاخلاق هم المتشددين سابقا في النقمة على انتشار المسكرات والموبقات ولكن مَن منا اليوم لا يشعر بما شعروا هم به من قبل ونددوا بسيئاته

ليست الحكومات وحدها هي التي تبوء بتبعة اكثار الضرائب على الناس كما قال فرنكلين بل هناك ضرائب كثيرة وضعناها بانفسنا على عواتقنا وذلك ان كسلنا يتقاضانا ما يعادل تلك الضرائب وشراهتنا تطلبنا ضعفي ذلك وعجبنا ثلاثة اضعافه ٠

وهناك سلسلة من سلاسل المصائب الانسانية هي هي سبب البلاء واللأواء واعني بها الخصومات وضروب القسوة وسوء معاملة النساء والاولاد والامراض التي تنجم عن الخصومات وقلة العفة وضعف البصر و رجفان اليد واعمال تؤدي بفاعلها الى الجنون وتضعف الجنس وتورث الابناء بجهل الآباء امراضًا يجنيها عليهم آباؤهم ٠ ولا ننس ان تذكر في تلك السلسلة نهب الوقت والمال وصرفهما في الملاذ والبذخ والاسراف وما يصرف في الحفلات والاعياد مما جمع بعرق القربة وانهاك القوى وكذلك ما يجري في سباق الخيل فان ادعى قوم بان السباق نافع للجياد فهو ولا جرم غير نافع للناس

وسواء كان المرء بيده شقاؤه ام لم يكن وهو به جدير ام لم يكن فينبغي النظر الى الاصل فيه فان من الناس من يقولون بان للاقدار ايضًا يدًا في اشقاء الشقي واسعاد السعيد وذلك لان العوارض والامراض والمصائب هي التي تحمل على البيوت فتخربها وتعبث بالنفوس فتشقيها ٠ اما انا فاقول ان معظمها صادر عنا ونتيجة لازمة لسيئاتنا ٠ نحن لا نحسن

تناول الغذاء وجعل نسبة بين طبيعة الاغذية اللازمة للقوة العضلية والعصبية والدماغية وبين كميتها . نحن لانحسن لبس الثياب ولا نجيد التصرف ولا نُعنى بامور الصحة والنظافة المطلوبة واستجادة الهواء والمسكن الذي يقينا التعرض لضروب الادواء نحن وعيالنا . لانحسن انتخاب دور نسكنها واهلنا بحيث تضمن لنا الهواء النقي والتعرض المطلوب للنور الذي يلقي الحياة . ولانحفل بالاسباب المختلفة اللازمة للرفاهية كل حين و بدونها تهزل الحياة ولا تنمو ويصبح المرء عرضة للامراض على اختلاف انواعها كالحميات الطفحية والرمد والخناق والسل . ومتى دققنا النظر في الشؤون واعملنا العناية مُعملها نجد اننا لو احسنا العناية والحذر والعلم لكنا نجونا من تلك السيئات والزلات .

بقي هناك شيء لا ينبغي لنا ان نغلو فيه لانه قليل واعني به المصائب التي لا ضامن من الوقوع فيها كالامراض التي تصيب اعقل العقلاء واكبر ارباب الانتباه . هناك الموت الذي لا ينجو منه انسان والحريق الذي لا يكون ابداً نتيجة سوء التدبير . والغرق والفيضانات والمقذوفات وسقوط السكك الحديدية . فهذه المصائب لا ينفع فيها الا التسليم وهذا ما اعنيه بقولي القضاء على الشقاء لا تلك الضروب من الحوادث التي ليست في الحقيقة مادة الشقاء ورأس اساس كل بلاء . على انها ليست كلها مما يتعذر شفاؤه بل ان العلم بما بلغه من الارتقاء قد احدث اساليب كثيرة لاستئصال شأفة تلك المواد فاذا لم تستطع ان تمنعها كلها ففي وسعك على الاقل ان تقلل صدماتها و تعدل من نتائجها . نعم ان الحذر قد لا ينجي من قدر . ولكن ليس هناك ما يمنع من التوقي منه بان يبذل في سبيله ما لا بد منه من العناية ما امكن . والضمان اذا لم يحل دون حرق العقار وضياع السفينة والموت يأخذ المرء من وسط اشغاله وعياله فهو على الاقل يهيئ السبل لاعادة بناء البيت وفتح المعمل والاستعاضة عن تلك السفينة فلا يُدخل المرء الى داره مع الحزن الخراب والفضيحة فيكون قد اتى بحنف وسوء كيلة .

وما اسباب الشقاء في الحقيقة الا نتيجة اغلاط ناشئة من الجهل واغلاط ناشئة من سلوك اذا تدبرنا مصيرها وتعلمناه وكانت لنا ارادة في اصلاح النفس كان في الامكان الخلاص من الشقاء . فالمسألة متوقفة على قليل من المعرفة وقليل من الارادة فعلينا ان نثير بصائرنا وبصائر غيرنا . والارادة الثابتة تحول دون الشقاء . وجماع النجاح في ثلاث كلمات: المعرفة والارادة والقدرة . والعلم والارادة تولدان القدرة . ويقول تولستوي: ان دواء الداء لا يخرج عنا وليس هو محصوراً في تدابير الادارة التي تتخذها الحكومات ولا في ادخال الاصلاح على المجتمع بطريقة عرفية قاسية وما الدواء الا بيدنا بل القسم الاعظم منه فينا

فاذا أُريد تحسين حالة الانسانية فالواجب اولاً تحسين حالة الانسان . وربما قام المشككون وقالوا وهل في الاستطاعة تغيير الناس فنقول لهم نعم نحن نستطيع تغييرهم بتأن ويجب علينا ان نسعى الى تغييرهم وهذا في الامكان .

الرومان

وصف ايطاليا

شعوبها القديمة — سكنت ايطاليا عدة اجناس من الامم لم يتحدوا في عاداتهم ولغاتهم فكان يعتبر السهل العظيم الشمالي بين جبال الالب والابنين جزءاً من ايطاليا وهناك نزل شعوب من الغاليين اتوها من الشمال. فكان الاتروسكيون ينزلون في البلاد الواقعة بين جبال الابنين والبحر (هو اقليم توسكانيا) الى نهر التيبر وفي جنوبه ينزل اللاتين . ولقد سكنت قبائل كثيرة في جبال الابنين الوعرة وراء السهول الرومانية في الشرق والجنوب ولم تدعُ كل هذه الشعوب باسم واحد ولم تؤلف امة واحدة بل كانت تنقسم الى اومبريين وصابنيين وفولسكيين وايكيين وهرنكيين ومارسيين وسامنيين ولكنهم يكادون كلهم يتكلمون بلغة واحدة ويعبدون ارباباً واحدة ولهم عادات واحدة . يتكلمون كالفرس والهنود واليونان بلغة آرية ولبعدهم وراء جبالهم عن الاختلاط بغيرهم احتفظوا بعاداتهم القديمة وعاشوا عصابات مع قطعانهم مشتتين في الخلاء ولم يكن لهم مدن ولا حواضر بل كانوا يلجؤن زمان الحرب الى حصون أُقيمت في الجبال وقد عرفوا بالشجاعة والقتال وبسلامة الاخلاق ومتانتها وكان منهم بعد حين اعظم قوة للجيش الروماني وفي امثالهم : « من يستطيع ان ينغلب على المارسيين او ان يغلب بدونهم »

جاء في احدى اساطيرهم ان الصابنيين نزل بهم خطب فادح فاعتقدوا ان الارباب ساخطون عليهم فعقدوا العزم على ان يسكنوا غضبها وان يقدموا ضحية الى رب الحرب والموت كل من يولدون من الاولاد في احدى فصول الربيع . ودعيت الضحية « الربيع المنذور » فاصبح جميع الاطفال الذين وضعتهم أُمهاتهم تلك السنة ملكاً للرب حتى اذا بلغوا سن الرجال غادروا البلاد وبعدوا عنها الى القاصية وتألفوا عصابات فاختارت كل عصابة احد حيوانات ايطاليا المقدسة دليلاً من مثل الصرد والذئب والثور وهي تتبعه كأنها تتبع مرسلاً من الرب وحيثما وقف الحيوان تنزل العصابة وتتخذه موطناً لها . وقيل ان عدة شعوب من

ايطاليا كان اصلها من تلك الأسرات من النازحين وما زالت محافظة على اسم الحيوان الذي كان اجدادها اتبعوا آثاره في القديم وذلك مثل الهربينيين (شعب الذئب) والبيسانتينيين (شعب الصرد) والسامنتيين وكانت عاصمتهم تسمى بوفيانوم اي مدينة البقرة ·

السامنتيون — كان السامنتيون من اقدر تلك الشعوب وقد سكنوا في اقليم الابروز وهو معصى حقيقي فينزلون الى السهول المخصبة في نابلي و بوبل و ينهبون المدن الاتروسكية والمدن اليونانية · جاهدوا قرنين في الرومانيين فكانوا كل مرة يردون على اعقابهم خاسرين اذ لم يكن لهم موطن ولا نظام ثم يعاودون القتال · وكان جهادهم الاخير شديداً · ولقد اتى شيخ الى زعماء الجيش بكتاب مقدس كتب على نسيج من الكتان فاقاموا داخل المعسكر سوراً من نسيج الكتان وجعلوا في وسطه مذبحاً والجند واقفين من حوله شاهرين سيوفهم فيدخل اشجع المحاربين الى السور وتؤخذ عليهم العهود ان لا يهربوا من الزحف امام العدو وان يقتلوا المنهزمين فاخذ من اقسموا الايمانات المغلظة وكانوا ستة عشر الفاً البسة من الكتان فتألفت منهم (كتيبة الكتان) وشرعت في القتال فقتلت عن آخرها ·

يونان ايطاليا — سكن ايطاليا الجنوبية طوارئ من اليونانيين كما سكن بعضهم مدينة سيباريس وكروتون وتارانت وقوي فيها امرهم وكثر سوادهم · بيد ان اليونانيين لم يلقوا بانفسهم قط الى الوقوع في التهلكة اذا لم يقصدوا رومية خوفاً من الاتروسكيين وما عدا مدينة كومس فان المستعمرين من ابناء يونان كانت لهم الى القرن الثالث صلات قليلة مع الرومانيين ·

الاتروسكيون — أطلق اسم الاتروسكيين على اقليم توسكانيا فسمي تروسكي وهو اقليم حار رطب مخصب للغاية · وظلت حال الاتروسكيين الى الآن طلسماً من الطلاسم لم نفكه فهم لم يكونوا يشبهون جيرانهم ولا يعلم من اين اتوا بل اننا لا نعرف اللغة التي يتكلمون بها الا ان ابجديتهم تشبه ابجدية اليونان ولكن الآثار التي عرفت عن هذا الشعب قصيرة لا نتمكن معها من استثبات لغتهم ·

كان الاتروسكيون يحسنون استخدام ارضهم في الزراعة على انهم عرفوا بالبحارة والتجارة ايضاً وكانوا يذهبون كالفينيقيين الى البلاد القاصية للبحث عن عاج الهند وعنبر البلطيق وعن القصدير والارجوان الفينيقي والحلي المصرية المكتوب عليها حروف هيروغليفية وعن بيض النعام · وانك لتجد من جميع هذه الاشياء في قبورهم · وكانت سفنهم تتقدم نحو الجنوب حتى جزيرة صقلية · وقد كان اليونان يكرهونهم و يدعونهم (التيرينيين المتوحشين) او القرصان الاتروسكيين · وكل بحار في تلك العصور ساعدته الاحوال يأتي منه قرصان بحر فكان من مصلحة الاتروسكيين خاصة ان يردوا البحارة اليونان و يصدوهم ليخلوا لهم الجو في الشاطئ

الغربي من ايطاليا و يستأثروا بتجارته . ولم يبقوا من آثارهم الا حوائط حصينة وقبوراً . وعند ما يفتح قبر احد الاتروسكيين تشاهد وراء باب ذي عمد غرفاً فيها سرر وقد امتدت عليها جثث وحواليها حلي من الذهب والعاج والعنبر والقشة الارجوان وفرش واوان كبيرة منقوشة اما الجدران فيرسمون عليها صور حروب والعاباً و ولائم ومشاهد غريبة .

وان ما استخرج من القبور بالالوف من الاواني الاتروسكية فازدانت به متاحفنا وصنع على مثال الاواني اليونانية هو من صنع الاتروسكيين انفسهم وفيها مشاهد ميثولوجية يونانية ولا سيما صور الحروب التي جرت حول طروادة والاشخاص نائئة حمراء على صفيح اسود وقد أسس الاتروسكيون في طوسكانيا اثنتي عشرة مدينة ولكل منها ملكها وحكومتها وكان لهم من الجانبين مستعمرات فلهم اثنتا عشرة مستعمرة في اقليم كامبانيا في جوار نابولي واثنتا عشرة في سهل بو .

ديانتهم — اعتقد الاتروسكيون بارباب جبارين وربما كانوا اشراراً وارقى اولئك الارباب الارباب المستورون المجهول امرهم ثم يجيء بعدهم الارباب الذين يرسلون الصاعقة وعددهم اثنا عشر رباً يؤلفون مجلساً لهم ويعتقدون انه يقيم تحت الارض في مدافن الاموات ارباب مشائيم وكثيراً ما كانوا يمثلون صورهم على اوان من صنع ايديهم فيمثلون ملك الجحيم المدعو مانتوس في صورة جبار مجنح جالس وتاج على رأسه ومشعل بيده كما يمثلون شياطين آخرين مسلحين بسيف او مطرقة والحيات يقبضون عليها بايديهم وهم يتلقون ارواح الموتى واهمهم الشيطان شارون المعروف عند اليونان بهذا الاسم ايضاً وقد تخيلوه على صورة شيخ ذي هيئة قبيحة يحمل مطرقة ثقيلة ليضرب بها ضحاياه . ويعتقدون ان ارواح الموتى وتسمى « المان » تخرج ثلاثة ايام في السنة من مقرها في عالم الظلمات وتطوف الارض تروّع الاحياء وتؤذيهم فيقدم لهم الاتروسكيون ضحايا بشرية تسكيناً لغضبهم لانهم يحبون الدم . وكانت معارك المصارعين المشهورة التي اصطلح عليها الرومان ضحايا دموية اكراماً للميت في اصل نشأتها وكان للعرافين الاتروسكيين الذين دعوا بالهاروسبيسيين او اهل الفأل قواعد يجرون عليها للتنبوء عن المستقبل فيرصدون احشاء الضحايا كما يرصدون الصاعقة وطيران الطير فيقف العراف ويدير وجهه نحو الشمال ماسكاً بيده عصا معقوفة ويخط خطا يقطع به السماء شطرين فشطر الشرق وهو على اليمين يكون فأل خير وفأل الشمال يكون فأل شر (١) ثم يقطع الشطر الاول على قطع الصليب ويؤلف خطوطاً متوازية يكون

(١) هذا اشبه بالسانح والبارح عند العرب ولعلها اخذته عن الرومان تقول العرب : من لي بالسانح بعد البارح اي بالمبارك بعد الشؤم قال ابوعبيدة سأل يونس رؤبة وانا شاهد

منها في السماء شكل مربع يدعونه المعبد فيرمي العرّاف ببصره الى الطيور التي تمر في ذاك المربع فبعضها كالنسر علامة خير والاخرى كالبومة طالع شؤم.

ولقد تنبأ الاتروسكيون عن مستقبلهم بانفسهم فهم الشعب الوحيد من بين الشعوب القديمة الذي لم يعتقد بانه خالد وكانوا يقولون ان بلادهم يدوم امرها عشرة قرون · وهذه القرون لم يكن كل واحد منها مؤلفًا من مئة سنة . ولا تعين مدة القرن الا بعد ان يجري له فأل .· ففي سنة ٤٤ وهي سنة وفاة قيصر ظهر في السماء نجم مذنب فقال احد العرافين من الاتروسكيين في رومية في جمع من الامة ان هذا النجم يشير الى نهاية القرن التاسع وابتداء القرن العاشر وهو آخر قرن يستقيم فيه امر الاتروسكيين ·

نفوذ الاتروسكيين — كان الرومان امة نصف متوحشة فاقتدوا كثيرًا بالاتروسكيين وهم اكثر منهم تمدنًا واخذوا عنهم بعض المصطلحات الدينية خاصة مثل البسة الكهنة والحكام والشعائر الدينية وعلم معرفة الغيب وزجر الطيور وعند ما كان الرومانيون يؤسسون مدينة يجرون على شعائر الاتروسكيين فيخط المؤسس لها بالمحراث سورًا مربعًا وللمحراث سكة من النحاس يجرها ثور ابيض و بقرة بيضاء فيتبع الناس المؤسس و يلقون بزيد العناية جميع مدر الارض من ناحية السور وتصبح كل الهوة التي يشقها المحراث مقدسة لا يستطيع احد ان يتعداها للدخول في السور ولذلك اقتضى ان يقطع المؤسس تلك الاثلام او الهوى المقدسة من عدة مواقع فكل مكان يتخطاه المحراث يفتح فيه باب وكل فرجة لم تمسها السكة تبقى غير مقدسة وتكون بابًا يسوغ منه الدخول · ولقد أُسست رومية بحسب هذه المراسيم الدينية وكانت تسمى رومية المربعة و يقولون ان مؤسسها قتل اخاه عقابًا له عن تجاوزه السور المقدس الذي خطه ثم جرى الاصطلاح ان تخطط اسوار المستعمرات والمعسكرات الرومانية بل وحدود المساكن بحسب هذه القواعد الدينية وبخطوط نصف هندسية · وكان دين الرومانيين من اصل اتروسكي فنقلوه الى ارجاء العالم القديم بأسره ولذلك حق لآباء الكنيسة ان تسمي بلاد الاتروسكيين « ام الخرافات »

اللاتينيون — نزل اللاتينيون في بلاد الآكام والشعاب الواقعة جنوبي نهر التيبر وهي

عن السانح والبارح فقال السانح ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك مياسره وقال ابو عمرو الشيباني : ما جاء عن يمينك الى يسارك وهو اذا ولاك جانبه الايسر وهو انيسه فهو سانح وما جاء عن يسارك الى يمينك وولاك جانبه الايمن وهو وحشيه فهو بارح قال ابن بري العرب تختلف في العيافة يعني في التيمن بالسانح والتشاؤم بالبارح فاهل نجد يتيمنون بالسانح (المترجم)

يطلق عليها اليوم اسم برية رومية وكانوا قليلاً عددهم ولم تكن مساحة البقعة التي يسكنونها اكثر من ٢٧٠ كيلومترًا مربعًا وكانوا من عنصر واحد كسائر الطليان يشبهونهم باللغة والدين والاخلاق ولكنهم يفوقونهم في التمدن بعض الشيء يزرعون الارض ويبنون المدن الحصينة وينقسمون الى شعوب صغيرة مستقلة ولكل شعب ارضه الخاصة به ومدينته وحكومته وتدعى تلك المملكة الصغيرة مدينة ٠

ولقد قامت ثلاثون مدينة لا تينية فالفت منها مجتمعًا دينيًا يشبه مجتمع الامفكتيون اليوناني واخذوا كل عام يحتفلون احتفالاً عامًا بعيد لهم وتندب كل مدينة عنها من يمثلها في مدينة الب فيذبحون ثورًا ضحية للرب المشترك بينهم وهو كوكب المشتري اللاتيني ٠

وقفة في الاجداث

احاطت بليل اليأس مني غياهب — تضيء من الآمال فيها كواكب
وجاءت اخيرًا من همومي سحائب — فحجبت الآمال تلك السحائب
فما بان لي الا شجًا متكاثف — ولا لاح لي الا دجى متراكب
فيالك من ليل هنالك حالك — باهواله ضاقت عليّ المذاهب
وطال الى ان لاح لي في سمائه — على الافق فجرٌ من رجائي كاذب

***

اقول لعيني حين جفت دموعها — أأمسكتِ لما الجعتنا النوائب
القد غاب من تهوين مرأى وجوههم — كأنهم زهر النجوم الغوارب
وما كان ظني انه بعد ساعة — تجف كذا منك الدموع السواكب
جمودك ياعيني وقد وقع النوى — على غير ما وعد لهم لا يناسب
واني على هذا الجمود وطوله — الومك ياعيني واني اعاتب
فلست براض عنك ياعين بعدهم — لانك ما اديتِ ما هو واجب

***

والقلب مني بعد ان كرّ راجعًا — وقد رحلت اظعانهم والركائب
عهدتك تمشي ايها القلب خلفهم — فقل لي لماذا انت ياقلب آيب
سألتك ياقلبي عن السبب الذي — رجعت له اني لعودك عاجب

فما لك تجثو راجفاً متغيراً   وما لك ترنو ساكتاً لا تجاوب
اجئت تعزيني لاني آسفٌ   واني مفجوعٌ واني خائب
فقال بصوت هزَّ اوتاره الاسى   فرنت رنيناً اكبرته المصائب
تبعتهمُ حتى ثووا في حفائرٍ   وحجبهم عني من الترب حاجب
وقفت على الاجداث حيث تغيبوا   وصحت فما ردَّ الجواب مجاوب
فجئتك كيما اخبر الحال انها   شجتني فمرني بالذي انت طالب
ورأيي ان نسعى معاً لقبورهم   فقلت له ياقلب رأيك صائب
اصبت نعم ياقلب فيما رأيته   فلي بين هاتيك القبور مآرب
تقدَّم امامي ماشياً لتدلني   عليهم فسرنا والحنين مصاحب

***

فلما وصلنا ساء عيني ان ترى   هنالك اجداثاً عفاهن حاصب
سطور قبور في العراء تناسقت   كما نمق العنوان في الطرس كاتب
قبورٌ بها نامت اوانس خرَّدٌ   ونامت بها في جنبهن الذوائب
فجاشت هناك النفس من لاعج الجوى   وقلت لهاتيك القبور اخاطب
هنا فيكِ قد غابت حسانٌ كواعب   فما فعلت تلك الحسان الكواعب
وما فعلت تلك السوالف في الثرى   ومافعلت في الترب تلك الترائب
الى مَن تشير اليوم فيك عيونها   وفوق العيون النجل تلك الحواجب
نجوم جمالٍ امعنت في غروبها   وانت لهاتيك النجوم المغارب
وكانت مشيدات القصور بروجها   فمن اين جاءتها تصيب المعاطب
لقد كنَّ اما ودهنَّ فحاضرٌ   قريبٌ واما صدُّهن فعازب
وفي كل يوم كان للزي مطلبٌ   لهن تجلى منه فيما يناسب
ولكنما اليوم انتهت لتعاستي   بثوب من الاكفان تلك المطالب
وكنَّ كازهار الربيع مبادياً   اهذي لهاتيك المبادي عواقب
قد انتزعتها من حياتي يد الردى   كما ينهب العقد المفصل ناهب

***

هنالك جادت اعيني بدموعها   فهن على الخدين مني سوارب
هنالك من نفسي وصدق طويتي   تمنيت لو ان المنون تقارب
نظرت الى قلبي وكان بجانبي   اذا هو من فرط الكآبة ذائب

فلملمت ذوب القلب ثم سكبته على جدث فيه حبيبي غائب
والفيت في نفسي العزاء كمعبد قد انهد منه جانب ثم جانب
وفارقني لبي لهيبة مصرعي فابعد عني في الفلا وهو هارب

***

وجدت على الايام والطب والغنى وقلت لهم اني عليكم لعاتب
واوحشت الدنيا كأن بيوتها بعيني وان كانت قصوراً خرائب
مكثت الى ان اقبل الليل زاحفاً واظلم منه في عيوني الجوانب
فابت الى داري وفي شعب الحشى لهيب من الحزن المبرح لاهب
وليس معي في اوبتي لا نهى ولا عزاء ولا قلب لشخصي يصاحب
سوى نفس في الصدر مني مردد فذلك طول الليل آت وذاهب
ستبسم في وجهي المنون كأنها محب يسلي او صديق يراقب
وتدركني قبل الصباح ونهضه فانجو من الهم الذي هو ناصب

بغداد ج · ص ·

الصديق المضاع

علام حرمنا منذ حين تلاقيا أفي سفر قد كنت ام كنت لاهيا
عهدناك لا تلهو عن الخل ساعة فكيف علينا قد اطلت التجافيا
ومالي ارلك اليوم وحدك جالساً بعيداً عن الخلان تأبى التدانيا
انابك خطب ام عراك تعشق فاني ارى حزناً بوجهك باديا
وما بال عينيك اللتين اراهما تديران لحظاً يحمل الحزن وانيا
واي جوى قد عدت اصفر فاقعاً به بعد ان قد كنت احمر قانيا
تكلم فما هذا الوجوم فانني عهدتك غريداً بشعرك شاديا
تجلد تجلد يا (سليم) ولا تكن بما ناب من صرف الزمان مباليا
ولا تبتئس بالدهر ان خطوبه سحابة صيف لا تدوم ثوانيا

***

فقال ولم يملك بوادر ادمع تناثرن حتى خلتهن لئاليا

لقد هجتني يا (احمد) اليوم بالاسى — وذكرتني ما كنت بالامس ناسيا
اتعجب من حزني وتعلم انني — قريع تباريح تشيب النواصيا
لقد عشت في الدنيا اديفكوليتني — ترحلت عنها لا عليَّ ولا ليا
وقد كنت اشكو الكاشحين من العدى — فاصبحت من جور الاخلاء شاكيا
وما رحت استشفي القلوب مملوءًا — من الحقد الا عدت عنها كما هيا
وداريت حتى قيل لي متملق — وما كان من داء التملق دائيا
وحتى دعاني الحزم ان خلِّ عنهم — فان صريح الرأي ان لا تداريا
وربَّ اخ اوقرت قلبي بحبه — فكنت على قلبي بحبيه جانيا
اراد انقيادي للهوان وما درى — باني حر النفس صعب قياديا
اذا ما سماني جاد بالذل غيثها — ابيت عليها ان تكون سمائيا
الا فابك لي يا (احمد) اليوم رحمة — ودعني وشأني والاسى وفؤاديا
فان احق الناس بالرحمة امرؤ — اضاع ودادًا عند من ليس وافيا
وما كان حظي وهو في الشعر ضاحك — ليظهر الاَّ في سوى الشعر باكيا
ركبت بحور الشعر رهوًا ومائجًا — واقحمت منها كل هول يراعيا
وسيرت سفني في طلاب فنونه — والقيت في غير المديح المراسيا
وقلت اعصني ياشعر في المدح انني — ارى الناس موتى تستحق المراثيا
ولو رضيت نفسي بامر يشينها — لما نطقت بالشعر الاَّ اهاجيا
وكم قام ينعي حين انشدت مادحًا — اليَّ الندى ناع فانشدت راثيا
وكم بشرتني بالوفاء مقالةٌ — فلما انتهت للفعل كانت مناعيا

***

فلما بكى امسكت فضل ردائه — وكفكفت دمعًا فوق خديه جاريا
وقلت له هوِّن عليك فانما — تنوب دواهي الدهر من كان داهيا
وما ضر ان اصفيت ودك معشرًا — من الناس لم يجنوا لك الود صافيا
كفى مفخرًا ان قد وفيت ولم يفوا — فكنت الفتى الاعلى وكانوا الادانيا
لعلَّ الذي اشجاك يعقب راحةً — فقد يشكر الانسان ما كان شاكيا
الا رب شر جرَّ خيرًا وربما — يجر تجافينا الينا التصافيا
فلو ان ماء البحر لم يك ماخنًا — لرحنا من الطوفان نشكو الغواديا
ولولا اختلاف الجذب والدفع لم تكن — نجومٌ بافلاكٍ لهن جواريا

وكيف نرى للكهرباء ظواهرًا اذا هي في الاثبات لم تلق نافيا
تموت القوى ان لم تكن في تباين ويحيين ما دام التباين باقيا
فلا تعجبن من انبا في تنافر ألم تر في الكون التنافر ساريا
وهبهم جفوك اليوم بخلاً بودهم ألم تغن عنهم ان ملكت القوافيا
فطر في سموات القريض مرفرفًا واطلع لنا فيها النجوم الدراريا
فانت امرؤ تعطي القوافي حقها فتبدو وان ارخصتهن غواليا
يجيئك عفوًا ان امرت شرودها وتأتيك طوعًا ان دعوت العواصيا

***

فقال وقد القى على الصدر كفه فشد بها قلبًا من الوجد هافيا
لقد جئتني بالقول رطبًا ويابسًا فداويت لي سقمًا وهيجت ثانيا
فاني وان ابدى لي القوم جفوة أمني لهم مما احب الامانيا
وما انا عن قومي غنيًا وان اكن اطاول في العز الجبال الرواسيا
اذا ناب قومي حادث الدهر نابني وان كنت عنهم نازح الدار نائيا
وما ينفع الشعر الذي انا قائل اذا لم اكن للقوم في النفع ساعيا
ولست على شعري اروم مثوبة ولكن نصح القوم جل مراميا
وما الشعر الا ان يكون نصيحة تنشط كسلانًا وتنهض ثاويا
وليس سري القوم من كان شاعرًا ولكن سري القوم من قام هاديا
فعلمهم كيف التقدم في العلى ومن اي طرق يبتغون المعاليا
وابلى جديد الغي منهم برشده وجدد رشدًا عندهم كان باليا
وسافر عنهم رائدًا خصب نفعهم يشق الطوامي او يجوب المواميا
وان افسدتهم خطة قام مصلحًا وان لدغتهم فتنة قام راقيا

بغداد معروف الرصافي

التربية والتعليم

تهذيب البنات

كنا منذ مدة نقرأ في احدى المجلات الفرنسوية المصوّرة ان في فرنسا خمسة آلاف كاتبة وادبية ما منهن الا وقد الفت كتاباً او كتابين وخاضت عباب الادب الى الركب وقلبت القلم بيدها كل مقلب وما كدنا ننسى هذا الارتقاء الغريب ونتمنى لو كان لهذه البلاد جزء من مئة جزء منه فقط حتى وافتنا مجلة التعليم الدولية تحمل في صدرها بحثاً ضافياً لاحدى تلكن الاديبات العالمات العقيلة هيلانة مونيز افاضت في وظائف المرأة الفرنسوية وقصورها فقالت : من الاسف ان بعض النساء يذهبن الى انهن لا يعملن عملاً نافعاً في المجتمع الا اذا خرجن عما قدّر لهن من الاعمال ودخلن في سلك اعمال الرجال وتعاطين الصنائع الحرة . يزيد كل سنة عدد الاديبات والعالمات ومتعاطيات الصنائع الحرة فنفقد بين ما كان يرجى منهن ان يأتينه في الحياة الاجتماعية من المساعدة على تبديل حال البلاد احسن مما هي عليه .

ان نساءنا لا يدركن في العادة معنى الحياة الاجتماعية ولا خطارتها فيتخيلن انهن لا يقدرن على الاشتراك فيها الا اذا دخلن غمار السياسة فاصبحن منتخبات ومنتخبات ونائبات ووزيرات وكان عليهن ان يتخلين عن هذه التصورات وينصرفن الى حماية حياة الاطفال وبذلك يخدمن جنسهن ويسهرن على مستقبله ويمددن يد معونتهن للبائسين وفي هذا حل المسألة الاجتماعية .

ليس من الغريب ان اقول ان تهذيب البنات من حيث الوجهة الاجتماعية هو اهمّ من تربية البنين وذلك لان الشاب اذا خرج من المدرسة يستطيع اتمام دروسه باعداد نفسه للاعمال التي يتعاطاها ويقوى عقله بدروس التجارب التي تأتيه بها الحياة وعلى العكس في الفتاة اذا تعلمت واتمت دروسها وقد تكون من بنات العملة او من اهل اليسار فلا تعود تتعلم شيئاً الى حين زواجها والغالب ان اسرتها وزوجها تتضرران من قلة اختبارها اذا انقطعت سلسلة تعلمها .

ان الدروس التي تلقتها في المدرسة تشبه الدروس التي يتعلمها الفتى ولكن ما يقضي عليها تعلمه اكثر من غيرها لم تتعلمه ونعني به كيفية ارضاع الطفل وحفظ صحة المولود فاذا رزقت ولداً لا تحسن تربيته لنقص في مواد تعليمها واذا كانت موسرة فانها لا ترضع ابنها

في الغالب وكثيرًا ما تخالف القانون الذي يقضي عليها بان ترضع طفلها الى الشهر السابع من عمره فتجلب له مرضعة عتق لبنها فتؤذيه لا محالة .

البنات عندنا يتعلمن في المدارس واجباتهن نحو آبائهن وأمهاتهن وأسرهن ووطنهن ولكنهن لا يلقنَّ ان اهم واجباتهن الادبية ان يرضعن اولادهن و يربينهم ليقينهم من العوارض بتقوية ابدانهن و بذلك يخدمن البلاد بان يعطينها قوة اخرى زيادة على قوتها .

فان كان تهذيب الفتيات لا يُعدهن عندنا الى ان يَشغلن في بيوتهن العمل الذي خُلقن له فمن المتعذر ان يرجى ان يُعنين بغير ابنائهن فان ما جرى عند ما أُريد اشراك النساء في حماية الاولاد يسجل بالاسف . وكان على النساء ان يدركن ان محبة الوطن ليست بالاعمال الحماسية بل ان تنوب المرأة ولو ساعة واحدة مناب ام طفل طرحته امه او ماتت عنه . ولا انكر ان ما جُبل عليه قلب المرأة من الشفقة هو غريب واخلاصها لا حد له .

ومتى عني المربيات والمعلمات والتلميذات والفتيات والامهات بالمسائل الاجتماعية الكبرى ومددن ايديهن للبذل في الامور الخيرية العامة او الخاصة وشاركن في الخيرات والمقومات نستطيع ان نقاوم جميع الاخطار التي تتهدد عنصرنا كالضعف من البؤس وكثرة موت الاطفال والسل والالكحول .

برنامج التعليم عندنا غير ناقص ليزاد فيه مواد اخرى ولكنه يجب تخفيفه وحذف بعضه فان العناية في مدارسنا متوفرة اليوم لتوسيع حواس بناتنا العقلية ولم تصرف لتحسين ملكاتهن الاخلاقية . نعم ان فلسفة الاخلاق هي اساس تعليمهن ولكن هذه الاخلاق هي بالنظريات اشبه منها بالعمليات وهي ارقى من ان تتغلب على ما يستولي على نفوس الفتيات في سني الدراسة الاولى من انواع التعاليم فينبغي اشراب قلوبهن الشفقة فان الشفقة كما قال احد علماء الاخلاق من الالمان تزيد وتتضاعف

يجب ان نعلم بناتنا ان كل فلسفة تؤدي الى انكار فعل الخير فلسفة كاذبة خطرة وان نطبعهن على حب المرحمة . الرحمة مخصبة الرباع وبها نقوى الامة بانقاذ أُلوف من المخلوقات وهي تسكن احقاد الطبقات او تقللها .

أَلا وان المخلوقات التي رزقن جمال الطبع وحسن الخلق هي الحسنة الحقيقية للانسانية فان اهل الخير الذين عملوا الاحسان منذ كان العالم قد ساعدوا على سعادة البشر اكثر من ارباب العقول السامية الذين تمثل اسماؤهم في التاريخ فلو كانت ارتقت اخلاقنا منذ اوائل القرن الماضي كما ارتقت علومنا ولو كملت قلوبنا كما كملت قوانا العقلية لكنا منذ زمن خففنا مصائب الناس الى ادنى ما يمكن . وان يومًا نتوصل فيه الى تأليف انسانية كاملة لا يرى

السواد الاعظم من اعضائها بؤس فرد بدون ان يعينه من تلقاء نفسه نكون قد ظفرنا فيه بالسعادة على هذه الارض وحللنا بالسلم الازمة لاجتماعية التي تقودنا الى المهالك ·

وعندي ان يعمم تعليم تربية الاطفال و يتعلم بنات المدارس ما ينبغي للمرضعات وان يعلمن كيف يغاث البائسون وارباب الادواء و يطلعن على تاريخ الجمعيات الخيرية ودور الاحسان وان عمل الفرد وحده ضعيف في نتائجه ان لم يضم عمله الى عمل غيره فيكون للمجتمع اعمال منظمة بنظام الذكاء والتعقل وان لا يعود البنات على الاعتقاد بفعل الخير نظرياً بل ان يعملن بانفسهن الخير في المدارس و يشتركن في اعانة المجتمع ·

مدح التأني

كتب هنري لافدان احد اعضاء المجمع العلمي الباريزي في جريدة (الاتال) يذم العجلة ويمدح التأني قال : لو كنت غنياً ما تأخرت عن ان اوصي بمبلغ يخصص ريعه كل سنتين او ثلاث جائزة لمن يجيد في مدح التأني وذلك لانا نرى هذه المحمدة آخذة و يا للاسف بالتناقص فمن اللازم اللازب ان تعاد اليها الثقة الماضية والشرف الدراج لانا اذا ظللنا على هذه الحال نهلك بالعجلة لا محالة ·

كما قضى احدنا بضعة اشهر في الضواحي وعاد الى باريز يأخذه العجب من تموجها في اعمالها و يشعر بالقلق والاضطراب والسرعة والحركة والآلام و يدهش من السرعة الجديدة المنظمة الممرضة في جميع اعمال الحياة · ولا يزال هذا الجنون يزداد على نسبة مخوفة و يكثر· و يزيد سخط القادم من العجلة المتصلة التي تطوح بنا في هذه المهاوي المنوعة التي نكاد لا نراها لسرعة مرورها على بصرنا ولان وقتنا لا يسمح لنا بامعان النظر ·

نحن نسرع في كل امر وكلما حركنا جنون السرعة اثبتنا ان الحكمة تقودنا فلا يقنعنا الا ان نصل قبل ان نسافر وآراؤنا مضطربة تود السباق وتتضارب تضارب اولئك السذج الذين يتدافعون ليلقوا قبل غيرهم رسائلهم في صندوق البريد وقد كتبوا عليها « معجلة » وهماً منهم انهم اذا سارعوا الى وضعها وكتبوا عليها تلك الكلمة تصل الى مقصدها قبل غيرها على ان البريد والقدر لا يعطيان على الخاطر ولا يعملان لرضى الناس ·

ولكن من يتطال الى نيل كل شيء لا ينال شيئاً · وماذا تجديه السرعة الفائقة العادة التي تؤذيه وتضعف من قيمة كل ما ينوي القيام به · و بعد فلا يفوتنا ان قاطرة بخارية اذا تركت على سرعتها الفائقة تنتهي بها الحال ان لا تمس قضبان الحديد ولا تكاد تقف على الارض كأنها في الخلاء · وهكذا الحال في الاعمال فان الرجل بكثرة اسراعه في الذهاب يطير و يعثر بالحوادث و يقع فيها وهكذا شأنه في اوجاعه وافراحه وكل ما يناله · فهو لا

يحفل بتأثراته وشعوره ولا يتوسع فيهما بل يمسها مسًّا خفيفًا لا يأخذ منها ولا يترك ولا يستفيد الدرس النافع الذي يفيده عبرة وحكمة . فهو كالريشة بل كالقذيفة الطائشة العمياء تطير على العماية في الفضاء الذي يتقاذفها ويخمد انفاسها في جميع المحطات التي تقف فيها من الحب والبغض والشر والخير فلا يميز بينها ويخلط فيها الى ان يناديه داعي الاجل المحتوم فلا يجعل له من الوقت متسعًا يتنفس فيه .

لا يقولن قائل اني اغالي فيما اقول فالحوادث تؤيد قولي : نحن نأكل سراعًا فلا نهضم . قال مونتين ان الحياة تمضغنا ونحن لا نمضغها بل نبلعها فنختنق احيانًا . نشرب سراعا ونرسل الطعام ارسالاً الى معدنا وما الغذاء الا عمل مقدس نأتيه ونحن جلوس على طرف المائدة في اغلب الاوقات لا نفتح فانا فنتكلم ولا نقول كلمًا طيبًا ولا سيما في البيوت فانا نتغدى ونتعشى باسرع ما يمكن كأننا في مقصف (Buffet) محطة سكة حديدية والمنادي ينادي لم يبق الا دقيقتان لسير القطار فنأكل ونحن سكوت لا نتكلم وقد استغرقتنا الصفحة قبل ان نستغرقها نفكر فيما يهمنا ونحلم فيه وقد عبست جبهتنا وسدت معدتنا والقينا الطرف الى ابعد مما نحن فيه بدون ان نأخذ مقعدنا ونتناول الحلواء والفاكهة بل نقوم سراعًا ونهب خماصًا او بطانًا .

سقى الله ازمانًا كان الناس يرتاحون فيها الى الجلوس على الموائد يتناولون طعامهم وهم يتضاحكون و يتمازحون و يقصون من الاحاديث ما يكون تسلية لقلوبهم و راحة لنفوسهم . سقى الله ايامًا كان احدنا يسير وانفه في الهواء وقد تأبط كتابًا . ما هذا الوقاد في القطار الحديدي الا مهلك المتنزهين في الحقيقة بما خفف عليهم من مؤونة المشي . فقد بطلت عادة النزهة في الشوارع والازقة و باليد عصا و بطلت المظلات او كادت كما بطلت العصي . و بطلت عادة السير على الاقدام وعادة الراحة والغداء على العشب . فاصبحنا والفرد منا اذا جلس على الارض يصعب عليه النهوض بحيث تخدرت على التوالي ارجلنا ووهنت قوانا . خل عنك تلك المصعدات Ascenseurs التي تحملنا من الادنى الى الاعلى فقد نزعت من سوقنا قوتها على العمل ومن رئاتنا ما ينفعها في تصعيد السلالم .

ولا اكتمكم انني كلما زرت بيتا من البيوت القديمة التي لا تزال محافظة على ادراجها وسلالمها الرخام اجد في الصعود عليها نشأة وتتجلى لي الحكمة الغريبة التي اهتدى اليها المهندسون وانشؤا تلك الادراج ليصعد عليها بين الزهور بدون هزة وعلى مهل . وما احلى ذلك وانفعه . لاجرم انه يعينك على ان تجمع فكرك وحواسك قبل ان تقرع جرس دارك او دار من تزوره وتختلف اليه .

ولم يقف الامر في سرعتنا عند هذا الحد بل تعداها الى كلامنا فصرنا نتكلم بايجاز ولا ايجاز صغار الزنوج في كلامهم . وامسينا نسرع في نومنا ونقوم مذعورين ونحلم والضغط آخذ منا فنحن في المساء كالصباح لا نحسن الاضطجاع علي سريرنا ولا نقرأ والقلم بيدنا نشير الى ما يجدر نقله واقتباسه ولا نفكر الافكار النافعة بل نسرع في الراحة اي سرعة .

واذا رجعنا البصر في الامور العقلية فانك تجدنا نفاخر بما يعرض لافكارنا كل يوم بل كل ساعة من التنوع . فقد غدا الكاتب لا يعيد نظره فيما يكتب فنحن مضطرون الى ان نجيد فيما نكتب كل يوم وكل من لا يؤلف روايتين في السنة او ثلاث روايات مضحكة يعد مقلاً جاف القريحة . الكتب اليوم لا تؤلف بل تتساقط كما يتساقط الجوز . والغاية ان نكتب ولا عبرة بما نكتب ونتائجه . ومهما كان من اعتبار الاكثار والاخصاب فمن العقل ان نحرز ونأخذ من عنان الاقلام مخافة ان نمسي للحال كالام الضعيفة التي تأتي بالاولاد ضعافاً محتقرين . وما كل عمل جميل وعظيم الا ابن التأمل والصبر والجلادة . ولطالما كان للوقت تأثير في تجويد الاعمال .

فالوقت جائزة تنال باسرها والجمال اعظم العوامل فيها . فكما ان الوقت يوجد الجمال وينميه ويقيه العوادي ويحو به مناحي الكمال فكذلك الخرائب لا تكون خرائب ان لم يأت عليها الزمن ويتمد لها الى ما شاء الله والايام والشهور لا تكفيها بل يقتضي لها عدد لا يحصى من السنين لتستحق ان تذكر بين الخرائب وان تحقق فيها الارباح ويثار عليها الغبار ويعبث بها الهواء وينزل عليها الماء والشمس وينبت فيها الطحلب والسندر المعرش وكل ذلك من عوامل البطء والجلادة .

ثم ان الناس اصبحوا يريدون الاستمتاع والانتفاع في الحال وان يكون لهم اكثر من الدخل قبل ان يضعوا رأس المال وان يجنوا بعد عشر دقائق من البذر. نقرأ مسرعين هذا اذا تظاهرنا باننا نقرأ ونلقي نظرة على العنوان والفهرس ونقلب الطرف في بعض صفحات من الكتاب وهذا كل ما نقرأوه . اغرقنا في حب العجلة حتى صرنا لا نقطع اوراق كتابنا بيدنا بل نوعز الى الخادم او كاتب سرنا ان يقطعها لنا .

انا لا اجهل ما يجيبني به القارئ فيقول بان الكتب كثرت وكذلك الجرائد والملاذ والمحرات والواجبات وان الحياة قصيرة وان الحال تقضي بان نسترط الثلاث او الاربع لقم في لقمة ولكن الحقيقة ليست كذلك فان الحياة كلما تضاعفت وكثرت بحيث تجزأت كان لنا ان نقتصد ما ونغنم شمالها . فيما انه تصدر كل صباح اربعون جريدة وهذا من جملة الاسباب الداعية الى ان نزهد في قراءتها وكل اسبوع يصدر خمسون كتاباً ونحن لا نعرف

منها الا عشرها ولكننا نعرفه احسن معرفة وهكذا فان المفكرين اصبحوا يفكرون بسرعة ففقدوا خاصية التفكر ·

اصبح الواحد يحب و يبغض سريعاً و يسرع في التصديق كما يسرع الى الجحود و يعطي ويمنع كذلك غير مكترث بنصائح الليل ومواعظ النهار · واخذ الغضب يسارع الينا ونحن لا نعرف كيف نغضب وعلى من نصب جام غضبنا · وليت شعري من يحتفل بالحب البطيء الصادر من اعماق القلب المتأني؟ من يحيكه احسن حياكة وامتنها و يبالغ في احكامها خيطاً خيطاً باليد لا بآلة؟ ومتى نرضى بالوقوف والتريث لنذوق طعم المواقف ونجني برسيم السعادة ونجلس هنيهة في الواحات؟

الحياة اقصر طريق يسلك من نقطة الى اخرى ونحن نريد ان نقتصرها ايضاً؟

مطبوعات ومخطوطات

غياث الامم في التياث الظلم

تصنيف امام الحرمين ابي المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ وضعه في الامامة وإن قدمه (كتب سنة اربع وار بعين وسبعمائة) ليحملنا على ذكر موضوعه · ومعلوم ان هذا البحث خاض فيه الخائضون ومنهم الامام الماوردي · وكتاب الجويني هذا في مثل موضوعه وقد حمل فيه على الماوردي حملة غريبة واستفدنا منه ما كنا نعرفه عن حرية عصر المأمون قال امام الحرمين : « وقد اتفق للمأمون وكان من انجاد الخلفاء واقصدهم خطة ظهرت هفوته فيها وعسر على من بعده تلافيها فانه رأى تقرير كل ذي مذهب على رأيه فنبغ النابغون وزاغ الزائغون وتفاقم الامر وتطوق خطباً هائلاً وانتهى زلله وخطله الى ان سوغ للمعطلة ان يظهروا آراءهم ورتب مترجمين ليردوا كتب الاوائل الى لسان العرب وهلم جرا الى احوال يقصر الوصف عن ادناها ولو قلت انه مطالب بمغبات البدع والضلالات في الموقف الا هول في العرصات لم اكن مجازفاً » ·

قال فيه : الحمد لله القيوم الحي الذي بارادته كل رشد وغي و بمشيئته كل نشر وطي كل بيان في وصف جلاله حصر وعي و بين عيني كل قيصر وكي من قهر تسخيره وسم وكي

(١) هذا الكتاب والتالي له من مخطوطات خزانة احمد بك تيمور

فاطر السموات والارض جعل لكم من انفسكم ازواجًا ومن الانعام ازواجًا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء فالعقول عن عز جلاله معقوله ومعاقد العقود في نعت كماله محلوله . وبعد ان بالغ في وصف كتابه وقدمه لنظام الملك الوزير صاحب المدرسة النظامية ببغداد وغيرها ذكر فيه ابياتًا منها .

وانى لغرس انت قدمًا غرسته وربيته حتى علا وتمددا
لانك أعلى الناس نفسًا وهمةً واقربهم عرفًا وابعدهم مدى
واوراهم زندًا وارواهم ظبا واسجاهم بحرًا واسخاهم يدا
وما انا الا دوحة قد غرستها واسقيتها حتى تمادى بها المدى
فلما اقشعر العود منها وصوحت اتتك باغصان لها تطلب الندى

وقال في موضوع كتابه : اقسام الاحكام وتفاصيل الحلال والحرام في مباغي الشرع ومقاصده ومصادره وموارده يحصرها قسمان ويحويهما في متضمن هذا المجموع نوعان احدهما ما يكون ارتباطه وانتياطه بالولاة والائمة وذوي الامر من قادة الامة فيكون منهم المبدأ والمنشأ ومن الرعايا الاتسام والتتمة والثاني ما يستقل به المكلفون ويستبد به المأمورون المصرفون . والكتاب في ١٣٠ ورقة تغلب عليه الصحة في الجملة والغالب انه وقع في يد عالم فصححه .

التلميذ

رسالة في معنى التلميذ للفاضل عبدالقادر البغدادي صاحب خزانة الادب بحث فيها عن لفظ التلميذ ومعناه في امهات كتب اللغة فلم يجد فيها ما يشفي فرجع الى تتبع بطون الدفاتر فوجده في كتاب النبات لابي حنيفة الدينوري فانه ساق فيه شعرًا للبيد بن ربيعة وفيه هذا البيت .

فالماء يجلو متونهن كما يجلو التلاميذ لؤلؤًا قشبًا

قال التلاميذ غلمان الصناع ووجده ايضًا في شعر أمية بن الصلت في قصيدة له قال فيها :

والارض معقلنا وكانت أمنا فيها مقامتنا وفيها نولد (١)
وبها تلاميذ على قذفاتها حبسوا قيامًا فالفرائص ترعد

قال شارح ديوانه التلاميذ الخدم وقال امية في هذه القصيدة

فمضى واصعد واستبد اقامة بأولي قوى فمبتل ومتلمد

---

(١) وفي نسخة نوأد

قال شارحه يريد متلمذ اي خادم من التلاميذ وتلمذ جعل لخدمة قال البغدادي ويؤخذ مما مضى ان تاءه اصلية وان له فعلاً متصرفًا وهو تلمذه تلمذةً وتلماذًا فهو متلمذ بمعنى خادم وذاك متلمذ اي جعل خادمًا فأُطلق التلميذ على المتعلم صنعة او قراءة لانه في الغالب يخدم استاذه وقول الناس تلمذ له وتلمذ منه خطأٌ ·

الكون والمعبد

او الفنون الجميلة والكنيسة نظم الخورفسقفوس جرجس شلحت السرياني الحلبي وهي أُرجوزة في ٣٤ صفحة مطبوعة طبعًا نفيسًا بالشكل الكامل وثمنها فرنك تطلب من بيروت

الطرف الادبية

هي رسائل كثيرة في اللغة والادب لمشاهير ائمة العربية عزم محمد امين افندي الخانجي الكتبي ان ينشرها تباعًا في اجزاء صغيرة وقد انتهى الينا منها الآن الجزء الاوّل وهو يحتوي على كتاب فصيح اللغة لابي العباس ثعلب وشرحه لابي سهل الهروي وذيل الفصيح لعبد اللطيف البغدادي وكتاب فعلت وافعلت لابي اسحاق الزجاج وهذا لم يطبع حتى الآن فيما نعلم عني بتصحيحها السيد محمد بدر الدين ابو فراس النعساني وشكل محل الاشكال منها وقد جاءت في ١٨٨ صفحة متوسطة الحجم حرية بان ينتفع بها المتأدبون في هذا الوضع الجديد وثمنها مجلدة سبعة قروش تطلب من طابعها ·

محو الالفاظ العامية

رسالة جمع فيها محمد الحسني افندي مائتين وعشرين كلمة من الكلمات العربية المقابلة لبعض الالفاظ العامية مثل « بوفيه » فقال انها الخورنق وسماها بعضهم بالمقصف « وسكرتير » « ناموس » و « شكمجية » فسماها « مسفط » او « عكم » واورد الفاظًا مشهورة في الجرائد او بين الكتاب الغابرين او المعاصرين مثل صيدلاني للاجزاجي ومستشفى او مارستان للاسبتالية وقفاز للكف وبالتركية الدون وغرفة او حجرة لاوده ومرفأ او ميناء للاسكلة وقمطر لدولاب الكتب ورتاج لخوخة الباب وسماد للسباخ وفرسان للسواري ورجالة للبيادة وحبذا لو يكثر من نشر مثل هذه الالفاظ بكمية اوفر وينشرها في الجرائد والمجلات ليثبت صحيحها بالاستعمال او يسقط ·

سير العلم والاجتماع

عرب الدنادشة

يبحث بعض العلماء عن اصل قبيلة الدنادشة الساكنة في متصرفية طرابلس الشام فتشوفت لمعرفة اخبار حقيقية عنهم فاتحفني بعض سكان تلك الجهات بالتفصيلات الآتية فالرجاء ادراجها في مجلتكم خدمة للعلم .

كان جدّ عشيرة الدنادشة من اليمن جاء البلاد الشامية ونزل حوران منذ نحو ثلثمائة سنة وساد على تلك البلاد حتى لقب بالفحيلي واكره العربان الضاربة خيامها هنالك ان يدفعوا له «خوّة» ومنع العرب من غير حيه من المرور باراضيه الا اذا دفعوا له رسوماً مقطوعة من المواشي ولقد اهان مرة احد مشايخ عشيرة من العرب يدعى المسالخ من الحسيني فاغتاظ هذا وتمل على كيده فاتى يوماً وعرض عليه حضور جميع شيوخ عشيرة الحسين ليعطوه عهداً بالخضوع له فقبل بذلك ولما وصل القوم هجموا عليه وذبحوه في بيته وفتكوا بجماعته ونهبوا متاعهم وفرّ من بقي منهم واتى الى جهات قضاء حصن الاكراد وسكنوا في مكان يدعى الآن برج الدنادشة وهو فوق تل كلخ مسكنهم الحالي وكان اذ ذاك مأهولاً بجماعة من المتاولة والتركمان فطردوهم واستولوا على محالهم ورئيسهم على ذاك العهد رجل يدعى الشيخ اسماعيل على جانب عظيم من البسالة والشجاعة فاعطته الحكومة لقب آغا ووهبته خمس قرى وهي القنابا والحوز ومدان وحير البصل والموح التابعة لقضاء حمص وبموجب فرمان من السلطان محمد خان الرابع عهد لاسماعيل آغا وجماعته بالمحافظة على تلك النواحي .

اما لقب دندشلي فقد سماه به التركمان ممن لا يزال لهم الى الآن بعض قرى يسكنونها في القضاء المذكور وذلك ان اسماعيل كان يتقن زينة خيوله ويجللها باقمشة لها اطراف و «دنادش» فلذلك اطلق عليهم هذا الاسم ولم يبرحوا يلقبون به حتى اليوم وبعد ان سكنوا مدة قرن في تل كلخ رجع احد اخوان اسماعيل آغا مع قسم من قبيلته الى حوران وبقي فيها واسم عشيرته الفحيلية وفي كل سنة يأتي من حوران جمع من الفحيلية لزيارة الدنادشة في ديارهم ويتوجه آخر من تل كلخ الى حوران . والدنادشة الساكنون في جهات الهرمل ليس لهم قرابة مع دنادشة تل كلخ هؤلاء سنية واولئك شيعة .

ثم ظهر ثلاثة اخوة من الدنادشة لهم شهرة مستفيضة واسم احدهم حمزة آغا والثاني ابراهيم آغا والثالث حمود آغا فاحبوا تقسيم املاكهم لمنع الشقاق بينهم فالقوا قرعة وتفرقوا فبنى حمزة محلاً وسكن فيه ودعاه باسمه اى مشتى حمزة وسكن ابراهيم قرية تل كلخ وسكن

حمود في محل سماه مشق حمود واسماه هذه المحال التي اصبحت الآن عامرة بذريتهم ما فتئت باقية الى اليوم وكل من هؤلاء الثلاثة اصبح مديرًا ولكل قرية الآن من هذه القرى رئيس من نسل الاخوة الثلاثة الاكبر فالاكبر ورئيس الجميع يسكن تل كلخ لانها اهم منازلهم وهي واقعة الى جنوبي قلعة الحصن مركز القضاء الآن تبعد عنه نحو ساعة ونصف على طريق العجلات الممتد من طرابلس الى حمص واما مشق حمزة ومشق حمود فموقعهما شرقي تل كلخ وعلى مسافة زهاء ساعتين منه . ورئيسهم في تل كلخ اليوم هو على جانب عظيم من الكرم ودماثة الاخلاق محب للفقراء والمحاويج بيته مفتح الابواب لكل من قصده وهو عبدالله آغا وله من العمر نحو الستين او اكثر ومنازل الاغوات مبنية على النسق الجديد ومنها ما كلف أُلوفًا من الليرات واملاك الدنادشة كثيرة متسعة لا سيما اراضيهم في سهل البقيعة المشهور بخصبه واكثر خبزهم من طحين الذرة الصفراء وقلما يستعملون دقيق الحنطة . ولكل من الاغوات «مضافة» لقبول الزائرين . ومن عاداتهم ان لا يتناولوا طعام الصباح والمساء مع حريمهم بل يأكلون في مضافاتهم وجد فيها ضيوف ام لم يوجد . ولهم ولع عظيم بركوب الصافنات الجياد يُعنون كثيرًا بتربيتها وقلَّ فيهم من لا يركبها و يتفنن فيها وعند محمد بك صاحب بيت تل كلخ فرس اصلها حمدانية زرقاء اللون لا يبيعها ولو دفع له فيها خمسمائة ليرة وعند ركوبهم يحملون الرماح والسيوف وفي اعراسهم يدقون الطبول و ينفقون على خيولهم وافراحهم نفقات باهظة . وفي منتصف حكم السلطان محمد خان الرابع الذي جلس على تخت السلطنة سنة ١٠٥٩ منحهم فرمانًا بتلك القرى المذكورة آنفًا

بيروت جرجي ديمتري سرسق

تحريف الاعلام

كتب الاستاذ نالينو مدرس اللغة العربية في كلية بلرمة حاضرة صقلية رسالة بالافرنسية في نشرة الجمعية الجغرافية الخديوية في مصر سماها (اعلام البلدان في بلاد الاسلام) اتى فيها بامثلة كثيرة على تحريف بعض الاعلام في كتب الجغرافية والتاريخ والمصوَّرات الحديثة تحريفًا يلتبس به وجه الصواب و يضيع به تصوّر مواقعها وتاريخها واصلها على وجه الصحة وقال ان المشتغلين بالعربية من الافرنج قد لا يهتدون الى كثير من المواقع اذا نظروا في تلك المصوّرات الحديثة وقابلوها بما كان كتاب العرب يطلقونه عليها فذكر من ذلك امثلة غلط فيها بعض علماء المشرقيات فادعى ان لفظ المولوية المستعمل في حكومة مُرّاكش مضافًا كالحضرة المولوية او المقام المولوي جاءت من ملويا وهو اهم نهر في بلاد مُرّاكش يخرج عن حكم الأُسرة المالكة ولذلك يطلق سلاطين المغرب على انفسهم الامراء

المولوية ليؤيدوا حكمهم على تلك البلاد التي يجتازها النهر. وقال والحقيقة ان قولهم الحضرة المولوية مشتق من المولى ولفظ النهر يلفظ «ملوية» . وذكر كيف ان بعضهم حرّف لفظ «تلّ العمارنة» فجعلها « تل امرنا » عند الترجمة وانه وقع في كتاب في التاريخ والادب قررته نظارة المعارف المصرية سنة ١٨٩٣ من الاغلاط الشائنة في اسماء الاعلام ماحرف التاريخ ولا سيما فيما يتعلق بجزيرة العرب ومثل لذلك بانه جاء فيه « زاده » بدل « صعدة » و « دراما » بدل « ظرما » و « زهاد » بدل « صحار » و « بجا »بدل« بيشة» ثم ذكر امثلة لذلك من المصورات الجغرافية فقال انهم حرفوا اسم ذوي منيع وهي قبيلة مشهورة في المغرب الاقصى وجعلوها دوي منية وحرفوا لفظ نهري صا ومسون فقالوا زا ومصون وحرفوا اسم قبيلة بني يزناسن فقالوا بني سناسن وقالوا عن سهل نفراته تافراطا وحرفوا ابت سغروشن وايت شخمان من بلاد المغرب فقالوا ابت سروشن وايت شكمان نقلاً عن المصوّرات الفرنسوية ولفظة ضاية المستعملة في الجزائر للقيعان التي يجتمع فيها ماء المطر في الشتاء بلفظ دابة وكيكو بجيقو وغياثة برياطة ومكس بمكاس والنجاة بنجا وارضم بردم وبهت ببجط وصفرو بسفرو ومدينة وازان بوزان وقبيلة غصاوة بغزاوة وتافيلالت بنفيلت وتعلالن بتيالالين والرتب بالرطب ومرغاد بمرّاد وتادغوست بتدروشت وتدغة بطدرة وعطة باطا وتبزيمي بتزيي . وقال انهم حرفوا في الاعلام المغربية درعة بذرا والفايجة وترناطة واقة او اقا بالفيجة وترناته وعقة والشاون او شفشاون بشّاون وتسنت بتيسينت وسكتانة بسقطانة ومجاط بامجات وكليمم باوفليم وسكسيوة بسقصاوة والشياظمة بالشيادمة ورهونة برحونة وكرفط بقرفيت وتسول بتصول وزيان بزايان وزغت بواو يزرت وكرط بقرط وشالة بشلة وقرباطة ببرج غربالة وسيدي صيد عقارب (محل في تونس) بسيدي العقاربة وبونقا بعنقا وبلاد الحضر ببلاد الحيدر وتبلبو وكتانة وعرام بطبلبو وكتنة والعرم وهداج وشعبة السماعلة وغنوش بحديج وشابة الزمالة وقنوش وطبرقة بتبرنة وتوكابر بتكابر ومكثار بمكثر وجبل ساغرو بجبل سارو والخيثر بالكريدر وخنق النطاح بكاركنتا والسوارقية بالسويرجية والاكرة بالعكرة والشرفة بالشرفا والخضيراء والصفينة بالخضيرة والسفينة . وقال ان المصوّرات الجغرافية والكتب المطبوعة في علم تقويم البلدان المترجمة حديثاً في الاستانة وسورية مملوءة بالاغلاط الشائنة ولذلك تجافى عن نقل شيء منها لشناعتها وان خير طريقة يعمد اليها لاصلاح هذه الاعلام ورد كل شيء الى اصله العربي عند الترجمة ان تنظر مصر في ذلك لانها مجمع العالم الاسلامي وفيها صفوة من رجال العلم

من المسلمين الذين يساعدون بمعارفهم في هذا السبيل كان فيها المجمع المصري والجمعية الجغرافية الخديوية التي ساعدت كثيرًا على ارتقاء المعارف الجغرافية

الحكومات والاوبرات

تعطي حكومة برلين الاوبرا الالمانية ١٢٥ر١٠٠٠٠ فرنك وتعطي حكومة باريز ٨٠٠ر٠٠٠ فرنك وحكومة درسد ٦٠٠ر٠٠٠ وحكومة فينا ٦٠٠ر٠٠٠ وتعطي حكومة مصر ١٢٥ر٠٠٠ لجوق الاوبرا ولكنه اوروبي يمثل في الشتاء لتفكهة السياح فقط ·

جرائد العالم

تبين ان في ايطاليا ٣ر٣٣٠ جريدة ومجلة منها ١٣٤ يومية تقسم الى اقسام في مبادئها منها ٣٣٢ من حزب رجال الدين و٢٩٥ من المحافظين و٢٦٠ من الاشتراكيين · وفي المانيا ٥ر٥٠٠ جريدة ومجلة وفي فرنسا ٢ر٨١٩ وفي انكلترا نحو ٢ر٥٠٠ وفي النمسا والمجر ١ر٢٠٠ وفي روسيا ٨٠٠ وفي سويسرا ٤٥٠ وفي الولايات المتحدة ٥٠ر٠٠٠ (كذا) جريدة ومجلة ·

عاصمة الالمان

يطعم المجلس البلدي في برلين الاولاد الفقراء ويكسوهم ولذلك لا ترى في شوارعها شحاذين فتيانًا يدعون كما في بعض عواصم اوروبا انهم يبيعون جرائد او زهورًا واذا شاهد الشرطي ولدًا يدخن يقطع له اللفافة وهي في فمه ·

العمل بالايدي

ابان تقرير العمل في الولايات المتحدة الفرق بين ما تكلف بعض اصناف التجارة اذا صنعت بالايدي او بالادوات فظهر لها ان عشرة محاريث زراعية اذا أريد صنعها بالايدي يشتغل فيها عاملان يعملان فيها احد عشر نوعًا من الاعمال ويصرفان ١١٨٠ ساعة وتكلف ٢٧٢ فرنكا اما بالآلات فان هذه العشرة محاريث يعمل فيها ٥٢ عاملاً يتعاطون فيها ٩٧ عملاً مختلفًا ويصرفون في صنعها ٣٧ ساعة فتكلف ٣٩ فرنكاً · وان المئة زوج من النعال ليصنعها عاملان بايديهما فتكلفهما الفي فرنك ولكن اذا صنعت بالآلات يعمل في صنعها ١١٣ عاملاً فتكلف ١١٧ فرنكاً · وهكذا فان في تقسيم العمل بفضل الادوات والالات الحديثة اعظم وفر ودخل

العلم في مصر

صدر الامر الخديوي بان يخصص من الاوقاف الخيرية مبلغ خمسة آلاف جنيه مسانهة لمشروع المدرسة الجامعة المصرية المزمع انشاؤها في القاهرة . ووقف الامير حسين باشا كامل زهاء ٧٦ فدانًا من اطيانه في البحيرة على مدرسة دمنهور الصناعية وايراد كل فدان ثمانية جنيهات في السنة فتكون قيمة ما اعطاه عشرة آلاف جنيه كما ان قيمة العقارات والاطيان التي خصصت مداخيلها للجامعة تساوي مئة الف جنيه بحسب وارداتها . ولا يزال الاربعة عشر مديرًا من مديري القطر يتفننون في تشويق علية القوم لانشاء الكتاتيب على اساليب مختلفة فبارك الله بهذه النهضة العلمية المنتجة .

السياح ونفقاتهم

كثير من البلاد تنتفع بالقادمين عليها كل سنة للسياحة ومنها سويسرا في اوربا ومصر في افريقية فان القطر المصري يربح كل سنة نحو مليون وربع من الجنيهات من المال الذي يصرفه فيه السياح . وقد ذكرت مجلة المجلات النيويوركية ان السياحة من اعظم المساعدات على انتقال المال من يد الى اخرى فقدرت ما يصيب فرنسا كل السنة من القادمين عليها من السياح بمليارين ونصف مليار فرنك ويصيب ايطاليا خمسمائة مليون فرنك وقد زار سويسرا سنة ١٩٠٦ اربعمائة الف سائح فصرفوا فيها مائة وخمسين مليون فرنك . وقدر عدد الاميركيين الذين كانوا في اوربا هذه السنة بمئة وخمسة وعشرين الفا الى مئة وخمسين الفًا نالت من مالهم انكلترا ١٢٥ مليون فرنك ونالت فرنسا ثلاثة اضعاف ذلك ونالت المانيا ١٢٥ مليونا وايطاليا ٢٥٠ مليونًا . فالارتحال هو من الدواعي الكبرى في نقل المال ومن اعظم المنافع في الحياة الاقتصادية .

البيض

قدر بعضهم ان محصول البيض في اوربا يبلغ في السنة اربعة مليارات واربعمائة مليون بيضة وزعم ان ما تخرجه انكلترا هو احسن بيض ثم يجيء بالجودة بيض فرنسا فالدانيمرك وقال ان مجموع ما يتجر به في انكلترا وخارجها من البيض الانكليزي يبلغ مليارين ومائتين وسبعين مليون بيضة تساوي ستة ملايين جنيه وترسل روسيا الى انكلترا كمية وافرة من البيض الا ان بيضها دون بيض بريطانيا بجودته وبيض اسبانيا من اجمل بيض في العالم والرديء من البيض يدخل المعجنات .

المسكرات

ثبت ان المسكرات في اوربا هي السبب في موت ثلث الوفيات وقد قدم بعضهم الى المجمع الطبي الباريزي رسالة يقول فيها ان الالكحول هو السبب الرئيسي في عشر الوفيات والسبب المساعد على اكثر من اثنين في العشر الآخر فهو في الجانبين سبب هلاك نصفهم وتأثيره في الرجال اكثر منه في النساء .

الضرائب والموظفون

ترى بعض المجلات الباريزية ان فرنسا اذا ألغت وسام جوقة الشرف توفر عليها مالا يوازي ما تتقاضاه من الضريبة على الثقاب (عيدان الكبريت) فان عندها ٤٥ الفاً يحملون هذا الوسام منهم ٣٠ الفاً من رجال الجندية يتناول الفرد منهم راتباً يختلف بين ٢٥٠ فرنكاً الى ٣٠٠٠ فرنك والباقون ملكيون . وقد بلغ عدد الموظفين في فرنسا ٨٧٠٥٨٩ موظفاً وقريباً يبلغون المليون فماليتها محتاجة لمئة الف موظف وحربيتها لمئة وخمسين الفاً منهم ٣٥ الفاً من الضباط الموجودين وادارات البريد والبرق لمئة الف والمعارف لمائة وثلاثين الفاً وفي نظارة الخارجية ٩١٨

زيت البترول

لم يكثر منذ عشرين سنة من المواد الاولية غير صنف واحد وهو زيت البترول فقد كان محصوله سنة ١٨٨٨ في العالم اجمع ستة ملايين طن فصار سنة ١٨٩٧ خمسة عشر مليوناً وارتقى في السنة الماضية الى ثمانية وعشرين مليوناً ويرجى ان يكون الاعتماد على البترول اكثر من غيره اذا ظلت العناية بالاوتوموبيل متوفرة حيناً بعد آخر .

اشد البقاع حرارة

قالت احدى المجلات الباريزية ان اشد الاصقاع حرارة في العالم هو في مدخل الخليج الفارسي في جزيرة كيشم العظمى لايكاد الانسان يستطيع ان يسكن هناك لشدة الحرارة الان فيها اناساً مشتتين هنا وهناك لا يكادون يخرجون من اكواخهم المبنية بالطين ويتغذون بالاسماك خاصة ويمكن لسكان تلك البلاد ان يسكنوها من شهر نوفمبر الى مارس وقد كان أقيم فيها محطة للسلك البحري فترك بعد ذلك لان جميع المستخدمين قضوا نحبهم حرقاً بالشمس وبعضهم فروا ولكنهم جنوا . وقد جرى البحث في خلال المفاوضات التي جرت مؤخراً بين انكلترا وروسيا على ان تنشأ فيها « اصلاحية » الا انه لم يتيسر تحقيق

هذا الفكر اذ لم يرض احد ان يحكم على نفسه بالموت في تلك النار المحرقة ولو مهما كانت مشاهرته .

الحيوانات البائدة

بادت عدة اجناس من الحيوانات في بعض اصقاع الكرة الارضية بعد ان كانت فيها كثيرة ومن العجيب ان العلماء يبحثون عن الحيوانات النافعة فلا يجدون لها اثرًا واختلفت آراؤهم فيما اذا كانت تنسب هذه الابادة للانسان ام لفطرة الوجود ومعظمهم على ان للسببين يدًا في قرض الحيوانات فقد كان في جزيرة سان توما احدى جزائر الارخبيل التابعة للدانيمرك اربعة عشر نوعًا من الايائل لم يبق منها الآن الا ثمانية ولم يبق من البائدة غير وصفها الذي وصفها به السائحون الى تلك الجزر . وقد كان شأن قارة افريقية من هذا القبيل انحس من شأن القارات الاربع الاخرى كما كان شأنها في استيلاء الغريب على معظم اصقاعها . فقد كان من امر الملعب الروماني المدعو كوليزة في رومية ان كانت تعرض فيه الحيوانات الكاسرة خصوصًا فكان بذلك انقراض بعض الاجناس التي كانت في هذه القارة السوداء . اما قارة آسيا فقد نجت حيواناتها اكثر من افريقية اللهم الا جنسًا واحدًا من الحيوانات وهو الفرس الوحشي ذو اللون الاشهب . ومنذ عهد شارل الاول لا يرى اثر للخنزير البري ومنذ سنه ١٨٦٠ لا يرى اثر للذئب في ايكوسيا وكان آخر ذئب وجد في ايرلاندا منذ ثلاثين سنة .

المال في اميركا

اشتدت العسرة المالية في اميركا حتى أُقفلت معامل كثيرة وافلست بيوت تجارية ومالية بالمئات واضطر كثير من الاوربيين الى العودة الى بلادهم حتى بلغ عدد من هاجروا منها في الشهور الاخيرة نحو مليون رجل وقد نسب بعض الاجتماعيين هذه الازمة لاجتماع رؤوس الاموال في ايدي افراد وهو ما توفر الرئيس روزفلت في عهد رئاسته الثانية على مكافحته اشد كفاح على ما يظهر لمن يطلع على الجرائد السيارة ويؤخذ من احصاء جرى سنة ١٩٠٣ ان اثني عشر في المئة من مجموع ثروة الولايات المتحدة بيد مديري احتكار الفولاذ او ملوكه فهم يديرون نصف الخطوط الحديدية في اميركا الشمالية ولهم اهمّ سلك تلغرافي وهم مديرو خمس شركات كبرى للضمان ويملكون كثيرًا من المناجم والمقالع وغيرها ويديرون احتكارات يتجاوز رأس مالها التسعة مليارات دولار اي ما يوازي الدين العام في انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة اذا أُضيف معًا وهؤلاء المديرون او المحتكرون هم اربعة

وعشرون رجلاً زعيمهم مورغان وهو وركفلر صاحبا القول الفصل ومن اكبر قادة الاموال وهكذا الحال في انضمام السكك الحديدية واحتكارها فقد كان عدد الشركات في الولايات المتحدة سنة ١٩٠٤ اثني عشر الف وعشرين شركة فيها ٣٢٧٨٥١ مساهماً منهم ثمانون الفاً من الاهالي فقط . وفي الولايات المتحدة سبعة آلاف رجل يملك كل فرد منهم زهاء مليون ريال ويدعون اصحاب الملايين .

الاعمال في ايطاليا

تشكو ايطاليا من دائين كثرة المحامين عندها وقلة المهندسين فقد بلغ طلاب الحقوق فيها هذه السنة نحو عشرة آلاف طالب وطلاب الطب نحو خمسة آلاف وبلغ طلاب الادب الفاً وخمسمائة طالب ومثلهم طلاب الهندسة . وتطلب نظارة الاشغال هناك مهندسين وميكانيكيين فلا تجدهم حتى تعطلت هذه السنة بعض المسابقات التي فتحتها لطالبي الدخول لقلة الاكفاء والمتعلمين .

افكار في الشقاء

كتب فريدريك باسي الذي عربنا له مقالة القضاء على الشقاء في هذا الجزء مقالة افتتاحية في مجلة الاقتصاد الاجتماعي العامية فآثرنا تعريبها وضمها الى اختها السالفة بياناً لتفنن الافرنج في الكتابة في موضوع واحد قال فيها ما ترجمته : يقول علماء الاخلاق المتدينون ان كل شر ينشأ من الخطيئة فهم على سداد اذا أريد بالخطيئة كل ما من شأنه الخروج عن القوانين التي يجري عليها نظام الاخلاق ونظام الماديات في العالم . ومن المحقق ان ثمت شروراً لسنا نحن السبب فيها كالعواصف والزلازل والفيضانات والحرائق والاوباء وآفات الفلك التي تأتي على الغلات وتنقص الثمرات . ومن هذه المصائب الطبيعية ما نستطيع التوقي منه او من تقليل اثره فينا الى حد محدود . وان كثيراً من الحرائق والامراض وانواع الهلاك هي نتيجة غفلتنا فاذا لم نستطع ان نعرفها قبل وقوعها ففي وسعنا ان نقلل من تأثيرها اذا ضمننا الضامنون وتعهد لنا المتعهدون . فاتقاء الفيضانات يكون على الجملة باقامة السدود واصلاح مجاري المياه . وتمكن الوقاية من الانواء بالدخول الى المرفإ او بالابتعاد عن الشواطيء الخطرة عملاً بما تنقله الاسلاك البرقية والاسلاك البحرية من الاخبار الواجب تصديقها . وتحمى الغلات والثمرات من بوائق الجوّ بما يعلم من الاشارات التي تؤخذ عن المراصد الجوية المؤذنة بقرب الزعازع وتتقى الامراض بالامتناع عن التعرض لموجبات العدوى على غير ضرورة .

وتتأتى النجاة من معظم اسباب الفاقة والالم اذا صحت عزيمة المرء وقويت ارادته لان اغلبها صناعي غير طبيعي . فالكسل هو الذي يضيع الوقت والفراغ هوالذي يسيء استعماله ويصرفه فيما لا ينتج واعظم من ذلك استعماله فيما يؤذي النفس والغير ولا يعود منه فائدة على عامل اخرق جاهل لا نفاذ في بصيرته ولا مضاء في عزيمته . فقد يصرف بعضهم في المشروبات الضارة التي تنهك الصحة والعقل بقدر ما يدفعون الى خزانة الحكومة من الضرائب عن يد وهم صاغرون متململون بل اكثر بكثير . وقد يقضون اوقاتهم وهم يتفرجون على الخيل تعدو مسرعة وهم لا يعرفون منها اعيانها ولا اعيان اصحابها ويحضرون تمثيل روايات او يستمعون لشتائم وسباب او يصرفون اياماً وليالي كان في وسعهم ان يقضوها في عمل مثمر .

نرى بعضهم يلقون بمالهم في المضاربات والمراهنات التي كثيراً ما تكون ضرباً من ضروب السرقات المدبرة . يأتي المرء هذه المنكرات بسائق الجهل ويرمي بنفسه في هذه المهالك التي كان في وسعه اتقاؤها فلا يظلم نفسه فقط بل يظلم المجتمع بما يرتكب من سخف ليس هو الا اعتداء عاما هائلاً يورث تلك المجتمعات التي هو احد افرادها ضعفاً في رفاهيتها ونقصاً في ثروتها بل انها كاً اقواها ودفناً لحياتها . ليس من العقل في شيء ان يسوق المرء نفسه الى مواطن الهلاك ويفادي بروحه وروح جيرانه بما يبذله من احسن موارده المالية وقواه الكثيرة فيروح بعد ذلك ينفق عن سعة على الجيوش المؤلفة من شجعان الشبان يرابطون على الحدود ويعهد اليهم ان يطردوا عن تخطيها كل وطني او غريب يريد دخولها وهو يحمل اطعمة للجائعين وألبسة للعريانين وادوات وآلات لمن لا سلاح لهم مواد اولية لمن يستخدمونها وسماداً للاراضي التي ضعفت قوة انباتها ومواد كيماوية للاعمال الصناعية المختلفة . ولو حسن استخدام تلك الساعات الضائعة او التي تصرف في الباطل والمواد او الثروة المبددة للقضاء العام على بني الانسان وبذل ذاك النشاط الكثير ووجهت وجهة العلم نحو الغاية المقدسة التي تطلب من تحسين حالة البشر والبعد بهم عن فساد الاخلاق والتباغض — لو تم كل ذلك لما صعب ان يقدم لعامة من خانهم دهرهم ما يتبلغون به بل ما يصل بهم الى الرفاهية والاحترام والسعة .

نعم ادع ما تقدم بما شئت من خطيئة او جهالة او جنون فالشر كل الشر الذي ابتلينا به انما جاءنا من قبل انفسنا الا ما حدث بحسب الظاهر قضاء وقدراً ولكن يمكن على الجملة التعديل من حاله او ما نشأ من البوائق الخارجية التي هي مناط عملنا وبيدنا امرها . قالوا قديماً ان المرء لا يموت الا اذا كانت له ارادة في الموت يريدون بذلك اثبات قوة الجهاد الادبي . الشعوب لا تتألم الا بسيئات ترتكبها وهي تنزع الشقاء من اساسه متى عرفت او ارادت ان تقاتله بالفعل

صناعات الملوك

رأى بعض ملوك الارض ان الحكمة تقضي عليهم بان يتجروا لانفسهم ويدخروا المال للطوارىء ولذلك كان مما يملك ملك انكلترا سكة حديدية في الكندا ولامبراطور المانيا معظم الاسهم في مجلتين تأتيانه بواردات وافرة وللملكة هولاندة مزرعة واسعة في قصرها في لو وللبابا مبالغ جسيمة وضعها في مصرف انكلترا لحين الحاجة. ولكن بعض ملوك الاسلام كانوا لايرون ان يتجر الملك ويزارع فكان ادنى فرد من حواشيهم يملك مالاً اكثر منهم لان هذا من شأن الرعية. ومن ملك الرقاب يعاب عليه ان يملك المال والعروض ومن اخذ الممالك لا يجمل به ان يملك قطعة ارض منها. هكذا كان شأن كثيرين ومنهم صلاح الدين يوسف ونور الدين محمود بن زنكي. وفي التذكرة الحمدونية انه كان لعمر بن عبدالعزيز سفينة يحمل فيها الطعام من مصر الى المدينة فيبيعها وهو واليها فحدثه محمد بن كعب القوطي عن النبي عليه السلام ايما عامل تجر في رعيته هلكت رعيته فامر بما في السفينة فتصدق بها وفكها وتصدق بخشبها على المساكين.

الفولاذ والحديد

اذا برد الجو كثيرًا ونزلت درجة الحرارة الى ٢٠ تحت الصفر تقل مقاومة الفولاذ خمسة اسداس ما كانت عليه من قبل وقد ثبت في الجليد الاخير انه تحطم الخطوط في السكك الحديدية والتراموايات فيتكسر الحديد المصفح كما يتكسر الزجاج ولا سبيل الى ملافاة ذلك الا باحماء الخطوط كأن يصب عليها ماء حار للغاية والا كانت حياة الركاب في القطارات التي تمر بعد ذلك عليها في خطر مبين.

مضار الدخان

ثبت ان الدخان او التدخين يضر بالنساء اكثر من ضرره بالرجال ولا سيما في ابان حملهن وحبلهن فكثيرًا ما كان بعضهن يسقطن الحمل من رائحة الدخان حتى ان بعض النساء المستخدمات في معامل الدخان كن يسقطن حملهن قبل الاوان واذا ولدن فلا يولدن الا اولادًا مشوهة صورهم وكثيرًا مايموتون صغارًا جدًا قبل غيرهم من الاولاد قال العالمان اللذان اثبتا ذلك وعلى هذا فيجب على الاطباء ان ينبهوا الحبالى ان لا يدخن اثناء الحمل ان كن ممن يدخن.

فقر الشعراء

مات في لندرا منذ ثلاثة اشهر في مستشفى المجاذيب شاعر اسمه فرنسيس طومسون كانت

حياته على ادب فيه اشبه بالشاعرين جيلبر الفرنسوي وشاترتون الانكليزي فقد كان ابوه طبيباً في منشستر فاراد ان ينصرف لتعاطي الكتابة وقد تخلى عنه ابواه فعاش في لندن عيشة ضنكى فتعاطى اولاً بيع الثقاب (عيدان الكبريت) ثم صار بواباً ثم خادماً في ابواب دور التمثيل وقد عزم ذات ليلة ان يسم نفسه الا انه ذكر قصة شاترتون الشاعر الذي سم نفسه وما جرى له فعدل عن ذلك ولم يعلم ان السعادة كانت في انتظاره من الغد وقد تناول جائزة عن قصيدة نشرتها مجلة انكليزية وبعثت له بها وبعد ذلك اخذ يكتب وينظم ونظم أغنية سماها في غروب الشمس لم ينظم احسن منها منذ عهد شيلي كما قال بذلك كبار النقاد الا ان عقله قد اصيب بشيء من الخلل فقضى في مستشفى المجاذيب. وبعد هذا فلا يحسبن احدٌ ان جميع الشعراء والكتاب ينامون في الغرب في فرش من ورد كما يقول الفرنسيس بل طالما اقض مضجعهم وخوى مربعهم.

العملة

كتب احدهم في مجلة انكليزية ان العملة يزداد اتحادهم في القيام على ارباب الاموال في الغرب فالنازعون الى هذه الثورة هم ثلاثة ملايين عامل في المانيا ومليون في فرنسا وثمانمائة الف في النمسا واربعمائة الف في روسيا وثلثمائة الف في البلجيك ومائتان وخمسون الفاً في ايطاليا ومائة الف في انكلترا ومئة الف في سويسرا وخمسة وثلاثون الفاً في الدانيمرك وخمسون الفاً في السويد واربعون الفاً في هولاندة وثلاثون الفاً في اسبانيا.

الكبراء وما يشربون

طلب احد كتاب الفرنسيس الى كبار كتاب بلاده وعلمائها وشعرائها والمتفننين فيها يسألهم ما يعولون عليه من المشروبات فكان معظمهم على ان الماء هو خير ما يتعاطاه الانسان وقد نشرت المجلة الباريزية اجوبتهم فجاء في اجوبة العازفين عن المشروبات الروحية كلمات حري بكل شرقي يقلد الغربيين فيما يشكون منه من العادات ان يعتبر به فممن لا يتعاطون الالكحول الا في الندر جول كلارسي فهو لا يرى انها تفيد في فتح القرائح وتوقد شعلة الذكاء كما يدعي من يتعاطون المسكرات ومثله ارنست هربرت وكاميل فلامار يون واميل زولا وسولي برودم وماسنيه وجول لميتر وهنري لافدان وفيكتور رين ساردو وموريس بولينا وبول بورجه وادمون هاركور ودالو وبول وفيكتور مارغريت وبنيامين كونستان وبيرلوتي واوجين كاربير واميل اوليفيه. ويكاد ان يكونوا كلهم مجمعين على ان الالكحول مضر حتى القليل منه والاحسن الامتناع عنه دفعة واحدة.

الصينيون واليابانيون

كتب احدهم في بعض المجلات الافرنجية الكبرى مقالة قابل بها بين الصينيين واليابانيين فقال انهم ليسوا من عنصر واحد فالأول من عنصر مغولي والآخرون من عنصر ماليزي واختلافهم في الاصول كان سبب اختلافهم في الفروع اي العادات والاخلاق وكان من اليابانيين ان تحرروا من قيودهم وقبلوا المدنية الغربية لانه لم يكن لهم مدنية اما الصينيون فانهم ما زالوا يتناغون بمدنيتهم و يعتمدون على قوتهم ولهم من معتقداتهم ما يتفانون معه في الخضوع للكبير والفناء فيه. ومن القواعد المتبعة في شريعة كونفوشيوس ان تكون الشفقة الاخوية اساس كل عمل فالشفقة تجمع بين الاب واولاده والشفقة تربط بين الملك ورعيته والشفقة تجمع بين الزوج وزوجته والشيخ والفتى والصاحب وصاحبه. والصينيون يرضون بالقليل ضعاف الارادة لاشجاعة فيهم ولا يحبون ان يلقوا بانفسهم في المخاطر والمخاوف ولئن اخذوا الآن يعملون في تقليد الاوربيين في الجندية فان امر تشبههم بالاوربيين يطول. و يصعب دخول المدنية الغربية عليهم.

وعلى العكس في اليابانيين فانهم من عنصر منوّع. يفكر الياباني فيما تعرضه عليه من الافكار ويحاول ان ينقل عنك ما يليق بالمتمدنين ان يعملوه من العاد والاخلاق والافكار وهو يتروى في كلامه فيزنه في ميزان التعقل ولا سيما امام الغريب عن جنسه. اليابانيون ليسوا خفافًا في حركاتهم فلا ييأسون ولا تسمع لهم صوت تألم وقد يموت الياباني ولا تسمع له ركزًا بل تراه باسما والرضى هو اساس طبيعته ولا ترى الياباني متجبرًا غضوبًا واذا غضب فلا يغضب الا عن سبب قوي جدًا ولا يهرق في سبيل غضبه دمًا. ولئن اخذ بعض العملة في بلاد اليابان يعتصبون الآن الا ان اعتصابهم ليس كاعتصاب العملة الاوربيين قد يؤدي الى الخصام وتجريد الحسام بل انه ينفض في يومه. الياباني فرح مسرور من حاله يعتاد كل عيش مهما كان فيه من الشظف والقلة والتعب والنصب هذا ولا يفوته ان هناك مطالب سامية وعيشة راضية اكثر مما هو فيه ولا ترى الياباني ينتحر من اجل شيء الا اذا اصيب بما يثلم شرفه فيختار ان ينتحر على صورة لا يسمع به احد. واعتقاد اليابانيين بتناسخ الارواح هو سبب غلبتهم الروس في كوريا ومنشوريا والتناسخ عندهم بعد موت الانسان يكون على ست صور فاذا كان الميت ممن عاش في تقى في الحياة الدنيا تنتقل روحه او تتقمص في جسم امير او شريف او رئيس او وزير واذا لم تكن سيرته حسنة في الدنيا تتقمص روحه في اجسام ايامى ويتامى وعميان وعجزة واذا كان رجلاً شريرًا تتقمص روحه في جسم

حصان او حمار او دابة تكفيرًا عن سيئاً تهواذا كان بين بين في الشر والخير يتقمص كالطيور الداجنة او سمكاً او غيره من حيوانات الماء او هواماً وحشرات ·

المطبوعات الاشتراكية

للاشتراكيين جرائد ومجلات في عامة مدن اوروبا واميركا ودعوتهم ما برحت في انتشار متزايد سنة عن سنة حتى ان جريدة من جرائدهم اسمها « الدعوة الى العقل » في مدينة جيرارد من اعمال الكنساس في اميركا قد بلغ المطبوع منها كل يوم ٣٥٠ الفاً فاصبحت اكثر الجرائد الاشتراكية انتشاراً وقد أُسست سنة ١٨٩٥ ولا تزال في نمو ·

نفقات الجيوش

زار احد قواد الاميركان بلاد الالمان والفرنسيس وحضر «مناورات» الجيوش فعاد يقول لامته ان جيشها من اضحك جيوش العالم اكثرها نفقة واقلها فائدة قال : خمسمائة الف جندي فرنسوي يكلفون امتهم في السنة خمسمائة مليون فرنك وستمائة الف جندي الماني يكلفون حكومتهم خمسمائة وخمسين مليون فرنك وستون الف جندي اميركاني يكلفون الولايات المتحدة ار بعمائة مليون فرنك واذا أُضيف الى ذلك ما تنفقه اميركا في الشؤُون العسكرية الاخرى يبلغ سبعمائة مليون مسانهة · تنفق كل هذا من اجل جيش يبلغ معدل من يفرون منه في السنة ستة آلاف جندي ·

نساء اميركا

يؤْخذ من احصاء سنة ١٩٠٠ ان النساء في الولايات المتحدة اقل من الرجال فقد كنَّ ٣٣ مليون امرأَة مقابل ٣٤ مليوناً وثلثمائه الف رجل وان نحو خمسة ملايين ونصف من النساء يضطررن الى الكدح لمعاشهن وان عدد العاملين من الرجال ٢٣ مليوناً وبلغ النساء هناك نحو نصف الرجال في معاطاة الاشغال العقلية فهن ٤٣٠ الفاً لقاء ٨٢٠ الفاً من الرجال وعدد المعلمات منهن ثلاثة اضعاف عدد المعلمين فهناك ٢٧ الف معلم و١١٥ الف معلمة والقاعدة العامة في المدارس الاميركية تربية البنين مع البنات ·

محصول النحاس

كان النحاس غالي الثمن في السنة الماضية وقد زاد محصوله ثلاثة اضعاف ما كان عليه منذ عشرين سنة فصار سنة ١٩٠٦ — ٧٠٠ الف طن بعد ان كان سنة ١٨٨٦ — ٢١٧ الف طن كما ان استعماله في الامور الصناعية كثر على تلك النسبة على ان بعض مناجمه كادت تنضب مادتها منه فكانت قديماً كورنوايل في انكلترا تصدر اكبر كمية من النحاس

اما الآن فالولايات المتحدة هي اكبر مصدرة له وكذلك المكسيك وبيرو اما مناجم اسبانيا فانها الى الضعف .

صنع الالبان

تبين ان الطريقة المستعملة في بلادنا لصنع الجبن والسمن من الالبان المختلفة قد تخلصت منها بلاد الغرب كل الخلاص بفضل الادوات الجديدة فلم يبق احد هنالك يعاني الالبان كما يعانيها فلاحنا وراعينا بيده ويد ذويه .

الجرائد الاميركية

ذكروا ان عدد الصحف الاسبوعية في الولايات المتحدة بلغت في الخمس والعشرين سنة الاخيرة مبلغاً من الارتقاء لم يسمع به فمنها ما يباع بقرش واحد ولا يكون اقل من مئة صفحة كبيرة حوت من ضروب الاعلانات كل غريب وكل مايهم القاريء معرفته من اخبار البورصة والفضائح والهذر والافادات العالمية والحوادث المنوعة محلية كانت او خارجية والقصص والصور الهزلية وألعاب الاولاد وصفحات تقطع لتكون كتباً فهي غذاء ارواح ملايين من الناس وكثيراً ما تملأ بالسخيف ولكن الامة ترغب فيها وتجعلها سمرها ولذتها

الانسان والمحيط

رأت احدى المجلات الروسية ان حالة الانسان آخذة بالتعدل في كل مكان بفضل اساليب الارتقاء التي تكاد تكون متحدة في الامم حتى ان اهل البلد الواحد يقل بينهم الشبه اذا تعاطوا صناعات مختلفة بخلاف ما يكثر الشبه بين اهل البلاد المتنائية ممن يتعاطون اعمالاً متشاكلة فلذلك تجد رجال الطب والمحاماة في انكلترا والمانيا وفرنسا يشبه بعضهم بعضاً في منازعهم وعيشهم اكثر مما يشبه الانكليزي الانكليزي والالماني الالماني والفرنسوي الفرنسوي وهي ترجو ان يجيء على العالم زمن احسن من هذا تنتشر فيه الحضارة في جميع انحاء الارض فترتفع من بين اهلها العداوة والبغضاء والانسان ابن محيطه لا ابن طبيعته .

خزانة اديسون

اهم ما اعلنه اديسون مخترع الفونوغراف انه وفق الى اختراع خزان للكهربائية سيوضع عن قريب موضع العمل فيغير نظام المواصلات الكهربائية لانه يرخص سعرها بنقلها من مملكة الى اخرى ويقول اهل العلم ان عجلات الاوتوموبيل ستنقل اثمانها فيتيسر لاهل الطبقة الوسطى او الدنيا ان يقتنوها ويركبوها وهكذا اقدم العلم ان يسوي بين طبقات الناس في الاستمتاع بملاذ هذا الوجود ومنافعه .

مطبوعاتنا في اميركا

يسرنا ان نبشر قراء العربية ان علماء المشرقيات من الاميركان اخذوا في العهد الاخير يعنون بطبع مؤلفات العرب فقد طبع ريشاردس كوتهيل Richard J. H. Gottheil احد اساتذة كلية كولمبيا في نيويورك كتاب تاريخ قضاة مصر تأليف ابي عمر محمد بن يوسف ابن يعقوب الكندي مع شروح لابي الحسن احمد بن عبد الرحمن بن برد عن نسخة وجدت في المتحف البريطاني وهو في ١٥٠ صفحة وثمنه ثمانية فرنكات ·

الفحم الحجري

نشرت نشرة احصائية المجلس التجاري في انفرس احصاء بحاصلات الفحم الحجري في العالم من سنة ١٨٥٠ الى سنة ١٩٠٦ فدلت على ان محصوله كان في منتصف القرن الماضي ٨٩٨٨١٣٥٧ طناً وما برح في نمو حتى بلغ سنة ١٩٠٦—١٨٩٣٢٤٩٥٥٧ طناً اي انه زاد عشرة اضعاف عما كان · يستخرج من الولايات المتحدة ٣٧٥٣٩٧٠٠٠ طن وتجيء بعدها بريطانيا العظمى فتستخرج ٢٥١٠٥٠٠٠ ثم المانيا تخرج ١٣٦٤٨٠٠٠٠ ثم فرنسا فالبلجيك

مقاومة السكيرين

سويسرا من اكثر البلاد الاوربية مقاومة للمسكرات ومما رآه الاستاذ فوريل احد اطباء المجاذيب فيها لمقاومة السكيرين وتحقيرهم ان تجعل ادارة السكك الحديدية مساء كل احد مركبة او مركبتين تكتب عليهما « للركاب السكارى » فكل من شوهد انه سكران او شرب مسكرًا يدعى الى الجلوس في تينك المركبتين ان اراد السفر · وهي طريقة تندى لها وجوه من لهم احساس من الركاب الذي يتعاطون المسكرات فيقلعون عنها ·

سكة حديد بغداد

كثر بحث الباحثين في هذه السكة ومستقبلها وجلهم يحسنون الظن بها ويعلقون الآمال الواسعة على ما سيتم من العمران في البلاد التي تجتازها · وهذا الخط هو اعظم خط حديدي انشيء في البلاد العثمانية بل اهم خط قام لانه يربط اقصى المملكة باقصاها ويمر في اصقاع كان لها مجد قديم وحضارة زاخرة · وطوله الفان وثمانمائة كيلو متر ويكلف خمسمائة مليون فرنك او اكثر ويقتضي له من العمال والاعمال والادوات والآلات والجسور والقاطرات وغيرها مالا يكاد يقع عليه الحصر ويتيسر ان تقطع المسافة بين الاستانة وبغداد في خمسة ايام وهي الآن لا تكاد تقطع في خمسين يومًا لراكب المطايا ·

يقولون ان بلاد بابل واشور ستحيا بعد مواتها بهذا الخط الحديدي وان آسيا الصغرى

سيرجع اليها ما فقدته من اسباب العمران وسيكون من العراق مصر جديدة تزرع القطن والحنطة على شطوط الرافدين دجلة والفرات فتخسر بذلك مصر بعض وارداتها ولا سيما ان السكة البغدادية ستتولى نقل البريد الى الهند وتختصر الطريق من البحر فتفقد السويس بعض مكانتها لان البريد الهندي ينقل عن طريق الاستانة فبغداد فالكويت فبمباي في عشرة ايام وهو الآن لا ينقل من طريق السويس باقل من اربعة عشر يوماً ·

وتقول مجلة العالمين ان مخبآت مدينة هارون الرشيد وما يروى عنها من الاقاصيص الشعرية ويجري في مخيلات العامة من ذكرى عظمتها الغريبة على عهد الخلفاء ومساجدها العربية ذات القباب والتيجان واسواقها وفنادقها — كل ذلك اثر في عقول كبار ملتزمي مدّ هذا الخط الحديدي فحملوا بتمديده الى بغداد وما اكثر المطامع التي اخرجت هذا المشروع من القوة الى الفعل · وقد نشأت فكرة الملاحة في نهر الفرات وربط الهند ببغداد منذ ستين سنة فنالت شركة انكليزية سنة ١٨٥١ امتيازاً بانشاء خط حديدي من السويدية اي سيلوسيا القديمة في خليج الاسكندرونة الى الكويت على الخليج الفارسي واذ لم تحصل على رهن للضمانات الكيلومترية سقط امتيازها · وفي سنة ١٨٧٢ عاد مشروع سكة السويدية والكويت الى الحياة وقدرت نفقاته بعشرة ملايين جنيه وطوله بالف وار بعمائة كيلو متر ولكن قلة ما في طريقه من البلاد العامرة التي يُرجى الانتفاع منها صرفت القلوب عنه

وتحدث الناس في لندن بعد فتح ترعة السويس ان تربط الاسماعيلية بالكويت بخط حديدي يمر بصحاري بلاد العرب وكان هذا الفكر من الاحلام ولا يبعد ان يتحقق امره بعد زمن · وحاولت روسيا ان تمد سكة من طرابلس الشام الى الكويت مع انشاء ناشطة (فرع) منها الى كربلا بحيث يجتاز بادية الشام وطوله ثمانمائة كيلومتر فسقطت اماني الشركة التي تألفت بطبيعة الحال ثم تعاقب نيل الامتيازات في آسيا الوسطى فانشأت شركة انكليزية سنة ١٨٥٦ سكة حديد ازمير — دينار وقامت بعدها شركة انكليزية اخرى فانشأت سكة حديد ازمير — قصبة وهي ساردس عاصمة كريزوس ثم امتدت الى مدينة الاشهر وتعاقبت الشركات الفرنسوية والبلجيكية والعثمانية في الاناضول والروم ايلي

ولقد شبه بعضهم البلاد التي مر بها خط اسكي شهر — قونية بمضايق سويسرا اذ ضل فيها الصليبيون بزعامة غودفري دي بوليون وقاسوا الامرّين من الجوع والعطش ولذلك تحامى الدخول فيها كونراد الثالث احد ملوك الصليبيين من الالمان وفريدريك الاول الالماني الملقب ببربروس وقيل انهما خفا الى الخروج منها ·

فمشروع السكة البغدادية اليوم الماني وفي المانيا نشأ وكبر حتى أُخرج من القوة الى الفعل

لا سيما بعد ان كثرت صنائع الالمان وصادراتهم وهم يلوبون على مصرف يصرفونها فيه فنظروا ذات اليمين وذات الشمال فلم يروا احسن من هذه البلاد خصوصاً وقد نالت الشركة احتكار مخازنها ومستودعاتها والانتفاع بالشلالات والمعامل الكهربائية والمناجم المختلفة على طول هذه السكة وما يتفرع منها على مسيرة عشرين كيلو متراً من كل جهة عن يمين الطريق وشماله

فاستفاد تجار الالمان وسيستفيدون من هذا الخط كثيراً لان الاقطار التي سيجتازها مازالت بكراً لم تمس فآسيا الصغرى لم تستثمر الا من جهتها الغربية على يد شركات انكليزية وفرنسوية . اما ارمينية و بين النهرين والعراق فانها لم يدخلها الى الآن غير علماء الآثار فقط . وما اشبه آسيا الصغرى ببلاد اسبانيا فهي محاطة بجبال شاهقة وحيث يقل المطر فهناك القفر . والسكان بادية رحالة يقتانون بمواشيهم و ينتجعون لها الكلأ فهذه القطعة من تلك البلاد هي اشبه بمملكة قشتالة لقلة خصبها وامراعها ولكنك ترى فيما يحيط بتلك الشبه الجزيرة في سفوح تلك الجبال وما يتخللها حيث تنساب المياه من اعلى قمم الاطواد وتتحلل من ثلوجها الحدائق الغلب والحقول العامرة بالذرة والحنطة والشعير والكرمة والرمان والزيتون والبرتقال والنخيل فهذه البلاد اشبه ببلاد الاندلس .

ولقد عرف الرومان واليونان ان يحسنوا الانتفاع من تلك الاصقاع الغنية قديماً وسيكون من نصيب الخط البغدادي اليوم ان يعيد اليها بهاءها فهو سيجتاز مملكة كريزوس ايقونية وقيصرية وارغلي . وما دامت البلاد قريبة من الساحل فبشرها بالرخاء وبشر حاصلاتها بالتصريف وكلما بعدت عنه فهناك الشقاء المبين . ومنذ سنين كنا نسمع بان بعض العمال يحرقون الحنطة التي يأخذونها عشوراً لانهم لم يجدوا سبيلاً الى نقلها الى البلاد التي تحتاج اليها وكذلك قل عن الفلاحين وزهدهم فيما تخرج ارضهم من الغلات والثمار بعد ان يفيض عنهم اضعاف اضعاف ما يلزمهم .

هذا ما كان من آسيا الصغرى اما بلاد ارمينية واشور و بابل فستحيا حياة طيبة بعد ان خربت منذ خمسة آلاف سنة وزيادة وبعد ان دام عمرانها الغريب ثلاثة آلاف سنة فعدت من اعظم الممالك تمدناً وحضارة . هذا وشمس تلك البلاد شمسها ومياهها مياهها وارضها ارضها . والبلاد من حلب الى الموصل ينبت فيها القطن وفي الموصل كان يعمل الشاش الرفيع واليهانسب اسمه الغربيون كما نسبوا اسم الدمقس عندهم الى دمشق .

وقال بعض الباحثين في هذا الخط ان العراق كان على عهد العباسيين يغل عشرة ملايين طن من الحنطة و يطعم ستة ملايين من السكان وليس فيه اليوم اكثر من نصف مليون نسمة يعيشون في مسكنة وان السكة البغدادية ستضمن الامن والتجارة في تلك الربوع فتعود اليها حياتها السالفة وتكون بقطنها ونخيلها وحبوبها مصراً ثانية وتستثمر مناجم الحمر

الموجودة على الضفة الشمالية من دجلة في سفوح سلاسل جبال فارس ومنابع زيت البترول التي يعبث بها الاهلون فيوقدون فيها النار للتسلية اذا مرّ بهم سائح عظيم ويقتضي ذلك عشرين سنة من الزمن فيأتي الماليون باموالهم ليستثمروها في تلك البلاد كما استثمروها في عبر القافقاس وتركستان واسبانيا ومصر وتأتي البضائع الالمانية لتصرف على اهل تلك البلاد وينهال علماء الالمان للبحث في آثارها وعظمتها ويخلدون لامتهم من المفاخر مثل ما خلد ماريت وشامبليون الفرنسويان في مصر من الآثار والمحامد · ان الالمان في مدهم الخط الحديدي في بلاد يكاد يكون اكثرها خرابًا الآن قد تعلموا بما استفادوه من دروس ملوك السكك الحديدية في الولايات المتحدة امثال فندربلت وهاريمان ممن اثبتا لاوروبا بان السكة الحديدية ولو مدت في قفر تكفي لان تحيله روضًا ممرعًا آهلاً بالسكان وآية من آيات العمران ·

قدر العمر

تحت هذا العنوان نشرت مجلة « الحياة البيتية » الفرنسوية مقالة لطيفة قالت فيها ما تعريبه : قال طبيب انكليزي اسمه اوسلر منذ عهد ليس ببعيد في خطاب فاه به امام طلاب احدى المدارس الجامعة في اميركا رأيًا احدث بعض الهياج في الافكار وهو ان الرجل اذا بلغ سن الاربعين يقل الانتفاع به على الجملة وانا لو تأملنا مجموع الاكتشافات والاعمال البشرية واسقطنا منها ما تم للناس بعد بلوغ هذه السن لتجلى لنا ان عمل الناس بعد الاربعين لا يعد شيئًا مذكورًا · فالعظائم قام بها العظام قبل ان يتجاوزوا الاربعين من اعمارهم · والعمر الحقيقي الذي ينتج فيه المرء ويبني به المجد هو ولا جرم بين الخامسة والعشرين الى الاربعين وان المرء اذا جاوز الستين ينقطع عمله ولا يستفاد منه بتة · قال وقد نرى من بلغوا هذه السن في الامم الراقية يعهد اليهم بادارة الحياة السياسية او التجارية او الصناعية ولكنهم قلما اغنوا الغناء المطلوب واثمروا ثمرة جنية ·

على ان بعض المناصب قد يعهد بها الى اناس من ابناء الستين ولو وسدت الى اقل منهم سنًا لحسن اثرها اكثر ولكن اناسًا كثيرين اتوا بعد الستين من جلائل الاعمال ما هو من مفاخر الدهر امثال غلادستون وبسمرك ومولتكه · وبديهي ان ذلك لا يثبت ان اعمال الشيوخ ارقى من الرجال الذين استكملوا قوتهم وفي ذلك ما يدل على ان الرجل قد ينيف على الستين وهو حافظ لقواه العقلية في معاناة المطالب العالية ·

لا جرم ان دعوى الاستاذ اوسلر منقوضة برجال جاءوا والنفع تم على ايديهم بعد ان شابوا ووهن العظم منهم · ومن هذه الفئة « كانت » ملك الفلاسفة فانه لما نشر كتابه « نقد العقل المحض » كان ابن سبع وخمسين سنة · ولو صحت قضية اوسلر لكان « كانت » معدودًا في الغابرين منذ سبع عشرة سنة · ومن المحقق ان « كانت » قضى حياته كلها في

التأمل بفلسفته وليس ثمت دليل على انه قضى عمره بعد سن الاربعين منقطعاً عن كل عمل ولا يتأتى ان ندعي ان «كانت» لو مات في الاربعين لما خسر العالم بموته شيئاً من كتاباته ·

واذا بحثنا في حياة لابلاس الفلكي فانا نجده قد قال رأيه في نظام العالم حوالى سن الخمسين ولم يجزه الا عند ما اناف على السبعين · وكذلك الحال في حياة «ليل» العالم بطبقات الارض مجدد هذا العلم فانا نراه قد اتم معظم اعماله بعد سن الاربعين ولم يتخلص من قيود تقليد ما تعلم الا بعد ان جاوزت سنه الاربعين ودخل في دور التجديد ·

وهكذا قل في داروين فانه بلغ التاسعة والاربعين ولم يكن قد اتى غير البحث وجمع الحوادث ففي سن الخمسين كتب كتابه «اصل الانواع» وكلنا نعلم انه نشر اهم اعماله من سن الخمسين الى السبعين وكان عمره اثنتين وستين سنة عند ما كتب كتابه «اصل الانسان» · ويصدق على هربرت سبنسر ما يصدق على داروين في قوة العقل في الشيخ قوتها في الكهل والشاب او اكثر فقد بلغ هذا الحكيم الاربعين من عمره ولم يعمل غير استعداد لما يريد القيام به وهو لا يهتدي الى السبيل المؤدية اليه · اتت عليه اربعون سنة وهو لم يرسم «فلسفته التأليفية» الا رسماً خفيفاً وفي الثانية والاربعين نشر المبادىء الاولية وفي الثانية والخمسين نشر مبادىء علم النفس وفي السادسة والخمسين نشر كتابه «علم الاجتماع» وفي الحادية والستين نشر كتاب «العدل» ولما اتم اعماله كانت قد بلغت سنه الثمانين · واذا تخطينا رجال العلم والحكمة الى النظر في تراجم الساسة وارباب الرحل نجد كثيراً امثال بسمرك وتيرس بل وفرنكلين الذي خدم بلاده في السبعين من عمره وكان سبباً في تأسيس الوحدة الاميركية كما نجد خريستوف كولمب قد اكتشف اميركا في السادسة والخمسين من عمره وطاف ماجلان حول الارض وهو في التاسعة والاربعين · ولعل صاحب تلك الدعوى يقول انه لو كان غير هؤلاء واصغر منهم سناً مكانهم لعمل عملهم ولكن من الثابت ان من كانوا قبلهم وعلى عهدهم اصغر منهم عمراً ولم يأتوا ما اتوا ·

ولا يفوتنا هنا ذكر العالم الالماني هومبولد فانه كتب اهم كتبه «الكوسموس» وهو في السادسة والسبعين ولو صح قول الاستاذ المشار اليه لكان هومبولد منذ ٣٦ سنة قليل الفائدة على الجملة · وقليل في اسفار العلماء يحوي ما حواه كتاب هومبولد من بعد النظر وسعة المدارك · وكذلك كان شأن كيتي فانه كان ينيف على الستين عند ما رسم نظريته في الالوان وفي الخامسة والستين انصرف الى اعمال علمية لم يكن يعانيها من قبل وبرز فيها وكان في الثمانين عند ما انجز كتابه «فوست» واحسن فصوله ما كتبه في آخر امره ·

ومن جملة علماء الموسيقى واغنر الالماني فانه لم يبلغ قمة مجده الا في الخمسين ومعظم

كتبه النافعة نشرها بعد الستين وكذلك الحال في هايدن الموسيقي الالماني وهاندل . وفيكتور هوغو كان بعد الخمسين غيره قبلها وكذلك باستور .

وبهذا رأيت ان رأي الاستاذ اوسلر لا يخلو من غرابة وان كان فيه بعض الحق . فالامر موقوف على نوع العمل الذي يُعمل والصفات التي يحرزها العامل . ومن الثابت ان كثيرين يعجلون كثيرًا في الانقطاع عن تنمية قوتهم العقلية ويدخلون في مضمار فيعملون في الحال ما يلزم له دون ان يتمكنوا من زيادة شيء يذكر بعد ذلك فهؤلاء هم من الفئة التي بعجل لها قلة الفائدة .

ولكن الرجال الذين يثابرون على التعلم الى الخمسين او الستين ويظلون يبحثون ويوجدون الحقائق او يخزنون الافكار والقضايا وينسقون وضعها — الرجال الذين لا ينفكون عن تنمية عقولهم على الدهر بما يعانونه من الاعمال التي تستدعي اهتمام الذهن وانصراف القلب هؤلاء يدوم امد الانتفاع بهم ولو بلغوا ارذل العمر . وكثيرًا ما يتأخرون في الابداع والايجاد الى الاربعين والخمسين ويظلون يبدعون الى خاتمة اعمارهم اي السبعين والثمانين . وما رأيناه من اعمال بسمرك وغلادستون ومولتكه في تغيير حال السياسة في ايامهم اكبر دليل على ان المعمرين ليسوا بنتائج عقولهم دون من لم يعمروا مثلهم في النشاط والفضل وان الشيوخ لا يلزمون بيوتهم بدون استثناء ويجلسون الى مواقد النار للدفء وقضاء الوقت في التسلية .

نفاضة الجراب

ويل للمطففين (١)

١

قامت مدينة آبيري التجارية الصغيرة في جزيرة ايسلاندا في مكان بهيج على لسان من اليابسة يدخل في البحر ويتمثل للاعين ضيقًا لما يكتنفه من التلعات والمنحدرات العالية . ولم يكن في هذه المدينة قديمًا غير محل تجاري واحد وجواز تجاري صادر عن ملك الدانيمرك وهذا المحل يعرف من النظر اليه لاول وهلة . والمعروف في تلك البلاد انه ملك رجل اسمه كريبور انشأ هذا البيت التجاري في دار قديمة العهد على ما تشهد بذلك اعلامها وراياتها وكانت

(١) قصة نقلتها المجلة البارizية الى الافرنسية من اللغة الدانيمركية لمؤلفها جستور بالسون وهو من مشاهير ادباء ايسلاندا له قصص صغيرة تتأثر بها النفس لما فيها من وصف الاخلاق والآداب ولفوائدها الاجتماعية العديدة وله هجو يفعل في النفس فعل السيف ليس فيه تقريع وشتيمة بل هو مجموع حوادث شوهدت وعاشت تدخل اعماق القلوب وتؤثر فيها الاثر المطلوب .

تمتاز بقلة ارتفاع حوائطها المتناسبة مع علو السقوف وكان في الشبابيك السفلى الواح صغيرة من الزجاج وفي الطبقة العليا غرف صغيرة وزوايا صغرى كأن الظلمة من مميزاتها .

اما الآن فان كريمور التاجر كان قد شاخ وابيضت لحيته كلها وكان ابن زهاء سبعين سنة ولكنه لم يكن في الحقيقة يعرف عمره على وجه الصحة اذ قد مضى عليه زمن طويل وهو لايحسب ايامه واعوامه لانه قضى حياته في حساب امور اخرى اهمّ في نظره من غيرها .

مضى عليه نحو نصف قرن عند ما فتح مخازنه في آبيري ولم يصرف ساعة من هذا الزمن الا في ادخار المال بكل الوسائط وكان ذلك من السهل عليه اذ لم يكن ثمت احد يباريه في تجارته بل لم يخطر على بال احد ان يناهضه . وتعاقب جيلان من الناس بدون ان يحاول فرد فذ ان يقيم في تلك البلدة لينازعه في زبنه (زبائنه) .

فكان وحده مستأثراً بحلواء الارباح عرف من اين تؤكل الكتف فلم يراع في جميع اعماله الا مصلحة نفسه فكان الحاكم المتحكم في مدينته يقنن قوانينها ويتصرف بحلوها ومرها . فكل شيء يباع في محله بضعفي قيمته او بثلاثة اضعافه والبضائع التي يبيعها من الناس تساوي ثلاثة اضعاف اقل مما تساوي في اي محل من المحال التجارية في ايسلاندا! وكان مع هذا لا تأنف نفسه من غش زبنه في كمية البضائع وكيفيتها ويتقاضى عند الحساب ثمن بضائع لم يبعها ولا استلمها المبتاع . ولذلك لم يكن مما يدعو الى العجب ان تنقل البركة من آبيري وضواحيها ولا يجد اهلها فلاحاً . كل ذلك وكريمور لا يهتم لما يجني على الناس ويكفيه على الدوام ان يزيد اعماله وارباحه .

وبديهي ان كريمور لم يكن محبوباً في بلدة آبيري اذ كان زبنه يعرفون كيف يعاملهم قبل ان يدخلوا مخازنه التي كانت قطعة من جهنم . ولقد شكا الناس كلهم من حاله الا ان الفقراء كانوا احق بالرثاء من غيرهم من السكان . وزد على ذلك فان كريمور تولى منذ زمن طويل زمام جمعية « الاحسان العام » واصبح يجز صوف الفقراء ويختلس الاموال المجموعة لاعالتهم والادرار عليهم حتى لقد شاع على الالسن بان ليس في آبيري بائس يلجأ اليه الا ويرجع من لدنه افقر مما اتاه وكان من مبدإ كريمور ان الفقر مفسدة ابداً وان المحاويج كلهم من الكسالى والمسرفين وكل من يطلب معونته يعامله اسوأ معاملة فلا يعود اليه بعدها مهما برحت به تباريح الفقر المدقع . ومن اخباره ان بعض البائسين مدوا ايديهم اليه يستجدون نواله فضربهم عليها ضربة كسرها وبقي اثر الكسر بادياً عليها . بيد ان المضروبين ما قط شكوا امرهم لاحد . وذلك لما وَقَر في نفوسهم من ان دعواهم عليه لا تسمع لانه غني وتجارته ناجحة . فالقضاة ان لم يكن له فلا يكون عليه من اجل مظهره .

ومما لا شك فيه ان كريمور كان آية في نشاطه لا ينازعه في ذلك منازع يعمل حتى

يكاد يتصبب عرقًا كما يعمل الوحش الضاري وقد قبض بكلتا يديه على فريسته · فيبا كر بكور الزاجر الى مخزنه قبل جميع مستخدميه ويخرج منه بعدهم كلهم ويتعب تعباً لا مزيد عليه بحيث لو جمع تعبه وقيس بتعب بضعة افراد من مستخدميه لرجح تعبه لا محالة · فكان يضع بيده المعاجين ويكيل بيده الخمر ويزن القهوة ويخاطب الفلاحين ويمسك دفاتره بيده ليقيد فيها ولم يكن في حاجة الى التقييد والحساب لانه يأخذ ما يشاء وهو لم يتعلم ولا يحسن الكتابة الا قليلاً · ولا يمنعه ذلك من ان يضع بيده الصوف والشحم في ميزان ويدفعه بيده قليلاً ليرجح · ومن العادة ان يطالب المبتاع ان يحسن الكيل والوزن ولكنه اذا طالب بذلك يضحك منه كريبور ويجيبه باسماً رافعاً كتفيه او مردداً بعض الالفاظ · فاذا ذهب الزبون يلتفت كريبور الى مستخدميه ويوعز اليهم ان يستعملوا الكيل والميزان كما يستعملهما هو ويريدهم على ان يطففوا ويتلاعبوا ويقول لهم ان مهارتهم في ذلك متوقفة على حسن التخلص بلباقة · ومع هذا فقد كان قاسياً من وراء الغاية في معاملة مستخدميه وقلما يقعد احد منهم عنده زمناً مع انه من الصعب ايجاد تجار آخرين يخدمونهم اذا خرجوا من محله وما كان يناديهم بغير الفظاظة والالفاظ القبيحة الوحشية ويطعمهم ارداً طعام ولا يمتنع في الاحايين من صفعهم ليثبت لهم بان يده خفيفة في الضرب خفتها في النشل والنهب ·

وما كان كريبور يعنى بطعامه ولكنه قد يتأنق بعض الايام ويتناول قطعة من اللحم المحمر وقدحاً من الشراب وفي ذلك اليوم يدعو بعض اغنياء الفلاحين من اهل تلك الناحية لتناول الطعام معه ولكن هذه المآدب الخارقة للعادة تنتهي في الغالب على اسوإ حال وذلك ان الفلاح يذكر له في خلال الحديث الغلط الذي وقع في ورقة الحساب الذي كان بعث به اليه التاجر فيجيبه كريبور بحدة وتنتهي حالهما من الكلام الى الشتائم ومن الشتائم الى الملاكمة وينهال الضرب على المدعو ويطرد من بيت التاجر طرداً ·

ومن المحقق انه لم يلتئم احد معه قط وقد تزوج اربع مرات وماتت ازواجه الاربع سأماً من الحياة معه · وكان كريبور يتعزى عن فقدهن في الحال اذ لم تأت السنة على فقد الواحدة حتى يكون عروساً في آخرها · دام ذلك الى ان ترمل للمرة الرابعة · وقد رزق ولدين من زوجه الاولى ماتا كلاهما واسم البكر آرني كان ساقطاً حقيراً شريباً خميراً يكره كل عمل حتى انتهت الحال بوالده ان طرده من بيته فاخذ يقرع البيوت ويستجدي الاكف في آبيري وهو يسكر حيثما نزل وكيفما اتجه · ثم سدت في وجهه جميع الابواب فرجع الى دار ابيه طامحاً سكراً فطرده ابوه ولما لم يقدر ان يقف على رجليه زحف الى السرب (قبو) وكان غير مقفل كما ينبغي فشوهد من الغد ميتاً وهو ملقى على كوم من الصوف اما ابنه الثاني المدعو يوحنا فكان على العكس من

اخيه حسن السلوك ذكيًا للغاية عاملاً لا يكلّ ولكنه غرق يينا كان يسبح في البحر في العشرين من عمره في آخر سنة له في المدرسة فكان فقده على كريبور اول يوم حزن فيه مدة حياته . فقد تلقى مصابه بفقد زوجاته الاربع غير مكترث لما اصابه ولكنه لما كان يذكر امامه ابنه يوحنا كان وجهه يتغير على ان حزنه عليه لم تبد في وجهه اماراته بكثرة واكتفى بان يقول ان دفن الميت يكلف كثيرًا وان جميع الشعائر التي تقام في الجنازة لا تفيد الميت شيئًا ومن رأيه ان يجعل الميت في تابوته وان يحمله اهله الى المقبرة بدون توسط احد من رجال الدين لما في ذلك من الاقتصاد في النفقة والتخفيف عن الميت وآله .

وكان اسم زوجته الاخيرة كودرون وهي انشط نسوانه الاربع ولما بنى بها كريبور شعر بالشيخوخة وضعف الذاكرة وتقهقر الاشغال . ولكنها عند ما استلمت ادارة بيته وضعت كل شيء موضعه وسار كل شيء على نظامه واخذت تجارته حياتها السالفة وذلك لانها كانت منتبهة للغاية فتدخل مرات كل يوم الى المخازن على غفلة لتفاجيء المستخدمين وتنظر في الدفاتر وتحقق الحسابات وتكلم الزبن اذ كان لسانها فصيحًا كما كانت يدها رشيقة وحركتها خفيفة . على ان الشيخ كريبور لم يرض عن زوجه لانها كانت تتراءى له بانها تكلفه من النفقة اكثر ممن تقدمها من زوجاته . ويعتقد انها مسرفة لانها تريد ان يكون لزوجها ما يجب ان يكون له وان يقبض كل واحد اجرته وهو مما يسميه جنونًا وقلة تدبر . وعند ما كانت تطلب منه دراهم كان يردد ابدًا عليها نغمة واحدة وهي : ان القليل الذي استطعت ان اقتصده سيبذر في الحال عند ما اقضي نحبي . . . بيد ان ما تنبأ به لم يتحقق قط فماتت كودرون بعد اثنتي عشرة سنة من زواجها بكريبور وعاش هذا بعدها طويلاً .

ولم تخلف كودرون ولداً فانحصرت ذرية كريبور في طفل اسمه ماركوس وهو ابن ابنه يوحنا المتوفى وكان ولداً امتعقلاً ولكن صورته مزرية وقليل النشاط والحركة فتبناه جده بعد ان فكر زمنًا ان يتركه عالة على المدينة ولم يرض بقبوله في بيته الا تخلصًا من ان يكون فريدًا وحده ولا عقب له .

٢

ماتت كودرون فكان موتها فاتحة سوء الطالع على كريبور فاتخذ له خادمة بعد اخرى وكلما غير خادمة تزداد حال بيته اختلالاً فهن لا يعرفن الا الانفاق ولم تجرأ واحدة منهن ان تعمل له عملاً نافعًا لان الشيخ كان كثير الظنون والسارقات والسارقون يعبثون بامواله في كل مكان . على ان حذره لم يحل دون دخول فساد على اعماله فاخذ المستخدمون لا يخافون بأسه وكل منهم يسرق من المخازن ما يروقه ناسيًا بالقصد ان يقيده فدخلت تجارته في دور الانحطاط واصبح كريبور اذا غضب واراد ان يعاقب المتلاعب من كتبته وخدامه

يسكون بذراعيه ويديه ولا يفلتونها الا اذا رضي بان يعود الى السكون ولا يعمد الى العربدة

وحدث في غضون ذلك حادث كان فيه القضاء المبرم على هذا التاجر ومحله وذلك ان تاجرين غريبين جاءآ ذات يوم الى آبيري وانشأ آ محلاً تجاريًا فاخذ زبن كريمور يتخلون عنه واحداً بعد واحد فخفض اسعار بياعاته الى ارخص مما يبيع ذانك التاجران وزاد في رواتب مستخدميه الا ان ما اتاه لم يأته بفائدة وارتفعت ثقة الناس من محله منذ زمن واصبح في الحور بعد الكور وفي الخسران بعد الربح حتى لم يعد يرض احد الفلاحين ان يعامله مخافة ان يعود ثانية فينشب فيه مخالبه ولكن كريمور بذل جهده في مقاومة سوء البخت فكان يدفع كل سنة من ماله عجزًا كبيرًا ٠

وكان من هذا الجهاد ان قلّ ماله بالتدريج وكل ما يصرفه من ثروته على هذه الصورة كان في الحقيقة لحمه ودمه فاستولى الضعف على قواه الطبيعية وحل الوهن محل القوة التي كانت عضده في شؤونه خلال خمسين سنة واقام عنه وكيلين لادارة اعماله ولم يكن منهما الا ان زادا الطين بلة واخذا بسوء سلوكهما يبعدان الفلاحين عن معاملة المحل كما كانوا من قبل وكانا يصرفان معظم النهار في ملاطفة صاحب المحل ليحلا من قلبه مكانًا يتذرعان به الى نيل مآربهما منه ومن ماله فيحتالان على مدح جميع اعماله ليحرزا ثقته ولم يكن الى ذاك العهد قد وضعها في انسان وما اقتربا منه الا ودعواه بيا« صديقي العزيز » ويقال انهما كانا يسرقان من الصندوق اكثر مما كانا يضعان فيه من الدراهم ٠

وبعد ذلك وفق كريمور الى الظفر بخادمة على هواه تتولى امور بيته اسمها مريم جاوزت الخمسين من سنها وتمرنت في خدمة البيوت ومعاناة الرجال وكان ما يرضيه من طباعها في الاكثر هو انها تمقت كل المقت ما كان يسميه بالنظافة والنظام اللذين لا فائدة منهما فلا تمسح ارض الدار الا في الاعياد الكبرى ولا تكنس الغرف الا صباح الاحد ولا تعنى بزينتها الا اذا بقي لها وقت فكانت « فرشات » الثياب يطول عمرها معها لانها قلما تستعملها في نفض الثياب ٠ تخف ابدًا الى الاقتراب من ذاك الشيخ وتطيعه لاول كلمة يفوه بها وتقص عليه ما يجري في الدار والمخزن والمدينة وما يقال فيها وما لم يقل وتنسب سوء القصد لكل من كان لكريمور بعض الثقة فيهم وتزيف اقوالهم وتوردها في قالب لا يفهم منه الا عكس ما يراد منها ثم تعرض عليه بان الناس كلهم يسرقونه اذا لم يعهد اليها بان تراقبهم ٠

فوقع كلامها من قلب الشيخ موقع التصديق حتى زادت ثقته بالناس ضعفًا واقتنع بانه محفوف بفئة لا غاية لها الا ان تنهب ماله حاشا مريم فانها الوحيدة التي ما عراه شك في امانتها ولم تكن مريم تسرق مالاً بل توفر من جميع النفقات ولا سيما من الطعام وخصوصاً طعام المستخدمين فبدخولها بيت التاجر دخله الجوع ٠ ومن المميزات التي اختصت بها مريم

انها كانت تحسن الانتفاع بكل شيء وما قط طرحت بقية من بقايا اللحم ولذلك كنت تستنشق في غرفة كريور التي يقف فيها عندما يترك مراقبة المستخدمين روائح كريهة منبعثة من تلك اللحوم المدخرة

عرفت مريم كيف تحسن معاملة زوجها وتستولي على عقله كما تحسن معاملة الناس وتخدعهم وكان صوتها رقيقاً تتلطف مع الزُّبن وتلاطف الاولاد وتوهم كل من يكلمها لتتوسط له امام كريور انها مساعدته فيما يريد وانها مبرأة من كل غاية الا من النفع العام على انه لم يحدث من اثر هذه الغيرة كلها ما يعود على محل التاجر بالفلاح واخذ الانحطاط يزداد في اشغاله يوماً فيوماً على ما تبذله هذه الخادمة من وسائط نجاحه .

وكان لكريور في غرفة مجاورة للغرفة التي ينام فيها خزانة من شجر الكابلي جعلها صندوقاً لوضع ماله ولما كانت اعماله سائرة على قدم النجاح قديماً كنت ترى جرار الخزانة طافحة بالنقود الذهبية والفضية وفي وسطها اكياساً ملأى فاخذت هذه الاكياس تنقص شيئاً فشيئاً منذ انحطت تجارته حتى لم يبق واحد منها بل قلّ ما كان في الجرار من النقود وفرغ كثير منها بتة .

٣

حدث ذات يوم من ايام الخريف بعد ان عادت القطعان من المراعي ان منافسي كريور في تجارته باعوا من فلاحي آبيري كثيراً من البضائع انتهم بارباح وافرة ولما نمي الخبر اليه انزعج انزعاجاً شديداً واصابته سكتة دماغية فوقع في مخزنه لاحراك به فنقل الى غرفته واضجعوه في سريره واستدعوا الطبيب . وكان هذا شاباً لم تمض بعد سنوات قليلة على نيله الشهادة سكن فى تلك البلدة حديثاً . فخف لفحص المريض فرآه غائباً عن رشده فقضى الليل كله بالقرب من سريره وهو يمرضه ولما طلع النهار رجع الى الشيخ كريور صوابه

ودام دور نقاهته طويلاً وانشأ كريور يسير على رجليه قليلاً حتى استطاع ان يطوف محله زاحفاً وكان الطبيب يعنى بصحته كثيراً . وكان هذا الطبيب قدحاز ثقة الجمهور لا لحذقه بل لانه اشتهر بالنصح .

وما كان للشيخ كريور اعتقاد كبير في الطب لان صحته القوية قد اعفته من الالتجاء اليه على ان الدكتور « توردور » قد استولى في الحال على عقله وكلما كان يزوره يتهلل وجه الشيخ كريور بشراً وطلاقة . فكان الناقه ينتظره وهو جالس على كرسيه الكبير طول النهار ساكتاً لا يتكلم كالحجر الاصم وكانت الضربة قد اصابته في جانب فمه فالجمته فلم يعد يتكلم الا ببطء شديد ولا يلفظ في الاحايين الا بعض مقاطع من الحروف كثيراً ما تكون مبهمة لاتفهم .

اشار كريمور ذات يوم بعد ان انصرف الطبيب من غرفته الى خادمته مريم ان تقترب منه وسألها ان تقرأ له شيئًا فاخذت من صندوقها التوراة وكانت الكتاب الوحيد الذي احتفظت به طول حياتها ففتحت باب رؤيا القديس يوحنا الانجيلي وقرأت الآيات التي ورد فيها ذكر تعذيب من يعذبون في النار والكبريت ولا تنالهم الراحة ليلاً ولا نهارًا

فقاطعها كريمور والغضب آخذ منه قائلاً : ما انحس هذا النبي يوحنا يتكلم عن هذه النار وهذا الكبريت اللذين ليس لها اساس . وحدّق بها بعينيه اللتين كانتا تبرقان بشرر الغضب فذعرت منه حتى ارتجفت كلها وعادت فأخذت بيدها الجورب الذي كانت تحيكه قبل ان تشرع في القراءة له . اما كريمور فلم يرفع نظره منها وظلّ ساكتًا لا يتكلم واخذ وجهه يتغضن ابشع تغضن من هنيهة الى اخرى ويحرك ذراعيه كانه يريد ان يطرد احدًا يهدده بالقبض عليه . وكانت غرفة الخادمة متصلة بغرفة سيدها فذهبت اليها عند ما رأته قد نام الا ان النوم لم يجئه في تلك الليلة ولم يتمكن من اغماض جفنيه وترك نظره يسرح وهو في قلق يبدو عليه في غرفته واخذ من وقت الى آخر يتنهد ويلفظ كلمات منقطعة .

وكان بالقرب من سرير كريمور منضدة صغيرة يضيء عليها مصباح في الليل منذ وقع مريضًا ومن عادة مريم ان تنزل الفتيل للاقتصاد من الزيت وهكذا رسمت ظلال مشوشة على الحائط . وفي تلك الليلة اراد كريمور مخالفة عادته في ترك الفتيل صغيرًا بحيث لا ينطفيء فقط واراد ان يكبره ليكون ضوءه كثيرًا لان الظلام كان يخيفه .

فظنت مريم ان الشيخ راقد واخذت تسير نحو غرفته سيرًا لطيفًا فلما سمع وقع قدمها صاح والذعر آخذ منه : مريم مريم . فاجابته فقال لها اتظنين بان الموت سيأخذني ؟ فقالت له : ان الموت بعيد عنك لان صحتك تحسنت كثيرًا عن ذي قبل وعما قريب ستشفى كل الشفاء فاجابها بقوله : نعم صحتي احسن وقريبًا أُشفى ولا اموت .

ثم سكت وخفت مريم بالانصراف من غرفته فناداها قائلا : اتعتقدين يامريم انني سأذهب الى النار متى حلّ بي ريب المنون ؟ فاجابته : انت تروح الى النار سامحك الله على مثل هذا الفكر اما انا فلا اعتقد بانه يخشى عليك من النار . ولما سمع ذلك اجابها : نعم لن اذهب الى النار . ثم غاص في بحر السكوت من جديد وعاد فقال لخادمته : هل عملت شرًا وارتكبت كبيرة اعاقب عليها ؟ فقالت له كلا انك كنت سليم الصدر ابدًا وما قط اسأت الى انسان وعلى العكس فان كثيرين قد اساءوا اليك فنهبوا منك مالك وخدعوك بكل حيلة من احابيلهم . فاجابها بقوله : نعم ان الناس اساءوا اليّ . اساءوا اليّ هؤلاء الملاعين . ثم استولى السكوت عليه وقال بعد لحظة : اتظنين ان من خدعوني يروحون الى جهنم .

فقالت له : اذا نجا احدهم من النار فيكون في نجاته وجه الغرابة . فاجابها : ان المسألة طاهرة وسينتقم المولى لي منهم اذ يرى انني عاجز عن الانتقام بنفسي لنفسي والا لما كان ثمت عدل . فنهضت مريم ورتبت وسادتي كريمور ووضعتهما وضعاً حسناً تحت ابطيه ليتمكن من الجلوس وتسريح النظر في الغرفة وبعد ذلك انصرفت لتنام واطبق كريمور جفنيه ولم يعد يتحرك حتى ظننته قد رقد . الا انه لم يلبث هنيهة ان فتح جفنيه واخذ منه الهلع وهو يحدق في زاوية الشباك ويصرخ « هناك في تلك الزاوية ضوء انجدوني ! » فقفزت مريم الى الارض واسرعت فاوقدت المصباح فبدد النور غياهب الظلمة وصارت الغرفة كأنها في رابعة النهار . وكان العرق يكلل وجه كريمور ويحاول ان يمسحه وهو يفيض عليه وعيناه تشخصان الى كل ناحية من انحاء الغرفة ذات اليمين وذات الشمال وفي اعلاها واسفلها وشعره الابيض كالثلج مسترسل على جبهته وعيناه تنظران وتحدقان والهلع آخذ من قلبه مأخذه . فاخذ يسأل مريم قائلاً : يامريم اتعتقدين بان هناك جهنم ؟ فاجابته ان سؤالك عن النار اشبه بمن يسأل عن وجود الله تعالى . فقال لها : اذاً فانت ايتها المجنونة المقدسة تروحين اليها والناس كذلك ولا سبيل الى النجاة منها . فلم يسع مريم الا ان قالت له : لا تفكر في هذا ليس ثمت مسمى لهذا الاسم (جهنم) . فاجابها نعم ليس ثمت جهنم . والتفت كريمور الى الحائط واطبق جفنيه وقال لها : تسهرين هنا طول الليل ولا تطفئي المصباح بل اتركيه موقداً يسطع بنوره . قال هذا وهو ينظر الى السقف ثم تقلب وعند مارأى مريم قد جلست بالقرب من سريره وانها اضاءت المصباح واوقدت مصباحاً آخر بدا عليه الاطمئنان واستغرق بعد ذلك في النوم فنام حتى الصباح .

ولما استيقظ واجلسته مريم في كرسيه حضر الطبيب فسأله عن صحته ثم كلمه في شؤون وشجون الا ان كريمور كان مشغول القلب فلم يجب طبيبه بغير « لا » و « نعم » ثم انقطع الطبيب عن كلامه فانشأ المريض ينظر الى الطبيب وحاول ان يضحك من شق فمه الذي نخخ وقال له : يقال ايها الدكتور انك لا تعتقد بشيء . فاجابه الدكتور قائلاً : ما من احد الا وهو يعتقد بشيء ياعزيزي كريمور . فقال هذا : اعني بقولي ياحكيم انك لا تعتقد اي انك لا تعتقد بالشيطان . فاستضحك وقال وهو يدرك ما يجول في خاطر صاحبه : او تعتقد بان للشيطان وجوداً ؟ فقال كريمور : كلا ! وجود للشيطان . قال هذا وحاول ان ينهض من كرسيه وامسك بيد الطبيب فقال : كنت اعرف حق المعرفة بان ليس ثمت شيطان ولا جهنم ايضاً . فقال الطبيب : نعم انا على ثقة من ان الشيطان . . . نعم لا وجود له . فاجاب الشيخ المريض : انك تعرف ذلك وانت الذي درست العلوم واحكمتها . فقال

الدكتور : لا يعترف العلم بوجود شيطان ولاجهنم · فقال الشيخ اذا كان العلم لا يعترف بوجودهما فذلك لانه صحيح · قال هذا وقد اخذ مقعده من كرسيه واطبق جفنيه وسطع في وجهه بريق الفرح ثم همس قليلاً بصوت يكاد لا يفهم قائلاً : نعم ليس في الوجود شيطان ولاجهنم العلم يعرف ذلك ومن اعرف من العلم بمثل هذه الامور · ثم فتح عينيه واخذ يحدق في الطبيب وامارات الشك تقرأ في وجهه كأنه يريد ان يبحث في ذهنه عن امر لا يعثر عليه و ينتظر الطبيب ان يعينه عليه ·

الا ان الطبيب سكت وهو يتأمل في كريمور و يتلو في جبهته ما ينم به قلبه الذي لا يكتم السر كالصبي · ثم ظهر كريمور في مظهر من زال عنه همه واخذ يد الطبيب وقال له : وماذا يقول العلم عن الحياة الثانية ؟ فاجابه الطبيب العلم لا يستطيع ان يبين حقيقة العالم الثاني فان هذه المسألة من المسائل الاعتقادية · ثم سأله : وهل انت يا دكتور تعتقد بالآخرة ؟ كلا لا اعتقد · فقال المريض الظاهر ان ليس هناك آخرة اذ العلم لا يعترف بها ولا يثبتها · ثم تملكت على الشيخ كريمور مشاعره وسكت وأخذ يهز رأسه وفتح فاه واغلقه ثم فتحه ثانية واغلقه · و بدا على سحنته ان في قلبه سرًّا يريد ان يحل مشكلته وحاول الابتسام وان منعته شفته المفلوجة منه وقال : من البلاهة بل غاية في البلاهة ما يذكرونه عن الجزاء بعد الموت وهل للجزاء من حقيقة ؟ فاه بهذا السؤال وهو محتاج لجواب ايجابي فكان جواب الطبيب له : اذا عنيت بالجزاء ان على المرء ان يذكر ما قدمت يداه وان هذا هو الجزاء فانني لا ارى فيه شيئًا من البلاهة ولطالما اعتقدت بان كل امرىءٍ في ذاته بل الانسانية بمجموعها يجب عليهما ان يحاسبا عاجلاً او آجلاً عما اتياه من الاقوال والافعال في هذه الحياة الدنيا · ولما سمع الشيخ هذه العبارة قال : انني لا افهم · فاجابه الطبيب : ومع هذا فانت مدرك ما اعتقده من انه لا بد من وقت يجيء في هذه الحياة ايضًا يكافأ فيها الخير و يعاقب الشر · فقال الشيخ يجازى في هذه الحياة بالذات هذا غير ممكن بل متعذر كل التعذر ·

ولما فاه الشيخ كريمور بهذه الكلمات فاه بها بلهجة الفزع وقد تمسك بذراعي الكرسي وهو يحدج الطبيب ببصره وقال : كلا انك لا تقول ما تفكر فيه وما انت الا مردد لما كنت سمعته فقل لي ماذا يقول العلم وما اظن العلم يقول بما انت تدعيه فماذا يعلمك العلم ؟

فاجابه الطبيب : ليس للعلم في هذا الموضوع شأن وما انا الا مصرح لك باعتقادي بعد تجاربي الخاصة ومعرفتي في الحياة · فلما سمع المريض ذلك حاول ان يقلل الشدة لانه لاحظ ان ما صرح به من معتقداته قد اثر تأثيرًا شديدًا في المريض فاستلقى على ظهره في

الكرسي من جديد واخذ يطبق عينيه ويفتحهما ويطوف الغرفة والفزع الشديد آخذ منه واصفر وجهه اكثر من ذي قبل واصبحت يداه بلا حراك على ذراعي المقعد وقال : تجاربك ايها الطبيب تجاربك تقول بذلك ؟ فقال الطبيب : نعم هذا هو اعتقادي اعتقده واكرره واقول غير هياب ولا وجل ان كل امرئ في هذه الارض يجازى عما قدمت يداه ان خيرًا فخيرٌ وان شرًا فشرٌ وتؤخذ منه الفائدة (الربا) وفائدة الفائدة اضعافًا مضاعفة .

فلما فاه الطبيب بهذه الجملة نظر اليه كريمور نظرة من يحب الاقتناع بان هذه الافكار هي من الافكار الخاصة للدكتور ليس الا وقال : نعم الفائدة وفائدة الفائدة ولكن هذا القول فظيع وهو معتقد غير مقبول .

وهنا ادرك الطبيب ان هذا الحديث لا يزيد المريض الا ضيق صدر فقاطعه وقال : عليك يا صاح ان تطرد من ذهنك الافكار السيئة وان لا تفكر الا في شفاء جسمك وان تساعد على نقاهتك ما امكن وها قد اصبحت احسن صحة من ذي قبل فما عليك الا ان تعنى بالشفاء كل العناية . ثم سلم وانصرف

فنظر اليه كريمور حتى اذا غاب عن نظره عاد يحدق في كل مكان محاولاً ان يجلس في كرسيه بحيث كان ينظر الى الغرفة بمجموعها وانه لكذلك دخلت عليه الخادمة فقال لها اريني ماركوس فقد تاقت نفسي الى رؤيته . فنادت مريم هذا الولد وكان في غرفة في الطبقة العالية يستعد للذهاب الى المدرسة وكاد يأتي على صفحة من كتاب النحو اللاتيني ويستظهرها كلها . فخف الى غرفة جده وكتابه مفتوح في يده واخذ مقعده في زاوية من زوايا الغرفة . ولما سمع كريمور بقدوم حفيده سكنت نفسه بعض الشيء واغمض عينيه يحاول ان ينام ولكن استيقظ مرتجفًا قائلاً : ياماركوس هل انت عندي ؟ فاجابه الولد نعم ياجداه انا هنا .

ومنذ ذاك اليوم اصبح يجيء الولد الى غرفة جده كل يوم ولم تنعكس صحة هذا ولكنها لم تتحسن ايضاً وعلى هذا النحو مضى الاسبوع . والطبيب يعود مريضه كل يوم وقد ظهر له ان كريمور يكاد لم يستعد قواه الا ببطء شديد . ولم يعودا يبحثان فيما بينهما عن المعتقدات وقد حاول المريض ان يعود الى الخوض في هذه الموضوعات ولكن الطبيب كان يقاطعه ويدخل في شؤون اخرى .

مضت على ذلك ايام والعجوز لا يترك كرسيه الا للنوم في سريره وقد حدث انه جرت فيه مرة حادثة وساقاه ضعيفتان الى المخزن وكان متصلاً بداره ولم يلتفت في الحقيقة الى ما كان يجري فيه امامه وقد هدد بيده المستخدمين الذين كان يعتقد انهم يزنون ويقيسون

على الاصول وعاد فاستشاط غضباً منهم على نحو ما كان يغتاظ ايام صحته عند ما دار في خلده بانهم يحسنون الكيل والوزن والقياس . واتت عليه ساعات وهو يردد ما قاله لبعض مستخدميه عند ما رآهم يزنون بالميزان ويقيسون بالمقياس : لا تزنوا هكذا بل اقل من ذلك والا فانا ... وبقي يردد هذه النصيحة بدون ان يكلم احداً بعينه ولكن هذا التهديد كان ينبعث من فؤاده كأنه عام لجميع من يخالفون ارادته

ولم يطل مقامه في غرفته وهو يشعر بانه احسن حالاً فيها من حيث الصحة واخذ يطوف غرفته ويتماسك وكان عليه لما فيه من الضعف ان لا ينهض من سريره ولكنه كثيراً ما يمشي في ألبسته الرثة ويقف امام الشباك ويهز رأسه ويقول وهو صموت بل يختنق ويقول همساً : مع الفائدة وفائدة الفائدة ! يقول هذا ثم يهز رأسه هزة غريبة وينظر الى كرسيه الكبير فيقع فيه ويطبق اجفانه وينام ولكن نومه لا يطول فيستيقظ في الحال كأن قلقاً عظيماً اخذ من نفسه مأخذاً ويسحب نفسه متثاقلاً نحو الشباك ويطل على ما وراء غرفته ويعاود تلك الكلمات التي طالما رددها وهي : مع الفائدة وفائدة الفائدة .

وكان حفيده ماركوس يتألم من اخلاق جده اكثر من غيره لانها كانت في الغالب سيئة وكان جده اذا استغرق في افكاره يكلم نفسه ثم ينادي : ياماركوس ياماركوس اين انت يامضحك ؟ فيجيبه هاءنذا ياجداه . ويقرب منه وفرائصه ترتعد فيسأله الشيخ الهم ماذا تعمل يا كسلان ؟ فيقول اتعلم النحو ياجدي . فيجاوبه : تتعلم النحو ومن قال هذا يامتوان اذهب وزن لي سكراً ناعماً . يقول هذا وكأنه يمد يده الى الولد ليصفعه ولكن هذا يغطي اذنيه بيديه لينجو من الصفع . ويذهب الى المخزن كالسهم المرسل فيأتي جده في اسرع من لمح البصر بالسكر الذي طلب منه احضاره ويجيء به حاملاً كيساً منه بكل قوته ومعه اكياس صغيرة ويأخذ يملأ بها بان يزنها في ميزان صغير وضع على منضدة فاهو الان يقول له جده لا تكثر يانحس واجتهد بان تعطي ابداً قليلاً فالناس لا يدركون الكمية التي انت تضعها . ثم تكمد جبهة الشيخ وبعد هنيهة يعود هذا فيصرخ : اين انت ياماركوس ياغبي ؟ فيخف اليه الولد وهو خائف يترقب وقد وضع يديه على أذنيه ويتقدم نحو كرسي جده قائلاً : هاءنذا ياجداه . فيسأله ماذا تصنع ؟ فيقول له انني ازن سكراً . فيعود فيقول ومن قال لك ذلك ؟ واين كتابك في النحو ؟ فانت تزن سكراً بدل ان تتعلم دروسك يا كسلان وتتظاهر بانك تتعلم مع انك لا تصلح لشيء

وعند ذلك يجر الولد الكيس في المخزن ويرجع الى زاويته ولكن كريمور لا يتركه زمناً مستريحاً فتارة يطلب منه وزن السكر واخرى يوعز اليه بدروسه وهكذا بدون تسلسل في افكاره ولا رابطة في اوامره .

٤

ولما نقه كريمور ذات يوم بعض النقاهة طرد ماركوس من غرفته واغلق الباب اغلاقاً محكماً ثم اخرج من جيبه حزمة من المفاتيح وكانت مفاتيح خزانة الكابلي وما كان يفارقها قط · حتى كان يذكرها في اضيق حالات مرضه و يضعها تحت مخدته · فذهب اذ ذاك نحو الخزانة وفتحها واخرج منها الجرار واحداً بعد آخر وقد اصبحت معظمها فارغة الا قليلاً وكان بعضها فقط يحتوي على قليل من النقود الذهبية فجردها كلها بيده ثم وضعها وهو يهمس قائلاً : قدذهبت كلها ولم يبق الا القليل ! ثم عالج قفل صندوق كبير فاخرج غطاءه ولم يكن فيه غير كتاب متوسط الحجم فلما رآه وقف قليلاً وهو يحدق فيه ثم اخرج القفاز من يديه وتقدم من الشباك ورفع طاقيته فوضعها على المنضدة وفتح الكتاب ولم يفتحه ليقرأ فيه بل انه لم ير صفحة اسمه وهذا الكتاب هو تفسير الكتاب المقدس باللاتيني كان لابنه الصغير عند ما كان في المدرسة · ولم يقرأ ما فيه ولكن نظره وقع على الصفحة التي كتب عليها بيد طفل مبتدئ هاتان الكلمتان « يوحنا كريمور » وبقي ينظر في الكتاب ملياً وهو يمسكه بيده وعيناه ناظرتان لهذا الاسم وهما لا تريان غيره وعندها فاضت بالعبرات فتساقطت على الاسم وعلى الصفحة وحاول ان يكفكفها بكم قميصه الممزق · وعندذلك اطبق الكتاب ووضعه في الصندوق وادخله في الخزانة واغلقها ووضع «طاقيته» على رأسه وقفازه بيده وراح يخطر في الغرفة وسرموجه (شبشب او صرماية) في رجله ليسمع صوته · ووقف رافعاً رجله على الاخرى بالقرب من النافذة ونظر الى خارج وتنهد وهو يكلم نفسه قائلاً : مع الفائدة وفائدة الفائدة ولعل هذا صحيح ؟ ثم علت وجهه الكآبة والحزن

٥

وفي بعض الايام دخل ماركوس الصغير وهو يبكي الى المطبخ حيث كانت مريم قائلاً : ان جدي مات في كرسيه · فقالت له وكيف ذلك ولم تكن حالته في خطرانه لم يكن وجوده حملاً ثقيلاً علينا ثم قصدت الغرفة فوجدته ملقى على الدف وقد ظهر لها انه جاءته نوبة وهو في كرسيه وادركت في الحال انه لم يمت فحملته الى سريره واستدعت الطبيب فحضر ورأى كريمور غائباً عن رشده وعيناه مغمضتان وقد فلجت جميع اعضائه · فوقع الطبيب في حيرة ولما سألته مريم فيما اذا كان ثمت امل في الشفاء لم يجبها بكلمة فامر بان يوضع على رأسه خرق تجعل في ماء فاتر وان يفصد الا ان كريمور قضى الليل كله وجميع نهار الغد بدون حركة · وعند المساء فتح عينيه قليلاً ورجفت يداه وكان ماركوس جالساً على

صندوق بالقرب من سرير كريمور وعيناه تفيضان بالدمع وهو ينظر الى جده ومريم واقفة بالقرب من الشباك ترتب الكراسي ففتح كريمور شفتيه قليلاً كأنه يريد ان يتكلم وتنفس الصعداء. فلم يبن منه الا مقطع واحد من مقاطع الحروف وهو الفا الفا اي الفائدة وهي الكلمة التي طالما رددها بقوله الفائدة وفائدة الفائدة ثم اغمض عينيه وعاد الفالج فاستولى عليه فجأة وارتعشت اعصابه واخذت عينه تتجه صوب حفيده قائلاً له : مار ‥ مار ‥ ماركوس ! ٠ فاجابه الطفل : هاءنذا ياجدي فقال وما تصنع ؟ فاجابه : لا شيء ياجدي

ثم ظهر كأن عينا كريمور خرجتا من محجرهما واكمد وجهه وقال بصوت لا يفهم : الفا ‥ حنا ! ثم عانى كثيراً وحشرجت روحه وتقلصت شفتاه وحدق بعينيه في السقف وراح لاحراك به ٠ فتقدم كل من مريم وماركوس نحو سريره ٠ فقالت المرأة : لقد مات ! فوقع الولد من الصندوق الذي كان جالساً عليه ووضع يديه على وجهه وشهق بالبكاء كأن صدره اوشك ان يتصدع ٠ اما مريم فكانت تنظر الى تلك الجثة الهامدة ولا فكر لها الا ان تطمئن وتتأكد انه مات حقيقة ٠ ولما ثبت لديها موته القت بيدها الى تحت مخدته وتناولت حزمة المفاتيح ٠ ثم اغلقت باب المسكن ودخلت على حين غرة الى الغرفة التي كانت فيها الخزانة وفتحتها ٠ وصرفت وقتاً في معرفة كل مفتاح وجراره الا انها تمكنت من ذلك بعد العناء ولما فتحتها قالت والغضب آخذ منها : فارغة كلها فارغة لعنة الله عليها كلها فارغة ٠

ورأت في اسفل احدى الجرار بضعة نقود ذهبية وفضية فاخذتها ووضعتها في جيبها وهي تنظر الى خلفها مخافة ان يباغتها احد ٠ ثم نظرت ذات اليمين فبصرت بصندوق فبرقت لرؤيته اسارير جبهتها وقالت كنت على ان انساه ولعل فيه الخير الكثير وبعد ان عالجته طويلاً فتح لها ولكنها لم تجد فيه غير كتاب التفسير ٠ فقالت وقد استشاطت غضباً وماهذا الكتاب العتيق وما السر ياترى في اخفاء هذا الكتاب في الصندوق الكبير فما عتمت ان اخذته والقته طعاماً للنار واغلقت الخزانة وعادت الى غرفة الميت فرأت ماركوس ينتحب ويبكي فوضعت حزمة المفاتيح تحت مخدة كريمور وخرجت تاركة الباب وراءها مفتوحاً قليلاً وذهبت الى المخزن تنادي المستخدمين قائلة ان معلمكم قضى نحبه فتعالوا اعينوني حتى نقوم بما يجب اكراماً له فهبوا الى غرفة الميت اما هي فاقتربت من ماركوس وانحنت عليه بحنان واخذته الى ناحية وقالت له : « لاتبك يابني » ثم انشأت تمر يدها على خديه وجعل الولد يتمسك بعنقها فقالت له بصوت كئيب : مات المحسن الينا فياله من خطب جسيم ياماركوس عزاؤنا في اننا سنراه في السماء فالله رحيم وهو سيتفضل علينا ذات يوم ان نشاهد من اسدى الينا اياديه ٠ وما جدك ياولدي الآن الامع الابرار في السموات العلى ! »

المقتبس

الجزء الثالث من المجلد الثالث

ربيع الاول سنة ١٣٢٦ موافق ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٨

المعتزلة

من العادة ان كل فرقة او اهل مذهب اذا ارادت ان تصف الفرقة المخالفة لها تبخسها حقها و ربما نسبت اليها ما لم تقله اعتقاداً منها بان تنفير الناس عن المخالف والدعوة الى المذهب لا يتيسران الا بهذه الطريقة الغثة الباردة حتى ان بعضهم جوزوا الكذب على المخالف وما ندري اي دين سماوي او مذهب فلسفي يجوز الكذب في امثال هذه المسائل ·
والمعتزلة ما خلوا ممن يرميهم بما ليس فيهم خصوصاً ايام استحرت المجادلات بينهم و بين الفرق الاخرى من اهل الاسلام ايام كانوا ممتعين على عهد اوائل الدولة العباسية بحريتهم الدينية على اصولها ولم يلاقوا من ارباب السلطة شدة ولا عنتاً · وقد كثر بحث الغربيين في العصر الاخير عن المعتزلة ومنشإهم حتى قال بعضهم ان من سوء طالع المسلمين ان ينقرض المعتزلة فانهم كانوا معدلين لامزجة الحكومات وارباب المذاهب الاخرى اذ جروا مع العقل وضيقوا المنقول على المعقول ونظروا الى الجوهر اكثر من العرض ومن حكم العقل في اقواله وافعاله يحترمه احبابه وخصومه على السواء ·

ولقد استطلعنا طلع رأي احد كبار علماء الاسلام في امر المعتزلة فاملى علينا الجملة التالية فكانت خلاصة احوالهم وغاية الغايات في الافصاح عنهم · قال دام نفعه :

في اواخر عصر الصحابة ظهرت ثلاث فرق من فرق الاسلام اولاها الخوارج وهذه الفرقة من الفرق التي اعترضت على علي بن ابي طالب في تجويزه التحكيم في امر الخلافة وكانت تحكم بكفر الفاسق صريحاً كشارب الخمر ونحوه فضلاً عمن يسعى في سفك دماء

المسلمين لاجل مأرب دنيوي ومذهبها مبني على هذه القاعدة وكان في ذلك العصر فقد دخلت الناس افواجاً في دين الاسلام بسبب الفتوحات العظيمة واكثرهم ممن لم يتهذب بمكارم اخلاق الدين فكان الناس يسمون المتساهل في الدين فاسقاً ويجعلونه من المسلمين البتة وكان كثير من الناس يصرح بان الامور كانت مقدرة عليهم تخفيفاً عنهم من الملام . وفي خلال ذلك هبت فرقة لهم شدة تمسك بالدين وتحلٍ بآدابه فانكروا ذلك وصرحوا بان الانسان مختار في اعماله وان الله تعالى لو اجبر الانسان على عمله لم يؤاخذه عليه وجعلوا الناس ثلاثة اقسام مؤمن وكافر وفاسق فالمؤمن من يقوم بجميع شروط الدين والكافر الجاحد مطلقاً والفاسق من اتى بكبيرة ومنعوا من تسمية الفاسق باسم المؤمن واعتزلوا مجلس الحسن البصري لانه لم يرض بالتصريح بسلب اسم المؤمن عن الفاسق فسميت هذه الفرقة المعتزلة . وفي اثناء ذلك ظهرت فرقة هي بالفرقة السياسية اشبه منها بالفرقة الدينية وهي فرقة الشيعة المشايعة لامير المؤمنين عليّ بن ابي طالب . والشيعة حزبان حزب منهم كانوا يقولون انه هو الاحق بالخلافة غير ان عوارض الاحوال اوجبت تأخيره لكثرة اعدائه من المنافقين وغيرهم وكانوا لا يطعنون في الذين اخروه عنها وقسم يقولون انما اخروه لعداوة في انفسهم لا رعاية لمصلحة الامة ثم اخذ كل مذهب دوراً من الادوار كما يعلم من التواريخ المفصلة .

واذ كان الخوارج ارباب حرب وضرب وتحمس في الدين وعبادة ونسك ولم يكن لهم بصيرة في العلم كانت امورهم العلمية بسيطة جداً واكثر ما يقابلون به السيف . اما المعتزلة فكانوا في امرهم ارباب تؤدة وتأنٍ واستبصار بما يقتضيه الوقت وكان مقتضى مذهبهم القيام بانكار المنكر ولو افضى الامر الى سل السيف الا ان ذلك مشروط فيه الامكان فكان المعتزلة بغيضين الى فريقين العامة والامراء اما الامراء فلما يشترطونه في الامارة من الشروط التي اذا انتشرت في افكار العامة لم يتيسر لامير ان ينطلق في امر الامة بما يشاء واما العامة فلانهم ينفرون ممن يخرجهم عن الدين بمجرد اتيان المنكرات التي اطلق لهم العنان فيها من طرف خفي امراء السوء الذين يهمهم ان تكون العامة ممن يعينونهم على مقاصدهم وكانت هذه الفرقة اعظم الفرق في المناضلة عن الدين ورد شبه الملحدين وكان الجمهور يقولون لا حاجة لنا الى الجدل فان كل من خالفنا استتبناه فان تاب فبها ونعمت والا طهرنا الارض بسفك دمه عليها . ولم يزل الامر كذلك حتى افضت النوبة الى المأمون وكان ممن خالط ناساً منهم وكان لهم دهاء عظيم في مخالطة الطبقات العالية مع انكماشهم وشدة ورعهم فتلقف المأمون افكارهم فقويت في نفسه فلما افضت الخلافة اليه بادر الى اعلانها وكان مقتضى الحال ان يدعو الى مذهبهم كما يقتضيه حال كل من اخذ بمذهب الا ان المأمون تبدلٍ الذي

كان عليه وهو اطلاق الحرية للموافق له والمخالف وجد من الواجب ان يطلق العنان لكل الفرق فالتي اخطأت يتيسر اقناعها بالحجة والبرهان والتي معها الحق ينبغي ان تُتبع على ما معها منه فانطلقت في عصره جميع الفرق وجعل في داره مجالس للمناظرات بين ارباب الملل والنحل وكان العصر المفرد في ذلك ·

ثم لما افضى الامر الى من بعده خفّ اطلاق العنان لهم · غير انه بقيت من ذلك بقية حتى افضت النوبة الى المتوكل فقام في اضطهاد الفرق المخالفة للجمهور رعاية لمشرب العامة وخلاصاً من فرقة اذا قوي امرها في مشارق الارض ومغاربها كان فيها الخطر على امر الخلافة لانها شرطت فيها شروطاً يصعب القيام بها على كثير ولم تزل حال المعتزلة بين انخفاض وارتفاع حتى انحطت الامة انحطاطاً زائداً وقبل انقراضها كان كثير من الملوك يمعن في ابادتهم بالسيف كما يعلم من التاريخ ولم يبق لهم ملجأ غير اليمن فان فيه تكوّن حزب ذو عدة وعُدة يصعب محوه وهم المسمون بالزيدية · فما الزيدية الا فرقة من فرق المعتزلة يخالفون جمهورهم في بعض مسائل الامامة ونحوها ·

ومذهب المعتزلة في كون الانسان مختاراً ليس كما ينقله عنهم المخالفون لهم فانهم ينقلونه على صيغة مستبشعة ينفر منها العوام فضلا عن الخواص فمن ثم وافقهم عليه كثير من علماء اهل السنة كما وافقهم على كثير من مسائلهم الفرعية التي استخرجوها وكانت هذه الفرقة كثيراً ما تذكر في التاريخ بانها معتزلة مع ان المترجم يكون من المخالفين للمعتزلة في باقي مسائلهم اشد المخالفة فكان يقع الناظر في التواريخ اضطراب وحقيقة الامر تفهم مما ذكره التاج السبكي في الطبقات فقد نقل في ترجمة القفال عن الحافظ ابن عساكر انه قال في القفال : بلغني انه كان مائلاً عن الاعتدال قائلاً بالاعتزال في اول امره ثم رجع الى مذهب الاشعري · قال السبكي وهذه فائدة جليلة انفرجت بها كربة عظيمة وحسيكة في الصدر جسيمة فان مذاهب تحكي عن هذا الامام في الاصول لا تصح الا على قواعد المعتزلة وطال ما وقع البحث في ذلك حتى توهم انه معتزلي واستند الوهم الى ما نقل ان ابا الحسن الصفار قال سمعت ابا سهل الصعلوكي وسئل عن تفسير الامام ابي بكر القفال فقال قدسه من وجه ودنسه من وجه اي دنسه من جهة نصرة مذهب الاعتزال · والقفال هو استاذ عصره قرأ عليه الاشعري علم الفقه وقرأ هو عليه علم الكلام وهو معدود من كبار أئمة الشافعية وعال السبكي ذلك بقوله اعلم ان هذه الطائفة من اصحابنا ابن سريج وغيره كانوا قد برعوا في الفقه ولم يكن لهم قدم راسخ في الكلام وطالعوا على الكبر كتب المعتزلة فاستحسنوا عباراتهم ·

والمعتزلة هم الذين احدثوا علم الكلام وكان الاولون ينهون عنه كثيراً الا ان النفوس

لما كانت مولعة بالعلم مطلقاً تابعهم عليه غيرهم والفوا فيه كثيراً واوهموا اللائمين لهم بان الكلام المنهي عنه انما هو الكلام على طريقة المعتزلة غير ان الكتب التي ألفت على طريقة المعتزلة امتن جداً لما كان في اصولهم من منع التقليد البتة ولذلك لم يكن بعضهم يقلد بعضاً وان كل انسان مكلف بقدر ما اداه اليه اجتهاده ووسعه ولا يخفى الفرق بين المقيد والمطلق ٠ وهم الذين وسعوا اصول الفقه حتى ان اكثر المسائل المذكورة فيه هي من مبتكراتهم غير ان الاصوليين لم يحبوا ان يتركوها لهم وهذا ظاهر لمن يتتبع فن الاصول عصراً فعصراً واما ما يرميهم به خصومهم من ان الاعتزال نشأ من انتشار كتب الفلسفة فهي فرية لان الاعتزال وقواعده الاصلية نشأت قبل ترجمة كتب الفلسفة المتعلقة بالالهيات بلا خلاف وكثير مما قالوه كمسألة الاختيار المطلق ومسألة خلود العاصي مؤبداً ونحو ذلك كان يستعين خصومهم في الرد عليهم بها بكلام الفلاسفة وانما كان دأب المعتزلة يقتضي متانتهم ان يخوضوا في اي شيء كان من العلوم التي كانت قبل وان يجروا على ما يظهر لهم لاعتقادهم وجزمهم بانه لا توجد حقيقة تخالف الدين فكانوا اشد الناس اسراعاً للخوض في الفنون وا كثر المؤلفات المهمة في العلوم المنوعة ما عدا الفقه يدهم فيها اطول من يد من يخالفهم اجمالاً ٠ والتاريخ يظهر ذلك باجلى مظاهره ٠ واما الفقه فانهم اخذوا فيه بما اخذ به غيرهم لاعتقادهم ان الخطب فيه سهل غير ان لهم في الفقه دقائق غريبة يجدها الانسان في تضاعيف الكتب هم منشأوها واما الحديث فانهم رأوا كثرة الوضع وظهر لهم ان التمييز بين الصحيح وغيره يعسر لاسيما ما روي من طرق غيرهم فانهم لا يطمئنون اليه لاعتقادهم ان كثيراً من اهل الورع والصدق من غيرهم ربما يجوزون وضع الحديث للمصلحة وشاهدوا في عصرهم احاديث وضعت في حقهم مثل « القدرية مجوس هذه الامة » فنفروا من المحدثين (١) وثلبوهم اشد ثلب ولما كان علم الحديث اهم علوم الدين وهم اشد الناس ولوعاً به ذهبوا الى قاعدة غريبة وهي ان كل حديث لا يخالف القرآن وهو قريب من مقاصد الشارع او كان مما يدل على مكارم الاخلاق سلموا به اجمالاً بدون نظر في رواته وما وجدوه مخالفاً لذلك ردوه البتة ومن هذا نشأ كثرة ما تراه من ذكر الاحاديث في كتب مثل الجاحظ والزمخشري وغيرهما من ائمة المعتزلة فهم يبحثون عن القول لا عن راويه ٠

غير انهم يعتقدون ان من اخذوا بقوله كان على مذهبهم ومشربهم ٠ ٠ وقد وقع في التواريخ مناقشات كثيرة في مسألة نحل كثير من المشهورين في العلم والفضل والسبب في ذلك ان كثيراً من المتقدمين كانوا لا يصرحون بما يصرح به المتأخرون فكان كل فريق يدعي

(١) راجع كتاب مختلف الحديث لابن قتيبة

ان فلانًا منهم و يظهر ذلك لمن راجع كتب مناقب المشهورين على طريقة المتقدمين فانهم كانوا يفيضون في كل شيء لا على طريقة المتأخرين الذين يطوون كل شيء لا يوافق مأربهم الخاص ظنًا منهم انهم بذلك يحسنون صنعًا وكثيرًا ما يذكرون منقبة وهي في الباطن مثلبة وربما كانت موضوعة

ما يبلغ العاقل من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

هذا ماقاله ننقله بلفظه ومعناه من لسان ذاك الامام الكبير وقد قال المرتضى (١) واماما أجمعوا عليه فقد اجمعت المعتزلة على ان للعالم محدثًا قديمًا قادرًا عالمًا حيًا لا لمعان ليس بجسم ولاعرض ولاجوهر عينًا واحدًا لايدرك بحاسة عدلاً حكيمًا لا يفعل القبيح ولا يريده كلف تعريضًا للثواب ومكن من الفعل وازاح العلة ولا بد من الجزاء وعلى وجوب البعثة حيث حسنت ولا بد للرسول صلى الله عليه وآله من شرع جديد او احياء مندرس او فائدة لم تحصل من غيره وان آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وان الايمان قول ومعرفة وعمل وان المؤمن من اهل الجنة وعلى المنزلة بين المنزلتين وهو ان الفاسق لا يسمى مؤمنًا ولا كافرًا الا من يقول بالارجاء فانه يخالف في تفسير الايمان وفي المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمنًا واجمعوا على ان فعل العبد غير مخلوق فيه واجمعوا على تولي الصحابة واختلفوا في عثمان بعد الاحداث التي احدثها فاكثرهم تولاه وتأول له واكثرهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص واجمعوا على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي تعداد علمائهم مصنفات عدة كالمصابيح لابن يزداذ وغيره اه . هذا ماقاله واحد منهم في حقيقة ما اجمعوا عليه .

واليك ما قاله الشهرستاني صاحب الملل والنحل وهو ليس منهم قال : والمعتزلة ويسمون اصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركًا وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازًا عن وصمة اللقب اذ كان الذم به متفقًا عليه لقول النبي عليه السلام القدرية مجوس هذه الامة وكانت الصفاتية تعارضهم بالاتفاق على ان الجبرية والقدرية متقابلتان تقابل تضاد فكيف يطلق لفظ الضد على الضد وقد قال النبي عليه السلام القدرية خصماء الله في القدر والخصومة في القدر وانقسام الخير والشر على فعل الله وفعل العبد لن يتصور على مذهب من يقول بالتسليم

(١) راجع رسالة المعتزلة التي نقلها الاستاذ توما ارنلد Prof. T. W. Arnold المستشرق الانكليزي من كتاب المنية والامل في شرح كتاب الملل والنحل لاحمد بن يحيى بن المرتضى وطبعها في مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن سنة ١٣١٦ ه ففيها تراجم مختصرة لائمة المعتزلة وذكر طبقاتهم على ابسط وجه .

والتوكل واحالة الاحوال كلها على القدر المحتوم والحكم المحكوم فالذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بان الله تعالى قديم والقدم اخص وصف لذاته ونفوا الصفات القديمة اصلا فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته لا بعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به لانه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو اخص الوصف لشاركته في الالهية واتفقوا على ان كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب امثاله في المصاحف حكايات عنه فانما وجد في المحل عرض فقد فني في الحال واتفقوا على ان الارادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته لكن اختلفوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالابصار في دار القرار ونفي التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكانًا وصورة وجسما وتحيزًا وانتقالاً وزوالاً وتغيرًا وتأثرًا واوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيدًا واتفقوا على ان العبد قادر خالق لافعاله خيرها وشرها مستحق مايفعله ثوابًا وعقابًا في الدار الآخرة والرب تعالى منزه ان يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لانه لو خلق الظلم كان ظالمًا كما لو خلق العدل كان عادلاً واتفقوا على ان الحكيم لا يفعل الا الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد واما الاصلح واللطف ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلاً واتفقوا على ان المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل معنى آخر وراء الثواب واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه اخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط وعدًا ووعيدًا واتفقوا على ان اصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك وورود التكاليف الطاف للباري تعالى ارسلها الى العباد بتوسط الانبياء عليهم السلام امتحانًا واختبارًا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة واختلفوا في الامامة والقول فيها نصًا واختيارًا .

وهنا ذكر الشهرستاني مقالة كل طائفة من طوائف المعتزلة مثل « الواصلية » اصحاب ابي حذيفة واصل بن عطاء الغزال و « الهذيلية » اصحاب ابي الهذيل حمدان بن ابي الهذيل العلاف و « النظامية » اصحاب ابراهيم بن سيار بن هاني النظام و « الحائطية » اصحاب احمد ابن حائط و « الحدثية » اصحاب فضل بن الحدثي و « البشرية » اصحاب بشر بن المعتمر و « المعمرية » اصحاب معمر بن عباد السلمي و « المزداربة » اصحاب عيسى بن صبيح المكنى بابي موسى الملقب بالمزدار و « الثمامية » اصحاب ثمامة بن اشرس النميري و « الهشامية » اصحاب هشام بن عمرو الفوطي و « الجاحظية » اصحاب عمرو بن بحر الجاحظ و « الخياطية » اصحاب

ابي الحسين بن ابي عمرو الخياط و « الجبائية والبهشمية » اصحاب ابي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي وابنه ابي هاشم عبدالسلام ·

ومن رجال المعتزلة الحسنان عليهما السلام ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وابو الاسود الدؤلي وعلقمة والاسود وشريح من اصحاب عبدالله بن مسعود والحسن البصري وعبدالله بن عمر وابوالدرداء وابوذر الغفاري وعبدالله بن عباس وغيلان بن مسلم الدمشقي قتله هشام بن عبدالملك وقتل صاحبه صالحاً في ابشع صورة لانه انكر على بني أمية سوء سياستهم في الرعية وواصل بن عطاء وهو الذي انفذ اصحابه الى الآفاق وبث دعاته في البلاد فبعث عبدالله بن الحارث الى المغرب فاجابه خلق كثير وبعث الى خراسان حفص بن سالم وبعث القاسم الى اليمن وبعث ايوب الى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وعثمان الطويل الى ارمينية · ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسي يبالغ في تعظيمه ورثاه وقلما عهد ان الخليفة رثى رعية بقوله

صلى الاله عليك من متوسد قبراً مررت به على مرّان
قبر تضمن مؤمناً متخشعاً عبد الاله ودان بالقرآن
واذا الرجال تنازعوا في شبهة فصل الحديث بحجة وبيان
ولو ان هذا الدهر ابقى صالحاً ابقى لنا عمراً ابا عثمان

ومنهم ابوالهذيل العلاف الذي قال فيه المأمون اطلّ ابوالهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الانام · ومنهم ابراهيم النظام وهو الذي يقول فيه الجاحظ · الاوائل يقولون في كل الف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحاق النظام وبشر بن المعتمر الهلالي وابوعمرو بن بحر الجاحظ وعبدالرحمن بن كيسان الاصم واحمد بن ابي دؤاد وثمامة بن الاشرس ومنهم الجعفران اللذان يضرب المثل بعلمهما وزهدهما كما يضرب المثل في حسن السيرة بالعمرين وهما ابومحمد جعفر بن مبشر الثقفي وابوالفضل جعفر بن حرب ومنهم ابوجعفر الاسكافي وابوعبدالله الدباغ وابوعلي الجبائي ومنهم ابوالعباس الناشيء ومحمد بن عمر الصيمري والسيرافيان ابوالقاسم وابوعمران وقاضي القضاة عبدالجبار الهمداني ومنهم الصاحب بن عباد والقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني والجوهري صاحب الصحاح والشريف المرتضى وابو بكر الرازي وابو بكر الدينوري

ومما يؤثر من اخلاق ائمة المعتزلة وورعهم ما قاله الواثق لاحمد بن ابي دؤاد لم لا تولي اصحابي (اي المعتزلة) القضاء كما تولي غيرهم فقال ياامير المؤمنين ان اصحابك يتمنعون من ذلك وهذا جعفر بن مبشر وجهت اليه بعشرة آلاف درهم فابى ان يقبلها فذهبت اليه

بنفسي واستأذنت فأبى ان يأذن لي فدخلت من غير اذن فسلّ سيفه في وجهي وقال الآن حلّ لي قتلك فانصرفت عنه فكيف أولي القضاء مثله . وروي ان احد ائمتهم جعفر بن مبشر اضرت به الحاجة حتى كان يقبل القليل من زكاة اخوانه لحضره يوماً بعض التجار فتكلم بحضرته في خطبة نكاح فاعجب به ذلك التاجر فسأل عنه فاخبر بمسكنته فبعث اليه بخمسمائة دينار فردها فقيل له قد عذرناك في رد مال السلطان للشبهة وهذا تاجر ماله من كسبه فلا وجه لردك فقال جعفر انه استحسن كلامي افترائي ان آخذ على دعائي الى الله تعالى وموعظتي ثمناً لولم اكن فعلت هذا ثم ابتدأني لقبلت . وروي ان بعض السلاطين وصله بعشرة آلاف درهم فلم يقبل وحمل اليه بعض اصحابه بدرهمين من الزكاة فقبل فقيل له في ذلك فقال : ارباب العشرة احق بهامني واناا حق بهذين الدرهمين لحاجتي اليهما وقد ساقهما الله الي من غير مسألة واغناني بهما عن الشبهة والحرام .

وفي طبقات السبكي : قال ابن الصلاح هذا الماوردي عفاالله عنه يتهم بالاعتزال وقد كنت لا اتحقق ذلك عليه واتأول له واعتذر عنه في كونه يورد في تفسيره في الآيات التي يختلف فيها اهل التفسير تفسير اهل السنة وتفسير المعتزلة غير متعرض لبيان ماهو الحق منهما واقول لعل قصده ايراد كل ما قيل من حق اوباطل ولهذا يورد من اقوال المشبهة اشياء مثل هذا الايراد حتى وجدته يختار في بعض المواضع قول المعتزلة ومابنوه على اصولهم الفاسدة ومن ذلك مصيره في الاعتراف الى ان الله لايشاء عبادة الاوثان قال في قوله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن وجهان في جعلنا احدهما معناه حكمنا بانهم اعداء والثاني تركناهم على العداوة فلم نمنعهم منها وتفسيره عظيم الضرر لكونه مشحوناً بتأويلات اهل الباطل تلبيساً وتدليساً على وجه لا يفطن له غير اهل العلم والتحقيق مع انه تأليف رجل لايتظاهر بالانتساب الى المعتزلة بل يجتهد في كتمان موافقتهم فيما هولهم فيه موافق ثم هوليس معتزلياً مطلقاً فانه لايوافقهم في جميع اصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وغير ذلك ويوافقهم في القدر وهي البلية التي غلبت على البصريين وعيبوا بها قديماً انتهى .

هذا ماسمح به الوقت الآن من الكلام على هذه الفرقة وعسانا نوفق الى درس كتبهم وما قيل فيهم فنعود الى موضوعهم باجلى بيان واوسع برهان .

اكرام الشعراء

ما ندري متى نشأت في العرب الاجازة على الشعر في المديح . والغالب ان هذه القاعدة قديمة في امرائهم و رؤسائهم قبل الاسلام ولما جاء كعب بن زهير الى الرسول عليه السلام وانشد بين يديه قصيدته المشهورة خلع عليه خلعة سنية . حتى اذا كان عهد الحضارة اخذ بعض الكبراء يغالون في عطاء الشعراء لما وقر في نفوسهم من تأثير اقوالهم في الناس . والشعراء يقولون كلما زدتمونا عطاء زدناكم مديحًا وثناء . حتى اصبح الشعراء على عهد بعض الخلفاء والملوك والامراء اشبه بجماعة من ولاة الامر وقوام الدولة تطلق لهم الجرايات والمشاهرات ويأخذون الجوائز والاعطيات ويرجع اليهم في المهمات ويثيرون النفوس في الملمات . وكم من ملك لولا اماديح شعرائه لكان خامل الذكر لا نسمع به الا في الندر وكم من شاعر شرّف ممدوحه بما صاغ له من عقود الثناء .

الا ان الشعراء في هذه الامة قد ابتذلوا في العصور المتأخرة شعرهم حتى اصبحت تستنكف من سماعه . والامة اذا ضعفت سياستها يضعف فيها كل شيء على نسبته فكيف يتأتى للشعراء ان يضعوا اماديحهم في محلها ومحيطهم كما رأيت من الانحطاط . نعم ضعفت ملكة الشعر وقلت قيمته بقلة اقدار الامراء وشعرائهم حتى اصبح الشعراء والحال لم يزل لها بقية في بعض البلاد اشبه بشحاذين يستوكفون الاكف بما ينظمون و يضعون من المعاني والالفاظ ما يعد غلوًا لو أطلق على اعظم رجل في الارض فما الحال بممدوحيهم ولو انصفوهم لهجوهم بدل ان يمدحوهم . نعم هزلت حالة الشعر واشمأزت نفوس المتأدبين الحقيقيين من الاماديح فاصبحوا لا يجوزون المديح حتى على من يستحقونه وعدوه من سخف القول وهجره .

ولقد رأينا الشعراء في القرن الرابع والخامس والسادس مثلاً يصونون الشعر عن الابتذال فكانت له قيمة عند الناس ولا سيما عند من يرجون نوالهم فكنت ترى ابا الطيب المتنبي لا يجوّز ان يمدح غير ارباب الدولة والزعامة وقلّ ان قال شيئًا يذكر فيمن دونهم مع انه طالما أريد على ذلك . وان رجلاً استنكف بداءة بدء ان يمدح الصاحب بن عباد وهو في الفضل ما هو لجدير بان يوقر شعره والقول يشرف بشرف قائله والمقول فيه . ولو ابتذل المتنبي شعره في عصره ومدح به كل من يعطيه لما كان له هذا الرونق والطلاوة ولما اجزل الامراء له العطاء على ما رأينا في سيرته . فقد رأينا اباشجاع فاتكاً يبعث اليه بألف دينار عند ما هبط مصر بعد ان فارق سيف الدولة بن حمدان فلم يسعه الا مدحه . واتصل بكافور ملك مصر فاعطاه ومدحه ثم لما اراده على ان يوليه ولاية صيدا وكان كافور " وعده بولاية بعض

اعماله فلما رأى تعاليه في شعره وسموه بنفسه خافه وعوتب فيه فقال : ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم اما يدعي المملكة مع كافور فحسبكم» هجاه اقبح هجو لمالم يرضه ورحل عن مصر فبعث على اثره من يقبض عليه ولكنه كان خلص الى بلاد أخرى . وهكذا لو استقريت احوال الشعراء في تلك العصور لوجدت شعرهم يعلو على حسب اقدار من يمدحونهم من معاصريهم من الملوك وكلما اقترب الشاعر من كبير كبر كما قيل جاور السعيد تسعد . ومن اعظم الشعراء الذين اشتهروا وصار لشعرهم موقع لقربهم من الكبراء واخذهم الجوائز على قصائدهم عمارة اليمني من اهل القرن السادس . هذا الرجل كان كالمتنبي غريباً في اطواره . كان كما قال عن نفسه (١) من قحطان ثم الحكم بن سعد العشيرة المذحجي من مدينة في تهامة في اليمن يقال لها مرطان من وادي وساع وبُعدها من مكة في مهب الجنوب احد عشر يوماً وكان اهلها بقية العرب في تهامة لانهم لا يساكنهم حضري ولا يناكحونه ولا يجيزون شهادته ولا يرضون بقتله قوداً باحد منهم ولذلك سلمت لغتهم من الفساد واذ كان من اهل بيت مجد وعلم انتدبه صاحب الحرمين الى السفارة عنه والرسالة منه الى الدولة المصرية فقدمها في شهر ربيع الاول سنة خمسين وخمسمائة والخليفة بها يومئذ الامام الفائز بن الظافر الفاطمي والوزير له الملك الصالح طلائع بن رُزّيك فلما أُحضر للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخليفة انشدهما قصيدة اولها .

الحمد للعيس بعد العزم والهمم	حمداً يقوم بما اولت من النعم
لا اجحد الحق عندي للركاب يدٌ	تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قرّبن بُعد مزار العزّ من نظري	حتى رأيت امام العصر عن أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم	وفداً الى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت اني بعد فرقته	ما سرت من حرم الاّ الى حرم
حيث الخلافة مضروب سُرادقها	بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللامامة انوار مقدسة	يجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا	على الخفيين من حُكم ومن حِكم
وللمكارم اعلام تعلمنا	مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلى ألسن تثني محامدها	على الحميدين من فعل ومن شيم

(١) راجع كتاب النكت العصرية في اخبار الوزراء المصرية وديوانه الذي طبعه المستشرق هارتويغ دارنبرغ في مدينة شالون على نهر سون من اعمال فرنسا سنة ١٨٩٧ وهو من مطبوعات مدرسة اللغات الشرقية الحية

ورابة الشرف البذّاخ ترمقها   يد الرفيعين من مجد ومن همم

الى آخرما مدح به الخليفة ووزيره فافيضت عليه الخلع المذهبة واعطي خمسمائة دينار من مال الخليفة وأُخرج له مثلها من عند السيدة الشريفة بنت الامام الحافظ وأُطلقت له من دار الضيافة رسوم لم تطلق لاحد من قبله وتهاداه امراء الدولة الى منازلهم للولائم وانثالت عليه صلات الخليفة فمن بعده من الوزراء وكبار عماله وقضى في مصر تسع عشرة سنة والدولة الفاطمية في اواخر ايامها تضعف وتقوى وتسفل وتعلو وكلما مدح كبيرًا نال جزيلاً وجميع شعره وفيه المعاني الجيدة المصوَّرة احسن تصوير يدور على غرض مديح الكبراء واغراض من السياسة تقتضيها حال من يدخل في غمارها ·

جاء عمارة سفيرًا الى ملك مصر فطاب له المقام فيها واوسعه ارباب السلطان برًّا لا على انه شاعر يطلب الجوائز بل على انه سياسي له ضلع في احوال اليمن والحجاز وقد كان الفاطميون على عهده يملكون الحجاز وتطمح نفوسهم الى امتلاك اليمن فحريٌّ بمن كان مثل عمارة ان يؤمل منه ان يسهل لهم اسباب فتحها ولذلك انهالت عليه الصلات اي انهيال وعاش عيشة امير لا عيشة شاعر · ذكر ذلك في كتاب النكت العصرية وكثيرًا ما يذكر مقدار ما تجود به عليه ايدي الامراء من الارزاق والاموال حتى صار اذا تأَخروا عنه حفزهم بنابل من شعره فيعودون الى ما عودوه عليه · قال عمارة في مدح شاور وزير الفاطميين ·

حمي الوطيس فخاضه بعزائم   علمن حسن الصبر من لم يصبر
ضجر الحديد من الحديد وشاورٌ   في نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأْتين بمثله   حنثت يمينك يازمان فكفر
يافاتحًا شرق البلاد وغربها   يُهنئك انك وارث الاسكندر

قال وكانت هذه الابيات من احد الاسباب التي قوت عزمي على الاستعفاء من عمل الشعر لان الناس فيما تقدم كانوا يغنون الشعراء بما ليس فوقها في الجودة الى ان يقول: ورأَيته (شاور) يومًا وقد انشرح صدره فقلت له ان لي مدة تنازعني النفس في الحديث معك في حاجة وقد عزمت ان اقولها لك فان قضيتها والا كنت قد ابليت عن نفسي عذرًا قال : وما هي· قلت : تعفيني من عمل الشعر وتنقل الجاري على الخدمة راتبًا على حكم الضيافة فاني ارى التكسب بالشعر والتظاهر به نقيصة في حقي قال : ما منعك ان تستعفي في ايام الصالح وابنه قلت : كانت لي اسوة وسلوة بالشيخ الجليس ابن الحباب وبابني الزبير الرشيد والمهذب وقد انقرض الجيل والنظراء قال : تعفى ثم امر بانشاء سجل باعفائي واخذ عليه خط الخليفة وخطه بذلك·

و بهذا عرفت ان اخلاق عمارة كانت لاول امرها تأبى الدخول في زمرة الشعراء والارتزاق من طريق الشعر ولكن عاد يتناول الجوائز من الخليفة فمن دونه من ارباب الدولة الا انه لم يكن في اخلاقه كالشعراء في العادة بل كان كثيرًا ما ينصح للعظماء من الفواطم ولا يخاف بأسهم وسطوتهم قال : ولما عاد (شاور) من حصار الاسكندرية اكثر من سفك الدماء بغير حق وكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ثم تسحب القتلى الى خارج الدار فسألني الجماعة ان اعمل قصيدة في هذا المعنى فقلت :

الا ان حد السيف لم يبق خاطرًا ... من الناس الا حائرًا يتردد
ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلح ... على نفسه اضعاف ما خاف مفسد
فأغمد شفار المشرفي وعد بنا ... الى عادة الاحسان وهي التغمد
فان بروق الماضيات وصوتها ... رواعد منهن الفرائص ترعد
وان صليل السيف الحش نغمة ... تظل تغني في الطلى وتغرد
تجاوز والا فالمقطم خيفةً ... يذوب وماء النيل لا شك يجمد

ومع ما كان يقرع به رجال الفاطميين ويخوفهم من ارتكاب الظلم كانوا يرتاحون اليه هذا وهو سني ح وهم شيعة محض حتى اراده بعض أمرائهم وهو الصالح بن رزيك ان يعود متشيعًا و يأخذ منه ثلاثة آلاف دينار فابى ٠

ولطالما كانوا يطلقون له الرواتب ويخلعون عليه الخلع و يرسلون اليه باردبات من الحنطة والشعير وابلايج من السكر ودكاكيج كبار من الزيت الطيب وخرفان رضع سمان وله قصائد ومقطوعات يصح ان تدرج في باب الشعر الاجتماعي لما فيها من المعاني الغريبة فما قاله في مدح شمس الدولة ٠

العلم مذ كان محتاج الى العلم ... وشفرة السيف تستغني عن القلم
وخير خليك ان صاحبت في شرف ... عزم يفرق بين الساق والقدم
ان المعالي عروس غير واقعة ... ان لم تخلق رداءيها برشح دم
ترى مسامع فخر الدين تسمع ما ... املاه خاطر افكاري على قلمي
فان اصبت فلي حظ المصيب وان ... اخطأت قصدك فاعذرني ولا تلم

ومنها

لا يدرك المجد الا كل مقتحم ... في موج ملتطم او فوج مضطرم
لا ينقض الخطرة الاولى بثانية ... ولا يفكر في العقبى من الندم
كأنما السيف افتاه وقال له ... في فتح مكة حل القتل في الحرم
ولم يراعوا لعثمانٍ ولا عمرٍ ... ولا الحسين ذمام الاشهر الحرم

فما تروم سوى فتح صوارمه | يضحكن في كل يوم عابس البهم
حتى كأن لسان السيف في يده | يروي الشريعة عن عاد وعن ارم
هذا المحدَّث عنه في ثيابك يا | شمس الهدى والعلى يصغي الى كلمي
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته | كما يقول الورى لحمًا على وضم
وقد ترامى الى ان امسكت يده | من الكواكب بالانفاس والكظم
وكان اول هذا الدين من رجل | سعى الى ان دعوه سيد الامم
والغيث فهو كما قد قيل اوله | قطر ومنه خراب السد بالعرم
والبدر يبدو هلالا ثم يكشف با | لانوار ماسترته شملة الظلم
نموقوى الشيء بالتدريج ان رزقت | حظًا ويقوى شرار الزند بالضرم
حاسب ضميرك عن رأيي اتاك وقل | نصيحة وردت من غير متهم

وقال من قصيدة

هل القلب الا بضعة يتقلب | له خاطر يرضى مرارًا و يغضب
ام النفس الا وهدة مطمئنة | تفيض شعاب الهم منها وتنضب
فلا تلزمن الناس غير طباعهم | فتتعب من طول العتاب ويتعبوا
فانك ان كشفتهم ربما انجلى | رمادهم عن جمرة تتلهب
فتاركهم ما تاركوك فانهم | الى الشر مذ كانوا من الخير اقرب
ولا تغترر منهم بحسن بشاشة | فاكثر ايماض البوارق خلب
واصغ الى ما قلته تنتفع به | ولا تطرح نصحي فاني مجرب
فما تنكر الايام معرفتي بها | ولا انني ادرى بهن وادرب
واني لاقوام جذيل محكك | واني لاقوام عذيق مرجب
عليم بما يرضي المروءة والتقى | خبير بما آتي وما اتجنب
حلبت افاويق الزمان براحة | تدر بها اخلافه حين تحلب
وصاحبت هذا الدهر حتى لقد غدت | عجائبه من خبرتي تتعجب
ودوخت اقطار البلاد كأنني | الى الريح أعزى او الى الخضر أنسب
وعاشرت اقوامًا يزيدون كثرة | على الالف او عد الحصا حين يحسب
فما راقني في ارضهم قط مرتع | ولا شاقني في وردهم قط مشرب
تراني واياهم فريقين كلنا | بما عنده من عزة النفس معجب
فعندهم دنيا وعندي فضيلة | ولا شك ان الفضل اعلى واغلب

على ان ما عندي يدوم بقاؤه — عليَّ ويفنى المال عنهم ويذهب
اناس مضى صدرٌ من العمر عندهم — أُصعد ظني فيهم واصوب
رجوت بهم نيل الغنى فوجدته — كما قيل في الامثال عنقاءُ مغرب
وكسّل عزم المدح بعد نشاطه — ندى ذمه عندي من المدح اوجب
كأن القوافي حين تدعى لشكرهم — على الجمر تمشي او على الشوك تسحب
افوه بحق كلما رمت ذمهم — وما غير قول الحق لي قط مذهب
واصدق الا ان اريد مديحهم — فاني على حكم الضرورة اكذب
ولو علموا صدق المدائح فيهم — لكانت مساعيهم تهش وتطرب

ولهُ في الوصف اشعار منها قصيدة يذكر فيها حريق منظرة بدر بن رزّيك على الخليج ويذكر داره الاخرى وما فيها من الستور وتصاويرها ومقاطعها قال فيها :

لم تحترق دار الخليج وانما — شبت لمن يسري بها نار القرى
طلبت يفاع الارض دون وهادها — فتوقدت في رأس شامخة الذرى
او هل تزور النار ساحة جنة — اجريت فيها من نداك الكوثرا
انشأت فيها للعيون بدائعاً — زُفت فاذهل حسنها من ابصرا
فمن الرخام مسيّرًا ومسهماً — ومنمنماً ومدرهماً ومدنرا
والعاج بين الآبنوس كأنه — ارض من الكافور تنبت عنبرا
قد كان منظرها بهيًا رائقًا — فجعلتها بالوشي ابهى منظرا
وكذاك جيد الظبي يحسن عاطلاً — ويروقك البيت الحرام مسترا
البستها بيض الستور وحمرها — فاتت كزهر الورد ابيض احمرا
فمجالس كسيت رقماً ابيضاً — ومجالس كسيت طمياً اصفرا
لم يبق نوع صامت او ناطق — الا غدا فيها الجميع مصوّرا
فيها حدائق لم تجدها ديمة — ابدًا ولا نبتت على وجه الثرى
والطير مذ وقعت على اغصانها — وثمارها لم تستطع ان تنفرا
لا تعدم الابصار بين مروجها — ليثًا ولا ظبياً بوجرة اعفرا
أنست نوافر وحشها بسباعها — فظباؤها لا تتقي اسد الشرى
وبها زرافات كأن رقابها — في الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبية المنشى تريك من المها — روقًا ومن بزل المهارى مشفرا
جبلت على الاقعاء من اعجابها — فتخالها للتيه تمشي القهقرا

دارت الايام دورتها وكتب لصلاح الدين يوسف ان يقلب الدولة الفاطمية ويديل منها الامر للعباسية فاصبح شاعرنا هذا بعد ان كانت عطايا الفاطميين تغدق عليه اغداقًا مقترًا عليه في الرزق يسأل فلا يجاب ويهز الاكف فلا تندى ويعرض حاله ويعرّض بنواله فلا يؤبه له وبقي اشهرًا على هذه الحال وقد انقطعت عنه النعم السالفة فلم يجد له في اهل الحل والعقد في مصر من يعوضه عن بعض ما كان يتناوله فصار الى الحور بعد الكور ونعوذ بالله من زوال النعم . فكتب الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف قصيدة لم ينشدها وقد ترجمها بشكاية المتظلم ونكاية المتألم وهي تعرب عما لقي من الالاقي والشدائد قال :

ايا أذن الايام ان قلت فاسمعي ... لنفثة مصدور وأنة موجع
وعي كل صوت تسمعين نداءه ... فلا خير في أذن تنادى فلا تعي
تقاصر بي خطب الزمان وباعه ... فقصر عن ذرعي وقصر اذرعي
واخرجني من موضع كنت اهله ... وانزلني بالجود في غير موضعي
بسيف ابن مهديّ وابناء فاتك ... اقض من الاوطان جنبي ومضجعي
فيممت مصرًا اطلب الجاه والغنى ... فنلتهما في ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل اذ زاد نيلهم ... فاحمد مرتادي واخصب مرتعي
وفزت بالف من عطية فائز ... مواهبه للصنع لا للتصنع
وكم طرقتني من يد عاضدية ... سرت بين يقظى من عيون وهجع
وجاد ابن رزّيك من الجاه والغنى ... بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي
واوحى الى سمعي ودائع شعره ... لخبرته مني باكرم مودع
وليست ايادي شاور بذميمة ... ولا عهدها عندي بعهد مضيع
ملوك رعوا لي حرمة صار نبتها ... هشيماً رعته النائبات وما رُعي
وردت بهم شمس العطايا لوفدهم ... كما قال قوم في علي وتوسع
مذاهبهم في الجود مذهب سنة ... وان خالفوني في اعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه ... من الحكم المصغي اليّ فادعي
سكت فقالت ناطقات ضرورتي ... اذا حلقات الباب علقن فاقرعي
فادللت ادلال المحب وقلت ما ... أبالي بعفو الطبع لا بالتطبع
وعندي من الآداب ما لو شرحته ... تيقنت اني قدوة ابن المقفع
اقمت لكم ضيفًا ثلاثة اشهر ... اقول لصدري كلما ضاق وسع
اعلل غلماني وخيلي ونسوتي ... بما صغت من عذر ضعيف مرقع

ونوابكم للوفد في كل بلدة ... تفرق شمل النائل المتوزع
وكم من ضيوف الباب ممن لسانه ... اذا قطعوه لا يقوم باصبع
مشارع من نعمائكم زرتها وقد ... تكرر بالاسكندرية مشرعي
وضايقني اهل الديون فلم يكن ... سوى بابكم منه ملاذي ومفزعي
فياراعي الاسلام كيف تركتها ... فريقي ضياع من عرايا وجوّع
دعوناك من قرب وبُعد فهب لنا ... جوابك فالباري يجيب اذا دعي
الى الله اشكو من ليالي ضرورة ... رجعنا بها نحو الجناب المرجع
قنعنا ولم نسألك صبرًا وعفةً ... الى ان عدمنا بلغة المتقنع
ولما اغص الريق مجرى حلوقنا ... اتيناك نشكو غصة المتوجع
فان كنت ترعى الناس للفقه وحده ... فمنه طرازي بل لثامي وبرقعي
ألم ترعني للشافعي وانتم ... اجلُّ شفيع عند اعلى مشفع
ونصري له في حيث لا انت ناصر ... بضرب صقيلات ولا طعن شرع
ليالي لا فقه العراق بسجسج ... بمصر ولا ريح الشآم بزعزع
كأني بها من اهل فرعون مؤمن ... أصارع عن ديني وان حان مصرعي
امن حسنات الدهر ام سيئاته ... رضاك عن الدنيا بما فعلت معي
ملكت عنان النصر ثم خذلتني ... وحالي بمرأى من علاك ومسمع
فحالك لم توسع عليّ وتلتفت ... اليّ التفات المنعم المتبرع
فاما لاني لست دون معاشر ... فتحت لهم باب العطاء الموسع
واما لما اوضحته من زعازع ... عصفن على ديني ولم اتزعزع
وردي الوف المال لم التفت لها ... بعيني ولم احفل ولم اتطلع
واما لفن واحد من معارفي ... هو النظم الا انه نظم مبدع
فان سمتني نظماً ظفرت بمفلق ... وان سمتني نثرًا ظفرت بمصقع
طباع وفي المطبوع من خطراته ... غنى عن افانين الكلام المصنع
سألتك في دين لياليك سقنه ... وألزمتنيه كارهاً غير طيع
وهاجرت ارجومنك اطلاق راتب ... تقرر من ازمان كسرى وتبع
وليتك فيمن اطلق الشرق مطلعي ... لتعلم نبعي ان عجمت وخروعي
وما انا الا قائم السيف لم يعن ... بكف ودر لم يجد من مرصع
وياقوتة في سلك عقد مداره ... على خرزات من عقيق مجزع

وكم مات نضناض اللسان من الظما — وكم شرقت بالماء اشداق الكع
فيا واصل الارزاق كيف تركتني — امد الى نيل المنى كف اقطع
اعندك اني كلما عطس امرؤ — بذي شمم انفى عطست باجدع
ظلامة مصدوع الفؤاد فهل له — سبيل الى جبر الفؤاد المصدع
واقسم لو قالت ليانيك للدجى — اعد غارب الجوزاء قال لها اطلعي
غدا الامر في ايصال رزقي وقطعه — بحكمك فابذل كيف ماشئت وامنع
كذلك اقدار الرجال وان غدت — بحكمك فاحفظ كيف شئت وضيع
فيازارع الاسلام في كل تربة — ظفرت بارض تنبت الشكر فازرع
فعندي اذا ماالعرف ضاع غريبه — ثناء كعرف المسكة المتضوع
وقد صدرت في طي ذاالنظم رقعة — غدا طمعي فيها الى خير مطمعي
أريد بها اطلاق ديني وراتبي — فأطلقهما والامر منك ووقع
وبيني وبين الجاه والعز والغنى — وقائع اخشاها اذا لم توقع
وما هي الا مـدة نستمـدها — وقد نجت الارزاق من كل منبع
الى هاهنا انهي حديثي وانتهي — وما شئت في حتي من الخير فاصنع
فانك اهل الجود والبر والتقى — ووضع الايادي البيض في كل موضع

هذا ما قاله عمارة لما ضاقت عليه الدنيا والغالب انه في تلك الحال نظم قصيدته المشهورة يرثي بها الفاطميين ويعرض بصلاح الدين التي يقول في مطلعها (المقتبس — ٢ : ٦٤٧)

رميت يادهر كف المجد بالشلل — وجيده بعد حلي الحسن بالعطل

وفي ذاك الحين اخذ يدبر مكيدة على صلاح الدين يريد وجماعة من رجال الفاطميين الوثوب به واتفق رأيهم كما قال ابن الاثير على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا البلاد فان خرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر واعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الافرنج وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا به واخذوه اخذًا باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة : وانا قد ابعدت اخاه الى اليمن خوفًا ان يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وارسلوا الى الفرنج وصقلية والساحل في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الفرنج وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين ادخلوا معهم زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي المعروف بابن بجية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة الا ان بني رزيك قالوا يكون الوزير

منا و بني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا . فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين واعلمه حقيقة الامر فامره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون يفعلونه وتعريفه ما يتجدد اولاً باول ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه ثم وصل رسول ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر اليه والباطن الى اولئك الجماعة وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فاتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول من يثق به من النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذٍ على المقدمين في هذه الحادثة ومنهم عمارة .

وذكر صاحب الكامل انه كان بين عمارة والقاضي الفاضل عداوة من ايام العاضد وقبلها فلما اراد صلاح الدين صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في اطلاقه وظن عمارة انه يحرضه على هلاكه فقال لصلاح الدين : يامولانا لا تسمع منه في حقي فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة : انه كان يشفع فيك فندم ثم أخرج عمارة ليصلب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فاغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب ان الخلاص هو العجب

الدرة اليتيمة

لابن المقفع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبينا محمد وآله الطاهرين . قال عبدالله بن المقفع وجدنا الناس قبلنا كانوا اعظمَ اجسادًا واوفرَ مع اجسادهم احلامًا واشدَّ قوة واحسنَ بقوتهم للامور اتقانًا واطولَ اعمارًا وافضلَ باعمارهم للاشياء اختبارًا فكان صاحبُ الدين منهم ابلغ في امر الدين علمًا وعملاً من صاحب الدين منا وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل لانفسهم حتى اشركونا معهم فيما ادركوا من علم الاولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية وكفونا به مؤونةَ التجارب والفطن وبلغ من اهتمامهم بذلك أنَّ الرجل منهم كان يُفتح له البابُ من العلم والكلمةُ من الصواب وهو بالبلد غيرِ المأهول فيكتبه على الصخور مبادرةً منه للاجل وكراهيةً لان

يسقط ذلك على من بعده (١) فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده الرحيم بهم الذي يجمع لهم الاموال والعقد (٢) ارادة ان لا تكون عليهم مؤونة في الطلب وخشية عجزهم إن هم طلبوا فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان ان يأخذ من علمهم وغاية احسان محسننا ان يقتدي بسيرتهم واحسن ما يصيب من الحديث محدثنا ان ينظر في كتبهم فيكون كأنه اياهم يحاور ومنهم يستمع غير ان الذي نجد في كتبهم هو المنتخل في آرائهم (٣) والمنتقى من احاديثهم ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه اليه لا في تعظيم لله عز وجل وترغيب فيما عنده ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها ولا في تحرير صنوف العلم وتقسيم اقسامها وتجزئة اجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذها ولا في وجوه الادب وضروب الاخلاق فلم يبق في جليل من الامر لقائل بعدهم مقال وقد بقيت اشياء من لطائف الامور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حكم الاولين وقولهم. ومن ذلك بعض ما انا كاتب في كتابي هذا من ابواب الادب التي يحتاج اليها الناس

ياطالب الادب اعرف الاصول والفصول فان كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع اضاعة الاصول فلا يكون دركهم دركاً ومن احرز الاصول اكتفى بها عن الفصول وان اصاب الفصل بعد احراز الاصل فهو افضل

فاصل الامر في الدين ان تعتقد الايمان على الصواب وتجتنب الكبائر وتؤدي الفريضة فالزم ذلك لزوم من لا غناء به عنه طرفة عين ومن يعلم أنه ان حرمه هلك ثم ان قدرت ان تجاوز ذلك الى التفقه في الدين والعبادة فهو افضل واكمل

واصل الامر في اصلاح الجسد ألاَّ تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه الا خفافاً وان قدرت على ان تعلم جميع منافع الجسد ومضارّه والانتفاع بذلك فهو افضل

واصل الامر في البأس ألاَّ تحدث نفسك بالإدبار واصحابك مقبلون على عدوهم ثم ان قدرت ان تكون اول حامل وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو افضل

واصل الامر في الجود ألاَّ تضن بالحقوق عن اهلها ثم ان قدرت ان تزيد ذا الحق على حقه وتطول على من لا حق له فافعل فهو افضل

واصل الامر في الكلام ان تسلم من السقط بالتحفظ (٤) ثم ان قدرت على بارع الصواب فهو افضل

---

(١) اي يضيع عليه (٢) العقد جمع عقدة وهي العقار ونحوه يقال اعتقد فلان عقدة اذا اشترى ضيعة او اتخذ مالاً من عقار وغيره (٣) المنتخل المختار (٤) السقط بفتحتين الخطأ من القول والفعل ورديء المتاع

واصل الامر في المعيشة ان لا تني عن طلب الحلال وان تحسن التقدير لما تفيد وما تنفق ولا يغرّنك من ذلك سعة تكون فيها فان اعظم الناس في الدنيا خطرًا احوجهم الى التقدير والملوك احوج الى التقدير من السوقة لان السوقة قد يعيش بغير مال والملوك لا قوام لهم الا بالمال ثم ان قدرت على الرفق واللطف في الطلب والعلم بالمطالب فهو افضل

وانا واعظك في اشياء من الاخلاق اللطيفة والامور الغامضة التي لو حنكتك سن كنت خليقًا ان تعلمها وان لم تخبر عنها ولكن احببت ان اقدم اليك فيها قولاً لتروض (١) نفسك على محاسنها قبل ان تجري على عادة مساويها فان الانسان قد تبتدر اليه في شبيبته المساوي وقد يغلب عليه ما يبدر اليه منها

ان ابتليت بالامارة فتعوذ بالعلماء واعلم ان من العجب ان يُبتلى الرجل بها فيريد ان ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها في ساعات دعته وشهوته وانما الرأي له والحق عليه ان يأخذ لعمله من جميع شغله فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه فاذا تقلدت شيئًا من الاعمال فكن فيه احد رجلين اما رجلاً مغتبطًا به فحافظ عليه مخافة ان يزول عنه واما رجلاً كارهًا فالكاره عامل في سخرة اما للملوك ان كانوا هم سلطوه واما لله ان كان ليس فوقه غيره

اياك اذا كنت واليًا ان يكون من شأنك حب المدح والتزكية وان يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة من الثلم (٢) يتقحمون عليك منها وبابًا يفتحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها . اعلم ان قابل المدح كمادح نفسه والمرء جدير ان يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده فان الراد له محمود والقابل له معيب .

لتكن حاجتك في الولاية الى ثلاث خصال رضى ربك ورضى سلطان ان كان فوقك ورضى صالح من تلي عليه وما عليك ان تلهى (٣) عن المال والذكر فسيأتيك منهما ما يكفي ويطيب واجعل الخصال الثلاث بمكان ما لا بد لك منه والمال والذكر بمكان ما انت واجد منه بدًا . (٤)

اعرف اهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة فيكونوا هم اخوانك واعوانك وبطانتك وثقاتك ولا يقذفن في روعك انك ان استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة الى رأي غيرك فانك لست تريد الرأي للافتخار به ولكن تريده للانتفاع به ولوانك

---

(١) راض نفسه على الشيء اكثر من استعمالها فيه ليسلس وهو من قولهم راض المهر رياضة (٢) الثلمة في الحائط وغيره الخلل وفيها ثُلم مثل غرفة وغرف (٣) لهي عن الشيء سلا عنه وترك ذكره (٤) قد استعمل بدا هنا في الاثبات وقد قال بعضهم انه لا يعرف

مع ذلك اردت الذكر كان احسن الذكرين وافضلها عند اهل الفضل ان يقال لا يتفرَّد برأيه دون استشارة ذوي الرأي

انك ان تلتمس رضى جميع الناس تلتمس ما لا يدرك وكيف يتفق لك رأي المختلفين وما حاجتك الى رضى مَن رضاهُ الجورُ والى موافقة من موافقته الضلالةُ والجهالة فعليك بالتماس رضى الاخيار منهم وذوي العقل فانك متى تُصِبْ ذلك تضع عنك مؤونة ماسواه

لا تمكن اهل البلاء من التذلل ولا تمكن من سواهم من الاجتراء عليهم والعيب لهم

لتعرف رعيتك ابوابَك التي لا ينال ما عندك من الخير الا بها والابوابَ التي لا يخافك خائف الا من قبلها . احرص الحرصَ كله على ان تكون خبيرًا بامور عمالك فان المسيء يَفرَق من خبرتك قبل ان تصيبه عقوبتك وان المحسن يستبشر بعلمك قبل ان يأتيه معروفك

ليعرف الناس فيما يعرفون من اخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب فان ذلك أدومُ لخوف الخائف ورجاء الراجي

عوّد نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم ولا تسهلن سبيلَ ذلك الاَّ لأهل العقل والسن والمروءة لئلا ينتشر من ذلك ما يجتريء به سفيه او يستخفَ له شأنٌ

لا تتركن مباشرة جميع امرك فيعودَ شأنك صغيرًا ولا تُلزم نفسك مباشرةَ الصغير فيصيرَ الكبير ضائعًا

اعلم ان رأيك لا يتسع لكل شيء ففرّغه للمهم وان مالك لا يغني الناسَ كلهم فاختصَّ به ذوي الحقوق وأنَّ كرامتك لا تطيق العامة فتوخَّ بها اهل الفضائل (١) وان ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وان دأبت فيهما وانه ليس لك الى ادائها سبيل مع حاجة جسدك الى نصيبه من الدعة (٢) فأحسن قسمتهما بين دعتك وعملك

واعلم انك ما شُغلتَ من رأيك بغير المهم ازرى بالمهم (٣) وما صرفت من مالك بالباطل فقدتَهُ حين تريدُهُ للحق وما عدلت به من كرامتك الى اهل النقص اضرَّ بك في العجز عن اهل الفضل وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة ازرى بك في الحاجة

اعلم ان من الناس ناسًا كثيرًا يبلغ من احدهم الغضب اذا غضب ان يحمله ذلك

استعماله الا مقرونًا بالنفي يقال لا بدَّ من كذا اي لا محيد عنه او لا عوض منه (١) توخيت الشيء تحريته وقصدته (٢) الدعة بالفتح الراحة والسكون والوديع الساكن (٣) ازريت به قصرت به وحقرته

على الكلوح (١) والتقطيب في وجه غير من اغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به الا دون ذلك ثم يبلغ به الرضى اذا رضي ان يتبرّع بالامر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ويعطي من لم يكن اعطاه ويكرم من لا حق له ولا مودة فاحذر هذا الباب كله فانه ليس احد اسوأ حالاً من اهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم فانه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله او يتخبطه المس من يعاقب في غضبه غير من اغضبه ويحبو عند رضاه غير من ارضاه لكان جائزًا في صفته

اعلم ان الملك ثلاثة ملك دين وملك حزم وملك هوى فاما ملك الدين فانه اذا أقيم لاهله دينهم وكان دينهم هو الذي يعطيهم مالهم ويلحق بهم الذي عليهم ارضاهم ذلك ونزل الساخط منهم منزلة الراضي في الاقرار والتسليم واما ملك الحزم فانه يقوم به الامر ولا يسلم من الطعن والتسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي واما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر ٠

اذا كان سلطانك عند جدّة دولة فرأيت امرًا استقام بغير رأي واعوانًا جزوا بغير نيل وعملاً انجح بغير حزم فلا يغرنك ذلك فلا تستنم اليه فان الامر الجديد مما تكون له مهابة في انفس اقوام وحلاوة في انفس آخرين فيعين قوم بانفسهم ويعين قوم بما قبلهم ويستتب بذلك الامر غير طويل ثم تصير الشؤون الى حقائقها واصولها فما كان من الامر بني على غير اركان وثيقة ولا عماد محكم اوشك ان يتداعى ويتصدّع

لا تكونن نزرَ الكلام والسلام ولا تفرطن بالهشاشة والبشاشة فان احداهما من الكبر والاخرى من السخف

اذا كنت لا تضبط امرك ولا تصول على عدوك الا بقوم لست منهم على ثقة من رأي ولا حفاظ من نية فلا تنفعك نافعة حتى تحوّلهم ان استطعت الى الرأي والادب الذي بمثله تكون الثقة او تستبدل بهم ان لم تستطع نقلهم الى ما تريد ولا تغرنك قوتك بهم وانما انت في ذلك كراكب الاسد الذي يهابه من نظر اليه وهو لمركبه اهيب

ليس للملك ان يغضب لان القدرة من وراء حاجته ٠ وليس له ان يكذب لانه لا يقدر احد على استكراهه على غير ما يريد ٠ وليس له ان يبخل لانه اقل الناس عذرًا في تخوّف الفقر وليس له ان يكون حقودًا لان خطره قد عظم عن مجازاة كل الناس ٠ وليتق ان يكون حلاّفًا فأحق الناس باتقاء الايمان الملوك فانما يحمل الرجل على الحلف احدى

(١) الكلوح تكشر في عبوس

هذه الخلال اما مهانة يجدها في نفسه وضرعٌ وحاجة الى تصديق الناس اياه واما عيٌّ بالكلام حتى يجعل الايمان له حشوًا ووصلاً واما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه فهو ينزّل نفسه منزلة من لا يُقبل منه قوله الا بعد جهد اليمين واما عبث في القول اوارسال اللسان على غير روية ولا تقدير

لا عيب على الملك في تعيشه وتنعمه اذا تعهد الجسيم من امره وفوّض ما دون ذلك الى الكفاة ٠

كل الناس حقيق، حين ينظر في امر الناس ان يتهم نظره بعين الريبة وقلبه بعين المقت فانهما يُريان الجور ويحملان على الباطل ويقبحان الحسن ويحسنان القبيح واحق الناس باتهام عين الريبة وعين المقت الملك الذي ما وقع في قلبه ربما مع ما يُقبض له من تزيين القرناء والوزراء واحق الناس باجبار نفسه على العدل في النظر والقول والفعل الوالي الذي ما قال او فعل كان امرًا نافذًا غير مردود

ليعلم الوالي أنّ الناس يصفون الولاة بسوء العهد ونسيان الود فليكابد نقض قولهم وليبطل عن نفسه وعن الولاة صفات السوء التي يوصفون بها

ليتفقد الوالي فيما يتفقد من امور الرعية فاقةَ الاحرار منهم فليعمل في سدها وطغيانَ السفلة منهم فليقمعه وليستوحش من الكريم الجائع واللئيم الشبعان فانما يصول الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع

لا يحسدن الوالي من دونه فانه في ذلك اقل عذرًا من السوقة التي انما تحسد من فوقها وكلٌّ لا عذر له

لا يلومنّ الوالي على الزلة من ليس بتهم على الحرص على رضاه الا لومَ ادب وتقويم ولا يَعدلنّ بالمجتهد في رضاه البصير بما يأتي احدًا فانهما اذا اجتمعا في الوزير او الصاحب نام الوالي واستراح وجُلبت اليه حاجاته وان هدأ عنها وعُمل فيما يهمه وان غفل

لا يولعن الوالي بسوء الظن لقول الناس وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيبًا موفورًا يروّح به عن قلبه ويُصدر به اعماله

لا يضيعنّ الوالي التثبت عند ما يقول وعند ما يعطي وعند ما يفعل فان الرجوع عن الصمت احسن من الرجوع عن الكلام وان العطية بعد المنع اجمل من المنع بعد الاعطاء وان الاقدام على العمل بعد التأني فيه احسن من الامساك عنه بعد الاقدام عليه وكل الناس محتاج الى التثبت واحوجهم اليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع وليس عليهم مستحث

ليعلم الوالي ان الناس على رأيه الا من لا بال له منهم فليكن للبرّ والمروءة عنده نفاقٌ فيكسد بذلك الجور والدناءة في آفاق الارض (١)

جماع (٢) ما يحتاج اليه الوالي رأيان رأي يقوي سلطانه ورأي يزينه في الناس ورأي القوة احقهما بالبداءة (٣) واولاهما بالأثرة ورأي التزيين احضرهما حلاوة واكثرهما اعوانًا مع ان القوة من الزينة والزينة من القوة لكن الامر ينسب الى اعظمه

ان شغلت بصحبة الملوك فعليك بطول الرابطة (٤) في غير معاتبة ولا يحدثنّ لك الاستئناس غفلةً ولا تهاونًا

اذا رأيت احدهم يجعلك اخًا فاجعله ابًا ثم ان زادك فزده

اذا نزلت من ذي منزلة او سلطان فلا ترينّ ان سلطانه زادك له توقيرًا واجلالاً من غير ان يزيدك ودًا ولا نصحًا وانك ترى حقًا له التوقير والاجلال وكن في مداراته والرفق به كالمؤتنف (٥) ما قبله ولا تقدر الامر بينك وبينه على ما كنت تعرف من اخلاقه فان الاخلاق مستحيلة مع الملك وربما رأينا الرجل المدلّ على ذي السلطان بقدمه قد اضرّ به قدمه

لا تعتذرنّ الا الى من يحب ان يجد لك عذرًا ولا تستعيننّ الا بمن يحب ان يظفر لك بحاجتك ·

لا تحدثنّ الا من يرى حديثك مغنماً ما لم يغلبك الاضطرار

اذا غرست من المعروف غرسًا وانفقت عليه نفقة فلا تضننّ بالنفقة في تربية ما غرست فتذهب النفقة الاولى ضياعًا

اذا اعتذر اليك معتذر فتلقه بوجهٍ مشرق وبشر طليق الا ان يكون ممن قطيعته غنيمة

اعلم أنّ اخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا · زينةٌ في الرخاء · وعدّة في الشدة · ومعونة في المعاش والمعاد فلا تفرّطن في اكتسابهم وابتغاء الوصلات والاسباب اليهم

اعلم انك واجدٌ رغبتك من الإخاء عند اقوام قدحالت بينك وبينهم بعض الابهة (٦) التي قد تعتري اهل المروآت فتحجز منهم كثيرًا ممن يرغب في امثالهم فاذا رأيت احدًا من اولئك قد عثر به الزمان فأقله

---

(١) كسد الشيء لم ينفق لقلة الرغبات فيه ويعدى بالهمزة فيقال اكسده الله (٢) جماع الشيء بالكسر ما يجمعه ومنه الخمر جماع الاثم (٣) البداءة اسم من بدأ واما البداية بالياء فهو عامي (٤) الرابطة العلقة والوصلة وهذا المعنى غير مناسب لهذا الموضع فلعلها محرفة من الرياضة (٥) ائتنف الشيء واستأنفه اخذ فيه وابتدأه (٦) الابهة كسكرة العظمة والنخوة

اذا عرفت نفسك من الوالي بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق ولا تكثرنَّ من الدعاء له في كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة والغربة الا ان تكلمهُ على رؤُوس الناس فلا تألُ عما عظمهُ ووقرهُ ·

ان استطعت الا تصحب من صحبت من الولاة الا على شعبةٍ من قرابةٍ او مودة فافعل فان اخطأك ذلك فاعلم أنك تعمل على عمل السخرة وان استطعت ان تجعل صحبتك لمن قد عرفك منهم بصالح مروءتك (١) قبل ولايته فافعل

انَّ الوالي لا علم له بالناس الا ما قد علم قبل ولايته فاما اذا ولي فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع وكلهم يحتال لان يُثنى عليه عنده بما ليس فيه غيرَ أن الارذال والانذال هم اشدُّ لذلك تصنعًا وعليه مكابرةً وفيه تحيلاً فلا يمتنعُ الوالي وان كان بليغَ الرأي والنظر من ان ينزل عندهُ كثيرٌ من الاشرار بمنزلة الاخيار وكثيرٌ من الخانة بمنزلةا مناء وكثيرٌ من الغدَرَة بمنزلة الاوفياء ويغطي عليه امرُ كثير من اهل الفضل الذين يصونون انفسهم عن التمحل والتصنع

لا يعرفنك الولاةُ بالهوى في بلدةٍ من البلدان ولا قبيلةٍ من القبائل فيوشك ان تحتاج فيها الى حكايةٍ او مشاهدةٍ فتتهم في ذلك واذا اردت ان يُقبل قولك فصحح رأيك ولا تشوبنه بشيء من الهوى فان الرأي يقبله منك العدوّ والهوى يردّه عليك الوليُّ واحق من احترست من ان يظن بك خلط الرأي بالهوى الولاةُ فانها خديعة وخيانة وكفر

ان ابتليت بصحبة والٍ لا يريد صلاح رعيةٍ فاعلم انك قد خُيرت بين خلتين ليس بينهما خيار اما ميلك مع الوالي على الرعية وهذا هلاك الدين واما الميل مع الرعية على الوالي وهذا هلاك الدنيا ولا حيلة لك الا بالموت او الهرب · واعلم أنهُ لا ينبغي لك وان كان الوالي غير مَرضيِّ السيرة اذا علقت حبالك بحبله الا المحافظةَ عليه الا ان تجد الى الفراق الجميل سبيلاً

تبصر ما في الوالي من الاخلاق التي تحب والتي تكره وما هو عليه من الرأي الذي يُرضى له والذي لا يُرضى ثم لا تكابره بالتحويل له عما يحب ويكره الى ما تحب وتكره فان هذه رياضة صعبة تحمل على التنائي والقلى

اعلم انك قلما تقدر على رد رجل عن طريقته التي هو عليها بالمكابرة والمناقضة وان لم يجمع عن السلطة ولكنك تقدر ان تعينه على احسن رأيه وتسبب له منه وتقويه فيه فاذا

---

(١) المروءة بضم الميم آداب نفسانية تحمل الانسان على الوقوف عند محاسن الاخلاق وجميل العادات وقد تشدد فيقال مروّة

قويت منه المحاسن كانت هي التي تكنفه عن المساوي واذا كان ذلك هو الذي يبصره الخطأ بالطف من تبصيرك و الصواب يريد بعضه بعضاً و يدعو بعضه الى بعض فاذا هذا الباب واحكمه . ولا يكونن طلبك ما عند الوالي اطلب ما قبله بالاستحقاق له واستأن وان طالت الا غير طلب وان لم تستبطئه كان اعجل له

لا تخبرن الوالي أنّ لك عليه حقاً وانك تعتد عا حقك وبلاءك فافعل وليكن ما تذكره من ذلك تجد ينظر منك الى آخر يذكره اول بلائك

واعلم ان ولي الامر اذا انقطع عنه الآخر نسي الاو مقطوعة وحبالهم مصرومة الا عمن رضوا عنه واغنى عنه

اياك ان يقع في قلبك تعتب على الوالي او استزادة له بدا في وجهك ان كنت حليماً و بدا على لسانك ان كنت سفيهاً وان لم يزد ذلك على ان يظهر في وجهك لا من الناس عندك فلا تأمنن ان يظهر ذلك للوالي فان الناس اليه بعورات الاخوان سراع فاذا ظهر ذلك للوالي كان قلبه هو اسرع الى التعتب والتعزز من قلبك فمحق ذلك حسناتك الماضية واشرف بك على الهلاك وصرت تعرف امرك مستدبراً وتلتمس مرضاته مستصعباً

اعلم ان اكثر الناس عدواً مجاهراً حاضراً جريئاً واشياً وزير السلطان ذو المكانة عنده لانه منفوس (٢) عليه بما ينفس على صاحب السلطان ومحسود كما يحسد غيره غير أنه يجترأ عليه ولا يجترأ على ذلك لان من حاسديه احباء السلطان الذين يشاركونه في المداخل والمنازل وهم وغيرهم من عدوه الذين هم حضاره ليسوا كعدو من فوقه النائي عنه المتكتم منه وهم لا ينقطع طمعهم من الظفر به فلا يغفلون عن نصب الحبائل فاعرف هذه الحال والبس لهؤلاء القوم الذين هم اعداؤك سلاح الصحة والاستقامة ولزوم الحجة فيما تسر وتعلن ثم روّح من قلبك كأنه لا عدو لك ولا حاسد وان ذكرك ذاكر عند ولي الامر بسوء في وجهك او في غيبك فلا يرين منك الولي ولا غيره اختلاطاً لذلك ولا اغتياظاً ولا يقعن ذلك موقع ما يكرثك فانه ان وقع منك ذلك الموقع ادخل عليك اموراً مشتبهة

(١) استأنى في الامر تأنى فيه ولم يعجل والاسم منه أناة بوزن حصاة (٢) نفس عليه بخير حسده عليه ولم يره له اهلاً ونفس بالشيء ضن به وهو من باب سلم

بالريب مذكرة لما قال فيك العائب وان اضطرك الامر في ذلك الى الجواب فاياك وجوابَ الغضب والانتقام وعليك بجواب الحجة في حلم ووقار ولاتشكنّ في ان القوة والغلبة للحليم ابداً

لا تحضرن عند الوالي كلاماً لا يعني ولا يؤمر بحضوره الا لعناية به او يكون جواباً بالشيء سئلت عنه ولا تعدنّ شتم الوالي شتماً ولا اغلاظه اغلاظاً فان ريح العز قد تبسط اللسان بالفاظ في غير سخط ولا بأس

جانب المسخوط عليه والظنين (١) به عند الولاة ولا يجمعنك واياه مجلس ولا تظهرنّ له عذراً ولا تثنينّ عليهِ خيراً عند احد من الناس فاذا رأيتهُ قد بلغ من الإعتاب (٢) مما سخط عليه فيه ما ترجو ان يلين له الوالي واستيقنت أنّ الوالي قد استيقن بمباعدتك اياه وشدتك عليه فضع عذره عند الوالي واعمل في ارضائه عنه في رفق ولطف

ليعلم الوالي انك لا تستنكف عن خدمته ولا تدع مع ذلك ان تقدم اليه القول عند بعض حالات رضاه وطيبِ نفسه في الاستعفاء من الاعمال التي يكرهها ذو الدين وذو العرض وذو المروءة من ولاية القتل والعذاب واشباه ذلك

اذا اصبت الجاه والخاصة عند الملك فلا يحدثنّ لك ذلك تغيراً على احد من اهله واعوانه ولا استغناء عنهم فانك لا تدري متى ترى ادنى جفوةٍ فتذلّ لهم فيها وفي تلوّن الحال عند ذلك من العار ما فيه

ليكن مما تحكم من امرك ان لا تسارّ احداً من الناس ولا تهمس اليه بشيء تخفيه عن السلطان فان السرار مما يُخيل الى كل من رآه انه المراد به فيكون ذلك في نفسه حسيكةً ووَغراً وثقلاً (٣)

لا تتهاوننّ بارسال الكذْبة (٤) عند الوالي او غيره في الهزل فانها تسرع في رد الحق وابطال الصدق مما تأتي بهِ

تنكب فيما بينك وبين الوالي خلقاً قد عرفناه في بعض الاعوان والاصحاب في ادعاء الرجل عند ما يظهر من صاحبه من حسن اثر او صواب رأي انه هو عملَ في ذلك اواشار به واقراره بذلك اذا مدحه مادح بل وان استطعت ان يعرف صاحبك انك تنحله (٥)

(١) الظنة بالكسر التهمة والظنين المتهم (٢) الاعتاب مصدر قولك اعتبني فلان اذا عاد الى مسرتك راجعاً عن الاساءة (٣) الحسيكة الضغن والعداوة — الوغر شدة الغيظ وهو مأخوذ من الوغرة وهي شدة توقد الحر (٤) الكذبة بفتح الكاف وسكون الذال وجمعها كذبات بفتح الذال (٥) يقال نحلته القول اذا اضفت اليه قولاً قاله غيره

صواب رأيك فضلاً عن انك تدعي صوابه وتسند ذلك اليه وتزينه فافعل فان الذي انت آخذ بذلك اكثر مما انت معطٍ باضعاف

اذا سأل الوالي غيرك فلا تكونن انت المجيب عنه فان استلابك الكلام خفةٌ بك واستخفاف منك بالمسؤول والسائل . وما انت قائل اذا قال لك السائل ما اياك سألت او قال لك المسؤول عند المسألة يعاد له بها دونك فاجب . واذا لم ينصب السائل في المسألة لرجل واحد وعمّ بها جماعة من عنده فلا تبادر بالجواب ولا تسابق الجلساء ولا تواثب الكلام مواثبةً فان في ذلك مع شين التكلف والخفة أنك اذا سبقت القوم الى الكلام صاروا لكلامك خصماء فيتعقبونه بالعيب والطعن واذا انت لم تعجل بالجواب وخليته للقوم اعترضتْ اقاويلهم على عينك ثم تدبرتها وفكرت فيما عندك ثم هيأت من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جواباً رضياً واستدبرت به اقاويلهم حتى تصيخ اليك الاسماع ويهدأ عنك الخصوم وان لم يبلغك الكلام حتى يكتفى بغيرك او ينقطع الحديث قبل ذلك فلا يكون من العيب عندك ولا من الغبن في نفسك فوتُ ما فاتك من الجواب فان صيانة القول خير من سوء وضعه وان كلمة واحدة من الصواب تصيب موضعها خيرٌ من مئة كلمة امثالها في غير فرصها ومواضعها مع ان كلام العجلة والبدار موكل به الزلل وسوء التقدير وان ظن صاحبه ان قد اتقن واحكم .

واعلم ان هذه الامور لا تنال الا برحب الذرع عند ما قيل وما لم يقل وقلة الاعظام لما ظهر من المروءة او لم يظهر وسخاوة النفس عن كثير من الصواب مخافة الخلاف والعجلة والحسد والمراء

اذا كلمك الوالي فاصغ الى كلامه ولا تشغل طرفك عنه بنظر ولا اطرافك بعمل ولا قلبك بحديث نفسك واحذر هذا من نفسك وتعهد ما فيه

ارفق بنظرائك من وزراء السلطان ودخلائه واتخذهم اخواناً ولا تتخذهم اعداء ولا تنافسهم في الكلمة يتقربون بها والعمل يؤمرون به فانما انت في ذلك احد رجلين اما ان يكون عندك فضل على ما عند غيرك فسوف يبدو ذلك ويحتاج اليه ويلتمس منك وانت مجمل واما ان لا يكون ذلك عندك فما انت مصيب من حاجتك عندهم بقاربتك وملاينتك وما انت واجد في موافقتك اياهم ولينك لهم من موافقتهم اياك ولينهم لك افضلُ مما انت مدركه بالمنافسة والمناظرة

لا تجترئن على خلاف اصحابك عند الوالي ثقةً باعترافهم لك ومعرفتهم بفضل رأيك فانا قد رأينا الناس يعرفون فضل الرجل وينقادون له ويتعلمون منه وهم اخلياء فاذا حضروا

ذا السلطان لم يرض احد منهم ان يقرّ له وان يكون له عليه في الرأي والعلم فضلٌ فاجترؤوا عليه بالخلاف والنقض فان ناقضهم كان كأحدهم وليس بواجدٍ في كل حين سامعًا فهمًا وقاضيًا عدلاً وان ترك مناقضتهم صار مغلوب الرأي مردود القول

اذا اصبت عند الوالي لطف منزلة لغناء (١) يجده عندك او هوى يكون له فيك فلا تطمحن كل الطماح ولا تزيننّ لك نفسك المزايلةَ له عن اليفهِ وموضع ثقته وسره قبلك بان تقتلعه وتدخل دونه فان هذه خلةٌ من خلال السفه قد يبتلى بها الحلماء عند الدنو من ذي السلطان حتى يحدث الرجل منهم نفسه ان يكون دون الاهل والولد لفضل يظنه في نفسه او نقص يظنه بغيره ولكل رجل من الملوك او ذي هيئة من السوقة (٢) اليفٌ وانيسٌ قد عرف روحه واطلع على قلبه فليست عليه مؤونة في تبذّل يتبذل له عنده او رأي يستنزله منه او سرّ يفشيه اليه غير ان تلك الأنسة (٣) وذلك التبذل يستخرج من كل واحد منهما ما لم يكن ليظهر منه عند الانقباض والتشدّد ولو التمس ملتمسٌ مثل ذلك عند من يستأنف ملاطفته ومؤانسته ان كان ذا فضل من الرأي والعلم لم يجد عنده مثل ما هو منتفع به ممن هو دون ذلك في الرأي ممن قد كفي مؤانسته ووقع على طباعه لان الأنسة روح القلب والوحشة روع عليه ولا يلتاط (٤) بالقلوب الا لا لان عليها ومن استقبل تأسيس الوحشة استقبل امرًا ذا مؤونة فاذا كلفتك نفسك السموّ الى منزلة من وصفت فاقدعها عن ذلك بمعرفة فضل الاليف والانيس واذا حدثتك نفسك او غيرك ممن لعله يكون له فضل في المروءة انك اولى بالمنزلة عند الكبير من بعض دخلائه وثقاته فاذكر الذي عليه من حق اليفه وثقته وانيسه في التكرمة والذي يعينه على ذلك من الرأي انه يجد عنده من الالف والأنس ما ليس واجدًا عند غيره فليكن هذا مما تحفظ فيه على نفسك وتعرف فيه عذر الرجل ورأيه والرأي فيه لنفسك في مثل ذلك ان ارادك مريد على الدخول دون انيسك واليفك وموضع ثقتك وجدك وهزلك

اعلم انه تكاد تكون لكل رجل غالبةٌ حديث اما عن بلد من البلدان او ضرب من ضروب العلم او صنف من صنوف الناس او وجه من وجوه الرأي وعند ما يغرم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويعرف منه الهوى فاجتنب ذلك في كل موطن ثم عند اولي الامر خاصة

---

(١) الغناء بالفتح الكفاية (٢) السوقة خلاف الملك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وربما جمع على سوق مثل غرفة وغرف (٣) الانسة بالتحريك ضد الوحشة (٤) التاط الشيء بقلبه لصق به من فرط الحب

لا تشكونَّ الى وزراء السلطان ودخلائه ما اطلعت عليه من رأي تكرهه له فانك لا تزيد على ان تُفطنهم لميله وتغريهم بتزيين ذلك له والميل عليك معه

اعلم ان الرجل ذا الجاه عند الوالي والخاصة لا محالة انه يرى من الوالي ما يخالفه من الرأي في الناس والامور فاذا آثر ان يكره كل ما يخالفه او يتمعض من الجفوة يراها في المجلس او النبوة في الحاجة او الرد للرأي او الادناء لمن لا يهوى ادناءه والاقصاء لمن يكره اقصاءه فاذا وقعت في قلبه الكراهية تغير لذلك وجهه ورأيه وكلامه حتى يبدو ذلك للوالي وغيره وكان ذلك لفساد منزلته سبباً فذلل نفسك باحتمال ما خالفك من رأي الولاة وقررها بانهم انما كانوا اولياءك لتتبعهم في آرائهم واهوائهم ولا تكلفهم اتباعك وتغضب من خلافهم اياك

اعلم ان الملوك يقبلون من وزرائهم التبخيل ويعدونه منهم شفقة ونظرًا ويحمدونهم عليه وان كانوا اجوادًا فان كنت مبخلاً غششت صاحبك بفساد مروءته وان كنت مسخياً لم تأمن اضرار ذلك بمنزلتك عنده فالرأي لك تصحيح النصيحة على وجهها والتماس المخرج فيما تترك من تبخيل صاحبك بان لا يعرف منك فيما تدعوه اليه ميلاً الى شيء من هواك ولا طلباً لغير ما ترجو ان يزينه وينفعه

لا تكوننَّ صحبتك للملوك الا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك وتقدير الامور على ميلهم دون ميلك وعلى ان لا تكتمهم سرّك ولا تستطلع ما كتموه وتخفي ما اطلعوك عليه من الناس كلهم حتى تحمي نفسك الحديث به وعلى الاجتهاد في رضاهم والتلطف لحاجاتهم والتثبيت لحجتهم والتصديق لمقالتهم والتزيين لرأيهم وعلى قلة الاستقباح لما فعلوا اذا اساءوا وترك الاستحسان لما فعلوا اذا احسنوا وكثرة النشر لمحاسنهم وحسن الستر لمساويهم والمقاربة لمن قاربوا وان كان بعيدًا والمباعدة لمن باعدوا وان كانوا اقرباء والاهتمام بأمرهم وان لم يهتموا به والحفظ له وان ضيعوه والذكر له وان نسوه والتخفيف عنهم لمؤونتك والاحتمال لهم كل مؤونة والرضى عنهم بالعفو وقلة الرضى من نفسك لهم بالمجهود فان وجدت عنهم وعن صحبتهم غنى فأغنِ عن ذلك نفسك واعتزله جهدك فان من يأخذ عملهم يحول بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة ومن لا يأخذ بحقه يحتمل الفضيحة في الدنيا والوزر في الآخرة . انك لا تأمن أنفهم ان اعلمتهم ولا عقوبتهم ان كتمتهم ولا تأمن غضبهم ان صدقتهم ولا تأمن سلوتهم ان حدثتهم . ان لزمتهم لم تأمن تبرُّمهم بك وان زايلتهم لم تأمن عقابهم . انك ان تستأمرهم حملت المؤونة عليهم وان قطعت الامر دونهم لم تأمن فيه مخالفتهم . انهم ان سخطوا عليك اهلكوك وان رضوا عنك تكلفت من

رضاهم ما لا تطيق فان كنت حافظاً ان بلوك جلداً ان قربوك اميناً ان ائتمنوك تشكرهم ولا تكلفهم الشكر بصيراً باهوائهم مؤثراً المنافعهم ذليلاً ان ظلموك راضياً ان اسخطوك والا فالبعد منهم كل البعد والحذر كل الحذر .

باب الصديق

ابذل لصديقك دمك ومالك ولمعرفتك رفدك ومحضرك وللعامة بشرك وتحننك ولعدوك عدلك واضنن بدينك وعرضك عن كل احدٍ

ان سمعت من صاحبك كلاماً او رأياً يعجبك فلا تنتحله تزيناً به عند الناس واكتف من التزين بان تجتني الصواب اذا سمعته وتنسبه الى صاحبه . واعلم ان انتحالك ذاك سخطة لصاحبك وان فيه مع ذلك عاراً فان بلغ ذلك بك ان تشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع جمعت مع الظلم قلة الحياء وهذا من سوء الادب الفاشي في الناس . ومن تمام حسن الخلق والادب ان تسخو نفسك لاخيك بما انتحل من كلامك ورأيك وتنسب اليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت

لا يكوننّ من خلقك ان تبتدئ حديثاً ثم تقطعه وتقول سوف كأنك روأت فيه بعد ابتدائه وليكن ترويك فيه قبل التفوه فان احتجان الحديث بعد افتتاحه سخف (١)

اخزن عقلك وكلامك الا عند اصابة الموضع فانه ليس في كل حين يحسن كل الصواب وانما تمام اصابة الرأي والقول باصابة الموضع فان اخطأك ذلك ادخلت المحنة على علمك حتى تأتي به ان اتيت به في غير موضعه وهو لا بهاء ولا طلاوة له

لتعرف العلماء حين تجالسهم انك على ان تسمع احرص منك على ان تقول

ان آثرت ان تفاخر احداً ممن تستأنس اليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ولا تعدونّ ان تتكلم فيه بما كان هزلاً فاذا بلغ الجد او قاربه فدعه ولا تخلطنّ بالجد هزلاً ولا بالهزل جداً فانك ان خلطت بالجد هزلاً هجنته وان خلطت بالهزل جداً كدرته غير اني قد علمت موطناً واحداً ان قدرت ان تستقبل فيه الجد بالهزل اصبت الرأي وظهرت على الاقران وذلك ان يتوردك متورد بالسفه والغضب فتجيبه اجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق

ان رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنك ذلك فانما هو احد رجلين ان كان

(١) الروية الفكر والتدبر وهي كلمة جرت على السنتهم بغير همز تخفيفاً وهي من روأت في الامر بالهمز اذا نظرت فيه . واحتجن المال ضمه الى نفسه وامسكه

رجلاً من اخوان الثقة فانفعُ مواطنه لك اقربها من عدوك لشرٍّ يكفه عنك وعورة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك فاما صديقك فما اغناك ان يحضره ذو ثقتك وان كان رجلاً من غير خاصة اخوانك فبأي حق تقطعه عن الناس وتكلفه ان لا يصاحب ولا يجالس الا من تهوى ٠

تحفظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الاصحاب وطب نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي مداراةً لئلا يظن اصحابك ان ما بك التطاولُ عليهم

اذا اقبل اليك مقبل بوده فسرّك الا يدبر عنك فلا تنم الاقبال عليه والتفتح له فان الانسان ُطبع على ضرائب لؤم فمن شأنه ان يرحل عمن لصق به ويلصق بمن رحل عنه

لا تكثرنَّ ادعاء العلم في كل ما يعرض فانك من ذلك بين فضيحتين اما ان ينازعوك فيما ادعيت فيهجم منك على الجهالة والصلف (١) واما الاّ ينازعوك ويخلوا الامور في يديك فينكشف منك التصنع والمعجزة

استحي الحياء كله من ان تخبر صاحبك انك عالم وانه جاهل مصرّحا او معرضاً وان استطلت على الاكفاء فلا تثقن منهم بالصفاء

ان آنست من نفسك فضلاً فتحرج ان تذكره او تبديه فاعلم ان ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس من العيب اكثر مما يقرر لك من الفضل واعلم انك ان صبرت ولم تعجل ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف ولا يخفين عليك ان حرص الرجل على اظهار ما عنده وقلةَ وَقاره في ذلك باب من البخل واللؤم وان من خير الاعوان على ذلك السخاء والتكرم

ان احببت ان تلبس ثوب الوقار والجمال وتتحلى بحلية المودة عندالعامة وتسلك الجدَدَ الذي لاخبار (٢) فيه ولاعثار فكن عالماً كجاهل وناطقاً كعيي ٠ فاما العلم فيرشدك واما قلة ادعائه فينفي عنك الحسد واما المنطق اذا احتجت اليه فسيبلغ حاجتك واما الصمت فيكسبك المحبة والوقار

واذا رأيت رجلاً يحدث حديثاً قد علمته او يخبر خبرًا قد سمعته فلا تشاركه فيه ولا تتعقبه عليه حرصاً على ان يعلم الناس انك قد علمته فان في ذلك خفة وشحاً وسوء ادب وسخفاً ليعرف اخوانك والعامة انك ان استطعت ان تكون الى ان تفعل ما لا تقول اقربُ

---

(١) الصلف مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرًا (٢) الجدد المستوي من الارض وقيل الارض الصلبة وفي المثل من سلك الجدد امن العثار ٠ والخبار ارض رخوة فيها حجرة وفي المثل من تجنب الخبار امن العثار

منك الى ان تقول ما لا تفعل فعلت فان فضل القول على الفعل عارٌ وهجنةٌ وفضل الفعل على القول زينة وانت حقيق فيما وعدت من نفسك او اخبرت صاحبك عنه ان تحتجن بعض ما في نفسك اعدادًا لفضل الفعل على القول وتحرّزًا بذلك عن تقصير فعل ان قصر وقلما يكون الا مقصرًا

احفظ قول الحكيم الذي قال لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدلَ وفيما بينك وبين صديقك الرضى وذلك ان العدو خصم تضربه بالحجة وتغلبه بالحكام وان الصديق ليس بينك وبينه قاضٍ فانما حكمه رضاه

اجعل عامة تشبثك في مؤاخاة من توأخي ومواصلة من تواصل(؟) ووطن نفسك على انه لا سبيل لك الى قطيعة اخيك وان ظهر لك منه ما تكره فانه ليس كالمرأة التي تطلقها اذا شئت ولكنه عرضك ومروءتك فانما مروءة الرجل اخوانه واخدانه فان عثر الناس على انك قطعت رجلاً من اخوانك وان كنت معذرًا نزل ذلك عند اكثرهم بمنزلة الخيانة للاخاء والملال وان انت صبرت مع ذلك على مقارّنه على غير الرضى عاد ذلك الى العيب والنقيصة فالاتئاد الاتئاد والتثبت التثبت

اذا نظرت في حال من ترتئيه لاخائك فان كان من اخوان الدين فليكن فقيهًا ليس بمراءٍ ولا حريص وان كان من اخوان الدنيا فليكن حرًا ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع فان الجاهل اهلٌ لان يهرب منه ابواه وان الكذاب لا يكون اخًا صادقًا لان الكذب الذي يجري على لسانه انما هو من فضول كذب قلبه وانما سمي الصديق من الصدق وقد يتهم صدق القلب وان صَدَق اللسان فكيف اذا ظهر الكذب على اللسان وان الشرير يكسبك العدو ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة وان المشنوع شانع صاحبه

تحرّز من سكر السلطة وسكر العلم وسكر المنزلة وسكر الشباب فانه ليس من هذا شيءٌ الا وهو ريح جنة تسلب العقل وتذهب الوقار وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع

اعلم ان انقباضك عن الناس يكسبك العداوة وان تفرشك لهم يكسبك صديق السوء وفسولة الاصدقاء اضرّ من بغض الاعداء فانك ان واصلت صديق السوء اعيتك جرائره وان قطعته شانك اسم القطيعة والزمك ذاك من يرفع عيبك ولا ينشر عذرك فان المعايب تنمى والمعاذير لا تنمى

البس الناس لباسين ليس للعاقل بدٌ منهما ولا عيش ولا مروءة الا بهما لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة فلا تلقين الا متحفظًا متشددًا متحرزًا مستعدًا ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة من الثقات فتتلقاهم ببنات صدرك وتفضي اليهم بموضوع حديثك وتضع عنك

مؤونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم واهل هذه الطبقة الذين هم اهلها قليل لان ذا الرأي لا يدخل احداً من نفسه هذا المدخل الا بعد الاختبار والسبر والثقة بصدق النصيحة ووفاء العقل ·

اعلم ان لسانك اداة مغلبة يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك فكل غالب عليه مستمتع به وصارفه في محبته فاذا غلب عليه عقلك فهو لك واذا غلب عليه شيء من اشباه ما سميت لك فهو لعدوك فان استطعت ان تحتفظ به فلا يكون الا لك ولا يستولي عليه او يشاركك عدوك فيه فافعل

اذا نابت اخاك احدى النوائب من زوال نعمة او نزول بلية فاعلم انك قد ابتليت معه اما بالمواساة فتشاركه في البلية واما بالخذلان فتحتمل العار فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك وآثر مروتك على ما سواها فان نزلت الجائحة التي تأبى نفسك مشاركة اخيك فيها فاجمل فلعل الاجمال يسعك لقلته في الناس

اذا اصاب اخاك فضل فانه ليس في دنوك منه وابتغائك مودته وتواضعك له مذلة فاغتنم ذلك واعمل فيه

اذا كانت لك عند احد صنيعة او كان لك عليه طول فالتمس احياء ذلك بإماتته وتعظيمه بالتصغير له ولا تقتصرن في قلة المن على ان تقول لا اذكره ولا اصغي بسمعي الى من يذكره فان هذا قد يستحيي منه بعض من لا يوصف بعقل ولا كرم ولكن احذر ان يكون في مجالستك اياه وما تكلمه به او تستعينه عليه او تجاريه فيه شيء من الاستطالة فان الاستطالة تهدم الصنيعة وتكدر المعروف

احترس من سورة الغضب وسورة الحمية وسورة الحقد وسورة الجهل واعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها من الحلم والتفكر والروية وذكر العاقبة وطلب الفضيلة واعلم انك لا تصيب الغلبة الا بالجهاد وان قلة الاعداد لموافقة الطبائع المتطلعة هو الاستسلام وانه ليس احد الا فيه من كل طبيعة سوء غريزة وانما التفاضل بين الناس في مغالبة طبائع السوء فاما ان يسلم احد من ان تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمع الا ان الرجل القوي اذا كابرها بالقمع لها كلما تطلعت لم يلبث ان يميتها حتى كأنها ليست فيه وهي في ذلك كامنة كمون النار في العود فاذا وجدت قادحاً من غير علة او غفلة استورت كما تستوري عند القدح ثم لا يبدأ ضرها الا بصاحبها كما لا تبدأ النار الا بعودها التي كانت فيه

ذلل نفسك بالصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء فان ذلك ما لا يكاد يخطئك فان الصبر صبران صبر الرجل على ما يكره وصبره عما يحب فالصبر على المكروه

اكثرها واشبهها ان يكون صاحبه مضطرًا واعلم ان اللئام اصبر اجسادًا والكرام اصبر نفوسًا وليس الصبر الممدوح بان يكون جلد الرجل وقاحًا او رجله قوية على المشي او يده قوية على العمل فانما هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبًا وللامور محتملاً وفي الضرّ متجملاً ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطًا وللحزم موثرًا وللهوى تاركًا ولمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفًا وعلى مجاهدة الاهواء والشهوات مواظبًا ولبصره بعزمه منفذًا

حبب الى نفسك العلم حتى تألفه وتلزمه ويكون هو لهوك ولذاتك وسلوتك وبلغتك . واعلم ان العلم علمان علم للمنافع وعلم لتزكية العقل وافشى العلمين واجداهما ان ينشط له صاحبه من غير ان يحرّض عليه علم المنافع وللعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها فضيلة منزلة عند اهل الفضل في الالباب

عود نفسك السخاء واعلم انهما سخاآن سخاوة نفس الرجل بما في يديه وسخاوته عما في ايدي الناس وسخاوة نفس الرجل بما في يديه اكثرها واقربهما من ان تدخل فيه المفاخرة وتركه ما في ايدي الناس امحض في التكرم وانزه من الدنس فان هو جمعهما فبذل وعفّ فقد استكمل الجود والكرم

ليكن مما تصرف به الاذى والعذاب عن نفسك الا تكون حسودًا فان الحسد خلق لئيم ومن لؤمه انه يوكل بالادنى فالادنى من الاقارب والاكفاء والخلطاء فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أنّ خير ما تكون حين تكون مع من هو خيرٌ منك وأن غنمًا لك ان يكون عشيرك وخليطك افضل منك في العلم فتقتبس من علمه وافضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته وافضل منك في المال فتفيد من ماله وافضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه وافضل منك في الدين فتزداد صلاحًا بصلاحه

ليكن ما تنظر فيه من امر عدوك وحاسدك ان تعلم انه لا ينفعك ان تخبر عدوك انك له عدوٌ فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك قبل الاعداد والفرصة فتحمله على التسلح لك وتوقد ناره عليك

اعلم ان اعظم خطرك ان تري عدوك انك لا تتخذه عدوًا فان ذلك غرّة له وسبيل لك الى القدرة عليه فان انت قدرت فاستطعت اغتفارًا لعداوته عن ان تكافيء بها فهنالك استكملت عظيم الخطر وان كنت مكافئًا بالعدوة والضرر فاياك ان تكافيء عداوة السر بعداوة العلانية وعداوة الخاصة بعداوة العامة فان ذلك هو الظلم والعار . واعلم مع ذلك انه ليس كل العداوة والضرر يكافأ بمثله كالخيانة لا تكافأ بالخيانة والسرقة لا تكافأ بالسرقة ومن الحيلة في امرك مع عدوك ان تصادق اصدقاءه وتؤاخي اخوانه فتدخل بينه وبينهم

في سبيل الشقاق والتجافي فانه ليس رجل ذو طرق (١) يمتنع من مؤاخاتك اذا التمست ذلك منه وان كان اخوان عدوك غيرَ ذوي طرق فلا عدو لك

لا تدع مع السكوت عن شتم عدوك احصاء معايبه ومثالبه واتباع عوراته حتى لا يشذ عنك من ذلك صغير ولا كبير من غير ان تشيع عليه فينقيك به و يستعد له او تذكره في غير موضعه فتكونَ كمتعرض الهواء بنبله قبل امكان الرمي

لا تتخذ اللعن والشتم على عدوك سلاحاً فانه لا يجرح في نفس ولا في مال ولا دين ولا منزلة

ان اردت ان تكون داهياً فلا تحبنَّ ان تسمى داهياً فانه من عُرف بالدهاء خاتل علانية وحذره الناس حتى يمتنع منه الضعيف وان من ارب الاريب دفنَ اربه ما استطاع حتى يُعرف بالمسامحة في الخليقة والطريقة ومن اربه ألاَّ يؤارب العاقل المستقيم له الذي يطلع على غامض اربه فيمقته عليه

ان اردت السلامة فاشعر قلبك الهيبة للامور من غير ان تظهر منك الهيبة فيفطن الناس لهيبتك ويجرّئهم عليك ويدعو ذلك اليك منهم كل ما تهاب فأشعب لمداراة ذلك من كتمان المهابة واظهار الجراءة والتهاون طائفة من رأيك . وان ابتليت بمجازاة عدو مخالف فالزم هذه الطريقة التي وصفت لك من استشعار الهيبة واظهار الجراءة والتهاون وعليك بالحذر في امرك والجراءة في قلبك حتى تملأ قلبك جراءة و يستفرغ عملك الحذر

انّ من عدوك من تعمل في هلاكه ومنهم من تعمل في البعد عنه فاعرفهم على منازلهم ومن اقوى القوة لك على عدوك واعز انصارك في الغلبة ان تحصي على نفسك العيوب والعورات كما احصيتها على عدوك وتنظر عند كل عيب تراه او تسمعه لاحد من الناس هل قارفت مثله او مشاكله فان كنت قارفت منه شيئاً فأحصه فيما تحصي على نفسك حتى اذا احصيت ذلك كله فكابر عدوك باصلاح عيوبك وتحصين عوراتك واحراز مقاتلك وخذ نفسك بذلك ممسياً مصبحاً فاذا آنست منها دفعاً لذلك او تهاوناً به فاعدد نفسك عاجزاً ضائعاً جانياً معوراً لعدوك ممكناً له من رميك وان حصل من عيوبك بعض ما لا تقدر على اصلاحه من امر قد مضى يعيبك عند الناس ولا تراه انت عيباً فاحفظ ذلك وما عسى ان يقول فيه قائل من حسبك او مثالب آبائك او عيب اخوانك ثم اجعل ذلك كله نصب عينيك واعلم ان عدوك مريدك بذلك فلا تغفل عن التهيوء له والاعداد لقوتك وحجتك وحيلتك فيه سراً

---

(١) الطرق بفتح فسكون ضعف العقل وقد طرق كعني فهو مطروق ويقال فلان به طرقة اي هوج . وطرق فلان واخذ في التطريق اذا احتال

وعلانية فاما الباطل فلا تروعن به قلبك ولا تستعدن له ولا تشتغلن به فانه لا يهولك مالم يقع واذا وقع اضمحل

اعلم انه قلما يُبدِه احد بشيء يعرفه من نفسه وقد كان يطمع في اخفائه عن الناس فيعيره به معير عند السلطان او غيره الا كاد يشهد به عليه وجهه وعيناه ولسانه للذي يبدو منه عند ذلك والذي يكون من انكساره وفتوره عند تلك البداهة فاحذرهذه وتصنع لها وخذ اهبتك لبغتاتها

اعلم ان من اوقع الامور في الدين وانهكها للجسد واتلفها للمال واضرها بالعقل واسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرامَ بالنساء ومن البلاء على المغرم بهن انه لا ينفك يأجم ما عنده وتطمح عيناه الى ما ليس عنده منهن . وانما النساء اشباهٌ وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطلٌ وخدعةٌ بل كثيرٌ مما يرغب عنه الراغب مما عنده افضل مما تتوق اليه نفسه وانما المترغب عما في رحله منهن الى ما في رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته الى ما في بيوت الناس بل النساء بالنساء اشبه من الطعام بالطعام وما في رحال الناس من الاطعمة اشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء . ومن العجب ان الرجل الذي لا بأس في لبه يرى المرأة من بعيدٍ متلففةً في ثيابها فيصور لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر ثم لعله يهجم منها على اقبح القبح وادمّ الدمامة فلا يعظه ذلك عن امثالها ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق حتى لولم يبق في الارض غير امرأة واحدة لظن ان لها شأناً غير شأن ما ذاق وهذا هو الحمق والشقاء ومن لم يحم نفسه ويظلفها ويجلها عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته كان ايسر ما يصيبه من وبال امره انقطاع تلك اللذات عنه بخمود نار شهوته وضعف عوامل جسده وقلّ من تجد الا مخادعاً لنفسه في امر جسده عند الطعام والشراب والحمية والدواء وفي امر مروءته عند الاهواء والشهوات وفي امر دينه عند الريبة والشبهة والطمع

ان استطعت ان تنزل نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل فافعل فان رفع الناس اياك فوق المنزلة التي تحط اليها نفسك وتقريبهم اياك في المجلس الذي تباعدت عنه وتعظيمهم من امرك ما لم تعظم وتزيينهم من كلامك ورأيك ما لم تزين هو الجمال

لا يعجبنك العالم مالم يكن عالماً بمواضع ما يعلم . ان غلبت على الكلام وقتاً فلا تغلبن على السكوت فانه لعله يكون المراء واعرفه ولا يمنعك حذر المراء من حسن المناظرة والمجادلة

واعلم ان المماري هو الذي لا يحب ان يتعلم ولا يُتعلم منه فان زعم زاعم انه انما يجادل في الباطل عن الحق فان المجادل وان كان ثابت الحجة ظاهر البينة فانه يخاصم الى غير قاض وانما قاضيه الذي لا يعدو بالخصومة الا اليه عدلُ صاحبه وعقله فان آنس او رجا من صاحبه عدلاً يقضي به على نفسه فقد اصاب وجه امره وان تكلم على غير ذلك كان ممارياً

ان استطعت ان لا تخبر اخاك عن ذات نفسك بشيء الا وانت محتجن عنه بعض ذلك التماساً لفضل الفعل على القول واستعداداً لتقصير فعل ان قصر فافعل واعلم ان فضل الفعل على القول زينة وفضل القول على الفعل هجنة وان احكام هذه الخلة من غرائب الخلال

اذا تراكمت الاعمال عليك فلا تلتمس الروح في مدافعتها بالروغان منها فانه لا راحة لك الا في اصدارها وان الصبر عليها هو يخففها وان الضجر منها هو يراكمها عليك فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد رأيتها تعتري بعض اصحاب الاعمال ان الرجل يكون في امر من امره فيرد عليه شغل آخر ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره فيكدر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان فيه وما ورد عليه حتى لا يُحكم واحداً منهما فان ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذي تختار به الامور ثم اختر اولى الامرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه ولا يعظمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر اذا اعملت الرأي معمله وجعلت شغلك في حقه

اجعل لنفسك في كل شيء غاية ترجو القوة والتمام عليها واعلم انك ان جاوزت الغاية في العبادة صرت الى التقصير وان جاوزتها في حمل العلم صرت من الجهال وان جاوزتها في تكلف رضى الناس والخفة معهم في حاجاتهم كنت المصنع المحشود

اعلم ان بعض العطية لؤم وبعض البيان عيّ وبعض العلم جهل فان استطعت ان لا يكون عطاؤك خوراً ولا بيانك هذراً ولا علمك جهلاً فافعل

اعلم انه ستمر عليك احاديث تعجبك اما مليحة واما رائعة فاذا اعجبتك كنت خليقاً بان تحفظها فان الحفظ موكل بما راع وستحرص على ان تعجب منها الاقوام فان الحرص على ذلك التعجب من شأن الناس وليس كل معجب لك معجباً لغيرك واذا نشرت ذلك مرة او مرتين فلم تره وقع من السامعين موقعه منك فازدجر عن العود فان العجب من غير عجيب سخف شديد وقد رأينا من الناس من يعلق الشيء ولا يقلع عن الحديث به ولا يمنعه قلة قبول اصحابه له من ان يعود ثم يعود

اياك والاخبار الرائعة وتحفظ منها فان الانسان من شأنه الحرص على الاخبار لا سيما ما راع منها فاكثر الناس من يحدث بما سمع ولا يبالي ممن سمع وذلك مفسدة للصدق

ومزراةً بالرأي فان استطعت الاَّ تخبر بشيء الا وانت به مصدق والاَّ يكون تصديقك الا ببرهان فافعل

ولا تقل كما يقول السفهاء أُخبر بما سمعت فان الكذب اكثر ما انت سامع وان السفهاء اكثر من هو قائل وانك ان صرت للاحاديث واعيًا وحاملاً كان ما تعي وتحمل عن العامة اكثر مما يخترع المخترع باضعاف

انظر من صاحبت من الناس من ذي فضل عليك بسلطان ومنزلة ومن دون ذلك من الخلصاء والاكفاء والاخوان فوطن نفسك في صحبته على ان تقبل منه العفو وتسخو نفسك عما اعتاص مما قبله غير معاتب ولا مستبطيء ولا مستزيد فان المعاتبة مقطعة للود وان الاستزادة من الجشع وان الرضى بالعفو والمسامحة في الخلق مقرب لك كل ما تتوق اليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة

اعلم انك ستبتلى من اقوام بسفه وان سفه السفيه سيطلع لك منه فان عارضته او كافأته بالسفه فكأنك قد رضيت ما اتى به فاجتنب ان تحتذي مثاله فان كان ذلك عندك مذمومًا لحقق ذمك اياه بترك معارضته فأَما ان تذمه وتمثله فليس ذلك لك

لا تصاحبن احدًا وان استأنست به اخا قرابة او اخا مودة ولا والدًا ولا ولدًا الا بمروة فان كثيرًا من اهل المروة قد يحملهم الاسترسال او التبذل على ان يصحبوا كثيرًا من الخلصاء بالادلال والتهاون ومن فقد من صاحبه صحبة المروة ووقارها احدث له في قلبه رقة شأن وخفة منزلة

لاَ تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأي ولا تجترئن على تقريعه وتبكيته بظفرك اذا استبان وحجتك اذا وضحت فان اقوامًا يحملهم حب الغلبة وسفه الرأي في ذلك على ان يتعقبوا الكلمة بعد ما تُنسى فيلتمسوا فيها الحجة ثم يستطيلوا بها على الاصحاب وذلك ضعف في العقل ولؤم في الاخلاق

لا يعجبنك اكرام من يكرمك لمنزلة او سلطان فان السلطة اوشك امور الدنيا زوالاً ولا يعجبنك اكرامهم اياك للنسب فان الانساب اقل مناقب الخير غناء عن اهلها في الدين والدنيا ولكن اذا أُكرمت على دين او مروءة فذلك فليعجبك فان المروءة لا تزايلك في الدنيا والدين لا يزايلك في الآخرة

اعلم ان الجبن مقتلة وان الحرص محرمة فانظر فيما رأيت او سمعت أمن قتل في القتال مقبلا اكثر ام من قتل مدبرًا وانظر أمن يطلب اليك بالاجمال والتكرم احق ان تسخو اليك نفسك بطلبته ام من يطلب اليك بالشره

اعلم انه ليس كل من كان لك فيه هوى فذكره ذاكرٌ بسوءٍ وذكرته انت بخير ينفعه ذلك او يضره فلا يستخفنك ذكر احد من صديق او عدو الا في موطن دفع او محاماة فان صديقك اذا وثق بك في مواطن المحاماة لم يحفل بما تركت مما سوى ذلك ولم يكن له عليك سبيل لائمة وان الاحزم في امر عدوك ان لا تذكره الاحيث يضره وألاَّ تعد يسير الضرّ ضرًّا

اعلم ان الرجل قد يكون حليماً فيحمله الحرص على ان يقال جليدٌ والمخافة ان يقال مَهين على ان يتكلف الجهل وقد يكون الرجل زميتًا(١) فيحمله الحرص على ان يقال لسنٌ والمخافة من ان يقال عيٌّ على ان يقول في غير موضعه فيكون هذرًا فاعرف هذا واشباهه واحترس منه كله

اذا بدهك امران لا تدري ايهما اصوب فانظر ايهما اقرب الى هواك فخالفه فان اكثر الصواب في خلاف الهوى

ليجتمع في قلبك الافتقار الى الناس والاستغناء عنهم فيكون افتقارك اليهم في لين كلمتك وحسن بشرك ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك

لا تجالس امرءاً بغير طريقته فانك ان اردت لقاء الجاهل بالعلم والجافي بالفقه والعيّ بالبيان لم تزد على ان تضيع عقلك وتؤذي جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف وغمك اياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الاعجمي الذي لا يفقه واعلم انه ليس من علم تذكره عند غير اهله الا عادَوه ونصبوا له ونقضوه عليك وحرصوا على ان يجعلوه جهلا حتى انَّ كثيرًا من اللهو واللعب الذي هو اخف الاشياء على الناس ليحضره من لا يعرفه فيثقل عليه ويغتم به · ليعلم صاحبك انك حَدِبٌ على صاحبه واياك ان عاشرك امرؤٌ ورافقك ان لا يرى منك باحد من اصحابه واخدانه رأفة فان ذلك يأخذ من القلوب مأخذًا وان لطفك بصاحب صاحبك احسن عنده موقعاً من لطفك به بنفسه

اتق الفرح عند المحزون واعلم انه يحقد على المنطلق ويشكر للمكتئب

اعلم انك ستسمع من جلسائك الرأي والحديث تنكره وتستجفيه من محدث عن نفسه او عن غيره فلا يكونن منك التكذيب ولا التسخيف لشيءٍ مما يأتي به جليسك ولا يجرئنك على ذلك ان تقول انما حدث عن غيره فان كل مردود عليه سيمتعض (٢) من الرد وان كان في القوم من تكره ان يستقر في قلبه ذلك القول لخطأ تخاف ان يُعقد عليه او مضرة تخشاها على احد فانك قادر على ان تنقض ذلك في سر فيكون ايسر للنقض وابعد للبغضة

---

(١) الزميت كامير وسكيت الحكيم الساكن القليل الكلام كالصميت (٢) امتعض من الشيء غضب منه وشق عليه

واعلم ان البغضة خوف والمودة امن فاستكثر من المودة صامتاً فان الصمت يدعوها اليك وناطقاً بالحسنى فان المنطق الحسن يزيد في ود الصديق و يسل سخيمة (١) الوغر

واعلم ان خفض الصوت وسكون الريح ومشي القصد من دواعي المودة اذا لم يخالط ذلك بأو (٢) ولا عجب اما العجب فهو من دواعي المقت والشنآن

تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ومن حسن الاستماع امهال المتكلم حتى يقضي حديثه وقلة التلفت الى الجواب والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم والوعي لما يقول ·

واعلم ان المستشار ليس بكفيل والرأي ليس بمضمون بل الرأي كله غرر لان امور الدنيا ليس شيء منها بثقة ولانه ليس شيء من امرها يدركه الحازم الا وقد يدركه العاجز بل ربما اعيا الحزمة ما امكن العجزة فاذا اشار عليك صاحبك برأي فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعذلاً تقول انت فعلت هذا بي وانت امرتني ولولا انت ولا جرم لا اطيعك فان هذا كله ضجر ولؤم وخفة وان كنت انت المشير فعمل برأيك او ترك فبدا صوابك فلا تمتن ولا تكثرن ذكره ان كان في نجاح ولا تلم عليه ان كان استبان في تركه ضرراً تقول : الم اقل لك الم افعل فان هذا مجانب لادب الحكماء

اعلم فيما تكلم به صاحبك ان مما يهجن صواب ما تأتي به و يذهب بهجته و يزري بقبوله عجلتك في ذلك قبل ان يفضي اليك بذات نفسه · ومن الاخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجل على كلامه والاعتراض فيه والقطع فيه ومن الاخلاق التي انت جدير بتركها اذا حدث الرجل حديثاً تعرفه الا تسابقه اليه وتفتحه عليه وتشاركه فيه حتى كأنك تظهر للناس بانك تريد ان يعلموا انك تعلم من مثل الذي يعلم وما عليك ان تهنئه بذلك وتفرده به وهذا الباب من ابواب البخل وابوابه الغامضة كثيرة

واذا كنت في قوم ليسوا بلغاء ولا فصحاء فدع التطاول عليهم في البلاغة او الفصاحة

اعلم ان بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر وان شدة الاتقاء تدعو اليك ما تتقي

ان رأيت نفسك تصاغرت اليها (٣) الدنيا ودعتك الى الزهادة فيها على حال تعذر منها عليك فلا يغرنك ذلك من نفسك على تلك الحال فانها ليست بزهادة ولكنها ضجر واستخذاء (٤) وتغير نفس عند ما اعجزك من الدنيا وغضب منك عليها مما التوى عليك منها ولو تممت على رفضها وامسكت عن طلبها اوشكت ان ترى من نفسك من الضجر والجزع اشد من ضجرك الاول باضعاف ولكن اذا دعتك نفسك الى رفض الدنيا وهي مقبلة عليك فاسرع اجابتها

(١) السخيمة الضغن والحقد والوغر شدة الغيظ (٢) البأو الكبر والفخر (٣) تصاغر اليه الشيء صار صغيراً عنده (٤) والاستخذاء الخضوع

اعرف عورتك واياك ان تعرّض باحد فيما شاركها واذا ذكرت من احد خليقته فلا تناضل عنه مناضلة المدافع عن نفسه فتتهم بمثلها ولا تلحَّ كل الالحاح وليكن ما كان منك من غير اختلاط فان الاختلاط من محققات الريب. واذا كنت في جماعة قوم ابداً فلا تعمنّ جيلاً من الناس او امةً بشتم ولا ذم فانك لا تدري لعلك تتناول بعض اعراض جلسائك ولا تعلم . ولا تذمنّ مع ذلك اسماً من اسماء الرجال او النساء بان تقول ان هذا لقبيح من الاسماء فانك لا تدري لعل ذلك موافق لبعض جلسائك في بعض اسماء الاهلين والحرم ولا تستصغرنّ من هـذا شيئًا فكله يجرح في القلب وجرح اللسان أشد من جرح اليد

اعلم ان الناس يخدعون انفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال في التماس مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم وكل ذلك ابين عند سامعيه من وَضح الصبح فلا تكونن من ذلك في غرور ولا تجعلن نفسك من اهله

اني مخبرك عن صاحب كان اعظم الناسُ في عيني وكان رأسُ ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه كان خارجًا من سلطان بطنه فلا يشتهي مالا يجد ولا يكثر اذا وجد وكان خارجًا من سلطان فرجه فلا يدعو اليه مؤونةً ولا يستخف له رأيًا ولا بدنًا وكان خارجًا من سلطان الجهالة فلا يقدم الا على ثقة او منفعة وكان اكثر دهره صامتًا فاذا قال بذّ (١) القائلين كان يُرى متضعفًا مستضعفًا (٢) فاذا جاء الجد فهو الليث عاديًا وكان لا يدخل في دعوى ولا يشرك في مراء ولا يدلي بحجة حتى يجد قاضيًا عدلاً وشهوداً عدولاً وكان لا يلوم احداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره وكان لا يشكو وجعًا الا الى من يرجو عنده البرء ولا يصحب الا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعًا وكان لا يتبرَّم (٣) ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى ولا ينتقم من الوليّ ولا يغفل عن العدوّ ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه بحيلته وقوته فعليك بهذه الاخلاق ان اطقت ولن تطيق ولكن اخذ القليل خيرٌ من ترك الجميع وبالله التوفيق

(١) بذهم سبقهم وغلبهم
(٢) استضعفه وتضعفه عده ضعيفًا كضعفه
(٣) بَرِم وتبرَّم تضجر

يتيمة ثانية

لابن المقفع

وقعت شبهة لبعض اهل العلم فيما اذا كانت هذه الرسالة المنشورة قبلُ هي اليتيمة بعينها ام هي يتيمة ثانية لابن المقفع ويزول هذا التناقض اذا لوحظ ما قاله امام المتكلمين ابو بكر الباقلاني البصري المتوفى سنة ثلاث واربعمائة فانه ذكر في كتابه اعجاز القرآن ان الدرة اليتيمة كتابان احدهما يتضمن حكماً منقولة والآخر في شيء من الديانات . غير انه يبقى هناك اشكال في انه ليس في احدى الرسالتين ما يتعلق بالديانات كما قال الباقلاني واذا رضينا بالظن فنقول ان هذا الاسم وضعه اناس لبعض رسائل ابن المقفع ومن هنا نشأ الاشتباه فعددها الناظرون . وبعدان يقال ان ابن المقفع سمى الرسالتين معاً باسم واحد لمخالفته في الظاهر لمقتضى الحكمة . ولو قلنا انه سمى احدى الرسائل فيبعد مع قرب عصر الناقلين عنه وقوع الاشتباه في المسمى مع شدة عنايتهم بجميع ما قال . اما الرسالة الثانية فمنقولة عن كتاب المنثور والمنظوم المحفوظ في دار الكتب المصرية لمؤلفه ابي الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور من ابناء خراسان ولد كما جاء في فهرستها سنة ٢٠٤ وتوفي سنة ٢٨٠ وهاك ما اورده ولم نحذف منه الا بعض جمل اشرنا اليها بحرف (ف) لانها محرفة جدًا لم نهتد الى وجه الصواب فيها قال ابو الفضل احمد بن ابي طاهر : ومن الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا اشباه وهي اركان البلاغة ومنها استق البلغاء لانها نهاية في المختار من الكلام وحسن التأليف والنظام الرسالة التي لابن المقفع وهي اليتيمة فان الناس جميعاً مجمعون انه لم يعبر احد عن مثلها ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها ومن فصولها قوله في صدرها ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها في ايدي الرواة فمن فصولها قوله في صدرها

وقد اصبح الناس الا قليلاً ممن عصم الله مدخولين منقوصين فقائلهم باغ وسامعهم عياب وسائلهم متعنت ومجيبهم متكلف وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل وموعوظهم غير سليم من الهزء والاستخفاف ومستشيرهم غير موطن نفسه على انفاذ ما يشار به عليه ومصطبر للحق مما يسمع ومستشارهم غير مأمون على الغش والحسد وان يكون مهتا كاً للستر مشيعاً للفاحشة مؤثراً للهوى والامين منهم غير متحفظ من ائتمان الخونة والصدوق غير محترس من حديث الكذبة وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة و يتقارضون الثناء و يترقبون الدول و يعيبون بالهمز يكاد احزمهم رأياً يلفته عن رأيه ادنى الرضا وادنى السخط و يكاد يكون امتنهم عودا ان تسخره الكلمة وتنكره اللحظة وقد ابتليت ان اكون قائلاً وابتليتم ان تكونوا سامعين ولا خير في القول الا ما انتفع به ولا ينتفع الا بالصدق ولا صدق الا مع الرأي ولا رأي الا في موضعه وعند الحاجة اليه فان خير القائلين من لم يكن الباطل غايته ثم لزم القصد والصواب وخير السامعين من لم يكن ذلك منه سمعة ولا رياء ولم يتخذ ما يسمع عوناً على دفع الهدى ولا بلغة الى حاجة دنيا فان اجتمع للقائل والسامع ان يرزق القائل من الناس مقةً وقبولاً على ما يقوله و يرزق السامع اتعاظاً بما يسمع في امر دنياه وقد صلحت نياتهما في غير ذلك فعسى ذلك ان يكون من الخير الذي يبلغه الله عباده و يعجل لهم من حسنة الدنيا ما لا يحرمهم من حسنة الآخرة كما ان المريد بكلامه ان يعجب الناس قد يجتمع عليه حرمان ما طلب مع سوء النية وحمل الوزر · وقد وافقتم من مسارعة فيما سألتموني فـ طمعاً في ان ينفع الله بذلك من يشاء فانه ما يشاء يقع ·

اما سؤالكم عن الزمان فان الزمان الناس · والناس رجلان والٍ وموليّ عليه · والازمنة اربعة على اختلاف حالات الناس فخيار الازمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية فكان الامام مؤدياً الى الرعية حقهم في الرد عنهم والغيظ على عدوهم والجهاد من وراء بيضتهم والاختيار لحكامهم وتولية صلحائهم والتوسعة عليهم في معايشهم وافاضة الامن فيهم والمتابعة في الخلق لهم والعدل في القسمة بينهم والتقويم لاودهم والاخذ لهم بحقوق الله عزَّ وجل عليهم وكانت الرعية مؤدية الى الامام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وترك المنازعة في امره والصبر عند مكروه طاعته والمعونة له على انفسهم والشدة على من اخل بحقه وخالف امره غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا ابناءهم ولا لابسين عليه احداً · فاذا اجتمع ذلك في الامام والرعية تم صلاح الزمان وبنعمة الله تتم الصالحات ثم ان الزمان الذي يليه ان يصلح الامام نفسه و يفسد الناس ولا قوة بالامام مع خذلان الرعية ومخالفتهم وزهدهم في صلاح انفسهم على ان يبلغ ذات نفسه في صلاحهم وذلك اعظم ما تكون نعمة الله على الوالي

وحجة الله على الرعية بواليهم فبالحري ان يؤخذوا باعمالهم وما اخلقهم ان لا تصيبهم فتنة او عذاب اليم ·

والزمان الثالث صلاح الناس وفساد الوالي وهذا دون الذي قبله فان لولاة الناس يدًا في الخير والشر ومكانًا ليس لاحد وقد عرفناه فيما يعتبر به ان الف رجل كلهم مفسد واميرهم مصلح اقل فسادًا من الف رجل كلهم مصلح واميرهم مفسد · والوالي الى ان يصلح ادبه الرعية اقرب من الرعية الى ان يصلح الله بهم الوالي · وذلك لانهم لا يستطيعون معاتبته وتقويمه مع استطالته بالسلطان والحمية التي تعلوه · وشر الزمان ما اجتمع فيه فساد الوالي والرعية (ف) فقولي في هذا الزمان انه الا يكن خير الازمان فليس على واليكم ذنب والا يكن شر الازمان فليس لكم حمد ذلك غير انا بحمد الله قد اصبحنا نرجو لانفسنا الصلاح بصلاح امامنا ولا نخاف عليه الفساد بفسادنا قد رأينا حظه من الله عز وجل في التثبت والعصمة فلم يبرح الله يزيده خيرًا ويزيد به رعيته مذ ولاه فعندنا من هذا وثائق من عبر وبينات ونحتسب من الله عز وجل ان لا يزال امامنا يسارع في مرضاة ربه بالاستصلاح لرعيته والصبر على ما يستنكر منهم وقلة المؤاخذة لهم بذنوبهم حتى يقلب الله له بصلاحه قلوبهم ويفتح له اسماعهم وابصارهم فيجمع ألفتهم ويقوم اودهم ويلزمهم مراشد امورهم وتتم نعمة الله على امير المؤمنين بان يصلح له وعلى يديه فيكونوا رعية خير راع ويكون راعي خير رعية ان شاء الله وبه الثقة ·

والذي يحمد من امير المؤمنين انا ذاكر ما تيسر منه (ف) وقلما نلقى من اهل العقل والمعاينة منكرًا لنعمة الله بامير المؤمنين على المسلمين (ف) ومن اشد جهلاً واقطع عذرا ممن لم يعرف النعمة ولم يقبل العافية نعوذ بالله ان نكون من الذين لا يعقلون فتفهموا ما انا ذاكر لكم وتدبروه بالحق والعدل فان المرء ناظر باحدى عيون ثلث وهما الغاشتان والصادقة وهي التي لا تكاد توجد · عين مودة تريه القبيح حسنًا · وعين شنآن تريه الحسن قبيحًا · وعين عدل تريه حسنها حسنًا وقبيحها قبيحًا · فتفكروا فيما جمع الله لامير المؤمنين في معدنه وفي سيرته وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك فيما عسى القائل ان يبتغي فيه الغمز والمقال فلعمري ان الشيطان من اهواء الناس والسنتهم في الامر لمصيب وان له لمستراحا حين يستوفي أمنيته ويصدق عليهم ظنه ويوحي اليهم بمكايده فيجعل الله كيده ضعيفًا وحزبه مغلوبًا وجعله واياهم نصيبًا لجهنم من اجزائه المقسومة لابوابها وحطبها ووقودها وحصبها ليعدّها فمن كان سائلا عن حق امير المؤمنين في معدنه فان اعظم حقوق الناس منزلة واكرمها نسبة واولاها بالفضل حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وامام

الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليهما وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بعثه الله بشيرًا ونذيرًا وداعيًا الى الله باذنه وسراجًا منيرًا ثم هو باعثه يوم القيامة مقامًا محمودًا شرع الله به دينه واتم به نوره على عهده ومحق به رؤوس الضلالة وجبابرة الكفر وخوله الشفاعة وجعله في الرفيق الاعلى صلى الله عليه وسلم

الصنائع الاسلامية

نشرت مجلة العالم الاسلامي الفرنسوية فصلاً مهماً للمسيو كليمان هوار من علماء المشرقيات في الادوار التي تقلبت على الصنائع الاسلامية قال : اصدر كل من المسيو سالادين والمسيو ميجون مختصرًا في الصنائع الاسلامية وقع في مجلدين ضخمين احدهما في الهندسة الاسلامية والآخر في فن التصوير والنقش . ولقد لفت انظار الناس معرض الصنائع الاسلامية الذي أُقيم في قسم مرسان سنة ١٩٠٣ والمعرض الذي وافق وقته زمن انعقاد مؤتمر المستشرقين الدولي في الجزائر سنة ١٩٠٥ لاعلاق الصنائع الاسلامية التي كانت حتى الآن مزهودًا فيها اللهم الا عند بعض غلاة في جمعها ممن حصلوا على مجاميع بديعة منها . ففي البحث في هذا الموضوع تتجلى لنا القرون الوسطى في الشرق وتحيا امامنا على مثل ما كانت عليه . وما من احد يصدق اليوم بان العاديات القديمة تستحق اعجاب ارباب الصنائع والمولعين في اقتنائها فقط بل ان ارتقاء فن الآثار ارتقاء خارقًا للعادة بفضل الاكتشافات المدهشة في السنين الاخيرة والبحث في آثار القرون الوسطى اليونانية والغربية قد وجه انظار المتعلمين . فمن الواجب من ثم ان يجعل حظ عظيم من البحث للقرون الوسطى الاسلامية لانها من اجمل الادوار التي يتأتى للانسانية ان تفاخر بها وكانت مراكز الحضارة التي انشأتها قديمًا تلك المدنية في آسيا حلقة ضرورية لنا تربط اوروبا بالشرق بل تقرب بين القرون الحديثة والقرون القديمة وتصل عمران البحر المتوسط بتمدن آسيا العليا .

ان درس المصانع المصورة اليوم هو من المتمات الضرورية للتاريخ كما كانت الجغرافية ولا تزال كذلك . فدرسها نافع للنظر في الآثار القديمة التي عرفناها منذ القدم كما هو لازم للوقوف على حال القرون الوسطى التي شرع بالبحث فيها منذ حين ولا سيا فيما له علاقة بالشرق مما هو موضوع الابحاث الاخيرة . وقبل ان يبدأ بها لم يكد يعرف عنها شيء . وقد جعل المؤلفان النبيهان المشار اليهما من التصوير الشمسي اكبر مساعد لهما في كتابهما الوجيز

لجاء الاول من نوعه وكان من هذين المجلدين مجموعة تصاوير اذا فحصها المرء تمثل لعينيه مصانع الشرق وشؤونه عياناً ان لم يكن رآها من قبل ويتذكرها باعيانها اذا كان أُتيح له ان متع نظره فيها ذات يوم . سهلت اسباب التنقل واصبحت قريبة المنال فغدت الاستانة والقاهرة والهند غير بعيدة المزار كما كانت وربما تعدت كذلك طهران واصفهان عما قريب ولذلك جاء الزمن الذي تعرض فيه على الجمهور في صورة كتاب مجموع الاطراف زبدة ما يعرف عن ارتقاء الصنائع وترتيب المصانع الاسلامية .

لم يتأت والاسلام في مبدإ ظهوره وشعشعته الاولى محصور في حدود شبه جزيرة العرب ولم ينتشر بعد في البلاد المجاورة ان ينشأ شيء من الصنائع في تلك الاصقاع المقفرة التي تطوفها العرب الرحالة على قلة مدنها وبلدانها ويقضي فيها التجار عيشة بسيطة خالية عن أبهة الحضارة . وكان المعبد العظيم في الحجاز عبارة عن مكعب من الصخر خالٍ من الزينة وقد بقي زمناً طويلاً بدون سقف ثم غطي بسقف من الخشب على يد عامل من القبط نجا من سفينة يونانية غرقت فالقته الاقدار في بلاد العرب وجذبته مكة اليها لاحوال غير معلومة . وكانت القوافل عند عودتها من سورية وقد سرحت الطرف في المصانع العظيمة فيها على العهد الامبراطوري تقص احاديث عجيبة مما رأت فأُشربت نفوس الشعب تلك القصص وكان منها ان انشؤا في صحاري شمالي بلاد اليمن جنات النعيم وهي ارم ذات العماد الغريبة وقد بُنيت في غالب الظن على مثال دمشق وتدمر وبعلبك . وكانت العرب الرحالة ترى ان القبور التي نحتها في الصخر في مدائن صالح جماعةٌ من المستعمرين الآراميين في صميم بلاد العرب انها بيوت الثموديين وذكرها محمد (عليه السلام) بان الغضب الالهي نالها لانها انكرت ان ناقة صالح غير مقدسة . وكانت المصانع التي خلفتها الشعوب القديمة البائدة تنسب الى عاد ممن بادوا فلم يبقوا من الآثار غير ما خلفوه من اعمالهم التي حيرت عقول البدو

اما الآن فليتمثل القارىء الفاتحين من العرب يجولون في اكناف سورية ومصر وفارس وافريقية الشمالية واسبانيا وكلها بلاد متحضرة مملوءة ببدائع الصنائع واعمال الهندسة . ولكم كان العربي الرحالة يندهش عند ما كان يقع نظره على بيوت ذات ثلاث طبقات في مكة ويثرب فتتراءى له انها قلاع وهو لا عهد له من قبل الا بخيمته السوداء او الدكناء المصنوعة من وبر العنز . وبعد ان كان المسجد البسيط الذي يسع النبي واصحابه وهو عبارة عن كوخ خالٍ من الزخرف مبني باللبن وجذوع النخل ليس فيه ساف من الحصا على التراب المرصوص ظهر للعالم بانه غير كاف لاستيعاب جمهور من دانوا بالاسلام وغير لائق (١) بان يكون

(١) نحن نترجم بالحرف ونترك البحث في بعض تعليلات الكاتب لارباب النظر

بيت الواحد الاحد . وزد على ذلك فان الفاتحين من المسلمين كانوا يشاهدون الكنائس الجميلة التي انشأها المتقون من النصارى ويقابلون بين التأنق فيها وبين شقائهم في سكنى البادية .

اكتفى الخلفاء الاول بان سكنوا بيوتهم التي يأوون اليها كما فعل امبراطرة رومية الأول لان المسجد كان لهم ميداناً ومحكمة وندوة . ولما صار الامر الى معاوية طمحت بهم نفوسهم الى اتخاذ القصور يعمدون اليها ليستروا فيها غفلتهم وبذخهم وزهوهم .

فبالهندسة بدأ نمو الصنائع التي دعا اليها الفتح الاسلامي وما كان للعرب صنائع خاصة بل استخدموا باديء بدء من المهندسين وارباب الصنائع من وجدوهم في البلاد التي افتتحوها فكان اسلوب البناء الاسلامي في اول الامر سورياً في سورية وقبطياً في مصر وبيزنطياً في آسيا الصغرى ورومانياً بربرياً في افريقية ورومانياً ايبيرياً في اسبانيا وبارتياً (١) وساسانياً في فارس وبين النهرين .

رأينا صوراً من الهندسة الآسياوية تنقل الى البلاد المغلوبة على امرها عند ما كان الشرق اولاً ميداناً للفاتحين . وانك لتشاهد في اقدم المصانع المنقوشة المزينة في المغرب والمسجد الاعظم في قرطبة ومسجد سيدي عقبة في القيروان مسحة من الزينة الشرقية نقلها اليها صناع صحبوا الفاتحين او نسجت على مثال صور الاقمشة والزرابي المطرزة والبسط المجلوبة من الشرق .

ومن مميزات الهندسة الاسلامية القبة ذات الشكل البيضوي وهي منقولة بلا مراء عن اصل جاء من بين النهرين اي اشوري بابلي . وقد بقي منها نموذج سالم من الصور البارزة في قيونجق (٢) زمن الدولة الساسانية كما هو المشاهد من صورة اقواس المدائن وساروستان وفيروزآباد فتبين بهذا ان ماضي الهندسة الاسلامية كان عظيماً والتمدن الاسلامي جدد استعمالها . وانا لنجد منارات جوامع سامرا وابن طولون في القاهرة ابراجاً ذات ادراج على شكل حلزوني وبعيد ان لا نعترف فيما رأينا بانها بقايا من معابد رصد الافلاك الكلدانية التي نجد برج بابل مثالاً مشهوراً منها .

رأت العرب في سورية ومصر الصناعة البيزنطية ودرسوها عن أمم وما هي الا تشويه

---

(١) البارتيون هم سكان اعالي آسيا الواقعة بين الفرات غرباً وبحر الخزر شمالاً ونهر جيحون شرقاً وبحر الهند جنوباً واهم مدنهم الدامغان « هيكاتومبيلوس » والمدائن « كتيزيفون »

(٢) قرية وتلال واقعة على الشاطيء الشمالي من دجلة قبالة الموصل وهي في البقعة التي كانت فيها نينوى وقد اغتنت متاحف اوروبا واميركا بما أخرج من آثارها وتماثيلها ونقوشها والواحها الخزفية وهي صادرة عن ملوك اشور

آسياوي للصناعة الرومية الرومانية اهم آثارها جامع اياصوفيا في الاستانة . وبقيت الصناعة اليونانية آخذة بالتبدل بعد فتوحات الاسكندر وظلت كذلك الى ان خطر للملك قسطنطين ان ينقل عاصمة المملكة الى ضفاف البوسفور ولا يخفى ما حدث من السرعة في تمازج العنصر اليوناني بالعناصر اللاتينية واللغة اللاتينية . فالتقاليد العسكرية والقضائية والادارية فقط بقيت زمناً قصيراً بحالها اما الصلات المتصلة التي كانت لمملكة الروم « بيزانس » مع المملكة الفارسية فقد كان منها ان بدلت الصنائع بتأثيرات آسياوية وتقدمت فيها تقدماً هائلاً حتى ان الالبسة وتزيين الابنية الداخلي وقصور الامبراطرة وادوات تنعمهم وبذخهم كلها لم يكن فيها شيء يشير الى انه روماني .

سلمت عدة مصانع ومعاهد من اوائل الهندسة الاسلامية واعجبها المسجد الاقصى في القدس وان شئت فقل قبة الصخرة اذا اردت ان تسميها باسمها الحقيقي . وليس هذا المسجد في الواقع جامعاً لان هذا النوع من الابنية معروف بما يماثله مثل مسجد عمرو بن العاص في القاهرة الذي انشيء سنة ٦٤٢ م وهو عبارة عن حائط له عدة محاريب لضبط سمت القبلة التي توجه اليها الوجوه للصلاة . وكانت القبلة الى القدس اولاً فاصبحت منذ الف وثلثمائة وخمسة وعشرين عاماً الى مكة ثم هناك صفوف من الاعمدة ومكان مربع مكشوف وفي وسطه صهريج ماء للوضوء . وعلى العكس في قبة الصخرة كما يستفاد من اسمها على ما هو المعروف فانها تشغل فسحة المعبد . وهذا الشكل وطني جعل على رسم كنيسة العذراء في انطاكية في شكل بيت مدور ذي قباب وعده المسعودي المؤرخ من اعاجيب الدنيا . ويوجد من هذا الشكل ايضاً في اواسط سورية وحوران وآسيا الصغرى وقد أنشيء هذا البناء على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي سنة ٦٨٧ ولما رم بعضه الوليد سنة ٧٠٧ جعل من خارجه الفيسفساء صنعها له صناع يونان بعث بهم اليه امبراطور القسطنطينية . وعلى عهد السلطان سليمان القانوني استعيض عن احجار الفيسفساء بكاشاني محلي بالمينا . فالقبة والحالة هذه هي صوان او وعاء مقدس للصخرة والمسجد الحقيقي هو الذي يشرف على حوائط المكان في الجنوب ويدعى بالمسجد الاقصى وقد اشير اليه في القرآن والمراد به معبد سليمان .

بنيت المساجد في المغرب على مثال جامع عمرو . فجامع الزيتونة في تونس المؤسس سنة ٧٢٢ مؤلف من افنية موازية لحائط المحراب وفناء (صحن) اوسط كبير وصفوف من العمد مؤلفة من مواد قديمة او بيزنطية جاءت من قرطاجنة الرومانية . وانشيء المسجد الاعظم في قرطبة سنة ٧٨٥ على ذاك المثال ولكن زينته تختلف عن غيره من المساجد اختلافاً كلياً

فان القطع العديدة التي بقيت من آثار القوط الغربيين واستخدمت في البناء تدلنا على ان المصانع المسيحية في اسبانيا قبل القرن الثامن كان لها اثر كبير في انشاء الهندسة العربية الاصلية ٠

والبحث في الهندسة الفارسية نافع على وجه خاص وذلك لانها حفظت لنا تقاليد قديمة لها علاقة بالهندسة فاحسنت الانتفاع بها ورقتها واكملتها ٠ فان بناء القباب كانت الطريقة التي اختيرت من بين اساليب البناء لقلة الخشب الذي يصلح للبناء في معظم اقطار تلك البلاد ٠

وبلغ من حذق الفرس الغريب انهم يمثلون لعينيك اذا نظرت الى ابنيتهم كأنهم يلعبون بالمصاعب لعباً ٠ ولم تبلغ امة من الامم مبلغهم في ايجاد طرق منوعة غريبة في القباب على اشكال غير متناسقة الا فرنسا فانها قلدتهم في القرون الوسطى ٠ والى الفرس يرجع الفضل في اختراع المقرنصات وهي من الصنائع الغريبة ذات النقوش التي تستر البناء البارز المشبك ٠ واكثر ما فاقت به فارس تفتنها في تزيين الابنية بالكاشاني (القيشاني) وهو نقش رائع الا انه سريع العطب تبتهج به العيون ما دام الملاط (المونة) الذي يلصقه بالبناء الاصلي على حاله متماسكاً فاذا قُلع لقلة العناية به وسقط وتناثر من آفات اصابته ودفن في الارض نبت العيون عنه واستوحشت من النظر اليه ٠

وصناعة الكاشاني قديمة جداً في البلاد الايرانية فقد زين ملوك الاخمانيين قصورهم بنقوشها البديعة التي جُعل بعضها في قاعات متحف اللوفر المظلمة ولا يزال يأسف على الهواء المضيء والشمس المشرقة في سهول فارس ٠ وبدأ استعمال الكاشاني في فارس بعد ظهور الاسلام فيها فجعل القرميد اولاً محلى بالمينا في اطراف الاحجار مفصولاً من داخله بآجر او بملاط من الجير والرخام ثم استعملوا نوعاً من البناء ملوناً مؤلفاً من قطع صغيرة مجزءاً موضوعاً بعضه بجانب بعض ٠ كما فعلوا في ابنية الرخام او الخشب في ايطاليا توصلاً الى تزيينها بصفائح من الكاشاني على سطوح متسعة وقد شوهدت منذ القديم عندهم بنايات بارزة داخلها ازرق كالفيروز اوابيض كالعاج ويكثر انعكاس الاشعة التي تلمع فيها كلمعان السيوف كما تشهد في « امام زاده يحيى » في ورامين (١) وهو من القرن الثالث عشر ٠ وابنية اصفهان التي انشئت على عهد الشاه عباس الاول اجمل مثال من هذه النقوش العجيبة وثمة ارتقاء طويل في الصناعة ٠ ويتيسر تتبع ادوار هذه الصناعة اذا بحث في مصانع السلجوقيين في قونية التي أنشئت في القرن الثالث عشر وفي البنايتين اللتين أنشئتا على الطرز الفارسي في مدينة بورصة وفي المسجد الاخضر وقبر محمد الاول اللذين أسسا في القرن الخامس عشر ٠

---

(١) بليدة من نواحي الري قرب زامين

بنيت جميع المساجد التي انشأها سلاطين بني عثمان على مثال كنيسة اياصوفيا . وقد كثر البناء على هذا الشكل في جميع المساجد التي أسست في المملكة العثمانية بعد القرن السادس عشر فالصورة الاصلية من هذا البناء هي اذاً بيزنطية ولكن الاسلوب الفارسي يظهر في بعض انواع الزينة كالابواب والكوى المقرنصة مثلاً . ومسجد بايزيد اقدم اسلوب من هذا النوع عمره المهندس خير الدين . ومسجد محمد الثاني الغازي انشأه خريستو دولو محل كنيسة الحواريين وخرب كله بزلزال سنة ١٧٦٣ ثم أعيد انشاؤه على عهد السلطان مصطفى الثالث الا انه لم يرجع الى ما كان عليه من اسلوب البناء .

واقدم المصانع الاسلامية في الهند مسجدا دهلي واجمير اللذان انشئا في القرن الثالث عشر. وهما من المصانع التي قامت على اسلوب جينا Djaïna (١) كما اثبت ذلك الرحالة فرغوسن والرسم العام منه هندي ثم اثرت فيه الاساليب الايرانية والغربية وظهرت فيه النقوش المشجرة وهي تذكر بقصر ماشيتا (٢) وهوساساني او ببعض محال من اياصوفيا .

وقد كان اول سلطان لبيجابور (كذا) ابن السلطان العثماني مراد الثاني الذي ارتقى من رتبة ضابط في الحرس الى عرش الملك فانشأ له دولة وبنى حفيد حفيده عادل شاه اجمل مصانع تلك المدينة . وطرز بنائها مأخوذ من اسلوب غربي حتى لقد ذهب الرحالة فرغوسن عند ما ذكر اصل هذه الدولة وكيفية نشأتها الى انها اختارت من الصناع فرساً واتراكاً . ودخل التمدن الايراني والصناعة الفارسية الى الهند على عهد فتح بابر (ظاهر الدين محمد من احفاد تيمورلنك) وتأسيس مملكة المغول العظمى . وعلى عهد السلطان اكبر انتشر الاسلوب الهندي في البناء فظهر بمظهر بديع مع المحافظة على اشكاله الغريبة وعرف كيف يمزج في المصانع التي لها صورة خاصة الظرف والبهجة عن الفرس ويضمها الى متانة الاسلوب الجيني والافغاني . فقد قال مؤرخ فنون البناء الهندية (فرغوسن) انهم كانوا يبنون كالجبابرة وينقشون كالصياغ . ولا يفوتنا النظر هنا بان استعمال الكاشاني على طريقة عامة لم يبق له اثر في تلك البلاد بل اخذت الهند تبني بالحجارة والرخام وهو ادل على البراعة في الصناعة وامتن وافخم . اما النقش الفارسي على جماله فقليل البقاء وياللاسف اشبه بزينة مسرح التمثيل تزول اذا صفر لها من عهدت اليه ادارة حركة التمثيل ليجعل غيرها مكانها . ولا يعلم لاي امة ينسب مهندس بناء تاج محل في آكرا (الهند) ولكن المعلوم ان السلطان محمد الرابع بعث الى شاه جنان مهندساً يبني له في احمد آباد قبة نور محل ولا ينبغي

(١) الجينا احد مذاهب الهنود يبلغ اهله نحو مليون نسمة وهم معروفون بعزة نفوسهم وامانتهم ولعلهم هم المقصودون هنا (٢) ينسب للملك خسرو

العجب اذا رأينا من بعد هذا العصر الاشكال الفارسية مطبقة على البناء من الرخام في حجم كبير . ويقال ايضاً ان رجلاً فرنسوياً من بوردو اسمه اوستين او اوغوستين الذي لقب نادر العصر قد عهد اليه النظر في اعمال ترصيع الحجارة الكريمة التي ازدان بها تاج محل من داخله وخارجه . ولذلك كان الحق مع المسيو سلادين في قوله بانه يظهر بان يد مهندس او روبي قد رسمت الصور الواضحة ورسوم جانب البناء الكثيرة التدقيق في هذا المصنع ولعل هناك اثراً من التأثير الغربي .

اما في الصين فان هندسة الجوامع صينية محضة ولم تقتبس شيئاً عن البلاد التي يتكلم اهلها بالعربية ولا عن فارس ولا الهند .

لم يكن للنقش اذا قيس بالهندسة شأن ظاهر . ولا يسعنا هنا ان نبحث في استعماله للتزويق فان ما لدينا منه قليل لا يعتد به وقد ازدانت حوائط قصير عمرا بالنقوش ولكنها بيزنطية . وكان ملوك الفاطميين يزوقون قصورهم في القاهرة بصور ذات ارواح كما قال المقريزي . وجلب اليازوري وزير المستنصر بالله الى مصر ابن عبد العزيز والقصير وهما نقاشان مشهوران الاول من البصرة والثاني من العراق فكانا يمثلان بما ينقشان نساء يرقصن ومشاهد مأخوذة من التواريخ المنقولة عن التوراة على نحو ما اوردها القرآن ولكن لم يبق شيء مما نقشاه . وما على من اراد ان يتمثل كيف كان النقش عند العرب الا ان ينظر الى نقش المخطوطات ولا سيما الصور المصغرة التي تستعمل فيها رسوم الاشخاص والحيوانات دليلاً . ويرتقي عهد اقدم المخطوطات العربية من هذا النوع الى صلاح الدين وبعبارة ثانية الى الدولة الايوبية وهي من اصل بيزنطي على ما يتجلى منها كل التجلي . ومن اهم الامثلة في هذا الباب كتاب مقامات الحريري المخطوط وهو مما ملكه شفر (العالم الفرنسوي) وألحق بجامع خزانة كتب الامة بباريز كتب كاتبه اسمه في آخر ورقة منه واسمه يحيى بن محمود بن يحيى بن ابي الحسن نشأ في واسط من بلاد بين النهرين . ومما حواه صفحة تمثل جيشاً للعباسيين يحملون العلم الاسود ويضربون بابواق ضخمة فارسية كما رسمت فيه ايضاً مشاهد من غير هذا الشكل وتجد فيها كلها اثراً ظاهراً من تأثيرات الرسم البيزنطي وذلك للتوسع في صنعها الذي يشبه رسوم الحيطان على الكنائس الكبرى .

ان ما كتب في مصر من المصاحف هو من الصنائع البديعة فتراها محلاة بالعناوين المزوقة والنقوش المدورة الموضوعة في الحواشي من اجمل ما تخط يد وهي من زمن المماليك . ولا يعرف المرء بماذا يعجب في صناعة مزج الذهب بالالوان بدقة الرسم ولطفه او بالذوق العظيم الذي اوجد الوفاً من التراكيب المزينة الهندسية . وقد انتشر الرسم المصغر في فارس

اكثر من غيرها فظهرت الكتب المزينة بالرسوم بظهور دولة المغول التي اسسها هولاكو حفيد جنكيزخان . وربما كان هذا النقش قد ظهر بتأثير الصنائع الصينية (لانه كانت للساسانيين كتب مزينة بصور لم يذكر عنها كتاب مجمل التواريخ غير اخبار ركيكة) اما الاكتشافات الحديثة في خوقند التي لم يطلع عليها المؤلفان المشار اليهما (ظهر مصنف المسيو ستين حديثاً) فقد اوردت لنا امثلة من الصناعة البوذية والفارسية معاً ويجب ان يبحث فيها عن الاصل الذي اخذت منه فارس طريقتها في النقش وعلى هذا فتكون تركستان الصينية هي الطريق التي دخل منها الى ايران تأثير آسيا الشرقية .

ومهما يكن من منشإها فمن المحتمل ان فارس نقلت طريقة التصوير المصغر عن مملكة ايلخان . وبذلك ساغ لنا ان نجعل الرسم ثلاث طرق او ثلاثة مذاهب وهي المغولي والتيموري والصفوي ومن الجنس الاول الصورة المصغرة الوحيدة التي رسمت في تاريخ جهان خوشاي لعلاء الدين الجويني (المحفوظة في مكتبة الامة بباريز) وهي تمثل المؤلف يقدم نسخة من كتابه الى آراغون . وقد تجلى تأثير الصين كل التجلي بعد عهد تيمور بحيث ان النفس تحدث المرء اذا نظر الى رسوم ذاك الدور فيما اذا كان هناك اناس من ارباب الصنائع من الفرس تخرجوا على ايدي اناس من الصينيين او ان هؤلاء النقاشين هم صينيون في الاصل جيء بهم الى فارس فرسموا ما رسموا

بين العصر الماضي وهذا العصر بون بعيد لانه دور التوسع الصناعي الموافق للعهد الذي كانت فيه بلاد الفرس وتركستان غاصة ببدائع المصانع . ولقد غصت بخارا وخيوه وطاشقند بالصناع الذين ازدانت بمصنوعاتهم دور الكتب في اوروبا . ثم ان عصر الصفوية السعيد قد ازهرت فيه صناعة بديعة غريبة تعلم اربابها في سمرقند وبخارا ولما انتقلت الى الهند مع سلاطين المغول همايون واكبر وجهانكير واورنك زيب انشأت فيها بدائع في الرسم والنقش باسلوب يتنافس الناس في اوربا في الحصول عليه . وما هذه الرسوم الا مستندات ثمينة لا تقدر بقيمة سواء كان من حيث التاريخ او للوقوف على الاحوال الاجتماعية في الهند في القرن السابع عشر والثامن عشر . والصناعة الصفوية لينة سهلة تتجلى فيها العواطف الرقيقة ذات بهجة فاتنة . واشتهرت النقوش التي كتبت بقلم الرصاص بوضوح التقاطيع وثبات الشكل والصورة

وانتقل النقش على عهد الشاه عباس الاول الذي كان يحب الابهة وهو على شيء من الافكار العالية والمدارك الواسعة من الكتب المخطوطة الى حوائط القصور في اصفهان وما زال من هذه النقوش بقايا في قصر علي قبو وقصر الاربعين عموداً . وقد كان

السائح الروماني « بيترو دلافال » استصحب معه نقاشاً في رحلته الى بلاط فارس فمن الممكن ان يكون الشاه اخذ رأي هذا النقاش و باحثه في الرسوم الكبرى التي اعتاد الطليان رسمها على الجدران فنبه فكره الى ان يزوق قصوره على مثالهم · ولكن هذا من القياس الفرضي وكان على بيترو وقد اطال في رحلته بوصف ما عمل و رأى ان لا يقصر في ذكر ذلك· على ان كثيراً من النقوش الفارسية تشعر بتأثيرات النقش الايطالي ·

وكثيراً ما تكون جلود الكتب غاية في الجمال ومن الخسارة ان مؤلفي كتاب الوجيز المشار اليهما لم يدخلا في تفصيل ذلك · ولقد شاهدت في الاستانة بعض المولعين بالآثار يأخذون الجلود القديمة كافة ليجعلوها في المتاحف مثالاً من امثلة الحذق في الصنائع · والجلود المصمغة عند الفرس غاية في الجمال و يتألف من بعضها جداول حقيقية ·

(الباقي للآتي)

اللغة والدخيل

في مصر اليوم حركة فكرية مدارها الائتمار فيما وصلت اليه اللغة العربية في هذا العهد من العجز والتقصير والنظر فيما ينشطها من عقالها ويخرج بها من هذا المأزق الحرج بعد ما استحدث من المخترعات والمكتشفات والمصطلحات العلمية ما ضاق عطنها عن قبوله · فكتب الكاتبون في ذلك ما كتبوا وذهب كلٌّ مذهبه وابان عن رأيه حتى اوشكت هذه الفكرة ان تتعدى حدّ القول فيؤذن مؤذن الفلاح بحيّ على خير العمل · ولنا في النهضة الكريمة التي قام بها رجال نادي دار العلوم خير شاهد على ما نقول ·

وقد كنت ممن خاض هذا الغمار واجال القلم في هذا المضمار فنشرت في صحيفة المؤيد عشرين كلمة من العاميّ والدخيل اردفتها بما يرادفها من العربي الفصيح وقصدت بذلك عرضها للنقد والتمحيص حتى يتبين الصحيح من الزائف اذ لا ينبغي للفرد الواحد ان يستبد بمثل هذا العمل · ثم عنّ لي ان اضمّ اليها عشراً اخرى وانشرها في المقتبس الاغر ليطلع عليها افاضل العلماء والكتاب في الانحاء العربية فيمدونا بآرائهم فيها خدمة لهذه اللغة الشريفة وهي :

(ملة القلم) المدة بضم اوله وهي ما يعلق بالقلم من المداد بعد غمسه في الدواة ·

(بوية الجزم او طلاء الاحذية) اليرندج او الارندج بفتحتين وهو السواد يسود به الخف

(صحبة الورد) الطاقة وهي الحزمة من الريحان ونحوه ولعلها اقرب لفظة لمعنى الصحبة وقد اصطلح الكتاب على تسميتها بالباقة وهو خطأ لان الباقة خاصة بحزمة البقل

(نشان التعليم) الدريئة بفتح فكسر وهي الحلقة يتعلم الرامي عليها ·

(الكشك) اصله بالفارسية كوشك وهو القصر الصغير وقد عربوه بالجوسق ·

(العطفة) الردب بفتح الراء وسكون الدال وهو الطريق الذي لا ينفذ ·

(العديل) السلف او الظأب من المظآبة وهي ان يتزوّج انسان بامرأة و يتزوّج آخر باختها · اما التجاب بتشديد الباء من باب التفاعل فهوان يتزوّج كل من الرجلين باخت الآخر ·

(قشرة الجرح) الجلبة بضم فسكون وهي القشرة تعلو الجرح عند البرء

(الطاقية) السكبة بفتح فسكون وهي خرقة تقور للرأس كالشبكة ·

(ناظر العمارة او مقدم الفعلة) الوهين كامير وهو الرجل يكون مع الاجير يحثه على العمل ·

(اليشمق) اللفام بكسر اوله وهو النقاب يكون على طرف الانف فان كان على الفم فهو اللثام ·

(السردين) الصير بكسر اوله وهو كما في القاموس السميكات المملوحة يعمل منها الصحناة وفسر الصحناة بانه ادام يتخذ من السمك الصغار مشه مصلح للمعدة · فعلى هذا يجوز اطلاق الصحناة على كل ما يقدم امام الطعام من المشهيات كالصير ونحوه المسمى عند الاعاجم (Hors d'œuvre) ويمكن ان يسمى السردين ايضاً بالطريخ كسكين وهو سمك صغار تعالج بالملح وتؤ كل ·

(العزبة) كأنها محرفة عن العزوبة بالفتح وهي الارض البعيدة المضرب الى الكلأ وصوابها الضيعة وهي الارض المغلة وقد استعملت قديماً بمعنى (العزبة) واظنها مستعملة الى الآن بهذا المعنى بالبلاد الشامية ·

(مضرب الكورة) الطبطابة بفتح فسكون وهي خشبة عريضة يلعب بها بالكرة و يقال لها ايضاً الميجار بكسر اوله وهو كما في المخصص الصولجان الذي تضرب به الكرة·

(المزّة) النقل بالفتح او بالتحريك وهو ما يعبث به الشارب او ينتقل به على شرابه من فاكهة ونحوها · والعامة تقول نقل بضم فسكون وهو خطأ قديم نبه عليه ائمة اللغة ·

(اللباس الرسمي) السواد وهو لون اتخذه بنو العباس شعاراً لهم ثم اطلق عندهم على لباس اسود خاص بالامراء والعلماء وذوي الاخطار وكان الرجل اذا اراد الذهاب الى ديوانه او مقابلة خليفته قال لغلامه عليَّ بسوادي وسيفي ·

(ثياب الحزن) السلاب بكسر اوله وهي ثياب سود تلبسها النساء في المأتم واحدتها سلبة بفتحتين وتسلبت المرأة وسلبت بتشديد اللام اذا لبستها وهو مثل احدّت الا ان الاحداد يكون على الزوج خاصة والتسلب على الزوج وغيره ·

(الحبل الحاجز في الطريق) عند اصلاحها او في احتفال كبير · الماصر وهو كما في مختصر العين للزبيدي حبل على طريق او نهر تحبس به السفن او السابلة · واقتصر في اللسان على انه الحبل يلقى في الماء لمنع السفن عن السير ·

(المعدية) المعبر كمنبر وهو المركب الذي يعبر به ·

(عقدة وشنيطة) الانشوطة بضم فسكون وهي عقدة يسهل انحلالها اذا مددت باحد طرفيها انحلت · وتقول نشطت الانشوطه من باب نصر اذا عقدتها وانشطتها اذا حللتها ·

(الحصان البوني ponet او Poney) المكبون والانثى المكبونة وهو الفرس القصير القوائم الرحيب الجوف الشخت العظام ولا يكون المكبون اقعس ومعنى الاقعس في الخيل المطمئن الصهوة المرتفع القطاة ·

(الشال) الطيلسان وقد فسره اللغويون بانه ضرب من الاكسية واقتصروا على ذلك الا ان الشيخ ابراهيم السجيني فسره في كتابه المسمى بالعمى الاكبر في عين من انكر لبس الاصفر بانه ثوب طويل عريض كالرداء يجعل على الرأس فوق نحو عمامة ويغطي اكثر الوجه ثم يدار طرفه تحت الحنك الى ان يحيط بالرقبة ثم يلقى طرفاه على الكتفين اه وهو كما ترى قريب جداً من معنى الشال ·

(رخو الكرباج) الشيب بكسر اوله وهو سير السوط · وفي اللسان وشيبا السوط سيران في رأسه وشيب السوط معروف عربي فصيح اه

(الجرسون او السفرجي) لم اقف على لفظ مفرد يدل دلالة تامة على (الجرسون) وقد ذكر اللغويون الندل بضمتين وفسروه بخدم الدعوة قالوا سموا نُدُلاً لانهم ينقلون الطعام الى من حضر الدعوة واصله من ندل يندل اذا تناول اه · الا انهم لم يذكروا مفرده فارجو ممن وقف على لفظة اخرى او على مفرد الندل ان يتفضل بنشره افادة للجمهور · على اني رأيت بهامش اللسان ان هذا اللفظ وجد مضبوطاً بخط الصاغاني بفتحتين وعليه فلا يبعد ان يكون اسم جمع لنادل كخادم وخدم الا ان مثل هذا لا ينبغي الحكم فيه الا بالنص الصريح ·

(القطن الزهر) اصطلح المصريون على تسمية القطن قبل حلجه بالزهر وعربيته الفصيحة المكهل بصيغة اسم المفعول وهو كما في القاموس القطن ما دام فيه الحب والقطن الحليج كأمير هو ما استخرج حبه ويسميه المصريون بالشعر · اما شجرة القطن فتسمى الزعبل بفتح واله وثالثه وسكون ثانيه ·

(السنارة) الشص بفتح اوله او كسره وهي حديدة عقفاء يصاد بها السمك · واما الصنارة بكسر الصاد المهملة وتخفيف النون ومنع في اللسان تشديدها فهي الحديدة الدقيقة

المقفة التي في رأس المغزل فاستعارتها العامة لمصيدة السمك وابدلوا صادها سينًا ولا داعي للاستعارة متى وجدت الكلمة الموضوعة

(الجاكيتة Jaquette) اصطلح الكتاب على تسمية « البالطو » بالمعطف ومن المعلوم ان الجاكيتة كالبالطو الصغير فلا حرج اذا سميناها بالعطيف تصغير ترخيم للمعطف ·

(البيرة السوداء) البيرة خمر الشعير وعربيتها الجعة وزان هبة فيجوز ان يقال الجعة السوداء الا ان العرب سمت الخمر السوداء بام ليلى فما المانع من اطلاقها على هذا النوع من البيرة

(عمود الغاز) الماثلة وهي منارة المسرجة كما في القاموس

(البونية Coup de poing) الجمع بضم فسكون وهو من الكف حين تقبضها قال طرفة بن العبد ·

بطيء عن الجلى سريع الى الخنا ذلول بأجماع الرجال مُلهدِ

و يقال فيه ايضًا الصقب بفتح فسكون وصقبه اي ضربه بجمع كفه · والله اعلم ·

القاهرة احمد تيمور

مطبوعات ومخطوطات

كتاب البدء والتاريخ

لم نكد نقرأ مبحث الصنائع الاسلامية الذي نقلناه الى العربية في هذا الجزء حتى جاءنا البريد من باريز يحمل الجزء الرابع من كتاب البدء والتاريخ لابي زيد احمد بن سهل البلخي الذي نشره المسيو كلمان هوار كاتب تلك الرسالة واحد اساتذة مدرسة الالسنة الشرقية الحية في باريز مترجمًا بقلمه الى الافرنسية · اخذه عن نسخة وحيدة في مكتبة الداماد ابراهيم باشا بالاستانة وطبع في الاجزاء الاربعة التي صدرت منه الى الآن نحو ثلثيه وبقي الثلث الآخر

وقد كان ناشره العلامة يرى اولاً ان الكتاب للبلخي لان النسخة المنقول عنها كتب عليها اسمه ثم تبين من بعض القرائن التي ذكرها في مقدمة الجزء الثاني والثالث ان الكتاب لمطهر بن طاهر المقدسي المقيم ببست من اعمال سجستان · ساعد على هذا الشك امور منها ان ابن النديم صاحب الفهرست لم يذكر كتاب البدء والتاريخ في جملة مصنفات البلخي ومنها ان كتاب خريدة العجائب المنسوب لابن الوردي الذي اقتطع بعض فقرات من البدء والتاريخ وان قال انه للبلخي الا ان ابا منصور الثعالبي في كتابه الغرر في سير الملوك واخبارهم ذكر كتاب البدء والتاريخ مرتين وقال انه لمطهر بن طاهر · والثعالبي ثقة لقدمه · فقد كان

بعد تأليف البدء والتاريخ بخمسين سنة وابن الوردي كان في القرن التاسع للهجرة . وان ياقوت الرومي يقول في كتابه معجم الادباء ان البلخي توفي سنة ٣٢٢ على حين انتهى هذا الكتاب الى سنة ٣٥٥ بيد ان من نسب اليه الكتاب مشهور بين اهل العلم في عصره بالفضل والفلسفة واحكام النجوم والرحلة وله مصنفات في الجغرافية وغيرها والمطهر بن طاهر غير معروف ولم يعثر له على ترجمة .

وكيفما كان الحال فقد بذل ناشره جزاه الله خيراً من العناية بتصحيحه ما وصل اليه ذرعه مستعيناً ببعض ائمة التاريخ والادب العربي من علماء المشرقيات في اورباامثال كوي الهولاندي وغولدسير المجري ومرجليوث الانكليزي ودارنبورغ وباربيه دي مينار الفرنسويين . كل هذه العناية وقد اعتذر عن نفسه وعدّ منها جرأة ان ينشر كتاباً من القرن الرابع منقولاً عن نسخة مخطوطة واحدة فقال انه لم يرَ بدّاً من نقل العبارة بنصها وعلى علاتها بل على اغلاطها النحوية وان يقتصر على التصحيح الظاهر مشيراً في الحاشية للاصل وكيف ورد .

قال المؤلف في المقدمة : « تسلق الزائغون عن المحجة في التلبيس على الضعفاء وتعلق المنحرفون عن نهج الحق في افساد عقيدة الاغبياء من طريق مباديء الخلق ومباديه وما اليه مآله تعلقاً به ينبهون غرة الغافل ويحيرون فطنة العاقل وذلك من انكى مكايدهم للدين واثخن لبلوغهم في انتقاص الموحدين ويأبى الله الا ان يتم نوره ويعلي كلمته ويفلج حجته ولو كره الكافرون وان من اعظم الآفة على عوام الامة تصديهم لمناظرة من ناظرهم بما تخيل في اوهامهم وانتصب في نفوسهم من غير ارتياض بطرق العلم ولا معرفة باوضاع القول ولا تحكك بادب الجدل ولا بصيرة بحقائق الكلام ثم الفاؤهم بايديهم عند اول صاكة تصك افهامهم وقارعة تقرع اسماعهم ضارعين خاشعين مستجدين مستقلين (؟) الى ما لاح لهم بلا اجالة روية ولا تنقير عن خبيئة وعلى اهل الطرف والشرف منهم التخصيص بالنادر الغريب والرغبة عن الظاهر المستفيض والايجاب بغوا ض الالفاظ الرائقة والكلم الرائعة وان كانت ناحية المعاني نحيفة المغاني ضعيفة الضمائر واهية القواعد فقصارى نظرهم الاستخفاف بالشرائع والاديان التي هي وثاق الله تعالى في سياسة خلقه وملاك امره ونظام الالفة بين عباده وقوام معاشهم والمنبه على معادهم الرادع لهم عن التباغي والتظالم والمهيب بهم الى التعاطف والتواصل والباعث لهم على اعتقاد الذخائر من مشكور صنائع العاجل ومحمود ثواب الآجل .

الى ان قال : وجمعت ما وجدت في ذكر مبتدإ الخلق ومنتهاه ثم ما يتبعه من قصص الانبياء عليهم السلام واخبار الامم والاجيال وتواريخ الملوك ذوي الاخطار من العرب والعجم وما روي من امر الخلفاء من لدن قيام الساعة الى زماننا هذا وهو سنة ثلثمائة وخمس وخمسين

من هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وماحكي انه واقع بعد من الكوائن والفتن والعجائب بين يدي الساعة على نحو ما بين وفصل في الكتب المتقدمة والاخبار المؤرخة من الخلق والخلائق واديان اصناف الامم ومعاملتهم ورسومهم وذكر العمران من الارض وكيفية صفات الاقاليم والممالك ثم ما جرى في الاسلام من المغازي والفتوح وغير ذلك الخ ويشتمل الكتاب على اثنين وعشرين فصلاً يجمع كل فصل ابوابًا واذكارًا من جنس مايدل عليه . قدمه مؤلفه الى احد ملوك عصره الا انه لم يذكر اسمه ويرى الناشر ان المقدم اليه ربما كان وزير المنصور بن نوح الساماني .

والجزء الرابع الذي أُهدي الينا يبدأ من الفصل الثاني عشر بذكر اديان اهل الارض ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم من اهل الكتاب وغيرهم وانتهى بالسادس عشر لسنة احدى عشرة من الهجرة قال في ذكر المعطلة او الملاحدة او الدهرية او الزنادقة او المهملة : وقط ما انتشروا في امة من الامم ولا اقروا في وقت من الاوقات انتشارهم في هذه الامة لاعطائهم الاقرار بالديانة ظاهرًا (هو ما نسميه اليوم بحرية الاديان) وحقن الشريعة دم من اجاب اليها وهم هؤلاء الباطنية الباطلية الذين تخلعوا عن الاديان ومرجوا نفوسهم في ميادين الشهوات لحظوا عند الظلمة بترخيصهم لهم في ارتكاب ما يهوون وتهوينهم عليهم عواقب ما يحذرون حتى ترى المظالم قد فشت والقلوب قد قست والمنكرات ظهرت والفواحش كثرت وارتفعت الامانة وغلبت الخيانة وعطلت المروءة واستخف بالربانيين واهتضم المستضعفون وأُميت العدل وأُحيي الجور فظهر ما لم يذكر في عهد ملك من الملوك في قديم الدهر وحديثه ولا في زمن نبي من الانبياء عليهم السلام . . .

وفي الكتاب فوائد كثيرة جغرافية وتاريخية واجتماعية وعمرانية وهو من اهم الكتب في النحل والملل وخوضه فيها يدل على ان المؤلف هو البلخي لما عرف من ترجمته انه طالما اجتمع بزعماء ارباب الملل واستوصفهم معتقداتهم قال في طورسينا : «يخرج الرجل من مصر الى قلزم في ثلاثة ايام ومن قلزم الى الطور طريقان احدهما في البحر والآخر في البر وهما جميعا يؤديان الى فارن وهي مدينة العمالقة ثم يسير منها الى الطور في يومين فاذا انتهى اليه صعد ستة آلاف وستمائة وستًا وستين مرقاة وفي نصف الجبل كنيسة لايليا النبي وفي قلة الجبل كنيسة مبنية باسم موسى عليه السلام باساطين من رخام وابواب من صفر وهو الموضع الذي كلم الله عز وجل فيه موسى وقطع منه الالواح للتوراة ولا يكون فيها الا راهب واحد للخدمة ويزعمون انه لا يقدر احد ان يبيت فيها فيهيئ له بيت صغير من خارج يأوي فيه» .

والكتاب كما رأيت لطيف الاسلوب في انشائه . وانشاء القرن الرابع مهد الخط ارقى من

انشاء الاعصر التي تليه . وقد اتضح ان مؤلفه معتزلي من نسبة الاختيار المطلق للانسان ورعاية الاصلح لله سبحانه وتعالى ونحو ذلك مما ذكره في المعراج النبوي فانه قال : «والوجه في هذا وما اشبهه ان لا يجاوز فيه نص الكتاب ومستفيض السنة مع المخالف المنكر المستعظم لما يخرج عن العادة المعهودة والطبع القويم وقال ان المسرى قد يكون بالروح والجسم وانه لا خلاف بين اهل اللغة ان الرؤيا في المنام لا غير وان كان جاء في التفسير انه رؤية العين لحكم العاقل ان يخاطب كلاً على قدر فهمه .

فهذا الكلام يدل على ان المؤلف معتزلي فان كان المطهر الذي نسب اليه التأليف معتزليًا تقوى الشبهة في ان الكتاب له والا فيبقى هناك مجال للقول في انه للبلخي . ولعل الذي احيا هذا الكتاب الذي كاد يدفن يوفق الى تصفح بعض ما يعثر عليه من مصنفات البلخي فيقابل بين اسلوبه فيها واسلوبه في كتاب البدء والتاريخ ليتجلى له ان كان هذا المؤلف له او نسب اليه وهو لغيره فان المدقق لا يلبث ان يدرك من بعض الالفاظ والتعابير ان المؤلف واحد ولكل كاتب الفاظ تكاد تكون خاصة به يستعملها في معظم ما تخطه يراعته .

وقد تصفحنا جملة صالحة من الترجمة الافرنسية فرأيناها موافقة للاصل العربي اللهم الا اذا كان في هذا بعض التباس فهناك المترجم يعذر لا محالة . ومهما يكن فانا نهنيء المسيو هوار على احياء هذا الاثر النفيس وما احري ان تكون مبالغته في العناية بانشره معلمة لطابعينا ومؤلفينا كيف نطبع الكتب اذا أريد بها النفع الحقيقي لا مجرد النسخ والالقاء للطبع كيفما اتفق . ونشكر لمدرسة اللغات الشرقية على طبعها هذا السفر الجليل ونرجو ان يوفق امثال المسيو هوار وغيره من رصفائه الجهابذة الى نشر كثير من آثار الشرق على النحو الذي طبع به هذا الكتاب من الاتقان والجودة . وكل جزء منه يباع بعشرين فرنكا . فنحث طلاب العلم والادب على اقتنائه فانه من خير الكتب التي تزين المكاتب والقماطر ويسر بوضعها وطبعها الخاطر والناظر ومن جملة فوائده انه يعين من اراد ان يتعلم الترجمة من الافرنسية الى العربية وبالعكس .

بلاغات النساء

هو كتاب حوى طرائف كلام النساء وملح نوادرهن واخبار ذوات الرأي منهن واشعارهن في الجاهلية وصدر الاسلام تأليف ابي الفضل احمد بن ابي طاهر المتوفى سنة ٢٨٠ هـ نقله عن نسخة مخطوطة في خزانة الكتب الخديوية احمد افندي الالفي من افاضل ادباء مصر وقدم له مقدمة رشيقة وصف فيها الاصل الذي اهتدى اليه وحافظ على كلام المؤلف فلم يحذف منه ما لا ينطبق مثلاً على عادات هذا العصر في التآليف فابقى قسم المجون بحاله « لانه

داخل في انواع الاحوال الاجتماعية والبلاغات اللغوية المروية عن النساء ليتم للمطالع الاشراف على هذه الاحوال والبلاغات في قسميها الجدي والفكاهي » وقد يستغرق المطالع في مطالعة هذا الاثر النفيس فيحار في التفضيل ولا غرو فان كلام عائشة وفاطمة وزينب وام كلثوم وحفصة واروى بنت الحارث وسودة بنت عمارة والزرقاء بنت عدي وبكارة الهلالية وام الخير بنت الحريش البارقية والحجانة بنت المهاجر وام معبد ورقيقة بنت بنانة وامرأة ابي الاسود الدبلي وصفية بنت هشام المنقرية وجمعة وهند بنتا الحسن وآمنة بنت الشريد وام سنان بنت خيثمة بن خرسة ونائلة بنت القرافصة وعائشة بنت عثمان بن عفان وفاطمة بنت عبدالملك وعكرشة بنت الاطش والدارمية الحجونية وجروة بنت مرة بن غالب وام البراء بنت صفوان الى غيرهن من الاديبات الحكيمات — هو للبلاغة معين وعلى الادب اكبر معين يقل وقوع مثله للرجال دع عنك ربات الحجال . وقد جاء الكتاب في زهاء مئتي صفحة مطبوعة طبعاً جيداً وعلق عليه ناشره تفسير بعض الالفاظ العويصة وبذل الجهد في ارجاع النصوص الى الصواب ما امكن لان النسخة الاصلية محرفة تحريفاً مشيناً فجزاه الله خيراً . والكتاب يطلب من المكاتب الشهيرة بمصر وثمنه عشرة قروش .

سير العلم والاجتماع

قوة الحياة في العالمين

ادعى جون بورغوس من مشاهير علماء الطبيعة في اميركا ان الاحياء من الانسان والحيوان هي في اوربا اقوى واعظم واكثر نسلاً مما هي في اميركا فاثبت الرئيس روزفلت عكس هذه القضية ونشر كل من المدعي والمنكر مجلدات في هذا الصدد فقال روزفلت : ان كثيراً من الحيوانات والطيور التي تنسب بان اصلها من اوربا قد وردت عليها في الحقيقة من بلاد اخرى كما هاجرت الى الولايات المتحدة واوستراليا مثال ذلك الارنب والجرذ والفأرة فانها كانت تأوي باديء بدء الى شمالي افريقية او جنوبي آسيا . واستنتج من ذلك ان الضعف في هذه الحيوانات اذا قيس بالحيوان الاميركي لا تكون منه قاعدة عامة كما يكون وجه الشبه بين الحيوانات المتوحشة التي ما زالت في فرنسا والمانيا وانكلترا . اما ذوات الثديين من الحيوانات فلا يعرف فيما اذا كانت في اميركا تمتاز عن بنات نوعها في مكان آخر من حيث القوة والنشاط . فترى الوعل والأيل في اميركا اعظم جثة مما هما في

اوربا وهكذا الحال في كلب الماء وجرذ الحقل فانك تشاهد اعظمها جثة ما كان اصفر ابقع وهو يكثر في جون هودسون . ولئن كان الارنب الاميركاني في الشمال احط بقوته وجرأته من الارنب في شمالي اوربا وآسيا فان الدب الاميركي ارقى من الدب الاسفع الاوربي . واذا بدا البقر الوحشي في اوربا وآسيا وافريقية انه اضخم من البقر الذي من جنسه في اميركا فالايل في اميركا اعظم من الذي من جنسه في غيرها . ويكاد الثعلب الاميركي يكون مساوياً في قده للثعلب الفرنساوي واصغر من الارنب الايكوسي ولكن هذا دون الارنب في اعالي ميسوري . وما من شيء يدعو الى الاعتقاد بان الثعلب الاحمر جيء به من اوربا الى اميركا لان سكان كندا كانوا يصيدون الثعالب منذ ازمان متطاولة ويتجرون بفروها .

هذا رأي الرئيس روزفلت في الحيوانات واما في الانسان فقد استعان على صحة مدعاه بالاحصاآت الطبية من عهد حرب الرقيق لانه اشتركت فيها امم من جميع اهل اوربا وعامة اقطار الولايات المتحدة وجرى البحث في اجسامهم على طريقة طبية تشريحية فنتج من البحث ان الجسم الانساني في شرقي الولايات المتحدة قد فسد فساداً محسوساً . فقامات سكان ولاية نيويورك مثلاً اصغر من قامات الانكليز والايرلنديين واتساع صدورهم اقل . واجمل الناس صورة هم سكان ولايتي كنتكي وتنيسي ثم السويديون والايكوسيون والاميركون في ويسكنسن ومينوستا ويليهم الايرلنديون والالمان والانكليز ثم الفرنسيس اللهم الا سكان كندا منهم . واكثر الناس نسلاً سكان كنتكي وتنيسي وفيرجينيا وكرولينا وكندا . واستنتج الرئيس من ذلك ان ليس ثمت قاعدة مطردة يتأتى السير عليها للحكم على قوة الحياة في الحيوان والانسان اذا كان الاستناد في ذلك على هواء البلاد فقط . ونحن نستنتج معجبين بالرئيس روزفلت الذي يباري العلماء ويبذهم في علمهم كما هو اعظم سياسي . فسبحان من خص رؤساء الغرب بالعلم والعمل وخص رؤساءنا بالدعوى والكسل حتى اصبحنا نقول الرئيس روزفلت بعد ان كنا نقول الرئيس ابن سينا .

مزارع النعام

لئن كان اصل النعام من سهول افريقية وبلاد العرب الرملية فقد ربي في الناتال سنة ١٨٧٤ وكثرت الاستفادة منه حتى بلغ رأس المال المخصص لتربيته سنة ١٨٧٩ ثمانية ملايين جنيه ويصدر منه كل سنة زهاء خمسة وعشرين مليون ريشة الا ان حرب الزولولاند وغيرها من الحوادث قضت بتخريب تلك المزارع فانتقل بعض اصحابها الى زلاندا الجديدة فاخذوا يربون النعام وقد انشئت شركة سورية لتربية النعام فيها اتت بارباح وافرة واقتدى بهم بعض الناس في اوستراليا فاصبح فيها زهاء الف نعامة وتباع الواحدة

التي يبلغ عمرها ثلاثة اشهر بخمسة جنيهات و يباع زوج من ذكر النعام وانثاه بمئة جنيه وما زال في نمو . والنعام ثروة لمربيه ولكن لا في افريقية .

المستعمرات الفرنسوية

كتب احد اعضاء مجلس النواب الفرنسوي تقريرًا قال فيه ان المستعمرات الفرنسوية اخذت تزيد باراضيها وسكانها وغناها فلم يكن لفرنسا سنة ١٨٧٠ ما خلا الجزائر وتونس غير مستعمرات لا يتجاوز سكانها المليونين ونصفًا اما اليوم فسكانها يبلغون خمسة وثلاثين مليونًا نصفهم في الهند الصينية وهي اكثر البلاد الآهلة بالسكان وافريقية الغربية والكونغو اوسع المستعمرات الفرنسوية . وذكر ما قصرت فيه الحكومة في مدغسكر من تعليم سكانها على حين اخذ مرسلو البرتستانت من الانكليز والفرنسيس يكثرون من المدارس وفيها من التلاميذ اكثر مما في مدارس الحكومة . وقد رد عليه بعضهم فقال : ما اسخف عقل من يحنق على من يأتي الخير لانه اتاه باسم الدين وما على الطبيب الطيب الا ان يقول في نفسه ماذا يهم من الدواء اذا كان فيه الشفاء .

دعاة الدين

يقولون ان ايطاليا اليوم تحارب رجال الدين كما حاربتهم فرنسا من قبل ولكن الدين مع هذا لم يبرح منتحلوه يكثرون في عدة جهات وان قلوا في بعضها فقد كان عدد من دانوا بالبرتستانتية في النمسا ٣٤٣١ في السنة الماضية وبلغ مجموع من انتحلوها هناك في تسع سنين ٤٤ الفا وفي فينا دان سنة ١٩٠٧ — ٢٢٧ اسرائيليًا بالنصرانية منهم بالبرتستانتية ومنهم بغيرها . وذكروا ان في البلجيك اليوم ٢٤٧٤ جمعية دينية على حين ليس فيها سوى ٢٦٢٣ مركزًا .

حجر السماء

اكتشف بالعرض احد سكان كاليفورنيا جوهرًا جديدًا معدنيًا لم يكن من قبل معروفًا وينافس عما قريب احجار الياقوت والزمرد وهو ازرق كالصفير او الياقوت الازرق وزرقته كزرقة السماء في الصيف . وقد كتم المكتشف سر اكتشافه الا انه عرضت بعض الاحجار فتنافس فيها غلاة الجواهر من كبار اغنياء الاميركان . وفي تلك الناحية من كاليفورنيا اكتشف منذ عشر سنين زمرد اخضر كما اكتشف حديثًا في تلك البقعة نفسها حجر الكونزيت الذي يختلف بلونه من الارجوان الى الوردي .

اكبر باخرة

اكبر باخرة تسير في الانهار هي التي صنعتها اميركا وتستخدم للملاحة قريباً في جون هودسون وهي تقل خمسة آلاف راكب وطولها ١٢٠ متراً وعمقها ١٣ ومجموع علوها ٢٤ وتقطع ٣٨ كيلو متراً في الساعة ويزيد قطر دواليبها على سبعة امتار ٠

تجارة تونس

أحصيت تجارة الصادرات والواردات معاً في القطر التونسي سنه ١٩٠٦ فبلغ مجموعها ١٧٠ مليون فرنك منها ٩٠ مليوناً للواردات والباقي للصادرات وقد كانت الواردات سنة ١٩٠١ — ٦٥ مليوناً والصادرات ١٠٥ ملايين وما برح الارتقاء في الواردات آخذاً في النمو واهم الممالك التي تعامل تونس فرنسا وايطاليا وانكلترا والجزائر ثم البلجيك والمانيا والولايات المتحدة ٠ يصيب كل مملكة منها بحسب نشاط افرادها وما لديهم من الغلات والمصنوعات ٠

تطهير الكتب

اخترعت عدة طرق لتطهير الكتب من الجراثيم التي يلحقها بها المطالعون من ارباب الامراض المعدية ولكنها لم تأت بالغرض المقصود وقد اخترع الدكتور برليوز الفرنسوي آلة جديدة اسهل على العمل واضمن للنتيجة من جميع ما اخترع من نوعها وذلك بان تبخر الكتب بسائل خاص على درجة من الحرارة لا تقل عن ٧٥ وبدون ضغط على الكتاب ولا فتح لاوراقه ولا ضرر على جلده وورقه والكتب المجلدة تجليداً نفيساً يكتفى بتغليفها بورقة رفيعة فيذهب بذلك من الكتب كل جرثومة ضارة بلى ان هذا العمل بها يساعد على زيادة بقائها وحفظها ٠

الزراعة في انكلترا

انحطت زراعة انكلترا انحطاطاً هائلاً فكانت سنة ١٨٧٠ تقوم باطعام نصف الامة ولم تعد تكفي سنة ١٩٠٠ لغير طعام عشر سكانها وقلت الاراضي التي تزرع حبوباً قلة محسوسة فاصبحت انكلترا عالة على مستعمراتها اذا قطعت عنها هذه مادة حياتها وحدث ما اخر بريطانيا عن الاستئثار بسلطة البحار يسوء حالها لا محالة ٠ اثبتت ذلك اللجنة الزراعية الانكليزية في العام الماضي فقالت ان عدد العاملين في الزراعة كان سنة ١٨٧١ — ١٦٨٥٠٠٠ فاصبحوا سنة ١٩٠١ — ٩٠٠٠٠٠ واكدوا ان زراعة انكلترا احط الزراعات في امم الارض كلها ٠

المقتبس

الجزء الرابع من المجلد الثالث

ربيع الثاني سنة ١٣٢٦ موافق مايو (ايار) سنة ١٩٠٨

رسالة ابن المقفع في الصحابة (١)

اما بعد اصلح الله امير المؤمنين وأتم عليه النعمة والبسه المعافاة والرحمة فان امير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه المسألة والاستماع كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص عن امورهم كما كان اولئك يكتفون بالدعة ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر في الامتناع ان يجتريء عليهم احد برأي او خبر مع تسليط الديان . وقد عصم الله امير المؤمنين حين اهلك عدوه وشفى غليله ومكن له في الارض وآتاه ملكه وخزائنها من ان يشغل نفسه بالتمتع والتفتيش والتأثل والاخلاد وان يرضى ممن آوى بالمتاع به وقضاء حاجة النفس منه واكرم

---

(١) ظفرنا بهذه الرسالة والتاليات لها في كتاب المنثور والمنظوم لاحمد بن ابي طاهر المتوفى سنة ٢٨٠ هـ المحفوظ في دار الكتب المصرية فاثبتناها في المقتبس بعد ان صححنا ما امكننا تصحيحه من الفاظها اذ غلب قليل من التحريف على هذا المخطوط النفيس الاصل ولا نعرف نسخة اخرى نقابل عليها بل ولا شذرات من هذه الرسائل نقلها فيما نذكر بعض مؤلفي الكتب المتداولة في الادب والمحاضرة اكتفينا بتركها على ما وجدناها عسى ان يهدينا بعض اهل العلم الباحثين في الاقطار الى اصل نعارض به هذه الاعلاق النفيسة التي ابقتها الايام من قلم ابن المقفع . اما رسالة الصحابة فالظاهر من سياقها ان المقصود بالصحابة اصحاب السلطان واطلاق الصحابة على اصحاب السلطان غير مألوف لنا ولعلها رسالته المشهورة في السياسة

الله امير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره اياه وذلك من ابين علامات السعادة وانجح الاعوان على الخير . وقد قص الله عز وجل علينا من نبإ يوسف بن يعقوب انه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الاحاديث وجمع له شمله واقرّ عينه بابويه واخوته اثنى على الله عز وجل بنعمته ثم سلا عما كان فيه وعرف ان الموت وما بعده هو اولى فقال: توفني مسلماً والحقني بالصالحين .

وفي الذي قد عرفنا من طريقة امير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على تناوله بالخبرة فيما ظن انه لم يبلغه اياه غيره وبالتذكير بما قد انتهى اليه ولا يزيد صاحب الرأي على ان يكون مخبرًا او مذكرًا . وكلٌ عند امير المؤمنين مقبول ان شاء الله . مع ان مما يزيد ذوي الالباب نشاطًا الى إعمال ذوي الرأي فيما يصلح الله به الامة في يومها او غابر دهرها الذي اصبحوا قد طمعوا فيه (؟) ولعل ذلك ان يكون على يدي امير المؤمنين فان مع الطمع الجدّ ومع اليأس القنوط . وقلما ضعف الرجاء الا ذهب الرخاء . وطلب المويس عجز وطلب الطامع حزم . ولم ندرك الناس نحن وآباؤنا الا وهم يرون فيها خلاً لا يقطع الرأي ويمسك بالافواه من حال والٍ لم يهمه الاصلاح او اهمه ذلك ولم يثق فيه بفضل رأي او كان ذا رأي ليس مع رأيه صولٌ بصرامة او حزم او كان ذلك استئثارًا منه على الناس بنشب او قلة تقدم لما يجمع او يقسم او حال اعوان ينيل بهم الولاة ليسوا على الخير باعوان وليس له الى اقتلاعهم سبيل لمكانهم من الامر ومخافة الدول والفساد ان هو هاجهم او انتقص ما في ايديهم او حال رعية متزرة ليس لها من امرها النصف في نفسها فان أخذت بالشدة حميت وان أُخذت باللين طغت . وكل هذه الخلائق قد طهر الله منها امير المؤمنين فآتاه الله ما آتاه في نيته ومقدرته وعزمه ثم لم يزل يرى ذلك منه الناس حتى عرفه منه جهالهم فضلاً عن علمائهم . وصنع الله لامير المؤمنين الطف الصنع في اقتلاع من كان يشركه في امره على غير طريقته ورأيه حتى اراحه الله وآمنه منهم بما جعلوا من الحجة والسبيل على انفسهم وما قوى الله عليه امير المؤمنين في رأيه واتباعه مرضاته واذل الله لامير المؤمنين رعيته بما جمع له من اللين والعفو فان لان لاحد منهم في الاثخان (؟) له شهيد على ان ذلك ليس بضعف ولا مصانعة وان اشتد على احد منهم ففي العفو شهيد على ان ذلك ليس بعنف ولا خرق مع امور سوى ذلك يكف عن ذكرها كراهة ان يكون كأنا نصبنا المدح . فما اخلق هذه الاشياء ان تكون عتادًا لكل جسيم من الخير في الدنيا والآخرة واليوم والغد والخاصة والعامة . وما ارجانا لان يكون امير المؤمنين بما اصلح الله الامة من بعده اشد اهتمامًا من بعض الولاة بما لا يصلح رعيته في سلطانه وما اشد ما قد استبان لنا ان امير المؤمنين اطول

بامر الامة عناية ولها نظرًا وتقديرًا من الرجل منابخاصة اهله ففي دون هذا ما يثبت الامل وينشط للعمل ولا قوة الا بالله ولله الحمد وعلى الله التمام ·

فمن الامور التي يُذكر بها امير المؤمنين امتع الله به امر هذا الجند من اهل خراسان فانهم جند لم يدرك مثلهم في الاسلام وفيهم مَنعة بها يتم فضلهم ان شاء الله · اما هم فاهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس وعفاف نفوس وفروج وكفٌّ عن الفساد وذل للولاة فهذه حال لا نعلمها توجد عند احد غيرهم · واما ما يحتاجون فيه الى المنعة من ذلك تقويم ايديهم ورأيهم وكلامهم فان في ذلك اليوم اختلاطًا من رأس مفرط غالٍ وتابع متحير شاكٍ · ومن كان انما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة فهو كراكب الاسد الذي يوجل من رآه والراكب اشدُّ وجلاً · فلو ان امير المؤمنين كتب لهم امانًا معروفًا بليغًا وجيزًا محيطًا بكل شيء يجب ان يقول فيه ويكفوا عنه بالغًا في الحجة قاصرًا عن الغلو يحفظه رؤساؤهم حتى يقود به دهماءهم ويتعهد به منهم من لا يؤبه له من عرض الناس لكان ذلك ان شاء الله لرأيهم صلاحًا وعلى من سواهم حجة وعند الله عذرًا · فان كثيرًا من المتكلمين من قواد امير المؤمنين اليوم انما عامة كلامهم فيما يؤمر الامر ويرغم الرغم ان امير المؤمنين لو امر الجبال ان تسير سارت ولو امر ان تُستدبر القبلة بالصلاة فعل ذلك وهذا كلام قلما (يرتضيه) من كان مخالفًا وقلما يرد في سمع السامع الا احدث في قلبه ريبة وشكًّا · والذي يقول اهل القصد من المسلمين هو اقوى للامر واعز للسلطان واقمع للمخالف وارضى للموافق واثبت للعذر عند الله عزَّ وجل ·

فانا قد سمعنا فريقًا من الناس يقولون لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق · بنوا قولهم هذا بناء معوجًا فقالوا ان امرنا الامام بمعصية الله فهو اهل ان يُعصى وان امرنا الامام بطاعة الله فهو اهل ان يطاع · فاذا كان الامام يعصى في المعصية وكان غير الامام يطاع في الطاعة فالامام ومن سواه على حق الطاعة سواء · وهذا قول معلوم يجد دالسلطان ذريعة الى الطاعة والذي فيه أمنيته لئلا يكون للناس نظائر ولا يقوم بامرهم امام ولا يكون على عدوهم منهم ثقل · سمعنا آخرين يقولون بل نطيع الائمة في كل امورنا ولا نفتش عن طاعة لله ولا معصيته ولا يكون احد منا عليهم حسيبًا هم ولاة الامر واهل العلم ونحن الاتباع وعلينا الطاعة والتسليم · وليس هذا القول باقل ضررًا في توهين السلطان وتهجين الطاعة من القول بالذي قبله لانه ينتهي الى الفظيع المتفاحش من الامر في استحلال معصية الله جهارًا صراحًا · وقال اهل الفضل والصواب : قد اصاب الذين قالوا : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولم يصيبوا في تعطيلهم طاعة الائمة وتسخيفهم اياها واصاب الذين اقروا بطاعة الائمة ما حققوا منها ولم

يصيبوا ما ابهموا من ذلك في الامور كلها فاما اقرارنا فانه لا يطاع الامام في معصية الله فانما ذلك في عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لاحد عليها سلطانًا . ولو ان الامام نهى عن الصلاة والصيام والحج او منع الحدود واباح ما حرم الله لم يكن له في ذلك امر .

فاما اثباتنا للامام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره فان ذلك في الرأي والتدبير والامر الذي جعل الله ازمته وعراه بايدي الائمة ليس لاحد فيه امر ولا طاعة من الغزو والقفول والجمع والقسم والاستعمال والترك والحكم بالرأي فيما لم يكن فيه اثر وامضاء الحدود والاحكام على الكتاب والسنة ومحاربة العدو ومخادعته والاخذ للمسلمين والاعطاء عليهم . وهذه الامور واشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة وليس لاحد من الناس فيها حق الا الامام ومن عصى الامام فيها او خذله فقد اوتغ نفسه . وليس يفترق هذان الامران الا ببرهان من الله عز وجل عظيم . وذلك ان الله جعل قوام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خلتين الدين والعقل ولم تكن عقولهم وان كانت نعمة الله عز وجل عظمت عليهم فيها بالغة معرفة الهدى ولا مبلغة اهلها رضوان الله الا ما اكمل لهم من النعمة بالدين الذي شرع لهم وشرح به صدر من اراد هداه منهم ثم لو ان الدين جاء من الله لم يغادر حرفًا من الاحكام والرأي والامر وجميع ماهو وارد على الناس وجار فيهم مذ بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم الى يوم يلقونه الا جاء فيه بعزيمة لكانوا قد كلفوا غير وسعهم فضيق عليهم في دينهم وآتاهم منه ما تسع اسماعهم لاستماعه ولا قلوبهم لفهمه ولحارت عقولهم والبابهم التي امتن الله بها عليهم ولكانت لغوًا لا يحتاجون اليها في شيء ولا يعلمونها الا في امر قد اتاهم به تنزيل ولكن الله منّ عليهم بدينهم الذي لم يكن يسعه رأيهم كما قال عباد الله المتقون : ما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

ثم جعل ما سوى ذلك من الامر والتدبير الى الرأي وجعل الرأي الى ولاة الامر ليس للناس في ذلك الامر شيء الا الاشارة عند المشورة والاجابة عند الدعوة والنصيحة بظهر الغيب . ولا يستحق الوالي هذه الطاعة الا باقامة العزائم والسنن مما هو في معنى ذلك . ثم ليس من وجوه القول وحده يلتمس فيه ملتمس اثبات فضل اهل بيت امير المؤمنين على اهل بيت (من سواه) وغير ذلك مما يحتاج الناس الى ذكره الا وهو موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف ماهو ابلغ مما يغلو فيه الغالون فان الحجة ثابتة والامر واضح بحمد الله ونعمته .

ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولى احدًا منهم شيئًا من الخراج فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة . ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم لانهم اهل ذاك ودعوى بلاء واذا خلا بالدراهم والدنانير اجترأ عليهما واذا وقع في الخيانة صار كل امر مدخولا

نصيحته وطاعته فان حيل بينه وبين رفعته امرضته الحمية مع ان ولاية الخراج داعية الى ذلة وعقوبة وهوان . وانما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف . ومما ينظر فيه من امرهم ان منهم من المجهولين من هو افضل من بعض قادتهم فلو التمسوا وصنعوا كانوا عدة وقوة وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة .

ومن ذلك تعهد ادبهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والامانة والعصمة والمباينة لاهل الهوى وان يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به امير المؤمنين في امر نفسه . ولا يزال يطلع من امير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقته للاتراف والاسراف واهلهما ومحبته القصد والتواضع ومن اخذ بهما حتى يعلموا ان معروف امير المؤمنين محظور عمن يكنزه بخلاً ان ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالاة بالنساء والمراتب فان امير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهه المعروف والمؤاساة . ومن ذلك امر ارزاقهم ان يوقت لهم امير المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة اشهر او اربعة او ما بدا له وان يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من اقامة ديوانهم وتحمل اسمائهم و يعلموا الوقت الذي يأخذون فيه فينقطع الاستبطاء والشكوى . فان الكلمة الواحدة تخرج من احدهم في ذلك اهل ان تستعظم فان باب ذلك جدير ان يحسم مع ان امير المؤمنين قد علم كثرة ارزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم وان هذا الخراج ان يكن رائجاً لغلاء السعر فانه لا بد من الكساد والكسر وان لكل شيء درة وغزارة وانما درور خراج العراق بارتفاع الاسعار وانما يحتاج الجند اليوم الى ما يحتاجون اليه من كثرة الرزق لغلاء السعر فمن حسن التقدير ان شاء الله ان لا يدخل على الارض ضرر ولا بيت المال نقصان من قبل الرحمن الا دخل ذلك عليهم في ارزاقهم مع انه ليس عليهم في ذلك نقصان لانهم يشترون بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير . فاقول لو ان امير المؤمنين ما خلا شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً ويجعل بعضه علفاً فاعطوه باعيانهم فان قومت لهم قيمة تخرج ما خرج على حسابه قيمة الطعام والعلف لم يكن في ارزاقهم لذلك نقصان عاجل يستنكرونه وكان ذلك .. نزالهم لحمل العدو وانصاف بيت المال من انفسهم فيما يستبطئون مع انه ان زاد السعر اخذوا بحصتهم من فضل ذلك . ومن جماع الامر وقوامه باذن الله ان لا يخفى على امير المؤمنين شيء من اخبارهم وحالاتهم وبطن امرهم بخراسان والعسكر والاطراف وان يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيه الا بالثقات النصاح فان ترك ذلك واشباهه احزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة فتصير جنة للجهالة والكذب

ومما يذكر به امير المؤمنين امتع الله به امر هذين المصرين فانهم بعد اهل خراسان اقرب الناس

الى ان يكونوا شيعته ومعينيه مع اختلاطهم باهل خراسان وانهم منهم وهامتهم وانما ينظر امير المؤمنين منهم .. صدق ولرابطتهم او ما اراد من امورهم معرفته استثقال اهل خراسان ذلك لهم من امرهم مع الذي في ذلك من جمال الامر واختلاط الناس بالناس العرب بالعجم واهل خراسان بالمصرين .

ان في اهل العراق يا امير المؤمنين من الفقه والعفاف والالباب والالسنة شيئًا لا يكاد يشك انه ليس في جميع من سواهم من اهل القبلة مثله ولا مثل نصفه فلو اراد امير المؤمنين ان يكتفي بهم في جميع ما يلتمس له اهل الطبقة من الناس رجونا ان يكون ذلك فيهم موجودًا . وقد ازرى باهل العراق في تلك الطبقة ان ولاة العراق فيما مضى كانوا اشرار الولاة وان اعوانهم من اهل امصارهم (كذلك) فحمل جميع اهل العراق على ما ظهر من اولئك الفسول وتعلق بذلك اعداؤهم من اهل الشام فنعوه عليهم ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال الا بالاقرب فالاقرب مما دنا منهم او وجدوه بسبيل شيء من الامر فوقع رجال مواقع شائنة لجميع اهل العراق حيث ما وقعوا من صحابة خليفة او ولاية عمل او موضع امانة او موطن جهاد وكان من رأي اهل الفضل ان يقصدوا حتى يلتمسوا فابطأ ذلك بهم ان يُعرفوا وينتفع بهم وان كان صاحب السلطان لمن لم يعرف الناس قبل ان يليهم ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم ولم يستثبت في استقصائهم فزالت الامور عن مراكزها ونزلت الرجال عن منازلها لان الناس لا يلقونه الا متصنعين باحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام غير ان اهل النقص هم اشد تصنعًا واحلى السنة وارفق تلطفًا للوزراء او تمحلاً لان يثني عليهم من وراء وراء . فاذا آثر الوالي ان يستخلص رجلاً واحدًا ممن ليس لذلك اهلاً دعا الى نفسه جميع ذلك الشرح وطمعوا فيه واجترأوا عليه وتوردوه وزحموا على ما عنده واذا رأى ذلك اهل الفضل كفوا عنه وباعدوا منه وكرهوا ان يروا في غير موضعهم او يزاحموا غير نظرائهم .

ومما ينظر امير المؤمنين فيه من امر هذين المصرين وغيرهما من الامصار والنواحي اختلاف هذه الاحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها امرًا عظيمًا في الدماء والفروج والاموال فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية اخرى غير انه على كثرة الوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم يقضي به قضاة جائز امرهم وحكمهم مع انه ليس مما ينظر في ذلك من اهل العراق واهل الحجاز فريق الا قد لج بهم العجب بما في ايديهم والاستخفاف ممن سواهم فاقحمهم ذلك في الامور التي يشفع بها من سمعها من ذوي الالباب .

اما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة حتى يبلغ ذلك به الى ان يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الامر الذي يزعم انه سنة واذا سئل عن ذلك لم يستطع ان يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم او ائمة الهدى من بعده . واذا قيل له اي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون قالوا: فعل ذلك عبدالملك بن مروان او امير من بعض اولئك الامراء وانما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام عن رأيه ان يقول في الامر الجسيم من امر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه احد من المسلمين ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وامضائه الحكم عليه وهو مقر انه رأي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة . فلو رأى امير المؤمنين ان يأمر بهذه الاقضية والسير المختلفة فترفع اليه في كتاب و يرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة او قياس ثم نظر امير المؤمنين في ذلك وامضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله و يعزم له عليه و ينهى عن القضاء بخلافه وكتب بذلك كتاباً جامعاً عزما لرجونا ان يجعل الله هذه الاحكام المختلطة الصواب بالخطإ حكماً واحداً صواباً ورجونا ان يكون اجتماع السير قربة لاجماع الامر برأي امير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من امام آخر آخر الدهر ان شاء الله .

فاما اختلاف الاحكام اما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه يدبره قوم على وجه و يدبره آخرون على وجه آخر فينظر فيه الى احق الفريقين بالتصديق واشبه الامرين بالعدل . واما رأي اجراه اهله على القياس فاختلف وانتشر ما يغلط في اصل المقايسة وابتدأ امر على غير مثاله . واما الطول ملازمته القياس فان من اراد ان يلزم القياس ولا يفارقه ابداً في امر الدين والحكم وقع في الورطات ومضى على الشبهات وغمض على القبيح الذي يعرفه و يبصره فابى ان يتركه كراهة ترك القياس . وانما القياس دليل يستدل به على المحاسن فاذا كان ما يقود اليه حسناً معروفاً أخذ به واذا قاد الى القبيح المستنكر ترك لان المبتغي ليس غير القياس يبغي ولكن محاسن الامور ومعروفها وما الحق الحق باهله . ولو ان شيئاً مستقيماً على الناس ومنقاداً حيث قيد لكان الصدق هو ذلك اولى ان يعتبر بالمقايس فانه لو اراد ان يقوده الصدق لم ينقد له . وذلك ان رجلاً لو قال: اتأمرني ان اصدق فلا اكذب كذبة ابداً لكان جوابه ان يقول نعم ثم لو التمس منه قود ذلك فقال: اتصدق في كذا وكذا حتى يبلغ به ان يقول الصدق في رجل هارب استدلني عليه طالب ليظلمه فيقتله لكسر عليه قياده وكان الرأي له ان يترك ذلك و ينصرف الى المجمع عليه المعروف المستحسن .

ومما يذكر به امير المؤمنين اهل الشام فانهم اشد الناس مؤونة واخوفهم عداوة وبائقة . وليس يؤاخذهم امير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة فمن

الرأي في امرهم ان يختص امير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحًا او يعرف منه نصيحة او وفاء فان اولئك لا يلبثون ان ينفصلوا عن اصحابهم في الرأي والهوى و يدخلوا فيما حملوا عليه من امرهم فقد رأينا اشباه اولئك من اهل العراق الذين استدخلهم اهل الشام وليس احد في امر اهل السلم على القصاص (؟) حُرموا كما كانوا يحرمون الناس وجعل فيئهم الى غيرهم كما كان فيء غيرهم اليهم ونُحوا عن المنابر والمجالس والاعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس ان ينالوا معهم اكلة من الطعام الذي يصنعه امراؤهم للعامة . فان رغب امير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما اشبهها فلم يعارض ما عاب ولم يمثل ما سخط كان العدل ان يقتصر بهم على فيئهم فيجعل ما خرج من كور الشام فضلاً عن النفقات وما خرج من مصر فضلاً عن حقوق اهل المدينة ومكة بان يجعل امير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم او يزيد او ينقص غير انه يأخذ اهل القوة والغناء وخفة المؤونة والعفة في الطاعة ولا يفضل احدًا منهم على احد الا على خاصة معلومة و يكون الديوان كالغرض المستأنف ويأمر لكل جند من اجناد اهل الشام بعدة من العيال يقترعون عليها و يسوي بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه فيمن مات من عيالاتهم ولا يصنع باحد من المسلمين .

واما ما يتخوف المتخوفون من نزواتهم فلعمري لئن أُخذوا بالحق ولم يؤخذوا به انهم لخلقاء ان يكون لهم نزوات ونزقات ولكنا على مثل اليقين بحمد الله من انهم لم يشركوا بذلك الا انفسهم وان الدائرة لامير المؤمنين عليهم آخر الدهر ان شاء الله . فانه لم يخرج الملك من قوم الا بقيت فيهم بقيـة يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

ومما يذكر به امير المؤمنين امر اصحابه فان من اولى امر الوالي منه بالتثبت والتحيز امر اصحابه الذين هم بهاء فنائه وزينة مجلسه والسنة رعيته والاعوان على رأيه ومواضع كرامته والخاصة من عامته فان امر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزارة والكتاب قبل خلافة امير المؤمنين عملاً قبيحًا مفرط القبح مفسدًا للحسب والادب والسياسة داعيًا للاشرار طاردًا للاخيار فصارت صحبة الخليط امرًا سخيفًا فطمع فيه الاوغاد وتزهد فيه من كان يرغب فيما دونه حتى اذا التقينا ابا العباس رحمة الله عليه وكنت في ناس من صلحاء اهل البصرة ووجوههم فكنت في عصابة منهم ابوا ان يأتوه فمنهم من تغيب فلم يقدم ومنهم من هرب بعد قدومه اختيارًا للمعصية على سوء الموضع لا يعتذرون في ذلك الا بضياع المكتب والدعوة والمدخل يقولون هذه منزلة كان من هو اشرف من ابنائنا يرغبون

فيما هو دونها عند من هو اصغر امراء ولا ننا اليوم ولكنها قد كانت مكرمة وحسبًا اذ الناس ينظرون ويسأل عنهم فاما اليوم ونحن نرى فلانًا وفلانًا ينفر باسمائهم على غير قديم سلف ولا بلاء حدث فمن يرغب فيما هاهنا يا امير المؤمنين اكرمك الله امام يصير العدل كله الى تقوى الله عزَّ وجل وانزال الامور منازلها فان الاول قال

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وقال هم سودوا نصرًا وكل قبيلة يُبين عن احلامها من يسودها

وان امر هذه الصحابة قد كان فيه اعاجيب دخلت فيه مظالم . اما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول ما رأينا أعجوبة قط اعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي الى ادب ذي نباهة ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في اهل مصر قد غبر عامة دهره صانعًا يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء الا انه مكنه من الامر صاغٍ فاحتوى حيث احب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من ابناء المهاجرين والانصار وقبل قرابة امير المؤمنين واهل بيوتات العرب ويجري عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيره من سروات قريش ويخرج له من المعونة على نحو ذلك لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ولا فقه في دين ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ولا غناء حديث ولا حاجة اليه في شيء من الاشياء ولا عدة يستعد بها وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة الا انه خدم كاتبًا او حاجبًا فاخبر ان الدين لا يقوم الا به حتى كتب كيف شاء ودخل حيث شاء .

واما المظلمة التي دخلت في ذلك فعظيمة قد خصت قريشًا وعمت كثيرًا من الناس وادخلت على الاحساب والمروآت محنة شديدة وضياعًا كثيرًا فان في اذن الخليفة والمدخل عليه والمجلس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكمًا عظيمًا على ان الناس في انسابهم واخطارهم وبلاء اهل البلاء منهم وليس ذلك لخواص المعروف ولطيف المنازل او الاعمال التي يختص بها المولى من احب ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضي فيه للماضين من اهل السوابق وانآثر من اهل الباقين واهل البلاء والغناء بالعدل او بالجمال فيه عليهم فان احق المظالم بتعجيل الرفع والتغيير ما كان ضره عائبًا وكان للسلطان شائنًا ثم لم يكن في رفعه مؤونة ولا شغب ولا توغير بصدور عامة ولا للقوة ولا اضرار سبب (؟) .

والصحابة امير المؤمنين اكرمه الله مزية وفضل وهي مكرمة سنية حرية ان تكون شرفًا لاهلها وحسبًا لاعقابهم حقيقة ان تصان وتحظر ولا يكون فيها الا رجل بدر بخصلة من

الخصال ومن رجل له عند امير المؤمنين خاصة بقرابة او بلاء او رجل يكون شرفه ورأيه وعمله اهلاً لمجلس امير المؤمنين وحديثه ومشورته او صاحب نجدة يعرف بها و يستعد لها يجمع مع نجدته حسباً وعفافاً فيرفع من الجند الى الصحابة و رجل فقيه مصلح يوضع بين اظهر الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه او رجل شريف لا يفسد نفسه او غيرها فاما من يتوسل بالشفاعات فانه يكتفي او يكتفى له بالمعروف والبر فيما لا يهجن رأياً ولا يزيل امرًا عن مرتبته ثم تكون تلك الصحابة الخاصة على منازلها ومداخلها الا يكون للكاتب فيها امر في رفع رزق ولا وضعه ولا للحاجب في تقديم اذن ولا تأخيره ·

ومما يذكر به امير المؤمنين امر فتيان اهل بيته و بني ابيه و بني علي و بني العباس فان فيهم رجالاً لو مُتعوا بجسام الامور والاعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لاخرى ·

ومما يذكر به امير المؤمنين امر الارض والخراج فان اجسم ذلك واعظمه خطرًا واشده مؤونة واقربه من الضياع ما بين سهله وجبله ليس لها تفسير على الرساتيق والقرى فليس للعمال امر ينتهون اليه ولا يحاسبون عليه ويحول بينهم و بين الحكم على اهل الارض بعدما يتأنقون لها في العمارة و يرجون لها فضل ما تعمل ايديهم · فسيرة العمال فيهم احدى ثنتين اما رجل أُخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد واما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيعمر من عمر و يسلم من اخرب مع ان اصول الوظائف على الكوَر لم يكن لها ثَبت ولا علم وليس من كورة الا وقد غيرت وظيفتها مرارًا لخفيت وظائف بعضها و بقيت وظائف بعض فلو ان امير المؤمنين اعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والارضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك واثبات الاصول حتى لا يؤخذ رجل الا بوظيفة قد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة الا كان له فضلها ونفعها لرجونا ان يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للارض وحسم لابواب الخيانة وغشم العمال · وهذا رأي مؤونته شديدة و رجاله قليل ونفعه متأخر · وليس بعد هذا في امر الخراج الا رأي قد رأينا امير المؤمنين اخذ به ولم نره من احد قبله من تخير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم

ومما نذكر به امير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك ان يكون من رأي امير المؤمنين اذا سخت نفسه عن اموالها من الصدقات وغيرها ان يختار لولايتها الخيار من اهل بيته وغيرهم لان ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق الله امير المؤمنين واكرمه بها من الرأي الذي هو باذن الله حمى ونظام لهذه الامور كلها في الامصار والاجناد والثغور والكور · ان بالناس من الاستخراج والفساد ما قد

على امير المؤمنين وبهم من الحاجة الى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو اشد من حاجتهم الى اقواتهم التي يعيشون بها. واهل كل مصر وجند او ثغر فقراء الى ان يكون لهم من اهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ويبصرون الخطأ ويعظون عن الجهل ويمنعون عن البدع ويحذرون الفتن ويتفقدون امور عامة من هو بين اظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ثم يستصلحون ذلك ويعالجون على ما استنكروا منه بالرأي والرفق والنصح ويرفعون ما اعياهم الى ما يرجون قوته عليهم مأمونين على سير ذلك وتحصينه بصراء بالرأي حين يبدو او اطباء باستئصاله قبل ان يتمكن. وفي كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة اذا صنعوا لذلك وتلطف لهم وأعينوا على رأيهم وقووا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويبسطهم له. وخطر هذا جسيم في امرين احدهما رجوع اهل الفساد الى الصلاح واهل الفرقة الى الالفة والامر الآخر ان لا يتحرك متحرك في امر من امور العامة الا وعين ناصحة ترمقه ولا يهمس هامس الا واذن شفيقة تصيخ نحوه. واذا كان ذلك لم يقدر اهل الفساد على تربيص الامور وتلقيحها واذا لم تلقح كان نتاجها باذن الله مأمونًا.

وقد علمنا علماً لا يخالطه شك ان عامة قط لم تصلح من قبل انفسها ولم يأتها الصلاح الا من قبل خاصتها. وان خاصة قط لم تصلح من قبل انفسها وانها لم يأتها الصلاح الا من قبل امامها. وذلك لان عدد الناس في ضعفتهم وجهالهم الذين لا يستغنون برأي انفسهم ولا يحملون العلم ولا يتقدمون في الامور فاذا جعل الله فيهم خواص من اهل الدين والعقول ينظرون اليهم ويسمعون منهم اهتمت خواصهم بامور عوامهم واقبلوا عليه بجد ونصح ومثابرة وقوة جعل الله ذلك صلاحًا لجماعتهم وسببًا لاهل الصلاح من خواصهم وزيادة فيما انعم الله به عليهم وبلاغًا الى الخير كله. وحاجة الخواص الى الامام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة الى خواصهم واعظم من ذلك. فبالامام يجمع الله امرهم ويكبت اهل الطعن عليهم ويجمع رأيهم وكلمتهم ويبين لهم عند العامة منزلتهم ويجعل لهم الحجة والايد والمقال على من نكب عن سبيل حقهم. فلما رأينا هذه الامور ينتظم بعضها ببعض وعرفنا من امر امير المؤمنين ما نبتله جمع الله خواص المسلمين على الرغبة في حسن المعاونة والمؤازرة والسعي في صلاح عامتهم طمعنا لهم في ذلك يا امير المؤمنين وطمعنا فيه لعامتهم ورجونا ان لا يعمل بهذا الامر احد الا رزقه الله المتابعة فيه والقوة عليه. فان الامر اذا اعان على نفسه جعل للقائل مقالاً ووهياً للساعي نجاحًا. ولا حول ولا قوة الا بالله وهو رب الخلق وولي الامر يقضي في امورهم بدبر امره بقدرة عزيزة وعلم سابق فنسأله ان يعزم لامير المؤمنين على المراشد ويحصنه بالحفظ والثبات والسلام ولله الحمد والشكر.

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة والآلاء الظاهرة الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه ولا يدفع قضاؤه ولا امره وانما قوله اذا اراد شيئًا ان يقول له كن فيكون . والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ودبر الامور بحكمه وانفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها وملكة منه لها لا معقب لحكمه ولا شريك له في شيء من الامور يخلق ما يشاء ويختار ما كان للناس الخيرة في شيء من امورهم سبحان الله وتعالى عما يشركون . والحمد لله الذي جعل صفو ما اختار من الامور دينه الذي ارتضى لنفسه ولمن اراد كرامته من عباده فقام به ملائكته المقربون يعظمون جلاله ويقدسون اسماءه ويذكرون آلاءه لا يستحسرون عن عبادته ولا يستكبرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقام به من اختار من انبيائه وخلفائه واوليائه في ارضه يطيعون امره ويذبون عن محارمه ويصدقون بوعده ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوه وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وافلاجه حجتهم واعزازه دينهم واظهاره حقهم وتمكينه لهم وكان لعدوه وعدوهم عندما اوعدهم من خزيه واحلاله بأسهم وانتقامه منهم وغضبه عليهم مضى على ذلك امره ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقي ليتم نوره ولو كره الكافرون ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون والحمد لله الذي لا يقضي في الامور ولا يدبرها غيره ابتدأها بعلمه وامضاها بقدرته وهو وليها ومنتهاها وولي الخيرة فيها والامضاء لما احب ان يمضي منها يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ذي المنّ والطول والقدرة والحول الذي لا ممسك لما فتح لاوليائه من رحمته ولا دافع لما انزل باعدائه من نقمته ولا رادّ لامره في ذلك وقضائه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . والحمد لله المثيب بحمده ومنه ابتداؤه والمنعم بشكره وعليه جزاؤه والمثني بالايمان وهو عطاؤه

٭٭٭

كتب ابن المقفع الى صديق ولدت له جارية :

بارك الله لكم في الابنة المستفادة وجعلها لكم زينًا واجرى لكم بها خيرًا فلا تكرهها فانهن الامهات والاخوات والعمات والخالات ومنهن الباقيات الصالحات . وربّ غلام ساء اهله بعد مسرتهم وربّ جارية فرّحت اهلها بعد مساءتهم .

تعزية لابن المقفع عن ولد :

اعظم الله على المصيبة اجرك واحسن على جليل الرزء ثوابك وعجل لك الخلف فيه وذخر لك الثواب عليه .

وله :

انما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمعن الى ما فجعت به من ولدك الجيمعة بالاجر عليه والعوض منه . فانما اعظم المصيبتين عليك وانكى المرزيتين لك . اخلف الله عليك بخير وذخر لك جزيل الثواب .

وتعزية له عن بنت :

لا ينقص الله عددك ولا ينزع عنك نعمته التي البسك واحسن العوض لك وجعل الخلف لك خيراً مما رزأك به وما اعطاك خيراً مما قبض منك :

وله تعزية عن ابنة :

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك بار زئته وعوضاً من المصيبة به ورزقك من الثواب عليه اضعاف ما رزأك به منها . فما اقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

وتعزية له ايضاً :

اعظم الله اجرك في كل مصيبة واوزعك الشكر على كل نعمة . اعرف لله حقه واعتصم بما امر به من الصبر تظفر بما وعد من عظيم الاجر .

وتعزية لابن المقفع :

اما بعد فان امر الآخرة والدنيا بيد الله هو يدبرهما ويقضي فيهما ما يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه فان الله خلق الخلق بقدرته ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع احد من خلقه في خلد الدنيا ووقت لكل شيء ميقات اجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون فليس احد من خلقه الا وهو مستيقن بالموت لا يرجو بان يخلصه من ذلك احد . نسأل الله خير المنقلب . وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التي يحتسب ثوابها من ربنا الذي اليه منقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله فانه جعل لاهل الصبر صلوات منه ورحمة وجعلهم من المهتدين .

ولابن المقفع في السلامة :

اما بعد فقد اتاني كتابك فيما اخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود ونسأله ان يلهمنا واياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها . وسألت ان اكتب اليك بخبرنا ونحن على حال لو اطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك احصاء للنعمة ولا اعتراف لكنه الحق فنرغب الى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً وان يرزقنا مع كل نعمة كفاءها من المعرفة بفضله فيها والعمل في الاداء اليه حقها انه ولي قدير .

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة والآلاء الظاهرة الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه ولا يدفع قضاؤه ولا امره وانما قوله اذا اراد شيئًا ان يقول له كن فيكون . والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ودبر الامور بحكمه وانفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها وملكة منه لها لا معقب لحكمه ولا شريك له في شيء من الامور يخلق ما يشاء ويختار ما كان للناس الخيرة في شيء من امورهم سبحان الله وتعالى عما يشركون . والحمد لله الذي جعل صفو ما اختار من الامور دينه الذي ارتضى لنفسه ولمن اراد كرامته من عباده فقام به ملائكته المقربون يعظمون جلاله ويقدسون اسماءه ويذكرون آلاءه لا يستحسرون عن عبادته ولا يستكبرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقام به من اختار من انبيائه وخلفائه واوليائه في ارضه يطيعون امره ويذبون عن محارمه ويصدقون بوعده ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوه وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وافلاجه حجتهم واعزازه دينهم واظهاره حقهم وتمكينه لهم وكان لعدوه وعدوهم عندما اوعدهم من خزيه واحلاله بأسهم وانتقامه منهم وغضبه عليهم مضى على ذلك امره ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقي ليتم نوره ولو كره الكافرون ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون والحمد لله الذي لا يقضي في الامور ولا يدبرها غيره ابتدأها بعلمه وامضاها بقدرته وهو وليها ومنتهاها وولي الخيرة فيها والامضاء لما احب ان يمضي منها يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ذي المنّ والطول والقدرة والحول الذي لا ممسك لما فتح لاوليائه من رحمته ولا دافع لما انزل باعدائه من نقمته ولا رادّ لامره في ذلك وقضائه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . والحمد لله المثيب بحمده ومنه ابتداؤه والمنعم بشكره وعليه جزاؤه والمثني بالايمان وهو عطاؤه

***

كتب ابن المقفع الى صديق ولدت له جارية :

بارك الله لكم في الابنة المستفادة وجعلها لكم زينًا واجرى لكم بها خيرًا فلا تكرهها فانهن الأمهات والاخوات والعمات والخالات ومنهن الباقيات الصالحات . وربّ غلام ساء اهله بعد مسرتهم وربّ جارية فرّحت اهلها بعد مساءتهم .

تعزية لابن المقفع عن ولد :

اعظم الله على المصيبة اجرك واحسن على جليل الرزء ثوابك وعجل لك الخلف فيه وذخر لك الثواب عليه .

وله :

انما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمعن الى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالاجر عليه والعوض منه . فانما اعظم المصيبتين عليك وانكى المرزيتين لك . اخلف الله عليك بخير وذخر لك جزيل الثواب .

وتعزية له عن بنت :

لا ينقص الله عددك ولا ينزع عنك نعمته التي البسك واحسن العوض لك وجعل الخلف لك خيراً مما رزأك به وما اعطاك خيراً مما قبض منك :

وله تعزية عن ابنة :

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك بار زئته وعوضاً من المصيبة به ورزقك من الثواب عليه اضعاف ما رزأك به منها . فما اقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

وتعزية له ايضاً :

اعظم الله اجرك في كل مصيبة واوزعك الشكر على كل نعمة . اعرف لله حقه واعتصم بما امر به من الصبر تظفر بما وعد من عظيم الاجر .

وتعزية لابن المقفع :

اما بعد فان امر الآخرة والدنيا بيد الله هو يدبرهما ويقضي فيهما ما يشاء لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه فان الله خلق الخلق بقدرته ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع احد من خلقه في خلد الدنيا ووقت لكل شيء ميقات اجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون فليس احد من خلقه الا وهو مستيقن بالموت لا يرجو بان يخلصه من ذلك احد . نسأل الله خير المنقلب . وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التي يحتسب ثوابها من ربنا الذي اليه منقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله فانه جعل لاهل الصبر صلوات منه ورحمة وجعلهم من المهتدين .

ولابن المقفع في السلامة :

اما بعد فقد اتاني كتابك فيما اخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود ونسأله ان يلهمنا واياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها . وسألت ان اكتب اليك بخبرنا ونحن على حال لو اطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك احصاء للنعمة ولا اعتراف لكنه الحق فنرغب الى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً وان يرزقنا مع كل نعمة كفاءها من المعرفة بفضله فيها والعمل في الاداء اليه حقها انه ولي قدير .

يصيبوا ما ابهموا من ذلك في الامور كلها فاما اقرارنا فانه لا يطاع الامام في معصية الله فانما ذلك في عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لاحد عليها سلطانًا . ولو ان الامام نهى عن الصلاة والصيام والحج او منع الحدود واباح ما حرم الله لم يكن له في ذلك امر .

فاما اثباتنا للامام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره فان ذلك في الرأي والتدبير والامر الذي جعل الله ازمته وعراه بايدي الائمة ليس لاحد فيه امر ولا طاعة من الغزو والقفول والجمع والقسم والاستعمال والترك والحكم بالرأي فيما لم يكن فيه اثر وامضاء الحدود والاحكام على الكتاب والسنة ومحاربة العدو ومخادعته والاخذ للمسلمين والاعطاء عليهم . وهذه الامور واشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة وليس لاحد من الناس فيها حق الا الامام ومن عصى الامام فيها او خذله فقد اوتغ نفسه . وليس يفترق هذان الامران الا ببرهان من الله عز وجل عظيم . وذلك ان الله جعل قوام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خلتين الدين والعقل ولم تكن عقولهم وان كانت نعمة الله عز وجل عظمت عليهم فيها بالغة معرفة الهدى ولا مبلغة اهلها رضوان الله الا ما اكمل لهم من النعمة بالدين الذي شرع لهم وشرح به صدر من اراد هداه منهم ثم لو ان الدين جاء من الله لم يغادر حرفًا من الاحكام والرأي والامر وجميع ماهو وارد على الناس وجار فيهم مذ بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم الى يوم يلقونه الا جاء فيه بعزيمة لكانوا قد كلفوا غير وسعهم فضيق عليهم في دينهم وآتاهم منه ما تسع اسماعهم لاستماعه ولا قلوبهم لفهمه ولحارت عقولهم والبابهم التي امتنّ الله بها عليهم ولكانت لغوًا لا يحتاجون اليها في شيء ولا يعلمونها الا في امر قد اتاهم به تنزيل ولكن الله منّ عليهم بدينهم الذي لم يكن يسعه رأيهم كما قال عباد الله المتقون : ما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

ثم جعل ما سوى ذلك من الامر والتدبير الى الرأي وجعل الرأي الى ولاة الامر ليس للناس في ذلك الامر شيء الا الاشارة عند المشورة والاجابة عند الدعوة والنصيحة بظهر الغيب . ولا يستحق الوالي هذه الطاعة الا باقامة العزائم والسنن مما هو في معنى ذلك . ثم ليس من وجوه القول وحده يلتمس فيه ملتمس اثبات فضل اهل بيت امير المؤمنين على اهل بيت (من سواه) وغير ذلك مما يحتاج الناس الى ذكره الا وهو موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف ما هو ابلغ مما يغلو فيه الغالون فان الحجة ثابتة والامر واضح بحمد الله ونعمته .

ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولي احدًا منهم شيئًا من الخراج فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة . ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم لانهم اهل ذاك ودعوى بلاء ، واذا خلا بالدراهم والدنانير اجترأ عليهما واذا وقع في الخيانة صار كل امر مدخولا

نصيحته وطاعته فان حيل بينه وبين رفعته امرضته الحمية مع ان ولاية الخراج داعية الى ذلة وعقوبة وهوان . وانما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف . ومما ينظر فيه من امرهم ان منهم من المجهولين من هو افضل من بعض قادتهم فلو التمسوا وصنعوا كانوا عدة وقوة وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة .

ومن ذلك تعهد ادبهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والامانة والعصمة والمباينة لاهل الهوى وان يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به امير المؤمنين في امر نفسه . ولا يزال يطلع من امير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقته للاتراف والاسراف واهلها ومحبته القصد والتواضع ومن اخذ بهما حتى يعلموا ان معروف امير المؤمنين محظور عمن يكنزه بخلاً ان ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالاة بالنساء والمراتب فان امير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهه المعروف والمؤاساة . ومن ذلك امر ارزاقهم ان يوقت لهم امير المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة اشهر او اربعة او ما بدا له وان يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من اقامة ديوانهم وتحمل اسمائهم و يعلموا الوقت الذي يأخذون فيه فينقطع الاستبطاء والشكوى . فان الكلمة الواحدة تخرج من احدهم في ذلك اهل ان تستعظم فان باب ذلك جدير ان يحسم مع ان امير المؤمنين قد علم كثرة ارزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم وان هذا الخراج ان يكن رائجاً لغلاء السعر فانه لا بد من الكساد والكسر وان لكل شيء درة وغزارة وانما درور خراج العراق بارتفاع الاسعار وانما يحتاج الجند اليوم الى ما يحتاجون اليه من كثرة الرزق لغلاء السعر فمن حسن التقدير ان شاء الله ان لا يدخل على الارض ضرر ولا بيت المال نقصان من قبل الرحمن الا دخل ذلك عليهم في ارزاقهم مع انه ليس عليهم في ذلك نقصان لانهم يشترون بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير . فاقول لو ان امير المؤمنين ما خلا شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً ويجعل بعضه علفاً فاعطوه باعيانهم فان قومت لهم قيمة تخرج ما خرج على حسابه قيمة الطعام والعلف لم يكن في ارزاقهم لذلك نقصان عاجل يستنكرونه وكان ذلك .. نزالهم لحمل العدو وانصاف بيت المال من انفسهم فيما يستبطئون مع انه ان زاد السعر اخذوا بحصتهم من فضل ذلك . ومن جماع الامر وقوامه باذن الله ان لا يخفى على امير المؤمنين شيء من اخبارهم وحالاتهم وباطن امرهم بخراسان والعسكر والاطراف وان يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيه الا بالثقات النصاح فان ترك ذلك واشباهه احزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة فاصير جنة للجهالة والكذب

ومما يذكر به امير المؤمنين امتع الله به امر هذين المصرين فانهم بعد اهل خراسان اقرب الناس

الى ان يكونوا شيعته ومعينيه مع اختلاطهم باهل خراسان وانهم منهم وهامتهم وانما ينظر امير المؤمنين منهم .. صدق ولرابطتهم او ما اراد من امورهم معرفته استثقال اهل خراسان ذلك لهم من امرهم مع الذي في ذلك من جمال الامر واختلاط الناس بالناس العرب بالعجم واهل خراسان بالمصرين ·

ان في اهل العراق يا امير المؤمنين من الفقه والعفاف والالباب والالسنة شيئًا لا يكاد يشك انه ليس في جميع من سواهم من اهل القبلة مثله ولا مثل نصفه فلو اراد امير المؤمنين ان يكتفي بهم في جميع ما يلتمس له اهل الطبقة من الناس رجونا ان يكون ذلك فيهم موجودًا · وقد ازرى باهل العراق في تلك الطبقة ان ولاة العراق فيما مضى كانوا اشرار الولاة وان اعوانهم من اهل امصارهم (كذلك) فحمل جميع اهل العراق على ما ظهر من اولئك الفسول وتعلق بذلك اعداؤهم من اهل الشام فنعوه عليهم ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال الا بالاقرب فالاقرب مما دنا منهم او وجدوه بسبيل شيء من الامر فوقع رجال مواقع شائنة لجميع اهل العراق حيث ما وقعوا من صحابة خليفة او ولاية عمل او موضع امانة او موطن جهاد وكان من رأي اهل الفضل ان يقصدوا حتى يلتمسوا فابطأ ذلك بهم ان يُعرفوا وينتفع بهم وان كان صاحب السلطان لمن لم يعرف الناس قبل ان يليهم ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم ولم يستثبت في استقصائهم فزالت الامور عن مراكزها ونزلت الرجال عن منازلها لان الناس لا يلقونه الا متصنعين باحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام غير ان اهل النقص هم اشد تصنعًا واحلى السنة وارفق تلطفًا للوزراء او تمحلاً لان يثنى عليهم من وراء وراء · فاذا آثر الوالي ان يستخلص رجلاً واحدًا ممن ليس لذلك اهلاً دعا الى نفسه جميع ذلك الشرح وطمعوا فيه واجترأوا عليه وتوردوه وزحموا على ما عنده واذا رأى ذلك اهل الفضل كفوا عنه وباعدوا منه وكرهوا ان يروا في غير موضعهم او يزاحموا غير نظرائهم ·

ومما ينظر امير المؤمنين فيه من امر هذين المصرين وغيرهما من الامصار والنواحي اختلاف هذه الاحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها امرًا عظيمًا في الدماء والفروج والاموال فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية اخرى غير انه على كثرة الوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم يقضي به قضاة جائز امرهم وحكمهم مع انه ليس مما ينظر في ذلك من اهل العراق واهل الحجاز فريق الا قد لج بهم العجب بما في ايديهم والاستخفاف ممن سواهم فاقحمهم ذلك في الامور التي يشفع بها من سمعها من ذوي الالباب ·

اما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة حتى يبلغ ذلك به الى ان يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الامر الذي يزعم انه سنة واذا سئل عن ذلك لم يستطع ان يقول ُهريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم او ائمة الهدى من بعده · واذا قيل له اي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون قالوا: فعل ذلك عبدالملك بن مروان او امير من بعض اولئك الامراء وانما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام عن رأيه ان يقول في الامر الجسيم من امر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه احد من المسلمين ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وامضائه الحكم عليه وهو مقر انه رأي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة · فلو رأى امير المؤمنين ان يأمر بهذه الاقضية والسير المختلفة فترفع اليه في كتاب و يرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة او قياس ثم نظر امير المؤمنين في ذلك وامضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله و يعزم له عليه و ينهى عن القضاء بخلافه وكتب بذلك كتاباً جامعاً عزما لرجونا ان يجعل الله هذه الاحكام المختلطة الصواب بالخطإ حكماً واحداً صواباً ورجونا ان يكون جماع السير قربة لاجماع الامر برأي امير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من امام آخر آخر الدهر ان شاء الله ·

فاما اختلاف الاحكام اما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه يدبره قوم على وجه و يدبره آخرون على وجه آخر فينظر فيه الى احق الفريقين بالتصديق واشبه الامرين بالعدل · واما رأي اجراه اهله على القياس فاختلف وانتشر ما يغلط في اصل المقايسة وابتدأ امر على غير مثاله · واما الطول ملازمته القياس فان من اراد ان يلزم القياس ولا يفارقه ابداً في امر الدين والحكم وقع في الورطات ومضى على الشبهات وغمض على القبيح الذي يعرفه و يبصره فابى ان يتركه كراهة ترك القياس · وانما القياس دليل يستدل به على المحاسن فاذا كان ما يقود اليه حسناً معروفاً أُخذ به واذا قاد الى القبيح المستنكر ترك لان المبتغي ليس غير القياس يبغي ولكن محاسن الامور ومعروفها وما الحق الحق باهله · ولو ان شيئاً مستقيماً على الناس ومنقاداً حيث قيد لكان الصدق هو ذلك اولى ان يعتبر بالمقايس فانه لو اراد ان يقوده الصدق لم ينقد له · وذلك ان رجلاً لو قال: اتأمرني ان اصدق فلا اكذب كذبة ابداً لكان جوابه ان يقول نعم ثم لو التمس منه قود ذلك فقال: اتصدق في كذا وكذا حتى يبلغ به ان يقول الصدق في رجل هارب استدلني عليه طالب ليظلمه فيقتله لكسر عليه قياده وكان الرأي له ان يترك ذلك و ينصرف الى المجمع عليه المعروف المستحسن ·

ومما يذكر به امير المؤمنين اهل الشام فانهم اشد الناس مؤونة واخوفهم عداوة وبائقة · وليس يؤاخذهم امير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة فمن

الرأي في امرهم ان يختص امير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحًا او يعرف منه نصيحة او وفاء فان اولئك لا يلبثون ان ينفصلوا عن اصحابهم في الرأي والهوى و يدخلوا فيما حملوا عليه من امرهم فقد رأينا اشباه اولئك من اهل العراق الذين استدخلهم اهل الشام وليس احد في امر اهل السلم على القصاص(؟) حرموا كما كانوا يحرمون الناس وجعل فيئهم الى غيرهم كما كان فيء غيرهم اليهم ونحوا عن المنابر والمجالس والاعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس ان ينالوا معهم اكلة من الطعام الذي يصنعه امراؤهم للعامة . فان رغب امير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما اشبهها فلم يعارض ما عاب ولم يمثل ما سخط كان العدل ان يقتصر بهم على فيئهم فيجعل ما خرج من كور الشام فضلاً عن النفقات وما خرج من مصر فضلاً عن حقوق اهل المدينة ومكة بان يجعل امير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم او يزيد او ينقص غير انه يأخذ اهل القوة والغناء وخفة المؤونة والعفة في الطاعة ولا يفضل احدًا منهم على احد الا على خاصة معلومة ويكون الديوان كالغرض المستأنف ويأمر لكل جند من اجناد اهل الشام بعدة من العيال يقترعون عليها و يسوي بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه فيمن مات من عيالاتهم ولا يصنع باحد من المسلمين .

واما ما يتخوف المتخوفون من نزواتهم فلعمري لئن أخذوا بالحق ولم يؤخذوا به انهم لخلقاء ان يكون لهم نزوات ونزقات ولكنا على مثل اليقين بحمد الله من انهم لم يشركوا بذلك الا انفسهم وان الدائرة لامير المؤمنين عليهم آخر الدهر ان شاء الله . فانه لم يخرج الملك من قوم الا بقيت فيهم بقيـة يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

ومما يذكر به امير المؤمنين امر اصحابه فان من اولى امر الوالي منه بالتثبت والتخير امر اصحابه الذين هم بهاء فنائه وزينة مجلسه والسنة رعيته والاعوان على رأيه ومواضع كرامته والخاصة من عامته فان امر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزارة والكتاب قبل خلافة امير المؤمنين عملاً قبيحًا مفرط القبح مفسدًا للعسب والادب والسياسة داعيًا للاشرار طاردًا للاخيار فصارت صحبة الخليط امرًا سخيفًا فطمع فيه الاوغاد وتزهد فيه من كان يرغب فيما دونه حتى اذا التقينا ابا العباس رحمة الله عليه وكنت في ناس من صلحاء اهل البصرة ووجوههم فكنت في عصابة منهم ابوا ان يأتوه فمنهم من تغيب فلم يقدم ومنهم من هرب بعد قدومه اختيارًا للمعصية على سوء الموضع لا يعتذرون في ذلك الا بضياع المكتب والدعوة والمدخل يقولون هذه منزلة كان من هو اشرف من ابنائنا يرغبون

فيما هو دونها عند من هو اصغر امراء ولاتنا اليوم ولكنها قد كانت مكرمة وحسبًا اذ الناس ينظرون ويسأل عنهم فاما اليوم ونحن نرى فلانًا وفلانًا ينفر باسمائهم على غير قديم سلف ولا بلاء حدث فمن يرغب فيما هاهنا يا امير المؤمنين اكرمك الله اما يصير العدل كله الى تقوى الله عزّ وجل وانزال الامور منازلها فان الاول قال

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وقال هم سودوا نصرًا وكل قبيلة يبين عن احلامها من يسودها

وان امر هذه الصحابة قد كان فيه اعاجيب دخلت فيه مظالم . اما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول ما رأينا أعجوبة قط اعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي الى ادب ذي نباهة ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في اهل مصر قد غبر عامة دهره صانعًا يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء الا انه مكّنه من الامر صاغٍ فاحتوى حيث احب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من ابناء المهاجرين والانصار وقبل قرابة امير المؤمنين واهل بيوتات العرب ويجري عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيره من سروات قريش ويخرج له من المعونة على نحو ذلك لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ولا فقه في دين ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ولا غناء حديث ولا حاجة اليه في شيء من الاشياء ولا عدة يستعد بها وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة الا انه خدم كاتبًا او حاجبًا فاخبر ان الدين لا يقوم الا به حتى كتب كيف شاء ودخل حيث شاء .

واما المظلمة التي دخلت في ذلك فعظيمة قد خصت قريشًا وعمت كثيرًا من الناس وادخلت على الاحساب والمروآت محنة شديدة وضياعًا كثيرًا فان في اذن الخليفة والمدخل عليه والمجلس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكمًا عظيمًا على ان الناس في انسابهم واخطارهم وبلاء اهل البلاء منهم وليس ذلك لخواص المعروف ولطيف المنازل او الاعمال التي يختص بها المولى من احب ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضي فيه للماضين من اهل السوابق والمآثر من اهل الباقين واهل البلاء والغناء بالعدل او بالحيف فيه عليهم فان احق المظالم بتعجيل الرفع والتغيير ما كان ضرره عائبًا وكان للسلطان شائنًا ثم لم يكن في رفعه مؤونة ولا شغب ولا توغير بصدور عامة ولا للقوة ولا اضرار سبب (؟) .

والصحابة امير المؤمنين اكرمه الله مزية وفضل وهي مكرمة سنية حرية ان تكون شرفًا لاهلها وحسبًا لاعقابهم حقيقة ان تصان وتحظر ولا يكون فيها الا رجل بدر بخصلة من

الخصال ومن رجل له عند امير المؤمنين خاصة بقرابة او بلاء او رجل يكون شرفه ورأيه وعمله اهلاً لمجلس امير المؤمنين وحديثه ومشورته او صاحب نجدة يعرف بها و يستعد لها يجمع مع نجدته حسباً وعفافاً فيرفع من الجند الى الصحابة و رجل فقيه مصلح يوضع بين اظهر الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه او رجل شريف لا يفسد نفسه او غيرها فاما من يتوسل بالشفاعات فانه يكتفي او يكتفى له بالمعروف والبر فيما لا يهجن رأياً ولا يزيل امراً عن مرتبته ثم تكون تلك الصحابة المخاصة على منازلها ومداخلها الا يكون للكاتب فيها امر في رفع رزق ولا وضعه ولا للحاجب في تقديم اذن ولا تأخيره ·

ومما يذكر به امير المؤمنين امر فتيان اهل بيته وبني ابيه وبني علي وبني العباس فان فيهم رجالاً لو متعوا بجسام الامور والاعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لاخرى ·

ومما يذكر به امير المؤمنين امر الارض والخراج فان اجسم ذلك واعظمه خطراً واشده مؤونة واقربه من الضياع ما بين سهله وجبله ليس لها تفسير على الرساتيق والقرى فليس للعمال امر ينتهون اليه ولا يحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على اهل الارض بعدما يتأنقون لها في العمارة ويرجون لها فضل ماتعمل ايديهم · فسيرة العمال فيهم احدى ثنتين اما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد واما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيعمر من عمر ويسلم من اخرب مع ان اصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم وليس من كورة الا وقد غيرت وظيفتها مراراً فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض فلو ان امير المؤمنين اعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والارضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك واثبات الاصول حتى لا يؤخذ رجل الا بوظيفة قد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة الا كان له فضلها ونفعها لرجونا ان يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للارض وحسم لابواب الخيانة وغشم العمال · وهذا رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر · وليس بعد هذا في امر الخراج الا رأي قد رأينا امير المؤمنين اخذ به ولم نره من احد قبله من تخير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم

ومما نذكر به امير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك ان يكون من رأي امير المؤمنين اذا سخت نفسه عن اموالها من الصدقات وغيرها ان يختار لولايتها الخيار من اهل بيته وغيرهم لان ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق الله امير المؤمنين واكرمه بها من الرأي الذي هو باذن الله حمى ونظام لهذه الامور كلها في الامصار والاجناد والثغور والكور · ان بالناس من الاستخراج والفساد ماقد

على امير المؤمنين وبهم من الحاجة الى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو اشد من حاجتهم الى اقواتهم التي يعيشون بها. واهل كل مصر وجند او ثغر فقراء الى ان يكون لهم من اهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ويبصرون الخطأ ويعظون عن الجهل ويمنعون عن البدع ويحذرون الفتن ويتفقدون امور عامة من هو بين اظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ثم يستصلحون ذلك ويعالجون على ما استنكروا منه بالرأي والرفق والنصح ويرفعون ما اعياهم الى ما يرجون قوته عليهم مأمونين على سير ذلك وتحصينه بصراء بالرأي حين يبدو او اطباء باستئصاله قبل ان يتمكن . وفي كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة اذا صنعوا لذلك وتلطف لهم وأعينوا على رأيهم وقووا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويبسطهم له . وخطر هذا جسيم في امرين احدهما برجوع اهل الفساد الى الصلاح واهل الفرقة الى الالفة والامر الآخر ان لا يتحرك متحرك في امر من امور العامة الا وعين ناصحة ترمقه ولا يهمس هامس الا واذن شفيقة تصيخ نحوه . واذا كان ذلك لم يقدر اهل الفساد على تربيص الامور وتلقيحها واذا لم تلقح كان نتاجها باذن الله مأمونًا .

وقد علمنا علمًا لا يخالطه شك ان عامة قط لم تصلح من قبل انفسها ولم يأتها الصلاح الا من قبل خاصتها . وان خاصة قط لم تصلح من قبل انفسها وانها لم يأتها الصلاح الا من قبل امامها . وذلك لان عدد الناس في ضعفتهم وجهالهم الذين لا يستغنون برأي انفسهم ولا يحملون العلم ولا يتقدمون في الامور فاذا جعل الله فيهم خواصّ من اهل الدين والعقول ينظرون اليهم ويسمعون منهم اهتمت خواصهم بامور عوامهم واقبلوا عليه بجد ونصح ومثابرة وقوة جعل الله ذلك صلاحًا لجماعتهم وسببًا لاهل الصلاح من خواصهم وزيادة فيما انعم الله به عليهم وبلاغًا الى الخير كله . وحاجة الخواص الى الامام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة الى خواصهم واعظم من ذلك . فبالامام يجمع الله امرهم ويكبت اهل الطعن عليهم ويجمع رأيهم وكلمتهم ويبين لهم عند العامة منزلتهم ويجعل لهم الحجة والايد والمقال على من نكب عن سبيل حقهم . فلما رأينا هذه الامور ينتظم بعضها ببعض وعرفنا من امر امير المؤمنين ما نثله جمع الله خواص المسلمين على الرغبة في حسن المعاونة والمؤازرة والسعي في صلاح عامتهم طمعنا لهم في ذلك يا امير المؤمنين وطمعنا فيه لعامتهم ورجونا ان لا يعمل بهذا الامر احد الا رزقه الله المتابعة فيه والقوة عليه . فان الامر اذا اعان على نفسه جعل للقائل مقالًا وهيأ للساعي نجاحًا . ولا حول ولا قوة الا بالله وهو رب الخلق وولي الامر يقضي في امورهم بدبر امره بقدرة عزيزة وعلم سابق فنسأله ان يعزم لامير المؤمنين على المراشد ويحصنه بالحفظ والثبات والسلام ولله الحمد والشكر .

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة والآلاء الظاهرة الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه ولا يدفع قضاؤه ولا امره وانما قوله اذا اراد شيئًا ان يقول له كن فيكون . والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ودبر الامور بحكمه وانفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها وملكة منه لها لا معقب لحكمه ولا شريك له في شيء من الامور يخلق ما يشاء ويختار ما كان للناس الخيرة في شيء من امورهم سبحان الله وتعالى عما يشركون . والحمد لله الذي جعل صفو ما اختار من الامور دينه الذي ارتضى لنفسه ولمن اراد كرامته من عباده فقام به ملائكته المقربون يعظمون جلاله ويقدسون اسماءه ويذكرون آلاءه لا يستحسرون عن عبادته ولا يستكبرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقام به من اختار من انبيائه وخلفائه واوليائه في ارضه يطيعون امره ويذبون عن محارمه ويصدقون بوعده ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوه وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وافلاجه حجتهم واعزازه دينهم واظهاره حقهم وتمكينه لهم وكان لعدوه وعدوهم عندما اوعدهم من خزيه واحلاله بأسهم وانتقامه منهم وغضبه عليهم مضى على ذلك امره ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقي ليتم نوره ولو كره الكافرون ليحق الحق ويبطل الباطل و المجرمون والحمد لله الذي لا يقضي في الامور ولا يدبرها غيره ابتدأها بعلمه وامضاها وهو وليها ومنتهاها وولي الخيرة فيها والامضاء لما احب ان يمضي منها يخلق ما يشاء ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . والحمد لله الفتاح العليم العزيز ذي المن والطول والقدرة والحول الذي لا ممسك لما فتح لاوليائه من رحمته ولا انزل باعدائه من نقمته ولا رادّ لامره في ذلك وقضائه يفعل مايشاء ويحكم مايريد لله المثيب بحمده ومنه ابتداؤه والمنعم بشكره وعليه جزاؤه والمثني بالايمان وهو عطاؤ

***

كتب ابن المقفع الى صديق ولدت له جارية :

بارك الله لكم في الابنة المستفادة وجعلها لكم زينًا واجرى لكم بها خيرًا فلاتة فانهن الأمهات والاخوات والعمات والخالات ومنهن الباقيات الصالحات . ورب سنّ اهله بعد مسرتهم ورب جارية فرّحت اهلها بعد مساءتهم .

تعزية لابن المقفع عن ولد :

اعظم الله على المصيبة اجرك واحسن على جليل الرزء ثوابك وعجل لك الخلف وذخر لك الثواب عليه .

وله :

انما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمعن الى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالاجر عليه والعوض منه . فانما اعظم المصيبتين عليك وانكى المرزيتين لك . اخلف الله عليك بخير وذخر لك جزيل الثواب .

وتعزية له عن بنت :

لا ينقص الله عددك ولا ينزع عنك نعمته التي البسك واحسن العوض لك وجعل الخلف لك خيرًا مما رزأك به وما اعطاك خيرًا مما قبض منك :

وله تعزية عن ابنة :

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفًا لك بار زئته وعوضًا من المصيبة به ورزقك من الثواب عليه اضعاف ما رزأك به منها . فما اقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

وتعزية له ايضًا :

اعظم الله اجرك في كل مصيبة واوزعك الشكر على كل نعمة . اعرف لله حقه واعتصم بما امر به من الصبر تظفر بما وعد من عظيم الاجر .

وتعزية لابن المقفع :

اما بعد فان امر الآخرة والدنيا بيد الله هو يدبرهما ويقضي فيهما ما يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه فان الله خلق الخلق بقدرته ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع احد من خلقه في خلد الدنيا ووقت لكل شيء ميقات اجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون فليس احد من خلقه الا وهو مستيقن بالموت لا يرجو بان يخلصه من ذلك احد . نسأل الله خير المنقلب . وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التي يحتسب ثوابها من ربنا الذي اليه منقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن به فانه جعل لاهل الصبر صلوات منه ورحمة وجعلهم من المهتدين .

ولابن المقفع في السلامة :

اما بعد فقد اتاني كتابك فيما اخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود ونسأله ان يلهمنا وياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها . وسألت ان اكتب اليك بخبرنا ونحن في حال لو اطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك احصاء للنعمة ولا اعتراف لكنه الحق فنرغب الى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة تظاهرًا الا يجعل شكرنا منقوصًا ولا مدخولاً ان يرزقنا مع كل نعمة كفاءها من المعرفة بفضله فيها والعمل في الاداء اليه حقها انه ولي قدير .

وله كتاب للثقفي في السلامة :

اما بعد فان مما نمق الله به مناقبك الكريمة المحمودة الغانية عن القول والوصف انك موضع المؤونات عن اخوانك حمال عنهم اثقال الامور ما وضعت عنه المؤونة ارتفاعك عن الامور التي يطأطأ اليها الكلام على السنة الناس اذ اباحوه وبهرجوه وضيعوا القول ونسوا القصد فيه واخذوا به في كل فن واصفوا بصفوته غير اهلها فيما لا ينبغي لهم من التشبيه والتوفير والتفضيل . كان من خبري بعدك اني قدمت بلد كذا فتهيأ لي بعض ما شخصت له والمحمود على ذلك الله عز وجل وانا على ان يأتيني خبرك محتاج فاما جملة خبري في فراقك فقلبي مكة كل ما سواك حرام فيها .

وله جواب في السلامة :

اما بعد فقد اتاني كتاب الامير رجعة كتابي اليه فكان فيه تصديق الظن وتثبيت الرأي ودرك البغية والله محمود فامتع الله بالامير وامتعه بصالح ما آتاه وزاده من الخيرات مستعمرًا له فيه مستعملا بطاعته التي بها يفوز الفائزون والذي رزق الله من الامير فهو عندي عظيم نفيس وكل الذي قبلي عن مكافأته فمقصر الا انه ليس في النية تقصير ولا بلوغ لشيء من الامور الا بتوفيق الله عز وجل ومعونته والسلام .

وله في السلامة جواب ايضًا :

اما بعد فلقد اتاني كتابك فيما اخبرتني عنه من صلاحك وصلاح ماقبلك وفي الذي ذكرت نعمة مجللة عظيمة نحمد عليها الله (١) المنعم بها المحمود ونسأله ان يلهمنا واياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها (٢) نحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو اطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك احصاء لنعمة ولا اعتراف (٣) لكنه الحق فنرغب الى الذي يزيد في نعمه علينا تظاهرًا الا يجعل شكرنا منقوصًا ولا مدخولاً وان يرزقنا مع كل نعمة كفاءها (٤) من المعرفة بفضله فيها والعمل في اداء حقها .

وفي السلامة ايضًا (ولم يتبين انها له) :

كتبت اليك وامير المؤمنين وما يأتيه من لين الطاعة واتساق الكلمة عمت في الداني

---

(١) هذا الكتاب ورد في الاصل مرتين وفي المرة الثانية ورد (نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود) الخ (٢) هنا في الصورة الثانية وسألت ان اكتب اليك بخبرنا ونحن على حال الخ (٣) في النسخة الثانية ولكنه الحق فنرغب الى الذي تزداد نعمه علينا كل يوم وليلة تظاهرًا (٤) في الصورة الثانية : كفاءها من المعرفة بفضله فيها والعمل في الاداء اليه حقها انه ولي قدير .

والقاصي من بلدانه وحواشي سلطانه على ما يحمد الله عليه فان نعمة الله على امير المؤمنين تجري على أذلالها وتنقاد في اسهل سبيلها .

قال المؤلف : ومن مختار ما كتب به من باب الشكر ولم اعرف ان كانت له او لغيره لانه اورد كتب بضم اولها ومع هذا فهذه هي الرسالة :

اما بعد فما اعجز تعدادي عما اتعرف منك واتعرفه بك دانياً ونائياً وما ادري ما ابتدأتني به من معروفك ارهن لشكري ام ما ثنيت به من برك لبدئك بعنايتك على نأيك ام ما البستني جماله على لسانك باطرائك وثنائك ام ما عقدته لي عند غيرك بتلطفك وتأتيك غير اني اعلم انك لم تقصر في استحقاق شكر علي وارجو الا اكون مقصراً في معرفة ذلك منك ومن لم يقصر علمه ولم يؤت في شكره الا من عظم المعروف عنده مع جهده فقد دخل بالعلم والجهد في الشاكرين . غير ان الذي آنستني به من رفدك وتوطيدك قد زادني وحشة اليك وان حفظ من حفظني فيك وان لم يكن مقصراً وقد جدد لي المعرفة بوثارة مكاني عندك واتئد بلغت ان اصلحت لي الامور والرجال واصلحتني الى صلاحي لنفسك فليس كتابي هذا باستبطاء لاحد حتى يستبطئه ولا شكري حتى يكون البدء منك ولكن روحت عن نفسي بذكرك وزينتها بشكرك وزكيتها بالاقرار بفضلك .

ولابن المقفع :

ان الناس لم يعدموا ان يطلبوا الحوائج الى الخواص من الاخوان وان يتواصلوا بالحقوق ويرغبوا الى اهل المقامات ويتوسلوا الى الاكفاء وانت بحمد الله ونعمته من اهل الخير وممن اعان عليه وبذل لاهل ثقته المصافين وان بذل النفوس فيه واعطاء الرغيب ليس منك ببكر ولا طريف بل هو تليد اتلده اولكم لآخركم واورثه اكابركم اصاغركم ومن حاجتي كذا وانت احق من طلبت اليه واستعنته على حوادث الدهر ونازلت بامري لقرب نسبك وكريم حسبك ونباهتك وعلو منزلتك وجسيم طبائعك وعوام اياديك الى عشيرتك وغيرها فليكن من رأيك ما حملتك من حاجتي على قدر قسم الله لك من فضله وما عودك من منه ووسع غيري من نعمائك واحسانك .

ولابن المقفع ايضاً :

اما بعد فان من قضى الحوائج لاخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم . والمعروف اذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده او لعقبه من بعده . وكتبت اليك ولحالنا التي نحن بها فيما نذكرك حاجة اول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا وتدخر به الايادي قبلنا .

ولعبدالله بن المقفع الى يحيي بن زياد (الحارثي)ابتداء في المؤاخاة :

اما بعد فان اهل الفضل في اللب والوفاء في الود والكرم في الخلق لهم من الثناء الحسن في الناس لسان صدق يُشيد بفضلهم ويخبر عن صحة ودهم وثقة مؤآخاتهم فيحبِّر اليهم رغبة الاخوان ويصطفي لهم سلامة صدورهم ويجتبي لهم ثمرة قلوبهم فلا مثني افضل تقريظاً ولا مخبر اصدق أُحدوثة منه . وقد لزمت من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طريقة محمودة نسبت الى مزيتها في الفضل وجمل بها ثناؤك في الذكر وشهد لك بها لسان الصدق فعرفت بمناقبها ووسمت بمحاسنها فاسرع اليك الاخوان برغبتهم مستبقين يبتدرون ودك ويصلون حبلك ابتدار اهل التنافس في حظ رغيب نصبت لهم غاية يجري اليها الطالبون ويفوز بها السابقون . فمن اثبت الله عندك بموضع الحرز والثقة وملأ بك يده من اخي وفاء وصلة واستنام منك الى شعب مأمون وعهد محفوظ وصار مغموراً بفضلك عليه في الود يتعاطى من مكافأتك ما لا يستطيع ويطلب من اثرك في ذلك غاية بلوغها شديد . فلو كنت لا تؤاخي من الاخوان الا من كافأ بودك وبلغ من الغايات حدك ما آخيت احداً واصبحت من الاخوان صفراً ولكن اخوانك يقرون لك بالفضل وتقبل انت ميسورهم من الود ولا تجشمهم كلف مكافأتك ولا بلوغ فضلك فيما بينك وبينهم فانما مثلك في ذلك ومثلهم كما قال الاول .

ومن ينازع سعيد الخير في حسب   ينزع طليحاً ويقصر قيده الصعد

ولم أُرد بهذا الثناء عليك تزكيتك ليكون ذلك قربة عندك وآخية لي لديك ولكن تحريت فيما وصفت من ذلك الحق والصدق وتنكبت الاثم والباطل فان القليل من الصدق البريء من الكذب افضل من كثير الصدق المشوب بالباطل . ولقد وصفت من مناقبك ومحاسن امورك واني لاخاف الفتنة عليك حين تسمع بتزكية نفسك وذكري ما ذكرت من فضلك لان المدح مفسدة للقلب مبعثة للعجب . ثم رجوت لك المنعة والعصمة لاني لم اذكر الا حقاً والحق ينفي من اللبيب العجب وخيلاء الكبر ويحمله على الاقتصاد والتواضع . وقد رأيت اذ كنت في الفضل والوفاء على ماوصفت منك ان آخذ بنصيبي من ودك واصل وثيقة حبلي بحبلك فيجري بيننا من الاخاء اواصر الاسباب التي بها يستحكم الود ويدوم العهد وعلمت ان تركي ذلك غبن واضاعتي اياه جهل لان التارك للحظ داخل في الغبن والعائد عن الرشد موجف الى الغي فارغب من ودي فيما رغبت فيه من ودك فاني لم ادع شيئاً استنلي به منك الرغبة واجتر به منك المودة الا وقد اقتدت اليك ذريعته واعملت نحوك مطيته لترى حرصي على مودتك ورغبتي في مؤاخاتك والسلام .

جواب من يحيي بن زياد في صفة الاخاء :

اما بعد فانا لما رأينا موضع الاخاء ممن يحتمله في تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذي البعدة ومشاركته بين ذوي الارحام في القربة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نسبته فنسبنا الاخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الاخاء الا بالوفاء فلما انتقلنا عنه الى الوفاء فنسبناه انتسب لنا الى الصبر فوجدناه محتوياً على الكرم والنجدة والصدق والحياء والنجابة والزكانة وسائر ما لا يأتي عليه العدد من المحامد ثم انحدرنا فيما اصعدنا فيه من هذا النسب فعدنا الى الاخاء فوجدناه لا يقوم به الا من هذه الخصال كلها اخلاقه . ولما استوجب الاخاء مسالك المحمدة كلها رأينا ان نتخير له المواضع في صواب التوزير واحكام التقدير وعلمنا ان الاحتباس به احسن من الندم بعد بذله واستوجب اذ كان جماع المحامد ان نتخير له محامله التي كان يحمل عليها فكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الاخاء على صنفين فصنف تذرونا بالتحبس للتخير اذ كان التخير من شأنهم وصنف هم ذوو سرعة الى الاخاء وسرعة في الانتهاء فقدموا اللائمة واستعجلوا بالمودة وتركوا باب التروية واستحلوا عاجل المحبة ولهوا عن آجل الثقة فكانوا بذلك اهل لائمة ولم يجد المعذرون الا الصبر على تلك والاستعمال للرأي والاستعداد بالعذر عند الحاجة .

. قد فهمت كتابك الي بالمودة واستحثاثك اياي في الاخوة ومادنوت به من حرمة المحبة فنازعت اليك نفسي بمثل الذي نازعت به الي نفسك فواثبتني عادة الاستعمال للتروية في الخبرة والتخير للغيبة فجلت عن كتابك جولة غير نافرة ثم راجعت مقاربتك فقلت القِ الي اسباب المودة قبل كشف الغطاء بالخبرة فخشيت ان تعذر نفسك بالتقدم وتحدث الزهادة للتعسف بالجهالة عند الخبرة فجلت عن هذا جولة كالجولة الاولى ثم عاودت اسعافك وطاعة التشوق ومعصية التخير ثم قلت ما حال من جعل الظن دون اليقين والتقدم قبل الوثيقة فلما كان الرأي لي خصماً تنكبت الوقوع في خلافه فلم اجد الا الادبار عن اقبالك سبيلاً ولا مع ذلك في طاعة الشوق حجة فتغيبت السبيل بين ذلك الى اعطائك طرف حبل الاخاء في غير الخروج من سبيل التخير وكرهت ان تستعبدني بالاخاء قبل ان اعرفك بحسن الملكة وان تستظهرني على الاعداء قبل ان اعرفك بعدل السيرة وان تستضيء بي في ظلم الجهل قبل ان اعرفك بعقد اللب وان تستمكن بي في المطالب قبل ان اعرفك بقصد الهمة فقدمت اليك الترحيب والعدة واحسنت عنك المفاوضة والثقة وتنظرت ان تثمر لي فاذوق جناك فاعرفك بالمذاقة في الطعم اما لافظاً واما مستبلغاً فان كان اللفظ لم اكن من الرأي في قلبه وان كان الاستبلاغ ذوقتك ما تشوقت اليه مما ادعيت مني به الخبرة واولى ما انا معتبر به منك المواظبة على استنجاح ما سألت او السآمة له فان كانت المواظبة فاحد الشهود المعدلين وان كانت السآمة فانت عن حمل ما تعطي اضعف منك عن جميل ما تطلب . طالعني كتبك فانك قد حللت قبلي عقداً من التحفظ وعقدت عقداً من التقرب والسلام .

الصنائع الاسلامية

تابع ما قبله

اذا أُطلق لفظ النقش عند المسلمين فلا ينبغي ان يفهم منه انه يراد به تمثيل صورة ذات روح بل قد تكون تلك الصور نقوشاً يُراد بها امر آخر . ومما يجب له انه يوجد في هذا الكتاب الوجيز اشارة ضعيفة لصورة فارس يمسك رمحه بيده نقش على القبة في مسجد ببغداد . ولم يزد المسيو ميجون بان هذا الفارس يشير الى الناحية التي يجيء منها الهواء . فكان هذا التمثال ضرباً من دوارة على الهواء صنعت من الحديد المصفح وجعلت في الهواء تمثل فارساً والرمح بيده وقد ذكروا أُسطورة بشأنها . فكان العامة يعتقدون ان هذا الفارس يدل بقوة تعويذة معه على الناحية التي تنشأ فيها ثورة من مملكة الخلفاء العباسيين

وليس النقش عند المسلمين الا خادماً خاضعاً للهندسة على نحو ما كانت الفلسفة من علم الكلام في القرون الوسطى . والاسود التي رآها ابن بطوطة قد صنعت من الرخام المستخرج من افروجيا « فرجيا » في آسيا الوسطى حيث يكثر فيها . وبلغ من احترام السلاجقة للنقش ان كانوا ينزلونه في الحوائط . وليس للتماثيل من الخشب التي صنعها صناع من المسلمين بامر الطولونيين علاقة بالصنائع الاسلامية بل هي فرع متأخر من فروع الصناعة الوطنية . وقد بدأت في مصر صناعة النقش للزينة باستعمال الكلس والرخام غير المسحوق بالآلة بل بيد صنع الايدي . واقدم ما وجد من ضروبها شكل مهندس ممزوج بعروق خيالية ظريفة . اما الحجر للزينة فقلما يوجد الا في المساجد التي يرد عهدها الى القرن الرابع عشر وعلى العكس في اسبانيا فانا نرى هذه الصناعة مزهرة فيها منذ اوائل الخلافة الأموية .

وقد بقي لنا شاهد واحد منها وهو مغسل الوضوء المصنوع من الرخام ولا يزال محفوظاً الى الآن في متحف الآثار في مدريد . وجرن الرخام وحوض الاسود في قصر الحمراء معروفان موصوفان . الا ان تزيين المصانع ما كان الا من الجبس موضوعاً في القوالب وضعاً محكماً مما يبدو في هيئة بديعة تفوق اجمل نموذجات الهندسة . وان قصر الحمراء على جماله لم يعمل الا من معجون الجبس .

لا يأخذنا العجب اذا رأينا السلجوقيين في آسيا الوسطى قد ابقوا الناصور اً تمثل الصورة الانسانية . ولئن كان المهندسون في زمنهم سوريين او روميين فان الافكار السائدة في بلاط قونية ان منشأها ايراني زادت انتشاراً بما كان لشمس الدين التبريزي وجلال الدين الرومي الصوفيين العظيمين من النفوذ وكان الاول صاحب السر والثاني مؤسس طريقة

الدراويش المولوية . وكان سلاطين السلجوقيين مهوّسين اشد التهوس بكل ما هو من اصل فارسي حتى انهم كانوا يدعون ابناءهم باسماء استخرجوها من قصص الابطال في الملاحم . وظلت الصناعة التي انتشرت بهذا التأثير محصورة في آسيا الصغرى ولم تنتشر في سائر البلاد الاسلامية .

اخذت العرب صناعة الفسيفساء عن البيزنطيين فاستجلب من الاستانة الخليفة عبد الرحمن الى قرطبة صناعًا من الروم ليزين مسجدها . وخابر الوليد ملك القسطنطينية ليبعث اليه بالعملة والمواد اللازمة لتزويق المسجد الاموي في دمشق وهي كنيسة القديس يوحنا الدمشقي القديمة . تغير هذا المسجد ولم يُبقِ منه حريق سنة ١٨٩٣ ما كان سلم من آثاره . وفي سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) جرى اصلاح فسيفساء قبة الصخرة كما قرأت ذلك في الصورة الشمسية من الصفحة الثالثة والثمانين من الجزء الثاني بالرسم ٧٣ . وقد كسي داخل المصانع الاسلامية في القاهرة بانواع من الزينة صنعت من الرخام على ابهج صورة وازهاها .

***

ان ما يرى في مصر من الخشب المنقوش لا يتأتى الا ان يكون مجلوبًا من سورية او من آسيا الصغرى . ومعلوم ان في مصر صناعة خاصة بها لا يرى لها اثر في غيرها من الاقطار الا وهي صناعة المشربيات وهي اقفاص نوافذ على طنف بارزة بحيث تكون للنوافذ التي تطل على الشوارع اقفاص لئلا يتطلع الى ما وراءها متطلع ولو بدون قصد . من اجل هذا يستعمل القوم « شعريات » من اقفاص خشب رقيق . وفي مصر يستعمل خشب غليظ خرط بالمخرطة وجعل على صورة يتفنن فيها كل التفنن . وفي المتحف العربي في القاهرة حشوات منقوشة غاية في الجمال ومن جملتها ثلاثة محاريب توفر المسيو رافيس على البحث فيها وهي من عهد الفاطميين . وقد كانت الحشوات في القرن الثالث عشر اصغر مما هي الآن وخطوطها ادق واشكالها اكثر تنويعًا وصورها التزويقية مطلقة . وصورت على ابواب البيمارستان القلاووني صور ذات ارواح . والفرق ظاهر بين طريقة هذه المصانع في الصنع والحشوات التي جعلت على القبور الفارغة في ذاك العهد والصورة العامة مربعة في هذه وذات خط مستدير في ابواب البيمارستان . ويتجلى الفرق للانظار بالمقابلة بين النقوش الصغيرة التي وردت في صفحة ١٠٠ و١٠١ الموضوعة احداها بجانب الاخرى . فان الحشوات صنعة عربية مصرية اما الابواب فصنعة فارسية . ومن هنا اتت الصور ذات الارواح . وظاهر انه كان في ذاك العهد في القاهرة طريقة فارسية في النقوش جاءت زيادة على ما كان فيها من الصناعة الوطنية وليس ذلك من ارتقاء الصناعة المحلية كما لاحظ ذاك المسيو

ميجون. وارى انه لم يبن رأيه على صورة باتة كافية وان شئت فقل على صور ظاهرة . المنبر في المسجد من المواد التي لا يستغنى عنها فمنه ما يبنى بالحجر مثل منبر مسجد برقوق في الصحراء بالقرب من القاهرة . ومن العادة ان يعمل المنبر من الخشب . وقد عرفت من المنابر نموذجات بديعة كمنبر مسجد ابن طولون الذي امر ببنائه احد سلاطين المماليك السلطان لاجين ولا تزال حشواته العمردية محفوظة في لندرا ومثل منبر قايتباي ومسجد علاء الدين الاول قاي قوباد في قونية وجامع الزيتونة في تونس وغيرها . وهناك شيء آخر خاص بمساجد مصر واعني به الكرسي او الخزانة المسدسة الزوايا والاضلاع كانوا يضعون عليها المصاحف للتلاوة فاذا فرغوا خبؤوها في داخلها وكانت حشواتها مزينة بتطعيم (تنزيل) من العاج ومن خشب ملون .

ويوضع المصحف في المساجد العثمانية مفتوحاً او مطبوقاً على دعامة تطبق على شكل تسمى «رحلاية» . وقد فات المسيو ميجون ان يذكر هذا المتاع الذي يعمل من خشب الجوز المتين ويطعم باشكال من عرق اللؤلؤ والعاج (صنع الاستانة) على نمط الاخونة الواطئة التي يقال لها « اسكملة » .

وفي اسبانيا اجمل النموذجات من النقش على العاج اخذها المسلمون عن القوط الغربيين ولم يستطع احد ان يوفق بين معامل هذه الصناعة ومراكز اخراجها بل ثبت من فحص هذه المصنوعات التي لا تزال محفوظة بكمية وافرة انها صناعة محكمة تدل على فرط مهارة فنية تقلبت عليها الاحوال باهوالها ومنها الشرقي ومنها البيزنطي . واللوحان البديعان من العاج اللذان لم يبرحا محفوظين في مجموعة كاران في متحف بارجللو في فلورنسة هما من اصل يختلف احدهما عن الآخر ولا نعلم من امرهما شيئاً يذكر . بيد ان النسور والاسود المرسومة على اللوحين هي من اصل اشوري وقد رسمت عليهما رسماً دل على مهارة تحملنا على المقارنة بينها وبين نحاس الموصل وشواطيء دجلة حيث بقيت التقاليد الصناعية القديمة محفوظة بحالها خلال القرون الوسطى .

اما الصياغة فقديمة العهد رأى الشاعر الرحالة الفارسي ناصر خسرو في مدينة صور ثريات من الذهب والفضة وفي القدس ابوابا مغطاة بالواح من النحاس بديعة الصنع وفي القاهرة عرش المستنصر الفاطمي معمولاً من الذهب والفضة الخالصة وقد نقشت عليه كتابات وصورت صور صيد وقنص . وان سفط العاج في كنيسة بايو (فرنسا) الملبسة بالفضة المنقورة (المخرمة) واسفاط كنيسة كوار (سويسرا) وسان سيرفي (فرنسا) ومايسترخت (هولاندة) وسان مارك في البندقية لتمثل لانظارنا ما كانت عليه صناعة الصياغة من البهاء في

القرن الثاني عشر . والى ذاك العهد يرتقي صنع النحاس الجميل الملبس الذي حفظ الى اليوم ولكن مما لا شك فيه ان ازدهار هذه الصناعة اقدم من ذلك وان ما نعثر عليه من ذاك التاريخ من الاعلاق النفيسة ليس الا زبدة قرون طويلة وابحاث متصلة . ولقد تساءل بعضهم عن السبب الرئيسي في انتشار صناعة النحاس المحفور ببلاد بين النهرين ولا سيما الموصل . ويوشك ان يكون ذلك من مجاورة معادن ارغني (١) والخابور وبالقرب من مناجم الخابور جبل مغارات (٢) الذي يستخرج منه النحاس الخام ويذوَّب ثم ينقل الى جميع بلاد آسيا قديمًا .

وتبين من عرض هذه المصانع بعضها في جانب الآخر ان التزويق المحفور في صور بارزة هو اقدم طرق النقش على المصنوعات النحاسية . اما تنزيل الذهب والفضة فلم يحدث الا مؤخرًا . وقد تغلبت صور البشر والحيوانات في الموصل مما يدل على ان الصناعة فارسية الاصل حفظ فيها الساسانيون تقاليدهم الصناعية التي يرد عهدها كما قال لونكبريه الى عهد الصور البارزة الاشورية .

وقد ساق البحث المسيو ماكس فان برشم لحلّ الكتابات التي كتبت على اجمل هذه المصنوعات وقسمها قسمين رئيسين او مجموعتين اساسيتين احداهما شرقية انتشرت في خراسان كما انتشرت في الموصل والثانية غربية اي سورية مصرية وهي عبارة عن نحاس صنع في زمن الايوبيين في اوائل القرن الثالث عشر . وكان من غارات المغول ان قطعت زمنًا قصيرًا سلسلة هذه الاعمال وجاء المماليك في القرنين التاليين فرقوا هذه الصناعة باعمال اتصل بنا علمها وهي كثيرة . وما صناع الشام ومصر الا تلاميذ صناع الموصل وبهم تخرجوا .

واذا بحثنا في القلز (النحاس الاحمر) نذهل من رؤية المصانع المحطة بجمالها مثل صورة العنقاء في بيزا التي جلبت من مصر على عهد الصليبيين وصورة الأيل من صنع الفاطميين الموجود في متحف الامة في مونيخ والجواد المحفوظ في متحف قرطبة والطسوت المعمولة على شكل الاوز والمباخر على شكل الببغاء المحفوظة في متحف اللوفر . وما اعجب مصابيح المساجد المصنوعة من القلز والحديد كالتي لا تزال محفوظة في المتحف الاثري في مدريد وقد جيء بها من غرناطة ومثل الموجودة في دار الآثار العربية بالقاهرة المأخوذة من جامع السلطان حسن وكثير امثالها .

اما الاسلحة فلم يجر حتى الآن تنظيم تاريخها ولم يذكر هذا المختصر الذي نحن بصدده

(١) قرية صغيرة من اعمال ديار بكر الآن

(٢) لعله ارارط وهو جبل الجودي في ارمينية الذي رست عليه سفينة نوح عليه السلام

سوى اشارات موجزة بشأنها . ويرجى ان يطلعنا المسيو موزر ذات يوم على ما وقف عليه وجمعه من الايضاحات بشأن صنع الفولاذ فتكون اعماله مساعدة لنا على تنظيم المعلومات المبهمة التي حصلنا عليها حتى الآن . ولطالما تكلم الناس عن فولاذ دمشق لغرابة دقايته . ولما ارسل السلطان بيبرس من سلاطين المماليك هدايا سياسية الى باراق سلطان المغول في تركستان بعث اليه باسلحة دمشقية . ولما استولى تيمورلنك على دمشق اخذ معه الى سمرقند صناع الفولاذ الدمشقي . وقد كان في القاهرة في شارع النحاسين الحالي بين القصرين سوق للسلاح رائجة كثيراً الا اننا لا نعلم شيئاً عن اصل الاسلحة التي كانت تباع فيها . وليس ثمة ما يدل على انه كان في مصر معامل لصنع نصال الفولاذ وربما كانت تصنع فيها مقابض سيوف واغماد ويصلحونها على النحو الذي اختاروه وهذا عمل غير عمل نصال الفولاذ ويجب ان يميز عند تدقيق هذه الآثار في المستقبل بين معامل صنع النصال ومعامل تركيبها . ولم يتعرض لذلك كتاب الوجيز ولا يستطيع ان يتكلم الآن الا على المعامل المتأخرة . ومع هذا فقد توصل المسيو بوتين بعد البحث في المقابلة بين النصال الى ان المعمول منها في دمشق . هو مزيج من الحديد والفولاذ وانه في الاغلب من سكب بلاد الفرس واذا كانت النصال في الهند ذات لمعة بذوبانها فهي منقوشة بالطرق . وقبل الفتح العربي كانت طليطلة في اسبانيا مشهورة بسقي نصالها . وفتح عبد الرحمن الثاني معملاً لها (٨٢٢—٨٥٢) ولم يبق ولا حسام اسباني مغربي من قبل القرن الخامس عشر وما بقي منها مما يرد صنعه الى ذلك العهد جيء به من غرناطة . وتاريخ الاسلحة في بلاد فارس والمملكة العثمانية غريب والمعلومات عنه اغرب . وكنا نود ان تكون اغزر مما وصلنا ولكن تاريخ الاسلحة كما قلت سابقاً لم يوضع بعد .

يعرف من يسيحون في الشرق اسم الخنجر والقامة ومع هذا لا تجد لهما ذكراً بين الاسلحة العثمانية والفارسية . ولم يقولوا كلمة عن الزمان والمكان الذي استعيض فيه عن السيف القديم المستقيم بنصل معوج . وان اسنة الرماح والبنادق والقبنجات وقطع الخيل (كوباناتها) على خطارتها عند الساسانيين والمصورين بالخطوط اللطيفة من الفرس مما بقي كثير من امثالها في طي الخفاء فقد كان يرجى ان نعرف عنها شيئاً يركن اليه لخطارتها وفائدتها للتاريخ . على انه قد اطيل البحث في صنع الاواني الخزفية وهي صناعة جديرة بأن يفاخر فيها . اصلها من فارس وان لم يذكر ذلك المسيو ميجون ذكراً تاماً . وتدل مصانع الاخمانيين في سوس على ذلك دلالة صريحة وربما كانت هذه المصانع موروثة لهم عن الصنائع الاشورية .

وتمتاز مساجد ورامين واصفهان بما جعل على جدرانها من الطلاء الذي يعكس اشعة ذهبية ولكنها عبارة عن قشرة رقيقة من النحاس . ولقد جلبت المربعات الموضوعة للزينة في مساجد سيدي عقبة في القيروان من مدينه بغداد (وهي المدينة التي انشأها العباسيون بتأثيرات فارسية وكان الفرس الذين اتى بهم ابو مسلم هم سبب رفعتها) جلبها الى افريقية مؤسس دولة الاغالبة سنة ٨٩٤ وصنعت معامل مدينة الرقة على الفرات بضع قطع سلمت الى هذا العهد وكثيرًا من بقايا الخزف . وقد الف المسيو فاليس عدة كتب للتوسع في البحث عن الاواني المجلوة في فارس واصلها من الري التي كانت تعرف قديمًا باسم راجيس . واذ كثر البحث في هذا الموضوع ساغ لنا ان نبين تاريخ حدوث هذه الصناعة فقد ذكر احد الباحثين في هذا الشأن واسمه المسيو اوتو فون فالك في كتابه صناعة الكاشاني القديم ان الواح الزجاج الملونة البراقة التي بقيت من القرن الثالث عشر في ايران هي دهان على سطح مستو وان الصفحات التي كتبت عليها كتابات بارزة لم تظهر الا في القرن الرابع عشر . ودامت صناعة التلميع خلال القرون الثلاثة التالية و بلغت درجة من التفنن غريبة . وان طبخ بعض القطع برفع الحرارة فيها الى درجة عالية قد جعلها كالصيني على ما يتجلى ذلك فيها . وقد بدت على عهد المغول تأثيرات الصناعة الصينية فانتشرت صور التنين وابي اذول وغصن الخوخ وهو مزهر وكل ذلك من اصل صيني . دلنا ما عثر عليه في مصر في سهل الفسطاط او مصر العتيقة على ما كانت عليه صناعة الخزف على عهد الفاطميين . واصل نقوشها على الاقل فارسية وان كان صنعها يختلف على ان المواد الاولية هي من مصر نفسها . وقد اثبت الرحالة ناصر خسرو امرًا غريبًا من الاواني الخزفية ذات الالوان المتغيرة التي شاهدها في القاهرة وهذه الالوان هي من صفات الكاشاني الذي يلمع كحد النصال وعليه فيفهم من ذلك ان نظر هذا السائح الفارسي لم يقع في بلاده على ما يماثلها وان ما وجد منها في الري لا يرتقي عهده في الحقيقة الا الى اواخر القرن الثاني عشر . على ان ناصر خسرو رحل في الحادي عشر . وتوجد من هذا النوع صناعة شامية مصرية .

وفي داخل مساجد السلجوقيين في قونية وكلها من القرن الثالث عشر صور متأنق في صنعها من المربعات على الكاشاني . وكان محمد بن عثمان المعلم الذي كسا الحوائط بهذا النوع من الفسيفساء (اي الخزف المطلي والكاشاني المقطع) في مدرسة صرت شالو Syrtchalu من مدينة طوس في خراسان وهي المدينة التي اصبحت مدينة المشهد . وبقي من ذات العهد هذا الضرب من الزينة في بورصة والاستانة من البلاد العثمانية .

بدي، بالبحث في الكاشاني الاسباني المغربي منذ عهد طويل . وفي سنة ١٨٤٤ اظهره

ريوكرو امين متحف السيفر للمرة الاولى · اما اليوم فقد ثبت تاريخه احسن ثبوت · والظاهر ان هذه الصناعة جاءت من بغداد · وربما كان ذلك عن طريق القيروان لا توًا · وتعد اواني قصر الحمراء من بدائع صناعة مالقة · ويظهر انها نشأت في القرن الرابع عشر وهو العهد الذي زار ابن بطوطة في هذه المدينة المعامل التي كانت تصنع فيها الاواني الخزفية الجميلة او الصيني المذهب · والزينة بتصوير الوعول تدل على بقاء شكل قديم لا يتأتى صدوره الا من الشرق ·

اما صناعة الاقداح المزينة بالمينا فلا يليق اغفال الكلام عليها لخطرها · وقد كانت هذه النموذجات من الاقداح في اوائل الفتوحات العربية تستعمل للعيار على صورة اقراص العجون الكبير كتبت عليها التواريخ ودرسها المسيو كازانوفا للوقوف على حقيقتها · ثم انك تجد اكوابًا ملونة بضروب الالوان كقوس قزح لطول بقائها في الارض · وربما اختلطت احيانًا بالاكواب القديمة والاكواب التي نقشت عليها صور مطبوعة يرغب فيها ارباب الفن رغبة خاصة مثل الكأس الصغيرة المرسوم عليها اسود ووعول وقد اقتناها مؤخرًا متحف اللوفر · وتشير الاقداح المزينة بالمينا ولاسيما مصابيح المساجد المصنوعة من الزجاج التي ربما كانت مأخوذة عن مملكة الروم البيزنطية الى مهارة صناعها الغريبة على حين تدل مادة الزجاج المملوءة بالفقاقيع والعيوب على انها ما كانت بجودتها ابدًا من الطراز الاول · ومن هذه المصابيح مجموعة فيها ستون قطعة في متحف الآثار العربية في القاهرة وهي اتم مجموعة وجدت · ومن المحتمل ان هذا الزجاج لم يصنع في مصر حيث اخترع الزجاج على قول سياح الروم · وتكلم مؤلفو العرب على زجاج صور وذكر الرحالة بنيامن دي توديل ايضًا شيئًا عنها وقال انه صادف ايضًا عشرة معامل للزجاج في انطاكية كما قال يعقوب دي فيتري انه رأى منها في عكا · وقد نقلت هذه الصناعة من صور الى دمشق وفيها رأى الرحالة بوجيبومي سنة ١٣٤٦ معامل الزجاج تشتغل على طول المسجد الاموي وقد اخذ تيمورلنك صناع الزجاج الى سمرقند كما فعل بصناع الفولاذ · واثبت كتاب العرب والفرس انه كان في حلب والعراق معامل للزجاج ايضًا ·

يتبين من الاقمشة العربية انها كانت بادىء بدء مصنوعة على طرز ساساني او قبطي او رومي ويستفاد من حفريات انصنا (١) ان الاقمشة الرومية والقبطية صارت كلها شيئًا

(١) سألنا عن اسم Antinoë احمد زكي بك العالم المصري الشهير فقال انها انصنا من مدن مصر الوسطى قبالة الاشمونين بمركز ملوي من مديرية اسيوط دثرت الآن وقد وردت هذه اللفظة في كتاب البدء والتاريخ فنقلها مترجمه كاتب هذه المقالة الى الافرنسية بلفظها العربي

واحدًا بعد وكان التأثير الساساني فيها مستحكمًا فان صور الحروب والصيود وصور الفرسان الذين يعدون مسرعين ويرمون الايائل والظباء بالنشاب هي من الكتابات الفارسية · وقد امتلأت ذخائر كنائسنا بقطع من الاقمشة بقيت زمانًا لم تعرف البلد التي صنعت فيه وما هي في الحقيقة الا من صنع الشرق في القرون الوسطى · ثم اشتهرت فارس بعد حين بالاطلس والمخمل (القطيفة) المقطع وقد رسمت عليه صور اشخاص وسط الازاهير المتكاثفة واشتهرت مدينة كاشان بصنع الاستبرق والحبر ·

ولما فتح السلطان سليمان طوريس اخذ نساج الحرير الى البلاد العثمانية وانشؤا فيها معامل صنعت هذه الاقمشة الحريرية والمخمل المكتب واشتهرت باسم حرير بورصة · وانتقلت هذه المصنوعات من آسيا الصغرى الى البندقية وفلورنسة وجين وفرنسا · ولم يعودوا يرسمون عليها صور اشخاص واقتصر في تزيين الاقمشة على الازهار جعلوها بلا معنى وضعي كما في قطع الاواني الخزفية · و يستفاد مما قاله عماري (العالم الايطالي) انه كان في صقلية قبل الفتح النورماندي فندق فُرش بالوشي وكان ملاصقًا لقصر الامراء الذين كانوا يحكمون على الجزيرة باسم الفاطميين · ودعت حملات روجر الثاني على بلاد اليونان الى ان يجلب معه الى بلرمة صناع الحرير واسم (مانيانزي) الذي يطلق بالافرنسية على معامل الحرير جاءنا في الاصل من مدينة مان احدى مدن جنوبي بلاد المورة اليونانية ·

ولما غلب هرقل خسرو الثاني عثر الجيش الروماني في قصر يزدجرد (داسكارات الملك) على طنافس مطرزة بالابرة ووقع في ايدي العرب عندما فتحوا المدائن بسط منسوجة بالذهب والفضة ومرصعة بالاحجار الكريمة · ويعتقدون ان البسط ذات الوبر الكبير من اصل فارسي ومن فارس يجب ان تطلب الا انه لم يبق شيء من تلك العصور المتوغلة في القدم · ولاجل تنسيق تاريخ البسط رأوا ان يرتبوها بحسب اشكالها والتواريخ التي اهتدي اليها من صور اساليب التصوير الفلامندي والهولاندى والايطالي · واخترع هذه الطريقة البديعة المسيو لسينج سنة ١٨٧٧ · وكانت اوربا اذ ذاك غاصة بالبسط التي تجلبها البندقية وبروج فافتتن المصورون بلطافة الوانها وجودة نقشها وبادروا الى ادخالها في نقوشهم ورسومهم · ويظهر ان البساط القديم المزين بالصور على اسلوب بديع الذي دخل مؤخرًا في ملك متحف الامبراطور فريدريك في برلين واهتم به كل من المسيو كاراباسيك والمسيو ريجل كان اصله من قونية من مخلفات سلاطين السلجوقيين الذي حكموا فيها فهو مما صنع في القرن الثالث عشر · اما البسط العجمية المرسوم عليها صور الطيور فانها من بدائع ما حاكه كبار صنع الابدي · وكذلك الحال في البسط المنقوشة بالازهار الكبيرة ومصابيح المساجد والاواني

فانها تؤلف طبقة بديعة ايضاً وعلى العكس في البسط المزينة بصور مهندسة فانها من مصنوعات آسيا الصغرى وما زالت الى اليوم كل من مدينتي جورودس Guerudès وعشاق من مراكزها العظيمة .

***

وبعد فهل من الممكن ان نشير الى ما اثرته الصناعة الاسلامية في صنائع الغرب . نعم اذا اريد بذلك جمع الصنائع الماضية صبرة واحدة وتوحيدها كلها معاً على نحو ما كانت على عهد الفتح العربي وكما يحدث ابداً عند ما تنشأ ممالك كبيرة متسعة . واذ بدل هذا الفتح وجه الشرق كان الداعي الى اختلاط آسيا العليا بالغرب في عدة اماكن . وانك لتجد النقوش المسماة (هوم) بلا داع وقد رسمت عليها الشجرة المقدسة او حياة الاشوريين على نحو ما اقتبسها الساسانيون سواء كانت وحدها او جعل على جانبيها حيوانات قائمة او رابضة وكذلك الطريقة القديمة في صراع الحيوانات .

ولقد كانت سفن العرب تتقدم الى البحر الاتلانتيكي منذ عهد الأسرة الكارولنجية (١) فحملت نقود الأمويين بواسطة الصلات التجارية الى روسيا وبولونيا والدانيمرك والسويد ووجدت انسجة مكتوب عليها كتابات كوفية محرفة في أطر ابواب الكنائس في نوتردام في بوى انفالي وفي كنيسة فوت شيهان الفرنسويتين وعلى كثير من المصانع وفي بعض المحال كما عثر على مثل ذلك في ابراج كاتدرائية شارتر ونقل المصورون بعض الصور الشرقية بالحرف .

يرى المسيو ميجون ان يدرس صناعنا تلك الصنائع لانها بقوة جمال اشكالها ودقة وضعها وصنعها المعقول ولمعان ألوانها ليس لها ما يشبهها بكثرة الصور واللطف السامي . وقد جرب بعضهم تقليد تلك الصنائع فافلحوا في اقتباسها على نحو ما فعلوا في قباب زاوية قصر المعرض العام سنة ١٨٨٩ فوضعوا فوق الحديد الذي يحول بين الاقسام واتخذوه حيطاناً صفحات من الكاشاني ذي النقوش الفارسية فكانت بذلك اول تجربة نجحت في هذا السبيل .

كان بذخ ملوك المسلمين من الدواعي للصناع ان يرقوا الاساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن اجدادهم شفاهاً فجددوها وتفننوا فيها فارتقت مع عدة اشكال قديمة بعضها من اصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والآخر ساساني من اخلاف الدولة الاخمانية ولا سيما (في الامور الصناعية) او اشوري او بابلي . ارتقت عدة فروع من الصنائع الاسلامية المنوعة الاساليب وهي ليست من اصل بيزنطي ولا فارسي فيفضل بعضهم التزيين المهندس او النقوش التي تجمل على هيئة النباتات والاوراق وهو النمط الوحيد الذي بقي في الحقيقة

---

(١) الأسرة الفرنسوية الثانية التي حكمت فرنسا منذ سنة ٧٥٢

حيث تأصل مذهب اهل السنة . ويمزج بعضهم فيه صور حيوانات ذات روح وهذه ينبغي نسبتها في اكثر الاحوال الى تأثير فارس . ومن درس الصنائع القابلة للتشكل والتحول كالهندسة والصنائع اليدوية تتمثل لعينيه القرون الوسطى في الشرق بما اتى به من تمدنه الخاص وما هو الا مثال المجتمع الذي اوجده القرآن في صورة ظاهرة مؤثرة . فاذا اضيفت الى ذلك اقوال المؤرخين والجغرافيين لا تلبث ان تطلع على هذا النظام الاجتماعي الذي يختلف من عدة وجوه عن نظامنا وكان ثقلاً على اوربا كما كان صلة بين العصور القديمة والعصور الحالية .

المسلمون والذميون والمعاهدون (١)

الاحساس دليل الحياة !

التضامن رائد العمران !

يابني أمي ! ويابني عمي !

تدبروا رعاكم الله فيما ترونه عن أيمانكم . وتبصروا فيما تبصرونه عن شمائلكم . وتفكروا فيما بين ايديكم . ثم خبروني ماذا تجدون ؟

تجدون الشعور القومي قد تجسم معناه . حتى كادت اليد تتقراه . والعين تراه . والاحساس لعمري دليل على الحياة .

ثم ثوبوا الى انفسكم وانظروا كيف كنا الى عهد قريب متنافرين متفككين لا نستمسك بحبل متين من جهة الدنيا او من جهة الدين حتى قال فينا فيلسوف المشرق : اننا اتفقنا على ان لا نتفق .

فاليوم احمد الله اليكم يابني مصر فقد اراد بكم الخير اذ وفقكم الى سبيل الاتفاق .

اليوم بدأنا نطرح تلك الاهواء التي جعلتنا شيعاً متفرقة . أستغفر الله ! بل جعلت كل فرد منا مستقلاً بنفسه منفصلاً عن سائر بني جنسه .

اليوم بدأنا نخالف ما ألفناه من تلك الاختلافات التي علمتنا افانين العداوات وعبثت بكيان الامة .

(١) هي خطبة القاها في دار التمثيل العربي احمد بك زكي من كبار علماء القاهرة يوم ٢٤ صفر سنة ١٣٢٦ هجرية موافق ٢٧ مارس سنة ١٩٠٨ ميلادية و ١٧ برمهات سنة ١٦٢٤ قبطية

اليومَ بدأ الافراد يتضامون بعضهم الى بعض فتألفت منهم افواج وجماعات بحسب المشارب والاميال والغايات ·

اليومَ بدأت هذه الجماعات تتجاذب وترتبط بما فيه توثيق عرى الجامعة القومية واظهار الامة في مظهرها الصحيح ·

اليومَ اخذت تلك الجماعات في وضع الحجر الاول من هذا البنيان · بلى · فان اجتماعنا الآن دليل على اننا قد ادركنا : « ان التضامن رائد العمران » ·

***

أيما أمة تولد فيها الاحساس وسعى افرادها الى التضامن فبشرها بخير قريب وفلاح عاجل ·

ولكن هنالك شرطاً لا مندوحة عنه : وهو ان يتعهد اهل الرأي فيها وأولو العزم منها هذا المظهر الجديد حتى لا يتغلب الشوك فيقتل النبت الصالح الذي يأتي بالثمر الشهي النافع ·

ذلك واجب مقدس يحتم علينا جميعاً ان نقوم به لخيرنا جميعاً : فكل فرد منا هو في الحقيقة خادم للمجموع كما ان المجموع يتكفل بخدمة كل فرد على السواء ·

***

دعاني أولو الفضل الذين تتألف منهم هذه الجمعية « جمعية الرابطة المسيحية » لاقف خطيباً بينكم وتركوا لي اختيار الموضوع كما أشتهي وأريد · فلم ارَ افضل من المثول بين قومي وهم بنو أمي وبنو عمي داعياً الى انضمام العنصرين اللذين يتألف منهما كيان الامة المصرية راجياً ان يقوم غيري من الخطباء المفوّهين فينسجون على هذا المنوال حتى نتوصل لتقويض دعائم التفريق التي جعلتنا مضغة في الافواه وصيرتنا عبرة للناظرين ·

لا ينبغي لي ان اقول ان المقام ضيق وا المركز حرج لاني وجدت مجال القول ذا سعة ولكن هذه السعة كانت سبباً في حيرتي فصرت اتردّد واردد المثل السيار الذي ضربه الفرنساويون وهو : انما الحيرة في الاختيار ·

بيدَ اني بعد انعام النظر رأيت أن اجعل خطابي على شكل محاضرة في صورة مفاكهة اجاذبكم بها الحديث بذكر نوادر واخبار حفظها التاريخ · وليس لي من امل سوى ان نتوصل لجعل الاخلاف يرددون عنا شيئاً شبيهاً بما سأذكره لكم من مآثر الاسلاف فيكون لنا لسان صدق في الآخرين : اذ يشتركون مع ارواحنا بسلام واغتباط في تحية هذا اليوم الذي هو باكورة الارتباط بين المسلمين والاقباط ·

***

المسلم والقبطي : واذا شئتم قلت لكم القبطي والمسلم · فالاولون الآخرون والآخرون والاولون ·

ليس لهما الاّ أمٌ واحدة : هي مصر . وليس لهما الاّ ابٌ واحد : هو النيل . فهما صنوانٌ بل شقيقان قد فرق بينهما الزمان حينما فسدت الاخلاق وتنكرت المعارف في هذه البلاد فتحكم فيهما الاجنبيّ والطارئ والدخيل سواء كانوا من هذا الدين او من ذلك الدين .

بل تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ان لا نقول بغير الوطن وان لا نفزع لغير الجامعة القومية . هذا تاريخنا وتاريخكم يشهد لاجدادنا واجدادكم ويشهد علينا وعليكم . فما بالنا لا نرجع لسنة الاسلاف وقد كان فيها مجدنا ومجدكم ؟

سيقولون ان المسلمين اضطهدوا الاقباط . كبرت كلمةً تخرج من افواههم فكلها اغلاط في اغلاط .

هلموا يابني أمي ويابني عمي الى قاضي التحقيق او الى قاضي الاحالة ليأمر بحفظ هذه القضية لانها لم تتوفر فيها اقلّ دلالة بل لانها مبنية على الضلالة لا محالة .

***

من هم المضطهدون ومن هم المضطهدون ؟

اولئك نفر قليل من الحكام الغرباء الذين لم يرعوا إلاًّ ولا ذمة لا في المسلمين ولا في اهل الذمة . والمضطهدون (بفتح الهاء) هم المسلمون والاقباط على السواء : اللهم الا ان يقال على سبيل البسط ان الاضطهاد والضغط كانا اشدّ وقعاً على رهط القبط : لان اسمهم جاء على حرف الطاء .

كان الحاكم الظالم اذا تولى على مصر (والظالم لا دين له) يستنزف الاموال ويستعبد الرجال لا يفرق بين فريق وفريق ولكن اثرهُ لا يظهر ظهورًا واضحًا في المسلمين لانهم اكثر مالاً واعز نفرًا بخلاف الاقباط فان اقل حيف يقع عليهم يكون اثرهُ اشنع وافظع لقلة عديدهم . فلو كان لي تسعون نعجة وكان لاخي عشر ثم وقع وباء اهلك ثلثي ما املك وخمس ما لأخي لكانت مصيبتي اجل واكبر وان كانت لا تذكر ولا تظهر في جنب ما حاق باخي الاصغر اذ يبقى لي ثلاثون ويبقى له ثمان . ولو كان لي ثوب ذرعهُ عشرة اشبار في عشرة اشبار وله ثوب قدره شبر في شبر ثم وقعت نقطة من الزيت على كل من الثوبين لكان وقعها على ثوبه اعظم اثرًا وان كنا قد تساوينا ضررًا .

تلك هي حقيقة الحال وان كان هنالك بعض شذوذ نادرة فالنادر لا حكم له . فما بالنا لا نتناسى الاضغان ان كان هنالك اضغان ؟ بل ينبغي لنا ان لا نكون اقلّ في العقل والحط في الادراك من ذاك الشرطي وذاك الجوذي : اذ اخذ الاول نمرة الثاني ليحرر فيه « محضر المخالفة » فاخذ الثاني نمرة الاول ليشكوه الى العظيم الذي استوقفه . فقال له « امسح وانا امسح »

إليكم الآن احاديث الرسول وما ورد في شريعة المسلمين مشفوعة بنتف من اخبار الماضين علها تكون عبرةً وتذكرةً وعسى ان يكون من ورائها ما نرجوه من الرجوع الى توثيق علائق الارتباط بين المسلمين والاقباط

ورد في الآثار الثابتة الصحيحة انه قال :

(١) « ستفتحون مصر وهي ارض يسمى فيها القيراط فاستوصوا باهلها خيراً فان لهم ذمة ورحماً »

(٢) « اذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فان لهم ذمة ورحمًا »

(٣) « ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لكم منهم صهراً وذمة »

(٤) « استوصوا بالقبط خيرًا فانكم ستجدونهم نعم الاعوان على قتال عدوكم»

(٥) « اتقوا الله في القبط لا تأكلوهم اكل الخضر»

وأبلغ من ذلك :

(٦) ان الرسول مرض فاغمي عليه ثم افاق فقال استوصوا بالأدم الجعد ثم أغمي عليه الثانية ثم افاق فقال مثل ذلك ثم أغمي عليه الثالثة فقال مثل ذلك . فقال القوم: لو سألناه من الأدم الجعد ؟فافاق فسألوه فقال : قبط مصر »

وابلغ من ذلك :

(٧) (قبط مصر اكرم الاعاجم كلها واسمحهم يداً وافضلهم عنصرًا واقربهم رحمًا بالعرب عامة وبقريش خاصة ومن اراد ان يذكر الفردوس او ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى ارض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها »

وابلغ من ذلك :

(٨) انه قال عند وفاته « الله الله في قبط مصر فانكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة واعواناً في سبيل الله »

(٩) وفي الحديث عن شفي بن عبيد الاصبحي « بلد مصر بلد معافاة من الفتن لا يريد احد هلكهم الا اهلكه الله »

(١٠) وفي الحديث ايضًا « اهل مصر الجند الضعيف ما كادهم احد الا كفاهم الله مؤونته »

تلك هي احاديث الرسول . وهل بعد هذه الوصايا المتكررة من حفاوة ظاهرة . الاهم انها آية تجعل المسلمين انفسهم يغبطون عليها اخوانهم الاقباط .

***

ولننظر الآن الى ما جاء في الشرع وقرره الفقهاء :

وجه اهل المصيصة سؤالاً الى الامام مالك فقالوا انا نخرج في بلاد الروم (آسيا

الصغرى) فنلقى العلج منهم مقبلاً الينا فاذا اخذناه قال : انما جئت اطلب الامان فهل نصدقه ؟ فقال مالك : هذه امور مشكلة ارى ان يُردّ الى مأمنه ·

وبناءً على ذلك افتى علماء الاسلام بان الرومي اذا حلّ بساحل المسلمين تاجراً ونزل قبل ان يعطي الامان وقال: ظننت انكم لا تعرضون لمن جاءكم بتجارة حتى يبيع تجارته وينصرف عنكم : فقالوا بان يقبل منه قوله او يردّ الى مأمنه (مدونة جزء ٣ صفحة ١٠)

فهل بعد هذا بيان في مبالغة المسلمين بالحرص على التجارة وحماية اصحابها ولو اتخذوها حيلة بل افلا يقال بانهم السابقون الى فتح سياسة الباب المفتوح قبل ان بفتحه اهل اوربا في هذه الايام ·

انهم توسعوا في سياسة هذا الباب المفتوح فقد ورد عن الامام مالك ايضاً (في الجزء المذكور صفحة ١١) في حق الروم ينزلون بساحل المسلمين بامان معهم التجارات فيبيعون ويشترون ثم يركبون البحر راجعين الى بلادهم فاذا امعنوا في البحر رمتهم الريح الى بعض بلدان المسلمين غير البلاد التي كانوا اخذوا فيها الامان · قال مالك : ارى لهم الامان ابداً ما داموا في تجرهم حتى يرجعوا الى بلادهم ولا ارى ان يهاجوا ·

وافتى بان الذمي اذا اسره المحاربون المسلمين ثم غنمه المسلمون فلا يكون فيئاً بل ترجع له حريته كما كانت ويردّ الى ذمته واهله وماله · وقد قرر ايضاً بان اموال اهل الذمة واموال المسلمين سواء فاذا غنم المحاربون شيئاً من اموال الفريقين ثم تغلب المسلمون وغنموا هذه الاموال في جملة مغانمهم وادركها صاحبها قبل القسمة سواء كان مسلماً او ذمياً كان هذا اولى بها بغير شيء واذا ادركها بعد القسمة اخذها بالثمن وان عرف اهل الاسلام انها اموال اهل الذمة لم يقسموها في الغنيمة ويردونها اليهم اذا عرفوها فمثلهم في ذلك مثل المسلمين سواء بسواء (راجع المدوّنة في الجزء المذكور صفحة ١٣ و١٤) ·

ورأيت في كتاب « الذخائر الاشرفية في ألغاز الحنفية » المطبوع على هامش « كنز البيان صفحة ١٢٦ » : اذا ماتت ام الولد وهو رضيع فاعطاه ابوه ليهودية ترضعه مع ابن لها وغاب ابوه وماتت اليهودية واشتبه الحال ايهما ولد المسلم ولم يحصل التمييز بوجه وبلغا على اليهودية فابن المسلم مسلم تبعاً وقد ارتدّ ولا يُلزم احدهما بالاسلام للاشتباه فاحدهما مرتدّ ولا يلزم بالاسلام لعدم تعيينه · وفيه ايضاً انه اذا كان للعدوّ حصن وفيه واحد من اهل الذمة لا يُعرف وقد افتتحه المسلمون عَنوة ولم يؤمنوا من فيه لا يحل لهم قتلهم بسبب هذا الذمي الواحد الذي لا يمكن تعيينه وذلك لقيام المانع بطريقة يقينية وهو وجود رجل غير معين له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وله في عنقهم عهد وذمة ·

ولا يلزم اليهودي بالحضور الى مجلس القضاء في يوم السبت الا اضطراراً بحيث لا يكون المقصود ايقاع الضرر به تعمداً بهذه الوسيلة ومن المقرر ايضاً انه اذا دعت الحال لتغليظ اليمين فيكون ذلك في المحل المعظم وهو المسجد الجامع للمسلم ولا يقوم مقامه مطلق مسجد ويحلف اليهودي في بيعته والنصراني في كنيسته والمجوسي في بيت النار وقال الشيخ سراج الدين عمر الحنفي قارئ الهداية اذا بنى الذمي داراً عالية بين دور المسلمين وجعل لها طاقات وشبابيك تشرف على جيرانه هل يمكن من ذلك فاجاب بقوله : اهل الذمة في المعاملات كالمسلمين وما جاز للمسلمين جاز لهم وانما يمنع الذمي من تعلية داره اذا حصل لجاره ضرر من منع ضوء او هواء هذا هو ظاهر المذهب انتهى . وحكم المسلم كذلك ايضاً في حكم الضرر بالجيران .

وحسبي هذه الشواهد الآن لانني لست بمتفقه ولا متشرع كما انني لا ابغي اغتنام هذه الفرصة لالقاء درس في الشريعة الاسلامية الصريحة السمحاء فاسمحوا لي اذن بان اطرق باب التاريخ وفيه غناء وكفاء بل هو الموعظة البالغة والحجة الدامغة .

***

لاحاجة للاشارة الى العهود الكريمة والمنح الجليلة التي اتحف بها نبي الاسلام كثيراً من النصارى . فامرها مقرر معلوم وهي اشهر من ان تذكر . قال المؤرخ القبطي الشهير بالمكين ما نصه : « ورد في تواريخ النصارى انه كان مؤثراً لهم رؤوفاً بهم ... وقال لعمر ان نفوسهم كنفوسنا واموالهم كاموالنا واعراضهم كاعراضنا . ذكر هذا الحديث صاحب كتاب المهذب واسمه (اسنده) الى مسلم وهو حجة الامام ابي حنيفة في قتل المسلم بالذمي . وفد عليه بعض اكابر النصارى فقام له واكرمه . فقالوا له في ذلك فقال: اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه وهذا كبير قومه ... وقال من ظلم ذمياً كنت خصمه يوم القيامة . وقال من آذى ذمياً فقد آذاني » . ولكنني لا ارى بداً من التلميح الى العهد العمري الذي جعله عمر بن الخطاب في رقبة المسلمين والكتابيين ما داموا مرتبطين بعروة الوطن التي لا انفصام لها . فان ثاني الخلفاء الراشدين هو اول من اشتبكت في ايامه مصالح المسلمين وغير المسلمين . فقد روى المقريزي عن « علماء الاخبار من النصارى ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فتح مدينة القدس كتب للنصارى اماناً على انفسهم واولادهم ونسائهم واموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن . وانه جلس وسط صحن كنيسة القيامة ولما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها بمفرده ثم جلس وقال للبطرك : لو صليت داخل الكنيسة لاخذها المسلمون من بعدي

من النصارى وقالوا هنا صلى عمر . وكتب كتاباً يتضمن انه لا يصلي احد من المسلمين على الدرجة الاّ واحداً واحداً . ولا يجتمع المسلمون للصلاة فيها ولا يؤذنوا عليها . وانه اشار عليه البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجداً وكان فوقها تراب كثير فتناول عمر رضي الله عنه من التراب في ثوبه فتبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق منه شيء وعمر المسجد الاقصى امام الصخرة (١) ثم ان عمر رضي الله عنه اتى بيت لحم وصلى في كنيسته عند الحنية التي ولد فيها المسيح . وكتب سجلاً بايدي النصارى : ان لا يصلي في هذا الموضع احد من المسلمين الا رجل بعد رجل ولا يجتمعوا فيه للصلاة ولا يؤذنوا عليه » .

وكثيراً ما يشير المؤرخون الى العهود العمرية وقد ألف ابو العباس احمد بن محمد بن العطار الدنيسري المتوفى سنة ٧٩٤ كتاباً سماه « العهود العمرية في اليهود والنصارى » ولم اظفر بشيء سوى اسمه في كشف الظنون الذي افادنا صاحبه ايضاً هو والسخاوي في « التبر المسبوك » ان المقريزي له كتاب اسمه « شذور العقود » واكمل صاحب الكشف اسمه في موضع آخر بانه « عقود في تاريخ اليهود » (٢) وجاها لم تصلنا لسوء الحظ .

***

فلما ظهر الاسلام وارتفعت كلمته كانت مصر في يد الروم روم الدولة الشرقية وكان عددهم فيها ثلثمائة الف نفس توزعوا وظائف الدولة فيما بينهم وكانت الامة كلها مهضومة الحقوق ليس لها سوى الاحتراف بالكتابة في الدواوين والتجارة والبيع والشراء والزراعة والفلاحة والخدمة والمهنة هذا فضلاً عن خدمة الدين فكان الاساقفة والقساوسة وغيرهم من الاقباط فلما قدم عمرو بجيوش المسلمين قاتلهم الروم حماية لملكهم ودفعاً لهم عن بلادهم حتى غلبهم عمرو على امرهم فطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية فصالحهم عليها واقرهم على ما بايديهم من الاراضي وغيرها وصاروا معه عوناً للمسلمين على الروم وكتب عمرو لبنيامين بطرك اليعاقبة اماناً في سنة عشرين من الهجرة فسرّه ذلك وقدم على عمرو وجلس على كرسي بطركيته .

ولما توجه عمرو لفتح الاسكندرية خرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد اصلحوا للمسلمين الطرق واقاموا لهم الجسور (القناطر) والاسواق وصارت لهم القبط اعواناً على ما ارادوا من قتال الروم حتى تم فتح الاسكندرية ورجع عمرو قاصداً الفسطاط فجاز بناحية

(١) هي الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب فلما كانت ايام عبد الملك بن مروان ادخل الصخرة في حرم الاقصى وذلك سنة ٦٥ من الهجرة (٢) ذكر في كشف الظنون كتاب آخر بهذا الاسم للامام ابن الجوزي المتوفى سنة ٩٠٧ وهو محفوظ بمكتبة بالاستانة

[redacted]

الطرانة فاستقبله بها سبعون الف راهب خرجوا من وادي النطرون وبيد كل واحد عكاز وطلبوا منه الامان على انفسهم واديارهم فكتب لهم بذلك امانًا بقي عندهم وكتب ايضًا بجراية الوجه البحري فاستمرت بايديهم وقد بلغت في احدى السنين ما يزيد على خمسة آلاف اردب . قال علي باشا مبارك انها لا تزيد الآن عن مائة اردب . وقال المقريزي ان دير ابي مقار الموجود بوادي النطرون فيه الكتاب الذي كتبه عمرو بن العاص لاولئك الرهبان بجراية نواحي الوجه البحري على ما اخبره من أُخبر برؤيته فيه . وقد توجهتُ الى تلك الجهة في شهر يوليو سنة ١٨٩٤ بعناية الاب الجليل المثلث الغبطة كيرلس الخامس بابا الكنيسة المرقسية وبمساعدة المطران النبيل يوأنس مطران البحيرة والاسكندرية وزرت هذه الديارات كلها ونقبت فيما بها من الغرائر والزكائب والجوالق الموضوعة فيها الاوراق والكتب والمصاحف املاً في العثور على ذلك الكتاب فلم اظفر به مطلقًا والغالب على الظن انه ضاع او تلقطه احد سياح الافرنج فكان مثل الاقباط مثل المسلمين في التفريط بذخائر الاجداد . فاهل مصر كلهم في ذلك سواء . والا فاين المعاهدات والمكاتبات الدولية التي تبادلها ملوك مصر مع امثالهم في اوربا وغيرها ? اننا اذا اردنا العثور على شيء من هذا القبيل كنا عالة في اخص خصائصنا على الافرنج الذين حافظوا على ما وصلهم منا وقد نشره بعض علمائهم في القرن الماضي . فالتفريط والافراط يستوي فيهما المسلمون والاقباط . فما بالهم لا يتساوون في احكام علائق الارتباط ?

اتسع بعد ذلك ملك الاسلام وانتشرت اعلامهُ في سائر الآفاق . فكان الخلفاء والسلاطين حماة للمسيحيين يدفعون عنهم الاذى ويحوطونهم باصناف الرعاية والاكرام ويعاملونهم مثل المسلمين بتمام المساواة بل ربما زادوا في تعظيمهم وتقريبهم بما لا يكاد يصل اليه سراة المسلمين .

هل اتاكم حديث عمرو بن العاص داهية العرب مع يحيى المعروف عند النصارى بغراماطيقوس اي النحوي ? دخل هذا الفيلسوف على الامير وقد عرف موضعهُ من العلوم فاكرمه وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها أُنسة ما هاله ففتن به . قال المؤرخ النصراني الفاضل غريغوريوس ابوالفرج المعروف بابن العبري في كتاب « مختصر الدول » : كان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقهُ .

وعندي ان يحيى كان يحسن التكلم بالعربية دون عمرو فقد اثبت لنا التاريخ جهله باللغة الرومية وذلك في حادثة الارطبون التي وقعت له بالشام وفي حديث اسره بالاسكندرية وسنذكره فيما بعد فانه لم يفطن للمكيدة التي دبرها الروم لاغتياله لولا معرفة صاحبه في

الاول ومولاه في الثاني بتلك اللغة وحسن تلطفهما في انقاذه من التهلكة ·

هل اتاكم حديث الحجاج بن يوسف ذلك الداهية الثاني فقد كان ملازماً لثيادوق وثيادون النصرانيين ولهما مكرماً · دخل الثاني عليه يوماً فقال له الحجاج : اي شيء دواء اكل الطين · فقال : عزيمة مثلك ايها الامير · فرمي الحجاج بالطين ولم يعد الى اكله بعدها ·

وهل اتاكم حديث الدواوين في صدر الاسلام ؟ فقد كان القيمون عليها كتاباً من النصارى وكانوا يكتبون الدفاتر باللغة الرومية حتى جاء عبدالملك بن مروان فالزمهم باستخدام اللغة العربية ·

وهل سمعتم في دولة من الدول او هل جاءكم نبأ عن ملة من الملل بمثل ما حصل للاخطل ؟ فان هذا الشاعر النصراني كان في خصام مستديم مع شعراء المسلمين بل خاض في حق الهاشميين وتهجم عليهم بالمثالب والمطاعن وهو على نفسه وماله آمن ·

هذا بعض ما امكنني استحضاره الآن مما يتعلق بالدولة الأموية ·

***

اما الدولة العباسية فحدث عن البحر ولا حرج فقد كان لها في هذا الباب ما هو اعجب واغرب انظروا ماذا جرى للخليفة المنصور وبخله مشهور حتى سماه التاريخ بابي الدوانيق وبالدوينيقي اكرم طبيبه جيورجيس بن جبريل بن بختيشوع وامر له بخلعة جليلة وانزله في اجمل موضع من دوره واكرمه كما يكرم اخص اهله · فلما مرض الرجل خرج الخليفة بنفسه ماشياً اليه وتعرّف خبره · ولشدة شغفه به وتفانيه في حبه قال له : ياحكيم اتق الله واسلم وانا اضمن لك الجنة فقال : قد رضيت حيث آبائي في الجنة او في النار · فضحك المنصور وامر له بعشرة آلاف دينار ·

والمنصور كان حازم الرأي قد عركته الدهور وخافت الايام سطوته وروى العلم وعرف الحلال والحرام لا يدخله فتور عند حادثة ولا تعرض له ونية عند مخوفة يجود بالاموال حتى يقال هو اسمح الناس ويمنع في الاوقات حتى يقال هو ابخل الناس ويسوس سياسة الملوك ويثب وثوب الاسد العادي لا يبالي ان يحرس ملكه بهلاك غيره وخلف من الاموال ما لم يجتمع مثله لخليفة قبله ولا بعده وهو تسعمائة الف الف وستون الف الف ففرق المهدي جميع ذلك حين افضى الامر اليه ·

وشبيه بذلك ما حدث بمصر القاهرة في سنة ٣٨٥ فان الطبيب ابا الفتح منصور بن مقشر القبطي كان له منزلة سامية من اصحاب القصر واتفق انه اعتل وتاخر عن الركوب

فلما تماثل كتب اليه العزيز بخطه : « بسم الله الرحمن الرحيم · طبيبنا سلمه الله سلام الله الطيب واتم النعمة عليه · وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب و برئه · والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا · اولك الله العثرة واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته » · وقد دخل ابن مقشر في خدمة الحاكم بامر الله وكان مكينًا في دولته وبلغ معه اعلى المنازل واسناها وكان له منه الصلات الكثيرة والعطايا العظيمة فلما مرض عاده الحاكم بنفسه ولما مات لم يقبض على تركته كما جرت بها العادة على كبار المسلمين والنصارى بل ابقاها كلها لورثته واطلق لهم مالا وافرًا من خزينته ·

وشبيه بذلك بل ابلغ منه ما وقع للمعتصم العباسي مع طبيبه سلمويه فانه مرض فعاده الخليفة وبكى هذا الهمام الجبار عنده وهو الرجل الذي لا يقاس به الرجال قوة بدن وشدة بأس وشجاعة قلب وكرم اخلاق وقال له : اشر عليَّ بعدك بمن يصلحني فقال عليك بهذا الفضولي يوحنا بن ماسويه واذا وصف لك شيئًا خذ اقله اخلاطًا · فلما مات سلمويه قال المعتصم: سألحق به لانه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي · وامتنع عن الاكل في ذلك اليوم وامر باحضار جنازته الى الدار وان يصلى عليها بالشمع والبخور على رأي النصارى ففعل ذلك وهو يراه وهو خليفة المسلمين · فهل سمعتم بمثل ذلك عند غير اهل الاسلام · نعم سمعنا في هذه الايام بان ملك الانكليز وهو مسيحي برتستانتي قد انتقل الى الكنيسة الكاثوليكية في لوندره لحضور الصلاة عن نفس ملك البرتقال فقامت عليه القيامة من جمهور الانكليز وسوادهم الاعظم وكادوا يجاهرون بخلع طاعته لانه خالف الدستور ·

نرجع بالحديث الى المنصور العباسي فقد كان في خدمته نوبخت المنجم الفارسي النصراني فطلب ما نسميه الآن « الاحالة على المعاش » فسأله الخليفة عمن يخلفه فاشار بولده فاستقدمه فاستسماه فقال اسمي خرشاذماه طيماذاه مابازار خسروانشاه · فقال المنصور كل ما ذكرت فهو اسمك قال : نعم · فتبسم الخليفة وقال: اختر مني احدى خلتين اما ان اقتصر بك من كل ماذكرت على طيماذ واما ان نجعل لك كنية تقوم مقام الاسم وهي ابو سهل · فقال رضيت بالكنية · فبقيت كنيته و بطل اسمه ·

ومن ذلك العهد الى قرب دخول الدولة العثمانية في مصر كان النصارى واليهود والصابئة يكنون(١) بابي علي وابي الحسن وابي الفضل وابي النجم وابي الخير وابي الفرج وابي

(١) قال الزمخشري في ربيع الابرار لم تكن الكنى لشيء من الامم الا للعرب خاصة وهي من مفاخرها · والكنية اعظام وما كان يؤهل لها الا ذو شرف من قومه الذين دعاهم

الكرم وابي البقا وابي بشر وابي الحسين وابي الفضل وابي العلاء وابي المكارم وابي النصر وابي الفتح وابي المنا وابي الحجاج وابي العشائر وابي المجد وابي المعالي وابي البركات وابي الفخر وابي الرجا . ويتلقبون بموفق الدين وجمال الكفاة وصنيعة الخلافة وعماد الرؤساء وامين الملك وصنيعة الملك وسيف الدولة وشمس الرياسة وركن الدين وكريم الدين وفخر الدين وشرف الدين واوحد الدين وامين الدولة وفخر الدولة وغرس النعمة ويتسمون بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي .

ونحو ذلك من عنوانات الشرف التي نظن نحن وانتم انها وقف على المسلمين على أنها اسماء لرجال ورد تاريخهم في عيون الانباء وفي طبقات الحكماء وفي مختصر الدول وفي الكامل والمقريزي وغيرها من المؤلفات المعتبرة .

***

ومن ألطف ما يدل على دلال اهل الفضل في تلك الدولة ولو كانوا من غير الملة ان المهدي العباسي همّ بالخروج الى ماسبذان (من اقليم الجبل بفارس) فتقدم الى حسنة حظيته ان تخرج معه . فارسلت الى رئيس المنجمين وهو توفيل بن توما النصراني الماروني قائلة له : انك اشرت على امير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفراً لم يكن في الحساب فعجل الله موتك واراحنا منك . فقال للجارية التي اتته بالرسالة : ارجعي اليها وقولي لها ان هذه الاشارة ليست مني . واما دعاؤك عليّ بتعجيل الموت فهذا شيء قد قضى الله به وموتي سريع . فلا تتوهمي ان دعوتك استجيبت . ولكن أعدّي لنفسك تراباً كثيراً فاذا انا مت فاجعليه على رأسك . فما زالت متوقعة تأويل قوله منذ توفي حتى توفي المهدي بعده بعشرين يوماً . وتوفيل الرهاوي هذا هو الذي نقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون (ترواده) في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة وقد نقل العلامة سليمان البستاني احدهما في ايامنا هذه الى اللغة العربية فجاء آية في بابه

ولما جاء زمن الرشيد كان من اطبائه يوحنا بن ماسويه السرياني وخدم ابنه المأمون الى ايام المتوكل وكان معظماً ببغداد جليل القدر وكان يعقد مجلساً للنظر ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة باحسن عبارة وكان يدرس ويجتمع اليه تلاميذ كثيرون . وكان فيه دعابة شديدة يحضره من يحضره لاجلها في الاكثر . وكان من ضيق الصدر وشدة الحدة بحيث تصدر عنه الفاظ مضحكة . شكا اليه رجل علة فاشار عليه بالفصد فقال

---

١ الى التكنية الاجلال عن التصريح بالاسم بالكناية عنه ثم ترقوا من الكنى الى الالقاب الحسنة .

لم أعتده ' فقال يوحنا : ولا احسبك اعتدت العلة من بطن امك . وصار اليه قسيسه وقال : قد فسدت معدتي عليَّ فقال له استعمل جوارش الخوزي فقال له : قد فعلت : قال : فاستعمل الكموني قال : استعملت منه ارطالاً . فامره باستعمال البنداذيقون فقال : قد شربت منه جرة . قال : استعمل المروسيا . فقال : قد فعلت واكثرت . فغضب يوحنا وقال له : ياابانا يا قسيس ان اردت ان تبرأ فادخل في دين الاسلام فانه يصلح المعدة .

وفي ايام المامون وهي الايام البيض التي يفتخر بها الاسلام كان الحكماء والعلماء وكلهم مقربون لديه لا يفرق بين احد وآخر بسبب دين او مذهب . والافاضة في هذا الموضوع تطول ولكنني اقتصر على امر واحدٍ يدل على عداوة اهل الفن . فقد كان في زمنه من الاطباء سهل بن سابور فارسي نصراني في لسانه لكنة خوزية وكان اذا اجتمع مع يوحنا بن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة ولم يقصر في العلاج . ولكنه كان يأخذ بثاره بطريق الدعابات . فمن ذلك انه تمارض واحضر شهوداً يشهدهم على وصيته وكتب كتاباً اثبت فيه اولاده وجعل اولهم جيورجيس بن بختيشوع والثاني يوحنا بن ماسويه . وارجو اعفائي من السبب الذي انتحله لذلك . فعرض لجيورجيس زمع من الغيظ وكان كثير الالتفات فقال سهل : «صري وَهَكّ المسيه اخروٓا في اذنه آيه خرمي » أراد بالعجمة التي فيه : صرع وحق المسيح اقرؤا في اذنه آية الكرسي . ومن دعاباته انه خرج في يوم الشعانين يريد المواضع التي تخرج اليها النصارى فرأى يوحنا بن ماسويه في هيئة احسن من هيئته فحسده على ذلك فصار الى صاحب مسلحة الناحية (اي القره قول) وقال له ان ابني يعقني وان انت ضربته عشرين درة موجعة اعطيتك عشرين ديناراً ثم اخرجها فدفعها الى من وثق به صاحب المسلحة . ثم اعتزل ناحية الى ان بلغ يوحنا الموضع الذي هو فيه فقدمه الى صاحب المسلحة وقال : هذا ابني يعقني ويستخف بي فجحد ان يكون ابنه وقال يهذي هذا . قال سهل انظر ياسيدي . فغضب صاحب المسلحة ورمى يوحنا من دابته وضربه عشرين مقرعة ضرباً موجعاً مبرحاً .

تلك امورٌ مما يتعلق بالافراد وسنعود الى شيء منها فيما بعد ولكن لا بأس من توجيه النظر الى المجموع . ففي ايام الرشيد خطب وزيره الفضل بن يحيى البرمكي بنت خاقان الخزر فارسلها في تجمل عظيم ولكن منيتها وافتها في مدينة برذعة فاوهم اعداء الخلافة اباها ان ذلك كان بدسيسة عليه للتنكيل به فخرج في سنة ١٨٣ من مدينة باب الابواب في جيوش كثيفة من قومه فاوقعوا بالمسلمين واهل الذمة وسبوا اكثر من مائة الف نفس وانتهكوا امراً عظيماً لم يسمع بمثله في الخافقين .

والتاريخ يحدثنا بان بابكا الخرّمي خرج على خلفاء الاسلام وابلى في المسلمين ومثل بهم وكاد يهدم خلافتهم ويمحي اثرهم من الوجود . وكان اصحابه لا يدعون رجلاً ولا امرأة ولا صبياً ولا طفلاً مسلماً او ذمياً الا قطعوه وقتلوه واحصي عدد القتلى بايديهم (انظروا) فكان ٢٥٠٥٠٠ انسان . فوجه المعتصم بالله عنايته لاستئصال شأفته وقطع جرثومته حتى ضيق في وجهه الخانق واخذ عليه المنافذ وسد دونه المسالك . فخرج الخارجي الى بلاد الروم هارباً في زي التجار ومعه اهله فعرفه سهل بن سنباط الارمني البطريق فاسره فافتدى نفسه منه بمال عظيم فلم يقبل وبعثه الى قائد جيوش المسلمين بعد ما ركب الارمن من امه واخته وامرأته الفاحشة بين يديه وكذا كان يفعل الملعون بالناس اذا اسرهم مع حرمهم فكان اهل الذمة يجدون منه بقدر وجد اهل الاسلام . اذ كانوا سواسية عنده يرتكب فيهم المحارم والآثام . ولولا اخلاص الذمي ما تخلص من هذا الفاسق الكافر اهل الاسلام .

وكان المسلمون اذا حاربوا اعداءهم في الملك والسياسة وهم الروم لا يستهينون بمعاونة اهل الذمة فكان هؤلاء يصيبهم ما يحل بالمسلمين من ظفر او نكاية . ولطالما أخذ الروم من اهل الذمة أسارى وعاملوهم بنفس القسوة التي يعامل بها اسارى المسلمين ولكن اذا وقع الفداء بين المتحاربين كان اول ما يشترطه المسلمون استخلاص النصارى الذميين ايضاً . فقد روى التاريخ انه في سنة ٢٣١ هجريه في ايام الواثق ابن المعتصم كان الفداء بين المسلمين والروم على يد خاقان خادم الرشيد . فاجتمع المسلمون على نهر اللامس(١) على مسيرة يوم من طرسوس وامر الواثق بان يكون فداء اهل الذمة مطلقاً وبلا قيد ولا شرط . واما فداء المسلمين فقد امر خليفتهم بامتحانهم قبل فكم من الامر فمن قال بخلق القرآن وان الله لا يرى في الآخرة فودي به باسير رومي وأعطي ديناراً . ومن لم يقل ذلك ترك في ايدي الروم . فاسمعوا واعجبوا . فلما كان في يوم عاشوراء اتت الروم ومن معهم من الاسارى فكان المسلمون هم البادئون بهذا الخبر فيطلقون الاسير فيطلق الروم اسيراً فيلتقيان في وسط الجسر فاذا وصل الاسير الى المسلمين صاحوا : الله اكبر . واذا وصل الرومي الى قومه صاحوا كيرياليسون . حتى فرغوا فكان عدة اسارى المسلمين اربعة آلاف واربعمائة وستين نفساً والصبيان ثمانمائة واهل ذمة المسلمين مائة نفس .

وفي سنة ٢٣٨ هجرية هجم الروم على دمياط في ثلثمائة مركب فنهبوها وأحرقوا دورها وجامعها وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمائة امرأة فلم تشفع للذميات مقولتهن بالاقانيم الثلاثة عند اولئك الذين قالوا انا نصارى . بل كن والمسلمات سواء في البؤس والشقاء .

---

(١) نهر لامس او اللامش . بالافرنجية Lamus

وفي سنة ٢٨٣ سارت الصقالبة الى الروم فحاصروا القسطنطينية وقتلوا من اهلها خلقاً كثيراً وخربوا البلاد . فلما لم يجد ملك الروم منهم خلاصاً جمع من عنده من اسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة ففعلوا وكشفوهم وازاحوهم عن القسطنطينية وانظروا مكافأته لهم على هذه النجدة العربية والشهامة الاسلامية . لما رأى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسه فاخذ سلاحهم وفرقهم في البلدان حذراً من جنايتهم عليه فدعا ذلك الخليفة العباسي وهو المعتضد بن الموفق الى السعي في الفداء فتم الامر وبلغ جملة من فودي به من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان الفين وخمسمائة واربعة انفس .

وهل يصح لنا ان نقابل تلك النخوة الشرقية بما فعله الافرنج المقيمون (لا الاسارى) بالقسطنطينية ؟ ففي سنة ٦٠٠ هجرية حاصرها ملك الفرنج فروى ابن العبري ان الافرنج المقيمين بها كان عددهم ثلاثين الفاً فتواضعوا مع الافرنج المحاصرين لها ووثبوا في البلد والقوا فيه النار فاحترق نحو ربع البلد فاشتغل الروم بذلك ففتح الفرنج الابواب ودخلوها ووضعوا السيف ثلاثة ايام وقتلوا حتى الاساقفة والرهبان والقسيسين الذين خرجوا اليهم من كنيسة أياصوفيا العظمى وبايديهم الاناجيل والصلبان يتوسلون بها ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم اجمعين ونهبوا الكنيسة . فاين فعلهم من فعل عمرو بن العاص مع رهبان النطرون .

هذا وقد كانت الفتن توالت ببغداد فخرّبتها فشرع عضد الدولة سنة ٣٦٩ في عمارتها فعمر المساجد والاسواق وادر الاموال على الائمة والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون الى المساجد وجدد ما دثر من الانهار واعاد حفرها وتسويتها . ولكن هل وقف ذلك الامير المسلم عند هذا الحد في عاصمة عواصم الاسلام ؟ كلا : فقد ذكر ابن الاثير في الكامل انه اذن لوزيره نصر بن هاردن (وكان نصرانياً) في عمارة البيع والاديرة واطلاق الاموال لفقرائهم . فكان المسلمون والنصارى في هذا الرخاء سواء . بل ان المجوس انفسهم وهم لا ذمة لهم ولا كتاب نالوا من عدل الرجل وانصافه ما خلدته الدفاتر مع الثناء الوافر . فقد وقعت في تلك السنة فتنة في شيراز بين عامة المسلمين وعامة المجوس فنهب الاولون دور مواطنيهم وضربوا وقتلوا جماعة منهم . فسير عضد الدولة من جمع له كل من له اثر في ذلك وضربهم وبالغ في تأديبهم وزجرهم لانهم لم يراعوا حرمة الوطن والجوار .

ومما يدل على ارتباط المسلمين باهل الذمة عند حلول الشدائد بهم جميعاً ماوقع سنة ٦٤٠ في ملطية بآسيا الصغرى عند هجوم التتار وتوالي نكباتهم بالارض وباهل الارض . فان المسلمين والنصارى اجتمعوا في البيعة الكبرى وتحالفوا ان لا يخون بعضهم بعضاً ولا

يخالفوا المطران في جميع ما يتقدم اليهم من مداراة التتار والقيام بحفظ المدينة والبيتوتة على اسوارها وكف اهل الشرّ عن الفساد ·

وفي حدود سنة ٦٥٦ هجرية ازاح التتار اميرًا مسلماً عن ملطية فلما رحلوا عنها رجع هذا الامير اليها واسمه علي بهادر · فاغلق اهلها الابواب في وجهه ولم يمكنوه من الدخول خوفاً من التتار · فشدد عليها الحصار حتى ضجر الناس وضاقت بهم الحيلة · ففتح له العوام احد الابواب فدخل المدينة عنوة · وكان اول همه انه لم يتربص حتى يجيء الصباح فاصعد بالليل على المنابر جماعة ينادون و يقولون : ان الامير قد امن الرعية النصارى منهم والمسلمين فليخرج كل واحد الى عمله ودكانه وليشتغل ببيعه وشرائه فانما كلامه مع الحكام ·

***

ولنرجع الى ذكر الافراد لنشير الى مقدار عناية ملوك الاسلام بفضلاء النصارى واحتمالهم منهم ما لا يمكن ان يتصوّره عقلنا في هذه الايام · فقد روى التاريخ ان يوحنا بن ماسويه الذي اشرنا اليه فيما سبق كان مع الخليفة العباسي الواثق في دكان (اي دكة مبنية للجلوس عليها) وكان مع الواثق قصبة فيها شص وقد القاها في دجلة ليصيد بها السمك فحرم الصيد · فالتفت الى يوحنا وكان على يمينه وقال : قم يامشؤوم عن يميني · فقال يوحنا : « ياامير المؤمنين لا تتكلم بمحال · يوحنا ابوه ماسويه الخوزي · وامه رسالة الصقلبية المبتاعة بثمانمائة درهم واقبلت به السعادة الى ان صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم حتى غمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه امله · فمن اعظم المحال ان يكون هذا مشؤوماً · ولكن ان احب الامير ان اخبره بالمشؤوم من هو اخبرته » فقال من هو ؟ فقال « من ولده اربعة خلفاء ثم ساق الله اليه الخلافة · فترك خلافته وقصورها وقعد في دكان مقدار عشرين ذراعاً في مثلها في وسط دجلة لا يأمن عصف الريح عليه فيغرقه · ثم تشبه بافقر قوم في الدنيا وشرهم وهم صيادو السمك » فماذا فعل الخليفة ؟ نجع فيه الكلام ولكن تشاغل مدة ثم قال ليوحنا وهو على ذلك الدكان : يايوحنا الا اعجبك من خلة ؟ قال : وماهي ؟ قال : « ان الصياد ليطلب الصيد مقدار ساعة فيصيد من السمك ما يساوي دينارًا وما اشبه ذلك · وانا اقعد منذ غدوة الى الليل فلا اصيد مايساوي درهماً » فقال يوحنا « امير المؤمنين وضع التعجب في غير موضعه · ان الله جعل رزق الصياد من صيد السمك · فرزقه يأتيه لانه قوته وقوت عياله · ورزق امير المؤمنين بالخلافة فهو غنيّ عن ان يرزق بشيء من السمك · فلو كان رزقه من الصيد لوافاه مثل ما يوافي الصياد »

ومثل ذلك ماحدث للمتوكل الذي تولى الخلافة بعد الواثق هذا · فقد جرى على سنة

اسلافه في تعظيم اهل الفضل مهما كانت عقيدتهم . كان الطبيب بختيشوع اذا دخل عليه في داره الخاصة جلس بجانبه على السدة : وهي منزلة لم يصل اليها وزير من المسلمين . فاتفق يوماً ان الخليفة رأى فتقاً في ذيل دراعة الطبيب وكانت من ديباج رومي . فاخذ يحادثه ويعبث بذلك الفتق حتى بلغ الى حد النيفق (وهو الموضع المتسع في السراويل والقميص) . ودار بينهما كلام اقتضى ان سأل المتوكل بختيشوع : بماذا تعلمون ان الموسوس يحتاج الى الشد . قال بختيشوع : اذا بلغ في فتق دراعة طبيبه الى حد النيفق شددناه . فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره وامر له بخلعة حسنة ومال جزيل .

وكان بختيشوع هذا قد بلغ في ايام المتوكل العباسي من الجلالة والرفعة وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة المال مبلغاً يفوق الوصف مع كمال المروءة حتى انه كان يباري الخليفة في اللباس والزي والطيب والفرش والضيافات والتفسح في النفقات .

وهل سمعتم بمرثية لمسلم في مسلم او لنصراني في مسلم مثل المرثية البارعة التي نظمها الشريف الرضي في ابي اسحاق ابراهيم الصابي المتوفى في شوال سنة ٣٨٤ ومطلعها :

ارأيت من حملوا على الاعواد ارأيت كيف خبا ضياء النادي

وهي من غرر اشعاره وابياتها كلها عامرة تبلغ الثمانين بيتاً وقد عاتبه بعضهم في ذلك لكونه شريفاً يرثي صابئاً فقال : انما رثيت فضله . وناهيك بمقام الرضي لانه كان مرشحاً للخلافة حتى خاطب خليفته القادر بالله بقوله :

عطفاً امير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم العلاء تفاوت ابداً كلانا في العلاء معرق
الا الخلافة ميزتك فانني انا عاطل منها وانت مطوق

وكان للنصارى واليهود في بغداد كلمة نافذة وقول مسموع في شؤون الدولة العامة والسياسية يشهد بذلك ما حدثنا به صاحب تاريخ الوزراء عن يوسف بن فنحاس او بنحاس اليهودي وزكريا بن يوحنا وابي عمرو سعيد بن الفرخان النصراني وهرون بن عمران اليهودي وبشر بن علي النصراني وابي سهل نصر بن علي النصراني وابي نصر بشر بن عبد الله الانباري النصراني وابي الفضل بنان بن بنان النصراني وعلي بن عيسى الزنداني النصراني بل النساء النصرانيات كان لهن يد في سياسة الملك مثل فرج النصرانية فقد كان الخليفة المقتدر العباسي ينفذها في امور الدولة ويعمل برأيها ويرسل خاتمه معها الى من يريد تقليده الوزارة وامثال ذلك كثيرة حتى ان الناصر لدين الله قلد الجيش اسرائيل النصراني كاتبه والمعتضد بالله ملك ابن الوليد النصراني كاتب بدر الولاية العامة على الجيش . وكذلك فعل الوزير الكبير ابن الفرات فانه قلد الولاية

العامة على جيش المسلمين لرجل نصراني وجعل انصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون امره بسبب هذه الوظيفة .

وكان بيت مال المسلمين تخرج منه الانعامات السنية لاكابر الكتاب من النصارى ونقدرها بالمائة الف دينار كما وقع لاصطفن بن يعقوب كاتب بيت مال الخاصة في ايام ابن الفرات وليعقوب ابنه حتى بلغت ثروتهما الف الف دينار .

وكان ابن الفرات قد رسم بان يدعى في كل يوم الى طعامه خمسة من اصحابه المسلمين وهم : ابوالحسن موسى بن خلف وابوعلي محمد بن علي بن مقلة وابو الطيب محمد بن احمد الكلوذاني وابوعبدالله محمد بن صالح وابوعبدالله الذي روى ولده هذه القصة وهو ابوالقاسم ابن زنجي . واربعة من اخصائه النصارى وهم : ابو بشر عبدالله الفرخان النصراني وابوالحسين سعيد بن ابراهيم التستري النصراني وابومنصور عبدالله بن جبير النصراني وابو عمر سعيد بن الفرخان النصراني . فكانوا يحضرون مجلسه في وقته من جانبيه و بين يديه و يقدم الى كل واحد منهم طبق فيه اصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير كل شيء . ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الاصناف وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبه ما يحتاج الى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ومعه طست زجاج يرمي فيه الثفل فاذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الاطباق وقدمت الطسوت والاباريق فغسلوا ايديهم أحضرت المائدة مغشاة بديبقي فوق مكبة خيازر ومن تحتها سفرة ادم فاضلة عليها وحواليها مناديل الغمر من الثياب المقصور . فاذا وضعت رفعت المكبة والاغشية واخذ القوم في الاكل وابوالحسن ابن الفرات يحدثهم و يباسطهم و يؤانسهم . فلا يزال على ذلك والالوان توضع وترفع اكثر من ساعتين . ثم ينهضون الى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه و يغسلون ايديهم والفراشون قيام يصبون الماء عليهم والخدم وقوف على ايديهم المناديل الدبيقية ورطليات ماء الورد لمسح ايديهم وصبه على وجوههم .

وقد ذكرت هذه العبارة لاظهر ما كان للقوم من رفاهة وتأنق في داخليتهم كما كان لهم من عظمة وجلال في خارجيتهم فمثل هذا النظام لو حدثنا به احد لاتهمناه بانه يصور لنا شيئاً مما يجري في منازل عظماء اوربا واميركا لولا انه منقول بالحرف الواحد من كتاب « تحفة الامراء في تاريخ الوزراء » للصابيء .

***

ومن المقرر في الشريعة الاسلامية بناء على ماجاء في القرآن و سنة الرسول وعمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وعبدالله بن العباس وعبد الله بن مسعود ومن اتبعهم من ائمة الهدى ان ذوي

الارحام ترد عليهم مواريثهم . وقد كان العمل في ذلك جارياً على هذه القاعدة بصرف النظر عن ملة الوارث سواء كان مسلماً او ذمياً . ولكن السنة قد تخفى في بعض الدول فيبطلها الحكام ظلماً وعدواناً . فقد وقع ان بيت المال اغتصب حقوق هؤلاء الوارثين من مسلمين وذميين فامر المعتضد بالله ثم المستكفي بالله بالرجوع اليها في حق كل منهما ثم تنكرت هذه السنة الشريفة فاعادها المقتدر بالله واصدر منشوراً جليلاً امر باظهاره وقراءته على الناس في المسجدين الجامعين بمدينة السلام وارسله الى جميع اصحاب الاعمال في الآفاق ومما ورد فيه بنوع التخصيص قوله: «وان يرد تركة من مات من اهل الذمة ولم يخلف وارثاً على اهل ملته» .

وكان النصارى وائمتهم يعرفون حق المسلمين عليهم ويؤازرونهم في الشدة كما يستفيدون منهم في الرخاء فقد اتفق في ايام المقتدر بالله في اوائل القرن الرابع للهجرة ان القسطنطينية تولى على ملكها حدثان فعسفا اسارى المسلمين وشددا في التنكيل بهم واجاعاهم واعرياهم وطالباهم بالتنصر ولم ير الوزير علي بن عيسى مساعدة من جانب الخليفة على انفاق الاموال وتجهيز الجيوش . فاشار عليه بعض جلسائه لتصريف الهم عنه بان يوسط عظيم النصارى بانطاكية وهو البطرك وعظيمهم بالقدس وهو الجاثليق او القاثليق لان امرهما ينفذ على ملوك الروم ولا يتم لهم امر الا بهما والطاعة لا تلزم جمهور رعيتهم الا بقولهما وربما حرم الواحد منهم فيحرم عندهم فما هو الا ان ارسل اليهما الوزير على يدي عامليه في انطاكية والقدس حتى بادر عظيما النصرانية الى انفاذ رسول عنهما مع رسول من العامل الى ملكي الروم وكتبا لهما مانصه : « انكما قد فعلتما باسارى المسلمين عندكما ما هو محرم عليكما ومخالف لوصية المسيح عليه السلام في امثالهم وامره فيمن جرى مجراهم . فاما زلتما عن هذه الطريقة وعدلتما عنها الى ما تقتضيه السنة المأثورة واحسنتما الى من في ايديكما وتركتماهم على اديانهم ولم تكرهاهم على خلاف آرائهم والا لعنا كما وتبرأنا منكما وحرمنا كما » فلما وصل الرسولان الى القسطنطينية اوصل رسول البطرك والقاثليق الى الملكين وحجب صاحبه . وبعد ايام اذن له الملكان في المثول بين يديهما وقالا له : الذي أدى الى ملك العرب من فعلنا باسارى المسلمين كذب وشناعة وقد اذنا في دخولك دار البلاط لتشاهدهم وتسمع شكرهم وتعلم استحالة ما ذكر لكم في امرهم . فذهب فرآهم كأنما هم خارجون من القبور وقائمون الى النشور ووجوههم دالة على ما كانوا فيه من الضر والعذاب الا انهم في حالة صيانة مستأنفة ورفاهة مستجدة . قال الرسول : فتأملت ثيابهم فكانت جدداً كلها فتبينت انني أُخرت ذلك التأخير حتى غُيرا امرهم وجُدد زيهم . وقالوا لي : نحن شاكرون للملكين . فعل الله بهما

وصنع مع ايمانهم التي بان حالهم كانت على ما تأدى الينا وانما خفف عنهم وأُحسن اليهم بعد حصولي هناك . وقالوا لي في عُرض قولهم : كيف عرفت صورتنا ومن تنبه على مراعاتنا حتى انفذك من اجلنا . فقلت وَلِيَ الوزارة الوزير ابو الحسن علي بن عيسى . فبلغه خبركم فانفذ وفعل كذا وكذا فضجوا بالدعاء له . وسمعت امرأة منهم تقول : مر يا علي بن عيسى لانسى الله لك ذلك الفعل . فعند ذلك بكى الوزير بكاء شديداً ثم سجد لله تعالى شاكراً وحامداً .

والبلاط المذكور هنا هو دار كانت بالقسطنطينية مخصوصة لاسارى المسلمين(١) ذكره المتنبي وابو فراس وغيرهما في اشعارهم وقد ذكره ابو العباس الصفوي شاعر سيف الدولة وكان محبوساً وضرب به مثلاً .

اراني في حبسي مقيماً كأنني ولم اغزُ في دار البلاط مقيم

***

ومجمل القول ان افاضل الروم والسريان والكلدان واليعاقبة والفرس وسائر النصارى على اختلاف مللهم واليهود والمجوس والصابئة كانوا في ايام خلفاء بني العباس موضع التجلة والاعزاز والاحترام ووصلوا بعناية الخلفاء واكابر الدولة من المسلمين الى مقام محمود ودرجة لم يكن لها نظير في دولة اخرى شرقية اوغربية حتى ولا في هذه الايام التي انتشرت فيها اعلام الحرية وانطلقت الافكار من قيودها القديمة التقليدية .

فكان الخلفاء وملوك المسلمين وامراؤهم يجعلون ثقتهم فيهم ويسلمون اليهم طبهم وطب نسائهم ويأتمنونهم على حريمهم واموالهم ويفضون اليهم باسرار الدولة الاسلامية ويودعون عندهم اموالهم وذخائرهم ولا يجعلون بينهم وبينهم حجاباً بل يستقبلونهم في كل وقت وبغير اذن مثل المسيحي نزيل بغداد واسحق بن حنين بن اسحق وبختيشوع بن جورجيس وابي الكرم صاعد بن توما المعروف بامين الدولة واشباههم ممن لا نرى حاجة لسرد اسمائهم .

(١) وقال المسعودي «والبلاط القصر ويعرف بالانبار وفي هذا البلاط ميناعليه سلسلة ينزل فيه رسل العرب اذا قدموا للفداء» والبلاط تعريب Balatium من اللغة اللاطينية العامية ومنه في اللغة الفرنساوية القديمة Balet و Balay و Balé واصله مشتق من اللاطينية الفصحى Palatium التي اخذ الافرنج منها Palais الفرنساوية و Palazzo الطليانية و Palacio الاسبانية و Palace الانجليزية وهكذا ومعناها في كل تلك اللغات القصر والسراي . من كلمة بلاط تعني القصر الملوكي اخذنا نحن كلمة البلاط اوالبلاط الملوكي . واما الانبار فهو تعريب الكلمة يونانية إفثاريو

وكان اكابر علماء المسلمين يتلقون العلم عن افاضل النصارى وغيرهم عملاً بالحديث الشريف كما كان النصارى واليهود وغيرهم يتلقون العلوم الفلسفية وغيرها عن علماء الاسلام فان محمد بن موسى بن شاكر الذي كان من اوفر الناس حظًا في الهندسة والنجوم في ايام المأمون كانت له دار في بغداد ككعبة لطلاب الفضل وعشاق العلم وقد تعلم فيها كثيرون ممن جعلوا لتلك الدولة بهاء ورواء وعطروا اسم الشرق والاسلام . نكتفي الآن بذكر ثابت بن قرة بن مروان الصابيء الحراني نزيل بغداد فان ابن شاكر المسلم لم يكتف بتخريجه في العلم بنفسه والانفاق عليه من ماله حتى اكمل دروسه في داره عن الاساتذة الذين كان يدر عليهم الارزاق لتنوير الاذهان بل رأى ان لهذا الصابيء حقًا عليه بهذا الجوار فوصله بالخليفه المعتضد وادخله في جملة المنجمين فظهر فضله حتى بلغ عنده اجلّ المراتب واعلى المنازل وكان يجلس بحضرته في كل وقت ويحادثه طويلاً ويضاحكه والخليفة يقبل عليه دون وزرائه وخاصته .

وقريب من ذلك ما وقع في مصر اذ التجأ اليها موسى بن ميمون اليهودي المشهور بعد ما أُكره في الاندلس على الاسلام فاظهره وحفظ القرآن واشتغل بالفقه واسرَّ اليهودية حتى اذا ما تحين الفرصة خرج الى مصر في اواخر ايام الفاطميين فلما استقر الامر فيها لصلاح الدين الايوبي اخذه القاضي الفاضل (عبدالرحيم بن علي البيساني) تحت حمايته واشتمل عليه وقدر له رزقًا من خزينة الدولة لما رآه فيه من العلم الواسع والفضل الكامل . فانه كان اوحد زمانه في صناعة الطب علماً وعملاً وكان متفننًا في العلوم وله معرفة جيدة بالفلسفة وكان الناصر صلاح الدين وولده الملك الافضل يجلان قدره كثيرًا ويعتمدان على رأيه في الطب وقد تولى الرياسة العامة على جميع اليهود بديار مصر . ولقد ابتلي موسى هذا في آخر زمانه برجلٍ من الاندلس فقيه يعرف بابي العرب وصل الى مصر وحاققه على اسلامه ورام اذاه فمنعه عنه القاضي الفاضل وقال له : رجل يُكره على الاسلام لا يصح اسلامه شرعًا . وقد مدحه القاضي السعيد بن سناء الملك فقال :

اری طب جالينوس للجسم وحده   وطب ابي عمران للعقل والجسم
فلو انه طبَّ الزمان بعلمه   لابراه من داء الجهالة بالعلم
ولو كان بدر التم من يستطبه   لتم له ما يدعيه من التم
وداواه يوم التم من كلف به   وابرأه يوم السرار من السقم

وافادنا التاريخ ان الفارابي وهو المعلم الثاني (لان المعلم الاول هو ارسطوطاليس) دخل العراق واستوطن بغداد وقرأ بها العلم الحكمي على يوحنا بن حيلان النصراني وانه هو اقرأ

يحيى بن عدي النصراني اليعقوبي الذي انتهت اليه رياسة اهل المنطق في زمانه · وقيل ان ابا سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني هو معلم الشيخ الرئيس ابن سينا صناعة الطب وان كان الشيخ الرئيس بعد ذلك تميز ومهر فيها وفي العلوم الحكمية حتى صنف كتباً للمسيحي وجعلها باسمه · هذا وانتم تعلمون ان يحيى ابن عيسى بن جزلة النصراني قرأ الطب على النصارى واراد قراءة المنطق فلم يكن فيهم من يقوم بهذا الشأن وذكر له ابو علي بن الوليد شيخ المعتزلة بانه عالم بعلم الكلام ومعرفة الالفاظ المنطقية فلازمه لقراءة المنطق ثم حسن الشيخ له الاسلام حتى استجاب وكان يطب اهل محلته وسائر معارفه بغير اجرة ولا جعالة بل احتساباً ومروءة ويحمل اليهم الادوية بغير عوض · وممن درس على شيوخ الادب المسلمين يحيى بن سعيد ابن مالك النصراني فقد برّز في هذا الفن حتى صنف ستين مقامة على مثال البديع والحريري فاحسن فيها وكان فاضلاً في علوم الاوائل وعلم العربية والشعر يرتزق بالطب ·

وهذا باب كبير جداً يتسع فيه المجال لعشرة امثال هذا المقال غير انني التمس الاذن من حضرات السامعين لاقص نبأ عليهم من اغرب الانباء :

اعرف في باريس رجلاً يهودياً من الذين توفروا على درس المشرق وآدابه وتواريخه وعنوا بالتنقيب عن كل شؤونه ونشروا كثيراً من مآثره الخالدة واسفاره الممتعة وترجموا بعضها الى اللغات الاجنبية · ذلك الرجل هو زميلي وصديقي العلامة الفاضل هرتويغ درنبورغ ولست الآن في مكان تقريظه وتعديد حسناته وانما اقول لكم انني رأيته في باريس قائماً بتفسير القرآن الكريم على جماعة الطلبة الفرنساويين في مدرسة اللغات الشرقية فعجبت في نفسي من امر هذا اليهودي الذي يشرح للنصارى في باريس وبلسان الفرنسيس كتاب المسلمين · ولكنني تذكرت تاريخ اجدادي وبه سيبطل اعجابكم كما بطل اعجابي · فقد كان الشيخ المؤرخ تقي الدين ابو العباس المقريزي المشهور صاحب كتاب الخطط المتوفى سنة ٨٤٥ من الهجرة له المام تام بمذاهب اهل الكتاب حتى كان افاضلهم يترددون اليه الاستفادة منه فيما يتعلق بامور دينهم وشرح مذاهبهم ومعرفة اسرار ملتهم · وقد الف كتاباً سماه « شارع النجاة » يشتمل على جميع ما اختلف فيه البشر من اصول دياناتهم وفروعها مع بيان ادلتها وتوجيه الحق منها وهذا بخلاف ما نراه من البيانات المفيدة الكثيرة في كتابه المشهور بالخطط الذي طبعه الخواجه روفائيل عبيد القبطي وقد اخذ الفرنساويون يترجمونه في هذه الايام الى لغتهم بمعرفة العلامة اوربان بوريان وبمعرفة العلامة كازانوفا المقيم بين ظهرانينا الآن لا كمال هذا العمل الجليل الذي برز في عالم المطبوعات قسم كبير منه ·

ولكن اين المقريزي واين علمه من الفقيه الشافعي كمال الدين ابن يونس الذي تفقه في الموصل ثم توجه الى بغداد ثم رجع الى الموصل ومات بها رابع عشر شعبان سنة ٦٣٩ فقد كان آية ولا كالآيات واعجوبة ولا كالاعاجيب وموسوعة ولا كالموسوعات تبحر في جميع الفنون وجمع من العلوم ما لم يجمعه احد وتفرد بعلم الرياضة واتفق الفقهاء على القول بانه يدري اربعة وعشرين فناً دراية متقنة فمن ذلك مذهب الشافعي فكان فيه اوحد الزمان وكان جماعة من الطائفة الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم ويحل لهم مسائل « الجامع الكبير » احسن حل مع ما هي عليه من الاشكال المشهور وكان يتقن فن الخلاف العراقي (اي على مذهب الشافعي) والبخاري (اي على مذهب الحنفي) واصول الفقه واصول الدين ولما وصلت كتب فخر الدين الرازي الى الموصل وكان بها اذ ذاك جماعة من الفضلاء لم يفهم احد منهم اصطلاحه فيها سواهُ وكذلك كتاب الارشاد للامام ركن الدين العميدي لما وقف عليه حل اصطلاحاته في ليلة واحدة واقرأها على ما قالوه وكان يدري فن الحكمة والمنطق (اي كتب ارسطوطاليس المنطقية الثمانية) والطبيعي والالهي وكذلك فنون الرياضة من اقليدس (اي كتبه الرياضية) والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي (اي الفلك) وانواع الحساب : المفتوح منه (اي علم العدد) والجبر والمقابلة والارثماطيقي وطريقة الخطأين والموسيقى والمساحة معرفة لا يشاركهُ فيها غيره الا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها واستخرج في علم الاوفاق طرقاً لم يهتد اليها احد وكان يبحث في العربية والتصريف بحثاً تاماً حتى انه كان يقرأ كتاب سيبويه والايضاح والتكملة لابي علي الفارسي والمفصل للزمخشري وكان له في التفسير والحديث وما يتعلق به واسماء الرجال يدٌ جيدة وكان يحفظ من التاريخ وايام العرب ووقائعهم والاشعار والمحاضرات شيئاً كثيراً وكان في كل فن من هذه الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه وبالجملة فان مجموع ما يعلمه من الفنون لم يسمع عن احد ممن تقدمه انه جمعه ولقد كان كبار المشايخ الذين لهم القدم الراسخة في العلوم يأخذون الكتاب ويجلسون بين يديه ويقرؤن عليه مع ان لهم من الكتب الفائقة ما يشتغل به الناس والطلاب بل كانوا يتركون بلادهم وتدريسهم ويحضرون اليه للتلقي عليه . لقد تخرّج عليه خلق كثير في كل فن . وليس كل ذلك شيئاً يذكر بجانب امر صغير كبير قد اشتهر عنه وهو الذي اردت ان اتخلص اليه بهذه المناسبة . وذلك ان علماء النصارى واليهود كانوا يقرؤن عليه الطب والفلسفة وغيرها من العلوم التي اعتاد اهل ذلك العصر عصر النور ان يقرئوها لاهل الكتاب ولا يمنعوهم منها . فليس في هذا شيءٌ من الغرابة وانما الغريب انه مع كونه معدوداً من الفقهاء والمفسرين كان كما رواه ابن خلكان

وهو حجة ثقة يجيء اليه اهل الذمة من اليهود والنصارى و يقرؤُن عليه التوراة والانجيل وقد شرح لهما هذين الكتابين شرحًا يعترفون انهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله . ولو وقع مثل هذا في عصرنا لعدَّ غريبًا جدًا . وممن قرأ عليه الحكيم تاذري الانطاكي اليعقوبي الذي احكم اللغة السريانية واللاطينية بانطاكية وشدا بها شيئًا من علوم الاوائل ثم هاجر الى الموصل وقرأ على كمال الدين بن يونس مصنفات الفارابي وابن سينا وحل اوقليدس والمجسطي . ثم عاد الى انطاكية ولم يطل المكث بها لما رأى في نفسه من التقصير في التحصيل فعاد مرة ثانية الى ابن يونس وانضج مااستنهأمن علمه وانحدر الى بغداد واتقن علم الطب وقيد اوابده وتصيد شوارده وقصد السلطان علاء الدين ليخدمه فاستغر به ولم يقبل عليه فرحل الى الارمن وخدم قسطنطين ابا الملك حاتم ولم يستطب عشرتهم فسار مع رسول كان هناك للامبرور ملك الفرنج وهو (فريدريكوس الثاني) فنال منهُ افضالاً ووجد له به نوالاً واقطعه مدينة باعمالها . فلما صلح حاله وكثر ماله اشتاق الى بلده واهله فلم يؤذن له بالتوجه فاقام الى ان امكنته الفرصة بخروج الملك في بعض غزواته الى بلاد المغرب فضم اطرافه وجمع امواله وركب سفينة كان قد اعدها لهربه وسار في البحر مع من معه من خدمه يطلبون برَّ عكة . فبينا هم سائرون اذ هبت ريح رمت بهم الى مدينة كان الملك فيها فلما أُخبر تاذري بذلك تناول شيئًا من سم كان معه ومات خجلاً لا وجلاً لان الملك لم يكن يسمح باهلاك مثله .

وممن جرى على ذلك النحو العلامة برهان الدين ابراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ فانه فسر القرآن في كتاب له اسمه « نظم الدرر في تناسب الآي والسور » وهو كتاب لم يسبقه اليه احد جمع فيه من اسرار القرآن ما تحار فيه العقول وهو محفوظ بالمكتبة الخديوية وفي كثير من مكاتب القسطنطينية . ولكي يكون هذا المفسر المحقق على بصيرة من امره استمدَّ كثيرًا من الامور والبيانات من التوراة والانجيل وقد اشار في اوله الى التوراة التي اعتمد عليها فقال ما نصه : « واعلم ان اكثر ما ذكرته في كتابي هذا من نسخة وقعت لي لم ادر اسم مترجمها وعلى حواشي فصولها الاوقات التي تقرأ فيها والظاهر انها نسخة اليهود وهي قديمة جدًا فكان في الورقة الاولى منها محوٌ في اطراف الاسطر فكملته من نسخة السبعين ثم قابلت نسختي كلها مع بعض اليهود الربانيين على ترجمة سعيد الفيومي وهي عندهم احسن التراجم فوجدت نسختي اقرب الى حقائق اللفظ العبراني ومترجمها اقعد من سعيد في لغة العرب » وسعيد هو المشهور باسم سعديا . وقد ذكره صاحب كتاب الفهرست

وكان البقاعي كلما ذكر قصة مما ورد في القرآن تتعلق باهل الكتاب شرح امرها من التوراة

وغيرها من صحف الملل المتقدمة مثال ذلك انه اشار في بعض المواضع الى احدى القصص فشرح امرها من التوراة فقال ما نصه : « في آخر السفر الرابع منها في النسخ الموجودة بين اظهر اليهود الآن في هذا القرن التاسع فيما قرأته في نسخة مترجمة بالعربية وخطها كذلك وعليه آثار قراءتهم لها و بيان الاوقات التي يقرأ فيها كل فصل منها ثم قابلتها بالمعنى مع شخص منهم وكان هو القارىء ما نصه : وهذه مظاعن بني اسرائيل حيث خرجوا من ارض مصر باجنادهم على يدي موسى وهرون وكتب موسى مخارجهم ومراحلهم عن قول الرب : ظعنوا من رعمسيس (وفي نسخة من عين شمس) في خمسة عشر يوماً من الشهر الاول » ·

ولذلك قام عليه بعض الجهلة من اهل عصره وقبحوا طريقته قبحهم الله واهانوه وسعوا به لدى الحكام ونفوه واضطهدوه بكل ما في وسعهم ولكن الرجل ثبت في عمله حتى اتم تفسيره وصنف ايضاً بسبب ذلك كتابين احدهما « مصاعد النظر في الاشراف على مقاصد السور » والثاني « الاقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة » وهو محفوظ بالكتبخانة الخديوية · تأتي البقية

حكم منوعة

حكم في سيرة الحياة

ملخصة من كتب ديانة الهنود القديمة

تتطهر النفس بمعرفة الذات وضبطها عن الشر وبالاستقامة والادب والدين

الام اثقل من الارض والاب اعلى من السموات والعقل اسرع من الريح والافكار اكثر عدداً من العشب

صديق رب البيت الزوجة · وصديق الغريب في بلاد بعيدة · الرفيق وصديق المريض الطبيب · وصديق المشرف على الموت الصدقة

اعظم خير للفضل الكرم · وللشهرة العطاء والسماء الحق · وللسعادة السيرة الحسنة

الابن هو نفس الانسان · والزوجة عطية من الله · واخص معيشة الانسان من الغيوم

خير ما يمدح الحذق وخير ما يقنى العلم وخير ما يكسب العافية وخير انواع السعادة القناعة

اعظم ما يجب على الانسان الامتناع عن الاضرار بالناس

اذا ابى الانسان الكبرياء كان محبوباً واذا ابى الغضب فلا يندم واذا ابى الهوى صار غنياً واذا ابى الطمع كان سعيداً

زجر النفس احق الزجر . الصفح يقوم بالصبر على العداوة . والابتعاد عن كل عمل معيب يخلص من الخجل والعار . والرحمة قائمة بطلب الخير للكل . والبساطة راحة القلب

الغضب عدوٌ لا يغلب والطمع داءٌ لا دواء له . والصادق من يريد الخير للخلق عامة وغير الصادق من لا رحمة فيه

الجهل الحقيقي هو الجهل بما يجب عمله . والكسل عدم القيام بما يجب عمله

الغسل الحقيقي غسل القلب من اوساخه . والصدقة مساعدة كل مخلوق محتاج

العالم من علم مايجب عليه . والحسد ليس الا حزن للقلب

الجهل الاعمى هو الكبرياء . والشر كلام السوء في الغير

من يعد ولا يفي والغني الذي لا يعطي ولا ينفق على نفسه بخلاً كلاهما في النار الخالدة

من يقول قولاً شهياً صار شهياً عند الكل ومن عمل بالحزم نال ما طلب ومن كان له خلان كثيرون كان سعيداً ومن تابع الفضل كان له نصيب سعيد في الآخرة

السعيد من لا دَين عليه ومن يلازم بيته

يذهب اليوم بعد اليوم اناسٌ لا يحصى عددهم الى منازل الموتى واما الاحياء المتأخرون فيظنون انفسهم خالدين في الحياة

خبر العمل الصالح يبلغ عنان السماء و ينتشر في الارض فما دام هذا الخبر كائناً يدعى الرجل رجلاً

من استوى عندهُ الطيب والمكروه والخير والشر والماضي والحاضر فهو المالك لعامة انواع الثروة

من اقوال الفلاسفة القدماء

الحواس كالشمس فكما ان الشمس تخفي السموات وتجلي رؤية الارض هكذا الحواس تخفي الاشياء السماوية وتظهر الاشياء الارضية

الاسم الحسن كالنار اذا اشتعلت مرة سهل دوام اشتعالها واذا انطفأت لم تسهل اعادة اشتعالها

الحب الذي لا نهاية له هو الحب الذي لا غرض دنيّ منه

احوج ما في العلم لفائدة الحياة نسيان ما هو غير صحيح

يتعلم الحكماء من الجهال اكثر مما يتعلم الجهال من الحكماء

ليست الرحمة صفة مغصوبة بل هي آتية من السماء كالمطر الرذاذ الى ماتحتها . وبركتها بركتان بركة للمعطي وبركة للآخذ . وهي اجدر بالملك الجالس على عرشه من تاجه . وهي صفة ذات الله فتصير القوة الارضية اشبه بقوة الله متى لطفت الرحمة العدل . وان كان العدل حجتك فاعلم ان من هذا الوجه لا يرى احد منا نجاة عند الله الا اننا نلتجئ الى رحمته . وهذا الالتجاء يعلمنا جميعاً اعمال الرحمة (شكسبير)

بيروت يوحنا ورتبات

حكم عصرية

للمأسوف عليها العقيلة « انيسة » كريمة الشيخ سعيد الخوري الشرتوني

احقر الناس جاهل ابن عالم وفقير ابن غني

ميراث كبير تعويد الولد العمل واجتناب المحرَّمات

من احرز العلم بلغ ذروة الشرف

الغني الجاهل اخرس في مجالس العلماء

اجلّ الناس من جمع بين العلم والمال والفضيلة

افضل رجال الدين من نمت في جوارحهم الفضائل وانتشرت في معاشريهم نفحات الصلاح

معاشرة العلماء ضياء ومعاشرة الجهال ظلام

جرائد كل عصر اصدق شاهد على اخلاق اهله وطبقاتهم في العلم

لا مؤونة للقلم واللسان بعد اللغة كالتاريخ والجغرافية

حافظ التاريخ والجغرافية ولطيف الشعر والامثال والحكم زينة المجالس وفاكهة المحاضر

لا يضعف العدل والدين الا متى كان زمامهما في ايدي اعدائهما

ما نظر الحكيم في شيء الا استخرج منه فائدة

لا يسعد الا من اعتصم بحبل الله

الفضلاء في الناس كالجواهر في الحجارة

قيمة العلماء في الامم الشائخة قيمة المصابيح عند العميان

لا يغلب الحق وان قل انصاره

من افظع العار ان يخالف الديانة من يسود باسم الديانة

الوعظ في فم الشرير كالماء الطاهر في المجرى النجس

افضل ما تعمله المدارس اختيار الفضلاء البارعين للتربية والتعليم

اثمن الهدايا نصائح الحكماء

مجاورة الصالحين كمجاورة النباتات العطرية

املك الناس للقلوب مهذب حميد السيرة

من احكم علماً عاش به

اولى الناس بالتزام السيرة الصالحة الحاكم والكاهن والطبيب فكل منهم مقتدى

استخدام الفقير انفع من التصدق عليه

جدة المبادىء كالشباب وقدامتها كالشيخوخة فاصحاب المبادىء الجديدة ذوو هم قوية واصحاب المبادىء القديمة ضعاف الهمم

من احسن وسائل التقويم الترغيب في حسن الذكر

من افضل الكتب التي تسمن عليها الآداب كتاب تلماك

الدين كاللوزة اجتناب المحرمات لبه والتكاليف قشره والمحافظة على القشر بعد اتلاف اللب رياء

افضل المنشئين من لا تبلي الدهور كلامهم

جوامع الكلم

منقولة عن الانكليزية

خشية الله اصل المعرفة والمجنون من يزدري بها

(رأس الحكمة مخافة الله)

فطرنا على حب الحياة ولو انها قليلة اللذات

(جبلنا على حب الحياة وانها مخيفة احلام اطافت بحالم)

جانب الشرير ولا تسر في سبيل اهل الدعارة فهم لا يأكلون غير طعام الخبث ولا يكرعون الا من نبيذ القسوة

لكل انسان ان يعيش على الدهر اذا كانت حياته روحية لاجسدية : اذا كانت حياته في طلب الحكمة وتخليد المآثر . وهذه حياة عظماء الرجال تؤكد لنا ذلك .

الناس دون جهادهم موتى وا   كن الالى عملوا المدى احياء

وفي هذا المعنى قال الرافعي ايضاً :

وما غير العظائم باقيات   يكرر ذكرها في كل آن

يعمل المرء في حياته اما اعمالاً حسنة او سيئة وعلى قدر ذلك يترتب هناؤه او تعسه في الوجود

النجاح لا يقع اختياره الا على رجل واحد من الناس لا يصاحب سواه وهذا الرجل هو الذي لا يعمل عملاً قبل ان يعمل فكره فيه

قال وليم شكسبير : انما العالم مسرح والناس من رجال ونساء ليسوا سوى ممثلين يظهر كل عليه ويختفي · والمرء في حياته يمثل سبعة ادوار · فالدور الاول وهو زمن الطفولة اذ يكون رضيعاً يصرخ ويقيء بين ذراعي مرضعه · والثاني حين يصبح تلميذاً يحمل قمطره ووجهه يفيض بشراً وسناء في الصباح يقفز كطير الحجل ويتظلم من الذهاب الى المدرسة · والثالث دور الهوى وهو الزمن الذي يكون فيه عاشقاً يتنهد تنهدات حارة تحكي زفرات الافران وهو ينشد اغاني مطربة يخاطب بها لحاظ مالكة فؤاده · والدور الرابع وهو دور الشجاعة والاقدام حين يكون جندياً يقسم الايمانات ولحيته تشبه لحية النمر : يغار على الشرف ويقتحم الغارات بخفة باحثاً عما يجديه فخاراً ولو في فوهات المدافع — هذا الفخار الذي اراه كحبب الماء لا يدوم ولا يلبث · والخامس وهو الدور الذي يجلس فيه على سرير الاحكام ويقضي بين الناس وبطنه ممتلئ مستدير وبصره حاد ولحيته مقصوصة قصاً مخصوصاً : عقله راجح وفكره ملآن بكثير من الحوادث واعٍ لما صدر فيها من الاحكام · والسادس يبدأ باكتسائه الاردية الرفيعة القماش الواسعة الحجم ووضعه المنظار امام عينيه وتعليقه كيساً بجانبه وقد غدت جواربه التي كان يلبسها وقت الصغر غير ملائمة لرجليه لكبر حجمها وصوته ضئيلاً متلعثماً يحاكي صوت الاطفال

اما المنظر الاخير الذي ينتهي به هذا التاريخ المحزن الغريب فهو الطفولة الثانية « يعني الشيخوخة » والخبل المتناهي يتبعه فقد الاسنان والبصر والذوق بل وتضعضع جميع الجسد · وقال كذلك على لسان ما كبيت

انطفئ ياذا السراج انطفئ فان الحياة خيال يسير

وقال ايضاً : تأمل كثيراً وتكلم قليلاً ولا تشرع في تحقيق رأي يعجز عقلك دونه · عامل الناس بالعرف وراعِ واجبات الصداقة وضم من صادقتهم وتحققت اخلاصهم الى قلبك وعلقهم به باطواق من الحديد ولا تضع كل انسان حديث العهد بالمعرفة بك موضعاً علياً فتعلق بيدك الاكدار · حاذر من التشاجر مع احد واذا قدر لك هذا فاجتهد في ارهاب خصمك · أعرِ كل انسان سمعك ولا تدع صوتك يقرع الا آذان فئة قليلة من الناس ·

وقال يوحنا رسكن : خلق الانسان لثلاثة دواعٍ وهي العمل والاسى (الحزن) والسرور وكل من هذه الثلاثة له درجتان : وضيعة ورفيعة · فهناك عمل وضيع وعمل رفيع · وهناك حزن هين وآخر شديد · وكذلك فرح قليل وسرور مفرط فيلزمك ان لا تنأى عن الجمع بين هذي الثلاث ظناً منك انه يتأتى لك ان تحيا بدونها فليست هناك نفس خلت من التشبث بها فانجبر وهيها · والعمل بدون السرور رديء وهو بدون الحزن كذلك ·

والحزن من غير العمل قتال وكذلك الحبور بدون العمل . وقال : تواضع على قدر ما ترغب نلبس التواضع بمؤذٍ لانسان ولكن خلّ شرفك في المحل الاول . وقال : لا يتقدم في سبيل الحياة الا من كان قلبه آخذاً يزداد ليناً ودمه حرارةً وخاطره سرعةً ونفسه رغبةً في العيش مع السلام واولئك الذين يوجد فيهم هذا الشعور هم هم — لا غيرهم — الامراء والملوك الحقيقيون في الارض .

القاهرة ١٠ ز ١٠

الساعة

وخرساء لم ينطق بحرف لسانها سوى صوت عرق نابض بحشاها
حكت لهجة التمتام لفظا ولم تكن لتفصح الاَّ بالزمان لغاها
لها ضَرَبانٌ في الحشا قد حكت به فؤاداً تغشاه الهوى وحكاها
جرت حركات الدهر في ضَرَبانها وبانت مواقيت الورى بعماها
على وجهها خطت علا ثم تهتدي بها الناس في اوقاتها لمناها
مشت بين آنات الزمان تقيسه وما هو الاَّ مشيها وخطاها
بها يتقاضى الناس ما يوعدونه ويرشد ضُلاَّل الزمان هداها
غدت كأخي الايمان تأكل في مِعًا وما أكلها الاَّ التواء معاها
ندور عليها عقرب دور حائر بتيهاء غُمّت في الظلام صُواها
تريك مكان الشمس في دورانها اذا حجبت عنك الغيوم ضياها
فأعجب بها مصحوبةً جاء صنعها نتيجة افكار الورى وحجاها
بنتها النهى في الغابرين بسيطةً فتم على مرّ الزمان بناها
تنادي بني الايام في نقراتها أن اسعوا بجدّ بالغنين مداها
ولا تهملوا الاوقات فهي بواترٌ تقطع اوصال الحياة شباها

بغداد معروف الرصافي

للشرق

رعى الله عهداً بالحمى ليس يرجع — وهل راجع ما فات والقوم هجع
وقد كان فيه من اقاموا بجدهم — ارا كين مجدٍ دونها القوم خشع
وشادوا قصور المكرمات واطلعوا — بدور علوم مالها اليوم مطلع
وقد غربت في الغرب شمس علومهم — فهل بعد ما تقضي اللبانة تطلع
فاناعهدنا الشمس تحجب ليلةً — ولو لبثت عنا ليالي نجزع
فما بالها تمضي القرون ولا نرى — جمال محياها على الشرق يسطع
فهل لك يانور الوجود ضغينة — على اهله ام هم الى اللهو نزع
سلوك فأسلوك المرابع بعد ما — سفرت لهم دهراً وما لك برقع
وما الشرق الا منزل نام اهله — طويلاً فما يدرون ماالناس تصنع
فياعلماء العصر اشكو اليكم — فهل عندكم للشكو ياقوم موضع
فان لم تجيبوا داعي الله للعلى — « فللصبر ان لم ينفع الشكو »اوسع

بيروت — الغلاييني

مطبوعات ومخطوطات

مبادئ اللغة

للشيخ الامام ابي عبدالله محمد بن عبدالله الخطيب الاسكافي المتوفى سنة ٤٢١ ه مع شرحه له عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي وطبع على نفقة احمد افندي ناجي الجمالي ومحمد امين افندي الخانجي واخيه بمصر عن نسخة جيء بها من بغداد وقد وجد في الاصل المنقول عنه : هذا الكتاب اعني مبادىء اللغة مستخرج من كتاب العين للخليل ونوادر ابن الاعرابي وحروف ابي عمرو الشيباني ومصنف ابي زيد وجمهرة ابن دريد الازدي . وفي الكتاب كثير من الفصيح الذي اخذه صاحب فقه اللغة وهو مما ينتفع به المترجمون والمؤلفون في هذا العصر وفيه فصيح كثيرة وردت في ابواب منه مثل باب الكسوة ويدخل تحتها اصناف الثياب والملابس وباب البسط والفرش ونحوهما وباب الحلي والجواهر وباب الاواني والسراج وابواب الطعام والطبخ والالبان والشراب وآلات البيت والادوات

وآلات الكتاب والزرع والسلاح وغير ذلك مما يلزم المخاطبين في سفرهم ومقامهم ولياليهم ونهارهم وبيوتهم واعمالهم وحضارتهم وتأخرهم . وحبذا لو اضاف اليه طابعوه فهرساً باسماء ابوابه وبيان فوائده وشوارده واوابده . وقد وقع في ٢٠٤ صفحات وثمنه سبعة قروش مجلداً

توفيق المواد النظامية

لاحكام الشريعة المحمدية

هي رسالة للمرحوم الشيخ محمد الشطي المتوفى سنة ١٣٠٧ ذكر فيها مائتي مادة مما وافق فيها القانون العثماني الشرع الاسلامي قال في مقدمتها : « ولما نشأ من تضييق بعض العلماء على الملوك السابقين جعل الحكم على قسمين شرعي ونظامي تبادر الى الاذهان ان الحكم النظامي مخالف للشريعة المطهرة المأخوذة من القرآن والسنة ومن تتبع اقوال الائمة المجتهدين واحكام الصحابة والتابعين وجد ان الاحكام كلها مأخوذة عن سيد المرسلين » والرسالة مطبوعة طبعاً جيداً في مطبعة الشيخ فرج الله زكي بمصر .

تقويم المؤيد

صدر تقويم المؤيد عن سنة ١٣٢٦ وهي السنة الحادية عشرة له تأليف محمد افندي مسعود المعروف بسعة اطلاعه وعلمه وادبه حافلاً باجل الفوائد التي يحتاج اليها الخاصة والعامة والرجال والنساء والمصريون والغرباء ولا عجب اذا قلنا انه صورة مصغرة من تاريخ مصر وما يلزم لساكنها خصوصاً بل لساكن البلاد العربية عامة من المعلومات الفلكية والفنية والادبية واخبار الملوك والممالك والحوادث والمعاهدات الدولية والمسائل السياسية واحوال الزراعة وتدبير المنزل وما تم من اساليب الارتقاء المادي والادبي في مصر في السنة الماضية وقد طبع في مطبعة المؤيد طبعاً جميلاً و يطلب من ادارتها وثمنه خمسة قروش فنحث على اقتنائه ونرجو ان يوفق مؤلفه الى اصداره سنين كثيرة لنزيده ارتقاء فوق ارتقائه خدمة للغة واهلها .

مجموعة خطب

للشيخ جمال الدين القاسمي وهي خطب جمعية منبرية مقتبسة من خطب نبوية وصحابية وائمة مشاهير موضوعها العقائد والعبادات والمعاملات والشمائل والاوامر والزواجر والآداب والاخلاق والمواعظ واحوال المعاد وهي في نحو ١٣٠ صفحة صغيرة جميلة الوضع والانتخاب وكنا نود لو كانت كلها مما كتب قبل القرن السادس لتجمع الفائدتين كما هي نافعة في الدارين . تطلب من طابعها محمد افندي هاشم الكتبي في دمشق .

سياحة في التبت

ترجم عن التركية حكمت بك شريف سياحة مختصرة في بعض مجاهل آسيا كما ترجم من قبل تاريخ زنجبار وسيام فعساه يترجم او يؤلف لنا رحلة او تاريخًا عن هذا الشرق الادنى او القريب فيكتب بعد "تبت عن العراق ونجد والحجاز واليمن و يحدثنا بعد زنجبار وسيام باخبار آسيا الصغرى و بلاد الشام . تطلب الرحلة من المكتبة الرفاعية في طرابلس الشام

دليل السلام

اصدرت ادارة جريدة السلام التي تطبع بالعربية في بونس ايرس عاصمة الارجنتين (الجمهورية الفضية) دليلاً حوى اهم الفوائد التجارية والاحصائية والتاريخية والحسابية والاخبار والفكاهات بالعربية والاسبانيولية جاء فيه ان عدد السوريين في تلك البلاد يربو على ٤٥ الفًا وان عدد الجرائد والمجلات التي صدرت بالعربية منذ سنة ١٨٩١ في اميركا الشمالية والجنوبية قد بلغت الى الآن اربعين بقي منها حيًا ٢١ وفي هذا الدليل فهرس عام لتجار السوريين في الارجنتين وفيه صور كثيرة وفوائد غزيرة واعلانات جمة وجاء فيه ان احوال الجالية هناك على احسن ما يكون من الارتقاء فمنذ بضع سنين كان يندر ان تجد محلاً تجاريًا قائمًا بما يتطلبه نظام التجارة من ضبط دفاتر وحسابات واليوم ترى مثل هذه المحال مئات ومنذ بضع سنوات كانت تنقضي السنوات ولا تسمع بجمعية أُسست ومشروع قام وفي ايامنا لا تخلو سنة من عشرات المشاريع يقوم بها المتنبهون عن كفاءة وشعور .

اللباب

هي مجلة علمية فلسفية طبية زراعية تصدر في القاهرة في اول كل شهر لصاحبها م٠١٠١٠ن ومديرها خليل افندي مولود جاءتنا الاجزاء الثلاثة الاولى منها فقرأنا فيها عدة مقالات مختصرة في المعنى الذي ترمي اليه قالت في مقدمتها: « اننا نرمي في كلامنا على بطء مسير حركة العلم ونضوب معين الاقلام في التنقيب على استجلاء الحقائق والقحط الذي اصاب ادمغة رجال الاقلام وارباب الكتابة والتأليف ولم يتناول جميع المطالب العصرية التي عقمت بها ارحام الاقلام واجدبت عن إنباتها رياض الافهام وغدت بها مجلات العلم والادب عالة على النقل والتعريب عن منشآت صحف اوربا حالة ان مجال الكتابة ارحب من الفضاء وموضوع عمراننا اغزر من الدأماء ولم نجد الالسنة قد انفتقت الا لتزيين التقليد والتقاعد عن ركوب خطة التوليد ولم نر الخواطر قد انقدحت الا لاختراع ضروب النقل والمسخ

مكاثرة لهذا النوع من الكتابة الذي جرّ على العربية وآدابها معرة النقص واورث صناعة الادب كساداً واي كساد »

وانا لندعو ان توفق رصيفتنا الجديدة الى سد هذا النقص المحسوس في اللغة العربية ونعني به التوليد والاختراع والبعد عن مواطن التقليد والجمود من نقل وتعريب · وفي كل جزء من الاجزاء الثلاثة مقالة للامير شكيب ارسلان الكاتب الشهير الاولى في الانتقاد والثانية في حقيقة التعريب والثالثة في تركة الفضل اخلد الآثار · والمجلة سلسة العبارة لطيفة المنزع تصدر في ٥٦ صفحة في حرف واضح جلي وطبع سليم نقي وقيمة اشتراكها في القطر خمسون قرشاً وسبعون في سائر الاقطار فنرحب بها ونتمنى لها الثبات في خدمة اللغة والآداب والاقبال الذي تستحقه ·

شورا

هي مجلة علمية ادبية فيها بعض ابحاث دينية تصدر مرتين في الشهر باللغة التركية في مدينة اورنبورغ من اعمال روسيا لصاحبيها محمد شاكر افندي ومحمدذاكر افندي راميپف ومحررها رضاء الدين افندي بن فخر الدين صدر منها الى الآن ستة اجزاء فتلوناها مسرورين من نشاط اخواننا الروسيين في خدمة المعارف والآداب وعبارتها تركية تترية يسعى كاتبها الى تقريبها من التركية العثمانية ليعم الانتفاع بها وفي هذه الاجزاء مقالات لطيفة تدل على سلامة ذوق الكاتب وادبه الجم وفيها بعض صور لمشاهير الروسيين المسلمين ممن كان لهم اثر في نهوضهم الاجتماعي والعلمي مثل الشيخ شامل وغيره وتراجم موجزة لهم وقيمة اشتراكها اربعة روبلات واذا اشترك المشترك بها مع جريدة وقت يؤخذ منه سبعة روبلات وياحبذا لو جعلت هذه المجلة ملزمة واحدة منها باللغة العربية تنقل فيها اهم ما يهم الامة من اخبار تلك البلاد ونهضتها العلمية والادبية تجعلها ملحقاً في كل جزء من اجزائها فيكون لها شأن بين قراء العربية كما لها شأن بين قراء التاتارية والتركية ·

المفضليات

طبع الشيخ ابو بكر بن عمر داغستاني والشيخ حمزة امين حلواني مختارات المفضل الضبي التي اختارها من شعر العرب للمهدي بطلب من امير المؤمنين المنصور فجاءت في نحو مئتي صفحة متوسطة مشكولة كلها ما خلا الشرح الخفيف الذي علقه عليها الشيخ ابو بكر الموما اليه بالمفضليات غنية عن التعريف وهي تطلب من مكتبة مصطفى افندي البابي الحلبي واخويه في مصر بستة قروش ·

تقرير المجمع العلمي الشمثوني السنوي

Annual report of the Board of regents of the Smithsonian Institution 1906

من اعظم المجامع العلمية في الولايات المتحدة المجمع الشمثوني الذي أسس في نيويورك سنة ١٨٤٦ بمال جاد به رجل اسمه سمثون ولا تزال اعماله في نجاح سنة عن سنة كما يفهم من تقاريره السنوية . وامامنا الآن تقريره عن سنة ١٩٠٦ شرحت فيه الجمعية ميزانيتها التي بلغت مئات الدولارات وذكرت اسماء من تبرعوا لها بالاموال وفيه مقالات كثيرة لمشاهير كتاب الطبيعة والكيمياء والفلك والحيوان والنبات من اميركان وفرنسيس وغيرهم مما تنشر مثله كل سنة ليكون عوناً للناس على التعلم والاستنارة . والتقرير يقع في نحو ٥٥٠ صفحة جيد الطبع جداً نفيس الورق وهو حاوٍ لرسوم علمية ومصوّرات جغرافية كثيرة فنثني على رجال هذا المجمع بما هم اهله ونتمنى لشرقنا المسكين ولو مجمعاً واحداً من مثل مجمعهم النافع .

نادي دار العلوم

احسن هذا النادي بان طبع ما أُلقي فيه من الخطب هذا الشتاء في موضوع اللغة العربية وتسميته المسميات الحديثة فان فيها من المباحث ما هو جدير بان تتناقله كل يد في كل بلد وقد قرر النادي حلاً لهذا الاشكال ان يبحث في اللغة العربية عن اسماء للمسميات الحديثة باي طريق من الطرق الجائزة لغة فاذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الاعجمي بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية . فنرجو ان يوفق القائمون بهذا المشروع الى تأليف المجمع الذي ينوون تأسيسه للنظر في هذا الغرض الشريف

سير العلم والاجتماع

التعليم والذكاء

من المعروف الشائع ان التعليم يزيد الذكاء حدة ويقوي الذهن الا ان طبيبين نطاسيين قد بحثا بحثاً طويلاً في ذلك فتبين لهما ان الولد ينسى بعد خمس سنين من سنه ما تعلمه من قبل نسياناً تاماً فالذاكرة كما يتوفر على تنميتها في المدارس لا يبقى فيها شيء بل ان العقل لا يحاول ان يعرف ما يجهل وقليل من الاولاد من حازوا من المعارف قسطاً اماماً يتعلموه في المدارس وما يعرفونه كله مبادئ ويزول اثره من الذهن في الغالب . وقد سأل احد الدكتورين

تسعة وثلاثين تلميذاً من الصفوف العالية وتسعة وثلاثين تلميذاً من الصفوف الواطئة وثمانية وخمسين تلميذاً من الكليات اسئلة كلها بسيطة فلم يكن الجواب الا التسجيل عليهم بالجهل المطبق وفي المسائل التي كان ينبغي لها شيء من صحة الحكم كان سكوتهم عليها تحزناً فاستنتج من ذلك ان التعليم لا يساعد الا قليلاً جداً على تقوية العقل وينبغي اصلاحه على صورة عملية اكثر من الآن . وهذا الرأي موافق لرأي هرون غورست الذي يرى المعارف المدرسية للذكاء اشبه بسم حقيقي ولذلك يطلب ان يكون الامتحان محدوداً معيناً وان كل من يعاني صناعة بموجب شهادة بيده يجب عليه ان يفحص امام جماعة من المحكمين كل خمس سنين وما هذا الا لان التعليم اليوم يقتصر فيه على الاكثار من الكتب والاكثار من الامتحان الشفاهي وتعلم الالفاظ والجمل واهمال التزود من الافكار وتمرين العقل على التفنن فيها وايجادها .

التفروزين

La téphrosine

هو نبات ينبت في جزيرة سيلان وكولمبيا واميركا الوسطى وهو يستعمل للصباغ ويخرج منه نوع صباغ من النيلة ويكون منه مسهل ويستعمله الاميركان لتدويخ السمك ليسهل صيده وقد قرأ احدهم في مجمع العلوم الباريزي تقريراً جاء فيه ان هذا النبات من السموم الشديدة وان الصيادين لا يسكرون السمك به بل يسممونها ورأى ان يناقشوا الحساب في استعماله ويمنع بيعه ان امكن .

بعد الشمس

ثبت ان الشمس بعيدة عن الارض اكثر مما كان معروفاً فبعد رصدها ٢٦٠٠ مرة بالتلسكوب و١١٠٠٠ مرة بالصور الشمسية تبين ان الشمس بعيدة عنا ١٤٩٤٧١٠٠٠ كيلومتر وكانوا يقولون منذ عهد كبلر انها بعيدة ١٤٨٥٠٠٠٠٠ كيلومتر والفضل في هذا التحقيق يرجع الى ما اكتشفه المرصد الفلكي في برلين سنة ١٨٩٨ من نجم مذنب صغير لم يكن معروفاً من قبل سموه (ايروس) وهو يقترب من الارض بعد الاحايين فساعد هذا النجم على حساب بعد الشمس .

الارق

اثبت احد روّاد الانكليز في خلال صعوده جبل كون كون في بلاد كشمير شمالي

لهند ان النوم على علو سبعة آلاف متر يقلّ ويخالف السهاد المقلّ لان الاكسيجين يندر والتنفس يصعب فلا يلبث المرء ان يغفي حتى يستيقظ كالمذعور.

اغنى كلية

اغنى كلية في العالم هي كلية هارفرد الجامعة في الولايات المتحدة فان رأس مالها خمسة وعشرون مليون جنيه فاذا اضيف اليه ثمن اراضيها واماكنها وخزائن كتبها ومستشفياتها بلغ مجموعها نحو ثمانية وثلاثين مليونًا وهذه المدرسة بعيدة عن مدينة نيوكمبردج. وفي هذه الولاية يُحظر بيع المشروبات الروحية. ويقبض رئيسها راتبًا في السنة ستة آلاف دولار وكل استاذ ثمانمائة جنيه وكل مساعد استاذ اربعمائة جنيه وفيها نحو ٥٠٠ استاذ و ٤٠٠٠ طالب

تبرج النساء

كتب باولو لومبروزو العالم الايطالي مقالة في هذا الموضوع قال فيها انه ثبت ان اصل التبرج المشهود في النساء كان في اول الامر مألوفًا لهن ناخذن يعمدن اليه استمالة لقلوب الرجال وما زلن في تفننهن حتى صار فيهن على كرور الاعصار عادة وجبلة. فقد شوهد ان النساء المجنونات يفقدن لاول عهدهن بالجنون الرقة والحشمة والطهارة على ان حب التبرج يبقى مغروسًا فيهن فيحرصن عليه. والتبرج مما عمت به البلوى كل النساء بدون استثناء فتراه عند الاميرة الكبيرة كما تراه عند الزنجية الحقيرة ولهن في التفنن بذلك اساليب حتى ان احدى الغنيات الكبيرات في اميركا اراد ان يزورها ذات يوم احد الامراء من بعض الأسرات المالكة فتأهبت لذلك بان اوصت على قفطانين جميلين احدهما وردي والآخر ابيض صرفت فيهما الفي جنيه. ولكن كيف السبيل الى ان تظهر امام الامير بالقفطانين في آن واحد فأوعزت الى خادم لها وهي على المائدة ان يلقي عليها شيئًا من المرق من صفحة يحملها فعندها انسلت الى غرفة تبرجها ولبست القفطان الآخر فتم لها ما ارادت من الظهور امام الامير في ثوبين ثمينين في آن واحد. وليست المرأة محبة للتبرج في جميع طبقات المجتمع الآن بل كانت كذلك منذ العصور المتطاولة في زمن يكاد يكون فيه اختراع السكة والمحراث جديدًا اي في العصر الذي كان الانسان يسكن فيه المغاور. فقد عثروا في بعض الكهوف على اقراط وحلق واساور. وترى النساء المتوحشات لا يبالين بالالم ويفادين بكل عزيز في سبيل تبرجهن فيضعن الوشم على اكثر اطراف اجسامهن تأثرًا كالفم والصدر ويثقبن آذانهن وانوفهن وشفاههن ويدخلن في لثاتهن قطعة من الخشب ويقلعن اسنانهن ويضغطن على رؤوسهن لتكون مستطيلة ويصغرن ارجلهن. تساوي في ذلك الشابات

والعجائز. وانك لترى بنات الستين يذكرن ايام شبابهن ولا يقصرن في التبرج كما ترى الطفلة الصغيرة اول ما تفتح عينها عليه انواع التبرج والزينة · ومن غريب ما شاهد في تبرج النساء ان امرأتين في احدى مستشفيات المجاذيب توصلن الى ان يضعن على وجهيهما الابيض والاحمر مع انه يُحظر على المجذوبات كثيرًا ان يؤتى اليهن بشيء من الذرور الابيض والعطور وغيرها من ادوات الزينة فاخذت احداهن او بعضهن يحتكن باسنانهن كلس حيطان غرفهن وجمعنه فصبغن به وجوههن ابيض ناصعًا اما الحمرة فعمدت احداهن الى قميصها وهو قميص المستشفى وكان فيه بعض خيوط حمر فاخذت تنسلها حتى اتت عليها ثم وضعتها في اناء وصبت عليها ماء فانحل صباغه فصبغت به وجهها · وقد توصلت احدى مختلات الشعور الى ان صنعت لنفسها مشدًا من اسلاك الحديد تشد به خصرها فكانت تذنب مرات عمدًا حتى تسجن في مكان بعيد عن رفيقاتها وراء حائط من اسلاك الحديد فتنسل كل مرة سلكًا حتى تجمع لها ما ارادت · وقد جرب بعضهم ادخال ثلاثة اصناف من الالبسة الى احدى مستشفيات المجذوبات اعلى واوسط وادنى وقرر ان من كانت منهن حسنة السلوك تعطى الثوب الاعلى فما كان منهن كلهن الا ان حسنّ سلوكهن ليأخذن ثيابًا من النمط الجيد

النساء وان يكن لا يرين في التبرج حرجًا عليهن الا انهن لا يردن ان يقال عنهن متبرجات ويتظاهرن بانهن لا يصرفن في التبرج اوقاتًا كثيرة مع ان اكثر اوقاتهن تصرف في اعداد معدات التبرج وما شأنهن في ذلك الا شأن اولئك الشعراء الذين يحذفون ويثبتون من قصائدهم عشرين مرة ثم يدعون انهم ارتجلوها ارتجالاً · ولطالما تحمل النساء صنوف الاوجاع في سبيل ما يورثهن بهجة ويعددنه من آيات التبرج مثل اولئك الصينيات اللائي يضعن ارجلهن في قوالب خاصة ليصغر حجمها ولكن ذلك يورثهن امراضًا واوصابًا اقلها انهن يمشين قفزًا مشية الكركي الاشل· وكذلك النساء في شبه جزيرة مالقة فانهن يرين من آيات الجمال ان يكون عنق المرأة طويلاً فصنعن لذلك كلابات يضعن فيها رؤوسهن ليورثن بذلك طولاً لاعناقهن حتى تصير كاعناق الزرافة · والنساء الزنجيات في غانية الجديدة وبريطانيا الجديدة في المحيط الكبير يقلعن اسنانهن ليظهرن اكثر جمالاً بزعمهن بل ان النساء في تونس يطعمن الارز ليصبحن كالاوز السمين بحيث لا يستطعن الحركة وكذلك نساء الافرنج يتحملن كل مشقة في سبيل وضع المشد على خصورهن · وعلى كثرة تحذير الاطباء لهن عاقبة ضغط المشد ما برح اكثر النساء يستعملنه ويصبن بامراض الكبد وتشوه الجسم واحيانًا يفضي بهن الى الموت وهن لا ينتهين بل يصبرن على آلام المشد صبر

ايوب علي بلواه و يكدن لا ينفن طول ليلة باسرها وهن مع الرجال في الاندية . كل هذا مما يستدل به على ضبط النساء لهواهن وقمعهن انفسهن

وهنا استنتج بان التبرج مطلوب للنساء وانهن في حل مما يقمن به وانهن كن قبل ستين سنة لا يقرأن ولا يكتبن في اوربا ومع هذا كن يعنين بالتبرج ولهن فيه اساليب اخترعنها وتقلبن فيها بحسب الازمان شأن النساء الموغلات الى اليوم في التوحش من الامم فانك تراهن قد يغيرن اساليب التبرج وان كانت آنيتهن وماعونهن وخرثيهن على الصورة الاصلية . فالتبرج ضروري للاجتماع يورثه بهجة ونشأة ولولا النساء وتبرجهن ما تجات لعينيك البيوت والقصور ذات بهجة فالنساء بتبرجهن يدخلن السرور على القلوب والنظام على الاماكن واذا قارنت بين بيت لا نساء فيه يزدنه بهجة ويزينن غرفه ومقاعده وحوائطه وبين دير ليس فيه الا الضروريات من لوازم الحياة تجد الفرق بين التبرج وعدمه وزينة النساء ونتيجتها مثل الشمس ظاهراً فالتزين والتبرج مطلوبان على كل حال في حياتنا الاجتماعية ولهما نفع عظيم فيها لان فيهما اللذة وسعادة العيش الخصال .

مآكل العظماء ومشاربهم

بحثت المجلة البارزية فيما يأكله العلماء والكتاب وارباب الفنون في انكلترا فقالت ان من صفات الانكليز والانكوسيين والغاليين والايرلانديين ممن تتألف منهم بريطانيا العظمى في الاكثر الثبات وتحمل شدة الهواء فيرون في الاغلب التنزه في الهواء الطلق من الواجبات الصحية مثال ذلك اللورد انبوري المعروف باسم السير جون لوبوك فان قوة جسمه ناشئة عن جمعه الرياضات الطبيعية والسياحة الى الاعتدال والتقلل وقال ان سبب طول حياته عنايته بقواعد فن الحياة فيأكل مآكل بسيطة قليلة ويتناول شيئاً قليلاً جداً من الالكحول او انه يكاد لا يتناولها ولا يدخن وهو مشهور بالسياسة والعلم يتعب كثيراً في اعماله وعمره اربع وسبعون سنة . وقال السير وليام كروكس وهو من كبار العلماء الذين لا ينفكون عن البحث والدرس والتأليف والاختراع وهو الآن في الخامسة والسبعين من عمره انه يأكل بسرور كل ما يستطيبه على المائدة ولكن باعتدال و يشرب الخمر ويدخن وكانت صحته في جميع اطوار حياته جيدة جداً . ومثله في عدم الكلال من العمل فريدريك هاريسون العالم المؤرخ الفيلسوف وهو اليوم في السابعة والسبعين من عمره يقتصر في مأكله على اللحم ولكنه مقلٌ من تناوله كما يأكل البقول والالبان والبيض . قال وارى ان سبب الهرم العاجل الذي يصيب الطبقة العالية الغنية هو مايتناولونه من المآكل لا ما يتناولونه من المشارب ومن بلغوا سن السبعين يجب عليهم ان يقللوا كمية طعامهم الى

النصف مما كانوا يأكلون في فتوتهم . واول قاعدة في الصحة جريت عليها هي ان اخرج من المائدة بدون ان تكون قابليتي للطعام قد سكنت . وانا مسلم من حيث تناول الاشربة الروحية فلا اتناولها طول نهاري اللهم الا في المساء فاني اتناول قدحاً او قدحين من خمر المانيا الابيض او غيره ولكن لا على انه يعين القوى الطبيعية او العقلية . ولا يسعني الا ان امدح الاعتدال في تناول الشاي والقهوة في النهار لا في الليل او المساء . وانا لا ادخن وامقت هذه العادة واعدها مما يتقزز منه و يضر بالحاضرين . فالتدخين كاستعمال السعوط والسكر وحلف الأيمانات كلها من العادات الفاسدة الضارة . وانا اعرف كثيراً من الناس اثرت في صحتهم عادة استعمال التدخين . انا اليوم في السابعة والسبعين من عمري لم امرض في حياتي منذ كنت في التاسعة وقد اصبت بالحميراء وما قط عزفت نفسي عن العمل والكتابة فانا اليوم اقدم المفروض عليَّ للمطابع من الكتابة بنشاط اكثر من نشاطي ايام حياتي الماضية وعندي ان طول حياتي كان لتقللي وعنايتي بالرياضة كل يوم في الهواء الطلق وربما صعدت الجبل اذا اتسع لي الوقت وما قط تعبت من العمل ولا عملت بدون سرور . وقال الكونت روبرتس وهو الآن في السادسة والسبعين خدم الجندية وقاسى الاهوال في حياته واكل الجشب وشرب العكر وتعرض للملاريا والامراض وحضر حصار المدن ومعاركة الابطال ومع هذا فهو في اجود صحة : ان سبب طول حبل اجله ناشئ من انه يدخن قليلاً اولا يدخن وانه يأكل و يشرب بالاعتدال . والسير وليام ميكايل روزتي هو الآن في التاسعة والسبعين من عمره عالم واديب سُئل عن القواعد التي يراها لدوام الصحة فقال ان الاعتدال في مأكله ومشربه هو سبب صحته وقد اعتدت التدخين منذ صباي وانا اعد مكثراً منه وارى انه يشوش عليَّ الهضم في الاحايين ولكني لست مصاباً بسوء الهضم وقال السير شارل ستانلي وهو من كبار الممثلين والمغنين وعمره الآن ٧٤ سنة انه يأكل كل ما يشتهي و يشرب و يدخن كذلك ولكن باعتدال . وقال المستر جورج برنارشواف وهو في الثانية والخمسين من عمره خطيب كاتب اديب ناقد قصصي وهو ممن يركب الدراجات ويعاني السياحات والسباحات : اني لم اتناول اللحم منذ ٢٧ سنة واني لااشرب الالكحول وارى انها ضارة في ارباب الاقلام فهي ليست مقوية على العمل بل مخدرة وشاربها لا يُفتح عليه بالافكار بل يضيع منها اما التدخين فلا اتعاطاه واراه قذراً . وترى العقيلة الين تري الممثلة وهي الآن في الستين ولكنها اذا ظهرت على محل التمثيل فلا تظن الا انها في السابعة عشرة من عمرها ان احسن قاعدة للصحة ان يأكل الانسان في اوقات معينة قالت حاولت ان انقطع مرة عن اللحوم فضعف جسمي بعد شهر ثم حاولت مرة

ان امتنع عنها فلم اقدر فظهرت لي صحة ما يقال من ان ما ينفع واحداً قد يكون سماً لغيره ولا اتناول مشروباً على الطعام وانا على ثقة من ان الماء احسن شراب ولكنني اشرب كمية قليلة من الخمر والويسكي على انني اراها اضر على الانسان من طبخة مملوءة بالخرطوش في ايدي اناس لا يحسنون ان يضبطوا انفسهم ولا ادخن وان حاولت التدخين. وقال الاستاذ الفرد روسل والاس وهو من ابناء التسعين وخصيم داروين في مذهب النشوء اشتغل بمذهب الانتخاب الطبيعي والجغرافية الجيولوجية وبحث في المادة والصحة الاجتماعية والتنويم المغناطيسي فقال انه الى السبعين من سنه كان يأكل كما يهوى وكان هضمه جيداً ثم ضعف هضمه فاضطر ان يغير نظام طعامه ويقلل من كميته فانقى بذلك مرض الربو المزمن وكان لاول امره يشرب المشروبات الروحية باعتدال وفي الخامسة والعشرين من عمره امتنع عنها كل الامتناع فجادت صحته وقال ان التجارب والنظر دلته على ان المرء اذا قرب ان يشيخ ينبغي له ان يمتنع عن الالكحول كل الامتناع لانها تضر به لا محالة وان يقلل من الطعام وانا اتناول الشاي والقهوة واحسن اوقات عملي في الصباح والمساء بعد ان اتناول كأساً من الشاي ومدة صباي لم ادخن قرفت من التدخين لما رأيت من سوء اثره في المدخن .

نوم النباتات ويقظتها

يختلف ميعاد نوم النباتات بحسب اجناسها فاللبلاب الاحمر يفتح عند الغسق ونبات زهر الربيع يزهر في الشمس عند مغيبها وازهار النوفر (عرائس النيل) تطبق زهراتها الملونة في آخر النهار وتغوص في الماء من الليل .

الثقاب في يابان

يشتغل في صنع الثقاب او الكبريت في بلاد اليابان ١٣٠ الف نسمة فتصدر يابان منه بما قيمته ستة وعشرون مليوناً وربع مليون فرنك هذا مع ان المواد الاولية لصنعه لا توجد في يابان ومع تشدد اليابانيين في ان لا يوقدوا المصابيح التي يوقدونها لاجدادهم الا من شعلة نار صافية ما برح استعمال الثقاب يزداد في الاستعمال بين اليابانيين .

الممثلون في اميركا

يشكو الممثلون في اوربا من قلة ارباحهم بالنسبة للممثلين في اميركا فان كاروزو يتناول خمسمائة الف فرنك لتمثيل ثماني ليال واكثر من مائتي الف فرنك لاغان تغنى امام آلة الغراموفون ومثل ذلك في الليالي الخاصة ثم انه يأخذ في الاسبوع ربع مليون فرنك لنفقته الخاصة في الفندق والمطعم ويربح الممثل بادرفسكي في كل شتاء ٦٢٥ الفاً وكوبليك

نصف مليون و بالنظر لكثرة المتفرجين في اميركا ولغلاء اجور التمثيل فالليلة تربح في العالم الجديد عشرة اضعاف ما تربح في العالم القديم ·

تفاحة هائلة

عرف علماء النبات اكبر شجرة تفاح في العالم وهي في شسهير من ولاية كننكيت في اميركا الشمالية غلظها خمسة امتار وعلوها خمسة وعشرون مترًا وعمرها مائتا سنة وهي تعطي اثنين وخمسين هيكتولترًا من الثمر في السنة وخمسة من اغصانها تعطي ثمرًا سنة واحدة والثلاثة الاغصان الباقية تعطي في السنة التالية الا ان تفاحها صغير ويكاد يكون خاليًا من طعم ·

سمن قديم

عثر اثناء الحفر في احدى المحافر في ايرلاندا على عدة اواق من السمن تبين بالفحص انه قديم جدًا ظاهره ابيض وكأن فيه حبوب و باطنه استحال كتلة شمعية وان ما وجد ثمَّ من جلود البقر ازال كل شك في ان السمن اصلي لا شائبة فيه ·

اطباء يابان

راجت صناعة الطب في يابان واي رواج فبينا تجد في فرنسا وهي عش الاطباء خمسين طبيبًا لكل مئة الف نسمة ترى في يابان تسعين طبيبًا لكل مئة الف وقد زاد اطباء يابان في سنة ١٩٠٧ وحدها ٧٥٠ طبيبًا ·

وقف على العلم

وقف حسن بك زايد من سراة مصر زهاء خمسين فدانًا من اجود اطيانه في المنوفية على مشروع الجامعة المصرية · وهذه الاطيان تساوي احد عشر الف جنيه بارك الله بمانحها واكثر فينا من امثاله ·

هبة محمودة

تبرع احد محسني الاجانب في مصر بخمسمائة جنيه للجمعية الخيرية الاسلامية ولم يحب ان يذكر اسمه مثل الذي كان تبرع لها في السنة الماضية بخمسة آلاف جنيه ولم يحب ان يذكر اسمه ·

مدرسة صناعية بالفيوم

نجز بناء مدرسة صناعية للبنين في الفيوم كلفت عشرة آلاف جنيه جمعها الاهلون ومنها الف جنيه اعانة من الاوقاف ومدة الدراسة فيها ست سنين ثلاث للقسم العلمي

وثلاث للصناعي والصنائع التي تعلم فيها النقش والنجارة والبرادة والخراطة والحدادة والسروجية وستدفع المعارف ٨٥٠ جنيهاً اعانة سنوية لادارتها و يدفع الاهلون ٣٥٠ جنيهاً لهذا الغرض

مناجم البترول

مناجم البترول كمناجم الفحم الحجري آخذة بالنضوب شيئاً فشيئاً فقد نزل معدل ما يستخرج من مناجم ابالاش واوهيو وفيرجينا والتكساس ولوزيانا في الولايات المتحدة كما قلَّ معدله في غاليسيا من بلاد النمسا وكذلك الحال في القافقاس من بلاد الروس فان ما يستخرج منه نزل الى ثلث ما كان يستخرج منه بادىء بدء

الياف الخشب

أخذوا ينسجون من الياف الخشب نسيجاً يقوم مقام القطن والكتان و يكلف اقلَّ منهما في الثمن بل اقل من الحرير كما اخذوا ينسجون قماشاً اشبه بالصوف من بعض مواد يمزجونها بماء البحر ·

الزرنيخ والحمى

اثبت احد الاخصائيين من الاطباء ان الزرنيخ هو الدواء الوحيد الذي يقي من الحمى الصفراء فقال ان الفي شخص في اورليان الجديدة استعملوا الزرنيخ سنة ١٩٠٥ فنجوا كلهم من هذه الحمى الخبيثة وهم معرضون للعدوى من كل جانب

مجهر جديد

اخترع مجهر (ميكروسكوب) جديد ترى فيه ادق الدقائق بحيث يكون الانتفاع به ضعفي المجهر الحالي فبه ترى كيف تكبر الجراثيم وكيف تسير العدوى وكيف يسري اللقاح في الجسم ·

التصوير البارز

اخترع احدهم طريقة للتصوير الشمسي البارز و يقولون انها ستكون داعية لتغيير التصوير ظهراً لبطن الا ان الصور التي ترسم على هذا النحو لا تصور الطبيعة في منظرها الحقيقي كله

عداد جديد

كان باسكال اول من اخترع العداد وما زال المشتغلون متوفرين على تحسينه وآخر عداد اخترع كان لمهندس رومي ظهرت فوائده العديدة لانه يمد من الارقام من عشرة الى عشرين في وقت واحد ولا يحصل فيه خطأ ولا يتعب عقل المشتغل به

القطط والكلاب

اخذت المحاجر الصحية منذ مدة تتوفر على ابادة الجرذان والفيران في السفن لانه تبين انها ناقلة لعدوى الاوبئة للبشر وقد انتبه احد اطباء نيو يورك الى الاضرار التي تلحق من القطط والكلاب بنقلها في وبرها بعض الجراثيم والديدان التي تجلب الضرر على الصحة واورد على ذلك عدة ادلة منها انه حدث سنة ١٨٨٧ وباء كبير بين القطط في لندرافكان القط يحمل الى اخيه العدوى وبالتالي تسري الى الاولاد الذين يلعبون مع تلك القطط وحدث في سنة ١٩٠١ ان الطاعون اشتد في الاسكندرية وما كانت جراثيمه تنتقل اولا من ملاح الى ملاح على الباخرة الا بواسطة قط كانوا يدللونه ويحبونه . وترى بعض الامم المتمدنة الآن لم تعدل عن حب القطط والكلاب حباً بالتوقي وحرصاً على الصحة وقد بدأت المانيا فحظرت دخول الكلاب والقطط الى الصيدليات وياحبذا لو حظر دخولها الى المجازر والمخابز والصيدليات والمطاعم

بطائح اميركا

ستوافق حكومة الولايات المتحدة على تجفيف البطائح في ولاياتها فيكون منها من الارض القابلة للزراعة ما يكفي لاعالة اثني عشر مليونا من النفوس على ان يكون لكل واحد منهم ستة عشر هكتاراً من الارض وتساوي هذه الاطيان ملياراً من الجنيهات ويستلزم ذلك انفاق عشرة ملايين فرنك

حفظ المخطوطات

بعد ان احترقت مكتبة تورين في ايطاليا وذهبت فيها الوف من المخطوطات النادرة اخذ اهل العلم في اوربا واميركا يفكرون في طريقة لحفظ المخطوطات لانها تكون في الغالب غير متعددة فاذا وجد في احدى المكاتب مخطوط يعد في نظر العلماء كنزاً لانه لامثيل له وقد ارتأى بعضهم في نقل صورة من كل مخطوط نادر تطابق الاصل بشكلها وخطها الا ان هذا العمل يحتاج الى نفقات طائلة وتقدم المستر غولي الى حكومة الولايات المتحدة مؤخرا ان يجعل مصفحات (كليشهات) المخطوطات وامهات الطوابع والنقود في مكان واحد وان يجعل منها مسودات (بروفات) يتناولها العلماء ويستعيرونها للاستفادة منها لقاء ثمن بخس والغالب ان مكاتب اوربا تضطر بعد حين الى الجري على هذه الطريقة لحفظ الكتب النادرة .

مرض جديد

اكتشف مرض فى افريقية جديد اسمه البالري La Baleri يشبه النوام اي مرض النوم وهو عبارة عن نقاعيات تصيب الحيوانات كالخيل والكلاب والحمير والقطط والخنازير فيصاب الحيوان بنزلة في انفه واذنه فيضعف في الحال . و يشتد هذا المرض بالقرب من الانهار بحيث لايتيسر تربية هذه الحيوانات الا على بعد خمسة عشر كيلو مترا عن المياه ولم يجدوا له حتى الآن دواء

سرعة البواخر

تتبارى كل من انكلترا والمانيا والولايات المتحدة في سرعة البواخر والبوارج التي تنشئها كل واحدة منهن بحيث يتساءل العارفون قائلين : اما لهذه المباراة في السرعة من حد نقف عنده . اما زيادة السرعة فلا تتأتى الا بزيادة القوة المحركة فان قطع اثنتي عشرة عقدة وحمل ستة عشر الف طن تقتضي قوة ٤٥٠٠ حصان وسرعة خمس عشرة عقدة تقتضي قوة ٨٧٠٠ حصان و ٢٠ عقدة يلزم لها ٢٠٠٠٠ و ٢٢ عقدة يقتضي لها ٢٥٠٠٠ وهكذا يزيد معدل الانفاق زيادة هائلة

آلة للكتابة

اخترع احدهم آلة سماها الستينوتبيا La sténotypie وهي تنقل الكلام بدون استعمال اشارات الاختزال المعروفة وهذه الطريقة تلغي عدة آلات اخترعت من هذا القبيل لنقل الكلام فيقرأ الانسان الكلام فيها بسرعة كأنه يقرأ املاء صحيحا او طبعا حجريا عاديًا

خسائر مصر

فقدت مصر في الاشهر الثلاثة الاخيرة ثلاثة رجال كان لهم أثرهم في الخطابة والكتابة والتأثير وهم ابراهيم بك اللقاني ومصطفى باشا كامل وقاسم بك امين

زوجان معمران

احتفل في احدى قرى بلاد المجر بمرور مئة سنة على زواج رجل عمره الآن ١٢٦ سنة وامرأة عمرها ١١٦ سنة وقد بلغ عدد اولادهما واحفادهما واحفاد احفادهما ٢١٢ نفساً وهنأهما الامبراطور فرنسيس يوسف بعيدهما المئوي .

الكلاب والكلب

احصيت الكلاب في باريز وضاحيتها فكان عددها ١٦٣٣٥٢ كلباً اصيب بالكلب منها ٣٠ عضت ٢٠٨ اشخاص لم يمت منهم احد وبذلك ثبت ان العضات البشرية تشفى باقل سرعة مما تشفى عضة الكلاب ·

اشجار اميركا

قدروا انه لا تمضي خمسون سنة حتى لا يبقى في اميركا الشمالية صقع مشجر لان المقطوع منها يربي على المغروس فمعدل النمو ٢٣ ونصف في المئة ومعدل النقص ٩٤ في المئة وبعد خمس وعشرين سنة يفنى الصنوبر الاصفر ذو الورق الطويل كل ذلك لما تقتضيه الصناعة هناك من الاخشاب ·

الحمى التيفوئيدية

كان الاطباء يقولون ان اغلاء الماء قبل شربه خير واق من الحميات والاوبئة الا ان ابحاث اللجنة الصحية في نيويورك ادت الى ان الحمى التيفوئيدية فيها قد انتشرت في الناس بواسطة الذباب اذ ثبت ان ظهور الذباب يسبق انتشار هذه الحمى كل سنة بايام قلائل وثبت لديها ان هذا المرض الخبيث يكثر حيث يكثر الذباب في المستودعات البحرية الكبرى وعلى الارصفة ورأت بالمجهر (الميكروسكوب) على رجل كل ذبابة وفمها الوفاً من الجراثيم الخبيثة فاذا زارت ذبابة وجهك او طعامك ولو قليلاً تترك فيه اثراً لها وذكرى سيئة وتبقى جرثومة معدية تتبعها حمى مهلكة ·

الجراد في افريقية

ذهب احد الانكليز في افريقية الجنوبية الى بعض الاماكن التي انتشر فيها الجراد انتشاراً هائلاً فعمي عليه طريقه ولم يعد يعرف اين يذهب وقد حسب الجراد الذي سقط على ساق شجرة واحدة فكان خمسمائة جرادة فاذا انتشر الجراد في قطر بهذه الكثرة لا ينقضي نصف نهار حتى يجرد جميع غلاتها وثمراتها ويجعل حاصلاتها وخيراتها اثراً بعد عين ·

مدرسة للامهات

أسس بعض اعيان الانكليز واطبائهم لجنة ناطوا بها تعليم الامهات الفقيرات اللاتي لم يسعدهن الحظ ان يتعلمن في صغرهن ما ينفعهن في كبرهن · والتعليم الذي يعلمنه تعليم عملي يلقى عليهن خطباً تدور على تربية الاطفال وحفظ الصحة وتدبير المنزل وتفصيل ثياب

ازواجهن بحيث تصلح ليلبسها ابناؤهن ثم ان الآباء يذهبون ايضاً الى تلك المدارس مرة في الاسبوع وتلقى عليهم دروس تنفعهم وتنفع ذويهم كالتي تلقى على ازواجهم وقد اسفرت هذه المدارس عن نفع عظيم في التربية وقلت من الوفيات بين الاطفال ويفكر رجال الانكليز ان يكثروا من هذه المدارس في جميع اصقاع انكلترا

صحافة المانيا واميركا

بلغت الصحافة في المانيا ارقى درجات الارتقاء ففيها بحسب احصاء اخير ٨٦٦٨ جريدة ومجلة منها ٢٨٩٤ صحيفة تنشر باللغات الاجنبية واقدم جريدة في المانيا هي جريدة فرنكفورت أُنشئت سنة ١٦١٥ وجريدة ماكوبورغ أُنشئت سنة ١٦٢٦ . ويعجب المراقبون للحركة الاجتماعية اليوم من ارتقاء الصحافة الاسبوعية في الولايات المتحدة وهي الجرائد التي تصدر ايام الآحاد فان ما تطبعه كل واحدة منها يختلف من نصف مليون نسخة الى مليون وفي نيويورك وحدها من هذا الضرب من الجرائد ١٥ جريدة وفي فيلادلفيا ١١ ومثلها في شيكاغو وهي من احسن المجلات في الحقيقة لانها تصدر في مئة صفحة وتحتوي على اربعين صفحة اعلانات والباقي مواد علمية واقتصادية واجتماعية وسياسية وادبية وغيرها من كل ما يرقي العقل ويهدي السبيل

محاكم الاطفال

تألفت في بروسيا لجان لحماية الاطفال تقوم بوظيفة مستنطق وهي مؤلفة من اساتذة وقسس فاذا ارتكب طفل ذنباً تنظر في جرمه لتحقق فيما اذا كان ارتكبه عن جهل او خبث فاذا رأته مسؤلا عما جنت يداه تحيله الى المحاكم واذا كان ارتكب ما ارتكب بدون تمييز ترسله الى الاصلاحية على ان حكومة المانيا تفكر في انشاء محاكم نظامية للاطفال

الالكحول والجرائم

ثبت لاحد قضاة فرنسا ان الجرائم تزيد في اكثر مقاطعاتها على نسبة ازدياد المشروبات الروحية وان معدل السن التي كانت ترتكب فيها الجرائم كان ثلاثين فاصبح اليوم عشرين سنة وان عدد الانتحار يزيد وان كثرة الجنون زادت زيادة هائلة فكان منذ خمسين سنة في فرنسا ٣٢ مختل الشعور في كل مئة الف ساكن فاصبح سنة ١٩٠٥ — ١٤٢ بل بلغ في بعض المقاطعات ٢٣٤ والسبب في ذلك انه كان في فرنسا خمارة واحدة لكل ١١٣ ساكناً سنة ١٨٨٠ فاصبح فيها هذه السنة خمارة لكل ٧٨ شخصاً

المقتبس

الجزء الخامس من المجلد الثالث

جمادى الاولى سنة ١٣٢٦ موافق يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٨

رسالة عبد الحميد الكاتب

في نصيحة ولي العهد

قال ابوالفضل احمد بن ابي طاهر في كتابه المنثور والمنظوم ومن الرسائل المفردات رسالة عبدالحميد بن يحيى الى عبدالله بن مروان حين وجه لمحاربة الضحاك الخارجي (١) في تعبية الحروب فانه يقال انها لا مثل لها في معناها : (٢)

(١) هو الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي كان له شأن في اواخر الدولة الأموية في الكوفة وواسط خرج سنة سبع وعشرين ومائة واستولى على الموصل وكورها قال ابن الاثير في حوادث سنة ثمان وعشرين ومائة و بلغ مروان خبره وهو محاصر حمص مشتغل بقتال اهلها فكتب الى ابنه عبدالله وهو خليفته بالجزيرة يأمره ان يسير الى نصيبين فيمن معه يمنع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار اليها في سبعة آلاف او ثمانية آلاف وسار الضحاك الى نصيبين فحصر عبدالله فيها وكان مع الضحاك ما يزيد على مائة الف ثم ان مروان سار الى الضحاك فالتقوا بنواحي كفرتوثا من اعمال ماردين فقاتله يومه اجمع فاحدقت بالضحاك واصحابه خيول مروان والحوا عليهم في القتال حتى قتلوهم . فلهذا ولكثرة ظهور الخوارج على الامويين في آخر امرهم دعت مروان الى ان يكتب الى ابنه بهذه الرسالة من انشاء كاتبه عبدالحميد والدهشة بادية على سطورها من امر الضحاك وجنده

(٢) نشرنا هذه الرسالة على ما فيها من التجريف حرصاً على فوائدها الظاهرة محافظين

اما بعد فان امير المؤمنين عند ما اعتزم عليه من توجيهك الى عدو الله الجاف الجافي الاعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة ومهاوي الهلكة ورعاعه الذين عاثوا في الارض فسادا وانتهكوا حرمه استخفافا وبدلوا نعم الله كفرا واستحلوا دماء اهل سلمه جهلا احب ان يعهد اليك في لطائف امورك وعوام شؤونك ودخائل احوالك ومضطر تنقلك عهداً يحملك فيه ادبه ويشرع لك عظته وان كنت والحمد لله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لحمتك وبني ابيك

ولولا ما امر الله به دالا عليه بتقدمة المعرفة لمن كانوا اولي سابقة في (الدين) وخصيصي(١) في العلم لاعتمد امير المؤمنين منك على اصطناع الله اياك بما يراك اهله في محلك من امير المؤمنين وسبقك الى رغائب اخلاقه وانتزاعك محمود شيمه واستيلائك على تشابه تدبيره .

ولو كان المؤدبون اخذوا العلم من عند انفسهم ولقنوه الهاما من تلقائهم ولم يتعلموا شيئًا من عند غيرهم لنحلناهم علم الغيب ووضعناهم بمنزلة خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته وفردانيته في الاهيته واحتجاجًا (؟) منهم لتعقب في حكمه وتثبت في سلطانه وتنفيذ ارادته على سابق مشيئته ولكن العالم الموفق للخير المخصوص بالفضل المحبوّ بمزية العلم ادركه معادًا عليه بلطيف بحثه واذلال كنفه وصحة فهمه وهجر سآمته .

وقد تقدم امير المؤمنين اليك اخذًا بالحجة عليك مؤديا حق الله الواجب عليه في ارشادك وقضاء حقك وما ينظر الوالد المعنيّ الشفيق لولده . وامير المؤمنين يرجو ان ينزهك الله عن كل شيء قبيح يهش له طمع وان يعصمك من كل مكروه حاق باحد وان يحصنك من كل آفة استولت على امريء في دين او خلق وان يبلغه فيك احسن ما لم يزل يعوده ويريه من آثار نعمة سامية بك الى ذروة الشرف ومبجحة لك ببسطة الكرم لائحة بك في ازهر معالي الادب . والله استخلف عليك واسأله حياطتك وان يعصمك من زيغ الهوى ويحضرك دواعي التوفيق معانًا على الارشاد فيه فانه لا يعين على الخير ولا يوفق له الا هو

اعلم ان للحكمة مسالك تفضي مضايق اوائلها بمن أمها سالكاً وركب خبارها قاصدًا

على عباراتها ولم نصحح منها الا ما كان من قبيل الاشياء الظاهرة وابقينا سائرها على ما وجدناه فعسى ان يعثر احد على نسخة اخرى فيصحح ما تعذر علينا تصحيحه وقد اشرنا الى محالّ الاشكال منها بعلامة استفهام وفسرنا المبهم من الفاظها

(١) يقال خصه بالشيء خصاً وخصوصاً وخصوصية وخصيصي (بالفتح والقصر ويمد) وخصية وتخصة فضله ولا نظير لها الا المكيثى

الى سعة عاقبتها وأمن سرحها وشرف عزها وانها لا تعاف بسخف الخفة ولا تنسى بتفريط الغفلة ولا يتعدى فيها بامن حد(؟) . وقد تلقتك اخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها من غير تعب البحث في ادراكها ولا متطاول المنال لذروتها بل تأثلت (١) منها اكرم معانيها واستخلصت منها اعتق جواهرها ثم سمرت الى لباب مصاصها واحرزت منفس (٢) ذخائرها فافاقهد ما احرزت ونافس فيما اصبت .

واعلم ان احتواءك على ذلك وسبقك اليه باخلاص تقوى الله في جميع امورك مؤثرا لها واصطبارك على طاعته واعظام ما انعم به عليك شاكرا لها مرتبطا للمزيد بحسن الخياطة له والذب عنه ان تدخلك منه سآمة ملال او غفلة او ضياع او سنة تهاون او جهالة معرفة فان ذلك احق ما بدىء به ونظر فيه معتمدا عليه من القوة والآلة والانفراد من الاصحاب والحامة (٣) فتمسك به لاجئا اليه واعتمد عليه مؤثرا له والتجئ الى كنفه متحرزا به انه ابلغ ما طلب به رضا الله وانجحه مسألة واجزله ثوابا واعوده سعيا واعمه صلاحا وارشدك الله لحظك وفهمك سداده واخذ بقلبك الى محموده .

ثم اجعل لله في كل صباح بنعم عليك ببلوغه و يظهر منك السلامة في اشراقه من نفسك نصيبا تجعله لله شكرا على ابلاغه اياك يومك ذلك بصحة وعافية بدن وسبوغ نعم وظهور كرامة وان تقرأ من كتاب الله عز وجل جزأ تردد رأيك في ادبه وتزين لفظك بقراءته ويحضره عقلك ناظرا في محكمه وتفهمه متفكرا في متشابهه فان فيه شفاء القلوب من امراضها وجلاء وساوس الشيطان وسفاسفه وضياء معالم النور تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك فانه مغلاق الحسنات ومفتاح السيئات

واعلم ان كل اعدائك لك عدو يحاول هلكتك و يعترض غفلتك لانها خدع ابليس وحبائل مكره ومصائد مكيدته فاحذرها مجانبا وتوقها محترسا منها واستعذ بالله من شرها وجاهدها اذا تناصرت (٤) عليك بعزم صادق لا ونية فيه وحزم نافذ لا مثنوية (٥) لرأيك بعد اصداره عليك وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه ومضاءة صارمة لا اناة معها ونية صحيحة لا خلجة (٦) شك فيها فان ذلك ظهري (٧) صدق لك على ردها عنك وقطعها دون ما تتطلع اليه منك وهي واقية لك سخطة ربك داعية لك رضا العامة سائرة عليك عيب من دونك فازدن به ملتحفا واصب باخلاقك مواضعها الحميدة منها وتوق عليها التي تقطعك عن

---

(١) اكتسبت وجمعت (٢) شيء نفيس ومنفوس ومنفس كمخرج اذا كان يتنافس فيه (٣) الاقارب (٤) تناصرت الاخبار صدق بعضها بعضا (٥) استثناء (٦) اضطراب (٧) الظهري ما يجعله المرء عدة له عند مس الحاجة اليه

بلوغها و تقصر بك عن ساميها فحاول بلوغ غايته محرزاً لها بسبق الطلب الى اصابة الموضع محصناً لاعمالك من العجب فانه رأس الهوى واول الغواية ومقاد الهلكة حارساً اخلاقك من الآفات المتصلة بمساويء العادات وذميم ايثارها من حيث اتت الغفلة وانتشر الضياع ودخل الوهن فتوقّ الآفات على عقلك فان شواهد الحق ستظهر بامارتها تصديق رأيك عند ذوي النهى وحالَ الرأي وفحص النظر . فاجتلب لنفسك محمود الذكر و باقي لسان الصدق بالحذر لما نقدم اليك فيه امير المؤمنين متحرزاً امن دخول الآفات عليك من حيث امنك وقلة ثقتك بحكمها .

ومنها ان تملك امورك بالقصد وتصون سرك بالكتمان وتداري جندك بالانصاف وتذلل نفسك للعدل وتحصن عيوبك بتقويم اودك . وأناتك فوقها الملال وفوت العمل ومصابك فدرعها (؟) رؤية النظر واكنفها بأناة الحلم وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة وصمتك فانف عنه عيّ اللفظ وخف فيه سوء القالة (١) واستماعك فأرعه (٢) حسن التفهم وقوّه باشهاد الفكر . وعطاءك فامهد له(٣) بيوتات الشرف وذوي الحسب وتحرز فيه من السرف . وحياءك فامنعه من الخجل وحلمك فزعه عن التهاون وأحضره قوة الشكيمة(٤) وعقوبتك فقصر بها عن الافراط وتعمد بها اهل الاستحقاق . وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق وخذ به واجب المفترض واقم به أود الدين . واستئناسك فامنع منه البذاءة وسوء المنافثة وتعهدك امورك فخذه اوقاتا وقدّره ساعات لا يستفرغ قوتك و يستدعي سآمتك . وعزمتك فانف عنها عجلة الرأي ولجاجة الاقدام . وفرحاتك فاشكمها عن البطر وقيدها عن الزهو . وروعاتك فحطها من دهش الرأي واستسلام الخضوع وحذارتك (فاصرفها) عن الجبن واعمد بها للحزم و رجاءك فقيده بخوف الفائت وامنعه من أمن الطلب

هذه جوامع دخائل النقص منها واصل الى العقل بلطائف الله وتصاريف حوله فأحكمها عارفاً وتقدم في الحفظ لها معتزماً على الاخذ براشدها والانتهاء منها الى حيث بلغت بك عظة امير المؤمنين وادبه ان شاء الله

ثم ليكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك ودخلاؤك في سرك اهل الفقه والورع من اهل بيتك وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الامور وخبطته فصالها بين قرائن البزل (٥) وقلبته الامور في فنونها وركب اطوارها عارفاً بمحاسن الامور ومواضع الرأي مأمون النصيحة مطويّ الضمير على الطاعة

---

(١) يطلق القول في الخير والقال والقيل والقالة في الشر (٢) يقال ارعني سمعك و راعني سمعك استمع لمقالي (٣) نهد الهدية عظمها واضخمها (٤) الشكيمة قوة القلب (٥) البازل في الاصل البعير اذا ظهر نابه ومن المجاز البازل للرجل الكامل في تجربته تشبيهاً بالبعير البازل

ثم أحضرهم من نفسك وقاراً تستدعي منهم بك الهيبة واستئناساً يعطف اليك منهم بالمودة وانصافاً يفل اقاصيهم منك عما تكره ان ينتشر عنك من سخافة الرأي و يقطعك دون الفكر ·

وتعلم ان خلوت بسر فالقيت دونه ستورك وأغلقت عليه ابوابك فذلك لا محالة مكشوف للعامة ظاهر عنك وان استترت بما ولعل وما أرى اذاعة ذلك · فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن فتقدم في احكام ذلك من نفسك وسد خلله عنك فانه ليس احد اسرع اليه سوء القالة ولغط العامة بخير او شر ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي اصبحت به من دين الله والامل المرجوّ المنتظر · واياك ان يغمز (١) فيك احد من عامتك و بطانة خدمك بضعفة يجد بها مساغاً الى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه ولا تخلو من لائمته ولا تأمن سوء القالة فيه ان نجم ظاهراً وعلن بادياً ولن يجترؤا علي تلك عندك الا ان يروا منك اصغاء اليها وقبولا لها وترخيصاً بها

ثم اياك ان يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التي يستخف بها اهل البطالة و يتسرع نحوها ذوو الجهالة و يجد فيها اهل الحسد مقالا لعيب يرفعونه ولطعن في حق يجحدونه مع ما في ذلك من نقص الرأي ودَرَن العرض وهدم الشرف وتأثيل الغفلة وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كمون النار في الحجر الصلد فاذا قدح لاح شرره ولهب في وميضه ووقد تضرمه · وليست في احد اقوى سطوة واظهر توقداً واعلي كمونا واسرع اليه بالعيب منها الى من كان في سنك من أغفال الرجال وذوي العنفوان في الحداثة الذين لم يقع عليهم سمات الامور ناطقاً عليهم لائحها ظاهراً عليهم وسمها ولم تمحضهم شهامتها مظهرة للعامة فضلهم مذيعة حسن الذكر عنهم ولم يبلغ بهم الصمت في الحركة مستمعات (؟) يدفعون به عن انفسهم نواطق السن اهل البغي ومواد ابصار اهل الحسد ·

ثم تعهد من نفسك لطيف عيب لازم لكثير من اهل السلطان والقدرة من اقطار (؟) الذرع ونخوة التيه فانها تسرع بهم الى فساد رأيهم وتهجين عقولهم في مواطن جمة منها قلة اقتدارهم على ضبط انفسهم في مواكبهم ومسايرتهم العامة · فمن مقلقل شخصه يكثر الالتفات تزدهيه الخفة و يبطره اجلاب (٢) لرجال حوله · ومن مقبل في موكبه على

(١) اغمز في فلان اذا عابه واستضعفه وصغر شأنه والجمع بزل كركع وكتب

(٢) الجلب اختلاط الاصوات كالجلبة واجلبوا وجلبوا فعلان من الجلب بمعنى الصياح وجماعة الناس

مداعبة مسايره بالمصاحبة له والتضاحك اليه والايجاف في السير مهمرجاً (١) وتحريك الجوارح مستسرعاً يخال له ان ذلك اسرع له واخف لمطيته فتحسن في ذلك هيئتك وتجمل فيه رعيتك وليقلّ على مسائلك اقبالك الا وانت مطرق النظر غير ملتفت الى محدث ولا مقبل عليه بوجهك في موكبك تحادثه ولا تخفّ في السير تقلقلُ جوارحك بالتحريك . فان حسن مسايرة الوالي وابتداءه في تلك من حاله دليل على كثير من غيوب امره ومستتر احواله

واعلم ان اقواماً سيسرعون اليك بالسعاية ويأتونك من قبل النصيحة ويستميلونك باظهار الشفقة ويستدعونك بالاغراء والشبهة ويوطئونك عشوة (٢) الحيرة ليجعلوك لهم ذريعة الى استئكال (٣) العامة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة او اسرعوا بك في امره الى الظنة فلا يصلن الى مشافهتك ساع بشبهة ولا معروف بتهمة ولا منسوب الى بدعة فيعرضك لابتداع في دينك ويحملك على رعيتك ما لا حقيقة فيه ويحملك على اعراض قوم لاعلم لك بدخلهم الا بما اقدم به عليهم ساعياً واظهر لك منهم متنصحا .

وليكن صاحب شرطك ومن احببت ان يتولى ذلك من قوادك اليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لاولئك والمستمع لاقاويلهم والفاحص عن نصائحهم ثم لينه ذلك اليك على ما يرتفع اليه منه لتأمره بامرك فيه وتقفه (٤) على رأيك من غير ان يظهر ذلك للعامة فان كان صوابا نالتك حظوته وان كان خطأ اقدم به جاهل او فرطة يسعى بها كاذب فنالت الباغي منها او المظلوم عقوبة وبدر من واليك اليه نكال لم يعصب (٥) ذلك الخطأ بك ولم تنسب الى تفريطه وخلوت من موضع الذم فيه

فافهم ذلك وتقدم الى من تولى فلا يقدم على شيء ناظراً فيه ولا يحاول اخذ احد طارقاً له ولا يعاقب احداً منكلاً به ولا يخل سبيل احد صافحاً عنه لاظهار براءته وصحة طريقته حتى يرفع اليك امره وينهي اليك قضيته على جهة الصدق ومنحى الحق .

فان رأيت عليه سبيلاً لحبس او مجازاً لعقوبة امرته فتولى ذلك من غير ادخال له

---

(١) الهمرجة الخفة والسرعة وغلط الناس والاختلاط في المشي والهملجة سير الدابة في سرعة وبخترة (٢) العشوة الظلمة كالعشواء وركب فلان العشواء اذا خبط في امره (٣) من قولهم استأكل الضعفاء اذا اخذ اموالهم (٤) وقف يتعدى بنفسه قال تعالى وقفوهم انهم مسؤلون اما وقفته توقيفاً واوقفته ايقافاً فقد انكره الجمهور وقالوا انهما غير مسموعين او غير فصيحين (٥) يعصب يقرن

عليك ولا مشافهة منك له فكان المتولي لذلك ولم يجر على يدك مكروه ولا غلظ عقوبة وان وجدت الى العفو عنه سبيلاً وكان مما قرف به خلياً كنت انت المتولي للانعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه باطلاق اسره فتوليت أجر ذلك وذخره ونطق لسانه بشكرك فقرنت خصلتين ثواب الله في الآخرة ومحمود الذكر في العاجلة ·

ثم اياك وان يصل اليك احد من جندك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك اوحاجة يبدهك (١) بطلبها حتى يرفعها قبلُ الى كاتبك الذي اهدفته لذلك ونصبته له فيعرضها عليك مُنهياً لها على جهة صدقها ويكون على معرفة من قدرها فان اردت اسعافه ونجاح ما سُئل منها اذنت له في طلبها اسطاً له كنفك مقبلاً عليه بوجهك مع ظهور سرور منك بما سألك بفسحة رأي وبسطة ذرع وطيب نفس · وان كرهت قضاء حاجته واحببت رده عن طَلبته (٢) وثقل عليك اسعافه بها امرت كاتبك فصفحه عنها ومنعه من مواجهتك بها فخفت عليك في ذلك المؤونة وحسن لك الذكر وحمل على كاتبك لائمة انت منها بريء الساحة ·

وكذلك فليكن رأيك وامرك فيمن طرأ عليك من الوفود واتاك من الرسل فلا يصلن اليك احدٌ منهم الا بعد وصول علمه اليك وعلم ما قدم له عليك وجهة ما هو مكلمك وقدر ما هو سائلك اياه اذا هو وصل اليك فاصدرت رأيك في جوابه واجلت فكرك في امره وانفذت مصدر رويتك في مرجوع مسألته قبل ما دخوله عليك وعلمه بوصول حاله اليك فرفعت عنه مؤونة البديهة وارخيت عن نفسك خناق الروية فاقدمه على رد جوابه بعد النظر والفكرة فان دخل عليك احد منهم فكلمك بخلاف ما انهى الى كاتبك وطوى عنه حاجته قبلك دفعته عنك دفعاً جميلاً ومنعته جوابك منعاً ودفعاً ثم امرت حاجبك باظهار الجفوة له والغلظة ومنعه من الوصول اليك فان ضبطك ذلك مما يحكم لك تلك الاشياء صارفاً عنك مؤونتها ان شاء الله ·

احذر تضييع رأيك واهمال ادبك في مسائل الرضا والغضب واعتوارهما اياك فلا يزدهينك افراط عجب تستخفك روائعه ويستهويك منظره ولا يبدرن منك ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه وان حل بك او حادث وان طرأ عليك · وليكن لك من نفسك ظهري ملجإ تحرز به من آفات الردى وتستعهده (٣) في مهم نازل وتتعقب به امورك في التدبير فان احتجت الى مادة من عقلك وروية من فكرك او انبساط من منطقك كان انحيازك الى ظهريك

(١) بدهه بالامر استقبله به مفاجأة (٢) الطلبة بكسر اللام ما طلبته (٣) استعهد فلاناً من نفسه ضمنه حوادث نفسه

مداعبة مسايره بالمصاحبة له والتضاحك اليه والايجاف في السير مهمرجاً (١) وتحريك الجوارح مستسرعاً يخال له ان ذلك اسرع له واخف لطيته فتحسن في ذلك هيئتك وتجمل فيه رعيتك وليقل على مسائلك اقبالك الا وانت مطرق النظر غير ملتفت الى محدث ولا مقبل عليه بوجهك في موكبك لمحادثته ولا تخف في السير تقلقل جوارحك بالتحريك . فان حسن مسايرة الوالي وابتداعه في تلك من حاله دليل على كثير من غيوب امره ومستتر احواله

واعلم ان اقواماً سيسرعون اليك بالسعاية ويأتونك من قبل النصيحة ويستميلونك باظهار الشفقة ويستدعونك بالاغراء والشبهة ويوطئونك عشوة (٢) الحيرة ليجعلوك لهم ذريعة الى استئكال (٣) العامة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة او اسرعوا بك في امره الى الظنة فلا يصلن الى مشافهتك ساع بشبهة ولا معروف بتهمة ولا منسوب الى بدعة فيعرضك لابتداع في دينك ويحملك على رعيتك ما لا حقيقة فيه ويحملك على اعراض قوم لاعلم لك بدخلهم الا بما اقدم به عليهم ساعياً واظهر لك منهم متنصحاً .

وليكن صاحب شرطك ومن احببت ان يتولى ذلك من قوادك اليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لاولئك والمستمع لاقاويلهم والفاحص عن نصائحهم ثم لينه ذلك اليك على مايرتفع اليه منه لتأمره بامرك فيه وتقفه (٤) على رأيك من غير ان يظهر ذلك للعامة فان كان صواباً نالتك حظوته وان كان خطأ اقدم به جاهل او فرطة يسعى بها كاذب فنالت الباغي منها او المظلوم عقوبة وبدر من واليك اليه نكال لم يعصب (٥) ذلك الخطأ بك ولم تنسب الى تفريطه وخلوت من موضع الذم فيه

فافهم ذلك وتقدم الى من تولى فلا يقدم على شيء ناظراً فيه ولا يحاول اخذ احد طارقاً له ولا يعاقب احداً منكلاً به ولا يخلى سبيل احد صافحاً عنه لاظهار براءته وصحة طريقته حتى يرفع اليك امره وينهي اليك قضيته على جهة الصدق ومنحى الحق .

فان رأيت عليه سبيلاً لحبس او مجازاً لعقوبة امرته فتولى ذلك من غير ادخال له

---

(١) الهمرجة الخفة والسرعة ولغط الناس والاختلاط في المشي والهملجة سير الدابة في سرعة وبخترة (٢) العشوة الظلمة كالعشواء وركب فلان العشواء اذا خبط في امره (٣) من قولهم استأكل الضعفاء اذا اخذ اموالهم (٤) وقف يتعدى بنفسه قال تعالى وقفوهم انهم مسؤلون اما وقفته توقيفاً واوقفته ايقافاً فقد انكره الجمهور وقالوا انهما غير مسموعين او غير فصيحين (٥) يعصب يقرن

عليك ولامشافهة منك له فكان المتوليَ لذلك ولم يجرِ على يدك مكروه ولا تغلظ عقوبة وان وجدت الى العفو عنه سبيلاً وكان مما قرف به خلياً كنت انت المتولي للانعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه باطلاق اسره فتوليت أجر ذلك وذخره ونطق لسانه بشكرك فقرنت خصلتين ثواب الله في الآخرة ومحمود الذكر في العاجلة ·

ثم اياك وان يصل اليك احد من جندك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك اوحاجة يبدهك (١) بطلبها حتى يرفعها قبلُ الى كاتبك الذي اهدفته لذلك ونصبته له فيعرضها عليك مُنهياً لها على جهة صدقها ويكون على معرفة من قدرهافان اردت اسعافه ونجاح ما سُئل منها اذنت له في طلبها اسطاً له كنفك مقبلاً عليه بوجهك مع ظهور سرور منك بما سألك بفسحة رأي وبسطة ذرع وطيب نفس · وان كرهت قضاء حاجته واحببت رده عن طلبته (٢) وثقل عليك اسعافه بها امرت كاتبك فصفحه عنها ومنعه من مواجهتك بها نخفت عليك في ذلك المؤونة وحسن لك الذكر وحمل على كاتبك لائمة انت منها بريء الساحة ·

وكذلك فليكن رأيك وامرك فيمن طرأ عليك من الوفود واتاك من الرسل فلا يصلن اليك احدٌ منهم الا بعد وصول علمه اليك وعلم ما قدم له عليك وجهة ما هو مكلمك وقدر ما هو سائلك اياه اذا هو وصل اليك فاصدرت رأيك في جوابه واجلت فكرك في امره وانفذت مصدر رويتك في مرجوع مسألته قبل ما دخوله عليك وعلمه بوصول حاله اليك فرفعت عنه مؤونة البديهة وارخيت عن نفسك خناق الروية فاقدمه على رد جوابه بعد النظر والفكرة فان دخل عليك احد منهم فكلمك بخلاف ما انهى الى كاتبك وطوى عنه حاجته قبلك دفعته عنك دفعاً جميلاً ومنعته جوابك منعاً ودفعاً ثم امرت حاجبك باظهار الجفوة له والغلظة ومنعه من الوصول اليك فان ضبطك ذلك مما يحكم لك تلك الاشياء صارفاً عنك مؤونتها ان شاء الله ·

احذر تضييع رأيك واهمال ادبك في مسائل الرضا والغضب واعتوارهما اياك فلا يزدهينك افراط عجب تستخفك روائعه ويستهويك منظره ولا يبدرن منك ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه وان حل بك او حادث وان طرأ عليك · وليكن لك من نفسك ظهري ملجأ تحرز به من آفات الردى وتستعبده (٣) في مهم نازل وتتعقب به امورك في التدبير فان احتجت الى مادة من عقلك وروية من فكرك او انبساط من منطقك كان انحيازك الى ظهريك

(١) بدهه بالامر استقبله به مفاجأة (٢) الطلبة بكسر اللام ما طلبته (٣) استعبد فلانا من نفسه ضمنه حوادث نفسه

مزداداً مما احببت الامتيار منه وان استدبرت من امورك بوادر لمهل او مفي زلل او معاندة حق او خطإ تدبير كان ما احتجنت من رأيك عذراً لك عند نفسك وظهري قوة على رد ما كرهت وتخفيفاً لمؤونة الباغين عليك في القالة وانتشار الذكر وحصناً من غلوب الآفات على اخلاقك ان شاء الله ·

وامنع اهل بطانتك وخاص خدمك وعامة رعيتك من استلحام (١) اعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب اليك بالسعاية والاغراء من بعض ببعض والنميمة اليك بشيء من احوالهم المستترة عنك او التحميل لك على احد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة · فانه ابلغ سمواً الى منال الشرف واعون لك على محمود الذكر واطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير ·

واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق (٢) وعن القطوب باظهار الغضب وتنحله فان ذلك ضعف من سورة الجهل وخروج من انتحال اسم الفضل ·

وليكن ضحكك تبسماً او كبراً (؟) في احايين ذلك واوقاته وعند كل مرأى ملهي ومستخف مطرب وقطوبك اطراقاً في موضع ذلك واحواله بلا عجلة الى السطوة ولا اسراع الى الطيرة دون ان يكنفها روية الحلم وتملك عليها بادرة الجهل ·

اذا كنت في مجلس ملإك وحضور العامة مجالسك فاياك والرمي ببصرك الى خاص من قوادك او ذي أثرة من حشمك · وليكن نظرك مقسوماً في الجميع واعارتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ووقار حسن وحضور فهم مستجمع وقلة تفجر بالمحدث ثم لا يبرح وجهك الى بعض قوادك وحرسك متوجهاً بنظر ركين وتفقد محض فان وجه احد منهم نظره محدثاً او رماك ببصره ملحاً فاخفض عنه اطراقا جميلا بابداع وسكون · واياك والتسرع في الاطراق والخفة في تصاريف النظر والالحاح على من قصد اليك في مخاطبته اياك رامقاً بنظره

واعلم ان تصفحك وجوه قوادك من قوة التدبير وشهامة القلب فتفقد ذلك عارفا بمن حضرك وغاب عنك عالماً بمواضعهم من مجلسك ثم اعد بهم عن ذلك سائلا عن اشغالهم التي منعتهم من حضورك وعاقتهم بالتخلف عنك ان شاء الله

ان كان احد من اعوانك وحشمك تثق منه بغيب ضميره وتعرف منه لين طاعة وتشرف منه على صحة رأي وتأمنه على مشورتك فاياك والاقبال عليه في حادث يرد او التوجه نحوه

(١) استلحم الطريق اذا تبعه ولزمه واستلحمه الخطب اذا نشب فيه (٢) الانفهاق في الشيء التوسع فيه

بنظرك عند طوارق ذلك او ان تريه او احداً من اهل مجلسك ان بك اليه حاجة موحشة وان ليس بك عنه غنىً في التدبير او انك لا نقضي دونه رأياً اشراكاً له في روّيتك وادخالا له في مشورتك واضطراراً الى رأيه فان ذلك من دخائل العيوب المنتشر بها سوء القالة عن نظرائك وانفها عن نفسك خائفاً لاغفالها ذكرك واحجبها عن رؤيتك قاطعاً اطماع اولئك عن مثلها عندك او غلبتهم عليك منك

واعلم ان للمشورة موضع الخلا وانفراد النظر فابغها محرزاً لها ورمها طالبا لبيانها واياك والقصور عن غايتها والافراط في طلبها

احذر الاعتزام بكثرة السؤال عن حديث اما اعجبك او امر اما ازدهاك والقطع لحديث من ارادك بحديثه حتى تنقضه عليه بالاخذ في غيره او المسألة عما ليس منه فان ذلك عند العامة منسوب الى سوء الفهم وقصر الادب عن تناول محاسن الامور والمعرفة لمساوئها وانصت لمحدثك وأرعه سمعك حتى يعلم انك قد فهمت عنه واحطت معرفة بقوله فان اردت اجابته فعن معرفة حاله وبعد علم بطلبته والا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعلل من حديثه بالتبسم والاغضاء فاجرى عنك الجواب وقطع عنك السن العتب

اياك وان يظهر منك تبرم بمجالسك وتضجر بمن حضرك وعليك بالتثبت عند سورة الغضب وحمية الأنف وملال الصبر في الامر تستعجل به والعمل تأمر بانفاذه فان ذلك سخف سائر وخفة مردية وجهالة بادية . وعليك بثبوت المنطق ووقار المجلس وسكون الريح والرفض لحشو الكلام وترديد فضوله والاعتزام بالزيادات في منطقك والترديد للفظك من نحو اسمع او اعجل او ألا ترى او ما يلهج به من هذه الفصول المقصرة بأهل العقل المنسوبة اليهم بالعي المردية لهم في الذكر . وخصال من معايب الملوك والسوقة عيبها (؟) عند النظر الا من عرفها من اهل الادب وقلما حامل لها مضطلع بثقلها اخذ لنفسه بجوامعها فانفها عن نفسك بالتحفظ منها واملك عنها اعتقادك معنياً بها (؟) كثرة التنخم والتبزق والتنحنح والتثاؤب والجشاء والتمطي ونتقيض الاصابع وتحريكها والعبث باللحية والشارب والمخصرة وذؤابة السيف والايماض بالنظر والاشارة بالطرف الى احد من خدمك بأمر ان اردته والسرار في مجلسك والاستعجال في طعمك وشربك

ليكن مطعمك مبتدعا (١) وشربك انفاسا وجرعك مصاواياك والتسرع في الأيمان فيما صغر او كبر من الامور او الشتيمة بابن الهيبة او اعمرية (؟) لاحد من خدمك وخاصتك بتسويغهم مقارنة الفسوق بحضرك او في دارك وبنائك فان ذلك مما يقبح ذكره و يسوء موقع

(١) ابدع الشيء انشأه واخترعه والمراد بالطعام المبتدع الحديث

القول فيه ويحمل عليك معايبه وينالك شينه وينشر عنك سوء نبإه فاعرف ذلك متوقياً له واحذره مجانبا لسوء عاقبته

استكثر من فوائد الخير فانها تنشر المحمدة وتقيل العثرة · واصطبر على الغيظ فانه يورث العز ويؤمن الساحة · وتعهد العامة بمعرفة دخلهم وبنظر احوالهم واستثارة دفائنهم حتى يكون على مرأى العين ويقين الخبرة فتنعش عديمهم وتجبر كسيرهم وتقيم أودهم وتعلم جاهلهم وتستصلح فاسدهم فان ذلك من فعلك يورثك العزة ويقدمك في الفضل ويبقي لك لسان صدق في العامة ويحرز لك ثواب الآخرة ويرد عليك عواطفهم المستنفرة وقلوبهم المستجنة عنك · (وميز) بين منازل اهل الفضل في الدين والحجى والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة وبين منازل اهل النقص في طبقات الفضل واحواله والجود عنه ثناها(؟) باهل الحسب والنظر نصيحة لهم تنال مودة الجميع وتستجمع لك اقاويل العامة على التفضيل وتبلغ درج الشرف في الاحوال المتصرفة بك فاعتمد عليهم مستدخلا لهم وآثرهم بمجالستك مستمتعاً منهم واياك وتضييعهم مفرطاً لهم واهمالهم مضيعاً

هذه جوامع من خصال قد لخصها لك امير المؤمنين وجمع شواهدها مؤلفا واهداها لك مراشد تقف عند اوامرها وتنتهي عند زواجرها وتثبت في مجامعها وخذ بوثائق عراها تسلم من معاطب الردى وتنل انفس الحظوظ ومزية الشرف واعلى درج الذكر والله يسأل لك امير المؤمنين حسن الارشاد وتتابع المزيد وبلوغ الامل وان يجعل عاقبة ذلك بك الى غبطة يسوغك اياها وعافية يحلك اكنافها ونعمة يلهمك شكرها فانه الموفق للخير والمعين على الارشاد وبه تمام الصالحات وهو مؤتي الحسنات عنده مفاتيح الخير وبيده الملك وهو على كل شيء قدير

فاذا افضيت نحو عدوك واعتزمت على لقائهم واخذت اهبة قتالهم فاجعل دعامتك التي تلجأ اليها وثقتك التي تأمل النجاة بها وركنك الذي ترتجي به منال الظفر وتكتهف (١) به لمغالق الحذر تقوى الله عز وجل مستشعراً له بمراقبته والاعتصام بطاعته متبعاً لامره والاجتناب لمساخطه محتذياً سننه والتوقي لمعاصيه في تعطيل حدوده وتعدي شرائعه متوكلا عليه فيما صمدت (٢) له واثقاً بنصره فيما وجهت نحوه متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر وتلقاك من عز راغباً فيما أهاب (٣) بك امير المؤمنين اليه من فضل الجهاد ورمى بك اليه محمود الصبر عند الله عز وجل من قتال عدو الله للمسلمين اكلبهم عليهم

---

(١) اكتهف وتكهف لزم الكهف والكهف المغارة والوزر والملجأ (٢) صمد الامر قصده معتمداً عليه (٣) اهاب بصاحبه دعاه

واظهرهم عداوة لهم وافدحهم ثقلاً لعاتهم واخذة بربقهم (١) واعلاه عليهم بغياً واظهره فيهم فسقاً وجوراً واشده على فيئهم الذي اصاره الله لهم مؤونة

ثم خذ من معك من تبعك وجندك بكف معرّتهم ورد مستعلي جورهم واحكام خللهم وضم منتشر قواصيهم ولم شعث اطرافهم وخذهم بمن مروا به من اهل ذمتك وملتك بحسن السيرة (وعفة) الطعمة ودعة الوقار وهدي الدعة وجمام (٢) (النفس) محكما ذلك منهم منتقداً لهم فيه تفقدك اياه من نفسك

ثم اصمد بعدوك المتسمي بالاسلام خارجا من جماعة اهله المنتحل ولاية الدين مستحلا لدماء اوليائه طاعناً عليهم راغباً عن سنتهم مفارقاً لشرائعهم يبغيهم الغوائل وينصب لهم المكايد اضرم حقداً عليهم وارصد عداوة لهم من الترك وامم الشرك وطواغي الملل يدعوالى المعصية والفرقة والمروق من الدين الى الفتنة مخترعاً بهواه الى الاديان المنتحلة والبدع المتفرقة خسارا وتخسيراً وضلالا واضلالا بغير هدى من الله ولا بيان ساء ما كسبت يداه وما الله بظلام للعبيد وبئس ما سولت له نفسه الامارة بالسوء والله من ورائه بالمرصاد وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون .

حض جندك واشكم نفسك في مجاهدة اعداء الله وارج نصره وتنجز موعده متقدماً في طلب ثوابه على جهادهم معتزماً في ابتغاء الوسيلة اليه على لقائهم فان طاعتك اياه فيهم ومراقبتك له ورجاءك لنصره مسهل لك وعوده وعاصمك من كل سيئة ومنجيك من كل هوّة وناعشك من كل صرعة ومقيلك من كل كبوة ودارئ عنك كل شبهة ومذهب عنك لطخة كل شك ومقويك بكل أيد (٣) ومكيدة ومؤيدك في كل مجمع لقاء وحافظك من كل شبهة مردية والله وليك وولي امير المؤمنين فيك

اعلم ان الظفر ظفران احدهما اعم منفعة وابلغ في حسن الذكر قالة واحوطه سلامة واتمه عافية واعوده عاقبة واحسن في الامور مورداً واصحه في الرواية حزماً واسهله عند العامة مصدراً ما نيل بسلامة الجنود وحسن الحيلة ولطف المكيدة ويمن النقيبة (٤) بغير اخطار (٥) الجيوش في وقدة جمرة الحرب ومنازلة الفرسان في معترك الموت وان ساعدك (الحظ) ونالك مزية السعادة في الشرف ففي مخاطرة التلف ومكروه المصائب وعضاض السيوف وألم الجراح وقصاص الحروب وسجالها بمعاورة (٦) ابطالها على انك لا تدري لاي

(١) الربقة حبل يوضع في العنق وجمعه ربق (٢) الجمام كسحاب الراحة (٣) الايد القوة (٤) النقيبة النفس يقال انه ميمون النقيبة منجح الفعال مظفر المطالب (٥) اخطر جعله في خطر (٦) يقال تعاور القوم فلاناً اذا تعاونوا عليه بالضرب واحداً بعد واحد

الفريقين الظفر في البديهة من المغلوب في الدولة ولعلك ان تكون المطلوب بالتمحيص فحاول ابلغهما في سلامة جندك ورعيتك واشهرها ... في باديء رأيك واجمعهما لا لفة وليك وعدوك واعونهما على صلاح رعيتك واهل ملتك واقواها في حربك وابعدها من وصم عزمك واجزلها ثوابًا عندك . وابدأ بالاعذار والدعاء لهم الى مراجعة الطاعة وامر الجماعة وعرى الالفة آخذًا بالحجة عليهم متقدمًا بالانذار لهم باسطًا امانك لمن لجأ اليه منهم داعيًا لهم اليه باللين لطفك والطف حيلتك متعطفًا عليهم برأفتك مترفقًا بهم في دعائك مشفقًا عليهم من غلبة الغواية لهم واحاطة الهلكة بهم منفذًا رسلك اليهم بعد الانذار تعدهم كل رغبة يهش اليها طمعهم في موافقة الحق وبسط كل امان سألوه لانفسهم ومن معهم ومن تبعهم موطنًا نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بوعدك والصبر على ما اعطيتهم من وثائق عهدك قابلاً توبة نازعهم (١) عن الضلالة ومراجعة مسيئهم الى الطاعة مرصدًا للمنحاز الى فئة المسلمين وجماعتهم اجابة الى ما دعوتهم اليه وبصرته من حقك وطاعتك بفضل المنزلة واكرام المثوى وتشريف الحال ليظهر من اثرك عليه واحسانك اليه مايرغب في مثله لصارف عنك المصرّ على خلافك ومعصيتك ويدعو الى الاعتلاق بحبل النجاة وما هو املك به في الاعتصام به عاجلاً وانجى له من العقاب آجلاً واحوط على دينه ومهجته بدءا وعاقبة فان ذلك مما يستدعي نصر الله عز وجل به عليهم وتعتصم به في تقدمة الحجة اليهم معذرًا ومنذرًا ان شاء الله .

ثم اذكِ عيونك (٢) على عدوك متطلعًا لعلم احوالهم التي ينتقلون فيها ومنازلهم التي هم بها ومطامعهم التي مدوا بها اعناقهم نحوها . واي الامور ادعى لهم الى الصلح واقودها لرضاهم الى العافية ومن اي الوجوه ما اتاهم من قبل الشدة والمنافرة والمكيدة والمباعدة والارهاب والابعاد والترغيب والاطماع مستأنيًا في امرك متخيرًا في رويتك متمكنًا من رأيك مستشيرًا لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم التجربة ونجذتهم (٣) الحروب متسربًا في حربك آخذًا بالحزم في سوء الظن معدًا للحذر محترسًا من الغرة كأنك منزل كله ومنازلك جمع مواقف لعدوك رأي عين تنظر حملاتهم وتخوف غاراتهم معدًا اقوى مكيدتك واجد تشميرك وارهب عتادك معظمًا لامر عدوك لاكثرها ... بفرط تبعة له (؟) من الاحتراس عظيمًا من المكيدة قويًا من غير ان يفثأك (٤) عن احكام امورك وتدبير رأيك واصدار رويتك والتأهب لحربك مصغ له بعد استشعار الحذر واطمئنان الحزم واعمال الروية واعداد الأهبة

---

(١) المنتهي عن الضلالة (٢) العين الجاسوس واذكها ايقظها (٣) نجذته التجارب احكمته (٤) يسكنك

فان لقيت عدوك كليل الحد ونم النجوم نضيض الوفر (؟) لم يضررك ما اعددت له من قوة واخذت به من حزم ولم يزدك ذلك الا جراءة عليه وتسرعاً الى لقائه وان الفيته متوقد الجمر مستكثف التبع قوي الجمع مستعلي سَورة الجهل معه من اعوان الفتنة وتبع ابليس من يوقد لهب الفتنة مسعراً و يتقدم الى لقاء ابطالها متسرعاً كنت لاخذك بالحزم واستعدادك بالقوة غير مَهين الجند ولا مفرط في الرأي ولا متلهف على اضاعة تدبير ولا محتاج الى الاعداد وعجلة التأهب مبادرة تدهشك وخوفاً يقلقك ومتى تعزم على ترقيق التوقير وتأخذ بالهوينا في امر عدوك لتصغر المصغرين ينتشر عليك رأيك ويكون فيه انتقاض(١)امرك ووهن تدبيرك واهمال الحزم في جندك وتضييع لهوهو ممكن الاصحار رحب المطالب قوي العصمة فسيح المضطرب مع ما يدخل رعيتك من الاغترار والغفلة عن احكام اسرارهم وضبط مراكزهم لما يرون من استنامتك الى الغرة وركونك الى الامن وتهاونك بالتدبير فيعود ذلك عليك في انتشار الاطراف وضياع الاحكام ودخول الوهن بما لا يستقال محذوره ولا يدفع مخوفه ٠

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من اخبار عدوك واياك ومعاقبة احد منهم على خبر ان اتاك به اتهمته فيه او سؤت ظناً عليه واتاك غيره بخلافه وان تكذبه فيه وترده عليه ولعله ان يكون من محضك النصيحة وصدقك الخبر وكذبك الاول اوخرج جاسوسك الاول متقدماً قبل وصول هذا من عند عدوك ٠ ولقد ابرموا امرا وحاولوا لك مكيدة وازدادوا منك غرة وان دفعوا اليك في الامر ثم انتقض بهم رأيهم واختلف عنه جماعتهم فاوردوا رأياً واحدثوا مكيدة واظهروا قوة وضربوا موعداً وأمّوا مسلكا لعدد اتاهم او قوة حدثت لهم او بصيرة في ضلالة شغلتهم فالاحوال منتقلة بهم في الساعات وطوارق الحادثات ولكن البسهم (٢) جميعاً على الانتصاح وأرجح لهم المطامع فانك لم تستعبدهم بمثله ٠ وعدهم جزالة المثاوب في غير ما استنامة منك الى امر عدوك والاغترار بما لم يأتوك به دون ان تعمل رويتك في الاخذ بالحزم والاستكثار من العدة واجعلهم اوثق من تقدر عليه ان استطعت ذلك وآمن من تسكن الى ناحيته ليكون ما يبرم عدوك في كل يوم وليلة عندك ان استطعت فتنقض عليهم بتدبيرك ورأيك مالم يرموا (٣) وتأتيهم من حيث اقدموا وتستعد لهم بمثل ما حذروا

واعلم ان جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك وربما كانوا لك وعليك فنصحوا لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوا عدوك وكثير مما يصدقونك ويصدقونه فلا يبدرن منك فرطة في عقوبة الى احد منهم ولا تعجل بسوء الظن الى من اتهمته على ذلك وابسط من

(١) الانتقاض الانتكاث (٢) لابس فلاناً خالطه (٣) رمّ الشيء اصلحه

آمالهم فيك من غير ان تري احدًا منهم انك اخذت من قوله اخذ العامل به والمتبع له او عملت على رأيه عمل الصادر عنه او رددته عليه رد المكذب له والمتهم المستخف بما اتاك منه فتفسد بذلك نصيحته وتستدعي غشه وتجتر عداوته

احذر ان يُعرف جواسيسك في عسكرك او يشار اليهم بالاصابع وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وامين سرك و يكون هو الموجه لهم والمدخل عليك من اردت مشافهته منهم واعلم ان لعدوك في عسكرك عيونًا راصدة وجواسيس كامنة وان رأيه في مكيدتك مثل ما تكايده به وسيحتال لك كاحتيالك له و يعدّ لك كاعتدادك له فاحذر ان يشعر رجل من جواسيسك في عسكرك فيبلغ ذلك عدوك و يعرف موضعه فيعدله المراصد و يحتال له بالمكايد فان ظفر به واظهر عقوبته كسر ذلك ثقات عيونك وحوله عن تطلب الاخبار من معادنها واستقصائها من عيونها حتى يصيروا الى اخذها عن عُرض من غير الثقة ولا معاينة لغطائها(؟) بالاخبار الكاذبة والاحاديث المرجفة

واحذر ان يعرف بعض عيونك بعضًا فانك لاتأمن تواطؤهم عليك وممالأتهم عدوك واجتماعهم على غشك وكذلك وان يورط بعضهم بعضًا عند عدوك وأحكم امرهم فانهم رأس مكيدتك وقوام تدبيرك وعليهم مدار حربك وهو اول ظفرك فاعمل على حسب ذلك وجنب (؟) رجاءك به نيل املك من عدوك وقوتك على قتالهم وانتهاز فرصته ان شاء الله فاذا احكمت ذلك وتقدمت فيه واستظهرت بالله وعونه فولّ شرطتك وامر عسكرك اوثق قوادك عندك وآمنهم نصيحة واقدمهم بصيرة في طاعتك واقواهم شكيمة في امرك وامضاهم صريمة واصدقهم عفافًا واجرأهم (جنانًا) واكفاهم امانة واصحهم ضميرًا وارضاهم صبرًا واحمدهم خلقًا واعطفهم على جماعتهم رأفة واحسنهم لهم نظرًا واشدهم في دين الله وحقه صلابة ثم فوض اليه مقويًا له وابسط من امله مظهرًا عنه الرضا حامدًا منه الابتلاء . وليكن عالمًا بمراكز الجنود بصيرًا بتقديم المنازل مجربًا ذا راي وتجربة وحزم في المكيدة له نباهة في الذكر وصيت في الولاية معروف البيت مشهور الحسب وتقدم اليه في ضبط معسكرك واذكاء احراسه في آناء ليله ونهاره ثم حذره ان يكون له اذن لجنوده في الانتشار والاضطراب والتقدم للطائفة فيصاب منهم غرة يجترىء بها عدوك و يسرع اقدامًا عليك و يكسر من افئدة جنودك و يوهن من قوتهم فان اصابة عدوك الرجل الواحد من جندك وعبيدك مطمع لهم منك مقو لهم على شحذ اتباعهم عليك وتصغيرهم امرك وتوهينهم تدبيرك فحذره ذلك وتقدم اليه فيه ولا يكونن منه افراط في التضييق عليهم والحصر لهم فيعمهم ازله ويشملهم ضنكه ويسوء عليه حالهم وتشتد به المؤونة عليهم

وتخبث له ظنونهم . وليكن (موضع) انزاله ايام مستديرًا ضامًا جامعا ولا يكون منتشرًا ممتدًا فيشق ذلك على اصحاب الاحراس ويكون فيه النهزة للعدو والبعد من المادة ان طرق طارق في فجاآت الليل وبغتاته . واوعز اليه في أحراسه ومره فليول عليهم رجلا ركينا مجربًا جريء الاقدام ذكي الصرامة جلد الجوارح بصيرًا بوضع أحراسه غير مصانع ولا مشفع للناس في التنحي الى الرفاهة والسعة وتقدم العسكر او التأخر عنه فان ذلك مما يضعف الوالي ويوهنه لاستنامته الى من ولاه ذلك وأمنه به على جيشه

واعلم ان موضع الأحراس من موضعك ومكانها من جندك بحيث الغناء عنهم والرد عليهم والحفظ لهم والكلاءة لمن بغتهم طارقا وارادهم مخاتلا ومراصدها المتسلل منها الآبق من ارقائهم واعبدهم وحفظ العيون والجواسيس من عدوهم (؟) واحذر ان يضرب على يديه او يشكمه على الصرامة لمواصرتك في كل امر حادث وطارق الا في الملم النازل والحدث العام فانك اذا فعلت ذلك به دعوته الى نصحك واستوليت على محض ضميره في طاعتك واجهد نفسه في ترتيبك واغاثتك وكان ثقتك وزينك وقوتك ودعامتك وتفرغت لمكايدة عدوك مريحا نفسك من هم ذلك والعناية به ملق عنك مؤونة باهظة وسلفة فادحة ان شاء الله

ثم اعلم ان القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الاحكام ولا بمثله احد من الولاة لما يجري على يديه من مغالظ الاحكام ومجاري الحدود فليكن من توليه القضاء بين اهل العسكر من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع والبصر بوجوه القضايا ومواقعها قد حنكته السن وايدته التجربة واحكمته الامور ممن لا يتصنع للولاية ويستعد للنهزة ويجتريء على المحاباة في الحكم والمداهنة في القضاء عدل الامانة عفيف الطعمة حسن الانصات فهم القلب ورع الضمير متخشع السمت هادي الوقار محتسبًا للخير ثم أجر عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه وفرغه لما حملته وأعنه على ما وليته فانك قد عرضته لهلكة الدنيا وثواب الآخرة او شرف العاجلة وحظوة الآجلة ان حسنت نيته وصدقت رويته وصحت سريرته وسلط حكم الله على رعيته منفذًا قضاءه في خلقه عاملاً بسننه في شرائعه آخذًا بحدوده وفرائضه

واعلم انه من جندك ومعسكرك بحيث ولايتك وفي الموضع الجارية احكامه عليهم النافذة اقضيته بينهم فاعرف من توليه ذلك وتسنده اليه ان شاء الله

ثم تقدم في طلائعك فانها اول مكيدتك ورأس حربك ودعامة امرك فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوي نجدة وبأس وصرامة وخبرة وحماة كفاة قد صلوا بالحرب

وتداوقوا سجالها وشربوا من مرارة كؤوسها وتجرعوا غصص درتها وز بنتهم (١) بتكرارها وحملتهم على اصعب مراكبها ثم اتبعهم على عينك واعرض كراعهم (٢) بنفسك وتوخ في انتقالهم بهور الجلد وسجاحة الخلق وجمال الآلة واياك ان تقبل من دوبهم الا اناث الخيول مهلوبة (٣) فانها اسرع طلبًا وانجى مهربًا وابعد في اللحوق غاية واصبر في معترك الابطال اقداما ونجذهم من السلاح بابدان الدروع ماذية الحديد شاكة السنخ متقاربة الحلق متلاحمة المسامير واسوق الحديد مموهة الركب محكمة الطبع خفيفة الصوغ وسواعد طبعها هندي وصوغها فارسي رقاق المعطف بأكف وافية وعمل محكم ويلق البيض مذهبة ومجردة فارسية الصوغ خالصة الجوهر سابغة الملبس وافية اللبن مستديرة الطبع مبهمة السرد وافية الوزن كتريك (٤) النعام في الصنعة معلمة بأصناف الحرير وألوان الصبغ فانها اهيب لعدوهم وافت لاعضاد (٥) من لقيهم والمعلم مخشي محذور له بديهة وادعة معهم السيوف الهندية وذكور البيض اليمانية رقاق الشفرات مسنونة الشحذ غير كليلة المشحذ مشطبة الضرائب معتدلة الجواهر وافية الصفائح لم يدخلها وهن الطبع ولا عابها امت الصوغ ولا شانها خفة الوزن ولا فدح حاملها بهور الثقل قد اشرعوا لدن القنا طوال الهوادي (٦) زرق الاسنة مستوية الثعالب وميضها متوقد وشحذها متلهب معاقص (٧) عقدها منحوتة ووصم اودها مقوم · اجناسها مختلفة · وكعوبها جعدة · وعقدها حنكة · شطبة الاسنان · محكمة الجلاء مموهة الاطراف · مستجدة الجنبات دقاق الاطراف ليس فيها التواء اود · ولا امت وصم · ولا لها سقط عيب · ولا عنها وقوع أمنية مستحقب كنائن النبل وقسي الشوحط والنبع (٨) اعرابية التعقيب رومية النصول فانها ابلغ في الغاية وانفذ في الدروع واشك في الحديد سامطين حقائبهم على متون خيولهم مستخفين من الآلة والامتعة الا ما لا اغناء بهم عنه

واحذر ان تكل مباشرة عرضهم الى احد من اعوانك او كتابك فانك ان وكلته اليهم اضعت موضع الحرم وفرطت حيث الرأي ووقفت دون الحزم ودخل عملك ضياع الوهن وخلص اليك عيب المحاباة · وناله فساد المداهنة وغلب عليه من لا يصلح ان يكون طليعة للمسلمين · ولا عدة ولا حصنًا يدرؤن به ويكتنفون بموضعه

«١» الزبن الدفع «٢» الكراع اسم يجمع الخيل «٣» المقطوعة الذنب «٤» التريكة البيضة بعد ان يخرج منها الفرخ او يخص بالنعام والجمع ترائك وتريك «٥» فت في ساعده اضعفه «٦» الهادي العنق والجمع هوادي «٧» المعقص كمنبر السهم المعوج وما ينكسر نصله فيبقى سنخه في السهم فيخرج و يضرب حتى يطول «٨» الشوحط شجر تتخذ منه القسي او ضرب من النبع اوهما والنبع مثله.

واعلم ان الطلائع عيون وحصون للمسلمين فهم اول مكيدتك وعروة امرك وزمام حربك فليكن اعتناؤك بهم بحيث هم من مهم عمالك ومكيدة حربك ثم انتخب لهم رجلا للولاية عليهم بعيد الصوت مشهور الفضل نبيه الذكر له في العدو وقعات معروفات وايام طوال وصولات متقدمات قد عرفت نكايته وحذرت شوكته وهيب صوته وتنكب لقاؤه امين السريرة ناصح الغيب قد بلوت منه ما يسكنك الى ناحيته من لين طباعه وخالص المودة ونكاية الصرامة وغلوب الشهامة واستجماع القوة وحصافة التدبير ثم تقدم اليه في حسن سياستهم واستنزال طاعتهم واجتلاب موداتهم واستعداد (؟) ضمائرهم وأجر عليهم ارزاقا تسعهم وتمد من اطماعهم سوى ارزاقهم في العامة وفي ذلك من القوة لك عليهم والاستنامة الى ما قبلهم

واعلم انهم في اهم الاماكن لك واعظمها غناء عنك وعمن معك واقمعها كمنا (؟) وأشجى لعدوك ومتى يكون في البأس والثقة والجلد والطاعة والقوة والنصيحة حيث وصفت لك وامرتك به تضع عنك مؤونة الهم وترخي عن خناقك دروع الخوف وتلجيء الى امر متين وظهر قوي وامر حازم تأمن به لجا آت عدوك ويصير اليك علم احوالهم ومتقدمات خيولهم فانتخبهم رأي عين وقوهم بما يصلحهم من المنالات والاطماع والارزاق واجعلهم منك بالمنزل الذي هم به من محارز علامتك « ؟ » وحصانة كهوفك وقوة سيارة عسكرك واياك ان تدخل فيهم احدًا بشفاعة او تحتمله على هوادة (١) او تقدمه منهم لأثرة وان يكون مع احد منهم بغل ثقل او فضل من الظهر او ثقل فادح فيشتد عليهم مؤونة انفسهم ويدخلهم كلال السآمة فيما يعالجون من أثقالهم ويشتغلون به عن عدوهم ان دهمهم منه رائع او فاجأهم منهم طليعة . فتفقد ذلك محكما له وتقدم فيه آخذًا بالحزم في امضائه ارشدك الله لاصابة الحظ ووفقك ليمن التدبير

ولِّ دراجة عسكرك واخراج اهله الى مصافهم ومراكزهم رجلا من اهل بيوتات الشرف محمود الخبرة معروف النجدة ذا سن وتجربة لين الطاعة قديم النصيحة مأمون السريرة له بصيرة في الحق تقدمه ونية صادقة عن الادهان (٢) تحجزه واضمم اليه عدة من ثقات جندك وذوي أسنانهم يكونون شرطة معه ثم تقدم اليه في اخراج المصاف واقامة الاحراس واذكاء العيون وحفظ الاطراف وشدة الحذر ومره فليضع القواد بانفسهم مع اصحابهم في مصافهم كل قائد بازاء موضعه وحيث منزله قد شد ما بينه وبين صاحبه بالرماح شارعة

«١» الهوادة اللين وما يرجى به الصلاح والرخصة «٢» المداهنة والغش

والتراس موضونة (١) والرجال راصدة ذاكية الاحراس وجلة الروع خائفة طوارق العدو وبياته . ثم مره ان يُخرج كل ليلة قائدًا من اصحابه او عدة منهم ان كانوا كثيرًا على غلوة او غلوتين من عسكرك محيطًا بمنزلك ذاكية احراسه قلقة التردد مفرطة الحذر معدة للروع متأهبة للقتال آخذة على اطراف العسكر ونواحيه متفرقين في اخلافهم كِردَوسًا كِردَوسًا (٢) يستقبل بعضهم بعضًا في الاختلاف ويكسع (٣) متقدمًا في التردد فاجعل ذلك بين قوادك واهل عسكرك نوبًا معروفة وحصصًا مفروضة لا يعد منه مزدلفًا بمودة ولا يحامل على احد فيه بموجدة ان شاء الله .

فوض الى امراء جندك وقوادهم امور اصحابهم والاخذ على ايديهم رياضةً منك لهم على السمع والطاعة لامرائهم والاتباع لامرهم والوقوف عند نهيهم وتقدم الى امراء الاجناد في النوائب التي الزمتهم اياها والاعمال التي استنجدتهم لها والاسلحة والكراع التي كتبتها عليهم واحذر اعتلال احد من قوادك عليك بما يحول بينك وبين جندك وتقويمهم لطاعتك وقمعهم عن الاخلال بمراكزهم لشيء مما وكلوا به من اعمالهم فان ذلك مفسدة للجند معي للقواد عن الجد والمناصحة والتقدم في الاحكام .

واعلم ان استخفافهم بقوادهم وتضييعهم امرهم دخول الضياع على اعمالك واستخفاف بامرك الذي يأتمرون به ورأيك الذي ترتئي واوعز الى القواد ان لا يتقدم احد منهم على عقوبة احد من اصحابه الا عقوبة تأديب وتقويم ميل وتثقيف أود فاما عقوبة تبلغ تلف المهجة واقامة الحد في قطع او افراط في ضرب او اخذ مال او عقوبة في سفر فلا يلينَّ ذلك من جندك احد غيرك او صاحب شرطتك بامرك وعن رأيك واذنك ومتى لم تذلل الجند لقوادهم وتُضرعهم (٤) لامرائهم يوجب عليك لهم الحجة بتضييع ا(?) وان كان منهم لامرك خلل ان تهاونوا به من عملك او عجز ان فرط منهم في شيء وكلتهم اليه او اسندته اليهم ولم تجد الى الاقدام عليهم باللوم وبعض العقوبة مجازًا تصل به الى تعنيفهم بتفريطك في تذليل اصحابهم لهم وافسادك اياهم عليهم فانظر في ذلك نظرًا محكمًا وتقدم فيه تقدمًا بليغًا . واياك ان يدخل حزمك وهن او عزمك امارا (?) من رأيك ضياع . والله استودع دينًا في نفسك .

اذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر وكان من عسكرك مقتربًا قد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته فتأهب اهبة المناجزة وأعد اعداد الحذر

---

(١) وضن الشيء يضنه فهو موضون ووضين ثنى بعضه على بعض وضاعفه ونضده
(٢) كردس الخيل جعلها كتيبة والكردوسة بالضم قطعة عظيمة من الخيل والجمع كراديس (٣) كسعه كمنعه ضرب دبره بيده او بصدر قدمه (٤) تذللهم

وكتب خيولك وعبّ جنودك واياك والمسير الا مقدمة وميمنة وميسرة وساقة قد شهروا بالاسلحة ونشروا البنود والاعلام وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم قد اخذوا أهبة القتال واستعدوا للقاء ملحين الى مواقفهم عارفين بمواضعهم من مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم واعلامهم ومراكزهم . وعرّف كل قائد واصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ولا متهاونين بما اهبت بهم اليه حتى تكون عساكرهم في كل منهل تصل اليه ومسافة تختارها كأنه عسكر واحد في اجتماعها على العدة واخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ونزولها على مراكزها ومعرفتها بمواضعها ان اضلت دابة موضعها عرف اهل العسكر من اي المراكز هي ومن صاحبها وفي اي المحل حلوله منها فردت اليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها . فان تقدمك في ذلك واحكامك له اطراح عن جندك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة . ثم اجعل على ساقتك اوثق اهل عسكرك في نفسك صرامة ونفاذاً ورضا فى العامة وانصافاً من نفسه للرعية واخذاً بالحق في المعدلة مستشعراً تقوى الله وطاعته آخذاً بهديك وادبك واقفاً عند امرك ونهيك معتزماً على مناصحتك وتزيينك نظيراً لك في الحال وشبيهاً بك في الشرف وعديلاً في المواضع ومقارباً في الصيت ثم اكشف معه الجمع وايده بالقوة وقوه بالظهر واعنه بالاموال واعمره بالسلاح ومره بالعطف على ذوي الضعف من جندك ومن رخفت به (١) دابته واصابته نكبة من مرض او رجلة او آفة من غير ان تأذن لاحد منهم في التنحي عن عسكره او التخلف بعد ترجله الا المجهود او المطروق بآفة ثم تقدم اليه محذراً ومره زاجراً وانهه مغلظاً بالشدة على من مرّ به منصرفاً عن معسكرك من جندك بغير جوارك شاذاً لهم امراً وموقرهم حديداً ومعاقبهم موجعاً او موجههم اليك فتنهكهم عقوبة وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة .

واعلم انه ان لم يكن بذلك الموضع من تسكن اليه واثقاً بنصيحته عارفاً ببصيرته قد بلوت منه امانة تسكنك اليه وصرامة تؤمنك مهانته ونفاذاً في امرك يرخي عنك خناق الخوف في اضاعته لم آمن تسلل الجند عنك لواذاً (٢) ورفضهم مراكزهم واخلالهم بمواضعهم وتخلفهم عن اعمالهم آمنين تغيير ذلك عليهم والشدة على من اخترمه منهم ما ... ذلك في وهنك واخذ من قوتك وقلل من كثرتك .

اجعل خلف ساقتك رجلاً من وجوه قوادك جليداً ماضياً عفيفاً صارماً شهم الرأي

---

(١) استرخت

(٢) اللوذ بالشيء الاستتار والاحتضان به كاللواذ مثلثة واللياذ والملاوذة

شديد الحذر شكيم القوة غير مداهن في عقوبة ولا مهين في قوة في خمسين فارساً من خيلك تحشر اليك جندك ويلحق بك من يتخلف عنك بعد الابلاغ في عقوبتهم والنهك لهم والتنكيل بهم وليكن لعقوتك في المنزل الذي ترتحل عنه والمنهل الذي تقوض منه مفرطاً في النقض والتبع لمن تخلف عنك مشبداً في اهل المنهل وساكنه بالتقدم موعزاً اليهم في ازعاج الجند عن منازلهم واحراجهم من مكانهم وابعاد العقوبة الموجعة والنكال المثيل في الاشعار واصفاء الاموال وهدم العقار لمن آوى منهم آحداً او ستر موضعه واخفى محله وحذره عقوبتك اياه في الترخيص لاحد والمحاباة لذي قرابة والاختصاص بذلك لذي أثرة او هوادة ·

وليكن فرسانه منتخبين في القوة معروفين بالنجدة عليهم سوابغ الدروع دونها اشعار الحشو وحب الاستحثاث (؟) متقلدين سيوفهم سامطين كنائنهم مستعدين لهيج ان بدههم او كمين ان يظهر لهم واياك ان تقبل في دوابهم الا فرساً قوياً او برزوناً وثيجاً فان ذلك من اقوى القوة لهم واعون الظهير على عدوهم ان شاء الله ·

ليكن رحيلك اباناً واحداً ووقتاً معلوماً لتخفَّ المؤونة بذلك على جندك ويعلموا اوان رحيلهم فيقدموا فيما يريدون من معالجة اطعمتهم وأعلاف دوابهم وتسكن افئدتهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ويطمئن ذوو (الحاجات) ابان الرحيل ومتى يكون رحيلك مختلفاً تعظم المؤونة عليك وعلى جندك ويخلوا بمراكزهم ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالارجاف وينزلون بالتوهم حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة ·

اياك ان تنادي برحيل من منزل تكون فيه حتى يأمر صاحب تعبيتك بالوقوف على معسكرك اخذاً بفوهة جنبتيه باسلحتهم عدةً لامران حضر ومفاجأة من طليعة للعدوّ ان اراد نهزة او لمحت عندكم غرة · ثم مر الناس بالرحيل وخيلك واقفة وأهبتك معدة وجُنتك واقية حتى اذا استقللتم من معسكركم وتوجهتم من منزلكم سرتم على تعبيتكم بسكون ريح وهدو وحملة وحسن دعة ·

فاذا انتهيتم الى منهل اردت نزوله او هممت بالمعسكر به فاياك ونزوله الا بعد العلم بان تعرَّف لك احواله او يسبر علم دفينه ويستبطن علم اموره ثم ينهيها اليك وما صارت اليه لتعلم كيف احتمال عسكرك وكيف مأواه وأعلامه وكيف موضع عسكرك منه وهل لك اذا اردت مقاماً به او مطاولة عدوك ومكايدته فيه قوة تحملك ومدد يأتيه فانك ان لم تفعل ذلك لم تأمن ان يهجم على منزل يزعجك منه ضيق مكانه وقلة مياهه وانقطاع مواده ان اردت بعدوك مكيدة واحتجت من امرهم الى مطاولة فان ارتحلت منه كنت غرضاً

لعدوك ولم تجد الى المحاربة والاخطار سبيلا . وان اقمت به اقمت على مشقة حصر وفي ازل (١) وضيق فاعرف ذلك وتقدم فيه

فاذا اردت نزولا امرت صاحب الخيل التي رحلت الناس فوقفت متنحية من معسكرك عدة لامر ان راعك ومفزعاً لبديهة ان راعتك قد امنت باذن الله وحوله فجأة عدوك وعرفت موقعها من حربك حتى يأخذ الناس منازلهم وتوضع الاثقال مواضعها و يأتيك خبر طلائعك وتخرج دباباتك (٢) من عسكرك دبابا محيطين بعسكرك وعدة لك ان احتجت اليهم . وليكن دباب جندك بعسكرك اهل جلد وقوة قائداً او اثنين او ثلاثة باصحابهم في كل ليلة و يوم نوباً بينهم فاذا غربت الشمس ووجب (٣) نورها اخرج اليهم صاحب تعبيتك أبدالهم عسساً بالليل في اقرب من مواضع دباب النهار يتعاور ذلك قوادك جميعاً بلا محاباة لاحد منهم فيه ولا ادهان ان شاء الله

اياك ان يكون منزلك الا في خندق او حصن تأمن به بيات عدوك وتستنيم فيه الى الحزم من مكيدته . اذا وضعت الاثقال وخططت ابنية اهل العسكر لم يمدخباء ولم ينتصب بناء حتى يقطع لكل قائد ذرع معلوم من الارض بقدر اصحابه فيحتفروه عليهم (ويبنون) بعد ذلك خنادق الحسك طارحين لها دون اشجار الرماح ونصب الترسة لها بابان قد وكلت بعد بحفظ كل باب منهما رجلا من قوادك في مائة رجل من اصحابه فاذا فرغ من الخندق كان ذلك القائدان اهلا لذلك المركز (ومو)ضع تلك الخيل وكانوا هم البوابين والاحراس لذينك الموضعين ندالى (؟) الرفاهة والسعة ونقدم العسكر او التأخر عنه فان ذلك مما يضعف الوالي و يوهنه لاستنامته الى من ولاه ذلك وامنه به على جيشه

واعلم انك اذا امنت باذن الله طوارق عدوك و بغتاتهم فاذا راموا ذلك منك كنت قد احكمت ذلك واخذت بالجد فيه وتقدمت فى الاعداد له و رتقت مخوف الفتق منه ان شاء الله

اذا ابتليت ببيات عدوك او طرقك رائعاً في . . . حذراً معداً مشمراً عن ساقك مسربا لحربك قد قدمت دراجتك الى مواضعها على ماوصفت لك . . التي قدرت لك وطلائعك حيث امرتك وجندك حيث عبأت قد خطرت عليهم بنة لك ونقدم الى جندك ان (طرق) طارق او فاجأهم عدو الا يتكلم احد منهم رافعاً صوته بالتكبير مستغفرا (؟) في اجلاب معلنا للارهاب الا اهل الناحية (التي) يقع بها العدو طارقاً وليشرعوا رماحهم مادين لها في

---

(١) الازل الضيق والشدة (٢) الدبابة مشددة آلة تتخذ للحروب فتدفع في اصل الحصن فينقبون وهم في جوفها (٣) وجبت الشمس غابت

وجوههم و يرشقهم بالنبل ملبدين ترستهم لازمين لمراكزهم .. قدم من موضعها ولا منحاز ين الى غير مركزهم وليكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون .. عدوك من معسكرهم فتمد اهل تلك الناحية بالرجال من اعوانك وشرطك ومن انتخبت قبل ذلك عدة للشدائد وتدس لهم النشاب والرماح واياك ان يشهروا سيفاً يتجالدون به وتقدم اليهم فلا يكون قتالهم بالليل في تلك المواضع ممن طرقهم الا بالرماح مسندين لها الى صدورهم والنشاب راشقين به وجوههم قد ألبدوا بالترسة واستجنوا بالبيض والقوا عليهم سوابغ الدروع وحباب الحشو فان صد العدو عنهم حاملين على ناحية اخرى كبر اهل تلك الناحية الاولى و بقية العسكر سكوت والناحية التي صدر عنها العدو لازمة لمراكزها فعلت في تقويتهم وامدادهم بمثل صنيعك باخوانهم واياك وان تخمد نار رواقك واذا وقع العدو في معسكرك فأججها ساعراً لها وأوقدها حطباً جزلا يعرف بها اهل العسكر مكانك وموضع رواقك و يسكن نافر قلوبهم و يقوى واهن قوتهم و يشتد منخذل ظهورهم ولا يرجفون فيك بالظنون ويجيلون لك آراء السوء وذلك من فعالك رد عدوك بغيظه ولم يستقل منك بظفر ولم يبلغ من نكايتك سروراً ان شاء الله

فان انصرف عنك عدوك ونكل عن الاصابة من جندك وكان بخيلك قوة على طلبه او كانت لك خيل معدة وكتيبة منتخبة قدرت ان تركب بهم اكتافهم وتحملهم على سننهم فأتبعهم جريد خيل عليها الثقات من فرسانك واولو النجدة من حماتك فانك ترهق عدوك وقد أمن بياتك وشغل بكلاله عن التحرز منك والاخذ بابواب معسكره والضبط لمحارسه موهنة حماتهم لغبة (١) ابطالهم لماالقوكم عليه من التشمير والجد قد عقر الله فيهم واصاب منهم وجرح من مقاتلتهم وكسر من اماني ضلالتهم ورد من مستعلي جماحهم . وتقدم الى من توجه في طلبهم وتتبعه (ان يكونوا و) هم في سكون الريح وقلة الرفث وكثرة التسبيح والتهليل واستنصار الله عز وجل بقلوبهم والسنتهم سرا وجهراً الا لجب ضجة ولا ارتفاع ضوضاء دون ان يردوا على مطايهم و ينتهزوا فرصهم ثم يشهروا السلاح و ينضوا السيوف فان لها هيبة رائعة و بديهة مخوفة لا يقوم لها في بهمة الليل الا البطل المحارب وذو البصيرة المحامي المستميت المقاتل وقليل ماهم عند تلك المواضع ان شاء الله

ليكن اول ماتتقدم به في التهيوء لعدوك والاستعداد للقائه انتخابك من فرسان عسكرك وحماة جندك ذوي البأس والحنكة والجد والصرامة ممن قد (اعتا) دطراد الكماة وكشر عن ناجذه في الحرب وقام على ساق في منازلة الاقران ثقف الفراسة مستجمع القوة مستحصد

(١) لغب اعيا اشد الاعياء

المريرة صبورًا على اهوال الليل عارفًا بمناهز الفرص لم تمهنه الحنكة ضعفًا ولا ابلغت به السن ملالاً ولا اسكرته غرة الحداثة جهلا ولا ابطرته نجدة الاغمار صلفا جريئًا على مخاطرة التلف منقدمًا على ادراع الموت مكابرًا لمرهوب الهول منقحماً تخشي الحتوف خائضاً غمرات المهالك برأي يؤيده الحزم ونية لايخالجها الشك واهواء مجتمعة وقلوب موقنة عارفين بفضل الطاعة وعزها وشرفها وحيث محل اهلها من التأييد والظفر والتمكين ثم اعرضهم رأي عين على كراعهم واسلحتهم ولتكن دوابهم اناث عتاق الخيول واسلحتهم سوابغ الدروع وكمال آلة المحارب متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجواهر وصافي الحديد والمتخيرة من معادن الاجناس هندية الحديد او بدنية يمانية الطبع رقاق المضارب مستوية الشحذ مشطبة الضريبة ملبدين باترسة الفارسية صينية التعقيب معلمة المقابض بحلق الحديد انحاؤها مربعة ومحارزها بالتجليد مضاعفة ومحملها مستخف وكنائن النبل وجعاب القسي قد استحقبوها وقسي الشريان والنبع اعرابية الصنعة مختلفة الاجناس محكمة العمل ونصول النبل مسمومة وتركيبها عراقي وتريشها بدوي مختلفة الصوغ في الطبع شتى الاعمال في التشطيب والاستزادة ولتكن الفارسية مقلوبة المقابض منبسطة السنة سهلة الانعطاف مقربة الانحناء ممكنة المرمى واسعة الاسهم فرضها سهلة الورود معاطفها غير معنون (؟) المواتاة

ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلا من اهل خاصتك وثقاتك ونصائحك ونقدم اليهم في ضبطهم وكتم ٠٠ واستنزل نصائحهم واستعداد طاعتهم واستخلاص ضمائرهم وتعهد كراعهم واسلحتهم معفيًا لهم من النوائب التي تلزم اهل العسكر وعامة جندك ثم اجعلهم عدة لامر ان فاجأك او طارق بيتك ٠ ومُرهم ان يكونوا على اهبة معدة وحذرهم فانك لاتدري اي الساعات من ليلك ونهارك تكون اليهم حاجتك فليكونوا كرجل واحد في التشهير والترادف وسرعة الاجابة فانك عسيت ان لاتجد عند جماعة جندك مثل تلك الروعة والمباغتة ان احتجت الى ذلك منهم معونة كافية ولا أهبة معدة بل ذلك كذلك فاذكرها ولى الذين نحت (؟) عدتك وقوتك نقويًا قد قطعتها على القواد الذين وليتهم امورهم فسميت اولا وثانيا وثالثا ورابعا وخامسا الى عشرة فان اكتفيت فيما يبدهك ويطرقك لبعث واحد كان معدا لم تحتج فيه الى امتحانهم في ساعتهم تلك وقطع البعث عليهم عند ما يرهقك وان احتجت الى اثنين وثلاث وجهت منهم ارادتك ان شاء الله

وكل بخزائنك ودواوينك رجلاً امينًا صالحًا ذا ورع حاجز ودين فاضل واجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومنزلها وترحلها مع خزائنك وتقدم اليه في حفظها والتوفر عليها واتهام من يستولي على شيء منها على اضاعته والتهاون به والشدة على من دنا منها في مسير اوضامها

في منزل . وليكن عامة الجند والجيش الا من استصلحت للسير معها متنحين عنها مجانبين لها فانه ربما كانت الجولة وحدثت الفزعة فان لم يكن للخزائن ممن يوكل بها اهل حفظ لها وذب عنها اسرع الجند اليها وتداعوا نحوها حتى يكاد يتراءى ذلك بهم الى انتهاب العسكر واضطراب الفتنة فان اهل الفتن وسوء السيرة كثير وانما همتهم الشر فاياك وان يكون لاحد في خزائنك ودواوينك وبيوت اموالك مطمع او يجدوا الى اغتيالها ومرزتها (؟) ان شاء الله .

اعلم ان احسن مكيدتك اثرًا في العامة وابعدها صوتًا في حسن القالة ما نلت الظفر فيه بحسن الروية وحزم التدبير ولطف الحيلة فلتكن رويتك في ذلك وحرصك على اصابته لا بالقتال واخطار التلف . وادسس الى عدوك وكاتب رؤوسهم وقادتهم وعدهم المنالات ومنهم الولايات وسوغهم التراب وضع عنهم الاحن واقطع عنهم اعناقهم بالمطامع واملأ قلوبهم بالترهيب وان امكنتك منهم الدوائر وأصار بهم اليك الرواجع وادعهم الى الوثوب بصاحبهم او اعتزاله ان لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقة ولا عليك ان تطرح الى بعضهم كتبًا كأنها جوابات كتب لهم اليك وتكتب على السنتهم كتبًا اليك يدفعها اليهم ويحمل بها صاحبهم عليهم وتنزلهم عنده منزلة التهمة فلعل مكيدتك في ذلك ان يكون فيها افتراق كلمتهم وتشتيت جماعتهم واحش قلوبهم سوء الظن من واليهم فيوحشهم منه خوفهم اياه على انفسهم اذا ايقنوا بانها منايام فان بسط يده بقتلهم واولغ في دمائهم سيفه واسرع في الوثوب بهم اشعرهم جميعًا الخوف وشملهم الرعب ودعاهم اليك الهرب وتهافتوا نحوك بالنصيحة وان كان متأنيًا محتملاً رجوت ان تستميل اليك بعضهم وتستدعي بالطمع ذوي الشر منهم وتنال بذلك ما تحب من اخبارهم ان شاء الله .

اذا تدانى الصفان وتواقف الجمعان واحتضرت الحرب فعبأت اصحابك لقتال عدوهم فاكثر من لا حول ولا قوة الا بالله والتوكل على الله والتفويض اليه ومسألته توفيقك وارشادك وان يعزم لك على الرشد والعصمة الكالئة والحيطة الشاملة .

ومر جندك بالصمت وقلة التلفت الى المشار له وكثرة التكبير في انفسهم والتسبيح بضمائرهم والا يظهروا تكبيرًا الا في الكرات والحملات وعند كل زلفة يزدلفونها فاماوهم وقوف فان ذلك من الفشل والجبن . وليكثروا من لا حول ولا قوة الا بالله حسبنا الله ونعم الوكيل . اللهم انصرنا على عدوك وعدونا الباغي واكفنا شوكته المستحدة وايدنا بملائكتك الغالبين واعصمنا بعونك من الفشل والعجز انك ارحم الراحمين .

وليكن في عسكرك مكبرون بالليل والنهار قبل المواقعة يطوفون عليهم يحضونهم على القتال ويحرضونهم على عدوهم ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ويذكرونهم الجنة

ورخاء اهلها وسكانها ويقولون اذكروا الله يذكركم واستنصروه ينصركم . وان استطعت ان تكون انت المباشر لتعبية جندك ووضعهم من راياتك ومعك رجال من ثقات فرسانك ذوو سن وتجربة ونجدة على التعبية وامير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابه هذا ان شاء الله ايدك الله بالنصر وغلب لك على القوة واعانك على الرشد وعصمك من الزيغ واوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء ومنازل الاصفياء والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

ومن الرسائل المفردات في الشطرنج رسالة عبد الحميد

اما بعد فان الله شرع دينه بانهاج سبله وايضاح معالمه باظهار فرائضه وبعث رسله الى خلقه دلالة لهم على ربوبيته واحتجاجًا عليهم برسالاته ومقدمًا اليهم بانذاره ووعيده ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وحيه وقفى به رسله وابتعثه لاحياء دينه الدارس مرتضيًا له على حين انطمست له الاعلام مختفية وتشتت السبل متفرقة وعفت آثار الدين دارسة وسطع رهج الفتن واعتلى قتام الظلم واستنهد (١) الشرك واسدف (٢) الكفر وظهر اولياء الشيطان لطموس الاعلام ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق واستطرق الجور واستنكح (٣) الصدوف عن الحق واقمطر (٤) سلهب (٥) الفتنة واستضرم لقاحها وطبقت الارض ظلمة كفر وغيابة فساد فصدع بالحق مأمورًا وبلغ الرسالة معصومًا ونصح الاسلام واهله دالاً لهم على المراشد وقائدًا لهم الى الهداية ومنيرًا لهم اعلام الحق ضاحية مرشدًا لهم الى استفتاح باب الرحمة واعلان عروة النجاة موضحًا لهم سبل الغواية زاجرًا لهم عن طريق الضلالة محذرًا لهم الهلكة موعزًا اليهم في التقدمة ضاربًا لهم الحدود على ما يتقون من الامور ويحذون وما اليه يسارعون ويطلبون صابرًا نفسه على الاذى والتكذيب داعيًا لهم بالترغيب والترهيب حريصًا عليهم متحننًا على كافتهم عزيزًا عليه عنتهم رؤوفا بهم رحيما تقدمه شفقته عليهم وعنايته برشدهم الى تجريد الطلب الى ربه فيما بقاء النعمة عليهم وسلامة اديانهم وتخفيف اواصر الاوزار عنهم حتى قبضه الله اليه صلى الله عليه ناصحًا منتصحا امينًا مأمونا قد بلغ الرسالة وادى النصيحة وقام بالحق وعدل عمود الدين حتى اعتدل ميله واذل الشرك واهله وانجز الله له وعده واراه صدق اسبابه في اكماله للمسلمين دينه واستقامة سننه فيهم وظهور شرائعه عليهم قد ابان لهم موبقات الاعمال ومفظعات الذنوب ومهبطات الاوزار وظلم الشبهات وما يدعو اليه نقصان الاديان وتستهويهم

(١) نهد الرجل نهض ولعدوه صمد له والمناهدة المناهضة في الحرب (٢) اسدف اظلم (٣) يقال نكح النعاس عينه غلبها (٤) اقمطر اشتد (٥) السلهب الطويل من الرجال ومن الخيل ما عظم وكاد

به الغوايات واوضح لهم اعلام الحق ومنازل المراشد وطرق الهدى وابواب النجاة ومعالق العصمة غير مدخر لهم نصحاً ولا مبتغ في ارشادهم غنما

فكان مما قدم اليهم فيه نهيه واعلمهم سوء عاقبته وحذرهم اصره واوعزاليهم ناهياً و واعظاً و زاجراً الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة عليها لما في ذلك من عظيم الاثم وموبق الوزر مع مشغلتها عن طلب المعاش واضرارها بالعقول ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع المسلمين وقد بلغ امير المؤمنين ان ناساً ممن قبلك من اهل الاسلام قد الهجهم الشيطان بها وجمعهم عليها والف بينهم فيها فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم الى ممساهم ملهية لهم عن الصلوات شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم وافترض عليهم من شرائع اعمالهم مع مداعبتهم فيها وسوء لفظهم عليها وان ذلك من فعلهم ظاهر في الاندية والمجالس غير منكر ولا معيب ولا مستفظع عند اهل الفقه وذوي الورع والاديان والاسنان منهم فاكبر امير المؤمنين ذلك واعظمه وكرهه واستكبره وعلم ان الشيطان عند ما يئس منه من بلوغ ارادته في معاصي الله عز وجل بمصر المسلمين ومجمعهم صراحاً وجهاراً اقدم بهم على شبهة مهلكة وزين لهم ورطة موبقة وغرهم بمكيدة حيله ارادة لاستهوائهم بالخدع واجتيالهم(١) بالشبه والمراصد الخفية المشكلة بكل مقيم على معصية الله صغرت او كبرت مستحلاً لها مشيداً بها مظهراً لارتكابه اياها غير حذر من عقاب الله عز وجل عليها ولا خائف مكروهاً فيها ولا رعب من حلول سطوته عليها حتى تلحقه المنية فتختلجه وهو مصر عليها غير تائب الى الله منها ولا مستغفر من ارتكابه اياها فكم قد اقام على موبقات الآثام وكبائر الذنوب حتى مد به مخرم ايامه .

وقد احب امير المؤمنين ان يتقدم اليهم فيما بلغه عنهم وان ينذرهم ويوعزاليهم ويعلمهم ما في اعناقهم عليها ومالهم في قبول ذلك من الحظ وعليهم في تركه من الوزر فآذن (٢) بذلك فيهم وأشده في اسواقهم وجميع انديتهم واوعز اليهم فيه وتقدم الى عامل شرطتك في انهاك العقوبة لمن رفع اليه من اهل الاعتكاف عليها والاظهار للعب بها واطالة حبسه في ضيق وضنك وطرح اسمه من ديوان امير المؤمنين وافطمهم عما لهجوا به من ذلك والتمس بشدتك عليهم فيه وانهاكك بالعقوبة عليه ثواب الله وجزاءه واتباع امير المؤمنين ورأيه ولا يجدن احد عندك هوادة في التقصير في حق الله عز وجل والتعدي لاحكامه فتحل بنفسك ما يسوءك عاقبة مغبته وتتعرض به لغير الله عز وجل ونكاله واكتب الى امير المؤمنين ما يكون منك ان شاء الله والسلام .

---

(١) اجتيالهم حوّلهم عن طريق قصدهم (٢) آذنه الامر وبه اعلمه

وله تحميد في ابي العلاء الحروري :

الحمد لله الناصر لدينه واوليائه وخلفائه المظهر للحق واهله والمذل لاعدائه واهل البدعة والضلالة الذي لم يجمع بين حق و باطل واهل طاعة ومعصية الا جعل النصرة والفلج والعاقبة لاهل حقه وطاعته وجعل الخزي والذلة والصغار على اهل الباطل والخلاف والمعصية حمداً يتقبله و يرضاه و يوجب به لامير المؤمنين واهل طاعته الزيادة التي وعد من شكره والحمد لله على ما يتولى من اعزاز امير المؤمنين ونصره وافلاجه واظهار حقه على ما وقع باعدائه واهل معصيته والخلاف عليه من سطواته ونقماته و بأسه فيما ولي امير المؤمنين من موالاة من والاه وعداوة من بغى عليه وعاداه لا يكله في شيء من الامور الى نفسه ولا الى حوله وقوته ومكيدته فانه لا حول ولا قوة لامير المؤمنين الا به .

تحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العلي مكانه المنير برهانه العزيز سلطانه الثابتة كلماته الشافية آياته النافذ قضاؤه الصادق وعده الذي قدَرَ على خلقه بملكه وعزَّ في سماواته بعظمته ودبر الامور بعلمه وقدرها بحكمه على ما يشاء من عزمه مبتدعاً لها بانشائه اياها وقدرته عليها واستصغاره عظيمها نافذاً ارادته فيها لا تجري الا على تقديره ولا تنتهي الا الى تأجيله ولا تقع الا على سبق من حتمه كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وحيه لا مَعدِل لها عنه ولا سبيل لها غيره ولا علم احد بخفاياها ومعادها الا هو فانه يقول في كتابه الصادق وعنده مفاتح الغيب الى آخر الآية .

ولعبد الحميد في فتح يعظم فيه امرَ الاسلام

اما بعد فالحمد لله الذي اصطفى الاسلام ديناً رضي شرائعه وبين احكامه ونور هداه ثم كنفه بالعز المؤيد وايده بالظفر القاهر وآزره بالسعادة المنتجبة وجعل من قام به داعياً اليه من جنده الغالبين وانصاره المسلطين كلما قهر بهم مناوئاً او رشهم رباعهم المأهولة وامواهم المثرية ودارهم الفسيحة ودولتهم المطولة امراً حتمه على نفسه ثم جعل من عاندهم وابتغى غير سبيلهم مسلماً قد استهوته ذلة الكفر بظلمها وحيرة الجهالة بجوارها وتيه الشقاء بمغاويه وكلما ازدادوا لدعوة الحق اباءً ازداد الحق اليهم ازدلافاً وعليهم عكوفاً وفيهم اقامة الى ان يحل بهم عزّ الغلبة ونجاة التجاوز داعين فيما شوقهم اليه محافظين على ما ندبهم له قد بذلوا في طاعة الله دماءهم وقبلوا المعروض عليهم في مبايعة ربهم لهم بانفسهم الجنة محمود صبرهم مسهل بهم عزمهم الى خير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذي اكرم محمداً صلى الله عليه بما حفظ له من امور امته ان اختار لمواريث

نبوته ما اصار الى امير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نهوض به وشج عليه ومنافسة فيه ان فعل وفعل (؟)

والحمد لله الذي تمم وعده لرسوله وخليفته في امة نبيه مسدداً له فيما اعتزم عليه . والحمد لله المعز لدينه المتولي نصر امة نبيه المتخلي عمن عاداهم وناواهم حمداً يزيد به من رضي شكره وحمداً يعلو حمد الحامدين من اوليائه الذين تكاملت عليهم نعمه فلا توصف وجلت اياديه فلا تحصى الذي حملنا ما لا قوة بنا على شكره الا بعونه وبالله يستعين امير المؤمنين على ذلك واليه يرغب انه على كل شيء قدير .

ولعبد الحميد ايضاً

اما بعد فالحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه وارتضاه ديناً لملائكته واهل طاعته من عباده وجعله رحمة وكرامة ونجاة وسعادة لمن هدى به من خلقه واكرمهم وفضلهم وجعلهم بما انعم عليهم منه اولياءه المقربين وحزبه الغالبين وجنده المنصورين وتوكل لهم بالظهور والفلج وقضى لهم بالعلو والتمكين وجعل من خالفه وعزب عنه وابتغى سبيل غيره اعداءه الاقلين واولياء الشيطان الاخسرين واهل الضلالة الاسفلين مع ما عليهم في دنياهم من الذل والصغار . فاعجل لهم فيها من الخذلان والانتقام الى ما اعد لهم في آخرتهم من الخزي والهوان المقيم والعذاب الاليم انه عزيز ذو انتقام

وكتب عبد الحميد الى اخ له في مولود ولد له وهو اول مولود كان

اما بعد فان مما اتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بمزيتها وأصفيت بخصيصتها كانت أمرّ لي من هبة الله لي ولداً سميته فلاناً واملت ببقائه بعدي حياة وذكرى وحسن خلافة في حرمتي واشراكه اياي في دعائه شافعاً لي الى ربه عند خلواته في صلاته وحجه وكل موطن من مواطن طاعته فاذا نظرت الى شخصه تحرك به وجدي وظهر به سروري وتعطفت عليه مني أنسة الولد وتولت عني به وحشة الوحدة فانا به جذل في مغيبي ومشهدي أحاول مس جسده بيدي في الظلم وتارة اعانقه وارشفه ليس يعدله عندي عظيمات الفوائد ولا منفسات الرغائب . سرني به واهبه لي على حين حاجتي فشد به أزري وحملني من شكره فيه ما قد آدني بثقل حمل النعم السالفة التي به المقرونة سراؤها في العجب بتارات ما يدركني به من رقة الشفقة عليه مخافة مجاذبة المنايا اياه ووجلاً من عواصف الايام عليه

فاسأل الله الذي امتن علينا بحسن صنعه في الارحام تأديبه بالزكاء وحرسه بالعافية ان يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفي غيره وان يجعل ما يهب لنا من سلامته والمدة في عمره

موصولا بالزيادة مقرونًا بالعافية محوطا من المكروه فانه المنان بالمواهب والواهب للمنى لاشريك له · حملني علي الكتاب اليك لعلم ما سررت به علمي بحالك فيه وشركتك اياي في كل نعمة اسداها اليّ ولي النعم واهل الشكر اولى بالمزيد من الله جل ذكره والسلام عليك

وكتب عبد الحميد عن هشام بن عبد الملك الى يوسف بن عمر وهو باليمن في السلامة فان امير المؤمنين كتب اليك وهو في نعمة الله عليه وبلائه عنده في ولده واهل لحمته والخاص من اموره والعام والجنود والقواصي والثغور والدهماء من المسلمين على مالم يزل ولي بالنعم (؟) فتولاه من امير المؤمنين حافظا له فيه ومكرما له بالحياطة لما الهمه الله فيه من امر رعيته وعلى اعظم واحسن واكمل ما كان يحوطه فيه ويذب له عنه والله محمود مشكور اليه فيه مرغوب · احب امير المؤمنين لعلمه بسرورك به ان يكتب اليك بذلك لتحمد الله عليه وتشكره به فان الشكر من الله باحسن المواضع واعظم المنازل فازدد منه تزدد به وحافظ عليه وتحفظ به وارغب فيه يهد اليك مزيد الخير ونفائس المواهب وبقاء النعم فاقريء على من قبلك كتاب امير المؤمنين اليك ليسر به جندك ورعيتك ومن حمله الله النعم بامير المؤمنين ليحمدوا ربهم على ما رزق الله عباده من سلامة امير المؤمنين في بدنه ورأفته بهم واعتنائه بامورهم فان زيادة الله تعلو شكر الشاكرين والسلام

ولعبد الحميد الى مروان في حاجة

ان الله بنعمته عليّ لما رزقني المنزلة من امير المؤمنين جعل معها شكرها مقرونًا بها فهي تنمى بالزيادة والشكر مصاحب لها فليست تدخلني وحشة من ابناء حاجتي وانا اعلم انه لو وصل الى امير المؤمنين علم حالي اغناني عن استزادته ولكني تكنفتني مؤن استنفضت مافي يدي وكنت للخلف من الله منتظرًا فاني انما انقلب في نعمه واتمرغ في فوائده واعتصم بسالف معروفه كان عندي

ولعبد الحميد في وصف الاخاء

فان اولى ما اعتزم عليه ذوو الاخاء وتوصل اليه اهل المودات ما دعا اسبابه صدق التقوى وبنيت دعائمه على اساس البر ثم انهد الينا حزين (؟) التواصل وشيده مستعذب العشرة فادعم قويًا وصفى مرنقا وبخاصه (؟) الحقة منعطفة وسكنت به القلوب انيسة وسمت من مواصلته الهمم مستعلية عن كل زائغ معتاف ومخوف عارض يخترم مسكة الاخاء ويختار مربوب المقة ضنًا بما استعذبوا من محمود وثائقه وازديادًا فيما تمطقوا به من حلاوة جناه فاذا استحكم لهم مدخور الصفاء بثبات اواخيه وظهور أعلامه ومحصول مخبره وثقة مواده كان سرورهم باعتلاقه وابتهاجهم بوجدانه وانما هم صلته وبذلهم رعايته وحياطتهم محمودة بحيث

نالوا من معرفته حظوته واستولوا عليه من مزية كرمه وتعرفوا من ذخيرة عائدته ومأمون حفاظه وكشف لهم عن نفسه مظهراً اعلامه مبدياً دفينته طارحاً قناع سره معلناً مكنون ضميره في نأي الدار وجدان (؟) المجتمع باظهار ما استتر من المحاسن وبث في الحقب من المكارم قياماً لهم بالنصرة وحياطاً للمودة وترغيباً في العشرة فكان اكهف لجاء واحرز حصن واحصف جنة واعون ظهير وابقى ذخيرة واعظم فائدة واشرف كنز والخرصنيعة وآنق منظر وابنع زهرة اكثر الاشياء ريعاً وانماها وُصلاً وامدها سبباً واقواها ايداً واحلاها ذوقاً وادعمها ثباتاً وارساها ركناً لا يدخل مستحقها سآمة ملال ولا كلال مهنة ولا تثبيط ونية ولا ضعف خوَر لنزول بائقة او طروق طارقة من عوارض الاقدار وحوادث الزمان بل مواسياً في ازمهامتورطاً غمرات قحمها (١) متدرعاً هائل بوائقها مستلحماً (٢) نواظر مقاطعها حتى تصير به الاقدار الى تناهيها ويبلغ به القضاء مقداره غير منان النصرة ولا بَرِم التعب يرى تعبه غنماً ونصبه دعة وكلفه فائدة وعمله مقصراً وسعيه مفرطاً واجتهاده مضيعاً عدل الولد في بره والوالد في شفقته والاخ في نصرته والجار في حفظه والذخر في ملكه فاين المعدل عن مثله او كيف الاصابة لشبهه او انى عوض من فقده جمعنا الله واياك على طاعته والفنا بمحابه وجعل اخوتنا في ذاته

قد حددت لك اي اخي الاخاء متشعباً ووصفته لك مخلصاً وانتهيت بك الى غاية اهل العقل منه وما تواصل اهل الرأي عليه ودعا اليه الاخاء من نفسه منتطقاً به ضامناً له ما فرط في ذلك تقصير من اهله وداخله تضييع من حملته او حاطه احكام وكنفه حفاظ من رعاته ٠

وافاني كتابك باساءات من ذلك وعقلي محصور ورأيي منقسم وذهني فيما يتأهب به الامير ٠٠ والله من خزر الترك واختلاف رسله الى جبال اللان والطبران وما والاهما بنوافذ امره ومخارج رأيه فانا مصيخ السمع للفظه عقل العقل عن سوى امره محتضر الذهن في تدبيرهم ذهل التقلب عن تفنين القول وتشعيب الكلام في تصنيف طبقات الرجال ومن اين دخل عليهم نقص الاخاء وكيف خانهم مونق الصفاء وقد صرحت لك عن رأي ذوي الصفاء وكشفت لك خباء الاخاء وجمعت لك الف مودة اهل الحجى فتلق ما وصفت لك بقلب فهم عقول ذي ميزة يقظان وذهن جامع حافظ ذي ثقافة راع احضرك الله عصمة التوفيق وسددك الله لاصابة الرشد ومكن لك صدق العزيمة والسلام ٠

---

(١) القحمة بضم القاف الاقتحام في الشيء والمهلكة

(٢) استلحم محبولا روهق في القتال

ومن رسائل عبد الحميد ما كتب عن مروان الى هشام يعزيه بامرأة من حظاياه (١)

ان الله تعالى امتع امير المؤمنين من انسيته وقرينته متاعاً مده الى اجل مسمى فلما تمت له مواهب الله وعاريته قبض اليه العارية ثم اعطى امير المؤمنين من الشكر عند بقائها والصبر عند ذهابها انفس منها في المنقلب وارجح في الميزان واسنى في العوض فالحمد لله وانا اليه راجعون ·

وكتب موصياً بشخص يقول :

حق موصل كتابي اليك كحقه عليَّ اذ جعلك موضعاً لامله ورآني اهلاً لحاجته وقد انجزت حاجته فصدق امله ·

وكتب في فتنة بعض العمال من رسالة :

حتى اعترافي حنادس جهاله ومهاوي سبل ضلاله ذللاً لسباقه وسلماً في قياده الى نُزُل من حميم وتصلية جحيم سوى ما انتجت الحفيظة في نفسه من عوائد الحسك وقدحت الفتنة في قلبه من نار الغضب مضادة لله تعالى بالمناصبة ومبارزة لامير المؤمنين بالمحاربة ومجاهرة للمسلمين بالمخالفة الى ان اصبح بفلاة قفرونية صفر بعيدة المناط يقطع دونها النياط وكذلك الله يفعل بالظالمين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ·

وكتب من رسالة اخرى الى اهله وهو منهزم مع مروان :

اما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور فمن ساعده الحظ فيها سكن اليها ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها وشكاها مستزيداً لها وقد كانت اذاقتنا افاويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ورمحتنا مولية فملح عذبها وخشن لينها فابعدتنا عن الاوطان وفرقتنا عن الاخوان فالدار نازحة والطير بارحة · وقد كتبت والايام تزيدنا منكم بعداً واليكم وجداً فان تتم البلية الى اقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا وان يلحقنا ظفر جارح من اظفار من يليكم نرجع اليكم بذل الاسار والذل شر جار · نسأل الله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ان يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الابدان والاديان فانه رب العالمين وارحم الراحمين ·

وله من رسالة (١) كتب بها عن آخر خلفاء بني امية وهو مروان الجعدي لفرق العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد قائمين بالدولة العباسية ·

فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية من يد الفئة العجمية واثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة ونصحو من هذه السكرة فسينضب السيل وتمحى آية الليل والله مع الصابرين والعاقبة للمتقين

---

(١) هذه الرسائل الاربع منقولة عن شرح رسالة ابن زيدون (٢) اوردها صاحب كتاب عنوان المرقصات والمطربات

الحماسة البصرية (١)

نقدم ابو تمام الطائي فيما نحسب غيره من زعماء القريض وحملة رايات الادب لجمع ماوقع اختياره عليه من شعر العرب العرباء وسماه (الحماسة) وحذا حذوه غيره في ضم شتيت شعر العرب ولكل اختياره ومنهم الشيخ ابو الحسن صدر الدين علي بن ابي الفرج بن الحسن البصري الف حماسته برسم الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز بن الملك الظاهر سنة ٦٤٧ هجرية وسماها الحماسة البصرية . قال في مقدمته : توخيت في تحرير مجموع يحتوي على قلائد اشعارهم (العرب) وغرر اخبارهم مجتنباً للاطالة والاطناب بما تضمنته ابواب الكتاب كامالي العلماء وحماسات الادباء ودواوين الشعراء من فحول المحدثين وجواهر الكلام غير انهم قد نسبوا فيها اشياء الى غير قائليها ولم يقيدوا الكتاب بترجمة ابواب فغدت فرائده متبددة الانتظام مستصعبة على الحفظ والافهام فجاء مشتملاً على غرائب البديع وملح التصريف والترصيع ثم ان الشعر على اختلاف معانيه واصوله ومبانيه ينقسم الى نعوت واوصاف فما وصف به الانسان من الشجاعة والشدة في الحرب والصبر في مواطنها يسمى حماسة وبسالة وما وصف به من حسب وكرم وطيب محتد سمي مدحاً وتقريظاً وفخراً وما اثني عليه بشيء من ذلك ميتاً يسمى رثاء وتأبيناً وما وصفت به اخلاقه المحمودة من حياء وعفة واغضاء عن الفحشاء ومسامحة الاخلاء سمي ادباً وما وصف به النساء من حسن وجمال وغرام بهن سمي غزلاً ونسيباً وما وصف به من ايقاد النيران ونباح الكلاب سمي قرى وضيافة وما وصف به من بخل وجبن وسوء خلق ونميمة سمي هجاء وما وصفت به الاشياء على اختلاف اجناسها وانواعها سمي نعتاً ووصفاً وملحاً وما ذكر به الانابة الى الله تعالى ورفض الدنيا سمي زهداً او عظة . وهاك نموذجات منه قال رجل من لخم يحرض الاسود اللخمي وذلك انه كانت حرب بين ملوك غسان وملوك العراق وهم لخم فظفر الغسانيون باللخميين وقتلوا جماعة منهم ثم في آخر السنة التقوا في ذلك الموضع وكان قد جمع اللخميون جمعاً عظيماً فظفروا بالغسانيين واسروا منهم جماعة واراد ملكهم ابن المنذر الاسود البقاء عليهم فقام رجل من قومه وكان قد قتل له اخ يحرضه على قتلهم فقال .

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا ... ولا يسوغه المقدار ما وهبا
واحزم الناس من ان نال فرصته ... لم يجعل السبب الموصول مقتضبا
وانصف الناس في كل المواطن من ... سقا المعادين بالكأس الذي شربا
ومنها
لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها ... ان كنت شهماً فالحق رأسها الذنبا
ومنها
هم اهلة غسان ومجدهم ... عال فان حاولوا ملكاً فلا عجبا
وعرضوا بفداء واصفين لنا ... خيلاً وابلاً تروق العجم والعربا
ايحلبون دما منا ونحلبهم ... رسلاً لقد شرفونا في الورى حلبا

(١) في دار الكتب المصرية الجزء الاول منه

المتحفان المصريان

المتحف المصري القديم

من طاف في أرجائه وتجول بين معروضاته وحدق نظره في عادياته وغرائب آثاره — أدرك لأول وهلة عجزه عن ان يفي تلك الآثار حقها من الوصف وبيان المعنى الذي وضعت له والغرض الذي اتخذت من أجله . وان ذلك المتحف بما حواه من الآثار الجمة التي كادت تفوق الحصر كالبحر الزاخر المتلاطم بالامواج : ففيه أدوات وهنات (خرداوات) لا يكاد يتبينها الطرف لدقتها وصغر حجمها كما ان فيه من المحاريب والتماثيل الهائلة.والعمد الممددة أو المائلة.ماينوء بالعصبة أولي القوة ويحتاج في زحزحته من مكانه الى تعضيد الآلات وأعمال الماكينات فكيف يتسنى للكاتب ان يودع أوصافاً وملاحظات غير محدودة ـ في مقالة محدودة . ذات سطور معدودة. سئل بعض الوعاظ عن معنى قوله تعالى « والسماء ذات الحبك » فأجاب بقوله : السماء هي التي نشاهدها فوق رؤوسنا وأما الحبك فهو شيء لانعرفه لانحن ولا أنتم . وهكذا أراني عاملا في الاعتذار لأديب كلفني وصف المتحف وآثاره : فاقول : المتحف بناء جليل بجوار قصر النيل وأما العاديات التى فيه فشيء لاأعرفه.ولا يتيسر لي وصفه : المتحف المصري مكتبة تاريخ ومعجم هيروغليف ومعرض صناعة وهيكل عبادة. والباحث في عادياته يلزمه ان يعرف — عدا عما ذكر — التاريخ الطبيعي والكيمياء والهندسة وان يكون له ذوق خاص في الفنون الجميلة كالنحت والنقش والتصوير والا كان شأنه ان يدخل فيرى كل شيء ثم يخرج فلا يبقى في ذهنه شيء اللهم الا وقفة على رأس « رعمسيس الثانى » تنتزع المرء من عالم الشهادة الى عالم الغيب.وتقذفه فيها أمواج اليقين على صخور الريب .

اذا دلنا النيل بصراحة على ان الامة المصرية القديمة أمة زراعية بطبيعتها ـ فان هذا المتحف يدلنا باكثر صراحة على انها كانت أيضاً أمة صناعية ضربت في اتقان الصنائع وأحكامها بسهم وافر

أما الكهانة والديانة والعبادة وسر الروح والموت والحساب والعقاب فهذا يكاد ينطق به كل أثر تقع عينك عليه في هذا المتحف .

وقد راعت الحكومة النظير في البناء الذي شيدته لتلك الآثار . فكان فخما مفخما مثلها : بل ربما قاسمها اعجاب الزائرين . ولفت اليه عنها أنظار المتفرجين .

والمتحف قسمان : وقد وضع في القسم السفلى العاديات الضخمة الهائلة : ففيه ألواح وصفائح حجرية كبيرة جدا وقد رسم عليها بالخط البرباني صور طيور وحيوانات واشارات ورموز أخر ويتخللها صور شخوص أيضاً . وهذه النقوش تراها منبثة على ظاهر التوابيت والنواويس والتماثيل وقلما يخلو أثر منها . وأكثر ما يرى بين تلك النقوش من الحيوانات صور الجعلان والعجول والغربان ثم القرود والبواشق وبنات آوى . ولا أذكر أني رأيت ما بين تلك الصور صورة فرس أو فارس فكأن المصريين القدماء ما كانوا يقتنون الخيول ولا يزاولون الفروسية .

وقد ترى على ظاهر التابوت الحجري صورة بقرة يحلبها رجل وقد ربط عجلها من مقوده باحدي قوائمها كيلا يفلت ويضل .

والفرق بين التابوت والناووس ان الأول على هيئة الصندوق من الحجر أو الخشب ويوضع على الارض كما يوضع الصندوق . أما الناووس فوضعه عمودي وفتحته على طول الانسان المقابل له بحيث يمكنه ان يدخل تلك الفتحة كما يدخل من باب الدار . وترى بين المعروضات موائد من حجر على أشكال مختلفة . وهي كمذابح يضع عليها كهنة المصريين الادوات التي يمارسون بها طقوس عبادتهم .

وترى تماثيل حجرية هائلة جدا منها ماهو على اسم المعبودات ومنها ماهو على اسم الملوك والفراعنة . وشأن المصريين كشأن اليونان الاقدمين: من حيث ان القبيلين مزجوا بين معبوداتهم وملوكهم حتى اختلط حابلهم بنابلهم . وقد نحتوا من حجر الغرانيت سفينة سموها مقدسة . وكأن المقدسة عندهم هي التي يتخذونها للجنائز ونقل الموتى من شاطئ الى آخر . ويوجد من تلك السفن زورقان كبيران كالزوارق الاعتيادية وباقيها مثل صغيرة تمثل الكبيرة في سواريها وأشرعتها وملاحيها. وهي في الدور العلوي وليس الاكثر من التوابيت الحجرية والخشبية والاولى مغطاة باحجار منحوتة على شكل الانسان تمثل الميت المودع فيها أما الاخرى الخشبية فيرسم على غطائها صور ذات ألوان وأصباغ تمثل الميت أيضاً. وفي هذا القسم كثير من الاحجار المختلفة في الحجم والشكل فمنها العمودي ومنها الهرمي وكثير منها شظايا حفظت لتجمع مع مايوائمها ويأتلف معها

أما الدور العلوي ففيه معظم العاديات وأنفس ذخائرها وأثمن كنوزها : ومن ذلك مجموعة الحلي والمصوغات. ومجموعة المومياوات البشرية. وأخرى للمومياوات الحيوانية. ومجاميع للنسيج والخزف وأجناس المعبودات والتوابيت والامتعة والادوات والخرثي في نظير ذلك مما كان المصريون القدماء يرتفقون به في منازلهم ويعتمدون عليه في قضاء مصالحهم ومزاولة مختلف مهنهم وأعمالهم . والمومياء كناية عن جثة الميت تعالج بالأدوية والعقاقير ثم تشد وتلف بقطع ولفائف من النسيج شدا ولفاً محكمين على شكل خاص فتحفظ بذلك من البلى وتصل سليمة الى الدار الاخرى

ويوجد في المتحف من تلك المومياوات زهاء عشرين مومياء ما بين ملوك وملكات وقواد وكهان وأطفال صغار. وفيها مومياء أعظم وأجل ملك قام في تاريخ مصر القديم وهو رعمسيس الثاني من ملوك العائلة التاسعة عشرة واذا نظرت

الى تلك الجثث رأيت عجباً وباعثاً على الاتعاظ والدهشة الى حد الذهول وانفعال المشاعر. ولم يبق من تلك التجاليد الا رق من جلد على فخ من عظم. وقد تتراءى لك مزع (قطع) اللحم محمرة أو كامدة اللون لكنها لاطئة على الاعضاد والافخاذ حتى عادت كالجلد اليابس. ومن تلك الجثث ماهو سليم تام الجوارح ومنها ماتشوه بهتم أسنانه أو صلم آذانه أو سمل عينه أو هشم أنفه. ومنها ما أمسى لونه أسود كالزنجي. ومنها المحمر والرصاصي اللون وما استولت عليه الكمدة

وقد قال أبو النجم الشاعر العربي ان جذب الليالي وكرور الايام عليه حلتت شعر رأسه وميزت عنه قنزعاً عن قنزع. فماذا يقول هؤلاء الفراعنة وقد كرت عليهم آلاف من السنين فوق الارض وتحتها ثم فوقها ثانية اذا رأينا شعورهم مدلاة خصلا وقنازع ذات ألوان منكرة لايدري هل هي طبيعية أو نشأت عن جذب دهر الدهارير. أوتأثير الادوية والعقاقير

وأذا رأى المرء هذه المومياوات تذكر ما قاله ابن خلدون من أن الاقدمين ما كانوا اضخم مناجثة ولا أطول قامة الى الحد الذي وصفه القصاص والمخرقون وانما هم امم أمثالنا بدليل تلك المومياوات التي عثروا عليها في المدافن والنواويس. كما ان تقليب الفكر في هذه الجثث يوحي الى النفس بان العذاب الذي أوعد به الكافرون في برازخهم لايصيب الا الروح. والا فيلزمنا القول بان أموات المصريين الاقدمين كانوا على عقيدة صحيحة تنجيهم من عذاب البرزخ. أو انهم لم تبلغهم دعوة رسول فما كانوا معذبين. أو يقال ان صناعة التحنيط المصرية كانت تحول بين القدرة الالهية وبين التنكيل بهذه الموميات فلا يصيبها شر ولا يلحقها أذى. اللهم غفرا. أما المومياوات الحيوانية فلها مستودع خاص بها. وترى هناك تماسيح طوال الواحد زهاء أربعة أمتار. وسمكة طولها أكثر من متر وطيور

ماء ودجاج وأفراخ وكلاب وقطط وقرود وغزلان ووعول وخرفان وهذه الاجناس الاخيرة ماثلة امام النظارة هيا كل عظام مجردة عن اللحم . كما ان بعض الطيور والقرود لها نواويس تناسب حجمها قد أودعت فيها . و بين هذه المومياوات كثير من الاصداف والابواق والقواقع البحرية وعدة قطع من الذبل (عظم السلاحف) ومن بيض الدجاج و بيض آخر أكبر منه وأصغر من بيض النمام . وقد الحقوا بهذه المومياوات الحيوانية موميات نباتية فترى غصونًا وأوراق أشجار وأثمارا وضروبًا اخرى من النبات وحبوبًا و بذورا وعدة أقراص من الخبز وقرص عسل من شمع النحل . وكلها معالجة بالادوية والعقاقير ومحفوظة بذلك من الاندثار

واذا حفظ المصريون أجساد أمواتهم من البلى لتقوم سليمة ساعة الحشر والنشر فلا بدع اذا تداركوا لهم من أطايب الزاد وشهي الاثمار مايقوون به على تحمل اعباء الحساب . ولكن ما الغرض من حفظ جثث الكلاب والقطط والقرود ياترى ؟ وقد خصصوا في المتحف مكانًا للحلي وأدوات الزينة وانك لترى فيها قطعًا نفيسة جدا . واذا أدركت كنه بعضها وفقهت الغرض الذي تتخذ لاجله كالاسورة والعقود والخواتيم — فانك ترى منها مالا تعرف له مغزى ولا تفقه له غرضًا بل اذا حاول المرء وصفه بقلمه أو لسانه فلا يقدر عليه . ومن ثمة كانت الزائرات من نساء الافرنج يصورون ما يستحسنه من تلك القطع في مذكراتهن تصويرا . وقد رأيت فتاة تصور خنجرا له مقبض جميل مطوق بالذهب ومرصع بالاحجار الكريمة . واخرى تصور عقدا مؤلفا من عدة أسلاك نظمت فيها الاحجار الكريمة وفصلت بالجمان وخيوط الذهب تفصيلا . وليست تلك الاحجار الكريمة مما نعهده بيننا اليوم كالماس واللؤلؤ والياقوت والمرجان وانما هي أجناس اخر ليست منها وليس لها بريقها و بصيصها . ثم اذا طفت في ارجاء ذلك المتحف

وقلبت طرفك بين عادياته وذخائره بصرت بأشياء وأدوات كثيرة : منها ما له مثال في مرافقنا وتكاليف مدنيتنا كالجرار والاسرة والمسارج. ومنها ماليس له مثال كقطع من خزف أو طين على هيئة مخروط لا يعرف المرء منفعتها مهما قلب فيها الطرف واخرى متخذة من الخزف والابريز والزجاج والمرمر والحجر والعاج وغير ذلك بحيث لا يدري ان كانت تستعمل في مرافق منزلية او صناعية. وترى أواني خزفية عليها كتابة فينيقية مما يدل على اتصال المعاملة والمتاجرة بين تينك الامتين القديمتين وزوارق من خشب لها سوار وأشرعة على غير الوضع المعهود في زماننا وفي تلك الزوارق صور رجال تمثل الملاحين والنواخذة وشرازم جنود بايديهم الدرق والرماح وآخرون بايديهم السهام والسيوف

وهناك تمثال شخص منحن على ركبتيه ويداه في اجانة أو وعاء أمامه كأنه يعجن أو يغسل. وآخر بيده حجر كأنه يسحق به عقارا. وخدم على رؤوسهم كهيئة الصناديق يمشون بها. ونعال من جلد أو خوص ومراوح من خوص وقماش. وكراسي ومقاعد وعربات على شكل غير معهود عندنا وصحاف وازيار واسرة لوضع المومياء في الاحتفالات الجنائزية. وأمتعة وأوان غريبة الشكل منقوشة ومكتتبة بالقلم البربائي. وادوات وآلات للصناع وأرباب الحرف كالبنائين والنجارين وموازين ومقاييس ومكاييل ومثاقيل ومغازل وصناديق صغيرة من خشب مطعمة بالعاج والعظم. كما ان أخشاب التوابيت والزوارق مجموعة على طريقة التحشية المعروفة لدى أرباب هذه الصناعة اليوم. ورقوق وأدراج من البردي عليها نقوش وتصاوير ملونة بالاصباغ الزاهية ودمى وتماثيل صغيرة من مواد مختلفة من مثل الذهب الى مثل الخزف تمثل موميات الاموات وكأنهم يحفظونها كنذكار لامواتهم. وأكثر ماترى بين التماثيل المبثوثة في جنبات المتحف تمثال الجعل

والعجل .وهناك تماثيل اخر على شكل الغراب والباشق وابن أوى والقرد وهم تارة ينحتونها من الخشب والحجر وطورا يصنعونها من المعادن والفلز وآونة من اللازورد والجزع واليشب . وانك لتري الحجر الضخم بحجم حجر الرحى الكبيرة وقد نحت فيه من أعلاه صورة جعل كبير طوله نصف ذراع أو أكثر .وقد ينقشون الجعل تذكارا لبعض الحوادث والامور كالجعل الذي نقش تذكارا لاقتران « أمنوتس » الثالث بتي

أما العجل أبيس فقد أبدعوا في تمثيله وتصويره وتفننوا في الرمز الى احواله وأطواره : أبيس واقف ـ أبيس رابض ـ أبيس على شكل رجل برأس ثور ـ أبيس على يمينه « أسيس » وخلفه « نفتيس » الى غير ذلك .وتماثيل العبودات مختلفات الهيئات متعددات الاشكال : فمعبودة « صا الحجر » يخالف شكلها معبودة « عين شمس » وتماثيل المعبودة « سلكيت » على وضع غير وضع تماثيل المعبودة « صا تحور » وغير تماثيل المعبودة « نفتيس » .هنا معبودة في حجرها طفل ترضعه. وهناك معبود له جناحان وقد نجم في رأسه قرنان كقرني الشيطان وقد أشرق من بينهما مثال الشمس او القمر .وثمة آخر يرفع يديه الى السماء يمنعها أن تسقط على الارض وأمامه معبود رأسه رأس كبش ووراءه آخر برأس سبع. وما هذا المعبود الذي أمسك بكل يد من يديه ثعبانين وعقربا وغزالا وأسدا وقد وطئ بأخمصيه رؤوس تماسيح؟ وما هذه المعبودات الاخرى التي نصفها الاسفل أفعى والاعلى امرأة ولها مكان اليدين جناحا نسر وكأنه قد بسطها ؟

هذا ما وعته الذكرة أيها الاديب من أمر ذلك المشهد العجيب فان كان مما يعجبك .والا فاني قائل ما قاله الواعظ في « الحبك »

دار الآثار العربية

يتوقف التمكن من علم او صناعة على معرفة تاريخ ذلك العلم أو هذه الصناعة. فان في هذه المعرفة ما يدعو المرء الى التوسع في علمه أو تحسين صناعته وزيادة البصيرة فيها . وكان التاريخ في القديم مسطوراومقروءا؛ أما الآن فقد تنبه الافرنج الى نوع من التاريخ أقرب تناولا من الأول واكثر فائدة منه . ويصلح أن نسميه التاريخ الماثل المنظور - ذلك التاريخ هو مايعرض على طلبة هذا الفن في المعارض وفي دور الآثار القديمة : فمن أراد ان يدرس تاريخ صناعة الكاشاني مثلا كان عليه أن لا يقتصر على قراءة ذلك في السطور والاسفار بل يزور ماحفظ منها ونضد في دور الآثار : فهي تعرض عليه ماوجد من آثار تلك الصناعة من أول نشأتها وكيف تدرجت الى أن وصلت الى حالتها الحاضرة

وهذا النوع من التاريخ أتقنه الاوروبيون وشادوا له المباني الفخيمة . والدور العظيمة . وقد تنبهنا نحن الى ذلك في الازمنة المتأخرة . فكان في الاستانة وفي القاهرة بعض الشيء من ذلك

ومن الاسف ان دار الآثار العربية في القاهرة كأنما أنشئت للاوربيين وللمشتغلين بالتاريخ والصناعة منهم : فهم الذين يزورونها وينفقدون معروضاتها ويستفيدون منها وقلما ترى زائرا لها من أهل البلاد أو من أهل الحرف والصناعات فيها

واذا سألت عن السبب في وضع «فهرست» لتلك الآثار باللغة الافرنجية من دون العربية اعتذروا اليك بما قلناه من أن الافرنج هم الذين يتداولون الفهرست ويحرصون على الاستفادة مما فيه . أما أبناء العرب فاذا وجد منهم بضعة آحاد يحذون حذو أولئك فهم في الغالب على معرفة من اللغة الاجنبية تمكنهم من

الانتفاع بما سطر في الفهرست. ومعظم الآثار الموجودة في «دار الآثار العربية» يرجع عهده الى القرن السابع والثامن والتاسع من الهجرة: أي هي من مخلفات أمراء المماليك والجراكسة الذي عاشوا بين الدولتين الصلاحية والعثمانية

فمن نظر في آثار تلك القرون الثلاثة تبين له من حسنها ونفاستها واتقان العمل فيها - مايحكم معه بأن عصر أولئك المماليك كان عصر عمران وترق في الصناعة والذوق والترف. وانه امتاز عن العصور التي سبقته وخلفته في ذلك

ويمكن تقسيم الآثار الى خمسة مجاميع

(١) مجموعة الحجر والرخام: ومعظمها يتألف من شواهد قبور وازيار ماء وبينها صفيحة حجر ضخمة عثروا عليها في الاسكندرية. ومكتوب عليهامايفيد أن البناء التي كانت فيه مما أمر بانشائه السلطان صلاح الدين. وشاهدة قبر محمد بك أبي الذهب مملوك محمد بك الالفي. وهي مذهبة ومكتوب عليها شعر يدل على اسمه ووفاته في سنة ١١٨٩

ومعظم الازيار من رخام. ولها أحواض خاصة بها ترتكز عليها. ومما هو من الغرابة بمكان أن ترى حجرا ضخما من الرخام نحت منه زير كبير مستطيل أو كروي الشكل. وقد جوف تجويفا تاماً يحار العقل في الطريقة التي اتخذها صانعوه في تجويفه ثم نحت على ظاهره أشكال نافرة ورسوم متناسبة أو أضلاع مستوية كلها غاية في الحسن ودقة الصنعة • وأحد تلك الازيار النفيسة اصطنع برسم الخاتون «تاتار» ابنة السلطان قلاوون وهناك صفائح من الرخام كبيرة حفر على سطوحها نقوش متعرجة متناسبة. وتسمى الصفيحة من تلك الصفائح «السلسبيل» والغرض منها أن يسيل الماء عليها من انبوبة فوقها وفي أثناء سيلانه يتكسر بسبب ماتحته من التعاريج ويكون ذلك وسيلة الى امتزاجه بالهواء ثم

يصل الى حوض رخامي صغير في أسفل الصفحة فيكون ماء صحياً صالحا للشرب كذا قالوا . وعندي ان السلسبيل وتحدر الماء عليه مما أتخذ لترويح النفس وامتاع النظر كما اتخذوا لذلك الفساقي ونوافرها . والسلسبيل في اللغة يوصف به المـاء والشراب السائغ السهل المدخل في الحلق

(٢) مجموعة الاخشاب وهي تحتوي على محاريب ومنابر وأبواب وشبابيك ورواشن وكراسي للمصاحف وغيرها منها ماهو جاف غليظ ومنها مابلغ منتهى الدقة والحسن. وقد ترى أغلاق الابواب والنوافذ مؤلفة من قطع صغيرة من الخشب ذي الالوان المختلفة بحيث يقوم اختلاف تلك الالوان مقام الدهن بالاصباغ. وتلك القطع متناسقة ومرتبة على أشكال وأوضاع هندسية كصناعة الفسيفساء في الزجاج والرخام . وهي متماسكة الاجزاء لا بالمسامير وانما بطريق الجمع والتحشية

فهل كانت المسامير أو مادة الحديد عزيزة وقليلة الوجود في تلك الاعصر الى هذا الحد ؟ أو ان الصناع يريدون أن يظهروا مهارة وبراعة في صناعتهم بحيث يستغنون عما لا غنية عنه في العادة ؟

(٣) مجموعة المعدن والبرونز : وهي تتضمن أدوات كثيرة وأشياء مختلفة من ذلك ـ الثريات النحاسية التي قد تحمل الواحدة منها زهاء ٣٦٠ مصباحا . ومنها كرسيان عاليان من نحاس شغل تفريغ مكتب بالذهب والفضة وهما مما صنعها الصناع برسم ابن قلاوون . ومن الآثار النفيسة في هذه المجموعة مقلمة الغزالي وهي علبة مستطيلة من النحاس كان الامام يضع فيها دواته وأقلامه ومكتوب على ظاهرها شيخ الاسلام محمد الغزالي الخ وهناك قطعة من الحلي ضخمة محدبة الشكل على هيئة نصف كرة من فضة وذهب ومرصعة بالياقوت

والماس أهداها الى دار الآثار حضرة محمد مجدي بك مستشار الاستئناف بمصر ويقال ان صاحبها في القديم كان يعيرها أو يؤجرها الى أهل العرس يزينون بها عروسهم ليلة اهدائها الى زوجها

(٤) مجموعة الكاشاني والزجاج : ومعظم هذه المجموعة يتألف من مشكاوات (جمع مشكاة) وقطع آجر منقوشة ومكتبة وملونة بالاصباغ المختلفة. وقد اختلفوا في معنى المشكاة في القرآن اختلافاً كثيرا وأشهر الاقوال فيها أنها الكوة غير النافذة أما المشكاة في دار الآثار فلا خلاف في أنها وعاء من زجاج منتفخ البطن مخصر العنق له عرى حول عنقه يشد منها بالسلاسل الى السقف ويوضع في جوفه الزجاجة التي يكون فيها المصباح .والمشكاوات في دار الآثار تبلغ المئة .وانك ترى ظاهرها منقوشا ومصبغا بالالوان وبعضها مكتباً بالآيات مثل «الله نور السموات » الى قوله تعالى المصباح في زجاجة . ومن نفائس هـذه هذه المجموعة قطعة من الكاشاني نصف ذراع في مثله ـ صورت عليها مكة وحرمها ومعاهدها وضواحيها فهي بمثابة خارتة جغرافية لتلك البقاع المباركة وقد نقشت بالاصباغ والالوان المختلفة وعليها كتابات تنبيء بأسماء المعاهد ومكتوب عليها اسم صانعها ـ كل ذلك بمادة المينا أو بالدهان الملون الذي يشوى على سطح الخزف شيأً

وفي هذه المجموعة زير من خزف ضخم كري الشكل مدهون بدهان قاتم شديد اللمعان وقد عثروا عليه وهم يحفرون في بعض جدران جامع الازهر وهناك أواني لوضع الزهور (زهريات) وهي كالزير الصغير ولها أعناق مستطيلة على شكل الزهريات التي تصنع في شرقي آسيا وقد صنعت برسم السلطان حسن صاحب الجامع المشهور

ومما تتضمنه تلك المجموعة هنات مدورة من زجاج كانوا يستعملونها في الموازين مكان الصنوج المعدنية لان هذه يركبها الصدأ أو يأكلها فتزيد أو تنقص واما تلك فلا تزيد ولا تنقص

(٥) مجموعة النسيج : فيها قطعة من ثوب مكتوب عليه اسم قلاوون. وأنفس ما في هذه المجموعة بل أثمن تحفة تنافس بها دار الآثار العربية سائر الدور الاخرى – قطعة من حاشية نسيج كان حيك في مصر برسم الخليفة الامين العباسي ابن هرون الرشيدي المتوفى في أخريات القرن الثاني من الهجرة وقد كتب على هذا النسيج بخيوط السدا واللحمة مانصه « بسم الله بركة من الله لعبد الله الامين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعته في طراز العامة بمصر – الفضل ابن الربيع مولى أمير المؤمنين » والفضل هذا كان وزيرا للامين. وقد أريد بطراز العامة « دار الطراز » التي كان يصنع بها. والطراز من شارات الخلفاء وشعائرهم وهو ان ترسم أسماؤهم أو علامات يخصون بها أنفسهم – في حواشي أثوابهم التي يلبسونها – بخيوط من ذهب أو حرير ملون فيدل الطراز على لابسه كما تدل شرائط القصب والحرير الملون على مراتب ضباط الجند لهذا العهد. وكان لنسج الطراز مصانع خاصة به تسمى دور الطراز والقيم الذي يشرف عليها يسمى صاحب الطراز. و يؤخذ مما كتب على قطعة النسيج المذكورة ان دار طراز الخلفاء العباسيين في زمن الامين – كانت في مصر.

هذا مثال مما يمكن أن يقال عن دار الآثار العربية ومن حسن عناية ولاة الامور بتلك الدار ان اختاروا لها من أبناء البلاد ذوي الكفاءة ممن يعرف كيف يرتب تلك الآثار ويقرأ الكتابات المختلفة التي عليها ويهتم بحل الرموز التي تتراءى فيها ثم يشرح كل ذلك للوافدين فيكثر ان شاء الله ترددهم اليها وانتفاعهم بها المغربي

الفقر والسقام

ايّ مضنى يمدها با كتئآب   أنة تترك الحشا فى التهاب
يتشكى والليل وحف الاهاب   ضمن بيت جثا على الاعقاب
صفعته شمال كفّ الخراب

تسمع الأذن منه صوتاً حزيناً   راجفاً في حشا الظلام كمينا
يملأ الليـل باندعاء أنينـا   ربّ كن لي على الحياة معينا
ربّ ان الحياة أصل عذابي

وجع في مفاصلي دق عظمي   ودهاني ولم يرق لعـدمي
عاقني عن تكسبي قوت يومي   ربّ فارحم فقري بصحة جسمي
ان فقري أشد من أوصابي

ياطبيباً وأين مـنيّ الطبيب   حال دون الطبيب فقرعصيب
لا أصاب الفقير داء مصيب   ان سقم الفقير شيء عجيب
بطلت فيه حكمة الاسباب

— • —

رجـل معسر يسمى بشـيرا   كان يسعى طول النهار أجيرا
كاسـباً قوته زهيـدا يسيرا   مالكا في المعاش قلباً شكورا
راجيا في المعاد حسن المآب

وله أخت حكته خلقاً نزيهاً   عانس جاوز الزواج سنيها
لزمت بيت أمهـا وأبيها   مع أخيها تعيش عند أخيها
مثله في طعامه والشراب

كل يوم له ذهاب ومأتى في معاش من كده يتأتى
هكذا دأبه مصيفاً ومشتى فاعتراه داء المفاصل حتى
عاقه عن تعيش واكتساب

بينما كان في قواه صحيحا ساعياً في ارتزاقه مستميحا
اذ عراه الضنى فعاد طليحا ورمته يد السقام طريحا
جسمه من سقامه في اضطراب

بات يبكي اذا له الليل آوى بعيون من السهاد نشاوى
فترى وهو بالبكا يتداوى قطرات من عينه تتهادى
كشهاب ينقض اثر شهاب

ان سقماً به وعدماً ألما تركاه يذوب يوماً فيوما
فهو حيناً يشكو الى السقم عدما وهو يشكو حيناً الى العدم سقما
باكياً من كليهما بانتحاب

ظلّ يشكو للاخت ضعفاً وعجزا اذ تعزّيه وهو لا يتعزى.
أيها الاخت عزّ صبري عزّا ان للداء في المفاصل وخزا
مثل طعن القنا ووخز الحراب

قد تمادى به السقام وطالا وترآءى له الشفاء محالا
اذ قلاباً به السقام استحالا كان هيناً فصار داء عضالا
ناشباً في الفؤاد كالنشاب

— • —

ظل ملقى واعوزته المطاعم موثقا من سقامه بالاداهم

منفقا عند ذاك بعض دراهم　　ربحتهامن غزلها الاخت فاطم
قبل ان يبتلى بهذا المصاب

قال والاخت أخبرته بان قد　　كربت عندها الدراهم تنفد
اخبري السقم عله يتبعد　　أيها السقم خل عيشي المنكد
لاتعقني في عيشتي عن طلابي

مرضيني شقيقتي مرضيني　　وعلى الكسب في غد حرضيني
واذا مسك الطوى فارفضيني　　أو على الناس للبيع أعرضيني
علهم يشترونني مما بي

رام خبزا والجوع اذكى الاوارا　　في حشاه فعللته انتظارا
ثم جاءت بالماء تبدي اعتذارا　　وهل المـاء وهو يطفىء نارا
يطفيء الجوع ذاكيا في التهاب

خرجت فاطم الى جارتيها　　وهي تذري الدموع من مقلتيها
فابانت برقة حالتيها　　من سقام ومن سعار لديها
وشكت بعد ذا خلوّ الوطاب

فانثنت وهي بين ذل وعز　　تحمل التمر في يد فوق خبز
وبأخرى دهناً وبعض أرز　　منحوها به وذو العرش يجزي
من أعان الفقير حسن الثواب

— • —

ليلة تنشر العواصف ذعرا　　في دجاها حيث السحاب اكفهرا
ذا هزيم يمج في الاذن وقرا　　حين تبدي صوالج البرق تترى
كهربائية سرت في السحاب

مد فيها ذاك المريض الا كفا　　في فراش به على الموت أوفى
طرفه كالسها يبين ويخفى　　حيث يغضي طرفا ويفتح طرفا
عاجزا عن تكلم وخطاب

فدعته والعين تذري الدموعا　　أخته وهي قلبها قد ريعا
يا أخي أنت ساكت أجوعا　　ساكت أنت يا أخي أم هجوعا
فاشفني يا أخي برجع الجواب

قرأت منه انه لا يجيب　　فتدانت والدمع منها صبيب
ثم أصغت وفي الفؤاد وجيب　　ثم هابت والموت شيء مهيب
ثم قامت بخشية وارتياب

خرجت فاطم من البيت ليلا　　حيث أرخى الظلام سدلا فسدلا
وهي تبكي والغيث يهطل هطلا　　مثل دمع من مقلتيها استهلا
أو كماء جرى من الميزاب

رب ادرك باللطف منك شقيقي　　وامنع الغيث ان يكون معيقي
ومر البرق أن يضيء طريقي　　ببريق يبديه اثر بريق
فعسى اهتدي به في ذهابي

قرعت في الظلام باب الجار　　وهي تبكي الاسى بدمع الجار
ثم نادت برقة وانكسار　　أم سلمى الا بحق الجوار
فافتحي انني أنا في الباب

فأتتها سعدى وقد عرفتها　　وعن الخطب في الدجى سألتها
ثم سارت من بعدما أعلمتها　　تقتفيها وبنتها تبعتها
فتخطين في الدجى بانسياب

جئن والسحب أقلعت عن حياها وكذاك الرعود قلّ رغاها
حيث يأتي شبه الأنين صداها غير ان البروق كان ضياها
مومضاً في السماء بين الرباب

فدخلن المحل وهو مخيف حيث ان السكوت فيه كثيف
وضياء السراج نزر ضعيف وبه في الفراش شخص نحيف
دب منه الحمام في الاعصاب

قالت الاخت أمّ سلمى انظريه ثكلت روح أمه وأبيه
فرأت منه اذ دنت نحو فيه نفساً مبطئ التردد فيه
ثم قد غاله الردى باقتضاب

وجمت حيرة وبعد قليل رمقت فاطماً بطرف كليل
فيه حمل على العزآء الجميل فعلا صوت فاطم بالعويل
وبكت طول ليلها بانتحاب

فاستمرت حتى الصباح توالي زفرات بنارها القلب صال
فأتاها ودمعها في انهمال بعض جاراتها وبعض رجال
من صعاليك أهل ذاك الجناب

وقفوا موقفاً به الفقر ألقى منه ثقلا به المعيشة تشقى
فرأوا دمع فاطم ليس يرقا وأخوها ميت على الارض ملقى
مدرج في رثائث الاثواب

فغدت فاطم ترن رنينا ببكآء أبكت به الواقفينا
ثم قالت لهم مقالا حزينا أيها الواقفون هل ترحمونا
من مصاب دها وأيّ مصاب

أيها الواقفون لاتهملوه دونكم أدمعي بهن اغسلوه
ثم بالثوب ضافياً كفنوه وادفنوه لكن بقلبي ادفنوه
لاتواروا جبينه بالتراب

بعد ان ظلّ لافتقاد المال وهو ملقى الى أوان الزوال
جاد شخص عليه بعد سؤال بريال وزاد نصف ريال
رجل حاضر من الانجاب

كفنوه من بعد ما تم غسلا وتمشوا به الى القبر حملا
فترى نعشه غداة استقلا نعش من كان في الحياة مقلا
دون ستر مكسر الاجناب

ناحت الاخت حين ساروصاحت أختك اليوم لوقضت لاستراحت
ثم سارت مدهوشة ثم طاحت ثم قامت ترنو له ثم راحت
تسكب الدمع أيما تسكاب

أيها الحاملوه لامشي ركض ان هذا يوم الفراق الممض
فاسألوه عن قصده أين يمضي انه قد قضى ولم يك يقضي
واجبات الصبا وشرخ الشباب

ان قلبي على كريم السجايا طاح والله من أساه شظايا
قاتل الله يا ابن امي المنايا أنا من قبل مذ حسبت الرزايا
لم يكن رزء موتكم في حسابي

ان ليلي ولست من راقديه كلما جاءني وذكرنيه
قلت والدمع قائل لي ايه يا فقيدا أعاتب الموت فيه
ببكائي وهل يفيد عتابي

رحت يوماً وقد مضت سنتان أتمشى « بشارع الميدن
مشي حيران خطوه متدان أثقلته الحياة بالاحزان »
وسقته كأسا كطعم الصاب

بينما كنت هكذا أتمشى عرضت نظرة فابصرت نعشا
بادياً للعيون غير مغشى نقش الفقر فيه للحزن نقشا
فبدا لوح أبؤس واكتئاب

قلت سرا والنعش يقرب مني أيها النعش أنت أنعشت حزني
للأسى فيك حالة ناسبتني ان بدا اليوم فيك حزن فاني
انا للحزن دائماً ذو انتساب

رحت أسعى ورآءه مذ تعدى مسرعاً في خطاي لم آل جهدا
مع رجال كأنجم النعش عدا هم به سائرون سيرا مجدا
فتراه يمرّ مرّ السحاب

مذ لحدنا ذاك الدفين وعدنا قلت والدمع بلّ مني ردنا
ان هذا هو الذي قد وعدنا فأبينوا من الذي قد لحدنا
فتصدى منهم فتى لجوابي

قال ان الدفين أخت بشير أخت ذاك المسكين ذاك الفقير
بقيت بعده بعيش عسير وبطرف باك وقلب كسير
وقضت مثله بداء القلاب

قلت اقصر عن الكلام فحسبي منك هذا فقد تزلزل قلبي
ثم ناجيت والضراعة ثوبي ربّ رحماك ربّ رحماك ربّ
ربّ رشداً الى طريق الصواب

ربّ ان العباد أضعف أن لا يجدوا منك ربّ عفوا وفضلا
فاعف عن أخذهم وان كان عدلا أنت يا ربّ أنت بالعفو أولى
منك بالاخذ والجزا والعقاب

قد وردنا والارض للعيش حوض واحد كلنا لنا فيه خوض
فلما ذا به مشوب ومحض عظمت حكمة الآله فبعض
في نعيم وبعضنا في عذاب

أيها الاغنياء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما ان رحمتم
سهر البائسون جوعاً ونمتم بهناء من بعد ما قد طعمتم
من طعام منوّع وشراب

كم بذلتم أموالكم في الملاهي وركبتم بها متون السفاه
وبخلتم منها بحق الله أيها الموسرون بعض انتباه
أفتدرون انكم في تباب

بغداد معروف الرصافي

الفتوة والفتيان

قرأت ما نقلتموه عن تاريخ ابن الساعي من أمر الفتوة والفتيان وذهبتم الى أنها أشبه بجمعية سياسية والاليق أن يقال انها جمعية للانسانية تعاهد المنتظمون في سلوكها على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقويم المعوج واغاثة الملهوف وقرى الضيف وما أشبه ذلك من مكارم الاخلاق ولما كان لا بد لمن نصب نفسه للقيام بهذه المقاصد من فرط القوة والنجدة وتوفر الحمية والحفيظة فكان لا بد في

هذه الحالة من أن تثور تلك الحمية التي قد تنقلب أحياناً حمية جاهلية وتدخل فيها المنافسات والمناظرات والتساجل بقوة الساعد ووثاقة العضل أو حسن الرماية أو اتقان المضاربة والمطاعنة مما قد يبعد بالجمعية عن أصل وضعها و يصيرها نوعاً مما يقال له « مشيخة شباب » في بلادنا فيلبس لها الفتيان سراو يلات مخصوصة و يتنافسون في امور هي محض جهالة ودعارة وان كان أصل المقصد سامياً شريفاً فقد احتوت هذه الجمعية في وقتها على مايمدح ويذم شأن سواها من الجمعيات وقد كان يعاب على الخليفة الناصر العباسي اشتغاله بهذه المسائل فقرأت في تاريخ أبي الفداء صاحب حماة في حوادث سنة سبع وستمائة انه وردت في تلك السنة رسل الخليفة الناصر لدين الله الى ملوك الاطراف أن يشربوا له كأس الفتوة و يلبسوا له سراو يلها وان ينتسبوا اليه في رمي البندق ويجعلوه قدوتهم اه لاجرم ان هذا مما يترفع عنه الخلفاء ولا يليق بأصحاب هاتيك المقامات ثم انه يقول عند ذكر وفاة الخليفة المذكور انه كان قبيح السيرة منصرف الهمة الى رمي البندق والطيور المناسيب و يلبس سراو يلات الفتوة ومنع رمي البندق الا من ينسب اليه فأجابه الناس الى ذلك الا انساناً واحدا يقال له ابن السفت وهرب من بغداد الى الشام اه ثم اننا وجدنا آثار هذه الجمعية في القرون المتأخرة فقد أخبر ابن بطوطة من أهل القرن الثامن بوجودها في الاناضول وهي متلونة هناك بلون اناسها من كرم الخلق وحسن السريرة فان الجمعيات تدخل كل البلاد فتتلون في كل بلد بأخلاق أهله وتحمل طباعهم ولهذا امتدحها السائح الطنجي امتداحاً فائقاً في رحلته الشهيرة فقال : ذكر الاخية الفتيان واحد الاخية أخي على لفظ الاخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد

احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر والاخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هي الفتوة أيضاً ويبني زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافة لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الاخي ولم أر في الدنيا أجمل أفعالا منهم ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز وأصفهان الا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر وأعظم اكراماً له وشفقة عليه وفي الثاني من يوم وصولنا الى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموي وتكلم معه باللسان التركي ولم أكن يومئذ أفهمه وكان عليه أثواب خلقة وعلى رأسه قلنسوة لبد فقال لي الشيخ: أتعلم ما يقول هذا الرجل فقلت: لا أعلم ما قال فقال لي: انه يدعوك الى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه وقلت له: نعم فلما انصرف قلت للشيخ: هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد أن نكلفه فضحك الشيخ وقال لي: هذا أحد شيوخ الفتيان الاخية وهو من الخرازين وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل وذهبنا معه الى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان

وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي وفي المجلس خمسة من البياسيس والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفي وسطه أنبوب للفتيلة ويملأ من الشحم المذاب والى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم وفيها مقراض لاصلاح الفتيل وأحدهم موكل بها ويسمى عندهم الخراجي (الجراغجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الاقبية وفي أرجلهم الاخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض اصبعين فاذا استقرّ بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة اخرى من الزردخاني وسواه حسنة المنظر وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم اخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وأنصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم

بيروت ش

مطبوعات ومخطوطات

العمدة

نص ابن خلدون في المقدمة عند كلامه على صناعة الشعر ووجه تعلمه ان كتاب العمدة لابن رشيق (المتوفى سنة ٤٦٣) مستوفى في هذه الصناعة وتعلمها وفيه البغية من ذلك. وقد كان طبع الجزء الاول منه في تونس فاعيد طبعه الآن وأضيف اليه الجزء الثاني مصححاً بقلم الشيخ محمد بدر الدين النعساني وذكر في الصفحة الاولى منه انه قوبل على ثلاث نسخ وكنا نود لو عرفنا هذه النسخ

باعيانها وتواريخها ليظهر فضل العناية . والكتاب سهل الانشاء متين العبارة آخذ باطراف الموضوع الذي طرقه ابن رشيق والادب غضّ والنفوس مولعة به. نشأ مؤلفه في مدينة القيروان خامس مدينة في الاسلام ولما خربت رحل عنها الى صقلية وناهيك بمن يقول فيه الصلاح الصفدي وفي مصنفاته وأكثرها في الشعر والادب : وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة بجميعها فوجدتها تدل على تبحره في الادب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره في النقد . والكتاب لا يسأم المطالع من النظر فيه خصوصاً مع جودة طبعه الآن لان مؤلفه لا يطيل الابواب والفصول و يتنقل فيه الناظر من فكاهة الى أطروفة الى أدب وعلم وشعر وكله مما يروّح به الانسان عن نفسه وفيه قصص لطيفة تصور حالة العرب في اجتماعهم وتنافسهم في الشعر والادب قبل الاسلام وبعده وقد وقع الكتاب في مجلدين و يطلب من مكتبة طابعه أمين افندي الخانجي بالحلوجي

ديوان الخليل

أتحفنا خليل افندي مطران الشاعر الكاتب المشهور في خدمة الادب والصحافة بنسخة من الجزء الاول من ديوانه الذي طبعه مؤخرا في زهاء ثلثمائة صفحة في الغزل والنسيب والمديح والرثاء والتهنئة ووقائع أحوال وأحسن ما يقال فيه ان نورد للقراء نموذجاً من هذا الشعر العصري المنسجم قال في وصف قلعة بعلبك

همّ يجر الحياة بالادبار فاذا مرّ فهي في الآثار
والصبي كالكرى نعيم ولكن ينقضي والفتى به غير داري
يغنم المرء عيشه في صباه فاذا بان عاش بالتذكار

ايهِ آثار بعلبك سلام بعد طول النوى وبعد المزار
ووقيت العفاء من عرصاتٍ مقوباتٍ اواهل بالمخار
ذكرتني طفولتي واعيدي رسم عهد عن اعيني متواري
مستطاب الحالين صفوًا وشجوًا مستحب في النفع والاضرار
يوم امشي على الطلول السواجي لا افترار فيهن الا افتراري
نزقًا بينهن غرًا لعوبًا لاهيًا عن تبصر واعتبار
مستقلاً عظيمها مستخفًا ما بها من مهابة ووقار
يوم اخلو بهند نلهو ونزهو والهوى بيننا اليف مجاري
نتبارى عدوًا كأَنا فراشا روضةٍ ما لنا من استقرار
نلتقي تارة ونشرد اخرى كل ترب في مخباء متواري
فاذا البعد طال طرفة عين حثنا الشوق مؤذنًا بالبدار
وعدادَ اللحاظ نصفو ونشقى بجوار ففرقة فجوار
ليس في الدهر محض سعد ولكن تلد السعد محنة الاكدار
كلما نلتقي اعتنقنا كأَنا جدُّ سفر عادوا من الا سفار
قبلات على عفاف تحاكي قبلات الانداء والاسحار
واشتباك كضم غصن اخاه باباد غرّ من النوار
قلبنا طاهر وليس خليًا اطهر الحب في قلوب الصغار
كان ذاك الهوى سلامًا وبردًا فاغتدى حين شب جذوة نار
حبذا هند ذلك العهد لكن كل شيء الى الردى والبوار
هدَّ عزمي النوى وقوض جسمي فدمار يمشي بدار دمار

***

خرب حارت البرية فيها فتنة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار لأُناس ملء الزمان كبار
البستها الشموس تفويف در وعقيق على رداء نضار
وتحلت من الليال بشاما ت كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندي رشاش دموع شربتها ظوامئ الانوار
زادها الشيب حرمة وجلالاً توجتها به يد الاعصار
رب شيب اتم حسنًا واولى واهن العزم صولة الجبار

معبد للاسرار قام ولكن ... صنعه كان اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب ... فيه تمثيل، حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمرًا يجـ ... ـنى ولكن بالعقل والابصار
وضروبًا من كل زهر انيق ... لم تفتها نضارة الازهار
وشموسًا مضيئة وشعاعًا ... باهرات لكنها من حجار
وطيورًا ذواهبًا آيبات ... خالدات الغدوّ والابكار
في جنان معلقات زواه ... بصنوف النجوم والانوار
واسودًا يخشى التحفز منها ... ويروع السكوت كالتزآر
عابسات الوجوه غير غضاب ... باديات الانياب غير ضواري
في عرانينها دخان مثار ... وبالحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما برحت في ... كل آن روائع الزوّار
ضمها كلها بديع نظام ... دق حتى كأنها في انتثار
في مقام للحسن يعبد بعد ا ... لعقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسماً وابهى ... ما تحج القلوب في الانظار

***

اهل فينيقيا سلام عليكم ... يوم تفنى بقية الادهار
لكم الارض خالدين عليها ... بعظيم الاعمال والآثار
خضتم البحر يوم كان عصيا ... لم يسخر لقوة من بخار
وركبتم منه جوادًا حرونًا ... قلقًا بالممرس المغوار
ان تمادى عدوًا بهم كبحوه ... واقالوه ان كبا من عثار
واذا ما طغى بهم اوشكوا ان ... يأخذوا لاعبين بالاقمار
غير صعب تخليد ذكر على الار ... ض لمن خلدوه فوق البحار
شيدوها للشمس دار صلاة ... واتم الرومان حلي الدار
هم دعاة الفلاح في ذلك العصـ ... ـر واهل العمران في الامصار
نحتوا الراسيات نحت صخور ... وابانوا دقائق الافكار
واجادوا الدمى فجاز عليهم ... انها الآمرات في الاقدار
سجدوا للذي هم صنعوه ... سجدات الاجلال والاكبار
بعد هذا اغاية فترجى ... لتمام ام مطمع في افتخار

نظرت هند حسنهن فغارت　　انت ابهى ياهند من ان تغاري
كل هذي الدمى التي عبدوها　　لك ياربة الجمال جواري

رواية هملت

رواية هملت من الروايات التمثيلية منسوبة لشكسبير شاعر الانكليز كان نقلها الى العربية نثرًا ونظمًا الشيخ امين الحداد المشهور بشعره ونثره وجرى تمثيلها مرات كثيرة وقد طبعت الآن في ٧٠ صفحة جاء فيها على لسان هملت ماننشره نموذجًا من شعر الحداد قوله

نجدُّ والدهر بنا يلعب　　لا مانع منه ولا مهربُ
والحب يقتاد الفتى مكرهًا　　فكيف ما يكره يستعذب
تحلو الاماني وتحقيقها　　وهي اذا ما حققت تعطب
ضاعت حقيقات المنى في الورى　　فلم تعد تعرف اذ تنسب
والوحش لو أنصفت ادرى بها　　اذ انها عند الظما تشرب
ونحن نستأني بحاجاتنا　　والحس لا يمهل اذ يطلب
فاترك غدًا ان غدًا مدة　　بعيدة فيها الردى الاقرب
واقض الذي تهوى بدنياك لا　　يمنعك الجاه ولا المنصب
ولا تبت مدخرًا فالمنى　　تراح ما بتَّ بها تتعب
ان انت اعيتك سؤالات من　　ترى فسل في القرب من غيبوا
وقل لمن بات غدًا ناظرًا　　يرقب الموت له يرقب
المس بكفيك تصدق متى　　شككت ان الحس لا يكذب
اجدادنا هذي وامانا　　تلك وذا الابن وهذا الاب
لاحلقة مفقودة بينهم　　يطرحها في الجمع من يحسب
كانوا دليلًا في سبيل الردى　　لنا على آثارهم نذهب
اذا ذوى الاصل غدا فرعه　　يضحك منه المطر الصيب
وقل لمن تاه على غيره　　بنعمة من غيره تسلب
تحت الثرى المثري غدا واغتدى　　في التربة الترب والمترب
هذا هو الحق الذي ماافتضى　　تفلسفًا ذا العجب الاعجب
دعني اطلب غايتي جاهدًا　　انهبها من قبل ان تنهب
وخذ حياتي وابق لي منه ما　　يمنع ضرّ الناس اذ ارغب
لو منع الضر الحيا في الورى　　اذن تساوى الكف والمخلب

يا ايها الرأس الذي في يدي هل كنت رأساً في الورى ترهب
ام كنت جباراً تذل العدى ام كاتباً ينقل ما تكتب
ام فيلسوفاً نافعاً علمه تغضبه الدنيا ولا يغضب
ام جاهلاً ما اهتم في دهره يخسر فيما عاش ام يكسب
حقيقة الاشياء مجهولة كلٌّ على مذهبه يذهب
حقيقة تاهت عقول الورى في كنهها واستعجم المعرب
جماجم في الترب مزروعة يحصدهن النمل والجندب
بل انفس في الترب مغروسة اثمارها موعظة تخطب
اصورة اخرى تحولتم قد كان ماء في الثرى الطحلب
ثم استحال الكرم حتى اغتدى خمرا لارباب الورى تسلب
دائرة لا ينتهي حدها نمشي عليها الدهر لا نتعب

اعلام الموقعين

للعلامة شمس الدين أبي بكر محمد بن قيم الجوزية المتوفى سنة احدى وخمسين وسبعمائة شهرة فائقة بقوة البيان والميل للاخذ بالحجة والبرهان حتى كثر انتفاع الموافق والمخالف بكتبه وله مؤلفات كثيرة في فنون شتى . وكتاب اعلام الموقعين عن رب العالمين من اهم كتبه اورد فيه علم الفقه على اسلوب قلَّ ان يعهد في كتاب آخر وذلك انه نقل المسائل المشهورة واختلاف العلماء فيها ثم رجح فيه ما قام عليه الدليل بحسب ما ظهر له بدون التزام مذهب معين وقد اكثر من ايراد العلل وكان مولعاً برعاية المصالح . وكتابه هذا اصبح نادر الوجود فسعى في احيائه اناس من اهل الهند قاموا بجمع اجزائه وطبعها غير ان نسخه مع قلة ورودها الى هذه البلاد منسوجة على الاسلوب المعروف في طبع اهل الهند فتصدى الشيخ فرج الله زكي الكردي بمصر لاعادة طبعه فطبعه على ورق جيد مع استحضار نسخ خطية ليتم تصحيح الكتاب على طريقة حسنة فجاء وافياً بالمراد ظاهرة عليه علائم الجد والاجتهاد وقد جعله في ثلاثة اجزاء تقع في زهاء ١٤٠٠ صفحة كبيرة بحرف واضح جلي واضاف اليه كتاب حادي الارواح للمؤلف فنثني على الطابع بما تستحقه عنايته وهو يطلب منه بخمسين قرشاً

تاريخ آداب اللغه العربية

هذا الكتاب في موضوع صعب يحتاج فيه الى اطلاع وافر وتضلع من فنون الادب

تصدى لجمعه محمد بك دياب المشهور بالفضل والادب في مصر فاودعه من بدائع الفوائد ماتقرُّ به عين المطالع وضمنه مطالب شتى يحتاج اليها طالب الادب . قال المؤلف في بيان سبب تأليفه ان احد اصدقائه اخبره ان مستشرقي الالمان وكذلك فعل مستشرقو (الانكليز والفرنسيس والطليان والروس وغيرهم) عنوا بتاريخ آداب لغتنا فوضعوا فيه كتاباً ذا اسفار مطبوعاً بلغتهم وود لو يؤلف بالعربية مثله فلاح بخاطري ان اشق عباب هذا الموضوع الجليل فسرت في سبيله متجشماً الصعاب بضعة اعوام الى ان اهتديت الى وضع مؤلف جامع لاشتاته المتفرقة في بطون مئين من امهات الكتب ذات الاعتبار وقد شرحت فيه نشأة العلوم الادبية وسيرها في مختلف العصور والكتب التي الفت فيها وازمانها وحياة مؤلفيها وذكرت فصولا من كل فن اقتضاها سير التأليف . والكتاب يقع في نحو ٤٤٠ صفحة جعلت في مجلدين ويطلب من مؤلفه بالقاهرة فنشكر له هديته وهمته

انجيل برنابا

اعترفت الكنيسة باناجيل اربعة وهي انجيل متى وانجيل مرقس وانجيل لوقا وانجيل يوحنا وابطلت ما عداها من الاناجيل او عدته مزوراً ومن جملة الاناجيل التي ابطلها البابا في القرن الخامس للمسيح انجيل برنابا . وبرنابا هذا يهودي من ساكني قبرص دان بالنصرانية وكان من اتراب بولس الرسول طاف آسيا الصغرى وسورية وبلاد اليونان وقتل في قبرص نحو سنة ٦٣ للمسيح . وقد وجدت نسخة من انجيل يُنسب اليه في مكتبة فينا الامبراطورية كتب كما رجح العارفون في القرن السادس عشر باللغة الايطالية القديمة وعليه حواش بالعربية فقال بعضهم ان لهذا الانجيل اصلا عربياً نقل عنه الا ان العارفين من المستشرقين امثال الاستاذ مرجليوث وغيره نفوا ذلك وقالوا انه ليس في العربية كتاب من هذا القبيل ولا اشارة اليه . وقد ترجم في السنة الماضية باللغة الانكليزية ونقله الى العربية الدكتور خليل بك سعادة ووضع له مقدمة مطولة ونشره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر بمصر وقد احسن المترجم بنقله بالحرف وان خالف الاسلوب العربي احيانا لأن اللغة العربية يجب ان يكون فيها كل شيء ولا سيما مثل هذا السفر الذي رددت الالسن ذكره وتشوفت النفوس الى الوقوف عليه . وقد جاء في ٣٢٥ صفحة مطبوعاً طبعاً حسناً في مطبعة المنار ومنها يطلب بخمسة عشر قرشاً فنشكر للمترجم والناشر همتهما

سير العلم والاجتماع

لغات العالم

أُحصي عدد المتكلمين باللغات الرئيسة في العالم فكان المتكلمون بالانكليزية ١٣٦ مليونًا من البشر اي ٢٧ في المئة من مجموع سكان العالم والمتكلمون بالالمانية ٨٢ مليونًا اي ١٦ في المئة ويتكلم بالصينية ١٤ في المئة والمتكلمون بالافرنسية ٢٨ مليونًا (كذا) ثم يجيء عدد المتكلمين باللغات الاخرى فتجيء الروسية والعربية والايطالية والاسبانية والسويدية ·

جهنم الحروب

كتب احد اطباء نيويورك مقالاً يصف فيه الامراض الكثيرة التي تسطو على اجسام المتحاربين اكثر من ادوات القتال واسلحة النزال فأثبت انه مات في الحرب الروسية العثمانية ثمانون الفًا بالاوبئة على حين لم يمت سوى عشرين الفًا مجروحين وانه هلك في حرب الرقيق في الولايات المتحدة اربعمائة الف بالامراض على حين هلك مئة الف في القتال واهلك المرض في حرب جنوبي افريقية عشرة اضعاف ما اهلك المدفع وكان معظم الاسباب التي دعت الى كثرة الهالكين في الحرب الاسبانية الاميركية قلة العناية الطبية على العكس في الحرب الروسية اليابانية فان اليابانيين لم يفقد منهم سوى سبعة وعشرين الفًا في المستشفيات لقاء سبعة وخمسين الفًا قضوا في ساحة الوغى ·

مصوّر الزمن

اسست المانيا منذ سنة ١٩٠٦ ديوانًا خاصًا تُنقل اليه من اطراف الامبراطورية الالمانية اخبار الجو والهواء فيؤلف بينها وينشرها في نشرة توزع في اطراف البلاد كما تنشر الانباء البرقية المهمة وتوزع خاصة على الجرائد وبذلك يتيسر للفلاحين ان يعرفوا احوال الجو يومًا فيومًا ·

بريد الهند

سينتقل بريد الهند عما قريب من البر ليكون اقصد في الوقت منه عن طريق البحر فتنصل لندرا بكلكوتا بالسكك الحديدية عن طريق فارسوفيا في بولونيا فيسافر هذا الخط من كلكوتا حيث تصل صادرات اوستراليا بالسفن الى مدينة دهلي فقندهار فهرات فكوتشكا فسمرقند فمرو فكراسنوفودسك فباكو فكييف فارسوفيا فبرلين فكولونيا فكاليه فلندرا وعندما تصل الركاب والبضائع الى كراسنوفودسك تنقل على سفن سريعة بديعة الى العدوة الثانية من باكو

السخاء الاميركي

بلغ ما جاد به الكرماء من الاميركان سنة ١٩٠٧ على العلم والتربية ٣٥٤ مليون فرنك وما جادوا به على المعاهد الدينية ٤١ مليوناً وما منحوه للمتاحف ودور الكتب ١٠٠ مليون ولا شك ان هذا السخاء متناسب مع تلك الثروة الهائلة ·

مبرة مصرية

وقف مصطفى بك الجوربجي عشرة منازل في كفر الزيات في الوجه البحري لمدرستيه اللتين انشأهما بماله وبلغ ما انفق على تشييدهما نحو خمسة آلاف جنيه فلهما الآن ايراد سنوي يربي على الف جنيه كما انشأ مدرستين في بريم ووقف عليهما املاكاً تعيشان به

ناد للمعارف

تبرع الامير يوسف كمال بالف ومائتي متر في المنيرة احدى احياء القاهرة لينشأ فيها ناد للمعارف يختلف اليه اهل العلم وطلابه وجاد لانشائها بالفي جنيه وبمكتبة عربية وافرنجية وهذه المنحة لا تقل عن ثمانية آلاف جنيه ·

رواج الكتب

معدل ما يباع سنوياً من كتب شكسبير الشاعر الانكليزي ثلاثة ملايين نسخة · ومن غريب مايدل على رواج الكتب في المانيا ان احدى جرائد ليبزيك الاسبوعية ستحتفل في اكتوبر المقبل بمرور السنة الخامسة والعشرين على تأسيسها فوضع مديرها ثلاثين الف مارك جائزة لمن يكتب احسن رواية ومعلوم انه اذا لم يكن موقناً بالرواج ما جاد هذا الجود المحمود على ارباب الاقلام والذين يحكمون في الجائزة بعض كبار النقاد من ادباء الالمان ·

السلك البرقي النظار

يجرب احدهم معدن السالانيوم بان يجعله يتأثر بالنور فاذا تمت تجاربه كما يريد اصبح الانسان يخاطب صديقه على لسان البرق وهو يراه ويسمعه ·

بسطة العيش

افتتح مؤخراً ناد للنساء في نيويوك ليس له مثيل في اندية الارض ببذخه بل برخاء الحياة فيه فان كل شيء فيه حتى المائدة وما يتبعها تدار بواسطة الكهربائية ففيه غرف باردة لتوضع فيها الفراء وقد جعلت حشوات المواضع التي تناط بها الثياب من خشب تقتل رائحته العث ·

ديون الممالك

تزيد ديون الممالك الاوربية يوماً عن يوم فدين فرنسا اكثر من جميع الممالك فهي مدينة بتسعة وعشرين مليارًا من الفرنكات وتجيء بعدها روسيا تبلغ ديونها ٢٣ مليارًا ودين المانيا ٢١ مليارًا ودين بريطانيا ١٩ ودين ايطاليا ١٣ ودين النمسا ١٠ مليارات ودين اسبانيا ٩

مدارس الفلاة

فتحت في مدينة شارتونبرغ في المانيا منذ بضع سنين مدارس في الضواحي اشبه بان تكون مدارس تشتغل في العطلة المدرسية فهي لا تفتح الا سبعة اشهر في السنة فقط وتقبل البنين والبنات وتعلمهم معاً كل ما يلزمهم لقاء قرشين في النهار يأكلون بها ويشربون فيركبون الترامواي الساعة السادسة صباحاً ويعودون بهم في المساء واكثر الاولاد من الفقراء والغالب ان بعض مدن المانيا وغيرها ستنسج على منوال هذه المدرسة .

حركة العالم التجارية

أُحصي مجموع الحركة التجارية والبحرية في العالم مدة العشر سنين الاخيرة فكان مجموع صادرات المانيا وارداتها ١١٦٠٣٠٠٠٠٠٠ فرنك سنة ١٨٩٧ فبلغت سنة ١٩٠٦ ١٨٢٢٢٠٠٠٠٠٠ وانفقت وزارة البحرية لحماية هذه الحركة في سنة ٩٧ — ١٠٩٤٠٠٠٠٠ فرنك وبلغ ما انفقته سنة ١٩٠٦ — ٣٣١٣٠٠٠٠٠ فرنك وكان مجموع حركة الصادرات والواردات معاً في فرنسا سنة ١٨٩٧ — ٧٨٢١٥٠٠٠٠٠ فرنك وانفقت بحريتها ٢٦٥٢٥٠٠٠٠ فرنك وبلغ مجموع تلك الحركة فيها سنة ١٩٠٦ — ١٤٤٨٠٠٧٥٠٠٠٠ فرنك وما انفقته البحرية في تلك السنة ٤١٢٣٢٥٠٠٠ فرنك وبلغ مجموع تجارة انكلترا سنة ٩٧ — ٢٥٣٠٤٧٢٥٠٠٠ فرنك وارتقى سنة ١٩٠٦ الى ٤٧٦٥٦٩٠٠٠٠٠ وكان مجموع نفقاتها البحرية سنة ١٨٩٧ ٥٥٦٧٧٥٠٠٠ فاصبحت سنة ١٩٠٦ — ٨٣٩٣٧٥٠٠٠ وبذلك تبين ان التجارة الالمانية تضاعفت في عشر سنين على حين نفقاتها البحرية زادت ثلاثة اضعاف وان انكلترا كانت سنة ١٨٩٧ تنفق على بحريتها خمس مرات ما تنفقه المانيا ولكنها في سنة ١٩٠٦ لم تنفق في هذا السبيل بالنسبة الا ثلاثة اضعاف ما كانت تنفقه فزادت من ثم نفقاتها البحرية خمسين في المئة على حين زادت نفقات المانيا ثلثمائة في المئة ولا يزال النمو في المانيا يتزايد واي زيادة كل سنة .

المقتبس

الجزء السادس من المجلد الثالث

جمادى الثانية سنة ١٣٢٦ موافق يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨

صدور المشارقة والمغاربة

عبدالله بن المقفع وعبدالحميد بن يحيى

نشأ للعربية في اوائل القرن الثاني للهجرة كاتبان بليغان يصح ان يدعيا واضعي اساس الانشاء العربي وناهجي طريقة الكتابة المرسلة فكانا منارًا يُهتدى به الى يوم الناس هذا ونعني بهما عبدالله بن المقفع وعبدالحميد بن يحيي الكاتب . ظهر هذان الامامان واللغة في نضرتها الاولى فكان لهما من فطرتهما السليمة اعظم مساعد لهما على النبوغ وزادت شهرتهما الاتصالها بالخلفاء والامراء ومرانهما على الكتابة في الاغراض الكثيرة التي كانت تُطلب اليهما فيخوضان عبابها مجليين مبرّزين .

نشأ ابن المقفع في العراق على ما ينشأ عليه ابناء اليسار وكان والده ينتحل نحلة مجوس الفرس وَلِي خراج فارس للحجاج بن يوسف الثقفي في الدولة الأموية . ولقب بالمقفع لان الحجاج ضربه فتقفعت يده اي تشنجت لمدها لاخذ الاموال على ما يقال . وربي ابنه عبدالله تربية اسلامية واولع بالعلم وهو مكفي المؤونة فجاء منه في سن العشرين ماينذر ان يكون مثله لابناء الاربعين والخمسين . واتصل بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور الخليفتين الاولين من بني العباس وكتب له واختص به واراد ان يدين بالاسلام فجاء الى عيسى

ابن علي وقال له : قد دخل الاسلام في قلبي واريد ان اسلم على يدك · فقال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس فاذا كان الغد فاحضر · ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى : اتزمزم وانت على عزم الاسلام فقال : اكره ان ابيت على غير دين · فلما اصبح اسلم على يده فسمي بعبدالله وكني بابي محمد ·

اهم كتب ابن المقفع التي طار ذكرها كتاب كليلة ودمنة الذي نقله عن الفارسية ورسالته المعروفة باليتيمة في طاعة السلطان · قال القفطي وهو اول من اعتنى في الملة الاسلامية بترجمة الكتب المنطقية لابي جعفر المنصور وترجم كتب ارسطوطاليس المنطقية الثلثة وهي كتاب قاطيغورياس وكتاب باري ارمينياس (اوبارميناس) وكتاب انالوطيقا وذكر انه ترجم ايساغوجي تأليف فرفوريوس الصوري · والارجح انه نقل هذه الكتب عن الفارسية او نقلها له ناقل عن اليونانية وصاغها هو في قالب عربي فنسبت له اذ لم يثبت انه كان يعرف غير الفارسية من اللغات · وعبارة ابن ابي أصيبعة في تاريخ الاطباء تشبه قول القفطي في تراجم الحكماء والغالب انهما نقلا عن مصدر واحد مع تغيير طفيف في عبارتيهما ·

قال ابن النديم واسمه بالفارسية روزبه وهو عبدالله بن المقفع ويكنى قبل اسلامه اباعمرو فلما اسلم اكتنى بابي محمد والمقفع ابن المبارك انما نقفع لان الحجاج بن يوسف ضربه بالبصرة في مال احتجنه من مال السلطان ضربًا مبرّحًا فتقفعت يده واصله من خوز مدينة من كوَر فارس وكان يكتب اولاً لداود بن عمر بن هبيرة ثم كتب لعيسى بن علي على كرمان وكان في نهاية الفصاحة والبلاغة كاتبًا شاعرًا فصيحًا وهو الذي عمل شرط عبدالله ابن علي على المنصور وتصعب في احتياطه فيه فاحفظ ذلك اباجعفر فلما قتله سفيان بن معاوية حرقًا بالنار وقع ذلك من المنصور بالموقع الحسن فلم يطلب بثاره وطُلَّ دمه وكان احد النقلة من اللسان الفارسي الى العربي مضطلعًا باللغتين فصيحًا بهما وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس منها كتاب خداينامه في السير كتاب آيين نامه في الإِصر كتاب كليلة ودمنة كتاب مزدك كتاب التاج في سيرة انوشروان كتاب الآداب الكبير ويعرف بماقراحسيس كتاب الادب الصغير كتاب اليتيمة في الرسائل ·

وقال ان اباالجاموس ثور بن يزيد اعرابي كان يفد البصرة على آل سليمان بن علي وعنه اخذ ابن المقفع الفصاحة ولا مصنف له وقال : بلغاء الناس عشرة عبدالله بن المقفع · عمارة بن حمزة · حجر بن محمد · محمد بن حجر · انس بن ابي شيخ · وعليه اعتمد احمد بن يوسف الكاتب · سالم · مسعدة الهرير · عبدالجبار بن عدي · احمد بن يوسف · وذكره

في الشعراء الكتاب فقال انه مقل وقال وقد كانت الفرس نقلت في القديم شيئًا من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية فنقل ذلك الى العربي عبدالله بن المقفع وغيره وقال في الكتب المصنفة في الاسماء والخرافات ان عبدالله بن المقفع من جملة من كان يعمل الاسمار والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم ·

والراجح ان الحسد غلت مراجله في صدور بعض معاصريه والمعاصرة كما قيل حرمان فنسبوا اليه ما نسبوا من الزندقة لقصورهم عن بلوغ شأوه او لغرض في انفسهم قال ابن خلكان نقلاً عن الجاحظ :ان ابن المقفع ومطيع بن اياس ويحيي بن زياد كانوا يتهمون في دينهم قال بعضهم : كيف نسي الجاحظ نفسه · قلنا وعبارة الجاحظ في بعض رسائله بشأن ابن المقفع تشير الى قصوره في علم الكلام فقط فانه قال:

فصل ومن المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين عبد الله بن المقفع ويكنى ابا عمرو وكان يتولى لآل الاهتم وكان مقدمًا في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير وكان جوادا فارسا جميلا وكان اذا شاء ان يقول الشعر قاله وكان يتعاطى الكلام ولا يحسن منه لاقليلا ولا كثيرا وكان ضابطًا لحكايات المقالات ولا يعرف من اين غر المغتر ووثق الواثق واذا اردت ان تعتبر ذلك ان كنت من خاص المتكلمين ومن النظارين فاعتبر ذلك بان تنظر في آخر رسالته الهاشمية فانك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم رديء المدخل في مواضع الطعن عليهم · وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم فيظن بنفسه عند ذلك انه لايحمل عقله على شيء الا بعد به اه

لاجرم ان اطلاق ابن المقفع لسانه في المعتزلة دعا احد ائمتها الى ان يصدر عليه هذا الحكم الغريب ولكن الجاحظ ايضا على ثبوت تدينه لم يسلم من هذا الطعن كما رأيت · وان مسألة التهمة في الدين من الامور التي شاعت في كل عصر ومصر ويكون المتهمون بها في معظم الاحوال ابرياء والا فكيف تسجل الزندقة على ابن المقفع اذا جرينا مع الدليل · وليست الزندقة بحثًا عما يضمره الانسان في نفسه لان مثل هذا لايطلع عليه الا الله تعالى ويكفي ان يقال هلاّ شققت عن قلبه · بل الزندقة التي تذكر في الكتب وتترتب عليها الاحكام ويسوغ ان يقال عن فلان انه زنديق امور تقوم عليها بينات ظاهرة من اقوال وافعال وكلام ابن المقفع في الدين يدل على شدة تمسكه وفرط ميله على مايتجلى لك من رسائله ·

ولو كان ثمّ سبيل لما ينسب اليه لاسيما مع غضب المنصور عليه لكان الاقرب ان يتقرب مثل المنصور بمثل ذلك وفيه ما فيه من ارضاء العامة وشفاء الغليل من العدو بحيث ينتقم منه مع اسقاطه ولا يعدم المنصور حينئذ حيلة في قتله جهارًا بهذه التهمة · اما

اتهام ابن المقفع بمعارضة القرآن فنتصرف على القاعدة في اتهامه بالزندقة وما نظن القاضي عياض والباقلاني الا ناقلين عن اناس من اهل السذاجة ومع ذلك فانهماقالا انه اناب .

التهمة بالزندقة امر نشأت منه مضار كثيرة حتى لم يخل منها مثل الامام الغزالي الذي كان اعظم انصار الدين فانظر الى كتاب فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة الذي الفه في الرد على اولئك الذين نسبوا اليه مانسبوا فان فيه الغناء واغرب من ذلك القيام على أبي حاتم (١) ابن حبان البستي امام المحدثين في عصره وصاحب الصحيح المشهور به والكتب الممتعة الكثيرة واستحصال الامر بقتله لو لم ينج من ذلك بعوارض لا تخطر في البال

ومعارضة القرآن اكثر ما تنسب للزنادقة المشهورين بالادب والفضل يشيع ذلك اناس يقصدون اهلاك عدوهم بأي وسيلة كانت او اناس هم اقرب الى الزندقة ممن ينسبونهم اليها حتى ان أبا العلاء المعري على اضطراب الاقوال في نهاية امره مع ما علم به من احواله قد عزي اليه كتاب كان معروفاً في بلاد المغرب يسمى بالفصول والغايات ولا يتوقف من كان قريب العهد من عصره في انه عمله في معارضة السور والآيات وكان كثير ممن يميلون الى أبي العلاء المعري من اهل المغرب يعجبون مما وقع فيه من سخافة القول الذي ينحط عن جميع كلامه المعروف مع انه ليس له يد في الكتابة كما علم من كتاب سر الفصاحة وكلامه في رسالة الغفران ينادي بخلاف ذلك (٢)

وعلى الجملة فان نسبة الزندقة الى ابن المقفع لا تثبت بوجه من الوجوه التي تعقل في اثباتها واذا نظرنا الى ما يتعلق بالغيب فالحكم الشرعي انه هو والناسبون اليه جميعاً في معرفة ما

---

(١) راجع ترجمته في معجم البلدان لياقوت في مادة بُست

(٢) قال المعري في رسالة الغفران عند كلامه على ابن الراوندي الزنديق الذي صنف في الرد على القرآن : بئس ما نسب الى راوند فهل قدح في دباوند انما هتك قميصه وابان للناظر خميصه واجمع ملحد ومهتد وناكب عن الحجة ومقتد ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالاعجاز ولقي عدوه بالأرجاز ما حُذي على مثال ولا اشبه غريب الامثال ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز من سهل وحزون ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ذوي الارب وجاء كالشمس اللائحة نوراً للمسرة والبائحة لو فهمه الهضب الراكد لتصدع او الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدع وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون وان الآية منه او بعض الآية لتعترض في افصح كلم يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق فتبارك الله احسن الخالقين

ينطوون عليه سواء لانه لم يذهب احد الى ان الايمان يتيسر اثباته بالبرهان الا اذا ورد عن الشارع في شخص معين اثبات الايمان او لوازمه لرجل بعينه ·

وتهمة الزندقة الشنعاء كثيرًا ما يتهم بها المشتغلون بالفلسفة امثال ابن رشد والفارابي وابن الصائغ وابن سينا ونسب لهذا انه عارض القرآن وقد كتب رسالة في رد افتراء من افترى عليه ذلك · ومن هنا تظهر لك حسن سياسة المأمون لان فتح باب البحث عن الزنادقة قد اوجب من المضار ما لا يحصى كما يعلم من التواريخ ور بما كان عصر المأمون اقرب الى قلة الزندقة في الحقيقة من العصور التي كثر اتهام معظم المفكرين بها وغيرهم ممن يراد الانتقام منهم ·

عرفت بهذا ان كلام القائلين بزندقة ابن المقفع مع ما عرف من كلامه هو من ذلك الباب · قال المرتضى في اماليه روى ابن شبة قال: حدثني من سمع ابن المقفع وقد مرّ ببيت نار للمجوس بعد ان اسلم فلمحه وتمثل

يا بيت عاتكة الذي اتعزّل حذَر العدى وبك الفؤاد موكل
اني لامنحك الصدود وانني قسماً اليك مع الصدود لاميل

وقال صاحب الاغاني نقلاً عن الجاحظ : كان والبة بن الحباب ومطيع بن اياس ومنقذ ابن عبد الرحمن الهلالي وحفص بن ابي وردة وابن المقفع و يونس بن ابي فروة وحماد عجرد وعلي بن الخليل وحماد بن ابي ليلى الراوية وابن الزبرقان وعمارة بن حمزة و يزيد بن الفيض وجميل بن محفوظ و بشار المرعث و ابان اللاحقي ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمدًا وكلهم متهم في دينه · قلنا واجتماع المتشاكلين قديم في الناس والغالب انهم يتحرجون من ادخال من ليس على شاكلتهم في زمرتهم فيتهمون بما هم منه براء كما اتهم جماعة ابي حيان التوحيدي الذي نقل بعض مجالسهم الفلسفية في مقابساته وكانوا من اهل النحل المختلفة تجمع بينهم جامعة العلم والفلسفة كما جمعت بين ابن المقفع واصحابه جامعة الادب فقالوا انهم كانوا يجتمعون على شراب واتهموهم بالمروق · وفي كتاب البيان والتبيين للجاحظ ذكر اناس كانوا شديدي التصافي والالتحام مع شدة التباين في المذاهب ·

اما كيفية مقتل ابن المقفع فقد اجمع مترجموه على انه كان بسبب كتابته امانًا لعبدالله ابن علي قال فيه : ومتى غدر امير المؤمنين بعمه عبدالله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده احرار والمسلمون في حلّ من بيعته · فاشتد ذلك على المنصور جدًا وخاصة امر البيعة وكتب الى سفيان بن معاوية المهلبي وهو امير البصرة من قبله · فقتله وكان سفيان هذا شديد الحنق عليه لان ابن المقفع على ما يقال كان ينال منه و يستخف به حتى عزم على ان يغتاله فجاءه كتاب المنصور بقتله فقتله سرًا في داره و يقال انه عاش ستًا وثلاثين سنة · وسأل

سليمان وعيسى عنه فقيل انه دخل دار سفيان سليماً ولم يخرج منها فخاصماه الى المنصور واحضراه اليه مقيداً وحضر الشهود الذين شاهدوه وقد دخل داره ولم يخرج فاقاموا الشهادة عند المنصور فقال لهم المنصور : انا انظر في هذا الامر . ثم قال لهم : ارأيتم ان قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت واشار الى باب خلفه وخاطبكم ما تروني صانعاً بكم أأقتلكم بسفيان . فرجعوا كلهم عن الشهادة واضرب عيسى وسليمان عن ذكره وعلموا ان قتله كان برضا المنصور

ولابن المقفع شعر قليل ولكنه جيد نقل له صاحب الحماسة ثلاثة ابيات . يقال انه رثى بها يحيى بن زياد وقال الاخفش والصحيح انه رثى بها ابن ابي العوجا وهي

رزئنا اباعمرو ولا حيّ مثله فلله ريب الحادثات بمن وقع
فان تك قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلة ما في انسداد لها طمع
لقد جر نفعاً فقدنا لك اننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

قال ثعلب البيت الاخير يدل على مذهبهم في ان الخير ممزوج بالشر والشر ممزوج بالخير — فتأمل .

ومما يذكر عن ابن المقفع ما رواه صاحب الاغاني وغيره قال حدثني اليزيدي قال حدثني عمي عبيدالله قال حدثني احمد قال سمعت جدي ابا محمد يقول : كنت القى الخليل ابن احمد فيقول لي احب ان يجمع بيني و بين عبدالله بن المقفع فجمعت بينهما فمر لنا احسن مجلس واكثره علماً ثم افترقنا فلقيت الخليل فقلت له : يا أبا عبدالرحمن كيف رأيت صاحبك قال : ما شئت من علم وادب الا اني رأيت علمه اكثر من عقله . ثم لقيت ابن المقفع فقلت له : كيف رأيت صاحبك قال : ماشئت من علم وادب الا ان عقله اكثر من علمه . وقال المرتضى ان من جمعهما كان عباد بن عباد المهلبي فتحادثا ثلاثة ايام ولياليهن .

قال الاصمعي : قيل لابن المقفع من ادبك فقال : نفسي اذا رأيت من غيري حسناً اتيته وان رأيت قبيحاً ابيته . ودعاه عيسى بن علي للغداء فقال : اعزّ الله الامير لست يومي للكرام اكيلاً قال : ولم ؟ قال : لاني مزكوم والزكمة قبيحة الجوار مانعة من عشرة الاحرار . ومن كلامه : شربت من الخطب رياً ولم اضبط لها روياً ففاضت ثم فاضت فلا هي نظاما وليس غيرها كلاما .

ومما يؤثر عنه وهو ما يدل على رأيه في الانشاء انه قال لبعض الكتاب : اياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة فان ذلك هو العيّ الاكبر . وقال لآخر : عليك بما سهل من الالفاظ مع التجنب لالفاظ السفلة . وقيل له ما البلاغة فقال : التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها .

وفي البيان والتبيين عن اسحق بن حسان بن فوهة انه قال : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع احد قط . سئل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة . فمنها ما يكون

في السكوت . ومنها ما يكون في الاستماع . ومنها ما يكون في الاشارة . ومنها ما يكون في الحديث . ومنها ما يكون في الاحتجاج . ومنها ما يكون جواباً . ومنها ما يكون ابتداءً . ومنها ما يكون شعراً . ومنها ما يكون سجعاً وخطباً . ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة .

فاما الخطب بين السماطين وفي اصلاح ذات البين فالاكثار في غير خطل والاطالة في غير إملال . قال: وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما ان خير ابيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته . كأنه يقول فرّق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المواكب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لاخير في كلام لا يدل على معناك ولا يشير الى مغزاك . والى العمود الذي اليه قصدت والغرض الذي اليه نزعت .

قال فقيل له: فان ملَّ المستمع الاطالة التي ذكرت انها حق ذلك الموقف قال: اذا اعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وارضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فانهما لا يرضيهما شيء واما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شيء لا تناله وقد كان يقال رضاء الناس شيء لا ينال

وقال عبدالعظيم بن أبي الإصبع في تحرير التحبير في البديع في باب التهذيب والتأديب : قد كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة ولا يقصدونه بتة الا ما اتت به الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد ولا اكتساب وان كانت كلماتهم متوازنة والفاظهم متناسبة ومعانيهم ناصعة وعباراتهم رائقة وفصولهم متقابلة وتلك طريقة الامام علي عليه السلام ومن اقتفى اثره من فرسان الكلام كابن المقفع وسهل بن هرون وابي عثمان الجاحظ وغير هؤلاء من الفصحاء والبلغاء .

وقال الامين المحبي فيما يعوّل عليه في المضاف والمضاف اليه : يتيمة ابن المقفع — يضرب بها المثل لبلاغتها و براعة منشئها وهي رسالة في نهاية الحسن تشتمل على محاسن من الادب وقد ذكرها ابو تمام واجراها مثلا في قوله للحسن ابن وهب

ولقد شهدتك والكلام لآلئٌ ... تؤم فبكر في الكلام وثيب
فكأن قساً في عكاظ يخطب ... وكأن ليلى الأخيلية تندب
وكثير عَزَّة يوم بين ينسب ... وابن المقفع في اليتيمة يسهب

وقال جلال الدين في المزهر نقلاً عن ابي الطيب عبد الواحد اللغوي في مراتب النحويين قال محمد بن سلام: سمعت مشايخنا يقولون لم يكن للعرب بعد الصحابة اذكى من الخليل بن احمد ولا اجمع ولا كان في العجم اذكى من ابن المقفع ولا اجمع

وقال المعري في عبث الوليد : كان المتقدمون من اهل العلم ينكرون ادخال الالف واللام على كل وبعض وروى الاصمعي انه قال كلاماً معناه قرأت آداب ابن المقفع فلم أر فيها لحناً الا في موضع واحد وهو قوله : العلم اكبر من ان يحاط بكله فخذوا البعض

وروي ان بعضهم ذكر ابن المقفع فقال : الفاظه معان ومعانيه حكم فصل خطابه شفاء وخصل بيانه كفاء . وسمع ابو العيناء بعض كلام ابن المقفع فقال : كلامه صريح ولسانه فصيح وطبعه صحيح كأن بيانه لؤلؤ منثور وروض ممطور . وقال جعفر بن يحيي : عبدالحميد اصل وسهل بن هارون فرع وابن المقفع ثمر واحمد بن يوسف زهر .

وعبدالحميد هذا هو الذي يضرب به المثل في البلاغة حتى قيل فُتحت الرسائل بعبدالحميد وختمت بابن العميد . وكان احمد بن يوسف يقول في رسائل عبدالحميد الفاظ محككة وتجارب محنكة . قال صاحب الوفيات وكان في الكتابة وفي كل فن من العلم والادب اماماً وهو من اهل الشام وكان اولاً معلم صبية ينتقل في البلدان وعنه اخذ المترسلون ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل ومجموع رسائله مقدار الف ورقة

وقال ابن نباتة: انه البالغ الى اعلى المراتب في الكتابة البليغة يقال انه كان في اول عمره معلم صبيان بالكوفة ثم اتصل بمروان الجعدي قبل ان يصل الى الخلافة وصحبه وانقطع اليه فلما جاء الامر بالخلافة سجد مروان وسجد اصحابه الا عبدالحميد فقال له مروان : لم لا سجدت فقال : ولمَ اسجد على ان كنت معنا فطرت عنا يعني بالخلافة فقال : اذاً تطير معي قال : الآن طاب السجود وسجد وكان كاتب مروان طول خلافته .

وهو اول من اخذ التحميدات من فصول الكتب واستعمل في بعض كتبه الايجاز البليغ وفي بعضها الاسهاب المفرط على ما اقتضاه الحال . فمن الايجاز ان بعض عمال مروان اهدى اليه عبداً اسود فأمره بالاجابة ذاماً مختصراً فكتب : « لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً اقل من الواحد لاهديته » . واما الاسهاب فانه لما ظهر ابومسلم الخراساني بدعوة بني العباس كتب اليه عن مروان كتاباً يستميله ويضمنه ما لو قرئ لاوقع الاختلاف بين اصحاب ابي مسلم وكان من كبر حجمه يحمل على جمل ثم قال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره فان يك ذلك والا فالهلاك فلما ورد الكتاب على ابي مسلم لم يقرأه وامر بنار فاحرقه وكتب على جزازة منه الى مروان

محا السيف اسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

ولما اشتدّ الطلب على مروان وتتابعت هزائمه المشهورة قال لعبدالحميد : القوم محتاجون

اليك لادبك وان اعجابهم بك يدعوهم الى حسن الظن بك فاستأمن اليهم واظهر الغدر بي فلعلك تنفعني في حياتي او بعد مماتي فقال عبدالحميد

أُسر وفاءً ثم اظهر غدرة فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

ثم قال يا امير المؤمنين ان الذي امرتني به انفع الامرين اليك واقبحهما بي ولكنني اصبر حتى يفتح الله عليك او اقتل معك فلما قتل مروان استخفى عبدالحميد فغمز عليه بالجزيرة عند ابن المقفع وكان صديقه وفاجأهما الطلب وهما في بيت فقال الذين دخلوا : ايكما عبدالحميد فقال كل واحد منهما : انا خوفاً على صاحبه . الى ان عُرف عبدالحميد فاخذ وسلمه السفاح الى عبدالجبار صاحب شرطته فكان يحمي له طشتاً ويضعه على رأسه الى ان مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقيل انه قتل مع مروان في مصر قال المسعودي انه رأى له عقباً بفسطاط مصر يعرفون ببني مهاجر وقد كان منهم عدة يكتبون لآل طولون. وكان ابوجعفر المنصور يقول: غلبنا بنو أمية بثلاثة اشياء بالحجاج وعبدالحميد والمؤذن البعلبكي . وقيل لعبدالحميد : ما الذي مكنك من البلاغة قال: حفظ كلام الاصلع يعني امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه . وقيل له ايما احب اليك اخوك ام صديقك قال : انما احب اخي اذا كان صديقي :وقال اكرموا الكتاب فان الله تعالى اجرى الارزاق على ايديهم . وقال : القلم شجرة ثمرتها الالفاظ والفكر بحر لؤلؤه الحكمة . ومن كلامه خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً قال صاحب وفيات الاعيان وكان كثيراً ما ينشد :

اذا خرج الكتاب كانت دُويهم قسياً واقلام الدوي لها نبالا

ومما نقله عنه انه ساير يوماً مروان بن محمد على دابة قد طالت مدتها في ملكه فقال له مروان :قد طالت صحبة هذه الدابة لك فقال :ياامير المؤمنين ان من بركة الدابة طول صحبتها وقلة علفها فقال له : فكيف سيرها فقال: همها امامها وسوطها عنانها وماضربت قط الا ظالماً

ولعبدالحميد لصديقه وضريعه عبدالله بن المقفع شعر نادر فمنه

كفى حزناً اني ارى من احبه قريباً ولا غير العيون تترجم

فاقسم لو ابصرتنا حين نلتقي ونحن سكوت خلتنا نتكلم

هذا ما وصلنا من اخبار هذين الامامين ونحن نعلم ان ترجمتهما على ما اثبتناها هنا ليست مستوفاة من عامة وجوهها ولكن تلاوة كلامهما احسن مترجم عنهما اذ كلام المرء قطعة من عقله .

وقال المعري في عبث الوليد : كان المتقدمون من اهل العلم ينكرون ادخال الالف واللام على كل وبعض وروى الاصمعي انه قال كلاماً معناه قرأت آداب ابن المقفع فلم أر فيها لحناً الا في موضع واحد وهو قوله : العلم اكبر من ان يحاط بكله فخذوا البعض

وروي ان بعضهم ذكر ابن المقفع فقال : الفاظه معان ومعانيه حكم فصل خطابه شفاء وخصل بيانه كفاء . وسمع ابو العيناء بعض كلام ابن المقفع فقال : كلامه صريح ولسانه فصيح وطبعه صحيح كأن بيانه لؤلؤ منثور وروض ممطور . وقال جعفر بن يحيى : عبد الحميد اصل وسهل بن هارون فرع وابن المقفع ثمر واحمد بن يوسف زهر .

وعبد الحميد هذا هو الذي يضرب به المثل في البلاغة حتى قيل فُتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد . وكان احمد بن يوسف يقول في رسائل عبد الحميد الفاظ محككة وتجارب محنكة . قال صاحب الوفيات وكان في الكتابة وفي كل فن من العلم والادب اماماً وهو من اهل الشام وكان اولاً معلم صبية ينتقل في البلدان وعنه اخذ المترسلون ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل ومجموع رسائله مقدار الف ورقة

وقال ابن نباتة : انه البالغ الى اعلى المراتب في الكتابة البليغة يقال انه كان في اول عمره معلم صبيان بالكوفة ثم اتصل بمروان الجعدي قبل ان يصل الى الخلافة وصحبه وانقطع اليه فلما جاء الامر بالخلافة سجد مروان وسجد اصحابه الا عبد الحميد فقال له مروان : لم لا سجدت فقال : ولمَ اسجد على ان كنت معنا فطرت عنا يعني بالخلافة فقال : اذاً تطير معي قال : الآن طاب السجود وسجد وكان كاتب مروان طول خلافته .

وهو اول من اخذ التحميدات من فصول الكتب واستعمل في بعض كتبه الايجاز البليغ وفي بعضها الاسهاب المفرط على ما اقتضاه الحال . فمن الايجاز ان بعض عمال مروان اهدى اليه عبداً اسود فأمره بالاجابة ذاماً مختصراً فكتب : « لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً اقل من الواحد لاهديته » . واما الاسهاب فانه لما ظهر ابومسلم الخراساني بدعوة بني العباس كتب اليه عن مروان كتاباً يستميله ويضمنه مالو قرىء لاوقع الاختلاف بين اصحاب ابي مسلم وكان من كبر حجمه يحمل على جمل ثم قال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره فان يك ذلك والا فالهلاك فلما ورد الكتاب على ابي مسلم لم يقرأه وامر بنار فاحرقه وكتب على جزازة منه الى مروان

محا السيف اسطار البلاغة وانتحى   عليك ليوث الغاب من كل جانب

ولما اشتدَّ الطلب على مروان وتتابعت هزائمه المشهورة قال لعبد الحميد : القوم محتاجون

اليك لادبك وان اعجابهم بك يدعوهم الى حسن الظن بك فاستأمن اليهم واظهر الغدر بي فلعلك تنفعني في حياتي او بعد مماتي فقال عبد الحميد

أسر وفاء ثم اظهر غدرة فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

ثم قال يا امير المؤمنين ان الذي امرتني به انفع الامرين اليك واقبحهما بي ولكني اصبر حتى يفتح الله عليك او اقتل معك فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد فغمز عليه بالجزيرة عند ابن المقفع وكان صديقه وفاجأهما الطلب وهما في بيت فقال الذين دخلوا : ايكما عبد الحميد فقال كل واحد منهما : انا خوفاً على صاحبه. الى ان عُرف عبد الحميد فاخذ وسلمه السفاح الى عبد الجبار صاحب شرطته فكان يحمي له طشتاً ويضعه على رأسه الى ان مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقيل انه قتل مع مروان في مصر قال المسعودي انه رأى له عقباً بفسطاط مصر يعرفون ببني مهاجر وقد كان منهم عدة يكتبون لآل طولون. وكان ابو جعفر المنصور يقول: غلبنا بنو أمية بثلاثة اشياء بالحجاج وعبد الحميد والمؤذن البعلبكي. وقيل لعبد الحميد: ما الذي مكنك من البلاغة قال: حفظ كلام الاصلع يعني امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه . وقيل له ايما احب اليك اخوك ام صديقك قال : انما احب اخي اذا كان صديقي: وقال اكرموا الكتاب فان الله تعالى اجرى الارزاق على ايديهم . وقال : القلم شجرة ثمرتها الالفاظ والفكر بحر لؤلؤه الحكمة. ومن كلامه خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً

قال صاحب وفيات الاعيان وكان كثيراً ما ينشد :

اذا خرج الكتاب كانت دُويهم قسياً واقلام الدوي لها نبلا

ومما نقله عنه انه ساير يوماً مروان بن محمد على دابة قد طالت مدتها في ملكه فقال له مروان :قد طالت صحبة هذه الدابة لك فقال :ياامير المؤمنين ان من بركة الدابة طول صحبتها وقلة علفها فقال له : فكيف سيرها فقال: همها امامها وسوطها عنانها وما ضربت قط الا ظلماً

ولعبد الحميد كصديقه وضريعه عبد الله بن المقفع شعر نادر فمنه

كفى حزناً اني ارى من احبه قريباً ولا غير العيون تترجم

فاقسم لو ابصرتنا حين نلتقي ونحن سكوت خلتنا نتكلم

هذا ما وصلنا من اخبار هذين الامامين ونحن نعلم ان ترجمتهما على ما اثبتناها هنا ليست مستوفاة من عامة وجوهها ولكن تلاوة كلامهما احسن مترجم عنهما اذ كلام المرء قطعة من عقله .

رسالة عبد الحميد الى الكتاب (١)

اما بعد حفظكم الله يااهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وارشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ومن بعد الملائكة المكرمين اصنافاً (٢) وان كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى اسباب معاشهم (٣) وابواب ارزاقهم فجعلكم معشر الكتاب في اشرف الجهات اهل الادب والمروآت (٤) والعلم والرزانة بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم (٥) لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كاف الا منكم فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون وابصارهم التي بها يبصرون والسنتهم التي بها ينطقون وايديهم التي بها يبطشون فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما اضفاه من النعمة عليكم وليس احد من اهل الصناعات كلها احوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم ايها الكتاب اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم . فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ان يكون مليحاً في موضع الحلم فهيماً (٦) في موضع الحكم (٧) مقداماً في موضع الاقدام محجاماً (٨) في موضع الاحجام مؤثراً للعفاف والعدل والانصاف كتوماً للاسرار وفياً عند الشدائد عالماً بما يأتي من النوازل يضع الامور مواضعها والطوارق في اماكنها قد نظر في كل فن من فنون العلم فاحكمه وان لم (٩) يحكمه اخذ منه بمقدار (١٠) من الحسن واحتال على صرفه (١١) عما يهواه من القبيح (١٢) بالطف حيلة واجمل وسيلة وقد علمتم ان سائس البهيمة اذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت جموحاً (١٣) لم يهجها اذا ركبها وان كانت شبوباً اتقاها من بين ايديها (١٤) وان خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها وان كانت حروناً قمع برفق هواها في طرقها فان استمرت عطفها يسيراً فيسلس له قيادها . وفي هذا الوصف من السياسة دلائل (١٥) لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم (١٦) وداخلهم والكاتب بفضل (١٧) ادبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره

---

(١) عارضنا هذه الرسالة التي اخذناها عن مقدمة ابن خلدون المطبوعة على نسختين مخطوطتين من المقدمة احداهما في مكتبة احمد زكي بك والثانية في خزانة كتب احمد تيمور بك (٢) نسخة : اضيافا (٣) خ في معايشهم (٤) خ المروءة (٥) خ بلادهم (٦) خ فهماً (٧) خ الفهم (٨) خ محجماً (٩) خ فان لم (١٠) خ مقدار (١١) خ لصرفه (١٢) خ من القبيح (١٣) خ رموحاً (١٤) خ من قبل يديها (١٥) خ دليل (١٦) خ وخدمهم (١٧) خ لفضل

من الناس و يناظره و يفهم عنه او يخاف سطوته اولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم اوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها ٠

الا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا فيه ما امكنكم من الروية والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة و يصير منكم الى الموافقة وتصيرون منه الى المؤاخاة والشفقة ان شاء الله تعالى ٠

ولا يجاوزنّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان اهلهما ولا سيما الكتاب وارباب الآداب ٠ وللامور اشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة واصدقها حجة واحمدها عاقبة ٠ واعلموا ان للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه وروينه فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل (١) عن اكثاره ٠ وليضرع الى الله في صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وادبه فانه ان ظن منكم ظانّ او قال قائل ان الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرّض بظنه (٢) او مقالته (٣) الى ان يكله الله عز وجل الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ٠ ولا يقول احد منكم انه ابصر بالامور واحمل لعبء ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعدّ لكل امر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته ٠

فتنافسوا يامعشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ثم اجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الامور ومحاقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب

(١) خ للتشاغل (٢) خ بحسن ظنه (٣) خ فعاله

ونزهوا صناعتكم عن الدناءة (١) واربأوا بانفسكم عن السعاية والنميمة ومافيه اهل الجهالات وايا كم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو اليق لاهل (٢) الفضل والعدل والنبل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله و يثوب اليه امره وان اقعد احدًا (٣) منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه احوط منه على ولده واخيه فان عرضت في الشغل محمدة فلا يصرفها (٤) الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب اسرع منه الى القراء وهو لكم افسد منه لها . فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه ان يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره (٥) ونصيحته وكتمان سره وتدبير امره ما هو جزاء لحقه و يصدق (٦) ذلك تبعًا له عند الحاجة اليه والاضطرار الى ما لديه . فاستشعروا ذلك وفقكم الله من انفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمؤاساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه من (٧) وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة . واذا ولي الرجل منكم او صُيّر اليه من امر خلق الله وعياله امر فليراقب (٨) الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقًا وللمظلوم منصفًا فان الخلق عيال الله واحبهم اليه ارفقهم بعياله .

ثم ليكن بالعدل حاكمًا وللاشراف مكرمًا وللفيء موفرًا وللبلاد عامرًا وللرعية متألفًا وعن اذاهم متخلفًا وليكن في مجلسه متواضعًا حليمًا وفي سجلات خراجه واستقضاء (٩) حقوقه رفيقًا واذا صحب احدكم رجلاً فليختبر خلائقه فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافقه التدبير من مرافقته في صناعته ومصاحبه في خدمته . فان اعقل الرجلين عند ذوي الالباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى ان صاحبه اعقل منه واجمل (١٠) في طريقته . وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر (١١) على اخيه او نظيره وصاحبه وعشيره .

وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته . وانا اقول في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل . وهو جوهر هذا الكتاب

---

(١) خ الدناءات (٢) خ باهل (٣) خ احدكم الكبر (٤) خ يضفها (٥) خ وصبره (٦) خ ويقصد ذلك بفعاله (٧) خ لمن (٨) خ فليراقب ربه (٩) خ واستقصاء (١٠) خ احمد (١١) خ ولا تكاثر على

وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به . تولانا الله واياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

العامية من الفصحى

كثر بحث الباحثين هذه الايام في المقارنة بين اللغة الفصحى واللغة العامية وقد ظفرنا بكتاب (١) اسمه القول المقتضب فيما وافق لغة اهل مصر من لغة العرب تأليف الشيخ محمد ابن ابي السرور الصديقي من اهل القرن الحادي عشر قال مؤلفه في مقدمته : وبعد فاني لما طالعت كتاب رفع الاصر عن كلام اهل مصر للعلامة الكامل شيخ اهل الادب الراقي منه الى اعلى الرتب الشيخ يوسف المغربي رأيته اتى فيه بالعجب العجاب غير انه اسهب فيه غاية الاسهاب باستطراده (الى) بعض الالفاظ اللغوية التي ليست من شرط الكتاب مع ذكره اشعاراً وحكايات من قسم الاستطراد لا معنى لها في هذا التصنيف ولا مدخل لذكرها في هذا التأليف فخطر لي ان اختصر من محاسنه والتقط درة من مكامنه ولم اذكر فيه من اللغة الا ماله اصل في اللغة العربية الناطق بها اهل الديار المصرية مرتباً ذلك على ترتيب القاموس كاصله وسميته القول المقتضب فيما وافق لغة اهل مصر من لغة العرب . والكتاب مرتب على حروف المعجم وهو في بضعة كراريس وهاك نموذجاً منه نقلناه وبعضه لا يخلو مما ينتقد

يقولون اومى قال في المجرد لا يقال اومى وانما يقال اومأ اي اشار اليه (قلنا ويقول العامة في الشام فلان كلم فلاناً بالومى اي بالاشارة) . ويقولون لقاصد القلعة بابا وفي اللغة العربية بابا الرجل اذا اسرع فيمكن ان يكون البابا منه لانه يسرع اقضاء الحاجه . ويقولون للولد الصغير اذا اراد المشي تاتا قال في القاموس تاتا الطفل مشى والتبختر في الحرب . ويقولون عند سقي القهوة جبا وهي قرية باليمن يصير فيها البن الصبري وهو عجيب في الحسن فكأن الساقي اذا قال جبا اي هذه قهوة بن جبا . ويقولون في سوق الحمار حاحا قال في القاموس حاحا اذا دعي الحمار للشرب واهل مصر تقول ذلك له اذا ارادوا مشيه وتصحيفه جأجأ (؟) قال في القاموس معناه حمار وثاب . ويقولون لا تتكأكأ اي لا تتأخر عن السير . ويقولون هاها بالابل اي زجرها عند ورودها

(١) في خزانة كتب احمد بك تيمور

الماء وهأهاء رجل ضحاك . ويقولون ياماعمل له اصل في اللغة وهو من باب التعجب .
ويقولون الاب والاخ مثلاً فيشددون الباء وليس هو خطأ بل له اصل في لغات العرب .
ويقولون ببه قال المجدي هو حكاية صوت الصبي والشاب الممتلئ لحماً وصفة الاحمق .
ويقولون حوبة قال المجدي ومعناه الضعيف عن الشيء والحوبة البعنت والاخت ورقة فؤاد
الام والهم والحاجة والمرأة والسرية كل ذلك يقال له حوبة . ويقولون دُرّابة وهو كناية
على احد الواح الدكان وله اصل في اللغة كذا نقله صاحب كتاب المجرد في اللغة . ويقولون
رَجبَ المرجب اي المعظم وهو صحيح . ويقولون سبب قال بعض ائمة اللغة اي باع واشترى
في الشيء . ويقولون شقلبه اي غيره من حال الى آخر . ويقولون طبطب قال في القاموس
الطبطبة صوت الماء وصوت تلاطم السيل وطبطب صوت . ويقولون طاب وهو اسم لما
يلعبون به واسم الكرة ايضاً ويقولون عرقب في حق الدابة اذا قطع عرقوبها وله اصل في
اللغة . ويقولون عِلب قال في القاموس العلبة بالكسر آنية من الشجر غليظة يتخذ منها وعاء
للشيء . فائدة: العلبة بالضم النخلة الطويلة وقدح ضخم من جلود الابل او من خشب يحلب فيها .
ويقولون قب جلدي منه اذا اقشعر وله اصل في كتب اللغة . ويقولون قطب له المزين وهو
في صحيح كتب اللغة يقال قطب الشيء قطعه ثم جمعه وقطب فلان اي غضب . ويقولون
للمنعزل عن الناس قطرب وهو صحيح لانه جنس من الامراض السوداوية وصاحبه يحب الانفراد
من الناس وله معان كلها قبيحة وهو بالضم اللص والفأرة والذئب الامعط والجاهل والجبان
والسفيه والمصروع وصغار الكلاب وطائر ودوبية لا تستريح نهاراً سعياً . ويقولون فلان
اكرب علينا قال في القاموس اي امرنا بالسرعة . ويقولون كركبه قال المجدي معناه الحركة
ويقولون تت قال المجدي معناه اقعد وهو صحيح ورد في بعض كتب اللغة . ويقولون
ضربته حته معناه حتى اكتفيت فله معنى في كتب اللغة والحت الجواد من الخيل والسريع
من الابل وما يلتزق من التمر والميت من الجراد كل ذلك معنى حته . ويقولون الشيت وهو
من الاقمشة قال المجدي والشيت نوع من الاقمشة الهندية . ويقولون فلان يشخت مرادهم
ينهر من شدة غيظه وهو صحيح . ويقولون غت عليّ بمعنى ادخل عليّ سوءاً وهو صحيح
وارد في كتب اللغة . ويقولون للملاح النواتي قال في الزاهر النواتي الملاحون بالبحر الواحد
نوتي . ويقولون هتّ عليّ وهو صحيح في كتب اللغة معناه اسرع في الكلام او سرد كلامه .
ويقولون فلان هفت من الجوع اي سقط ومنه تهافت الفراش في الفتيلة اي تساقط عليها
فكأنه لكثرة جوعه يسقط كذا نقله بعض ائمة اللغة . ويقولون هيّت علينا اي خوفنا وهو

صحيح ورد في بعض كتب اللغة هيت به صاح به ودعاه وهِيْت قرية بالعراق تنسب اليها الخمرة الطيبة ومنه قول ابي نواس

هات اسقني قهوة صفراء صافية　　منسوبة لقرى هيت وعانات

و يقولون على لون من الطعام عجة قال بعض ائمة اللغة العجة بالضم طعام من البيض . و يقولون لآلة الدراس نورج وهو صحيح لغوي و يقال ذلك ايضاً لآلة الحرث والنورجة والنيرجة الاختلاف اقبالاً وادباراً والنيرج التمام . و يقولون اذا أُلقي انسان على وجهه بطحه وهو صحيح لغوي ويُراد منه ايضاً الضرب والغيبوبة عند ذلك . و يقولون طرحة قال في القاموس الطرحة الطيلسان واما لفظ طراحة فليس له اصل في اللغة . و يقولون بربخ للشيء الذي توضع عليه الجرة وهو صحيح لغوي وهو ايضاً اسم لمجرى الماء والبالوعة يقال لها بربخ قال ذلك في القاموس . ويقولون في المريض صار مثل الفخ والفخ المصيدة وهو مثل القوس وهو لين فشبه به المريض اي صار مثل القوس اللينة . و يقولون للاطفال بمعنى الزجر كخ نقل حجة الاسلام الغزالي في كتاب الاحياء ان الامام الحسين عليه السلام اخذ تمرة من تمر الصدقة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كخ فرمى بها من فيه . و يقول زرّد عليه اذا خنقه وهو صحيح وارد في كتب اللغة . و يقولون زرد اللقمة اذا ابتلعها و زرد كنصر خنقه والزرد الدرع . و يقولون فلان سرد اذا حصل له النعاس قال في الزاهر السرد يطلق على النعاس في بعض الاحيان . و يقولون همر علينا اذا وثب وصاح وهو صحيح لغوي . و يقولون فلان واكر عند فلان اذا كان ملازماً له وهو صحيح لغوي مأخوذ من وكر الطائر اتخذ له وكراً وكذلك هذا الرجل اتخذ صاحبه مثل وكر الطائر في الملازمة . و يقولون راز الشيء و يروزه يعرف قدره ولا اصل في اللغة راز الشيء روزاً جربه ليعرف قدره والراز رئيس البنائين . ويقولون اكلنا عند فلان بسيسة قال في القاموس البسيسة اتخاذ السويق او الدقيق او الأقط بالسمن والزيت . و يقولون فلان دحس قال المجدي الدحس هو الذي يخفي الاشياء مكراً وقال في القاموس الدحس اندساس شيء في التراب . و يقولون فلان عنده عترسة اي شدة قال في القاموس العترسة الاخذ بالشدة والجفاء والعنف والغلظة . و يقولون ناموسية لشيء يعمل من القماش يدخلون فيه في زمن الشتاء وهو صحيح لغوي والناموس عريسة الاسد والناموس جبريل عليه السلام و يقولون فلان هلس وهو صحيح لغوي ومعناه اذا تكلم كلاماً غير منتظم و يطلق على سلب العقل وعلى الهزال . و يقولون فلان خربشني باظفاره اي آذاني بها وهو صحيح قال في مختصر الصحاح الخربشة والخرفشة والخرمشة كلها بمعنى واحد و يقولون طواشي على الخصي وهو صحيح لغوي وارد في بعض كتب اللغة والذي في القاموس الطوش خفة العقل . و يقولون نفش وهو صحيح لغوي

يقال عفشه يعفشه جمعه ومن الناس من لا خير فيهم . و يقولون نتش وهو صحيح لغوي قال في الزاهر النتش كالضرب استخراج الشوكة ونحوها ونتشت اليوم كذا وكذا اي اكتسبت . و يقولون فلان بصبص لي اي نظر الي نظراً بعد نظر وهو صحيح لغوي قال في الزاهر البصاصة العين لانها تبص و بصبص الكلب حرك ذنبه والجرو فتح عينيه . و يقولون فلان ممصوص قال في القاموس الممصوص الرجل المهزول والممصوصة المرأة المهزولة . و يقولون ساباط قال في مختصر الصحاح الساباط سقيفة بين حائطين تحتها طريق والجمع سوابيط وساباطات (وفي لغة الشام الآن سيباط و بلغة مصر سباط) . و يقولون فوط قال في القاموس الفوط شيء يجلب من بلاد السند وهي مآزر مخططة فصار يطلق على غيرها مجازاً . و يقولون فلان فطفاطي قال بعض ائمة اللغة هو الاعوج القليل الثبات او الذي يتكلم بكلام لا يفهم . و يقولون فلان عنده دلاعة قال في القاموس الدلاعة الغاية في الحمق والغفلة والتصاغر وخروج اللسان . و يقولون اخضر مرعرع قال في الزاهر المرعرع الكامل الحسن في الاعتدال والرعرعة اضطراب الماء الصافي على وجه الارض وترعرع تحرك واتشأ او رعرعه الله انبته . و يقولون فلان منعنع اي عنده عدم في قوته قال في القاموس النعنعة ضعف العزم بعد قوة والرتة في اللسان والنعناع نبت معروف . و يقولون وكثيراً ما يقع من الاروام غوغا قال بعض ائمة اللغة الغوغا الشر والحرب والغوغا الجراد وشيء يشبه البعوض لضعفه وبه سمي الغوغاء من الناس . و يقولون فلان مغمغ في كلامه اذا لم يبينه قال في القاموس مغمغ اللحم مضغه ولم يبالغ وكلامه لم يبينه . و يقولون فلان شلاف قال المجدي الشلاف هو الذي يأخذ الشيء من غير حساب . و يقولون شاف الشيء اي نظره قال في القاموس شاف الشيء اي نظره وشفته شوفاً جلوته ودينار مشوف مجلو . و يقولون فلان نتيف واعطاني نتفة وكلاهما صحيح لغوي الا انهم يحرفونها فيكسرون النون والصحيح الضم قال بعض ائمة اللغة نتف ما تنتفه باصبعك من شعر اونبت والنتفة الشيء اليسير . و يقولون شقة قماش قال في القاموس الشقة من الثياب المستطيلة . و يقولون عنقه قال في المجرد عنقه يعني امسكه و يقولون عفلق قال في مختصر الصحاح العفلق الرجل الطويل المسترخي والعفلق الضخم المسترخي والمرأة الخرقاء السيئة العمل والمنطق والرجل الاحمق . و يقولون فلان ربى على قلبي دبلة قال في مختصر الصحاح الدبل الطاعون و يطلق على الداهية وعلى الجمل الصغير . و يقولون فلان زول قال في المجرد الزول الهيبة العظيمة والزول العجب والجواد والكلأ والخفيف الظريف الفطن و يقولون حزام قال في المجرد الحزام ما يشد به الوسط . و يقولون طارمة قال في مختصر الصحاح الطارمة بيت من خشب والغالب ان يكون ذلك في المراكب وحارة بمصر يقال لها اصطبل الطارمة اي الاصطبل الذي فيه بيت من الخشب . هذا غيض من فيض اوردناه على سبيل المثال فعسى ان يبادر القائمون بخدمة اللغة العربية الى نشر هذا الكتاب بالطبع .

الكتاب

اذا بلغت الحضارة أوجها في أمة يتفنن أهل العلم في التأليف المفيد فيضعون المصنفات في الموضوعات التي لا تخطر على بال أحد في مجتمع غير راق . ومن كان يظن ان أبا عمرو بن عمرو الجاحظ البصري يؤلف كتاباً في مدح الكتب والحث على جمعها (١) عدا ماوقع له من ذكرها مرات في كتبه قبل زهاء الف سنة ولكن ما كتبه الجاحظ في تلك الازمان يكتبه مؤلف هذه الايام ببيان أشفى ومادة أوسع لارتقاء هذه العصور باختراع الطباعة التي عمت بها المطبوعات وسهل بها التأليف والنشر ولا سيما على من كان مثل مؤلف «الكتاب» الذي صدر هذ الشهر في خمس مجدات للمسيو البرسيم قيم مكتبة نظارة البريد والبرق في باريز

قسم كتابه الى أقسام فتكلم على حب الكتب والمطالعة والكتب في الازمان السالفة والقرون الوسطى منذ اختراع الطباعة الى عصرنا هذا وتمييز بعض المؤلفين على بعض وما يجب أن يطالع من الكتب وكيف يجب أن يطالع أو يتصفح وتؤخذ مفكرات بالخط على بعض الكتب وهل ينبغي الاستكثار من الكتب أو الاقلال منها وكيف تختار الكتب وهل يجب الاكثار من المطالعة أو الاكثار من اعادة المطالعة . وتكلم على الكتب المزينة والكتب البسيطة . والقديمة والحديثة والاستشفاء بالكتب وتاريخ الكتب وذكر الروايات والصحف وتكلم على المجانين بالكتب (٢) Bibliomanes والهائمين بالكتب Bibliolâtres وممزقي الكتب Biblioclastes وأعداء الكتب Bibliophobes

(١) المقتبس ٣ — ٥٦١ - ٦٠١

(٢) المقتبس ١ — ٨٥

وعدّ النساء من أعداء الكتب واطال في اعارة الكتب وفي ورقها وقطعها وطبعها وتصويرها وتجليدها وابتياعها وترتيبها في قماطرها والعناية بفهرستها وتنسيقها وكيفية استعمالها وحفظها وطبعها واختصارها

هذه أهم ما تدور عليه أبحاث هذه المجلدات الخمسة الممتعة ويرى مؤلفها ان لا يقتصر في الكتاب على الباسه لباس الظرف وحفظه في الزجاج والنظر اليه باعجاب وانعطاف بل انه خلق ليقرأ ويتدبر مافيه ويتلذذ به قال : فانا أتخذه بمثابة اداة للدرس والتسلية والتعزية وقرة عين بل هو واسطة للكمال العقلي والادبي فانا من ثم لا أفصل بين محبة الكتب ومحبة الآداب بحال وان شئت فقل بين محبة الجمال والخير والعدل والحق فبين هذه الامور تشابه

وقد اعتذر المؤلف عن ان معظم كتابه ليس من قلمه بل هو عبارة عن استشهاد بأقوال أئمة العلم والادب في كل عصر ومصر وذلك لان الاستشهاد بكلام الرجل بعينه يصوّره كما هو وله من الوقع في النفس اكثر من احالة المطالع على الرجوع الى ما كتبه المؤلف كما قال سانت بوف العالم . وقال شاتوبريان الفرنسوي الكاتب : لا يجب الاعتقاد بأن معرفة ايراد الشواهد هو مما يسع كل أحد من أرباب العقول الضعيفة أن يفعله ممن فرغ وطابهم من كل علم فيستقون من موارد غيرهم ماراقهم وما الاستشهاد حيث يجب الا دليل العلم . فالذاكرة التي تدخر الشواهد لحين الحاجة هي في الحقيقة قرينة الذكاء بل هي أم الذكاء وجودة الذهن . وقد غذى كبار كتاب عصر لويس الرابع عشر عقولهم بالشواهد وكان شيشرون الخطيب الروماني الذي لم تكن له الا لهجة واحدة يلهج بها ويتوفر عليها يكثر من الاستشهاد وأنا أيضاً (شاتوبريان) لا أقصر في هذا السبيل

ولذا سار مؤلفنا في مصنفه الجليل على هذه الطريقة شأن معظم الكتاب الذين لا يكتبون الا بتصحيح الاسناد وايراد الشواهد والشوارد فيقرأ القاريء فيه من أسماء الكتب المؤلفة بالافرنجية في هذا المبحث مايدل على ان الغربيين اليوم سابقون في كل محمدة ويسجل بما بذله بنفسه من الدرس والبحث حتى جاء كتابه آخذا من كل شجرة ثمرة ومن كل حديقة زهرة

قال في تاريخ الكتب انه لم يعرف في الحقيقة الا منذ ثلاثة آلاف سنة وان قال أحد علماء الالمان بوجود الكتب قبل الطوفان ووضع لذلك مصنفا . فتاريخ الكتب يرد الى عهد ملك مصر اوسيماندياس الذي يرى علماء الآثار المصرية اليوم انه هو رعمسيس الثاني أو سزوستريس وكان له خزانة كتب جعلها في قصره في ثيبة كما قال المؤرخ ديودور الصقلي وقد حكم هذا بوجودها من أثر كان مزبورا على الحجر في أعلى باب هذه المكتبة وهو قوله « هنا أدوية النفس » فوصف بذلك الكتب أجمل وصف وأوجزه عرف ولا يتأتى أن يقال أحسن منه . ومضت على هـذا الوصف الازمان حتى جاء الفيلسوف مونتسكيو في القرن الثامن عشر فقال: ماقط حزنت الا وتبدد حزني بساعة من المطالعة أروّح بها عن نفسي ثم جاء بعده القصصي الانكليزي بولور ليتون في القرن التاسع عشر ووصف مطالعة بعض المصنفات لشفاء بعض الامراض فرأى المداواة بالكتب كأنها بعض العقاقير والعناصر . وكل من قال كلمة في هذا الباب لم يخرج في وصفه للاسفار عن حد الحكمة التي علقها ملك مصر على مكتبته أو شرحها أو المبالغة فيها. وأسس الظالم بيزيسترات (٥٦١ — ٥٢٧ق.م) مكتبة عامة في آثينة وهي أول مكتبة من نوعها جمع فيها أشعار هوميروس ولم تكن تعيها من قبل الا ذاكرة القصاصين والمتشاعرين . ويؤخذ من بيت

للشاعر اريستوفان (قبل المسيح بخمسة قرون) أن الكتب كانت منتشرة جدا في زمنه بمدينة آثينة . وقال كسينوفون في تذكرة سقراط شيئاً عن الكتب والمجاميع وتجارتها

واستعمل السبيادس على نحو ذلك الزمن (٤٥٠ـ ٤٠٤ ق . م) طريقة لاتخلو من قلة ذوق ليحبب أبناء وطنه في الكتب فدخل مدرسة خاصة بدراسة النحو وسأل المعلم أن يأتيه ببعض كتب لهوميروس فاجابه ان ليس عنده ولا واحد منها فصفعه وخرج . وكان الاسكندر الكبير (٣٥٦ ـ ٣٢٥ ق . م) مولعاً من وراء الغاية بدرس اشعار هوميروس وبعد ان هزم دارا ملك الفرس وقع اليه سفط كان بين اسلاب المغلوبين فسأل خاصته ماذا ينبغي ان يجعل فيه من مال أو متاع فاختلفت آراؤهم أما هو فقال لهم : انه يضع فيه الياذة هوميروس لتحفظ فيه حفظا جديرا بها . وكان الاسكندر أثناء رحلته الى آسيا أمر بأن تجلب له تواريخ فيليست وفاجعات اوريبيدس وسوفقلس واشيل وغيرهم ويحب استاذه ارسطو كما يحب اباه لان هذا سبب حياته وذاك سبب سعادته . وأنشأ بطليموس سوتر أحد خلفاء الاسكندر الذي استأثر بملك مصر عند ما قسمت المملكة اليونانية مكتبة الاسكندرية وهي شهر واغنى مكتبة في الازمان السالفة وكان ذلك باشارة ديمتريوس ديفالير (٣٤٥ـ٢٨٣ ق .م) النحوي المؤرخ البياني حاكم آثينة الذي غدا اول قيم على هذه المكتبة وجرى خلفاؤه من البطالسة على العناية بهذه المكتبة ولا سيما بطليموس الثاني فيلادلفس (٢٨٥ ـ ٢٤٧) وبطليموس الثالث افرجيتس . وكانوا ينشطون زراعة ورق البردي ليتوفر الورق لديهم ويستخدمون كثيرا من النساخ وربما لم يكونوا يستنكفون من السرقة لزيادة ماعندهم من الكتب كما فعل احدهم فاستعار من

مكتبة آثينة كتباً لشعرائهم وفلاسفتهم فاستنسخها ولم يرجع الاصل بل ارجع نسخاً ثانية منها وبطليموس الثاني فيلادلفس — لعله لقب بذلك استهزاء به لانه قتل أخوته أو لانه تزوج أخته — هو الذي أمر بترجمة كتب العبرانيين المقدسة الى الرومية بمعرفة سبعين من علماء بني اسرائيل وكانت ترجمتهم السبعينية من أهم حوادث التاريخ لانها سهلت السبيل الى انتشار اليهودية ومهدت للنصرانية

ولم تحرق مكتبة الاسكندرية التي قال بعضهم انه كان فيها نحو سبعمائة الف مجلد على يد الامام عمر (١) ولا بأمره كما جاء في بعض التقاليد فان هذه الدعوى من الاغلاط التاريخية العظيمة اذ لم يكن أثر لهذه المكتبة عند ما فتحت العرب مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٠ وعلى عهد البطالسة اصبح أمر المكتبة الى ضعف فقسمت شطرين جعل كل منهما في مكان مستقل فحرق القسم الاول قضاء وقدرا عند ما استولى يوليوس قيصر على الاسكندرية سنة ٤٧ قبل المسيح وذهب القسم الثاني وكان جعل في معبد سيرابيس على يد الاسقف تيوفيل بعد ذلك التاريخ بأربعمائة سنة عقيب الامر الصادر عن تيودوس بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها

ومن المكاتب الشهيرة في القديم مكتبة فرغامس « برغامة » في آسيا الصغرى أسسها اومينوس الثاني ابن اتال الاول قبل المسيح بمائتي سنة ويقول بلوتارك انه كان فيها مائتا الف مجلد بسيطة أهداها انطونيوس أحد حكام اليونان الى كلوبطرة ملكة مصر من نسل البطالسة · وقد نقل كثير من الكتب من مكاتب آثينة والشرق الى ايطاليا وكانت المكاتب عند الرومان

---

(١) المقتبس ١ — ١١٥ و ٢ — ٦٥٢

تبنى بالقرب من معابدهم وأول مكتبة أنشئت في رومية على يد ازينوس بولنيوس. واطالما تنافس ملوكهم في الاكثار منها وفيهن من جعلوا خزائن الكتب العامة في قصورهم. تساوى في الغلو بحب الكتب عالمهم وجاهلهم وعادلهم وظالمهم

وتكلم على الكتب على عهد البرابرة والهونس والغوط والغوط الغربيين والفندالبين وعلى غلاتهم من الافرنج في القرون المتأخرة (١) وأجادماشاءوشاء بيانه في اختيار المصنفات وانتقاء الاجود منها فأتى على ذلك بشيء مما قاله أهل العلم والحكمة منذ الزمن القديم الى عهدنا هـذا فقال ان توسيديد حضر مجلساً لهيرودتس المؤرخ اليوناني يتلو فيه على بعض أهل آثينة شيئاً من تاريخه فاهتز وطرب ولم يتمالك ان بكى وكان عمره خمس عشرة سنة وكان ديموستين يغالي في الولوع بتاريخ توسيديد نسخه بخطه الجميل ثماني مرات ليرسخ انشاؤه في ذهنه ويطبع عليه. وكان الاسكندر الكبير مهوّساً بالياذة هوميروس يصحبها معه حيث ذهب ويضعها تحت المخدة مع سلاحه عند ما ينام وكان شيشرون يرى ديموستين أخطب خطيب في كل ضرب من ضروب الخطابة ويعنى بما كتبه ارسطو وأفلاطون وتيوفراست كل العناية

وكان شارلمان (٧٤٢ــ٨١٤) ملك فرنسا مولعاً بتلاوة كتاب مدينة الله للقديس أوغسطينس كما ان الفريد الكبير ملك انكلترا (٨٤٩ــ٩٠٠) يؤثر مطالعة قصص ازوب وترجمها شعرا الى اللغة السكسونية وكان يرى تيودوركازا النحوي اليوناني المشهور (١٣٩٨ ــ١٤٧٨) ان كتب القدماء لو ألقيت كلها في النار لاختار ان يخلص منها كتب بلوتارك. وجعل شارلكان (١٥٠٠ــ١٥٥٨) كتب توسيديد رفيقته في أعماله وكان يقرأ تذكرات كومين المؤرخ بولع شديد.

---

(١) المقتبس ٢ — ٥٦٩

وكان كاتم السر فرنسيس باكون (١٥٦١ـ١٦٢٦) يقول ليست الكتب الا تكرارا فابحث في كتب اليونان والرومان والعرب وجميع مؤلفي القرون الحديثة فلا ترى فيها كلها شيئا يتعدى ما قاله الفلاسفة ارسطو وأفلاطون واقليدس و بطليموس. وكان ملتون الشاعر الانكليزي (١٦٠٨ـ١٦٧٤)الاعمى يقرأ في الصباح شيئاً من التوراة بالعبرية ثم يدرس شعر هوميروس ويقال انه استظهره كله وعلم بناته الثلاث ثماني لغات يقرأن فيها عليه بدون ان يفهمنها وكان يقول ان البنت تكفيها لغة واحدة ولكنه لم ير بدا من تعليمهن ليقرأن له ما يحب

وكان كورنيل الشاعر الفرنسوي (١٦١٦ـ ١٦٨٤)يؤثر مطالعة تاسيت وتيت ليف المؤرخين اللاتينيين ويعنى عناية خاصة بلوكين الشاعر اللاتيني وسينيك الفيلسوف وسمع لافونتين الشاعر الفرنسوي (١٦٢١ ـ ١٦٩٥)وهو في الثانية والعشرين نشيدا للشاعر ماليرب فاخذه العجب باقوال هذا الشاعر ثم انصرف الى مطالعة هوراس وفرجيل وتيرانس وكنتيلين واختار من مؤلفي الفرنسيس رابلي ومارو ودورفي وفواتور وقرأ من الايطاليين اريوست و بوكاس وماكيافيل وتاس . وشغفت العقيلة دي سيفنية الكاتبة الفرنسوية (١٦٢٦ـ ١٦٩٦) بمطالعة أدب نيكول ثم كورنيل و بوردالو . وكان الاخلاقي لابروير (١٦٦٩ـ١٦٩٦) يرى ان موسى وهوميروس وأفلاطون وفرجيل وهوراس لا يفوقون غيرهم من الكتاب والشعراء الا بجودة تعابيرهم وتصوراتهم

وكان الشاعر راسين (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩) استظهر وهو في السادسة عشرة أو السابعة عشرة اشعار سفوقلس واربيدس وقرأ أفلاطون و بلوتارك على الاصل اليوناني وكان وهو في المدرسة يقرأ رواية تيوجين وشاريكله لهليودور

اليوناني ففاجأه معلمه فتناول الكتاب من يده وألقاه في النار ثم اجتهد راسين ان يحصل على نسخه ثانية من هذه الرواية فعامله استاذه بمثل ذلك ثم استحصل نسخة ثالثة واخذ يحفظها سرا ولما اتى عليها حمل النسخة الى معلمه وقال له : لك ان تحرق هذه كما حرقت اختيها لاني لا حاجة بي اليها

وقال الكاتب الفرنسوي سان أفرموند (١٦١٣ ـ ١٧٠٣) ان رواية دون كيشوت لسرفاتيس هي من المصنفات التي استطيع تلاوتها طول عمري دون أن امل ساعة وكنت أود أن أكون مؤلف دون كيشوت من بين جميع الكتب التي طالعتها ومن رأيي انه ليس من كتاب يساعد كثيرا على تحسين ذوقنا في كل الامور مثله . ويظهر ان كوفيدو من حذاق المؤلفين واني لاعتبره زيادة لانه اراد أني يحرق جميع كتبه عندما قرأ دون كيشوت وكان يؤثر لو لم يؤلفها قال ثم اني رأيت مما يلذني طول حياتي كتب مونتين وأشعار ماليرب وفاجعات كورنيل ومصنفات فواتور

سئل الشاعر بوسويه (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤) عن المصنفات التي يتمنى لو قدر له أن يؤلف مثلها فقال كتاب « رسائل الولايات لباسكال » وكان يؤثر شعر هوراس وكان بوالو (١٦٣٦ ـ ١٧١١) يجعل لشعر هوراس المقام الاول ثم لتيرانس ويفضل مشاهير القدماء على مشاهير المحدثين ماخلا باسكال فانه عده في مصاف العظماء وكانت مكتبة لايبنز الفيلسوف الالماني (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) عبارة عن مصنفات أفلاطون وارسطو وبلوتارك وسكتوس امبيريكوس واقليدس وارخميدس وبلين وشيشرون وسينيك وقد درس منذ نعومة أظفاره اللغات القديمة وآثر التوفر على الاخذ من الشاعرين تيت ليف وفرجيل حتى انه كان في شيخوخته يسمعك ماقاله فرجيل بالحرف الواحد

وكان مونتسكيو (١٦٨٩ـ١٧٥٥) جعل قراءة كتابات تاسيت هجيراه وقال من نفسه: اني لا اعترف ان ذوقي في القدماء وان الزمن القديم يبهجني وانا اقول ابدا ماقاله بلين انكم ياهؤلاء تذهبون الى آثينة فاحترموا الارباب. وكان يحتفل من وراء الغاية بكتاب تلماك كما يأنس بكتب اشيل واربيد وسوفقلس وبلوتارك وارسطو وافلاطون وشيشرون وسويتون وفرجيل ويختار من المحدثين كربيليون ومونتين ولاروشفوكولد ويعتقد ان أعظم الشعراء أفلاطون ومالبرنش وشافتزبوري ومونتين

وكنت ترى على منضدة فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) رواية اتالي لراسين وكتاب الصوم الصغير لماسيليون وقال الفيلسوف ديدرو الفرنسوي (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) في كلامه على القصصي الانكليزي ريشارسون ان مطالعة كتبك هي سلوتي في جميع أوقاتي فلو قضت علي الضرورة أن أبيع كتبي لاعلم بثمنها أولادي لاستثنيتك منها وابقيتك لي أنت واسفارموسى وهوميروس واربيدس وسوفقلس واتناوب قراءتك مرات. وكان العالم بوفون (١٧٠٧ ـ ١٧٨٨) يوصي بقراءة أعاظم أرباب القرائح والعقول وقد حصرهم في خمسة وهم نيوتن وباكون ولايبنز ومونتسكيو وهو في جملتهم

وكان «كانت» الفيلسوف (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) يرى ان الارق اذا استولى على امرئ فليس لصاحبه الا أن يحصر فكره في موضوع واحد أما هو فكان يجلب النعاس الى عينيه بأن يتصور شيشرون وحياته وكتاباته. وكان كيتي (١٧٤٩ ـ ١٨٣٤) يرى ان خير ما يقرأ ماخطته انامل موليير وفولتير وقال عن هذا انه صفوة امته كما ان لويس الرابع عشر صفوتها في السياسة وذلك لان الاسرة اذا طال عليها العهد يتسلسل منها فرد يجمع جميع صفات اجداده

وكمالاتهم وهكذا كان فواتير أعظم كاتب كانت بينه و بين امته مناسبة وهو أعظم أديب على اختلاف العصور وأعجب مؤلف في الطبيعة

وسنحدث القراء بشيء من فوائد « الكتاب » بعد

مجامع الغرب

اشتقت لفظة المجمع التي هي تعريب «أكاديميا» الافرنجية من اكاديموس بطل آثينة فكانت الاكاديميا هناك عبارة عن بيت خاص أو ملعب محاط بالاشجار حوى عدة محالّ لتقديس الارباب ومنها محراب لربة الشعر أنشأه الفيلسوف أفلاطون فكان يتنزه تحت ظلال أشجاره مع تلاميذه ويذاكرهم في المسائل العلمية ولما هلك دفن في حديقة مجاورة لذاك المكان فتولى سبوزيبن بعده أمر المجمع ثم توسع في معنى الاكاديميا فصار يطلق على فريق رجال الادب والعلم وأرباب الفنون يجتمعون للبحث في موضوعات عامة نافعة

هكذا كان شأن مجمع البطالسة في الاسكندرية ومجمع الاسرائيليين ومجمع الخلفاء العباسيين في بغداد والامويين في الاندلس ومجمع شارلمان والفرد الكبير الفرنسويين . وكانت بعض هذه المجامع أشبه بمدارس منها بمجامع علمية كما ترى المجامع اليوم

نشأت في أوربا خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر مجامع علمية نظرية مثل مجمع فلورنسا احدى مدن ايطاليا (١٢٧٠) ومجمع المناظرات البديعة في طولوز من فرنسا (١٣٢٣) ولم يعن في ذينك المجمعين بغير الشعر لما ان الشعر والادب هما أول ماتعانيه الامة وتحرص عليه ليكون سلماً الى سائر العلوم التي هي قوام المجتمعات البشرية

أما الحركة التي أدت الى احداث المجامع الحالية في الغرب فيجتمع اليها خاصة أهل كل بلد وتنظر فى المكتشفات والمخترعات المهمة فتقر سليمها وتنبذ سقيمها .فترجع الى عهد النهضة التي نشأت من ايطاليا والنهضة اذا أطلقت في أوربا يراد بها دخول الآداب في طورها الجديد والقيام على الصنائع والعلوم التي نشأت فيها في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. ومما ساعد على احيائها اكتشاف الطباعة واختراع النقش وهما الاختراعان اللذان عمَّا الآداب والصنائع .

نشأت تلك الحركة من ايطاليا فكثرت فيها المجامع العلمية أيّ كثرة فلم تكن فيها مدينة الا وفيها مجمع واحد على الاقل وربما كان في المدن الكبرى عشرون مجمعاً أو تزيد . ومن المجامع الايطالية التي أشبهت المجمع العلمي الفرنسوي الحالي مجمع كروسكا ولم يكتب البقاء لما عداه من المجامع العلمية الايطالية التي نشأت في القرن السادس عشر والسابع عشر وقلما كانت تلك المجامع تدوم بعد مؤسسيها . وفي القرن السابع عشر حذت فرنسا حذو ايطاليا في مجامعها فكثرت فيها المجامع وحسنت حالها لان الحكومة في فرنسا أخذت بيدها فكانت نشأتها في بلاد عني فيها بأمرها . فأنشأ ريشليو الوزير الفرنسوي المجمع العلمي وأنشأ لويز الرابع عشر مجمع العلوم والآثار وفروعه التي نشأ منها مجمع الفنون الجميلة

اختلف بعضهم في فوائد المجامع العلمية ومما قاله رينان الفيلسوف الفرنسوي « كثيرا ما يضعف صوت العلم النافع ويتضاءل أمام هجمة المهاجمين وقحة الدجالين . وللعلم صوت متى سكن ضجيج تلك الظواهر يظل ذاك الصوت يسمع فلا يعود أحد يسمع غيره ومن أجل هذا ترى المجامع العلمية على كثرة

شكوى أهل الافكار المنحطة منها فائزة بفضل الغلبة لانها حارسة حسن الترتيب الحقيقي وهي قليلة ولكنها مفلحة وليس لغير العقل سلطة تبقى » اه

كانت المجامع العلمية الفرنسوية من أعظم المجامع التي نشأت في عواصم أوربا وعليها نسج الناسجون وبمثالها اقتدى المقتدون

نشأ المجمع العلمي الباريزي الذي هو مفخر من مفاخر الفرنسيس سنة ١٦٢٩ على يد بضعة أشخاص من أهل الطبقة الوسطى كانوا يجتمعون مرة أو مرتين في الاسبوع في منزل فالانتين كونرار أمين سر الملك فيتباحثون كأنهم في زيارة عادية في الاخبار والآداب واذا ألف أحدهم كتاباً يعرضه على غيره عن طيب خاطر فيقولون فيه رأيهم بحرية وكانوا ثمانية رجال ومعظمهم من أهل الادب ومن أرباب الذوق وأهل الشعور كما تدل عليه مصنفاتهم فمضى عليهم نحو أربع أو خمس سنين وهم يوالون اجتماعاتهم على هذا النحو والسرور شامل لهم والفائدة يقتطفون من ثمراتها كل جني هنيّ فاتصل خبرهم بريشليو وقد نمّ على جمعيتهم الصغيرة أحد أصحابه ولعل هذا الوزير أراد أن يكون مرجعاً في كل شيء شأن كبار المستبدين فعرض عليهم اذا كانوا يحبون أن يجتمعوا اجتماعاً عاماً ويتألفوا جماعة وكان ذلك في أوائل سنة ١٦٣٤ فتردد أولئك المجتمعون أولا ثم أجابوا دعوة ريشليو فدعاهم أولا الى تكثير سوادهم فبعدان كانوا من تسعة الى اثني عشر رجلا أصبحوا ثمانية وعشرين ثم تفاوضوا في الشكل الذي يجري عليه المجمع وفي مواده وعمله وهو عبارة عن تحسين اللغة الفرنسوية وتأليف معجم لها وكتاب نحو وشعر وبيان لتعم اللغة الافرنسية ويكون لها من الشأن ما كان في القديم للغتين اللاتينية واليونانية

مات ريشليو وخلفه في الرئاسة سيكويه من أصحاب السلطان وأخذ المجمع

العلمي صورة من صور ديوان رسمي ثم أخذوا بعد حين ينشرون محضر جلساته واصطلحوا على أن يلقي كل منتخب من زمرة أعضائه خطاباً . وفي سنة ١٧٠٢ قرر المجمع قبول النساء العالمات فيه . وفي رواية ان النساء كن يقبلن في مجمع التصوير والنقش الملوكي في باريز بصفتهن أعضاء منذ عهد بعيد ولكن لا يقبلن في المجمع العلمي الادبي اكثرمن غيره. ولطالما كافأ هذا المجمع النساء على ماجادت به قرائحهن من الكتب والرسائل ولم يفكر في ايجاد بعض كراسيّ لهن يجلسن عليها وكان النساء في مجمع التصوير والنقش ومازلن ممتعات بنفس الحقوق التي يتمتع بها الرجال

وكان العقلاء يشتكون في بعض الاحايين من دخول بعض الاعضاء في المجمع العلمي بالشفاعة والوساطة لعظم اقدارهم ولكن كانت الاكثرية في الغالب لارباب العلم النافعين ممن امتازوا بشيء أو كتبوا آثارا نافعة ولم يحرم من الدخول في هذا المجمع من رجال العلم الا أفراد قلائل امتنعوا هم عن الدخول أو كان المانع من دخولهم سبباً ظاهرا

نفع المجمع العلمي اللغة الفرنسوية بقاموسه فكانت أقواله محترمة معمولا بها من الامة ولطالما أسف الانكليز والالمان أنفسهم على عدم توفقهم لايجاد مثل هذا المجمع فكانت لغتاهم لعدم المسيطرين عليهما مادة رخوة قابلة لكل تغير يتصرف فيها على مايشاء

وعلى ما يشتغل به المجمع من تنقيح اللغة وتهذيبها ينظر في المصنفات التي تعرض عليه ويكافيء عليها المحسنين بالجوائز . وله الآن ثلاث وعشرون جائزة يعطيها كل سنة . منها سبع عشرة جائزة أدبية وما عداها جوائز سموها جوائز الفضيلة

أما مجمع الآثار الفرنسوي فقد انشيء سنة ١٦٦٣ من أربعة أعضاء من

أهل المجمع العلمي السالف ذكره وجعل أعماله النظر في حل الآثار والشعار والايقونات وان تجعل للعاديات القديمة بساطة وذوق تعظم بهما قيمتها الحقيقية وفي سنة ١٧٠١ نظم قانون ذاك المجمع مؤلفاً من اربعين عضوا يقسمون الى اربع طبقات . ويجتمع هذا المجمع مرتين في الاسبوع وأهم عمله البحث في الآثار الفرنسوية والتاريخ الفرنسوي كما يعنى بالآثار الشرقية والغربية كالاشورية والبابلية والسامية والمصرية وغيرها وفيه فحول من الاعضاء المخصين في كل علم من هذه العلوم وهو يعطي جوائز كسائر الاكاديميات الفرنسوية وينتخب رئيسه لسنة كما في سائر المجامع ما عدا العلمي الكبير ويعاونه كاتم أسرار دائم وهو محسوب من جملة الاعضاء الاربعين

أما مجمع العلوم في فرنسا فمنشؤه مجهول ولم يعرف له تاريخ في الحقيقة الا سنة ١٦٦٦ أيام رخص له الوزير كولبر بأن يجتمع في خزانة كتب الملك لما رأى في أعماله من خدمة الامة وفي هذا المجمع الفلكيون وعلماء التشريح والنبات والكيماويون والمهندسون والميكانيكيون والطبيعيون . زاره لويس الرابع عشر فوقعت زيارته له موقعاً حسناً .وقد خصصت له فرنسا منذ اول نشأته اثني عشر الف ليرة افرنسية لابتياع الادوات والآلات اللازمة للتجارب الكيماوية والطبيعية وغيرها وعدد أعضائه اربعون أيضاً كالمجمعين السالفين وهم يقسمون أقساما

اما مجمع العلوم الادبية والسياسية فلم يكن له كيان قبل الثورة الفرنسوية وغاية ما في الامر انه أسس نادي « الانترسول » للبحث في هذه العلوم على يد الراهب دي لونكور في سنة ١٧٢٠ فكان يجتمع أعضاؤه وهم مائة من العلماء كل سبت ثلاث ساعات يقضون الساعة الاولى في تلاوة بعض اوراق مقتطعة من الجرائد ويتباحثون في الساعة الثانية في الشؤون السياسية ويصرفون الساعة الثالثة

ـفي قراءة مفكرات . فظنت الحكومة الفرنسوية فيــه سوءا فأمرت بالغائه سنة ١٧٣١ حتى اذا كانت سنة ١٧٩٥ سن قانون لهذا المجمع ينقسم الى أقسام قسم العلوم الطبيعية والرياضية وقسم العلوم الادبية والسياسية وقسم الآداب والفنون الجميلة . وينقسم قسم العلوم الادبية والسياسية الى ستة أقسام لـكل منها ستة أعضاء في باريس وستة مشتركين في الولايات يشتغلون في تحليل الافكار والعواطف وهو قسم الفلسفة . والثاني قسم الاخلاق وقسم العلوم الاجتماعية والتشريعية كالتقنين والحقوق العامة والفقه . وقسم الاقتصاد السياسي كالمسائل المالية والاحصائية . وقسم للتاريخ العام والفلسفي وقسم للجغرافيا . ولمــا قبض نابوليون بونابرت على قياد المملكة الفرنساوية أراد أن يلغي هذا المجمع مخافة أن يثير حركة في القلوب الجامدة الا انه عاد بعد فتجددت حياته ولما تغيرت أنواع الحكومات في فرنسا تغيرت الاحوال على جميع العلوم الادبية والسياسية ثم انحصرت أعمال هذا المجمع بعد التيا والتي في الاشتغال بخمسة أقسام وهي الفلسفة والاخلاق والتشريع (الحقوق العامة والفقــه) والاقتصاد السياسي والاحصائيات والتاريخ العام والتاريخ الفلسفي . وقد كثر ماجاد اهل الخير له بالاموال ومن رصدوا له الاوقاف فضلا عما وضعته الحكومة الفرنساوية من الاعتمادات من اجله فصار يتأتى له بذلك ان يكافيء المحسنين من المؤلفين . اما مجمع الفنون الجميلة في فرنسا ايضاً فانه قام مقام عدة مجامع قبله انشئت منذ عهد لويز الرابع عشر فاضيف الى مجمع التصوير والنقش مجمع للموسيقى ومجمع للرقص . ومن المجامع الفرنساوية مجمع التصوير والنقش الملوكي انشيء سنة ١٦٤٨ والغي سنة ١٧٩٣

وهناك كثير من المجامع مثل اكاديمية سان دوك المؤسسة سنة ١٦٤٩

والملغاة سنة ١٧٧٧ ثم المجمع الملكي للرسم الذي أسس سنة ١٦٧١ في باريز وألغي سنة ١٧٩٢ ثم مجمع الفنون الجميلة وقد اسس سنة ١٧٩٥ ولا يزال حياً . وفي ولايات فرنسا كثير من المجامع العلمية للتصوير والنقش كما فيها مجمع علمي للموسيقى ومجمع للرقص وآخر للجراحة وغيره للطب وهناك جمعيات علمية أيضاً

قلنا أن ايطاليا كانت مبعث المجامع الادبية والعلمية على الطراز الحديث وانها كثرت كثرة عظيمة وكانت هذه المجامع لاول أمرها عبارة عن اجتماع أشخاص انصرفوا الى العلوم والآداب والفنون وظهرت بأسماء غريبة دام بعضها وبعضها انفض أعضاؤه والزمن جامع ومفرق . وأهم مجمع قام في ايطاليا المجمع الافلاطوني في مدينة فلورنسا بسعد كوسم دي ميديسي كبير دوقات طوسكانيا في عصره وكان همّ هذا المجمع درس أقوال افلاطون ثم تفرق اعضاؤه أيدي سبا عقب حوادث سنة ١٥٢١ ولم يعودوا يجتمعون ثم أسست مجامع في نابولي ورومية عنيت بالآداب والتمثيل والشعر واول جمعية اسست في ايطاليا للبحث في العلوم الطبيعية نشأت في نابولي سنة ١٥٦٠ على يد باتيست بورتا وكانت داره اول مجمع لاجتماع المتحابين في العلم وهم كانوا سداه ولحمته وقد عنيت بالبحث في الطب والفلسفة الطبيعية . ثم اتهم هذا المجمع بالسحر فاضطر مؤسسه ان يذهب الى حضرة البابا لويز الثالث ويبرىء نفسه مما عزي اليه وانحل المجمع وخلفه في رومية سنة ١٦٠٣ مجمع لنسي وكان من جملة اعضائه غاليله صاحب الرأي المشهور في دوران الارض الذي ارداه الجهل في عصره . ثم انشأ البابا بيوس التاسع سنة ١٨٤٧ مجمعاً علمياً في رومية سماه المجمع البابوي النيسي الجديد وبعد سنة ١٨٧٠ نظم هذا المجمع واطلق عليه اسمه القديم « المجمع النيسي » وهو الآن تحت حماية الحكومة الايطالية ويتناول نحو عشرين الف جنيه في

السنة من الحكومة وهو قسمان قسم العلوم الادبية والسياسية وفرع العلوم الطبيعية والظواهر الجوية

وفي سنة ١٦٥٧ أنشأ الامير ليو بولد دي ميديسي في فلورنسا مجمع سيمنتو للبحث في العلوم الطبيعية ثم انحل وأنشئ في مدينة فلورنسا مجمع كروسكا سنة ١٥٨٢ وهو مجمع أدبي أسسه أشهر شعرائها وعني بتصحيح قاموس اللغة الايطالية وهذا المعجم هو حجة الطليان في لغتهم كمعجم المجمع العلمي الباريزي باللغة الافرنسية. وقد ضعف هذا المجمع بعض الضعف ولكنه مازال موجودا وأعضاوه على قلتهم نشروا الآن الطبعة الخامسة من معجمه وفي كل من بولونيا وتورين وميلان والبندقية مجامع علمية أدبية كما فيها مجامع خاصة في أمهات المدن الايطالية ومنها مايرد تاريخه الى سنة ١٥٠٠

أما مجامع الفنون الجميلة فهي بلا شك وافرة في بلدان ايطاليا وكيف وهي أم الصنائع النفيسة والتفنن والذوق وأهم المجامع من هذا النوع مجمع ميلان أسس سنه ١٤٨٣ ومجمع الفنون الجميلة في ميلان ومجمع بولونيا المعروف بالمجمع الكليمنتي نسبة للبابا كليمان ومجمع جين اللغوي أسس سنة ١٧٥١ ومجمع تورين ومجمع البندقية ومجمع نابولي ومجمع بارم ومجمع مودين ومجمع لوك ومجمع سين وأهم المجامع المجمع الروماني لسان دوك أسس سنة ١٥٨٨ ومجمع الفنون والتصوير أسس سنة ١٨٦٠ في فلورنسا وكان أسس على عهد كوسم الاول امير ميديسي وغيرها من المجامع الصغيرة وفيه بعض أعضاء من الاجانب ولاسيما من الاسبانيين.

أما مجامع اسبانيا فهي مهمة أيضاً . فقد أسس الدوق اسكالونا في مدريد سنة ١٧١٣ مجمعاً علمياً على نسق المجمع العلمي الفرنسوي والايطالي وذلك لنشر اللغة الاسبانية وحفظها فكان اعضاؤه باديء بدء ثمانية ثم أصبحوا أربعة وعشرين

وله رئيس ينتخب كل سنة وكاتم أسرار دائم وقد نشر معجما . وهناك المجمع التاريخي أسس سنة ١٧٣٨ وكان لاول أمره جمعية خاصة جعلها الملك تحت حمايته وهو يعنى بالمباحث التاريخية وعاديات البلاد الاسبانية . وكان أسس في مدريد مجمع للطبيعيات وانفض بعد سنين فخلفه مجمع العلوم الذي أسس سنة ١٨٤٧ وقد جروا فيه على مثال مجمع العلوم في باريز وهو ينقسم الى ثلاثة اقسام العلوم الرياضية والطبيعية والظواهر . وفي سنة ١٨٥٨ انشئوا في مدريد مجمعاً على مثال المجمع العلمي الفرنسوي للعلوم الادبية . وفيها مجمع للفنون الجميلة أيضاً

ولحكومة البرتقال في لشبونة عاصمتها مجمع للبحث في التاريخ البرتقالي أسس سنة ١٧٢٠ على يد الملك يوحنا الخامس واضافت اليه الملكة ماري سنة ١٧٧٩ مجمعاً للعلوم الزراعية والفنون والتجارة والاقتصاد العام . وقد نظم المجمع العلمي سنة ١٨٥١ وهو قسمان أحدهما للعلوم الصرفة والثاني للادب والتاريخ والحقوق والعلوم الادبية والسياسية وأخذ منذ سنة ١٨٧٩ ينشر مذكرات أدبية برتقالية ومجاميع تاريخية مخطوطة ومفكرات اقتصادية

وتجد في اميركا الجنوبية مجامع علمية في كل عاصمة من عواصم جمهورياتها وأهمها مجمع الفنون الجميلة في ريودي جانيرو عاصمة البرازيل اسسها الملك يوحنا السادس البرتقالي وكان مديره واساتذته من الفرنسيس اولا

وأسست البلجيك سنة ١٧٧٢ المجمع الملكي البلجيكي في بروكسل على يد الامبراطورة ماري تريز ملكة بلاد القاع وهو يبحث في العلوم والادب ومازال الى اليوم سائرا على قدم النجاح وقد ضم اليه كل مافي بلاد البلجيك من اهل العلم وحملة لواء الادب وفي كل سنة يعين الملك رئيساً للمجمع من أحد اقسامه الثلاثة في الادب والفنون الجميلة والعلوم . وبينا كانت أوربا بأسرها

تزهر بالعلوم والآداب على عهد النهضة والاصلاح كانت البلجيك وهي تدعى اذ ذاك بلاد القاع الاسبانية قد خربت ومني سكانها بالحروب الدينية ونزلت من اوج السعادة الى حضيض الذلة المحزنة . دامت على ذلك طول القرن السابع عشر وفي تلك الحال التي كانت فيها بلاد البلجيك على جانب من ضعف القوى الطبيعية والعقلية سلمت ولاياتها للنمسا بموجب معاهدة اوترخت سنة (١٧١٣) وكانت الآداب والفنون قد اضمحلت فيها ولم يبق فيها اثر للعلم الا في كلية لوفين والتعليم فيها على ضعف . فارق الغنى تلك الامة وان لم يفارقها نشاطها واحتفظت بتقاليدها وبفضل الملكة ماري تريز هبت البلاد من رقدتها وانعكس ذاك السبات الطويل الى يقظة تامة وأعضاء ذاك المجمع ٤٨

وفي البلجيك مجمع طبي أسس سنة ١٨٤١ أعضاؤه أربعون ويقبل أعضاء شرف بقدر ما يستنسبه وأعضاء مراسلين يبلغ معدلهم مائة رجل منهم ٤٠ بلجيكياً و٦٠ أجنبياً . كما ان فيها مجمعاً علمياً للفنون الجميلة في مدينة انفرس وفيها مجامع للصنائع النفيسة في أمهات المدن البلجيكية . ولكن لمجمع انفرس فضل التقدم على سائر المجامع التي من نوعه لان تلك المدينة نفسها امتازت بالصنائع والتفنن فيها منذ خمسة قرون وقد أصبح هذا المجمع بفضل الدروس التي يلقيها في التصوير والنقش والحفر والهندسة كعبة القصاد من مئات من الطلاب في بلاد البلجيك وغيرها . وفي هولاندة مجمعان أحدهما يدعى مجمع بلاد القاع أسسه سنة ١٨٠٨ الملك لويز بونابرت واستحال سنة ١٨٥٢ الى مجمع العلوم و الثاني مجمع ليدن أنشيء سنه ١٧٦٦

ومن اعظم المجامع العلمية في المانيا المجمع الذي اسس في فينا سنة ١٦٥٢ على مثال المجامع الايطالية وليس له مدينة معينة يجتمع فيها بل يغير مقره بحسب

ارادة رئيسه ولكن خزانة كتبه لم تزل باقية في درسد عاصمة سكسونيا وقد نشر منذ سنة ١٨٩٥ سلسلة مفكرات تحت اسماء شتى كلها في العلم والطب . ومع انتشار العلم في بلاد الالمان وكثرة الكليات فيها لم يشعر فيها بالحاجة الى المجامع العلمية لاول ارتقائها فلم تؤسس المجامع في قواعد بلادها الا في القرن الثاني عشر على مثال المجامع الفرنساوية وذلك في مدن برلين ومونيخ وليبزيك وغوتنغن

اسس الفيلسوف الالماني لايبنز في برلين بمساعيه وفضل صوفيا شارلوت حامية الآداب والعلوم في عصرها مجمعاً للعلوم . فصدر الامر بانشائه سنة ١٧٠٠ ولم يرض فريدريك الاول ان يعد هذا المجمع من جملة دواوين الحكومة الا بعد اللتيا والتي واجابة لرغائب زوجته حامية الآداب والعلم فجرى المجمع منذ ذاك العهد على مثال مجمعي لندن وباريز وذلك بجمع المعارف المتفرقة في العالم وتقريبها من الاذهان وتنظيمها وجعل مجموعة لها واضحة سديدة وان تنمى ويزاد عليها وتوضع موضع الاستعمال ويعم امرها وتتشربها النفوس على طريقة امينة مشروعة . قال لايبنز الحكيم في قانون هـذا المجمع وهو من انشائه « ان الاسباب التي تبلغ بنا هـذا الغرض الذي نرمي اليه هي التأمل ومراقبة صنع الله وعجائبه في الكون ووصف الاكتشافات والاختراعات وما صاغته يد الانسان من النفائس والعناية بما عني به الناس واعتقدوه من عقائدهم وعلى الجملة النظر في جميع هـذه الدروس وتطبيقها على العمل فهي كنز العلم والعمران الاجتماعي وهي المادة التي تساعد على الخير العام والتوفر على الفضيلة وبث الحقيقة وتمجيد الخالق » الى أن قال: « ألا وانه يجب تطبيق العلم على العمل وتكميل الصنائع والعلوم بأساليبها والعناية بكل ماينفع البلاد والشعب في الزراعة والصناعة والتجارة بل في الطعام والادام ويعلي شأن المانيا »

ومابرحت حال هذا المجمع في ارتقاء وملوك المانيا يعضدونه مدفوعين الى ذلك بدافع طبيعي من حبهم للعلم أو بدافع حب الظهور والتباهي في الكمالات حتى جاء زمن على المجمع في القرن الثامن عشر أبدل فيه اللغة اللاتينية التي كان يكتب بها أعماله باللغة الفرنسوية لان هذه كانت لغة العلم اذ ذاك ولكن استعمال الفرنسية لم يدم غير عشر سنين ثم خلفتها الالمانية وكثرت واردات المجمع كثرة مهمة بما نحته به الحكومة الا ان كلية برلين قد غطت على شهرته بماقامت به من الاعمال العلمية ومع هذا دام له شأن يذكر بين الخاصة ولاسيما عند علماء الارض الذين يقدرون أعماله العلمية قدرها وهو اليوم أهم مجمع للمباحث اللغوية والتاريخية وله عناية خاصة بالعربية والسنسكريتية .

وفي برلين مجمع للصنائع الجميلة أنشئ سنة ١٧٠٣ وكان مديروه فرنسويين بادئ بدء . وفي بافيرا مجمع للعلوم اسمه المجمع الملكي هو في الدرجة الثانية عن الاكاديميات الا أنه ثقة محترم أسس في مونيخ سنة ١٧٥٩ واشتغل لاول أمره بالمباحث التاريخية وفي سنة ١٨٠٩ نظم شؤونه تنظيما حسناً وعهد برئاسته الى الفيلسوف جاكوبى وقسم أعماله الى ثلاثة أقسام وهي الفلسفة واصل اللغات والعلوم الرياضية والطبيعية والتاريخية

وفي مونيخ مجمع للفنون الجميلة . وفي امارة ساكس مجمع للعلوم أنشئ في درسد عاصمتها الا أن مدينة ليبزيك مركزه الحقيقي وقد أنشئ سنة ١٨٤٦ وعدد أعضائه سبعون عضوا ينقسمون الى قسمين القسم الرياضي والطبيعي والقسم التاريخي واللغوي . وفي كل من ليبزيك ودرسد مجمع للفنون الجميلة . وأنشئ في غوتنغن مجمع للعلوم انتظم أمره سنة ١٧٧٠ وهو ذو ثلاث شعب : الرياضيات والطبيعيات والتاريخيات وللشعبة الطبيعية فيه أثر مهم في الحركة العلمية الالمانية

ويمكن أن يلحق بمجامع المانيا مجمع فينا عاصمة النمسا اليوم ولغته الالمانية

وفي فينا ماعدا ذلك مجمع علمي امبراطوري وضع مشروعه لايبنز الفيلسوف ولكنه لم يؤسس الا سنة ١٨٤٦ على يد الامبراطور فرديناند الاول وهو شعبتان شعبة للرياضيات والطبيعيات وشعبة للتاريخ واللغة وله ٦٠ عضوا مواطنين و٢٤ عضوا بالشرف و١٢٠ عضوا مراسلين وكان أول رئيس له المستشرق الكبير هامر بورجستال . وأسس في فينا سنة ١٧٠٤ مجمع للفنون الجميلة

وفي بريطانيا العظمى وايرلندا تطلق لفظة مجمع على المحال التي تعنى بالفنون الجميلة وما عداها من الجمعيات التي يشترك فيها كثير من رجال العلم والادب لمقصد يقصدونه وعلم ينمونه وأدب يشدونه يدعى جمعيات . فالجمعية الملكية في لندن لاتقل عن المجمع العلمي في باريز و برلين و يرد عهد تأسيسها الى سنة ١٦١٦ وقد كان شأن هذه الجمعية على عهد جان الاول وشارل الاول من الضعف على جانب . وكان باكون الفيلسوف اعتاد أن يجتمع هو وأصحابه من أهل العلم والحكمة في اكسفورد على الدوام للبحث في الموضوعات التي لها علاقة بالعلوم العملية ولما ارتقى شارل الاول الى عرش انكلترا أصدر اليهم أمرا يعترف بجمعيتهم وعندها بدأ أمرها بالظهور ومازال شأن هذه الجمعية العلمية زاهرا طول القرن الثامن عشر والتاسع عشر واشترك فيها كثير من نبلاء البلاد الانكليزية وجميع علمائها ولكن بدون ان يعطى النبلاء لقباً علمياً . ومابرحت منذ سنة ١٦٦٥ تنشر كتباً تحت عنوان القضايا الفلسفية وقد بلغت الى الآن زهاء مائتي مجلد . وفي لندن مجمع الفنون الجميلة الامبراطوري أنشئ في خلال القرن الثامن عشر وفي ايكوسيا مجمع للتصوير اسمه مجمع ادمبرغ وفي دوبلين عاصمة ايرلاندا مجمع اسمه المجمع الملكي الارلندي أسس سنة ١٧٨٦ بجانب كليتها وفيها مجمع للفنون الجميلة . وفي بعض

المستعمرات الانكليزية مجامع علمية مثل المجمع العلمي في مدينة فيكتوريا من اوستراليا

وفي بلاد السويد والنروج مجامع علمية كثيرة جروا فيها على قدم المجامع الفرنسوية وهي ناجحة للغاية . وفي استوكهلم ثلاثة مجامع فيها ثلاث شعب كالمجمع العلمي الباريزي وفيها المجمع العلمي التاريخي ومجمع لغوي يبحث في تحسين لغة السويد وفيها مجمع علمي للفنون الجميلة أسس سنة ١٧٣٣ وهو كمعظم المجامع التي من شكله عبارة عن مدرسة للفنون الجميلة مع متحف وأساتذة وتلاميذ معدل عددهم أربعمائة

وفي استوكهلم مجمع علمي على مثال مجمع العلوم في باريز وبرلين أسس سنة ١٧٣٥ على يد العالم تريوالد المشهور في عصره اجابة لدعوة أحد رجال تلك البلاد وعلى نفقاته وكان دعاه الى القاء محاضرات عامة في الطبيعة العملية فحذا حذو تريوالد كثير من أهل الادب حتى اذا كانت سنة ١٧٣٩ أنشأ هؤلاء العلماء في استوكهلم جمعية صغرى غايتها البحث في المباحث العلمية وتعميمها ثم انتظموا في شكل مجمع علمي يجتمع في أوقات معلومة ولا يكتفي بالمحاضرات فنجح في شؤونه ونشر كما تنشر المجامع العلمية خلاصة بأعماله ونمي خبره الى فريدريك الرابع ملك السويد فجعله تحت حمايته ودعاه مجمع العلوم الامبراطوري في السويد واذ لم يغدق الملك على هذا المجمع شيئاً من مال الحكومة بقي حرا في حكم نفسه بنفسه وادارة شؤونه مستقلا عن الحكومة وهو الآن يتناول وارداته من الوصايا وممن يحسنون عليه بالاموال ويمنحونه المنح من أهل الخير . ويتعاقب الاعضاء المقيمون في استوكهلم رئاسة المجمع كل ثلاثة أشهر وأعضاؤه من السويديين وغيرهم من الاجانب . وكان هذا المجتمع ينقسم سنة ١٧٩٩ الى سبعة أقسام وهي الاقتصاد السياسي والزراعي والتجارة والصنائع الميكانيكية والطبيعة والتاريخ

الطبيعي الوطني والطبيعة والتاريخ الطبيعي الاجنبي والعلوم الرياضية والطب والادب والتاريخ واللغات

وفي اوبسال احدى مدن السويد مجمع اسمه مجمع العلوم الامبراطوري أسس سنة ١٧١٠ ولكنه لم يعترف به رسمياً الا سنة ١٧٢٨ وكانت كيفية انشائه غريبة وذلك ان طاعوناً جارفاً انتشر في اوبسال سنة ١٧١٠ فانفض طلاب مدرستها الجامعة وانقطعت ألسن المدرسين عن التدريس وخلت المنابر من أصوات الخطباء وساد الهلع والقلق في ارجاء البلاد فرأى أحد علماء اوبسال المدعو اريك برزيلوس خازن كتب الكلية وهو مؤرخ وفقيه مشهور في قومه. أن يجتمع أساتذة الكلية في المدرسة مرة في الاسبوع في قاعة المكتبة ليقضوا الوقت في المحاورات الودية ويخوضوا في الموضوعات الادبية ويطردوا عنهم كما قالوا شيطان الهموم ويقضوا الوقت بلا ملل فاجتمعوا لاول مرة وسموا مجمعهم مجمع الفضوليين وكان هذا الاجتماع أساس المجمع العلمي الحالي . ثم غير اسمه وأخذ بفضل أعضائه ينشر كسائر المجامع مذكراته وأعماله ورسائله ولكن باللغة اللاتينية أولا ومابرحت تصدر مذكراتهم باللاتينية الى اليوم وان كان معظم الاعضاء يكتبون مقالاتهم بالالمانية أو بالانكليزية أو بالافرنسية

وفي بلاد النروج مجامع علمية وان لم تكن في الغاية بموقعها فهي مفيدة وحرية بأن يشار اليها . ففي كرستيانيا مجمع أسس سنة ١٨٥٧ ومثله في دورنتيم أسس سنة ١٧٦٠ يعنى بالبحث في الصنائع والتجارة لا بالعلم المحض. وفي كوبنهاغ مجمع العلوم الامبراطوري أيضاً أسس سنة ١٧٤٢ على عهد كرستيان السادس وهو شعبتان الفلسفة والتاريخ والعلوم الرياضية الطبيعية وينشر مذكرات من أمتع مايؤلف وينشر . وفيها أيضاً مجمع للفنون الجميلة أسس سنة ١٧٣٨

وفي بطرسبرج عاصمة روسيا مجمع للعلوم كان البادئ بانشائه بطرس الاكبر تأسس سنة ١٧٢٤ من ثلاث شعب وهي الرياضيات والتاريخ الطبيعي والتاريخ والفقه ويقضى على أعضائه ان ينصرفوا للتعليم ويعنوا بتخريج تلاميذ يختارونهم من شبان الصقالبة «السلافيين» الاجانب . وكان جميع أعضائه من غير الروسيين لاول أمره أي من السويسريين والالمان. وقد خدم تاريخ روسيا وعلم آثارها أجلّ خدمة في منتصف القرن الثامن عشر وكان أول عضو روسي فيه الشاعر لومونوروف ورأسته الاميرة داشكوف من سنة ١٨٨٣ الى ١٨٩٤ وهي التي نظمت جلساته وجعلتها باللغة الروسية وشرعت في نشر عدة مجلات بالروسية. وانشئت فيه شعب للعلوم التاريخية والاحصائية والسياسية وقسم للغات الشرقية وقد خدم العلم أعظم خدمة ونشر عدة كتب ولا سيما قاموسه السلافي الروسي وقلّ بعد ذلك عدد الاعضاء الروسيين فيه وقام بعدة بعثات علمية مهمة . وفي بطرسبرج أيضاً مجمع للفنون الجميلة أسس على عهد الامبراطورة اليزابت سنة ١٧٥٧ وكان أساتذته من الاجانب لاول عهده

ولقد أنشأت الامم النازلة في الجنوب الغربي من أوربا في القرن التاسع عشر وهي الامم التي أحرزت الاستقلال أو تحاول نيله مجامع علمية لتدل بها على وطنيتها وتجمع شمل العلماء الذين يخاطبون أوربا في أمرها ومن تلك المجامع المجمع المجري أسس سنة ١٨٣١ وعاقته حوادث سنة ١٨٤٨ فلم يصبح عاماً الا في سنة ١٨٥٨ ثم قام دعاة الوطنية وأخذوا يستوكفون الاكف فاشترك في الجود له رجال تختلف طبقاتهم من البارون سينا الذي تبرع بثمانين ألف فلوريني الى الخدام والخادمات الذين كانوا يجودون بالقروش الصغيرة فأنشئ المجمع من جديد وافتتح بناؤه سنة ١٨٦٥ في بقعة من أجمل بقاع الارض على ضفاف الطونة

بين مدينتي بودوبست . وهو خمسة أقسام قسم في أصل اللغات وآخر في التاريخ الادبي وثالث في التاريخ ورابع في الاقتصاد السياسي وخامس في الرياضيات والتاريخ الطبيعي وعلم الآثار وله دخل وافر يمكنه من السخاء على العلم وهو يعين ثلاث مجلات مجرية بقدر من المال . منها مجلة بودابست وهي أشبه بمجلة المجلات الافرنسية تقوم على نشر العلم بين الطبقات المختلفة وتعطي جوائز كبعض المجامع العلمية لمن يبرّز في الادب والعلوم

وقد أسس سنة ١٧٦٧ في آغرام مجمع دعي المجمع الجنوبي السلافي في آغرام نشر كثيرا من الكتب المهمة لقدماء كتاب الكرواسيين والصقلبيين . وفي بلغراد من بلاد الصرب مجمع للعلوم أسس سنة ١٨٤٦ يعنى بالتاريخ والعلم واللغة ولا سيما تاريخ بلاد الصرب وجيولوجيتها وفي كراكوفيا مجمع لهم أنشيء سنة ١٨١٦ وجعل سنة ١٨٧٢ مجمعاً على مثال المجامع العلمية . وأسست في بولونيا عدة مجامع في القرن الثامن عشر ولكنها لم تقم لها قائمة لاسباب سياسية وكانت تنحل بعد اجتماعها بقليل

وفي رومانيا مجمع علمي أنشأه الوطنيون من الرومانيين لبيان الآداب الرومانية ووضع حدود لهذه اللغة وقواعد ثابتة لها ولا سيما بعد ان انضمت امارتا مودلافيا الى الافلاق واشتغل هذا المجمع زمناً بتحسين اللغة الرومانية وتصفيتها من الشوائب والبحث في اللغة القديمة واللغة الحديثة .

وفي الولايات المتحدة عدة مجامع علمية مهمة منها مجمع نيويورك ومجمع الفنون الجميلة ومجمع الموسيقى . وأول مجمع علمي أنشيء فيها كان على يد العالم فرنكلين سنة ١٧٤٣ ارتأى تعميم المعارف الزراعية فأسس المجمع الفلسفي الاميركي وقد انضم اليه مجمع آخر فتقوى به وما زال فرنكلين رئيسه يجدد انتخابه كل

سنة حتى مات والمجمع مكتبة فيها زهاء ثلاثين ألف مجلد · وأسس سنة ١٨١٢ مجمع العلوم الطبيعية في فيلادلفيا · وهو من أهم المجامع الاميركية وقد جمع له متحف ومكتبة لا نظير لهما وفي خزانة كتبه زهاء ثلثمائة ألف مجلد وفيها كثير من الكتب في التاريخ الطبيعي للولايات المتحدة ومتحفه مفرد في بابه . وأسس في بوستون مجمع للفنون والعلوم سنة ١٧٨٠ سموه المجمع الاميركي وغايته تنشيط الدروس الاثرية ودرس التاريخ الطبيعي وتطبيق المواد الطبيعية على صنائع البلاد وعلومها وله مكتبة فيها عشرون ألف مجلد وأقيم في بوستون أيضاً سنة ١٨١٤ مجمع للتاريخ الطبيعي ثم خلفه مجمع آخر سنة ١٨٣٠ وله مكتبة مهمة ومتحف وينشر كتباً ومفكرات · وفي نوهافن مجمع للعلوم والفنون وفي نيويورك مجمع للعلوم

وفي سالم من ولاية ما ساشوست مجمع للعلوم أنشأه الكريم بابودي فمنحه مائة وأربعين ألف دولار · وفي سان لوي مجمع للعلوم وفي شيكاغو كذلك كما في سنيناتي مجمع للتاريخ الطبيعي وفي كليفورنيا كذلك ومجمع هذه يكبر بكثرة ما يمنح من عطايا الاسخياء. وفي ايوفا مجمع للعلوم الطبيعية أسسته عقيلات دافانبور بسالهن. وفي فلادلفيا مجمع لترقية العلوم غرضه أن يطوف أعضاؤه في البلاد ويتباحثوا ويتبادلوا الافكار · وفي أميركا أيضاً مجمع للعلوم اسمه مجمع العلوم الوطني أعضاؤه مائة يجتمع في واشنطون وفي هذه المدينة المجمع السميثوني أسس سنة ١٨٤٦ بما وقفه عليه جايمس سيمثون المتوفى سنة ١٨٢٩ وهو من أهم مجامع الولايات المتحدة وله متحف طبيعي من أعظم متاحف العالم قام بفضل سخاء الاسخياء عليه وهناك عشرات من الجمعيات والمجامع في أمهات المدن الاميركية سواء كان في الكليات أو غيرها تنشر الكتب وتعنى ببث العلم والافراد يمنحونها

المنائح السنية • هذه نبذة في المجامع على اختلاف مقاصدها في العالم المتمدن لخصناها عن دائرة المعارف الفرنسوية الكبرى ور بما زاد عددها الآن اكثر من ذلك فعسى ان يكون فيها للشرق درس نافع

كلمة معتبر

أقوى مصيف القوم والمربع فالدار قفر بعدهم بلقع
سارت بنا الارض الى غاية لنا وللارض هي المرجع
ونحن كالماء جرى نابعاً لكن علينا خفي المنبع
والعلم قد أنكر منها جنا ولم يبن أين هو المهيع
خرقت ياعلم رداء لنا كنا ارتديناه فهل ترقع
فجعتنا ياعلم في أمرنا أمعتب أنت اذا نجزع
لقد طغت حيرة أهل النهى هل فيك ياعلم لها مردع
كم نشرب الظنّ فلا نرتوي ونأكل الحدس فلا نشبع
والناس ويل الناس في غفلة ترتع والموت بهم يرتع
والكون قد لاح بمرآته للعيش وجه شاحب أسفع
وان في البدر لخطباً به في البدر لاحت بقع أربع
فالعين مايورث حزناً ترى والاذن مايزعجها تسمع
والارض في منقلب بالورى والشمس من مشرقها تطلع
حتى اذا مابلغت شوطها لاحت نجوم في الدجى تلمع
وهكذا الظلمة تتلو الضيا والضوء للظلمة يستتبع
ونحن في ذاك وفي هذه بالنوم واليقظة نستمتع

مابين مسعود يميت الدجى | نوماً ومنكود فلا يهجع
ومسرع يسبقه مبطئٌ | ومبطئٌ يسبقه مسرع
وشامت يضحك من حادث | حلّ بباك قلبه موجع
لو كان للقسوة عين وقد | رأته كانت عينها تدمع
والكل في شغب لهم دائم | لم يقلعوا عنه ولن يقلعوا
والماء يمسي وشلا تارة | وحوضه آونة مترع
والريح تجري وهي ريدانة | حيناً وحيناً عاصف زعزع
وبعضهم تمرع وديانه | وبعضهم واديه لايمرع

***

قد يحسب الانسان آماله | والموت مصغ نحوه يسمع
حتى اذا أكمل حسبانها | وافاه ماليس له مدفع
فخرّ للجنب صريعاً به | وأي جنب ماله مصرع
وظلّ فوق الارض في حالة | يزوّرعنها الحسب الارفع
لاتعمل الاقلام في كفه | وكان من قبل بها يصدع
ولم تعد تقطع أسيافه | من بعد ما كان بها يقطع
فاستل مثل السيف من مطرف | طرائق الوشي به تلمع
ولف في ثوب له واحد | ليس له رقم ولا ميدع
واهاً له ثوب البلى انه | يبلى مع الجسم ولا ينزع
ودس حيث الارض أمست له | ملحودة ضاق بها المضجع
حيث البلى يرميه حتى اذا | لم يبق في قوس البلى منزع
خالط ترب الارض جثمانه | مطحونة منه بها الاضلع

لله در الموت من خطة | فيها استوى ذوالعي والمصقع
يخون فيها القول منطيقه | كما تخون البطل الادرع
ما اقدر الموت فمن هوله | لم ينج لا كسرى ولاتبع
يارافع البنيان كم للردى | من سلم يدرك ماترفع
ويا طبيب القوم لاتؤذهم | ان دواء الموت لاينجع
لابد للمغرور من مندم | بالعض تدمى عنده الاصبع
وماعسى تغني وقدحشرجت | ندامة ليست اذاً تنفع
يابرقع الخلقة واهاً لما | فيك وآهاً منك يابرقع
قد زاغت الابصار فيما ترى | اذ فات عنها سرك المودع
وليس في الامكان عند النهى | أبدع مما خلق المبدع

بغداد　　　　معروف الرصافي

سير العلم والاجتماع

مستقبل علم الاجتماع

نشرت احدى المجلات الاجتماعية آراء خمسة عشر عالماً من كبار علماء الاجتماع في اوروبا وأميركا سألتهم عن مستقبل هذا العلم الحديث الذي نشأ في الحقيقة منذ ثلاثة ارباع قرن عند مانشر اوغست كونت الفيلسوف الفرنسوي فلسفته الحسية وكان بها واضع أساس علم الاجتماع فكانت أجوبتهم على ان هذا العلم مازال في حداثته الاولى ويرجى أن يكون له بعد أجيال اساس راسخ وان القرن التاسع اورث هذا القرن فيما أورث من تركته الضخمة مشكلة كبيرة فان تراك له ماتم من الارتقاء في العلوم الطبيعية واكتشاف قوانين النشوء التي تشمل

العالم فان أهم مشكلة علمية ترك للقرن العشرين حلها هي تحديد الصلات بين الاسباب وقوانين النشوء السارية على الانسانية وان تقسيم العلوم التي يقوم عليها علم الاجتماع والتوفر على خدمتها سيجعل لهذا العلم شأناً غير شأنه الحاضر ويكون كفيلا بأعظم النتائج وأخص هذه العلوم هي تاريخ الحقوق وعلم الاقتصاد السياسي وعلم الاديان والصنائع والفنون والتاريخ قال أحدهم ان الغاية من علم الاجتماع أن نفهم منه النظامات الاجتماعية الحاضرة بحيث يتجلى لنا ما يكون من أمرها بعد وما نريد ان نحولها اليه ولا بد اولاً لفهم قانون من القوانين من معرفة كيفية تركيبه فالنظام الاجتماعي مركب من اجزاء فيتحتم حل هذه الاجزاء بمفرداتها ليتأتى الحكم على كل منها على حدته ولا يكفي في اظهار ذلك ان ننظر الى القانون من حيث انتهى اليه حاله فانه بذلك لا نعرف العناصر المختلفة المؤلف منها كما اننا لا نرى بالعين المجردة الخلايا التي تتألف منها الانسجة في الاحياء او الذرات التي تتألف منها الاجسام فيقتضي اداة للبحث لاظهار ذلك ولا سبيل اليه الا بالتاريخ فبه تعرف تلك القوانين التي تألفت قطعة قطعة وكيف جاء بعضها أثر بعض وللتاريخ مقام في نظام الحقائق الاجتماعية يشبه مقام الميكروسكوب في نظام الحقائق الطبيعية

سم الدخان

انشأ باعة الدخان في فرنسا يبيعون دخاناً خالياً من النيكوتين اي المادة السمية الموجودة فيه وقد جرب احد علمائهم هذا الدخان في اللفافات والغلايين فتبين له انه لا يضر أصلا كالدخان الانكليزي الذي حقن بمنقوعه بعض الحيوانات فاصيبت بعد ٣٨ الى ٥٦ يوماً بالتهاب الشريان (الابهر الشمالي) المزمن أما المحقونة بالدخان الفرنسوي الخالي من النيكوتين فحقنت ستين مرة فلم تزد به الا سمناً ولم يظهر عليها عرض من أعراض الامراض

لغة الاسبرانتو

قبلت مدرسة فرنسا في باريز هذه اللغة التي اخترعها الدكتور زمنهوف الروسي منذ نحو عشرين سنة بصفتها لغة مساعدة عامة وقد اصبح الذين قبلوا هذه اللغة ٣٠٧ جمعيات علمية وغيرها كما تعلمها ١٠١١ عالماً من علماء الارض على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم

حدائق الاطفال

أنشئت في منشستر حدائق من الرمل يلعب فيها صغار الاطفال الضعاف البنية فيحضرون اليها يحملون محافر وسطولا (كرادل) يحفرون ويسقون وتلاحظهم احدى النساء وفي الايام الممطرة ينتقلون الى مكان مسقوف وقد رأى الباحثون ان هذه الطريقة نافعة لتقوية أجسام الضعاف .

التمثيل في آسيا

قال احد علماء الاجتماع ان الامم الكبرى المتمدنة في آسيا ترتاح الى التمثيل ارتياح الامم الاوروبية اليه ومع هذا فان رواياتها التمثيلية منحطة عن روايات الغرب اللهم الا اليابان ففي الهند والصين لاترى في الروايات التمثيلية اثرا من الآثار التي تشير الى المطامع الكبيرة التي تسوق اصحابها الى الفتن ولا ابطالا يقدمون على المصاعب ويعاندون الاقدار في احكامها بل انهم يكتفون هناك بتمثيل فاجعات عامية تصور اضطرابات الحياة اليومية او عيشة العملة الاان الروايات الاوروبية قد اثرت الآن في الهند وان كان بعض أدبائها يريدون حباً بوطنيتهم ان يحيوا ما كاد يندثر من آدابهم القديمة مما يدعو الى الامل بأن التمثيل الهندي سيرجع عما قريب الى صورته السالفة التي كان عليها أما الصين فان الذي يغلب عليها في التشخيص ذكر الحياة اليومية وأحوالها والفقر ومشاكله

المؤثرة وتصوير الصدق والخديعة ويرجى للتمثيل في الصين ارتقاء لا سيما اذا دخلت البلاد بفضل الحركة الثورية التي تهز الآن اعصابها في فتن وطنية كبرى . والتمثيل في سيام يجمع الى تمثيل الحقائق كما تمثلها الصين والافكار الدينية والفنية كما هي في الهند. وكوريا ممتازة بموسيقاها . اما يابان فان التمثيل فيها صورة صحيحة من صور المطامع التي تجول في صدور اليابانيين والاعمال التي تدور عليها حياتهم فتجده مثالاً من تقاتل الافكار وعراك الرجال وتأثيرات الجمال والشرف يظهر كل مرة بمظهر امام المتفرجين . قال ومتى اكثر المترجمون في اوربا من روايات يابان اكثر مما ترجموا تمثل للانظار شعور ذاك العنصر وشعره وتمدنه فنرى ذاك العنصر الذي هو اعظم مثال في استقلاله كيف يقترب من تمدننا وشعرنا وشعورنا .

مقاومة الالكحول

قدم احد علماء الالمان الى مؤتمر مقاومة المشروبات الروحية الاخير تقريراً قال فيه ان الناس كانوا على ان قليلاً من المسكرات لا يضر ان لم ينفع اما هو فقد بين ان تناولها حتى باعتدال مضر جداً بالنسل وذلك بتجارب كثيرة اجراها على الارانب والكلاب وكان كل حيوان منها يتعاوره بالاختبار ويحقنه بالالكحول من مائتين الى ثلثمائة يوم فتبين ان نسلها يضعف عقيب ذلك ضعفاً محسوساً .

الجمال في الامم

كتب احد الباحثين رسالة فيما يراه كل عنصر من عناصر الارض من اسباب الجمال فقال ان الجمال يختلف الحكم عليه وان مما اجمع الناس على استحسانه قوة الرجال ومرونتهم فقبائل الهوتنوت يرون ان من كانت وجناتها اكثر نتوءاً من غيرها تعد ربة الجمال عندهم وزنوج افريقية يعتبرون الاثداء المستطيلة الرخوة والزنجيات في شواطيء بحيرة تنغانيكا يحاولن نفخ صدورهن ليكن بذلك محل الاعجاب ومن العادة ان تكون شفاه السود مبرطمة ولكي تزيد قبائل انكاسونكي والسيرير شفاهها برطمة يدخلن شوكاً فيها فيحدث فيها التهاب يؤدي الى انبساط القلب المفرط . والفكوك في قبائل الولف في السنيغال نائئة كثيراً ويزيدها نساؤهم نتوءاً بان يكرهوا الثنايا عند ما تطلع ان تكون بارزة الى الامام وذلك بان يضغطن عليها بالسنتهن . ومع ان انوف قبائل المالايو والقرغيز والهوتنوت والبوسهمين مفلطحة يزيدها نساؤهم فلطحة وقبائل الآينوس في جزيرة يزو على كثرة شعورهم فان نساءهم يزدن انماء شعور وجوههن بواسطة خضاب لتكون لهن شنبات غزيرة وهنود اميركا

على ان معظمهم جرد قليلو الشعر يتوفرون على نتف شنباتهم وسبلاتهم ولحاهم على ما تفعل الامم المتمدنة من الافرنج . وانف الفارسي اقنى رقيق ومع هذا يزيده من ذلك بالضغط عليه كثيراً وللمصريين القدماء عيون نجل ومع هذا كانوا يزيدون شرطتها بطلاء مخصوص والسياميون ارباب اهداب مقوسة ولا تعد المرأة جميلة عندهم الا اذا كانت اهدابها كهلال القمر .

المعارف في روسيا

عرفت روسيا منذ خمسين سنة انها كلما فتحت مدرسة في بلادها أُغلق سجن من سجونها لان المعارف خير ذريعة الى التقوى واصلاح النفس ثم ادركت ان الغلب الحقيقي في معركة سادوفا بين الالمان والفرنسيس كان بفضل معلم المدرسة الجرماني فالمعلم يكوّن الامة في سياستها واجتماعها ولذلك بدأت في الانفاق على المعارف ولكن سكانها الآن ١٤٤ مليون و بلادها متنائية الاطراف واسعة المعالم والجاهل يصعب اعداد معدات تعليمها في بضع سنين او عشرات ولا بد من ايام تمر واجيال تنقرض حتى يأتي من جمهور الامة اناس منورون على النحو الذي تريده الحكومة .

كانت روسيا لما بدأت في عدد أُميها دون اسبانيا وايطاليا وعلى مستوى البلاد العثمانية فكانت مدارسها الابتدائية والثانوية قليلة جداً وان تكن كلياتها ومدارسها العالية غاصة بطلابها . فكانت روسيا في تعليمها اشبه ببيت زينت ظاهره وبهرجت ادراجه وحوائطه وموهت سقوفه ولكنها لم تنظر الى اساس الطبقة السفلى منه .

بلغت المبالغ التي خصصتها روسيا للمدارس الابتدائية حتى سنة ١٨٩٧ — ١٤٨٤٦٧٢ روبلا وهو مبلغ زهيد جداً بالنسبة لذاك الملك الضخم فاصبحت سنة ١٩٠٧ — ٨٢٨٥٠٠٠ روبل ماعدا الاعتمادات التي تفتحها في الاحايين لاقامة المدارس وصار عدد مدارسها الابتدائية سنة ١٩٠٤ تسعين الف مدرسة فيها نحو مائتي الف معلم ومعلمة بين كهنة وعامة (علمانيين او عالميين) ومجموع ما فيها من التلاميذ خمسة ملايين وثلثمائة وتسعون الفاً . ومع هذا فاذا حسب حساب المتعلمين بالنسبة للسكان كان الواجب ان يكون عددهم نحو ثلاثة عشر مليوناً

وقد طلب ناظر المعارف من مجلس الامة الآن ان يقرر في الميزانية ستة ملايين وتسعمائة الف روبل زيادة على ميزانية الكتاتيب لتكون اساساً في جعل التعليم اجبارياً في روسيا كما ان المجمع المقدس يصرف في السنة عشرة ملايين روبل على مدارسه الدينية ويقول الخبيرون ان روسيا اذا ارادت جعل التعليم اجبارياً في بلادها كالمانيا وفرنسا مثلاً كان عليها ان تصرف كل سنة ١٢٠ مليون روبل وهو ما لا تقوى ميزانيتها على تحمله هذا عدا ما يلزم لها من الاراضي واقامة تلك المعاهد اللازمة والالوف من المعلمين

ممن يقلون في ابنائها . وكيفما دارت الحال فان روسيا تلوب على طرق تجبر الافراد فيها على التعلم قضهم وقضيضهم وذكورهم واناثهم .

حبوب العالم

اصدرت الغرفة التجارية في لندرا احصاء ذكرت فيه ما يستخرج من الحبوب في العالم فقالت ان محصول الحنطة ٣١٦٠ مليون مكيال تعادل ٨٦٠٠٠٠٠٠ طن (والمكيال عبارة عن ٣٦ لترًا و٣٥ ووزنه في الحنطة ٢٧ كيلوغرامًا وكسر قليل) ونصف هذا القدر تخرجه ثلاث ممالك فتغلّ الولايات المتحدة ٦٦٠ مليون مكيال وتغلّ املاك روسيا في اوربا ٥٤١ مليونًا وتغلّ فرنسا ٣٢٨ مليونًا واهم البلاد التي تغل النصف الآخر هي الهند تغل ٢٨٦ مليونًا وايطاليا تغل ١٥٩ مليونًا والمانيا تغل ١٢٨ مليونًا والمجر تغل ١٢٠ مليونًا واسبانيا ١١٥ مليونًا والجمهورية الفضية ١٠١ مليون والباقي تغله الممالك الاخرى

ويقدر محصول الذرة في العالم بـ ٢٨٩٦ مليون مكيال او ٧٣٥٠٠٠٠٧ طنات تغل الولايات المتحدة ثلاثة ارباعها اي ٢٢٨٦ مليون مكيال ويغلّ الهرطمان ٣٣٧١ مليون مكيال او ٤٩٠٠٠٠٠٠ طن تخرج الولايات المتحدة منها ٨٧١ مليونًا وروسيا ٨٢٥ والمانيا ٤٩٤ وفرنسا ٢٦٨ وكندا ٢٠٤ والنمسا والمجر ١٩٦ وتغل روسيا نصف الجاودار في العالم فمنها يخرج ٨٩٠ مليون مكيال ومن المانيا ٣٧٢ وتغل روسيا من الشعير ٢٩٧ مليون مكيال والمانيا ١٤٥ والولايات المتحدة ١١٤ واليابان ٨٠ وتغل الصين من الارز ٢٤٥٠٠٠٠٠ طن والهند ١٢٧٠٠٠٠٠ ومحصول الارز في العالم قريب من محصول الحنطة ويخرج من الدخن من بلاد الهند ٥٤٣ مليون مكيال ومن الصين نحو ٥٠٠ مليون ومن بلاد روسيا في اوروبا ٧٨ ومن بلاد روسيا في آسيا ١٥ ومن اليابان ١٢ ومن الولايات المتحدة ٥ وفي هذا الاحصاء لم يجر ذكر لمصر والشام والعراق وآسيا الصغرى ولا لتونس والجزائر لان محصولاتها من بعض هذه الحبوب تعد حقيرة جدًا بالنسبة لتلك المكاييل الضخمة في تلك الممالك الضخمة .

ثلاثة علماء

فقدت المانيا المستشرق ادوار غلازار المعروف بالآثار الكتابية التي استخرجها من جنوبي جزيرة العرب وفقدت فرنسا الاستاذين باربيه دي مينار وهرتويغ دارنبورغ من علماء المشرقيات المعروفين بخدمة اللغة العربية وآدابها .

الموسيقى والحيوانات

كان ميشله المؤرخ اذا أراد ذكر الحيوانات قال « اخواننا المنحطون » وقد كتب كاتب مقالة في تأثير الموسيقى في الحيوانات قال من توغل في البحث في التاريخ والسير يشهد ان الموسيقى طالما كانت تؤثر آثارها في الحيوانات . ومن فتح سفر أيوب يجد ان جواد الحرب يحفر الارض في حركته واضطرابه ولا يتمالك اذا ضرب البوق . كما يقرأ فيه أيضاً : متى ضرب البوق يصهل الجواد و يشعر بالحرب من بعيد و بقيادة الرؤساء وصوت الادوات . وفي الاساطير اليونانية اخبار عن الحيوانات وتأثراتها بالنغمات والالحان . وقد ثبت غيرما مرة ان العنكبوت تتأثر بالالحان ومن لا يذكر عنكبوتة بيليسون الاديب الفرنسوي الذي سجن في الباستيل فكان يتسلى بضرب الكمنجة فتقترب منه وتتعزى به حتى انها لكثرة طربها ذات يوم اغمي عليها فجاء السجان وسحقها . و يظهر ان الحشرات وان تكن قليلة التأثر بألحاننا البشرية الا ان لها الحاناً فللجنادب والصراصر والجراد ألحان خاصة بها لا يلذلنا سماعها لانها متساوقة الالحان لا نظام فيها ولكنها تستجيدها وتستلذ بها وكذلك تسمع للنحل في خلاياها دوياً لطيفاً متصلا ذا نغمات يدعوه المتوفرون على تربيتها صوت الخلية . اما الاسماك فلم يتحقق امرها فيما اذا كانت تطرب بالموسيقى وادعى احد المؤلفين ان سمك الشبوط يطرب لسماع نغمات الرباب

واثبت المؤلف شاتوبريان في قصة رواها ان الدبابات تطرب لنغمات الموسيقى . وان بعض الامم المتوحشة تستخدم الاغاني لتجلب بها الحيات فتأكلها كما يفعل الهنود في صيد نوع من الزحافات يستطيبون لحمها . والضب يتلذذ كثيراً بصوت الموسيقى ولا سيما الغناء الصغير . وسلحفاة البحر تبتهج للصفير و به يتأتى صيدها

والطيور تطرب كثيراً للانغام ولا نعني بالطيور تلك التي هي مغنية من طبعها كالشحرور والبلبل والعصفور المعدودة بهجة الغابات والحدائق بل هناك كثير من ضروبها تطرب اذا سمعت انغامنا كالببغاء ومنها اجناس لا تستطيع محاكاة الاصوات البشرية ولكنها مع ذلك تقلد صوت الآلات التي تسمعها . و « الحباشة » الذي يألف البيوت اذا سمع نغماتنا لا يلبث ان يهيج وينفخ صوته ويكرهه كأنه يريد ان يتمكن من الصوت الذي يسمعه وربما امكن تعليمه بعض الالحان . والزرزور سماع للانغام وقد علمه احدهم نشيد المارسيليز فلما نقل الزرزور الى محل آخر علمه لرفاقه الزرازير

وذوات الاربع من البهائم كالبقر مثلا تطرب للنغمات . والثور يطرب لصوت الحراث عليه فيمشي على نغماته متلطفاً كما ان الجمل يطرب للحداء . ولا يقتصر الطرب فيها على

تموجات صوت الانسان بل ان أي نوع من الاصوات اذا ردد كثيرا يكون سبب السرور وكذلك الحال في الجواد والخيول فانها تقتحم المهالك اذا سمعت الاصوات ثم انها تميز بين اصوات اصحابها وغيرهم . والحصان يتألم من الاصوات الرديئة وهو سريع السمع جدًا واذا عود سماع الاصوات الرديئة اعتادها وهو يؤثر نغمات الرباب على نغمات الكمنجة ويطرب جدًا للبوق

فان خيول الجند تظهر الفراهة والنشاط عند ما ترى ابواق الاجواق الموسيقية والحمار يحسن السماع والاستماع حتى لقد روي ان حمارًا سمع صوت امرأة اطربه فما زال يقترب منه حتى دخل الدار ليسمعها عن أمم . والفيل سماع للانغام

وقال بعضهم ان الجرذان تستهويها الانغام وان الكلب البحري قد يصاد بسماع الموسيقى . والذئب لا يطرب للصوت وربما فزع منه ولعله يهرب اذا سمع نغم الكمنجة او بوّق مبوق صوتًا شديدًا . ومن الدببة ما يرقص على نغمات الاوتار ولكن ليست هذه هي التي تطربها بل تخاف السياط التي تنهال عليها من يضربها فترفع قوائمها على ضخامتها وقلما تخربط الا عن غير قصد . اما الاسود فيقال انها تطرب للانغام وفي انكلترا اسد جال البلاد وكان من اكثر المخلوقات تأثرًا بنغمات البيانو وكانت تظهر منه اعاجيب حين يشرع صاحبه في الضرب على هذه الآلة فيزمجر وتقذف عيونه شررًا حتى يخاف المتفرجون ويضطر صاحبه الى الكف عن الضرب على آلته

والهر قليل التأثر بالموسيقى وقيل ان بعض الهررة تموء عند ما تسمع الانغام . والكلب كثير التأثر بالالحان الموسيقية . والقرد يطرب للانغام بل هو يتعلم الضرب بالآلات فيطرب بها كالانسان

وقد قال احد من يكرهون الموسيقى ان الموسيقى هي الصناعة الوحيدة التي تتأثر بها الحيوانات والمجانين والبله . وبالجملة فان تأثر الحيوانات بالانغام دليل واضح على ان الموسيقى عامة لجميع من له سمع

مطبوعات ومخطوطات

معجم الادباء

هو كتاب ارشاد الاريب الى معرفة الاديب او طبقات الادباء تأليف ياقوت الرومي من اهل القرن السابع وهو صاحب الكتب الكثيرة في التاريخ والجغرافية واهم كتبه معجم البلدان الذي نشره الاستاذ وستنفيلد الالماني لاول مرة في المانيا وهذا الكتاب معجم الادباء نشره الاستاذ مرجليوث الانكليزي · فبأي لسان نشكر علماء المشرقيات لخدمتهم لغات الشرق عامة واللغة العربية خاصة فانهم بفضل بيض اياديهم على لغتنا نزعوا من اذهان الغربيين ان اللغة العربية قاصرة عن مجاراة غيرها من اللغات الحية وعرّفوهم بانها لغة فنون وحكمة وتاريخ وادب كما هي لغة دين وفقه وكلام ·

لا جرم ان نفوس اهل العلم اليوم تهتز سرورًا لبشرى طبع الجزء الاول من معجم الادباء لما يعلمون من اجادة ياقوت في تآليفه وذوقه الغريب في الحكم على بلاد الاسلام وسكانها وتواريخها والمادة الواسعة التي توفرت له في عصره فاعترف منها اعتراف حكيم لا يسقط الا على الدر و يطرح الخرز والصدف جانبًا ·

وهذا الجزء الاول هو من مخطوطات مكتبة بودليان في اكسفورد واصله من كتب المطران بارتس في بومبي كتب بخط اعجمي لا يحسن العربية فجاء محرفًا تحريفًا كثيرًا وصححه الاستاذ مرجليوث على قدر الامكان على الاصول المعروفة من دواوين وكتب ادب ومحاضرات وتاريخ وغيرها فجاء شاهدًا بفضله وعلمه وما هي اول حسنة من حسناته في خدمة اللغة العربية ونشر ما انطوى من اقلام مؤلفيها الغابرين وشعرائها المجيدين ·

وما قولنا لمن يرون في مثل هذه المطبوعات التي ينشرها علماء المشرقيات بعض تحريف خفيف من نقط او كلمات قد تدرك بالبداهة انكم اذا توليتم من هذه الكتب ما يتولاه اولئك الاعاجم الغيورون منها لجاءت اكثر تحريفًا وتصحيفًا من مطبوعاتهم واحرى بمن يبادرون الى النقد ان ينشروا للناس ولو كتابًا واحدًا يكون في صحته على الرسم الذي يرسمونه ليصدقهم اهل العلم ·

في هذا الجزء نحو ٣٠٠ ترجمة لمن اسمهم ابراهيم او احمد منهم المشاهير الذين ترجموا في الكتب المطبوعة التي بين ايدينا ومنهم من لم نعثر لهم على تراجم الا فيه وقد صورهم المؤلف تصويرًا بديعًا لا يقل عن تصوير ابن خلكان وابن ابي اصيبعة وابن بسام والقفطي والسخاوي لمترجميهم ان لم نقل انه يمتاز على بعضهم ·

قال المؤلف « جمعت في هذا الكتاب ما وقع اليَّ من اخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين واصحاب الرسائل المدونة وارباب الخطوط المنسوبة والمعينة وكل من صنف في الادب تصنيفاً او جمع في فنه تأليفاً مع ايثار الاختصار والاعجاز في نهاية الايجاز ولم آل جهداً في اثبات الوفيات وتبيين المواليد والاوفات وذكر تصانيفهم ومستحسن اخبارهم والاخبار بانسابهم وشيء من اشعارهم فاما من لقيته او لقيت من لقيه فاورد لك من اخباره وحقائق اموره مالا ترى لك بعده تشوقاً الى شيء من خبره واما من تقدم زمانه وبعد اوانه فاورد من خبره ما ادت الاستطاعة اليه ووقفني النقل عليه في ترداديi الى البلاد ومخالطتي للعباد » الى ان قال « ولم اقصد ادباء قطر ولا علماء عصر ولا اقليم معين ولا بلد مبين بل جمعت للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان وتفاوت الازمان » .

وهذا الجزء في ٤٢٥ صفحة مطبوع بمطبعة هندية بمصر طبعاً نفيساً وقد طبع باسم جيب Gibb المستشرق وقد كانت العقيلة جيب ام الياس جون ولكنسن جيب وقفت وقفاً بعد موت ابنها هذا وكان مغرماً بدرس علوم الشرق وفلسفته وتاريخه ليطبع بريعه مايعلي شأن المباحث الفلسفية والتاريخية والادبية سواء كانت تلك المصنفات للترك او للفرس او للعرب وقد طبعت منذ سنة ١٩٠١ ستة كتب ومنها معجم الادباء وهي تعد سبعة عشر كتاباً آخر للطبع

لا جرم ان احياء معجم الادباء مما يقفنا على امور كثيرة كنا نجهلها من قبل وفيه من الشعر والنثر والمحاضرات والنكات ما هو مسرة للقلب وقرة للعين وانك لترى ياقوتاً يأتيك بما قيل في المترجم ذماً ومدحاً ويترك للقاريء الحكم في ذلك . فمعجم الادباء كوفيات الاعيان كلاهما متم لصاحبه فنشكر لأسرة جيب هذه المبرة الخالدة كما نشكر للاستاذ مرجليوث عنايته وغيرته .

تقرير مصر والسودان

صدر تقرير السير الدون غورست معتمد انكلترا في هذا القطر عن سنة ١٩٠٧ وهو في المالية والادارة والحالة العامة في مصر وفي السودان وفيه فوائد كثيرة عن القطرين في السنة الماضية لا يظفر بها الانسان الا في المظان البعيدة المنال ويؤخذ منه ان ايرادات الحكومة المصرية زادت في مدة عشرين سنة نحو ستة ملايين جنيه ولكن ثلثي الزيادة حدث في السنوات الخمس الاخيرة والسبب الاكبر في هذا النمو الارتفاع المستمر في اسعار

القطن التي تضاعفت في السنوات العشر الاخيرة وكان متوسط قيمة الصادرات ٣٠٩٢٠٠٠٠ ج م والواردات ٢٥٠٦٦٠٠٠ ج م ومتوسط زيادة الوارد على الصادر من النقود ٥٠٢١٠٠٠ ج ٠ م ودفع اربعة ملايين ونصف جنيه للاجانب من فوائد الدين المصري يدخل فيه خراج الدولة العلية ونفقات الخزان ونفقات جيش الاحتلال وكانت ايرادات الحكومة ١٦٣٦٨٠٠٠ ج ٠ م ومصروفاتها الاعتيادية ١٣٢٣١٠٠٠ والخصوصية ١٠٤٩٠٠٠ ؛ ومعظم الايرادات في زيادة كما ان معظم النفقات كذلك

وبلغ مجموع الدين المصري ٩٦٫١٨١٠٠٠ ج ٠ م في ٣١ دسمبر سنة ١٩٠٦ ومال الفائدة والاستهلاك ٣٦٩٩٠٠٠ ج٦ م وسدد من اصل الدين ٣٤٧٠٠٠ ج ٠ م فيكون الدين الباقي على مصر ٩٥٨٣٤٠٠٠ ج ٠ م ومال الفائدة والاستهلاك السنوي ٣٦٤١٠٠٠ ج ٠ م وعند الحكومة وصندوق الدين سندات من اصل هذا الدين بقيمة ٨٣٨٦٠٠٠ فائدتها ٣١٧٠٠٠ فمجموع الدين الذي كان الجمهور يتداول سنداته في آخر السنة بلغ ٨٧٤٤٨٠٠٠ ج ٠ م والفائدة التي يدفعها سكان القطر ٣٣٢٤٠٠٠ ج ٠ م

ومما يدل على ميل الناس الى التعلم والاستنارة ان عدد من زاروا حديقة الحيوانات في القاهرة بلغوا الى آخر نوفمبر سنة ١٩٠٧ — ٢٢٨٩٢٤ اي بزيادة ٢٤٢٢٨ عن مثله في السنة التي قبلها ومعظم الزائرين مصريون وكثيرون منهم من اهل الارياف وبلغ عدد الذين دخلوا غرف القراءة في دار الكتب المصرية ١٨٨٣٠ معظمهم مصريون

وبلغت جملة الواردات التجارية ٢٦١٢٠٧٧٧ ج ٠ م بعثت منها انكلترا الى مصر ٨٤٩٢٨٤٧ وجاء من املاكها في البحر المتوسط ٢١٣٠٧٠ ومن املاكها في الشرق الاقصى ١٠٨٦٨١٨ وجاء من فرنسا ٣١٦٦٨٩٠ ومن البلاد العثمانية ٢٩٧٣١٠٨ ومن النمسا والمجر ٢٠٥٩٤٢٣ ومن المانيا ١٣٩٣٣٨١ ومن ايطاليا ١٣٦١٤٥٧ ومن البلجيك ١٠٢٧٥٩٠

وبلغت جملة الصادرات ٢٨٠١٣١٨٥ اصاب بريطانيا منها نحو ٥٤٫٣ في المئة ويختلف نصيب كل من المانيا واميركا والنمسا والمجر وفرنسا وروسيا من الصادرات بين مليون ومليونين وقد زادت جميعها الا فرنسا فانها نقصت قليلا عن السنة التي قبلها

وفي التقرير فوائد لا يستغني عنها ابن هذا القطر خصوصاً وهو يطلب من ادارة المقطم بعشرة قروش

المقتبس

الجزء السابع من المجلد الثالث

رجب سنة ١٣٢٦ موافق اغسطس (آب) سنة ١٩٠٨

غرائب القصاص

لعلّ بعض النفوس تتأذى بقراءة هذا الموضوع لانه يدور على التفنن في ازهاق الارواح على انه لا بأس بشيء من القسوة يقوون بها قلوبهم للنظر في موضوع علمي تاريخي. كان الافرنج بعد الحروب الصليبية يستعملون من اساليب القتل كل غريب عجيب وخصوصاً في عهد ديوان التفتيش الديني في البلاد اللاتينية التوتونية حتى اذا كانت سنة ١٧٩٢ اخذت بعض البلاد ولا سيما فرنسا عن ايطاليا استعمال آلة سموها المقصلة (Guillotine) تحز رأس المجرم في اقل من ثانية ثم اخذوا يبطلون هذه العادات ولما جاء دور الكهربائية انشأت بعض بلاد الغرب ولا سيما الولايات المتحدة تعمد الى اصعاق المجرمين بها ولكن تبين مؤخرًا ان المصعوق باجراء مجرى كهربائي عليه لا يتلف في الحال بل انه يقاسي اشد العذاب عقيب اصعاقه ولا تزهق روحه حقيقة الا بعد ان تشرح جثته.

وقد قامت الدكتورة روبينوفتش وحملت حملة منكرة على القتل بالكهرباء قالت: ان كان ولا بد من استعمال هذه الطريقة الوحشية فلا اقل من ان يكون فيها شيء من روح الانسانية بمضاعفة القوة الكهربائية خمسة اضعاف ما يجري الآن ليتم القتل في اقل من لحظة وقد جربت هذه الطريقة في الارانب فوقع الاستحسان عليها واخذوا يستعملونها ولكن في عقاب المجرمين والاعضاء المؤوفة من الناس لتسلم بلادهم من شرور الاشرار.

وبعد فما برح البشر منذ عرف تاريخهم يقتل كبيرهم صغيرهم ويأكل قويهم ضعيفهم

يعاقب في التنازع على المحمدة والمجد والمال والدين والعروض بعضهم بعضاً وآخر عقوباتهم ونتيجة ارهاقاتهم « الموت » اخترعوا الى الوصول اليه طرقاً قد ترتعش لسماع اخبارها اليوم الاعصاب وتاريخ الشرقيين والغربيين على غرار واحد من هذا القبيل ترى كلما فتحت صفحاته دماء ابرياء تمج من جور الاقوياء على الضعفاء فتبلغ عنان السماء وتمثل لعينيك الامم في ذلك كاسنان المشط في الاستواء قلما يختلف شرق عن غرب او اسود عن ابيض .

فمن خنق الى حرق الى شنق الى ضرب بالعصي والاكف ورمي بالنبال وهبر بالسيف ودسر بالرمح والحراب والقذائف والبارود والديناميت الى سم واجاعة وحز رؤوس وبقر بطون وسمل عيون واستلال لسان وصلم آذان وشتر شفاه وقضقضة اعضاء وجذم اكف وقطع ايدٍ وارجل والكل الى غير ذلك مما يرجع الى معنى واحد الا وهو الارهاق في العقوبة وبلوغ المرء باخيه الى ما يقال له الموت . فكما ان للموت عشرات من المترادفات في العربية كذلك تجد في كل لغة الفاظاً تدل على تلك المسميات التي تهدم الهيكل الانساني وتطفئ سراج الحياة .

فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن التعذيب والتمثيل ومشى بعض اصحابه على هديه زمناً ولكن كان بعض اهل الصدر الاول يرجعون الى التوحش وارضاء الشهوات الغضبية فلا يدخرون وسعاً اذا ظفروا بعداتهم في ان يصبوا عليهم سوط العذاب فكان معاوية بن ابي سفيان اول من فتح هذا الطريق كما ابتدع بدعاً كثيرة اتى بها على غير مثال احتذاه ممن سلفه فقد ذكر الثقات انه كان يقرب ابن اثال الطبيب منه ويفتقده كثيراً لانه كان خبيراً بتركيب الادوية ومنها سموم قواتل حتى مات في ايامه كثير من اكابر الناس والامراء المسلمين بالسم وممن قتل في عهد اتباعه عبدالله بن عمر بعثوا اليه من رماه بسهم مسموم في عقبه . والتاريخ طافح بما قام به من ضروب التنكيل والتمثيل وكذلك فعل بعض ملوك دولته من بعده .

ولقد قابل بنو العباس الأمويين ببعض ما عاملوا به غيرهم وعمل السفاح بقول سديف في وصف بعض بني امية لما ذهب ملكهم .

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

قال ابن الاثير ودخل شبل بن عبدالله مولى بني هاشم على عبدالله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلاً على الطعام فاقبل عليه شبل فقال

اصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بني العباس

طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارًا واقطعن كل رقلة وغراس
ذلها اظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي قربهم من نمارق وكراسي
انزلوها بحيث انزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران اضحى ثاويًا بين غربة وتناسي

فامر بهم عبد الله فضربوا بالعمد وبسط عليهم الانطاع فاكل الطعام عليها وهو يسمع انين بعضهم حتى ماتوا جميعًا ·

وأمر عبد الله بن علي بنبش قبور بني أُمية في الشام فنبش قبر معاوية بن ابي سفيان فلم يجدوا فيه الا خيطا مثل الهباء ونبش قبر يزيد بن معاوية بن ابي سفيان فوجدوا فيه حطامًا كأنه الرماد ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر الا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فانه وجد صحيحًا لم يبل منه الا ارنبة انفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح وتتبع بني امية من اولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم الا رضيع او من هرب الى الاندلس · وقتل سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة جماعة من بني أُمية عليهم الثياب الموشية وامر بهم فجروا بارجلهم والقوا على الطريق فأكلهم الكلاب

وفي مروج الذهب ان الهيثم بن عدي روى عن معمر بن هانيء الطائي قال: خرجت مع عبد الله بن علي وهو عم السفاح والمنصور فانتهينا الى قبر هشام بن عبد الملك فاستخرجناه صحيحًا ما فقد منه الا خرمة أنفه فضربه عبد الله ثمانين سوطًا ثم احرقه فاستخرجنا سليمان ابن عبد الملك من ارض دابق فلم نجد منه شيئًا الا صلبه واضلاعه ورأسه فاحرقناه وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أُمية وكانت قبورهم بقنسرين ثم انتهينا الى دمشق فاخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره لاقليلا ولا كثيرًا واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا الا شؤون رأسه ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا منه الا عظمًا واحدًا ووجدنا خيطا اسود كأنما خط بالرماد بالطول في لحده ثم تتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم · وكان سبب فعل عبد الله ببني أُمية هذا الفعل ان زيد بن زين العابدين علي ابن الحسين بن علي بن ابي طالب سمت نفسه الى طلب الخلافة فحاربه يوسف بن عمر الثقفي فانهزم اصحاب زيد وانصرف هذا مثخنًا بالجراح ولما مات دفنوه في ساقية ماء

وجعلوا على قبره التراب والحشيش واجروا الماء على ذلك فدل يوسف على موضع قبره فاستخرجه و بعث برأسه الى هشام فكتب اليه هشام ان اصلبه عريانا وُبني تحت خشبته عمود ثم كتب هشام الى يوسف يأمره باحراقه وتذريته في الرياح وكان ذلك

وهكذا تجد ضروبًا من المنية في تاريخ هذا القسم الصغير من الارض فقد قتل ابو الجيش احمد بن طولون اخاه المسمى بالامين خنقًا بماءمغلي حتى مات . وقتل نصر بن احمد صاحب خراسان اخاه زكريا بعصر خصاه . وقتلت ام خالد بن يزيد بن معاوية زوجها مروان بن الحكم ابو عبد الملك بان امرت خدمها ان يضعن المخاد على فمه حتى مات . وكم من رجل سُم في كمثرى او رمي الزئبق في اذنه او فصد بمبضع مسموم قيل ان احمد بن الموفق ابن اخي المعتمد بن المتوكل قتل عمه في حفرة ملأها له من ريش ورماه فيها فمات بها . وقتل الشهاب السهروردي جوعًا . والقي رفيع الدين الجيلي من اعلى مغارة في بعلبك فتعلق في بعض جوانبه فبقي المباشرون ذلك يسمعون انينه نحو ثلاثة ايام وعذب اعوانه وكان قاضي قضاة دمشق

ولما غضب الراضي على الوزير ابي علي بن مقلة سلمه الى الوزير ابي علي عبد الرحمن بن عيسى فضربه بالمقارع واخذ خطه بالف الف دينار فجرت عليه منه من المكاره والتعليق والضرب والوهق امر عظيم وقطعت يده اليمنى وكان يقول في سجنه يد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة خلفاء وكتبت بها القرآن دفعتين تقطع كما تقطع ايدي اللصوص ثم زيد في اخفائه وجعل في محبس وقطع لسانه

ولما خرج المصعب بن الزبير في عهد عبد الملك بن مروان في العراق سنة ٧١ ورأى تحيز الجفرية لعبد الملك ارسل اليهم فنسبهم وسبهم قال ابن جرير ثم ضربهم مائة مائة وحلق رؤوسهم ولحاهم وهدم دورهم وصهرهم في الشمس ثلاثًا وحملهم على طلاق نسائهم وجمر اولادهم في البعوث وطاف بهم في اقطار البصرة واحلفهم ان لا ينكحوا الحرائر

ولما دخل مراكش مأمون الموحدين ادريس بن يعقوب امر بتقليد شرفاتها بالرؤوس فعمتها على اتساع الساحة . ولما استولى الغز على نيسابور اخذوا ابا سعد محيي الدين النيسابوري ودسوا في فمه التراب حتى مات . وقبض عز الدولة بن بويه على وزيره ابن بقية وسمل عينيه ولما ملك عضد الدولة طلبه والقاه تحت ارجل الفيلة فلما قتل صلبه . وكان الوزير ابن الزيات قد اتخذ تنورًا من حديد واطراف مساميره المحدودة الى داخل وهي قائمة مثل رؤوس المسال في ايام وزارته وكان يعذب فيه المصادرين وارباب الدواوين المطلوبين

بالاموال فكيفما انقلب واحد منهم او تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه فيجدون لذلك اشد الالم ولم يبقه احد الى هذه المعاقبة وكان اذا قال له احد منهم ايها الوزير ارحمني فيقول له : الرحمة خورٌ في الطبيعة . فلما اعتقله المتوكل امر بادخاله في التنور وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد فقال يا امير المؤمنين : ارحمني فقال له : الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس قاله ابن خلكان

ولما استولى ابو عبد الله الشيخ على فاس سنة ٩٦١ قتل الفقيهين ابا محمد الزقاق وابا علي حرزوز ويحكى انه لما مثل ابو محمد بين يديه قال له: اختر باي شيء تموت فقال له الفقيه: اختر انت لنفسك فان المرء مقتول بما قتل به فقال لهم السلطان : اقطعوا رأسه بشاقور فكان من حكمة الله وعدله في خلقه ان قتل هذا السلطان به ايضاً قاله في الاستقصا . وقال فيه : لما كان من السلطان ابي عبد الله الشيخ ما كان من غزوه تلمسان مرتين وكان يحدث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد جرت المخابرة بينه وبين حكومة السلطان سليمان ولما لم يلتزم الادب اتفق رأي الوزراء على ان عينوا اثني عشر رجلاً من فتاك الترك وبذلوا لهم اثني عشر الف دينار لاغتيال الشيخ فمازالوا حتى وصلوا اليه وتعلقوا بخدمته ثم اغتالوه وضربوا رأسه بشاقور ووضعوه في مخلاة فاوصلوا الرأس الى الصدر الاعظم وادخله على السلطان فأمر به ان يجعل في شبكة نحاس ويعلق على باب القلعة فبقي هنالك الى ان شفع في انزاله ودفنه ابنه عبد الملك المعتصم واحمد المنصور

ومما روى لسان الدين بن الخطيب من فظاظة محمد بن محمد بن يوسف ثالث الملوك من بني نصر انه هجم لاول امره على طائفة من مماليك ابيه كان سيء الرأي فيهم فسجنهم في مطبق الاري من حمرائه وامسك مفاتيح قفله عنده وتوعد من يرمقهم بقوت بالقتل فمكثوا اياماً وصارت اصواتهم تعلو بشكوى الجوع حتى خفتت ضعفاً بعد ان اقتات آخرهم موتا بلحم من سبقه وحملت الشفقة حارساً كان يرأس المطبق على ان طرح لهم خبزاً يسيرا تنقص اكله مع مباشرة بلواهم ونمي اليه ذلك فامر بذبحه على حافة الجب فسال عليهم دمه . قال ابن الخطيب وقانا الله مصارع السوء وما زالت المقالة عنها شنيعة والله اعلم بجريرتهم لديه .

وقتل يوسف بن عمر الثقفي امير العراقين خالد بن عبد الله القسري على طريقة غريبة قيل انه وضع قدميه بين خشبتين وعصرهما حتى انقدفتا ثم رفع الخشبتين الى ساقيه وعصرهما حتى انقصفتا ثم الى وركيه ثم الى صلبه فلما انقصف صلبه مات . وقال المقري

دخل السلطان ابو الحسن سجلماسة عنوة على اخيه السلطان ابي على عمر سنة ٧٣٤ وجاء به في الكبل لفاس ثم قتله بالفصد والخنق

ولقد كان رؤساء الناس وولاة الامر منهم هم الذين لا يبالون بارهاق النفوس وازهاق الارواح وكثيرًا ما يكون ذلك لغير سبب سوى الطيش والجهالة وكان بعضهم يلتذ باراقة الدماء مثل المعتضد بالله العبادي احد ملوك الاندلس الذي دانت له الملوك من جميع اقطارها وكان قد اتخذ خشبًا في ساحة قصره جللها برؤوس الملوك والرؤساء عوضًا عن الاشجار التي تكون في القصور وكان يقول : في مثل هذا البستان فليتنزه . وهو من الملوك الذين هابهم القريب والبعيد خصوصا بعد ان قتل ابنه واكبر ولده المرشح لولاية عهده صبرًا لان ابنه كان يريد الوقيعة به

قال لسان الدين وكان المعتضد بالله ابن عباد ابعد ثوار الاندلس صيتًا واشدهم بأسًا وانجحهم اثرًا جمع خزانة مملوءة برؤوس الملوك البائدين بسيفه وكانت وفاته سنة احدى وستين وخمسمائة

وفي رواية المقري ان بني الاحمر لما ظفروا باعدائهم من ملوك الافرنج في الاندلس سلخوا دون بطرة وحشوا جلده قطنًا وعلق على باب غرناطة وبقي معلقًا سنوات . ذكر ابن سعيد ان التتار قتلوا الملك المظفر قطز وخلعوا عظم كتفه وجعلوه في احد الاعلام على عادتهم في اكتاف الملوك . ولما قتل مروان بن محمد الاموي استخفى عبد الحميد الكاتب بالجزيرة فغمز عليه فاخذ ودفعه ابو العباس السفاح الى عبد الجبار بن عبد الرحمن صاحب شرطته فكان يحمي له طشتًا بالنار ويضعه على رأسه حتى مات وقيل ان ابن المقفع قتله عامل البصرة للمنصور بان جعله في تنور

ودخل ابو الحسن الملك العادل سيف الدين وزير الظافر العبيدي قبل وزارته بزمان على الموفق ابي الكرم بن معصوم التنيسي وكان مستوفي الديوان فشكا اليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية بمصر فلما اطال عليه الكلام قال له ابو الكرم: والله ان كلامك ما يدخل في أذني فحقد عليه فلما ترقى الى درجة الوزارة طلبه فخاف منه واستتر مرة فنادى عليه في البلد وهدر دم من يخفيه فاخرجه الذي خبأه عنده فخرج في زي امرأة بازار وخف فعرف وأخذ وحمل الى العادل فامر باحضار لوح من خشب ومسمار طويل فالقي على جنبه وطرح اللوح تحت أذنه ثم ضرب المسمار في الاذن الاخرى فصار كلما صرخ يقول له: دخل كلامي في اذنك بعد ام لا ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الاذن التي على اللوح ثم عطف المسمار على اللوح ويقال انه شنقه بعد ذلك

وروى التاريخ من اخبار من تلقوا نكباتهم بالصبر العجيب ومن انباء شجعان الزمان مالا يكاد يصدق الا ان اهل الاباء منهم كانوا يؤثرون الموت في الزحف ويتفادون من الوقوع في ايدي عداتهم لئلا يمثلوا بهم فقد جاء عبدالله بن الزبير الى امه اسماء ذات النطاقين لما خذله اصحابه في مكة فقال:ما ترين يااماه فقد خذلني الناس فقالت : لا يلعب بك صبيان بني امية عش كريماً او مت كريماً فقال :اخشى ان يمثل بي بعد الموت قالت له : ان الشاة لا تألم بالسلخ بعد الذبح فقبل بين عينيها وودعها وخرج يقاتل الى ان كان من امره ما كان ·

وقلب باسيل الثاني الملقب بقاتل بلغاريا بعد حرب ٣٧ سنة مملكة بلغاريا ومقدونية سنة ١٠١٨ وامر خمسة عشر الف بلغاري وسمل عيونهم · وكان ابوعبدالله احمدبن ابراهيم النديم خصيصاً بالمتوكل ونديماً له غضب عليه المتوكل فامر بقطع اذنه فتقطعت من غضروفها من الخارج ·

واستعمل القتل بوضع من يراد قتله تحت ارجل الفيلة كما امر احد بني بويه بابي اسحق الصابي لما غضب عليه ان يجعل تحت ارجل الفيلة ولكنهم شفعوا به لديه · وكانوا يعلقون من يريدون قتله ايضاً في ذنب الخيل ويجرونها كما فعل ازدشير بضيزن ابنة الساطرون اذ امر بها فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها ·

ومما ذكر في قانون الصين من انواع القتل المعروف بلغتهم بالباشب وهو تقطيع الاعضاء ارباً ارباً وصفته ان يشد الذي يراد به ذلك بين خشبتين قائمتين وتربط يداه ورجلاه ووسطه ربطاً محكماً ثم تجزأ انامله واصابعه انملة انملة وعقدة عقدة ثم تفصل يداه من الرسغين ثم من المرفقين ثم من الكتفين ويفعل برجليه مثل ذلك فاذا قطعت الاطراف جدع انفه وصلمت اذناه واخرجت عيناه ثم برش لحمه وجلده بامشاط من الحديد حتى يفرق بين عظمه ولحمه ويصير كالشاة التي جرد القصاب لحمها ويفعل ذلك به حياً وقد ابطل الامبراطور هذا العقاب مؤخراً ·

وبالجملة فان انواع القتل كثيرة وهذا اهمها فيما انتهى الينا معرفته وذكر ياقوت في معجم الادباء ان صولاً جد ابراهيم بن العباس الصولي شهد الحرب مع يزيد بن المهلب وان يزيد اوجد مقتولاً بلا طعنة ولا ضربة انسدت اذناه ومنخراه وامتلأ فمه بغبار العسكر فمات فلا يعرف مثله قتيل غبار · قلنا ومثله قتيل الدخان

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تنوعت الاسباب والموت واحد

المسلمون والذميون والمعاهدون (١)

الاحساس دليل الحياة !

التضامن رائد العمران !

يا ابن امي ! و يا ابن عمي !

نحن صنوان ضمنا عاطف القر بى جميعاً في مصر ضم النطاق
فوق هام الأهرام منك ومني غرة كوكبية الاشراق
فتقدم اخي وصافح اخا ير جو صفا العيش في رضاً واتفاق
انما النجح في اتحاد قلوب بولاء ونبذ كل شقاق

عرّفكم الله حلاوة الانضمام بعد طول الانقسام وانعم عليكم ببركة الائتلاف والوئام بقدر ما عرّفتموني لذة الكلام في هذا المقام و بقدر ما انعمتم عليّ بالتشجيع والاستحسان !

فلقد رأيت من التفافكم حولي لاستماع قولي و رأيت من قومي حينما ابلغتكم الصحف كلمي ان نغمتي صادفت منكم هوىً في الفؤاد وان صداها قد ترددفي جوانب هذه البلاد حينما جهرت بدعوة اهل الشرق الى طريق الحق وناديت على رؤوس الاشهاد . بتوثيق علائق الارتباط بين المسلمين والاقباط !

نعم نعم ! فلقد اهتزت الامة دانيها وقاصيها وردّدت هذه الكلمة بملء فيها . واصبح شعار كل حي في كل حيّ : اننا مصريون قبل كل شيء

لم اكن وحقكم ! انتظر هذا الاقبال من ابن امي وهذا القبول من ابن عمي ولم يكن يحدثني به وهمي حتى ولا في حلمي اثناء نومي . ولكن كان من حظي ان هذه الكلمة تجسدت وقد تنبهت الامة بعد ان استسلمت للجمود واخلدت للخلود في الخمود بحيث كان الناظر لابنائها وهم في همود يحسبهم ايقاظاً وهم رقود فحيا الله هذا الشعور ! الذي جاء آية على استئناف البعث والنشور . وحبذا هذا اليوم الذي سيبقى غرة في جبين الزمان ! فلقد علمنا فيه ان الاحساس دليل الحياة وان التضامن رائد العمران !

***

(١) هذا تابع لما في الجزء الرابع من خطبة احمد زكي بك في دار التمثيل العربي بالقاهرة

يقول العرب في اشعارهم : ان المهم المقدم (١) و يقول الفرنساويون في امثالهم : الامير اولى بالتصدير (٢)

واي شيء اولى بالتصدير والتقديم من كلام القدير القديم ؟ قال تعالى في كتابه العزيز : « ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائماً » فجعل الوفاء بالقنطار والغدر بالدينار اشارة الى ان الوفاء اكثر شيوعاً في اخلاق اهل الكتاب . وحسبهم ذلك مدحاً وفخاراً . وليس لي ان اتوسع في التفسير وانما استشهد على صدق هذه الآية بحادثتين وقعتا في بغداد وفي مصر : فمصداق الشطر الاول : ان ابن الفرات وزير العباسيين المشهور كان يودع امواله عند كثيرين من صنائعه والمخلصين له استعداداً للطوارىء واستظهاراً على غدر الايام . اخبر في احدى نكباته بان له عند يوسف بن فيجاس (اوبنحاس) وهرون بن عمران الجهبذين اليهوديين سبعمائة الف دينار . فاقرا في الحال بالمال ودفعاه . وقدره ٣٢٠ الف جنيه مصري .

ومصداق الشطر الثاني : ان زوجة الاخشيد كانت قد اودعت عند رجل من اليهود جرة من النحاس وضعت فيها ثوباً منسوجاً بالذهب وبدائره من الجوهر شيء كثير . فلما زالت دولة الاخشيديين واستولى الفاطميون على مصر ذهبت المرأة بعد زوال عزها الى ذلك الذي جعلته موضع ثقتها واستأمنته على ذخيرتها فانكر . فقالت : خذ بعض الثوب . فلم يفعل . فالتمست ان ينعم عليها بكم واحد و يأخذ الباقي حلالاً فلم يقبل وكان في الثوب تسع وعشرون درة من الدرر الغوالي . فأتت الى قصر المعز تتعثر في اطمارها وهي اقرب الى اليأس منها الى الرجاء ولسان حالها ينشد بيت بنت ملك العرب التي اخنى عليها الدهر مثلها وهي حرقة بنت النعمان بن المنذر :

فبينا نسوس الناس والامر امرنا اذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فاف لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

حتى اذا اتت قصر المعتز . وهي ذليلة بعد ذلك العز . عرضت عليه قصتها . فاحضر الرجل فانكر . فبعث الى داره من خرب بعض حيطانها . فظهرت الجرة في احد الجدران

(١) قال الشاعر :

ابى دهرنا اسعافنا في نفوسنا واسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلنا له نعماك فيهم اتمها وقدمهم ان المهم المقدم

(٢) *A tout seigneur, tout honneur.*

ورأى المعز الثوب وتعجب من الجوهر واللؤلؤ الذي فيه · ووجدوا ان اليهودي اخذ من صدره درتين فاعترف انه باعهما بالف وستمائة دينار فسلم الخليفة الثوب الى صاحبته فحمدت الله الذي اظهر صدقها واجتهدت في ان يأخذه ويعطيها ممها اراد فلم يفعل · فقالت : ياسيدي هذا الثوب كان يصلح لي وانا زوجة صاحب مصر · فاما الآن فلا حاجة لي به وهو لا يليق بي فابى ان يأخذه واستلمته صاحبته · وبهذا التقدير يكون ثمن ما فيه من اللؤلؤ فقط نحواً من ثلاثين الف جنيه مصري ·

ومن المعلوم ان العلم من اجل الامانات بين الناس وقد وقف بنا المقال في الخمسة الماضية عند نظرية جديرة بالاعتبار : وهي ان العلم مشاع وانه ليس له وطن ولا دين بل هو مورد سائغ لكل الافراد ولجميع الامم · وقد اطرفتكم بشيء يسير مما وقع في تلك العصور عصور الحكمة والنور اذ كان المسلمون يأخذون عن النصارى وغيرهم من اهل الديانات الاخرى وهؤلاء يأخذون عنهم ويتلقون عليهم ما يكسبون به اجرا وفخراً ·

رأينا علماء النصارى واليهود يأخذون شرائع دياناتهم عن رجلين من فقهاء المسلمين ورأينا افاضل المسلمين يسعون في طلب الحكمة والفلسفة والطب على نوابغ الذميين · وننتقل الآن الى الفقهاء من الطوائف الثلاث الذين استبدلوا علوم الابدان بعلوم الاديان كما سبق اعشى همدان الى استبدال الشعر بالفقه فمنهم الامام العالم الشيخ موفق الدين عبدالعزيز بن عبدالجبار بن ابي محمد السلمي المتوفى سنة ٦٠٤ فقد كان في اول امره فقيهاً في المدرسة الامينية بدمشق عند الجامع الاموي ثم بدا له الاشتغال بالطب فاعاد نفسه دارساً بعد ان كان مدرساً ورجع تلميذاً بعد ان كان استاذاً · واشتغل على الياس بن المطران بصناعة الطب حتى اتقن معرفتها وحصل علمها وعملها وصار من المتخرجين السابقين بين اربابها والمشايخ الذين يقتدى بهم فيها واصبح هذا الفقيه سابقاً وله بعد تلك المجالس الفقهية مجلس عام للطب يحضره المشتغلون عليه بهذه الصناعة من المسلمين والنصارى واليهود ·

وقد اشتهر رجل من فقهاء صقلية (من اعمال ايطاليا الآن) بالطب بقدر ما اشتهر بالفقه حتى كان الناس يفزعون اليه بالفتيا في الطب كما كانوا يفزعون اليه بالفتيا في الفقه · هذا هو الامام ابوعبدالله محمد بن علي التميمي المازري نسبة الى مدينة مازر (بفتح الزاي والراء) من مدن جزيرة صقلية وهي Mazara وقد اشتهر باسم الامام · لانه كان متقنا للعلوم مقدما في علم المنطوق والمفهوم · وكان آخر المشتغلين بافريقية (تونس) بتحقيق العلم ورتبة الاجتهاد ودقة النظر · توفي سنة ٥٣٦ وقد نيف على الثمانين · يحكى ان سبب اشتغاله بالطب انه مرض فكان يطبه يهودي فقال له : « ياسيدي امثلي يطب مثلك »

فاشتغل الشيخ حينئذ بالطب وبرع فيه براعة لايدانيه فيها احد . فاين الآن هذه الايام؟ وهل لنا بمثل اولئك الرجال الذين يفتخر بهم الاسلام ؟

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فلا ارى بأساً من ان اذكر لكم بمناسبة هذا المسلم المسمى بموفق الدين رجلين يسمى كلاهما ايضاً بالشيخ موفق الدين احدهما اسرائيلي والثاني نصراني

فاما الاول : فهو الشيخ الموفق شمس الرئاسة ابو العشائر هبة الله بن زين بن حسن ابن افرائيم بن جميع الاسرائيلي المصري . نشأ بفسطاط مصر وانقطع لاتقان العلوم وتفرغ لصناعة الطب والف فيها كتباً نفيسة مفيدة . كان جالساً يوماً في دكانه بالفسطاط . وقد مرت عليه جنازة . فلما نظر اليها صاح باهل الميت وذكر لهم ان صاحبهم لم يمت وانهم ان دفنوه فانما يدفنونه حياً . فبهت القوم من قوله وتعجبوا من امره ولم يصدقوه في خبره ثم ان بعضهم قال لبعض : « هذا الذي يقوله ما يضرنا اننا نمتحنه ؟ فان كان حقاً فهذا الذي نريده . وان لم يكن حقا فهو الذي يريده الورثة » فامرهم بالمسير الى البيت وحمله الى الحمام بعد نزع الاكفان . ثم سكب عليه الماء الحار وأحمى بدنه ونطله بنطولات (اي رش عليه سوائل وكمده بالمكمدات) فعطس الميت فرأوا فيه ادنى حس وتحرك حركة خفيفة فقال ابن جميع : ابشروا بعافيته . ثم تمم علاجه الى ان افاق وصلح . ثم انه سئل بعد ذلك عن هذه الكرامة : من اين علمت ان الروح لاتزال فيه وهو محمول وعليه الاكفان . فقال اني نظرت الى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الموتى تكون منبسطة فحدست انه حي وكان حدسي صائباً . ومن ذلك الوقت اشتهر بجودة الصناعة والعلم فاقبل عليه الناس لتحصيل فكان له مثل ذلك الموفق المسلم مجلس عام يحضره المشتغلون بهذه الصناعة من المسلمين والنصارى واليهود . وكان في مجلسه هذا لايفارقه كتاب الصحاح فلاتمر كلمة لايعرفها حق المعرفة الا ويكشفها منه ويعتمد على ما أورده الجوهري . فبرع حتى صار من الاطباء المشهورين والعلماء المذكورين والاكابر الذين يشار اليهم بالبنان . واقبلت عليه الدنيا بهذين السببين حتى تقدم في خدمة الملك الناصر صلاح الدين وحظي في ايامه وكان رفيع المنزلة عنده جليل القدر نافذ الامر عالي الهمة . ولما كان الشعراء هم الغاوين فقد دبت عقارب الحسد الى شاعر اسمه ابن النجم المصري . وكان مشهوراً خبيث اللسان فانبرى يهجوه بكل قبيح . فمن ذلك قوله فيه :

لابن جميع في طبه حمق ... يسب طب المسيح من سببه

وليس يدري ما في الزجاجة من ... بول المريض ولو تمخض به

واعجب الامر اخذه ابداً ... اجرة قتل المريض من عصبه

***

دعوا ابن جميع و بهتانه ودعواه في الطب والهندسه
فما هو الا رقيع أتى وان حل في بلد انحسه
وقد جعل الشرب من شأنه ولكن كما تشرب النرجسه
وقال كذبت وصحفت فيما ادعيت وقلت ابوك جميع اليهودي
وليس جميع اليهودي اباك ولكن ابوك جميع اليهود

ولما كانت العداوة في الاهل وفي ارباب الحرفة الواحدة فقد هجاه يهودي تجمعه وابن جميع رابطة الفضل والعلم والدين وهو موفق الدين ابن سوعة الاسرائيلي المصري قال :

ياايها المدعي طبا وهندسة اوضحت باابن جميع واضح الزور
ان كنت بالطب ذا علم فلم عجزت قواك عن طب داء فيك مستور

و بقية الابيات لااستطيع ايرادها في هذا المقام ولا في غيره · ولكن هذه الخبائث الشعرية لم تمنع افاضل المسلمين من مدح ابن جميع والاعتراف بحقه والتنويه بذكره حتى انه لما مات رثاه الشيخ يوسف بن هبة الله بن مسلم بقصيدة غراء في ستة وثلاثين بيتاً اولها

أعيني بماتحوي من الدمع فاسجمي وان نفدت منك الدموع فبالدم
لحق بمن تذري على فقد سيد فقد نابه فضل العلا والتكرم
ومنها وأنجد من يممته لملمة وانجد من أملته لتألم
ولو كان يفدى من حمام فديته بنفس متى تقدم على الموت تقدم
ومنها فقال معلناً للشامتين بموته ذروا الجهل ان الجهل منكم بمأثم
ومنها أما عجب اذ غاله الحتف رامياً وقد كان ارمى للخطوب بأسهم
فويح المنايا ما درت كنه حادث رمت سيداً يحيا به كل منعم

واما الثاني : فهو الحكيم الامام العلامة الفاضل الشيخ موفق الدين ابو نصر اسعد بن ابي الفتح الياس بن جرجس المطران المتوفى سنة ٥٨٧ فقد كان سيد الحكماء واوحد العلماء سافر الى بلاد الروم لاتقان الاصول التي يعتمد عليها في علم النصارى ومذاهبهم · ثم ذهب الى العراق متشبها بموفق الدين المسلم وترك علوم الدين المسيحي واشتغل بعلم الطب على امين الدولة ابن التلميذ (الذي سنورد شيئاً من اخباره فيما بعد) · ثم رجع الى دمشق وخدم بصناعة الطب السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي فقربه وادناه وكان عنده رفيع المنزلة عظيم الجاه بحيث كان يقضي حوائج الناس ولا يفارق السلطان في سفر ولا في حضر ولذلك كان الطبيب يدلّ بمكانته لديه و يتكبر حتى على ملوك المسلمين بل على نفس صلاح الدين وكان صلاح الدين قد عرفها عنه ورضيها منه ·

ومن اغرب ما تضمنته بطون الدفاتر في هذا الموضوع ان السلطان صلاح الدين بينا كان يحارب الافرنج ويرد غوائلهم عن سواحل الاسلام كان يستعين باهل الذمة في مدافعتهم ويستخدمهم في تطبيب جنوده وتقويتهم على رد اعدائه واعدائهم . وقد فهم اهل الوطن الواحد في عصره المجيد انهم لا بقاء لهم ولا جاه الا بالالتفاف حول راية واحدة هي راية الوطن . ومما يتعلق بعجب موفق الدين وادلاله على صلاح الدين انه كان معه في بعض غزواته وكانت عادة صلاح الدين في وقت حروبه ان ينصب له خيمة حمراء وكذلك دهليزها وشقتها : ليتميز عن سائر العسكر وهذا من ابلغ ما يكون من الشهامة في الحروب فاتفق انه ركب ذات يوم ليتفقد الجيش فاذا بخيمة تشابه خيمته كل الشبه فبقي متأملاً لها وسأل لمن هي . فاخبر انها لابن المطران الطبيب . فقال السلطان : والله لقد عرفت هذا من حماقة ابن المطران . وضحك . ثم قال : فلو جاء رسول من الافرنج ومرّ بهذه الخيمة افلا يخطئ ويظنها لي . بل لو جاء باطني للفتك بي افلا يجوز ان يتخطاني الى طبيبي . فاذا كان ولا بد فلا اقل من تغيير مستراحها . ثم امر به فازيل . فلما رأى موفق الدين ذلك صعب عليه الامر وامتنع عن خدمة السلطان اياما حتى استرضاه السلطان ووهب لهُ مالاً . وكان في خدمة السلطان طبيب نصراني آخر يقال له ابو الفرج فاحتاج الى تزويج بناته وتجهيزهن فطلب من صلاح الدين ان يطلق له ما يستعين به على ذلك . ولما كان السلطان فقيراً لا يملك شيئاً من حطام الدنيا حتى انه عند موته لم يترك في خزائنه (بشهادة المؤرخ ابي الفرج العبري النصراني) غير دينار واحد واربعين درهماً . فلذلك امر ابا الفرج ان يكتب كشفاً ببيان جميع ما يحتاج اليه في تجهيز بناته النصرانيات فكتب من الحليّ والقماش والآلات وغير ذلك ما بلغت قيمته ثلاثين الف درهم . فدفع السلطان هذا الكشف الى الخزنه دار وامره بان يشتري من مال بيت مال المسلمين جميع ما طلبه ابو الفرج ولا يخل بشيء منه فما هو الا ان بلغ صاحبنا موفق الدين حتى اخذته الغيرة من زميله فقصر في ملازمة الخدمة وهجر السلطان هجراً ثقيلاً . فلم يرَ صلاح الدين حيلة لاستصلاح موفق الدين سوى ارضائه ايضاً . فامر الخزنه دار بان يصرف له من بيت مال المسلمين مبلغاً يوازي جميع النفقة التي صرفت في تجهيز بنات ابي الفرج مهما بلغت قيمتها . ففعل الخزنه دار ورضي صاحب ذلك الدلال .

ومن عجيب امر موفق الدين هذا ان العجب والتكبر الذي كان يغلب عليه كان يفارقه حينما يذهب لطلب العلم . فكان في هذه الحالة آية في التواضع والخشوع شأن ذوي العقول الصحيحة والاحلام الرجيحة . كان هذا المختال الفخور متى تفرغ من الخدمة في دار السلطان ركب في موكب حافل تحف به جماعة كثيرة من المماليك الترك وغيرهم وذهب بهذه الابهة

الفائقة وهذه العظمة الشائقة الى جامع المسلمين . فاذا اقترب من الجامع ترجل واخذ الكتاب الذي يشتغل به في يده او تحت ابطه ولم يترك احداً من الغلمان يصحبه . ولا يزال ماشياً والكتاب معه الى حلقة الشيخ الذي يقرأ عليه النحو والادب واللغة وهو الشيخ الامام تاج الدين ابو اليمن زيد بن الحسن الكندي . فيقرؤه السلام و يقعد بين الجماعة بادب واحتشام الى ان يفرغ من الدرس والتحصيل فيعود الى ما كان عليه من الابهة والعظمة والشموخ على الكبير قبل الصغير

وقد كان موفق الدين قدوة في هذا الامر للملك الناصر داود ابن الملك المعظم ابن الملك العادل ابن ايوب صاحب الكرك . فقد حكى النجيب الراهب المصري الحاسب بدمشق ان هذا الملك كان يتردد الى شمس الدين الخسروشاهي المتوفى سنة ٦٥٢ يقرأ عليه كتاب عيون الحكمة لابن سينا . وكان اذا وصل الى رأس المحلة التي بها منزل الخسروشاهي اومأ الى من معه من الحشم والمماليك ليقفوا مكانهم . و يترجل و يأخذ كتابه تحت ابطه ملتفاً بمنديل ويجيء الى باب الحكيم و يقرعه فيفتح له و يدخل و يقرأ و يسأل عما خطر له ثم يقوم ولم يمكن الشيخ من القيام له

***

ولله در بني ايوب برّد الله مضاجعهم وطيب ثراهم . فانهم في هذا الباب خير قدوة لملوك الزمان وخصوصاً ملوك الاسلام . فقد اخذ الحديث برقاب بعضه وجرنا الى ذكر صاحب مصر وعم الملك المعظم المذكور واعني به الملك الكامل بن الملك العادل ابن ايوب المتوفى سنة ٦٣٥ . وفد عليه ابو العباس ابن دحية من اكابر علماء المسلمين بالاندلس فاتخذه الملك استاذاً له في العلم والادب وجعل له من الاكرام والاجلال غاية ليس وراءها مطلب . وبالغ في تعظيمه وتبجيله حتى كان يسوي له بنفسه مداسه حين يقوم . وهو هو الذي خشي بأسه الصليبيون فتقربوا اليه وهادنوه وخطب وده الامبراطور فريدريك بعد ان اسر القديس سان لوي واعاده مكرما معظما . وكان هذا الملك يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من فضلاء المسلمين والنصارى واليهود و يشاركهم في مباحثهم كأنه واحد منهم . ومما يؤثر عنه انه لما تولى سلطنة مصر خفض من ضرائبها ما يقارب الثلث فافاد بذلك رعيته المسلمين والاقباط على السواء

***

نرجع الى صاحبنا موفق الدين . ونقول انه اسلم وحسن اسلامه وان صلاح الدين زوجه احدى حظايا داره المقربة لدى زوجته خوند خاتون فأعطتها الكثير من حليها

وذخائرها ومؤلتها وخولتها . فرتبت امور موفق الدين وهذبت احواله وحسنت زيه وجملت ظاهره وباطنه . وصار له ذكر سام في الدولة وتنافس الامراء في الانعام عليه وترقت حاله حتى كاد يكون وزيرًا ولكنه ما زال يتعهد زملاءه فكان يقدمهم ويتوسط في ادرار الارزاق عليهم . وكانت له دار بدمشق على غاية من الحسن في العمارة والتجمل وفيها بركة يبرز فيها الماء من انابيب ذهب على غاية ما يكون من حسن الصنعة وفيها مكتبة تحتوي على نحو عشرة آلاف مجلد عدا ما استنسخه . فقد كانت له عناية بالغة باستنساخ الكتب وتحريرها وكان في خدمته ثلاثة يكتبون له ابدًا ولهم منه الجامكية والجراية المتصلة . وقد كتب بخطه كتبًا كثيرة في نهاية حسن الخط والصحة والاعراب . وصحح بنفسه اكثر الكتب التي عنده واتقن تحريرها . وذلك كله غير الكتب التي كان يهبها لتلاميذه فضلا عن الاحسان اليهم والاعتناء بامرهم . وكان اجل تلاميذه الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم ابن علي المسلم ومن اخص اصدقائه الشيخ موفق الدين بن البوري الكاتب النصراني

قال الحكيم اوحد الدين عمران الاسرائيلي انه حضر بيع كتب ابن المطران المذكور فوجدهم قد اخرجوا اجزاء صغيرة من الكتب الصغار او المقالات المتفرقة في الطب مما استنسخه او نسخه ابن المطران بخطه وكان عددها كثيرًا جدًا ابلغ الوفا كثيرة وان القاضي الفاضل بعث يستعرضها فارسلوا له بملء خزانة صغيرة منها فنظر فيها ثم ردها . فبلغت في المناداة ثلاثة آلاف درهم واشترى الحكيم عمران اكثرها . وقال انه حصل الاتفاق مع الورثة انهم اطلقوا بيعها كل جزء بدرهم . فاشترى الاطباء هذه الاجزاء الصغار على هذا الثمن بالعدد .

وهذا الحكيم عمران الاسرائيلي توفي بعد ابن المطران بسنين وقد اخذ الطب عن الشيخ رضي الدين الرحبي استاذ او استاذ اساتذة الاطباء جميعًا بالشام وتلميذ ابن جميع الاسرائيلي المصري . وقد جرى الحكيم عمران على مذهب شيخه في عدم خدمة الملوك والسفر معهم . ولكنهم (وخصوصًا بني ايوب) غمروه بالاحسان السني والعطايا الجزيلة . حتى حاز من الاموال الجسيمة والنعم ما يفوق الوصف . ولقد حرص الملك العادل ابو بكر بن ايوب ان يستخدمه في الصحبة فما فعل . واجتهد الملك الناصر داود الذي ذكرناه قبل هذا بان يجعل له في كل شهر الفًا وخمسمائة درهم وقدم له مرتب سنة ونصف مقدمًا فلم يقبل فوهبه مالا كثيرًا وتركه على حريته . وكان السلطان الملك العادل لم يزل يصله بالانعام الكثير وله منه الجامكية الوافرة والجراية وبقي مرتبه محفوظا له بعد موت الملك العادل في سلطنة المعظم وليس عليه سوى ان يتردد على الدور السلطانية بالقلعة والى البيمارستان الكبير لمقابلة المرضى

وقد بلغ من اكرام الايوبين لاهل الفضل ان الحكيم موفق الدين ابا شاكر النصراني حظي عند الملك العادل حظوة عظيمة وتمكن منه ومن دولته تمكنًا كثيرًا فانعم عليه بضياع كثيرة وغيرها ولم يزل يفتقده بالهبات الوافرة والصلات المتواترة · وجرى الملك الكامل معه على سنة ابيه وزاد فانه اباح له الدخول راكبًا في جميع قلاعه مثل قلعة الكرك وجعبر والرها ودمشق والقاهرة وكان ذلك منتهى التشريف في تلك الايام خصوصًا لمن كان متمتعًا بالصحة والعافية مثل ذلك الموفق · ولقد بلغ من امره ان العادل حينما ترك دار الوزارة التي كانت مقرًا لبني ايوب بعد ذهاب دولة الفاطميين واستقر بقصر القاهرة في القلعة انه اسكن موفق الدين هذا معه في قصره · ركب السلطان مرة بغلة النوبة وخرج الى بين القصرين (بالجهة التي بها المشهد الحسيني الآن) فركب فرسًا آخر وارسل البغلة التي كان راكبًا عليها الى دار الحكيم بالقصر وامر بركوبه عليها وخروجه من القصر راكبًا · ولم يزل واقفًا بين القصرين الى ان وصل اليه فاخذ بيده وسايره يتحدث معه وسائر الامراء يمشون بين يدي الملك الكامل · والشيء من معدنه لا يستغرب · فقد كان الكامل كاملا باكمل معاني الكلمة لا يفرق بين مسلم وذمي ممن تحلى بالفضيلة والكمال

ذكرت لكم قصة اليهودي الذي أحيا الميت · وبما انني في معرض التوفيق بين العناصر المختلفة التي تجمعها راية واحدة هي راية الوطن فأخشى ان يكون المسلمون والنصارى قد نقموا على هذا العاجز ان لا يذكر منهم رجالا احيوا الموتى · فاسمحوا لي اذن بذكر حادثتين · وابدأ بالمسلم لتقدمه في الزمن ليس الا وأثني بالمثلث وان كان دينه جاء اولا

جلس الرشيد هارون في بعض الايام وقدمت بين يديه الموائد وجبرائيل بن بختيشوع غائب · فامتنع امير المؤمنين عن الاكل حتى يحضر جليسه وسميره · وامر بطلبه ليحضر الاكل مع صحابته على عادته · فبحثوا عنه في جميع منازل الحرم والامراء ولم يقع القوم له على اثر · فتكدر الرشيد وطفق يلعنه ويقذفه واذا بجبرائيل داخل عليه وقد سمع سبه باذنيه فلم يهلع ولم يتروع بل قال: لو اشتغل امير المؤمنين بالبكاء على ابن عمه ابراهيم بن صالح وترك ما هو فيه من تناولي بالسب كان اشبه فاستفهم الخليفة عن الواقع فاعلمه انه خلفه وبه رمق ينقضي آخره وقت صلاة العتمة فاشتد جزع الرشيد وامر برفع الموائد واقبل على البكاء حتى رحمه جميع من حضر · فقال جعفر بن يحيى البرمكي: ياامير المؤمنين ان طب جبرائيل رومي وعندنا صالح بن بهلة وهو في العلم بطريقة اهل الهند مثل جبرائيل في العلم بمقالات الروم · فان رأى امير المؤمنين ان يأمر باحضاره وتوجهه الى ابراهيم بن صالح لنفهم مايقول مثل ما فهمنا عن جبرائيل · فامر الرشيد ورجع صالح الهندي المسلم بعد هنيهة وسأله جعفر

وشدد في معرفة الخبر فابى صالح بن بهلة واصر على القول بانه لا يكاشف بما رآه غير امير المؤمنين فلما دخل عليه قال : ياامير المؤمنين انت الامام وعاقد ولاية القضاء للحكام ومهما حكمت به لم يجز لحاكم فسخه . وانا اشهدك ياامير المؤمنين واشهد على نفسي من حضرك ان ابراهيم بن صالح ان توفي في هذه الليلة او في هذه العلة ان كل مملوك لصالح بن بهلة حرّ لوجه الله وكل دابة له حبس في سبيل الله . وكل مال له فصدقة على المساكين . وكل امرأة فطالق ثلاثًا بتاتًا فقال الرشيد : حلفت ويحك ياصالح على غيب والغيب لا يعلمه الا الله . فقال صالح : كلا ياامير المؤمنين . انما الغيب مالا علم لاحد به ولا عليه دليل له . ولم اقل ما قلت الا بعلم واضح ودلائل بينة . فسرّي عن الرشيد مايجد واكل وشرب وطرب . ولما كان وقت صلاة العتمة ورد كتاب صاحب البريد بمدينة السلام يخبر بوفاة ابراهيم بن صالح . فاسترجع الخليفة بالبكاء والعويل واقبل على جعفر باللوم في ارشاده الى صالح بن بهلة واقبل يلعن الهند وطبهم ويقول : واسوأتاه من الله ! ان يكون ابن عمي يتجرع غصص الموت وانا اتحين فرص اللهو والقصف . ثم دعا بمتيء فقذف به ما في جوفه من طعام وشراب وبكر الى دار ابراهيم بكور الغراب ولم يرض بالجلوس على النمارق والمساند بل وقف متكئًا على سيفه . وقال للفراشين : لا يحسن الجلوس في المصيبة بالاحبة على اكثر من البسط . وامر برفع الفرش والنمارق وجلس بعد ذلك على البساط . فصارت سنة في المآتم لبني العباس ولا يزال اثرها باقيًا الى اليوم في مصر وغيرها من بلاد الشرق خصوصًا في دور الحريم . وبقي القوم في سكوت وسكون كأنما على رؤوسهم الطير حتى اذا سطعت روائح الجامر صاح صالح ورفع عقيرته وهو يقول كالمجنون : « الله الله ياامير المؤمنين ان تحكم بطلاق زوجتي وهي حلال لي وحرام على غيري . الله الله ان تخرجني من نعمتي ولم يلزمني حنث . الله الله ان تدفن ابن عمك حيًا . فوالله ياامير المؤمنين مامات . فاطلق لي الدخول عليه والنظر اليه » وهتف بهذا القول مرات ازعجت الخليفة والحاضرين . فامر بالانعام عليه بما يريد . فدخل وحده . ولبث الحاضرون يسمعون ضرب بدن بكف ثم كف . واذا بتكبيرة ارتجت لها جوانب الدار . وخرج صالح يقول : الله اكبر الله اكبر الله اكبر ثم قال : قم ياامير المؤمنين حتى أريك العجب الاكبر . فدخل الرشيد وخواصه فاخرج صالح ابرة كانت معه فادخلها بين ظفر ابهام يد الميت ولحمه فجذب الميت يده وردها الى بدنه . فقال صالح : ياامير المؤمنين هل يحس الميت بالوجع ؟ فقال الرشيد : لا . فقال له صالح : لو شئت ان يكلم امير المؤمنين الساعة لكلمه . فقال له الرشيد : فانا اسألك ان تفعل ذلك . فقال : ياامير المؤمنين اخاف ان عالجته وافاق وهو في كفن فيه رائحة الحنوط ان ينصدع

قلبه فيموت . ويكون الموت حقيقياً ولا تكون لي حيلة في احيائه . ولكن ياامير المؤمنين تأمر بتجريده من الكفن ورده الى المغسل واعادة الغسل عليه حتى تزول رائحة الحنوط عنه ثم يلبس مثل ثيابه التي كان يلبسها في حال صحته ويطيب بمثل ذلك الطيب ويحول الى فراش من فرشه التي كان يجلس وينام عليها حتى اعالجه بحضرة امير المؤمنين فانه يكلمه من ساعته فامر الرشيد بامتثال امر الطبيب . ثم دخل على ابن عمه فدعا صالح بكندس (وهو جذر نبات يشبه الخرشوف) ومنفخة ونفخ من الكندس في انفه فمكث الميت مقدار سدس ساعة (١٠ دقائق) ثم اضطرب بدنه وعطس وجلس قدام الخليفة وقبل يده . فسأله الرشيد عن قصته . فذكر انه كان نائماً نوماً لا يذكر انه نام مثله قط طيباً الا انه رأى في منامه كلباً قد اهوى اليه فتوقاه بيده فعض ابهام يده اليسرى عضة لايزال يحس بوجعها . واراه ابهامه التي كان صالح ادخل فيها الابرة . وعاش ابراهيم بعد ذلك دهراً وتزوج العباسة بنت المهدي وولي مصر وفلسطين وتوفي بمصر وقبره بها لانه لم يدفن ببغداد حياً .

ومن كانت منيته بارض فليس يموت في ارض سواها

اما الحكيم النصراني الذي احيا الموتى فهو رشيد الدين ابو الوحش بن الفارس ابي الخير ابن ابي سليمان داود بن ابي المنى بن أبي فانه الذي اشتهر فيما بعد باسم ابي حليقة . كان ابوه الفارس ابو الخير من رؤساء الجيش العاملين فكان يلبس ولده لباس الجندية مثل لباسه ويرشحه للخدمة في العسكرية مع المسلمين في محاربة الصليبيين كما جرت عادة الآباء في الشرق من جعل ابنائهم على حرفتهم . وذلك مصداق لما قاله الامام النووي في التحفة « وللامام او نائبه الاستعانة باهل الذمة والاستئمان على العدو بشرط ان تؤمن خيانتهم بان يعرف حسن رأيهم فينا . ويشترط في جواز الاستعانة بهم الاحتياج اليهم ولو بنحو خدمة او قتال لقلتنا . ونفعل بالمستعان بهم الاصلح من إفرادهم او تفريقهم في الجيش » وكانت دار الفارس ابي الخير ملاصقة لدار السلطان الملك العادل بمدينة الرُّها (١) فاتفق ان الملك الكامل الايوبي وهو ولي العهد دخل فيها الحمام فاعطى الفارس لولده رشيد الدين فاكهة وماء ورد وامره بحمله الى الملك الكامل . فلما خرج من الحمام وقدم الغلام بين تلك الالطاف اخذه معه وفرغ الاطباق من الفاكهة وملأها شققاً سنية وسيرها لوالده . ثم اخذ الكامل بيد الغلام النصراني وعمره يومئذ ثماني سنين ودخل به على السلطان الملك العادل ولم يكن رآه من قبل فلما ابصره قال للملك الكامل : يامحمد هذا ابن الفارس لانه اخذه بالشبه فقال: نعم .

(١) اسمها عند الافرنج Edesse واسمها الآن اورفه

قال : هاته فحمله الملك الكامل ووضعه بين يدي السلطان فلاعبه ولاطفه وتحدث معه حديثاً طويلاً ثم التفت الى والده وقد كان قائماً في خدمته مع جملة القيام وقال له : ولدك هذا ولد ذكي لا تعلمه الجندية فالاجناد عندنا كثير وانتم بيت مبارك وقد استبركنا بطبكم ارسله الى الحكيم ابي سعيد (اي عمه مهذب الدين الذي ذكراه في غير هذا الموضع) ليقرأ عليه الطب بدمشق فامتثل والده فتخرج بها ثم جاء الى القاهرة وكانت كعبة العلوم فاكمل دروسه بها وبرع حتى صار يشار اليه بالبنان هذا مع مواظبته على العبادة وتفقهه في دينه المسيحي وقرض المرقص المطرب من الشعر الرقيق المعجب ثم تولى السلطنة الملك الكامل واستقر بمصر فقرب رشيد الدين اباالوحش وكان كثير الاحترام له فحظي عنده كثيراً حتى نال منه الاحسان الكثير والانعام المتصل واقطعه على سبيل الجراية نصف بلدعامرة بالشرقية تعرف بالعزيزية والخربة (وتعرف الآن بالعزيزية بمركز مينا القمح وهي منسوبة للعزيز الفاطمي) ولم يزل في خدمة الكامل حتى مات فخدم ولده الملك الصالح ثم ولده الملك المعظم توارنشاه حتى قتل وجاءت دولة المماليك واستولوا على البلاد واحتووا على الممالك الايوبية فاجروه على ما كان باسمه ثم خدم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي وبقي في خدمته على عادته المستمرة وقاعدته المستقرة وله منه الاحترام التام وجزيل الانعام والاكرام حتى وافاه الحمام .

كانت له اليد الطولى في الطب فقد امره الملك الكامل بعمل الترياق الفاروقي المشهور فسهر عليه الليالي حتى حقق مفرداته بشهادة ائمة الصناعة ابقراط وجالينوس ولما تعذر عليه حضور ادويته الصحيحة من الآفاق ركب مختصر ترياق توجد ادويته في كل مكان ونوى ان لا يقصد به قرباً من ملك ولا طلب مال ولا جاه في الدنيا ولا يقصد به سوى التقرب من الله بنفع خلقه اجمعين وبذله للمرضى مجاناً فكان يخلص به المفلوجين ويقوم به الايدي المتقوسة ويسكن وجع القولنج ويفتت الحصا ويزيل الم الاسنان لوقته وساعته فشاع امره وتحدث به الخاص والعام حتى سأله السلطان وقال له : ياحكيم ايش هذا الترياق الذي عملته ولم تعلمني به فقال : يامولانا المملوك لا يعمل شيئاً الا لمولانا وما تأخرت عن العرض الا لتجربته اما وقد صح هذا لمولانا فصار على ثقة منه فقد حصل المقصود فأمره باحضاره فلم يكن عنده منه الا شيء يسير لان الخلائق كانت قد تهافتت عليه فمشى الى اصدقائه الذين اهداهم منه حتى جمع من هنا ومن هناك احد عشر درهماً وجعله في برنية من الفضة فاحتفظ عليها السلطان وكان يشكو من نزلة في اسنانه فما هو الا ان وضع جزءاً صغيراً منه حتى زال له الالم وكأنه لم يكن

اما احياؤه الميت : فقد مرضت دار من بعض الآدر السلطانية (اعني احدى حظايا السلطان فان السر في السكان) وكانت مقيمة بناحية العباسة وكان الملك الكامل لا يشرك مع هذا الطبيب احداً في مداواته وفي مداواة من يعز عليه من دوره واولاده فانقطع للعناية بها اياماً . ثم عرض له ما اوجب عليه الرجوع للقاهرة مدة ثمانية عشر يوماً ثم عاد لعيادة مريضته بالعباسة فوجدها قد تولى علاجها جماعة من الاطباء فاشترك معهم فحكموا بانها تموت وان المصلحة تقضي باعلام السلطان قبل ان يفجأه امرها بغتة فقال: انها ليست عندي في مرض الموت فقال اكبرهم سناً (وكان رشيد الدين شاباً) : انني اكبر منك وقد باشرت من المرضى اكثر منك، فتوافقني على كتابة هذه الرقعة . فابى فقرّ رأي الاطباء على كتابة الرقعة . فقال : لا اضع اسمي في هذه المطالعة . فلما وصل الخبر للسلطان بعث رسولاً ومعه نجار ليعمل لها تابوتاً تحمل فيه جثتها الى القاهرة . فقال له الحكيم ما هذا النجار ؟ قال لعمل التابوت . قال : تضعونها فيه وهي في الحياة ؟ قال : بل بعد موتها . قال : ارجع بهذا النجار وقل للسلطان عني خاصة انها في هذه المرضة لا تموت . فلما كان الليل ارسل اليه السلطان بورقة بخطه يقول فيها : ابن الفارس يحضر الينا (لانه لم يكن بعد سمي بابي حليقة) فلما وصل اليه قال له : انت منعت من عمل التابوت ؟ قال نعم . قال باي دليل ظهر لك من دون الاطباء كلهم . قال : لمعرفتي بمزاجها وباوقات مرضها على التحرير من دونهم وليس عليها بأس في هذه المرضة . فقال : امض وطبها واجعل بالك لها . فذهب وداواها حتى عوفيت ثم اخرجها للسلطان فزوجها وولدت من زوجها اولاداً كثيرين

هؤلاء هم الثلاثة الذين احيوا الموتى على ما وصل اليه علمي . احدهم مصري وهو يهودي وثانيهم هندي استوطن بغداد وهو مسلم وثالثهم شامي استوطن مصر وهو نصراني . ولعلكم يابني امي ويابني عمي ترشدونني الى مسلم وقبطي من مصر قاما بهذه الكرامة او ان يقوم فيكم من يجدد لنا ذكرها والافتخار بها .

***

لعل الشام ترضى ؟ وكأني بها تقول : مني خرج المسيح وهو الذي احيا الموتى ! افلا تذكر لي طبيباً واحداً من هذا القبيل حتى لا اكون بين الفسطاط والزوراء لا في العير ولا في النفير .

كان بها فلاح يرتزق وراء المحراث من قرية يبرود صار اسمه فيما بعد ابا الفرج جرجس اليبرودي . رأى فاصداً قد التوى عليه سد العرق فتوالى الرعاف على المفصود . فقال له : يا هذا اني ارى ابي في وقت سقي الكرم اذا انفتح شق من النهر لا يقدر على امساكه دون

ان يفتح فتحاً آخر ينقص به الماء الاول الواصل الى ذلك الشق ثم يسده بعد ذلك · ففعل الجرائحي بهذه الاشارة وانقطع الرعاف · ثم قال للفلاح : لو انك تشتغل بالطب لجاء منك طبيب حاذق · فوقرت هذه الكلمة في صدره واقبل على التعلم بدمشق وما كفاه ما حصل عليه حتى اخذ سواراً كان لامه وذهب الى بغداد فانفق ثمنه على استكمال العلم وصار من اكبر النوابغ في هذا الفن · رأى يوماً في سوق جيرون بدمشق انساناً راهن على ان يأكل ارطالاً من لحم فرس مسلوق مما يباع في السوق (١) فوقف ورآه قد امعن في الاكل باكثر مما تحتمله قواه ثم شرب بعده فقاعاً كثيراً وماء بثلج فاضطربت احواله وتفرس انه لا بد ان يغمى عليه فيصير الى حالة يكون الموت اقرب اليه ان لم يتلاحق فتبعه الى منزله واستشرف الى ماذا يؤول امره فلم يكن الا ايسر وقت. واهله يصيحون ويضجون بالبكاء ويزعمون انه قد مات · فاتى اليهم وقال : انا ابرئه وما عليه من بأس · ثم انه اخذه الى حمام قريب من ذلك الموضع وفتح فكيه كرهاً ثم سكب في حلقه ماء مغلياً وقد اضاف اليه ادوية مقيئة لطيفة وقيأه برفق ثم عالجه وتلطف في مداواته حتى افاق وعاد الى صحته ·

وللبيرودي هذا كرامة ثانية من هذا القبيل حكاها الطرطوشي في سراج الملوك · من رجل يبيع المشمش على خباز في دمشق فاشترى منه وجعل يأكله بالخبز الحار فلما فرغ سقط مغشياً عليه فنظروا فاذا هو ميت وقضى الاطباء كلهم بموته فغسله اهله وكفنوه وصلوا عليه · ثم خرجوا به الى الجبانة فاستقبلهم اليبرودي صدفة على باب البلد وسمع الناس يلهجون بقضيته · فقال : حطوه · ثم اخذ يقلبه وينظر في امارات الحياة التي يعرفها · ثم فتح فمه وسقاه او حقنه فاندفع ما هنالك فاذا الرجل قد فتح عينيه وتكلم وعاد كما كان الى حانوته واظنه تاب عن اكل المشمش ولو في المشمش · ولا شك انه يصح لنا ان نقول عن اليبرودي انه فلاح وفلح ·

***

وبما اننا طرقنا باب الحياة بعد الموت فاسمحوا ان انتقل بكم بطريق المجاز الى عالم هو خير وابقى · ثم نعود الى هذه الدار بغاية التعجيل · فانما كلامنا من باب المحاضرة والتمثيل ونحن اليوم في دار التمثيل ·

كثيراً ما يتعض النصارى اذا قال جهال المسلمين عن احدهم انه هالك او انه هالك وكأني بهم اشبه الناس بعلي بك كشكش · اذ رأى صغار العامة انه يحرن ويحرد اذا قالوا

(١) في هذا اشارة الى ان لحم الخيل كان مألوفاً في بلادنا في القرون الوسطى كما هو الان في اوربا (المقتبس)

له : كشكش فصاروا كلما رأوه يقولون له : كشكش كشكش كشكش حتى ضرب احدهم بحجر فادماه فاخذه الثؤرور والثاريرعلى رأي الاستاذ البرقوقي والجلواز والجلاوزة على رأيي والشرطة على رأيكم والبوليس على رأينا جميعاً وساقوه كلهم الى احاكم فاخذفي تقريعه فقال له : لست بملوم ياسعادة الباشا . فقال : وكيف ذلك . قال : صل على النبي . قال الحافظ : اللهم صل عليه . قال : زد النبي صلاة . قال : عليه الصلاة والسلام . قال : ثم زده صلاة . قال : صلى الله عليه وسلم . قال : كرر الصلاة فهي عبادة . فانفعل الحافظ وانتهر علي بك . فقال له : ويحك يامولاي انت حرنت من الصلاة على النبي وهي خير ما يتقرب به العبد الى الرب فكيف بي وكلما مشيت خطوة سمعت كشكش كشكش كشكش

تعلمون يابني عمي ان كل حي الى الممات يصير وان هذا الانتقال اما ان يكون بفعل فاعل او بحكم انتهاء الاجل . ففي الحالة الاولى يستعمل اللفظ الموافق لازهاق الروح مثل قتل — صلب — شنق — خوزق — سم الخ . اما في حالة الجهاد والاضطهاد عند المسلمين والنصارى فيقال : استشهد ونتيح . وفي الحالة الثانية يقال : مات وقبض وتوفي وهلك وحضرته الوفاة وغير ذلك من التعبيرات التي تحلى بانواع الكنايات .

نقطة الخلاف في « هلك » . ولا اكتمكم انني مع هذه اللفظة مثل بعض علماء النحو مع « حتى » : اعني انني اهلك وفي نفسي شيء من هلك بل اللهم شيئان اولهما فلسفي اجتماعي وهو الذي نحن بصدده الآن فانه اوجب انفراج الخلف وسوء التفاهم بين ابناء الوطن الواحد وثانيهما لغوي اذا ازحنا الريب العالق بسببه تبدد الاول وزال .

يقول اهل اللغة في هلك انها بفتح اللام وكسرها في الماضي وفي المضارع فقد امرونا اولاً ان نقول هلك يهلك ويهلك (من باب منع وضرب) ثم تكرموا وسوغوا لنا ان نقول في الماضي هلك بكسر اللام بشرط ان يكون المضارع مفتوحاً (يهلك) اي من باب علم . ثم امرونا ان نقول في المصدر هلكاً (بضم الهاء) وهلاكاً (بفتحها) وتهلوكاً وهلوكاً (بضم اولهما) ومهلكة ومهلكا وتهلكة (بتثليث اللام في الثلاثة) واللغة مثل العلم لا دين لها ولكنها قد تكون ايضاً وسيلة للتنطع والحذلقة والسفسطة .

ما هو معنى « هلك » بهذه التقعرات المتراكمة ؟ قال الفيروزابادي في القاموس . مات . وقال السيد مرتضى في تاج العروس ما نصه : مات تفسير لقوله هلك ولم يقيده بشيء لانه الاكثر في استعمالهم . واختصاصه بميتة السوء عرف طاري لا يعتد به بدليل ما لا يحصى من الآي والاحاديث اه . هذا هو المقرر في متون اللغة وبطونها . ولا انكر ان اللغة شيء والاستعمال شيء آخر . فلننظر فيه ايضاً .

فهذا كتابنا يشهد علينا بالحق فقد جاء فيه : (١) كل شيء هالك الا وجهه (٢) ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك من بعده حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله رسولاً . والاحاديث كثيرة وليس هذا محل ايرادها .

اما استعمال العرب فاكثر من ان يحصر ولكنني اكتفي بشاهدين فذين أعززهما بثالث . قال النابغة الجعدي في ملك العرب المنذر بن النعمان المكني بابي قابوس (تعريباً للفظة كيكاوس الفارسية) .

فان يهلك ابوقابوس يهلك جميع الناس والبلد الحرام

وقال شاعر الاسلام في قيس بن عاصم وهو من اكابر الصحابة .

فما كان قيس هلكه هلك واحدٍ ولكنه بنيان قوم تهدّما

والوزن يساعده على قول « موته موت واحد » . وهذا احد المرشحين للخلافة من بني امية يقول عن نفسه والانانية طبيعة في الانسان

فان اهلك انا وولي عهدي فمروان امير المؤمنينا

وكان له مندوحة اذا قال : فان أُقبض . وهذا ابو نواس يقول عن سائر الناس

ألا كل حيّ هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدوّ في ثياب صديق

وكان له مندوحة واسعة ان يستعمل : ميت وميت ومائتين . وبعد فهاهي كتب السلف الصالح بين ايدينا جميعاً . نرى المسعودي في مروج الذهب والتنبيه والاشراف يقول هلك (بالهاء واللام والكاف) عن خلفاء المسلمين فضلاً عن كثير من الصحابة والتابعين واكابر الامة الاسلامية ومثله ابن عبدربه صاحب العقد الفريد

وهاهو ابن قتيبة في كتاب المعارف يقول هلك (بالهاء واللام والكاف ايضاً) عن الحارث ابن كلدة طبيب العرب وعن عبدالله بن ابي بكر الصديق وعن بلال مؤذن الرسول وعن عبدالله وسالم وواقد وبلال ابناء عمر بن الخطاب وعن عمرو وعبدالله وعبدالملك ابناء عثمان بن عفان وعن محسن بن علي بن ابي طالب وعن طلحة بن الحسن بن علي بن ابي طالب وعن عروة ومصعب ابني الزبير بن العوام وعن معاذ بن جبل وابنيه وعن حذيفة بن اليمان وكلهم من جلة الصحابة واكابرهم .

وهذا مؤرخ المحدثين ومحدث المؤرخين ابن عساكر يروي في تاريخه عن عمر بن الخطاب (وحسبي ان اقول عمر بن الخطاب) ما قاله العباس اخو عمر بن الخطاب . « قال سألت الله حولا بعد ما هلك عمر ان يريني عمر بن الخطاب » وقال ابن عساكر في موضعين

اخرين : « فلما كان اليوم الذي هلك فيه عمر بن الخطاب » . و «هلك عمر بن الخطاب» . فهذا اللفظ شائع مستفيض ولكن اصطلاح المتنطعين هو الذي جعل في النفوس حزازات لا اصل لها . فاذا ما رجعنا الى اللغة الصريحة والسنة الصحيحة زال ما في القلوب من غل فاصبحنا اخواناً على سرر متقابلين . فما احرانا يابني امي ويابني عمي بعد هذا البيان ان نقول لمن يؤذيه هذا اللفظ من الاقباط وسائر الذميين : كشكش ! وان نقول للمتنطع باستعماله من المسلمين . صل على النبي ! ما يحلو الكلام الا بالصلاة على النبي .

فان الشيخ المكين جرجس بن العميد بن ابي المكارم بن ابي الطيب السرياني النصراني المصري كلما ذكر النبي اعقبه بقوله « صلى الله عليه وسلم » وبقوله «عليه الصلاة والسلام» ولما ذكر وفاته قال « انتقل الى رحمة الله و رضوانه » واذا جاء في سياق الحديث اسم واحد من الصحابة او الائمة او الخلفاء او شيوخ الاسلام دعا لهم « بالرحمة والبركة والرضوان » وذلك في كتابه المشهور عند غيرنا المجهول عندنا فقد طبعه اهل اوربا باللغة العربية مع ترجمته باللاتينية بمدينة ليدن من اعمال هولاندة في سنة ١٦٢٥ ثم نقلوا ترجمته اللاتينية الى اللغة الفرنساوية في سنة ١٦٧٥ ولا يزال العرب والمصريون الى الآن محرومين من ورود مورده الاصلي مع انه مكتوب بلغتهم وقد جاراه في هذا السبيل ابن العبري في كتاب مختصر الدول الذي طبع مع ترجمته اللاتينية في اكسفورد بانكلترا اولاً في سنة ١٦٦٣ ثم ترجموه الى الالمانية في سنة ١٧٨٣ وبقي عزيزاً على العرب حتى تفضل بطبعه اليسوعيون في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٩٠

جرنا الكلام بمناسبة او بغير مناسبة الى ذكر الشيخ المكين والاشارة الى تأليفه المفيد الذي سماه تاريخ المسلمين وهو من سوء الحظ عندنا في مصر من اندر النوادر . صدّر هذا الفاضل كتابه بهذه الديباجة .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

الحمد لله المقدس بجميع اللغات الممجد في سمو عرشه من سائر المخلوقات المتميز بوجوب الوجود عن جميع الكائنات المنفرد ببديع الاسماء وشريف الصفات المتعالي في عز عزه وجلال كبريائه عن الاشباه والنظراء بماله من الجبروت والعظمة والكبرياء احمده حمداً شاكراً على ما اولى من النعماء واجزل من العطاء » . والمكين انما جاء بكتابه متمماً ومكملاً ومصدقاً لكتاب نظم الجوهر الذي الفه البطريرك القبطي ابن البطريق المتبحر في فنون الطب وفي مقالات النصارى والاختلافات الديانية الكائنة بين فرقهم المتشعبة . وقد رأيت كتابه في دير النطرون اثناء رحلتي الى ذلك الوادي في سنة ١٨٩٤ وتركت عند بعضهم دراهم يسيرة لاستنساخه ثم تولاني وتولى صاحبي

القبطي نسيان الى الآن فلست اذكره ولا هو يذكرني ولن اذكره فانه لم يذكرني . ولا بأس علينا في بقاء هذا الكتاب في تلك الجوالق والاعدال اذ قد سبقنا الافرنج فطبعوه مع ترجمته اللاتينية بمدينة اكسفورد احدى عاصمتي العلم بانكلترا في سنة ١٦٥٩ وان كانت مصر واهلها لا تزال محرومة منه . الف البطريرك هذا الكتاب لاخيه عيسى وصدره بمخاطبته فقال .

باسم الواحد الاحد السرمدي وبه نستعين

الهمك الله يا اخي من الامور البهية احسنها واوفقها وصرف عنك من المحزنات الردية اعظمها واوبقها وجالك من الستر اعمه وادام لك من العز اعظمه وافاء بالدارين سهمك وفي الخالين قسمك وفهمك جميع ما يرضيه ولا افوزك من حوله بما يستقصيه فهمت ما امرت برسمه لك اسعدك الله بلبوس الفضيلة وطهرك من التردي باطمار الرذيلة ... الى ان قال اول ما نبتدئ بحمد ربنا وبارينا وخالقنا ومحيينا جل ثناؤه اذ كان حمده تقدس اسمه مفتاحاً لجميع الكتب والرسائل ونسأله عز وجل العون لنا على ذلك بجميل عاداته والحمد لله اهل المجد ووليه الراجي به شكراً من عباده مقدر الاشياء من قبل كونها ومدبرها من بعد حدوثها الذي جعل الرحمة والعدل من سنن الحق وامر بهما وجعل الفسق والجور من سبيل الباطل ونهى عنهما . فالحمد لله المتفرد بالوحدانية فهو عز وجل بجوهره الادبي وحكمته القديمة وحياته الازلية مستحق الحمد والثناء ومستوجب المحبة والثنا الذي لم يجعل في ناموسه شبهة تقتضي شكا ولا في شريعته ارتياباً يوجب اختلافاً بل جعله واضحاً بيناً للشعوب على اختلافهم بالاسباب والجهات وعلماً ظاهراً لسائر الامم على تباينهم في الكلام واللغات بما اظهر على يدي انبيائه ورسله وما بعثه اليهم من المعجزات ومهولات الآيات ودعا الى دينه ووعد بجميل النظر لمن آمن به واوعد بسوء المنقلب لمن انحرف عنه ونحمده حمداً يمتري من المزيد لاحسانه ويقتضي الزلفى لديه واياه اسأل واليه ارغب في خلوص نياتنا لقبول ما يرضيه وصرف طوياتنا الى ما يعود الى العمل بطاعته »

أفرأيتم هذا الانشاء البديع وهذا التدبيج الجميل الذي يرتضيه اكبر اكابر العلماء والادباء من المسلمين ؟ بل فما بال اخواننا الاقباط هجروا العناية باللغة وانزلوها الى ما هو متعارف في الدواوين وجرونا وراءهم في التدلي حتى اذا حاولنا اعادة بهجتها في الرسميات لم يتفاهموها ولم نتفاهمها ؟ افيظنون انها من الدين ؟ كلا وربكم وقد اتيتكم بشاهد مكين من ابن المكين وعززته بشاهد آخر عن طريق ابن البطريق . فهي الآن لغتهم شاؤوا او لم يشاؤوا وليس لهم عنها من محيد بل شأنها في رقبتهم وفي لسانهم شأن ذلك الرجل القادم على القطار من

الصعيد اذ قال لجماعة من الاقباط المتحذلقين : اسقف على قلبكم · وسأسرد لكم شيئاً عن المكين وابن البطريق فيما يتعلق بعلائق الارتباط بين المسلمين والاقباط لتعلموا انهم كانوا سواء في الشدة والرخاء · وسأذكر لكم عنهما اشياء كثيرة في عرض هذه الخطبة الطويلة · وابدأ بالفتح الاسلامي فهو مفتاح كلامي ثم اشرق واغرب واصوب واصعد وانجد وانهم وبعد ذلك اكرّ على مصر حتى اصل الى هذا العصر ·

روى ابن البطريق ان اباعبيدة بن الجراح « خرج من القدس الى حمص ومنها الى قنسرين · فكتب اليه بطريقها يطلب الموادعة على نفسه سنة حتى يلحق الناس بهرقل الملك ومن اقام فيها فهو ذمة وصلح · فاجابه ابوعبيدة الى ذلك فسأله البطريق وضع عمود بين الروم والمسلمين بحيث لايجوز لاحد من الفريقين ان يتعداه الى الآخر · وقد صور الروم في ذلك العمود صورة هرقل جالسا في ملكه · فرضي ابوعبيدة · واتفق ان نفرًا من المسلمين كانوا يتمرنون على الفروسية اذ مرَّ احدهم وهو ابوجندل سهل بن عمر على العمود · فوضع زج رمحه في عين تلك الصورة غيرمتعمد لذلك ففقأ عين التمثال · فاقبل البطريق وقال لابي عبيدة : غدرتمونا يامعشر المسلمين ونقضتم الصلح وقطعتم الهدنة التي كانت بيننا وبينكم · فقال ابوعبيدة : فمن نقضه ؟ فقال البطريق : الذي فقأ عين ملكنا : فقال ابوعبيدة : فما تريدون ؟ فقال : لا نرضى حتى نفقأ عين ملككم · فقال ابوعبيدة : صوروا بدل صورتكم هذه صورتي ثم اصنعوا بي ما احببتم وما بدا لكم · فقال لا نرضى الا بصورة ملككم الاكبر · فاجابهم ابوعبيدة الى ذلك · فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب في عمود · واقبل رجل منهم ففقأ عين الصورة برمحه · فقال البطريق : قد انصفتمونا · وبعد سنة اقاموا على الصلح والذمة » · وبهذه المثابة استبقى ابوعبيدة بسياسته اهل البلد فلم ينزحوا عنها ·

وقرأت في كتاب الدروس الجغرافية لتلامذة المدارس الابتدائية لسيدي واخي رشاد بك المطبوع في سنة ١٨٨٩ ان مدينة بلبيس هي ثاني موضع قتل فيه عمرو بن العاص بارض مصر نحوًا من الشهر ولما فتحها ورأى في جملة سباياها ابنة المقوقس ردها في جميع مالها مكرمةً الى اهلها ·

وروى المكين انه حينما كان عمرو بن العاص محاصرًا للاسكندرية اقتحم حصنًا منها فجاشت الروم عليهم واخرجوا العرب منه وفي اثناء ذلك اسروا عمرو بن العاص ومسلمة ابن مخلد ووردان مولى عمرو ورجلاً آخر · ولم يعرف الروم من هم فقال لهم البطريق : انكم قد صرتم في ايدينا اسارى فعرفونا ما الذي تريدون منا ؟ فقال لهم عمرو : اما ان تدخلوا في ديننا واما ان تعطوا الجزية واما ان نقاتلكم الى ان نفيء لامر الله · فقال واحد من

الروم للبطريق : اتوهم ان هذا الرجل امير القوم فاضرب عنقه . ففطن وردان لكلامه وكان يحسن الرومية وعمرو بن العاص لا يعرف شيئاً منها . فجذب عمراً جذبة شديدة ولكمه . وقال له . مالك ولهذا القول وانت ادنى من في الجماعة واقل فاترك غيرك يتكلم فقال البطريق في نفسه . لو كان هذا امير القوم ما كان يفعل به هكذا . وقال مسلمة ان اميرنا قد كان عزم على ان ينصرف عن قتالكم وبهذا كتب اليه امير المؤمنين عمر بن الخطاب واراد ان يوجه اليكم بعشرة قواد من اكابر القوم من يتفق معكم على شيء تتراضون عليه . فان احببتم ذلك فاطلقونا حتى نذهب الى اميرنا ونعلمه بما صنعتم بنا من الجميل و يتفق الامر بينكم على ما تحب وتحبون وننصرف عنكم . فتوهم البطريق ان هذا الكلام حق فاطلق سبيلهم رجاء ان يأتي العشرة القواد فيقتلهم و يتمكن حينئذ من العرب . فلما خرجوا قال مسلمة لعمرو ياعمرو لقد خلصتك لكمة وردان .

اقول وشبيه بذلك ما رواه ابن العبري من ان حاتماً ملك الارمن خرج عن مدينة سيس قاصداً معسكر المغول ليؤدي الطاعة لملكهم . فخرج متنكراً مع رسول له بزي بعض الغلمان واخذ على يده جنيباً يجذبه خلف الرسول لانه كان خائفاً من السلطان صاحب الروم . وكان الرسول كلما مرّ ببلد من بلاد الروم (آسيا الصغرى) يقول ان الملك حاتم ارسله الى ملك التتار ليأخذ له الامان فاذا امنه توجه هو بنفسه الى حضرته . قال ابن العبري : حدثني الملك حاتم عند اجتماعي به بمدينة طرسوس بعد سنين من عودته من خدمة مونككاقاآن . قال عبرت بقيسارية وسيواس مع الرسول ولم يعرفني احد من اهلها قط الا لما دخلنا مدينة ارزنكان عرفني رجل من السوقية كان قد سكن عندنا . فقال: ان كانتا هاتان عينيّ فهذا ملك سيس . فلما سمع الرسول كلامه التفت اليّ ولطمني على خدي وقال : يانذل صرت تتشبه بالملوك فاحتملت اللطمة لازيل بها ظن من كان ظنه يقيناً .

(للكلام صلة)

تهذيب الكلام

قال زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالواحد المشهور بابن ابي الاصبع المتوفى سنة ٦٥٤ في كتابه تحرير التحبير الذي فرغ من تمليقه بمصر في مستهل سنة اربعين وستمائة وهو من اجمل كتب البديع ومن اهم مخطوطات دار الكتب المصرية في باب التهذيب والتأديب : التهذيب عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله لينقح ويتنبه منه لما مرَّ على الناثر او الشاعر حين يكون مستغرق الفكر في العمل فيغير منه ما يجب تغييره ويحذف ماينبغي حذفه ويصلح ما يتعين اصلاحه ويكشف عما يشكل عليه من غريبه واعرابه ويحرر مالم يتحرر من معانيه والفاظه حتى تتكامل صحته وتروق بهجته . فان رزق من ارباب البلاغة واصحاب الفصاحة جودة ذهن وغوص فكر وكمال عقل واعتدال مزاج وحسن اختيار ووقف على اقوال النقاد في حقيقة البلاغة وكنه الفصاحة وما عُدَّ من محاسن الكلام وعيوبه ووثق نفسه بحيث يطرح ما لا يقدر على تغييره من كلامه كان كلامه موصوفاً بالمهذَّب منعوتاً بالمنقح وان قلَّ ابتكاره للمعاني . وقد كان زهير معروفاً بالتنقيح فانه يروى انه كان يعمل القصيدة في شهر وينقحها في احد عشر شهراً حتى سمي شعره الحوليَّ المحلى ولا جرم انه قلما سقط منه شيء ولهذا اشار ابوتمام بقوله .

خذها ابنة الفكر المهذَّب في الدجى والليل اسود رقعة الجلباب

فانه انما خص بتهذيب الفكر في الدجى لون الليل لانه تهدأ فيه الاصوات وتسكن الحركات فيكون الفكر فيه مجتمعاً والخاطر خالياً ولا سيما في وسط الليل عند ما تأخذ النفس حظها من الراحة وتنال قسطها من النوم ويخف عليها ثقل الغذاء فحينئذ يكون الذهن صحيحاً والصدر منشرحاً والقلب منبسطاً . واختياره وسط الليل دون السحر مع ما فيه من رقة الهواء وخفة الغذاء واخذ النفس سهمها من الراحة لما يكون في السحر من انتباه اكثر الحيوان الناطق والبهيم وارتفاع معظم الاصوات وجرس الحركات وتقشع الظلماء بطلائع الاضواء وبعض ذلك ينقسم الفكر ويتذبذب الخاطر ويشتغل القلب ويتفرق مجتمع الهم ووسط الليل خال عما ذكرناه ولهذا خص ابوتمام تهذب الفكر بالدجى عادلاً عن الطرفين لما فيهما من الشواغل . . . .

قال وكنت قد اطلعت على وصية وصى بها ابوتمام اباعبادة البحتري في عمل الشعر . كان ابوتمام ارتجلها فجاءت محتاجة الى تحرير بعض معانيها وايضاح ما اشكل منها وزيادات يفتقر اليها فحررت منها ما يجب تحريره واضفت اليها ما يتعين اضافته وذكرتها في كتابي

المنعوت بالميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخصومه · وعلمت ان هذا الباب من هذا الكتاب احوج اليها من ذلك فاثبتها هاهنا بعد ان رأيت تقديم مقدمة يحتاج اليها و يجب الاعتماد عليها وهي ان الذي يجب على كل من كان له ميل الى عمل الشعر وانشاء النثر ان يعتبر اولاً نفسه ويمتحنها بالنظر في المعاني وتدقيق الفكر في استنباط المخترعات اذا وجد لها فطرة سليمة وجبلة موزونة وذكاء وقاداً وخاطراً سمحاً وفكراً ثاقباً وفهماً سريعاً وبصيرة مبصرة وألمعية مهذبة وقوة حافظة وقدرة حاكية وهمة عالية ولهجة فصيحة وفطنة صحيحة ·

ولو كانت بعض هذه الاوصاف غير لازمة لرب الانشاء ولا يضطر اليها اكثر الشعراء لكنها اذا كملت في الشاعر والكاتب كان موصوفاً في هذه الصناعة بكمال الاوصاف النفسية التي اذا أضيفت لها الصفات الدرسية تكمل وتجمل من حفظ اللغات العربية وتوابعها من العلوم الادبية كالنحو والتصريف والعروض والقوافي وما سومح به الشعراء من الضرورات التي يلجي اليها ضيق الوزن والتزام التقفية ليعلم ما يجوز له استعماله وما يجب عليه اهماله وليمعن النظر في كتب البلاغة ليعرف محاسن اللفظ مفرداً وتركيباً ومعانيه ويحيط بما يتفرع من اصول النقد في البديع الذي هو رقوم الكلام ونتائج مقدمات الافهام ·

وليجعل عمدته على كتاب الله العزيز وليميز اعجازه ادق تمييز فانه البحر الذي لا تفنى عجائبه ولا يظمأ فيه راكبه · منه استخرجت درر المحاسن واستنبطت عيون المعاني وعرف كنه البلاغة وتحقق سر الفصاحة وكذلك سنة الرسول عليه السلام · وليحفظ اشعار العرب وامثالها وانسابها وايامها وسائر اخبارها ومحاسن آثارها ومقاتل فرسانها الانجاد ونوادر سمحائها الاجواد ولا غنىً به عن معرفة النجوم والانواء وعلم هيئة السماء وتعقل الآثار العلوية والحوادث الارضية والمشاركة في الطب والطبائع والحساب وما يحتاج اليه الكتاب من الفقه والحديث ونقل التاريخ الصحيح · ويكون ذلك المكتسب من وراء اشياء لا تكتسب ولا تحصل بالطلب بل هي مما يجبل عليه الانسان من مواهب الرحمن من عقل راجح وذهن صافٍ ورأي سديد ينتج ذلك مزاج معتدل فيحسن اختياره ويجود انتخابه · فيتخير الالفاظ الرقيقة والمعاني الرشيقة ويتقن تأليف الكلام وتركيب الالفاظ وما بايراد ابيات قلتهن في هذا المعنى من بأس وهي

انتخب للقريض لفظاً رقيقاً كنسيم الرياض في الاسحار
فاذا اللفظ رق شف عن المعنى فابداه مثل ضوء النهار
مثل ما شفت الزجاجة جسماً فاختفى لونها بلون العقار

هذا ان اراد ان ينعت فاضلاً او يسمى اديباً كاملاً فتعلو بين العلماء درجته ونظير

بين الفضلاء سمعته ويقل فتوره في لفظ كل كلام ومعناه · وليحذر من ان يقف خاطره بسبب معاندة الزمان وتواتر ضروب الحدثان وتعذر المكسب وعز المطلب وتقدم الجهال واختصاص الاراذل بالاموال فيكون ذلك داعياًله الى ترك الاشتغال وسبباً في فتور عزمه عن تحصيل العلوم وذريعة لقعوده عن رياضة نفسه واستعمال خاطره فيلحق بالاخسرين اعمالاً والخطئين افعالاً واقوالاً · بل يكون اجتهاده في ذلك اجتهاد راغب في الاعمال شديد الانفة من مساواة الجهال عاشق في تزكية نفسه مايل للتقدم بنفس العلم على ابناء جنسه وما احسن قول القائل

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس اخو علم كمن هو جاهل
وان كبير العلم لا علم عنده صغير اذا التفت عليه المحافل

ولا بد للمجتهد من يوم يحمد فيه عاقبة اجتهاده ويحصل فيه على مراده وان كان قصير الهمة مهين النفس قد أُوتي طبعاً في العمل سليماً وذهناً مستقيماً فظن انه يستغني بذلك عن الاشتغال ويبعد عن مماثلة الجهال ادلالا بطبعه واتكالاً على حذقه كما كثر شعراء زماننا وكتابه والمنتظمين في سلك آدابه حاشا من احتفل بالادب احتفالاً اوجب لذوي الآداب الانتفاع بهذا الكتاب فلا يأنف من عرض ما يسمح به خاطره على من يحسن الظن بمعرفته ويحقق ان مرتبته في العلم فوق مرتبته ولا يهمل ذلك فان خطره عظيم وفوق كل ذي علم عليم · وان كنتُ في ذلك كمن يصف الدواء ولا يستعمله ويأمر بالمعروف ولا يتمثله غير اني انهج الطريق واحض على التوفيق لتحصل لي مثوبة الدلالة واكسب اجر الهداية فان الدال على الخير كفاعله والمحرض على العمل كعامله ·

وليعتمد الراغب في نظم الشعر وانشاء النثر في وقت العمل على وصية الامام ابي تمام الذي وعدت سالفاً بنشرها وهذا اوان ذكرها وهي ما اخبر به الثقة عن ابي عبادة البحتري الشاعر انه قال : كنت في حداثتي اروم الشعر وكنت ارجع فيه الى طبع سليم ولم اكن وقفت على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصدت ابا تمام وانقطعت اليه واتكلت في تعريفه عليه فكان اول ما قال لي ياابا عبادة تخير الاوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة في الاوقات اذا قصد الانسان تأليف شيء أوحفظه ان يختار وقت السحر · وذلك ان النفس تكون قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وخف عنها ثقل الغذاء وصفا من اكثر الابخرة والادخنة جسم الهواء وسلبت الغمائم ورقت النسائم وتغنت الحمائم وتغنّ بالشعر فان الغناء مضماره الذي يجري فيه ·

اجتهد في الايضاح فان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً واكثر فيه

من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق والتعلل باستنشاق النسائم وغناء الحمائم والبروق اللامعة والنجوم الطالعة والتبرم بالعذال والعواذل والوقوف على الطلل الماحل . واذا اخذت في مدح سيد ذي أياد فأشهر مناقبه واظهر مناسبه وابن معالمه وشرف مقاومه وارهف من عزائمه ورغب في مكارمه وتقاض المعاني واحذر المجهول منها . واياك ان تشوب شعرك بالعبارة الزرية والالفاظ الوحشية وناسب بين الالفاظ والمعاني في تأليف الكلام وكن كأنك خياط تقدّر الثياب على مقادير الاجسام . واذا عارضك الضجر فارح خاطرك ولا تعمل الا وانت فارغ القلب . واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه فان الشهوة نعم المعين . وجملة الحال ان تعتبر لشعرك بما سلف من اشعار الماضين فما استحسنه العلماء فاقصده وما استقبحوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله تعالى .

وكنت قد جمعت فصولاً يحتاج اليها العاقل في البلاغتين والراضع في الصناعتين من عدة كتب من كتب البلاغة وصرفت منها ما لا يحتاج اليه ونقحتها وحررتها وهاهي :

ينبغي لك ايها الراغب في العمل السائر فيه من اوضح السبل بان تحصل المعنى عند الشروع في تحبير الشعر وتحرير النثر قبل اللفظ والقوافي قبل الابيات ولا تكره الخاطر على وزن مخصوص وروي مقصود وتوخّ الكلام الجزل دون الرذل والسهل دون الصعب والعذب دون المستكره والمستحسن دون المستهجن . ولا تعمل نظماً ولا نثراً عند الملل ولا تؤلف كلاماً وقت الضجر فان الكثير معه قليل والنفيس معه خسيس . والخواطر ينابيع اذا رفق بها جمت واذا عُنف عليها نزحت . واكتب كل معنى يسنح وقيد كل فائدة تعرض فان نتائج الافكار تعرض كلمعة البرق ولمعة الطرف ان لم تقيد شردت وندّت وان لم تستعطف بالتكرار عليها صدت والترنم بالشعر مما يعين عليه قال الشاعر

تغنَّ بالشعر اما كنت قائله ان الغناء لقول الشعر مضمار

وقد يكلّ الشاعر حيناً ويستعصي عليه الشعر زماناً كما روي عن الفرزدق انه قال : لقد يمر عليّ الزمن وان قلع ضرس من اضراسي لاهون عليّ من ان اقول بيتاً واحداً فاذا كان كذلك فاتركه حتى يجيئك عفواً وينقاد اليك طوعاً . واياك وتعقيد المعاني وتقعير الالفاظ واعمل في احب الاغراض اليك وفيما وافق طبعك والنفوس تعطي على الرغبة ما لا تعطي على الرهبة . واعمل الابيات متفرقة بحسب ما يجود بها الخاطر ثم انظمها في الآخر واحترس عند جمعها من عدم الترتيب . وتوخ حسن النسق عند التهذيب ليكون كلامك آخذاً بعضه باعناق بعض فهو اكمل لجنسه وامتن لرصنه . واجعل المبدأ والمخلص والمقطع فان ذلك اصعب ما في القصيد . واجتهد في تجويد هذه المواضع وتجنب معاريض ارباب

الخواطر فيها وتواردهم عليها وميز في فكرك محط الرسالة ومصب القصيدة قبل العمل فان ذلك اسهل عليك واستعدها اولاً ونقحها ثانياً وكرر التنقيح وعاود التهذيب ولا تخرجها عنك الا بعد تدقيق النقد وانعام النظر ·

فقد كان الحطيئة يعمل القصيدة في شهرين وينقحها في شهرين اقتداء بزهير فانه كان راويته · وقد كان زهير يعمل القصيدة في شهر واحد وينقحها في حول كامل حتى قيل لشعره المنقح الحولي او الحولي المحلى · واحذر اذا كاتبت من الاسراف في الشكر فانه ابرام يوجب للكلام ثقلاً ولا تطل الدعاء فانه يورث مللاً · ولا تجعل كلامك مبنياً على السجع كله فتظهر عليه الكلفة ويبين فيه اثر المشقة وتكلف لاجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل بل اصرف كل النظر الى تجويد الالفاظ وصحة المعاني واجتهد في تقويم المباني فان جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان وان عسر ذلك فاتركه وان اختلفت اسجاعه وتباينت في التقفية مقاطعه · فقد كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة ولا يقصدونه بتة الا ما اتت به الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد ولا اكتساب وان كانت كلماتهم متوازنة والفاظهم متناسبة ومعانيهم ناصعة وعباراتهم رائقة وفصولهم متقابلة وجمل كلامهم متماثلة · وتلك طريقة الامام علي عليه السلام ومن اقتفى اثره من فرسان الكلام كابن المقفع وسهل بن هارون وابي عثمان الجاحظ وغيرهؤلاء من الفصحاء والبلغاء ·

ولا تجعل كل الكلام عالياً شريفاً ولا وضيعاً نازلاً بل فصله تفصيل العقود فان العقد اذا كان كله نفيساً لا يظهر حسن فرائده ولا يبين كمال واسطته · وانظر الى نظم القرآن العزيز كيف جمع صفات البلاغة الثلاث ليظهر فضل كل طبقة في بابها ويبين محكم اسبابها ويعلم ان ادناها بالنسبة اليها تعلو على اعلى الطبقات من كلام البلغاء ويربي عليها فان الكلام اذا كان منوّعاً افتتنت الاسماع فيه ولم يلحق النفوس ملل من الفاظه ومعانيه

واعلم ان الالفاظ اجساد والمعاني ارواح · فاذا قويت الالفاظ فقوّ المعاني واذا اضعفتها فاضعفها لتتوازن قوى الكلام وتتناسب في الافهام · واقصد القوافي السهلة المستحسنة دون المتصعبة المستهجنة والاوزان المستعملة الحلوة دون المهجورة الكزة فان الشعر كالجواد والقوافي حوافره والالفاظ صورته والمعاني سرعته والاوزان جملته ·

واجعل كلامك كله كالتوقيعات وعليك بالمقطعات فانها في القلوب احلى واكمل وفي المحاسن ارشق واجول وبالاسماع اعلق وبالافواه اعبق · واذا نثرت منظوماً فغير قوافي شعره الى قوافي سجعه واذا اخذت معنى بيت من بيت فتجنب الالفاظ جملتها ما استطعت

او معظمها وغير القافية والوزن وزد في معناه وانقص من لفظه واحترس مما طعن عليه به لتكون املك له من قائله واذا تقاربت الديار تقاربت الافكار . ولهذا قيل الشعر محجة يقع فيها الخاطر على الخاطر .

واعلم ان من الناس من شعره في البديهة ابدع منه في الروية ومن هو مجيد في رويته وليس له بديهة وقلما يتساويان . ومنهم من اذا خاطب ابدع واذا كاتب قصر . ومنهم من بضد ذلك . ومن قوي نظمه ضعف نثره ومن قوي نثره ضعف نظمه وقلما يتساويان . وقد يبرز الشاعر في معنى من معاني مقاصد الشعر دون غيره . ولهذا قيل اشعر الناس امرؤ القيس اذا ركب وزهير اذا رغب والنابغة اذا رهب وعنترة اذا كلب والاعشى اذا طرب .

واياك وتعقيد المعاني بسوء التركيب واستعمال اللفظ الوحشي فان خير الكلام ما سبق معناه القلب قبل وصول جلته الى السمع . وليكن كلامك سليماً من التكلف بريئاً من التعسف . وليحط لفظك بمعناك وتشتمل عبارتك على مغزاك . واحذر الاطالة الا فيما تحمد فيه فان البلاغة لمحة دالة . وقيل سرعة جواب في صواب . وقيل ان تقول فلا تبطئ وان تصيب فلا تخطئ . والصحيح من حدّها انها ايضاح المعنى باقرب الطرق واسهلها . والعي اكثار من مهذار واخطاء بعد ابطاء كما جاء في المثل سكت ألفًا ونطق خلفًا . وقدّر اللفظ على قدر المعنى لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه كما قيل في مدح بعض البلغاء : كانت الفاظه قوالب لمعانيه . وقيل في آخر : كان ان اخذ شبرًا كفاه وان اخذ طومارًا املاه . واستعمل التطويل في مكانه والتقصير في مكانه فقد قيل : اذا كان الايجاز كافيًا كان التطويل عيًا واذا كان التطويل واجبًا كان التقصير عجزًا . واياك ان تفرّط فان فرّطت قصرت او تفرط فان افرطت كثرت والا فانظر الى قصص الكتاب العزيز كيف اتت وجيزة ومرة بسيطة كما قالت في وصفه في القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

به قصص تأتيك طورًا بسيطة ليفهمها من بسطها المتبلد
وطورًا بايجاز تبث لذي حجى له زند فهم ثاقب ليس يصلد

وفي الجملة مهما كان الايجاز كافيًا والمعنى به واضحًا فالاحاطة ان لم تكن عيًا كانت عبأً ولم يزل اجلاء المتقدمين يحمدون ذلك ويذمون ما سواه وبدلك على اختيار هذا المذهب ما يحكى عن احمد بن يوسف الكاتب فانه قال : دخلت يومًا على المأمون وفي يده كتاب وهو يعاود قراءته تارة بعد اخرى ويصعد فيه نظره ويصوبه قال : فلما مرّت على ذلك مدة التفت اليّ وقال : يا احمد اراك مفكرًا فيما تراه مني فقلت : نعم وقى الله امير المؤمنين المكاره واعاذه من المخاوف فقال : انه لا مكروه في الكتاب ولكن قرأت فيه كلامًا وجدته نظير

ما سمعت الرشيد رحمه الله يقوله في البلاغة فاني سمعته يقول : البلاغة التباعد من الاطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على المعنى . وما كنت اتوهم ان احداً يقدر على هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب ورمى به اليَّ وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا قال : فقرأته فاذا فيه : « كتابي الى اميرالمؤمنين ومن قِبلي من قواده وسائر اجناده في الانقياد والطاعة على احسن ما يكون عليه طاعة جند تُخزت ارزاقهم وانقياد كافة تراخت أعطياتهم فاختلت لذلك احوالهم والتاثت معه امورهم » . قال : فلما قرأته قال لي : يا احمد ان استحسان هذا الكلام بعثني على ان امرت للجند قبله بعطياتهم لسبعة اشهر وانا على مجازاة الكاتب بما يستحقه محله من صناعته .

وروي ايضاً عن المأمون انه امر عمرو بن مسعدة الكاتب هذا ان يكتب لرجل يُعنى به الى بعض العمال بالوصية عليه وان يختصر كتابه ما امكنه حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد فكتب اليه عمرو بن مسعدة « كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه معني بما كتب به ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله ان شاء الله تعالى »

وقد كان جعفر بن يحيى مع تقدمه في هذه الصناعة يقول لكتابه : ان استطعتم ان يكون كلامكم كله مثل التوقيعات فافعلوا . واما قول قيس بن خارجة لما قيل له ما عندك في حمالات داحس فقال عندي قِرى كل نازل ورضى كل ساخط وخطبة من له من طلوع الشمس الى ان تغرب آمر فيها بالتواصل وانهى عن التقاطع فان ذلك لم يخرجه مخرج المدح للاطالة المذمومة لان الاطالة المذمومة هي اطالة العبارة عن المعنى الواحد بالالفاظ الكثيرة . وانما اراد قيس الاكثار من المعاني فاذا كثرت المعاني احتاج المتكلم الى كثرة الالفاظ للعبارة عنها ولايضاحها وليوفي بمقصوده فيها . ومتى اطال الكلام لذلك كانت اطالته بلاغة لا عيًا فان حقيقة البلاغة ايجاز من غير اخلال واطناب من غير املال لا سيما خطب الإملاكات والسجلات التي تقرأ على رؤوس الجماعات اهـ

اقسام التاريخ (١)

التاريخ فرع واسع من اهم فروع الادبيات المنثورة ينتهي بوقائعه المتسلسلة الى درجة المشاهدات من حيث التحقيق والبحث . وعليه تكون كلمة «استوريا» التي يقصد بها الروم البحث عن الحقيقة — منطبقة كل الانطباق على هذا العلم وموافقة كل الموافقة لموضوعه .

وبعد فانا نرى ان التاريخ آخذ باسباب البحث والتدقيق لابس كسوة المحاكمة الفكرية منذ اول نشأته . وليس التاريخ تلك الاقاصيص والنقول التي تأتي في عرض اناشيد الملاحم وعلى السن الفصحاء بل لا بدّ للحوادث التي يرويها التاريخ من الاستناد على ابحاث علمية معروفة وشهادات مزكاة وثيقة فله في البحث عن الوقائع وتثبيت الحادثات مقاصد كما ان لاصول ضبطه شرائط عامة كثيرة .

ليس للتاريخ ان يوغل في زوايا هذه الطبيعة الغنية فيضبط من حوادثها ما يتجلى كل يوم في مئات من الوانها وصورها والالوف من اشكالها وهيئاتها بل ان غايته الوحيدة تدوين حياة الافراد المتميزين بقوة ذكائهم وقوة ارادتهم اولئك الذين تقدموا اشواطاً في سبيل النشوء ولو عادت ثانية مضت من الزمان لرأيتهم ارقى مما كانت تعهدهم .

اما الكائنات التي لم تمنحها العوامل والمؤثرات خاصة التدبير والذكاء فتسير وقائعها بسائق طبيعي متأثرة بمؤثر واحد سارية على مجرى واحد ومماثلة في صورة واحدة . وان البحث في ماضي هذه لا يجدي التاريخ نفعاً لان هذا القسم من الخليقة متساوي النسق والاسلوب في كل زمان ومكان . فان افاد البحث فيها فالفائدة تعود على العلم وليس للتاريخ منها شيء ولعل بعضهم يسأل هنا قائلاً : اذا كان التاريخ لا يبحث في حوادث الطبيعة المطردة فلماذا دعي ذلك القسم الكبير من علومها — الحيوان والنبات والجماد — بالتاريخ الطبيعي واي علاقة للتاريخ بهذه الحوادث القانونية المطردة ؟ والجواب عن ذلك انه لا محل لهذه التسمية هنا وليس للتاريخ فيها دخل البتة وانما هو اسم اصطلح عليه خطأ في هذا القسم من العلم لحادثات تكوّن الكائنات ونشوئها وتبدل المواسم وفصولها وكل قطعة محدودة من الارض وكل ما عظم او دق مقياسه ومقداره من سيارات السماء وثوابتها الزاهية وصفحات الفضاء ومناظره البهجة كل هذه ليست من التاريخ في شيء ولئن دخل قليل منها في التاريخ فانها تدخل بعض احوالها المتعاقبة ومكتشفاتها المهمة التي لا تزال ادوارها مجهولة عندنا وعلى هذا فالتاريخ يبدأ من حيث ينتهي العلم وليس في اقسام التاريخ « تاريخ الحي »

(١) معرباً عن فصل كتبه بالتركية حسين دانش بك

لانه لا ماضي للالوهية فيسطر ولا حال لها فيحرر بل هي هي المتجلية في كل شيء وما اجمل قول لبيد — « ألا كل شيء ما خلا الله باطل »

و بذلك استبان ان مجال التاريخ هو (ساحة التبدل الاختياري) ليس الا . وان للنوع البشري قوة ارادة وان اختلفت قوة وضعفاً لا تكون فيما هو عامل فيه من النواميس العامة بل في غير ذلك من حركاته وسكناته . من اجل ذلك ترى هذا النوع معرضاً للبحث التاريخي من حيث علم اجناس البشر وللبحث العلمي من حيث علم النفس

هذا يبحث في الانسان من حيث العوامل الناشئة عن القوانين العامة المنقاد لها وذاك يشتغل بفحص ما في حركاته الاختيارية من الاسباب المحولة من الاسباب المتغيرة ونتائجها و يظهر لنا ما قرب الى التوفيق من هذه الحركات وما لم يقرب وما كان مصيباً منها وما كان مخطئاً وهو يضبط الروابط الموجودة بين هذه الحركات كلها

***

كانت الامم فيما مضى تُجل التاريخ وتعظمه حتى فتحت لتقدمه السبل وازالت من طريق رقيه الموانع قال شيشرون الخطيب الروماني الشهير « التاريخ شاهد الازمنة ونور الحقيقة وحياة الذكرى وحاكم العمر و بريد القرون » وكان هذا الخطيب ينظر الى التاريخ بانه ظهير الفلسفة وانه مدرسة الفضيلة

وكان يعد التاريخ منهجاً من مناهج البيان وقسماً من اقسام الفصاحة لعظمة الدروس التي القاها التاريخ ولفخامة موقعها ولطالما قال : « لا خطيب اكثر عظمة واوفر احتشاماً من التاريخ » .

بمثل كلمات شيشرون هذه انتشر بين اهل العلم في العصور الموغلة في القدم ان التاريخ محل البلاغة وادخله تلاميذ ايزوقراط في عداد العلوم التي يجب على الخطيب ان يعنى بها فكان بذلك ركناً للادب

كان الاقدمون من المؤرخين يتعمدون في التاريخ اجادة البيان من جهة والمحافظة على الواجبات الوطنية والنتائج الاخلاقية من جهة أُخرى . اما الحقائق الواقعة في نفس الامر فقلما كان يُبحث عنها فكانت مصنفاتهم اذن تزدان في نظرهم اذا خدمت الفلسفة او ذبت عن شرف القومية والوطنية ليس الاّ . . .

هم يسلكون في التاريخ طريقاً توصلهم الى الذروة القصوى من الفصاحة فيفرغون افخم كلمات المجد واكبر الفاظ الفخفخة كما هو الحال في نقلهم حياة الرؤساء والامراء . وانهم لينسبون اليهم جملاً وقطعاً ما قالوها ولن يقدروا على ان يأتوا بمثلها وانك لترى

المؤرخ منهم يفادي بالحقيقة التاريخية سعياً وراء كلمة جميلة تروقه ويلذ له طنينها في اذنيه ناسياً او متناسياً ان ما يسمى بالتاريخ هو علم الكوائن وتصوير الحقائق وانه في حاجة قبل كل شيء الى مظان صحيحة ومستندات موثوق بها واُسس راسخة فيجب من ثم على المؤرخ مهما كانت نحلته وشعوره ومقصده ان يبحث في مثل هذه المظان من غير تطرّف ولا تعصب ، وذلك لان التطرف والتعصب والذلاقة ليست من حاجيات المؤرخ ومذهبه في شيء وانما البلاغة والتأنق في القول من صنعة الادباء والشعراء والمطالبة بالفضيلة من وظائف الاخلاقيين والدفاع عن شرف الوطنية والمكانة القومية من واجبات رجال السياسة فيها وما المؤرخ الا الذي يمحص الحقيقة ويتحض لاثباتها

وقد التزم فنيلون احد فلاسفة لويس الرابع عشر اسلوب شيشرون الخطابي في كتابه مبحث الوجود الالهي فاتخذ ذلك دليلاً على ان التاريخ كان على عهد فنيلون في دور صباه ولا يكون المؤرخ مؤرخاً حتى يثبت الوقائع التي يناقش في صحتها مناقشة منطقية ويفحصها فحصاً علمياً مدققاً ببيان سلس ونثر مرسل وسليقة معتدلة

قال المسيو باتان المشهور بمباحثه في اصحاب الملاحم من الروم المتوفى سنة ١٨٧٦ : « ليس التاريخ عبارة عن سرد بعض القصص وذكر الايام المشهورة والحوادث المأثورة ولا تلفيق ما يسقط عليه الرجل عرضاً من الاقوال عن حياة المشاهير بل التاريخ هو ذلك الميدان الذي تظهر فيه الامم بعاداتها واخلاقها ومزاياها ومعايبها مشروحة تتجلى بكل وسائل العلم حتى كأن القارىء من اهل البلد الذي يكتب تاريخه او من معاصري من يدون ماضي حياتهم وكذلك يجب التاريخ ان يكون » . وانك لتعلم ان مدون هذا التاريخ تعوزه المواهب النادرة والنظر البعيد وسبرغور الامور

لا يبحث التاريخ اليوم عن طرز معيشة الامم والبيوت فقط بل يتجاوز ذلك الى تعريف درجة الرقي العام في الاشياء ايضاً فاذا بحث المؤرخ في ماضي شعب يجتهد في ان لا يجمد امام وقائعه المهمة وحوادثه الكبيرة بل ينتقل من ذلك بغتة الى وزن اخلاقه وعاداته ومشاربه والى ذكر روابطه مع سائر الامم الاخرى . وهذه المباحث هي الياف النسيج الحيوي في الامم المتحضرة وغير المتحضرة

ومن هنا يتجلى للقارىء ان هذه المواد المنوعة في حاجة الى ترتيب حسن وفكرة ناقدة دقيقة وحكم عقلي متين قادر على البحث عن الاسباب المتضاربة ووضعها موضع النظر والى قلم بعيد عن الاغراض كأنه جلمود اذا كان سبيل لتغلب العواطف عليه ومثل هذه المزايا متوقفة على مقدار قابلية اولئك المؤرخين الذين جمعوها في نفوسهم فاستخرجوا من كتلة

الحوادث المتسلسلة سديمًا نقيًا وارسلوها نفثة البيان والوضوح النوراني على العالمين · وان للتاريخ من حيث موضوعه وأصوله اقسامًا عديدة اهمها انقسامه الى عام وخاص يبحث الاول في ادوار البشر الثلاثة المعلومة و يشمل تاريخ عامة الشعوب والدول · اما الثاني فلا يعنى الا بامة واحدة او بلدة معينة او باسرة معروفة و وقعة مشهورة

و يسمون التاريخ الذي يذكر الحوادث مرتبة حسب زمن حدوثها «كرونولوجيا» واذا بحث في نشوء شعب واحد وانتشاره يقال له «اتنوكرافيا» واذا افاض في كوائن الامم كلها الحادثة في زمن معين يدعى «سينكروفيا» · واذا قايس بين وقائع مختلفة ظهرت في ازمنة متباينة سمي التاريخ القياسي واذا اظهر الاشياء في صورتها الاصلية فهو التاريخ المصور واذا توخى ارجاع نتائج الوقائع الى اسبابها يقال له «براكاتيك» واذا ربط الاسباب بالنواميس العامة في البشر والطبيعة يسمى التاريخ الفلسفي وهكذا تختلف اسماء المصنفات التاريخية باختلاف موضوعها فتسمى تقويمًا ومذكرة وترجمة حال وما اشبه

ولا نقصد هنا الى ان نطيل القول فنكتب تاريخ التاريخ · على اننا لو بحثنا في مبدإ التاريخ لوجدناه ممزوجًا بالشعر كما هو الحال في جميع انواع الادبيات المنثورة فابتداء التاريخ اذن هو الملاحم التي هي من انواع الشعر وذلك هو ابتداؤه في الادوار القديمة عند الهنود واللاتين والفرس ولم يتجرد كثيرًا من هذه الكسوة القصصية عند بعض امم المشرق الى يوم الناس هذا لان التاريخ لم ينسلخ عن منظومات الملاحم عندهم الا قليلاً وان ذبالة التاريخ الحقيقي لم تكد تضيء عندهم حتى أطفئت وكذلك هيرودتس وتوسيديدس وكسنوفون كلهم لم ينجوا من دس الاساطير بين طيات الحقائق التاريخية في كتبهم الثمينة وان كانوا كلهم استحقوا لقب المؤرخ · الاول بذكائه النقاب والآخران بتجاربهما ومتانة بيانهما · اما دانيس داليكارناس فلا اثر للتحقيق في مصنفاته وان كان قد تلافى هذا النقص بتتبع بعض الاخبار · وكذلك شأن تيودورس من وجه هذا النقص وما يسده وان دروس بلوتارك في الاخلاق لتستر ايضًا نقائص تاريخية اخرى وقع فيها · ثم جاء بعد هؤلاء ازمان ظهر فيها مؤرخون مدرسيون مثل كيشاردن وماكيافيل فانهما كانا في زمانهما مقلدين خالص التقليد للاسلوب القديم

وعلى هذا بقيت المصنفات التاريخية كتب بلاغة ولكنها عارية عما يؤهلها للدخول في علم التاريخ الى فجر القرن السابع عشر حتى ان المؤرخ المشهور بوسويه نفسه كان على مثل تلك الحال ولو تناولنا احد مصنفاته كخطبته في التاريخ العام لوجدناها نموذجًا للآداب ولكنها بعيدة كل البعد عن التاريخ · ثم جاء فولتر ووضع كتابه كارلوس الثاني عشر

وكتابه لويس الرابع عشر فاظهر لنا نموذج التاريخ الصحيح . وعندها عرف حق المعرفة ان اكثر الذين كانوا يسمون في فرنسا مؤرخين الى القرن الثامن عشر هم براء من هذه النسبة . وعلى العكس نرى بعض رهبان ديكتن الذين لم يكن يذكر اسمهم بتلك الدبدبة والعظمة قد تحقق اليوم انهم هم الشيوخ الذين طرحوا بين ايدينا اصول التاريخ صامتين ساكتين . ومن هؤلاء الرجال المؤرخ جيبون الانكليزي مشيد القصر التاريخي على الاساس المتين

***

عصرنا الحاضر هو مؤسس التاريخ ومحييه فعلم الآثار وعلم الالسنة والجغرافيا ،كل هذه العلوم اخذت بيد التاريخ وصعدت به درجات عالية وان التحقيقات الصحيحة التي وضعها حكماء هذا العصر وعلماؤه قد نفحت الوقائع الماضية روحاً حية وكستها حلة ثابتة حتى تمثلت الذراري القديمة بعاداتها واخلاقها ومطامعها وافكارها على اسلوب اقلام تيرس وتييري وميشله وكيزو ومينيه . فعصرنا هذا ولا مراء عصر التاريخ قبل كل شيء

الحديدة (جزيرة العرب) محب الدين الخطيب

اصلاح التعليم في الصين

كتب احد الباحثين من الاوربيين رسالة في معنى نهضة الصين الى اصلاح التعليم القديم عندها فقال ان هذه المملكة كانت لها طريقة تامة في التعليم منذ القرن الرابع والعشرين قبل التاريخ المسيحي على عهد حكم ملوك هيا فكان لكل أسرة قاعة للدرس ولكل كورة كتاب ولكل مقاطعة مدرسة فيمتحن المتعلمون كل سنة ويرتقي الاكفاء الى مناصب الحكومة وفي القرن الثامن قبل المسيح بطلت طريقة اعطاء الوظائف بالاستحقاق العلمي واصبحت وراثية الا ان كنفوشيوس حكيم تلك الامة جاء في القرن التالي واحيا معالم التعليم على الاصول القديمة ونظمها فاحسن تنظيمها حتى اصبحت بعده محترمة في اقطار المملكة وما زالت تعاليمه معمولاً بها وتختلف لضعف انصارها وقوتهم في بعض القرون وبقوة البوذية والتاوستية حتى كانت سنة ١٩٠٤ فاصدر الامبراطور امره بالغاء الاوامر القديمة الصادرة بشأن التعليم التقليدي وبذلك الغى نظاماً اجتماعياً جرت عليه امته منذ خمسة واربعين قرناً .

وقد شعرت الصين منذ حروبها الاولى مع اوربا بقلة التعليم في موظفيها وتبين للبلاط الامبراطوري ان ذلك كان السبب الرئيسي في ضعف المملكة ولذلك عزم الامبراطور منذ

سنة ١٨٩٨ ان لا تمنح الوظائف الا لمن اطلعوا على العلوم الحديثة الاوربية فاصدر امره بانشاء مدارس على الطرز الحديث واقامة كلية في بكين على مثال كليات اوربا وفي سنة ١٩٠٦ الف نظارة معارف عمومية وكان من اثر ذلك ان توفرت العناية بتعليم البنات وكن النساء من قبل مقصورات في بيوتهن معتبرات في نظر الصينيين احط من الرجال واهم ما يعلمنه في المدارس الكثيرة التي انشئت لتخريجهن الاخلاق والمالية واعمال البيوت والرياضات الجسدية ويمنعن من تضييق ارجلهن منعاً قطعياً

وكثر عدد المدارس الخاصة والعامة التي انشئت مؤخراً لتعليم الفنون المختلفة كالفصاحة والملاحة وعمل الخطوط الحديدية والبحرية والشرطة وعلم التربية واللغات الاجنبية · وساعد الادباء والعلماء والصحافيون على خدمة افكار الحكومة في هذا الشأن واخذوا يؤلفون الكتب والمعاجم ويترجمون من لغات اوربا كل مفيد لكيانهم واخذت الحكومة والاهالي يحاولون ايجاد الاموال لهذه المشاريع ومن جملة الذرائع التي عمدوا اليها ضربهم الضرائب على « محال تناول الشاي » لتصرف في سبيل تعليم الامة · وقد حظر على الاساتذة ان يهينوا التعاليم القديمة فجاء في لوائح المدارس بهذا الصدد « ان للانظام الاجتماعي والسياسي في ممالك اوربا واميركا واليابان صيغة خاصة به كما ان ادارة الصين واخلاقها لها صفة خاصة بنا فعلى كل استاذ صيني ان لا يتفوه بكلام يعد مروقاً وكفراً ليدك بما يثبت من افكاره بناء الصين الاجتماعي والسياسي فاذا انتقد الفضائل الاصلية والصلات العامة مع الفلسفة المشهورة (فلسفة علماء الادب وكنفوشيوس) يحقق امره فاذا ثبتت ادانته يحكم عليه بحسب ذنبه » وحظر على التلاميذ ان يشتغلوا بالامور السياسية ويعقدوا اجتماعات وينشروا جرائد

ولا يخطرن على بال احد ان التعاليم القديمة سقطت في الصين بالمرة بل بالعكس زادت العناية بها على قدر العناية بالعلوم الغربية الجديدة ولا تأتي سنة ١٩٠٠ حتى ينتظم اساس الاصلاح الذي وضعته مملكة ابن السماء وهي تأخذ العلم الآن عن اربع دول اليابان والولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ولكن اليابان اقدموا على تعليم الصينيين اقداماً غريباً وفتحوا لهم المدارس في عاصمتهم بكين بالذات وغيرها من الحواضر وكل يوم يزداد عدد الطالبين والطالبات من الصينيين الذين يأتون كليات اليابان ويدرسون فيها كما ان المعلمات اليابانيات والمعلمين اليابانيين يفدون بالعشرات على المملكة السماوية ولا سيما على جنوبيها ·

الكتاب

حدثنا القراء في النسخة الماضية بشيء مما عربناه من « الكتاب » الذي صدر حديثاً للمسيو البرسيم وهانحن ننقل لهم بعض فوائد جديرة بالنظر والاعتبار فقد قال في تأثيرات المطالعة في المرء ولا سيما ما يطالعه في صغره نقلا عن كتاب عشاق الكتب لالفرد دي ماترون العارف بالتآليف والتصانيف : ان المرء في صباه لا يهتم بشكل الكتاب جميلا كان أو بشعاً حسن التجليد أو سيئه بل يضحك ممن يقول له ان طبعة هذا الكتاب أصبحت نادرة وان هذه الفقرة غريبة وان هذه الاسفار نال مؤلفوها الجوائز عليها ولا يحتفل الا بالفكر ولا سيما بما فيه شعور وعواطف ولا يعبأ الا بما يرضي فؤاده ويثير عواطفه ويحركها. فأف من الفكر والجمال والتذهيب الجميل . ولذلك لا ترى مولعاً في الكتب وهو في سن العشرين لان المرء في صباه لا يستطيع ان يعاود قراءة كتاب قرأه فلا يكاد يحسن القراءة حتى يأتي على آخر ما يقرأ ولا سبيل الى الحكم جيدا على كتاب الا بمطالعته ثانية وفي أدوار مختلفة من الحياة ومن ثم كان من الكتب ميزان حرارة للعقل أو للقلب .

قال الفرد دي ماترون: ان المرء في العشرين من عمره لا يكون من غلاة الكتب واحبابها وما قاله يصح ان يكون قاعدة في هذا الباب لان العواطف في سن العشرين تحكم على العقل بل تحكم على كل شيء فيسرع المرء في تلك السن الى الوقوف على كل شيء ويعرف كل شيء ويقرأ كل شيء وان شئت فقل يقلب صفحات كل كتاب . ويندر في تلك السن السعيدة من يستطيعون ان يعاودوا قراءة كتاب ثانية بدون ان يكرههم مكره فيأتون ذلك اما مدفوعين برغبة منهم أو لقلة ما لديهم من الكتب الجديدة أو كتب لم يقرأوها بعد ولم يتصفحوها

وقال آخر : لايشرع المرء بمعرفة القراءة الا بعد خروجه من المدرسة . وفتيان المطالعين لايحبون من الكتب الا ما حدث وضعه وقلما يرجعون الى الكتب المؤلفة قديماً . وأورد المؤلف أسماء كثيرين أولعوا بالمطالعة منذ عرفوا القراءة بل منذ فطموا عن اثداء أمهاتهم مثل أسقف دافرانش هويه (١٦٣٠—١٧٢١) والفيلسوف جان جاك روسو (١٧١٢ــ ١٧٧٨) والشاعر يوحنا أنطون بوشه (١٧٤٥ــ١٧٩٤)و بنيامين فرنكلين (١٧٠٦ ــ ١٧٩٠)وهنري بيل القصصي النقاد الفرنسوي (١٧٨٣ ــ١٨٤٢)ولامارتين الكاتب الفرنسوي(١٧٩٠ــ١٨٦٩) وسيلفيو بلليكو الاديب الايطالي (١٧٨٩ ــ ١٨٥٤) وجورج ساند القصصية الفرنسوية (١٨٠٤ــ ١٨٧٦) وشارل ديلون وكلهم ما كادوا يفتحون عيونهم الا والكتاب بأيديهم بفضل تربية آبائهم وأمهاتهم الذين كان بعضهم يقرأ لهم ليسمعهم سير العظماء وأقوال الحكماء فانغرست البذور الصالحة في عقول أبنائهم وجاء منهم فلاسفة وكتاب متفردون وتبين مما استشهد به لهم من تذكراتهم ان معظمهم كانوا يعيشون في الخلاء بين الرياض والغياض يطربهم صوت العندليب ويؤرقهم صوت القمري ويستفزهم خرير الماء وعليل الهواء

وقال في فصل المطالعة والتصفح : جعل سلس الطبيب الروماني في القرن الاول قبل المسيح القراءة بصوت عال من جملة الرياضات النافعة للصحة وان المطالعة على هذه الصورة ضرورية للفهم والذوق وذلك لان جرس الصوت يساعد كل المساعدة على تعليق الجمل في الذهن. وقد قال العالم ارنست لوكوفه انه لاشيء ينير عقلنا مثل القراءة بصوت جهوري ويقفنا على ضعف الانشاء ان كان ضعيفاً وقوته ان كان قوياً وفساد الشعور المصور فيه . ففي الكلام تنشيط وفيه للافكار ايضاح بل تحقيق وكل من يتعاطون عملا شاقاً كالحطابين والخبازين

يتحمسون بما يلقيه بعضهم على بعض من الاصوات ولا يرى دودان ان يقرأ قاري الانسان بل ان يقرأ بنفسه و يرى ان الطريقة الاولى أجدر بالمرضى والعميان لان لكل قاريء نغمة يكون بها التأثير في عقله وله طريقة في الفهم والتمعن لا يقوم بها سواه

ومن العادة في بعض المدارس والاديار ان يقرأ قاريء شيئاً من الادب والقصص والتلاميذ جلوس على المائدة وكان ذلك شأن شارلمان يتلى على مسامعه وهو على الخوان كتاب القديس أوغسطينس وكان الفيلسوف فولتير يؤثر ان يقرأ له وقال: انني أحب هذه الطريقة لانها كانت مألوفة للقدماء وأنا منهم. وكان الكردينال موري « ١٧٤٦ــ ١٨١٧ » يقول ان المرء اذا خلا بنفسه يجب ان يطالع كتباً تفيده حقيقة واذا كان مع اخوانه فالاجدر ان يتلى عليه ما يحمسه ويهيجه لان الناس في انفرادهم غيرهم في اجتماعهم.

قال مؤلفنا: أما كتب الحكم والآراء فالاحرى بل الافيد بأن تتلى قطعة قطعة لا دفعة واحدة وان ترسخ بكميات قليلة فكما ان المرء لا يبلع اقراص المعاجين الا واحدا واحدا هكذا يجب عليه ان يسير في الاخذ من كتب الحكماء. وقال الاميراين « ١٧٣٥ ــ ١٨١٤ » ان الطريقة الوحيدة في مطالعة كتاب في الحكم بدون ان يمل هو ان يفتح كلما سنحت الفرصة وبعد ان يسقط فيه على ما يهمه منه يطبقه بعد تصفح صفحة أو صفحتين ويأخذ يفكر فاذا تصفحها كلها يكون أشبه بمن قلب مجموعة صور دفعة واحدة فلا يرتسم في مخيلته واحدة منها.

وتختلف طريقة المطالعة بسرعة أو بتأن بلا فاصلة أو بفاصلة بقلة أو بكثرة وهذا تابع لحالة القاريء وما يقرأ وحالة بصره وقوة انتباهه وأوقاته وخطر

مايتلوه وتأثير الكتاب فيه. وان كتاباً في الفلسفة لايقرأ كما تقرأ قصة. وخيرفي الكتب المملة ان تتصفح تصفحاً وكل من يعيشون بين الكتب والمطبوعات والمخطوطات ويبحثون كثيراً فيما بين أيديهم لايسعهم الا ان يتصفحوا تصفحاً

وكان لما كليابشي العالم الفلورنسي قيم الكتب «١٦٣٣ــ١٧١٤» طريقة خاصة في المطالعة فاذا وقع له تأليف جديد ينظر في عنوانه ثم يرجع الى الصفحة الاخيرة منه ويتصفح المقدمات والفهارس والتقدمات ويلقي نظره على كل التفاصيل الرئيسة وكان له من الوقوف على التآليف ما يتمكن معه من معرفة حقيقة المصنف في لحظة بل انه يعرف المصادر التي أخذ منها المؤلف . ومن أرباب الاختبار في معرفة القراءة من يعرفون ماهية الكتاب من تقليب أوراقه ويدركون مافي صفحة منه من الفوائد بمجرد القاء النظر عليها ومنهم من يعرفون كيف يتصفحون الجرائد فلا يقع نظرهم الا على مايهمهم منها ولا يضيعون ثانية من أوقاتهم في النظر فيما لايفيدهم

ورأى بعض أهل العلم ان الذهن مهما بلغ من حدته يخون صاحبه في تذكر الفوائد التي قرأها فالاولى له ان يقيدها ولذلك كانت الفهارس مما يعين كثيرا على الرجوع الى مضامين الكتاب . ومن عشاق المطالعة من لا يكتفون بتقييد الفوائد في تذكراتهم بل هم يكتبون على كل صفحة تهمهم كتابة تعلمهم على الكتاب نفسه ولكن أكثر باعة الكتب يرون هذه الطريقة ممايعوق الكتب عن بيعها الا ان المؤلف ومحبي الاستفادة لايهمهم الا ان ينتفعوا من كتبهم ولو بتمزيقها وتشويهها وما الكتاب الا أداة للتعلم يجب استخدامها على النحو الذي ينتفع به نفعاً حقيقياً بل هو رفيق وصديق تجب معارضته ومناقشته أحياناً وان لا يسلم له كل ما يورده

يقول الفيلسوف سينيك والاديب بلين لجون ان الاكثار من الكتب يشتت الفكر وان اعادة القراءة كثيرا تفضل قراءة أشياء كثيرة وقال بعضهم: لانهاية للاستكثار من الكتب. ومعلوم انه في هذا العصر الذي دعي بعصر الورق بل في هذا العصر الذي اشتدت فيه تباريح مرض جديد Stampom anie أي الجنون في الطبع والنشر ان الكتب تنمو وتتضاعف من يوم الى يوم. وما أجمل ماقاله اريستيب الفيلسوف اليوناني (٣٩٠ ق٠م) أحد تلاميذ سقراط وصاحب المذهب الابيكوري المنسوب لمدينة سيرين: ليس من يأكلون كثيرا هم اسمن من غيرهم واصح منهم أجسادا بل السمان هم اولئك الذين يهضمون. وهنا استشهد المؤلف باحصاء غريب لبعض المشتغلين منذ اختراع الطباعة الى القرن الماضي فقال انه طبع في جميع انحاء الارض من سنة ١٤٣٦ الى سنة ١٥٣٦، ٤٢ الف مجلد وفي سنة ١٥٣٦ الى ١٦٣٦ــ٥٧٥ الفاً وفي سنة ١٦٣٦ الى ١٧٣٦ مليون و٢٢٥ الفاً وفي سنة ١٧٣٦ الى سنة ١٨٢٢ مليون و٨٣٩٩٦٠ فيكون مجموع ماطبع زهاء ثلاثة ملايين ونصف مليون مجلد واذا قدّر معدل هذه المصنفات بثلاثة مجلدات وان أقل مايطبع من كل كتاب ٣٠٠ نسخة فيكون قد خرج من المطابع كلها في نحو أربعة قرون ٣٣١٣٧٦٤٠٠٠ وقدر ان ثلثيها حرق او استعمل صررا عند البدالين والباعة فلم يبق منها الا ثلثها. وزيف بعضهم قوله بأن التوراة وحدها طبع منها زهاء ٣٦ مليون نسخة وان كتاب الاقتداء بالمسيح طبع منه وحده ستة ملايين وانه اذا كان كتب على تاريخ فرنسا وحده ثمانون الف مجلد فكم تكون كتب الارض. وقدر أحد الاميركان عدد المجلدات في الولايات المتحدة كما يأتي: ٤٢٠ مليوناً في البيوت و١٥٠ مليوناً عند العلماء والكتاب والمخترعين و٦٠ مليوناً عند الكتبية والطابعين و٥٠ مليوناً في خزائن الكتب العامة و١٢ مليوناً في مكاتب المدارس

والجامعات و٨ ملايين عند التلاميذ وان في اوربا الغربية مليارا وثمانمائة مليون مجلد وفي اوربا الشرقية اربعمائة وستين مليون مجلد و٢٤٠ مليوناً في سائر أقطار العالم . قال المؤلف: وبينا أهل الاحصاء يحصون ترى المطابع تصدر الكتب بالالوف فيقدر الآن مايصدر كل سنة من الكتب في الشرق والغرب بخمسة وسبعين الف كتاب جديد منها ٢٥ الفاً في المانيا و١٣ الفاً في فرنسا و١٠ آلاف في الولايات المتحدة و٧ آلاف في انكلترا فلو فرضنا ان معدل مايطبع منها الف نسخة تكون كتب العالم قد زادت كل عام ٧٥ مليون مجلد .

قال مؤلفنا في اختيار الكتب وهل تفضل القديمة أم الحديثة فرأى ان الشبان ومن قل علمهم وادبهم يؤثرون الجديد على القديم وان كان الجديد في الغالب غثاً باردا والقديم سميناً مملوءاً بصحيح الافكار ومتين الانشاء . وفي كتب القدماء كنوز ثمينة لامثيل لها في آثار المحدثين .قال : وعندي أن يختار من الكتب العلمية احدثها التي اخذت بأطراف ارتقاء العلم عامة وآخر ماوصل اليه كله اما في الادب فيختار أحسن كتابه مهما قدم عهدهم فالآداب القديمة كما قيل كلما قدمت تجدد

ولامراء في ان المطالعة تؤثر في عقولنا واضطراباتنا وتورثنا القلق والحزن فمن الفضول أن نزيد على ذلك ماتدخله علينا من السرور والنفع قال جول لبتي في كتابه « علم حب الكتب ومعرفتها » ماأكثر من يبرؤن امراضهم بفضل الكتب التي يطالعونها ولو عرف الناس ذلك حق معرفته لزاد عدد المولعين بالكتب زيادة عظمى .وتكلم المؤلف على الروايات وقال ان بعضهم يراها سموم الهيئة الاجتماعية وذكر كيتي الفيلسوف النقاد الالماني انه من العبث أن يقول القائلون ان من الكتب مايؤثر في افساد الاخلاق وما الفساد الا متوفر كل يوم

في هذا المحيط وعندي انه لايجب التحرس كثيرا من ذكر مالايجدر امام الاولاد من الاحاديث فان الاولاد كالكلاب لهم حاسة قوية في الشم يكتشفون كل شيء ولاسيما ما كان من امور الشر . وللعلماء اراء مختلفة في هذا الشأن والاكثر على ان الروايات خيرها أقل من شرها وقشرها أضعف من لبها أما مطالعة الجرائد فهي لاتعد في باب مطالعة الكتب لانها تكتب بسرعة دون أن ينظر فيها النظر البليغ وما الجريدة كما قال بايل الا فاكهة الفكر . وقال سانت بوف: يجب بادئ بدء ان نتزود من الخبز واللحم الطيب قبل أن نضيع في الفاكهة والحلواء. كتب تيوفيل غوتيه الكاتب الصحافي الفرنسوي ان مطالعة الجرائد تحول دون نبوغ علماء وارباب فنون حقيقيين فهي جعبة شطط تصلك كل يوم ضعيفة ضئيلة تعتري القرائح القوية الشكيمة التي لاتريد الا عشاقاً اقوياء في جدة الشباب فالجريدة تقتل الكتاب كما ان الكتاب قتل الهندسة وكما قتلت المدفعية الشجاعة وقوة الاعصاب. وقال جبرائيل هانوتو العالم «ان الجريدة هي المنافس الحقيقي للكتاب وما النجاح الذي حازته الجريدة الا لرخص أثمانها وعندي ان الديمقراطية يجب أن يرخص فيها كل شيء لمداواة أمراض النفوس وان المستقبل لايبقي الا على نوعين من الكتب المزخرف المبهرج الذي تطبع منه كميات قليلة ليقتنيها أرباب القصور والغنى والكتب البسيطة التي تباع بأرخص مايمكن من قيمة ليسوغ للجمهور اقتناؤها من ايسر سبيل وبهذا الضرب من الكتب يحفظ للعلم رونقه وتبقى له حياته فالفلاح والعامل يجب ان يقرآ شيئاً وان يخرج لهما مايقرآن وحاجتهما ماسة الى غير كتب التقاويم » وبهذا تبين انه لايخشى على الكتب من قلة عشاقها في المستقبل بل ان النفوس تظل عليها مقبلة مابقي الدهر

وقال مؤلفنا في الفصل الذي عقده للكلام على ممزقي الكتب واعدائها

ان أعظم ماعرف من المصائب التي أصابت المكاتب «١» على ماذكر بيروز المؤرخ الكلداني من اهل القرن الثالث قبل المسيح «عليه السلام» واسكندر بوليستور الكاتب العالم اليوناني من اهل القرن الاول قبل الميلاد ان ملك بابل بختنصر الذي ارخ به منذ سنة ٧٤٧ ق .م قد امر باحراق جميع تواريخ اسلافه ليسدل بذلك حجاباً كثيفاً على الماضي ويكون عهده مبدأ يجرون على التاريخ به في جميع العالم . واحرق الامبراطور شي هونغ تي الصيني سنة ٢١٣ ق . م جميع الكتب التي في مملكته ولم يستثن منها الا المصنفات التي فيها تاريخ أسرته وعلم النجوم والطب وذلك بغضاً منه للتعلمين المتأدبين

قال المؤلف :وأعظم ماأصاب الكتب من البلايا في التمزيق والتحريق الفتن الدينية وذلك لان الكتاب خير ناطق عن الانسان . له من الصفات ما يخوله المثول في كل مكان ومن القوة والجرأة مالانظير له فاقتضت الحال أن يبدأ باسكاته قبل كل لسان أي ان يحرق لانه الناطق الذي لايسأم كما يسأم المخالفون والمناهضون . فقد احرق الرومان كتب الاسرائيليين والمسيحيين والفلاسفة وأحرق الاسرائيليون كتب المسيحيين والوثنيين وأحرق المسيحيون كتب الوثنيين والاسرائيليين واحرق المسيحيون معظم كتب أوريجين أجدز عماء الكنيسة في القرن الثالث للمسيح وكتب قدماء الملاحدة وأحرق الكردينال كسيمنيس (وزير اسبانيا والمفتش الديني ١٤٣٦—١٥١٧) عند ما استولى الاسبان على غرناطة خمسة آلاف مصحف واحرق أهل المذهب البروتستانتي من البروتانيين في انكلترا على أوائل عهد الاصلاح مالايحصى من الاديار والآثار القديمة واحرق كرومفل مكتبة اكسفورد وكانت من أعجب خزائن الكتب في أوربا

(١) المقتبس ٣ — ٦٢٤

ثم عاد المؤلف الى الكلام على مكتبة الاسكندرية ثانية وبرأ المسلمين من احراقها فقال : تكلمنا على مكتبة الاسكندرية التي شاع بانها احرقت بأمر الخليفة عمر عند استيلائه على الاسكندرية سنة ٦٤٠ وقلنا ان هذه المكتبة لم يكن لها وجود في ذاك العهد البتة وان أحد قسميها حرق قضاء وقدرا سنة ٤٧ قبل المسيح عند هجوم جند يوليوس قيصر وان القسم الآخر حرق بعد هـذا التاريخ بنحو أربعة قرون أي سنة ٣٦٠ على يد الاسقف أو البطريرك تيوفيل الذي كان يرمي الى ابادة الوثنية من ابرشيته . ولم يعثر على كلمة واحدة قالها مؤرخو ذاك الزمن من عهد حريقها الى قدوم عمرو بن العاص عامل الامام عمر مايستدل منه ويحمل على الفرض بأنه أنشئت في الاسكندرية مكتبة ولا ينبغي أن يعجب من ذلك اذ من أسبابه ان الآداب والفلسفة الوثنية كانت في تلك الحقبة من الدهر قد حكم عليها بالتبديد في كل مكان حتى ان جوستينيانوس أمر باغلاق مدارس آثينة .

ومعلوم ان ماينسبونه لعمر من الجواب الذي اجاب به عمرو بن العاص وقد سأل عما يعمل بمكتبة الاسكندرية فقال له : أنظر فاذا كان مافيها من الكتب يوافق مافي كتاب الله فلا فائدة منها واذا كانت مخالفة له فليس لنا بها حاجة فاحرقها . وعلى الجملة فقد قال من أورد هذه القصة ان عمرو بن العاص وزع هذه المكتبة على حمامات الاسكندرية فاستعانت بها على احماء حماماتها ستة أشهر هـذا مع ان الورق دع عنك الرق اذا صلح لاشعال النار فلا يصلح لان تدوم به طويلا

ثم استشهد بقول جان جاك روسو في خطابه في العلوم والفنون : ولو كان غريغوريوس الكبير مكان عمر والانجيل محل القرآن لكانت مكتبة الاسكندرية

بادت أيضاً على ان البابا غريغوريوس المشار اليه «٥٤٠ - ٦٠٤» متهم باحراق كتب القدماء ظلما كما اتهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١) ولكن التاريخ لا يظلم أحدا

وقال في كلامه على مايكتب عليه الكتاب ان الرق هو من اختراع فرغامس (برغامة) في آسيا الصغرى والمظنون انه عرف قبل خمسة عشر قرناً أما الورق فالارجح ان الصينيين هم الذين اخترعوه وان العرب نقلوه الى أوروبا كما قال الدكتور غستاف لبون في كتابه حضارة العرب : ان الكتاب المخطوط العربي الذي عثر عليه القصيري (الطرابلسي) في مكتبة الاسكوريال مكتوب

---

(١) قال المحقق برهان الدين البقاعي في مقدمة نظم الدرر مثبتاً لجواز النقل من الكتب القديمة خلافا لمن انكر عليه ذلك : ونص الشافعي ظاهر في ذلك قال المزني عنه في مختصره في باب جامع السير وما كان من كتبهم فيه طب وما لامكروه فيه بيع وما كان فيه شرك أبطل وانتفع بأوعيته وقال في الأم في سير الواقدي في باب ترجمته كتب الاعاجم قال الشافعي: وما وجد من كتبهم فهو مغنم كله وينبغي للامام ان يدعو من يترجمه فان كان علماً من طب او غيره لامكروه فيه باعه كما يبيع ما سواه من المغانم وان كان كتاب شرك شقوا الكتاب فانتفعوا بأوعيته واداته فباعها ولا وجه لتحريقه ولا دفنه قبل ان يعلم ما هو انتهى .

قلنا وهذه العبارة تدل دلالة واضحة على ان الامام لم يأمر بحرق مكتبة الاسكندرية اذ لو فعل ذلك لبلغ الامام الشافعي فان ادنى من ذلك من اعمالهم قيدوه وبينوه وبنوا عليه فلو كان ذلك معروفا من فعل عمر مع انه لم يذكر ان احداً من الصحابة خالفه في رأيه او انكر عليه كان من قبيل الاجماع والائمة كلهم لا سيما الامام الشافعي لم يكونوا يجرؤون على مخالفة الاجماع اصلا وبما ذكرنا من عبارة الامام الشافعي تعلم انه لاوجه لانكار بعض الذين لم يتضلعوا في العلم على المأمون في ترجمة كتب الاوائل التي ليس فيها شرك ويعنون بما فيه شرك ما يتعلق بدعاء الاصنام وعبادة التماثيل ونحو ذلك . ومراد الشافعي من قوله فان كان علماً من طب او غيره لامكروه فيه باعه فالمراد بالذي فيه مكروه السحر والتنجيم ونحو ذلك فان الشرع منع من تعاطيها (المقتبس)

على ورق من القطن ويرد تاريخه الى سنة ١٠٠٩ هو أقدم مما عرف من المخطوطات المحفوظة في مكاتب أوربا دلّ على ان العرب كانوا أول من استعاضوا عن الرق بالورق وذلك ان الصينيين كانوا يصنعون الورق من الحرير منذ ازمان بعيدة فدخلت صناعته الى سمرقند منذ أوائل الصدر الاول للهجرة حتى اذا جاءت العرب تلك المدينة فاتحة رأت فيها معملا للورق ولكن هذا الاختراع الثمين يصعب الانتفاع به في أوربا لان الحرير كان غير معروف فيها اللهم الا اذا استعيض عن الحرير بمادة أخرى · وقد ظهر من البحث في مخطوطات العرب القديمة أنهم وصلوا في الحال من صنع الورق الى درجة من الكمال لم يتجاوزوها ويظهر أنه من الثابت أيضاً ان صنع الورق من الخرق هو من اختراع العرب على مافي صنعه من التعب وما يحتاج اليه من المهارة وذلك لان ورق الخرق عرف عند العرب قبل أن يعرفه المسيحيون بازمان اه

وبعد فهذا ماساعد المقام عليه من الاقتباس من فوائد الكتاب وكنا نود لو عربنا عنه اكثر ماعربنا مما يفيدنا في اجتماعنا وتاريخنا ولكن مالا يدرك كله لايترك جله وهـذا القدر الذي اوردناه كاف في الدلالة على فضل مؤلفه . والكتاب يطلب من مكتبة ارنست فلاماريون في باريز . وثمنه كله اثنان وعشرون فرنكا ونصف ماعدا اجرة البريد فنحول انظار من يعرفون الافرنسية الى اقتنائه

رسالة رشيد الدين الوطواط

فيما جرى بينه و بين الامام الزمخشري من المحاورات

عني بنشرها احمد بك تيمور

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب العلامة رشيد الدين محمد بن محمد بن عبد الجليل العمري المشهور بالوطواط الى الامام سديد الدين بن نصر الحاتمي :طلبت مني زينك الله تعالى بأنوار المزايا وحماك من كل حادثة ملمة وكل طارقة مهمة ولا اخلاك من فخر تجتلبه وجميل ذكر تكتسبه وجزيل اجر تحتسبه وأثر جهل تجتنبه ان اهدي اليك وأملي عليك ماقال جار الله سقى الله ثراه في كتاب الكشاف في وجه انتصاب شهر رمضان وما قلته من الاعتراض على كلامه واستبعاد مدعاه عن مرامه مما جرى بيني و بين أعز أصحابه أفضل القضاة يعقوب الجندي من السؤال والجواب وهاأنا مطبق فيما أقوله مفصل السداد والصواب وقد ذهب من عندي الى جار الله واخبره بما قلت فانصف وانصت وأبدى خضوعاً لاستماع الصدق واتباع الحق وقال له:ذكرني هذا الامر بعض أيام فراغي حتى أصلح من كتابي هذا الفصل واغير هذا القول فانه غلط شنيع وخطأ فظيع الا أنه مرض في تلك المدة ونزلت به المنية وما حصلت تلك الامنية.وقد علم كل من شاهد أحوالي مع جار الله اني كنت عنده معظم القدر مفخم الامر مقبول الكلمات متبوع الاشارات لم يرمني كلمة في أي علم الا قيدها ببنانه وضبطها في جنانه واثبتها في دفاتره واحكمها في خواطره وعدها غنيمة من غنائم عمره وتميمة من تمائم نحره وقد جرى بيني و بينه في حياته وأوقات راحاته مما يتعلق بفنون الادب وأقسام علوم العرب مسائل أكثر من أن يحصى عددها او يستقصى امدها رجع فيها الى كلامي

ونزل على قضيتي وأحكامي فالسعيد من اذا سمع الحق سكتت شقاشق لجاجه وسكنت صواعق حجاجه فمنها مسألة الظبى التي هي جمع ظبة فانه كتب بخطه انها من ذوات الياء وأصلها ظبية فقلت انا انها من ذوات الواو وأصلها ظبوة فلما امتدت المناظرة واشتدت المذاكرة بعثت اليه كتاب الصحاح يصدق قولي فهجن الكتاب وقال انه محشو بالتحريفات مشحون بالتصحيفات فبعثت اليه سر الصناعة لابن جني فقال هو رجل وأنا رجل فبعثت اليه كتاب العين فوضع لحق عنقه وسلك مناهج الانصاف وطرقه واسترد خطه ومزقه تمزيقاً وخرقه تخريقاً بمرأى ومسمع من صدر الائمة ضياء الدين أدام الله اجلاله وزاد اقباله

ومنها مسألة كلا الرجلين اذ كتب في حالة الجر والاضافة للظاهر بالألف فقلت الصواب ان يكتب بالياء وأيدت قولي بنص ابن درستويه في كتابه الموسوم بكتاب الكتاب وجرى هذا بحضرة الامام الاجل زين المشايخ البقالي أدام الله سعادته وحرس سيادته ومنها مسألة نسر وفرقد في تثنيتهما بغير ألف ولام في شعري فأنكره وقال لا يجوز هذا في الشعر ولا في غيره فأريته ذلك في شعر المعري وأبي تمام فقال أخطآ حتى أراه سلطان بيته وصدى صوته الامام فخر الاسلام المؤذني ذلك في شعر الاعشى فعند ذلك لانت خشونته وسهلت حزونته. ومنها مسألة الجمع بين الضرب المحذوف والضرب الصحيح في شعر واحد من الطويل وقع له في ديوانه في قوله

جوار فريد العصر خير جوار ودار فريد الدهر أكرم دار

ثم قال

فلله من جار حمدنا جواره ولله من فرد ولله من دار

فضرب الاول محذوف وضرب الثاني صحيح ولا يجوز اجتماعهما في هذا

البحر باتفاق العروضيين فلما نبهته لهذا على لسان تلميذه المحسن الطالقاني طلب ديوانه وغيره هكذا «ولله من نار وموقد نار» فاستقام وزنه ومنها مسألة الحادي عشرة والثانية عشرة ومنها مسألة التحية ومنها مسألة تجريد الامالة ومنها مسألة ادخال الوليد بن الوليد في جملة الكفرة من أولاد الوليد ابن المغيرة وسيأتي ذكره في رسالته الى الحاتمي ٠ ولو نقلت مافي كنانتي من المكنونات ونثرت ماادخرته في خزائن المخزونات طال الكلام وكلت الاقلام وانما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم فتيان هذه الخطة ان هذا الامام كان صبورا على مرارة الحق وحرارة الصدق مع انه رب هذه البضائع وصاحب هذه الوقائع ٠ فصل قوله قرأ ابيّ شهر رمضان بالنصب على تقدير صوموا أو على الابدال من اياماً معدودات او على انه مفعول ان تصوموا واقول قولاه الاولان صحيحان لا مطعن فيهما واما الثالث فموضع بحث اذ لا يجوز مثله البتة لانه لو كان كما زعم كان شهر رمضان تتمة لان تصوموا ولكان مجموعها في حكم مبتدأ واحد وصار تقديره صوم رمضان خير لكم وليس بجائز أن تجعل المبتدأ نصفين وتفصل بينهما وتدخل الخبر في وسطها اما أن يكون خبر المبتدأ متأخرا عن المبتدأ وهو الاصل أو مقدماً عليه بشرط التعريف وغيره من الشروط وهذا هو الفرع واما ان يكون واقعاً بين شرط من المبتدأ فليس من كلام العرب كقول القائل لمن ينفعه اللحم أن تأكل اللحم خير لك صحيح وقوله خير لك ان تأكل اللحم صحيح فاما قوله أن تأكل خير لك اللحم فغير صحيح وهذا قولي الذي استحسنه جار الله والله اعلم بكتابه واعرف بأسرار خطابه. وقد كتبت هذه الرسالة فعليك بحفظها عن هولاء الذين لا يفهمون الدقائق ولا يعلمون الحقائق فاني حررتها لامثالك من ذوي الفهم والهداية واشكالك من أولي العلم والدراية لا لهؤلاء الذين عميت أبصارهم وبصائرهم

وصدئت افكارهم وخواطرهم فان رياض العلم لاتفتق للمجانين وحياض الرحمة لاتدفق للشياطين والسلام

وقفة في الروض

ناح الحمام وغرّد الشحرور هذا به شجن وذا مسرور
في روضة يشجي المشوق ترقرق للماء في جنباتها وخرير
ماء قد انعكس الضياء بوجهه وصفا فلاح كأنه بلور
قد كاد يمكن عند ظني أنه بالماس يوشر منه لي موشور
وتسلسلت في الروض منه جداول بين الزهور كأنهن سطور
حيث الغصون مع النسيم موائل فكأنهن معاطف وخصور

* *

ماذا أقول بروضة عن وصفها يعيا البيان ويعجز التعبير
عني الربيع بوشيها فتنوعت للعين أنوار بها وزهور
مثلت بها الاغصان وهي منابر وتلت بها الخطباء وهي طيور
متعطر فيها النسيم كأنما جيب النسيم على الشذا مزرور
للنرجس المطلول ترنو أعين فيها وتبسم للاقاح ثغور
تخذت خزاماها البنفسج خدنها وغدا يشير لوردها المنثور
وكأن محمر الشقيق وحوله في الروض زهر الياسمين يمور
شمع توقد في زجاج أحمر فغدا حواليه الفراش يدور

* *

وتروق من بعد بها فوارة ... في الجو يدفق ماؤها ويفور
يحكي عمود الماء فيها آخذا ... صعدا عمود الصبح حين ينير
ناديت لما ان رأيت صفاءه ... والنور فيه مغلغل مكسور
هل ذاك ذوب الماس يجمد صاعدا ... أم قد تجسم في الهواء النور
تتناثر القطرات في اطرافها ... فكأنما هي لؤلؤ منثور
ينحل فيها النور حتى قد ترى ... قوس السحاب لها بها تصوير

* * *

كم قد لبست بها الضحى من روضة ... فيها علتني نضرة وسرور
فاجلت في الازهار لحظ تعجبي ... ولفكرتي بصفاتهن مرور
فنظرتهن تحيرا ونظرنني ... حتى كلانا ناظر منظور
فكأن طرف الزهر ثمة ساحر ... لما رنا وكأنني مسحور
ان الزهور تكنهن براعم ... مثل العلوم تجنهن صدور
وتضوع النفحات منها مثله ... تبيينها للناس والتقرير
وبتلك قلب الجهل مصدوع كما ... ثوب الهموم بهذه مطرور
والزهر ينبته السحاب بمائه ... كالعلم ينبت غرسه التفكير
ان كان هذا في الحدائق بهجة ... يزهو فذلك في النهى تنوير
او كان هذا لا يدوم فان ذا ... ليدوم ما دامت تكر عصور

بغداد ... معروف الرصافي

مطبوعات ومخطوطات

سياحة في تركستان او بلاد كشغر

Chinesisch-Turkestan, Geschichte, Verwaltung Geistesleben und Wirtschaft von Prof Dr Martin Hartmann / Halle-1908/

نشر الاستاذ هارتمان من علماء المشرقيات الالمان سياحة له بالالمانية الى بلاد كشغر او تركستان وصف فيها جغرافية تلك البلاد وحكوماتها السالفة وطرقها وعلائقها مع الامم وتاريخها القديم والحديث وادارتها الصينية وما كان له من الصلات مع موظفيها وعلاقة الكشغر بين بالاجانب ولغتهم وآدابهم ودينهم وتعليمهم ودروسهم وارتقاءهم العقلي. والسارتيين والمبشرين الاوربيين من الانكليز والسويديين والالمان وصادرات تلك البلاد وارداتها وتجارتها وما يرجى لها من التقدم وقد جعل كتابه هذا لخدمة امته في سياستها وتجارتها فوجه انظار حكومته ومواطنيه لبلاد خاضعة بالاسم للصين ولكنها تخالفها من حيث اصول سكانها ولغتها ودينها. وبلاد تركستان الصينية او كشغر التي عليها زمن كانت فيه مستقلة منذ بضعة قرون على عهد سلاطين ويغور اما اليوم فان الاسلام قتل فيها على رأيه حياتها العقلية والصناعية فليس فيها ما تستطيع ان تنهض به وحدها وتستعيد سالف استقلالها. فاصبح من اللازم انشاء مملكة حسنة الادارة في تلك البلاد بين آسيا الشرقية وآسيا الغربية اي في طريق الحرير وما من دولة اوربية تحدثها نفسها في الاستيلاء على تلك البلاد لان روسيا ضعيفة وانكلترا لها من المشاغل بغيرها ما يصدها عن اكتساحها والصين ليس في وسعها ان ترمي بقسم من شعبها ثمت وان تجعل لها جيشاً ضخماً من ابنائها يكون على قدم الدفاع عنها وهي عارفة بان مركزها فيها مقلقل. ولذلك احتاجت بلاد كشغر الى التغريب لينهضها من كبوتها.

ولو كان فيها بعض الاهلين من المسيحيين لكان المرسلون المسيحيون ينفعون البلاد كما هو الحال في سورية ولكن الشعب هناك مسلم كله فليس في الامكان ان يدعى الى النصرانية لما ان ذلك يهيج تعصبه ولا يأتي بنتيجة. ومن خرج من الاسلام فجزاؤه القتل عند المسلمين. فليس اذاً غير المرسلين البروسيين يعرفون من اين تؤكل الكتف ويتخذون طريقة توصل الى المقصود فلا يدعون الى الدين بل يتوفرون فقط على تقوية التجارة والصناعات.

وستجد المانيا في تلك البلاد مصارف مهمة لتجارتها تنتفع بها كل الانتفاع ولاسيما اذا

كانت اول ذاهبة اليها على شرط ان تؤسس فيها مملكة مستقلة تحت حماية الصين لا يكون الاسلام دين حكومتها الرسمي بل تكون على الحياد تجري فيها الحرية المطلقة على اصولها لجميع النحل والملل وتتعاهد الدول بينها على ضمانة ذلك كله · والترك التاتارهناك قدافسدهم الحشيش والقمار فلا يستطيعون ادارة البلاد بل تكون الادارة بيدالقرغيز وهم اكثر عدداً واكثر متانة وقوة وليس عندهم اثر للتعصب ا·ج

الترغيب والترهيب

طبع هذا الكتاب الجيد التأليف في الهند وهو من تأليف الامام الحافظ زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري المتوفى سنه ٦٥٦ واعادطبعه الآن احمد ناجي افندي الجمالي ومحمد امين افندي الخانجي الكتبي واخوه فجاء في مجلدين من القطع الكبير تبلغ صفحاتهما معاً زهاء ٦٦٠ صفحة وقد قسمه مؤلفه الى ابواب كثيرة تدور على ماورد في الترغيب والترهيب صريحاً بدون ذكر الاسانيد المطولة وميز بين الاحاديث الصحيحة والحسنة او ماقاربها وبين ما كان اسناده ضعيفاً وان كان من تقدم من العلماء اساغوا التساهل في انواع من الترغيب والترهيب حتى ان كثيراً ذكروا الموضوع ولم يبينوا حاله وقد استوعب فيه جميع ما كان متداولاً في كتب الحديث لعهده · وهو يطلب من طابعيه بالحلوجي بمصر ·

لامساسية

الاستاذ اغناس غولدسهير المجري من افراد علماء المشرقيات في اوربا اليوم عرف بابحاث كثيرة كتب بعضها بالالمانية وبعضها متعلق بالملل والنحل وامامنا الآن من ابحاثه الاخيرة رسالة في مسألة السامري وعجل الذهب وروايات الكتب السماوية والتاريخية فيها وقد نشرها في المجلة الافريقية باللغة الافرنسية اولا ثم افردها على حدة فجاءت شاهدة بسعة اطلاعه ·

دروس القراءة

اهدينا القسم الاول والقسم الثاني من هذه الدروس للشيخ محيي الدين الخياط محرر جريدتي بيروت والاقبال وفي القسم الاوّل خمسة فصول الفصل الهجائي والاخلاقي والفكاهي والحكمي والديني وفي القسم الثاني الفصل الاخلاقي والحيواني والفكاهي والحكمي والديني وكلها مشكولة بالشكل الكامل مطبوعة على نفقة محمد شاكر افندي ياسين طبعاً متقناً تسهل على الصغار القراءة من ايسر السبل فعساها تلاقي في المدارس اقبالاً

كشف الستار

صنف السيد احمد بك الحسيني الفقيه الاصولي المشهور نبذة في حكم القابض على المستجمر بالاحجار وانه لا تبطل صلاة حامل الصبي الا ان تحقق بنجاسة ثوبه واتى على ذلك بنصوص المتقدمين والمتأخرين عراقيين وخراسانيين وما رجحه في هذا الباب فجاءت رسالة مستوفاة في بابها ترفع الحرج عن المصلين وتشهد لمؤلفها بالفضل المبين وهي في نحو ١٨٠ صفحة مطبوعة طبعاً متقناً بمطبعة كردستان العلمية بالقاهرة على ورق جيد ٠

الانشاء العصري

طبع محمد عمر افندي نجا من ادباء بيروت كتابه الانشاء العصري طبعة ثانية مضيفاً اليها زيادات لم تكن في الاصل فتوسع في القسم التجاري منه فمثل اكثر قواعد كتاب التجارة في معاملاتهم واتى على جداول الاوزان والقياسات وقيم النقود المتداولة في العالم وذيل ابواب المعاملات في احكامها الشرعية والقانونية فكانت الزيادة في صفحات الكتاب ١٧١ فاصبح اربعمائة صفحة متوسطة الحجم مطبوعاً في المطبعة الاهلية طبعاً متقناً وفي الكتاب رسائل تجارية واخوانية ورسمية وغيرها وانموذجات من المعاملات واكثرها من اصطلاح سورية بالطبع وهذا الكتاب في بابه مستوفي الشروط فنثني على همة مؤلفه وهو يطلب من المكاتب الشهيرة بمصر والشام وثمنه هنا سبعة قروش ٠

المقصور والممدود

هذا الكتاب تأليف ابي العباس احمد بن محمد بن الوليد بن ولاد النحوي المتوفى سنة ٣٣٢ طبع للمرة الاولى في اوربا واعاد طبعه الآن محل محمد امين افندي الخانجي وشركائه ٠ ذكر مؤلفه فيه من المقصور والممدود ما كان منه مقيساً وغير مقيس والفه على حروف المعجم مثال ذلك الثرا فانها تكتب على وجهين فالثرى من الندى مقصور يكتب بالياء لانهم يقولون في تثنيته ثريان يقال كأنه مطر التقى منه الثريان يريدون الثرى الظاهر والثرى الباطن وثري الكثيب يثرى فهو ثريان والثراء في كثرة المال ممدود ٠ والكتاب نافع للمشتغلين باللغة لانه يوفر عليهم عناء الرجوع الى المعاجم للتمييز بين المقصور والممدود من الاسماء اذا اشتبهت عليهم ٠

فن الرسم

نظم الشيخ حسين محمد الجمل ارجوزة في ١٦٠ بيتاً ضمنها قواعد فن الرسم والاملاء ليسهل حفظها على المبتدئين بالعربية قال إنه اقرأها التلاميذ حفظاً رفهاً فلم يقعوا بعد ذلك فيما كانوا يتخبطون فيه من الخطأ فنشكر له همته ٠

سير العلم والاجتماع

الجمعية الخيرية الاسلامية

اصدرت هذه الجمعية تقريرها عن سنة ١٩٠٨ جاء فيه ان املاكها بلغت ٨٠٥ فداناً و١٨ قيراطاً و٤ اسهم ودفعت كل ما كان باقياً عليها من ثمن اطيانها وبقي معها ٥٥٧٥ ج٠م وبلغ ريع اطيانها ٣٥٣٩ ج٠م وايرادها من اوقافها ٥٠٩ ج٠م وخصص لها في السنة الف جنيه من الاوقاف الخيرية اعانة وعدد مدارسها في القطر المصري ثمان فيها ١٣٣٨ تلميذاً منهم ٦٤٨ يتعلمون مجاناً وصرفت على مدارسها ٦٧٤٤ ج٠م وستنشىء مدرسة لتعليم الفقيرات الخدمة المنزلية وتربيهن التربية الادبية للخدمة في بيوت الاغنياء ووزعت في السنة الماضية ٩٤٥ ج٠م اعانات وعدد اعضائها الآن ٥٤٦ عضواً والمساعدين ٢٢١ وبلغ ايرادها من احتفالها السنوي ٢٤٤٨ وما تبرع به المحسنون ٥٩٧٠

وقف خيري

وقف احمد مظلوم باشا ناظر المالية المصرية وقرينته ١٧٥٠ فداناً من اجود اطيانهما وقصرهما برمل الاسكندرية على ذوي قرباهما ومن بعدهم الى جمعية العروة الوثقى لتصرف ريعه في شؤون التربية وخصصا للجمعية حصة يقدر ريعها بالف جنيه سنوياً تتناولها بعدهما.

مدرسة الفنون الجميلة

فتحت مدرسة الفنون الجميلة التي انشأها في القاهرة من ماله الامير يوسف كمال لتعليم التصوير والنقش وهي تسع ثلثمائة طالب وطالبة وقد دخل هذا القدر منهم لتعلم هذه الفنون التي هي بنت الحضارة والارتقاء .

ورق من تراب النفط

يصنعون الآن في ضواحي كاباك من اعمال ولاية مشيغان في الولايات المتحدة نوعاً من الورق بحيث لا تمضي ساعتان على وضع المادة المؤلف من هذا الورق حتى يخرج ورقاً للصر ارق من الورق المصنوع من الخشب واقل منه كلفة وهو لا ينفذ ولا يرشح ويصلح لوضع الفراء والاصواف فيقيها العث وغيره من الحشرات وقد اخذوا يصنعون منه علباً ومقويات يتطلبها باعة الفرو والثياب ولكن لونه ازرق وهم يحاولون ان يجعلوا منه نوعاً ابيض .

معدن جديد

اكتشف احد الفرنسيس معدناً جديداً اسمه البلانشيت La planchéite وهو

مركب من حامض الصوان ومادة أُخرى نحاسية ازرق اللون وهو موجود في بلاد الكونغو .

اساقفة الكثلكة

يبلغ عدد الكرادلة الكاثوليك الآن ٦١ كردينالاً منهم ٣٦ ايطالياً هذا مع ان ايطاليا ليس فيها سوى ٣٠ مليوناً ممن ينتحلون الكثلكة من مجموع ٢٣٠ مليوناً من الكاثوليك في العالم وللكثلكة ٦٠٥ اساقفة من الاوربيين منهم ٢٥٨ في ايطاليا على حين ليس من كاثوليك المانيا وفيها ٢٢ مليوناً منهم سوى ٢٥ اسقفاً .

ثروة روسيا

احصى احد المدققين ما دخل على روسيا من المال وما خرج منها في خلال السنة الماضية فكان مجموع ما دخل عليها من اموال القروض وغيرها من الواردات غير المقررة عشرة مليارات ومائتين واربعة ملايين روبل وصرفت عشرة مليارات واربعمائة وخمسة عشر مليوناً . وتبلغ ديونها تسعة مليارات وثمانمائة مليون روبل اي ٢٦ مليار فرنك انفقتها في ثلاثة فروع منها اربعة مليارات وستمائة مليون في سبيل الحروب الخارجية واصاب الحرب اليابانية منها مليارين ومنها ثلاثة مليارات على انشاء الخطوط الحديدية وابتياع بعض ما في بلادها منها واسلفت المصارف العقارية للاشراف والفلاحين ١٢٢٥ مليون روبل كما اعطت مليارين ثمن اراضي في سيبريا الى اصحابها المستعبدين وفي بلاد روسيا ٤٤ الف كيلومتر من السكك الحديدية ريعها السنوي ٦٥ مليون روبل وتعطي ١٢ر٢ في المئة من اصل المبلغ المستقرض لانشائها والباقي تدفعه الخزينة وتزيد واردات سككها حيناً عن آخر بزيادة سكانها وكثرة تنقلهم وجودة المستغلات . وتبلغ مساحة اراضيها الزراعية في اوروبا ٤٣٠ مليون هكتار منها ١٦٥ مليوناً للحكومة والمدن والاقطاعات وغيرها والاراضي في روسيا كثيرة والناس لا يشكون من قلتها بل من قلة توفر بعض الفلاحين على حسن الانتفاع بها . والفلاح الروسي اغنى فلاحي العالم بكثرة ما يملك من الاراضي واقلهم ثروة .

تربية الجنسين

مضت الاشهر الاخيرة والنزاع على اشده في الولايات المتحدة بين المعلمين والمعلمات للبحث عما اذا كان الانصاف يقضي بان ينال المعلمات من المشاهرات بقدر مايقبض المعلمون . ومعلوم ان الولايات المتحدة تصرف القسم الاعظم من واردات بلدياتها على التعليم . فقد كان سكان مدينة نيو يورك سنة ١٩٠٠ — ٣٤٣٧٢٠٢ وميزانيتها ١١٨٧٤٠٥٩٦ ريالاً

تنفق منها على المدارس ١٩٧٣١٦٢٩ والباقي على الدين العام والشرطة ورجال المطافيء والمستشفيات والملاجيء الخيرية وغيرها هذا ما عدا الخمسة ملايين ونصف ريال التي انفقتها تلك السنة على انشاء مدارس جديدة وكانت ميزانية فيلادلفيا في تلك السنة ٣٤٦٠٥٩٤٨ وعدد سكانها ٢٩٣٦٩٧ ؛ انفقت منها ٤١٨٦٠٠٠ على المدارس وكان سكان بوسطون في تلك السنة ٥٨٠٨٩٢ وميزانيتها عشرين مليون ريال خصصت منها ثلاثة ملايين للمدارس وعلى هذا فتنفق نيويورك التي ثار فيها النزاع بين المعلمين والمعلمات اكثر من جميع الولايات على المعارف فهي تصرف واحداً من ستة من وارداتها و بوسطون واحداً من سبعة وفيلادلفيا واحداً من ثمانية ·

ثم ان عدد المعلمات في اميركا اكثر من عدد المعلمين وما زال عددهن آخذاً بالازدياد اكثر فقد كان عدد المعلمين في الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ — ٧٧٥٢٩ معلماً وعدد المعلمات ١٢٢٩٨٦ فاصبح المعلمون سنة ١٩٠٤ — ١١٣٧٤٤ والمعلمات ٣٤١٤٩٨ وعدد المعلمين ان لم يكن في نقص فهو لا ينمو على العكس في عدد المعلمات فقد كان عددهن منذ ثلاث سنين يربي على عدد المعلمين ثلاثة اضعاف

قامت اثنا عشر الف معلمة في نيويورك يطالبن بحقوقهن قائلات « اذا تساوى العمل وجب ان تتساوى اجرته » فليس من العدل ان يعمل النساء في هذا المعنى كالرجال ولا ينلن من الاجور الا ثلث ما ينال الرجل واذا قدر لمن ان بلغت احداهن الدرجة الاولى تقبض ٢٥٠٠ دولار على حين يقبض الرجل ٣٠٠٠ فاضطرت حكومة نيويورك الى ان تجيبهن الى مطالبهن وزادت ثلاثة ملايين دولار على ميزانية معارفها وكانت عشرين مليون دولار في نيويورك وحده كما تقدم وقد نكأ مجلس الامة اولاً عن الموافقة على هذه الزيادة للمعلمات ورأى رفضه من الحكمة مخافة ان يتدرج ذلك الى الاعمال الاخرى التي تشارك فيها المرأة الرجل في تلك الديار و يقوم النساء يطالبن بزيادة فيختل نظام البلاد الاقتصادي الا انه لم يسعه بعد الاقرار على زيادة ميزانية المعارف الا ان يأخذ الرجال والنساء بحظ منها على السواء ·

كتب مفوض الولايات المتحدة في الإشراف على العمل والعمال سنة ١٨٩٦ تقريراً على ١٠٦٩ مركزاً في ثلاثين ولاية من ولايات اميركا جاء فيه ان النساء يربحن في المفاصل اقل من ٢٣ في المئة عن الرجال مع انهن يعملن عملاً واحداً وان النساء يقبضن ٢٤ في المئة اقل من الرجال في المطاعم و ٢٨ في معامل الاحذية و ٤٦ في صنع العلب و ٦١ من صنع الفرش والاثاث وفي معامل السكاكين ١١٦ في المئة والورق ١١٧ ومثلها في المخازن

والمكاتب وفي مكاتب الضمان ٢٩ في المائة وفي مكاتب الوكالات عن ادوات الخياطة ٦٦ في المئة . ولئن كانت الولايات المتحدة تزيد ميزانيتها في المعارف سنة عن سنة فان هذه الزيادة تصرف في الغالب في بناء مدارس نخيمة وابتياع ادوات فاخرة فقد بلغ ما صرفته الحكومة هناك على المصارف سنة ١٩٠٣ — ١٩٠٠٥٩٩٩١٩٠.٧١ ريالاً ولم يأخذ المدرسون والمدرسات سوى نحو ٣٦ مليون دولار . وتبين بالاحصاء ان اقبال الرجال على التعليم قلَّ بعد حرب اميركا مع اسبانيا ولم يعد يتمحض للتعليم الا من شغفوا به ورغبت النفوس عن اتخاذه حرفة للارتزاق بها وذلك لان المتعلم من الطراز الاول كاولئك الاساتذة قد يربح اضعاف ما يتناول من التدريس اذا انصرف للاعمال الحرة . وقلق رجال العلم في اميركا من دوام اقبال النساء على التدريس وانصراف وجوه الرجال عنه وقالوا بانه سيجيء زمن ينحصر التعليم في اميركا بايدي النساء وقال رؤساء الكليات ومديرو المدارس ونظارها ان تدريس الرجال ارقى من تعليم النساء . واثبتوا ان من الضروريات في التعليم البيان والنظام وان صبر المرأة ووجدانها وادراكها ربما كانت ارقى من طبيعة الطفل المتعلم ولكن كل هذه الصفات لا تجبر النقص المحسوس في اسلوبها في التعليم وذلك لان ضعفها المحسوس عن التفصيل يزيد هذا النقص استحكامًا ويجيء ضغثًا على ابالة فيما يتجلى في دروسها من الابهام

يقوم المدرسات في المدارس الابتدائية باعمالهن خير قيام لما ان الموضوع واضح في ذاته وما هو الا حروف وارقام ولكن اذا عهد اليهن تدريس النحو يوردن القاعدة وشواذها ويضعفن عن التبيان وتخونهن اساليب التفهيم وبيان الروابط بين الموضوعات وقد ظهر ان الفتيات يفضلن الاخذ عن المعلمين اذا اردن تعلمًا سليمًا بسيطًا والفتيان لا يؤثرون التخرج بالمعلمات واذا كانت الكتب المدرسية واضحة الاسلوب لا يقتضي لها الا ان تقرأها المعلمة فتقوم قراءتها مقام الشرح والعبارات المنطقية . ولكن كتب التدريس في اميركا اذا قوبل بينها وبين امثالها في المانيا وفرنسا يتبين انها احط بكثير .

ولا يجب ان يؤخذ من هذا بان الواجب ايصاد ابواب التعليم في وجوه النساء فان المرأة يحق لها ان تعيش كالرجل . ولكن ظهر ان النساء في البلاد الانكليزية السكسونية حيث نحت عزائمهن على منافسة الرجل لا يصلن الى المناصب السامية الا نادرًا وهذا مما يثبت ما هن عليه من الانحطاط العقلي . وانا نرى المرأة تنجح احيانًا اكثر من الرجل في الاعمال التي يكون الدافع اليها الغرام والهوى اكثر من إعمال الفكر والقوى كأن يكون منهن ممثلات ومغنيات يفقن الممثلين والمغنين ومنذ استولين على هذين الفرعين في اميركا وانكلترا انزلن درجة فن الادب فيهما وسبب نجاحهن بل تفردهن بهذين الفرعين ناشيء في الاغلب من

مسألة مالية وذلك لرضاهن بالقليل من المال على ما هو العكس في الرجال . وستلحق المانيا وانكلترا واميركا في هذا الشأن فيكون نساؤها قابضات على ازمة التمثيل والغناء فيها بعد قليل من الزمن . والعلوم التي تبرز فيها النساء حقيقة على صورة مدهشة هي الرياضيات لان موضوعها يعصمهن من الغلط وتدقيقهن فيها ناشيء من نفس الموضوع لا من قوة عقل المرأة .

وحريٌّ بالرجال في الشؤون العقلية على الاقل ان لا يحرموا من حقوقهم ولا دليل ينهض على هذه القضية اكثر من ان الاميركي فانه لم يأت بشيء خارق للعادة حتى الآن في عالم العلم وذلك لان المرأة تعده للسير في هذا السبيل قبل دخوله الكليات . وليس النساء مسئولات عن الميل في اهمال التهذيب المنظم للذاكرة ولكنهن لم يحاولن على ما نرى تعليم الولد طريقة صالحة في تصحيح الافكار اما من حيث الاخلاق فان تعليم النساء للرجال ليس طالع خير فمنذ سنين ذهب بضع مئات من الاساتذة والمعلمين الانكليز الى اميركا على نفقة المستر موسلي احد اغنياء الانكليز للبحث عن طريقة التربية في الولايات المتحدة ومما لاحظوه ملاحظة خاصة في تقريرهم تأثير التربية التي تربيها النساء الرجال واثرها المدهش في المجتمع الاميركي ونعني بهذا التأثير قلة اخلاق الرجولية فيه وما كانت ملاحظة تلك اللجنة هي الاولى من نوعها بل ان غير الاميركيين كثيرًا ما كانوا يدهشون مما يبدو لانظارهم من هذا القبيل

رجال الاميركان يعنون من وراء الغاية في المحافظة على الست وثلاثين الف قاعدة في مصطلحات المدنية الاجتماعية فيبالغون في التأنق بلباسهم مبالغة مفرطة ويدققون كل التدقيق في القيام باقل ما تقتضيه سنة الازياء ويرققون الفاظهم ترقيقًا يقربها ابدًا من التكلف ولا ينسب ذلك الا لتسليم مقاليد التربية للمرأة . ولو استطاع المرء ان يكون تامًا في هذا المعنى لما كان في ذلك بأس بل قد يحدث كثيرا ان المبالغة في التزيي والمنافسة في الحصول على صفات الظرف الذي لم تجعله الطبيعة من خصائص الرجل تعبث بمروءته ولكن اذا كانت اخلاقه من المتانة بحيث لا تفسد رجوليتها لا تلبث الرجولية ان تزيد فيه مستقلة عن كل تأثير من تأثيرات الحضارة ولا يكون تكلف الظرف واللطف الا ظواهر خادعة و بعد عن درك علاقة التمدن والتجمل في الحياة الاجتماعية بحياة الاعمال . وقد ادرك بعض الاميركان نتيجة هذه التربية النسائية وسجلوا شيئًا من سيئاتها متى جاوزت حد القراءة والكتابة والحساب . ومن سوء اثر هذه التربية في الاميركان ان الرجل يرى نفسه احط من المرأة مهما تصنع لها و يرى من كرمها انها تعطف عليه وهكذا حتى اصبح المجتمع الاميركي انثويًا فيه من ضروب التكلف والغرابة اشكال والوان — انتهى ملخصًا من مقالة لاحد علماء فرنسا

المقتبس

الجزء الثامن من المجلد الثالث

شعبان سنة ١٣٢٦ موافق سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٨

صدور المشارقة والمغاربة

مومسن

حدث في اوربا منذ عام ١٨٢٥ بما تجدد في الحياة الاقتصادية من النواميس انقلاب هائل بفضل تمديد الاسلاك البرقية وتمهيد الطرق الحديدية وتكاثر الآلات الميكانيكية واستخدامها في العمليات اكثر من النظريات فقامت الصناعة والتجارة والطرق البحرية والسكك الحديدية والبواخر والمرافيء والترع والمعامل والمصنوعات والمستودعات بل وكل ما يُدعى بلسان الاقتصاد الصناعات الكبرى واخذت كلها تظهر على الولاء بظهور الافكار والآثار . حدث هذا الانقلاب في المانيا بعد ان تأخر قليلاً اي بعد عام ١٨٤٠ قال هنري تريتشك : « كانت الانتخابات في ذلك الزمن والمناقشات في الامور الادارية مطمح انظار الرجال وموضوع تأملهم حتى جفت الحياة العائلية او كادت ... اما النساء فانهن اخذن بالاشرئباب الى الدخول في الاعمال التي كان قبض عليها الرجال الى ذاك الحين وتتطالمن للتنقيب عن السبيل المؤدية بهن الى مضارعتهم ضاربات صفحاً عن دعوى ما يحدث مما اتصفن به من صفات الانوثة وحدها فقط من التأثير في حياة المجتمع الانساني . وقد كانت ايقظت المطبوعات العامة والآداب في الخلق لذة العمل والهمة والثبات حتى ان ميزات ذلك الزمن العظيمة قد تمثلت في الاثاث والرياش »

وقع هذا الانقلاب في حياة الشعب العلمية والفكرية والصناعية ايضاً ايام كانت المانيا

مدينة الفلسفة والاديبات والعلوم التاريخية فقط وكان لها بعض الصيت في فروع العلوم الطبيعية الاخرى .

فلم يمض على الالمانيين بعد ان وجهوا نحو هذه العلوم وجهة السعي والتفكير حقبة من الزمن حتى اخذوا منها السهم الاوفر فبزوا بها و برزوا واتيح لفريق منهم بعض ما هو جدير بالدهشة من المخترعات والمكتشفات : فاظهر من مستحضر " Giessn " واعني ذلك المكتشف المهم في تحولات المادة العضوية بدل نواميس الحياة وما وجده « دود » من ناموس سير الرياح في الفلسفة الطبيعية كان أساً لعلم الظواهر الجوية الجديد .

وتبدلت الفلسفة ايضاً تبدلاً كبيراً فقد بدأت اولاً بتعديل نظريات الفيلسوف هيكل بعض التعديل باخراجها من دائرة الفلسفة المحضة على ايدي تلاميذه الافاضل وتطبيقها على الحياة العامة . وعلى اثر هذا اخذ ماشوت ينظر في قوى الدماغ وحركاته حتى وفق الى تحليله تحليلاً كيماوياً وقام العالم كارل فوغت واسس قبل داروين مذهب التحول « ترانسفورميزم » في كتابه اوقيانوس والبحر بينما كان داود استراوس يحدث ثورة هائلة بمصنفه حياة عيسى وتداول نظريات ديدرو وهلوشيوس المادية وانفرد ناظراً في الجزء الفرد والهيولى وأثار العالم فوئرباخ في ذاك الزمن عالم البابوية بمؤلفه المسمى حقيقة النصرانية .

هذه هي نسمات الافكار التي كانت تهب في عامة انحاء المانيا والآداب اول ما استهدفت لمؤثراتها فقد حل محل ذلك الجيل الخيالي جيل مفتتن بالحقائق غير المجردة مولع بالوقائع والحادثات الطبيعية وهو الجيل المادي الذي لا يعرف غير التحقيق مشرباً .

وانك لترى حينئذ الاديبات الخيالية اشبه بألهية بسيطة يتلهى بها الفتيات وقد نضبت مياه الشعر المترقرقة وجف نبعه السيال .

***

اعظم ادباء هذا الدور غستاف فريتغ الذي كان نابغة في بث روح الحقيقة على ما هي عليه فيما كان يرويه عن سذاجة حياة الطبقة الوسطى من الناس في قصصه الهزلية ورواياته وكثيراً ما كان يكافح مذهب الخياليين Romantisme

ولقد هم فريتغ بالقضاء على هذا المذهب فقام واسس في ليبسيك بمعونة صديقه جوليان اشميد مجلة تدعى : كرانزتدن وكانت صبغة هذه المجلة سياسية ونزعتها بروسية علناً

دخل غستاف فريتغ عالم الكتابة عام ١٨٤٤ بمؤلفه القصصي المسمى « العالم » وهو عبارة عن سلسلة ابحاث في التربية العامة . وكان رجلاً من اقوياء الفكر وعباد الحقائق غيوراً ليس في نفسه اثر للرحمة في مقاومة ما بطل من الافكار والخيالات وبه اصبحت بلدة

لبسيك مركزاً نارياً لاذاعة الدعوة البروسية ونشرها في الانحاء فاجتمع حول مجلته عام ١٨٤٨ شرذمة من اولي الفضل الواسع ممن يحبون بروسيا واوضاعها حباً جماً

.ومنهم فوءدال وكاتوليك اللذان شهرا على مذهب الخياليين حرباً عواناً ادارت رحاها الاقلام وازمعا كما قال اشميد ان يبترا تلك القطع الفاسدة من آداب الالمان وينبذاها نبذ النواة فكانا يجدان في ان يكتب القول الفصل للسياسة البروسية في كل صقع آتيين على كل ما فيه اثر التصنع ومسحة التكلف والتمحل وغير ذلك مما كانا يعدانه من الآفات الجتاحة لعواطف الجرمان واخلاقهم ومباينًا لسعادة الامة وحسن نظامها . وعندهما ان لبروسيا فكرًا سيحمل الى ماضيها تاريخ مجد موئثل بالرغم من مقاطعاتها الناقصة وحدودها المتنائية . ولهذا فان الالمانيين راغبون من اجل سعادتهم عامة وسلامتهم في اعلاء اسم الجرمان باتحادهم تحت لواء تقدم بروسيا نابذين امتيازاتهم وشعورهم الشخصي ظهريًا . ولما اثنى فريتغ لاول مرة في لبسيك على مهمة بروسيا وموقعها من المانيا حول قسم كبير من منوري الافكار في المانيا انظارهم نحو بروسيا التي كانت جندية الحلية اريستوكراتية المنزع غير منكرين فيما يتخلل نظرياتهم السياسية ومذاهبهم من التناقض على ان الفرق طفيف جدًا بين عالم الالمان — ذلك الجيل الناشيء على افكار داروين واستراوس الفلسفية وبين جنود بروسيا : فكلاهما مولع في النقاط الحقيقة ومن ذوي القوة والبطش والاقتدار . اما بروسيا فقد كانت هيئة مسيطرة على ضروب المذهب الحقيقي : على السياسيات والادارة والجندية والاقتصاد وبالجملة فقد كانت متشبعة الروح بجميع انواع مذهب الحقيقيين . وامتازت بخصلة هي فوق ذلك كله وهي انها كانت تحس بوجود ميل خارق لسحق الفرنسيس كلما اقتربت منهم .

ذلك هو الفكر الذي جال في خاطر طلاب كتابة المانيا الجديدة « بروسيا » منذ عام ١٨٥٠ واول من كان موفقًا لايفاء هذه الوظيفة على غاية ما يمكن ان يكون من الاتقان والكمال المؤرخ « مومسن » :

تيودور مومسن من اغرب الالمانيين خلقًا وخُلقًا اجتمعت في نفسه الاضداد باجمعها فهو عالم كبير كما هو خيالي كبير ومع هذا فقد كان يوصي الناشئة الجديدة في ان يتلقوا ماله من الخيالات نموذجًا ليس من ورائها فائدة تذكر . وهو ديمقراطي على حين لم يوفق احد الى خدمة المذهب القيصري « سزاريزم » تماثل ما عمله في مصنفه تاريخ رومية . ولد عام ١٨١٧ (ومات سنة ١٩٠٣) في مقاطعة غاردينغ من اعمال شلزويق حيث كان ابوه راهبًا . ونشأ على هذه القطعة الساحلية الغربية التي كانت ترى ببراعيها الواسعة وحقولها الشاسعة ذات غضار

ونضارة من الداخل اشبه بلون بحيرةٍ تضطرب بأمواج كالجبال من الخارج واذا عملنا بآراء احد القائلين بمذهب تين من المؤرخين كان من تنفجر عنهم الحياة في محيط كهذا مكتئبين مكدرين في حين كان مومسن من ابدع أنموذجات الابداع البشري حياةً وابتهاجاً وابتساماً . والصحيح ان هذه النموذجات غير نادرة في المانيا .

يظن الفرنسيس ان اقليم البلاد الشمالية البارد الذي يتخلل سكونه حزن مهيب يلد اناساً قد لعبت بهم الهموم وتقسمتهم الغموم على العكس في اقليم البلاد الجنوبية الزاهر المستنير باشعة الشمس المشرقة فانه يلد عنصراً خفيفاً ارعن . والحال ان عكس هذا في الغالب واقع في المانيا ولا سيما في الجنوب فان في صحاري سواب الخصبة المعشبة وفي الكروم التي تروى بنهري الرين وموزل قد نشأت عقول واسعة رصينة وفي وسعها ان تحيط بالعالم باسره . والشعراء الذين نبغوا ثمة قد تغنوا بماهية حياة الجرمان وحقيقتها باناشيد لطيفة خفيفة غير انها ثقيلة الاوزان . اما في الانحاء الشمالية فان صحاري بوميرانيا وبراندنبورغ المبتورة حدودها قد انشأت قادة عاملين وساسة جسورين وكانت هنا حتى الاديبات تلعب بها اميال الحرب والجدال وسرعان ما كانت تدخل في شكل المعارضة .

مومسن هذا من نابتة ذاك الجنس اذا رأيته رأيت رجلاً مقداماً ان تحرك فكأنما يتهيء لعمل جديد . وانه بسيمائه العصبي الذي ينم عن كل خير وعينيه اللتين تبرق منهما اشعة الحيلة والمكر وشفتيه اللتين ترتسم عليهما ابتسامة الاستخفاف والاستهزاء يذكر بفولتير العظيم وهو ببعض اطواره المنبعثة منها عوامل القسوة والغدر حتى في حالة السرور والنشاط وبوجهه الذي نال منه المقراض فلم يبق ولم يذر اشبه بمولتكه القائد حذو القذة بالقذة . اما سيماؤه الذي يتراءى من خلال مصنفاته فهو عبارة عن شخصية غريبة مؤلفة من طبيعة متسرعة منفعلة متوقدة اي من حدة المزاج ممزوجة بطبيعة اخرى حقيقية ماهرة في استخراج المغالطات المادية العملية ونفخ المناطيد التي وسع نطاقها حب التفاخر والغرور

***

في مومسن شخصان لايجتمعان كل الاجتماع ولا يفترقان : عالم وصانع . ولا شبهة في ان العالم مومسن هو من خوارق القرن التاسع عشر ومن اعظم من هم جديرون بالتجلة والاحترام فان معارفه وسعة اطلاعه منوعة تنوعاً غريباً وانك لترى مجلته التي رأسها خمسين سنة وطاباً حفل بما لا يكاد يتناهى من الكتابات في تلك الموضوعات المختلفة كآثار رومية القديمة وعلم الالسنة وعلم المخطوطات وعلم المسكوكات والحقوق وعلم الاساطير هذا عدا نه العظيم الذي جمع فاوعى من التدقيق والتحقيق العلمي الواسع وغزارة المادة وجودة

المصادر مما اهله لبلوغ اقصى درجات الارتقاء . ولقد كانت للمترجم به ملكة كبيرة وقدرة باهرة في قراءة الالسنة القديمة الميتة ومؤلفاته برمتها شهادة ناطقة بالبرهان على انه كان موسوعة من موسوعات العلوم .

كان مومسن يرى مع من يرى ان العلم غير منحصر في دائرة محدودة وانه عام مشاع . لهذا كان لا يستحسن تهافت الالمانيين على تعميم فكر الاخصاء ولا يقيم لتهالكهم على انتشاره وزناً . فقد قال في خطاب اورده في مؤتمر برلين العلمي في اللغة اللاتينية : « الاخصاء في فرع من العلوم فقط واجب ولكن ليس من الواجب الاقتصار على ذلك الفرع والضرب دون غيره باسداد بل يجب على الطالب السعي لان تتوفر لديه المعارف في هذا الفرع وان يصيب حظاً من كل شيء ... فما اصغر هذه الكرة الارضية واحقرها في نظر من لا يرون غير كتاب اليونان واللاتين وطبقات الارض والمسائل الرياضية في هذا العالم الفسيح ! ... »

ومن غريب التضاد كون مومسن مفتناً خيالياً مع سعة اطلاعه العلمي المدهش . وانك لتذهل عند ما ترى هذا الرجل في نفس الامر الذي يحمل تلك الجبهة ذات القوة والتؤدة والوقار من الشعراء المتأثرين . غير انه ليس نظير ميشله المؤرخ الفرنسوي الشهير تأخذه الهزة والانفعال لكل جميل فهو لا تأخذه رحمة وشفقة لآلام من يفترشون الارض ويلتحفون السماء من بني آدم ولكنه صاحب عقل متأثر لا يتبين الا بمتانته وقوة دهائه فقط في هذا العالم وهو من اجل الاشياء التي تنثر ضياء وشررا اشد ما يكون احتداماً وهياماً .

كان من المحتمل بقاء غرائز مومسن في العلم والصناعة طي الخفاء لولا ان قيض الله لها رجلاً في برلين عام ١٨٥٠ يعنى بنشر المؤلفات فرغب اليه كتابة تاريخ لرومية اذ كان يبحث عن كاتب يشغله في كتابة امهات التاريخ . فاصاب ذلك الرجل المرمى في اختياره هذا لان المترجم من المشاهير الباحثين المدققين ارباب الاطلاع على تاريخ رومية . ومن المعلوم ان اساطين العلم لا يقدمون في الغالب على تأليف كتب تتناولها الايدي عامة وتتداولها الطبقات كافة . وقد حصلت له ملكة سامية جداً عند ما كان يعاني من صناعة الصحافة ما يعاني ولهذا ظهر تاريخ رومية مؤلفاً ثميناً . وليس مومسن من تلك الطائفة الشائخة اساتذة الجرمان التي اتخذت العلوم المنتسبة اليها ديدنها وقضت حياتها وقفاً خالصاً عليها بل هو اشد ما يكون تأثراً وانفعالاً للمسائل العامة .

ربي مومسن في كلية كيل فجهزته بجهاز حب بلاده حباً جماً ولطالما قرّع اولئك الذين يقولون انه يجري في عروقه الدم الدانيماركي بقوله : « ان من يدعون ان مدينتي شلزويق وهولستاين ليستا من تراب المانيا هم في الحقيقة معتوهون مفتونون . ولم يدخل مومسن في

السياسية خلال سنة ١٨٤٨ وهو وان لم يحضر بصفة عضو رسمي في مؤتمر فرانكفورت فقد كان من ادهش المحامين عن حقوق الافراد في ذلك الحين . فقد دافع اشهراً عن قواعد السياسة الحرة وانقطع هو ورفيقان له في مدينة زوريخ من اعمال سويسرا عند ما نُحي عن منصب تدريس حقوق رومية وكان استاذاً له في كلية ليبسيك عام ١٨٥١ ولم يعتم ان أُعيد كرسي التعليم ثمة واصبح يشتغل بتدريس ذلك الدرس نفسه زهاء سنتين . وفي عام ١٨٥٤ غادر سويسرا بدعوة من حكومة بروسيا الى كلية برسلو . وكان يرجو دائماً تقدم شبان هذه المملكة ولطالما قال : « ان حياة بروسيا تتوقف كل التوقف على سلوكها سبيل التقدم الذي مهده لها فريدريك الكبير » .

هذا وان بين مومسن و بين ابناء صناعته فرقاً بعيداً وذلك انه ظل صادقاً مستقيماً حتى نهاية زهو شبابه ولم يكن ليحفل مثلهم بفخفخة ما اتاه من امارات النصر ولا عظمة ما ناله من بوارق التوفيق

***

كان بدء احتفاظ مومسن بافكاره على ما شوهد اشد الاحتفاظ بين سنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ والامر الذي كان يتطلبه هو ان تكون المانيا عظيماً سلطانها منيعاً جانبها تضيء باشعتها العلمية العالم التمدن باسره . ومما حكاه : « ان تلك الشؤون السياسية قد شغلت حتى علماء المملكة سنين كثيرة . وهذا وان كان يستند على اسباب معقولة مشروعة غير انه حان زمن الاقدام والرجوع الى الاعمال بعد ما تبينت نتيجة كل شيء ... » وكان يقول : « من الواجب معالجة ينابيع قوى المانيا بالقوة وتوسيع نطاق علوم الالمان وكشف غطائها بالعمل » ولطالما حقر مومسن اولئك المتعصبين الذين كانوا يناهضون الموسويين بابلغ ما يمكن تصوره من عبارات التحقير عاداً انواع هذه المبارزات الجنسية والدينية من رجوع القهقرى لاظلم ايام القرون الوسطى واشدها اسىً وبؤساً . فمن ثم ندد ببعض ضعاف الفكر من حسدة حزب الوطنيين مبيناً بطلان دعاوي تلك الفئة الواهية الواهنة ممن ادعوا بان الموسويين عقبة كؤد في سبيل تكوين امة قوية المنعة مصونة الحمى و يبين بمستندات تاريخية جمة انهم مستعدون لكل ضروب التقدم والارتقاء وانهم على العكس مما يظنون . وانتقد سياسة بسمرك انتقاداً شديداً فحاكمه الوزير الى المحاكم فحكمت ببراءة ساحته وكان عضواً في مجلس الامة

ليس بين المؤرخين من يقاس بمومسن في تحبير الصفحات التاريخية العظيمة او تحريرها غير ارنست رنان فقط . فتلك التصورات الواسعة واحدة والنسبة فيما بينهما واحدة كما ان قوتهما في البيان والاداء سواء . اما المهارة في اشراب روح الحياة للاشياء كما كانت

باظهار دقائق التفاصيل والفروع الواسعة التي من شأنها ان تبقى في الحافظة منقوشة فواحدة ايضاً في المؤرخين مومسن ورنان ·

ولما كان مومسن ايضاً كسائر مؤرخي الالمان المتفرعين عن نيبور يهتم كثيراً بحياة الامم الشخصية وكيفية نشوئها وانتشارها فانه وجد تاريخ رومية مساعداً كثيراً لايفاء هذا المقصد الذي يتوخاه · ولما حل مسألة الوطنية ووضعها رغب في تعليمها معاصريه وكان مثل هيبولت تين يستمد من المخترعات العلمية والمكتشفات الفنية بأجمعها لان تقدم العلوم ولا سيما ما يتعلق منها بعلم الحياة قد ساعد التاريخ كثيراً · فقد نقب مومسن اولاً عن بعض ما خصت به ولم يقبل ما في مذهب تين من المادية البحتة بل ولا جميع افكار المؤرخين في هذا الباب ومن جملتها امكان استخراج خصوصيات امةٍ من اخلاقها الخاصة بها بل من الامور التي هي من قبيل الاسباب المادية كالتراب والهواء ونمط الغذاء ·

وكان نظره متجهاً نحو « الحجرة الابتدائية » للامة الرومانية لان بها فقط امكن لرومية ان تحكم ايطاليا فالعالم اجمع · فاجتهد في كشف اسرار الرومانيين وسبب تفوقهم على الامم القديمة متخذاً ذلك له اساساً متيناً فاذا اراد تعليل فوز الرومانيين وغلبتهم يبدأ في اظهار ذكاء هذا الجنس البراق وما فطر عليه من حب الاقدام والعمل وما يشعر به من تقديس الواجبات والقيام بها حق القيام وهكذا بعد ان تتبع كما رأيت احوال الامة الروحية في سائر مظاهرها ايام كانت عروق الحياة تنبض في جسمها وهو راغب في ان يجلو تاريخه على هذه الافكار كلها ثم يزفه للناظرين

على هذه الاصول نفسها جرى تين ايضاً في عامة مؤلفاته الانتقادية المهمة ولا سيما تاريخ ادبيات انكلترا · وهذا الاسلوب من جياد الاساليب غير ان له محذوراً واحداً وهو ان الحادثات تلد طبيعية والرابطة التي في خلالها تأخذ شكلاً منطقياً متسلسلاً بحيث يخيل ان هذه كلها قد اعدت من ذي قبل والنصر المتوالي الذي بدأ من ابواب رومية ثم وقف في اقصى تخوم العالم المتمدن يشبه مصوَّراً «خارطة» قد رسمت بداءة بدء وعول فيما بعد على ادخالها الى حيز العمل

فالمترجم نظر الى تاريخ رومية من نقطة سياسية تماماً و يشاهد ما بذله من العناية في جماع مظاهر الحياة القومية للنظرة الاولى · وفصول كتابه في الزراعة والتجارة والصناعة والآداب اجمع ما كتب في مثل هاته الموضوعات حتى الآن · ومما كان يرتئيه ان السياسة هي اهم واسطة لبيان احوال حياة الامم وهي التي تحدث تجديداً وانقلاباً في جميع الشؤون

لتتبع التاريخ السياسي وتدقيقه خطتان الاولى : خطة توكفيل الفلسفية وهي عبارة

اتخاذ اوضاع الامة وقوانينها المادية والفكرية اساساً والعمل على كشف اسرار تولدها ونتائجها اكثر من النظر في حوادثها وكائناتها ويصح ان يقال ان هذه الخطة علمية لان الكاتب لا يظهر نفوره او ارتياحه لحالة سياسية معينة . ومن ثم كان ذلك المؤلف غيرياً لا انانياً . والثانية تعليل الحوادث التاريخية ببعض افكار تنطبق على آراء سياسية واجتماعية او دينية وبها يختلف التاريخ حسب النظر ووجهته .

ولقد وقى مؤرخو الالمان انفسهم في الربع الاول من القرن التاسع عشر من هذا الاسلوب التاريخي الذي اتخذه كتاب الانكليز والفرنسيس مثالا يحتذونه . وهذا نيبور ورانك المؤرخان الالمانيان يصفان الوقائع التاريخية ويصورانها دون ان تشتم من تضاعيف سطورهما رائحة تحزب او تعصب بتاتاً .

وفي عام ١٨٥٠ نشأ صنف من المؤرخين على غير تلك الطريقة والسبب في ذلك اجتماع طائفة من الاساتذة الافاضل في مؤتمر فرانكفورت واشتغالهم بالسياسة بعض الاشتغال حتى اذا ما نقلوا مشاغلهم الخارجية الى ارائك تدريسهم اخذوا يضعون موضع المذاكرة والبحث هاته الاحوال السياسية الحاضرة التي اورثت المسائل السياسية الغابرة تلك الاطماع وذلك هو نتيجة الثورة السياسية سنة ١٨٤٨

وهاهو ذا مومسن قد حاز الاولية بين فريق هؤلاء المؤرخين هذا الرجل الذى كان يتخيل حينما يكتب تاريخه ان تعليلاته تنطبق على التجارب الماضية على حين ان القسم الاعظم منها كان ناشئاً في الغالب من شعوره الذاتي وتابعاً لاحوال محيطه وقوته المخيلة

زبدة فلسفة تاريخ مومسن « براز في سبيل الحياة » براز دائم من اجل تكوين جامعة سياسية وضمان عظمة قومية . وعنده ان تاريخ رومية يمكن تلخيصه بعدة فتن وحروب بدأت فيما فرط باعداد الجيوش وسوقها كما بنيت على اساس تجاري ودولة رومية الزراعية التجارية التي تحيط بها قبائل الاعداء من كل ناحية وجهة تحارب اولاً صوناً لتجارتها من ان تبور حتى اذا ما انصبغت السياسة اذ ذاك بصبغة حكومة مطلقة تعمل على التهام ما حولها مما لا يزال فتيا .

وكثيراً ما تجد مومسن يرجع الى هذا ناموس حياة الامم فيعتبره بمثابة ناموس الثقل في موقعه ومساس الحاجة اليه . وكان يقول : « لما كان المقصود الاعظم من التاريخ المدنية والمدنية تعمل على تشذيب ما ليس فيه قابلية للنمو واستعداد للنشوء من الاغصان كما ينبغي كانت الحرب عبارة عن آلة جسيمة من الاصلاح لانشاء الرقي العام وان سعادة مملكة ليتوقف على تبدل مبارزاتها الى حروب ! . . . »

الا وان فلسفة تاريخ كهذي تناسب جداً حال امة — بروسيا — تحارب نفسها بنفسها مرات ثلاثاً متتالية وتساعد كثيراً على تعميم الرقي والتقدم في المانيا اولا ثم في اوربا والعالم اجمع . ومع هذا فالمترجم لا يفهم صوته الى صوت الفيلسوف هيكل في قوله : « ان وراء كل حرب فكراً اخلاقياً والقوة والفضيلة « لفظتان مترادفتان » ولا هو ايضاً من ارباب الاشتغال بالاخلاق . وكان يقول بهذا الناموس التاريخي : « الحق مع القوة والتاريخ يكسر في مهب عواصفه العاتية الامم التي لا صلابة فيها ولا مرونة كسر الفولاذ دون ان يشعر بأثر رحمة او شفقة مطلقاً »

هذه هي نظرياته التاريخية التي يظل الانسان حائراً حينما يرى انها وامثالها يدافع عنها ويحامي في وطن رجل مثل ذلك الفيلسوف كانت . لكن مظهر المانيا عام ١٨٥٠ تغير عما كان عليه على عهد الفيلسوفين العظيمين فيختي وكانت . اذ ان فلاسفتها المحدثين اروها ان الاحوال والمواقع في تبدل دائم وان قيمة الحقوق نسبية والقابض على ازمتها هي « القوة » فقط . ذلك هو ناموس العام الذي ليس في امكاننا مهما احسنا النقد نقضه او تبديله . وناهيك بناموس كانت فلسفة بسمارك بأسرها عبارة عنه .

اول درس رغب مومسن في القائه على مواطنيه وصيته العظيمة : « لا تكونوا بلهاً اغراراً » ولقد تحققت امنيته تلك . فان الجنس الذي اوجد بسمارك لا يمكن ان ينسب اليه بله او غباوة في حال من الاحوال . وان تقدم امة الجرمان ليصادم النظر في اغلب فصول كتابه فبينا هو يبحث عن الغاليين مثلاً اذ يشرع في وصفهم بقوله : انهم شعراء اذكياء ذوو قلوب صافية سرائرها وليس بهم قوة ولا طاقة غير انهم طائشون يرتاعون من العمل في الحقول والمزارع ويرتاحون للحانات والعربدة ويعتبرون قسيسهم اباً ومنه يرجون النصح في كل شيء . وكان مومسن لا يحب الفرنسويين بتة ومن اجل هذا فانه حيا تلك المعركة التي نشبت سنة ١٨٧٠ على انها للالمانيين مخلصاً لهم يحررهم من داء تقليد فرنسا . وقد بحث في كتاب كتبه لارجاع الايطاليين عن فكر اتفاقهم مع فرنسا في اضمحلال بابل الجديدة « باريز » وسقوط ادبيات فرنسا التي هي اشبه بنهر السين اتساخاً ودنساً .

هذا الميل الذي كان يشعر به مومسن نحو بلاده كان يجول في خلال كل سطر من تاريخه وفوق ذلك فانه كان يرى العناصر الاخرى بجانب العنصر الجرماني منحطة جداً . ولم يكن يميل للامة اللاتينية وان كان يتظاهر بذلك احياناً ولم يكن مصدر ذلك حب حقيقي وزد على ذلك فانه كان لا يرتاح الى افكار هذه الامة مع ما اوتيه من المواهب الطبيعية وما فيه من المباديء السامية وما أتيح له من معرفة العظماء ومما قاله في ذلك « ان

الايطاليين لا يمكن ان يدخلوا في مصاف الامم التي تلعب في طبائعها الغرائز الشعرية لفقدان تأثير افئدتهم انما لا تقاس أمة بالايطاليين في البلاغة والفاجعات ... »

وانك لتجد لسانه الجائل في تلك الابحاث وهو يحكم حكماً باتاً قاطعاً مرتبطاً بفكره وشعوره تمام الارتباط . فهو مثل تبين حذو القذة بالقذة لا ينحرف عن الاسلوب الذي تمسك به قيد شبر . وفيما هو يكتب في التاريخ يبين الآراء و يثبت ما اتى به من نظرياته الخاصة تراه يطرح من الوقائع كل ما يوشك ان يوقع في هذه الآراء والنظريات خللاً ... فهو يريد ان تكون الامة الرومانية سالكة السبيل الذي اختطه لها لا تحيد عنه ذات اليمين او ذات الشمال . خذ اليك مثلاً ذهابه الى ان الدهاء في غير السياسة لا اثر له في الرومانيين وجزمه بما ذهب اليه جزماً باتاً تجده يعزز هذا الحكم باستنتاجات قوية و براهين جلية متينة . وان الالمان ليتراءون له من جهة الانتظام اتم من الرومانيين الذين هم واولئك في السياسيات والمعارك سواء . وكذلك يشعر المطالع من طرف خفي بمدحه الالمان في خلال حطه من العنصر اللاتيني وانه ليفاخر قائلاً : ان القسم الذي وقف سداً منيعاً بكل ما فيه من قوة و رباطة جأش امام هجمات الغول على رومية كان مؤلفاً من جماعة الوطنيين فقط الذين يجري في عروقهم دم الجرمان .

وهكذا جاء الكتاب من اوله الى آخره على هذا المنوال فهو اشبه بقصيدة نظمت للذب عن المانيا والالمانيين . و بعد فليس بالنزر التافه القليل الذين استفادوا من تلك الدروس التي القاها مومسن في تاريخه وافادوا بما جمعوا من المؤلفات الجمة في احوال عنصر الجرمان الروحية التي دعت اساتذة التاريخ والجغرافيا واهل الاخصاء في علم الانسان الى ان يبينوا افضل عنصر الجرمان على رؤوس الاشهاد فعلت الضوضاء حتى في الكتب الجغرافية المدرسية « بان المانيا قلب اوربا حقيقة وان ما في فرنسا من كل شيء جميل انما هو مدين لعنصر الجرمان ! .. »

معربة عن التركية

دمشق ص ...

المسلمون والذميون والمعاهدون

الاحساس دليل الحياة !

التضامن رائد العمران !

(تابع ما قبله)

جاء في عرض كلامي عن الاقباط في الجلسة الماضية انهم يعاقبة واعتمدت على المقريزي وابن خلدون وسائر المؤرخين . فلم ترق هذه الكلمة في عين حضرة صاحب المجلة القبطية فاستدركها وقال انهم ارثوذكس . ولكن رأي المقريزي في ذلك يؤيده العلامة القبطي ابن البطريق وقد اعترف حضرته بذلك . فليكن الاقباط ارثوذكسا او ملكيين او ملكانيين او نساطره او كاثوليك او بروتستانت او يعاقبة او موارنة او مرقولية وليقولوا ما شاؤوا في اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد والمثينة والاقنوم والطبيعة فانما هم مصريون قبل كل شيء وتلك امور داخلية وعقائد تعبدية ليس لها مساس بموضوعنا الذي نحن فيه اليوم .

ولكنني لا اترك هذه الفرصة دون الوقوف معه ومناقشته في قوله ان عددهم كان عند الفتح الاسلامي ثلاثين مليونًا . وغاية ما اقول ان عبارته عليها مسحة من المبالغة الشرقية التي لا مصداق لها سوى الخيال . انا لا احب المناظرة لانني اعتقد ان تولع الشرقيين بها قد اوجب ما نراهم عليه من التقهقر والانحطاط . ولكنني لا يمكنني ان امرّ على هذه الكلمة بدون احتجاج ولو كانت من غيره لكانت مما لا يؤبه له ولا يعتد به اما وقد صدرت من فاضل مشهور بالتدقيق والتحقيق معروف بسعة الاطلاع وكثرة التنقيب فليس له ان يرسل القول جزافًا دون ان يعززه بدليل او بشبه دليل .

وقال ابن البطريق القبطي ان المقوقس اجتمع مع عمرو بن العاص على عهد بينهم واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر من اعلاها الى اسفلها من القبط دينارين دينارين على كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ الحلم منهم وليس على الشيخ الفاني ولا على الصبي الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النهى شيء واحصوا عدد القبط يومئذ خاصة ممن بلغ منهم فكان جميع من أحصي ستة آلاف الف انسان فكانت فريضتهم اثني عشر الف الف دينار وفرض عليهم هذين الدينارين ودفع ذلك عن ارقابهم بالايمان المؤكدة

وقد اجمع المؤرخون من المسلمين وغير المسلمين على ان رجال مصر البالغين لم يزيدوا في

ذلك العهد عن ستة ملايين . وليس يصح في الاحلام ان يقال ان النساء والاطفال والشيوخ الفانين كان عددهم اربعة وعشرين مليونًا اي اربعة اضعاف هذا العدد . وانا اقول ان الاقباط اهل ذمة ووفاء فلا يصح ان يقال انهم دلسوا في الحساب وخانوا في الاحصاء فضلاً عن قيام العرب عليهم لان مصلحة الفاتحين كانت تقضي بزيادة عدد الرؤوس لتتضاعف لهم الاموال وتبلغ الجزية ستين مليونًا من الدنانير بدلاً من اثني عشر الف الف دينار .

فنحن اليوم في عصر النور والتحقيق وياحبذا لو اننا نربأ بنفوسنا عن تلك المبالغات الشرقية . وسعيد بن البطريق هذا هو قبطي مصري قال المكين انه تولى بطريركية الاقباط فكان في ايامه شقاق كثير وشر متصل بينه وبين شعبه ادى بمحمد بن طغج صاحب مصر الى ارسال قائد من قواده الى تنيس لختم على الكنائس وما بها وكان فيها شيء كثير من الذخائر حتى ان ذهبها وفضتها وزنت بالقبان لكثرتها وعبى القائد جميعها في الاقفاص وتوجه بها الى مصر فمضى اسقف تنيس الى جماعة الكتاب فتوسلوا لدى الامير واستقر الرأي على اعادة كل هذه الذخائر في نظير خمسة آلاف دينار فباعوا من الاوقاف والعقارات التي للكنائس بقيمة المبلغ وحملوه اليه وبلغ الاخشيد ان الاسقف باع الاملاك بدون قيمتها فارسل الى تنيس وطالب المشترين بفرق الثمن . فلما علموا ان شقاقهم اوجب هذا اصطلحوا واجتمعوا في كنيسة واحدة . كان مولده في يوم الاحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٦٣ وفي اول سنة من خلافة القاهر العباسي صار بطريركا على اسكندرية وسمي اوتوشيوس Eutichius وذلك في ٨ صفر سنة ٣٢١ وبقي في الكرسي والرئاسة سبع سنين ونصفًا ثم اصابه اسهال بمصر فحدث انها علة موته فصار الى كرسيه بالاسكندرية واقام به عدة ايام عليلاً وتنيح في آخر رجب سنة ٣٢٨

والبطريرك تعريب للفظ رومي معناه ابو الأسرة او رب البيت قال المسعودي في كتاب التنبية والاشراف انه بالرومية بطرياركس تفسيره رئيس الآباء ثم خفف وقد سماه المسعودي والاسلاميون بطريرخ ثم بطريرك ثم خفف في الاستعمال فصرنا نقول بطرك ونكتبها بطريرك كما نقول جنبية ونكتب جنباواى وكانوا يكتبون جنبويه وكما نقول ابشيه وابشاي ونكتب ابشواي وكانوا قبلنا يكتبون ابشويه وكما نقول بيه ونكتب بك وهكذا . واما البطريق فهو تعريب للفظة رومية هي Patrice لا Patricien كما جاء في دائرة المعارف البستانية . فان لفظة Patricien هي خاصة بفريق الاعيان عند الرومان اهل رومية واما Patrice فهي عنوان على المتقلد بوظيفة كبرى في الادارة او في العسكرية عند الروم اهل القسطنطينية وهم الذين كان لهم بالعرب اشتباك واختلاط وعنهم عربوا هذه الكلمة

بلفظة بطريق . وان كانت اللفظتان مشتقتين من مادة واحدة لكن الاصطلاح لم يكن واحداً عند الامتين . فاذا جمعوا اسم اصحاب الوظيفة الدينية قالوا بطاركة واذا جمعوا اسم اصحاب الوظيفة المدنية او العسكرية قالوا البطارقة . وقد يخلطون بينهما في الجمع كما قال المستهترون بحقيقة الالفاظ المعربة « اسم اعجمي العب به كيف شئت »

وقد كان ابن البطريق صاحبنا معاصرا للامام المسعودي وصديقاً له وقد اجتمعا معاً بالفسطاط . قال في التنبيه والاشراف مانصه : « واحسن كتاب رأيته للملكية في تاريخ الملوك والانبياء والامم والبلدان وغير ذلك كتاب محبوب بن قسطنطين المنبجي وكتاب سعيد بن البطريق المعروف بابن الفراس المصري بطريرك كرسي مارقس بالاسكندرية وقد شاهدناه بفسطاط مصر انتهى بتصنيفه الى خلافة الراضي » . وقد اشتهر بين المسلمين كثير من النصارى بهذا الاسم فاولهم ابن بطريق النصراني الذي كان امين سر سليمان بن عبدالملك الخليفة الاموي بدمشق . كما كان سرجون بن منصور الرومي النصراني امين سر من قبله للخلائف معاوية بن ابي سفيان و يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم . وكان في ايام ابي الدوانيق المنصور العباسي رجل اسمه البطريق امره بنقل اشياء من الكتب القديمة . واشتهر في ايام المأمون رجل اسمه يحيى بن البطريق كان في جملة الحسن بن سهل وتحت رعايته وكان لايعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان عليماً باللغة اللاتينية وهو من جملة الوفد الذي ارسله المأمون الى ملك الروم عندما غلبه واستظهر عليه وتوالت بينهما المراسلات فكتب اليه المأمون يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم فاجاب الملك الى ذلك بعد امتناع فاخرج لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ومسلمة (سلم) صاحب بيت الحكمة وغيرهم فاخذوا مماوجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنقل وقيل ان صاحبنا يوحنا بن ماسويه الذي وصف احسن دواء لاوجاع المعدة كان من جملة ذلك الوفد . وقد نقل ابن البطريق هذا واسمه يحيى من مؤلفات ارسطوطاليس الى العربي كتاب السماء والعالم وهو في اربع مقالات وكتاب الحيوان وهو تسع عشرة مقالة ولخص جوامع كتابه في النفس واصله في ثلاث مقالات ثم نقل الى العربي ايضاً كتاب البرسام للاسكندروس الطبيب الذي كان قبل جالينوس . وقد ارسله المأمون في مهمة اخرى للبحث على كتاب لارسطو . وعندي نسخة من كتاب بخط اليد عنوانه كتاب السياسة في تدبير الرياسة المعروف بسر الاسرار وهو من الكتب المنسوبة لارسطو وقد ترجمه ابن البطريق هذا الى اللغة العربية واليكم ما قاله في مقدمته مخاطباً للمأمون :

« بسم الله الرحمن الرحيم » رب يسر

اما بعد اصلح الله امير المؤمنين وايده على حماية الدين والرعاية لاحوال المسلمين فان عبده امتثل امره والتزم ما حده عن كتاب السياسة في تدبير الرياسة المعروف بسر الاسرار الذي الفه الفيلسوف الحكيم الفاضل ارسطوطاليس لتلميذه الملك الاعظم الاسكندر المعروف بذي القرنين حين كبر سنه وضعفت قوته عن الغزو معه . وكان الاسكندر قد استوزره واصطفاه لما كان عليه من صحة الرأي واتساع العلم وقوة الفهم وتفرده بالخلال السنية والسياسة المرضية والعلوم الالهية مع التمسك بالورع والتقى والتواضع وحب العدل وايثار الصبر . . . . فلم يدع الترجمان يحيى بن البطريق هيكلاً من الهياكل التي اودعت الحكماء فيها اسرارها الا اتاه ولا عظيماً من عظماء الرهبان الذين لطفوا (انقطعوا) لمعرفتها الا اتاه وقصده وانتحاه حتى وصل هيكل عبدة الشمس الذي كان بناه هرميس الاكبر لنفسه فظفر فيه بناسك مترهب ذي علم بارع وفهم ثاقب فتلطف به واستنزله واعمل الحيلة حتى اباح له المصاحف المودعة فيه فوجد في جملتها الكتاب المطلوب الذي كان امره امير المؤمنين بطلبه مكتوباً في رق مصبوغ بالفرفير بالذهب المحلول منقوطاً بالفضة البيضاء المحلولة . فرجع الى الحضرة المنصورة ظافراً بالمراد . فسعى بعون الله وبسعد امير المؤمنين وجد في ترجمته ونقله من اللسان اليوناني الى اللسان العربي .

افرأيتم كيف نطرق بنا الحديث والحديث ذو شجون من ابن البطريق المصري الى سميه البغدادي الى الخليفة المأمون . وهل علمتم ان هذا الخليفة ورد على وادي النيل وكان له في رحلته بها شؤون يالها من شؤون .

ففي سنة ٢١٧ هجرية وقع امران عظيمان اضطرب لهما بال المأمون ولم ير في احد من اهله ولا من ذوي عمله الكفاءة لهما فندب نفسه وعزم على الخروج من بغداد . وذلك ان ملك الروم كتب اليه يسأله الموادعة والمهادنة وبدأ في كتابه بنفسه وكانت قد حصلت بمصر فتنة عظيمة واضطرب امرها . فعزم المأمون على الخروج لغزو ملك الروم ولاصلاح ذات البين بمصر . فامر بعقد الالوية السود وهي شعار بني العباس كما تعلمون (ونقول بهذه المناسبة ان بني العباس كان لهم لواآن فالابيض يعقدونه لمن يولونه الاعمال والحكومات واما الاسود فهو خاص يعقدونه لولاية العهد على الخلافة) ثم امر بجمع المسودة وهم جيوش بني العباس وشعارهم السواد .

وقبل ان اسوق اليكم الحديث عما جمعته من شوارد هذه الرحلة العجيبة اخبركم يابني امي ويابني عمي بامر هو من باب تحصيل الحاصل فانتم تعلمون جميعاً ان اهل مصر عموماً

يهيمون بالبصل غراماً تستوي في ذلك الطائفتان الصغرى والكبرى . بل ان بني اسرائيل حينما هاموا في التيه ولم يجدوا عن البصل من بديل ولم يعثروا له على شبيه حردوا على موسى الكليم . وبما اننا سنجفر ركاب المأمون فلا بأس من ذكر نادرة من نوادره الكثيرة في اكرامه للعلماء حتى ولو كانوا ممن يأكلون البصل والثوم ويشربون النبيذ ويقرمون للخنزير الحنيذ .

فقد كان بلغه قبل ذلك ان الشيخ الجليل كلثوم بن عمرو العتابي قد توفي ثم بلغه انه لا يزال على قيد الحياة وهو من اكابر الشعراء المترسلين وافاضل البلغاء المطبوعين فارسل اليه لينادمه قبل سفره حتى لا تفوته مجالسته اذا مات الرجل وهو في الغزاة او في مصر فلما دخل عليه ادناه وقربه حتى قرب منه فقبل العتابي يده ثم امره بالجلوس فجلس وكان اسحاق ابن ابراهيم الموصلي نديم الخلفاء ونادرة الزمان حاضراً فقال له المأمون : بلغتني وفاتك فساءتني ثم بلغتني وفادتك فسرتني . فقال العتابي : ياامير المؤمنين لو قسمت هاتان الكلمتان على اهل الارض لوسعتاها فضلاً وانعاماً وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له امنية ولا يبسط لسواه امل لانه لا دين الا بك ولا دنيا الا معك . فقال له : سلني . فقال : يدك بالعطاء اطلق من لساني بالسؤال . فوصله صلات سنية وبلغ به من التقديم والاكرام اعلى محل . ثم اقبل عليه يسائله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذلق طلق فاستظرفه المأمون واقبل عليه بالمداعبة والمزاح فظن العتابي وكان شيخاً جليلاً نبيلاً انه استخف به . فقال : ياامير المؤمنين الايناس قبل الابساس . وهذا مثل مشهور ولكن المأمون اشتبه عليه قول الرجل فنظر الى نديمه اسحاق مستفهماً فاومأ اليه وغمزه على معناه حتى فهم . فقال : ياغلام الف دينار . فاتى بالذهب وصبه بين يدي الاديب . ثم اخذوا في المفاوضة والحديث وغمز المأمون اسحاق بن ابراهيم الموصلي عليه فجعل العتابي لا يأخذ في شيء الا عارضه فيه اسحاق وزاد عليه . وبقي العتابي يزداد عجبه من اسحاق حتى لم يطق عليه صبراً . فقال : ياامير المؤمنين اتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه ؟ قال : نعم . فقال : ياشيخ من انت وما اسمك ؟ قال : انا من الناس واسمي « كل بصل » فتبسم العتابي وقال : اما النسبة فمعروفة واما الاسم فمنكر . وما كل بصل من الاسماء ؟ فقال اسحاق : ما اقل انصافك ! اتنكر ان يكون اسمي كل بصل واسمك كل ثوم وكل ثوم من الاسماء ؟ اوليس البصل اطيب من الثوم . فقال كلثوم العتابي : لله درك فما احجك ! ياامير المؤمنين ما رأيت كالشيخ قط . اتأذن لي في صلته بما وصلتني به فقد والله غلبني . فقال المأمون : بل ذلك موفر عليك فنأمر له بمثله . فقال اسحاق : اما اذا قررت بهذه فتوهمني تجدني . قال : ما اظنك الا الشيخ الذي

يتناهى الينا خبره من العراق ويعرف بابن الموصلي . قال : انا حيث ظننت . فاقبل العتابي عليه بالتحية والسلام فقال المأمون وقد طال الحديث بينهما : اما اذ قد اتفقتما على المودة فانصرفا سالمين .

وخرج المأمون من بغداد بجيوشه وجحافله حتى دخل بلاد الروم غازياً لينتقم من ملكها الذي قدم نفسه عليه في المخاطبة وهنالك تناهت اليه الاخبار باستفحال الثورة في مصر وتعاظم الخطب وتفاقم الامر حتى خرج اهلها من مسلمين واقباط عن طاعة الخليفة لما نابهم على السواء من ظلم عامله عليهم وهو عيسى بن منصور الرافعي . فامتنع المصريون كافة عن وزن الخراج وطردوا العمال . فترك جنوده ببلاد الروم لمحاصرة القلاع وتتميم الغزاة . وسأتبعه في طريقه خطوة خطوة واذكر ما فعله ببلادنا لخير الاقباط والمسلمين وما ابقاه فيها من المآثر التي طوي ذكرها وطمس خبرها وتنوسي امرها الى ان يخرج من وادي النيل مرموقاً بالعيون مشيعاً بالقلوب محموداً من جميع الشعوب

ذهب المأمون الى الشام فاشتاق للمنادمة فطلب رجلاً شامياً لمجانسته ومحادثته فادخل له خواصه اديباً منهم وقالوا له : ياشامي انت داخل على امير المؤمنين فلا تسأله عن شيء حتى يبتدئك فاننا اعرف الناس بمسألتكم يااهل الشام . فقال لا اتجاوز امركم . فلما استدناه المأمون وكان على شغله من الشراب فقال له : اني اردتك لمجالستي ومحادثتي فقال الشامي : ياامير المؤمنين ان الجليس اذا كانت ثيابه دون ثياب جليسه دخله لذلك غضاضة فامر له بخلعة . فداخل الذي ادخله غضاضة ورعدة شديدة من هذا التهجم . فلما لبس الشامي الخلعة ورجع الى مجلسه قال ياامير المؤمنين : ان قلبي اذا كان متعلقاً بعيالي لم تنتفع بمحادثتي . قال الخليفة : احملوا الى منزله خمسين الفاً . فقال الشامي ولي عليك ياامير المؤمنين خصلة ثالثة ارجو ان تنعم بها ايضاً . قال : وما هي . قال قد دعوت بشيء يحول بين المرء وعقله فان كانت مني هنة فاغتفرها . قال : حباً وكرامة . فكانت الثالثة بردا وسلاماً على الذين ادخلوه وعجبوا من حلم المأمون وكرمه .

وقد اغتنم الخليفة فرصة وجوده في الشام لتحقيق مقدار السنة الشمسية فرصد ذلك بدار الرصد بدمشق المعروفة بالشماسة وكانت له دار رصد اخرى ببغداد .

فلما كان في دمشق قل المال عنده حتى اضاق فشكا ذلك لاخيه المعتصم الذي تولى الخلافة بعده وكان المعتصم قد ورده الخبر بان ثلاثين الف الف قد حملت اليه من خراج الاعمال التي يتولاها للمأمون فقال له : ياامير المؤمنين كأنك بالمال قد وافاك بعد جمعة . فلما ورد خرج المأمون والقاضي يحيى ووجوه خاصته وسائر الناس لاستشرافه فوردت الصناديق

محمولة على اباعر باحلاس موشاة وجلال مزوّقة وعليها شقق الحرير الصيني الاحمر والاخضر والاصفر فكان منظرها يروق العيون و يأخذ بمجامع القلوب فضلاً عن العجب بما عليها من الذهب . فقال المأمون ليحيى : هل يُسمح ان ينصرف اصحابنا هؤلاء خائبين الى منازلهم وننصرف نحن بهذه الاموال قد تملكناها دونهم انا اذاً للئام . ثم دعا كاتبه فقال: وقّع لآل فلان بالف الف ولآل فلان بمثلها ولآل فلان بخمسمائة الف وما زال كذلك حتى فرق اربعة وعشرين الفاً ورجله في الركاب ثم امر بدفع الباقي للجند . وكان رجل من الكتاب حاضراً وهو العيشي صاحب ابي اسحاق النديم فاخذ ينظر للمأمون ولا يرد طرفه عنه بحيث كان الخليفة لا يحول نظره الى جهة او يلتفت الى شيء الاَّ وقعت عينه عليه فقال لكاتبه وقع لهذا بخمسين الف من الستة آلاف الالف لا يختلس ناظري

ثم اتى مصر فكان كلما دخل قرية او مدينة ينزل على دكة قد بنيت لاجله ليكون مقامه مرتفعاً عن رطوبة الارض فتضرب له على الدكة قبة بسرادق عظيم وتقيم العساكر حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة فجاء عن طريق الفرما وفيها حضره الشعر فقال :

ألليلك كان بالميدان اقصر منه بالفرما
غريب في قرى مصر يقاسي الهم والسدما

والسدم هو الهم مع الندم والحزن والغيظ والميدان موضع ببغداد واسم لبلد بكورة سابور من اعمال فارس ولا شك انه تفكر اثناء وجوده بها في فتح قنال السويس الموجود فقد روى ابوعبدالله محمد بن علي بن محمد الشطيبي (كذا) الاندلسي وقيل شهاب الدين احمد المقري الفاسي في كتاب الجمان في مختصر اخبار الزمان المحفوظ منه نسخ متعددة بمكتبة باريس الاهلية انه سعى في توصيل البحر الاحمر (بحر القلزم) بالبحر الابيض المتوسط (بحر الروم) ولكنهم صرفوه عن هذه العزيمة خوفاً من الروم على مكة والمدينة كما خوفوا عمر بن الخطاب من قبله وهو اول من فكر في ذلك في الاسلام . ومر على دمياط ونزل عند قرية صغيرة اسمها بوره (وهي التي تنسب اليها العمائم البورية والسمك البوري وقد انحلت هذه العمائم باندثار القرية ولا يزال السمك باقياً يستطيبه المصريون الى الآن) فدخل عليه بكام القبطي من اهلها وكان ذا ثروة واسعة فخطب من المأمون عمارة بورة فقال له اسلم فتكون مولاي واوليك فقال بكام : لامير المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم افلا يكون له مولى نصراني . فضحك منه المأمون و ولاه عمالة بورة وماحولها . فبنى الرجل بها كنائس كثيرة حساناً وكان على باب داره المسجد الجامع فقال لاهل بورة من المسلمين انا ابني لكم مسجداً جامعاً غير هذا واهدموا هذا المسجد من على باب داري فقالوا له ابن المسجد ونحن نصلي في هذا

حتى اذا فرغت من بنيان ذاك صلينا فيه وهدمناهذا المسجد . فبنى مسجدًا كبيرًا حسنًا فلما فرغ منه قال لهم : فوا لي بما وعدتموني فقالوا لا يجوز لنا في ديننا ان نهدم مسجدًا قد صلينا فيهواذنا وجمعنا فبقي المسجد على حاله وصار في بورة مسجدان تقام فيهما الجمعة فكان المسلمون يصلون جمعة في هذا وجمعة في ذاك . وكان بكام في يوم الجمعة يلبس السواد شعار بني العباس و يتقلد بالسيف والمنطقة و يركب برذونًا و بين يديه اصحابه فاذا بلغ المسجد وقف ودخل خليفته وكان مسلماً فيصلي بالناس ويخطب باسم الخليفة . ثم استمر الخليفة في سيره حتى جاء الى قرية حقيرة فلم ينزل بها وهي طا النمل من مديرية الدقهلية وقد حرفنا اسمها تبعًا لاهلهافصار المشهور الآن (طنامل) وهما قريتان احداهما شرقية والاخرى غربية وكلتاهما تبعدان عن مدينة المنصورة نحو ثلاث ساعات ولم تكن المنصورة موجودة في عهد المأمون لان بناءها كان بعد ذلك في ايام الملك الكامل الايوبي اثناء هجمات الصليبيين على مصر . فلما مر على القرية لم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت اليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح . فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها وكان لا يمشي ابدًا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكر له ان القبطية قالت: ياامير المؤمنين نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بذلك . وانا اسأل امير المؤمنين ان يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف ولعقبي ولا تشمت الاعداء بي . وبكت بكاء كثيرًا فرقَّ لها المأمون وثنى عنان فرسه اليهاونزل فجاء ولدها الى صاحب المطبخ وسأله : كم تحتاج من الغنم والدجاج والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغيرذلك مما جرت به العادة . فاحضر جميع ذلك اليه بزيادة . وكان مع المأمون اخوه المعتصم وابنه العباس واولاد اخيه الواثق والمتوكل و يحيى بن اكثم والقاضي احمد بن ابي دؤاد (١) فاحضرت القبطية لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده ولم تكل احدًا منهم ولا من القواد الى غيره . ثم احضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئًا كثيرًا حتى انه استعظم ذلك . فلما اصبح وقد عزم على الرحيل حضرت اليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر : قد جاءتكم القبطية بهدية الريف : الكامخ والصحناه والصير (٢) فلما وضعت ذلك بين يديه اذا في كل طبق كيس من ذهب . فاستحسن ذلك وامرها باعادته .

(١) كان خصيصًا بالمأمون حتى ضرب الادباء بذلك الامثال قال الفتح بن خاقان في كتاب مطمح الانفس ومسرح التأنس في ادباء اهل الاندلس في ترجمة ابي بكر بن العربي عن ابيه ابي محمد ما نصه : واصطفاه معتمد بني عباد اصطفاء المأمون لابن ابي دؤاد

(٢) الطرشي والقريصة والملوحة ؟

فقالت لا والله لا افعل . فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذه والله العجب ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت ياامير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا فقال : ان في بعض ما صنعت الكفاية ولا نحب التثقيل عليك فردي مالك بارك الله فيك فاخذت قطعة من الارض وقالت ياامير المؤمنين هذا (واشارت للذهب) من هذا (واشارت للطين) ثم من عدلك ياامير المؤمنين وعندي من هذا شيء كثير فامر به فاخذ منها واقطعها عدة ضياع واعطاها من قريتها طاالنمل مائتي فدان بغير خراج وانصرف متعجباً من كثرة مروءتها وسعة حالها

ثم سار حتى وصل الفسطاط عن طريق المطرية وعين شمس متبعاً في ذلك خط السير الذي اتبعه الجيش الاسلامي مع عمرو بن العاص في ايام الفتح في سنة ٢٠ هجرية فدخل الفسطاط في يوم الجمعة ٩ المحرم سنة ٢١٧ وكانت قد بنيت له قبة على الجبل المقطم فنزل فيها وكانت تسمى قبة الهواء وكان مع المأمون فراشون من النصارى فبعدت عليهم الكنائس التي في القصر فاستأذنوا المأمون في بناء كنيسة يصلون فيها تكون بالقرب من قبة الهواء فاذن لهم فبنوا من فضلات قبة الهواء كنيسة مرتمريم التي في القنطرة وهي التي عرفت في ما بعد بكنيسة الروم

وفي اثناء اقامته في الفسطاط ارسل ملك النوبة وفداً الى المأمون ذكروا عنه ان ناساً من مملكته وعبيده باعوا ضياعاً من ضياعهم لمن جاورهم من اهل اسوان وانها ضياعه والقوم عبيده ولا املاك لهم وانما تملكهم على هذه تملك العبيد العاملين فيها فحول المأمون على عامله باسوان تحقيق هذه المسألة وامره بالاستئناس بمعلومات من بها من الشيوخ واهل العلم فوصل الخبر الى اهل اسوان الذين اشتروا تلك الضياع وعلموا ان عدل المأمون سينزعها من ايديهم ويردها على صاحبها فاعملوا الحيلة حتى لا يضيع عليهم الثمن الذي دفعوه وتذهب عليهم الاعيان التي تملكوها فتقدموا الى البائعين من اهل النوبة واتفقوا معهم على انهم اذا احضرهم الحاكم المولى من قبل المأمون يقولون بانهم ليسوا عبيداً لملك النوبة وان يقولوا بحضرته وبحضرة الشيوخ والشهود والعدول : سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم . يجب علينا طاعته وترك المخالفة له فان كنتم انتم عبيداً لملككم واموالكم له فنحن كذلك . فلما جمع حاكم اسوان بين البائعين وبين رسول ملك النوبة والنائب عنه في هذه القضية المهمة اعتمدوا على هذه الحجج ونحوها مما لقنها لهم اصحاب الحظ والمصلحة في ثبوت البيع ونفاذه فصح البيع لعدم اقرارهم بالرق لملكهم .

هذا وقد انشأ المأمون اثناء مقامه بمصر جسراً (كوبريا) يصل بين مصر القديمة

وبين جزيرة الروضة وانتقل الى المنيل فاعجبته هذه الجزيرة الجميلة فبنى بها جامعاً ومقياساً كما ذكره عبد الرشيد صالح بن نوري الباكوبي المولود في مدينة باكو من بلاد الروسيا وهو من اعيان القرن التاسع للهجرة في كتابه المسمى بتلخيص الآثار في عجائب الاقطار المحفوظ منه نسختان في مكتبة باريس الاهلية . ولم يتم هذا المقياس في ايام المأمون فاتمه المتوكل العباسي وهو الباقي الى اليوم . وقد كان القبط يتولون مقاييس النيل الى ايام المتوكل في سنة ٢٤٧ فتولاه المسلمون بعد تمام مقياس الروضة واولهم ابو الرداد المعلم الذي كان مؤذناً في جامع عمرو ويعلم الصبيان القرآن واستمرت هذه الوظيفة في ذريته حتى سنة ٩٢٨ . ويقول الموكلون به في ايامنا هذه انهم من عقبه .

ثم عدى المأمون الى بر الجيزة وذهب الى الاهرام . قال شيخ الربوة الصوفي الدمشقي في كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر المطبوع في بطرسبورج ما نصه : ولم تزل همم الملوك قاصرة عن تعرف ما في هذين الهرمين الى ان وُلي المأمون الخلافة وورد مصر فامر بفتح واحد ففتح بعد عناء طويل واتفق له لسعده المعين على تحصيل عرضه ان فتح في مكان يسلك منه الى الغرض المطلوب فانتهى بهم الطريق الى موضع مربع في وسطه حوض من رخام مغطى فلما كشف عنه غطاؤه لم يوجد فيه الا رمة بالية قد اتت عليها العصور الخالية فامر المأمون بالكف عما سواه . ويا ليت لو كان امر بفتح هرمين او ثلاثة من الاهرام الصغار المبثوثة غيرهما لكي يبين الامر جلياً له وللناس .

وروى المقريزي عن صاحب تحفة الالباب ان المأمون اصعد بعضهم لتعرف ما بداخله وبعضهم لذرعه من الخارج .

فافضى الذين صعدوا الى القبة التي في اعلى الهرم من الداخل الى قبة صغيرة فيها صورة آدمي من حجر اخضر كالدهنج فاخرجت الى المأمون فاذا هي مطبقة فلما فتحت وجد فيها جسد آدمي عليه درع من الذهب مزين بانواع الجواهر وعليه حلة من ذهب قد بليت ولم يبق منها سوى سلوكها من الذهب وكان على هذه الموميا طلاء بمقدار شبر من المر والصبر وعلى صدره نصل سيف لا قيمة له وعند رأسه حجر ياقوت احمر كبيضة الدجاجة يضيء كلهب النار فاخذه المأمون وقال هذا خير من خراج الذهب . وقال كثير من المؤرخين ان هذا التمثال الاخضر لم يزل معلقاً عند دار الملك بمدينة مصر الى سنة ٦١١ هجرية

واما الذين صعدوا فوقه فقد انتهوا الى قمته بعد ثلاث ساعات فوجدوا رأس الهرم قدر مبرك ثمانية جمال . وبناء على امر امير المؤمنين ارسلوا الى اسفله حبلاً فكان طوله الف ذراع بالذراع الملكي وهو ذراع وخمسان

وقد قاس المأمون تربيع الهرم فكان اربعمائة ذراع في مثلها · ولقد اجمع مؤرخو العرب على ان المأمون توصل الى فتح هذا النقب الموجود الى يومنا هذا بعد جهد شديد وعناء طويل فكان بداخله مهاوي ومراقي يهول امرها و يعسر السلوك فيها وان النفقة على نقبه كانت عظيمة والمؤونة شديدة ·

هذه هي الحقيقة التاريخية مجردة من المبالغات الشرقية · ولما كان امر الاهرام قد بقي مكتوماً على الخاص والعام حتى فتحه المأمون فلا غرابة اذا رأينا اهل الشرق وهم مغرمون بالاوهام شطحوا مع تيار الخيال فلفقوا على ذلك اقاصيص واساطير ما انزل الله بها من سلطان ولكنها لعمر الحق فيها عبرة بالغة وحكمة كبيرة لقوم يفقهون · ذلك ان كتاب العرب ارشدوا ارباب الالباب الى ان السعيد بن السعيد هو الذي يتوصل للعثور على ما يوازي نفقته عند تطلبه الكنوز والدفائن ولذلك قالوا بان المأمون وجد وراء الباب حوضاً من حجر مغطى بلوح من رخام وهو مملوء بالذهب وقالوا ان المأمون امر بحسبان ما صرف على النقب فبلغ قدر ما وجد في الحوض من غير زيادة ولا نقص·

ولعل هذا الرمز البديع يكون راجعاً لمن ينفق العمر والمال في تطلب الدفائن والكنوز والمطالب والخبايا فليس لكل الناس سعد كسعد المأمون وقد رأيناهم جميعاً يعودون بصفقة المغبون فلعلهم بعد هذا البيان يفكرون و يتدبرون و يسعون لاكتساب المال من طريقه المشروع وسبيله المأمون ·

ثم توجه المأمون الى الصعيد فلما حل ركابه بمنف حضره الشعر في الحال فقال على سبيل الارتجال:

سألت اطلال مصر عن عين شمس ومنف
فما احارت جواباً ولا اجابت بحرف
وفي السكوت جواب لذي الفطانة يكفي

ثم استمر في سيره حتى وصل الى مدينة قفط من اعمال الصعيد بمديرية قنا · ومن لفظة قفط اشتق اسم القبط · ومنه اخذ الروم لفظة ايجبتوس للدلالة على مصر والمصريين

اتقاء الشقاء

نشر المسيو نوفيكوف العالم الاجتماعي الروسي هذا الشهر كتاباً سماه « الظواهر الاقتصادية الطبيعية ومسألة شقاء الناس » قال في بعض فصوله ان امر بؤس البائسين وغنى الموسرين قد شغل بال كثيرين وهي من المسائل المعقدة ذات الاطراف والتضاعيف . فيرى بعضهم ان الشقاء من الامور الطبيعية كالفياضانات والزلازل وقلة الامطار وان من يحاول ابطاله من العالم كالذي يتخيل ان يجري انهاراً من اللبن و يغرس اشجاراً تأتي بارغفة من العجين مخبوزة . ومنهم من يقول انه ليس ثمت شقاء على حين تثبت الاحصائيات ان تسعة اعشار الناس لا يأكلون عند ما تطلب معدهم الاكل او هم فقراء مقتر عليهم في ارزاقهم و يرى بعض ارباب الاديان ان الشقاء امر تقضي به المشيئة الربانية ولكنهم لم يستطيعوا ان يدّعوا ان الشقاء حسنة من الحسنات لئلا ينسبوا الى المولى تعالى الظلم لعباده بل انهم وقفوا عند حد الجنات التي وعد بها البائسون وان العالم دار محن واكدار وغربة لا دار قرار وراحة وان الحياة الحقيقية السعيدة يتمتع بها المرء بعد وفاته . بيد ان كثيرين من رجال الدين وان قالوا بان الشقاء مما يثاب عليه صاحبه الا انهم ينعمون ويترفهون يأكلون الاطايب و يسكنون القصور ويلبسون الوشي والديباج ولذلك ما فقط منع رجال الدين الناس عن السعي في الخلاص من مخالب الشقاء وتحسين معاشهم وتكثير ارزاقهم . وارى ان الانفع ان يقضي المرء حياته في هذه الدنيا في رفاهة لان ذلك لا يمنعه من ممارسة الفضائل ثم اذا كتبت له الجنة يذهب اليها و يتمتع بما وعد فيها من النعيم وهذا خير له من ان يعيش في دنياه شقياً لينعم باله في الآخرة ولكن من لا يقولون بخلود النفس وعددهم آخذ بالنمو يرون هذه الفلسفة خيالية

و يرى بعضهم ان الشقاء آت من استئثار بعض اشخاص باموال طائلة وحرمان الفقير منها وانه لو كفت ايدي الاغنياء عن احتكار القسم الاعظم من الثروة ولم يحرم منها السواد الاعظم بل قسمت بينه قسمة عادلة لاصبح الناس كلهم في سعة وفارق الشقاء بني آدم آخر الدهر . وليس احتكار اولئك الافراد لثروة المجموع هو الحل الوحيد لهذه المعضلة بل ان الفقر ناشيء على الارض من قلة الارزاق اللازمة للحياة واذا كانت هذه القلة ناشئة من اسباب المحيط والبيئة يصح ان يقال ان البشر في شقاء لانهم لم يحسنوا استخدام الارض وتسخيرها لحاجياتهم .

لا يبطل البؤس بتقسيم الاموال على السوية وذلك لان تلك الاموال غير كافية لرفع

الشقاء كما علم بالاحصاء فقد تبين بأنه اذا حجزت جميع الارباح والمداخيل التي تزيد عن خمسة آلاف ليرة لتوزع على من نقل مداخيلهم عن هذه القيمة لا تزيد مداخيلهم اكثر من ١٢ في المئة عما هي عليه الآن ولذلك اقتضى زيادة الثروة عشرة اضعاف ما هي عليه اليوم لانقاذ البائسين من بؤسهم ونحسهم . ولعمري اي رفاهية ينالها العامل الذي يربح الآن ثمانية قروش في يومه اذا صار يربح تسعة وهل بهذا القرش يكون مرفهاً من اهل الطبقة الوسطى ؟ وبعد فلا سبيل الى حل المسألة الاجتماعية الا بزيادة الارباح الفاً في المئة . والسبب الثاني في سقوط دعوى من يدعون بان في تقسيم ثروة الاغنياء تفريجاً لكربة البائسين ان ثروة الاغنياء ليست بحراً لا ينضب وبراً لا حد له فلو فرضنا ان مورغان المثري الاميركي له دخل سنوي قدره ٨٣ مليون فرنك ووزعه على اهل الولايات المتحدة لما اصاب الفرد سوى فرنك على ان هذا الغني لا يتأتى له ان يوزع على اهل بلاده هذا القدر من الملايين اذا صودرت امواله في السنة السابقة . وهكذا العمل بجميع الثروة فانها اذا حجزت دفعة واحدة روزعت دفعة واحدة لا يكون منهادواء مسكن لهذا الجرح المؤلم الا موقتاً لما عرف من ان مطالب الحياة غير متناهية وغنى يوم لا يعد غنى لايام .

ويغلط الاشتراكيون في خلطهم بين الثروة والمال وما الثروة الا نتيجة تغيير المحيط بأن يقوم عمل الانسان على قاعدة معقولة . وجمهور الناس يخطئون في تصورهم الثروة انها ليرات وجنيهات موضوعة في صناديق ارباب المال فكما ان هذه النقود لا تحتاج الى التجديد كل سنة وكما انها كمية معروفة لا يمكن زيادتها يتوهم الناس ان الثروة كذلك وانها اذا حصلت في اليد تبقى ابد الدهر . الثروة مؤلفة من بعض الوجوه من مجموع الغلات التي جعلت في الاسواق وينبغي ان تستخرج على الدوام من المحيط الطبيعي . لنفرض ان محصول القطن في سنة بلغ ١٢ مليار كيلو وان هذه الكمية تسد حاجة البشر فليس هذا بشيء بل يقتضي ان تغل السنة التالية مثل هذه الكمية لان محصول السنة السابقة قد استهلك وفني ولنفرض بان في الامكان توزيع الغلات على مساواة غلات السنة السالفة فان مسألة الثروة العامة لا تحل ايضاً اذ يلزم اعداد كمية مثلها للسنة التالية ولكن اذا لم يجر تقسيم السنة الماضية بحسب ادق قواعد العدل ومن غير اقل شدة نقلت غلة السنة التالية ويعود الشقاء فيبدي نواجذه

وما المسألة في الحقيقة متوقفة على توزيع الاموال بين الناس بل ان المسألة آتية من عدم كفاية ما تنتج الارض من الضرورات ولو غلت ما يسد عوز الناس لما عادت الغلات تساوي شيئاً بل تصبح اذ ذاك كالماء في الانهار والحصا في شواطئ البحار . وعلى ذلك

فالواجب ان نحسب ما ينبغي لنا من بُرّ وارز ولحم وقطن وغير ذلك لنضع ميزانية مدققة لموارد البشر وهذا لا يتيسر الآن في دور الفوضى والطفولة الذي نحن فيه . ويؤخذ من احدث الاحصاآت ان غلة الحنطة سنة ١٩٠٧ بلغت ١٠٨٦ مليون هكتولتر موزونها ٨٧ مليار كيلو اذا فرضنا ان في كل هكتولتر ٨٠ غراماً . فلو فرضنا ان كل انسان يحتاج لغذائه الى مائتي كيلو في السنة لاقتضى لنا ثلثمائة مليار كيلو في السنة . وبهذا ترى ان غلة الحنطة اقل مما يلزم بثلاثة اضعاف . ولعلك تقول ان بعض الشعوب تتغذى بالجاودار والذرة والارز والمانيوك (شجيرة في اميركا يستخرج من جذعها دقيق مغذٍ) والموز وغيره ولكن تلك الشعوب لو تيسرت لها الحنطة ما اتخذت عنها بديلاً ولو اعتبرنا شعوب اوربا واميركا وحدها وهم نحو ستمائة مليون نسمة لاقتضى لهم على هذا المعدل ١٢٠ مليار كيلو مع ان محصول الحنطة في العالم ٨٧

وهكذا في سائر لوازم الحياة فالسكر مثلاً لا يحصل منه الا نحو ١٢ مليون كيلو في السنة ويقتضي ٥٠ كيلوغراماً في السنة لكل انسان تمكنه حالته من استعماله اي انه يقتضي للبشر ٧٥ مليار كيلو منها لاوربا وحدها ٣٠ مليارًا . فما لدينا من السكر لا يكفي سدس البشر اذا حسبنا مجموعهم واذا حسبنا اهل اوربا فعندهم ثلث ما يلزمهم منه

ثم ان محصول القطن في العالم اربعة مليارات كيلو . فنجد من مليار وخمسمائة مليون نسمة وهم سكان الارض خمسمائة مليون مكتسون كسوة تامة و٧٥٠ مليوناً نصف كسوة و٢٥٠ مليوناً عراة بالمرة . ولكي نكسو البشر عامة يقتضي تسعة مليارات وخمسمائة مليون كيلو من القطن . ومتى تأملنا ان القطن لا يستعمل فقط في الثياب بل انه يدخل في الف صنف من الحاجيات المنزلية والصناعية يسوغ لنا ان نحكم بان محصوله غير كاف وربما لا يبلغ ثلث ما ينبغي لنا منه . وهكذا لو نظرت في جميع المواد اللازمة لجاء الحساب بمثل هذه النتيجة

وتدل الاحصاآت ان ٤٠١ من كل الف الماني يربح الفرد منهم ٢٤٦ فرنكاً في السنة و٥٣٨ يربحون ٣٤٥ فرنكا و٤٨ يربحون ١١٢٠ فرنكا و١٣ يربحون زهاء ٣٤٧٦ و٩٣ في المئة من النمساويين يربحون اقل من ١٢٦٦ فرنكاً في السنة . ويبلغ معدل ميزانية الاسرة الموسّع عليها في رزقها ١١٥٠ فرنكاً في السنة هذا واوربا بالنسبة لسائر الكرة تعد غنية فقد حسبوا دخل الهندي فكان سبعة سنتيمات في اليوم على حين يحتاج الى مائتي فرنك لمعاشه في السنة على اقل تعديل وهو لا يربح فيها الا ٢٣ والحال في الصين اتعس وانحس فلو عدّلنا بين ثروة الفرد في البلاد الغنية كالولايات المتحدة مثلاً والبلاد الفقيرة كالصين والهند لا يصيب الاسرة اكثر من الف فرنك وهذا القدر على قلته في عصر مثل هذا العصر

يصعب نيله ولو كان لكل أسرة الف فرنك في السنة وهو بعيد الحصول لماساغ لها ان تأكل ما يغذيها فقط دع عنك بقية لوازم الحياة

وقد انتهت بنا الحال ان صرنا نعد الهواء في هذا العصر اذا كان مباحاً من النعم وكذلك الماء بعد ان اصبح ١٢ مليون كيلومتر مربع من اصل ثلاثة وثمانين مليونا محرومة في اوربا من الهواء واصبحت تباع زجاجة الماء القراح في كولكاردي من اوستراليا الغربية في اول ايام تعدين مناجم الذهب بسبعين سنتيماً واصبح الماء العذب في باكو على ضفاف بحر الخزر مما يفاخر به ويعد من دواعي الرفاهية · وليست الانسانية سعيدة بما كنها ايضاًفالروسي يسكن في كوخ مغطى بالقش اضيق من أخوص القطا ولو اقتضى له ان يبدل هذا المسكن بمسكن مغطى بالقرميد مصنوعاً بالحديد لوجب على روسيا صرف ستة عشر مليارًا من الفرنكات وهذا لا يتيسر الا بعد ان تمر الاجيال اثر الاجيال

وبعد فليس الشقاء حادثًا من قلة موارد الارض ولو كان كذلك لما تطالت نفوسنا الى الخلاص منه وكان علينا كالموت قدرًا مقدورًا ولكن الارض اذا حسن استخدامها تعطينا عشرة اضعاف ما تعطينا الآن ويعيش الناس في بلهنية وسعادة فان موارد هذه الكرة لاحد لها اذا عملنا لها عملها كما قال لي اليزة ركلوس الجغرافي الفرنسوي الكبير · فلو اتقنت الطرق الزراعية باستعمال الاسمدة الكيماوية وتطبيق الزراعة على العلم اي بسقيا الاراضي الجافة المياه وتجفيف الاراضي المغمورة بها لاتت الارض من الغلات والثمرات ما تعد معه غلات اليوم وثمراته مضحكة من حيث كميتها · هذا وفي الارض منابع للثروة غير ما ذكرنا ففيها معادن لم تمسسها يد بشر · وانك تجد في جبال الاورال بروسيا من المعادن كميات وافرة لم يقم في فكر احد ان يستخرجها ومثل ذلك في افريقية واميركا بحيث يصح ان نقول ان ما استخرج من ركاز الارض ومناجمها اقل بقليل مما لم يزل مدفونًا في صدرها وبطنها فنحن لسنا في شقاء الا لسوء تصرفنا في استخراج خيرات الارض والانتفاع بنعم السماء لان طريقتنا في اعمالنا ليست موافقة لمصلحتنا ومتى تعلمنا معرفة تطبيق اعمالنا على المصلحة الحقيقية فالشقاء يرحل عن هذه الكرة

واذا نظرنا الى حقيقة الشقاء نراه الآن يرجع الى ثلاثة اصول رئيسة وهي المصائب الطبيعية والفساد والاحوال الاجتماعية فالاولى وهي من الغرق والشرق والحرق والزلزال وانفجار بركان والموت يمكن تلافي خطرها باقتصاد كل فرد عشرة او عشرين في المئة من دخله يدخرها لحين الحاجة وبذلك ان لم يرفع عنه ثقل المصيبة فانه يخففها على الاقل ويأمن تغيرات الفلك وسوء الطالع · والفساد يمكن تلافيه ايضاً كتلافي المصائب الطبيعية بان

يزيد الصالح في عمله قليلاً وينفق ما يفيض منه على اخيه · فرفع المصائب وتخفيف ويلات الفساد هو اذًا مناط بكثرة الانتاج

وما الخطأ الذي يحول دون الانتفاع بثمرات الارض وثروتها الا ناشيء مما يذهب اليه اكثر الناس من انه لا يغتني مغتن بسرعة الا اذا طالت يده لسلب مال اخيه لا بان يعمل هو بنفسه · وهذا الفكر هوالذي جعل السرقة والغش واللصوصية والتعدي والامتياز وبعبارة اوجز جعل الاختلاس نافعاً لمن يأتيه · فاذا قدر للانسانية ان تنجو من هذا الخطإ الفادح فالرفاهية العامة مضمونة للكافة · وما دام البشر ينظرون الى الاختلاس على ضروبه بانه نافع فسوف يبقون في شقاء وعلى العكس يكونون اغنياء سعداء متى اعتبروا الاختلاس ضارًا ومتى زاد التناسب بين المخلوقات والوسط تسعد الحياة ومتى قلّ تشقى وتضعف واذا بلغ فقدان التناسب حده اورث الحياة ضعفاً تاماً اي موتاً · والتناسب بين المخلوقات والمحيط من حيث علم النفس هو الحقيقة وعدم التناسب هو الخطأ · ومن هنا كانت الحقيقة مولدة للاستمتاع والخطأ آتياً بالتألم فالخطأ هو مثل مرض عقلي ونتيجته بالطبع ضعف التركيب النامي افرادياً كان او اجماعياً قال بوهن « اليس الذكاء الانساني الذي يراه كثيرون حاسة من شأنها الاحاطة بالامور هو الاحرى بان يكون قلة الكفاءة في ادراك الحقائق » وذلك لان الحيوانات تعرف اموراً قليلة ولكنها تسقط في امور اقل منا فهي تفوقنا على ما فينا من ذكاء لا نا معاشر البشر نعرف اموراً كثيرة ولكننا نخترع نظريات كثيرة حشوها الخطأ والخطل · فحالة الانسان من بعض الوجوه اتعس من حال الحيوان لان المصائب الناتجة من سوء تأويل الحوادث اعظم من المصائب التي يكون منشأوها الجهل مباشرة فكما ان الصحة والمرض امران متوازيان متعاقبان في هذه الحياة يسيران كنهرين يمزجان مياههما بعضها ببعض هكذا الحياة الطبيعية تمشي مع الحقيقة والباطل كتفاً الى كتف منذ قرون وسنين وسوف تسير كذلك الى آخر الازمان

والخطأ الاساسي في الاقتصاد ان فكر الاختلاس والنفع المرجو منه هو في الحقيقة روح الشر ويحول دون سعادة البشر فاذا تمكنا من شفاء نفوسنا من هذا المرض العقلي فالمسألة الاجتماعية تنحل لساعتها · ودواء الباطل بالدعوة الى الحق · فالباطل يشفى لانا نرى منه جزءاً يضمحل كل يوم بفضل انتشار العلم فلا ينبغي اليأس من القضاء عليه ولا بد من ان يأتي يوم تتغلب فيه الحقائق الاقتصادية على الناس ويرون الاختلاس ضارًا فيجندل الشقاء ابد الدهر ·

المنازل الرخيصة في الغرب (١)

قال اللورد روزبري : ان من يعمل لما فيه انهاض تلك الجماعات من الناس الذين قُضي عليهم ان تصفر وجوههم وتذل نفوسهم وتنحط مداركهم في المساكن القذرة التي ينزلونها هو بلا شك عامل على ما فيه نفع الجنس البشري عامة

ولقد نشأت الفكرة الاولى لانشاء بيوت للعملة حوالى سنة ١٨١٠ وزادت حركتها سنة ١٨٣٥ وذلك على يد شركات المناجم بين الحدود الفرنسوية والبلجيكية واحتذى احد ارباب المعامل الالمانية سنة ١٨٣٥ حذو الشركات الفرنسوية فأنشأ في مولهوس احدى مدن المانيا مسكناً كبيرًا في حديقة تشتمل على ٣٦ منزلاً فتم عمله على احسن الاساليب واقتدى به كثير من اهل المقاطعات في الشرق والشمال من فرنسا

وفي سنة ١٨٥١ توسع احد الفرنسيس في هذا الفكر وانشأ شركة عمرت لالف ومائتي اسرة الفاً ومائتي مسكن منفرد بعضها عن بعض ولكل منها حديقة يصبح ساكنها مالكاً لها وللمنزل بعد مدة بدفع ثمنها على نجوم مقررة

وبدأت انكلترا في سنتي ١٨٤١و١٨٤٨ بالاقتداء بالفرنسيس والالمان في هذا السبيل وانشأت احدى شركات فرنسا مساكن طيبة للعملة كل منها مؤلف من حديقة وطبقة ارضية ومطبخ وغرفتين وفي الطبقة الثانية ثلاث غرف وبيت مؤونة وقبو ولم يكلف المسكن اكثر من ٢٩٣ جنيهاً يضاف الى ذلك ثمن الارض التي لم يكلف مترها اكثر من خمسة الى ستة فرنكات وجعلت ايجارها الحقيقي كل سنة ٢٣٠ فرنكاً اي اقل من فرنك كل يوم عن مسكن يؤوي عائلة مؤلفة من خمسة الى ستة اشخاص واذا اراد الساكن ان يملك المسكن في خمس وعشرين سنة يجب عليه ان يؤدي زيادة عن الاجرة ١٦٩ فرنكاً فاذا كان الساكن من العملة الذين يربحون في الساعة من ٦٠ الى ٨٠ سنتيماً اي لا اقل من ستة فرنكات في اليوم يتأتى له ان يسكن في مثل هذه الدار ويملكها بعد ذلك ان اراد بتوفير شيء قليل من نفقاته

وكانت هذه البيوت في ضاحية باريز ولما ارتفعت اسعار الاراضي هناك احبت الشركات ان تبتعد عن العاصمة اكثر فأصبحت تبني بيوتاً لا يكلف الواحد منها اكثر من خمسة آلاف فرنك . كما انشأت ايضاً بيوتاً لم تكلفها اكثر من ٣٢٠٠ فرنك وبيوتاً لم تكلفها

---

(١) ملخصة من كتاب المساكن الرخيصة لجان لاهور من افاضل فرنسا وقد طبع حديثاً

اكثر من ٢٨٠٠ جعلت ايجار الاخيرة منها ١٤٠ فرنكا في السنة وفيها معظم مايحتاج اليه من الغرف والمطبخ والانبار وحديقة لطيفة ·

وانشأ الانكليز بيوتاً رخيصة في جنوبي لندن كما انشؤا منذ سنة ١٨٦٧ في شمالي انكلترا في بعض المدن الصناعية بيوتاً يقل ثمن الواحد منها عن ستة آلاف فرنك جعلوها درجات فالدرجة الاولى لاتتجاوز اجرتها في اليوم فرنكين وهكذا الى الدرجة الخامسة · وسكان هذه البيوت او مستأجروها لا يقبضون في يومهم اكثر من عشرة فرنكات ولا اقل من سبعة · واقيم في وسط تلك الحدائق التي انشئت البيوت عليها متنزه عام تكون فيه الاجتماعات وتقام فيه الشعائر الدينية وخصص محل منه للسماع والمراقص والجامع وفي جانب ذلك خزانة كتب عامة وغرفة كبرى للمطالعة وغرفة للعب « البلياردو » · وحذا حذو هذه الشركات كثير غيرها في جميع الاقطار الانكليزية وبعضها يدفع نحو خمسة في المائة فائدة الاموال التي يستخدمها في هذا السبيل · قال اللورد بيكنسفيلد سنة ١٨٧٤ عند ما رأى حياً من تلك الاحياء التي انشأتها احدى الشركات ليقيم فيها العملة : « انني لم اشعر في حياتي بدهشة اشد من دهشة عرتني عند ما زرت هذه المدينة الصغرى (شهافتسوبورغ بارك) وقد تجلى لناظري نجاح ساكنيها الذي هو ولا شك ضمان لارتقاء الامة · ولطالما جال في خاطري ان لا شيء يحمي حمى المدنية مثل البيت فهو مدرسة جماع الفضائل الاهلية وبدون مسكن لطيف الباطن يتعذر عليها في الحقيقة الوصول الى هذه الفضائل »

وكان يقتصر في امثال تلك المساكن سابقاً على الضروري من الحجرات ويعنى باسباب الراحة فقط اما الآن فقد ارتقت الحال في تلك الشركات شأن كل حي في الوجود فصارت لا تقتصر في بنائها على الضروري بعض الشيء بل رأت التأنق والزخرف لازم لحياة الساكنين ايضاً ·

جرت عادة بعض السكك الحديدية او الترامواىات في اوربا ان تسقط كثيراً من اجورها لمن يشترك بها من العملة لان الدور الرخيصة التي بنيت لم تكون في الغالب بعيدة عن المدن الكبرى وحالتهم المالية لا تساعدهم على اداء اجورها كسائر الناس فكان من شركات تلك البيوت ان عقدت مع ادارات السكك الحديدية مقاولات لمراعاة الساكنين في بيوتها مراعاة لا تكاد تصدق

ومن لم تساعدهم حالهم من العملة والفقراء في الغرب للابتعاد عن المدن كثيراً فقد جعلوا لهم مساكن متلاصقة بعضها ببعض · وكل ساكن حرّ في منزله وفيه يجد ما يلزم للبيوت فيتيسر بذلك للساكن ان يجيء نصف النهار الى بيته ليتناول الطعام مع اهله

وفي ذلك من الاقتصاد ما فيه اذ يمتنع رب الاسرة عن الذهاب الى المطاعم او الحانات وكلها مما تضر بصحته وكيسه معاً وبذلك لا يصعب عليه ان يدفع اجرة اغلى من الاجرة التي يدفعها البعيد عن مسكنه . وقد اسست شركات عظمى غنية في لندن منذ سنة ١٨٤٥ وكثرت في المدن البريطانية ورأس مال كل شركة من هذه الشركات لا يقل عن مليوني جنيه وتدعى امثال هذه الدور « دور السكن » (القشلاقات) وهي ابنية عظمى ذات خمس طبقات كل طبقة منفرد بعضها عن بعض يفصل بينها فناء متسع يلعب فيه الاولاد وقد فتحت فرج في الادراج وجعلت في بعضها ممرات ومنافذ يدخل اليها النور والهواء وليس فيها دهاليز مظلمة وهي على غاية النظافة على انواعها مستوفاة شروط الصحة كل الاستيفاء . ومعدل اجرة مسكن ذي ثلاث غرف في مثل هذه المساكن هو ٤٢٠ فرنك . واجرة الغرفة الواحدة نحو ١٣٧ فرنكا ومعدل اجرة من يسكنون في امثال هذه المنازل سنة فرنكات في النهار يدفعون اجورها صباح كل اثنين من كل اسبوع . وتسأل الشركة عن سلوك من يريد السكنى في بيوتها وعن مسلكه وذمته في اداء الحقوق وهي تؤثر الاسرة التي لها اولاد على غيرها على حين ان اكثر المؤجرين لا يرضون ان يكروا بيوتهم لمن كثر اولادهم فكان ذلك في فرنسا من جملة الاسباب في قلة النسل فيها

وقد اوصى المستر بابودي الاميركي سنة ١٨٦٢ باثني عشر مليون فرنك لانشاء دور من هذا النوع في وسط مدينة لندن ينفق ريعها كل سنة لانشاء بيوت جديدة وقال في وصيته انه بعد انقضاء قرن يكون الريع السنوي الناتج من الايجارات قد بلغ مبلغاً عظيماً فلا يكون في لندن عامل فقير واحد لا يحصل على مسكن موافق صحي له ولاسرته باجرة تناسب ما يقبضه

ولو لم ينزل كما قال الخبيرون معدل الفائدة بعد مرور مائة سنة على موت هذا الكريم لجاوز ما جاد به مليارين واسكن ٣٥٠ الف اسرة . وقد ظهر بالاحصاء ان الوفيات ولا سيما وفيات الاطفال تقل في بيوت المحسن بابودي اكثر من غيرها وان المواليد فيها اكثر وان مساكنه كان لها تأثير حسن في الصحة

والغالب ان هذه المساكن ناجحة في انكلترا اكثر من غيرها من البلاد الاخرى وفي مثل هذه البيوت بقليل من الذكاء والعمل يمكن للامم التي تقول عن نفسها انها متمدنة وانها تتقي ذلك الجذام الخبيث من المساكن الضيقة التي تموت فيها الصحة وتفنى القوى بما ينبعث من روائحها الخبيثة وما يتزاحم فيها من الاقدام والانفاس وما يتجلى عليها من الوحشة والبشاعة وما تكون سبباً له من الامراض والاختلاط الضار والانحطاط الطبيعي والادبي

ولم تكتف احدى الشركات في لندن بانشاء بيوت رخيصة بل انشأت مطاعم رخيصة للعملة. وانك لتدخل تلك البيوت والمطاعم فلا تشهد فيها اثرًا للفاقة والفقر . وقد نظرت بعض تلك الشركات الى مصلحتها المادية والى مصلحة الساكنين ورأت ان اعمالها لا تدوم الا اذا كان ربحها معتدلاً فكان معظمها يعطي ارباحًا ثلاثة ونصفًا في المائة وبعضها اكثر من ذلك اي بقدر ما يعطي القنصليد الانكليزي او غيره من اوراق بعض الحكومات وفي ذلك من الفائدة للعملة البائسين ما يخفف عنهم شقاء الحياة وفيه خدمة المجتمع باسره واي فائدة له اكثر من ان يرى الشقاء يقل فتقل معه الاحقاد والحسد والثورات ويكون ارباب الاموال آمنين على اموالهم من الضياع وهم يتجرون في غرض شريف . وقد اسفرت مشاريع انشاء هذه الدور عن ربح معتدل لمن قاموا بها ولذلك اقبل عليها هناك من لا يحبون المخاطرة باموالهم في المضاربات وغيرها

وما عدا هذه المنازل والدور الخاصة بالاسرات فان القوم اقاموا غرفًا مفروشة للايجار يسكنها رجل واحد او امرأة واحدة او فتاة او فتى . فقد انشأت جمعية الاحسان في باريز نزلاً او حيًا من مثل هذا واخذت تؤجر الغرفة الكبرى بفرنك في اليوم والغرفة الصغرى بستين سنتيماً وهذا النزل عبارة عن خمس طبقات نظيفة يكثر فيها النور والظرف وغرفة المائدة متصلة باحد المطاعم بشروط عقدتها معه وتُقدم لها الاطعمة الجيدة بثمن بخس ومثل ذلك تجد في شيكاغو باميركا وغلاسكو في انكلترا وغيرها في غيرها

ومما تفننوا بانشائه من المساكن منازل للعزاب اقامها في لندن اللورد روتون فبلغت اليوم نحو خمسمائة مسكن يسكنها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مستأجر ينزلون فيها ما احبوا ثم يغادرونها . وهذه المساكن اشبه بثكن جميلة آخذة من القوانين الصحية بنصيب وافر وكل مقصورة او غرفة منها اشبه بمربط الحصان يسكنها الفرد وتكون مفتوحة من اعلاها . والمغاسل وغرف الاجتماع والطعام مشتركة بين الساكنين وهي معرضة للهواء النقي والنور الذي ينعكس عليها من القرميد الابيض المعمول بالمينا على السطوح وغرف الاجتماعات فيها مزدانة بالصور ومزخرفة اي زخرف ويباع فيها الطعام والثياب باثمان بخسة واجرة الغرفة في اليوم ستون سنتيماً . ومع كل هذا الرخص لا تخلو الشركة القائمة بأمر هذه المساكن من ربح تجنيه . وبالسكنى في تلك البيوت يتخلص العامل او المستخدم من قسوة المؤجرين وطمعهم الاشعبي وينزل غرفة لا اوساخ فيها ولا اقذار بعيدة عن منهكات الصحة

وامثال هذه الشركات كثيرة في انكلترا وتفوق ما هو من نوعها في فرنسا وقد انشيء معظمها واديرَ بيد مشاهير من النبلاء كان لهم البرنس البرت والبرنس دي غال احسن قدوة يقتدون

بها وقد حملتهم على الاستكثار منها اسباب كثيرة منها الخوف من ازدياد البؤس هناك وما احدث في قلوب العقلاء من القلق ولا سيما كثرة السكان في لندن ونمو طبقات العملة

بلغ رأس المال الموضوع في انكلترا لانشاء بيوت رخيصة للعملة مليارَي فرنك وفي فرنسا مائة مليون فرنك ومعظم تلك الاموال تدفعها الحكومة كما هو الحال في المانيا وتدفع احيانًا من دوائر البلديات كما يجري في المانيا وانكلترا وروسيا . وتقوم بذلك في بعض الاحوال شركات مختلفة النوع والصفة . وما احلى ما تقوم به المانيا وتسلفه لعملتها ومستخدميها المساكين من الاموال لتقيم لهم بيوتا رخيصة ما امكن . وما عملها هذا لو دققنا النظر الا الاشتراكية العملية على ما تتجلى في العادة الاشتراكية في شمال اوربا اشتراكية ليس سداها ولحمتها كلامًا ولا خصامًا قلما ينتفع بها الا نافخو ضرامها ثم خصومهم ثم العدوّ الغريب

قال جان لاهور واني وان رأيت ان تسير الامور اوّلاً بمعونة الحكومة وحمايتها ولكني اوثر ان تعمل عزائم الافراد عملها مستقلة فان العزائم اذا جمعت عظمت بالاشتراك وانكلترا اعظم مثال في هذا الباب. نعم ان الاقدام الشخصي والشركات الخاصة انفع للامة في هذا الشان . لان القاء المسئولية على عاتق الحكومة لا يكون منه الا سوء ادارة وقلة اقتصاد وعمل متوسط واكلاف مفرطة فيما تتولاه . ثم ان الاعتماد ابدًا على الحكومة يورث الامة عادات ضارة تنزع منها الشعور بالاستقلال الذي هو احرص ما تحرص عليه نفوس العقلاء ويبعث بالتربية الحرة ولا سيما في بلاد دستورية

ان معنى مطالبة الحكومة ان تعمل كل شيء او مطالبتها بمعظم شؤون الامة هو تعويد الامة على ان لا تعمل لنفسها بنفسها شيئًا او انها تعمل التافه الحقير من الاعمال ولا يجب ان تدخل الحكومة الا حيث يضعف عمل القوة الفردية ويخفق اتحاد الشركات

الحكومة اذا نافست الافراد توشك ان تنزع منهم الهمة وتضعف فيهم الجهاد واذا تولت ادارة مثل هذه الدور تنتهي بأن تعين لها عمالاً كثيرين من لدنها على ان كثرة الموظفين هي اليوم الضربة القاضية على الامم كانتشار المشروبات الروحية وربما كانت من مفاسد عنصرنا وامراضه الوبيلة وفيها الخطر كل الخطر علينا . الالكحول سم الارادة والاحترام الشخصي والتوظف كما هو الآن عندنا لا يقل عنه ضررًا . وما التوظف في الحكومة لقاء رواتب تدفعها لموظفيها الا صورة من صور الرق والعبودية القديمة في مظهر جديد يضطر فيه صاحبه ان يطلق حرية روحه وفكره على حين ترى الخدام متمتعين بها . ولقد نرى حكومات في الغرب كحكومة المانيا مثلاً قد انتبهت لهذا النقص فما احبت ان تكثر من جيوش الموظفين كما هو الجاري في فرنسا وان تنهك ميزانيتها بالملايين للادرار عليهم

بل خصصت ملايين في ميزانيتها لاعمال من مثل هذه مصبوغة بصبغة الديمقراطية والاشتراكية العملية . اما انكلترا فلحسن طالعها ان نفوذها في رعاياها قليل والقول الفصل فيها لهمة الافراد

وقد قررت دار الندوة الانكليزية سنة ١٨٩٠ ان تمنح المجالس البلدية حق نزع ملكية البيوت القذرة وان تمد يد معونتها للشركات وتسلفها اموالاً في مقابلة رهن لاعادة تلك البيوت الى حالة حسنة تجمع الى النظافة الرخص و يعود الفقراء فيسكنونها فكان في ذلك من المنافع الصحية العامة ما ظهر اثره في وجوه السكان وصحتهم . ولا معنى لتساهل الحكومة وقلة عنايتها وهي المسيطرة على القانون ان تترك الناس وشأنهم اذا بلغت بهم الحال الى هذه الدرجة من البؤس على ان هذا البحث كان موضوع المناقشة في المؤتمر الدولي سنة ١٩٠٠ وانقسمت الآراء فيما اذا كان يجب صرف اموال الضرائب في اقامة بيوت رخيصة كما يجرى في لندن وبرمنغهام من بلاد الانكليز وفي فريبورغ واولم في المانيا وفي غوتنبورغ في السويد على يد المجالس البلدية الا ان الرأي العام كان مناقضاً لهذه الاشتراكية

وانك لتجد للمالك الصغرى في اوربا من العناية بامثال هذه المشاريع ما للممالك الكبرى وزيادة . فاذا كنا نسمع بنور المدنية ينبعث من المانيا وانكلترا وفرنسا في اوربا فان سويسرا والدانيمرك والسويد والبلجيك وهولاندة لا تقل عنها في المشاريع العامة الخيرية ان لم نقل انها تفوقها في اكثر حسنات المدنية لان اللقمة الصغيرة يسهل ازدرادها اكثر من الكبيرة كما يقولون ولان الصغير المدبر يتيسر له ضم اطرافه اكثر من الكبير المتوسع في املاكه . خذ مثالاً لذلك البلجيك فانها بفضل صندوق التوفير العام فيها قد اصبح خمسة عشر الف عامل فيها يملكون بيوتاً يسكنونها وذلك في مدة عشر سنين اسلف هذا الصندوق في خلالها اثنين وثلاثين مليوناً من الفرنكات للعملة والشركات و بواسطتهم عمرت هذه البيوت الرخيصة على ان امثال فرنسا والمانيا وغيرهما من الممالك الكبرى مهما عنين باعانة البائسين وايواء المساكين فلا يبقين الا مقصرات فان شركات المانيا وغيرها من الافراد اسلفت العملة ثمانمائة مليون مارك لمثل هذه الاعمال الاجتماعية وكذلك فعلت انكلترا واقرضت عملتها . فترى بعض شركات كشركة البناء فيها لا تبني بيوتاً بل تقرض مالا للعملة يبنون لانفسهم به فيؤدي العامل كل يوم اثنين عشرة فرنكات مثلاً اي ٥٢٠ فرنكاً في السنة بحيث يجتمع له بعد ثلاث سنين ١٦٠٠ فرنك وبذلك يبرهن بانه يستطيع ان يقتصد وعند ذلك يعمد الى شركة من شركات بناء الدور الرخيصة و يطلب اليها ان تقرضه مالاً لانشاء مسكن فيؤدي اليها اولا الـ ١٦٠٠ فرنك التي اقتصدها وثانياً مبلغ ٢٤٠٠ فرنك يدفعها بعد

فتكون كلها اربعة آلاف فرنك و يظل على تأدية عشرة فرنكات كل يوم اثنين من الاستهلاك . وقد كثرت انواع هذه الشركة وكان عددها في انكلترا ٢٢٤٣ شركة لا يقل رأس مالها عن مليار فرنك حتى ان بعضهم رأى ان بعض تلك الشركات تقبض من العملة المشتركين معها كل يوم اثنين مليون فرنك

كل هذه الاعمال لا ترى فيها للحكومة الا اثرًا ضئيلاً وما عدا ذلك فالافراد والشركات يدبرون ما يدبرون وكذلك رؤساء المعامل فان منهم من يهتمون هناك بمصالح من يعملون عندهم اهتمامهم بمصالح اولادهم ولا سيما في البلاد الجبلية التي لا ترى فيها الا صخورًا او مضايق واودية .

وقد استعمل بعضهم البيوت النقالة التي اخترعها الاميركان لتكون عونًا على استعمار بعض الاطراف البائرة والاصقاع المتنائية في الولايات المتحدة وهي مصنوعة من خشب الصنوبر وتختلف قيمتها بحسب ما فيها من الغرف من ٢٥٠٠ فرنك الى ٩٥٠٠ فرنك ينقله الانسان حيث اراد وكذلك البيوت الخشبية التي اصطلح عليها في بلاد النروج والسويد والروس وكلها من احسن الانموذجات في البيوت الرخيصة

رأى بعض الاجتماعيين ان تولي رؤساء المعامل من امر عملتهم ما يتولون في بعض بلاد الغرب فيقتطعون جزءاً من اجورهم لسداد ما عليهم من اثمان مساكنهم التي تكون ملكاً لهم بعد قليل من السنين — ان هذا العمل يفقد العملة استقلالهم بعض الشيء فيضطرون ان يعملوا في معامل رؤسائهم ريثما يوفون ما عليهم او يخرجون منها قبل وفاء ما عليهم فيلقون المشاكل وما عدا هذا المحذور فان تولي الرئيس او المعلم امر عملته والنظر في مستقبلهم وانشاء بيوت لهم او حملهم على الاقتصاد هو السداد بعينه

وفي بعض البلاد لا يتأتى الا ان يتداخل رؤساء المعامل في احوال مستخدميهم كبلاد روسيا مثلاً . ولذلك كانت مساكن العملة في اكثر ارجائها بديعة مستوفاة شروط الصحة ولا سيما في الاماكن البعيدة عن السكان والعمران مثل معمل (داغوكردل) لصاحبه البارون ادنجرن ستمبرغ فانه انشأ لكل عامل دارًا منفصلة عن دار جاره فبلغ عددها ٢٣٧ دارًا فيها عامة مرافق البيوت وحديقة للثمار واخرى للبقول وغيرها يقتطع من اجرة العامل خمسة وعشرين في المئة فما هو الا كلا ولا حتى يصبح العامل صاحب دار فسيحة وحديقة انيقة و يشرب السكان من آبار ارتوازية طاهرة بحيث تكاد لا تجد للحمى التيفوئيدية بينهم اثرًا مع ان هذه الحمى يكاد يكون انتشارها عامًا في البلاد الروسية واعمار من يعيشون في هذه المساكن اطول من اعمار من يسكنون في غيرها . وكم للعملة من بيوت لا يقحون

عيونهم عليها بعد حين الا وهي ملك لهم يخلفونها لذراريهم جيلاً بعد آخر . وان افاضل الروس واجدادهم لم يفتهم ان يبسطوا ايديهم بالعطاء للمساكين ينشئون لهم به دوراً حسنة تؤويهم فقد اوصى سولو دفنكيوف لمدينته باثني عشر مليون روبل لانشاء بيوت يسكنها البائسون المحاويج

ومن المعامل التي وسعت على عملتها ونظرت في رفاهيتهم معمل كروب الالماني فانه مثال المشاريع العظيمة ونموذج من حماية صاحب المعمل لعملته وعدم احتفاله بالمال في سبيل راحة من يقومون باعمالهم لنفعه ونفعهم . فان هذا المعمل وان شئت فقل المعامل المعروف بمدافعه وعدده الحربية صعبٌ عليه ان يُرهق العاملين فيه كما يرهق البشر بمصنوعاته فانشأ لعملته في مدينة اسين الجميلة على نهر الروهن ثماني مدن وخمس مستعمرات وبيوتاً منفردة يسكنها العاملون آمنين مطمئنين . فهناك زهاء خمسة آلاف مسكن يقطنها زهاء ستة وعشرين الف نسمة وقد ازدانت بالنباتات المعرشة والزهور البديعة واستوفت من داخلها وخارجها اسباب الظرف والزينة وكل ما يملأ العين قرة والصدر مسرة واقامت ادارة المعمل بالقرب من تلك البيوت بيوتاً اخرى جميلة فسيحة لعملة العاجزين والايامى من نساء العملة . ويتصل بالمعمل شركة تبيع المأكولات كما تتصل به مستشفيات تامة العدة وبيوت للنقاهة وقاعات للاجتماع والمطالعة وقد صرفت ادارة المعمل على انشاء هذه الدور نحو مليون جنيه .

وتفوق دور معامل كروب دور معامل الصابون في بورت سونلغت وقد عرضت ادارة هذا المعمل انموذجاً من الدور التي تؤجر في الاسبوع من اربعة الى خمسة فرنكات في معرض باريز سنة ١٩٠٠ فكانت محل العجب وربما كانت هي المعول عليها في المستقبل لايواء العملة وراحتهم ففيها جماع مرافق الحياة وفي كل منها حديقة للبقول تؤجر على حدة باجرة طفيفة جداً . وهذه الحدائق يمكن زرعها على ايسر سبيل بما انشأته عقيلة من عقيلات الكرم والعقل من شركة تؤدي للعملة ما يلزمهم من الارض والبذور « التقاوي » والنباتات لغرسها في حدائقهم او لتزيين بيوتهم بها

في انكلترا قرية لا تقل في الغرابة عن معامل كروب ومعامل الصابون المذكورة آنفاً وهي القرية التي انشئت في بورنفيل على يد طائفة الكواكرز البروتستانتية اعني بها معامل الشوكولاتا فان هذه الشركة رأت ان جمال مناظر المساكن مهما كان نازلوها فقراء مطلوب لذاته فبذل افراد من هذه الطائفة مالهم لانشاء هذه المدينة النادرة في شكلها واقامت لها اندية والعاباً وخزائن كتب ومحال للسباحة وبيوتاً تحف بها الخضرة والنضرة على طريقة جميلة

ليس فيها مظهر من مظاهر الزخرف الكاذب بل فيها جميع ما يلزم الحياة وبعضها مزين مبهرج منقوش ولا يكلف السكني فيها كل اسبوع اكثر من ٨ الى ١١ فرنكاً

وقد قال مدير المعمل لاحدهم بمناسبة انشاء هذه الدور ان المذاهب السياسية لا تأثير لها ولو كنا كلنا نقوم بالواجب علينا لبطلت الحروب بين طبقات الناس وليت شعري لماذا لا تقوم المجالس البلدية بمثل ما جرأنا نحن على القيام به ؟ وان الشرح ليطول لوعددنا المدن التي انشأها ارباب المعامل في الولايات المتحدة لعملتهم حتى ان حي العملة في شيكاغو يعد من اهم احياء تلك المدينة الصناعية الغنية واجملها . ولا تنس البيوت التي اقامها بعض ارباب المعامل في فرنسا ولا سيما شركة معادن لانس فانها احدثت اربعة آلاف مسكن مختلفة الاشكال لعملتها ومستخدميها وكذلك انشأت شركة مناجم لينين اربعة آلاف مسكن واجرة الواحد منها ١٥٠ فرنكا . وبعض المعامل تقرض عملتها دراهم لابتياع ارض وبناء مسكن فيكونون في الحال مالكين لها ويختارون الهندسة التي يريدونها وبعضهم يؤجر كل بيت في الشهر من فرنك وربع الى ثمانية فرنكات وربما أعطوه مجاناً في بعض الاحوال وقد استلف عملة منجم كروزي مليوناً وستمائة الف فرنك لانشاء بيوت لهم كما اقترض عملة مونسوليمين زهاء مليون

وفي مدينة سوشار من اعمال نوشاتل في سويسرا في معمل الشوكولاتا حي عظيم لعملة المعمل ومستخدميه جاءت بيوته على صور مختلفة منها ما اجرته سبعة عشر فرنكا ونصف ومنها ما اجرته ثمانية عشر فرنكا ونصف تدفع الشركة نصف اجرتها من عندها . ومن بيوت العملة التي استحقت الثناء مدينة فيلبرون من اعمال البلجيك في معمل الزجاج وفي مدينة ولفت في هولاندة وغيرها . وكلها بيوت ان امعنت النظر فيها تقضي بالثناء الكثير للساعين بها على خدمتهم الحقيقية للانسانية والوطن والاشتراكية العملية

وما عدا دور العملة والعناية بامرهم تجد في اوربا جمعيات احسان اخذت على نفسها انشاء بيوت رخيصة يسكنها كل فقير بدون استثناء . وقد بلغ عددها في فرنسا ٦٧ جمعية واقدمها جمعية باريز انشئت سنة ١٧٨٠ فانشأت بيوتاً مشتركة لا يكلف السكنى فيها كل اسبوع اكثر من ثلاثة فرنكات وربع الى سبعة وربع في مساكن فيها ثلاث غرف ومطبخ وقد استوفت شروط الراحة من هواء طلق ونور كثير ومحال يسرح فيها النظر وماء كثير طاهر يجري لمن يريد وكان للمنافسة القائمة بين تلك الجمعيات اثر مهم في نجاحها وسعيها كل حين لتحسين حالتها . والمنافسة اساس عظيم من اسس النجاح . وقد بلغ رأس مال بعضها زهاء مليون من الجنيهات ومائة الف مشترك وبعضها يبيع طعاماً وثياباً بثمن بخس

وما تربحه الشركة من ذلك تعود فتبني به بيوتاً · وقد ثبت بالاحصاء في بضع سنين ان عدد الوفيات في الالف من سكان هذه البيوت دون عدد الوفيات في غيرها من المساكن غير الصحية ·

ومثل هذه البيوت في نظامها وفائدتها كثير في الممالك الصغرى في اوربا فتجد في كوبنهاغ شركة بيوت العملة قد اقامت أُلوفاً من المساكن للعملة والشركة مؤلفة من العملة انفسهم وهي لهم بمثابة صندوق اقتصاد فيدفع كل عامل في الاسبوع قرشين اي نصف فرنك حتى بلغ ما جمع من ذلك سنة ١٩٠٠ مقدار ٥٧٦٩٩٣٠ كورونا (الكورون فرنك واربعون سنتيما) فيشغلون هذه الدراهم و يعملون يانصيب فيتجمع من ذلك عشرون كورونا في ستة أشهر لكل عامل وبعد عشر سنين يعطى اذا اراد مادفعه مع ارباحه او يأخذ داراً واذا مات يأخذ ورثته هذا المبلغ · ومما هو حري بالنظر في كوبنهاغ بيوت البحارة ومستخدمي البحرية التي انشأها الملك كريستيان الرابع

وشركة تحسين المنازل في سويسرا وميلان ونابولي ونيويورك حرية بالذكر ايضاً وكلها تدور على تحسين مسكن الفقير وبعضها يعنى بالتدفئة ايام الشتاء وباعطاء الماء السخن لمن شاء من الساكنين بلا مقابل والقاء الحرارة المعتدلة في مساكنهم وقدقامت بعض تلك الشركات بيد النساء فنجحت كما تنجح شركات الرجال · مثل شركة الآنسة كولنس في نيويورك التي انشأتها على مثال شركة الآنسة اوكتافيا في لندن لتطهير المساكن القذرة من قذارتها وتطهير نفوس ساكنيها من حمأة الرذائل فنجحت كلتا الشركتين واتتا بارباح حسنة · وقد بدأت حكومة البراز يل منذ سنة ١٨٨٢ تساعد في انشاء البيوت الرخيصة فاصبح عددها في ريوجانيرو وحدها سنة ١٨٩٧ — ٥٠٠٠ مسكن · ومن تلك الشركات جمعيات اخذت على نفسها نشر الدروس الاجتماعية والدعوة الى تعلمها فكانت من انفع ما يكون من الاصلاحات العظيمة التي ادخلت على بيوت الفقراء وجعل بعضها غايته درس الاسباب التي تنشيء الاسرة على اساس طبيعي وهو تمليكها ارضاً تحرثها وداراً تسكنها · تتذرع للوصول الى هذا الغرض بكل وسيلة تمكنها من نشر المطبوعات ودعوة الحكومات او البلديات او ارباب الغنى الى انشاء صناديق لايجار بيوت بثمن بخس وتطالب بسن قانون تعفي الحكومة فيه من الضرائب ما يملكه الفقراء من المساكن والاراضي وتتخذ كل سبب ليتيسر للناس اقتناء مثل هذه البيوت او بناؤها او انتقالها ومنها ما يعطي المحاويج بيوتاً يسكنونها وتحميهم بدون واسطة الحكومة مما يصيبهم من الفاقة ايام عطلتهم ومن الشقاء وموت رب البيت قبل الاوان وهكذا تجد الحركة قائمة في جميع البلاد الفرنجية لتعميم هذه

المبادىء وتحسين حال البائس الفقير وهي كل يوم في انتشار وكثرة بحيث لا ينسلخ هذا القرن العشرون في اوربا الا وقد انحلت فيها المسألة المعروفة بالمسألة الاجتماعية وان شئت فقل اهمها اذ يكون جميع العملة متمتعين ببيوت يسكنونها والشركات والجمعيات تحميهم من الفقر المدقع بعض الحماية وتقل بذلك الامراض كما يرى بعض الباحثين في احوال تلك المجتمعات اذ استدلوا على ذلك بان المساكن الطاهرة الصحية قد قلت فيها الوفيات عن المساكن القذرة والاكواخ الحقيرة التي هي في الحقيقة منبعث السل وغيره من الادواء المنهكة لجسم المجتمع . وقد قال الدكتور روم ان المسكن والطعام والعمل هي السبب في كثرة الوفيات بين العملة فالواجب الاسراع في اصلاحها او بغيرها لا اصلاح ولا فلاح وكل ذلك متوقف على الارادة اذا صحت والافراد اذا اقدمت وتكاتفت

لم تكتف الجمعيات في اوربا واميركا بانشاء المساكن للفقراء ونقشها والاستكثار لها من مرافق الراحة واسباب الصحة بل احبت تجميدها وتزيينها والتأنق في داخلها وخارجها لانهم رأوا السكنى في بيوت رخيصة لا تغني الغناء المطلوب وحده .

ارادت من الدور ان تكون معرضة للهواء محببة الى القلب وان لا يكون اثاثها وفرشها كثيبًا قذرًا بل ان تكون مائلة الى البساطة تجمع اليها حسن الذوق والظرف لان عصر البيوت القذرة الضارة قد انقضى كما ينبغي القضاء على المساكن البشعة من داخلها الكئيبة التي تهزل الساكنين فيها من البائسين وهم لا يشكون كالدود الذي يعيش في القاذورات .

ارادت تلك الشركات ان تستعيض عن الاثاث البشع السيء الصنع باثاث يكون بسعره او اقل ولكن على صورة حسنة وتزيين ضروري وان لا يفرشوا بيوتهم فرشًا رديئًا كما هو الحال في بيوت الفقراء في اكثر بلاد الشرق . وذلك لان النظر الى هذه البشاعة مما تضيق به الصدور ويجرح القلوب كما تتأذى به العيون وتتقزز منه النفوس ولان لتحسين الذوق دخلاً كبيرًا في نهضة الامة

ترى في البلاد الديمقراطية ان الفقراء من الرجال والنساء يحاولون ان يكونوا في ملابسهم كاهل الطبقة الوسطى على ان الالبسة التي كانوا يألفونها فيما مضى لها من الرونق ما ليس لما يلبسونه اليوم على تكلفهم التقليد . وقد رأت بعض الجمعيات انشاء البسة لاهل الطبقة الدنيا خاصة يشاركها في لبسها اهل الطبقة الوسطى وتكون رخيصة الثمن نافعة في صحة الاجسام وصحة الاكياس وان يكون لمنازل اهل الطبقات النازلة ما لاهل منازل اهل الطبقات الوسطى حتى لا ينكسر خاطر الفقير ولا ينقصه شيء من راحة الاجسام ولذلك كان اول عمل يعملونه ايجاد طريقة لتجميد البيوت الفقيرة وتزيينها كما تجمد بيوت الاغنياء وتزين

خذ مثالاً لذلك الجدران فانهم رأوا ان تزين او يوضع عليها ما يزينها من البسط · وقانون الصحة يقضي بان يتيسر غسل الجدران وقد رأوا ان الورق الذي يجعل على الحيطان ويغسل لا ينفع الفقراء لانه غالي الثمن وان الاحسن ان تنقش بالزيت وربما كان هذا النقش غالياً ولكنه اثبت وافرح للنظر ولا يصعب تطهيره كل مدة ويجعل الساكن عليها صوراً ورسوماً ومصوّرات واسونة للثياب وغيرها مما لا يتعذر في اوربا اقتناؤه لرخصه وهو يزيد المكان رونقاً وبهجة

ورأوا ان النوافذ ينبغي ان تكون ستائرها من قماش يمكن ان ينفض او يغسل بسهولة فيكون من البفتة لا من الحرير والاطلس او الشاش المزين بانواع النقش والزينة اما النوافذ التي في اعلى المنازل فتترك بلا ستائر · والأولى ان تكون الستائر متناسبة مع نقش الغرفة وتعلق بسيخ وحلقة ·

اما سرر النوم فيجب ان تكون بحسب رأي بعض اهل الصحة مكشوفة بدون كلة (ناموسية) من اعلاها لانه ثبت ان هذا القماش الموضوع يحبس نفس النائم ويحفظ الجراثيم الضارة بل يساعدها على النمو والتعشيش وينبغي ان تناط من عند رأس السرير قطعة من القماش تنزل وترفع بحيث تمنع مجرى الهواء عن رأس النائم فقط ولا تكون هذه القطعة طويلة وتكون من ناحيتين بحيث ان النائم حيثما انقلب لا تؤذيه اشعة النور اذا اتجهت نحوه وينبغي التقليل من الفرش ما امكن بحيث يسهل نفضه او غسله · كل هذا ويراعي في الاثاث الاقتصاد والجودة فيكون متناسباً مع نقش المنزل · وتخير الاشياء المنطبقة على الذوق لا يكلف الا بعض عناية وبذلك تعود بعض العادات في بساطة البيوت التي كانت مألوفة · وليس الجمال في الاثاث والرياش المتكلف في صنعه والمزين من وراء الغاية بل الجمال في الفرش البسيط الاقتصادي النافع المناسب · وانا لنرى احسن زينة في البيوت بانكلترا هي ما كان منها من اصل ريفي مألوفاً في القرى والدساكر الا انه يجمع الى البساطة نظافة وحسن ذوق

وقد حسب ما ينبغي لفرش بيت الفقير على هذه الصورة وهو ان تفرش غرفة المائدة وغرفة للاستقبال صغيرة وثلاث غرف للنوم فرشاً بسيطاً كما يكون البناء رخيصاً بالف وخمسمائة فرنك اما ان يدفعها الساكن دفعة واحدة واما ان يستلفها من الجمعيات والشركات التي اخذت على نفسها في اوربا تقديم احسن الفرش للبيوت باثمان متهاودة فيدفع عن هذا المبلغ فائدة طفيفة وهي خمسة في المائة · واذا استأجر العامل او الفقير داراً من مثل هذه فلا تتجاوز اجرتها في اليوم وهي مفروشة احسن فرش صحي فرنكاً وثلاثين سنتيماً

وبهذا رأيت ان لفرش البيوت في اوربا جمعيات كما ان فيها شركات وجمعيات لتقديم الطعام الرخيص والالبسة الرخيصة والمساكن الرخيصة بحيث آلى بعض ارباب العقول في اكثر الممالك الافرنجية ان لا يتركوا بيتاً قذراً ولا بشعاً وان تكون بيوت الفقراء كبيوت الاغنياء لطيفة الداخل والخارج فمتى يا ترى ينسج الشرق على مثال الغرب في مثل هذه الاعمال النافعة والحضارة الرافعة

مثال الامة الراقية

جرت العادة ان تقتدي الامم بعضها ببعض ولا سيما فيما فيه اعلاء كلمتها وتمام سعادتها فتطرس الامم النازلة على آثار الامم الناهضة . قال هنري ليشتنبرجه احد اساتذة كلية باريز في خاتمة كتابه المانيا الحديثة ونشوئها ما تعريبه :

لم يكن لالمانيا في اوائل القرن التاسع عشر كيان يدل على انها دولة عظمى بل كانت اشبه ببناء يتداعى والناس من حوله لا يعبؤن بما يجري له . فلم يكن هناك دولة يصح ان تسمى المانيا بل كان امراء من الالمان منشقين على انفسهم يتحاسدون وقلما يحرصون الا على مطامعهم السافلة في الحكومة وهم اهل لكل تسفل لا يتحامون ارتكاب الخيانات على ضروبها للاحتفاظ بسلطتهم الثمينة وتقوية امرهم وليس لهم من الكفاءة ما يستطيعون معه توجيه وجهة مطامعهم المنبعثة عن انانيتهم المجسمة نحو ما فيه نفع الامة بل كانوا يؤهلون بالغريب ويحالفونه لقضاء مآربهم يعلنون الحرب على ابناء وطنهم اذا سما لهم امل بجلب بعض النفع من غدرهم وخيانتهم . وبين ظهراني مثل هذه الامة المنقسمة الضعيفة لا يرجى ان تقوم قائمة للحياة السياسية وأنى يكون لها ذلك ونظام الحكومة المطلقة فيها ضارب بجرانه وكثيراً ما يستحيل الى استبداد يبيد الخضراء والغضراء والناس مع هذا خاضعون خانعون حتى كادوا يقربون من حد الرق والعبودية

ابتعد الفلاحون وسكان المدن وارباب الصنائع واهل الطبقة الوسطى عن الاشتراك في الشؤون العامة واستسلموا لظلم الحكومة وطبقة الاشراف على ما فيه من النكد وهم ضعاف الحول والقوة لا قبل لهم برد عاديتهم عنهم ولم يعودوا يبالون بتة بالحياة الوطنية بل نحوا الى دائرة اشغالهم الخصوصية

كل هذا والحياة الاقتصادية في الامة ضيقة النطاق حقيرة الشان والشعب مشتت

مبعثر والبلاد فقيرة والمال قليل والصناعة تكاد تكون عدماً . فلم يبق للخروج من مأزق هذا الشقاء الا مخرج واحد وهو تنمية العقل والصناعة فنزلت طبقة الخاصة المتعلمة الى هذا الميدان وهبت هبة حماسية صالحة

وفي تلك البلاد الالمانية المشتتة المغلوبة على امرها التي كاد بوم الخراب ينعق فيها بما تواتر عليها من الحروب والغارات ازهر التهذيب الادبي والفلسفي الذي ربما كان اجمل سطور المجد الذي تفاخر به هذه الامة . ودخلت المانيا من ذاك العهد في ميدان العمل وتخلت عن عالم الخيال والاحلام . واذ كانت انكلترا استولت على البحر وفرنسا على البر لم يبق لالمانيا كما جاء في بعض اقوالهم المعروفة الا ان تؤسس لها ملكاً في الهواء فانشأت مملكة لا نظير لجلالها ولا قرين لعظمتها

ولم تلبث هذه الامة المتقهقرة الساقطة من حيث ادراك الحقائق الارضية المولعة على ما يظهر بالخيالات والترهات ان نشأت فيها فكرة الاقدام على الاعمال وظهر للحال بان الشعب الالماني ربما كان الوحيد بين شعوب اوربا في استعداده للتقدم في الجهاد الاقتصادي . فهو لم يقتصر في نهضته الغريبة على اللحاق بالامم اللاتينية التي سبقته زمناً الى طريق الارتقاء المادي بل تقدم عليها حتى جعلها وراءه . وكاد يهدد اليوم انكلترا ايضاً فيما كانت لها المكانة المكينة فيه منذ القديم في الامور الصناعية والتجارية

فبدا هذا الشعب البطيء الثقيل بعض الشيء القوي في ذاته السالم في نفسه انه مستعد لترقية المدنية وان بلاده صالحة لغرس بذورها . بيد ان الالماني لا يعد متفنناً ولا محباً للذات ولا مغالباً للشهوات على مثال الامم اللاتينية . هو لا يعشق مثلها البطالة والفراغ ولا يرغب في العيش في التغزل بالجمال وحسن العشرة بل انه يميل من فطرته الى الجد وهو قوي الشكيمة عامل لا يعرف الملل سليم الطوية

سار منذ القديم على نظام دقيق في الاخلاق . وخضع منذ ازمان لقانون قاس في التدريب على الجندية . وفي مثل من كانت هذه طبيعته خالية من الزهو والظرف ولكن فيها المتانة وطول الاناة كبرت ارادة قوية صبورة منظمة لها من الكفاءة ما تستطيع معه ان تأخذ في السبيل الذي سلكته والغاية التي قصدت اليها من دون ان يلهيها الهوى والشهوة وبغير ان يثنيها ثان من صعوبة او تحول دون امانيها عقبة

تطمح المانيا الى بسطة سلطانها مدفوعة الى ذلك لا بعامل الرغبة في ان تكون في مقدمة الامم وان تظهر شانها وامرها ولا من اجل المنافع المادية التي تحاول نيلها بل انها تريد رفعة الشأن لذاتها لانه مقياس حقيقي لما يساوي به رجل او جماعة او حزب او امة

المانيا مسوقة الى المشاريع التجارية بنابل من ناموسها الاقتصادي تضطرها اليه ضرورة ملازمة لها ملازمة محتمة . الالماني كثير النسل للغاية . فقد زاد سكان المانيا من نحو ٢٥ مليونًا سنة ١٨٤٦ الى زهاء ٣٦ مليونًا سنة ١٨٥٥ الى زهاء ٦٠ مليونًا سنة ١٩٠٥ وانت اعلم بان هذه الزيادة تزيد في عدد الاسر والبيوت

وهذا النمو من الامور التي ساعدت على نماء الثروة بينهم لان الزائد كل سنة من ابناء الامة ينشأ منهم لالمانيا جيش من العاملين الذين تحتاج الصناعة اليهم في ترقية شؤونها وقد انتشر فكر الاقدام على الاعمال في الطبقة الغنية من الامة انتشارًا كثيرًا . وانك لترى رب الاسرة منهم غير طامع ان يترك لابنائه كما هو الحال عند الفرنسيس مقامًا كريمًا يعده لهم ودخلاً مضمونًا يتمتعون به بعده بل انه يربيهم تربية متينة ويجهزهم لجهاد الحياة باقوى جهاز ثم يتركهم وشأنهم يجدون لهم في الارض مرتزقًا

فيروح الشاب يتعب ويفرغ الجهد مخافة ان يسقط عن المكانة التي بلغها اهله . وهكذا كانت كثرة النسل في هذه الامة مهمازًا قويًا يحث المانيا على النهوض الى طلب الثروة والشوكة . وهذا الجهاد في سبيل العظمة يكبر ويفخم في عامة شؤون الحياة الالمانية وفي جميع فروع الجهاد البشري . فتراه متجليًا في الافراد وفي الاحزاب السياسية وفي الطوائف الاجتماعية وفي الحكومات المتحدة وثابتًا بمجموع الامة الالمانية بامرها فيما تظهر فيه من مظاهر بسط السلطة وما حازته من الاشتراك في سياسة العالم . هذا الجهاد يرمي الى رفعة شأن الجندية والبحرية والنفوذ السياسي والقوة الاقتصادية والصناعية والتجارية والتقدم العلمي . لان العلم ايضًا صورة من صور السلطة البشرية ولاشك ان المانيا حازت قسطًا كبيرًا من نجاحها بواسطة علمها

صحت العزائم على التدريج وقويت ارادة السيادة وأشربتها روح الالماني فمال الى التهذيب بكليته . ولم يكن ميل الالمانيين الى الفنون ميلهم الى القوة لان الفنون كالدواء المتمم لدواء افعل منه فهي لا تقصد من ثم لذاتها . على انه مما يجب ان يعرف ان رغبتهم في القوة لم تكن رغبة في القوة الوحشية الظالمة ذات الاهواء والاحكام العرفية التي تظلم عن تغفل وهوى وهي منافية للحق والعدل بل ان رغبتهم كانت مصروفة الى القوة الذكية المفكر فيها التي تقبل لانها مشروعة بفضيلتها الذاتية لا لأنها نافعة عاقلة . ومن العادة ان تقوى القوة على الضعف وان تخضع الطبقة النازلة للطبقة العالية . الالمان احترموا القوة التي هي حق ايضًا ولانها تعبر عن تقدم حقيقي يقضي العدل بان يعترف به ويحترم

جهاد الالمانيين لبسط سلطانهم يجري على ترتيب وتنسيق ما امكن فان نظام حرية

المنافسة وهي عبارة عن محاربة الفرد للمجموع وتحريك الانانية الشخصية يحتوي في مطاويه ولا شك مبدأ فوضويًا اقرب الى الانحلال منه الى التماسك . فيتأتى له ان يكون كما كان سابقًا في ايطاليا على عهد النهضة مثارًا للشخصيات الساخطة التي تنازع غيرها للتفوق عليه واليأس آخذ مأخذه ويهلك بعضها بعضًا بلا شفقة . بيد انه من الثابت ان ارتقاء مبدإ حرية العمل في المانيا لم يؤد الى نتائج من هذا القبيل . فان المنافسة بين الافراد وبين المجموع على اكثر ما تكون من الشدة ولكن لا تستحيل ابدًا الى فتن لا نظام فيها

طال جهاد المانيا في سبيل الوحدة السياسية واستعر النزاع بين حكوماتها في امره فانتهت حاله بحرب . ولما اصدر المحكمون من النائبين عن الاهلين حكمهم في هذا الشأن سكنت الكراهية و زالت الاحقاد ورضيت الامة في الحال بما وضع لها من نظام جديد وبدلاً من ان تضيع الوقت في شحناء لا فائدة منها وتنهك قوتها في الانتقاض العبث راحت تجمع قواها لدفع غارة الحروب السياسية والاقتصادية التي تتوقعها من ناحية اوربا والعالم فكان شأنها في نزاعها شأن الاحزاب السياسية التي يشتد بينها الخصام ويدوم ولكنه لا ينتهي في الغالب بفتن شعواء . وربما كان بين الطبقات المختلفة عندهم اشد مما هو عند غيرهم ولكنك لا تجد فيه ما يستشم منه ريح الثورة حتى ان الفكر الاصلاحي يقوى شيئًا فشيئًا بين الحكومات التي ترى التوسع في جمع رؤوس الاموال وبين الاشتراكيين الالمان ممن آلوا على انفسهم الا ان ينافروا الحكومات فتراهم يقضون بدون تقية على كل ما من شأنه ان يدعو الى القسوة ويتحامون الوقوع فيما يؤدي الى اتخاذ سلاح القوة ولو كان فيه تحقيق امانيهم وابلاغهم غاياتهم وهم يصرحون جهارًا بكرههم لمقاومة روح الجندية وللاعتصاب العام

ترى المنافسة الصناعية والتجارية مشتدة كل الاشتداد وهم الافراد بالغة اقصى الشدة والجرأة ولكن المانيا وهي مهد الشركات العظمى المؤلفة من ارباب المعامل او العملة هي على التحقيق من البلاد التي بذل فيها الجهد لتنظيم اسباب الانتاج ووضع المراقبة على اسواق المقايضات ليكون من ثم للمنافسة حد محدود ويقلل من معاودة الازمات واضعاف شدتها اذا حدثت

وعلى الجملة ان الجهاد الشخصي على اشده في المانيا ولكن لا يؤدي فيها الى فوضى الافراد وربما كان ذلك من الصفات التي اختص بها هذا العنصر .

الالماني يقل شعوره بالنسبة لغيره من الامم الاخرى في الحاجة الى ترقية شخصيته ترقية تامة فيختار برضاه ان يحشر نفسه في بعض اعمال خاصة ينصرف اليها بجملته . ويؤثر عن طيب خاطر ان يفادي بجزء من شخصيته وذاتيته ويكتفي كما يقول التعبير الالماني بان

يكون منه جزءٌ من انسان بل ان يكون منه اخصائي يقوم احسن قيام بعمل اختص به كل الاختصاص دون ان يعنى بما يخرج عن الدائرة التي وضع نفسه فيها وآلى ان لا يتعداها · ومن اجل هذا السبب ايضاً يختار ان يشرك غيره معه وان يكون تبعاً له ولا يرى حرجاً في الانضمام الى الجماعات التي تكثر في المانيا

يؤثر الالماني ان يجعل نفسه جزأً متمماً لبناء متسع تتألف منه آلة تختلف الحاجة اليها والاستغناء عنها · وهو يسعد بأن يفادي بحظ نفسه من اجل منفعة تأتي ببعض الاعمال الكبرى ويخلص في سبيل نجاحها · وبالجملة ان في الالمان غريزة التهذيب بنظام واحد فيحسن الالماني الطاعة كما يحسن الامر ويعرف تنفيذ الاوامر الصادرة اليه على غاية التدقيق كما يعرف بذل الهمة في الدائرة المختصة به

الشعب الالماني يخرج الاعضاء النافعة الرائعة من بنيه ممن هم عمدا بنية المجتمع الضخمة اللازمة لقيام الاعمال المهمة من جيوش وطنية وادارات كبرى ومشاريع متسعة من مالية وصناعية وتجارية ونقابات ·

الالماني لا ينفك عن الانضمام والتآلف حتى في الفنون التي من شأنها الانفراد وانك لتراه حتى في الموسيقى يجري على نغمة واحدة · وهذا الذوق في الاشتراك والخضوع طبيعي فيه فهو لا يكره على الخشوع للنظام صاغراً بل يقوم به والسرور ملء جوانحه · مواخصائي يلذه ما هو فيه ولا يأسف على ما يبقى خارج افقه على الدوام · نعم هو يقتنع بالوقوف دون حدود كفاءته والسرور يبدو عليه ممزوجاً بالزهد وربما ظهر عليه شيء من الاحتقار والاستهزاء بالذي يعرف القشور ويحشر نفسه فيما لا يعلم ويدعي انه يناقش بل يحل المسائل السياسية والدينية والفنون والاخلاق · صاحب الجد في الالمان يحتقر بنظرته المرتجلين والمقتضبين الذين يخبطون ويخلطون ومعلوماتهم ناقصة سطحية ممن يعانون كل موضوع ويتسلقون عليه وليس لهم سلاح ماض من الكفاءة · ومن خلق الالماني ان لا يلقي بنفسه خارج المحيط الذي يعرفه وان شئت فقل انه يقل فيه الفضول ويرى ان غاية العالم هو ما اختص به وتفرد بعلمه

كان من نتائج هذه الغريزة في الالمان من الخضوع للنظام وترتيب طبقات المجتمع عندهم اعظم حافظ للامة · الفكر الشخصي في المانيا ثاقب للغاية لا يتلكأ امام مشكلة مهما كانت ويبحث فيها كلها مستقلاً كل الاستقلال · على انه يكره التطرف في حالها · فليست المانيا من حيث الامور الدينية مثلاً جاحدة ولا كهنوتية ولا تنبذ مكتشفات من مكتشفات من ينكرون الوحي من طريق العلم بل ترى ابداً البداء شيء من الاحترام لحكاية الغريزة

الظاهرة من الشعور الديني في الانسانية وهي تحاول ان توفق ما امكن بين العلم والايمان والحقيقة العقلية والحقيقة النقليدية كما انها في الشؤون السياسية تقصد الى ان تمتع رعاياها بمبدإ السلطة ومبدإ الديمقراطية فلا تقبل اصلاً السلطة الاستبدادية المطلقة بل ترى احترام الحكومة المطلقة لما فيها من ترتيب الطبقات · فالديمقراطية الالمانية لا تطلب ان تكون بيدها وحدها سعادة الامة بل ترى عن رضى ان يشترك في السلطة معها زعيم عالي المقام لا توجده هي بل يكون مما اوجدته التقاليد ·

وبعد فانه يتجلى ان المانيا بفضل معنى النظام والترتيب المغروس في ابنائها آخذة في الترقي لادراك معنى التكافل في الحياة الذي هو على التدريج مهذب بل متمم لمذهب حرية المنافسة ومن هذا على ما ارى كان ارتقاؤها موضوع اعجابنا في الاكثر · فان انتشار الاحزاب السياسية والعصابات الاجتماعية ونقابات ارباب الاعمال والمعامل والعملة واتساع دائرة اعمال الضمانات الاجتماعية كلها تدل على ما تم لفكر التكافل من النجاح النامي · فحل بالتدريج الشعور بضرورة الجهاد في التكافل لاحراز القوة محل هيجان المنافسة العامة والحرب التي يثيرها الفرد على المجموع · فالمانيا تتوقع وترجو ان يكون لها بعد دور الانقلابات العظيمة والتقلقل وقلة الامن الناشئين من ارتقاء مذهب حرية العمل ما تدخل معه في دور النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي يكون الى السلامة مرتباً على قانون ثابت وايمان وخلق اقل تردداً · فهي تطمح بذلك الجهاد العظيم في سبيل الوحدة السياسية والثروة المادية ان تنهض نهضة التشمير نحو الكمال في التهذيب والتكمل في التفنن · ولا شك ان هذا مما نقرأ في صفحته جمال المستقبل · ويكفي في هذه الآمال على ما يتسرب اليها من الريب انها لا تبدو غير ممكنة التحقيق في عيون الالمان فينظرون الطريق التي قطعوها بما يحق لهم من الاعجاب ويرون المستقبل الذي اليه يسيرون بشيء من حسن الظن فيه

بقي علينا الآن ان نثبت ان الشعور بالتكافل لم يبرح وطنياً صرفاً عند الالمان فالالماني يشعر بان مسئوليته في التكافل مع ابن جنسه لا تزال في زيادة اما مع سائر الامم فانه لا يرى بأساً من الانطلاق في حريته ومنافستها ·

سير العلم والاجتماع

خرائب منفيس

قدم الاستاذ فليندرس بتري تقريره عن اعمال البعثة الانكليزية الاثرية في مصر وقد جاء فيه ان هذه السنة صرفت كلها في البحث في خرائب منفيس القديمة فعنيت البعثة اولاً ان تعين مواقع الابنية المهمة المختلفة التي ذكرها كتاب الروم ولا سيما هيرودتس فوجدت مذبح معبد باتا العظيم وبيت الحياة الذي كان سطحه عبارة عن ستمائة متر طولاً واربعمائة وخمسة وستين متراً عرضاً . وعثروا على عدة شهادات تدل على ارتقاء التمدن ولا سيما على مصانع ترجع الى الدولة الثامنة عشرة (١٨٠٠ سنة قبل الميلاد) ومن جملة هذه المصانع رفوف لتوضع عليها النذور يشاهد عليها آذان نقشت عليها هذه العبارة : « يا باتا اسمع لدعوة من يدعونك ممن يعبدونك » واهم اكتشاف في هذه المصانع اكتشاف الحارة التي كان التجار الغرباء مقيمين فيها وموضع معبد الزهرة الآسياوية هاتور . وفي هذه الاماكن ظفروا باوان خزفية والظاهر انها مما صنع في غير مصر ومنها يستدل على ما كان بين سكان منفيس والامم القاصية من الصلات كما عثروا هناك على تماثيل لملوك الفرس وعساكر الفرس وقبائل السيتيين وعلى تمثال لا شك في انه هندي الاصل وهو يمثل رجلاً بوذياً . وعثروا ايضاً على رؤوس يونانية مختلفة الاشكال . وكل هذه الآثار وغيرها تثبت ان سكان منفيس كانوا اخلاطاً من النزلاء والدخلاء واكتشفوا ما لم يكونوا يتوقعونه وهو مصنع جميل انشأه آخر ملك من السلالة التاسعة عشرة المصرية واكتشف بالحفر في ضواحي سوهاج في مكان مدينة اتيبري القديمة بقايا معبد للبطالسة الذي انجزه بعد زمن كلود وهاردين ثم اكتشفوا بقايا كنيسة كاتدرائية انشئت على عهد قسطنطين .

العدوى من الحمى

كان من المقرر عند الاطباء ان من يصاب بالحمى التيفوئيدية ويبرأ منها لا يحمل جراثيمها الى غيره ويبقى جسمه مطعماً بها ولكن ثبت في انكلترا الآن ان من تصيبه هذه الحمى الخبيثة وينجو من اخطارها يبقى مدة ولو عوفي كل المعافاة والاقتراب منه ينقل العدوى الى السليم المستعد لقبول جراثيمها فرأت انكلترا ان تسن قانوناً تمنع به الناقهين من الحمى التيفوئيدية من الاختلاط بغيرهم وقد كانت المانيا سبقت منذ بضع سنين وقضت على من يسلمون من فتكات هذه الحمى ان يخضعوا زمناً لنظام التطهير وفحص اجسامهم في محطات بكتريولوجية تقام في جميع البلاد المصابة بالحمى

تصليح الساعات

اجرى الاستاذ بيكوردان الفرنسوي في فينا تجارب بالتلغراف اللاسلكي لاجل اصلاح الساعات الدقاقة والكبيرة بحيث يتيسر بعد الآن حتى على من لم يسعدهم الحظ بمعاناة صناعة الساعات ان يصلحوا بانفسهم ساعاتهم

جرذان الماء

هذا الجرذ ويسمونه Lemmings يشبه جرذان الماء وهو في الاصل من جبال نروج وكثير التناسل جداً ولذلك يضطر الى الهجرة فينزل من الاعالي اسراباً اسراباً يخرب ما في طريقه من الغلات حتى ينتهي الى شاطيء البحر فيقذف بنفسه فيه حتى يغرق احياناً وكثير منه تسطو عليه اثناء مسيره العقبان والبواشق والنسور والبوم ونحوها من الكواسر ولكن منه ما يصل الى السويد ويتناسل فيها اي تناسل على كثرة محاربة السكان له لابادته ومن المحتمل ان هذا الجرذ ينقرض بعد بضع سنين من تلك البلاد ان لم يهرب الى بلاد اخرى في اوربا وينتشر بين اهلها على غرة منهم

غرفة ساكتة

انشؤا في مدينة اوترخت غرفة مبنية على صورة تمنع وصول الاصوات من خارج مهما بلغت من الشدة وتؤلف جدرانها من حائطين جعل كل منهما من عدة طبقات من المواد المنفصلة بعضها عن بعض بفراغ والحائط الداخلي منها قد جعل ظاهره وباطنه من القش والطباشير والحائط الخارجي من الخشب والرمل وحجر الكذان والجبس فيكون مجموع الطبقات ستاً ما عدا طبقات الهواء وكذلك يصنعون سقف تلك الغرفة وارضها وطولها متران وربع ويدخل اليها من بابين وهي لاجل التجارب الفسيولوجية

فسيفساء رومية

وُفق المسيو تورنو المهندس في سلانيك الى تنظيف قطع من الفسيسفاء البيزنطية في كنيسة سانت صوفي (اياصوفيا) في سلانيك كانت مغطاة بدهان من الزيت وارجعها الى حالتها الاولى وقد تبين له ان صورة العذراء الموضوعة في صدر الكنيسة قد صنعت في القرن الثامن للميلاد . وهذه القطع ثمينة جداً لانها من صنع ذاك العصر

رواتب الملوك

يقبض قيصر روسيا اربعين مليون فرنك راتباً سنوياً ويقبض امبراطور النمسا والمجر

ثلاثةوعشرين مليوناً وامبراطور المانيا عشرين مليوناً وملك انكلترا اثني عشر مليوناً وملك ايطاليا عشرة ملايين اما رئيس جمهورية الولايات المتحدة فيأخذ ربع مليون ورئيس جمهورية فرنسا مليوناً ومائتي الف فرنك

الخادمات الفرنسويات

تشكو فرنسا من قلة خادماتها مع ان فيها سبعمائة الف امرأة تخدم في البيوت الا ان عدد الخادمات كان فيها منذ عشرين سنة ضعفي ماهوالآن ولذلك كثر الخادمات الالمانيات والسويسريات في فرنسا حتى اصبحن عُشرالخادمات من ابناءالبلاد لان اكثر بنات الفقراء في فرنسا اصبحن يؤثرن الخدمة في المعامل ليكون لهن اوقات يصرفنها في الراحة على النحو الذي يرون بدون تقيد في الخدمة

البرتستانت

احصى احد علماء كونتغن عدد من يدينون بالمذهب البرتستانتي فقال ان في الولايات المتحدة ٦٥ مليوناً من اهلها الذين يبلغ مجموعهم ٧٩ مليوناً وفي انكلترا ٣٧ مليوناً من اصل ٤٢ مليوناً وفي المانيا ٣٥ مليوناً من اصل ٥٦ مليوناً وفي فرنسا سبعمائة الف فقط وعددهم لم ينمُ منذ قرن فمجموع من ينتحلون البرتستانتية في العالم ١٨٠ مليوناً منهم ١١٤ مليوناً يتكلمون بالانكليزية

ارباح الامم

معدل ما يصيب الفرد في انكلترا من الارباح نحو ٢٨ غرشاً في اليوم وفي الولايات المتحدة ٢٤ وفي فرنسا والبلجيك نحو ٢٢ وقد قدر احد علماء الاقتصاد من الالمان مجموع ثروة العالم بالف ومائتين وخمسين مليارا من الفرنكات اي بنحو ثلاثين ضعفاً مما يستخرج كل سنة من مناجم الذهب منذ عرف فن الاحصاء . والحبوب والمواشي من اهم عوامل الثروة

اتقاء الانتحار

انشأ جيش السلام في لندرا منذ سنة مكتباً للانتحار اتى بفوائد جليلة فجاءه ١١٢٥ رجلاً و٩٠٠ امرأة شكوا اليه امرهم وباحوا اليه بما انطوت عليه نفوسهم من اليأس فخفف عنهم ما نابهم . وهذا المكتب لا يوزع على من تحدثهم انفسهم بالانتحار مالاً بل نصائح وحكماً فقد كان منه ان اعان كثيرًا من السوداويين على الخلاص مما نالهم فهو يقوي الامل في القلوب الميتة واعضاؤه يدلون على شعور انساني وفراسة في احوال النفس ولذلك نبه اولئك الاعضاء راقد الشجاعة وتلافوا مصائب كثيرة

اكلة الاعشاب واكلة اللحوم

ظهرت ابحاث احد علماء الصحة في الولايات المتحدة في التفضيل بين اكل الاعشاب واكل اللحوم وايهما انفع للانسان فتبين منها انه ربى اوزًا باللحوم واوزًا بالحبوب فاثبت الاختلاف الذي نتج من تربيته في تراكيبها التشريحية وان ماغذاه منها باللحوم اصبح اسفل معدها رقيقًا جدًا وما غذي بالحبوب اصبحت غليظتها وان الاحشاء تطول بحسب نوع الغذاء الذي يتناوله الحيوان فالاوز الذي غذي باللحم كانت احشاؤه اطول من غيره وقد تناقل العلماء تجارب العالم الاميركي وقالوا انها فتحت لهم بابًا جديدًا للنظر في ايها اسلم التغذية بالاعشاب والبقول ام التغذية باللحوم والشحوم

التماسيح والنوام

يهلك بالنوام او مرض النوم كل سنة الوف من البشر في افريقية ولذلك تتخذ الحكومات التي لها املاك في هذه القارة جميع الذرائع لاستئصال هذا المرض وقد استبان من تجارب «لافران» ان هذا المرض ينشأ من دخول جرثومة في الدم يحملها البعوض المسمى «تسي تسي» وان هذه الجراثيم تختار النزول في فك تمساح فتنمو فيه اولا

الصينيون في يابان

اصبحت بلاد اليابان في الشرق مثل برلين وباريز في الغرب مدرسة ترسل النور الى الاقطار فلم يكن في مدارسها منذ ثماني سنين غير ثمانية تلاميذ من ابناء الصين واصبح فيها الآن عشرة آلاف وزاد فيها تلاميذ الهنود ثلاثة اضعاف ما كانوا منذ حرب الروس الاخيرة

مركبة ضخمة

انشؤا في انكلترا مركبة ضخمة تجرها الخيول فتطوف القرى والمدن تبيع المشروبات والمأكولات وهي تنقسم الى ثلاثة اقسام قاعة كبرى وغرفة للنوم وغرفة تعرض فيها النموذجات والامثلة وهي مفروشة احسن فرش فهناك يكرعون المشروبات ويدخنون ويقصفون على ما يشتهون .

ابادة الجرذان

لم تجد نظارة المالية في انكلترا المال اللازم لاعانة الشيوخ المعدمين وقد اقترح عليها ان تجبي رسمًا تستخدمه في هذا السبيل من ابادة الجرذان لانها تخرب كل سنة ما يقدر بعشرة ملايين جنيه وقد ثبت ان ميكروب نومان يبيدها فلا يبقي منها ولا يذر فاذا خلصت

انكلترا من جرذها تستطيع حكومتها ان تضرب ضريبة تعادل ما كانت الجرذ تخضمه وتقضمه في العام فتستعمله في اعالة البائسين من الهرمين

فراش موسيقي

اخترع احد العملة في جنوة فراشاً لا يكاد يستلقي عليه الانسان حتى يأخذ بضرب موسيقى متساوقة الالحان تطرب سامعها ولا سيما من كان مؤرقاً فيزور الكرى مقلتيه. وعلى العكس فمن كان كسلاناً لا يريد فراق فراشه فان ذاك العامل المخترع ابتكر فراشاً آخر ذا ساعة دقاقة توقظه من نومه في الساعة المعينة على نغمات منكرة فلا يسعه الا ان يبادر للنهوض

تعليم الفلاحين

ارتقى التعليم كثيراً في شمالي اوربا ولا سيما في الدانيمرك فانك تجد فيها مدارس خاصة للمزارعين فيختلف الرجال والنساء منهم اليها يتعلمون فيها الكيمياء وفن الطبخ وكل ماله علاقة بالزراعة وتربية المواشي ويلقي كل شهر محاضرات عليهم جماعة من المحامين او من الطلبة الدارسين وهكذا بلغ الفلاحون درجة من الارتقاء العقلي تفيدهم في اعمالهم

البيوت في اميركا

تقول احدى المجلات الاوربية ان مساكن اهل الطبقة الوسطى في اميركا احسن حالاً ونظاماً مما هي في اوربا والسبب في ذلك انها مبنية على شكل لا يحتاج معه الى عمل زائد فلا ترى فيه اشياء تعلق على الجدران ولا غرفاً للتزين والتبرج وان سر هذا الانتظام ناشئ من ان كل فرد في البيت يعمل في ترتيبه بحسب حاله وشانه حتى ان رب الأُسرة نفسه يتعاطى من اصلاح فرش داره واثاثه ما تتعاطاه زوجته

مدفع سريع

صنع احد مخترعي الانكليز مدفعاً تقطع قذائفه ثلاثين الف قدم في الثانية بحيث انه يتأتى للانكليز ان يحاصروا باريز من لندرا وهم في بلادهم فيرسلون على اعدائهم القذائف فتسير بقوة الكهرباء كالبرق الخاطف

السمك النافع

قالوا ان جزائر بارباد هي السالمة وحدها من بين جزر الارخبيل من حمى الملاريا فليس فيها البعوض ذو الجناحين الذي ينقل عدوى هذه الحمى وقد بحث احد ضباط الانكليز في تلك الجزائر عن سر نجاة بارباد من هذه الحمى فتبين له ان في جميع بطائح تلك الجزائر

اسما كاً كثيرة يسميها السكان لكثرتها « الملايين » وهذا السمك يأكل ديدان البعوض الناقل للحمى . وقد نقلت كمية وافرة من هذه الاسماك الى جزائر الجامايك وكولون وكوبان وغيرها من جزر افريقية فعساها تأتي على تلك الديدان فلا تبقي للملاريا اثراً وتوفر الانفس بحسناتها وقدومها الميمون

التنويم والجرائم

اعلن الدكتور هبرت خلاصة ابحاثه في الاستهواء بالتنويم المغناطيسي فاستنتج بانه في عدة احوال في الجرائم يجب البحث عن التأثيرات التي تأثر بها القاتل بارادة اقوى من ارادته والنظر فيما دعاه الى ارتكاب ما ارتكب وفيما اذا كان المجرم في اول امره حسن المنازع ففسد بالقدوة او بقوة الاستهواء المغناطيسي الآتية عليه من غيره ودلت التجارب التي جرت مؤخراً في باريز على اناس متهمين بالاشتراك ببعض الحوادث الكبرى بواسطة تنويمهم لتعديل حالتهم النفسية كل التعديل على ان التأثيرات ممكنة كما دلت ايضاً بانه كان كثيراً ما يصعب جداً ارجاع المنوَّمين على هذه الصورة الى حالتهم الطبيعية الاعتيادية . وقد ثبت من بحث الدكتور هبرت بان عصابة من اللصوص او القتلة مثلاً يؤثر فيها زعيمها تأثيراً يخضع ارادات اصحابه لسلطانه فيحركهم كما يحرك نوابض (زنبلكات) ساعة دقاقة فتطيعه وتجري طوع يديه . ثبت ذلك بعدة حوادث في تاريخ الجرائم . واورد الباحث المشار اليه عدة امثلة غريبة جداً في الاستهواء فقال ان فتاة كانت تطرب الناس بالضرب على الكمنجة مع جوق موسيقى ولكنها لم تكد تستطيع ان تبرهن على اقتدارها وذكائها الا اذا انفردت وحدها بدون ان يختلط ضربها بضرب رفيقاتها وعند ما كان يخلو لها الجو ولا ينغص عليها عملها منغص ولا تخضع ارادتها لاحد كانت آية في ضربها وكلما كانت تشعر بان رفيقاتها مسلطات عليها كان يستحيل عليها ان تبدي مواهبها فكانت من ثم ضرباً من ضروب الاستهواء ومن اهم ما لاحظه هذا الدكتور بان بين الرجل والمرأة عداوة طبيعية في تنازع البقاء فان احدهما يحاول بدون شعور منه ان ينزع عن صاحبه او يقلل من اقتداره الشخصي والعقلي ومن رأيه ان هذا احد نتائج قانون بقاء الانسب واستدل من ذلك بانه يجب على كل امرىء ان يحذر من الاستسلام الى غيره في مقاصده وعمله على غير روية وسعة نظر

مخدر جديد

جرب في المستشفى الوطني في لندرا مخدر جديد اسمه نوفوكايين La novocaine ويظهر

انه سينافس مادة الكوكايين المخدرة المعروفة وذلك لان تأثيره مثلها ولكنه يدوم التخدير به اكثر والتسمم به اقل وثمنه ارخص وهو ينفع في تخدير الاسنان كما ينفع في غيرها

الذهب الابيض

اكتشف في كولمبيا منجم جديد من البلاتين او الذهب الابيض وكان لا يعدّن في تلك الاقطار حتى الآن غير الذهب المعروف ومعلوم ان كولمبيا غنية بمناجمها المختلفة وان كثيراً منها لم يجر تعدينه بعد وان ندرة هذا النوع من الذهب وكثرة استعماله قد زادت في قيمة هذا الاكتشاف

الالحاد في المانيا

تنادي الصحف المعتدلة في المانيا الآن بالويل والثبور على تسرب الالحاد الى نفوس الطبقة المستنيرة من الامة حتى كاد اهل هذه الطبقة في المانيا يشبهون امثالهم في فرنسا قائلة ان الالحاد يودي بالامم ويجعلها اسفل سافلين وقد نسب احد علمائهم انهيال الزندقة على الالمانيين لمجلة شهرية اسمها « طريقة العالم الجديدة » جعلت ديدنها الاكتفاء بذكر النظريات الجديدة التي اكتسبتها العقول والشبان من ارتقاء العلم ولاسيما علم الباليانتولوجيا (علم المطمورات من نباتات وغيرها) والجيولوجيا (طبقات الارض) ومذهب النشوء وهذه المجلة انتشرت في كليات الالمان ومدارسهم انتشاراً كان منه تأثيرها السيء في الافكار . وشتان بين امة تدخل اليها الزندقة فتسعى الى مداواتها والنظر في اسبابها وبين اخرى تدخل اليها فتعدها من دواعي المدنية والارتقاء .

مكتبة الجيب

يتحدثون في اوربا بطبع كتب على صور مصغرة جداً لا يتمكن من قراءتها الا بالمجهر ولهذه الطريقة في تصغير حجم الكتب فوائد كثيرة اقلها انك تستطيع معها ان تحمل في جيبك مكتبة برمتها . فلله در التفنن .

الجمال عند المالايو

يرى اهل شبه جزيرة مالايو في الهند الصينية ان الجمال بطول العنق على العكس مما يراه بعض امم الشرق واكثر امم الغرب بقدود ممشوقة وعيون دعج وتناسب في الاعضاء . ولذلك يضع اهل المالايو في اعناق بناتهم منذ ولادتهن اغلالاً من الحديد تضطرهن الى ان يجعلن رؤوسهن مستقيمة

اطالة الشباب

يرى الطبيب تراسي الاميركي ان الانسان لا يعاجله الهرم اذا لم يعش هذه العيشة الحديثة التي تخل بتركيب جسمه وأن معظم الهرم العاجل يجيء من الافراط في المأكل واستعمال الالكحول فيمتزج الدم بمواد سامة لا تفرز منه وتفقد الشرايين مرونتها وتتصلب بما يتوالى عليها من الضغط ولا يخفف هذا الضغط عن المجاري الا بالتدقيق في الاكل والشرب واستعمال الكهربائية وبذلك يطول امد الشباب لان هذه المجاري تقلل من ضغط الدم وتقوي الافرازات وتؤثر تأثيرًا ميكانيكيًا في الانسجة ٠

رعاية الاطفال

اسفت مجلات انكلترا لفقدها رجلاً كبيرًا اسمه بنيامين وغ كان الحركة الدائمة في جمعية رعاية الاطفال في انكلترا فبفضله قويت قوة عظيمة ولها الآن في انكلترا ١١٣٧ مأوى للبنات وترعى مئة الف طفل وطفلة وتحميهم من بوائق الايام وانواع الفظائع والآثام

الخيول

ظهر احصاء بعدد الخيول في العالم المتمدن فتبين منه ان الجمهورية الفضية اكثرها خيولاً ففيها ٤٧٦٢٣٤٠ اي ١١٢ حصانًا لكل مئة ساكن ثم تجيء سيبريا وفيها يصيب كل مئة ساكن ٨٥ حصانًا ثم الولايات المتحدة وفيها ٦٢ في المئة ثم انكلترا وفيها ١٣ في المئة ثم فرنسا ٧ والمانيا ٥

وادي موسى

عني المسيو الوا موزيل العالم النمساوي بالرحلة الى وادي موسى من بلاد العرب المعروفة عند الافرنج بيترا اي العربية الصخرية وقد اصدر الجزء الثالث من رحلته الآن فجاء فيه ان مجموع سكان تلك البلاد يبلغ سبعين الف نسمة ينقسمون الى ٤٨ بطنًا يجمعها جد واحد يحترمون قبره٠ وكان من انقطاع هؤلاء السكان عن الاختلاط بغيرهم ان حفظت لهم اخلاقهم الاصلية حتى ان كثيرًا من الاشياء التي لا نفهم من شعر الجاهلية اذا درس المرء ما كتبه هذا العالم عن اخلاق سكان وادي موسى وآثارهم واصولهم ولغتهم وشعائرهم الدينية تتجلى له كل التجلي فقد بقي في اعمالهم الدينية وفي ذبائحهم وضحاياهم خاصة علامات جوهرية من الاديان السامية القدمية حتى ان تاريخ الخرافات عندهم يرد الى عهد قديم جدًا فمنها انهم يعتقدون بام المطر عند ما يضر الجفاف بزروعاتهم فيعمد النساء الى اتخاذ

عصاوين يجعلانها على شكل صليب ينعلن به قميصاً و يطفن الارض التي تشكو قلة المطر منشدات اغاني اوردها المؤلف . ولم يقف تأثيرعادات الجاهلية فقط عندهذا الحد في عادات سكان وادي مومي ومعتقداتهم بل ان النصرانية اثرت في مسلمي الكرك آثاراً لم تبرح بادية للاعين فمنها انهم يعمدون اولادهم على يدقسيس مسيحي ليضمنوا لهم بذلك صحة جيدة وقد اثنت المجلات العلمية على مؤلف هذا الكتاب وقالت انه منجم فوائد لم تكن للغربيين معرفة بها من قبل .

اندية العملة

جعلت للعملة في بلاد الانكليز منذ سنة ١٨٦٢ اندية خاصة يأوون اليها آونة فراغهم ولا يكونون فيها عرضة لتعاطي المشروبات الروحية وما برح المشتركون فيها ينمون حتى غدت وارداتها تكفيها . وفي انكلترا ١١٠٠ ناد ينفق الفرد فيها كل اسبوع ثمن مشروبات ودخان ومياه معدنية شليناً واحداً ومنها مئتا ناد لها صفة سياسية وجميع هذه الاندية تمثل عامة الآراء والمذاهب وتنشيء محاضرات ومسامرات وسماعاً ومعارض زهور واعياد احسان ولكل ناد مال خاص ينفق منه على فقراء المقاطعة الذي هو فيها . واهم ما تمتاز به اندية العملة الامتناع عن المشروبات الروحية والاحسان لمن جار الزمان عليه من ابناء بلادهم ولبعضها خزائن كتب سيارة تطوف البلاد ليطالع فيها الناس مجاناً

اخلاق المالغاشيين

المالغاشيون سكان جزيرة مدغسكر لهم اخلاق وعادات غريبة من حيث عفة النساء واليك ماوصفهم به احد علماء الافرنج قال : ان ما يطلب من المرأة المالغاشية هو ان تطبخ في اوقات معينة الارز والمرق الذي يؤكل معه في العادة وعلى ما ينبغي وان ترتب شؤون البيت وترتب الثياب وتدير بحكمة املاك بيتها وهذا في الغالب من خصائصها وان تلد لزوجها اولاداً كثيرين . هذه وظيفة ربة المنزل الاساسية وما عدا ذلك فانها اذا حافظت على عفتها فبها ونعمت ويعد كمالها نوراً على نور مع انه قلما يلتفت اليه او يقلق من اجل فقده . الفتاة المالغاشية حرة باستخدام جسمها على النحو الذي تريده . وليس في اللغة المالغاشية لفظ مرادف للعفة والبكارة حتى ان المرسلين في بعض انحاء تلك البلاد التي دانت حديثاً بالنصرانية اضطروا الى اخذ كلمة بكارة من اللغة الافرنجية يستعملون جملة للدلالة على لفظها فيقولون طهارة السلوك وطهارة القلب للتعبير عن العفة . ولم يستطع اولئك المرسلون

ان يعبروا عن تبتلهم الا بانهم قالوا ان الله بعث بهم ليكونوا آباء للمالغاشيين فلا يجدر بالاب ان يتزوج من بناته ·

يبلغ الولد سن الحلم هناك في الثامنة او العاشرة من عمره والبنت قبل هذه السن احياناً · ولا سبيل الى تحديد وقت يرتكب فيه الاولاد ما يرتكبون من الخطيئة للمرة الاولى والام تنظر الى ابنتها اذا اتت منكراً نظر المسرورة المغتبطة كما ان الاب ينظر لابنه اذا فعل ذلك نظر تفاخر الا ان بعض الامهات يدفعن عن بناتهن عشرة الصبيان الذين هم اكبر سناً منهن · وانك لتجد هناك في مدارس القرى والمدن البنات والصبيان المتزوجين يتعلمن معاً والزوج في العاشرة والمرأة دون ذلك فاذا جاء المساء تهيء لزوجها طعامه وهو يكدح لها بان يجلب الارز واللحم و يحتطب او يكتسب بعض دريهمات · وعبثاً حاول المرسلون والمعلمون ورجال الحكومة والادارة هناك ان يعدلوا من هذه العادات في المالغاشيين ولكنها لم تزل راسخة

على ان هذا الاقتران قليل البقاء وكلا الزوجين منقلب وكل امر سائغ بدون ان يمس شرف احد الزوجين · وتحسن المرأة سلوكها بعض التحسين عند ما تلد اولاداً وليس من العار ان ترزق اولاداً من آباء مختلفين بل ان زوجها لا يرى من الشنار ان يقبل اولاد غيره مع ايقانه بذلك و يعاملهم كما يعامل من تلدهم زوجته منه من الاولاد

وهذه الحال في اخلاق المالغاشيين وان كانت اقل مما هي في اوربا لكنها غير مموهة وليس فيها رياء كما في اوربا حيث تحتقر الابنة التي تلد من السفاح ويحتقر ابنها و يستنكف الناس من الاقتراب منه اما المالغاشي فيرى ان الوليد غير مسئول عما نقص من عدم مراعاة ابويه لشروط الزوجية وهي التي ينبغي ان تسبق ولادته في العالم المتمدن بيد ان كثيرين من الاوربيين على ما فيهم من التقى جديرون بان يأخذوا في هذا المعنى عن المالغاشيين المتوحشين · والداعي الى هذه الحالة في المالغاشيين هواء بلادهم الذي يحرك النفوس منذ الصغر ثم ان الازواج لا يرون بأساً في ان يناموا مع اولادهم ولو كبروا في محل واحد بل على حصير واحد · فيتعلم الطفل ما يتعلم منذ يأخذ في الادراك · والجنود الاوربيون المقيمون هناك لا يسعهم الا ان يتزوجوا من المالغاشيات و يلد لهم منهن · والبنت اذا حملت قبل ان يعرف لها زوج تفرح بما تلد هي واهلها لان الناس في تلك الاصقاع يرون ان الغاية من الزواج تكثير النسل فلا بأس بالاطفال من اي الطرق جاءوا

ثم ان المعيشة هناك سهلة للغاية · فطعام الجميع الارز ملتوتاً بشيء من المرق او اللحم او السمك والبقول المعروفة عندهم والماء الصرف يتساوى في ذلك الفقير والغني · ولماذا يهتم

المالغاشيون اذا كثر اولادهم ما دامت غاباتهم مملوءة بالشمع والمطاط بحيث لا تنضب مهما نقلوا منها و باعوا وبيعها ميسور لهم ثم ان الاولاد لا يلبسون ثياباً الا بعد السنة الثانية من اعمارهم و يظلون كما ولدتهم امهاتهم عراة فاذا جاوز الولد هذه السن يعطى قطعة من الخيش او الجنفيس يلبسها او يقتطع له قطعة من ثياب امه وابيه . وانشاء البيوت هناك سهل للغاية في الغابات متسع ليقتطع منها خشب البناء وفي المروج من جذوع اشجارهم ما يجعلونه حواجز وحيطاناً ومن الخيزور ما يفرشونه حصيراً

ثم ان القوم لا يهتمون بمسألة المواريث وقل ان يهتم الآباء ان يتركوا لاولادهم ارثاً قلّ او كثر لان هؤلاء لا يعرفون كيف يتصرفون به فالدراهم نادرة جداً عندهم والارض لاقيمة لها واراضيهم تكثر فيها البقاع التي تصلح لزراعة الارز والمراعي . والماشية وحدها هي من العلائم الظاهرة على الثروة ولكنها شائعة بين اهل القرية لا يقسمونها ولا يدعى الاولاد لآبائهم بل على العكس يطلق على الاب والام اسم والديهم وليس بينهم اثر للاسماء التي تنقل خلفاً عن سلف و يطلق على كل انسان اسم خاص وله ان يغيره على ما يشاء متى شاء . و بالجملة فان اخلاقهم وعاداتهم على غرابتها اقرب الى الطبيعة — هكذا قال الكاتب.

مطبوعات ومخطوطات

كتاب تأويل مختلف الحديث

للامام ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ مصنفات كثيرة قيل انها تربي على ثلثمائة مصنف وهذا الكتاب من اجودها . ألفه بعد ان رأى ثلب اهل الكلام لاهل الحديث واسهابهم في ذمهم و رميهم برواية المتناقض حتى كثر الاختلاف بين الامة وقد تعرض في مقدمته لجلّ ما قاله علماء الكلام في حق رواة الحديث من الجمهور ومراده باهل الكلام علماء المعتزله اذ لم يكن هذا اللقب يطلق قديماً على غيرهم واجاب عن اعتراضاتهم فيها بجواب مجمل وجعل تتمة الكتاب لتأويل الاحاديث التي ادعوا عليها التناقض او المخالفة للكتاب العزيز او المخالفة لصريح العقل الذي دل على اعتباره صحيح النقل . وا كثر في ذلك واظهر ما اشتهر عنه من البراعة والاجادة فيما ينحو اليه ولكلامه وقع في النفوس وناهيك بمن قيل فيه انه لاهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة . وهذا الكتاب يجدر بكل من له ميل الى علم الحديث ان يطلع عليه . وهنا نكتة مهمة وهو ان ابن قتيبة

كغيره من العلماء قد كثر الناقدون عليه في اكثر كتبه شأن كل عالم اطلق نقلمه العنان فينبغي للمطالع في كتبه ان يكون ممن له قوة في النظر « نظار » والكتاب وقع في ٤٦٤ صفحة صغيرة مطبوع طبعاً في الغاية من الصحة والاتقان مقابلاً على ثلاث نسخ احداها بغدادية والثانية دمشقية والثالثة مصرية وقد علق عليه مصححه الشيخ اسماعيل الخطيب السلفي الإسعردي شرح بعض الالفاظ اللغوية وطبع على نفقة محمود افندي شابندر من تجار بغداد بمطبعة كردستان العلمية بمصر لصاحبها الشيخ فرج الله زكي الكردي فجاء من انموذجات الكتب المعتنى بها فنشكر للقائمين بالانفاق عليه وتصحيحه وطبعه كل الشكر

المنهج المسلوك في سياسة الملوك

الف علماء العرب عشرات من الكتب والرسائل في السياسة اهدوها ملوكهم وبعضها لم يزل محفوظاً في خزائن الكتب ومن هذه الاسفار التي لم تمثل بعد بالطبع كتاب المنهج المسلوك لمؤلفه عبدالرحمن بن عبد الله من علماء القرن السادس الفه برسم خزانة الملك الناصر صلاح الدين يوسف وقسمه الى عشرين باباً منها .بيان افتقار الرعية الى ملك عادل وافتقار الملك اليه ومعرفة قواعد الادب واركان المملكة ومعرفة الاوصاف الكريمة والحث عليها ومعرفة الاوصاف الذميمة والنهي عنها وكيفية رتبة الملك مع اوليائه حال جلوسه وفضل المشورة واوصاف اهلها واصول السياسة والجلوس لكشف المظالم وسياسة الجيش ومصابرة المشركين واستماع المواعظ بعبارة سلسة وامثلة كثيرة . والكتاب في ١٤٠ صفحة متوسطة الحجم مطبوع بمطبعة الظاهر طبعاً نظيفاً متقناً على نفقة احمد زكي افندي ابوشادي ومحمد افندي رشدي وثمنه خمسة قروش يطلب من ادارة هذه المطبعة ومن المكاتب الشهيرة

رسائل البلغاء

جردنا ما نشر في المقتبس من رسائل عبدالله بن المقفع وعبدالحميد بن يحيى الكاتب وحكمها المثقفة وكلماتها المأثورة حباً بان تتناول جميع الايدي من معين بلاغتها وتنطبع الملكات بطابع الكتابة العربية البحتة فجاءت في ٠ ٠ائة صفحة من مثل هذه الصفحات وبحرف كحرفها فعساها تنفع طلاب الآداب العربية والباحثين في الاجتماع والتاريخ والاخلاق وهي تطلب من ادارة المقتبس في القاهرة ومن وكلائه في الجهات ومن المكاتب الشهيرة في مصر والشام والعراق وثمنها فرنك واحد يضاف اليه ربع فرنك اجرة البريد

المقتبس

الجزء التاسع من المجلد الثالث

رمضان سنة ١٣٢٦ موافق اكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٠٨

الحسبة في الاسلام

وار بعة مخطوطات فيها

عني المسلمون في القرون الاربعة الاولى خاصة باقامة شعائر الدين على اصوله لتكون مدنيتهم فاضلة كما عنوا بوضع القوانين المدنية استخرجوها من روح الكتاب والسنة ليعملوا بها في معاشهم ومدنيتهم واجتماعهم . وكان يتولى ذلك في الاكثر ولاة الامر بمعونة العلماء العاملين فاذا ما ضعفوا في بلد اوناحية يتولى علية القوم من عامتهم ما يصدهم عن خرق سياج الشريعة واخلال قواعد المدينة الفاضلة حتى لايجور قويهم على ضعيفهم ولا يجاهر احد بمنكر ولا يعتدى على حق ولا يعمل عملاً من شأنه ان يجعل المدينة فاسقة فاجرة لئلا تهلك كما هلك القوم الفاسقون . وقد سموا هذا العمل الحسبة بالكسر وهو الاجر وهو اسم من الاحتساب اي احتساب الاجر على الله تقول فعلته حسبة واحتسب فيه احتساباً والاحتساب طلب الاجر

وقد وردت في الكتاب العزيز عدة آيات صريحة في وجوب الحسبة وورد عن الشارع الاعظم آثار كثيرة وكذلك عن السلف الصالح والعلماء العاملين من اهل الصدر الاول . والحسبة او الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ايضاً قسمت كما قسم الامر بالمعروف الى ثلاثة اقسام احدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين والثالث ما يكون مشتركا بينهما ويمكننا ان نقسمها الى دينية ومدنية فالديني منها بطل من بلاد الاسلام منذ اصبحت حكوماتها لاتحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية بقي اثر ضئيل

منها في مصر خصوصاً الى نحو اواسط القرن الثالث عشر للهجرة واستعيض عنها في بعض البلاد العثمانية بمجالس البلديات

قال شيخ الاسلام ابن تيمية (١) ان اصل الحسبة ان تعلم ان جميع الولايات في الاسلام مقصودها ان يكون الدين كله لله وان تكون كلمة الله هي العليا فان الله سبحانه وتعالى انما خلق الخلق لذلك وبه انزل الكتب وبه ارسل الرسل وعليه جاهد الرسول والمؤمنون . وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة الا بالاجتماع والتعاون والتناصر فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم والتناصر لدفع مضارهم ولهذا يقال الانسان مدني بالطبع فاذا جمعوا فلا بد لهم من امور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة وامور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد فجميع بني آدم لا بد لهم من طاعة آمر وناهٍ فمن لم يكن من اهل الكتب الالهية ولا من اهل دين فانهم يطيعون ملوكهم فيما يرون انه يعود بمصالح دنياهم مصيبين تارة ومخطئين اخرى واهل الاديان الفاسدة مطيعون فيما يرون انه يعود عليهم بمصالح دينهم ودنياهم وغير اهل الكتاب منهم من يؤمن بالجزاء بعد الموت ومنهم من لا يؤمن واما اهل الكتاب فمتفقون على الجزاء بعد الموت ولكن الجزاء في الدنيا متفق عليه من اهل الارض فان الناس لم يتنازعوا ان عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة ولهذا روي ان الله ينصر الدولة العادلة وان كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة

قال والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم قادر وهو فرض على الكفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يتم به غيره والقدرة هو السلطان والولاية فذوو السلطان اقدر من غيرهم وعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم فان مناط الوجوب هو القدرة فيجب على كل انسان بحسب قدرته ان يقول وبنو آدم لا يعيشون الا بالاجتماع بعضهم مع بعض واذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد ان يكون بينهما ائتمار بامر وتناه عن امر واولو الامر اصحاب الامر وذوو القدرة واهل العلم والكلام فلهذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صلح الناس واذا فسدوا فسد الناس كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه للاحمسية لما سألته ما بقاؤنا على هذا الامر قال : ما استقامت لكم ائمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايخ واهل الديوان وكل من كان متبوعاً فانه من اولي الامر اه

وقال ابن الاخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية وقد كان ائمة الصدر الاول يباشرونها بانفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي امر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن

(١) في رسالته الحسبة في الاسلام المطبوعة في مصر

المنكر اذا ظهر فعله واصلاح بين الناس والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومصالحهم وبياعاتهم ومأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ومساكنهم وطرقاتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . وقال الماوردي : الحسبة واسطة بين احكام القضاء واحكام المظالم فاما ما بينها وبين القضاء فهي موافقة لاحكام القضاء من وجهين ومقصورة عنه من وجهين وزائدة عليه من وجهين فاما الوجهان في موافقتها لاحكام القضاء فاحدهما جواز الاستعداء اليه وسماعه دعوى المستعدي على المستعدى عليه في حقوق الآدميين وليس هذا على عموم الدعاوي وانما يختص بثلاثة نواع من الدعوى احدها ان يكون فيما يتعلق ببخس وتطفيف في كيل او وزن والثاني ما يتعلق بغش او تدليس في مبيع او ثمن والثالث فيما يتعلق بمطل وتأخير لدين مستحق مع المكنة وللناظر في الحسبة من سلاطة السلطة واستطالة الحماة فيما يتعلق بالمنكرات ما ليس للقضاة لان الحسبة موضوعة على الرهبة فلا يكون خروج المحتسب اليها بالسلاطة والغلظة تجوزًا فيها ولا خرقًا والقضاء موضوع للمناصفة فهو بالاناة والوقار احق وخروجه عنهما الى سلاطة الحسبة تجوز وخرق لان موضوع كل واحد من المنصبين يختلف فالتجاوز فيه خروج عن حده . وقال ابن خلدون ان الحسبة وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين في المكاتب وغيرها من الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع او استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه . وليس له امضاء الحكم في الدعاوي مطلقًا بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين وله ايضًا حمل المماطلين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم وكأنها احكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة اغراضها فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك ان تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والامويين بالاندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عامًا في امور السياسة اندرجت في وظائف الملك وافردت بالولاية

قلنا ان الناس كانوا يتولون الحسبة بانفسهم عند ما تضعف الحكومات لان مصلحة

اهل كل بلد لا تتم الا بذبّ الاذى بعضهم عن بعض والتواصي بالحق والجري من العدل على عرق . قال ابن الاثير في حوادث سنة احدى ومائتين ان المتطوعة تجردت للامر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان سبب ذلك ان فساق بغداد والشطار آذوا الناس اذى شديداً واظهروا الفسق وقطعوا الطريق واخذوا النساء والصبيان علانية وكانوا يأخذون ولد الرجل واهله فلا يقدر ان يمتنع منهم وكانوا يطلبون من الرجل ان يقرضهم او يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا ينهبون القرى لا سلطان يمنعهم ولا يقدر عليهم لانه كان يغريهم وهم بطانته وكانوا يمسكون المجتازين في الطريق ولا يعدي عليهم احد وكان الناس معهم في بلاء عظيم وآخر امرهم انهم خرجوا الى قطربل وانتهبوها علانية واخذوا العين والمتاع والدواب فباعوها ببغداد ظاهراً واستعدى اهلها السلطان فلم يعدهم فلما رأى الناس ذلك قام صلحاء كل ربض ودرب ومشى بعضهم الى بعض وقالوا انما في الدروب الفاسق والفاسقان الى العشرة وانتم اكثر منهم فلو اجتمعتم لقمعتم هؤلاء الفساق ولعجزوا عن الذي يفعلونه فقام رجل فدعا جيرانه واهل محلته على ان يعاونوه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاجابوه الى ذلك فشدّ على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم وامتنعوا عليه وارادوا قتاله فقاتلهم فهزمهم وضرب من اخذه من الفساق وحبسهم ورفعهم الى السلطان الا انه كان لا يرى ان يغير على السلطان شيئاً ثم قام بعده رجل من الحربية من اهل خراسان فدعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بالكتاب والسنة وعلق مصحفاً في عنقه وامر اهل محلته ونهاهم فقبلوا منه ودعا الناس جميعاً الشريف والوضيع من بني هاشم وغيرهم فاتاه خلق عظيم فبايعوه على ذلك وعلى القتال معه لمن خالفه وطاف ببغداد واسواقها ...

اليك مثالاً مما حدث في حكومة الشرق الاسلامية عند ما ضعف الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بعض الشيء ومثله جرى في الغرب في مثل هذه الحالة فقد قال ابن خلدون انه كانت لعهده في القرن التاسع للهجرة بالمغرب نزعة من الدعاة الى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وانما ينزع منهم في بعض الاحيان الواحد فالواحد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه واكثر ما يعنون باصلاح السابلة لما ان اكثر فساد الاعراب فيها فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا الا ان الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما ان توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم واقبالهم الى مناحي الديانة غير ذلك لانها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة ومنها توبتهم فتجد ذلك المنتحل للدعوة القائم بزعمه بالسنة غير متعمق في فروع

الاقتداء والاتباع وانما دينهم الاعراض عن النهب والبغي وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش باقصى جهدهم انتهى ·

***

هذا غاية ما يقال في تعريف الحسبة وشيء من تاريخها ولمعة من حالتها وقد الف علماؤنا ما يربي على عشرين كتاباً في الحسبة المدنية خاصة اظفرنا البحث باربعة(١)منها حتى الآن وهانحن نتكلم على الكتاب الاول منها قال مؤلفه في مقدمته بعد البسملة والحمدلة والصلولة : اما بعد فقد رأيت ان اجمع في هذا الكتاب ما يستند من الاحكام الى الاحاديث النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام مما ينتفع به هذا المنفذ لمنصب الحسبة والنظر في مصالح الرعية وكشف احوال السوقة وغير ذلك على الوجه المشروع ليكون ذلك عماداً لسياسته وقواماً لرياسته فاستخرت الله تعالى في ذلك وضمنته طرفاً من الاخبار وطرزته بالحكايات والآثار ونبهت فيه على غش المبيعات وتدليس ارباب الصناعات مما يستحسنه من تصفحه من ذوي الالباب والمعلوم المشهور ان الكتاب عنوانه عقول الكتاب وجعلته سبعين باباً يشتمل كل منها على فصول شتى

---

(١) الاول كتاب الحسبة لمحمد بن محمد بن احمد المعروف بابن الاخوة القرشي وهو من مخطوطات مكتبة احمد زكي بك من علماء القاهرة كتب سنة ١٣٠٦ ﻫ عن نسخة كتبت سنة ٧٤٢ وعليها بعض تعليقات بقلم محمود شكري افندي الآلوسي من علماء بغداد وقد وقعت في ١٦٩ صفحة وتحريفها قليل وخطها واضح · والثاني كتاب في الحسبة لعمر بن محمد بن عوض الشامي من مخطوطات مكتبة احمد تيمور بك من علماء القاهرة وقع في ١٣٤ ورقة من الحجم الوسط والصحة تغلب عليه وقد جاء في آخره تم الكتاب والحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات في سنة احدى وسبعين ومائة والف · والكتاب الثالث اسمه نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر بن عبدالله بن محمد الشيزري وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية وعدد اوراقه ٢٣ ورقة وهو بخط مقروء لم تكتب عليه سنة كتابته ولا تاريخ تأليفه والصحة تغلب عليه في الجملة · واسم الكتاب الرابع ايضاً نهاية الرتبة في طلب الحسبة استنسختة في دمشق سنة ١٣٢٢ ﻫ عن نسخة جلبت من حلب وهي في ١٥٠ صفحة منصفة القطع تغلب عليها الصحة وقد كتب الاصل سنة ١١٩٥ بخط جلي وورق صقيل والغالب ان مؤلفه من اهل القرن الثامن وانه مصري كما ان مؤلف الكتاب الاول ان لم يكن مصرياً فمن ساكني مصر · وكتاب احمد زكي بك اوسع هذه الكتب مادة وان كانت كلها تتحد في المقصد والكيفية

الباب الاول في شرائط الحسبة وصفة المحتسب
الثاني في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
الثالث في الخمر والآلة المحرمة
الرابع في الحسبة على اهل الذمة
الخامس في الحسبة على اهل الجنائز
السادس في المعاملات المنكرة
السابع فيما يحرم على الرجال استعماله وما لا يحرم
الثامن في الحسبة على منكرات الاسواق
التاسع في معرفة القناطير والارطال والمثاقيل والدراهم
العاشر في معرفة الموازين والمكاييل والاذرع
الحادي عشر في الحسبة على الطحانين والعلافين
الثاني عشر في الحسبة على الفرانين والخبازين
الثالث عشر في الحسبة على الشوائين
الرابع عشر في الحسبة على النقانقيين
الخامس عشر في الحسبة على الكبوديين والبوارديين
السادس عشر في الحسبة على الجزارين
السابع عشر في الحسبة على الرواسين
الثامن عشر في الحسبة على الطباخين
التاسع عشر في الحسبة على الشريجيين
العشرون في الحسبة على الهراسيين
الحادي والعشرون في الحسبة على قلائي السمك
الثاني والعشرون في الحسبة على قلائي الزلابية
الثالث والعشرون في الحسبة على الحلاويين
الرابع والعشرون في الحسبة على الشرابيين
الخامس والعشرون في الحسبة على العطارين والشماعين
السادس والعشرون في الحسبة على البياعين
السابع والعشرون في الحسبة على اللبانين
الثامن والعشرون في الحسبة على البزازين

هذه ابواب الكتاب ومنه يفهم ما بني عليه ولا بأس بايراد فصول منه للدلالة على اسلوبه قال في الباب الاربعين في الحسبة على البياطرة : البيطرة علم جليل سطرته الفلاسفة في كتبهم ووضعوا فيها تصانيف وهي اصعب علاجاً من امراض الآدميين لان الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجد من المرض والالم وانما يستدل على عللها بالجس والنظر فيحتاج البيطار الى حسن بصيرة بعلل الدواب وعلاجاتها فلا يتعاطى البيطرة الا من له معرفة وخبرة فالتهجم على الدواب بفصد او قطع او كيّ او ما اشبه ذلك بغير مخبرة يؤدي الى هلاك الدابة او عطبها فيلزمه أرْش ما نقص من قيمتها من طريق الشرع ويعزره المحتسب من طريق السياسة ·

فصل وينبغي للبيطار ان يعتبر حافر الدابة قبل تعليمه فان كان احفاً او بلا (كذا) نسف من الجنب الآخر قدراً يحصل به الاعتدال وان كانت الدابة قائمة جعل المسامير المؤخرة صغاراً والمقدمة كباراً وان كانت يدها بالضد من ذلك صغر المقدمة وكبر المؤخرة ولا يبالغ في نسف الحافر فتغمز الدابة ولا يرخي المسامير فيحرك النعل ويدخل تحته الحصا والرمل ولا يشد على الحافر بقوة فتزمن الدابة واعلم ان النعال المطرقة الزم للحافر واللينة اثبت للمسامير الصلبة والمسامير الرفيعة خير من الغليظة واذا احتاجت الدابة الى تسريع او فتح

عرق اخذ المبضع بين اصبعيه وجعل نصابه في راحته واخرج من رأسه مقدار نصف ظفر ثم فتح العرق تعليقاً الى فوق بخفة ورفق ولا يضرب العرق حتى يجسه باصبعه سيما عروق الاوداج فانها خطرة لمجاورتها للمري فان اراد فتح شيء من عروق الاوداج خنق الدابة خنقاً شديداً حتى تندر عروق الاوداج فيتمكن حينئذ مما اراد

فصل و ينبغي للبيطار ان يكون خبيراً بعلل الدواب ومعرفة ما يحدث فيها من العيوب و يرجع الناس اليه اذا اختلفوا في الدابة وقد ذكر بعض الحكماء في كتاب البيطرة ان علل الدواب ثلثمائة وعشرون علة نذكر ما اشتهر منها فمنها الخناق الرطب والخناق اليابس والجنون وفساد الدماغ والصداع والحمر والنفخة والورم والمرة الهائجة والدبية والخشام ووجع الكبد و وجع القلب والدود في البطن والمغل والمغس و ريح السوس والقطاع والصدام والسعال البارد والسعال الحار وانفجار الدم من الدبر والذكر والنحل والحلق وعصار البول ووجع المفاصل والرهصة والرحس والداحس والنملة والنكب والجلد والاقوة والماء الحار في العين والناحر و رخاوة الاذنين والضرس وغير ذلك مما يطول شرحه فيفتقر البيطار الى تحصيل معرفة علاجه وسبب حدوث هذه العلل منها ما اذا حدث في الدابة صار عيباً دائماً ولولا التطويل لشرحت من ذلك جملاً كثيرة وتفاصيل فلا يهمل المحتسب امتحان البيطار بما ذكرناه ومراعاة فعله بدواب الناس والله اعلم .

وقال من فصل في الحسبة على الحمامات وقوّامها وذكر منافعها ومضارها : وقد ذكر عن بعض الحكماء انه قال خير الحمامات ما قدم بناؤه واتسع هواؤه وعذب ماؤه واعلم ان الفعل الطبيعي للحمام التسخين بهوائه والترطيب بمائه فالبيت الاول مبرد مرطب والبيت الثاني مسخن مجفف والحمام يشتمل على منافع ومضار فاما منافعها فتوسع المسام واستفراغ الفضلات وتحلل الرياح وتحبس الطبع اذا كانت سهولته عن هيضة وتنظيف الوسخ والعرق وتذهب الحكة والجرب والإعياء وترطب البدن وتجود الهضم وتنضج النزلات والزكام وتنفع من حمى يوم ومن حمى الدق والربع بعد نضج خلطها عند طول المقام فيها وتسقط شهوة الطعام وتضعف الباه واعظم مضارها صب الماء الحار على الاعضاء الضعيفة وقد تستعمل على الريق والخلاء فتجفف تجفيفاً شديداً او تهزل وتضعف وقد يستعمل الحمام على قرب عهد بالشبع بعد الهضم الاول فانه يرطب البدن ويسمنه ويحسن بشرته .

فصل و ينبغي ان يأمرهم المحتسب بغسل الحمام وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر غير ماء الغسالة يفعلون ذلك مراراً في اليوم و يدلكون البلاط بالاشياء الخشنة لئلا يتعلق ماء السدر او الخطمي فيزلق الناس عليها و يغسلون في كل يوم حوض النوبة من الاوساخ المجتمعة فيه

وكذلك الفساقي والقدور من الاوساخ المجتمعة من المجاري والعكر الراكد في أسفلها في كل شهر مرة لانها ان تركت اكثر من ذلك تغير الماء فيها في الطعم والرائحة ولا يسد الانابيب بشعر المشاطة بل يسدها بالخرق الطاهرة او الليف الطاهر ليخرج من الخلاف ويستعمل فيها البخور في اليوم مرتين بالحصاليان الذكر او المصطكي او اللادن ولا يدع الاساكفة واصحاب اللبد يغسلون شيئاً من اللبد ولا من الاديم في الحمام فان الناس يتضررون برائحته ولا ينبغي ان يدخل الحمام مجذوم ولا ابرص وينبغي ان يكون للحامي ميازر يؤجرها للناس وتكون عريضة حتى تستر ما بين السرة والركبة ويأمر بفتح الحمام في السحر لحاجة الناس اليه للتطهر فيه قبل وقت الصلاة ويلزم الوقاف حفظ اقمشة الناس فان ضاع منها شيء لزمه ضمانه على الصحيح. ويتخذ بالحمام زيراً كبيراً برسم الماء الحلو او عذباً ان كان يشرب برسم شرب الناس لا سيما في زمن الحر فان ذلك من المصالح وكذلك فليكن عنده السدر والدلوك فقد يحتاج الانسان له ولا يمكنه الخروج الى ظاهر الحمام ولو رتب سدّاراً دائماً على باب الحمام لبيع السدر وآلة الحمام كان ذلك حسناً.

فصل ويلزم صاحب النوبة باستعمال الامواس الجيدة الفولاذ حتى ينتفع الناس بها وينبغي ان يكون المزين خفيفاً رشيقاً بصيراً بالحلاقة ويكون حديده قاطعاً كما ذكرناه ولا يستقبل الرأس ومنابت الشعر استقبالاً ولا يأكل كل ما يغير نكهته كالبصل والثوم والكراث وغيره في يوم نوبته لئلا يتضرر الناس برائحة فيه عند الحلاقة ولا يحلق شعر صبي الا باذن وليه ولا عبداً الا باذن سيده ولا يحلق عذار امرد ولا تحت مخنث

فصل ويلزم المحتسب ان يتفقد الحمام في كل وقت ويعتبر ما ذكرناه وان رأى احداً قد كشف عورته عزره على كشفها لان كشف العورة حرام وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناظر والمنظور والنساء في هذا المقام اشد تهاتكاً من الرجال ولهن محدثات من المنكر احدثها كثرة الارفاه والاتراف وأُهمل انكارها حتى سرت في الاوساط والاطراف وقد احدثن الآن من الملابس ما لم يخطر للشيطان في حساب وتلك لباس الشهرة(؟) التي لا يستتر منه اسبال مرط ولا ادنى جلباب ومن جملتها انهن يعتصبن عصائب كامثال الاسنمة ويخرجن من جهارة اشكالها في الصورة المعلمة...

وقال في الحسبة على الاطباء الطبائعية والكحالين والجرائحيين والمجبرين : الطب علم نظري وعلم اباحت الشريعة تعلمه لما فيه من حفظ الصحة ودفع العلل والامراض عن هذه البنية الشريفة وقد ورد في ذلك احاديث منها ما ورد عن عطاء بن السائب قال دخلت على ابي عبد الرحمن الاسلمي اعوده فاراد غلام له ان يداوا به فنهيته فقال : دعه فاني سمعت

عبدالله بن مسعود يخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما انزل الله داء الا وانزل له دواء وربما قال: سفيان شفاء علمه من علمه وجهله من جهله الى ان يقول: والطبيب هو العارف بتركيب البدن ومزاج الاعضاء والامراض الحادثة فيها واسبابها واعراضها وعلاماتها والادوية النافعة فيها والاعتياض عما لم يوجد منها والوجه في استخراجها وطريق مداواتها ليساوي بين الامراض والادوية في كمياتها ويخالف بينها وبين كيفياتها فمن لم يكن كذلك فلا يحل له مداواة المرضى ولا يجوز له الاقدام على علاج يخاطر فيه ولا يتعرض لما لا علم له فيه وفي حديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تطبب ولم يعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن وينبغي ان يكون لهم مقدم من اهل صناعتهم . فقد حكي ان ملوك اليونان كانوا يجعلون في كل مدينة حكيماً مشهوراً بالحكمة ثم يعرضون عليه بقية اطباء البلد ليمتحنهم فمن وجده مقصراً في محله امره بالاشتغال وقراءة العلم ونهاه عن المداواة . وينبغي اذا دخل الطبيب على المريض ان يسأله عن سبب مرضه وعما يجد من الالم ثم يرتب له قانوناً من الاشربة وغيرها من العقاقير ثم يكتب نسخة لاولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض فاذا كان من الغد حضر ونظر الى دائه ورفع قارورته وسأل المريض هل تناقص به المرض ام لا ورتب له ما ينبغي على حسب مقتضى الحال وكتب له نسخة وسلمها لاهله وفي الثالث كذلك وفي اليوم الرابع كذلك هكذا الى ان يبرأ المريض او يموت فان برئ من مرضه اخذ الطبيب اجرته وكرامته وان مات حضر اولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب فان رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطب قال: هذا قضى بفروغ اجله وان رأى الامر بخلاف ذلك قال لهم: خذوا دية صاحبكم من الطبيب فانه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه . فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة الى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من اهله ولا يتهاون الطبيب في شيء منه . وينبغي للمحتسب ان يأخذ عليهم عهد بقراط الذي اخذه على سائر الاطباء ويحلفهم ان لا يعطوا احداً دواء مضراً ولا يركبوا له سماً ولا يصفوا السموم عند احد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الاجنة ولا للرجال الذي يقطع النسل وليغضوا ابصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى ولا يفشوا الاسرار ولا يهتكوا الاستار ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم فيه .

فصل واما الكحالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين اعني العشر مقالات في العين فمن وجده قيماً فيما امتحنه به عارفاً بتشريح طبقات العين وعدد السبعة وعدد رطوباتها الثلاثة وما يتفرع من ذلك من الامراض وكان خبيراً بتركيب الاكحال وامزجة العقاقير اذن له

المحتسب بالتصدي لمداواة اعين الناس ولا يفرط في شيء من آلات صنعته مثل صنانير النشل والظفر ومباضع الفصد ودرج المكاحل وغير ذلك واما كحالو الطرقات فلا يوثق بأكثرهم اذ لا دين لهم يصدهم عن التهجم على اعين الناس بالقطع والكحل بغير علم ومخبرة بالامراض والعلل الحادثة ولا ينبغي لاحد ان يركن اليهم في معالجة عينه ولا يثق بأكحالهم واشيافهم فان منهم من يضع اشيافاً اصلها النشا والصمغ ويصبغها الواناً مختلفة فيصبغ احمر بالسيلقون والاخضر بالكركم والنيل والاسود بالقاقيا والاصفر بالزعفران ومنهم من يحمل اشيافاً من ماثها ويعجنه بالصمغ ومنهم من يعمل كحلاً من نوى الاهليلج المحرق والفلفل وجميع غشوش اكحالهم لا يمكن حصرها فيحلفهم المحتسب على ذلك اذ لا يمكنه منعهم من الجلوس .

فصل واما المجبرون فلا يحل لاحد ان يتصدى للجبر الا بعد ان يعرف المقالة السادسة من كتاب قوانين الجبر وان يعلم عدد عظام الآدمي وهي مائتا عظم وثمانية عظام وصورة كل عظم منها وشكله وقدره حتى اذا انكسر منها شيء او انخلع رده الى موضعه على الهيئة التي كان عليها فيمتحنهم المحتسب على ذلك

فصل واما الجرائحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطاجانس في الجراحات والمراهم وان يعرفوا التشريح واعضاء الانسان ومافيه من العضل والعروق والشرايين والاعصاب ليتجنب ذلك في وقت فتح المواد وقطع البواسير ويكون معه دست المباضع فيه مباضع مدورات الرأس والمورّبات والحربات وفاس الجبهة ومنشار القطع ومخرقة الاذن وورد السلع ومرهمدان المراهم ودواء الكندر القاطع للدم ومنهم من يتبهرجون على الناس بعظام تكون معهم فيدسونها في الجرح ثم يخرجونها منه بحضر من الناس ويزعمون ان ادويتهم القاطعة اخرجتها . ومنهم من يضع مراهم الكلس المغسول بالزيت ثم يصبغ لونه احمر بالمغرة واخضر بالكركم والنيل والاسود بالفحم المسحوق فيعتبر عليهم ذلك

وقال في الحسبة على الوعاظ : يجب على المحتسب ان ينظر في امر الوعاظ ولا يمكن احداً ممن يتصدى لهذا الفن الا من اشتهر بين الناس بالدين والخير والفضيلة عالماً بالعلوم الشرعية وعلم الادب حافظاً للكتاب العزيز ولاحاديث النبي صلى الله عليه وسلم واخبار الصالحين وحكايات المتقدمين ويمتحن بمسائل يسأل عنها من هذه الفنون فان اجاب والا منع كما اختبر الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه الحسن البصري وهو يتكلم على الناس فقال له : ما عماد الدين قال : الورع قال : فما آفته قال : الطمع قال : تكلم الآن ان شئت . ومن كانت هذه الشرائط فيه مكن من الجلوس على المنبر في الجوامع والمساجد وفي اي بقعة احب ومن

لا يدري ذلك كان جاهلاً بذلك 'منع من الكلام فان لم يمتنع ودام على كلامه 'عزّر ومن عرف شيئًا يسيرًا من كلام الوعاظ وحفظ من الاحاديث واخبار الصالحين مثل ذلك وقصد الكلام يسترزق به و يستعين على وقته فسح له بشرط ان لا يصعد المنبر بل يقف على قدميه فان رتبة صعود المنبر رتبة شريفة لا يليق ان يصعد عليه الا من اشتهر بما وصفناه وكفى به علوًا وسموًا ان النبي صلى الله عليه وسلم صعد عليه والخلفاء الراشدون من بعده والعلماء والائمة وكان العصر الاول لا يصعد فيهم المنبر الا احد رجلين خطيب في جامع يوم جمعة او عيد او رجل عظيم الشأن يصعد المنبر يعظ الناس و يذكرهم الآخرة و ينذرهم ويحذرهم و يخوفهم و يحثهم على العمل الصالح وكان للناس بذلك نفع عظيم ·

وفي زماننا هذا لا 'يطلب الواعظ الا لتمام شهر ميت او لعقد نكاح او لاجتماع هذيان ولا يجتمع الناس عنده لسماع موعظة ولا لفائدة وانما صار ذلك من نوع الفرح واللعب والاجتماع وتجري في المجالس امور لا تليق من اجتماع الرجال والنساء و رؤية بعضهم لبعض واشياء لا يليق ذكرها وهذا من البدع المضلة وكان الاولى حسم الباب في ذلك والمنع منه وان تعذر فلا يمكن (المحتسب) من ذلك الا رجلاً مشهورًا بالدين والخير والفضيلة كما تقدم من شرطه ان يكون عاملاً لله مجتهدًا قولاً فعلاً · قال الله تعالى : وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وقال : يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابدًا · والفقهاء والمتكلمون والادباء والنحاة يسمون اهل الذكر والوعظ قصاصًا · قال بعض العلماء : مجالس الوعظ خير المجالس وملابسها انحر الملابس فيها ترق قسوة القلوب وفيها يتاب عن الذنوب و يعترف بالعيوب

وقال في معرفة القنطار والارطال والمثاقيل والدراهم : لما كانت هذه المعاملات ووزنها اعتبارًا للمبيعات لزم المحتسب معرفتها وحقيقتها لتقع المعاملة بها على الوجه الشرعي وقد اصطلح اهل كل اقليم على ارطال تتفاضل في الزيادة والنقصان ونحن نذكر من ذلك مالا يسع المحتسب جهله ليعلم تفاوت الاسعار اما القنطار الذي ذكره الله العظيم في كتابه الكريم فقد قال : معاذ بن جبل هو الف ومائتا اوقية وهو قول ابن عمر و رواه أُبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الضحاك الف ومائتا مثقال و رواه الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابو نصرة هو ملء مسك ثور ذهبًا او فضة وعن انس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وسلم القنطار الف دينار وعن ابن عباس والضحاك اثنا عشر الف درهم او الف دينار دية الرجل المسلم وعن ابى صالح مائة رطل وهو المتعارف بين الناس · والرطل اثنتا عشرة اوقية والاوقية اثنا عشر درهمًا وهذا لا خلاف فيه لكن الرطل فيه اختلاف كثير في الامصار والبلدان فالرطل الحجازي مائة وعشرون درهمًا والرطل

المصري مائةوار بعة وار بعون درهماً والرطل البغدادي مائة وثلثون درهماً والرطل الدمشقي ستمائة درهم والرطل الحلبي سبعمائة وعشرون درهماً والرطل الحموي ستمائة وستون درهماً والرطل الحمصي سبعمائة وار بعة وتسعون درهماً والرطل الليتي مائتا درهم والجروي ثلثمائة واثنا عشر درهماً والرطل الحراني سبعمائة وعشرون درهماً والعجلوني والرومي الف ومائتادرهم والرطل الغزاوي سبعمائة وعشرون درهماً والرطل المقدسي والخليلي والنابلسي ثمانمائة درهم والرطل الكركي تسعمائة درهم ٠

وفي المحلات ارطال مختلفة فالمتعامل بها في الاسواق ما يذكر :مدينة قوص وما الاحوال رطل اللحم والخبز والخضر ثلثمائة وخمسة وعشرون درهماً وباقي الحوائج مائتادرهم ٠مدينة اسيوط تختلف الاحوال ٠ فالخبز واللحم الف درهم ويسمى منًا وباقي الحوائج ليتي مائتادرهم ٠ منفلوط اللحم والخبز ليتي مائتا درهم وباقي الحوائج مصري مائة وار بعة وار بعون درهماً ٠اخميم مدينة مختلفة الاحوال: الخبز واللحم الف درهم ويسمى منا الباقي ليتي مائتا درهم ٠ منية بني خصيب على رطل مصر مائةوار بعة وار بعون درهما ٠ ديروط الصربان على رطل مصر مائة وار بعةوار بعون درهماً ٠بمدينة المحلة رطلان وثلثارطل يكون ار بعمائةدرهم٠ ثغرالاسكندرية رطلان واوقيتان ثلثمائة واثنا عشر درهماً ٠ ثغر دمياط رطلان وربع ونصف اوقية ثلثمائة وثلثون درهما ٠البلبيسي رطل وربع مصري مائة وثمانون درهماً ٠منية سمنودرطلان وسدس ثلثمائة درهم ٠مدينة الفيوم مائة وخمسون درهماً ولم اسمع ان بلدة وافق رطلها البلدة الاخرى الا نادرًا او قرية لقرية لا يؤبه بهما والاوقية من نسبة رطلها جزء من اثني عشر جزءاً ٠

وأما المثقال فاتفق على انه درهم ودانقان ونصف وهو ار بعة وعشرون قيراطاً والقيراط ثلاث حبات او ار بعة اسباع حبة وهو خمسة وثمانون حبة وخمسة اسباع حبة ووزن كل حبة منها مائة حبة من حبوب الخردل البري المعتدل ٠ وقال بعض العلماء: كان المثقال بمكة في زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اثنتين وسبعين حبة من حب الشعير الممتلىء غير الخارج من المعهود والدرهم ستة دوانيق وهو ستون حبة ٠ وقال بعض العلماء : الدرهم خمسون حبة وخمسا حبة من حب الشعير كما ذكرنا ووزن كل حبة من الدرهم سبعون حبة من حب الخردل البري المعتدل والدينار مثل الدرهم وثلاثة اسباعه والدرهم من الدينار بنصفه وخمسه وهذا يفيد تقريباً على ما ضبطه الائمة فان عرف الدرهم الاسلامي بطريق غير هذه الطريق وتحقق قدره كان ذلك معتمدًا في معرفة المثقال والا فلا ضابط الا بما تقدم ذكره من حب الشعير ٠ واختلف في سبب استقراره على هذا الوزن فذكر ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما رأى اختلاف الدراهم وان منها البغلي وهو ثمانية دوانيق ومنها الطبري وهو ار بعة

دوانيق ومنها ما هو ثلاثة دوانيق ومنها اليمني وهو دانق قال: انظروا الاغلب مما يتعامل فيه الناس من اعلاها وادناها فكان الدرهم البغلي والطبري فجمع بينهما فكانا اثني عشر دانقاً فاخذ نصفها فكان ستة دوانيق فجعل الدرهم الاسلامي ستة دوانيق . ومتى زدت عليه ثلاثة اسباعه كان مثقالاً ومتى نقصت من المثقال ثلاثة اعشاره كان درهماً وكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكل عشرة مثاقيل اربعة عشر درهماً وسبعان والله اعلم

وحكى سعيد بن المسيب ان اول من ضرب الدراهم المنقوشة عبدالملك بن مروان وكانت الدنانير ترد رومية وكانت الدراهم ترد كسروية وحميرية قليلة فامر عبدالملك الحجاج بضرب الدراهم بالعراق فضرب بها سنة اربع وسبعين وقيل خمس وسبعين ثم امر بضربها في النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله احد الله الصمد . وحكى يحيى بن النعمان الغفاري ان اول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير عن امر عبدالله بن الزبير سنة سبعين على ضرب الاكاسرة وعليها « بركة » من جانب « والله » من جانب ثم غيرها الحجاج بعد سنة وكتب عليها « بسم الله » « الحجاج » وهذه فائدة ذكرت هاهنا لتعلقها بذكر الدراهم فيجب على المحتسب ان لا يهمل امر هذا الباب و ينظر فيه كل وقت والله اعلم .

وقال في معرفة الموازين والمكاييل والاذرع : « اصح الموازين ما استوى جانباه واعتدلت كفتاه وكان ثقب علاقته في وسط العمود ويحدد الثقب ويجعل المسمار فولاذا حتى تكون سريعة الجريان فمتى لم يفعل ذلك كانت تسكن فيضر بالمشتري .

فصل ويأمر اصحاب الموازين بمسحها وتنظيفها من الادهان والاوساخ في كل ساعة فانه ربما يجمد شيء في جرمها فيضر كما ذكرنا وينبغي اذا شرع في الوزن ان يسكن الميزان ويضع فيها البضاعة من يده في الكفة قليلاً قليلاً ولا يهمز الكفة بابهامه فان ذلك كله بخس وتكون موازين الباعة معلقة ولا يمكن احداً من الباعة ان يزن بميزان الارطال في يده ومن البخس الخفي في ميزان الذهب ان يرفعه بيده تلقاء وجهه ثم ينفخ على الكفة التي فيها المتاع نفخاً خفيفاً فيرجح بما فيه وذلك ان المشتري يكون عينه الى الميزان لا الى صاحبه . ولهم في الميزان صناعة يحصل بها البخس مثل ان يلصق شمعة تحت احد كفتي الميزان او يشكل رزة الميزان العليا بخيط شعر رقيق لا ينظره المشتري فيحصل له من ذلك تفاوت . ولهم ايضاً العلاقة التي تسمى المورى وهو ان يكون عمود الميزان فولاذاً و يعمل لسانه ارمهان(؟) او يعوج رأس اللسان الى الجانب الذي يريد ان يأخذ به فيحصل له ذلك القدر الحرام فيلزم المحتسب مراعاة ذلك في كل وقت . واعلم انك وليت من الكيل والميزان امراً من اجله هلكت الامم السالفة فباشرهما بيدك مباشرة الاختبار ولا تقل اهلها عثرة فان الاقالة لا تنهى

عن العثار وكل هؤلاء من سواد الناس فمن لم يفقه نفسه وليس همته الا فرجه او ضرسه فخدمهم التعزير التي هي نزاعة الشوى تدعو من ادبر وتولى

فصل والقبان القبطي فينبغي للمحتسب ان يختبره بعد كل حين فانه يفسد بكثرة استعماله في وزن الحطب والبضائع الثقيلة ويتخذ عنده عيارات من حصى في خرائط ليف هندي او خيش و يضعها في موضع لا تصل اليها النداوة ولا الغبار ويعين لعيار القبانين رجل يوثق بدينه وامانته ولا يشوبه في ذلك رياء ولا محاباة لاحد من ابناء جنسه ويلزم المحتسب ان لا يمكن احداً من الوزن بالقبان الا من ثبتت امانته وعدالته ومعرفته بالعدول من اهل الخبرة في مجلسه فانها صناعة خفية والبائع والمشتري واقفان لا يعلمان صحة ذلك من سقمه الا من لفظه فيعتبر فيه ما ذكرناه ٠

فصل و ينبغي ان يتخذ الارطال من حديد و يعتبرها المحتسب و يختم عليها بختم من عنده ولا يتخذوها من الحجارة لانها اذا قرع بعضها ببعض فتنقص فاذا دعت الحاجة الى اتخاذها لقصور يده عن اتخاذ الحديد امره المحتسب بتجليدها ثم يختمها بعد العيار ويجدد النظر فيها بعد كل حين لئلا يتخذوا مثلها من الخشب ورؤس اللفت ولا يكون في الحانوت الواحد دستان من ارطال او صنج من غير حاجة لانها تهمة في حقه ولا يتخذ عنده الا ما جرت العادة باتخاذه مثل ثلث الرطل وثلث اوقية وثلث درهم لمقاربة النصف وربما اشتبه ذلك عليه بالنصف في حال الوزن عند كثرة الزبون والله اعلم ٠

فصل و ينبغي للمحتسب ان يتفقد عيار المثاقيل والصنج والارطال والحبات على حين غفلة من اصحابها فان في الصيارف من يأخذ حبات الحنطة فينقعها في الماء ثم يغرز فيها رؤوس الابر الفولاذ ثم تجفف فتعود الى سيرتها الاولى ولا يظهر فيها شيء ويأمرهم ان يجعلوا لون صنج الفضة مخالفاً للون صنج المثاقيل فربما وضعوا صنجة النصف درهم عوض الرباعي وبينهما تفاوت وكذلك صنجة الثمن عوض صنجة القيراطين والله اعلم ٠

فصل في المكاييل قال الله تعالى : ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون ٠ الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ٠ وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : المكيال على مكيال المدينة والوزن على وزن مكة ٠ والمكيال الصحيح ما استوى اعلاه واسفله في الفتح والسعة من غير ان يكون محصور الفم ولا يكون بعضه داخلاً وبعضه خارجاً و ينبغي ان يشده بالمسامير لئلا يصعد فيزيد او ينزل فينقص واجود ما عيرت به المكاييل الحبوب الصغار التي لا تختلف في العادة مثل الخردل والبرسيم والبزرقطونا والكسفرة وما اشبه ذلك و يكون في كل حانوت من المكاييل

الصحيحة مكيال ونصف مكيال وربع مكيال وثمن مكيال مختوم عليها بختم الحسبة لان الحاجة تدعو الى اتخاذ ذلك ·

وينبغي للمحتسب ان يجدد النظر في المكاييل فمن من الحصانيين والفوالين والعلافين من يأخذ قطعة خشب يحفرها مكيالاً فيكون طولها شبراً مثلاً والمحفور من داخلها اربع اصابع فيغتر الناس بسعتها وطولها ولا يعلمون المقدار المحفور وهذا تدليس لا يخفى ويراعي ايضاً ما يلصقونه في اسفل المكيال فان منهم من يلصق في اسفله الجير او الجبس الاسود فيلصقونه لصقاً لا يكاد يعرف ومنهم من يلصق في جوانبه الكسب فلا يعرف ولهم في ملك المكيال صناعة يحصل بها البخس فلا يدع الكشف عليهم في كل وقت واما الكيالون فلا خير فيهم لا سيما في هذا الزمان فان اكثرهم يكتال ما يقبضه زائداً ويسمى عندهم الفرز والطرح وعند الصرف يجعله ناقصاً ويسمى عندهم المسفق وقد ذمهم الله تعالى بما ذكرنا في اول الفصل فينبغي للمحتسب ان يحذرهم ويخوفهم عقوبة الله تعالى وينهاهم عن البخس والتطفيف في ذلك كله ومتى ظهر له من احد منهم خيانة عزره على ذلك وينهره حتى يرتدع به غيره ·

وخرّج ابوداود عن احمد بن حنبل قال صالح بن ابي ذئيب: خمسة ارطال وثلث واسند البخاري الى عبدالله بن احمد بن حنبل ذكر لي ابي انه عير مد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فوجده رطلاً وثلثاً وفي كتاب عقد الجوهر ان اهل المدينة لا يختلف اثنان ان مد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي به يؤدي الصدقات ليس اكثر من رطل ونصف ولا اقل من رطل وربع وقال بعضهم: رطل وثلث وهو الذي عليه اكثر العلماء · والويبة ستة عشر قدحاً من ذ بة كيل البلد ·

فصل والاذرع سبع اقصرها القاضية ثم اليوسفية ثم السوداء ثم الهاشمية الصغرى وهي البلالية ثم الهاشمية الكبرى وهي الزيادية ثم العمرية ثم الميزانية فاما القاضية وهي تسمى ذراع الدور وهي اقل من ذراع السوداء باصبع وثلثي اصبع واول من وضعها ابن ابي ليلى القاضي وبها يتعامل اهل كل وادي واما اليوسفية فهي التي يذرع بها القضاة الدور بمدينة السلام وهي اقل من ذراع السوداء بثلثي اصبع واول من وضعها القاضي ابو يوسف واما الذراع السوداء فهي اطول من ذراع الدور باصبع وثلثي اصبع واول من وضعها الرشيد وقدّرها بذراع خادم اسود كان على رأسه وهي التي يتعامل بها الناس في ذراع البز والتجارة والابنية وقياس نيل مصر ·

واما الذراع الهاشمية الصغرى وهي البلالية فهي اطول من الذراع السوداني باصبعين

وثلثي اصبع واول من احدثها بلال ابن ابي بردة وذكر انها ذراع جده ابوموسى الاشعري وهي انقص من الزيادية بثلاثة ارباع عشر وبها يتعامل الناس بالبصرة والكوفة واما الهاشمية الكبرى فهي ذراع الملك واول من نقلها الى الهاشمية المنصور وهي اطول من الذراع السوداء بخمس اصابع وثلثي اصبع ويكون ذراعاً وثمناً وعشراً بالسوداء وينقص منها الهاشمية الصغرى بثلاثة ارباع عشر وسميت زيادية لان زياداً مسح بها ارض السواد وهي التي تذرع بها اهل الاهواز واما الذراع العمرية وهو ذراع عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي مسح بها السواد قال موسى بن طلحة: رأيت ذراع عمر بن الخطاب التي مسح بها ارض السواد وهو ذراع وقبضة وابهام قائمة قال الحكم: ان عمر عمد الى اطولها واقصرها واوسطها فجمع منها ثلاثة واخذ الثلث منها وزاد عليها قبضة وابهاماً قائماً ثم ختم طرفيه بالرصاص وبعث ذلك الى حذيفة وعثمان بن حنيف حتى مسحا بها ارض السواد وكان اول من مسح به بعده عمر بن هبيرة واما الذراع الميزانية فيكون بالذراع السوداء ذراعاً وثلثي ذراع وثلثي اصبع واول من وضعها المأمون وهي التي يتعامل بها الناس في ذراع البريد والسكور والسوق وكري الانهار والحفائر والذراع المقدر الشرعي الذي ذكره الامام الغزالي وغيره فهو اربعة وعشرون اصبعاً والاصبع ست شعيرات بطن حبة لظهر اخرى والشعيرة ست شعرات بشعر البغل والله اعلم»

وقد وردت اسماء في الابواب المتقدمة في اول هذا المبحث نسيت لطول العهد بها وكثرة دخول الالفاظ الاعجمية بدلها مثل «البواردبين» وهم في الغالب الطهاة الذين يقدمون طعام البقول المطبوخة و «السداريين» الذين يطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون اذا غش يضر ولا ينفع و «الفاخرانيين والغضاريين» وهم الذين يصنعون الزبادي «السلطانيات» من الحصا المطحون والغضارون باعة الكيزان «والمسلاتيين» صناع المسلات و «المرادنيين» الذين يعملون المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب الساسم او من السنط الاحمر . وتمثيل المؤلف بالكيل المصري بدل غيره كما رأيت في الحسبة على الموازين والمكاييل وكما جاء في الحسبة على الهراسين فيه دلالة على انه مصري من اهل القرن السابع ومما يستأنس به ان الكتاب ألف لمصر ماورد ايضا في الحسبة على الكتانيين فقال «ان اجود الكتان المصري الجنوبي الغض واجوده الناعم المؤرق واردأ القصير الخشن الذي ينقصف ولا يخلطون جيده برديئه ولا الكتان البحري بالصعيدي ولا الصعيدي بالكوري» وقال في الحسبة على معاصر السيرج والزيت الحار «وعيارة الجرة بالرطل المصري ستة وعشرون رطلاً وربع رطل» وسكت وكذلك مثل بالرطل المصري في عصر الزيت وفي غيره

للبحث صلة

الرومان

معربة من كتاب تاريخ الحضارة لشارل سنيوبوس

رومية الاصلية

رومية — على تخوم قطر اللاسيوم من ناحية بلاد الايتروسكيين يمتد سهل ذو بطائح تتخلله أكمات وتلعات هنالك على ضفة نهر التيبر أنشئت مدينة رومية مقر الشعب الروماني المتفرق في الخلاء . ولقد كانت الحميات تنتاب تلك البلاد وحالتها من الكآبة والبؤس على جانب ولكن كان موقعها جميلاً ونهر التيبر بمثابة هوّة قائمة في وجه الايتروسكيين كما كانت تلك الآكام كالحصون وبين تلك المدينة والبحر ستة اميال وهو بعدٌ لا يكاد ينجيها من سطوة قرصان البحر وبقربها قليلاً من تناول البضائع الواردة عليها . وكان مرفأ اوستي عند مصب نهر التيبر حيًّا من احياء رومية كبير مثل بيرة مرفأ آثينة . فموقع رومية كان والحالة هذه مناسباً لحال امة حربية تجارية .

تأسيس رومية — لا نعرف من حال القرون الاولى لرومية غير اساطير . والرومانيون انفسهم لم يعرفوا عنها شيئًا مثلنا . وقدادعوا ان رومية كانت لاول امرها مدينة صغيرة مربعة المساحة قائمة كلها على رابية « بالاتين » ويدعى مؤسسها رومولوس وهو الذي اختط سورها بمحراث مراعياً في تخطيطها الشعائر الايتروسكية . وكان الرومانيون يحتفلون كل سنة يوم ٢١ ابريل (نيسان) بعيد هذه المدينة فيطوفون حول سورها الاصلي فيدق احد الكهنة مسمارًا في بعض المعابد تذكارًا للحفلة . وكان يُقدّر ان الاحتفال بتأسيس تلك المدينة قد وقع في سنة ٧٥٤ قبل المسيح .

أُنشئت على الروابي الاخرى قبالة جبل بالاتين عدة مدن صغرى ونزلت عصابة من سكان الجبال من السابنيين في معبد الكابيتول كما حلت عصابة اخرى من متشردي الايتروسكيين في جبل سليوس وربما كان ثمت ايضًا شعوب اخرى . وانتهت الحال بجميع اولئك الجماعات الصغيرة ان يجتمعوا في مدينة رومية الواقعة على رابية بالاتين ثم انشئ سور جديد احاط بالسبع اكمات . اما ساحة المريخ حيث يقف الجيش فكانت ممتدة الى نهر التيبر من الشاطئ الآخر من النهر خارج السور فكان الكابيتول في رومية مثال الاكروبول في آثينة . ولقد قامت على هذا الصخر معابد الارباب الثلاثة حامية المدينة وهي المشتري وجونون ومنيرفا وهنالك القلعة التي حوت خزانة الحكومة وسجلات الامة . وفي اساطيرهم

انهم عثروا عند ما حفروا أُسس المدينة على رأس رجل قطع حديثاً فكان هذا الرأس فألاً حسناً اولوه بان رومية ستغدو رأس العالم .

تقاليد بشأن الملوك وانشاء الجمهورية — جاء في هذه التقاليد انه حكم رومية ملوك مدة قرنين ونصف ولم تذكر فيها اسماؤهم وتاريخ وفياتهم بل ذكرت تراجمهم وقيل انهم كانوا سبعة ملوك خرج الاول وهو رومولوس من مدينة آلب اللاتينية فانشأ مدينة بالاتين وقتل اخاه الذي ارتكب محرماً بان قفز من فوق خندق سور المدينة ثم حالف احد ملوك السابيين المدعو تاتيوس . وفي تقليد آخر انه انشأ في سفح المدينة حياً محاطاً بسياج حشر اليه جميع المتشردين الذين احبوا الانضمام اليه .

اما الملك الثاني وهو نوما بومبيليوس فقد كان سابنياً وهو الذي رتب الديانة الرومانية آخذاً برأي احدى الربات « ايجري » التي كانت تسكن في غابة . وكان الملك الثالث المدعو تولوس مارتيوس حفيد نوما الموما اليه بنى جسراً من خشب على نهر التيبر وانشأ جسر اوستي وعليهما كانت تمر تجارة رومية منذ ذاك الحين . وكان الملوك الثلاثة الآخرون من الايتروسكيين وحدث من امر تاركين القديم ان وسع المملكة الرومانية وادخل الاحتفالات الدينية الشائعة في بلاد ايترورياأو الايتروسكيين . ونظم سرفيوس توليوس الجيش الروماني بان ادخل فيه جميع اهل البلاد بدون تمييز في موالدهم واعمارهم ووزعهم مئات مئات بحسب ثروتهم . اما الملك الاخير المدعو تاركين الباهر فقد ظلم الاسرات الكبرى في رومية فتآمر عليه بعض الاشراف ووفقوا الى طرده .

ومنذ ذاك العهد (٥١٠) لم يملك على الرومانيين ملك فكانت البلاد الرومانية او كما يقال الملك العام يحكم عليها حاكمان يختاران كل سنة ويسميان « القناصل » . وليس من الممكن ان نعلم ما في هذا التقليد من الحقيقة لانه نشأ قبل ان يبدأ الرومان في وصف تاريخهم بزمن طويل وفي هذا التقليد من الاساطير ما لا يسعنا قبوله برمته . وقد حاول بعضهم ان يفسر اسماء هؤلاء الملوك ويستدل منها بانها رمز الى جنس او الى طبقة خاصة كما حاول بعضهم ان ينشيء تاريخ رومية في عهده الاول على ضرب من الصور ولكن كلما بذلت العناية بالنظر فيه صعب الاتفاق بين المشتغلين في ذلك على تقرير امر وكثر الخلاف بينهم .

وصف ترتيبات الرومانيين على سبيل الايجاز — كان في رومية نحو القرن الخامس قبل المسيح طبقتان من الناس ، وهما الباترسيين والبلبيين (اي الاشراف والعامة) فكان الباترسيون من نسل قدماء الأُسرات المقيمة منذ القدم في البقعة الضيقة في ظاهر مدينة

رومية وكان لهم وحدهم الحق ان يظهروا في مجمع الامة وان يحضروا الحفلات الدينية وان توسد اليهم الوظائف · و يعتقدون ان اجدادهم اسسوا المملكة الرومانية او كما كان يقال المدينة الرومانية واوصوا بها لهم فكانوا هم من ثم الشعب الاصلي في رومية اما البلبين فهم من نسل الغرباء النازلين في المدينة ولا سيما من المغلوبين من سكان المدن المجاورة اذ ان رومية اخضعت بالتدريج جميع المدن اللاتينية وضمت سكانها اليها بالقوة فاصبحوا رعايا لرومية لكنهم ظلوا غرباء عنها يخضعون لحكومة رومية دون ان يشركوها في شيء من الامر فلا يدينون بالدين الروماني ولا يسوغ لهم ان يحضروا الحفلات الدينية ولا ان يتزوجوا من الاسرات الشريفة وكانوا يدعون بالبلب اي الجمهور ولا ينظر اليهم بانهم جزء من الشعب الروماني · وقد وُجدت في الصلوات القديمة هذه العبارة « لخير الشعب وخير البلبين في رومية » ·

وكان يجتمع ابناء البلاد وعليهم اسلحتهم كل سنة خارج المدينة في ساحة المناورات (ساحة المريخ) ينتخبون زعيمين يطلقون عليهما لقب القضاة او القناصل · وكان هؤلاء القناصل في خلال السنة التي يتوظفون فيها يحكمون رومية و يقودون جيشها و بيدهم حياة جميع افراد الامة وموتها · يرافقهم اثنا عشر رجلاً من حملة الفؤوس اشارة لما لهم من السلطة فيحمل كل منهم فأساً وحزمة قضبان لجلد المجرمين او ضرب رقابهم · فيجلس القناصل على عادة قدماء الملوك على دكة تشبه العرش وهو كرسي عال من العاج · و يستعاض في اوقات الحروب الخطرة عن القنصلين بحاكم واحد يلقون اليه بزمام السلطة فيصبح الحاكم المتحكم والآمر الناهي وحده و يكون في قبضته الاربعة والعشرون جلاداً ولكن سلطته لا تدوم الا ستة اشهر ·

فيجمع القناصل مجلس الشيوخ وهو مؤلف من رؤساء الأسرات وكبار ارباب الاملاك للمفاوضة في المسائل المهمة و يدعى هؤلاء بالآباء ويدعى نسلهم بالاشراف فكان مجلس الشيوخ يصدر رأيه و يطلقون عليه « رأي الشيوخ » ومن العادة ان يلتزم القناصل امتثاله فكانت من ثم رومية محكوماً عليها من القناصل ومجلس الشيوخ في آن واحد ·

النزاع بين طبقات الشعب — كان العامة واهل الطبقة الوسطى عبارة عن شعبين متباينين سادة و رعية · ومع هذا كان حال اهل الطبقة الوسطى يشبه كثيراً حال الاشراف فهم يخدمون في الجندية مثلهم و يخدمون في الجيش على نفقتهم و يفادون بارواحهم في خدمة الشعب الروماني وهم مثلهم من اهل الفلح والحرث يعيشون في قراهم واماكنهم وكان كثير من اهل هذه الطبقة المتوسطة اغنياء ومن أسرة قديمة والفرق بين الطبقة المتوسطة و بين

الاشراف ان الاول كانوا من نسل أُسرة عظيمة من بعض المدن اللاتينية المغلوبة على حين كان الاشراف من نسل اسرة قديمة من سكان المدينة الغالبة · ولم ترض نفوس اهل الطبقة الوسطى ان تظل ساكتة على ما قُضي به عليها من المهانة بل ثار بينهم وبين الاشراف نزاع دام قرنين (من نحو ٤٩٣ الى نحو سنة ٣٠٠) واليك كيف بدأ ذلك على نحو ما ورد في اساطيرهم ·

رأى اهل الطبقة المتوسطة ذات يوم انفسهم مهانة فاعتصموا في جبل هناك وعليهم اسلحتهم وعزموا ان يناوئوا الشعب الروماني فهال عزمهم جماعة الاشراف فبعثوا اليهم بالقائد منينوس اغريبا ليقص عليهم قصة الاعضاء والمعدة فرضيت الطبقة الوسطى بالدخول في الطاعة وعقدت محالفة مع الشعب فمنح رؤساء هذه الطبقة الحق في ان يمدوا يد المساعدة لاهل الطبقة الوسطى للاخذ بايديهم من حيف حكام الامة ولاجل ان يحولوا دون قيام امر يخالف رغائبهم · وقد كان يكفي ان يلفظ احدهم قوله « فتو » اي اني اعارض فيتوقف البتّ في الامر · وقد كان الدين يحظر الانتقاض على المدافع عن حقوق الشعب ومن فعل ذلك استحق العقاب من ارباب الجحيم ·

فظلّ ارباب الطبقة الوسطى آخذين انفسهم بمجاهدة خصومهم من اهل الطبقة العالية واذ كانوا اعزّ منهم نفرًا واكثر غنىً وأيدًا انتهت بهم الحال ان ظفروا بهم فتوصلوا اولاً الى وضع قوانين عامة للجميع وان يسمح بالزواج بين اهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى وكان اصعب ما في هذا التغيير نزع الاستئثار بسلطة الحكم او الذهاب بفضل الشرف وقد كان الدين يأمر انه يجب قبل ان يعين رجل حاكمًا ان يطلب من الارباب فيما اذا كانت توافق على انتخابه ام لا · فيسألون الارباب عن رأيها في ذلك بزجر الطيور ويسمونه اخذ الفأل · بيد ان الديانة الرومانية القديمة لم تكن تسمح باخذ الفأل الا على اسم رجل من اهل الطبقة العليا وما كان يخطر في بال القوم بان الارباب يقبلون بحاكم من اهل الطبقة الوسطى · وكان ثمت اسر كبرى من الطبقة الوسطى تحرص على ان تصبح مساوية لاسر الاشراف في تولي المناصب كما كانت تساويها في الغنى والمكانة فاضطر اهل الطبقة الاولى الى ان تنقذ جميع المناصب شيئًا فشيئًا فبدؤا يدخلون في مجلس القناصل سنة ٣٦٦ وفي مجلس الحكم ٣٥٥ والقضاء سنة ٣٣٧ والمراقبة سنة ٣٣١ وزعامة الدين الكبرى سنة ٣٠٢ ومن ذلك العهد امتزج الاشراف اهل الطبقة العليا باهل الطبقة الوسطى واصبحوا شعبًا واحدًا ·

الديانة

ارباب الرومان — اعتقد الرومان كاعتقاد اليونان بان كل ما يحدث في هذا العالم

هو مما قضت به ارادة خالق ولكنهم لم يعتقدوا باله واحد يدبر العالم بل قالوا بتعدد الارباب بتعدد المظاهر المختلفة التي تتجلى فيها اوامرهم ونواهيهم . فهناك رب ينبت البذر وآخر يحمي حدود الحقول وثالث يحرس الثمار . ولكل رب اسمه وجنسه وعمله . واهم الارباب «المشتري» رب السماء و«جانوس» ذو الرأسين و«المريخ» رب الحرب و«عطارد» رب التجارة و«فولكان» رب النار و«نبتون» رب البحر و«سريس» ربة الحصاد والارض والقمر و«جونون» و«منيرفا» .

ثم يجيء الارباب من الدرجة الثانية فكانت تتجسد في بعض تلك الارباب صفة من الصفات كالفناء والاتحاد والراحة والسلام ويشرف بعضها على عمل من اعمال الحياة فعند ما يولد المولود يأتيه رب يعلمه النطق وربة تعلمه الشرب واخرى تقوي عظامه وربان يرافقانه الى المدرسة وآخران يرجعان به وبالجملة فانهم كانوا يعتقدون بوجود جيش من الارباب من الدرجة الثانية . ويعتقدون بان هناك ارباباً تحمي مدينة وحارة وجبلاً وغابة . ولكل نهر ولكل نبع ولكل شجرة ربٌّ خاص بها حتى لقد قالت امرأة صالحة في احدى القصص من تأليف بترون الكاتب اللاتيني « ان بلادنا غاصة بالارباب بحيث يسهل عليك ان تلقى فيها رباً من ان تصادف رجلاً » .

ولم يتمثل الرومانيون كاليونان اربابهم على صورة مخصوصة فقد مضى زمن طويل ولم يكن في رومية صنم فكانوا يعبدون « المشتري » في صورة حجر و«مارس» على صورة سيف . ولم يقلدوا الا مؤخراً باتخاذ الاصنام من الخشب على مثال اصنام الايتروسكيين واصنام الرخام على مثال اصنام اليونان ولم يتصوروا على العكس في اليونان ان بين الارباب صهراً ونسباً ولا عزوا اليهم قصصاً كما يفعل اليونان مع اربابهم ولا يعرفون لهم جنة يعقدون فيها مجالسهم . وكان في اللغة اللاتينية لفظة مشهورة للتعبير عن الارباب وهي « التجليات » فكانوا يعتقدون انها تجليات قوة الاهية مجهولة . ولذلك لم يصورهم الرومان في صورة من الصور ولا نسبوا اليهم رحماً ولا صهراً ولا تاريخاً وكل ما كان يعرف عن الارباب الرومانيين هو ان كل واحد منها يسيطر على قوة من قوى الطبيعة ويستطيع ان يعمل للناس الخير والشر على ما يحب ويهوى .

العبادة — قلما يحب الروماني اولئك الارباب المجهولين الصفر الباردين . والظاهر انه كان يخاف منهم فيخبأ وجهه عند ما يتوسل اليهم وربما اتى ذلك لئلا يقع بصره عليهم ولكنه يذهب الى ان الارباب قادرون وان من يرضيهم يخدمونه . قال بلوت (الشاعر الهزلي اللاتيني) ان الرجل الذي يرضى عنه الارباب يكسبونه مالاً . ويعتقد الروماني

بان الدين عبارة عن مقايضة المنافع فيقدم المرء للرب نذوره وقرابينه ويمنحه هذا بعض المنافع فاذا قدم المرء ما يجب تقديمه للرب ولم يظفر بمتمناه يعتبر نفسه قانطاً مخدوعاً · ولقد قدم الشعب للارباب في خلال مرض القائد جرمانيكوس نذوراً ليمنّ عليه بالشفاء ولما ذاع خبر موته سخط العامة وقلبت المذابح والقت في الشوارع بتماثيل الارباب لان هذه لم تعمل ما كان يرجى منها ان تعمله وهكذا فانا نرى الفلاح الايطالي لعهدنا هذا يشتم القديس الذي لم يعطه ما طلبه منه ·

فالعبادة اذاً عبارة عن القيام بما يرضى عنه الارباب من الاعمال والشعب يأتيهم بالثمار واللبن والخمر ويضحي لهم الحيوانات · وفي بعض الاوقات يخرجون تماثيل الارباب من معابدهم ويجعلونها على سرر ويولمون لها وليمة ويقومون بما يقوم به الشعب في بلاد اليونان فيبنون لهم دوراً جميلة وهي المعابد ويحتفلون بارباب‌هم ·

ولم يكن يكفي في تعظيم ارباب الرومانيين ان ينفق الناس مالاً في سبيل اكرامهم بل كانت تنظر الى الصور التي يقوم بها ذلك الاكرام فتقضي ارادتها ان تجري جميع اعمال التعبد والنذور والالعاب بما رسمته القواعد القديمة (الطقوس) فمتى أريد تقديم ضحية للمشتري كان عليهم ان يختاروا حيواناً ابيض وان يذروا على رأسه دقيقاً مملحاً وان يضرب بفأس وان يقف المقدم لهذه الضحية على قدميه ويداه مرفوعتان الى السماء حيث يقيم المشترى وان يلفظوا بجملة تقديساً لاسمه · فاذا غلط المقدم بما يقول فمعنى ذلك ان الضحية لا تساوي شيئاً ويذهب القوم الى ان الرب لا يرضى عما قُدم له · ولقد قام احد الحكام بالعاب اكراماً للارباب الحامية لرومية فقال شيشرون « اذا غيرت عبارة واذا وقف اللاعب بالشباب او انقطع الممثل فتكون الالعاب غير موافقة للشعائر الدينية فيجب اذ ذاك اعادتها » ولذلك كان اهل الرأي من الناس يحضرون كاهنين احدهما يتلو الصلاة والآخر يتابعه فيما يقول

يجتمع الكهنة وهم يُدعون « اخوة ارفال » كل سنة في معبد بجوار رومية فيرقصون رقصاً مقدساً ويتلون الصلوات وهي مكتوبة بلغة قديمة لا يفهم منها احد شيئاً ويقتضي في اوائل الصلاة ان يدفع الى كل كاهن مجموع قوانين مكتوبة في اول الجلسة · وظل الرومانيون بعد ان نُسيت هذه اللغة بقرون يتلونها كل سنة دون ان يغيروا منها حرفاً · ومما يدل على ان الرومانيين كانوا يرمون الى الوقوف عند حد ما رسمه اربابهم هو انهم كانوا يقومون احسن قيام بقواعد الدين · ولذلك يرى الرومانيون انفسهم من اكثر البشر تديناً · قال شيشرون « اننا احط من جميع الامم او مساوون لهم من كل وجه ولكننا نفوقهم من كل وجه في امور الدين اي بعبادة الارباب » ·

الصلاة — اذا صلى الروماني فليست صلاته لتزكية نفسه ومناجاة ربه بل ليطلب منه معونة ويسأله حاجة له . فمن ثم تراه يبحث قبل كل شيء عن الرب الذي يستطيع ان ينيله رغبته . قال فارون (الشاعر اللاتيني) : « يلزمنا ان نعرف اي الارباب يتيسر له ان يعيننا في احوال مختلفة كما نعرف اين يقوم النجار والخباز » وهكذا قضت الحال بان يعمد الى سيريس للحصول على زروع جيدة والى عطارد لاكتساب المال والى نبتون للمعونة على ركوب البحار . فيلبس المستغيث البسة نظيفة لما وَقر في الاذهان من ان الارباب يرغبون في النظافة . ويقدم بين يدي نجواه ضحية لان الارباب لا يحبون من يجيء وايديه فارغة ويقف المستغيث وقد كشف رأسه فينادي الرب الا انه لا يعرف اسم الرب الذي يناديه ويقول الرومانيون انه ما من احد يعرف اسماء الارباب الحقيقية . بل يكتفي بان يقول له مثلاً : « ايها المشتري الاعظم الرحيم او باي الاسماء تحب ان تدعى بها » ثم يعرض عليه ما يريد عرضه متوقياً استعمال جمل صريحة كل الصراحة حتى لا يخدع الرب فاذا قدم له خمر يقال له : « تقبل طاعة هذا الخمر الذي أُهرقه » لانه يسهل على الرب الاعتقاد بانه يقدم له خمر آخر غير الذي قدم له وان يعاقب به . ولذلك كانت صلواتهم مطولة كثيرة الحشو مملوءة بالمترادفات .

الفأل — يعتقد الرومان كاليونان بالفأل فيذهبون الى ان الارباب يعرفون المستقبل ويرسلون للناس آيات يدركونها فيستنصح الروماني الارباب قبل ان يشرع في عمل فاذا ما ازمع القائد فيهم ان يهجم على عدوه يبحث في احشاء الموتى والحاكم قبل ان يجمع لديه مجلساً ينظر الى الطيور السائرة (وهذا ما يدعونه اخذ الطالع والفأل) فاذا كان فيها اشارة موافقة يدركون بان الارباب استحسنت المشروع والا فمعناه انهم غير راضين عنه .

وكثيراً ما يرسل الارباب بالآيات من قبلهم ومن دون ان يسئلوا ارسالها . وكل ظاهرة لم تكن متوقعة تعدُّ فألاً على حادث غير منتظر . فقد ظهرت نجمة مذنبة قبل موت قيصر فذهب القوم الى انها اشارة الى نعيه واذا ارعدت السماء عند ما كانت الامة تجتمع للمفاوضة في امر فمعنى ذلك ان كوكب المشتري لا يحب ان يبتوا امراً ذلك اليوم ولذلك يفضون كل حادث طفيف ويؤَّلونه بانه رمز الى امر يقع . فاذا ابرق البرق او سمعت كلمة من متكلم او وقف جرذ في الطريق او شوهد عرّاف فكل ذلك يأخذون منه العبر حتى ان مارسلوس كان اذا عزم على البداءة بعمل امر بان يحمل في محفة مغلقة ليكون على ثقة من انه لا يرى شيئًا يتفاءل به .

وما كان ذلك مجرد خرافات للعامة بل كان للجمهورية الرومانية ستة طوالع تتنبأ لها

بالمستقبل فكان لها كتاب للنبوآت تبالغ في العناية به دعته كتاب « سيبيلين » وكان لها فراخ مقدسة يقوم على تربيتها الكهنة وما كان يجري عمل عام ولا تلتئم جمعية ولا يشرع بانتخاب ومفاوضة بدون ان يعمدوا الى اخذ الطالع اي انهم ينظرون الى السارح والبارح · وقد شاع سنة ١٩٥ ان الصاعقة انقضت على معبد للمشتري وانه نبتت شعرة على رأس تمثال هركول فكتب احد الولاة بانه ولدت فرخة ذات ثلاث ارجل فاجتمع مجلس الامة للمفاوضة في هذه الفؤل ·

الكهنة — لا يقوم الكاهن في رومية بما يقوم به في بلاد اليونان من الاعمال الروحية بل كان ينقطع فقط لخدمة الرب فيلاحظ معبده ويدير شؤون املاكه ويقوم بالاحتفالات لاكرامه وهكذا كانت جمعية الساليين (الرقاصين) تحتفظ بترس سقط عليها من السماء كما زعموا وكان يعبد كما يعبد الصنم وكانت تقيم تلك الجمعية كل سنة حفلة رقص بالسيوف وهذا ما كان يتوفر عليه اعضاء تلك الجمعية · والاحبار يراقبون الحفلات الدينية فيضعون تقويماً للسنين ويحددون اوقات الاعياد التي يجب الاحتفال بها في ايام مخصوصة من السنة ورئيسهم هو الحبر الاعظم ·

وما كان الكهنة ولا العرافون ولا الاحبار يؤلفون طبقة خاصة بهم بل يجري اختيارهم من كبار الرجال ويبقون على القيام بجميع وظائف الحكومة فمنهم من يتولى القضاء ومنهم رئاسة الجمعيات ومنهم قيادة الجيوش · ولذلك لم يتألف من الكهنة الرومانيين على قوتهم كما تألف من الكهنة المصريين طبقة كهنوتية فقد كان لحكومة رومية دين خاص بها ولم يكن للكهنة حق الحكم فيها ·

عبادة الموتى — اعتقد الرومانيون كما اعتقد الهنود واليونان بان الروح تبقى بعد موت الجسد فان عنوا بدفن الجثة بحسب العادات فقد اعتقدوا بان الروح تذهب لتحيا تحت الارض وتصبح ربة والا فالروح ليس في استطاعتها الدخول الى عالم الاموات بل كانت تعود الى الارض تدخل الرعب على قلوب الاحياء وتعذبهم ليدفنوها · حكى بلين لجون قصة شبح كان يختلف الى احد البيوت ويهلك سكانه هاماً فاكتشف احد الفلاسفة ممن كان له قوة قلب تمكنه من اقتفاء اثره الى المكان الذي وقف فيه ذاك الطيف — عظاماً لم تدفن بحسب العادات المتبعة · وهكذا كانت روح الامبراطور كاليجولا تطوف في حدائق القصر فاقتضى اخراج جثته ودفنه ثانية على ما رسمته الشعائر الدينية ·

فمن ثم كان مما يهم الاحياء والاموات على السواء المحافظة على العادات الدينية فكانت أسرة الميت تنصب كومة حطب يحرقون فيها الجسد ويحملون الرماد في صندوق يضعونه

في القبر . وكان لهم معبد صغير خاص بدفن ارواح الارباب اي الارواح التي اصبحت اربابًا فيأتي اهل الميت في اوقات معينة الى زيارة القبر حاملين طعامًا . لا جرم انهم اعتقدوا قديمًا ان الروح محتاجة الى الغذاء لان القوم كانوا يهرقون الخمر واللبن على الارض ويحرقون لحم المنكوبين ويتركون في الاواني لبنًا وحلويات . وكانت هذه الاحتفالات بالموتى تدوم ما شاء الله ان تدوم وما كان لاهل بيت ان يتخلوا عن ارواح اجدادهم بل يظلون على العناية بقبورهم ويأتونهم بالغذاء لاطعامهم . ثم ان تلك الارواح التي تتأله او تصبح في عداد الارباب تحب ذريتها وتحمي احفادها من البوائق وهكذا كان لكل أسرة ارباب يحمونها يدعونهم آلهة البيت .

عبادة البيت — اعتقد الرومان كاعتقاد الهنود بان اللهيب رب كما ان البيت مذبح فكان لكل اسرة بيت تعبده وتقوم على العناية به ليل نهار تحمل اليه الزيت والشحم والخمر والبخور فيتصاعد اللهب ويسطع كأنه منبعث من الضحية . فكان الروماني قبل ان يبدأ بتقديم الطعام للميت يشكر لرب البيت ويدفع اليه جزءاً من الاطعمة ويصب له قليلاً من الخمر وهذا ما يدعونه بالصب والاحراق حتى ان هوراس نفسه على قلة اعتقاده كان يتعشى امام بيته مع خدمته ويصب الطعام ويصلي الصلاة المعتادة

وكان لكل اسرة رومانية في بيتها قبر جعل فيه ارباب البيت وارواح الاجداد ومذبح البيت . وكان لمدينة رومية نفسها بيت مقدس في قبر الالهة فستا وهي عبارة عن اربع عذارى من اعظم الاسرات الرومانية عهد اليهن حراسته وذلك لانهم يرون ان لا ينطفيء اللهيب المقدس مطلقًا ولا يعهد بالقيام عليه الا لاناس من الاطهار فاذا ابت احدى تلك العذارى ان تقوم بما فرض عليها التوفر عليه من هذه الخدمة يدفنونها حية في قبو لانها ارتكبت عملاً طالحًا واوقعت الشعب الرومي في خطر .

الجيش الروماني

الخدمة العسكرية — لم يكن يكفي لقبول الرجل في خدمة الجيش الروماني ان يكون وطنيًا رومانيًا بل يجب ان يكون له بعض الموارد ليجهز نفسه بالسلاح على نفقته لان الحكومة لم تكن تعطي الجندي سلاحًا حتى انها لم تكن تعطيه جراية يأكلها الى سنة ٤٠٢ وعلى هذا فلم يكن يجند من الوطنيين الا من كانوا يملكون بعض ثروة اما الفقراء فكانوا يعفون من الخدمة العسكرية وبعبارة ثانية ليس لهم الحق في خدمتها ويحق كل وطني له بعض الغنى ان يقبل في الجيش بعدان يكون ابلى بلاء حسنًا في عشرين حملة واذا لم يقم بذلك فهو تبع للقائد اي منذ سن السابعة عشرة الى السادسة والاربعين فكل فرد في

رومية كما في المدن اليونانية وطني وجندي في آن واحد والرومان امة مؤلفة من صغار ارباب الاملاك المدربين على القتال ·

التجنيد — متى احتاجت الحكومة الى جند يصدر القنصل امره الى جميع الوطنيين اللائقين للخدمة بان يجتمعوا في معبد الكابتول وهناك يلتئم ضباط تختارهم الامة وهم يختارون من ينبغي لهم من الجند لتأليف جيش وهذا هو التجنيد عند الرومانيين ويسمونه الاختيار · ثم يجري التحليف العسكري فيبدأ الضباط اولاً يقسمون اليمين المألوفة ثم الجند وكلهم يقسمون على الطاعة للقائد وان يقاتلوا دون اعلامهم حتى يكونوا في حلّ من ايمانهم في نظره · فيتلو رجل عبارة و يتقدم كل فردٍ في نوبته فيقول « وانا ايضاً » فيرتبط الجيش اذ ذاك بالقائد ارتباطاً دينياً ·

دُعي الجيش الروماني اولاً الفرقة او التجنيدة ولما نما الشعب اصبح يؤلف بدل الفرقة فرقاً والفرقة الرومانية عبارة عن ٤٢٠٠ او ٥٠٠٠ رجل كلهم من ابناء البلاد · وكان اصغر جيش على الاقل عبارة عن فرقة وكان كل جيش بقيادة قنصل عبارة عن فرقتين على الاقل · و يتألف نحو نصف الجيش من هذه الفرق وكان على جميع شعوب ايطاليا الخاضعة لرومية ان تبعث اليها ببعوثها و يدعى هؤلاء الجنود « المحالفون » وهم تحت قيادة الضباط الرومانيين · وكنت ترى المحالفين في الجيش الروماني اكثر عدداً من كتائب الوطنيين · وجرت العادة ان يبعثوا مع كل اربع فرق (١٦٨٠٠ جندي) عشرين الف راجل من المحالفين وهكذا كان الشعب الروماني في حروبه يستخدم رعاياه اكثر من مواطنيه ·

التسليح — اعتاد الرومان كاليونان ان يحاربوا مترجلين متدرعين بالدروع والخوذ والمسامي (الطاقات) قابضين بايديهم اليسرى على ترسة ليدفعوا بها الضربات · مضى عليهم زمن وهم يقاتلون بالرمح والسيف فكانوا اذا تلاقوا بالعدو يجتمعون كتيبة واحدة على نحو ما كانت تجتمع الكتائب الرومية ثم عمدوا الى استعمال ضرب آخر من ضروب الكر والفر · وتقسم الفرقة الى سرايا صغيرة كل سرية مؤلفة من ١٢٠ جندياً « مانيبول » اي الفريقة لان علمهم عبارة عن حزمة من الحشيش فتصطف كل فرقة على شكل رقعة الشطرنج على ثلاث خطوط وكل فرقة منفصلة عن جارتها بحيث يكون المجال امامها متسعاً للعمل على حدتها فيضرب جنود فرق الصفوف الاولى بحرابهم و يضعون سيوفهم في ايديهم و يبدؤون بالقتال · فاذا اندحروا يتراجعون الى الفضاء الذي وراءهم فيزحف الصف الثاني من الفرق في نوبته الى القتال فاذا ما دُحر ينكفيء راجعاً نحو الخط الثالث · وهذه الفرق

هي خيرة رجال الجيش يحملون الرماح وهم واسطة لقيادة اخوانهم الآخرين لقتال الاعداء بهم ·

وبعد فان الجيش الروماني لا يتألف جملة واحدة للقتال في آن واحد بل ان القائد يعبئ جنده مراعياً حالة الارض التي يتخذها ساحة لقراع الاعداء · ولما التقى كتائب جنود الرومانيين وفرق المكدونيين في جبال سينوسيفال في تساليا للمرة الاولى وهما اشهر ما عهد من الجيوش في العهد القديم كان ميدان القتال عبارة عن أكمات وتلعات فلم يكن في امكان الستة عشر الف محارب من المكدونيين ان يظلوا متماسكين متجمعين بل كانت صفوفهم ذات فروج فزحفت الفرق الرومانية ودخلت الفضاء الذي كان يتخلل صفوفهم ومزقت شملهم كل ممزق ·

التمرينات — لم يكن لرومية محال للالعاب الرياضية فكان الجنود يتمرنون في ساحة المناورات اي في ساحة المريخ من الضفة الثانية من نهر التيبر وهناك كان الشاب يسير ويعدو ويقفز وعليه العدة الكاملة من السلاح يلعب بسيفه ويضرب بحربته ويستعمل معوله فاذا ما علاه الغبار والعرق يجتاز نهر التيبر عائماً · وكثيراً ما كان الرجال المدربون بل والقواد يشاركون فتيان الجند في تمريناتهم اذ كان من دأب الروماني ان لا ينقطع عن التمرين حتى كانت القاعدة المتبعة اذ ذاك ان لا يترك الجنود حتى في الحرب بلا عمل فيمرنون مرة في اليوم على الاقل فيشغلونهم بانشاء الطرق والجسور والمجاري اذا لم يكن امامهم عدوّ يقاتلونه ولا متاريس يقيمونها ·

المعسكر - يحمل الجندي الروماني حملاً ثقيلاً مؤلفاً من سلاح واوان واطعمة تكفيه اياماً ووتد ويبلغ وزن مجموعها ستين رطلاً رومانياً واذا تلاقى الجيش بجيش العدوّ يسهل عليه الحرب بسرعة اذ لا يكون له من الاثقال ما يشغله ·

وكل مرة كان يريد الجيش الروماني الوقوف ليعسكر يخط المساح نطاقاً مربعاً ويحفر الجند في محيط ذاك النطاق هوة عميقة ويبقون التراب من ناحيتهم في الداخل يكون منحدراً يضربون فيه اوتاداً وهكذا يكون المعسكر محمياً بنطاق من اوتاد وارض ذات وهاد وفي داخل هذه القلعة الموقتة يضرب الجنود خيامهم ويجعلون سرادق القائد في الوسط ويبقى العيون والحراس طول الليل يحرسون المعسكر وهكذا يكون الجيش في مأمن من كل عدوّ مفاجئ ·

تعليم الجند — يعلم الجيش الروماني تعليماً قاسياً فيحق للقائد ان يميت جنده او يبقي عليهم والجندي الذي يترك محله او يركن الى الفرار في الزحف يحكم عليه بالموت

فيربطه حملة الفؤوس بعمود ويضربونه بالعصي ويقطعون رأسه او يقع عليه الجند فيضربونه بالعصي ·

واذا تمردت كتيبة من الجيش يقسم القائد المجرمين الى عصابات كل عصبة مؤلفة من عشرة اشخاص يقترعون في كل عصابة على واحد يكون نصيبه الاعدام ويسمون هذا التعشير اي اخذ واحد من عشرة اما الباقون فيقضى عليهم بان يعطوا خبز شعير ويتركوهم يعسكرون خارج المعسكر ليكونوا ابدًا على خطر من مفاجأة العدو لهم ·

لا يقبل الرومانيون ان يغلب جندهم ولا ان يؤسروا فقد سلم من القتل ثلاثة آلاف جندي بعد وقعة «كان» وراحوا يهيمون على وجوههم الا ان مجلس الشيوخ ارسلهم يخدمون في صقلية بدون جرايات ولا القاب شرف ريثما يخرج العدو من ايطاليا وبقي ثمانية آلاف جندي في المعسكر فقبض عليهم وقد عرض هانيبال ان يعيدهم الى الحكومة لقاء فدية طفيفة تدفعها عنهم فابى مجلس الشيوخ ان يفتديهم ·

الغلبة — متى كتب الظفر لاحد القواد يصدر مجلس الشيوخ امره اليه بان يحتفل بما تم له من الغلبة دليلاً على تشريفه فيحتفل بذلك احتفالاً دينياً في معبد المشتري فيسير في المقدمة الحكام والشيوخ ثم تأتي العجلات مملوءة بالغنائم والاسرى مقيدين من ارجلهم وفي المؤخرة عجلة مذهبة تجرها اربعة جياد يأتي القائد الغازي متوجاً بالغار وجنده يتبعونه مترنمين بادوار دينية يرددون فيها اسم الظفر فيجتازهذا الموكب المدينة بهذا الاحتفال ويطلع الى معبد الكابتول وهناك يضع الغازي اغصان الغار على ارجل المشتري ويحمده على انه كان سبباً في نصرته وعند انتهاء الحفلة تضرب اعناق الاسرى كما فعلوا مع الزعيم الغالي فرسنجتوركس او ان يلقوا الاسير في مطبق (حبس مظلم) يموت جوعاً كما فعلوا مع جوكورتا ملك نوميديا او انهم يكتفون بان يسجنوا الاسير · وقد دام ظفر بولس اميل الذي تغلب على ملك مكدونية (١٦٧) ثلاثة ايام مرت في اليوم الاول ٢٥٠ مركبة تحمل لوحات وتماثيل وفي الثاني ما غنمه من الاسلحة و٧٥ برميلاً من المال وفي اليوم الثالث ١٢٠ ثوراً من نيران الضحايا والملك برسي في المؤخرة لابساً السواد يحف به خاصته مقيدين وثلاثة اولاد له مدوا ايديهم للامة يضرعون اليها واخذوا يحركون شفقتها ·

فتح ايطاليا — كان في رومية معبد خاص بالرب جانوس تبقى ابوابه منفتحة مادام الشعب الروماني في الحرب · ولم يغلق هذا المعبد الا مرة واحدة دامت بضع سنين في خلال خمسمائة سنة التي طال فيها عمر الجمهورية الرومانية وعليه فان رومية عاشت في حرب دائمة

واذ كان جيشها اقوى جيش في عصره انتهت بها الحال ان تتغلب على جميع الشعوب الاخرى وان تفتح العالم القديم ·

فبدأت باخضاع جيرانها اولاً فاخضعت اللاتينيين اولاً ثم الشعوب الاخرى النازلة في الجنوب مثل الفولسكيين والايكيين والهريكيين ثم الايترسكيين والسامنتيين ثم المدن اليونانية · وكان هذا الفتح من اشق الفتوح وابطئه : بدأ على عهد الملوك ولم ينته الا في سنة ٢٦٦ اي بعد اربعة قرون (١) وذلك لانه كان على الرومانيين ان يقاتلوا شعوباً هم واياهم من عنصر واحد وهم على شاكلتهم في القوة والنجدة والشجاعة · ومن هذه الشعوب من ابى اباؤها ان تخضع للرومان فما كان من رومية الا ان ابادتهم فاصبحت سهول فولسكا الغنية قفرًا ذا بطائح ومستنقعات ولم تعد بطائح بونتين صالحة للسكنى حتى يوم الناس هذا وقد كانت بلاد السامنتيين تعرف بعد ثلثمائة سنة من الحرب التي وقعت فيها بما بقي فيها من بقايا المتاريس اكثر مما تعرف بخلو جوارها من السكان وكان فيها ٤٥ معسكرًا للامبراطور دسيوس و٨٦ للقائد فابيوس ·

الطرق العسكرية — اقام الرومانيون في جميع ايطاليا طرقاً عسكرية ليتسنى لهم ان يبعثوا بالبعوث الى القاصية وكانت هذه الطرق عبارة عن طرق مستقيمة مرصوفة بالجير والحجر والرمل وبلغ من متانتها انها صبرت على الايام خلال ذاك العهد برمته · وقد اكثر الرومان منها في عامة بلاد ايطاليا فليس فيها بقعة لا ترى فيها الى اليوم اثرًا من آثار تلك الطرق الحربية وكانوا يسمونها باسم الوالي الذي امر ببنائها واهم هذه الطرق طريق ابين الممتد الى الجنوب الى البطائح بونتين حتى ترانتا وبرندس ثم طريق فلامنين الذي يجتاز طريق ابنين ويصل الى بحر الادرياتيك وطريق اورلين الذي يقطع اقليم طوسكانيا آخذًا الى الشمال على طول الشاطىء حتى بلاد الغول ثم طريق املين الممتد من بحر الادرياتيك مجتازًا جميع سهل « بو »

(١) لم يكن للرومانيين من اخبار جميع هذه الحروب في ايطاليا سوى اساطير نُمِّق اكثرها ليكون منها دليل على رجولية بعض اجداد احدى الاسر الشريفة

مثنيات شعرية

اشر فعل البرايا فعلُ منتحر والخش القول منهم قول مفتخر
ان التمدح من عُجب ومن أشر والمرء في العجب ممقوت وفي الاشر

***

ياراجي الامر لم يطلب له سبباً كيف الرماية عن قوس بلا وتر
ليس التسبب من عجز ولا خور وانما العجز تفويض الى القدر

***

دع الاناسيَّ وانتبني لغيرهم ان شئت للشاء او ان شئت للبقر
فان في البشر الراقي بخلقته من قد انفت به اني من البشر

***

ألبس حياتك احوال المحيط وكن كالماء يلبس ما للظرف من جدُر
وان ابيت فلا تجزع وانت بها عار من الانس اوكاسٍ من الضجر

***

ان رمت عزّا على فقر تكابده فاستغن عن مال اهل البذخ والبطر
فانما النفس ما لم تنأ عن طمع فريسةٌ بين ناب الذل والظفر

***

اذا نظرت الى الجزئي تصلحه فارقبه من مرقب الكلي في النظر
فان نفعك شخصاً واحداً ربما يكون منه عموم الناس في الضرر

***

قد يقبح الشيء وضعاً وهو من حسن كالنعش يدهش مرئيُّ وهو من شجر
فالقبح كالحسن في حكم النهى عرض وليس يثبت الا عند معتبر

***

لا تعجبن لذي عقل يروح به لينتج الشر خيرًا غير منتظر
فانما لمعات الخير كامنة بين الشرور كمون النار في الحجر

***

سبحان من اوجد الاشياء واحدةً وانما كثرة الاشياء بالصور
هب منشأ الكون يبقى مبهماً ابداً فهل ترى فيه عقلاً غير منبهر

الحب والبغض لا تأمن خداعهما فكم هما اخذا قوماً على غرر
فالبغض يبدي كدوراً في الصفاء كما ان المحبة تبدي الصفو في الكدر

***

واشنع الكذب عندي ما يمازجه شيء من الصدق تمويهاً على الفكر
فان ابطال هذا في النهى عسرٌ وليس ابطال محض الكذب بالعسر

***

قالوا عشقت معيب الحسن قلت لهم كفوا الملام فما قلبي بمنزجر
ما العشق الا العمى عن عيب من عشقت هذي القلوب ولا اعني عمى البصر

***

قالوا ابن من انت يا هذا فقلت لهم ابي امرؤ جده الاعلى ابو البشر
قالوا فهل نال مجداً قلت وا عجبي اتسألوني بمجدٍ ليس من ثمري

***

لا درَّ درُّ قصيد راح ينظمه من ليس يعرف معنى الدرّ والدرر
يبكي الشعور اشعر ظل ينقده من لا يفرق بين الشعر والشعر

***

قالت نوار وقد انشدتها سحراً ممن تعلمت نفث السحر في السحر
فقلت من سحر عينيك الذي سحرت به المشاعر من سمع ومن بصر

بغداد معروف الرصافي

مآكل العرب

الاطعمة في الامم تابعة لحضارتها تكون بسيطة في الامة البدوية ومركبة منوعة في الامة الحضرية كما هي الى السذاجة في الريف والتنوع في المدن . ولما كانت البداوة اصلاً والحضارة فرعاً وكانت القرى هي المعوّل عليها في حياة المدن كان الناس يطعمون في ايام خشونتهم ورفاهيتهم مما تنبت لهم الارض من بقل وثمر وتنتج مواشيهم من ألبان ولحوم وتقذف اجواؤهم وسهولهم واجبلهم وبحيراتهم وانهارهم وبحارهم من طيور واسماك وصيود لا يكادون يعدون ذلك بحال .

فاطعمة العرب في جاهليتها على النزر القليل الذي انتهى الينا من اخبارها قبل الاسلام كانت الى السذاجة والفطرة خصوصاً في البلاد التي هي الى الاجداب اقرب منها الى الاخصاب لقلة امطارها وعصيان تربتها على الاستنبات . ونعني بالعرب هنا سكان جزيرة العرب من تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن وكلها قاحلة الا بعض بلاد اليمن التي سميت الخضراء لكثرة اشجارها وثمارها وزروعها وفي بعض كورها ما هو كبلاد الشام باعتدال اهويته وزكاء تربته . قال الاصمعي جزيرة العرب اربعة اقسام اليمن ونجد والحجاز والغور وهي تهامة فمن جزيرة العرب الحجاز وما جمعه وتهامة واليمن وسبأ والاحقاف واليمامة والشحر وهجر وعمان والطائف ونجران والحجر وديار ثمود والبئر المعطلة والقصر المشيد وإرم ذات العماد واصحاب الاخدود وديار كندة وجبال طيء وما بين ذلك .

ومتى اطلقنا العرب هنا فانا نريد بهم سكان الحجاز ونجد وتهامة وهم صميم العرب العاربة ومن بلادهم انبعثت النبوَّة وفي الحجاز قريش اشرف القبائل ومن قريش بني هاشم اكثر من كانوا يطعمون الطعام ويقرون الضيفان . وكنا نود ان يتناول بحثنا اهل كل قبيلة واهل كل كورة من كور العرب ولكن ليس في الكتب التي بين ايدينا ما يدعونا الى التوسع في القول .

وغاية ما اتصل بنا علمه ان الاسلام وان اصلح من نفوس العرب فان طبيعة بلادها لم تتغير منذ قرون ولذلك كان بعض العرب يأكل اليربوع والضب والجراد والارنب و بعدها نعمة و بسطة في العيش حتى قال مدني (١) لاعرابي : اي شيء تدعون واي شيء تأكلون . قال : نأكل ما دب ودرج الا ام حبين (٢) فقال المديني : لتهن ام حبين العافية . ولذلك كنت ترى العرب ولا تزال تراهم اذا اصابتهم سنة ومجاعة عالة على جيرانهم من سكان الشام والحيرة واليمن وقد عيرهم بذلك ملك الفرس لما جاؤه فاتحين يوم القادسية وذكر لهم كيف كان يوسع عليهم عند ما كانوا ينزلون بلاده منتجعين مستطعمين .

وقول المديني ان العرب يأكلون ما دب ودرج لا يؤخذ منه انهم كلهم لان منهم من كانوا ينقززون من اكثر الدويبات والصيد قال الجاحظ : ومن الطعام المذموم الخزيرة التي تعاب باكلها مجاشع بن دارم وكنحو السخينة التي تعاب بها قريش والسخينة كانت من طعام قريش ونهجى الانصار وعبد القيس وعذرة وكل من كان يقرب النخل باكل التمر وتهجى اسد

---

(١) كتاب البخلاء للجاحظ (٢) ام حبين كربير دويبة وهي معروفة مثل ابن عرس واسامة وابن آوى وسام ابرص وابن قترة الا انه تعريف جنس وهي على خلقة الحرباء عريضة الصدر عظيمة البطن .

بأكل الكلاب وبأكل لحوم الناس والعرب اذا وجدت رجلاً من القبيلة قد اتى قبيحًا الزمت ذلك القبيلة كلها كما تمدح القبيلة بفعل جميل وان لم يكن ذلك الا بواحدمنها فتهجو قريشًا بالسخينة وعبدالقيس بالتمر وذلك عام في الحيين جميعًا وهما من صالح الاغذية والاقوات كما تهجو بأكل الكلاب والناس وان كان ذلك انما كان رجلاً واحدًا فالملك اذا اردت التحصيل تجده معذورًا وتهجى اسد وهذيل والعنبر وباهلة باكل لحوم الناس . وقال وقد يصيب القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يسمع به في امة من الامم ولا في ناحية من النواحي وان احدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة وحتى يعتصم بشدة معاقد الازار و ينزع عمامته من رأسه فيشد بها بطنه وانما عمامته تاجه والاعرابي يجد في رأسه من البرد اذا كان حاسرًا مالا يجده احد لطول ملازمته العمامة ولكثرة طيها وتضاعف اثنائها ولربما اعتم بعمامتين ولربما كانت على قلنسوة خدرية

ومهما يكن فان العقل يحكم بان عرب الشام كغسان مثلاً كانوا لمجاورتهم للروم يأخذون عنهم كل « شيء طريف ولقمة كريمة ومضغة شهية » اكثر من عرب الحجاز وانه كان لعرب الحيرة من المطاعم ماليس لاهل نجد لقرب بلاد الاول من بلاد الاكاسرة واخذهم عنهم « رفاغة العيش والناعم من الطعام » . ومطاعم العرب في جملتها لا تتعدى اللحوم والالبان والبر والتمر . والابل افضل عندهم من عامة الذبائح اذا ضاف احدٌ رجلاً من اهل السعة ولم ينحر له عدَّ ذلك اهانة .

نزل عمرو بن معدي كرب برجل من بني المغيرة وهم اكثر قريش طعامًا فاتاه بما حضر وقد كان فيما اتاه به فضل فقال لعمر بن الخطاب وهم اخواله : لئام بني المغيرة ياامير المؤمنين قال : وكيف . قال نزلت بهم فما قروني غير قرنين (؟) وكعب ثور قال عمر : ان ذلك لشبعة وكم قد رأينا من الاعراب نزل برب صرمة (١) فاتاه بلبن وتمر وحيس (٢) وخبز وسمن سلاء فبات ليلته ثم اصبح يهجوه كيف لم ينحر له وهو لا يعرف بعيرا من ذوده (٣) او من صرمته ولو نحر هذا البائس لكل كلب مرَّ به بعيرًا من مخافة لسانه لما دار الاسبوع الا وهو يتعرض للسابلة يتكفف الناس و يسألهم العلق (٤)

---

(١) الصرمه بكسر الصاد القطعة من الابل قيل هي نحو الثلاثين واوصلها بعضهم الى خمسين (٢) الحيس بالفتح تمر يخلط بالسمن واقط فيعجن شديدا ثم يندر منه نواه ثم يسوى كالثريد وهي الوطبة وربما جعل فيه سويقًا (٣) الذود من ثلاثة الى عشرة اباعر (٤) العلق كالعلقة بالضم وكذلك العلاق والعلاقة كسحاب وسحابة ما تتبلغ به من العيش يقال ما ذقت علاقًا وما في الارض علاق ولا لماق اي ما فيها ما يتبلغ به من عيش

واذا اعتبرت اسماء الاطعمة عندهم (١) تجدها دائرة على تلك المواد الاولية ومتى رأيت تكرر المعنى الواحد بالفاظ كثيرة فمنشأ ذلك والله اعلم من تعدد لغات قبائل العرب لان ما عرفته قبيلة باسم تعرفه اخرى بآخر . فمن اطعمتهم (الوشيقة) وهو لحم يغلى اغلاءة ثم يرفع و (الصفيف) مثله و يقال هو القديد قال ابن السكيت: اذا شرح اللحم وقد طوالاً فهو القديد فاذا شرح عراضاً فهو الصفيف والوشيق يجمعهما اذا جفا و (التتمير) ان يقطع صغاراً ثم يجفف و (الوزيم) المجفف و (العفير) لحم يجفف على الرمل في الشمس و (الجبجبة) كرش البعير يغسل بالماء والملح ثم يشرح اعلاها ثم ينفخونها ويحشونها (٢) بالشجر او بعر الابل اليابس ثم تعلق حتى تضربها الريح وتجفف ثم يأخذون اللحم فيقددونه ويجعلونه على حبال حتى يذبل ذبله ويذهب ماؤه وكذلك يفعلون بالشحم ثم يطبخون لحمها بشحمها جميعاً ثم يفرغونه في القصاع حتى يبرد و يصفون الاهالة على حدة فاذا برد كتبوا اللحم والشحم في الجبجبة وصبوا عليه الودك ثم بردوه حتى يجمد و يصير كالحجر ثم يلقى في جوالق (اكياس) و يستر من الحر ان يفسد فيأكلون منه جامداً ومن شاء اذاب منه على القرص .

و (الاءرة) لحم يطبخ في كرش و (الهلام) طعام يتخذ من لحم عجلة بجلدها . و (الشبارق) الالوان من اللحم المطبوخة فارسي معرب . و (الخضيعة) طعام يتخذ بالشام . و (القلية) مرقة تتخذ من اكباد الجزور ولحومها . و (الحنيذ) الشواء الذي لم يبالغ في نضجه وقد حنذت احنذ حنذاً قال ابن السكيت : الحنيذ ان يؤخذ اللحم فيقطع اعضاء وينصب له صفيح الحجارة فيقابل يكون ارتفاعه ذراعاً وعرضه اكثر من ذراعين في مثلها ويجعل له بابان ثم يوقد في الصفائح بالحطب فاذا حميت واشتد حرها وذهب كل دخان فيها ولهب أدخل فيه اللحم واغلق البابان بصفيحتين قد كانت قدرتا للبابين ثم ضربتا بالطين وفرث الشاة وأدفئت شديداً بالتراب فيترك في النار ساعة ثم يخرج كأنه البسر قد تبرأ العظم من اللحم من شدة نضجه . والحنذ ايضاً ان يأخذ الرجل الشاة فيقطعها ثم يجعلها في كرشها ويلقي مع كل قطعة في الكرش رضفة وربما جعل في الكرش قدحاً من لبن حامض او ماء ليكون اسلم للكرش من ان تنقد ثم يخلها بخلال وقد حفر لها بؤرة احماها بها فيلقي الكرش في البؤرة و يغطيها ساعة ثم يخرجها وقد اخذت من النضج حاجتها . و (شواء ملعوس) اذا اكل بالسمن وهو العاس و (الصلائق) اللحم المشوي المنضج وقيل الرقاق من الخبز وفي حديث عمر رضي الله عنه لو شئت امرت بصلائق وصناب

---

(١) كتاب الطعام من المخصص لابن سيده الاندلسي (٢) حش النار اوقدها قال الزمخشري حش النار اشبها واطعمها الحطب كما تحش الدابة وهو مجاز

قال ابن سيده في باب ما يعالج من الطعام ويخلط نقلاً عن ابي علي ان اكثر هذا الباب على فعيلة اما بناؤهم لها على هذا البناء فلأنه في معنى مفعول الا ترى ان البسيسة في معنى مبسوسة وكلها مطبوخ ملتوت او ملبون او متمور او مسمون او معسول والجنس الغالب العام له قولنا مخلوط ودخلت الهاء للمبالغة . وذلك مثل (الضبيبة) وهي سمن ورُبّ يجعل للصبي في العكة يطعمه يقال ضببوا لصبيكم . (والربيكة) شيء يطبخ من بر وتمر وقد ربكته اربكه ربكاً ومنه المثل غرثان فاربكوا له . قال ابن السكيت الرَّبيكة تمر يعجن بسمن وأقط فيؤكل وربما صب عليه ماء فشرب شربًا . و (البسيسة) كل شيء خلطته بغيره مثل السويق بالاقط ثم تبله بالسمن او الرب ويقول ابن السكيت ان البسيسة الدقيق او السويق يلت بالسمن او الزيد ثم يؤكل ولا يطبخ وهو اشد من اللت بللاً والأقط يدق ويطحن ثم يلبك بالسمن المختلط بالرب و (البكيلة) السويق والتمر يؤكلان في اناء واحد وقد بلا باللبن وقد بكل الدقيق بالسويق خلطه و (الخثيمة والغبيثة) طعام يطبخ ويجعل فيه جراد و (الفريقة) شيء يعمل من البر ويخلط فيه اشياء للنفساء و (الفئرة والفؤارة) حلبة وتمر يطبخ للمريض او النفساء و (الرغيدة) اللبن الحليب يغلى ثم يذر عليه الدقيق حتى يختلط فيلعق لعقاً و (الحريرة) الحساء من الدسم والدقيق و (السريطاء) حساء شبيه بالحريرة او نحوها و (الاصية) طعام كالحساء يصنع بالتمر وقد يقال لها الرغيفة و (العكيس) الدقيق يصب عليه الماء ثم يشرب و (الوجيئة) التمر يدق حتى يخرج نواه ثم يبل بلبن او سمن حتى يتدن ويلزم بعضه بعضاً فيؤكل والوجيئة ايضاً جراد يدق ثم يلت بسمن او بزيت فيؤكل و (الخزيرة او الخزير) الحساء من الدسم او الدقيق والخزيرة مرقة تصفى بلالة النخالة ثم تطبخ تسميه الفرس سيوساب والخزيرة ان تنصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فاذا نضج ذرّ عليه الدقيق فان لم يكن فيها لحم فهي عصيدة ولا تكون الخزيرة الا وفيها لحم و (العصيدة) السمن يطبخ بالتمر و (الرهيدة) برّ يدق ويصب عليه الماء و (الوديكة) دقيق يساط بشحم شبه الخزيرة و (العصيدة) السمن يطبخ بالتمر و (الرهيدة) بر يدق ويصب عليه الماء و (الوديكة) دقيق يساط بشحم شبه الخزيرة و (اللهيدة) الرخوة من العصائد ليست بحساء يحسى ولا غليظة فتلقم و (الخطيفة) الدقيق يذر على اللبن ثم يطبخ فيلعقه الناس لعقاً و (اللفيتة) العصيدة المغلظة من لفت الشيء الفته لفتاً اذا لويته و (النخيرة) ماء وطحين يطبخ وقيل هو لبن حليب يجعل عليه سمن و (الحسيلة) حشف النخل اذا لم يكن حلا بسره فييبسونه فاذا ضرب انفتّ عن نواه ويدنونه باللبن ويمردون له تمراً حتى يحليه فيأكلونه لقماً وربما ودن بالماء و (النهيدة) ان يغلى لباب الهبيد وهوحب

الحنظل فاذا بلغ اناه من النضج والكثافة ذرت عليه قميحة من دقيق ثم تحل و (الفهيرة) محض يلقى فيه الرَّضف فاذا غلى ذرَّ عليه الدقيق وسيط به ثم أُكل و (السخينة) التي ارتفعت عن الحساء وثقلت عن ان تحسى وهي دون العصيدة و (النفيتة والحريقة) ان يذرَّ الدقيق على ماء او لبن حليب حتى ينفت وتتحسى من نفتها وهي اغلظ من السخينة يتوسع فيها صاحب العيال لعياله اذا غلبه الدهر و (الخضيمة) حنطة تؤخذ فتنقى وتطيب ثم تجعل في القدر و يصب عليها الماء فتطبخ حتى تنضج و (الوهية) جراد يطبخ ثم يجفف ثم يدق فيقمح او يكل ويخلط بدسم و (الصحيرة) من المحض اذا أُسخن يقال اصحروا لنا لبناً و ربما جعل فيه دقيق و ربما جعل فيه سمن اذا سخن فيه الحليب خاصة حتى يحترق فهو صحيرة وقد صحرته اصحره صحراً و (الغميم) اللبن يُسخن حتى يغلظ و (القطيبة) لبن المعزى والضأن و (الاخيخة) دقيق يصب عليه ماء او برٌ بزيت او سمن ويشرب ولا يكون الا رقيقاً و (الوطيئة) تمر يخرج نواه ويعجن بلبن و (العجة) دقيق يعجن بسمن ثم يشوى و (الوليفة) طعام يتخذ من دقيق وسمن ولبن و (اللوقة) زبد ورطب و (الالوقة) كل ما لين من الطعام وفي الحديث لا آكل الا ما لوَّق لي . و (الرهية) بر يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن و (الحيس) تمر واقط وسمن و (الغذيرة) دقيق يحلب عليه لبن ويُحمى بالرَّضف و (المجيع) التمر واللبن و (الصقعل) التمر اليابس ينقع في اللبن الحليب و (القشيمة والقميشة) هبيد يُحلب عليه لبن و (الوضيعة) حنطة تدق ثم يصب عليها سمن فتؤكل و (القفيخة) طعام من تمر واهالة و (البغيث) الطعام المخلوط بالشعير و (النقدة والقشدة) حشيشة كثيرة الاهالة واللبن يطبخ مع دقيق واشياء تؤكل و (الدَّليك) طعام يُتخذ من الزُّبد واللبن شبه اللبن .

اذا أُخذ حليب فانقع فيه تمر برنيٌّ فهو (كديراء) و (الرَّض) التمر يدق فينقى عجمه و يلقى في المحض و (الوغيرة) اللبن محضاً يسخن حتى ينضج وربما جعل فيه السمن . وفي لغة الكلابيين الايغار ان تسخن الحجارة ثم تلقى في الماء لتسخنه وفي اللبن ايضاً لينعقد و يطيب و (الخليجة) عصارة نحي او لبن انقع فيه تمر و (غنية) هي السمن على المحض و (الدبوس) خلاص التمر يلقى في مملا السمن فيذوب فيه وهو مطيبة للسمن و (الرَّضيف) اللبن يُصب على الرَّضف وهي حجارة تحمى فيوغر بها اللبن . و (الحميمة) المحض يسخن وقد حممته واحممته . مش الشيء يمشه مشاً اذا دافه في ماء حتى يذوب و (المجال والمجول) تمر يعجن بسويق و (العمص) ضرب من الطعام تقول عمصت العامص وامصت الآمص وهي كلمة تجري على السنة العامة وليست فصيحة يعنون الخاميز وربما قالوا العاميص و (العويثة) قرص

يعالج من البقلة الحمقاء بزيت و (الملهز) وبر مخلوط بدماء الحلم كان يؤكل في الجدب و (المجدوح) دم يخلط بغيره كان يؤكل في الجاهلية واصله من الجدح والتجديح وهو الخوض بالمجدح وهي خشبة في رأسها خشبتان معترضتان و (الخرديق) طعام يعمل شبيه بالحساء والخزيرة و (الوزين) حب الحنظل المطحون يبل باللبن فيؤكل و (الفرني) واحدته فرنية وهي خبزة مسلكة مصعنة تسوى ثم تروى سمناً ولبناً وسكراً قال ابن سيده واهل الشام يتخذون الخبزة الفرنية على صنعة كير الزجاجين يخبزون فيه الفرنية يسمون ذلك المخبز فرناً و (الطعام مبروت) مصنوع بالمبرت وهو السكر الطبرزذ و (البهط) فارسي وهو الارز يطبخ باللبن والسمن خاصة واستعملته العرب تقول بهطة طيبة و (سويق مقنود ومقند) مخلوط بالقند والقنديد وهو عصير قصب السكر و (البريقة) وجمعها برائق وهي التباريق وهو شيء قليل من الدسم لم يسفسفوه اي لم يوسعوه دسماً . و (المشنق) العجين الذي يقطع و يعمل بالزيت واسم كل قطعة منه فرزدقة وجمعه فرزدق (وعامة اهل الشام يقولون الآن جردقة وجرادق) و (الفرفور والفرافر والفرافل) سويق يتخذ من ثمر الينبوت و (الحلواء) من الطعام ما عولج بحلاوة يمد و يقصر ومنها الفالوذ والفالوذق وهو فارسي معرب زعم الفارسي ان معناه حافظ للدماغ بالفارسية وهو الفالوذج والطائفة منه فالوذجة وهوالصفرق . و (القبيطي) الناطف و (اللمص) كالفوذ معرب ولا حلاوة له يأكله الصبيان بالبصرة بالدبس و (الكامخ) من الادم منهم من خصصه بالمخللات التي تستعمل لتشهي الطعام و (الصير والصحناءة) ضربان من الكامخ وفي القاموس والصحناء والصحناة و يمدان و يكسران ادام يتخذ من السمك الصغار مشه مصلح للمعدة قال في التاج الصحناة فارسية تسميها العرب الصير قال ابن الاثير الصير والصحناة فارسيتان و (الصير) السميكات المملوحة تعمل منها الصحناة ومن اطعمتهم (الدرامك) وهي الحوارى اي الدقيق الخالص قال زياد بن فياض

فاطعمها شحماً ولحماً ودرمكاً ولم يثننا عنه النسيم الخنادس

ومن مآكلهم (المضيرة) مريقة تطبخ باللبن المضير اي الحامض وهي مثل اللبنية المعروفة في بلاد الشام عقد لها البديع مقامة ولعنها ابوالفتح الاسكندري عند ما دعاه واصحابه بعض تجار البصرة فرفعوها عن الخوان مجاراةله « فارتفعت لها الافواه وتلمظت لها الشفاه واتقدت لها الاكباد ومضى في اثرها الفؤاد» و (السكباج) معربة كما في التاج عن سركة باجه وهو لحم يطبخ بخل مثل (السكرجات) وهي التوابل والسكرجة قصاع يؤكل فيها صغار وليست بعربية وهي كبرى وصغرى وفي حديث انس لا آكل في سكرجة ومعناه ان العرب كانت تستعملها في الكوامخ واشباهها من الجوارش على الموائد حول الاطعمة للتشهي

والهضم فاخبر ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يأكل على هذه الصفة . ومنها (الفانيد) قال في التاج ضرب من الحلواء معرب بانيد و (الهلياثا) وردت في كلام الجاحظ فقال : اذا اطعمتهم اليوم البرني اطعمتهم غداً السكر وبعد غد الهلياثا . والغالب ان الهلياثا طعام ثمين عندهم و (الطفيشل) كسميذع نوع من المرق و (الهريسة والمجلية والكرنبية) الوان ولعل اسماء البقول المطبوخة تسمى بالاسم الذي صنعت منه مثل الباقلاء والقرع والفول والملفوف والساق وغيرها مما كان معروفاً للعرب وينبت في بعض بلادهم .

سئل بعضهم عن حظوظ البلدان في الطعام وما قسم لكل قوم منه فقال ذهبت الروم بالجشم (١) والحشو وذهبت فارس بالبارد والحلو وقال عمر لفارس الشبارق والحموض فقال دوسر المديني : لها الهرائس والقلايا ولاهل البدو اللباء والسلاءة والجراد والكمأة والخبزة في الرائب والتمر بالزبد وقد قال الشاعر

ألا ليت خبزا قد تسربل رائباً وخيلاً من البرنيّ فرسانها الزبد

ولهم البرمة والخلاصة والجيس والوطيئة . وقد علم بهذا ان الحلويات عند العرب ما يعملونه بالدقيق والتمر ويدخل اكثرها الدبس او العسل او السكر وهذا كان نادراً في الجملة عندهم لانه يأتيهم من فارس كما دل عليه اسمه عندهم اذ اخذوا عن جيرانهم الاسم ونقلوا المسمى . ويحكى ان عبدالله بن جدعان احد اشراف قريش ذهب مرة الى كسرى فاطعمه الفالوذج فاستطابه وسأل كيف يصنع فقيل له انه لباب البر يلبك بالعسل فابتاع غلاماً يصنعه له ورجع الى مكة وصنع الفالوذج ودعا اليها اصحابه وممن اكلها أمية بن ابي الصلت فقال يمدحه :

لكل قبيلة رأس وهادي وانت الرأس تقدم كل هادي (٢)
له داع بمكة مشمعل (٣) وآخر فوق دارته ينادي
الى رُدُح من الشيزى ملاء لباب البرّ يلبك بالشهاد (٤)

قال الجاحظ ومن اشرف ما عرفوه من الطعام ولم يطعم الناس احد منهم ذلك الطعام الا عبدالله بن جدعان وهو الفالوزق

هكذا كانت الاطعمة في الجاهلية واما في الاسلام فكان فيها في اخبار اهل الصدر الاول

---

(١) في القاموس الجشم كصرد الجوف او الصدر بضلوعه المشتملة عليه (٢) الهادي العنق (٣) المشمعل الرجل الخفيف الظريف او الطويل (٣) الرداح الجفنة العظيمة والجمع ردح بضمتين والشيز خشب اسود للقصاع كالشيزى والشهاد جمع شهد وهو العسل ما دام لم يعصر من شمعه .

وخصوصاً في اخبار ابي بكر وعمر وعلي وعمر بن عبدالعزيز من الزهد والتقشف ما يعجب منه كل من عرف انهم فتحت لهم كنوز الارض فعفوا عنها . ولما اشتدت حاجة عمر بن الخطاب اراد بعض الصحابة ومنهم عثمان وعلي وطلحة والزبير ان يزيدوه في رزقه فعزموا ان يأتوا حفصة ويسألوها ويستكتموها فدخلوا عليها وامروها ان تخبر بالخبر عن نفر ولا تسمي له احداً الا ان يقبل وخرجوا من عندها فلقيت عمر في ذلك فعرفت الغضب في وجهه وقال : من هؤلاء قالت : لا سبيل الى علمهم حتى اعلم رأيك فقال : لو علمت من هم لسوءت وجوههم انت بيني وبينهم . انشدك الله ما افضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ثوبين ممشقين (١) كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع قال : فاي الطعام ناله عندك ارفع قالت : خبزنا خبزة شعير نصببنا عليها وهي حارة اسفل عكة (٢) لنا فجعلناها هشة دسمة فاكل منها وتطعم منها استطابة لها قال : فاي مبسط كان يبسطه عندك كان اوطأ قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال : ياحفصة فابلغيهم عني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية (٣) واني قدرت فوالله لاضعن الفضول مواضعها ولا تبلغن بالترجية وانما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الاول وقد تزود زاداً فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فافضى اليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما وان سلك غير طريقهما لم يجامعهما .

ولقد كان عمر بن الخطاب يشدد على عماله حتى لا يسترسلوا في التنعم بالاطايب فتقسى قلوبهم ويكونوا قدوة في الترف للرعية قال (٤) الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملاً لابي موسى الاشعري على البحرين فكتب اليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وان يستخلفوا جميعاً قال : فلما قدمنا اتيت يرفأ (٥) فقلت يا يرفأ مسترشد وابن سبيل اي الهيئات احب الى امير المؤمنين ان يرى فيها عماله : فأومأ اليَّ بالخشونة فاتخذت خفين مطارقين (٦) ولثت عمامتي على رأسي فدخلت على عمر فصففنا بين يديه فصعد فينا وصوّب فلم تأخذ عينه احداً غيري فدعاني فقال : من انت . قلت : الربيع بن زياد الحارثي

---

(١) مصبوغين (٢) العكة بالضم آنية السمن كالشكوة للبن اصغر من القربة تعمل من جلد (٣) الترجي والارتجاء والترجية كلها بمعنى الرجاء (٤) الكامل للمبرد (٥) يرفأ كيمنع مولى عمر بن الخطاب (٦) خفان مطارقان اي مطبقان يقال طارقت نعلي اذا اطبقتها ومن قال طرقت او اطرقت فقد اخطأ . وقوله لثتها على رأسي يقول ادرت بعضها على بعض على غير استواء

قال : وما نتولى من اعمالنا . قلت : البحرين . قال كم ترتزق . قلت : الفًا . قال كثيرٌ فما تصنع به قلت : اتقوت منه شيئًا واعود به على اقارب لي فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين قال : فلا بأس ارجع الى موضعك . فرجعت الى موضعي من الصف فصعد فينا وصوّب فلم تقع عينه الا عليّ فدعاني فقال : كم سنك . قلت : خمس واربعون سنة . قال : الآن حين استحكمت ثم دعا بالطعام واصحابي حديث امرهم بلين العيش وقد تجوعت له فأُتي بخبز واكسار بعير (١) فجعل اصحابي يعافون ذلك وجعلت آكل فأُجيد فجعلت انظراليه يلحظني من بينهم ثم سبقت مني كلمة تمنيت اني سخت في الارض فقلت : يا امير المؤمنين ان الناس يحتاجون الى صلاحك فلو عمدت الى طعام ألين من هذا فزجرني ثم قال : كيف قلت فقلت : اقول ياامير المؤمنين ان تنظر الى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل ارادتك اياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبز لينًا واللحم غريضًا فسكن من غربه وقال : اهنا غُرت . قلت نعم فقال : ياربيع انا لو نشاء ملأْنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب (٢) ولكني رأيت الله عز وجل نعى على قوم شهواتهم فقال : اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا . ثم امر ابا موسى باقراري وان يستبدل باصحابي .

نعم لو اراد عمر ان يملأ داره من هذه الطيبات التي عدها وهي اتقن شيء في نظره واغلاه لما تعذر عليه بعد ان فتح المسلمون فارس والشام في عهده ولكن نفسه العظيمة ابت الا التقشف ومثله بعض عماله حتى ان ابا عبيدة لما هزم الفرس في كسكر من اعمالهم جمع الغنائم فرأى من الاطعمة شيئًا عظيماً فبعث فيمن يليه من العرب فاقتسموا خزائنها وجعلوا يطعمونه الفلاحين وبعثوا بخمسه لعمر وكتبوا اليه ان الله اطعمنا مطاعم كانت الاكاسرة يحمونها واحببنا ان تروها ولتذكروا إنعام الله وافضاله . ثم ان بعض الفرس حملوا الى ابي عبيد بآنية فيها انواع اطعمة فارس والالوان والاخبصة وغيرها فقالوا هذه كرامة اكرمناك بها وقرى لك قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله قالوا لم يتيسر ونحن فاعلون قالوا فرده وقال: لا حاجة لنا فيه بئس المرء ابو عبيدة ان صحب قومًا من بلادهم اهراقوا دماءهم دونه او لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما افاء الله عليهم الا مثل ما يأكل اوساطهم . قال زياد بن حنظلة في فتح عمر بن الخطاب لايلياء من ابيات

---

(١) الاكسار جمع كسر بكسر الكاف والكسر والجدل والوصل العظم ينفصل بما عليه من اللحم (٢) الصلائق ما عمل بالنار طبخًا وشيًا يقال صلقت الجنب اذا شويته وصلقت اللحم اذا طبخته على وجهه . وسبائك ما يسبك من الدقيق فيؤخذ خالصه يريد الحوّارى وكانت العرب تسمي الرقاق السبائك . والصناب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب

والقت اليه الشام افلاذ بطنها وعيشًا خصيبًا ما تعد مآكله

وبذلك عرفت ان معظم الاطعمة الشهية فارسية او رومية استعملها العرب في البلاد التي نزلوها ومنها ما عربوه ومنها ما ابقوه على حاله ولكل بلد خصائصه في مآكله ومن تعمد استقصاءها يضطر بعد البحث الشديد الى وضع مصنف فيها يكون من انفع الدروس الصحية والاجتماعية لا محالة. ومن المجالس الغريبة المجلس الذي عقده المستكفي بالله ليتذاكر مع ندمائه انواع الاطعمة وما قال الناس في ذلك منظومًا وقد اورد المسعودي في مروج الذهب هذه القصائد ومنها قصيدة لابن المعتز يصف سلة سكارج كوامخ واخرى لكشاجم في صفة سلة نوادر وثالثة لابن الرومي في صفة وسط ورابعة لاسحاق الموصلي في صفة سنبوسج واخرى لكشاجم في وصف هليون وغيرها للحافظ الدمشقي في وصف ادريسة وغيرها في وصف المضيرة ولغيره قصيدة في جوزابه(بد؟)

ومن القصائد التي ورد فيها ذكر بعض الاطعمة الدمشقية حوالى القرن الرابع للهجرة قصيدة ابي القاسم الحسين بن الحسين بن واسانه بن محمد المعروف بالواساني الذي كان في زمانه كما قال الثعالبي في اليتيمة كابن الرومي في اوانه وصف ما جرى عليه في الدعوة التي عملها في قرية حمرايا من اعمال دمشق وقد اخذها صاحب اليتيمة برمتها: فقال انه احسن فيها غاية الاحسان وابان فيها عن مغزاه احسن بيان وتصرف فيها واطال وامكنه القول فقال واذا تخلص الشاعر عن الاطالة والوصف هذا التخلص وسلم مما يؤديه الى التكلف والتلصص فهو الذي لا يدرك غوره ولا يخاض بحره.

جيران الفراعنة

نشر المسيو جبرائيل مدينا في المجلة التونسية فصلاً ضافيًا في اصول شعوب الارخبيل في البحر الرومي واحلافهم الليبيين الافريقيين مستندًا فيه الى ما عرف من الآثار المصرية والمصانع المصورة في آسيا الصغرى قال فيه ما تعريبه: عرض المسيو ايفانس في مؤتمر الجمعيات العلمية الدولي الذي التأم في موناكو سنة ١٩٠٧ نتيجة اعمال الحفر التي قام بها في كنوس عاصمة جزيرة كريت القديمة وهي حفريات ظهر بها مواد كثيرة يرجع عهدها الى اقدم الازمنة في تاريخ كريت ويستدل منها على امور كانت غير معروفة عن حال مدينة

قامت في تلك البقاع . وقد اطلق هذا المكتشف على ما عثر عليه من بقايا الآثار اسم المينوئية وان دلت كلها في الجملة على انها صنعت على مثال الآثار الليبية المصرية دلالة لا يتمارى فيها اثنان .

وقد نشر الآن المسيو هوغو ونكلر استاذ كلية برلين كراسة صغيرة ذكر فيها ما عثر عليه اثناء حفرياته في بوغاز كوي (١) وهي مشهورة بنقوشها البارزة الهيتية وكان من حظ هذا العالم ان يضع يده على السجلات السياسية لملوك الهيتيين (٢) مما يرجع على الاقل الى خمسمائة سنة قبل الميلاد .

---

(١) اي قرية الخليج وهي بليدة في آسيا العثمانية اي بلاد الاناضول من اعمال ولاية انقرة المعروفة قديماً باقليم غالاسيا وسكانها نحو ستمائة نسمة وتطل عليها اطلال مدينة مادية (فارسية) قديمة اسمها بتريوم وهي التي خربها كريزوس آخر ملوك ليديا واهم شيء في هذه الخرائب سور من الصخور الطبيعية نحتته يد الصناعة وهو مزين بنقوش ورسوم اهم ما فيها صورة مشهد دخول الخاقان الاعظم

(٢) الهيتيون او الهيتيتيون و بالسريانية « خاتي » و باللغة المصرية « خيتي خيتي » هو اسم لشعب لم يعرف عنه شيء الا من رواية التوراة ثم ظهر امره واستبان تاريخه من المصانع المصرية والاشورية وقد كانوا ينزلون منذ الازمان الموغلة في القدم في اعالي اودية نهر قزل ايرمق (هاليس) والفرات وخضعوا للكلدانيين الأول ووضع فراعنة الدولة الثامنة عشرة عليهم بعد نحو الفي سنة الجزية وكان لهم تمدن خشن اقتبسوه في جملته عن الكلدانيين ولما سقطت هذه الدولة الفرعونية في سورية قاد ملك الهيتيين رعيته ففتحوا سورية الشمالية ووادي العاصي باجمعه والبلاد الواقعة بين الفرات والخابور الى تخوم بلاد اشور وبابل ثم وقعت لهم حروب مع فراعنة مصر حتى اضطر رعمسيس الثاني ان يعقد صلحاً مع ملكهم وتزوج ابنته فجاء حموه خاتوزارو فزار وادي النيل ودامت صلات الود بين الهيتيين والمصريين منذ ذاك العهد ثم انحطت ممالكتهم واصبحت مستعبدة للاشوريين ثم تبعوا لملوك نينوى ونفوسهم تحدثهم بانهم لا بد لهم من ارجاع استقلالهم ولكنهم فنوا في فاتحيهم واندمجوا فيهم حتى انهم لم يكن لهم اسم ولا جسم على عهد فتح الاسكندر و يقول المؤرخون ان بعضهم اندمجوا مع الآراميين او لجؤا الى مضايق جبال طوروس وانضموا الى القبائل النصف بربرية التي ظلت على استقلالها . ولم تحل حتى الآن خطوطهم وهي اشبه بالخط المصري القديم ويوجد من آثارهم في آسيا الصغرى وسورية وفي جميع البلاد التي احتلوها

عن قاموس لاروس

و بين الالواح التي ظفر بها الاستاذ ونكلر الصور الاصلية من الرسائل التي بعث بها ملك الهيتيين الى الامراء الخاضعين له ونسخة من المعاهدة التي عقدت بينه وبين رعمسيس الثاني بعد موقعة قادش وهي المعاهدة التي عرفناها من الترجمة البديعة التي ترجمها المسيو ماسبرو منقولة عن الاصل المصري الذي وجد في الكرنك . ولقد عثر المسيو ونكلر ايضاً على نحو مائة قطعة من القرميد محفورة من اطرافها فيها بضع مئات من السطور المكتوبة بحروف المسند ولكنها كتبت باللغة الاشورية والهيتية وهي اللغة التي لم تُحل حتى الآن .

وقد ظهر من حال بعض الالواح الاشورية ان بليدة بوغاز كوي كانت عاصمة المملكة الهيتية على عهد عظمتها وارتقائها اي من القرن السادس عشر الى القرن الثالث عشر قبل المسيح لا مدينة كاركيش كما كان يظن من قبل . وان تلك العاصمة كانت تسمى خاتي وبهذا استبان مقر تلك الامة وعليه فانا نقول انها كانت في اقليم كابودسيا(١) لا في الوادي الغربي من الفرات الاوسط كما كانوا يزعمون حتى الآن .

وانا اذا اغتبطنا بهذين الاكتشافين فذلك لانهما يقفان بنا على حقيقة تاريخية في منشإ الليبيين واصولهم كما عرف تاريخ مصر عند ما انجلت الكتابة التي كانت كتبت بها مدارج البردي والكتابات المزبورة على مصانعها وعادياتها .

ذكرنا في كتابنا مملكة البحار المصرية على عهد توتيمس الثالث كيف كانت حال مصر من حيث جنديتها على عهد الدولة الثامنة عشرة من الارتقاء والعظمة ولا سيما في زمن توتيمس هذا . اما في زمن الدولة التاسعة عشرة والدولة العشرين فقد انحطت جندية مصر . وتبعث الكتابات المصرية القديمة التي كتبت على ذاك العهد على التخمين بانه لم يكن للفراعنة اذ ذاك اساطيل في استطاعتها ان تؤيد سلطان مصر على البحر المتوسط فكانت الشعوب تضطرب من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب لتخلع ربقة الحكومة المصرية وتحاول امم الارخبيل (بحر ايجي) في الشمال ان تهاجم مصر من طريق الدلتا . والهيتيون من الشرق والليبيون من الغرب والعنصر القوشي نسيب الليبيين من الجنوب وكلهم يحاولون الغارة على وادي النيل . والظاهر ان هذه الاساطيل وهذه الجيوش وان كانت تعمل كل منها منفصلة عن الاخرى لكنها كانت تعمل باشارة خاتي عاصمة مملكة هيت وهي العدوة الزرقاء لملوك مصر منذ سقوط ملوك الرعاة .

---

(١) هي مملكة قديمة في اواسط آسيا الصغرى اي الصقع الذي في اعالي « قزل ايرمق » المعروف بنهر هاليس قديماً وقزل ايرمق الآن وولاية سيواس اليوم هي تلك المملكة القديمة التي كان يحدها من الشمال البحر الاسود ومن الشرق ارمينية ومن الجنوب سيليسيا تفصلها عنها جبال طوروس ومن الغرب غالاسيا وفرغازة (فرجيا) وعاصمتها مدينة قيصرية الآن

وقبل درس حال هؤلاء المحالفين او الامراء التابعين لمملكة هيت جماعةً جماعةً يجب ان نبين عناصرهم واصولهم اولاً · فاذا اخذنا شعوب الارخبيل وهذا الجزء من قارة آسيا فانك لا تراهم الا مزيجاً من الشعوب البحارة الذين كان يطلق عليهم في القديم « البلاسج » فكان اصل بعضهم من كريت و بعضهم من الشواطيء الغربية في آسيا الصغرى فهذان الشعبان بحسب رأي الباحث اربوا دي جوبنڤيل من اصل واحد بيد ان التاريخ اليوناني اذا طبقناه على الاكتشافات الاثرية الحديثة يداخلنا الشك في صحته وكذلك المكتوبات المصرية المزبورة على المصانع والمعاهد فانها تميز الشعب الاول باسم بلست والثاني باسم تورسها و يظهر ان الاول كان من الفيلستنيين (١) الذين هم معدودون في سلسلة النسب بحسب رواية سفر التكوين من اخلاف مصرائيم ومن فرع كسلوحيم · و يظهر لنا انهم ليسوا سوى ليبيين مصريين الذين قال المؤرخ بلين والجغرافي بومبينوس ميلا انهم نازلون على التخوم الغربية من مصر وسماهم المؤرخ هيرودتس بالادرماشيدبين · وبهذا عرفت ان اصل الكريتيين والفيلستنيين ليبيٌّ مصري على ما ثبت من الحفريات الحديثة التي حفرها المسيو ايفانس في جزيرة كريت اثباتًا لا يحتمل الاخذ والرد ·

ولكن هل نشأ احتكاك ليبيا ببلستا في زمن سبق عهد ام البيلاسج بما كان بين القطرين من الصلات او هو ناشيءٌ من صلات تجارية ليس الا ؟ اما نحن فلا نسلم بهذا الفرض بل نقول فقط بانه ناشيءٌ من وحدة اصولها واتحادها في المعتقدات وتذكرهما بان لهما اصلاً واحداً بين السكان المتاخمين للآريين في الشاطيء الشمالي من آسيا الصغرى وكريت وليبيا (٢)

فالبيلاسج الكريتيون يمتازون عن البيلاسج التورسانيين باخلاقهم النابية عن الآداب والحشمة مثل مخالفتهم الفطرة في الشهوات وتصويرهم اعضاء التناسل في كل مكان فترى في ليبيا وكريت وآسيا الصغرى ان هذه العادة شائعة في كل مكان وقد ذكر هيرودتس ان في كل مكان انتشرت فيه عبادة الكابير بين الكنعانية والاكان في كريت وساموتراس ولمنوس كنت ترى، ان رمز اعضاء التناسل معروضة على صورة تعبدية · ويقول المؤرخ سترابون ان مثل هذه الصور كانت تنقش على الحجر في ابواب مدينتي لامبساك و بانوبوليس احتراماً لها واكراماً ·

---

(١) احد شعوب سورية وهم الذين تغلب عليهم شاول وداود (٢) ليبيا اسم اطلقه اليونان على افريقية منذ عهد الشاعر هوميروس والمؤرخ هيرودتس اما اسم « افريقية » فلم يطلق الا في زمن الرومان على جزء من الساحل الجنوبي المقابل لتونس الحالية · وصحراء ليبيا هو الجزء الشرقي من صحراء افريقية بين جبال تبستي والبحر المتوسط ووادي النيل

وقد ذكر المسيو ستارك فيما جمعه من الاساطير عن صقع جبل سيبيل ان الملك تانتال الذي كانت عاصمته على خمسة كيلومترات من ازمير تجاسر في خلال احدى الحفلات ان ينازع الرب زيوس في النعم التي اسداها الى الاميرة جانيد فاهلكه المشتري عقوبة له ولامته. وقد زرت بلاد سيبيل منذ بضع سنين وتعهدت خرائب تانتاليس وقبر ملكها تانتال وكلها تدل على قدمها وتدل جميع القبور التي كشفت بالحفر على عبادة آلات التناسل كما ان اديم الارض يدل على حقيقة لا جدال فيها وهي ان تلك البلاد كانت عرضة للحوادث الارضية

وفي التقاليد اليونانية ان اصل تانتال هذا من جزيرة كريت وهو من نسل الرب زيوس وابوه زحل رب ليبيا وهذه القصة اشبه بما ورد في التوراة من قصة قوم لوط في سدوم الذين غضب الله عليهم فاهلكهم. ولم نذكر قصة تانتال الا للدلالة على ان اقدم تقاليد ميونيا (اوليديا) تشعر بان ما اتاه قوم لوط قد انتقل الى سكان هذه البلاد وليس هو من اختراعهم.

اما البلاسج التورسانيون الذين يمتازون كما قلنا عن البلاسج الكريتيين فالظاهر ان العبادة المألوفة عند الكريتيين كانت مألوفة ايضاً عند التورسانيين بدون ان يصوروا الرجال عراة وكانت الصور عندهم على جانب من الوقار والطهر وسلامة الادب على انهم لم يستنكفوا من تعرية النساء وقد اكتشفت في جزائر الارخبيل من مدينة تارس مئات من تماثيل النساء عاريات وقد جعلن ايديهن على صدورهن. وهذه التماثيل ليست من التماثيل الفينيقية فكان على ما يظهر من طبيعة هذا الشعب ان يعنى كثيراً بجنس النساء ولذلك وجد في بلادهم ويظهر انها سيلسيا عدة بيوت خاصة بالنساء كما وجد في اقليم كابادوسيا مدن مثل زليا وكومانا وبسينونت سكانها كلهم من اهل الفاحشة من الجنسين وكهنتها خصيان والفجور فيها مقدس شائع. واكد الجغرافي سترابون الذي ولد في امازا في وسط بلاد البحر الاسود انه كان في عصره في مدينة فنازا من اعمال موريمينيا معبد كان فيه ثلاثة آلاف فاحشة ومثل هذا القدر في مدينة بسينونت وفي مدينة كومانا ستة آلاف. اما زيليا فانها كانت مأهولة خاصة بالمقدسات من المومسات وهذه المدينة معتبرة بانها مقر هذه العبادة حيث كان يقيم حبرها الاعظم تحيط به خدمة كثيرون ويحكم حكماً مطلقاً على اولئك الفاسقات المعروضات لكل قادم. وكانت هذه المعابد منتشرة في الخمس ممالك الآسياوية يعني في جميع آسيا السالفة ومنها اودية ماوراء سلسلة جبال طوروس وطوروس امازيوس ويظهر ان وجود هذه المعابد في جميع الطرق الآخذة من تارس الى خليج فارس ومنها الى البحر الاسود يدل على وجود هذه الاسواق الكبرى من النساء المستبعدات

الفاسقات اللائي كن يقربن التجار من جميع الامم الذين يأتون مع القوافل او في البحار وربما نشأ من هنا ما نراه الآن من الاسواق العامة. والخانات التي لم يزل لها اثر حتى اليوم في آسيا الصغرى ٠

اما البيلاسج التورسانيون فقال هيرودتس في سبب اصلهم انه حدثت مجاعة هائلة خربت اقليم ليديا على عهد الملك اتيس ابن مانيس فاستسلمت الامة لها زمناً ولكنها ما فتئت تفتك بهم ولما لم يجدوا سبيلاً الى الخلاص منها اخذ كل واحد يفكر في طريق نجاته وعلى ذلك العهد اخترعوا زهر النرد والكعاب والكرة وسائر الالعاب فكانوا يتراوحون كل يومين بين اللعب والاكل فيقضون اليوم الاول بطوله في اللعب لئلا يفكروا في الطعام وفي اليوم التالي يتوقفون عن اللعب ويأكلون. و بفضل هذه الواسطة دام القحط ثماني عشرة سنة وهي بحالها لا تزداد الا شدة فعندها نادى الملك في قومه فقسمهم شطرين ثم اقترع بينهما فقسم وقعت عليه القرعة بالسفر وقسم بقي في البلاد

اما الملك فبقي مع المقيمين واقام ابنه تورسينوس ملكاً على المهاجرين فذهب هؤلاء الى ازمير وانشئوا سفناً جعلوا فيها كل ما يحتاجون اليه من الزاد في رحلتهم الطويلة واقلعت سفنهم تطلب ارضاً تطعمهم وشطأوا (حاذوا شواطيء) امماً كثيرة حتى بلغت بهم خاتمة مطافهم الى اقليم اومبيريا « من ايطاليا وهي ولاية بروز اليوم » فانشئوا فيها بيوتاً لم يزالوا ساكنين فيها حتى الآن وغيروا اسمهم وتسموا باسم ملكهم فدعوا التورسانيين»

هذه القصة التي اوردها هيرودتس على حقيقتها لا تقبل باجمالها وذلك لان هذه المجاعة التي دامت ثماني عشرة سنة وهذه الحيلة الصبيانية من اختراع الالعاب ليدفعوا عنهم آلام الجوع قد ظهرت للعلماء من العبث وتجلى اصل الايتروسكيين الليدي من اساطير الاقدمين للقدماء والمحدثين ٠ وللوقوف على ذلك لا يرجع الى التقاليد القديمة بل الى ما ظهر من المكتوبات والآثار المخفورة في مصر وآسيا الصغرى و بالمقابلة بينها يستنتج بان اتيس الذي ذكر خبره هيرودتس لم يكن ليدياً بل ان الآثار التي وجدت في مدينة خاتي عاصمة الهيتيين ومدينة عبو Abou والالواح التي اكتشفها ونكلر في بوغاز كوي كلها تدل على ان اتيس لم يكن ملكاً لميونيا فقط بل ملكاً على مملكة واسعة كانت ليديا باجمعها من جملتها وتدل الكتابات المصرية والرسوم البارزة في آسيا الصغرى على ذلك كل الدلالة ٠ والمصانع المرسومة كتاب من التاريخ لا يكذب ولا تجد له مثيلاً في الاساطير القديمة والتقاليد المتعارفة عن الامم البائدة ٠ و بواسطة هذا الكتاب تضمحل النظريات والافكار الواهية المبنية على تخمينات لا يمكن الجمع بينها وتنجلي الحقيقة كالشمس رأد الضحى

في الطريق الموصلة من ساردس الى ازمير قرية معروفة عند الروم اليوم باسم «نينفي» و يسميها الاتراك «قره بكلي» وهناك ساعد من سواعد نهر الهرموز يخرج من صخرة و يشرف على مجرى طوله خمسون متراً وترى في داخل تلك الصخرة كوة علوها متران ونصف وفيها صورة تمثل محاربًا يلبس على رأسه تاجًا مقرنًا على مثال قبعات ملوك الهيتيين وهو لابس قميصاً قصيراً على مثل ما نراه في المصانع المصورة في ايوك او بوغاز كوي وهذا التمثال يحمل بيده قوسًا وفي الاخرى رمحًا و يلبس في رجله حذاء ذا رأس طويل منحن . وقد كتبت من جانب رسم الصورة ستة حروف باللغة الهيتية الا انها لا تقرأ ولم يستطع احد ان يحلها . وقد قال هيرودتس نقلاً عما ذكره له كهنة المصريين من غزوات رعمسيس الثاني الموهومة في آسيا الصغرى ان هذه النقوش البارزة هي رسم سزوستريس ملك مصر اما اليوم فلا يتردد احد من الاعتراف بان هذا الرسم هو رسم مجاهد هيتي وربما كان تي خاتي بالذات او اتيس الذي ذكره هيرودتس . وليست هذه الصورة وحيدة في بابها بل ان المسيو هومان اكتشف واحدة مثلها في افيس وهاتان الصورتان هما صورتان مزورتان لسزوستريس خدع بهما المؤرخ هيرودتس وهما شاهدتان الاعقاب بامتداد سطوة الهيتيين العسكرية في آسيا الصغرى . و يستفاد من تطبيق تاريخهما ان هذين النقشين البارزين يرد تاريخهما الى القرن الخامس عشر قبل المسيح .

وقد ذكر في الآثار المصرية التي وجدت في مدينة عبو في ذاك التاريخ نفسه خبر ثورة عظمى بين الشعوب في تلك البلاد من قارة آسيا واسم هذه الشعوب الثائرة المنيريون والميونيون والليسيون والموشيون والداردانيون والكاريون والبيداز يون . وقد قيل ان جميع هذه الشعوب كانت من تراسيا او فرغانة على انه لم يجر ذكر للبريج او التراسيين بين تلك الاسماء . ويحقق مالاحظه المسيو جورج برو بقوله : اليس من المحقق ان الفرغانيين لو سكنوا شبه الجزيرة الشرقية (بين الادر يانيك والارخبيل) لكانوا انجذبوا طوعًا او كرهًا بالحركة العظمى بين تلك الامم واكرهوا او اغووا على الانضمام الى النزول الى سورية على انه ليس في قائمة الشعوب التي دعاها الهيتيون الى مساعدتهم ولا في تسمية كهنة الهيتيين لهم فيما بعد بشعوب البحار ذكر لاسم الفرغانيين .

واذا لم نجد في كتابات تلك الاعصر اشارة للهيتيين الا نستنتج من ذلك ان التراسيين لم يجتازوا بوغاز الدردنيل وان احلاف الخاتيين لم يكونوا اوربيين ولا تراسيين؟ واذا تركنا الكتابات المصرية جانبًا ونظرنا في كتابات التوراة وهي احدث منها فانا نبدأ بحسب الطريقة التي اختارها كاتب الاصحاح العاشر من سفر التكوين اي بان نتتبع اجيال الناس من الغرب

الى الشرق فيتجلى لنا انه جعل في مقدمة اولاد يافث الشعوب التي هي من بلاد الشمال وفي سكان الجنوب الجافانيين او الروم وقداتى بهم بجانب التيرانيين والموشيين الذين ذكرهم هيرودتس . ولم نر للفرغانيين او الكومريين ذكرًا وهم شعوب وسط بين سكان الارخبيل والآسياويين . ويرى احبار اليهود ان التراسيين هم الاسكينازيون الا انهذا مجرد فرض منهم لا يفهم من نصوص العهد القديم واذا اطلق هنا على اقليم فرغانة اسم افريقية فهذا ايضًا رأي من الآراء لا حقيقة من الحقائق الثابتة . ثم ان بعض الشراح من الربانيين قالواان الترشيشيين هم من التراسيين بدون ان يدركوا ان التوراة قد جعلت ترشيش ابن جافانا واسكنار ابن كومر على ان هذين الفرضين لا يمكن تطبيقها من الوجهةالجغرافيةوالشعوبية على نصوص شرح التوراة .

وليس في الكتابات الاشورية شيء بشأن التراسيين او البيرجيين سكان آسيا الصغرى . وجاء في التواريخ الاشورية المحفورة على اسطوانات من الآجر (الطوب) المحفوظة في المتحف البريطاني ذكر ملك مداس اوميتامو ورد على صورتين « ميتا » ملك الموسخو وميتا ملك الموسخاي اي ميداس ملك الموشيين او ميداس الموشيني لا ميداس الفرغاني كما يزعم ذلك كتاب اليونان .

وقد طاف المسيو بيرو اقليمي ليديا وكابادوسيا طواف عالم اثري وقابل بين مصانعها المختلفة فرأى ان هذه التناقضات لم تنشأ الا من ضعف ارادة هوميروس في نسبة اصل ابناء وطنه الى فرع اوربي لا الى فرع آسياوي . ومن تأمل فرأى ان ليس من احد بين اليونان كان يود مناقضة هوميروس كما ان الباحثين في اوربا قديمًا عن اصول التاريخ كانوا يعنون قبل كل امر بتوفيق اقوالهم على نصوص التوراة — يدرك في الحال السبب الذي دعا الى ان التفاسير القديمة والحديثة لم يتيسر لها ان تخلص من هذه الوجهة المهمة من سلطة التقاليد .

وكذلك الحال في البيتيتيين والتينيين والميز بين الذين ارادوا ان يلصقوهم بالاصل التراسي . وانا نكتفي هنا فقط بان نقول ان في الالواح الاشورية ذكرًا لبلاد في آسيا الصغرى اسمها « بيت اني او انو » وهي على التحقيق ليست من اصل تراسي . وقدرسم «انو» هذا في الاساطير الكلدانية على صورة رب سمكة او رب السواحل البحرية . على ان الاثري شلمان اكتشف في اليسيرليك على بضعة كيلومترات من المكان الذي يزعمون انه مقر الفرغانيين على عمق ستة عشر مترًا في الاساس الذي دعاه قصر بريام على عدد كثير من الاواني والصحاف عليها صورة سواستيكا او الصليب (المقلوب) الذي يرى بريخ مدير

تحت البر يطاني انه رمز الى انو . وانت ترى ان في مسائل اصول الشعوب صعوبات جمة اختلافات كثيرة في التأويل اما نحن فلا نجزم جزماً فيما نقول بل نقول بانه من المحتمل كل الاحتمال ان الشعوب البائدة كان بينها قرابة ويجب التوفيق في ذلك بينها الا فاذا خانتنا النصوص الموروثة عن عصورهم وظهورهم في التاريخ او اذا رأيناها تسكت عنهم فان الشك يسمح به والتأكيد المطلق غير مقبول .

(الباقي للآتي)

سير العلم والاجتماع

تعليم الشعب

كثرت مدارس الشعب في اوربا كثرة زائدة بفضل المنوَّرين من اهلها . ومدارس الشعب هي مدارس تعليم عامة الناس في المدن والارياف ما فاتهم ان يتعلموه في المدارس في صباهم . تنوع فيه التعليم على اساليب كثيرة وقد كانت انتشرت اول الدعوة الى انشاء مدارس الشعب او العامة في الممالك الصغرى سنة ١٨١٠ في الدانيمرك على يد رجل منها اسمه كروندويك وما برحت المدارس فيها تكثر حتى اصبح فيها نحو تسعين مدرسة عالية لتعليم العامة يتخرج فيها كل سنة نحو سبعة آلاف طالب وطالبة وكلهم لا تقل سنهم عن ١٨ ولا تزيد عن ٢٥ ولولم يتعلم ابناء الفلاحين هذا التعليم العالي بعد فوات السن ما تيسر لهم تصدير حاصلات بلادهم ومصنوعاتها الى الخارج والغاية الاولى التي يرمي اليها السائرون على خطة كروندويك ان ينشروا المعارف بين جميع الطبقات وقد انتقلت طريقتهم هذه من الدانيمرك الى نروج الى السويد الى فنلندا وكل بلد من هذه البلاد تحاول صبغ مدارس الشعب بصبغة تلائمها وتلقي فيها من العلوم ماله مساس بقيام عمرانها واجتماعها كأن تعلم فنلاندا مثلاً الموسيقى لانها محبوبة من الامة وفيها اربعمائة جمعية لتعليم العامة فن الموسيقى وفي فنلندا ونروسيا لا تتجاوز الثلاثة ملايين ٣٥ مدرسة عالية لتعليم الكبار من عامة الشعب ما يلزمهم في هذه الحياة مما لم يسعدهم الحظ بتعلمه صغاراً .

الاولاد الفاسدون

استعمل الدكتور بريلاون طريقة جميلة في التربية لاصلاح نفوس الاولاد الفاسدين

كالذين اعتادوا السرقة دون ان يستفيدوا مما يسرقون ويسمي الاطباء عملهم «كلبتوماني» او الذين يألفون بعض العادات الضارة كقضم الاظافر وغيرها فعمد الى تنويم من اراد اصلاحه تنويماً مغنطيسياً والقى اليه قطعة من النقود واوعز اليه ان يتناولها فيسرقها ثم يقول له ان يرجعها فيرجعها ويوبخه على عمله ويقول له عليك ان لا تعود الى مثل عملك هذا . وهكذا حتى يتعلم السارق بالاستهواء ان يكف عن عادته قال وهذه الطريقة انجع من جميع الطرق الادبية والطبيعية التي اتخذت في اصلاح مثل هذه النفوس حتى الآن

الزجاج في مصر

كتب احد علماء الآثار في المجلة الاثرية الفرنسوية يقول انه كان من التقاليد الشائعة ان الفينيقيين هم الذين اخترعوا الزجاج ومنذ حل الخط المصري القديم تبين ان كثيراً من الاواني الزجاجية الملونة التي اشتهرت بانها فينيقية قد نقش عليها اسم فراعنة مصر وقد ابان احدهم انه وان ثبت وجود اواني زجاج مصرية او يونانية صنعت قبل الاسكندر فلم يثبت وجود معمل فينيقي في فينيقية وبذلك تبين انه لم تنتشر صناعة الزجاج في سورية الا على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر ولا سيما على عهد الرومانيين وقد ثبت الآن ان سورية وبلاد دجلة والفرات لم تعرف الزجاج قبل العهد اليوناني وان الآنية الاشورية الوحيدة التي نقش عليها تاريخ وحفظت في المتحف البريطاني وكتب عليها اسم سراغون الثاني هي بدون ريب من اصل مصري كما ثبت ذلك من شكلها ووضعها . وكما يؤخذ من علبة مرصعة بالزجاج الاسود والاخضر وجدت في حفريات ابيدوس . وقد اقتنى متحف برلين مؤخراً عصا قائمة الزوايا طولها بضعة سنتمترات نقش على وجهها بالابيض اسم لامار احد فراعنة الدولة الثانية عشرة ولامار لقب له واسمه الاصلي امنيس الثالث وكان يعبد في الفيوم . وماوجد في هذه المدينة من الزجاج القديم يدعو الى الجزم بانها كانت في القديم مصنع الزجاج وان صنع الزجاج بلغ درجة عالية في مصر على عهد الدولة الثامنة عشرة واقدم ماوجد من الاواني الزجاجية ثلاث قطع حفظت احداها في القاهرة والاخرى في لندرا والثالثة في مونيخ .

وقد استدل الكاتب بان ما لاحظه بتري من انه كان في تل العمارنة وهي عاصمة امينوفيس الرابع معمل للزجاج على ان هذه الصناعة كانت فيها على اتم الرواج في الدولة الثامنة عشرة الفرعونية وان المصريين كانوا يصنعون الاقداح والتعاويذ من الزجاج . ومعمل تل العمارنة دليل واضح على انه كان في مصر معامل كثيرة للزجاج والعقل يقضي بان ما عثر عليه من الزجاج اقدم من هذا التاريخ هو من صنع مصر ايضاً كالزجاج الذي عثر

عليه في قصر امينوفيس الثالث في ثيبة . وقد بيعت مصنوعات مصر الزجاجية في شواطىء البحر الرومي فنسبت للفينيقيين لانهم هم الذين كانوا يحملونها على سفنهم ثم اثبت ان صناعة الزجاج ازهرت في زمن الدولة السامية وكانوا ذاك العهد يفضلون التعاويذ الصغيرة والتمويه والتزيين بانواعه على الاواني الملونة يتخذون من ذلك ما يزينون به بيوتهم وفرشهم بل ويتزين به صاحب الدار نفسه . ومن الصعب التمييز بين عصر البطالسة وعصر الرومان . ومن رأيه ان نفخ الزجاج اخترع في معامل فينيقية بعد عهد الاسكندر وهذا السبب في ارجحية معامل فينيقية على غيرها .

وتكلم على الزجاج المعمول بالفسيفساء فقال ان ما وجد منه قد كتبت عليه كتابات مصرية ويونانية وكثير منها من صنع الاسكندرية والفيوم وواحة سيوه ومنها نقلت الى بلاد اليونان وايطاليا وغاليا ولا يبعد ان تكون أوربا نسجت على منوال صناع الزجاج المصريين وهؤلاء علموا الاوربيين على عهد الامبراطورية الرومانية صنع الزجاج وقد كانت مدينة اكيلة القديمة على شاطىء الادرياتيك مركزاً في اوربا لصناع الزجاج ومنها هاجر البنادقة الذين صنعوا الزجاج للشرق الاسلامي واصبحت مصنوعاتهم نموذجاً تقلده جميع معامل اوربا وكانت الصلات مستحكمة بين اكيلة ومصر . وظل الزجاج يصنع في مصر حتى في عهد استيلاء الرومان عليها وفتح العرب وهذه الصناعة رائجة فيها كما ان العرب عنوا بالكاشاني وتغيرت طرق صنعه واشكاله . واشتهرت في القرون الوسطى الاواني الزجاجية والمصابيح العربية الملونة التي انتقلت الى معامل البندقية واصبحت تطرس على آثارها ثم كتب التقدم لمعامل البنادقة وعرفت تقلد الأنموذجات الشرقية احسن تقليد ومازالت معامل الشرق في انحطاط حتى زالت جملة واحدة واليوم بعد ان كان الشرق يصنع لاوربا منذ عهد الرومان اوانيه الزجاجية اصبح يجلب من ايطاليا والمانيا وفرنسا ما يلزمه من الاواني في حاجاته اليومية .

التربية الحرة

لكل امة ضرب من التربية فالامة الديمقراطية او الجمهورية لا تشبه تربية الامة الدستورية المقيدة اما تربية الامة المطلقة فنمطها مختلف عن تينك التربيتين وقد كتب أحد علماء الفرنسيس مقالة في التربية الديمقراطية فقال ان الديمقراطية وهي كمال الحياة التي سعى اليها الكل لفائدة الكل يجب ان تعتبر التربية أس أساسها ولا تحصل الغاية من التربية في أمة ديمقراطية بكثرة المواد التي يتعلمها أبناؤها فقد اختلف مشاهير علماء الاخلاق في النوع اللازم للديمقراطية من التربية وان كانت مبادئهم بحسب الظاهر تؤدي الى غرض واحد
الناس يخلطون بين التربية والتعليم فيرونهما شيئاً واحداً على ان التربية غاية

والتعليم واسطة فالغرض من التربية ان تربي في الطفل شعور مكارم الاخلاق فتكون سلماً يصعد به الى ذرى التعلم فتصرف وكدها في ادارة عقله وحكمه عند ما يتجليان وتكون أخلاقه رقيقة متينة فيصبح الطفل على ثقة من تنبه الشعور والعقل والعمل عند ما يبلغ سن الرجولية ويتعلم عمل الخير والادراك والتأمل كما يتعلم الارادة وصحة العزيمة . فتربية الوجدان تهم كما تهم تربية العقل واكثر المدارس لا تعنى بالتربية الاولى فتأتي امرًا ادًا . يجب ان يعلم الاطفال مكارم الاخلاق فان صلاح المرء بان يكون عادلاً وحكيماً ويجب ان تربى في المرء قوة التمييز وتنمى فيه قوة الانتباه وهي القوة التي تنفع اكثر من تحصيل المعارف الجديدة كما يجب تربية دائرة العقل وامداده بالادوات الاولى التي تهيء امامه سبل العمل فالارض الزراعية مهما بلغت من الخصب تحتاج ان تعد لها المعدات والا فلا تنبت فيها البذر الذي يبذر فيها .

ثم ان حسن العشرة والسلوك في المجتمع مناطان باخلاق الفرد وعلى قدر اخلاقه في الغالب تكون اعماله وجهاده . ومتى ظهرت في الطفل علائم ارادته الاولى كان منها توجه نفسه الى العمل فان لين اخلاقه ومضاءها اعمالاته ان يعنى بالضروريات الخارجية بدون أن تؤثر فيها كل التأثير . فحريتنا الادبية هي عبارة عن اعتمادنا على أنفسنا

فان قيل هل يجب ان تكون التربية عامة ام اهلية أي ان تربية الاطفال في المدارس العامة خير أم تربيتهم في بيوت أهليهم فقد ذكر الفيلسوف ديدرو كلمات في هـذا الصدد هي جماع الحكمة في التربية وهي على اختصارها أجمل جواب على هذا السؤال قال : «لقد قضيت السنين الاولى من حياتي في المدارس العامة ورأيت اربعة أو خمسة تلاميذ من الطبقة العالية يتناوبون في غضون السنة المكافآت ويتناولون الجوائز فيدخلون بتقدمهم اليأس على نفوس رفاقهم ونأخر هؤلاء عن اللحاق بهم . رأيت عناية الاستاذ مصروفة الى تخريج هذا العدد المختار القليل من الطلبة ويهمل من عداهم ورأيت معظم هؤلاء الاولاد يخرجون من المدرسة بلهًا مغفلين وجاهلين فاسدين فقلت في نفسي : يا لشقاء اب يستطيع ان يربي ابنه في بيته فيرسله الى مدرسة عامة . ليت شعري من اين أخذ البشر المعارف التي تميزها في الآداب بعض الرجال الذين ربوا في المدارس ومن السبب في وصولها اليهم ؟ لاجرم انها ابنة درسهم الخاصة . ولطالما أسفوا وهم في حجراتهم للوقت الذين قضوه على دكات المدرسة . فكيف السبيل اذاً ؟ هل تصلح الحال بتغيير طريقة التعليم العام ومتى اغتنى المرء يربي ابنه في منزله . انا لا استحسن تربية الدير للبنات الا اذا كانت أخلاق الامهات فاسدة ولا استحسن المدرسة للبنين الا اذا كان الآباء مسرفين

يعطون الف ريال للحوذي الذي يسوق مركباتهم والفي ريال للطاهي الذي يطبخ طعامهم هذا ماقاله ديدرو وقال مونتين يجب أن تصرف خمس عشرة أو ست عشرة سنة للدرس والباقي للعمل . وما قطبا الحياة في الحقيقة الا الفكر والعمل فالاول يولد الثاني والثاني متمم للاول . يقول بعضهم ان التربية لاينتهي دورها الا بانقضاء أجل الحياة على انه من اللازم أيضاً ان ينظر بان التجربة التي يحرزها المرء كل يوم يكون لها عمل لتنوب مناب التربية كلما نفهمها ولا تربي الا انساناً ناقصاً

أما فيما يتعلق بالمواد التي يجب تعليمها فيجب أن يتوسع فيها ما امكن فمن الميسور تلقين الطفل أموراً كثيرة اذ القوة الحافظة فيه على أتمها وقد أخطأ روسو في كتابه «أميل» في رأيه ان الاستظهار يضعف الذاكرة على ان الذاكرة ليست خزانة يحشر اليها الطفل صنوفاً من المبادىء يرجع اليها الطفل فيما بعد . فبعد أن يلقن الطفل واسطة للحصول على معارف حقيقية بتعليمه القراءة والكتابة يجب أن يعلم لغة بلاده ومبادىء العلوم الطبيعية والظواهر الجوية والرياضيات وذلك اما بدرسها في كتاب أو في نقشها ورسمها والعلم ينزع الخرافات ويودع في النفس فكر الارتقاء الثابت والنشوء البطيء المنظم بنواميس . يصدق هذا على الحالة الاجتماعية والسياسية كما يصدق على الحالة الطبيعية والجيولوجية . ويعلم الطفل الاعمال اليدوية والرياضية . ويعلم التاريخ لاالتاريخ المملوء بالشوائب بل التاريخ الحقيقي . فبالتاريخ يتجلى له بان الكمال ممكن وان الناس آخذون في السير نحوه فيجب المتعلم طريقة الحكم الديمقراطي ويؤثرها على غيرها من أنواع الحكم كما يعلم ان يحب كل من قضوا نحبهم في سبيل ترقية البشر وكل من نقلوا الينا حرية الوجدان . ويجب أن يعلم الطفل مع هذه المواد فن الآداب حتى لا يكون غريباً عن مظهر من مظاهر الجمال ويمتزج في روحه الفنية حب الكمال قال بول برت : «من الواجب أن يتعلم الطفل اللغات الاجنبية بل اللغات الميتة حتى لايفوته شيء مما انتجته المدارك البشرية ولا يكون بعيداً عما مرّ على أسلة اقلام العظماء في تبيانهم وبيانهم وأرى ان هذه المعارف توسع ذهنه وتفتح اجنحة تصوره فبالآداب وحدها تهتز القلوب وتحيا الوجدانات ولقد كانت مصنفات اليونان واللاتين مؤثرة في جيلنا معاشر الافرنج وفي مصنفاتنا منها مسحة خاصة فنحن واللاتين واليونان من فصيلة عقلية واحدة

ويضاف الى المعلومات التي يعلمها الطفل امور يجب ان تنضجها الحياة والعمل وهناك تعليم وطني أدبي ينبغي أن يشرب الطفل حبه الا وهو معرفة قوانين بلاده السياسية وحالة الطريقة التي تدار بها شؤونها وتراعى في كل تعليم اميال الطفل وقابليته فقد قيل ان في

الانسان وفي أعماله المختلفة فى الحياة الف نوع من التفنن ولكل ذوقه . وأمانينا لا ينطبق بعضها على بعض

وتجب العناية بتقوية جسم الطفل و وقاية صحته وان لا يكون حظ البنات في التربية كحظ البنين ويكون التعليم عامياً (علمانياً)لا دخل للدين فيه يكون كذلك في المدرسة كما يكون في البيت وان يجد الطفل في بيت أبيه متمماً لدروسه في المدرسة . وخير ماينفع الطفل ان لا تكون المدرسة والبيت وهما مبعث التربية متناقضتين في المبادي، بل متحدتين فيها وان تدرس الفنون بحيث يتمكن التلميذ من اظهار عواطفه بواسطتها فتقوى بها شخصيته ومبزته و يعنى بتنمية ملكته في الشعر والتصوير والموسيقى فقد قال شوبنهور الفيلسوف الالماني : ان استماع الانغام الجميلة هو حمام يغسل ادران العقل . نعم ان الموسيقى تغسل كل وسخ وتنبذ مايحط بالنفوس و يشقيها فالموسيقى ترفع مقام الانسان وتجمع بينه و بين الافكار النبيلة التي هو أهل لها فيشعر اذ ذاك كل الشعور بما يتأتى له أن يساويه في هذه الحياة

هذا ماقاله العالم الغربي وفيه درس لكل شرقي وجدير بنا أن نجعل قوام تربيتنا على تقوية الارادة والاحتفاظ بالقديم والاخذ بحظ وافر من المعارف البشرية اللازمة وتربية روح الوطنية والعواطف السامية بالفنون الجميلة فهي وحب الجمال والكمال من العوامل القوية في أسباب الرقي المادي والمعنوي .

حماة وحمص

اكتشف المسيو بونيون من علماء الآثار اربعة احجار كانت في عمود كتبت بلغة آرامية ممزوجة بالكنعانية والعبرية وذلك في خلال رحلته الى سورية منذ خمس سنين وهذه الاحجار هي عبارة عن تقدمة قدمها زاكير الملقب بملك حماة ولانش اولاعوش وقالوا انها مدينة حمص الى الرب آلور يضرع اليه فيها ان يكتب له النصر على الملوك الذين اتحدوا وحاصروه في مدينة خزرك (؟) وكان اكبر اعدائه ملك آرام « دمشق »المدعو بارحداد ابن خزائيل وقد تولى هذا الملك منذ سنة ٨٠٥ الى نحو سنة ٧٨٠ ق . م اي على عهد ملك اسرائيل جوهاشاز ابن جيهو وقد كتب المسيو دوسو من علماء الآثار في المجلة الاثرية بحثاً في مملكة حمص وحماة قبل المسيح بثمانية قرون فقال ان مملكة حماة لم تكن تتناول فقط السهول الغنية التي كانت تؤدي الجزية من بلاد نهر العاصي الوسطى بل كانت تمتد احياناً في وادي هذا النهر الى البقاع بحسب ما كانت دمشق وهي الخصيمة القوية تتركها تتنفس الصعداء . وفي القرن الثالث اضافت مملكة حماة اليها بلاد لاعوش او ارض خزرك فاعادت بذلك مملكة امورو « الاموريين » العظمى التي كان خربها الحيثيون في القرن الرابع عشر

قبل المسيح وقد كتم المكتشف اسم المحل الذي اكتشف فيه تلك الحجارة واكتفى بان قال في كتابه الذي نشره حديثاً في المزبورات السامية في سورية وبين النهرين وكور الموصل انه عثر عليها في سورية على مائتي كيلومتر من البحر الرومي وانه يأمل ان يذهب ذات يوم لاكمال الحفر فيكتشف ما ينقصه من هذه الآثار الا ان كاتب المقالة ادرك من حل الكتابات المزبورة على الاحجار انها آتية من مدينة خزرك فقال ان المكتشف وفق الى كشف محل هذه المدينة القديمة وهذا الاثر التاريخي العظيم وخزرك مدينة شرقي العاصي بين حماة ودمشق وقد كانت مملكة حماة وهي عبارة عن بلاد لاعوش واراضي خزرك وكانت في القرن الثامن قبل الميلاد اقوى مملكة في سورية وقد حاول الملك زاكير واخلافه ان يحصنوا مدينة خزرك لتكون منيعة الحمى حتى اصبحت من بعد سنة ٧٧٢ مدة خمسين سنة والاشوريون لا يغيرون الاعليها اثناء غاراتهم على سورية وقد عزم توغلات بالازار الثالث ملك اشور سنة ٧٣٠ ان يقسم مملكة حماة فجعلها مقاطعات كثيرة تابعة لمملكة آشور مباشرة ثم دثرت هذه المدينة (خزرك) وفقد اسمها من التاريخ ثم انقضت مملكة حماة فامر الملك سراغون الثاني ان ينزع جلد ملكها ايلوبيدي وهو حي وجعل في هذه المدينة حامية اشورية كبرى .

سر الجنسين

قضت مصاعب الحياة ان اصبحت كثير من الاسر في الغرب تتمنى لو ترزق بنين بدل البنات ولكن الخالق تعالى لم يبح سر كثرة البنات وقلة البنين احداً من المشتغلين بعقولهم من خلقه . وكان الرأي الشائع من قبل ان اقوى الابوين هو الذي يولد الولد ذكراً كان ام انثى . وقد كتب الدكتور روم ان من القضايا التي لا تكاد تختل في جميع العالم بان في كل مئة طفل يولد ١٠٥ او ١٠٦ بنات ولا يختل هذا التعديل الا في الحرب فثبت بالاحصاء ان بعد الحروب يولد للمحاربين ذكور اكثر من الاناث فقد زاد عدد البنات في سنة ١٨٦٩ في بروسيا وبعد حرب سنة ١٨٧١ زاد عدد الذكور وفي اثناء حروب الامبراطور نابليون الاول حدث نقص في البنات وزيادة في الاولاد في فرنسا حتى خيف على مستقبل البلاد من ذلك . وقد اثبت جميع ارباب الرحلات والباحثين بان جميع القبائل التي لا تفتأ تحارب غيرها يزيد عدد مواليدها من اولادها اكثر من بناتها فمواليد قبائل الماوري في زيلاندا الجديدة هم في الاكثر ذكور ومعلوم ان قلة النساء هي من اعظم الاسباب في انتشاب الحروب بين القبائل ولذلك كان المخلفون الذين لا يذهبون الى دار الحرب هم في الغالب اقل قوة وصحة ونشاطاً ممن حملوا السلاح وذهبوا لقتال العدو فيجيء

الاولاد الذين يولدون لهم ذكورًا . وقد شوهد منذ زمن ان سكيرًا طاعنًا في السن اذا تزوّج بامرأة شابة يكون اولاده في الاكثر ذكورًا على العكس مما يحدث اذا كانت الزوجة اسن من زوجها . قال سادلير في احصاء له ان مقابل كل الف بنت يوجد ٨٦٥ صبيًا يكون ابوه افتى من امه و٩٤٨ صبيًا يكون ابواه في سن واحدة و١٠٣٧ صبيًا يكون ابوه اسن من امه من سنة الى ست سنين و١٢٦٧ صبيًا يكون ابوه اسن من امه من ست الى احدى عشرة سنة و١٤٧٤ صبيًا يكون ابوه اسن من امه من ست عشرة سنة فاكثر

اذا ارضعت الام ولدها الاول فتلد بعده بنات وكذلك الامهات اللائي يحبلن في اوقات متقاربة فانهن يلدن البنات لان تكرار الرضاع والحمل هو من اسباب ضعف الام ومتى حبلت تكون في حالتها الطبيعية اضعف من الزوج فتلد بنتًا وتكون شبيهة بصورتها . وقد لوحظ بان المرأة اذا حملت عقيب العادة او في خلالها تلد اناثًا في الغالب وهذا الضعف الموقت فيها لا يرزقها الا بنات . وقد جرت عادة من يربون المواشي ان يفصدوا في اوقات خاصة البقرة اذا ارادوا ان تلد لهم عجلة وان يفصدوا الثور اذا ارادوا ان يلقح عجلاً . ولاحظ احدهم بان المولود الاول يكون طفلاً في الزواج غير الشرعي وعلل ذلك بان الام تكون في تلك الحالة افتى من الاب وتكون منهوكة القوى مضطرة الى اتيان ما اتت باغواء الرجل . وقد ذكر الدكتور بيلون ان احدي قبائل مصر القديمة سبت مئات من النساء لحمل في الطريق معها ٤٨٢ ولما وضعن كان عدد الذكور ٧٩ وعدد الاناث ٤٠٣ وذلك لما كن عليه من الضعف والاعياء مدة الحمل .

قال الكاتب ولو كان ثمت ميزان توزن فيه العناصر التي تتكون منها الصحة والنشاط في كل من الزوجين لتيسران يتنبأ المرء تنبوءًا صحيحًا فيما اذا كانت الام تلد ذكرًا ام انثى ولكن القوة والصحة وشدة الحب لا توزن بميزان ولا تقاس بمقياس . ثم ان العناصر التي تتركب منها تختلط وتتداخل على شكل ملتبس حتى ان ادق بحث في صحة الزوجين وعمرها ونوع معيشتها ووراثتهما لا يأتي الا بفرضيات وظنيات لا بحقائق ثابتة ولو عرف المرء حقيقة الاسباب التي بها يستطيع ان يعرف ما يولد له اما كان يخشى ان يقل البنات لان احدنا اذا بشر بها ظل وجهه مسودًا وهو كظيم .

مطبوعات ومخطوطات

تاريخ الامم والملوك

اشتهر هذا التاريخ بانه من اعظم الامهات الصحيحة التي يرجع اليها في دراسة تاريخ الاسلام في القرون الثلاثة الاولى وهو من تأليف ابي جعفر محمد بن جرير الطبري وقد طبع للمرة الاولى في ليدن طبعه المستشرق كوي واعاد طبعه هذه الآونة بالمطبعة الحسينية المصرية محمد افندي عبد اللطيف الخطيب وشركاؤه فجاء متقن الطبع مشكولاً محال الاشكال منه وألحق به كتاب صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين تصنيف ابي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري فتم التاريخ الاصلي في ١١ جزءاً والذيل في جزئين وهو يطلب من طابعه بمئة واربعين قرشاً صحيحاً فنحث اهل العلم والادب على اقتنائه فانه اصبح الآن قريب المنال على كل مطالع لرخص ثمنه بالنسبة لطبعة اوربا . اما وصف الكتاب وفوائده والكلام على مؤلفه فسنعقد له هنا فصلاً ضافياً بحول الله . وهنا نثني الثناء الطيب على الطابع ونرجو ان يوفق لطبع امثاله من امهات كتب العرب فينتفع وينفع .

التصحيف والتحريف

هو من الكتب المنسوبة لابي احمد الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكري شرح فيه الالفاظ والاسماء المشكلة التي تتشابه في صورة الخط فيقع فيها التصحيف ويدخلها التحريف مما يعرض في الفاظ اللغة والشعر وفي اسماء الشعراء وايام العرب واسماء فرسانها ووقائعها واماكنها وما يعرض في علم الانساب وغيرها من الاشكال فيصحفها عامة الناس ويغلط فيها بعض الخاصة وقد جعله ابواباً فمنها ما جاء في قبح التصحيف وبشاعته وذم المصحفين ونكد التصحيف ومن ابتلي به ونوادر من التصحيف وما روي من اوهام علماء البصرة ومن اوهام علماء الكوفة وما روي من تصحيفات شتى فجاء في احد واربعين باباً تجمع الى الفائدة العلمية اللذة الفكاهية والادبية . طبعته مطبعة الظاهر طبعاً متقناً وجعلته في ثلاثة اجزاء نجز منها الجزآن الاولان الى الآن . ونعما تفعل ادارة مطبعة الظاهر في احياء الكتب العربية النفيسة فمن اعظم الايادي التي يسديها امرؤ لامته احياء ما كاد يندثر من آثارها ومفاخرها وقيمة اشتراك الكتاب قبل الطبع ١٥ قرشاً وبعد الطبع ٢٠ قرشاً فنتقدم الى كل متأدب في اقتنائه .

سر تقدم الانكليز السكسونيين

اعاد خليل بك صادق صاحب مجلة مسامرات الشعب طبع هذا الكتاب النفيس لمؤلفه ادمون ديمولان من علماء التربية في فرنسا ومترجمه احمد فتحي باشا زغلول من علماء الحقوق بمصر فتأنق ما شاء وشاءت الاجادة في طبعه وتخير له اجود الورق والحروف فجاء بديعاً شكلاً ووضعاً وتعريباً واصلاً . وهذا الكتاب من احسن ما أُخرج للغة العربية من اللغات الاوربية وما قرأه رجل بامعان الا وتغير فكره في الحياة واصلح من اخلاقه وعاداته ما يقدر عليه وفيه من وصف الانكليز والاميركان والالمان في اخلاقهم ومناحيهم ما هو حريٌّ بان يدرسه كل شرقي المرة بعد المرة . وقد قدم له معربه مقدمة من ابدع ما كتب في حالتنا جاءت والكتاب في النفع سواء فنثني على المعرب والطابع بما هما اهله والكتاب يطلب من مكتبة مسامرات الشعب في باب الخلق بمصر بعشرين قرشاً صحيحاً .

مباديء الاقتصاد السياسي

الف محمد افندي فهمي حسين هذا الكتاب المفيد—والذي نقل الى العربية من كتب هذا الفن قليل لا يفي بالحاجة — فتوسع في ابوابه مستنداً الى ما كتب باللغات الافرنجية في هذا الفن وقد كتبه بعبارة سهلة واسلوب قربه من الاذهان على من لم يسبق لهم ان قرؤا فيه كتاباً . ودرس كتب الاقتصاد لاهل هذه البلاد انفع من القاء الف خطبة سياسية خيالية وتلاوة الف رواية غرامية وهو يطلب من مكاتب القاهرة الشهيرة ومن نادي المدارس العليا بعشرة قروش صحيحة فنحث الادباء على اقتنائه والاستفاده منه ونثني على غيرة مؤلفه الاديب ونرجو له التوفيق الى اتمامه

عقود الجوهر

في ترجمة من لهم خمسون تصنيفاً فمائة فاكثر

وضع هذا الكتاب جميل بك العظم من افاضل ادباء دمشق وموضوعه كما يدل عليه اسمه جليل نافع يبعث الهمة في صدور الناشئة و يطلعهم على ما قضاه اسلافنا من العناء في النفع وفي هذا الجزء اربعون ترجمة لاربعين عظيماً من عظماء الاسلام واليونان والقدماء والمحدثين فمن القدماء الغزالي وابن تيمية والرازي وابن الجوزي وحنين بن اسحق و يعقوب الكندي وثابت بن قرة والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن الهيثم وابن الخطيب والزمخشري والمعري ومن المحدثين السيوطي وابن كمال باشا وابن طولون والمناوي ومنلا علي القاري ونوح افندي واحمد مدحت افندي والعيدروس . فيترجم المؤلف ترجمة موجزة ثم يسوق كتبه

على حروف المعجم ليسهل الاهتداء اليها في الحال . ويشتمل الجزء الثاني وهو الآن تحت الطبع على فهرس عام في الكتب والرسائل التي ذكرت اسماؤها في الكتاب وما يوجد منها في خزائن الكتب العمومية مما لم يطبع . وهي همة للمؤلف تدل على فضله وغيرته . وقيمة الاشتراك بالجزئين معًا ربال وربع ريال مجيدي يضاف اليها اجرة البريد وقد طبع في المطبعة الاهلية ببيروت طبعًا متقنًا نظيفًا كسائر مطبوعاتها وهذا الجزء في ٣٤٠ صفحة صغيرة فنحث المتأدبين على اقتنائه

الاسلام روح المدنية

كتاب في ٢٨٨ صفحة صغيرة الفه الشيخ مصطفى الغلاييني من افاضل ادباء بيروت ردًا على ما جاء في كتاب « مصر الحديثة » تأليف لورد كرومر معتمد انكلترا في مصر سابقًا من الحمل على مدنية الاسلام اورد فيه اقوال الغربيين انفسهم واتى من الشواهد والحجج الكثيرة ما يناقض ما ذهب اليه مؤلف « مصر الحديثة » ولو عرف لورد كرومر اللغة العربية ودرس تاريخ الاسلام درس المجرد عن النزعات السياسية والاهواء الاستعمارية لما كتب ما كتب ولو اعطي وادبًا من ذهب . قال الفاضل البيروتي : « واني اعتقد اعتقادًا جازمًا ان جميع الاديان تأمر بالخير والسلام وهي وان اختلفت في بعض الاعراض فهي متفقة في الجواهر اذ الغاية منها تهذيب النفس ورفعها من وهاد الشرور والفساد فمن يسعى بهدم اركان الاديان هو كمن يسعى لتقويض العمران لان في المدنية الحديثة من المفاسد ما لا يحصى ولولا سلطان الاديان القاهر لأبيحت الاعراض والدماء والاموال وفي ذلك من الخراب والدمار ما لا يصلحه الدرهم والدينار فبقاء الانسان في جهل بعلوم الدنيا مع التمسك باي دين خير من حياته عالمًا طبيعيًا مهندسًا الخ وهو لا دين له » وقد غلبت الحدة على صاحب الرد فظهرت آثارها على اسلة قلمه احيانًا وكنا نود ان تحذف من كتابه بعض الفاظ ليكون ادعى الى القبول وانا نثني على غيرته وفضله ويطلب كتابه من المكاتب الشهيرة بالقاهرة بخمسة قروش .

ابو العلاء المعري

كراسة في ٧٢ صفحة باللغة التركية التاتارية فيها ترجمة مستوفاة لابي العلاء المعري من قلم رضاء الدين افندي بن فخر الدين من علماء اورنبورغ في روسيا وقد تصفحناه فرأيناه قد نسق كلامه على هذا العظيم ورتبه ترتيبًا مقبولاً صوّره للقارىء احسن تصوير . وتطلب من طابعها صاحب مكتبة الشرق في اورنبورغ

اللزوميات

اختار موسى افندي بيكييف من افاضل قازان ابياتاً كثيرة من لزوميات ابي العلاء المعري ونقلها الى التركية كما فعل امين افندي الريحاني فاختار ابياتاً منه ونقلها شعراً الى اللغة الانكليزية . فجاءت في زهاء مائتي صفحة مطبوعة طبعاً متقناً على نفقة مكتبة الشرق في اورنبورغ وترجمة امثال هذه الكتب يساعد ابناء تلك البلاد على تعلم العربية فعسى ان يكثر القائمون بنهضة اهلها من نقل بعض الكتب العربية المفيدة الى لغتهم و ينشروها مع اصلها كما فعل مترجم اللزوميات .

ليالي سطيح

نشر حافظ افندي ابراهيم الشاعر الاجتماعي الكبير قصة نثرية رواها عن لسان سطيح الكاهن فجاء فيه كلام لطيف على العادات المصرية والاحوال الاجتماعية والسياسية في مصر والسودان صورها تصويراً بديعاً واودعها من افكاره ودرر نثاره ما رآه نافعاً وثميناً ومما ننتقده عليه اعتماده على التسجيع في بعض محال من كتابه بحيث كاد يخل باسلوب البلاغة والفصاحة ولم يناسب العبارات المهذبة التي جاءت في عرضه . اما مرامي الكتاب فكانت اعم نفعاً لو خلت من الغلو في مدح اشخاص والايغال في الحط من آخرين وكتاب يكتب لينفع الناس في اجتماعهم لا يصح ان يظهر فيه شيء من هذا القبيل . وانتقدنا عليه من الالفاظ ما يقع مثله لا كثر كتابنا وشعرائنا مثل قوله « التنكيت » وهو لم يرد في اللغة . وقوله « كنتم منذ بضع سنين لا تجاوزون ستة آلاف عداً » وعداً هذه ليست من التراكيب الفصيحة وقد وقعت في كلامه اربع مرات وهي من عبارات الجرائد واستعمل لفظة « منتزه » و « الضمائر » و « القواميس » و « التكتيك » Tactique و « الظروف » و « النقط » و « حصل بها » و « جهاراً نهاراً » و « ضحى مصلحة امة » و « صوالح القوم وصوالحنا » والصواب ان يقول « متنزه » و « القلوب » و « المعاجم » و « علم التعبية والمصافات » و « الاحوال » وكان يمكن الاستعاضة عن « النقط » في قوله نقط تنفيذ الحكم بتركيب آخر ومثلها حصل بها وجهاراً نهاراً . وله ان يقول بدل ضحى فادى بمصلحة امة ومصالح القوم بدل صوالحهم . وهذه الخرزات لا تقدح في فضل هذا العقد النفيس . فالنقد لا يوجه الا الى الثمين والركاكة لا تعاب الا في كلام اهل البيان والتبيين .

النظرات

اصدر مصطفى صادق افندي الرافعي الشاعر الشهير الجزء الاول من ديوان جديد له

سماه « النظرات » اودعه مثالاً مما وعاه ديوانه المعروف بديوان الرافعي الذي كان صدره في ثلاثة اجزاء — من ضروب الشعر في الاجتماع والرقائق والمديح والغزل والوصف وقدم له مقدمة في حقيقة الشعر لم يكرر فيهاما اودعه من معناها كل جزء من اجزاء ديوانه السابق . ومعظم قراء المقتبس يعرفون طبقة شعر الرافعي مما نشر له فيه . ومما انتقدناه عليه تسرعه في اخراج الشعر للناس حتى ان بعض اياته يظهر فيها شيء من الغموض لا يكاد يهتدي اليه القارىء الا باعمال النظر كما انا لانستحسن اكثاره من الاستعارات والمجازات على طريقة اكثر الشعراء المحدثين وكتابهم على حين نراها قليلة في شعراء الصدر الاول وكتابه وان جاءت فانما تجيء عرضاً اعتبر ذلك بكلام ابن المقفع والجاحظ وابي تمام والمتنبي وغيرهم . ومن الاستعارات البعيدة قوله « اشبه شيء بالنور الذي يتألق فيه ماء الصورة » وماء الصورة اشبه « بماء الملام » التي انتقدها البيانيون على ابي تمام ومثلها « اجنحة الخواطر » وقوله « فما احسن الوجه وهو روضة مصورة وزجاجة منورة وشهادة عي الله مزورة » وبنتقد عليه من الالفاظ الوحشية لفظ « مخشب » اي غير منقح ومرسل . واختيار لفظ واحد لمعنى واحد لا يحرص عليه في كل اللغات الا في اسماء الفنون والصناعات ونحوها فلا يصح مثلا ان نقول « هات الاداة التي يكتب بها » بل نقول هات القلم . ومخشب مثل نخشلب التي وردت في شعر المتنبي وسواء في الثقل والوحشية . ومثله قوله « رجع بمقصر مما كان يحاول » ولنا عن « مقصر » هذه مندوحة في الاستعمال وكذلك تأنيثه البلد وهو مذكر . وجمعه عادة على عوائد والصواب عادات وعاد وقوله ينطقونها والصواب ينطقون بها و « تورىق الشجر » والصواب « ايراق الشجر » و « الروضة الشجية » بمعنى مطربة والشجي المحزن والجرائد تغلط في قولها « وكانت الموسيقى تطرب الاسماع بالحانها الشجية » والاولى ان يقال المطربة او ما اليها . وفي الديوان من جيد المنظوم ما يجدر بالادباء الاخذ منه والنظر فيه خصوصاً والرافعي من الشعراء الذين نفاخر بهم العربية .

المسأله الاجتماعية والمدرسية في سورية

Autour de la question sociale et scolaire en Syrie ,par M. K. T. Khaïrallah

كتب خيرالله افندي خيرالله من اساتذة بيروت هذا الكتاب باللغة الافرنسية وصف فيه الحالة الاجتماعية وطرق التدريس في سورية قال فيه واذ كانت الضرورة تقضي بان نخرج في مدارسنا سوريين لا افرنسيين ولا انكليزاً ولا اميركانيين قضي علينا ان نخرج من النساء كذلك والا كانت البيوت جحيماً لا نعيماً . والمدرسة الحسنة التنظيم هي المجتمع المنظم بعينه فاذا لم يكن للمدرسة نظام نافع يجب علينا ان نعمل يداً واحدة على تقويضها

من اساسها فخير لنا ان نكون بلا مدارس جملة واحدة من ان تخرج مدارسنا من لا نريدهم من الرجال والنساء · سعت مدارسنا فقد فينا دائرة التعليم ولم تنفحنا مثل ذلك من التهذيب على ان ذاك التعليم نفسه سطحي غير موافق لحاجاتنا

واجمل الكلام على المعلمين في المدارس والدروس وقال ان المجتمع غير عادل في معاملة المدرسين وكان عليه ان يعطيهم من الاجرا كثر مما يعطيهم و يرفع مقامهم اكثر مما رفعهم · كما تكلم على ادارة المدارس وترتيباتها واصولها الصحيحة وقال ان الواجب ان لا نستسلم للاجانب ونأخذ عنهم قضية مسلمة كل ما يدّعون انه لازم لقوام حياتنا العملية واننا يجب ان نضع نظام دروسنا بايدينا والا فان الدروس التي نتلقاها في المدارس لا تخرج رجالا تامة ادواتهم بل كثيرًا ما تضطرهم الى الهجرة ولا يكون منهم خير لبلادهم ·

ومن رأيه ان يعقد مؤتمر وطني او عام للنظر في اصلاح التعليم حتى لا يسوغ لكل قادم علينا بحجة تعليمنا ان يعبث بعقول فتياننا على هواه ليجعلهم على مثاله و يقتل في عقولهم الحمية والشجاعة والشعور والوطنية وعزة النفس لتأتي منهم رؤوس فارغة من التعليم والاحساس مملوءة بالعجب والاعجاب و يجب ان يقرن تعلم اللغة العربية بلغة اجنبية على ان لا يعلم من من لغة البلاد الا ما يتمكن معه التلميذ من الكتابة فيها بسهولة على نحو ما يكتب بالافرنجية وان يعلم الاخلاق باصولها على طريقة موجزة متينة تكون الوطنية شعارها حتى اذا خرج التلميذ من المدرسة يكون عارفًا بحقوقه و واجباته وتاريخ بلاده مجسماً وله فكر اجمالي في التاريخ العام منتقناً جغرافية بلاده مع اجمال عن الجغرافية العموميه و بعض مبادي العلوم لئلا تستولي عليه الخرفات

ورأى ان تعلم العربية بدراسة كتب المتأخرين لان انشاءهم وشعرهم احسن مما كتبه المتقدمون من العرب · وهذا رأي لا يوافقه عليه احد من اهل العلم لما عرف من ان المتأخرين هم سبب فساد اللغة والرجوع بالمتعلمين الى كتبهم رجوع باللغة القهقرى وعنده ان يعتنى باللغة العامية السورية و يقابل بينها و بين اللغة الفصحى لان في العامية اشياء لا ينبغي الزهد فيها وان الواجب تدريس العلوم باللغة العربية لتقوى ملكتها في المتعلمين · وتكلم على ما ينبغي للسوري ان يتعلمه من اللغات فجعل المقام الاول للافرنسية ثم للانكليزية فالالمانية فالايطالية ·

واجاد الكلام على التربية وتلقين العادات النافعة وختم كتابه بقوله ان مجتمعنا متألم مما صارت اليه حاله وحاجته ماسة الى الشفاء مما اصابه والدواء هو الاصلاح واحسن اداة له اصلاح المدرسة · وقد تجلى لنا من تصفح الكتاب ان مؤلفه ذو خبرة بامور المدارس ومواد التدريس وحالة المدرسين فنشكر له حسن ادبه في بيان افكاره وكنا نود ان يكتبه باللغة العربية ليستفيد منه من كتب لهم اولا و بالذات وعساه ينقله اليها قريباً ليعم نفعه لان موضوعه جديد مفيد

المقتبس

الجزء العاشر من المجلد الثالث

شوال سنة ١٣٢٦ موافق نوفمبر (تشرين ثاني)سنة١٩٠٨

الطالع السعيد

من المخطوطات النفيسة التي كادت تعبث بها يد الضياع كتاب الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلي الصعيد لكمال الدين ابي الفضل جعفر بن ثعلب الادفوي المولود في نصف شهر شعبان سنة ٦٨٥ والمتوفى في سابع عشر شهر صفر سنة ٧٤٨ الفه باشارة من شيخه اثير الدين ابي حيان النحوي الاندلسي وقصره على تراجم النابغين من اقليم قوص وما يتبعه من البلدان والقرى وهو اول ما أُلف من نوعه خاصاً باهل الصعيد . ولم يكن بمصر من نسخ هذا الكتاب غير ثنتين بدار الكتب الخديوية كلتاهما ناقصة وما زلت في شوق اليه وبحث عنه حتى ظفرت بنسخة منه كاملة كتبت سنة ٨٨٠ برسم الفقيه مجد الدين ابي عبدالله بن شرف الدين حمزة الخطيب الواعظ وهي كغالب المخطوطات لا تخلو من التحريف والتصحيف خصوصاً في مواضع اهمل الناسخ اعجامها فلا تتيسر قراءتها الا بضرب من العنت وتدقيق النظر .

افتتح المصنف كتابه بمقدمة تشتمل على مسافة هذا الاقليم وتفصيل ما اختص به من المزايا فذكر ان مسافته تبلغ في الطول اثني عشر يوماً بسير الجمال السير المعتاد وتبلغ في العرض ثلاث ساعات واكثر او اقل تبعاً للاماكن العامرة وانه ينقسم الى كورتين يفصل بينهما النيل فالشرقية منهما تتصل شرقاً بالبحر الملح (هو بحر القلزم المسمى الآن بالبحر الاحمر) واولها من الشمال ارض افنو وآخرها من الجنوب ابهر الشرقية بضم الهمزة وسكون الباء الموحدة وضم الهاء ومن مدنها الشهيرة قنا وقفط وقوص وهي قاعدة الاقليم في عصره وكان

بها اربعون مسبكاً للسكر وست معاصر للقصب وبها قباب باعالي دورها قيل ان من ملك عشرة آلاف دينار يجعل له قبة في داره وانها تكاتبه ستة ملوك . ومنها الاقصر واسوان قال واهلها يوصفون بالمحك في المعاملة وشدة المخاصمة وفيها يقول دعبل بن علي الخزاعي وكان اقام بها والياً كما نقل اهل التواريخ .

وان امرأ امست مساقط رأسه باسوان لم يترك له الحزم معلما
حللت محلاً يقصر الطرف دونه ويعجز عنه الطيف ان يتجسما

ولهم لغة يجعلون الطاء تاء فيقولون التريق في الطريق والتاق في الطاق ويبدلون الفاء بالباء والباء بالفاء فيقولون ضربته في هذا يعنون بهذا اه . والكورة الغربية اولها شمالاً برديس وآخرها جنوباً ابهر الغربية ومن مدنها ادفو بلد المصنف وعشه الذي درج منه . ثم افاض في محاسن هذا الاقليم من عذوبة ماء وطيب هواء ووفرة غلة وكثرة فاكهة قال واظن مساحة ارض بساتينه ونخله تقارب عشرين الف فدان ونقل غرائب في حمل اشجاره قد يعد بعضها من المبالغة والغلو ولاغرو فكل فتاة بابيها معجبة . وذكر من معادنه معدن البرام بالقرب من قنا ومعدن الزمرد وحجر البازهر والنفط والنطرون والرخام ومن معاهد العلم ست عشرة مدرسة بقوص وثلاثا باسوان واثنتين باسنا وواحدة بالاقصر واخرى بارمنت واثنتين بقنا وواحدة بهو واخرى بقمولا .

اما ترتيب الكتاب فعلى حروف المعجم ابتدأه بابراهيم وختمه بيونس وذيله بباب في الكنى ذكر به من كنيته اسمه وغالب تراجمه مختصرة يقتصر فيها على المولد والوفاة وشيء من اخبار المترجم وروايته ان كان من المحدثين . على انه خالف ذلك في البعض فاطال فيهم كالنويري صاحب نهاية الارب والرشيد بن الزبير واخيه المهذب الشاعر والتاج بن المفضل وعبدالرحمن النخعي وذكر من سعة تبحره في الفقه ان الفتوى كانت ترفع اليه ورجله في الركاب فيكتب عليها بدون توقف وابن الحاجب مؤلف الكافية وقيصر المعروف بتعاسيف العالم الرياضي الذي عمل لسلطان حماة كرة عظيمة صوّر فيها الكواكب المرصودة وصنع له طاحوناً على العاصي وبنى له ابراجاً وتحيل فيها بحيل هندسية ومجد الدين بن دقيق العيد وابنه تقي الدين الامام المشهور وترجمته اطول ترجمة في الكتاب والقفطي صاحب التاريخ وغيرهم ممن استحقت اعمالهم اطالة الكلام فيهم . ولم يهمل النساء فذكر منهن من اشتهرن بالعلم والفضل كتاج النساء ابنة عيسى القوصية واختها مظفرية وخديجة بنت علي بن وهب ورقية بنت محمد بن علي بن وهب وكلهن من أسرة بني دقيق العيد .

واعجبني منه التزامه الصدق وميله مع الحق فيما كتب فترجم كل انسان بما له وعليه

حتى تقي الدين بن دقيق العيد لم يمنعه ذكره لمناقبه وحسناته وشهادته له ببلوغ رتبة الاجتهاد من ان يقول فيه « لكنه تولى القضاء في آخر عمره وذاق من حلوه ومرّه وحط ذلك عند اهل المعارف والاقدار من قدره وحسن الظن ببعض الناس فدخل عليه الباس وحصل له من الملامة نصيب والمجتهد يخطئ ويصيب ولو حيل بينه وبين القضاء لكان عند الناس احمد عصره ومالك دهره الخ » وترجم عبدالقادر بن المهذب وهو ابن عمه فوصفه بالذكاء النادر وسعة الاطلاع الا انه انحى عليه لسوء عقيدته وقال في آخر ترجمته « ومرض فلم أَصِلْ اليه ومات فلم أُصلِّ عليه » .

وفي الكتاب رسائل وخطب وقصائد ومقطعات لا تخرج عن الاسلوب المألوف لاهل ذلك العصر منها وصية لجلال الدين الدشناني كتبها لابنه تاج الدين يقول فيها

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من امرنا رشدا . يابني ارشدك الله وايدك اوصيك بوصايا ان انت حفظتها وحافظت عليها رجوت لك السعادة في دينك ومعاشك بفضل الله ورحمته ان شاء الله تعالى ولا قوة الا بالله . أولاها وأَوْلاها مراعاة تقوى الله تعالى تحفظ جوارحك كلها من معاصي الله عز وجل حياءً من الله والقيام باوامر الله عبودية لله . ثانيتها لا تستقر على جهل ما تحتاج الى علمه وثالثتها ان لا تعاشر الا من تحتاج اليه في مصلحة دينك ومعاشك . ورابعتها ان تنصف من نفسك ولا تنتصف لها الا لضرورة وخامستها ان لا تعادي مسلماً ولا ذمياً وسادستها ان تقنع من الله بما رزقك من جاه ومال وسابعتها ان تحسن التدبير فيما في يدك استغناء به عن الخلق وثامنتها ان لا تستهين بمِنن الرجال عليك وتاسعتها ان تقمع نفسك عن الخوض في الفضول بترك استعلام ما لم تعلم والاعراض عما قد علمت وعاشرتها ان تلقى الناس مبتدئاً بالسلام محسناً في الكلام منطلق الوجه متواضعاً باعتدال مساعداً بما تجد اليه السبيل متحبباً الى اهل الخير مداريًا لاهل الشر متبعاً في ذلك السنة الهم أهله لامتثالها » .

وغالب ما ورد فيه من المنظوم اشبه بشعر العلماء منه بشعر الشعراء على انه لا يخلو مما يستجاد كقول الامير مجير الدين بن تميم المطي .

اعيذك اني بين اهلي وجيرتي   وحيد لديهم عادم ودّ مشفق
اقلب طرفي لا ارى لي مؤنسا   لعمرك فيهم غير طرس منمق
يحدثني عن حسن احوال من مضى   ويخبرني عن قبح احوال من بقي

وقول تقي الدين بن دقيق العيد

تمنيت ان الشيب عاجل لمتي   وقرّب مني في صباي مزاره

لآخذ من عصر الشباب نشاطه ... وآخذ من عصر المشيب وقاره

وقول فتح الدين القنائي

بعادك علم الطرف السهادا ... ونفر عنه في الليل الرقادا
وبات بليل ارمد ليس يرجو ... لليل بات يسهره نفادا
كأن الليل فارقه حبيب ... فلم ينزع لفرقته الحدادا
فما للدهر لا ينفك يهوى ... مخالفة الذي اهوى عنادا
يباعد من اريد له دنوًا ... ويدني من اريد له بعادا
كأن عليه ميثاقًا ووفى ... به ان لا يبلغني المرادا

ومن طريف ما رواه ان ناظم هذه الابيات ادّعى انه كان ينظم القصيدة ويجعلها في ديوان ابي تمام ثم يعرضه على الناس فلا يميزون بين الشعرين فقال له احد الادباء انت لا تمدح شعرك وانما تذم الناس · وقول انجب الدين الاسنائي

الحاظكم تجرحنا في الحشا ... ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا ... فما الذي اوجب جرح الصدود

هكذا نسبهما لانجب الدين نقلاً عن العماد في الخريدة · قلت وقد وهم الشيخان فالبيتان لولادة بنت المستكفي لا يكاد يختلف في ذلك اثنان وقد وقفت على اوهام من هذا القبيل فرطت من بعض الائمة فنسبوا اشياء لغير قائليها اما لاشتباه في الاسماء او لسهو عرض وجلّ من لا يسهو وربما افردت نبذة لذكرها ان شاء الله ·

ومن غريب ما رأيته فيه من المنظوم نوع من الزجل تكرر ذكره سماه المصنف (بليقة) وجمعها على بلاليق مما يدل على ان اللام في المفرد مشددة ولا ادري أكانت البليقة تطلق عندهم على كل ما نسميه اليوم زجلاً او هي خاصة بنوع منه فمنها قول هبة الله الادفوي وقد سئم من قراءة الفصول لابن معط في النحو

ياقوم واش هذا الفضول ... نقرا الفصول
الملحة نقرا يافلان ... او مختصر شيت والبيان ... هذا يجنن بالضمان
لسائر ارباب العقول
من قوله معديكرب ... القلب اضحى منكرب ... وبيت عقلي قد خرب
وشرح حالي فيه يطول
من صحروات مع حبليات ... ومد وشد مع حات بات ... من الذي عنده ثبات
يفهم مفاعيل مع فعول

ومنها مطلع بليقة لبعضهم في هجو قاض

قاضي القضاة اعزل نفسه   لما ظهر للناس نحسه

ولا يستقيم الوزن الا باسكان اواخر الكلم كما تنطق العامة · ومما استفدته من هذا الكتاب عثوري فيه على كلمات عامية مستعملة الى الآن بمصر ادمجها المصنف في عبارته مما يدل على انها اقدم في الاستعمال من عصره حتى صارت من المألوف عندهم والا لما جرى بها قلم مثل هذا الامام في مثل هذا التأليف · و بالجملة فمحاسن الكتاب كثيرة وفوائده غزيرة فلعل احد المشتغلين بالطبع من الوراقين يتنبه له فيطبعه ليعم نفعه ·

القاهرة   احمد تيمور

جالينوس العرب

أو

ابو بكر الرازي

الا لفتة منا الى الزمن الخالي   فنغبط من اسلافنا كل مفضال
تلونا اناساً في الزمان تقدموا   وكم عبرة فيمن تقدم للتالي
الا فاذكروا ياقوم اربع مجدكم   فقد درست الا بقية اطلال
تطالبتمو صفو الحياة وانتمو   بجهل وهل تصفو الحياة لجهال
وما انتمو الا كسكران طافح   تحسى من الصهباء عشرة ارطال
مشى بارتعاش في الطريق فتارةً   يقوم واخرى ينهوي فوق اوحال
يمد الى الجدران كف استناده   فتقذفه الجدران قذفة اذلال
ويفتح للطراق مقلة حانق   فيغمضها خزيان عن شتم عذال

***

رمى الدهر قومي بالخمول فلمتهم   واوسعتهم عذلاً فلم يجد تعذالي
فهاج البكا يأسي فلما بكيتهم   بدمعي حتى بل دمعي سربالي
نظرت الى الماضي وفي العين حمرة   كأن على آماقها نضح جريال
فشمت بروق الاولين منيرةً   على افق من ذلك الزمن الخالي

« تنوّرتها من أذرعات واهلها بيثرب ادنى دارها نظر عال »
وقلبت طرفي في سماء رجالها وهم فوق عرش للجلالة محلال
فآنست آثارا وهم سلك درها وابصرت أعمالاً وهم جيدها الحالي
ولما طويت الدهر بيني وبينهم على بعد ازمان هناك واجيال
قعدت باوساط القرون فجاءني « ابو بكر الرازي » فقمت لاجلال
فتى عاش اعمالاً جساماً وانما تقدر اعمار الرجال باعمال
حكيمٌ رياضيٌ طبيبٌ منجمٌ اديب وفي الكيمياء حلال اشكال
اتى فيلسوفاً للنفوس مهذباً بافضل افعال واحسن اقوال
لقد طبب الارواح من داء جهلها كما طبب الاجسام من كل اعلال

مولده

تولد عام الاربعين الذي انقضى لثالث قرن ذي مآثر ازوال
الى زكريا ينتمي انه له اب تاجر في الري صاحب اموال
على حين كانت بلدة الري غادةً الى العلم يعطو جيدها غير معطال
مدارس بالشبان تزهو ودونها كتاتيب للتعليم تزهو باطفال
بها جل درس القوم طب وحكمة وفلسفة فيها لهم اي ابغال
وكانت نفيسات الصنائع عندهم يحاولها ذو الفقر منهم وذو المال
وما كان هذا الحال في الري وحدها بل الحال في البلدان طراً كذا الحال
فان هدى الاسلام انهى فتوحه واوصلها للحد احسن ايصال
وأُبدل ابطال الحروب من الورى بابطال علم للجهالة قتال
فدارت رحى تلك العلوم وقطبها ببغداد مركوز بربوة اجلال
وكانت يد المأمون في ذاك انجلت لسان العلى في شكره اي انجال

منشؤه

تدرج في تلك المدارس ناشئاً مترجماً يسعى بجد واقبال
تعلم فن الصوت بادئ بدئه ومارس تفصيلاً به بعد اجمال
فكانت بموسيقى اللحون دروسه تغني باهزاج وتشدو بارمال
وقد جاوز العشرين سناً ولم يكن لشيء سوى فن الغناء بميال
فرام ابوه منه تحويل عزمه بجذب الى شغل التجار وادخال

فقال له دعني مع العلم انني … اذا ماامتُّ الجهل احييت آمالي
وهل يستطيع المرء شغلاً اذا غدا … له شاغل بالعلم عن كل اشغال
هناك استقى الرازي من العلم شربة … فجاد باعلال له بعد انهال
سعى سعيه نحو التعلم بادئًا … بعلم لدى اهل التفلسف ذي بال
وقد كان مفتاح العلوم تفلسف … تفك به من جهلهم كل اغلال
فزاول انواع العلوم تنقلاً … بابين اوضاح لها غير اغفال
نضاهمة في العلم مشحوذة الشبا … جلت ما الحرب الجهل من ليل قسطال
وقد اكمل الطب المفيد قراءة … على الطبري الحبر احسن اكمال

سياحته

ومذ جاوز الرازي الثلاثين واغتدى … مدلاً على اقرانه اي ادلال
رأى من تمام العلم للمرء انه … يسيح بضرب في البلاد وتجوال
ما العلم الا بالسياحة انها … لمن علموا في علمهم درس اعمال
فقام وشد الرحل والغرز وامتطى … لقطع الفيافي متن هوجاء شملال
فجاء بلاد الشام توًّا وجازها … الى مصر في وخد حثيث وارقال
وخاض عباب البحر للغرب قاصدًا … مواطن للاسلام لم يسلها السالي
ففيها اجتلاه العز مذ لاح طالعًا … لها كهلال يجتلى عند اهلال
وحل حلول البدر في السعد نائلاً … بقرطبة آماله ناعم البال
وهب هبوب الريح ثمة ذكره … يطير على صيت من العلم جوال
وودعها من بعد ذاك راجعًا … الى مصر لا توديع مستكره قال
ومنها الى بغداد سافر قاطعًا … اليها الفلا ما بين حل وترحال
فالقى عصا التسيار من عرصاتها … بمغرس عرفان ومنبت افضال
وبغداد كانت وهي اذ ذاك جنة … بها العلم اجرى منه انهار سلسال
كأن رجال العلم في غرفاتها … بلابل تشدو غدوة بين ادغال
فكم محفل للكتب فيه خزانة … وكم مرصد دان وكم مرقب عال
ولما غدا الرازي ببغداد باسطًا … من العلم ابواعًا له ذات اطوال
أقيم لمارستانها عن كفاءة … رئيسًا بتطبيب وتدبير احوال
فرتب مرضاه واصلح شأنه … بما كان لم يخطر لسابق اجيال
وظل به يسعى طبيبًا ممرضًا … ويبذل جهدًا لم يكن فيه بالآل

وباقي السريريات وهي مسائل لدى سرر المرضى تقرر في الحال
فقد كان يلقيها على القوم ناطقاً باوضح تبيان واحسن املال

مآثره العلمية

لقد اشغل الرازي ببغداد شغله عدا الطب في الكيمياء اعظم اشغال
فقضى بها ايامه في تجارب وواصل ابكاراً لهن بآصال
فلقب فيها بالمجرَّب حرمةً تفرد مخصوصاً بها بين امثال
واصبح مشهوراً باسنى مآثر من العلم لم يُسبق اليها واعمال
فان ابا بكر لاول مفصحٍ الى الناس بالدرس السريري مقوال
واول من ابدى لهم كيف يبتني ويفرش مارستانهم قصد ابلال
وألف في المستشفيات مؤلفاً تقصى به في وصفها دون إغفال
ولا تنس للرازي الكحول فانه يجدد طول الدهر ذكراه في البال
ومن عمل الرازي انعقادٌ لسكر وما كان في محصوله غير سيال

أخلاقه

ارى العلم كالمرآة يصدأ وجهه وليس سوى حسن الخلائق من جال
اخو العلم لا يغلو على سوء خلقه وذو الجهل ان اخلاقه حسنت غال
ولو وازن العلم الجبال ولم يكن له حسن خلق لم يزن وزن مثقال
وان المساوي وهي في خلق عالم لاقبح منها وهي في خلق جهال
ولكنما الرازي قد ازدان علمه باحسن اخلاق واشرف افعال
خلائق غرّ ان اردت بيانها بدأت بحرف الحاء والميم والدال
فتى كان مملوء الجوانح رحمة بكل هزيل الجسم من سقم اقلال
يزور بيوت البائسين بنفسه ويفتقد المرضى بفحص وتسآل
ويأتيهم بالمال والعلم مسعداً لتطبيب اوجاع وتأمين اوجال
وما كان يقنو المال الا لبذله لتعليم علم او لاعطاء سؤال
وكان حليف الجد لم يأل جهده بدحض خصوم العلم من كل هزال
فكم راح مخذولاً به متطبب سعى كاذباً في طبه سعي اضلال
وكان سليماً في العقيدة قلبه بعيداً عن الالحاد ليس بختال
وخل تفاصيل الاولى ينسبونه لزيغ فقد اغناك عنهن اجمالي

عوده الى الري

ولما قضى الرازي ببغداد برهة — مضى قافلاً للريّ شوقاً الى الآل
فلما اتى تلك البلاد غدا بها — طبيباً لدى المنصور صاحبها الوالي
والف للمنصور اذ ذاك باسمه — كتاباً حوى في الطب احسن اقوال
ولم تصفُ للرازي اواخر عمره — وعاد اخا همّ شديد وبلبال
فقد عميت عيناه من بعد واغتدى — يجول من الفقر الشديد باسمال
وان عداء الدهر شنشنة له — يصول بها قهراً على كل مفضال
ولما انتهى نحو الثمانين عمره — قضى نحبه من غير مال وانسال
ولكنه في الناس خلف بعده — من العلم آثاراً قليلة امثال
فكم كتب ابقى بها الذكر في الورى — والفها نسجاً على خير منوال
وما ضرّ من احيا له العلم بعده — على الدهر ذكراً انه ميت بال
واني وان اطنبت في بحر علمه — لمقتصرٌ منه على بعض اوشال
وها أنا أُنهي القول لا لتمامه — ولكن لعجزي عن نهوض باجبال
واجعل هذا الشعر مسكاً ختامه — بما قال في بيتين معناهما حال
« لعمري وما ادري وقد آذن البلى — بعاجل ترحال الى اين ترحالي »
« واين محل الروح بعد خروجها — من الهيكل المنحل والجسد البالي »

بغداد — معروف الرصافي

الحسبة في الاسلام

واربعة مخطوطات فيها

وصفنا في الجزء السالف المخطوط الاول الذي عثرنا عليه في فن الحسبة وها نحن اولاء نصف المخطوط الثاني قال في مقدمته :

نحمد الله الحسيب الرقيب على نواله ايمانا واحتسابًا والصلاة على رسوله محمد الحبيب النسيب وآله ما لا يحصى كتاباً ولا حساباً اما بعد فقد جمع عبده الغريق في بحر فضله الطامي عمر بن محمد بن عوض الشامي الهمه الله تقواه فيما يكتسب ويجعل له مخرجاً ويرزقه

من حيث لا يحتسب في تصنيف هذا الكتاب وهو نصاب الاحتساب مسائل اختصت بالنسبة الي منصب الحسبة من كتب معتبرة بين الفقهاء معول عليها عند العلماء بعد ماتحمل في جمعه نصباً وكمل في قيده نصباً وصرف الى تنقيحه وتصحيحه مدة مديدة وتكلف في ترتيبه وتهذيبه شدة شديدة ليكون للمبتلى آية يعرف بها فيما يحتاج اليه غاية وهو مرتب على ابواب الباب الاول في تفسير اللفظين المتداولين في هذا الكتاب احدهما الاحتساب والثاني الحسبة فالاحتساب لغة يطلق على معنيين احدهما من العد والحساب ذكر في المغرب احتسب بالشيء اعتد به وجعله في الحساب ومنه احتسب عند الله خيرًا اذا قدمه ومعناه اعتده فيما يدخر عند الله وعليه حديث ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه اني احتسب خطاي هذه اي اعتدها في سبيل الله وقول النبي عليه السلام من صام رمضان ايمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه اي صام وهو يؤمن بالله ورسوله و يعتقد صومه عند الله والثاني الانكار على الشيء ذكر في الصحاح احتسبت عليه كذا اذا انكرته عليه قاله ابن دريد والحسبة لمعنيين ايضًا احدهما بمعنى الحساب مصدر كالعقدة والركمة والثاني التدبر يقال فلان حسن الحسبة في الامر اي حسن التدبير له وفي الشرع هما الامر بالمعروف اذا ظهر تركه والنهي عن المنكر اذا ظهر فعله ذكره في كتاب احكام السلطان ووجه الاستعارة اما الاحتساب فلانه ان كان من الاحتساب بالمعنى الاول وهو يتعدى بالباء فهو يحتسب بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر عندالله اجرًا فكان من قبيل تخصيص العام وان كان من قبيل الانكار فهو من قبيل تسمية المسبب بالسبب لان الانكار على الغير سبب للامر بازالته وهو الاحتساب لان المعروف اذا ترك فالآمر بازالة تركه آمر بالمعروف والمنكر اذا فعل فالامر بازالته هو النهي عن المنكر .

واما الحسبة فلانه ان كان بمعنى الاحتساب فهو نظير الاول من الاحتساب وان كان بالمعنى الثاني فهو كذلك وان كان التدبير عاماً ولكنه اريد به تدبير خاص وهو تدبير اقامة الشرع فيما بين المسلمين وانما سمي به لانه احسن وجوه التدبير فصار كتسمية القود به ثم الحسبة في الشريعة عام يتناول كل مشروع يفعل لله تعالى كالاذان والاقامة واداء الشهادة الى كثرة تعدادها ولهذا قيل القضاء باب من ابواب الحسبة وقيل القضاء جزء من اجزاء الاحتساب وفي العرف اختص بامور احدها اراقة الخمور كلها والثاني كسر المعازف والثالث اصلاح الشوارع وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والثانية امر الاوحال والارداغ والثالثة امر الدكانجة (؟) على الباب والرابعة منع جلوس الباعة عليها والخامسة منع سوق الحمير والبقر للخشابين والآجريين ونحوهم والسادسة منع ربط الناس دوابهم

فيها والسابعة منع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع والثامنة منع شغل هواء الشارع بالجناح ويسمى برون داشت والتاسعة منع المبرز في الجدار بحيث يكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع والعاشرة منع الظلة والرابع من التقسيم الاول النظر بين الجيران في التصرفات المضرة كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملاك كغصب قطعة من الارض والخامس تقويم الموازين والسادس تفحص الصنجات والسابع تنقية دكان الطباخين والخبازين ونحوهم والثامن تفحص نظافة الفقاع ودكانه والتاسع منع اسبال الازار ونحوه على الكعبين والعاشر زجر الناس عن الغناء والنوحة والحادي عشر منع الرجال عن التشبه بالنساء ومنع النساء عن التشبه بالرجال والثاني عشر امر التنبوليين بطهارة مائهم وثيابهم وتنقية نورتهم عن الحصاة والثالث عشر احراق المعازف وكسرها يوم الاضحى في المصلى وغيرها والرابع عشر منع الناس عن تطيير الحمامات والخامس عشر منع البغايا وتعزيرهن ومنع اوليائهن ومواليهن وازواجهن والسادس عشر امر اهل الذمة بتطهير الاواني التي يبيعون فيها المائعات من الدهن واللبن والسابع عشر امر الغسالين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى وحفر القبور والحمل وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور في هذه المصلحة والثامن عشر تفحص الجامع يوم الجمعة والمصلى يوم العيدين واخلاؤهما عن البيع والشراء ومنع الفقراء عن التخطي ومنع القصاص عن القصص المفتراة ومنع النساء السائلات عن الدخول فيه ومنع الصبيان والمجانين فيه والتاسع عشر دفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور والعشرون النهي عن النجس (والامر بالتنظيف) والحادي والعشرون منع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحدث الرجال مع النساء في الشوارع والثاني والعشرون منع النقاشين والصباغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح وكبر الصور والثالث والعشرون منع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الاصنام والمعازف والصنج وبيع النبيذ والبختج والرابع والعشرون منع الطباخين والخبازين في اول نهار رمضان عن بيع الطعام على مثال غير رمضان والخامس والعشرون منع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة وخروج الناس الى زيارة بعض المتبركين او بعض المساجد على مشابهة الخروج الى الحج والسادس والعشرون منع النساء عن التبرج والتفرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور والسابع والعشرون منع الناس عن التصرفات في المقابر بلا ملاك والثامن والعشرون منع المطلسمة والسحار والكهان عن منكراتهم والتاسع والعشرون نهي اصحاب الحمام عن منكراتهم وامرهم بتطهير المياه واخلاء الحمام عن المرد ودخول العراة فيه ونهي الحجام عن حلق العانة واللحية وامرهم باتخاذ الحجاب بين الرجال والنساء الثلاثون منع اهل الذمة عن

الركوب بهيئة المسلمين ولباس الصالحين واتخاذهم معابدهم في بلاد المسلمين الحادي والثلثون منع المسلمين عن الدخول في معابدهم للتبرك والتماس الحوائج من نساكهم والثاني والثلثون منع الناس عن الترسم برسوم الكفار في ولادتهم ومرضهم وصحتهم وصحة صبيانهم وعماراتهم وزراعاتهم وركوبهم في البحر والثالث والثلثون منع الناس عن تعلم علم النجوم مما لا يحتاج اليه في الدين وتصديق الناس للكهنة والمنجمين الرابع والثلثون منع الناس عن بدعة ليلة البراءة والخامس والثلاثون منع اهل الذمة عن اظهار شعائرهم في مواسمهم في بلاد المسلمين والسادس والثلثون منع الناس اللعابين بالنرد والشطرنج وتفريق جمعهم واخذ بساطهم وتماثيلهم السابع والثلاثون منع القوابل عن اسقاط جنين الحوامل والثامن والثلثون منع الجراحين عن الجب والخصاء في الناس والتاسع والثلثون منع الحجامين عن مس الاجنبيات الا لضرورة لا بد منها وعن حجامة الحبالى في اوان مضرتها بالحجامة والاربعون منع الناس من الاقامة في المساجد ووضع الامتعة فيها والحادي والاربعون منع الذي مسه الشيطان باللمم عن التكلم بالغيب واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في اخباره بالغيب وهو كفر والمستحل له والمصدق به مرتد والثاني والاربعون منع الخطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو باجر عن الجلوس في المساجد الثالث والاربعون منع المعلم ونحوه عن اخذ شيء باسم النيروز والمهرجان والرابع والاربعون تعزير الآبق ورد الآبق على مولاه فانه من باب الحسبة ايضاً الا ان الاجرة انما تجب برد الآبق وان كان من باب الاحتساب لاجماع الصحابة رضي الله عنهم

هذه ابواب الكتاب الثاني وهي كما تراها مخالفة للاول من وجوه وموافقة له من اكثر الوجوه . اما الكتاب الثالث فهو : نهاية «الرتبة في طلب الحسبة تأليف الشيخ عبد الرحمن ابن نصر بن عبدالله بن محمد الشيزري (١) الشافعي قال في اوله بعد البسملة والحمدلة والصلاة : وبعد فقد سألني من استند لمنصب الحسبة وقلد النظر في مصالح الرعية وكشف احوال السوقة وامور المتعيشين ان اجمع له مختصراً كافياً في سلوك نهج الحسبة على الوجه المشروع ليكون عماداً للسياسة وقواماً للرياسة فاجبته الى ملتمسه ذاهباً الى الوجازة لا الى الاطالة وضمنته طرفاً من الاخبار وطرزته بحكايات وآثار ونبهت فيه على غش المبيعات وتدليس ارباب الصناعات وكشف سرهم وهتك سترهم راجياً بذلك ثواب المنعم يوم الحساب واقتصرت فيه على ذكر الحرف المشهورة دون غيرها لمسيس الحاجة اليها وجعلته اربعين باباً يجري المحتسب على مثالها وينسج على منوالها وهي نهاية الرتبة في طلب الحسبة

(١) في النسخة المنقول عنها « الشيرازي » ولكن الظاهر الشيزري كما يفهم من سياق الكتاب

وقد جعل في الاوّل الكلام فيما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها والثاني النظر في الاسواق والطرقات والثالث معرفة القناطير والارطال والمثاقيل والدراهم قال فيه : لما كانت هذه اصول المعاملات وبها اعتبار المبايعات لزم المحتسب معرفتها وتحقيق كميتها لنفع المعاملة بها من غير غبن على الوجه الشرعي وقد اصطلح اهل كل اقليم وبلد في المعاملة على ارطال تتفاضل في الزيادة والنقصان سيما اهل الشام خاصة وسأذكر من ذلك ما لا يسع المحتسب جهله ليعلم تفاوت الاسعار اما القناطير القنطار الذي ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم فقد قال معاذ بن جبل هو الف ومائتا اوقية وقال ابو سعيد الخدري ذهباً واما القنطار المتعارف فهو مائة رطل والرطل ستمائة واربعة وثلاثون درهماً وهو اثنا عشر اوقية والاوقية سبعة وخمسون درهماً هذا رطل شيراز (شيزر) الذي رسمه فيها بنومنقذ واما رطل حلب فهو سبعمائة واربعة وعشرون درهماً واوقيتها ستون درهماً ورطل دمشق ستمائة درهم واوقيتها خمسون درهماً ورطل حمص سبعمائة درهم واربعة وتسعون درهماً واوقيتها سبعة وستون درهماً وحبة وثلثا حبة ورطل حماة ستمائة وستون درهماً واوقيتها خمسة وخمسون درهماً ورطل المعرة مثل الحمصي ولكن مائنا درهم وستون درهماً والرطل البغدادي نصف المن والله اعلم .

فصل واما المثقال فهو درهم ودانقان ونصف وهو اربعة وعشرون قيراطاً وهو خمسة وثمانون حبة والدرهم الشامي ستون حبة وقد اختلف صنج اهل الشام ايضاً فالمثقال بمحروسة شيزر يزيد على مثقال حلب نصف قيراط ومثقال حماة مثل الشيزري ومثقال دمشق يزيد على الشيزري ومثقال المعرة مثقال الدمشقي .

فصل وقفزان المكيلات ومكاكيكها مختلفة ايضاً فالقفيز بمحروسة شيزر ستة عشر كيلاً وهو مكيال متعارف فيها يسع رطلاً ونصفاً بالشيزري والقفيز الحموي ينقص عن الشيزري شنبلان والقفيز الحمصي مثل الحموي والمكوك الحلبي يزيد على القفيز الشيزري ثلاثة شنابل والمعري مثله وهو اربع مرازب من كل مرزبان اربعة اكيال بالحلبي والغرارة الدمشقية ثلاثة مكاكي بالحلبي وجميع ما ذكرته غير مستقر في جميع الازمان وانما اصطلح كل قوم على شيء في زمن كل سلطان ثم يغير ذلك بتغير السلطان

وتكلم في الباب الرابع على معرفة الموازين والمكاييل وعيار الارطال والمثاقيل وفي الخامس على الحسبة على الحتوبين والدقاقين والسادس في الحسبة على الخبازين ثم الفرانين فصناع الزلابية فالجزارين والقصابين فالشوايين فالرواسين فقلايي السمك فالطباخين فالهرايسيين فالنقانقيين فالحلوانيين فالصيادلة فالعطارين فالشرابيين فالسمانين فالرزازين فالدلالين والمنادين فالحاكة فالخياطين فالقطانين فالكتانيين فالحريريين فالصباغين

فالاساكفة فالصيارف فالصاغة فالنحاسين فالحدادين فالبياطرة فنخاسي العبيد والدواب فالحسبة على الحمامات وقوامها وذكر منافعها ومضارها ثم الحسبة على الفصادين والحجامين والاطباء والكحالين والمجبرين والجرايحيين ومؤدبي الاطفال والحسبة على اهل الذمة

وفي الباب الاربعين جمل وتفاصيل من الحسبة ذكر فيه ما يلزم المحتسب فعله من امور الحسبة في مصالح الرعية غير ما ذكره فمن ذلك السوط والدرة والطرطور « اما السوط فيتخذه سوطاً لا بالغليظ الشديد ولا بالرقيق اللين بل يكون سوطاً بين سوطين حتى لا يؤلم الجسم ولا يخشى منه غائلة واما الدرة فتكون من جلد البقر والجمل محشوة بنوى التمر واما الطرطور فيكون من اللبد منقوشاً بالخرق الملونة مكللاً بالخرز والودع والاجراس واذناب الثعالب والسنانير وتكون هذه الآلة كلها معلقة على دكة ليشاهدها الناس فترتعد منها قلوب المفسدين و ينزجر بها اهل التدليس »

وعدد اوراق هذا الكتاب ٢٢ صفحة وهو بخط مقروء لم تكتب سنة كتابته ولا تاريخ تأليفه والصحة تغلب عليه بالجملة

اما الكتاب الرابع فهو المعروف باسم «نهاية الرتبة في طلب الحسبة » ايضاً تأليف محمد بن احمد بن بسام المحتسب قال في مقدمته بعد البسملة والحمدلة والصلاة : قال الله تعالى الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور فأمر بذلك مع القدرة عليه والتمكن منه ومن الامر بالمعروف ايضاً تصفح احوال السوقة في معاملاتهم واعتبار موازينهم وغشهم ومراعاة ما تجري عليه امورهم وقال تبارك وتعالى ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون وقال عز من قائل حكاية عن نبيه شعيب عليه السلام و ياقوم اوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين وقد رأيت المؤلفين من المتقدمين سبقوا الى ذكر كثير مما يحتاج اليه و ينتفع به ولم اجد احداً منهم ذكر ماينبغي ذكره من الغبن والغش والخيانة بين الناس في المعاملات والمبايعات

وقد قسم كتابه الى مئة واربعة عشر باباً (١) فيما يجب على المحتسب من امور الحسبة (٢) في النظر في الاسواق والطرقات (٣) في الخبازين والخبز (٤) في السقايين والماء (٥) في السوقية وغشهم (٦) في جزاري الضأن والمعز وغيرهم (٧) في الشوائين وتدليسهم (٨) في الهرايسيين وغشهم (٩) في الزلبانيين وغشهم (١٠) الرواسين وغشهم (١١) الطباخين وغشهم (١٢) الحلوانيين وغشهم (١٣) هرايسي التمر وغشهم (١٤) الباقلانيين وغشهم (١٥) السماكين وحماليه (١٦) الملح والصير والبوري (١٧) قلائي السمك (١٨) الطيور وصيادها

(١٩) الطحانين وغشهم (٢٠) الفرانين (٢١) الخطابين (٢٢) القصابين (٢٣) الجبانين (٢٤) الجبارين (٢٥) الحمامات (٢٦) الغزالين (٢٧) الكتانيين (٢٨) الحريريين (٢٩) القطانين (٣٠) القلانسيين (٣١) الخياطين (٣٢) سماسرة البز (٣٣) البزازين (٣٤) الغسالين (٣٥) القصارين (٣٦) المطرزين (٣٧) الرفائين (٣٨) الصيادلة والعقاقير (٣٩) الاشربة والمعاجين (٤٠) العطر والعطارين (٤١) الصيارف (٤٢) الصباغة والصياغة (٤٣) الاطباء والفصادين (٤٤) الكحالين والكحل (٤٥) المجبرين (٤٦) الجرايحيين (٤٧) البياطرة (٤٨) صباغي الحرير والغزل (٤٩) الخرازين وصناع الشراك (٥٠) الاساكفة وصناع الخفاف (٥١) عمل الاسقاط وغيره (٥٢) عمل البطط (٥٣) الحناطين والعلافين (٥٤) صنعة السرابات (٥٥) الزنهار (؟) وغشه (٥٦) الابزار والابزاريين (٥٧) السماسم وبايعيه (٥٨) الخشب وباعته (٥٩) الزفاتين (٦٠) الحدادين (٦١) السامريين وغيرهم (٦٢) النحاسين وسباكي النحاس (٦٣) النجارين والبنائين والفعلة والنشارين (٦٤) نجاري الضبب (٦٥) نجاري المراكب (٦٦) النخاسة باعة العبيد (٦٧) النخاسين باعة الدواب (٦٨) الطوابين وغشهم (٦٩) الدلالين ودلالي العقارات (٧٠) تقديرات المراكب (٧١) باعة الفخار (٧٢) سقائي البرام (٧٣) الزجاجين وغشهم (٧٤) معلمي الصبيان من الفقهاء ومعلمات البنات (٧٥) الدهانين وغشهم (٧٦) المكارية وغشهم (٧٧) النحاتين والمصولين في التراب (٧٨) كساحي السماد وحمالته (٧٩) الغرابيل ومناخل الشعر (٨٠) حافري القبور (٨١) الوراقين والمبهرجين (٨٢) فيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج (٨٣) كتاب الشروط (٨٤) الوكلاء بابواب القضاة وتدليسهم (٨٥) الميازيب ومضرتها (٨٦) اصلاح الجوامع والمساجد (٨٧) قراءة القرآن قدام الموتى (٨٨) غسالي الموتى (٨٩) المراصد والمراقب (٩٠) طباخي الولائم (٩١) معرفة الموازين (٩٢) معرفة المكاييل (٩٣) معرفة مثاقيل الذهب (٩٥) معرفة الارطال والقناطير (٩٥) معرفة الاقساط (٩٦) معاصر الزيت وغشها (٩٧) التبن والتبانين (٩٨) القرط والقراطين (٩٩) الانماط (١٠٠) صناع الاخمرة (١٠١) الحصر العبداني (١٠٢) اللبود واللبادين (١٠٣) الارجوان وصباغه (١٠٤) العصارة (١٠٥) الابارين (١٠٦) الحلفاء (١٠٧) المحامل وصناعها (١٠٨) الزوايا والقرب (١٠٩) الدباغين (١١٠) في اهل الذمة (١١١) التعزير (١١٢) مجالس الحكام (١١٣) مجالس الولاة والامر لهم بالمعروف والنهي عن المنكر .

هذا فهرست كتاب الحسبة وانت ترى فيه كما رأيت في الكتاب الاول بعض اسماء صناعات لاعهد لنا بها اليوم مثل عمل البطط ونجاري الضبب وغيرها وهناك عشرات من

الفصيح والمفردات التي نكاد لا نجد لها مرادفاً في العربية اليوم اذا عربنا او كتبنا في مثل هذه الموضوعات كضروب الآنية والماعون ·

قال في الفصل الرابع في السقايين وغشهم : ينبغي ان يعرّف عليهم عريفاً و يعرفه انه لما كانت الامواج تجيب الاوساخ والاقذار الى الشطوط وجب ان تكون يدخل السقاؤن في الماء الى، ان يبعدوا عن الاوساخ وان لا يستقوا من مكان يكون قريباً من سقاية ولا مستحم ولا مجراة حمام ومن اتخذ منهم راوية جديدة فلينقل بها الماء الى الطين اياماً فان ماءها يكون متغير الطعم والرائحة من اثر الدباغ فاذا زال التغير اذن له المحتسب في بيع مائها وينبغي ان يكون في اوساطهم التبابين ليستروا عوراتهم وسقاة الماء بالكيزان اصحاب القرب يؤمرون بنظافة ازيارهم وصيانتها بالاغطية وتغطية قربهم التي يسقون منها في الاسواق بالميازر و يمنعهم ان يسقوا بكيزانهم المجذم والابرص واصحاب العاهات والامراض الظاهرة وجلاء الكيزان النحاس كل ليلة وتطيب شبابيكها بشمع المسك واللادن الطيب العنبري وافتقاد الخوابي بالبخور والغسل كل ثلاثة ايام ·

وقال في جزاري الضأن والمعز والابل والقصابين وغشهم : ينبغي أن يعرف عليهم عريفاً ثقة من أهل معيشتهم ثم بعد ذلك يستحب أن يكون الجزار مسلماً بالغاً عاقلاً يذكر اسم الله على كل ذبيحة وأن يستقبل القبلة وان ينحر الابل معقولة من قيام والبقر والغنم مضجعة على الجنب الايسر لان ذلك وردت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم ويأمرهم أيضاً أن لايجر الشاة برجلها جرّا عنيفاً وان لا يذبحوا بسكين كالّة فان في ذلك تعذيباً للحيوان وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تعذيب الحيوان و يلزمه في الذبح أن يقطع الودجين والمري والحلقوم ولا يشرع في السلخ بعد الذبح حتى تبرأ الشاة وتخرج منها الروح لان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر منادياً ينادي في المدينة لاتسلخ شاة مذبوحة حتى تبرد وتجوز الزكاة بكل شيء الا السن والظفر فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الزكاة بهما و يمنعهم أيضاً ان لا يذبحوا جملاً يكون مقرح الجسم الى ان يبرأ جميع مافيه من القروح وقد كان امر أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله في سجل مجلد في ديوان الانشاء بان لايذبح من البقر الا المخلوع الورك والاعور والاعمى والمقلوع السن والمريش العين والمجفون والجرب وكل مشقوق الخافر والمقطوع والمكوي وكل شيء كانت عيوبه ظاهرة والصحيح الرقاد والمعلوفة اذا كان بها شيء من هذه العيوب المذكورة فينهاهم المحتسب عن ذلك جميعه وينهاهم ان لا ينفخوا شاة بعد السلخ فان نكهة ابن آدم تغير اللحم وتزفره ومنهم من يشق اللحم من السفاقين و ينفخ فيه الماء ولهم أيضاً اما كن يعرفونها في اللحم و ينفخون فيها الماء فيجب مراعاتهم

في ذلك ومنهم من يشهر في الاسواق البقر السمان ثم يذبح غيرها وهذا تدليس واما القصابون فيمنعهم من اخراج توالي اللحم عن حد مصاطبه والركبتين فلا يلاصقوا ثياب الناس فيضرون بها و يأمرهم ان يفردوا لحوم المعز من لحوم الضأن وان لا يخلطوا بعضها ببعض و ينقطوا لحوم المعز بالزعفران ليتميز عن غيره وتكون اذناب المعز معلقة على لحومها الى آخر البيع ولحم المعز يعرف برقة لحمه وعظمه و بياض شحمه و يأمرهم بان لا يلصقوا على شيء من سائر اللحوم شيئاً من القزدير فان الحكماء قد ذكروا بانه يسمه ولا يخلطوا اللحم السمين بالمزيل بل يباع كل واحد منهما على حدته و يمنعهم أيضاً ان لا يخلطوا شحم المعز بشحم الضأن وعلامة شحم المعز صفو لونه و بياضه وشحم الضأن تعلوه الصفرة وكذلك بطون المعز لا تختلط ببطون الضأن وكذلك الاليات تباع مفردة لا يخالطها جلد ولا لحم واذا فرغ من البيع واراد الانصراف اخذ ملحاً مسحوقاً ونثره على القرمة لئلا تلحسها الكلاب او يدب عليها شيء من الهوام فاذا لم يجد ملحاً والا الاشنان والمصلحة ان لا يشارك بعضهم بعضاً لئلا ينفقوا على واحد و يمنعهم ايضاً من بيع اللحم بالحيوان وهو ان يشتري الشاة بارطال لحم معلومة و يدفع اليه كل يوم ما ينفقان عليه من اللحم فان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك

وقال في عمل البطط : ينبغي ان يعرف عليهم عريفاً يمنعهم ان يعملوا من جلود الجمال الميتة ويحلفون بما لا كفارة لهم منه انهم لا يعملونها من الميتة و يفتش دكاكينهم كل وقت و بيان ذلك عليهم انهم اذا عملوها من الميتة كان لونها مائلاً الى السواد و يعتبر عليهم بالرائحة وخشونة اللمس وايضاً انه لا بد ان يبقى عليه اليسير من الشعر لان الصانع لا يقدر على انقاء الشعر من الميتة وما عمل من جلود الميتة يكن عند جفافه والصواب ان يمنعوا من عمل المصاصات لان كل من يمص بها لا بد ان ينزل شيء من بصاقه في اطعمة الناس من الزبوت والعسل وغيرها وذلك ضرر و وسخ ولا سيما ان كان الفاعل ابخر فالصواب ان يمنعوا من ذلك

وقال في الزنجار وغشه : ينبغي ان يعرف عليهم عريفاً عارفاً بغش صناعاتهم فقد يغش بالسيك بتربة تعرف بالشمعة تكون الى الحمرة مائلة بدقيق الرمل حتى ينقل وقد يغش المصفر بالتراب الاحمر وهو يزيده المثل او قريباً منه فينبغي ان يحلف من يبيعه بما لا لهم منه كفارة انهم لا يخلطون فيه شيئاً مما ذكرنا ولا يخلطوا فيه دقيق الفول وايضاً قد تدق قشور الرمان و يغش به الكركم المصحون و يغش ايضاً بالتربة المصرية وقد يغش بالحناء و بالرمل

وقال في نجاري الضبب ينبغي ان يعرف عليهم عريفاً ثقة عارفاً بمعيشتهم بصيراً بهذه الصناعة و ينشر جواسيسها وهو باب جليل يحتاج الى ضبطه لان فيه حفظ اموال الناس وصيانة حريمهم فينبغي ان يراعي حفظ اموال الناس و يحلفوا بحضرة عريفهم بما لا كفارة

لهم منه ان لا يعملوا لرجل ولا لامرأة مفتاحاً الاان يكونا شريكين مشهورين ويؤمرون ان لا يثقبوا رأس الابيات لطرح الاسنان التي فيها سريعة الرؤوس مدورة الاسافل مبرودة مجلسة وكذلك اسنان المفتاح مبرودة مجلسة حتى لا يخرب ذكر الغلق لا من فوقه ولا من تحته ويؤمروا ان يغمسوا الاغلاق بالجواسيس المختلفة حتى لا يعمل مفتاح على مفتاح ومن خالف ذلك أُدب ·

هذا ما ساعد عليه المقام من البحث في هذه المخطوطات النادرة وفيها فوائد كثيرة غير التي ذكرناها فعسى ان يتصدى بعض من يهمهم احياء آثار السلف الى تمثيلها كلها بالطبع لتستفيد بها اللغة والتاريخ والمدنية والاجتماع والغيض لا يغني عن الفيض والجملة لا تنفع مع التفصيل والله اعلم ·

الرومان

فتح حوض البحر المتوسط

صبغة السياسة الرومانية — لم يخطر للرومان ان يفتحوا العالم أولاً حتى انهم تمهلوا بعد ان بسطوا حكمهم على ايطاليا وقرطاجنة مدة مئة سنة قبل ان يخضعوا الشرق الى سلطانهم والظاهر انهم فتحوا فتوحاتهم دون ان يختطوا لها خطة من قبل لان مصلحتهم كلهم كانت بان يفتحوا الفتوح ويدوخوا الممالك ·

فكان يرى الحكام وهم قواد الجيوش من الفتوحات فرصة لنيل علائم التشريف بالظفر الذي يكتب لهم ويكونون على ثقة من الاشتهار بين أمتهم والتأثير فيها · وكان أعظم رجال الحكومة في رومية مثل بابيريوس وفابيوس وسيبيون الاول والثاني وكانوا من القواد الذين فتحوا الفتوح وكتب الظفر لاعلامهم · ويربح الاشراف الذين يتألف منهم مجلس الشيوخ اذا كثر سواد رعايا رومية فيذهبون كما يذهب الحكام لقبول احتراماتهم وهداياهم · اما الفرسان أي الصيارف والتجار وأرباب المشاريع فان كل فتح حديث كان لهم بمثابة مشروع جديد يستثمرونه

والامة نفسها تنتفع من الغنائم التي تؤخذ من العدو · وقد رفعت الضرائب بصورة دائمة بعد ان دخلت خزانة الدولة الرومانية كنوز ملك مكدونية · اما الجنود فكانوا يقبضون

رواتب عالية من قوادهم وقد أخذوا يحاربون البلاد الغنية دع عنك ما كانوا يمدون اليه ايديهم من مال المغلوبين. وعلى هذا فقد فتح الرومان العالم للفوائد المادية اكثر من المجد

قرطاجنة — لما امتد سلطان رومية الى جزيرة صقلية حملت على قرطاجنة وعندئذ بدأت الحروب الفينيقية فحدثت ثلاث حروب فكانت الحرب الاولى من سنة ٢٦٤—٢٤١ حرباً بحرية ولا نعرف عنها شيئاً الا ما روته الاساطير بعد زمن من حدوثها . فذكروا ان الرومانيين لم يملكوا سفناً حربية قط وانهم جعلوا سفنهم على مثال سفينة قرطاجنة وقامت بالعرض في الشاطىء فأخذوا يمرنون مجذفيهم على استعمال المجاذيف على اليابسة . وهذه القصة لا اساس لها لان بحرية رومية قديمة اما الرومان فقد نقلوا اخبار هذه الحرب كما يلي : غلب القنصل دويليوس الاسطول القرطاجني في ميلي (٢٦٠ ، وكان نزل الى افريقية من البحر جيش روماني على عهد الحاكم رجولوس فغلب وتمزق شذر مذر (٢٥٥) وأسر رجولوس وأرسل الى رومية ليعقد الصلح وقرر مجلس الشيوخ اباء الصلح فرجع هذا الى قرطاجنة حيث قضى نحبه في العذاب . ثم حمي وطيس الحرب في صقلية فكتبت الغلبة للاسطول القرطاجني اولا (٢٤٩) ثم دمر بالقرب من جزائر ايغات (٢٤١) وبعد ذلك حوصر هاملكار في جبل اركيس فوقع على الصلح ودخلت صقلية في حوزة رومية

ونشبت الحرب الثانية (من سنة ٢١٨ الى ٢٠١) وكان قائدها هانيبال من نسل الاسرة القرطاجنية صاحبة الحول والسطوة في بادكاس وكان قاد ابوه هاملكار الى صقلية جيشاً قرطاجنياً في الحرب الفينيقية الاولى ثم عهد اليه ان يفتح اسبانياً وكان هانيبال اذ ذاك طفلا فصحبه ابوه . وكانت العادة ان تقدم الضحايا للارباب عند ما يغادر الجيش البلاد ويقال ان هاملكار بعد تقديم الضحايا حلف ابنه ان يكون ابداً عدواً ازرق للرومان

ربي هانيبال وسط الجند فأصبح احسن قائد وامهر راجل في حرب . ولم يكن يعرف من الحياة الا انه محارب وكانت عنايته منصرفة الى تعهد حصانه وأسلحته واشتهر أمره كثيراً حتى اذا هلك القائد اسدروبال الذي كان يقود الجيش الاسباني انتخبوه قائداً عليهم دون ان ينتظروا أوامر مجلس الاعيان القرطاجني في ذلك . وهكذا أصبح هانيبال في الحادية والعشرين من عمره قائد جيش لا يطاع أحد سواه فدخل غمار الحرب على الرغم من مجلس الشيوخ في قرطاجنة وراح يحاصر ساغونت حليفة رومية فاستولى عليها وخربها

ومما كتب به المجد لهانيبال انه عوضاً عن ان ينتظر الرومانيين جرأ على ان يقتحمهم في عقر دارهم من بلاد ايطاليا ولم يكن له اسطول يحمله وجيشه اليهم فعزم على اجتياز البلاد اليهم براً فقطع جبال البيرنيه ونهر الرون وجبال الالب وضمن لنفسه محالفة الشعوب الغالية وقطع

جبال البيرنيه دون أن يلقى فيها مقاومة في جيش مؤلف من ستين الف مقاتل من الجنود المستأجرة من الافريقيين والاسبانيين ومعه سبعة وثلاثون فيلاً مدربة على الحرب وقد طمع بعض الشعب الغالي ان يحولوا بينه و بين المسير في نهر الرون فأرسل هو فرقة من جيشه تقطع النهر على مسافة بضعة أميال من اعلاه وتهاجم الغاليين من ورائهم على حين يجتاز معظم جيشه النهر على زوارق وتجر الفيلة على ارماث كبيرة . ثم صعد وادي ايزر وانتهى الى جبال الالب في أواخر شهر تشرين الاول (اكتوبر) فقطعها على ما كانت مغشاة به من الثلوج وعلى الرغم من غارة السكان الجبليين عليه فوقع كثير من الرجال والخيول في الهاويات . وقضى تسعة أيام لبلوغ قمة جبل الالب وصعب عليه النزول لان المضيق الذي كان يجب عليهم السير فيه غطته الثلوج والصقيع فاقتضى لجيشه ان يتخذ له طريقاً يحفره في الصخر ولم يصل الى السهل الا وقد اصبح جيشه نصف ما كان . ثم لقي هانيبال ثلاثة جيوش رومانية في مسافة متدانية على شاطىء نهر تيسين وضفة نهر تريبا وبالقرب من بحيرة ترازيمين في اترور يا فهزمها كلها وكان كلما تقدم الى الامام يزداد جيشه وينضم المحاربون من الغاليين « ايطاليا الشمالية » تحت لوائه ليخدموه و ينصروه على الرومانيين

فاجتاز هانيبال ايطاليا واتخذ لنزوله اقليم ابوليا في الجهة الثانية لرومية فهاجمه فيها الجيش الروماني . وكان جيشه نصف جيش ولكن كان معه فرسانه الافريقيون يركبون خيولاً سريعة وقد رابط في سهل « كان » بحيث جعل الرومانيين يقابلون بوجوههم الشمس والتراب الذي تثيره الريح فاحاط الفرسان بالجيش الروماني احاطة السوار بالمعصم وذبحوه عن آخره (٢١٦) وكان يظن ان هانيبال سيزحف على رومية الا انه لم يكن على تعبية تامة . وهكذا ظل هانيبال في ايطاليا الجنوبية تسع سنين يحاول ان يفصل عن رومية الشعوب المحالفة لها ولم ينجح الا بالاستيلاء على بضع مدن حاصرها الرومان وخربوها

و بعد ذلك سافر اخوه اسدروبال في جيش اسبانيا للالتحاق به فوصل الى اوساط بلاد ايطاليا فسار الجيشان القرطاجنيان احدهما على الآخر يقابل كلاً منهما جيش روماني بقيادة احد حكام الرومان . وكان نيرون محاذياً لهانيبال فجرأ على قطع ايطاليا الوسطى لينضم الى رصيفه مقابل اسدروبال . ولقد سمع اسدروبال في صبيحة ذات يوم الابواق تبوق مرتين في المعسكر الروماني وكان في ذلك اشارة الى انه كان في المعسكر قنصلان او حاكمان فوقع في نفسه ان اخاه غلب وانهزم وان الرومان يطاردونه وانه قتل وذبح جيشه عن بكرة ابيه ثم رجع نيرون الى الجيش الذي غادره امام هانيبال والقى في معسكر قرطاجنة رأس اسدروبال(٢٠٧)

فلم يبق لهانيبال غير قوته يعتصم بها واقام خمس سنين في اقليم كالابراوما أكره على الخروج من ايطاليا الا لما علم بان جيشاً رومانياً كان نزل الى افريقية واخذ يهدد قرطاجنة فذبح هانيبال الجند الايطالي الذي ابى الالتحاق به وركب البحر الى افريقية (٢٠٣) وانتهت الحرب بوقعة زاما (٢٠٢) وكان هانيبال اعتمد بحسب عادته ان يسوق الجيش الروماني الى الدخول في صفوفه ولكن القائد الروماني سبيون ثبت مع جيشه وما كانت الا هجمة واختها حتى ركب هذا اكتاف عدوه وهزم جيشه شر هزيمة ٠

فاضطرت قرطاجنة الى عقد الصلح وتنازلت عن كل ما تملكه خارج افريقية وتركت اسبانيا للرومانيين ٠ واضطرت زيادة على ذلك الى تسليم سفنها وفيلتها وان تدفع مبلغاً من المال يربو على خمسين مليوناً من الفرنكات وتعهدت بان لا تعلن حرباً قبل الاستئذان من رومية ٠ وكانت عاقبة الحرب الثالثة (من سنة ١٤٩ الى ١٤٦) القضاء على قرطاجنة فطال حصار الرومان كثيراً لها حتى اخذوها عنوة وجعلوا عاليها سافلها وفتحوا اقليمها واعمالها وجعلوها ولاية افريقية خاضعة لسلطانهم ٠

مكدونية والشرق — كان ملوك اليونان اخلاف قواد الاسكندر اقتسموا الشرق وحارب اعظمهم سطوة مملكة رومية وغلبوا مثل ملك مكدونية فيليب سنة ١٩٧ وابنه برسي سنة ١٦٨ وملك سورية انطيوشوس سنة ١٩٠ وهكذا خلا الجو للرومانيين فاخذوا يفتحون البلاد التي يرونها تناسبهم واحدة بعد اخرى فافتتحوا مكدونية سنة ١٤٨ ومملكة فرغانة (١٢٩) وبقية آسيا (من سنة ٧٤ الى ٦٤) بعد هزيمة ميتريداتس ومصر (٣٠) وما عدا مكدونية لم يندب الشرق لقتالهم غير جنود مستأجرة او برابرة غير منظمين ينفرقون ايدي سبا لاول صدمة يلقونها ٠ ولم يقتل في الغلبة العظمى على انطيوشوس في مانيزيا سوى ٣٥٠ جندياً رومانياً وافتخر سيللا بانه لم يفقد من جيشه في شيرونيا سوى اثني عشر جندياً ٠

ودخل الرعب قلوب سائر الملوك فخضعوا لسلطان مجلس الشيوخ من دون مقاومة فان انطيوشوس العظيم ملك سورية بعد ان فتح جزءاً من ديار مصر جاءه بوبيليوس مندوباً من قبل مجلس الشيوخ يأمره بالجلاء عما بسط يده عليه من البلاد فتردد انطيوشوس وكان بيد بوبيليوس محجنة فاختط بها في الارض خطوطاً حول ملك سورية وقال له : اجب مجلس الشيوخ قبل ان تخرج من هذه الدائرة التي رسمها لك ٠ فلم يسع انطيوشوس الا الخضوع والقى حبل مصر على غاربها ٠ وجاء بروزياس ملك بيثنيا وقد حلق رأسه ولبس ثياب العبد المعتق وركع امام مجلس الشيوخ الروماني ٠ وحاول ميثرايدتس ملك بون ان يقاوم

وحده فطرد من بلاده بعد حرب خمس وعشرين سنة (٦٣ — ٨٩) واضطر الى ان يتناول السم و يقول بيدي لا بيد عمرو ·

اسبانيا وغاليا الجنوبية — لم يستطع الرومان ان يتغلبوا على الشعوب البربرية والمحاربين في الغرب بادنى سبب كما تغلبوا على غيرهم فقضوا قرناً لاخضاع اسبانيا لسلطانهم · وقد ناوشهم الحرب في جبال البرتقال رجل من الرعاة اسمه فيرياث (١٤٩ — ١٣٩) وهزم خمسة جيوش واكره احد قناصل الرومان على عقد الصلح معه ولم يتخلص مجلس الشيوخ من شره الا بقتله · واهلك الاريفاكيون وهم شعب صغير في الشمال الشرقي عدة جيوش رومانية واقتضى لرومية ان ترسل احد قوادها سبيون للاستيلاء على عاصمة تلك البلاد وهي المدينة الصغرى المسماة نومانس · وكانت الشعوب الصغيرة الخاملة في صيتها المعتصمة في جبال جبن كثيراً ما تناوش الرومانيين القتال· وكان الغاليون اشد الاعداء على رومية وهم منتشرون في جميع سهل بو ويزحفون على ايطاليا الجنوبية وقد استولت احدى عصاباتهم على رومية سنة ٣٩٠ فكان جندهم يدخل الذعر على قلوب الجند الروماني باجسامهم الضخمة البيضاء وسبلاتهم الطويلة الشقراء وعيونهم الزرقاء واصواتهم التي تعج فيبلغ صداها عنان السماء · والخوف يستولي على رومية عند ما يبلغها مجيء العسكر الغالي فيصدر مجلس الشيوخ امره بجمع عامة الجند ·

وكانت هذه الحروب شديدة جداً ولكنها تضع اوزارها في الحال ففي الحرب الاولى استولى الرومان على اقليم غاليا المعروف بسيزالبين اي ايطاليا الشمالية ونشبت الحرب الثانية (١٢٠) للدفاع عن مارسيليا حليفة رومية فدمر الجيش الغالي واخضعت رومية بلاد الرون وشاطيء البحر الرومي (اقليم لانكدوك و بروفانس ودوفينه)

عواقب الفتوح

سريان الاصطلاحات اليونانية — ان الفتوح هي التي دعت الرومان الى رؤية الروم والمشارقة عن أمم فاستوطن رومية الوف من اليونان جاؤوها اسرى او للاتجار وتعاطى بعضهم الطب وآخرون التعليم وغيرهم العرافة وغيرهم التمثيل· وكان القواد والضباط والجنود الرومانيون يعيشون في آسيا وسط الشعوب التي تتكلم اليونانية فتخلقوا باخلاق اليونان وهكذا عرف الرومان عادات حديثة ومعتقدات جديدة لم يكن لهم بها عهد واخذوا يعملون بها على التدريج وقد بدأ هذا التبدل بعد الحرب المكدونية الاولى (٢٠٠) ودام الى لواخر المملكة الرومانية

القائدان كاتون وسبيون — بينا كانت الاخلاق تتغير اشتهر احد رجالهم كاتون باحتفاظه بعادات اسلافه · ولد هذا الرجل سنة ٢٥٢ في بلدة توسكولوم وقضى شبيبته في الحرث

والكرث وفي السابعة عشرة من سنه دخل في الجيش بحسب العادة المتبعة واشترك في عامة الحملات علي هانيبال . ولم يكن من الاشراف ولكنه اشتهر بقوته واستقامته وزهده وقد انتخب مرات وزيرًا للمالية وناظرًا للابنية والملاعب وقاضياً وقنصلاً ووكيلاً للاحصاء وشغل مناصب الشرف عامة وكان في جميع حالاته على قدم قدماء الرومان قاسياً جافاً محتشماً وقد وبخ قنصله عند ما كان وزيرًا للمالية وكان القنصل سبيون غالب هانيبال فاجابه لست في حاجة الى ناظر مدقق مثلك الى هذا الحد . ولما عين ناظرًا للابنية والملاعب في ساردينيا ابى ان يمس المال الذي دفعته اليه تلك الولاية للنفقة . ولما صار قنصلا تكلم بشدة عن قانون اوبيا القاضي بالحظر على النساء الرومانيات بان لا يتزين بالحلي الثمينة فظفر النساء بمطلبهن وأُلغي ذاك القانون . ولما ذهب لقيادة الجيش الروماني في اسبانيا اتى باموال طائلة دفعها الى خزانة الامبراطورية وباع حصانه عند ما ركب البحر ليقتصد من نفقات نقله ولما عُين وكيلاً للاحصاء اسقط من قائمة مجلس الشيوخ عدة من الاعاظم لما عرفوا به من الترف والبذخ واحال جباية الاموال الاميرية بثمن عال وقدر حلي النساء وزينتهن وعرباتهن بعشرة اضعاف ما تساوي وبعد ان خفقت له اعلام النصر لم يستنكف من الخدمة في الجيش الروماني ضابطاً بسيطاً .

صرف كاتون حياته في مناهضة الاشراف والغض من بذخهم وترفهم وتجملهم وحمل خاصة علي امثال القائد سبيون متهما اياهم بالاختلاس الا انه لم ينج هو ايضاً من الصاق التهم به فاتهم اربعًا واربعين مرة ولكنه كان يُبرأُ كلما اتهم . وكان يحرث ارضه مع عبيده ويوا كلهم ويضربهم بالعصي متى رآهم يحيدون عن جادة الصواب وقد ذكر في رسالته في الزراعة التي كتبها الى ابنه جميع ما كان يأتي الفلاحين الرومانيين من الايرادات ويرى ان من الواجب علي المرء ان يغتني وكان يقول : « للارملة ان تصرف من مالها وعلى الرجل ان يزيد وكل من شهدت دفاتر حساباته بعد موته بانه ربح اكثر مما ورث جدير بالشهرة وملهم من الارباب » ولما رأى ان الزراعة لا تأتيه بارباح طائلة اخذ يقرض ماله ليجهز به سفنًا تجارية واتخذ له خمسين شريكاً جهزوا كلهم معاً خمسين سفينة ليتقاسموا بينهم الاخطار التي تنال سفنهم والارباح التي تأتيهم بها . وعلى هذا كان كاتون زارعاً ماهرًا وجندياً عظيماً عدوًا للبذخ حريصاً علي الكسب فهو مثال الروماني الاصيل وانموذج الفضيلة والثبات

وعلي العكس منه كان القائد سبيون مثالاً للاهتمام بالفنون والافكار الفلسفية اليونانية فكان سبيون الذي استولى على قرطاجنة ونومانس يتكلم باليونانية وهو صديق المؤرخ اليوناني بوليب الذي أُمسك في رومية رهينة . ولم يكن يهتم بجمع المال وقد دفع الى شقيقاته

دفعة واحدة مبلغاً من المال كان عليه ان لا يدفعه اليهن الا في اوقات مختلفة وتنازل لاخيه وكان اقل منه مالاً عن حصته في ارث ابيه ولم يخلف بعده سوى كمية قليلة جداً من الاواني الذهبية والفضية ·

الاخلاق القديمة — مضى زمن طويل على قدماء الرومانيين وهم يتوفرون على زرع حقولهم وقتال عدوهم والقيام بفرائض دينهم حتى كانوا حقاً الريفيين العاملين الجفاة · فكانوا يزرعون جانباً صغيراً من اقليم لاتيوم اولاسابين وهم من نسل اللاتين والايطاليين الذين تغلبت عليهم رومية · وقد صور لنا الشيخ كاتون في كتاب له في الزراعة شيئاً من أخلاقهم بقوله : كان اجدادنا اذا أرادوا الثناء على رجل يصفونه بانه زارع ماهر وحراث مجيد وهذا غاية مايمدح به انسان (١)

فكان هؤلاء الزراع أشداء في اعمالهم واهل طمع في مكاسبهم وتنظيم في شوونهم واقتصاد في نفقاتهم و بذلك كانوا قوة الجيوش الرومانية · ولطالما تألف منهم مجلس الامة أيضاً وكانت لهم القوة العظمى في الانتخابات · فيجيء الاشراف الذين يطمعون في ان ينتخبوا حكاماً الى ساحة السوق ليهزوا أيدي هؤلاء الفلاحين · رأى أحد المرشحين انفسهم للانتخابات يد احد الحراثين وهي شثنة غليظة فسأله : هل تمشي على يديك ؟ وكان السائل من الاشراف ينتسب الى أسرة كبيرة ولكنه لم يُنتخب

سكن الرومان بيوتاً ضيقة ذات طبقة واحدة لانظام في بنائها وكان الاتريوم أهم ناحية من الدار وفيه المكان المقدس وهو مكشوف من أعلاه ينزل منه ماء المطر · والاثاث عبارة عن بضعة صناديق ومقاعد من الخشب · وطعامه بسيط مؤلف خاصة من حساء معمول بالبر ومن خبز و بعض بقول وما كانوا يتناولون اللحوم الا في الاعياد وما شرب النساء الخمر قط والرجال يتناولون منه على الندرة · ولباسهم عبارة عن قميص يلبسون فوقه رداء من صوف زمن البرد · و يلبس الوطنيون في أيام الاعياد حلة من الصوف مزينة من جهة العنق و يلبسون في ارجلهم نعالاً مناطة بسيور · و يقضون حياتهم في التوفر على اعمالهم فالرجال يصطادون دون ان يحرثوا او النساء يغزلن الصوف و ينسجن الاقمشة و يطحن الحبوب ليجعلنها براً · ولم يكن للرومانيين من ضروب التسلية الا ان يذهبوا كل تسعة أيام الى السوق أو يحضروا الاعياد التي تقام اكراماً للارباب

كان يرى قدماء الرومان ان الرجل الشديد هو غاية ماتطمح اليه الآمال ويقال ان

(١) وقد اورد ايضاً شيئا من امثالهم القديمة منها : « ادنى الزراع من يبتاع شيئاً مما تغله له ارضه » « واحط المقتصدين من يعمل في النهار ما يتأتى له ان يعمله في الليل»

ان سينسيناتوس كان يسوق محراثه بنفسه عند ما اتاه نواب الامة من قبل مجلس الشيوخ يدفعون اليه الامر بتنصيبه . ولم يكن عند فابريسيوس من الاواني غير كأس ومملحة من فضة . وكان كوريوس وانتاتوس وهو غالب السامنتيين جالساً على مقعد يأكل بقولا في قصعة من خشب عند ما أتاه مندوبو السامنيين ليقدموا اليه المال فقال لهم : اذهبوا وقولوا للسامنتيين ان كوريوس يؤثر ان يقود من عندهم ذهب اكثر مما يؤثر ان يكون هو مالكاً له . هذه هي بعض الاقاصيص التي يروونها عن قواد الازمنة القديمة وسواء كانت حقيقية او ملفقة فانها تدل على ما كان الرومانيون بعد يذهبون اليه بشأن قدماء اجدادهم

الاخلاق الجديدة — اخذ كثير من الرومانيين بعد القرن الثاني ولا سيما طبقة الاشراف يقلدون الاجانب . وكان زعماؤهم قواداً رأوا بلاد اليونان والشرق عن أمم فكتبت الغلبة لسبيون على ملك سورية ولفلامنيوس و بولس اميل على ملوك مكدونية ثم للوكلوس على ملك ارمينية . فعزفت نفوسهم عن الحياة القاسية الصعبة التي كان عليها اجدادهم وأخذوا يسيرون في حياتهم على البذخ والرفاهية وما زال الحال كذلك حتى نسج على منوالهم عامة النبلاء والاغنياء بحيث لم يطلع فجر القرن الاول حتى لم يعد في ايطاليا الاسادة عظام يعيشون المعيشة الشرقية او اليونانية

يرى الشرقيون من دواعي العجب ان يعرضوا للانظار الاقمشة البديعة والاحجار الكريمة واثاث الفضة وأواني الذهب وان يستكثروا في بيوتهم من الخدم على غير طائل وان ينشروا على الشعب المجتمع دراهم ليدهشوهم (١) فكانوا يرغبون في الاعلاق النفيسة النادرة اكثر من رغبتهم في النفائس الجميلة المناسبة

واصبح للرومان على شدة عجبهم وضعف استعدادهم في الصناعات ذوق في هذا الضرب من البذخ فكانوا قلما يحفلون بالجمال أو بالموافق ولم يعرفوا قط الا الأبهة والفخفخة فانشؤا لهم بيوتاً ذات حدائق متسعة وحشروا اليها التماثيل واقاموا فيها المصايف الزاهية التي تمتد الى البحر وسط الحدائق المتسعة واستكثروا من الخدم والحشم وأخذوا هم ونساءهم يعتاضون عن ألبستهم المعمولة من الصوف بالشفوف (برنجك - اكريشة) واكسية الحرير والقصب . و يفرشون في ولائمهم بسطاً مطرزة ودثارات من الأرجوان وأواني من ذهب وفضة (وكان عند الحاكم سيللا مئة وخمسون صحفة من الفضة ووزن ما عند ماركوس وروزوس من الاواني الفضية عشرة آلاف ليرة) واذا ظل العامة يأكلون قعوداً بحسب عادة الشعوب

(١) تجد مثالاً من هذا الذوق الشرقي في الابهة الباطلة التي تمثل لك في حكايات الف ليلة وليلة

الايطالية القديمة فالخاصة من الاغنياء اتبعوا العادة الشرقية في الاكل مضطجعين على سررهم ثم سرت عادة التأنق في المآكل على الاسلوب الشرقي والاستكثار في المطاعم من الابازير والصباغ (سلسا) والصيد والسمك الغريب ومخاخ الطواويس والسنة الطيور واستحكم منهم السرف حتى لقد مات أحد الحكام سنة ١٥٢ وقد ذكر في وصيته قوله "لما لم يكن الاكرام الحقيقي عبارة عن أبهة باطلة بل هو لتذكر اقدار المتوفى وأجداده فانا آمر أولادي ان لا ينفقوا على جنازتي اكثر من مليون آس (مئة الف فرنك) "

العلوم الادبية اليونانية — رأى الرومانيون في بلاد اليونان المصانع والتماثيل والالواح التي كانت منذ قرون تغص بها المدن وعرفوا الادباء والفلاسفة فصار لبعضهم ذوق في الصنائع النفيسة واولع آخرون بالحياة العقلية فجعل امثال القائد سبيون حولهم اناساً من اليونان المنورين ولم تطمح نفس بولس اميل من جميع الغنائم التي غنمها جيشه من مكدونية الا الى الاستيلاء على مكتبة الملك برسي وعهد بتربية اولاده الى اساتذة يونان وبذلك صارت الكتابة والتكلم باللغة اليونانية من الامور المستحسنة في رومية (١) واراد الاشراف ان يظهروا في مظهر العارفين بالتصوير والنقش فجلبوا بالالوف التماثيل وقلز كورنت المشهور وملؤوا بها بيوتهم . ودخل في ملك الحاكم فريس شيء كثير من النفائس والاعلاق جعلها في رواق وكانت مما نهبه من صقلية .

وهكذا اخذ الرومان على التدريج من الفنون ظواهرها ومن الآداب اليونانية قشورها . وسمي هذا التهذيب الجديد فن الادب معارضة للخشونة التي كان عليها اهل الريف من الرومان ومع هذا لم تكن الا قشوراً فقط فلم يعرف الرومان ان الجمال والحقيقة يرغب فيهما لذاتهما بل كانت الصناعات والعلوم عندهم اموراً يقصد بها الزينة والبذخ ليس الا . ولم يكن الرومان على عهد شيشرون يعتبرون من اهل الاعمال غير الجندي والحراث والسياسي والتاجر او المحامي اما الكتابة والتأليف والاشتغال بالعلم والفلسفة والنقد فكل ذلك كان يسمى عندهم بطالة . وما قط اصاب ارباب الفنون والعلماء من الاعتبار في رومية ما يساويهم بتاجرغني . قال لوسين احد كتاب اليونان : " متى صرت مثل فيدياس النقاش اليوناني تصنع الف قطعة بديعة من النقوش لا يرغب احد ان يتقيل مثالك لانك مهما بلغت من الخدمة لا يطلق عليك الا لقب صانع ولست اذ ذاك غير رجل يعيش بكد يمينه "

(١) ولذلك كان يخاف الشيخ كاتون عادية اليونان وقد كتب لابنه ما يأتي : اقول ان ما لاحظته في آثينة ان هذا الجنس من اخبث الاجناس واصعبها مراساً الا فاستمع لما اقول كما تستمع هاتف رباني الا ان هذه الامة اليونانية كلما اتتنا بصناعاتها تفسدنا كانما

لوكلوس — ولد لوكلوس وهو مثال الروماني الحديث سنة ١٤٥ من أسرة شريفة وغنية جدًّا ولذا سهل دخوله في سلك ارباب المناصب والشرف واشتهر في غزواته الاولى بانه يعطف على المغلوبين ويعاملهم باللطف ثم عُين قنصلاً وقاد الجيش الذي انتدب لقتال ميتريداتس . وقد رأى سكان آسيا ساخطين من كثرة السرقة وفظاعة العشارين فعني بجعل حد لتلك الاعمال وحظر على جنده ان ينهبوا المدن المغلوبة وبذلك جلب لنفسه حب الآسياويين الباطل وبغض العشارين والجنود الخطر . فدست الدسائس لتستدعيه حكومته وكان قد هزم ميتريداتس واخذ يطارده وهو سائر الى حليفه ملك ارمينية وقد هزم جيشًا من البرابرة بجيشه الصغير المؤلف من عشرين الف مقاتل فسلبت منه القيادة وسلمت الى نديم العشارين وحبيبهم بومبي

واذ ذاك اعتزل لوكلوس الاعمال للاستمتاع بما جمعه في آسيا من الثروة واصبح يملك في احياء رومية حدائق غلبا وله في نابولي مصيف قام في البحر مبنيًا بالحجر الصلد . وفي توسكولوم قصر صيفي وفيه متحف للاعلاق والنفائس فكان يقضي الصيف في توسكولوم بين اصحابه وجماعة العلماء واهل الادب يطالع مصنفات اليونان ويبحث في الادب والفلسفة . وتروى عن بذخه حكايات كثيرة . منها انه كان ذات يوم يتغدى وحده فرأى مائدته اكثر بساطة من العادة فوبخ الطاهي فاعتذر بقوله ان عدم وجود الضيوف هو الذي دعاه الى تقليل المآكل فاجابه لوكلوس : « اما علمت ان لوكلوس يتغدى اليوم عند لوكلوس ؟ » ودعا يومًا قيصر وشيشرون فقبلا دعوته على شرط ان لا يغير شيئًا من عادته فاكتفى لوكلوس بان يقول لاحد الخدمة فقط اجعل الطعام في قاعة ابولون وكانت المأدبة على غاية من التأنق بحيث عجب منها المدعوان . ولما سُئل عن اخلاله بشرط الضيافة قال انه لم يأمر بشيء وان نفقات طعامه محددة بحسب القاعة التي تجعل فيها وان بسط الموائد في قاعة ابولون لا يمكن ان يكلف اقل من خمسين الف فرنك

وظلَّ لوكلوس في رومية ممثل الاخلاق الجديدة كما كان كاتون يمثل الاخلاق القديمة و يرى قدماء الرومان ان كاتون هو الروماني الصالح وان لوكلوس هو الروماني الفاسد ومع هذا فقد كان لوكلوس يبتعد عن عادة الاجداد ولذلك كان واسع المدارك حسن التربية لطيف المأتى مفطورًا على العطف على الخدم والرعايا .

الانقلاب الديني والعقلي

العبادات الجديدة — لم يكن بين ارباب الرومان وارباب اليونان من شبه حتى في الاسماء ومع هذا اعتقد اليونان بان معظم الارباب المعبودة في رومية كانت اربابهم احبوا

ان يعترفوا بانها كذلك · والى ذاك العهد لم يكن للارباب الرومانية شكل خاص ولا تاريخ معين وهذا مادعا الى الارتباك في حالتها فجرى تمثيل كل رب روماني على صورة رب يوناني واخترعوا له تاريخاً وحكايات ·

فخلطوا بين المشتري اللاتيني وزيوس اليوناني وجونون مع هيرا ومنيرفا ربة الذاكرة مع بالاس ربة الحكمة وديان زوجة جانوس مع ارتيمس الصيادة البديعة ومزجوا هركول رب السواد بهيراكليس الغالب على الغيلان · وهكذا دخلت الميثولوجيا اليونانية تحت اسماء لاتينية واستحال ارباب رومية الى ارباب يونان · امتزجت الارباب بعضها ببعض حتى اعتدنا ان نطلق على الارباب اليونانية اسماء لاتينية فلا نزال نقول ارتيمس ديان وبالاس منيرفا · وبالميثولوجيا اليونانية اعتاد الرومان ان يصوروا اربابهم في تماثيل كما اقتبسوا ايضاً بعض الاحتفالات اليونانية وكانت الحكومة الرومانية ادخلت الى بلادها عبادة ابولون وبدأ بعض الافراد يعبدون باخوس رب الكرمة · ويحتفل من يعبدون باخوس بعبادته من الليل سراً ولا يطلعون احداً على خفايا العبادة الباخوسية واخذ المجلس يحقق فرأى المتعبدين بهذه العبادة سبعمائة شخص بين رجال ونساء اشتركوا معاً في هذه الاسرار فقضى عليهم بالموت ·

ثم ان الرومان اخذوا ايضاً يعبدون ما يعبد شعوب الشرق فقد كان سنة ٢٢٠ في رومية معبد للرب سيرابيس المصري فامر مجلس الشيوخ بهدمه فلم يجسر احد الفعلة على ذلك وبقي المعبد لا يمس بسوء حتى جاء القنصل بنفسه فضرب ابوابه بالفأس

وبعد سنين اي في سنة ٢٠٤ خلال حرب هانيبال بعث مجلس الشيوخ الى آسيا الصغرى بوفد للبحث عن المعبودة سيبيل وكانت هذه الام الكبرى كما كانوا يدعونها مصورة على حجر اسود فاتى بها مندوبو مجلس الشيوخ باحتفال حافل وجعلوها في رومية وقد لحق بها كهنتها واخذوا يطوفون الشوارع على اصوات المزامير والصنوج لابسين البسة شرقية يتوكفون الاكف على الابواب

ثم غصت بلاد ايطاليا بالسحرة من الكلدان ولم يكن العامة يعتقدون وحدهم بهؤلاء العرافين · ولما هدد برابرة السمبر مدينة رومية سنة ١٠٤ تقدمت عرافة من سورية اسمها مارتا فعرضت على مجلس الشيوخ الروماني بانها تتوسط في غلبة رومية على عدوتها فطردها مجلس الشيوخ ولكن النساء الرومانيات بعثن بها الى المعسكر فابقاها ماريوس القائد العام لديه وما فتيء يأخذ رأيها الى ان وضعت الحرب اوزارها · ورأى سيللا في نومه ربة كابودسيا فعمل بنصيحتها وسار الى ايطاليا ·

السفسطائيون — لم يكن يأتي الى رومية كهنة وعرافون فقط بل كان ينزل فيها فلاسفة يحتقرون الدين القديم · ومن اشهرهم كارنياد سفير الآثينيين فانه كان يصرح بافكاره في رومية امام الجمهور فيخف شبان الرومان الى سماع اقواله حتى اراد مجلس الشيوخ على الخروج من المدينة الا ان الفلاسفة ظلوا على بث مبادئهم في رودس وآثينة حتى اصبح من السنن المألوفة ان يبعث الرومان بفتيانهم الى تينك المدينتين يتعلمون فيها الفلسفة

وفي القرن الثالث قبل المسيح ألف ايفهمير اليوناني كتاباً ينفي فيه وجود الارباب وانها ليست الا رجالاً ألهم الناس حتى ان المشتري نفسه كان ملكاً على كريت · فانتشر كتابه اي انتشار ونقله الشاعر انيوس باللاتينية · وعلى هذا النحو اخذ اشراف رومية يسخرون من اربابهم ولم يبقوا من الدين القديم الا على مراسمه وظواهره (١) وكان اهل الطبقة العالية في المجتمع الروماني مدة زهاء قرن يعتقدون بالخرافات اعتقاد سفسطائيين لا يؤمنون بشيء

الحياة العقلية — كان غاية ما يعلم اليونان الاقدمون اولادهم القراءة فقط في الزمن الذي كان فيه بوليب في رومية (قبل سنة ١٥٠) و يعهد المحدثون من الرومان بتعليم ابنائهم الى مربين من اليونان ولذلك افتتح اناس من اليونان في رومية مدارس لتعليم الشعر والبلاغة والموسيقى · وكانت الاسرات الكبرى تنقسم الى اناس يتعلمون على الطريقة القديمة وآخرين على الحديثة · ولكن بقي في الاذهان شيء من الموسيقى والرقص فكانوا ينظرون اليهما بانهما من الصناعات المهينة بمن يتعاطاها اذا كان كريم المحتد · قال سيبون املين حامي اليونان في كلامه على مدرسة رقص كان يختلف اليها بنون وبنات من الخاصة : ما كنت اتوهم عند ما ذكر لي ذلك ان اناساً من الاشراف يعلمون مثل هذه الامور لاولادهم ولما اخذوا بيدي الى مدرسة الرقص رأيت فيها زهاء خمسمائة صبي وبنت وفي جملتهم ولداً شريفاً في الثانية عشرة من عمره وهو احد المرشحين للانتخابات يرقص على نغمات البوق « كروتال » وقال سالوست في كلامه على عقيلة رومانية قليلة الاعتبار انها كانت تضرب على الطنبور وترقص احسن مما يليق بامرأة محتشمة » ·

التربية — استهوى نساء الرومان حب الاديان الشرقية والبذخ الشرقي في اسرع ما يكون فكن يذهبن زرافات زرافات الى معابد باخوس ومساجد ايزيس · وقد سنت لهن قوانين ليمنعن بها من لبس الالبسة الثمينة وركوب العجلات واتخاذ الحلي والجواهر ولم تلبث ان ألغيت فصار النساء في حل من ان يلبسن كالرجال ما يشأن وانقطع النساء النبيلات عن العمل والجلوس في بيوتهن وانشأن يخرجن في أبهة و يختلفن الى دور التمثيل والملاعب والحمامات

(١) قال شيشرون : يجب ان نبقي على عادة اخذ الطالع لئلا نمس العامة في معتقداتهم

والمجتمعات · واذ كنَّ بلا عمل ومن الجهل على جانب سرى الفساد اليهن في الحال حتى اصبح النساء الطاهرات في طبقة الاشراف من النوادر

سقط النظام القديم في تربية الاسرات وجعل القانون الروماني الزوج سيد زوجته وابتدعوا ضرباً جديداً من الزواج يجعل المرأة تحت تصرف ابيها ولا يكون للزوج ادنى سلطة عليها وكان الآباء يجهزون بناتهم بجهاز وصداق يجعلوهن اكثر استقلالاً ·

وكان من حق الزوج وحده ان يطلق امرأته ومن العادة ان لا يحاد عن هذا الحق الا في احوال استثنائية شديدة فصار للمرأة الحق ان تترك زوجها واصبح منذ ذاك العهد من الهين اللين ان يفصم الزوجان عرى ارتباطهما ولم يعودا يحتاجان الى حكم حاكم ولا الى سبب مشروع ويكفي احد الزوجين متى استاء من زوجه ان يقول له : « احمل ما يخصك واعد لي ما املكه » وبعد الطلاق يتيسر لكل منهما بل للمرأة ايضاً ان يتزوجا في الحال ·

وبلغت الحال في الطبقة الرومانية العالية ان تعتبر الزواج عقداً موقتاً فقد تزوَّج سيللا بخمس نساء وقيصر باربع وبومبي بخمس وانطونيوس باربع · وتزوجت ابنة شيشرون من ثلاثة رجال وطلق هورتانسيون زوجته ليزوجها من احد اصدقائه

بيد ان هذا الفساد لم يُصب غير اشراف رومية ومن حذا حذوهم من اهل النعمة الحديثة اما في أُسر رومية والولايات فقد حفظت قروناً آداب الدور القديم القاسية الشديدة واخذت تربية الاسرة ترق شيئاً فشيئاً والمرأة تحرر من استبداد الرجل ببطء

التبدل الاجتماعي

زوال الطبقة الوسطى — كان الشعب الروماني القديم مؤلفاً من صغار ارباب الاملاك وهم يتعاطون زراعة حقولهم بانفسهم ومن هؤلاء الفلاحين الصالحين الاقوياء يتألف الجيش والمجلس · وكان عددهم كثيراً سنة ٢٢١ خلال الحرب الفينيقية الثانية · وفي سنة ١٣٣ لم يبق منهم احد · لا جرم انه هلك منهم كثيرون في الحروب التي اعلنتها رومية على البلاد القاصية ولكن هلاكهم يُحمل في الاكثر على انه كان من المتعذر عليهم البقاء · فقد كانوا يعيشون من زراعة القمح منذ مااخذت ترد على رومية حبوب صقلية وافريقية فسقطت اسعار الحنطة بحيث لم يتيسر للحراثين الايطاليين ان يستخرجوا من غلاتهم ما يغذون به اسراتهم ويتحملوا اعباء الخدمة العسكرية فقضي عليهم من ثم ان يبيعوا حقولهم يبتاع كل غني من جاره الفقير ارضه فغدت الحقول الصغيرة ماكاعظماً لواحد وصير ارباب الاملاك من تلك الاراضي مروجاً يقيمون فيها ماشيتهم واذا عنَّ لهم ان يزرعوها فيعثون اليها برعاة وحراثين من العبيد بحيث لم يمض قليل حتى لم يبق على ارض ايطاليا

الا بعض كبار ارباب الاملاك وجماعات من العبيد . وكان بلين القديم يقول ان الاملاك العظيمة قد اخطأت ايطاليا ومع هذا فالدوائر العظمى هي التي قضت في الارياف على احرار الفلاحين . فصاحب الارض القديم الذي اباع حقله لم يستطع ان يبقى اجيرًا بل قضي عليه ان يتخلى عن مكانه ليحل محله العبيد وبهذا اصبح هائمًا على وجهه لاعمل له ولا شغل قال فارون في رسالته في الزراعة ان معظم زعماء الاسرات دخلوا بيوتنا تاركين المنجل والمحراث وآبوا يؤثرون التصفيق بايديهم في الملاعب على العمل في حقولهم وكرومهم .

الطبقات الاجتماعية — ليس الشعب في رومية كما هو في يونان عبارة عن مجموع السكان بل هو مجموع الوطنيين ولا يعد وطنيًا كل رجل ينزل أرض البلاد بل الوطني هو الذي له حق التمتع بحقوق الوطنية . وللوطني عدة امتيازات فله الحق وحده ان يكون عضواً في الهيئة السياسية وله الحق وحده ان يقترع في مجالس الشعب الروماني وان يخدم في الجيوش الرومانية ويحضر احتفالات رومية المقدسة وينتخب حاكمًا رومانيًا وهذا ما يسمونه بالحقوق العامة . وللوطني الحق وحده ان يحميه القانون الروماني ويحق له فقط ان يتزوج على طريقة مشروعة ويكون رب أسرة أي حاكمًا مطلقًا على زوجته وأولاده وان يوصي بما يشاء ويبيع ويبتاع ممن يشاء وهذا ما يسمونه بالحقوق الخاصة

ولا يحرم من لم ينالوا حق الوطنية الرومانية من الخدمة في الجيش والمجالس فقط بل لا يسوغ لهم ان يكونوا ازواجًا ولا آباء والا أصحاب أملاك مشروعة ولا ان يتقاضوا الى القانون الروماني ويحاكموا في المحاكم الرومانية ولذا تألفت من الوطنيين طبقة من الاشراف بين سواد الامة من غير طبقتهم وهم لا يتساوون بينهم أيضًا . وبينهم فرق في الطبقات أو كما يقول الرومان في الصفوف .

النبلاء — النبلاء هم في الصف الأول من الامة فكل وطني يعد في النبلاء اذا سبق لاحد أجداده ان تولى شيئًا من امر الامة لان الحكم في رومية من علائم الشرف ينبل به من تولاه كما يكون بضعة شرف لاخلافه من بعده . اذا أنصب احد من الوطنيين ناظرًا للملاعب والابنية أو قاضيًا أو قنصلاً تخلع عليه خلعة مطرزة بالارجوان ويمنح كرسيًا كالعرش ويحق له ان يرسم ويصور . وهذه الصور عبارة عن تماثيل صغيرة تعمل من الشمع اولا ثم تطلى بالفضة وتجعل في مزار الدار (اتريوم) بالقرب من الكانون وارباب البيت وتجعل في مخادع خاصة بها كما تجعل الاصنام ويعبدها الذرية من اهل البيت . ومتى مات احد في الاسرة يخرجون الصور ويجرونها على مركبة في موكب ويأخذ احد انسباء المتوفى يعدد صفاته ويرثيه . وهذه الصور هي التي تشرف الاسرة كلما احتفظت بها وكلما كثرت الصور في

أسرة تزداد شرفًا فيقولون فلان شريف بصورة او شريف بعدة صور . والاسر الشريفة في رومية قليلة جدًا (ولم يكن فيها اكثر من ثلثمائة اسرة) لان المناصب التي تولي صاحبها شرفًا توسد في الغالب الى اناس حازوا الشرف من قبل

الفرسان — تجيء طبقة الفرسان بعد طبقة النبلاء . وهم أغنياء الوطنيين الذين لم يعهد لهم جدود من الحكام فتقيد ثرواتهم في سجلات الاحصاء وينبغي ان لا يقل ما يملكه احدهم عن اربعمائة الف سسترس (او مئة الف فرنك) منهم التجار والصيارف والملتزمون وهم لا يحكمون بل يغتنون . ولهم في دور التمثيل اماكن خاصة بهم تقع الى ماوراء مقاعد طبقة الاشراف . وربما ساغ للفارس منهم ان ينتخب حاكما وعندها يدعونه الرجل الحديث النعمة ويصبح ابنه شريفا

العامة — العامة هم غير طبقة الاشراف والفرسان فهم جمهور الامة ويكونون من نسل ابناء البلاد في ايطاليا وينتقلون من فلاحين اصحاب املاك الى وطنيين رومانيين . ويعد في طبقتهم العبيد المعتوقون او قدماء العبيد وابناؤهم . ويحافظون على مميزات اصولهم ولا يقبلون في خدمة الجيش الروماني ولا ينتخبون الا بعد غيرهم . ولقد مضت ازمان وصغار ارباب الاملاك يؤلفون السواد الاعظم من الامة وبينما كانت الارياف تصفر من قلة الناس غصت رومية بالواردين عليها فانهال عليها اليونان والسوريون والمصريون والآسياويون والافريقيون والاسبانيون والغاليون ممن أخذوا من بلادهم وبيعوا بيع العبيد ثم اعتقهم مواليهم فاصبحوا وطنيين ضاقت بهم المدينة فهم كانوا شعبًا جديدًا ليس له من الرومانية غير اسمها

خطب سبيون غازي قرطاجنة ونومانس جمهورا من الناس في احدى الساحات فقاطعه العامة باصواتهم فقال لهم :« صه ايها الابناء الادعياء المنتسبون لايطاليا زورًا فمن العبث ما تفعلون لان من جلبتهم الى رومية مقيدين لا اهابهم ولو حلت قيودهم» وهذه الطبقة الجديدة من السوقة تعيش بكدحها او يقضى على الحكومة ان تطعمها وقد اخذت الحكومة سنة ١٢٥ تقدم لعامة الوطنيين حنطة بنصف ثمنها المعتاد تأتي بها من صقلية وافريقية . ومنذ سنة ٦٣ اخذت توزع الحنطة مجانًا وتشفعها بزيت . ورأى قيصر سنة ٤٦ ان من كانوا يتناولون هذه الجراية بلغوا ٣٢٠ الفًا

العبيد — جميع الاسرى وسكان البلد المفتوح ملك للفاتح يتصرف فيهم فاذا ابقى عليهم ولم يقتلهم يستعبدهم له . هكذا كان الحق القديم . وقد ظل الرومان يعملون به بالحرف يعاملون الاسرى كأنهم بعض الغنيمة يبيعونهم من النخاسين الذين يتبعون الجيش واذا حملوهم

الى رومية فانما يحملونهم ليبيعوهم في المزاد (١) وهكذا كانوا يبيعون عقيب كل حرب الوفًا من الاسرى رجالاً ونساءً والاولاد الذين يولدون من اسيرات يكونون اسرى كامهاتهم فالامم المغلوبة للرومانيين هي مادة الرقيق الروماني

العبد ملك صاحبه فهو لا يعتبر اعتبار شخص بل اعتبار متاع فمن ثم ليس له حق من الحقوق فلا يكون وطنيًا ولا مالكاً ولا زوجًا ولا ابًا . قال احد الابطال في رواية هزلية رومانية : « اي شيء هذا أعرس عبيد ! ما اعجب عبد يتزوج ! ان هذا مخالف لعادة جماع الامم » .

وللمولى جميع الحقوق على عبده يرسله حيث يريد ويشغله على ما يرى بل يشغله اكثر من طاقته ويطعمه اخشن طعام ويضربه ويعذبه ويقتله دون ان يسأله احد عما جنى . وعلى العبد ان يخضع لرغائب سيده كلها . ويقول الرومان ان العبد لا وجدان له وان الواجب عليه ان يطيع مولاه طاعة عمياء فاذا قاوم او ابق من بيته فالحكومة تعاون سيده على قمع جماحه او القبض عليه وكل من يؤوي عبداً آبقًا تجري عليه احكام اللصوص كأنه سرق بقرة او حصانًا لغيره .

والعبيد في المملكة الرومانية اكثر من الاحرار ويملك اغنياء الوطنيين من عشرة الى عشرين الف عبد وعند بعضهم منهم من يكفون لتجنيد جيش كامل . وكان لسيليوس ايزدوروس احد قدماء العبيد زهاء اربعة آلاف عبد وكان عند هوراس سبعة اعبد فكان يشكو من فقره . ومن علائم الفقر في رومية ان لا يملك المرء سوى ثلاثة اعبد .

واذ كان العبيد يعملون اشق الاعمال او يسترسلون في البطالة مكرهين وهم ابداً اعرضة للضرب بالسياط والتعذيب اصبحوا بحسب فطرهم اما متوحشين اغبياء او انذالاً مستعبدين ومن كان منهم على شيء من الشهامة ينتحرون وغيرهم يعيشون كالآلة الصماء . وكان الشيخ كاتون كثيراً ما يقول : على العبد دائمًا ان يعمل او ينام . ومعظم العبيد يفقدون الاحساس والشرف ولذلك كانوا يقولون هذا عمل عبيد يريدون به انه دنيء رذل

الحياة السياسية

الحكام — ينتخب الشعب كل سنة رجالاً يتولون امره ويفوض اليهم السلطة المطلقة ويطلق عليهم اسم الحكام « اي ولاة الامر » فيسير امامهم حملة الفؤوس يحملون حزمة

(١) تقام سوق الرقيق في كل مدينة ذات شأن كما تقام سوق للبقر والخيل فيعرض العبد الذي يراد بيعه على دكة وقد نيطت في عنقه بطاقة كتبت فيها سنه وصفاته وعيوبه

من القضبان وفأساً . ومعنى هذا الرمز ان للحاكم ان يضرب ويقتل على ما يراه مناسباً ومن حق الحاكم ايضاً ان يرأس مجلسي الامة والشيوخ وان يكون له محل في المحكمة ويقود الجيوش وهو السيد المسود في كل مكان فيجمع المجلس ويفضه بحسب ما يرى ويصدر الاحكام برأيه وحده .

وفي زمن الحرب يفعل ما يشاء بالجند ويقتلهم دون الرجوع الى رأي ضباطهم . وقد كان مافليوس القائد الروماني في احدى الحروب التي أعلنت على اللاتين حظر على الجنود الخروج من المعسكر فدعا احد المقاتلين من جيش العدو ابنه الى المبارزة فخرج لبرازه وقتله فلم يعتم مافليوس ان قبض على ابنه واعدمه في الحال .

وللحاكم بحسب التعبير الروماني سلطة ملك ولكن هذه السلطة قصيرة موزعة وذلك لانه لا ينتخب الا لسنة واحدة وله رصفاء لهم مثل سلطته ففي رومية قنصلان او حاكمان يتوليان امر الامة وقيادة الجيش وفيها عدة قضاة يتولون الحكم او القيادة بالنيابة ويصدرون الاحكام وهناك كثير من الحكام ومراقبان واربعة نظار للابنية والملاعب للنظر في الطرق العامة والاسواق وعشرة محامين عن حقوق السوقة وصيارفة يتولون النظر في خزائن المملكة

الاحصاء — ارقى الحكام هما الوكيلان المسيطران وهما مكلفان كل خمس سنين بتنظيم احصاء للشعب الروماني فيمثل امام المكلفين باحصاء جميع ابناء البلاد ليذكروا لهما وهم يقسمون الايمانات اسماءهم وعدد اولادهم وعبيدهم ومقدار ثروتهم يقيد كل ذلك في سجلات خاصة . والقائمان باحصاء الامة هما اللذان يكتبان قائمة باسماء اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان والوطنيين ويحددان لكل واحد مقامه في المدينة ثم هما مكلفان ايضاً بان يحتفلا احتفال الثريا وهي حفلة عظمى تقام للتزكية كل خمس سنين فيجتمع ذلك اليوم عامة الوطنيين في ساحة المريخ اجتماعهم في حرب ويطوفون ثلاث مرات حول المجلس يحملون ثلاث ضحايا لتكفر عن السيئات وهي عبارة عن ثور ونعجة وخنزير يخنقونها ويرشون المجلس بدمها وبذلك تصبح المدينة مزكاة مطهرة وسلماً مع الارباب .

وللقائمين بالاحصاء الحق ان يقيدا وان يجعلا كل انسان في المنزلة التي يريانها ولهما ان يجردا احد الشيوخ باسقاطه من قائمة مجلس الشيوخ وان لا يحسبا احد الفرسان في جملة اهل طبقته او يحرمان احد الوطنيين بان يحذفا اسمه من سجلات القبائل . ويسهل عليهما عقاب من يرونهم مجرمين ويتجاوزان عن السيئات التي لا تقدح بمنطوق القانون . ولطالما رأوهما يجردان الوطنيين لانهم لم يحسنوا التوفر على حقولهم ولصرفهم كثيراً على خدمهم وبحجنوا احد الشيوخ لانه كان يملك عشر ليبرات من الاواني الفضية وآخر لانه اهمل تعهد قبور

جداده · وغيره لانه طلق زوجته · هذه السلطة المفرطة هي ما يطلق الرومان عليه « حكومة الاخلاق » فوكيلا الاحصاء هما سيدا المدينة على الجملة ·

جلسة مجلس الشيوخ — يتألف مجلس الشيوخ من نحو ثلثمائة رجل يعينهم وكيل الاحصاء الا ان هذا لا ينصبهم كيفما اتفق فلا ينتخب من ابناء البلاد الا الاغنياء اصحاب المكانة وسلالة الاسرات الكبرى ومعظمهم من قدماء الحكام ويختار على الاغلب دائماً اناساً كانوا في المجلس من قبل بحيث ان عضو مجلس الشيوخ يبقى في هذا المنصب طول حياته · فمجلس الشيوخ هو محل اجتماع اهم رجال رومية ولذلك كانت لهم سلطة وسطوة

فاذا حدث امر يجمع احد الحكام اعضاء الشيوخ في احد المعابد ويعرض عليهم المسألة ثم يسألهم رأيهم فيها فيجيبه كل واحد بمفرده مراعين في ذلك مراتبهم في الشرف وهذا ما يدعى اخذ رأي مجلس الشيوخ ويسطر الحاكم بعد ذلك رأي الاكثرية وهذا ما يسمونه مرسوم ديوان الاعيان او الشيوخ ويكون قرارهم عبارة عن رأي لان ليس من حق مجلس الشيوخ ان يقنن القوانين · بيد ان رومية تعمل بهذا الرأي عملها بأمر مفروض · وللشعب ثقة بشيوخه لعلمه بانهم اكثر خبرة منه ولا يجرأ الحكام على مقاومة مجلس مؤلف من اكفاء يساوونهم في الشرف · ولذلك كان المجلس يفض جميع المسائل فيقرر الحرب ويعين عدد الجيوش ويقبل السفراء ويعقد السلم ويفرض الدخل والخرج فيصدق الشعب على قراراتهم والحكام ينفذونها · وفي سنة ٢٠٠ قرر مجلس الشيوخ اعلان الحرب على ملك مكدونية فاوجس الشعب خيفة ولم يوافق على ذلك فصدر امر مجلس الشيوخ بجمع المجامع من جديد وان يلقي عليهم خطاب يكون ابلغ في اقناعهم من الخطاب الاول وعندها لم يسع الشعب الا الموافقة · وبذلك رأيت ان الشعب في رومية كان يحكم كما يحكم الملك في انكلترا ولكن كان الحكم لمجلس الشيوخ

المجالس والانتخابات — تسمى حكومة رومية « الجمهورية » اي متاع الشعب وجماعة الوطنيين المدعوين شعباً كأنهم سادة مستقلون في المملكة فمنهم الذين ينتخبون الحكام ويوافقون على الحرب والسلام ويسنون الشرائع ويقول الفقهاء ان القانون هو ما امر به الشعب والشعب في رومية كما في آثينة لا يعين نواباً وعليه ان يوافق على كل شيء بنفسه حتى ان حكومة رومية بعد ان قبلت في المدينة زهاء خمسمائة الف رجل كانوا مشتتين في اطراف ايطاليا كلها اضطر الوطنيون للحصول على حقوقهم ان يحضروا بالذات الى رومية ·

ويجتمع الشعب في الساحة ويسمى المجلس « المجتمعات » يدعوه الحاكم الى الالتئام برئاسته وكثيراً ما يدعى الوطنيون الى الاجتماع بصوت البوق فيذهبون الى ميدان

العمل(ساحة المريخ) يصطفون فرقاً تظلهم اعلامهم وعندها يتألف منهم مجتمعات ذات فرق وكثيراً ما يجتمعون في ساحة السوق « الفوروم» منقسمين الي ٣٥ جماعة يسمونها القبائل فتدخل كل قبيلة في نوبتها الى مكان مسور بسدود لتوافق على ماتقرر به وتسمى المجتمعات بحسب القبائل . والحاكم الذي جمع المجلس يبين له المسألة التي يجب عليه الموافقة عليها ومتى فعل ينفض . فمن ثم كان الشعب حاكماً ولكنه اعتاد الخضوع لزعمائه .

والمجلس ايضاً هو الذي يختار كل سنة الحكام فينتخب بحسب الفرق جميع الحكام الذين كان انتخبهم الشعب قديماً مثل القناصل والقضاة ووكلاء الاحصاء ونظار الابنية والملاعب ومجلس القبائل ينتخب حكام اهل الطبقة المتوسطة ومحامي الشعب ونظار ابنية الشعب . وقد ضاقت ساحة الفوروم منذ القرن الثاني فاخذت تجتمع جميع مجالس الانتخابات في ساحة المريخ تنقسم الرحبة بحواجز ذات مرابض صغيرة تلقب بحدائق الغنم فتنقطع كل قبيلة الى احدى تلك الرحاب وتلاحظ كل قبيلة اكثرية الوطنيين في التصويت اذ ليس لكل قبيلة غير صوت واحد .

سلك المناصب — ليس تولي الحكم او المشيخة عن الامة في رومية صناعة من الصناعات فان الحكام والشيوخ يصرفون وقتهم ومالهم دون ان ينالوا اجراً فمنصب الحكم في رومية يعدُّ من دواعي الشرف فلا يتطالُّ اليه غير الاشراف او الفرسان على الاقل على شرط ان يكونوا اغنياء ثم لا يطمع امرؤٌ ان يبلغ ارقى مناصب الحكم الا بعد ان ينقلب في المناصب الاخرى

ومن اراد يوماً ان يحكم على رومية يجب عليه اولاً ان تكون له في الجيش عشر وقائع وحملات وبعدها يسوغ له ان ينتخب صرافاً فيعهد اليه النظر في احدى خزائن المملكة . ثم يصير ناظراً للابنية والملاعب فينظر في امور الشرطة والبياعات وبعد ذلك ينتخب قاضياً فيجري احكام العدل وعقيب ذلك يصبح قنصلاً فيقود جيشاً ويرأس المجالس وعندئذ تحدثه نفسه بان يكون وكيل احصاء وهذه هي الدرجة التي دونها في العلو كل درجة لا يبلغها المرء قبل ان يبلغ الخمسين من العمر . فترى بهذا ان رجلاً واحداً يكون مالياً واداريًّا وقاضياً وقائداً وحاكماً قبل ان يتولى وظيفة وكيل الاحصاء الغريبة وهي عبارة عن تنظيم المجتمع وتسمى سلسلة هذه الوظائف سلك المناصب ولا تدوم كل وظيفة من هذه الوظائف الا سنة واحدة وللارتقاء للوظيفة التالية يقتضي انتخاب جديد . ويجب على الموظف في خلال السنة التي تتقدم انتخابه ان يظهر في الشوارع بلا انقطاع ويسير كما يقول الرومان او يطمع في امتياز المنصب وان يلتمس اصوات الشعب والعادة في خلال هذه المدة ان يلبس حلة بيضاء وهذا معنى مرشح باللغات الافرنجية اي المكتسي بالبياض .

ادارة الولايات

الشعوب الخاضعة — ما انقضى القرن الاول قبل المسيح الا وقد اخضعت رومية عامة الاقطار الواقعة حول البحر الرومي منذ اسبانيا الى آسيا الصغرى ولم تضف هذه البلاد الى المملكة الرومانية ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ولم تغدُ ارضهم ارضاً رومانية بل ظلوا غرباء وانضموا فقط الى هذه المملكة اي انهم اصبحوا تحت استيلاء الشعب الروماني كما ان الهنود اليوم ليسوا وطنيين انكليزاً بل هم رعايا انكلترا والهند جزء لا من انكلترا بل من المملكة الانكليزية فقط

فلا يصبح سكان البلاد المغلوبة وطنيين في رومية بل يبقون غرباء اجانب ولكنهم رعايا الشعب الروماني يؤدون اليهم الجزية وعشر غلاتهم واتاوة من المال ورسماً على كل رأس وعليهم ان يخضعوا الجماع ما يأمرونهم به واذ ليس في استطاعة الشعب ان يحكم بالذات ليبعث بحكام ينتدبهم لان يحكموا عنه وكل بلد خاضع لوالٍ كان يسمى ولاية ومعناها «المهمة» كان في اواخر عهد الجمهورية (في سنة ٤٦) ١٧ ولاية منها عشر في اوربا وخمس في آسيا وثنتان في افريقية ومعظمها متنائية الاطراف جداً فلم تكن بلاد الغال كلها سوى اربع ولايات واسبانيا ولايتين . قال شيشرون ان الولايات املاك الشعب الروماني فاذا اخضع هذه الشعوب بأسرها فذلك طمعاً في فائدتها لا لاجل منفعتهم ولذلك لا يتوخى ان يدير تلك الولايات بل يحرص على استثمارها .

الولاة — يتخذ الشعب حاكماً لادارة كل ولاية وهو اما ان يكون قنصلاً او قاضياً خرج من الوظيفة فيطيل امد سلطته وليس هذا الموظف الكبير قنصلاً بل هو والٍ ينوب عن القنصل وللوالي كما للقنصل سلطة مطلقة يسير فيها على هواه لانه وحيد في ولايته (١) وليس لديه حكام آخرون ينازعونه السلطة ولا محامون عن الطبقة الوسطى ليصدوه عما يريد ولا مجلس شيوخ يسيطر على اعماله فهو وحده يقود الجيوش ويحملهم على القتال وينزل بهم حيثما يشاء فيتخذ له مقاماً في محكمته حاكماً بالغرامة والسجن والموت ويصدر اوامر تكون قانوناً متبعاً وله وحده السلطة العالية لان فيه يتجسد الشعب الروماني

وكان هذا الحاكم الذي لا يقاومه مقاوم مستبداً حقيقياً فيقبض على من يريد ويحبس ويضرب بالعصي ويعدم من لا تروقه حالتهم واليك مثالاً من ألوف الامثلة التي كان

---

(١) كانت تبقي رومية في بلاد الشرق بعض اقيال اي ملوك صغار مثل الملك هيرو في بلاد اليهودية ولكنهم يؤدون الجزية ويخضعون للحاكم او الوالي الروماني .

الحكام يجرون فيها مع الهوى كما روله احد خطباء الرومان قال : « جاء القنصل مؤخرًا الى تيانوم نخطر لامرأته ان تلتذ بالاستحمام في حمامات الرجال فاخرج من الحمام الرجال الذين كانوا يستحمون فيه فشكت المرأة من ابطائهم وقلة استعداد الحمام فنصب القنصل عمودًا في الساحة العامة واحضر اشهر رجل في المدينة ليجعل عليه بجرد من ثيابه وضرب بالعصي

والوالي يأخذ من ولايته ما يستطيع من المال وينظر اليها كأنها ملك له ولا تعوزه الوسائط لاستثمارها بل يمد يديه الى خزائن المدن وينزع التماثيل والحلي الموضوعة في المعابد ويجبي من السكان الاغنياء اتاوات من المال او البر . واذ كان له الحق ان ينزل جنوده حيث اراد فالمدن تقدم له المال لتعفى من قبول جنوده واذ كان في حل من ان يعدم كل من يتراءى له فالافراد يعطونه المال ليأمنوا غائلته . واذا طلب شيئًا نقيًا او مبلغًا من المال يجاب في الحال الى ما طلب ولا يجرأ امرؤ ان يأبى عليه طلبه . واتباعه يسيرون على مثاله ويتهبون باسمه بل بحمايته ويسرع الوالي في جمع المال اذ الواجب عليه ان يغتني في سنة وبعدها يعود الى رومية ويخلفه آخر يعود بمثل ما بدأ فيه سلفه .

على ان هناك قانونًا يحظر على كل وال ان يقبل هدية ومحكمة مخصوصة (منذ سنة ١٤٩) تنظر في دعاوي الاختلاس . بيد ان هذه المحكمة تؤلف من طبقة الاشراف والفرسان الرومانيين فلا يرون ان يحكموا على ابن بلدهم والعاقبة المهمة في هذه الطريقة كما قال شيشرون ان يضطر الوالي الى بسط يده في السلب من ولايته ليتسنى له ان يرشي المحلفين في المحكمة ولا ينبغي العجب اذا رأينا اسم الوالي مرادفًا لاسم مستبد ومن اشهر هؤلاء اللصوص فيريس والي صقلية وقاضيها وقد خطب في بيان اعماله الخطيب شيشرون لاسباب سياسية خطبًا اشتهر بها ومن المحتمل ان كثيرين مثله قد اتوا ما اتاه .

العشارون — كان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين فكان هؤلاء مثل المزارعين العموميين في فرنسا قديمًا يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج ويجب على سكان الولايات ان يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني

وكان في كل ولاية عدة شركات من العشارين ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون في مظهر السادة ويتناولون اكثر مما يجب لهم اخذه ويسلبون نعمة الاهلين وكثيرًا ما يبيعونهم كما يباع الرقيق وكانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب ولما طلب ماريوس من ملك بيثنيا ان يقدم له جندًا اجابه الملك ان العشارين لم يبقوا عنده من الرعايا غير النساء والاطفال والشيوخ وقد عرف الرومان هذه المظالم حق معرفتها وكتب

الخطيب شيشرون الى اخيه وكان هذا حاكماً اذ ذاك : « اذا وفقت الى طريقة ترضي بها العشارين دون ان تهلك سكان الولايات فتكون قد رزقت مهارة رب » بيد ان العشارين كانوا قضاة في محاكمهم حتى ان الولاة انفسهم خاضعون لهم . وقد اراد سكاروس والي آسيا المشهور بالافراط في العفة ان يمنع العشارين من اطالة يد الاذى في ولايته فلما عاد الى رومية رفعوا عليه شكوى وحكموا عليه

ولطالما اثار العشارون سخط سكان الشرق الخاضعين الساكنين فقد ذبحوا بامر ميتيريداتس في ليلة واحدة مئة الف روماني وبعد قرن اي على عهد المسيح كان اسم عشار مرادفاً لاسم لص .

الصيارف — جمع الرومان في بلادهم ثروة الامم المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة جداً في الولايات فكان في رومية يمكن الاقتراض بفائدة اربعة او خمسة في المئة اما في الولايات فلا يجد المستدين مالاً يقترضه باقل من اثني عشر في المئة . وكان الصيارف الرومان يقترضون مالا من رومية ويقرضونه للولايات ولا سيما باسم الملوك او المدن

واذا لم يستطع المستدين ان يوفي رأس المال والرباه يعمد الصيارف في تقاضي اموالهم الى الطرق التي يستعملها العشارون فقد اقترضت مدن آسيا سنة ٨٤ على نية ان تدفع مبلغاً كبيراً لتستعين به على الحرب فبعد اربع عشرة سنة فقط اي في سنة ٧٠ صار المبلغ بفوائده ستة اضعاف ما كان فاضطر الصيارف مدن آسيا ان تبيع حتى التحف والطرف وقد شوهد ابوان يبيعان ابناءهما وبناتهما . وبعد بضع سنين اقرض بروتوس من حكماء الرواقيين ومن اشهر رجال عصره من الرومان واعلاهم كعباً ومكانة لمدينة سلامينة في قبرص مبلغاً من المال بفائدة ٤٨ في المئة (اي ٤ في المئة كل شهر) فلما طالب وكيله سكابتيوس بالمال مع فائضه تعذر على المدينة ان تؤدي اليه مطلوبه فقصد سكابتيوس الوالي ابيوس فاصحبه هذا بفرقة من الفرسان فجاء الى سلامينة وحاصر مجلس شيوخها وكان اعضاؤه في قاعة الجلسات فمات خمسة منهم جوعاً

رعايا رومية — كان سكان الولايات لا حول لهم ولا طول مع هؤلاء الظالمين بامرهم وذلك لان الولاة كانوا يطلقون العشارين والصيارف على رغائبهم ويأخذون بايديهم في كل ما يطلبونه وو راء الوالي الجيش والشعب الروماني يعضدانه فكان يسمح للوطني الروماني ان يشتكي السلابين في الولايات ولكن لا يمس الوالي بأذى ولا تتأتى شكايته الا مرة واحدة عند ما يخرج من الخدمة فيصبر عليه الرعايا يسلبهم ويعتدي كما يشاء ريثما تنقضي مدته

واذا اتهم عند عودته الى رومية فتكون محاكمته امام محكمة مؤلفة من الاشراف والعشارين ممن تكون مصلحتهم في معاضدته لا في احقاق الحق ورفع ظلامة اهل الولاية التي كان فيها واذا صادف ان حكمت عليه المحكمة يستعيض عن الحكم بالنفي فيذهب الى احدى مدن ايطاليا يتمتع بما نهبه ايام ولايته وهذا القصاص لا يوازي ما اتاه بتة ولا يعد انتقاماً ولذلك كنت ترى سكان الولايات يؤثرون ان يقمعوا ولاتهم بخضوعهم لهم فيعاملونهم كما يعاملون الملوك وينافقونهم ويهادونهم ويقيمون لهم التماثيل وربما نصبوا للوالي في آسيا هياكل(١) وبنوا لهم المعابد وعبدوهم كما يعبد الرب

ولئن عامل الشعب الروماني رعاياه بقسوة فلم يكن يأبى عليهم الانضمام اليه كما كان شأن المدن اليونانية بل ان الغريب يصبح وطنياً رومانياً بارادة الشعب الروماني والشعب يمنح هذه العاطفة احياناً وكثيراً ما يمنحها الى شعب برمته فمنح حق الوطنية الرومانية الى اللاتين اولاً في سنة ٨٩ ومنح هذا الحق للطليان في سنة ٤٦ ومنحه لاهل غاليا فاصبح سكان ايطاليا والرومانيين سواء حتى ان العبد الذي يعتقه سيده يسوغ له ان يكون وطنياً في الحال . وكلما عرضت للشعب الروماني عوارض الضعف ونقص في الانفس يزيد عدده برعايا جدد وعبيد جدد فكان عدد الوطنيين يزيد في كل احصاء ولا ينقص فبلغ عددهم في قرنين من ٢٥٠ الفاً الى ٧٠٠ الف . وهكذا ظلت رومية غاصة بالسكان ولم تخل منهم كما خلت اسبارطة بل كانت تمتلئ بالقادمين اليها من المغلوبين على التدريج .

قانون الاراضي

الاملاك العامة — متى طلب شعب غلبته رومية على امره ان يعقد معها الصلح يجب على نوابه ان يلفظوا بالجملة الآتية : « نتخلى لكم عن الشعب والمدينة والحقول والمياه وتماثيل الارباب الحامية للحدود والاثاث وجميع ما يملكه الارباب والناس قد جعلناه بيد الشعب الروماني » وبهذا التسجيل تصبح الامة الرومانية مالكة لما يملكه المغلوبون لهم باسره بل مالكة حتى لاشخاصهم . وكثيراً ما يبيعون السكان وقد اباع بولس اميل مئة وخمسين الفاً من اهل ابير على هذه الصورة كانوا استسلموا اليه . ومن العادة ان تمنح رومية لمن تغلب عليهم حريتهم وان تبقي املاكهم ملكاً للشعب الروماني يجعلونها ثلاث حصص متساوية . فيعطى للاهالي قسم من اراضيهم على ان يدفعوا شيئاً معلوماً من المال او الحبوب عنها وتحفظ رومية لنفسها

(١) ذكر شيشرون الخطيب الروماني المعابد التي اقامها له سكان سيسليا التي كان والياً عليها .

الحق ان تأخذ منها كما تشاء . وتؤجر الحقول والمراعي الى اناس من الملتزمين وتترك الاراضي البائرة شاغرة يأخذها من يريد ويحق لكل وطني روماني ان يقيم فيها ويزرعها .

قوانين العقارات — شملت قوانين الاراضي التي اختل بها نظام رومية الاملاك العامة وما كان لاحد الرومان ان يخطر في باله نزع الاملاك من اربابها لان حدود تلك الاملاك نفسها كانت ارباباً يدعونها آلهة التخوم والدين يمنع من نزعها . الا ان الشعب كان يستولي بموجب قانون الاراضي على اراض من الاملاك العامة فقط يوزعها بصفة ملك على مواطنيه وللشعب من حيث الشرع الحق في ذلك لان الاراضي كلها ملكه الا ان الرومانيين تسامحوا قروناً بان تركوا اناسا من رعاياهم او ابناء وطنهم يتمتعون بغلات تلك الاراضي وقد انتهت بهم الحال ان صاروا ينظرون الى تلك الاراضي كأنها ملكهم يحبسونها و يبيعونها و يبتاعونها ولو أُخذت منهم لقضي على جمهور عظيم من الامة بالافلاس في الحال . وقد حدث في ايطاليا خاصة ان ينزع من اهل مدينة باسرها جميع ما يملكون . هكذا نزع اغسطس جميع اراضي مانتو من سكانها وكان الشاعر فرجيل في جملة المنكوبين فتوصل بفضل شعره الى ان تعاد اليه املاكه ولكن سائر الشعب الذي لم يكن شاعراً كفرجيل بقي مسلوباً من املاكه . وتوزع هذه الاراضي المأخوذة على تلك الصفة احياناً على اناس من فقراء الوطنيين في رومية وفي الاغلب على جماعة من قدماء الجند وقد وزع سيللا اراضي اهل ايتروريا على ١٢٠ الفاً من قدماء الاجناد .

الاخوان الاشتراكيان — كان الشقيقان تيبريوس وكايوس غراشوس من اشرف أُسرات رومية ولكن حاول احدهما بعد الآخر وقد تولى زعامة السوقة ان ينزع الحكومة من يد الاشراف الذين يتألف منهم مجلس الشيوخ .

وكان في ذاك العهد في رومية بل في ايطاليا جمهور كبير من الوطنيين لا سبد لهم ولا لبد يطمحون الى احداث ثورة ومنهم الاغنياء ومعظمهم من طبقة الفرسان الذين يشكون من حرمانهم من الحكومة . فعرض تيبريوس غراشوس نفسه على ان يتولى الدفاع عن العامة وسعى الى توطيد سلطته هذه وكان في قلق مما يراه في بلاد الارياف في ايطاليا من اقامة الرعاة العبيد يخلفون قدماء اصحاب الاملاك الفلاحين ومن رؤية رومية غاصة باناس من الوطنيين لا يملكون فتيلاً ولا نقيراً

قال مرة في خطاب له يخاطب به العامة : « للوحوش البرية في ايطاليا مغاور تأوي اليها والرجال الذين يهريقون دماءهم في الدفاع عن بيضة ايطاليا ليس لهم الا النور والهواء الذي يستنشقونه يهيمون على وجوههم مع ازواجهم وابنائهم لا بيوت تؤويهم ولا منازل

يسكنونها · الا وان القواد الذين يحرضونهم على الدفاع عن مدافنهم ومعابدهم ليكذبون في اقوالهم · وليت شعري هل ملك واحد منهم حتى الآن مذبحًا مقدسًا في بيته ومدفنًا يضم رفات اجداده · يدعونهم سادة الارض وهم لا يملكون مدرة منها "

فاقترح على الشعب سن قانون للاراضي وذلك بان تأخذ الحكومة من الافراد جميع الاراضي التي هي من المنافع العامة فتضع يديها عليها و يترك لكل فرد منهم خمسمئة فدان و يوزع الباقي من الاراضي حصصًا صغيرة على فقراء الوطنيين فوافق المجلس على هذا القانون فحدث بذلك اضطراب عام في نظام الثروات لان معظم اراضي المملكة على التقريب كانت من الاملاك العامة ولكن وضع الواضعون ايديهم عليها واعتادوا ان يعتبروا انفسهم مالكيها · على انه كان كثيرًا ما يصعب التمييز بين الملك الخاص والملك العام اذ لم يكن للرومانيين سجلات للاراضي ·

فاقام تيبريوس ثلاثة مفوضين عهد اليهم قسمة الاراضي كما ان الشعب أعطاهم سلطة مطلقة · وكان هؤلاء المفوضون هم تيبريوس نفسه وأخوه وعمه · فقام خصوم تيبريوس يتهمونه بانه سن قانون الاراضي ليتخذ من ذلك حجة لتكون له بها السلطة · فمضت سنة وهو السيد المتحكم في رومية ولكنه لما أراد ان ينتخب محاميًا من العامة عن السنة التالية اقام أعداؤه الحجة (وهذا كان منافيًا للعادات المتبعة) فنشأت من ذلك فتنة انتهت باستيلاء تيبريوس وأصحابه على معبد الكابتول فنهض أنصار مجلس الشيوخ وعبيدهم مسلحين بالدبابيس وخشب المقاعد وطاردوا تيبريوس واتباعه وضربوهم(١٣٣)

و بعد عشر سنين انتخب كايوس أصغر الاخوين غراشوس محاميًا عن الشعب (١٢٥) وجدد التصديق على قانون الاراضي وقرر توزيع حنطة على فقراء الوطنيين وقرر ان يجري انتخاب القضاة من طبقة الفرسان ليتوصل بذلك الى هدم سلطة الاشراف فكانت كلمته هي العليا مدة حولين كاملين ولكنه لما قصد قرطاجنة ليسكن فيها جماعة من الطوارئ (المستعمرين) الوطنيين تخلى الشعب عنه مدة غيابه حتى اذا عاد لم يتيسر له ان يعاد انتخابه اذ كان اعداؤه اغتنموا تلك الفرصة للتخلص منه وعندها أمر الحاكم بتسليح أشياع مجلس الشيوخ وزحف على كايوس وأحبابه وكانوا اعتصموا في جبل افنتين فقتل كايوس بيد احد العبيد وذبح اشياعه أو اعدموا في السجون ونقضوا بيوتهم من أسسها وصادروا املاكهم (١٢١)

ماريوس وسيللا

لم يكن النزاع بين الشقيقين غراشوس ومجلس الشيوخ الا عبارة عن هرج في شوارع

رومية ينتهي بفتنة تنشأ بين العصابات المسلحة على عجل اما الفتن التي حدثت بعد فكانت حروبًا حقيقية بين جيوش منظمة وكان رؤساء الاحزاب من القواد

الحروب المدنية ـ ليس الشعب الروماني سوى مجموع فقراء لاعمل لهم وما الجيش الا حفنة من المتشردين نزاع الآفاق فلا المجلس ولا الكتائب خاضعة لمجلس الشيوخ لان الاشراف الفاسدين فقدوا كل سلطة أدبية فلم يبق ثمة سوى قوة حقيقية واحدة ونعني بها الجيش ولم يبق سطوة الا للقواد وقد أبى القواد ان يخضعوا فتعذر الحكم بواسطة مجلس الشيوخ حتى أصبح بيد القائد . وغدت الثورة لامناص منها ولكنها لم تنشأ دفعة واحدة بل تخمرت زهاء مئة سنة وكان مجلس الشيوخ يقاوم وقد امسى من الضعف بحيث لايتيسر له ان يجري الاحكام بذاته على انه مازال على شيء من القوة تحول دون غيره من القبض على قياد الامة والقواد يتنازعون بينهم فيمن يكون السيد المتحكم وهكذا قضى الرومانيون قرنًا يتخبطون في الفتن والحروب المدنية

ماريوس ـ كان اصل ماريوس القائد الاول الذي جعل جيشه تحت أمره في رومية من اربينوم وهي مدينة جبلية صغيرة ولم يكن من سلالة شريفة واشتهر بانه ضابط وانتخب محاميًا عن العامة ثم قاضيًا بمساعدة الاشراف له . ثم انقلب عليهم وانتخب قنصلاً وعهد اليه محاربة جوكورتا ملك النوميديين الذي بدد شمل عدة جيوش رومانية

وعندها جند ماريوس جماعة من فقراء الوطنيين ممن اصبحت الخدمة العسكرية صناعتهم فتغلب ماريوس بجيشه على جوكورتا واهلك الشعوب البربرية كالسمبريين والتوتون ممن اغاروا على غاليا وايطاليا الشمالية . واذ لم يكن للشعب ثقة في غيره لقيادة الجيش انتخبه قنصلاً ست مرات متوالية خلافًا للقوانين المتبعة

عاد الى رومية بعد هذه الانتصارات فاصبح مطلق اليد في الحكومة وعندئذ تألف في تلك العاصمة حزبان دعيا انفسهما باسم حزب الشعب (وهو حزب ماريوس) وحزب الاشراف (وهو حزب مجلس الشيوخ)

الحرب الاجتماعية ـ ارتكب اشياع ماريوس من الفظائع ما انتهى بتلويث شهرته بين الناس فاغتنم أحد الاشراف من أسرة كورنيليوس الكبيرة واسمه سيللا هـذه الفرصة لينازعه السلطة وكان هو أيضا من جملة القواد . وفي خلال ذلك استشاط الطليان غيظًا من قيامهم بمثل مايقوم به الرومانيون من التكاليف دون ان يكون لهم مثل امتيازاتهم فنزعوا الى مقاومته لينالوا حقوقهم المدنية وهذا مادعوه بالحرب الاجتماعية أي حرب مقاومة المتحالفين فجيشوا جيوشًا كبيرة قدمت احداها على مقربة من رومية وكان سيللا هو

الذي انقذ رومية بقتاله الطليان أشد قتال . وبعد حرب دامت سنتين (٩١ ــ ٨٩) خضع الطليان بيد انهم نالوا ماطلبوه وغدوا وطنيين رومانيين

. سيللا ــ طارت شهرة سيللا في هذه الحرب فنصب قنصلا وعهد اليه ان يزحف على ملك بحر الخزر ميتريداتس الذي اغار على آسيا الصغرى وذبح فيها الرومانيين عن بكرة ابيهم (٨٨) فحمل الحسد ماريوس على ان يثير فتنة في رومية فخرج سيللا للالتحاق بجيشه الذي كان ينتظره في ايطاليا الجنوبية وعاد معه وكان الدين الروماني يحظر على الجنود الدخول الى المدينة وعليهم اسلحتهم وعلى الحاكم نفسه قبل ان يجتاز الباب ان يخلع عنه رداء الحرب ويلبس الحلة الرومانية فكان سيللا القائد الاول الذي جسر على خرق سياج هذا المنع ودخل الى رومية فانهزم ماريوس امامه .

ولما وصل سيللا الى آسيا عاد ماريوس في جيش له من المتشردين ودخل رومية بالقوة (٨٧) وعندئذ بديء بقتل المعتدين قبل محاكمتهم وجعل خاصة اشياع سيللا تحت الاحكام العرفية بل صدرت اوامر الحكومة ان يقتلوا حيثما وجدوا وصودرت اموالهم ومات ماريوس بعد بضعة اشهر وظل سيناا هم انصاره يجري احكامه في رومية ويقتل كل من لا تروقه حالته وكان سيللا في خلال هذه المدة قد تغلب على ميتريداتس وضمن اخلاص جنده له بان اباح لهم نهب آسيا على ما يشاؤون . وقد عاد (٨٣) في جيشه الى ايطاليا فبعث عليه خصومه بخمسة جيوش فانهزم بعضها وانحاز الآخر اليه ثم دخل سيللا الى رومية وذبح الاسرى وخنق انصار ماريوس .

الاحكام العرفية — بعد ان مضت بضعة ايام في المذابح شرع سيللا ينفذ الاحكام العسكرية على الاصول وعلق ثلاث قوائم باسماء من يريد اهلاكهم قال : «اعلنت اسماء جميع من ذكرتهم وقد نسيت كثيراً منهم وسأعلن اسماءهم كلما خطروا في بالي » وكل من علق اسمه في قائمة المحكوم عليهم كان معداً للقتل ومن اتى برأسه ينال مكافأة وتصادر اموال القتيل وكان يقتل الواحد بدون محاكمة بل بمجرد هوى القائد وبدون ان ينذر بالقتل . وعلى هذا الوجه لم يكتف سيللا بذبح اعدائه فقط بل قتل الاغنياء الذين كان يطمع في ثروتهم ويروى ان احد الوطنيين البعيدين عن السياسة نظر وهو مار الى قائمة المحكوم عليهم بالقتل فرأى اسمه مسطوراً في اول القائمة فهتف قائلاً : « ما انعسني فقد قتلني بيتي في آلب » ويقال ان سيللا قتل الفاً وثمانمائة الف فارس .

قوانين سيللا — بعد ان تخلص سيللا من خصومه حاول ان ينظم حكومة تكون الكلمة فيها لمجلس الشيوخ . فعينوه حاكماً مطلقاً (ديكتاتور) ويطلق هذا اللقب قديماً

على القواد في ايام الشدة والخطر ممن تكون لهم السلطة المطلقة فاستخدم سيللا هذه السلطة ليسن قوانين بتغير النظام الدستوري القديم وذلك بان ينتخب القضاة بموجب هذا القانون من مجلس الشيوخ ولا تجري المناقشة في قانون قبل ان يوافق عليه مجلس الشيوخ ولا يحق لمحامي الشعب بتة ان يقترحوا شيئاً و بعد هذه الاصلاحات التي خولت مجلس الشيوخ سلطة مطلقة استقال سيللا من منصبه واخذ نفسه بالانقطاع الى داره والعيش في العزلة (٧٩) وكان يعرف بانه في مأمن اذ كان له مائة الف من جنوده في ايطاليا ·

بومبي

بومبي — عاد مجلس الشيوخ فقبض على السلطة لانه حسن في رأي سيللا ان يعيدها اليه ولكنه لم يكن له من القوة ما يستطيع معه المحافظة على تلك السلطة متى قام احد القواد ينازعه اياها · ودامت حكومة مجلس الشيوخ ايضاً في الظاهر اكثر من ثلاثين سنة وذلك لانه كان ثمة عدة قواد وكل منهم يحول دون خصمه ان يستأثر بالحول والطول · ولما هلك سيللا كان في البلاد اربعة جيوش على قدم الاستعداد اثنان منها خاضعان لقائدين من انصار مجلس الشيوخ وهما كراسوس و بومبي والآخران بقيادة قائدين خصيمين لمجلس الشيوخ وهما ليبدوس في ايطاليا وسرتوريوس في اسبانيا · والمأثور انه لم يكن احد في تلك الجيوش على استعداد ونظام وان ليس في اولئك القواد حاكم له الحق بقيادة الجند · وكان القواد الى ذاك العهد ابداً من القناصل اما الآن فاصبحوا من الافراد ينضم اليهم الجند لا ليخدموا الجمهورية الرومانية بل ليغتنوا بسلب الاهلين ·

ولقد انهزمت جيوش خصوم مجلس الشيوخ و بقي القائدان كراسوس و بومبي وحدهما واتفقا بينهما على الزعامة وجرى انتخابهما قنصلين ·

سبارتاكوس — تكرر حدوث عصيان العبيد مرات (حروب العبيد) وكان ذلك في الاغلب في جزيرة صقلية وجنوبي ايطاليا حيث كان العبيد يحملون السلاح لحراسة القطعان · وبعد ان ولي الولاية القائدان كراسوس و بومبي بدأت اشهر تلك الحروب وذلك ان عصابة مؤلفة من ٧٠ مصارعاً هربت من كابو ونهبت عربة تحمل اسلحة وانشأت تحمل على البلاد حملاتها بخف العبيد وانضموا اليها زرافات زرافات فلم تلبث تلك العصابة ان اصبحت جيشاً · وقد هزم هؤلاء العبيد على الولاء ثلاثة جيوش رومانية ارسلت لتأديبهم وكان سبارتاكوس زعيمهم أسر في الحرب وهو من اقليم تراسيا جيء به الى ايطاليا ليستخدم في الصراع فحدثته نفسه ان يجتاز بلاد ايطاليا كلها للعود الى تراسيا بلده · بيد ان جيش كراسوس قاوم عصابات سبارتاكوس مؤخراً وكانت مختلة النظام فقتلها عن آخرها · و بعدها

حظرت رومية على العبيد ان يحملوا سلاحاً . ويحكى انه أُعدم راع من العبيد لانه قتل خنزيراً برياً بحربة كانت معه .

حروب في الشرق — عهد مجلس الامة لبومبي ان يتولى قيادة الجيوش في حربين متعاقبتين في الشرق . الاولى (٦٧) كانت مع قرصان البحر في شواطىء آسيا الصغرى وقد غزوا شواطىء ايطاليا ونهبوها والثانية (٦٦) كانت مع ميتربداتس الذي لم يبرح على ما اصابه من الفشل يدافع عن حوزته في اطراف آسيا الصغرى

ولقد عاد بومبي من آسيا في جيش يتفانى في الاخلاص له وكان في بضع سنين السائد المسود في رومية واذ كان ينظر الى الشرف اكثر منه الى السلطة لم يدخل ادنى تعديل في الحكومة . وفي خلال ذلك نال الحظوة من الامة شاب من الاشراف اسمه قيصر فاتفق بومبي وكراسوس وقيصر بينهم على اقتسام السلطة (٦٠) فانتخب قيصر قنصلاً ثم والياً على غاليا وتولى كراسوس قيادة الجيش الذي ارسل الى آسيا للحملة على البارثيين ولقي حتفه سنة ٥٣ وبقي بومبي في رومية .

كاتالينا — بينما كان بومبي يحارب في الشرق حدثت في رومية ازمة كدت تؤدي الى ثورة وذلك ان احد الاشراف من قدماء انصار سيللا واسمه كاتالينا كان فقد ثروته لاسترساله في الشهوات فحاول ان يسترجع ماله بالقبض على ازمة الاحكام وكان رجلاً قوي الشكيمة جريء النفس مقداماً لا يتطرق الى قلبه وسواس وله اصدقاء كثيرون من اشراف الشبان المستهترين الفاسقين اخلصوا في حبه اذ كان يقضي معهم اوقات صفائه ويقرضهم مالاً ويهديهم خيولاً وكلاب صيد . وله من الانصار قدماء اشياع سيللا وقدماء الجنود الذين اسكنهم سيللا في ايطاليا ممن باعوا اراضيهم واخذوا يبحثون عن مورد يعيشون منه .

فاتفق كاتالينا مع جمهور من هؤلاء الساخطين على ان يذبحوا في آن واحد القنصلين يوم يذهبان معاً الى معبد الكابتول فلم يفلحوا فيما دبروه لان الخبر ترامى الى القنصلين الا ان كاتالينا احتفظ بانصاره وظل يدس الدسائس وكان اعداء مجلس الشيوخ وربما قيصر ايضاً يعضدونه سراً فقدم نفسه لينتخب قنصلاً فكان خصمه في هذا الانتخاب شيشرون اشهر محام واعظم خطباء الرومان وكان هذا توصل الى ان ينتخب حاكماً لان الاسرات الشريفة غدت منذ عهد ماريوس لا تسمح الا بانتخاب اناس من الاشراف .

وساعد اشياع مجلس الشيوخ الخطيب سيشرون في انتخابه وسقط كاتالينا الا ان القنصل الآخر رصيف شيشرون وهو انطونيوس كان مائلاً سراً للحانقين . فدبر كاتالينا

مكيدة كبرى على ان يذبح اصحابه شيشرون واعضاء مجلس الشيوخ في رومية ويحرقوها بينا يكون قدماء اجناد سيللا المقيمين في اترووريا زاحفين على رومية . فبلغ الخبر شيشرون فلم يخرج الا في كوكبة من الفرسان محدقة به الا انه لم يكن عنده جيش لقتال قدماء الاجناد الذين شرعوا يتجمعون ويتسلحون والعبيد الذين اخذوا يسلحونهم في كابو فقضى جزءاً من السنة التي تولى فيها القنصلية وهو في قلق مستمر .

واخيرًا رجع واليان يقودان جنودًا فشعر شيشرون بقوة تمكنه من الدفاع فاستدعى مجلس الشيوخ ليوافق على قيام القناصل بما فيه سلامة الجمهورية الرومانية وان يعطي القناصل سلطة ليتخذوا عامة الاسباب التي يرونها مناسبة وادخل الجند الى رومية يرابطون في الساحات ودعا مجلس الشيوخ الى الاجتماع ثانية وفي هذه الجلسة القى خطبته الاولى في مقاومة كاتالينا وسأله مشعرًا اياه بما دبره من المكيدة التي افتضح امرها وانذره بالانصراف

فغادر كاتالينا رومية وذهب للالتحاق بقدماء الاجناد المتمردين في اتروريا وظل اشياعه في المدينة فاتفقوا سراً مع وفود الالوبروج بان يقدموا لهم فرسانًا ثم غيروا آراءهم وافشوا سر المتآمرين . فطلب شيشرون خمسة من رؤوس زعماء المؤامرة واضطرهم الى الاقرار . ثم اخذ رأي مجلس الشيوخ فيما يجب ان يعاملوا به فاجاب بانه يجب اعدامهم ولكن كان احد المجرمين واسمه لانتولوس قاضيا ولا يحق لاحد ان يوقفه الا حاكم له مقام ارقى من مقامه فذهب شيشرون بذاته لتوقيف المجرمين الخمسة واخذهم الى سجن الكابتول وخنقهم وعاد يقول لمجلس الشيوخ : « لقد عاشوا »

فاعلن كاتالينا الحرب ولم يكن سوى جزء من رجاله يحمل سلاحًا ومعظمهم انفضوا من حوله وزحف عليه جيش بقيادة القنصل انطونيوس آتيا من الجنوب وزحف آخر من الشمال ولم يبق لكاتالينا سوى ثلاثة آلاف رجل حاول بهم الفرار نحو الشمال فرأى جبال ابنين في وجهه مسدودة فانقض على جيش انطونيوس وهاجمه وقتل مع اصحابه جملة واحدة (٦٣) فنال اذ ذاك شيشرون من مجلس الشيوخ لقب « ابو الوطن » دلالة على انه انقذ رومية من مخالب العدو ولكن لما انتهت سنة حكمه لم يعهد له بسلطة

فتح بلاد الغال

دخول قيصر الى غاليا — اتفق قيصر مع بومبي وكراسوس ان يتولى كل منهم القيادة في احدى الولايات العظمى على ان يكون له الحق في ان يجيش جيشًا فوضع كراسوس يده على سورية وبومبي على اسبانيا وقيصر على الثلاث ولايات المجاورة لغاليا وذلك لمدة خمس سنين . وقد ذهب قيصر لما انقضت سنة حكمه بصفته واليًا الى مقر ولايته لينشئ فيها

جيشاً يكون هو قائده ودخل في الحال في عدة حروب وظل عشر سنين بعيداً عن رومية (ولم يدم حكمه اكثر من خمس سنين الى سنة ٥٣ ولكنه جدده دفعة ثانية الى سنة ٤٨)

وكانت رومية الى ذاك العهد لم تخضع غير جزء من البلاد التي تنزلها الشعوب الغالية بل لم يكن لها سوى ولايتين غاليتين : غاليا سيزالبين وهي مؤلفة من البلاد الواقعة بين جبال ابنين والالب (وهي اليوم ايطاليا الشمالية) . والبروفانسيا وهي عبارة عن شواطئ البحر المتوسط وبلاد الرون من جبال الالب الى جبال البيرنيه . وكانت هذه البلاد مع اقليم ايليريا (الجبال الواقعة في شرقي الادرياتيك) هي الثلاث ولايات التي تولاها قيصر .

اما باقي بلاد فرنسا الحالية التي دعاها الرومانيون غاليا فكانت مستقلة بعد يسكنها ثلاثة عناصر من الناس . أحدهم الغاليون وهم يشغلون القسم الاعظم من البلاد اي جميع فرنسا الواقعة بين نهر الغارون ونهر السين ويصفهم اليونان والرومان بان هؤلاء السكان من الرجال العظام بيض البشرة شقر الشعور زرق العيون طوال السبلات يأكلون اللحوم ويسكرون بنبيذ السرفواز (ضرب من الجعة) او بشراب الايدرومل وهم أشد شبهاً بالجرمانيين منهم بالفرنسيس اليوم. وكان السواد الاعظم من هذه الامة يعيش شقياً في الاكواخ لا شأن لهم في ادارة شؤون بلادهم يخضعون لكبار ارباب الاملاك الذين يقاتلون راكبين صهوات خيولهم ويدعوهم قيصر بالفرسان ويذكرهم كما يذكر محاربين شجعاناً للغاية ولا يبعد ان يكون هؤلاء الفرسان الغاليون شبيهين بالجرمانيين هم من الفاتحين نزلوا وسط شعب اصغر منهم أجساماً اشقر اصهب يشبه الشعب النازل اليوم في البلاد الغربية أي فرنسا وايرلاندا وبلاد الغال

والقسم الثاني من تلك العناصر الثلاثة هم البلجيكيون نزلوا البلاد الواقعة في شمالي السين الى نهر الرين وهم يشبهون كما كان يقول الرومان الجرمانيين النازلين في الشاطئ الاخر من نهر الرين والظاهر انهم كانوا أقل اختلاطاً بالشعب القديم من الغاليين واحسن الفرسان فيهم كانوا يقاتلون راكبين

والقسم الثالث من تلك العناصر هم الاكيتيون نزلوا في جنوبي نهر الغارون وهم ضئال الاجسام شجعان يشبهون الايبريين في اسبانيا ويتكلمون بلغة ايبرية ويعتبرون سائر شعوب غاليا كأنهم غرباء وهؤلاء خضعوا لقيصر اول الامر . وبعد فلم يكن الغاليون والبلجيكيون والاكيتيون أمماً معدودة بل لم يكن ثمة غير شعوب صغيرة يستولي أقدرها على نحو ثلاث أو اربع من مقاطعاتنا اليوم وكل مقاطعة تؤلف حكومة مستقلة ودعاها قيصر

سيفيتا أي التي يحكمها كما يشاء وتحارب غيرها . وكان لبعض تلك الحكومات ملك ويحكم معظمها مجلس من الاشراف (الفرسان) وكان للكهنة عند الغاليين سلطة كبرى

لم تبرح تلك الشعوب على حالة من التوحش بعد تعيش بما تنتجه لها ماشيتها وما مدنها الا اسوار صغيرة محصنة يجعلون فيها مواشيهم وعيالهم ابان الحرب ولئن كان معظم البلاد غابات وحراجاً فقد بدؤا يزرعون حنطة ليتيسر ان تطعم جيشاً رومانياً بأسره

جاء قيصر ينوي فتح غاليا في جيش اختاره من سكان الولايتين الغاليتين الخاضعتين لرومية خاصة وكان مؤلفاً بحسب العادة الرومانية من مشاة منظمين كتائب وعليهم اسلحتهم وهم مدربون اكثر من جيوش الشعب الغالي ولقد عني قيصر بذكر خبر الفتح في مفكراته فاوهم القارئ بان الغاليين ساقوا عليه جيوشاً اكثر عدداً من جيشه ومن المحتمل بانه لم يقل الحقيقة اذ لم يكن في استطاعة غاليا ان تطعم غير عدد قليل من الناس ومعظم سكانها ليسوا محاربين

غارة الهيلفتيين والسويفيين — عند ماوصل قيصر الى بلاد الغال كان الايدوانيون النازلون في جبال مورفان اشد شعوب اواسط غاليا بأساً وعاصمتهم بيبراكت بالقرب من أوتون وبلادهم واقعة بين نهر السون واللوار . ومن أشداء البأس الارفرنيون النازلون في البلاد الجبلية التي أطلق عليها اسمهم (اوفرنيا) وكانوا حاكمين على الامم النازلة في البلاد الصخرية الوسطى

تحارب الايدوانيون السكيانيين النازلين في جبال جورا لاختلاف طرأ بينهم على الملاحة في نهر سون فاستدعى السكيانيون من المانيا زعيماً سويفياً وهو الملك (اريوفيست) فأتى بعصابة من خيرة الحاربين مؤلفة من العامة خاصة وهم السويفيون . وبعد ان تغلب الايدوانيين طلب الملك اريوفيست الى السكيانيين جزءاً من ارضهم لينزل فيها جيشه . وكان السكيانيون صالحوا الايدوانيين لقتال اريوفيست الذين نزلوا عليهم وعندها استنجد الايدوانيون برومية ولما قاد قيصر جيشه الى بلاد سون تقدم على انه حليف شعب غالي لمقاومة غارة جرمانية وفي غضون ذلك اخذ الهيلفتيون وهم شعب غالي يسكن سويسرا بالهجرة من بلادهم فانقلبوا منها يحملون أسراتهم ومواشيهم وامتعتهم محمولة على مركبات قائلين انهم يريدون مهاجمة بلاد الغال ليستوطنوا شواطئ المحيط . وربما كان ذلك حيلة منهم ليذهبوا لنصرة الايدوانيين على اريوفيست وتقدموا الى قيصر ان يسمح لهم باجتياز تلك الولاية الرومانية فابى عليهم ذلك فلم يبق امام الهيلفتيين الا ان يقطعوا وادي سون فداهمهم قيصر بالقرب من نهر سون وحمل اولاً على ساقة جيشهم ثم

هاجم مجموعهم فذبح منهم جزءاً عظيماً واضطر من افلتوا من القتل الى الرجوع الى بلادهم . ثم ارتد على اعقابه لقتال اريوفيست واسرع حتى بلغ في جيشه الى فيرونوسيو (بزانسون) وحاذر جنده من هول هذه الحرب وهم في بلاد جبلية مغشاة بالغابات يهاجمون برابرة اشداء على اهبة تامة فجمع قيصر قواد المئة من جنده (يوزباشية) وقال لهم على من يوجسون خيفة ان يسافروا مع الفرقة العاشرة فاجابه قواد المئة بانهم يتبعونه حيثما ذهب

وقطع الجيش الروماني مجاز جبال الفوسج ونزل الى سهل الالزاس وجاء يعسكر امام العدو . والف اريوفيست معسكره من مركباته وتحصن وراءها وكان قيصر يرن جيشه في السهل ويعبيه للقتال ثم صحت عزيمة اريوفيست على الخروج من المعسكر فداهم الجيش الروماني في فرسانه فجرح وفر جنده فطارده العدو حتى نهر الرين . وكان المهاجمون الجرمان يطردون الى خارج غاليا ولكن قيصر لم يأت مع جيشه الى ولايته بل رابط معه في وادي سون حيث قضى الشتاء وقد اخذ يعامل بلاد غاليا كالبلاد المغلوبة فاضطرت الشعوب الغالية ان تحالف رومية .

فتح شمال غاليا — ابى البلجيكيون النازلون بين نهري السين والرين وهم اشجع شعوب غاليا كافة ان يدخلوا في محالفة رومية فتعاهدوا بينهم وتحالفوا وجمعوا جميع المحاربين من ابنائهم في بلاد لاون . فجاء قيصر في الربيع في ثماني فرق من الجند وعقد محالفة مع احد هذه الشعوب وهم الريميون ونزل في معسكر حصين على رابية يفصلها عن معسكر البلجيكيين واد ذو بطائح وظل الجيشان زمناً احدهما قبالة الآخر واذ كان الجيش الروماني منظماً كانت تأتيه النجدات من الطعام تباعاً اما البلجيكيون فشق عليهم ان يتغذوا في تلك الادغال والحراج فانفذ قيصر الايدوانيين احلافه يخربون بلاد البيلوفاكيين اهم تلك الشعوب المتحالفة ولما بلغ البلجيكيون ذلك انفضت جموعهم ليذهبوا للدفاع عن بلادهم فتخلص قيصر من جيش العدو بدون قتال وراح يطوف بلاد البلجيكيين ويهاجم مدنهم الواحدة بعد الاخرى مكرهاً كل امة ان تكون حليفة لرومية وان تعطيها على سبيل الرهن رجالاً من الأسر النبيلة في بلادها .

وقد داهم النيرفيون (اهل بلاد السامبر) احد هذه الشعوب الجيش الروماني في غابة على شاطىء نهر السامبر بينما كان يبني معسكره وهزم الفرسان الغاليين احلاف الرومان وعساكر الرجالة الخفيفة الا ان الكتائب حمت المؤخرة وحالت دون الهزيمة فاخذ قيصر يحارب النيرفيين حرباً يريد بها ابادتهم عن آخرهم . ولما اخضع الجيش الروماني الشعوب البلجيكية قضى الشتاء في وسط بلاد غاليا على شاطىء اللوار .

فتح الغرب — قبلت الشعوب النازلة على ضفاف البحر المحيط ان تحالف رومية وتقدم لها رهائن وما جاء الشتاء حتى تحالفوا بينهم وابوا ان يرسلوا حنطة لاطعام الجيش الروماني واسروا عندهم مندوبي الرومان الذي جاؤهم في طلب ذلك ليكرهوا قيصر على ان يعيد اليهم من استبقاهم عنده من رجالهم رهينة · وكان للفنتيين (سكان فان) وهم من الشعوب الخطيرة في ذاك الحلف سفن حربية صنعوها من شجر البلوط وجعلت بحيث تسير على ارادة ربانها ولها مقدم مرتفع يقاوم فعل الامواج وطبقات سفلى منبسطة تستطيع ان تجر على قيعان الشاطىء وفي البحار الصغيرة فانشأ قيصر سفناً ذات قلوع في مصب نهر اللوار هاجم بها اسطول الفنتيين · وصعب عليه ان يحطمه لان سفنه لم يكن لها من العلو ما يكفي للوصول الى سامات تلك السفن الفينيقية وكانت مراكبه داخلة في الماء كثيراً بحيث لا يتسنى لها ان تطارد مراكب عدوه في وسط الصخور والقيعان وبعد اللتيا والتي صنع الرومان مناجل ذات مقابض وعصي طويلة قطعوا بها الجبال التي كانت تمسك قلوع سفن الفنتيين فلما سقطت القلوع من هذه السفن ولم يكن عندها مجاديف تقذف بها وقفت لا تبدي حراكاً فداهمها الجيش الروماني واخذها عنوة فطلب الفنتيون الصلح الا ان قيصر امر باشرافهم فضربت اعناقهم وباع سائر الشعب بيع العبيد · وفي تلك السفن ايضاً كان اقتطع قيصر فرقة صغيرة من جيشه تخضع لسلطان رومية جميع الشعوب النازلة في الاقليم المعروف اليوم باقليم نورماندیا وهناك فرقة اخرى له تحارب شعوب الاكتيين في جنوب نهر الغارون وعلى هذا فقد اخضع قيصر في ثلاث حملات (٥٨ — ٥٦) عامة بلاد غاليا واغتنم فرصة الشتاء للعودة الى ولايته في ايطاليا المعروفة بسيزالبين

وفي العام التالي (٥٦) ضرب موعداً للقائدين الآخرين اللذين كانا يقاسمانه الحكم وهما بومبي وكراسوس فاجتمع ثلاثتهم على تخوم ولايته في ولاية لوكس وقرروا تجديد حكومتهم لخمس سنين اخرى

حملات الى خارج غاليا — حارب قيصر خارج غاليا دلالة على سطوته واشغالا لجيشه وكان شعبان جرمانيان اجتازا نهر الرين وهاجما بلاد البلجيك فسار قيصر في جيشه وفرسان شعوب غاليا على نهر الرين بالقرب من ملتقى نهر الموز وهاجم الجرمان وذبحهم مع نسائهم واولادهم ثم بنى على الرين جسراً من جذوع الاشجار وذهب لتخريب الشاطىء الايمن

ولما عاد الى غاليا ركب البحر مع فرقتين (٥٥) واجتاز بحر المانش ونزل الى بريطانيا (انكلترا) ولما انشأ في السنة التالية سفناً متسعة قليلا لنقل الاثقال والخيول عاد الى

بريطانيا في جيش كبير واجتاز الغابات التي دافع عنها المحاربون البريطانيون حتى بلغ نهر التيمس (٥٤)

قيام الغاليين — كان الاشراف في معظم الشعوب الغالية من اشياع رومية يقاتلون في الجيش الروماني على انهم رديء من الفرسان و يعاشرون الضباط الرومانيين وكان بعضهم من اصحاب قيصر الا ان السواد الاعظم من تلك الامم كانوا يتبرمون باولئك الجنود الغرباء الذين يسيرون سير السادة فانشق بعض الزعماء عن حزب الاشراف واتفقوا بينهم سرًّا على تهييج الشعب. وكان قيصر قد وزع جيشه على شعوب كثيرة لقضاء فصل الشتاء وذلك لان القمح كان نادرًا في تلك السنة · فقرر زعماء الغاليين ان يغتنموا هذه الفرصة لمهاجمة الفرق المنعزلة وقطع مواصلاتهم فانتظروا ريثما يبتعد قيصر الى ولاية سيزالبين حيث ذهب لقضاء الشتاء ·

الا ان شعب الكارنوت (شارتر) ابدى نواجذ العصيان قبل ان يتم مادبروه مستشيطًا غضبًا من ملكه الذي نصبه قيصر وحاكمه فحكم عليه بالاعدام وقتل · فبلغ قيصر هذا النبأ فاستعد للحرب ولما ازمعت الفرقة الرابطة في بلاد السامبر الخروج من معسكرها داهمها الايبورون وذبحوها · ورأت فرقة رومانية اخرى ان تبقى في معسكرها فاحاط بها الغاليون فاسرع قيصر وتمكن من انقاذها وعند ذلك استراحت الجنود الرومانية الى آخر الشتاء · ولما طلع الربيع ابى عدة شعوب غالية من الشمال ان يبعثوا بوفودهم الى قيصر فجمع جيشه برمته وسحقهم واحدًا بعد واحد فانتقم من الايبوريون بتخريب زروعهم وحرق قراهم وذبح السكان وطارد المنهزمين الى غابات آردن وما جاء الخريف الا وقد خضعت غاليا الشمالية باسرها ·

الفارس فرسنجتوريكس — اجمع شعوب اواسط البلاد في خلال الشتاء امرهم بينهم على العصيان ثانية و بدأ الكارنتيون اولاً فداهموا مدينة سنابوم على نهر اللوار فقتلوا فيها تجار الطليان كافة · وفي هذه المرة تسلح عامة الشعوب النازلين بين نهر السين والغارون لقتال الرومان و بقي الاكتيون على الحياد · و بدأت الشعوب المحالفة لرومية تنزع السلطة من يد الاشراف اشياع قيصر واقاموا زعماء جددًا ودخل هؤلاء في التحالف الغالي

وكان زعيم الثورة شابًا من اشراف ارفرنا اسمه فرسنجتوريكس وهو فارس يحسن الفروسية خدم في الجيش الروماني وكان صديق قيصر واحدث ثورة في بلاده اولاً وما هاج سكان القرى حتى نزع السلطة من ايدي الاشراف واصبح ملكًا على ارفرنا · ثم بعث يرسل الى الشعوب الاخرى وجمع جيشًا وجعل من نظامه ان يحرق الخائنين و يصلم آذان

الآبقين ويسمل عيونهم . فداهم الغاليون الرومانيين في آن واحد في الجنوب من ولاية بروفنسيا (من اقليم لانكدوك) وفي الشمال من البلاد الواقعة بين نهري السين والسون حيث كانت ترابط الفرق الرومانية واضطر قيصر ان يجتاز جبال سيفين وهي مكللة بالثلوج واكره فرسنجتوريكس من رجاله ان يعود للدفاع عن بلاده فاتسع الوقت لقيصر ان يجمع جيشه بالقرب من سانس ويذهب فيه الى اقليم اللوار فخرب فرسنجتوريكس جميع البلاد وجعل المدن قاعاً صفصفاً لتكون قفراً لا يجد فيها العدو شيئاً يطعمه بيد ان البيتوريجيين لم يقبلوا بتخريب مدينتهم افاريكوم ودافعوا قيصر عنها زمناً

بعث قيصر في الربيع (٥٢) فيلقاً لمباغتة شعوب السين وذهب بنفسه في معظم جيشه للهجوم على جركوفيا قلعة الارفرنيين فرد على اعقابه وحرج موقفه اذ لم يكن لديه طعام (لخراب مخازن ذخائره في نرفر) وهو محصور بين شعوب الارفرنيين والايدوانيين الذين ذبحوا التجار الطليان ومع ذلك اصر على عدم اخلاء غاليا وتمكن من الوصول الى سانس . وفي خلال ذلك عين المجلس المؤلف من مندوبي جميع الشعوب الغالية الزعيم فرسنجتوريكس قائداً عاماً على الجيوش الغالية

فاستدعى قيصر من جرمانيا فرساناً اخذهم لحساب رومية وقاد جيشه من ناحية سون وامله فعل ذلك ليتمكن من مراسلة بروفنسيا فتبعه فرسنجتوريكس في جيشه وحاول ان يقطع عنه مواد الطعام ورمى الجيش الروماني وهو في مسيره بفرسانه الغاليين فهزمهم فرسان الجيش الغالي ورجع فرسنجتوريكس على اعقابه الى مدينة اليزيا الحصينة في بلاد الآكام بين نهر السون ومصب نهر السين فتبعه قيصر وحاصره فيها جاعلاً حول اليزيا سوراً تعلوه دائرة مجنحة ذات ابراج يحميها بخندق .

وصل جيش من الغاليين لرفع الحصار عن جيش فرسنجتوريكس وداهم الرومانيين ولكن حال دون الوصول اليه ذاك السور الذي اقامه قيصر من ناحية الخلاء . وبعد اشتباك القتال بين الجيشين رُدَّ الجيش الغالي على اعقابه وتفرق شذر مذر فلم يبق عند الجيش المحاصر في اليزيا شيء من الزاد فسلم فرسنجتوريكس (٥٢) فبعث به قيصر الى رومية حيث قضى ست سنين سجيناً ثم شهد حفلة انتصار قيصر وضرب عنقه .

وهكذا انتهى العصيان العام . وقضى قيصر سنة اخرى في اخضاع الشعوب التي كانت تقاوم واحداً بعد الآخر فابادها . وكان يفاخر بانه ذبح في ثماني سنين مليوناً من السكان وانه اسر منهم مليوناً آخر باعه بيع العبيد وقضى سنة اخرى لتنظيم شؤون حكومة غاليا وبعد ذلك صفا الجو لرومية بهلاك اعدائها . وقد وسد قيصر الحكم الى الاشراف اشياع

الرومان والف فرقة من الغاليين لقبوها بالسنونو وكان جيشه المدرب يحبه لحداثه نفسه ان يستخدمه في الاستيلاء على المملكة الرومانية باسرها . فخضعت غاليا لرومية مباشرة وتقسمت ولايات ولكن تنظيمها لم يتم الا على عهد اغسطس .

جيران الفراعنة

« بقية ما في الجزء السالف »

تقدم ان اكتشافات المستر ونكلر في بوغاز كوي كانت ذات شأن سام لعلاقتها بالتاريخ القديم لشعوب البحر المتوسط وهانحن اولاء نشرح نظريتنا من هذه الوجهة المهمة ونبينها على قدر الطاقة .

لما كان من المسلم ان عاصمة مملكة الهيتيين ليست كما ظن حتى الآن جرابيس في شمال الفرات الاوسط بل هي بوغاز كوي من اعمال كابادوسيا لم يبق صعوبة في ان نقول بان ملك الهيتيين امتد سلطانه الى ليديا . وهذا التغلب على الساحل الآسياوي من بحر ايجي ظاهر في نفسه لا يحتاج الى شرح بعد ان عرف بان كابادوسيا كانت متاخمة لاقليم ميونيا او تكاد . واذ ضاق ذرع الهيتيين من اتصال اعتداء الفراعنة على املاكهم الجنوبية اجمعوا امرهم بينهم على اشهار الحرب على مصر وطرد الفراعنة منها واذ لم يتأت كتم استعدادهم للغارة في وسط بلادهم فقد اصبح هجومهم على الفراعنة بحرًا ضربة لازب ليحولوا دون اعتداء الفينيقيين وهم تابعون لمصر لئلا يكونوا السبب في اخفاقهم في غزوتهم . فبدلاً من ان يستخدموا ثغرتارس مرفأهم الحربي العظيم لارسال اسطول ضخم اختاروا ثغر ازمير وهي تقع في وسط خليج مشيعين بانهم رأوا من الضرورة ان يهاجروا لان السكان نموا كثيرًا فضاقت بهم البلاد . ولئن لم يكتب لثغرتارس ان يجتمع المحاربون فيه فان بحارته وربابنته وفيهم وحدهم كان للهيتيين الثقة التامة تولوا امرة الاساطيل وابحارها . ومن هنا جاء اسم تورسها الذي اطلقوه على غارتهم على مصر . ولا شك انهم بعد انكسارهم قصدوا ايطاليا لاستيطانها مع بقائهم مرتبطين ارتباطًا محكماً ببلادهم الاصلية وذلك لان دخول السادرسيين والسيكولبين بعد قرن في اتحاد شعوب البحر يحمل على هذا الظن .

وليس التناسب الظاهر بين رواية هيرودتس وآثار الكرنك المزبورة هو من فعل الاتفاق . فقد قال هيرودتس ان عهد اتيس او الاتيين قد تقدم عهد ارغون

مؤسس الدولة الهيراكلية وفي ذلك مجال الى القول بان استيلاء الهيتيين سبق استيلاء الاشوريين على آسيا الصغرى واهم نقطة جوهرية في رواية هيرودتس المؤرخ اليوناني هي الصفات المميزة للعمل الذي قام به تورسنوس في تولية زعامة الاسطول الذي اقلع من ازمير فقد ورد في نصوص الآثار المصرية ان التورسهانيين كانوا عقدوا العزم على اخذ اساطيل شعوب البحر المتجمعة تحت حمايتهم ·

وهنا ننتقل الى الكلام على شعب آخر جعله بانتاور في شعره في مصاف الهيتيين على عهد رعمسيس الثاني · وهذا الشعب هو الدرداني الذي تنسب اليه كتابات الكرنك التقدم على جيرانه لانه قبض على قياد الجيوش الالتحاق بملكهم الخاضعين له في سورية · والظاهر ان هؤلاء الدردانيين هم الذين ورد ذكرهم في شعر هوميروس · وجاء في تقليد صحيح منذ القدم بانهم سكنوا شاطئ الدردنيل وانهم كانوا من اصل ترامي ·

ولا نكتم ما يخالج ضميرنا من التردد اذا اردنا ان نحيد من هذه الوجهة عن تأثيرات التقاليد ولا سيما اذا جاءت متوافقة متناصرة · ومع ذلك فان اعتقادنا بعدم قبول مثل هذا الاصل راسخ ولكن لا نستنكف من جعله قيد النظر والبحث على ضعف فيه ·

وبعد فيظهر لنا ان دخول التراسيين او الفرغانيين في اصل جميع الشعوب الصغيرة التي كانت تسكن اذ ذاك الشاطئ الآسياوي من بروبونتيد ناشئ كما قلناه من رغبة الآسياويين بالاتصال باليونان عند ما اتوا لاستعمار هذا الجزء من آسيا الصغرى بعد حرب تروادة بمئة واربعين سنة ومن هنا دخل في علم اصول سكان هذه البلاد وامتزاجهم تقليد اصبح له مع الزمن صبغة تاريخية وان تطرق الشك اليه كثيرًا ·

نحن نرى ان الدردانيين ليسوا تراسيين ولا كريتيين بيلاسجيين بل كانوا ايرانيين ودليلنا على ذلك ما رواه هيرودتس · وفي الحقيقة ان هذا المؤرخ لا يعرف الا اسم مدينة واحدة باسم الدرداني كانت في عهده على الشاطئ الآسياوي من الدردنيل اما الدردانيون الصرف فقد ذكر انهم في اودية جبال ماتين التي يجري فيها نهر جينديس الذي يصب في دجلة الوسطى وهو اهم مصب له · ويسوقنا هذا الموطن الاصلي للدردانيين الى الجزم بانهم فرع من العنصر البروتو الارمني · ويقول ماسبرو ان الماتيين الذين ورد ذكرهم في الكتابات الاكادية او الماتيين الذين ذكرهم هيرودتس كانوا انسباء الدردانيين سكنوا اولاً في جنوبي بحيرة اورومية بين ارمينية قديمًا وميديا فحدا الميل الى اقتحام المخاطر بالماتيين وجيرانهم الى مغادرة جبالهم واوديتهم منذ القدم وان يضربوا في شواطئ قزل ايرمق حيث استوطنوا منذ الفي سنة قبل المسيح · وان ما يدعونا الى ان نرتئي بان تاريخ ذلك قديم هو

انه ورد في الكتابة التي ذكرت فيها نصرة توتيمس الثالث احد الفراعنة فانه بعد ان نكل بقبرص والآز ارعد ارض ماتان في مرافئها وانحائها كما ورد في تلك الآثار . اذًا فاي معنى للفظ ماتان ان لم يكن الماتانيون من الذين ذكرهم هيرودتس . اذا صح هذا فيكون الماتيون منذ الزمن الاطول قد اجتازوا نهر قزل ايرمق وضربوا الى البحر المتوسط وذلك قبل ان ينشأ التراسيون حتى في اوربا . وربما جاء من هناك خلط قدماء المؤلفين في دعواهم بوجود قرابة بين الفرغانيين والارمن وهي قرابة ينفيها مؤرخ الارمن موسى دي خورين لانه يرى ان اصل الارمن من تيراس لا من كومر . ومن المحتمل كثيرًا ان تشابه النطق بتراس وتيراس قد اوقع في الخلط بهذا التفسير وبحسب العلم الحاضر تكون تيراس في اقليم طوروس لا في تراسيا .

ولقد اقمنا زمنًا في ازمير كانت لنا في خلالها صلات دائمة مع الآباء المخيتاريستين ولذلك ألفنا اللغة الارمنية فلم نتبين في هذه اللغة تناسبًا لغويًا بين اللسان الفرغاني الذي كتبت به المكتوبات الآسياوية واللغة الارمنية . واذا كان ثمت بعض الالفاظ سرت فمنشأوه من وحدة البلاد التي سكنوها بعد عهد نزول التراسيين الى آسيا الصغرى بزمن طويل بيد ان المصانع الارمنية كثيرة في أيامنا هذه في هذا الجزء من قارة آسيا وقد قيل ايضًا ان اللغة الارمنية المدرسية الحديثة قد نشأت في القرن الخامس للميلاد وبذلك كان من المتعذر معرفة أي لغة كان يتكلم بها البروتو الارمن . وهناك خطأ من آخر وهو ان اللغة الارمنية ليست وحدها معروفة في القرن الخامس ب . م بل ان حروف هجائها واللغة الارمنية متشابهة الاصوات بحيث يعسر ان تكتب بحروف أوربية ولذلك اقتضى لها ايجاد حروف خاصة للاستعمال

ومن المحقق انه لا توجد كتابة صخرية يرد عهدها الى العهد البورتو الارمني وجميع الكتابات التي وجدت في مدينة وان قد رسمت بالخط المسند . ولما اراد مسروب في القرن الخامس ان يؤلف لامته آدابًا وطنية لم يجد المواد لتأليفها من أصول حروف الهجاء الاوربية كافة الروم وآسيا الصغرى او ايطاليا بل وجد الاصول لتأليفها في فروع اللغة الآرامية مثل البهلوية والزندية والكرجية واذ كانت هذه اللغات أيضًا غير كافية للتعبير عن الاصوات الارمنية اضطر ان يزيد سبعة حروف صوتية وسبعة حروف ساكنة ليمثل بها الاصوات التي لا توجد في حروف الهجاء المعروفة من اصل آرامي وبذلك تبينت ان لا علاقة للغة الارمنية مع اللغة الفرغانية لان هذه لغة لم يكن لها غير تسعة عشر حرفًا وكانت غير كافية للاعراب عما فيها .

بقي علينا الآن ان نشرح الداعي الى الاستعمار الايراني لتروادة وعلاقة هذه مع

الدولة التي حكمت في اليون وهي علاقة كانت السبب في تقدم ذاك الاستعمار على غيره من المستعمرات الكريتيه البيلاسجية في هذا الجزء من آسيا الصغرى

وليس غير الاستدلال نعمد اليه في بحثنا في هذا الماضي الذي لا تاريخ له ولا ندعي باننا نضع نظرية لعرضها كأنها حقيقة اساسية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها

ويتيسر لنا الحكم على ذاك الماضي بما تدل عليه بقايا ما عثر عليه من الكتابات التي ورد فيها خبر الانتصارات في الكرنك او في النصوص اليونانية والظاهر ان اهل الطبقة الحاكمة من الهيتيين كانت لا تنظر الى تطبيق المبادىء السياسية بالحرف بل تتوخى تطبيقها مع الاحوال والزمن ولذا كان يسكن جزءاً من بلادهم شعب ضعيف كان في اخلاصه له نظر فادى ذلك الى خلع ربقة دولتهم الحاكمة وتسليم مقاليد الحكومة الى دولة أُخرى يتيسر الاعتماد على اخلاصها اكثر . ومن صعب مراسهم من الشعوب يطردونهم من بلادهم . وهذه السياسة تشرح كيف تنقل الشعوب في بلاد الهيتيين من ناحية الى اخرى من انحاء مملكتهم . وبهذه الحجة دخل اللوكوسيريون الى كابادوسيا لمعاضدة الدولة الهيتية الحاكمة التي هي من جنسهم ودخل الميونيون الذين ردهم الهيتيون على اعقابهم واستعاضوا عنهم بالعنصر السامي اللودي ومثلهم التوكريانيون الذين طردوهم الاستعاضة عنهم بالدردانيين للمحافظة على ممر الدردانيل ومنع اساطيل الاعداء والمزاحمين من الدخول في البحر الاسود وهو مركز تجارة كبرى لمنافسة الفينيقيين . كل ذلك يحمل على الظن بان قبيلة اولية اجتازت خليج الدردنيل على عهد الملك توسرلان المؤرخ هيرودوتس يؤكد انه رأي في كولشوس مستعمرة مصرية حبشية كانت هناك منذ الزمن الاطول

واذا توسعنا في البحث في اصول الشعوب التي تبعث الجيش الهيتي الى سورية من طريق البر نجد ثمة جماعات اخرى وان كان قدومها آخر الامر من كريت فليست على مايظهر كالفيلستيين من اصل ليبي مصري . وهؤلاء الجماعات هم الكاريون والليسيون والكوكونيون الذين يظهر ان بينهم قرابة ونسباً . قال هرودتس فيهم ان الكاريين والكوكونيين والليسيين غادروا الجزائر ليستوطنوا القارة الآسياوية وكانوا في القديم رعايا مينوس (ملك كريت) ولم يكونوا يدفعون خراجاً ولهم في ميلاسا معبد قديم للمشتري الكاري وهو بينهم مشترك لما بينهم من القرابة ولذلك كانوا مستأثرين بهذا المعبد وحدهم دون جيرانهم الذين ليسوا واياهم من اصل واحد . وكانت لهم عادة قلما توجد عند غيرهم من الناس وهو انهم يدعون الابناء الى امهاتهم لا الى آبائهم اذا سئل احدهم عن نسبه ذكر والدته وسلسلة نسبها . وعندهم اذا تزوجت امرأة وطنية بعبد يجيء اولادها احرارا اشرافا واما اذا تزوج وطني

ولو كان سيد قومه من امرأة اجنبية أو من سرية فاولاده ساقطون لاشرف لهم وليسوا احرارا

وقد الف البارون دي كستين كتاباً مستوفى في الكار بين قديماً فبحث في اصل حكم المرأة في الاسرة وفي تأثيرها في المجتمع المدني ونفوذها في المملكة واثبت بان هذه العادة كانت مستحكمة عند الامم الليبية القديمة وعند قسم عظيم من شعوب آسيا الصغرى · وقد جمع بين هاته الشعوب ليرجعها الى اصل واحد هو في رأيه الجنس الاسمر النازل في اوساط آسيا المعروف باسم العنصر الكوشي ·

وقد كانت عبادة الكوشيين عبادة ارباب البحار كما كانت عبادة الفوتيين والايبريين ونشأت هذه العبادة على شواطيء المحيط الهندي وانتشرت في عامة انحاء الخليج الفارسي و بلاد العرب الجنوبية ومن هناك انتقلت الى بلاد الحبشة ومنها سرت الى اطراف موريتانيا من المحيط الاطلانطيكي · فانتقل مكار وهو معبود الليبيين والايبريين الى اليونان مع تعديل كبير فيه وكان حيثما انتشرت عبادته تؤوي المعابد المعمورة باسمه من يمر بها من البحارة

ومن الصعب ان نصور كيف عمت عبادة مكار في البلاد ذات الانهار والجزائر الواقعة في البحر المتوسط حتى بلغت جزائر مكار في وسط المحيط الاطلانطيقي · فقد ترك الكاريون او المكاريون حيثما نزلوا بنايات متسعة صبرت على الدهر بمتانتها · فاذا سرنا من ليبيا نجتاز اولاً واحة عمون الذي سمي اولاً باسم مكاروني- واو جزيرة مكار · وقد كان في برقة نهر اسمه مكار وفي خليج قابس بحيرة مكار وفي زوجيتانيا نهر آخر اسمه مكار · وعلى الشاطيء الاطلانطيقي في موريتانيا (شمالي مراكش وغربي الجزائر) نهر و بحيرة باسم مكار · وقد اكتشف هانون القرطاجني في تلك الاصقاع في القرن السابع قبل المسيح نهر لوكوس وخرائب مدينة اسوارها كاربة ولا تزال هذه الاسوار موجودة الى يومنا هذا واذا تركنا وراءنا ليبيا ومررنا باوربا نجد في مدخل الارخبيل اليوناني جزيرة لمكار ونعني بها جزيرة كريت وربما جاء من هنا اسم كانتور او جزيرة سيفين الكبرى على ما قال ذلك ابيرس الاثري الالماني واذا تقدمنا الى الامام نجد نهراً لمكار في اقليم تساليا وآخر في بيوسيا وثالثاً في بروبونتيدا · ويؤخذ من قول هوميروس ان لسبوس (جزيرة مدللي) كانت مقراً لمكار

ولا يقف انتشار عبادة مكار وراء تخوم بلاد اليونان بل كانت شائعة في اقليم اومبريا بايطاليا وساردينيا وايبريا (الاندلس) ولا شك ان اسوار جزيرة تارتاسوس لم يستطع اهل صيدا ان يدكوها الا باختراع المنجنيق وما تعاصت عليهم الا لانها بنيت معبداً لمكار

واذا سألت عن مكار هذا الذي يكاد يكون اثرًا خالدًا في كل مكان فهو بحسب الالواح الاشورية المحفوظة في المتحف البريطاني « مكار او انو — كما جاء في احدها — سيد المياه ورب الانهار وسلطان البحار وزعيم الاعماق وربها وحاكمها » وفي الاساطير البابلية انه احد الارباب التي بدت في صورة اسماك . يحرس منازله الرجال الذين خلقوا على هيئة اسماك ويتصل نسب مكار كما في الاساطير الهندية بفرع الكوشيين . اذا عرفت هذا فلا يسوغ لك ان تخلط بين مكار بعد ما ذكرت لك من وصفه وبين بوسيدون وهو ربٌّ ليبي صرف رآه اليونان في جميع البحار واتخذوه وصبغوه بصبغتهم . وكان على الشاعر هوميروس ان يعرف تلك الارباب القديمة التي كانت تعبد في ليبيا لانه كثيرًا ما يذكر في الاوذيسية اسم الحبشان الآسياويين والحبشان الافريقيين

ولغة الكاريين هي لغة البربر وهي لغة احد الفروع القديمة للجنس البشري كان يطلق عليها جيرانهم في آسيا وافريقية بار باروئي . وهذا الاسم القديم (البربري) لم يطلقه على عمومه الا اليونان واللاتين اما هوميروس فانه يعني ببربر ذاك الفرع الليبي من الناس المعروف باسم بربر حتى اليوم . وبين بار باروئي كما اطلقه هوميروس وبربر ليبيا تناسب يؤيده ما يذهب اليه علماء اللغات من انه يوجد في لغة هوميروس بعض الفاظ تقرب كل القرب من اللغات السامية حتى لقد قال احد العلماء انه اذا كان النحو اليوناني يدل على تراكيب تشبه النحو السنسكريتي واللاتيني والسلافي فان معجمه وان حوى مفردات كثيرة جدًا ولا سيما في المصادر الصوتية وهي آرية بالطبع قد اطلعنا على قليل من المعاني الغريبة عن جميع اللغات الهندية الاوربية والالفاظ السامية . وليست هذه التعابير مقصورة على الالفاظ الدالة على حيوانات ومعادن ونباتات بل ان منها ما يدل على المبادىء الضرورية للحياة المدنية والسياسية وفيها خالف اليونان وحدهم اجماع الامم الاوربية اه

وقد تبين ان بين خط ميونيا وخط ليبيا القديم تناسبًا وان هذا الخط ليس له علاقة بالحروف الهيتية او الحروف الفرغانية في آسيا الصغرى بل هو مشتق من الخط الهندي الحميري . والظاهر على ما قاله نورمان ان الخط الهندي الحميري جاء في الاصل من جنوبي بلاد العرب ومن هناك انتقل الى افريقية — حيث كان الخط الحبشي والليبي فرعًا خاصًا برأسه — مع الخط الحميري او هجاء سكان اليمن القدماء

وهذا التعريف الذي عرفه لنورمان من تعيينه سير هذه الحروف الهجائية هو مثل تعريف البارون دي كوستين للخط الكوشي في تنقله الى ان بلغ البحر المتوسط فساغ لنا من ثم ان نقول ان اللغة الحميرية اشتقت منها الغسانية والغزية والليبية والكريتية والامحرية والتيفنغية .

مطبوعات ومخطوطات

العرب قبل الاسلام

ألف جرجي افندي زيدان منشيء الهلال هذا الكتاب وهو يبحث في اصل العرب وتاريخهم ودولهم وتمدنهم وآدابهم وعاداتهم من اقدم ازمانهم الى ظهور الاسلام ويدخل في هذا الجزء الاول تاريخ دول العمالقة في بابل ومصر وفي بطرا وتدمر وغيرهما وتاريخ العرب القحطانية في اليمن ودولها المعينية والسبأية والحميرية وتمدنهم في مأرب وظفار وحضرموت وفيه اخبار عرب الشمال وعدنان وما كان لهم من الدول في الحجاز ومشارف الشام والعراق وحروبهم وغير ذلك . وقد زينه ببعض الرسوم والخرائط وجعله هدية لمشتركيه عن السنة السادسة عشرة فجاء في زهاء ٢٥٠ صفحة يشهد بطول باع المؤلف وبحثه فنحث على اقتنائه .

فلسفة العمر

قلَّ فينا المؤلفون الذين يؤلفون للذة والفائدة فقط وقل فينا من يحبون العلم للعلم ولا سيما من اهل السعة . وصالح بك حمدي حماد من اهل هذه العاصمة هو من الكتاب الذين وقفوا ايامهم ولياليهم على هذا الغرض الشريف نقل حتى الآن عدة كتب من اللغة الفرنسوية الى اللغة العربية ولو كان يعمل عمله كل من تعلموا لغة اجنبية منا فينقلون لنا ما يلزمنا لغنيت لغتنا بآداب الامم الغربية وتاريخها واجتماعها وآخر ما نشره رسالة في فلسفة العمر في ادوار الحياة الاربعة اي الطفولية والشبيبة والكهولة والشيخوخة وما في طيها بحسب الاحوال الاجتماعية الراقية من عبر وحكم اضاف اليها بعض تراجم المشاهير الواردة اسماؤهم في الكتاب وطبعه طبعاً جميلاً في ١٤١ صفحة ويطلب منه .

نور اليقين

في سيرة سيد المرسلين

هو كتاب في السيرة النبوية لمؤلفه الشيخ محمد الخضري من افاضل هذه العاصمة طبعه للمرة الثالثة اجمل طبع حسنين افندي محمد صاحب مكتبة المؤيد في ٣٣٤ صفحة . وهذه السيرة على ايجازها من انفع ما كتب في هذا الموضوع الشريف ولذلك راجت وطبعت ثالثة

عفة الاولاد

عرب سليم افندي خوري هذه الرسالة من الانكليزية فيما يجب على الاولاد معرفته

وهي في صورة مخاطبات ورسائل حوت نصائح كثيرة لطيفة وتطلب من معربها بمصر ٠ وهذا هو الجزء الاول ويليه ثلاثة اجزاء وفقه الله الى تعريبها ونشرها ٠

رحلة ابن جبير

من اجمل الرحلات وانفعها رحلة ابن جبير الاندلسي من اهل القرن السابع طبعت في اوربا مرتين واعيد طبعها ثالثة الآن وتطلب من طابعها مصطفى افندي فهمي الكتبي بالحلوجي بخمسة قروش اميرية وشهرة ابن جبير تغني عن التنويه بكتابه الذي طار صيته وحلت في الاسماع نغمته ٠

الدرر السنية

الف حسين افندي فتوح ومحمد علي افندي عبدالرحمن هذه الرسالة في اللغة العامية وما يقابلها من العربية وقد اعتمدا على لغة العامة في مصر وقابلاها بما استحسناه وعرفاه من الفصيح فجاءت في ٦٤ صفحة فنثني على همتهما ونرجو ان يتوسعا في هذا الموضوع الجليل هما وسائر المشتغلين به ٠

الحمويات

هو ديوان الشيخ محمد الحسن الحموي فيه ضروب من شعره واكثره في المديح وقد صدره بترجمة نفسه وحلاه ببعض الرسوم وهو في زهاء مائتي صفحة صغيرة ويطلب من طابعه بمصر فله الشكر على هديته ٠

سير العلم والاجتماع

بنات اميركا

ازهر تعليم البنات في الولايات المتحدة ففيها ١٧٩ مدرسة تضم وراء جدرانها ٣٠ الف طالبة يعلمهن ٢٦٠٠ معلم ومعلمة وينسب الفضل في تأسيس معظم هذه المدارس لعقائل واوانس من ربات الخير جدن في هذا السبيل بملايين الريالات دفع الى ذلك بعضهن دافع علمي وبعضهن دافع انساني او ديني او مدني ٠ قال بعض الاجتماعيين ومن عيوب هذه المدارس كثرة البذخ والانفاق فيها حتى انك لاتجد في المتخرجات من مدرسة ولسلي منذ

خمس وعشرين سنة وعددهن اثنا عشر الفاً سوى سبعمائة تعاطين مهنة الصحافة والتدريس والباقيات عانسات ينتظرن ان يتزوجن من رجل غني .

وفرة الاطباء

تشكو المانيا الآن من كثرة اطبائها ففيها بحسب التقرير الطبي السنوي ٣١٤١٦ طبيباً وفي بروسيا وحدها ١٩ الفاً وفي فرنسا ٢٠ الفاً ومثلها في كل من ايطاليا وروسيا . وعدد الاطباء في اوربا ١٦٢٣٣٤ طبيباً وعددهم في العالم كله ٢٣٠ الفاً قالت المجلة التي ذوي عنها والظاهر ان هذه الصناعة في اكثر البلاد لا تقوم بنفقة صاحبها .

أوقات الزواج

بحسب احصاء أخير يتزوج الشبان في المانيا وفرنسا نحو السنة التاسعة والعشرين وفي الدانيمرك والسويد نحو الثلاثين ويتزوج الصربيون في الرابعة والعشرين وهم أسرع أهل أوربا للزواج الباكر . أما اهل الشرق فاسرع بكثير الى الزواج

عناصر الولايات المتحدة

في هذه الولايات ١٥ مليون غريب ومعظمهم بقيت بينهم وبين أهلهم في أوربا صلات مستحكمة فيرسلون اليهم بما يقتصدونه من المال ليعيشوا به وقد قدروا على وجه التقريب مايخرج من مال اميركا الى اوربا كل سنة بخمسين مليون جنيه تأخذ ايطاليا القسم الاعظم من المال فيصيبها ٧٠ مليون دولار في السنة ويصيب النمسا ٦٥ ويصيب بريطانيا العظمى ٢٥ وروسيا ٢٥ والمانيا ١٥ مع ان في اميركا مليونين من الطليان واربعة ملايين من الالمان ولعل الطليان يطول عليهم الامد حتى ينسوا اهلهم كما ينسى الغريب اهله وخلانه اذا طال عهده بهم في العادة او ينسونه

المداواة بالجوع

قال الاستاذ كارنجتون من علماء النفس ان عامة الامراض يتيسر شفاؤها بالجوع ومن رأيه ان جميع الاسقام على اختلاف اشكالها ونشوئها منشاكلة من حيث أسبابها وعللها وما عدا بعض الاوجاع الناتجة من جراحات فان أسباب الامراض هي انحباس مواد لم تفرغ في التركيب الانساني لانسداد المصارف الطبيعية امامها . وما المرض نفسه الا عمل يجري في الجسم لعمل هذا الدفع وعلى هذا فاذا ازيل السبب زال المسبب . والاشياء الضارة تدخل الجسم من طريق الرئة باستنشاق هواء فاسد أو من

طريق المعدة بتناول او شرب مايضر وينتج من ذلك بانه ليس ثمة سوى واسطة واحدة لاخراج المواد الضارة الا وهي اسقاط الفضلات

فيقتضي ترك الرئتين والمعدة تتخلص من تلقاء نفسها مما يعوقها أو يلقيها في خطر وليس مانسميه مرضاً في الحقيقة سوى تنظيف طبيعي نقوم به ولا نرى فعله ومن الخطإ ان نعتقد انه يجب مكافحة المرض بأدوية وعقاقير وغاية مايجب علينا في تلك الحال ان لاندخل على الجسم مواد اخرى، تزيد الكثافة فيه من حيث الهواء او من حيث الغذاء

وليس من سبيل الى ذلك الا بان يدفع المرض عن المريض بان لايستنشق هواء فاسداً وان يمتنع عن الاكل بتة . ولم يصف الاستاذ المشار اليه طريقته للاصحاء بل وصفها للمرضى فلا يتناول المريض طعاماً أياً كان نوعه فيقل فيه ثقل الرأس الذي يصحبه ثقل المعدة ويصبح بصره حاداً وسماعه احد وذاكرته احد فيشعر المريض بالتدريج بان صحته احسن

أعمال الفلاسفة

سئل بعض الفلاسفة كيف يكتبون فقال تيودور ريبو من فلاسفة فرنسا انه يجمع المواد اللازمة ثم يستخرج منها الموضوع الذي يريده ولكنه بطيء في الانشاء فلا يكاد يكتب اكثر من ساعة في اليوم وعلى العكس لايفتأ يعمل عقله في النزهة والسكة الحديدية

وقال الفرد فوليه الفيلسوف الفرنسوي انه سريع الكتابة فاذا جمع معه الفكر يندفع يكتب ساعات طويلة ولكنه لايحتمل حصر الذهن طويلا فيسرع الى مغادرة مقصورته و يسير في الخلاء ركضاً . ويكتب الفيلسوف هوفدنغ الالماني في أوقات متقطعة فيسهل عليه التأليف في الخريف والشتاء اكثر من الصيف والربيع وفي المدينة اكثر من الريف ولا يستطيع الفيلسوف كومبرز الالماني ان يكتب الا املاء اذ يستطيل المسافة بين التفكر والكتابة

الهند الانكليزية

بلغت مساحة الهند مع عدن وجزائر اندمان ونيكوبار ٤٥٩٢٥٠٥ كيلومترات مربعة وكان عدد سكانها ١٩٠٦ — ٢٩٤٣٦١٠٠٠ اي ان في كل كيلومتر مربع ٦٤٠ ساكناً وقد كان فيها سنة ١٨٨١ — ١٢٩٩٤١٨٩٠ رجلاً و ١٢٣٩٥١٠١٠ امرأة فاصبح فيها سنة ١٩٠١ — ١٤٩٩٠٢٥٩٩ رجلاً و ١٤٤٣٨٩٨٣٤ امرأة ولا يدخل في ذلك سكان عدن وجزائر اندمان ونيكوبار وهم ٦٨٦٨٣ بل تدخل فيها الممالك الوطنية واكثر العناصر هناك العنصر الهندي وهو يبلغ ٢٠٧١٣٥٠٣٧ ثم المسلمون وعددهم ٦٢٤٢٠٢٩١ والبوذيون

والجنيون ١٠٨٠٨٦٥٢ والمسيحيون ٢٩١٨٧٨٦ ومن هذا العدد العظيم ١٩٥٦٦٦٨٤٥ نسمة يتعاطون الزراعة و٣٠ ١٧٩٥٣٢٣ من طبقة العملة في الاعمال الزراعية و٤٥٧١٩٦٤٥ يعيشون من الصناعة و٧٧٢٥٧٣٧ من التجارة وفي الهند ٧٨ مدينة يتجاوز سكان كل منها خمسين الفاً منها ٢٧ مدينة فيها زهاء مئة الف وتسع مدن فيها مائتا الف

تحسين الاذواق

في اميركا مئات من ارباب النقد والاساتذة آلوا على انفسهم ان يصرفوا أوقات فراغهم في تحسين اذواق الشعب وغرس الميل فيه الى الفنون فيزورون خاصة المتاحف و يشرحون للزائرين من العامة مايجهلونه و يتعرضون لحل سؤال كل من يسأل عن امر غامض لم يفهمه فيذكرون للسائلين في بضع كلمات تاريخ الفن و يتوسعون في ذكر محاسن الاثر المعروض بحيث يفتح عيون الجاهلين . وفي المدارس ولا سيما الابتدائية منها يعرضون من المصورات وغيرها ما يربي في الاولاد ملكة الميل الى الفنون والطرائف فيشركون غيرهم فيما تعلموه عند الحاجة . كل هذا يقوم به اهل اميركا لتكثير سواد النوابغ في الفنون الجميلة والصناعات النفيسة

تماثيل قرطاجنية

ظفر الباحثون في عرض البحر على سبعة كيلو مترات من قرطاجنة بعدد عظيم من التماثيل المصنوعة من القلز وهذا الاكتشاف مهم لانه يكشف القناع عن اشياء مجهولة في الحضارة القرطاجنية .

معدة غريبة

قدم احد الاطباء لمؤتمر الجراحة الالماني معدة من اعجب المعد . وهي معدة رجل مريض استخرج منها ١٦٧٠ قطعة من حديد مثل مسامير وكلابات واسلاك وغيرها

درس السعادة

قال احد علماء الالمان في بحث له ان من احب الاقتراب من معاهد السعادة يجب عليه ان يحسن كيف يستقي من مصادر الحياة الاربعة وهي السعادة الاخلاقية والسعادة العقلية وسعادة الشعور وسعادة الحواس وان يكون حرًا في باطنه اي يعرف كيف يتخلص من الافكار والاوهام الموروثة . والتقوى والصلاح والاخلاص مصدر السعادة الحقيقية وعلى من تطالت نفسه الى بلوغها ان يهذب نفسه بنفسه .

المقتبس

الجزء الحادي عشر من المجلد الثالث

ذي القعده سنة ١٣٢٦ موافق دسمبر (كانون اول) سنة ١٩٠٨

المجلس العمومي

ياشرق بشراك ابدى شمسك الفلك … وزال عنك وعن آفاقك الحلك
اضحى بك القوم احراراً قد اعتصموا … من النجاة بحبل ليس ينبتك
ماذا اقول وقد فزنا بمؤتمر … في جانبيه ترى الآراء تشتبك
نادٍ به القول من اهليه مستمع … والحق متبع والامر مشترك
نادٍ اذا نفرت عنا الامور به … لهن يمتد من نسج النهى شرك
يصطاد فيه شرود الحق عن كثب … كالماء يصطاد في ضحضاحه السمك
ان السحائب لم تظهر بوارقها … ما لم يكن للقوى فيهن معترك
وللتدابير حرب لا يخيب بها … قوم بمستنقع الآراء قد بركوا
هذا هو المجلس الرحب الذي وسعت … احكامه الناس من عاشوا ومن هلكوا
هو السماء التي نعلو السماء بها … تبدو من العدل في آفاقها حبك
دارت بها شمس عز الملك حيث لها … حرية العيش برج والنهى فلك
قد اصبح الامر شورى بيننا فبه … على الرعية لا يستأثر الملك
واصبح الناس في قربى وان بعدت … اديانهم ما بهم حقد ولا حسك
هذا الذي جاءنا الدين الحنيف به … وحياً من الله مبعوثاً به الملك
هـذا به نهض الاسلام نهضته … من قبل اذ قام يستولي ويمتلك
ياقوم قد حان حين تسخرون به … ممن بكم سخروا من قبل او ضحكوا

مات الزمان الذي من قيل كان به ... يحيى امرؤ لم يكن في السعي ينهمك
هلا نظرتم لما في الغرب من سنن ... كل به سائر طلقاً ومنسلك
لم تلق للحق وجهاً فيه محتقراً ... ولم تجد حرمة للعلم تنتهك
في الغرب اصوات علم يبعثون بها ... من في القبور فهل في سمعكم سكك
فشمروا يارجال الشرق عن همم ... حجابها عند اهل الغرب منهتك
ولست اطلب منكم فعل ما فعلوا ... ولا احاول منكم ترك ما تركوا
بل فاذكروا اوليكم كيف قد سلفوا ... ثم اسلكوا في المعالي اية سلكوا
واستخلصوا عسجد المجد الذي بلغوا ... سبكاً على قالب العلم الذي سبكوا
لا عذر للشرق عند الغرب بعدئذٍ ... ان لم يتم له في شأوه الدرك
واستنجدوا العلم ان العلم شكته ... في حومة العيش تبلى دونها الشكك
اما المدارس فلترفع قواعدها ... حتى تقوم وطود الجهل مؤتفك
منابع العلم ان غاضت بمملكةٍ ... فاضت بسيل الدواهي حولها برك
من شاد مدرسة للعلم هد بها ... سجناً لمن افسدوا في الارض او فتكوا
وكم اثارت رياح الجهل من سحب ... تهطالهن دم في الارض منسفك
فالعلم والجهل كل البون بينهما ... هذا الفسوق وذاك الفوز والنسك
ضدان ما استويا يوماً ولا اجتمعا ... وهل ترى يتساوى النور والحلك
نادوا البدار البدار اليوم انكم ... ياقوم ساهون حيث الامر مرتبك
كم رددت كلمات الناصحين لكم ... حتى لقد مل من مضغ لها الحنك
ياقوم قد طلعت شمس الهدى وبها ... للناس قد وضحت من رشدهم سكك
وانشد الشرق مسروراً يؤرخها ... حرية الملك اهدى شمسها الفلك

بغداد — معروف الرصافي

منتخب من عهد ازدشير بن بابك الملك

في السياسة

عُني بنشره احمد بك تيمور منقولاً عن نسخة كتبت سنة ٧١٠ ﻫ

بسم الله الرحمن الرحيم

من ملك الملوك ازدشير بن بابك الى من يخلف من الملوك

السلام عليكم ان من اخلاق الملوك الانفة والجراءة والبطر والعبث وكلما دامت سلامة الملك في ملكه قويت هذه الاخلاق عليه حتى يغلب عليه سكر الملك الذي هو اشد من سكر الخمر فيظن انه قد امن من النكبات والعثرات فيبسط يده ولسانه بالقبيح فيفسد باعتماده جميع ما اصلحه الملوك قبله فتعود المملكة خراباً ·

وافضل الملوك الذي يتذكر في عزه الذلَّ وفي امنه الخوف وفي قدرته العجز فيجمع بين بهجة الملوك وحذر الرعية ولا خير الا في جمعهما فان رشاد الملك خير من خصب الزمان

الدين اساس الملك · والملك حارس الدين · فلا يقوم احدهما الا بالآخر

اياكم ان تتهاونوا بمن يطلب الرئاسة باظهار الزهد والغضب للدين فما اجتمع الناس على رئيس في الدين الا انتزع ما في يد الملك من ملكه فان الناس الى رئيس الدين اميل ·

فتعهدوا طبقات الناس وتفقدوا جماعاتهم فان فيهم من قد حقرتم وجفوتم

واذا آذن الملك للعقلاء من مناصحي دولته في انهاء ما يتجدد عندهم من النصائح التي لا يعلمها خواصه او يعلمونها ويكتمونها انفتحت له ابواب من الاخبار المحجوبة عنه فيحذر وزراؤه وخواصه من الاتفاق على ما يسترونه عنه ولا يقدمون على امر يكرهه خوفاً من ان يطالع به فيأمن مكايدهم وتسلم الرعية من ظلمهم

ومن غلبت عليه خواصه حتى منعوا عنه الناس فلا يصل اليه الا من يحبون اطبقت ظلم الجهالة عليه

ولا ينبغي للملك ان يعتقد ان تعظيم الناس له هو بترك كلامه ولا ان اجلالهم له هو بالتباعد عنه ولا ان محبتهم هي بموافقته على جميع مايحبه وانما تعظيمهم له بتعظيم عقله وصواب سياسته واجلالهم له اجلال منزلته من الله بما يجريه على يده ولسانه من العدل ومحبتهم له بما يتألفهم بكريم خلقه وصادق المحبة هو الذي يعينه على العدل وحسن التدبير بمحض النصيحة

ان في الرعية وحملة السلاح من الاهواء الغالبة والفجور مالا بد للملك معه من ان يقرن

بباب الرأفة باب الغلظة و باب الانعام بباب الانتقام فان القصاص من المفسدين حياة لبقية الامة . ومن لم يقم حدود الله تعالى في من له فيه هوى لم تثبت هيبته في قلوب الخاصة والعامة ولن يستطيع الملك ان يقوّم العامة حتى يقوم الخاصة

وان من كان من الملوك قبلنا قد رتبوا الناس اربع طبقات فالامراء والجند صنف والعبّاد و الفقهاء صنف والكتاب والحكماء صنف والتجار والفلاحون صنف فلم يمكنوا صنفاً منها ان يدخل في الصنف الآخر لتتفرغ كل طبقة للقيام بما يلزمها

وليس اضر على الملك من رأس صار ذنباً او يد مشغولة وجدت فراغاً من شغلها

وخير الملوك من بعث العيون على نفسه ليعلم عيوبها فيكون اعلم بعيوب نفسه من غيره ثم يجتهد في مداواة عيب بعد عيب حتى لايجد احد فيه مطعناً فهذا الذي تمت سيادته

وان ابتهاج الملك المسدَّد الرأي القاهر لهواه بوفور عقله وشرف نفسه بارتفاعها من النقائص اعظم من سروره بملكه

ومن الرعية من يقارب الملك في مأكله وملبسه وشهوته وليس فيهم من يقدر كقدرته على اجتناء المحامد واصلاح الرعية بالعدل عليها وتأمين السبل وصيانة الحريم وكف ايدي الظالمين فاجتهدوا معشر الملوك في بسط العدل الذي لا تقدر عليه الرعية وتنافسوا في اقتناء الذكر الجميل

وليس للملك ان يبخل فانه لا يخاف الفقر واذا عرف بالبخل انقطع الرجاء من خيره فانسلت الايدي من طاعته ولا يجتهد احد في خدمته وانحلت النيات عن مناصحته

ولا ينبغي له ان يغضب لان الغضب مع القدرة يوجب السرف في العقوبة ثم يعقب الندامة مع ما فيه من الطيش والخفة وقبح السمعة

ولا ينبغي له ان يلعب لان اللعب والعبث من اعمال الفراغ والفراغ من عمل السوقة وفي ذلك من ذهاب الوقار واسقاط الهيبة ما ينافي جلال السيادة

وليس له ان يحسد الا ملوك الامم على حسن التدبير واصابة السياسة ومكارم الاخلاق ولا ينبغي له ان يجبن عند وجوب الاقدام فان الشجاعة عز وهي من اهم شروط الملك

زين الملك ان يحفظ نظام اوقاته المقدرة لاشغاله وركوبه وراحة بدنه فتكون معينة لا تختلف فان في اختلافها خفة وليس للملك ان يخف

وينبغي ان يكون حذره لمن بعد عنه اكثر من حذره لمن قرب منه وان يتقي بطانة السوء اشد من اتقائه لعامة السوء . ومن الناس صنف اظهروا الزهد في الجاه ولم يتقربوا

بالخدمة وادعوا التواضع وهم قد اسروا التكبر واستدعوا الى انفسهم الجاه بوعظ الملوك وقد ينفعهم ذلك عند المغفلين فيقربون منهم من حسن ظاهره وتلطف حتى اعتقد خواصهم تعظيمه وان كان ناقصاً في عقله عبداً لشهواته متهافتاً على الرئاسة فان اسكته الملك قيل قد استقل الموعظة وان اطلق لسانه قال بوعظه بين الملاءِ ما افسد حال الدولة فالرأي ان لا يهمل الملك امر هذه الطائفة فانهم اعداء الدول وآفات قوية على الملوك

اعلموا انه لا بد لكم من سخطة على بعض انصاركم ونصاحكم واعوانكم ولا بد من رضى يحدث لكم عن بعض اعدائكم المعروفين بالغش لكم فاذا فعلتم ذلك فلا تنقبضوا عن المعروف بالنصيحة ولا تسترسلوا الى المعروف بالغش وقد خلفت عليكم رأيي اذ لم اقدر على تخليف بدني فاقضوا حقي بالتمسك بعهدي والسلام على اهل الموافقة ممن يأتي عليه هذا العهد من الامم ·

الرومان

عاقبة الجمهورية

كاتون الاوتيكي — بينا كان القواد يتنازعون بينهم فيمن يستأثر بالسلطان على العالم الروماني اشتهر رجل بتعلقه بالدستور الجمهوري القديم الذي اخذ يمزق ولما رآه آخذاً في التداعي لم يلبث ان انتحر وكان كاتون هذا هو الملقب بعد بكاتون الاوتيكي باسم المدينة التي انتحر فيها ·

كان هذا الرجل من أسرة شريفة من اخلاف كاتون وزير الاحصاء الشهير والمدافع عن الاخلاق الرومانية القديمة كتب له ان يكون صاحب ثروة طائلة وهو شاب بعد · وكان قد تعلم فلسفة الرواقيين وجرى عليها فانشأ يعيش عيش الزهاد يأكل قليلاً و يشرب قليلاً ولا يتطيب وعوّد نفسه احتمال الحر والبرد الشديد يسافر ماشياً في كل فصل من فصول السنة حتى مع اصحابه الراكبين خيولهم ولا يلبس الا ثياباً بسيطة رثة وقد وقع له ان خرج بدون حذاء ·

ولما أُرسل قائداً لاحد الجيوش الى احدي الحروب (بموجب امتياز فتيان الاشراف)

احبه جنده واحترموه اذ رأوه يعيش مثلهم عيشاً بسيطاً ولما وسدت اليه نظارة المالية عني بالنظر في الحسابات بنفسه على العكس فيمن كان قبله من الاشراف يتولون هذه النظارة فانهم كانوا يتركون للكتاب ينظرون في شؤون المالية وحدهم وبذلك اكتشف تزويرات الكتبة وحاكم المرتكبين واشتهر بغيرته وكان لا يتأخر عن جلسة من جلسات مجلس الشيوخ او مجلس الامة فصار يضرب المثل بشرفه واصبح القوم يقولون عن الامر المتعذر « لا يمكن تصديق هذا ولو قاله كاتون »

وكان كاتون يقوم بما يعتقد انه واجب عليه دون ان تأخذه رأفة او تناله رهبة . وحاول ان يحكم على مورينا لانه ابتاع اصوات الامة حتى انتخبته قنصلاً فبرأه شيشرون وكان اذ ذاك قنصلاً بخطاب سخر فيه من فلسفة الرواقيين فقال كاتون : « حقاً ان لنا قنصلا مضحكاً » واقترح قيصر في مسألة المشتركين في فتن كاتالينا ان يتأخر اعدامهم لانهم رفعوا قضية فاشتد كاتون على قيصر واشار الى مجلس الشيوخ ان يأمر باعدام الجناة في الحال فلم يسع المجلس الا ان يقرر قتلهم .

ولما اقترح بومبي سن قانون يسمح له بادخال جيشه الى رومية خلافاً لما رسمه الدستور استشاط كاتون غضباً في جلسة مجلس الشيوخ من المحامي متلوس الذي اقترح وضع القانون وصرح بانه ما دام حيًّا لا يدخل بومبي الى المدينة مسلحًا ولما جاء متلوس الى الساحة في جيش من العبيد المسلحين للموافقة على القانون اخترق كاتون صفوف الجماعة وقعد بالقرب من متلوس ومنعه من قراءة مشروعه فجاء العبيد اذ ذاك صارخين يرمون بالحجارة و يضربون بالعصي فهرب الشعب وبقي كاتون فانقذه مورينا بان جره الى احد المعابد وعاد الشعب فصعد كاتون على المنبر وخطب في سيئات هذا القانون فابى متلوس ان يعرضه وذهب الى آسيا ليلحق ببومبي

ولما اتفق قيصر و بومبي وكان قيصر قنصلاً اقترح سن قانون فلم يجرأ غير كاتون على قتاله فانزله قيصر من المنبر بواسطة رجال الشرطة و بعث به الى السجن وظل كاتون يتكلم في الطريق وقد تبعه جمهور من اعضاء مجلس الشيوخ فعزم قيصر ان يخلي سبيله وللخلاص منه ارسلته الحكومة الى قبرص ليطرد منها الملك بطليموس دون ان يعطوه جيشاً واذ كان هذا الملك انتحر لم يبق على كاتون الا ان ينظم قائمة بما خلف الملك من الكنوز فاتى الى رومية بمبلغ كبير فاستقبله مجلس الشيوخ احسن استقبال وتقدم للانتخاب قاضياً وكانت القبيلة الاولى وافقت على انتخابه واذ كان بومبي رئيس المجلس لم ير بدًّا من ان يدعي ان السماء ترعد واعلن بانفضاض الجلسة (والرعد طالع شؤم كما عرفت في بعض الفصول السابقة)

وعند ما اقترحوا ان يعطوا لقيصر جيشاً تقدم كاتون الى بومبي ولطالما شغل الاول بقتال الثاني وحضه على الحذر من قيصر فبقي بومبي عدواً لهذا . وهذا لم يمنع كاتون عند ما رأى المنافسين في الحكومة يقتتلون في المدينة من معاضدة اقتراح المقترحين ان يعينوا بومبي وحده قنصلاً عند ما اقترب احدهما من صاحبه ولما زحف قيصر على رومية بجيشه نصح كاتون لمجلس الشيوخ ان يلقي الى بومبي بمقاليد الحكم باجمعه قائلاً على من عمل الشر ان يتلافاه . وتبع بومبي الى خارج ايطاليا ومنذ ذاك العهد اطلق شعره ولحيته علامة على الحزن واشار باطالة زمن الحرب وكان يخاف من عاقبة قتال يقتل فيه الرومانيون بعضهم ولما بلغته هزيمة فارسال سافر الى مصر يريد الالتحاق ببومبي و وقف في افريقية حيث كان لاحد اشياع بومبي جيش وتولى الدفاع عن مدينة اوتيكيا

واذ هزم قيصر جيش افريقية اقترح كاتون على الرومانيين النازلين في اوتيكيا ان يحاصروا فابوا فاطلق كاتون جميع اعضاء الشيوخ الذين لجؤا اليه ثم استحم و تعشى مع اصحابه واخذ يخوض في المباحث الفلسفية ولما حان وقت النوم طالع محاورة لافلاطون في خلود النفس والتمس سيفه الذي كان نزعه ابنه عنه مغاضباً فاحضروه اليه فجعله على مقربة منه ونام فاستيقظ عند الفجر ثم طعن نفسه في صدره وكان عمره ٤٨ سنة .

فارسال — لم يبق في البلاد بعد وفاة كراسوس غير بومبي وقيصر وكلاهما يود الاستئثار السلطة وكان من تقدم بومبي على صاحبه انه كان في رومية مستولياً على ازمة مجلس الشيوخ وكان مع قيصر جيش غالبا المدرب على الحروب منذ ثماني سنين قضاها في الحملات .

فاتخذ بومبي خطة الهجوم واستصدر من مجلس الشيوخ امراً بان يترك قيصر جيشه ويجيء الى رومية فعقد قيصر اذ ذاك عزمه على اجتياز حدود ولايته (وكان الحد هو نهر روبيكون) وزحف على رومية . ولم يكن عند بومبي جيش في ايطاليا للدفاع فركن الى الفرار مع اكثر الشيوخ من الشاطئ الآخر من بحر الادرياتيك وكان له عدة شيوخ في اسبانيا واليونان وافريقية شتت قيصر شملهم واحداً بعد الآخر فهزم جيش اسبانيا سنة ٤٨ ثم جيش اليونان في فارسال سنة ٤٨ فجيش افريقية سنة ٤٦ ولما غاب بومبي في فارسال لجأ الى مصر فقتله ملكها .

حكم قيصر — ولما رجع قيصر الى رومية عهد اليه بالامر لمدة عشر سنين فصار الحاكم المطلق ثم حارب جيوش اشياع بومبي في افريقية وساد جميع البلاد الخاضعة للرومان واحتفل في رومية بظفره باربعة اعداء الغاليين والمصريين وملك بحر الخزر في آسيا الصغرى

وملك النوميديين حليف البومبيين في افريقية (لم يكن من اللياقة بان يفاخر لتغلبه على جيش روماني) ٠

فقام مجلس الشيوخ لقيصر بالتشريفات الدينية فاعطاه اولاً كرسيًا اعلى من مقاعد القناصل ولقبه بالاول ثم خوله الحق ان يحمل تاجًا من الغار (وكان ذلك من حق الارباب) ومنحه لقب « ابوالوطن » وابتدع احتفالات والعابًا اكرامًا له واقام له تمثالاً خطوا فيه الفاظ التعظيم وعهدوا الى الكهنة للاحتفال بعبادة رب يوليوس قيصر ٠ ومن الممكن ان يكون قيصر طمع في لقب ملك ومع هذا دعا نفسه بالامبراطور وقبل بان يلبس ثوبًا ارجوانيًا وان يجلس على عرش من ذهب و يرسم خوذته على النقود ٠

واحتفظ قيصر بمجلس الشيوخ وجميع المناصب وهو الذي كان يعين المرشحين الذين يقضي على الشعب انتخابهم وهو الذي وضع قائمة بمجلس الشيوخ وكان هلك كثيرون من الشيوخ فابلغ عدد الاعضاء الى تسعمائة ومعظمهم من انتخابه وكثيرون منهم من الغاليين ولم يقض في رومية غير خمسة عشر شهرًا من حيث المجموع فما اتسع له الوقت ان يقوم بالاصلاحات التي كان ينويها (ما عدا تقويم السنين) ثم قتله ندماؤه الذين كانوا يرغبون في اعادة حكومة مجلس الشيوخ (٤٤)

احد الحكام الثلاثة — اضطر الشعب الروماني وكان يحب قيصر زعيمي قتلته وهما بروتوس وكاسيوس ان يهربا فنحيا الى الشرق حيث جيشا جيشًا عظيمًا وظلَّ الغرب تحت حكم انطونيوس الذي اعتمد على جيش قيصر فحكم رومية حكمًا استبداديًا

وكان قيصر تبنى ابن اخته اوكتاف وعمره ثماني عشرة سنة بوصية اوصى بها فسمي بحسب العادة الرومانية باسم متبنيه ودعا نفسه يوليوس قيصر الاوكتافي ٠ فضم الى حزبه جند قيصر وعهد اليه مجلس الشيوخ ان يحارب انطونيوس وبعد ان تغلب عليه آثر الاشتراك معه لاقتسام السلطة فاتحدا مع ليبدوس ودخلا ثلاثتهم الى رومية واستولوا على الامر استيلاء مطلقًا مدة خمس سنين تحت اسم الحكام الثلاثة المعهود اليهم تنظيم المسائل العامة ٠ وشرعوا في نفي خصومهم واعدائهم الخاصة (فامر انطونيوس بضرب عنق شيشرون) (٤٣) ثم ذهبوا الى الشرق لتشتيت جيوش المتحالفين وبعد ذلك اقتسموا المملكة بينهم ٠ ولم يدم الوفاق بينهم طويلاً بل قاتل بعضهم بعضًا في ايطاليا حتى توسط جندهم في الامر واضطروهم الى العودة لما كانوا عليه من الاتفاق ثم جرى تقسيم المملكة من جديد فاصبح انطونيوس ملك الشرق واوكتاف ملك الغرب (٣٩)

حرب الاكتيوم — دام السلم بضع سنين فاخذ انطونيوس يعيش عيش ملك شرقي

مصاحباً لكلوبطرة ملكة مصر وشغل اوكتاف بقتال ابن بومبي الذي كان تحت امره اسطول يحرب به شواطيء ايطاليا . وانتهت الحال بهذين الملكين بانقطاع علائقهما فنشبت آخر حرب بينهما وكانت حرباً بين الشرق والغرب تمت بحرب اكتيوم البحرية واسلم اسطول كلوباطرة انطونيوس صاحبها فلجأ الى مصر وانتحر وبقي اوكتاف وحده صاحب المملكة المطلق (٣١) وكان قد انتهى امر حكومة مجلس الشيوخ .

تقرير السلطة المطلقة — شكا الناس كلهم من هذه الحروب وكان سكان الولايات يؤخذون فداء ويسيء الجند معاملتهم ويقتلهم تقتيلاً يضطرهم كل فريق من الحكام ان ينحازوا اليه ويعاقبهم الغالب على انضمامهم الى المغلوب . وكان القواد يعدون الجند بان يكافئوهم باعطائهم اراضي يستغلونها فيطردون منها عامة سكان مدينة ليحل محلهم قدماء الاجناد . وكان اغنياء الرومان يخاطرون بثروتهم وحياتهم ومتى غلب حزبهم يصبحون العوبة في يد الغالب يتصرف فيهم بما يشاء . فقد وضع سيلا مثالاً من المذابح المدبرة (٨١) وبعد اربعين سنة (٤٣) جدد انطونيوس اوكتاف امر القتل بدون محاكمة

ولقد كان شعب رومية نفسه يشكو من سوء هذه الحالة فلا تصل الى رومية الحبوب التي هي مادة غذائه على طريقة مطردة بل كانت تقع في يد قرصان البحر او ينهبها اسطول العدو فبعد ان مضى قرن على طريقة هذا الحكم لم يعد للجميع من الرومان وسكان الولايات والاغنياء والفقراء رغبة في غير السلام وعندها تقدم الى ذاك الشعب المنهوك بالفتن الاهلية وارث قيصر ابن اخته اوكتاف احد الحكام الثلاثة — تقدم اليهم بعد ان تغلب على رصيفيه قال المؤرخ تاسيت وقبض بيده على جميع سلطات الامة ومجلس الشيوخ والحكام . ولم تمض بضع سنين الا وقد اصبح سيداً على رومية وليس بعد هذا من لقب فلم يعد يفكر احد في مقاومته وقد اغلق معبد جانوس ونشر في العالم الوية السلام وهذا كان ما يطلبه العالم باجمعه وذلك لان حكومة الجمهورية بواسطة مجلس الشيوخ لم تكن تمثل غير النهب والحروب المدنية فكانت النفوس تطمع في رجل يكون من القوة بحيث يحول دون الحروب والثورات وعلى هذا الوجه أسست الامبراطورية الرومانية .

اغسطس

تنظيم الحكومة الملكية — يقضي نظام الحكم الجديد الذي وضعه وريث قيصر ان يكون الحكم المطلق بيد رجل واحد يدعى الامبراطور اي الرجل المدبر الآمر وله الحق ان يتولى السلطات باسرها التي كانت موزعة بين الحكام القدماء فيرأس مجلس الشيوخ ويجمع الجيوش كلها ويقودها ويضع قائمة باسماء اعضاء الشيوخ والفرسان والوطنيين ويجبي الضرائب

وهو القاضي الاكبر والحبر الاعظم وله سلطة القضاة . ولبيان ان هذه السلطة قد جعلته رجلاً فوق الرجال من البشر لقبوه بلقب ديني وهو اغسطس او اغست ومعناه المحترم

لم تنتظم شؤون المملكة بثورة اتت على كل اصطلاح قديم ولم يلغ اسم « جمهورية » وانقضت ثلاثة قرون واعلام الجنود لا يزال يكتب عليها اربعة حروف من اول اربع كلمات S. P. Q. R. ومعناها مجلس الشيوخ والشعب الروماني ولكن اجتمعت السلطة التي كان يتقاسمها اشخاص كثيرون في يد واحد وبدلاً من ان يتولاها سنة فقط اصبح يتولاها طول حياته فالامبراطور هو الحاكم الفرد مدى حياته في الجمهورية وفيه يتجسد الشعب الروماني ولذلك كان مطلق التصرف .

مجلس الشيوخ والشعب — بقي مجلس الشيوخ الروماني على ما كان عليه قديمًا مجلس اعيان الاغنياء واكثر الوجوه حرمة في المملكة فكانت عضوية المجلس تعد من الشرف المرغوب فيه فاذا ارادوا ان يقولوا الاسرة الفلانية كبيرة يقولون هي اسرة شيوخ ولكن مجلس الشيوخ على حرمته لم تعد له سلطة لانه لا يتأتى للامبراطور ان يستغني عنه ولم يبرح مع هذا اول قوة حاكمة في الحكومة وان لم يكن المسيطر عليها وكان يتظاهر الامبراطور احيانًا بانه يريد اخذ رأيه ولكنه لا يعمل بمشوراته .

فقد الشعب كل سلطة اذ أُلغيت مجالسه منذ عهد تيبر . واصبح جمهور الامة المزدحم في رومية لا يتألف الا من بضعة الوف من كبار السادة مع عبيدهم ومن خليط من الشحاذين وكانت الحكومة قد تعهدت باطعامهم ودام الامبراطرة يوزعون عليهم الحنطة ويرضخون لهم بشيء من النقود فاعطى اغسطس سبعمائة فرنك عن كل رأس تسع مرات واعطى نيرون ٢٥٠ فرنكاً ثلاث مرات عن كل رأس .

ثم ان الحكومة كانت تقيم مشاهد لتسلية هذا الغوغاء . وكان عدد المشاهد النظامية ٦٦ يومًا في السنة على عهد الجمهورية فبلغت بعد قرن ونصف على عهد مارك اوريل ١٣٥ يومًا وفي القرن الخامس وصلت الى ١٧٥ يومًا دع عنك الايام الاضافية

وتدوم هذه المشاهد منذ شروق الشمس الى غروبها فيتناول المتفرجون طعامهم في الساحات . وهذا ما كان الامبراطرة يتخذون منه طريقة امينة لاشغال العامة . قال احد الممثلين لاغسطس : لفائدتك ياقيصر يعتني الشعب بنا . بل كانت هذه المشاهد واسطة لاستمالة قلوب الامة للامبراطور فكثيرًا ما كان افلح الامبراطرة اكثرهم حظوة من الشعب فكان نيرون (الظالم) يعبد لانه قام بالعاب لطيفة فلم يصدق العامة بانه مات وكان ينتظر قدومه بعد ثلاثين سنة من موته .

وما كان العامة في رومية يبحثون عن تولي الامور بل غاية ما تطال اليه نفوسهم ان يتسلوا او يأكلوا كما قال جوفينال في عبارة له شديدة : « خبز والعاب الميدان »

التأليه — الامبراطور وحده سيد المملكة ما دام حيًّا لان الشعب الروماني يتخلى له عن كل سلطة ومتى مات يبحث مجلس الشيوخ فيما اتاه في حياته و يحاكمه باسم الشعب فاذا حكم عليه تبطل جميع اعماله وتحطم تماثيله ويمحى اسمه من المصانع والآثار (١) واذا اقر على اعماله (وهو ما يحدث غالبًا) يقرر مجلس الشيوخ بان الامبراطور مات وقد ارتقى الى مصاف الارباب ·

وقد غدا معظم الامبراطرة اربابًا بعد موتهم على هذه الصورة فكانت تقام لهم معابد وعهد الى كاهن ان يقيم لهم الشعائر الدينية وقد كان في جميع اجزاء المملكة معابد رسمت باسم الرب اغسطس والربة رومية واشتهر عن اشخاص انهم قاموا بوظائف كاهن للآلهي كلود وللآلهي فنزبازين وهذه العادة في تأليه الامبراطور المتوفى كانت تسمى « التأليه » والكلمة يونانية وانتقلت عادتها من يونان الشرق على ما يظهر

ادارة الولايات — كان ثلثمائة او اربعمائة أسرة شريفة في رومية تحكم البلاد وتستثمر باقي المعمور منذ الفتح الروماني فجاء الامبراطور ينزع منهم الحكومة و يخضعهم لسلطان ظلمه · حتى اصبح كتاب الرومان يئنون من فقد حريتهم المسلوبة ولم يكن لسكان الولايات ما يأسفون عليه بل ظلوا رعايا ولكن بدلاً من ان يرأسهم عدة مئات من الرؤساء يتناوبون الحكومة على الدوام و يجيئونهم نهمين للغنى اصبح لهم رئيس واحد وهو الامبراطور يهتم بالنظر في امرهم · ولقد اوجز تيبر السياسة الامبراطورية بما يأتي « الراعي الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتفه » فمضى زهاء قرنين وقد اكتفى الامبراطرة بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيرًا من الاموال ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجي بل من عمالهم انفسهم · وعند ما كان سكان الولايات يشكون من الفظائع ومن سرقات حكامهم كانوا يستعدون الامبراطور فيعديهم · وكان من المعروف عند القوم ان الامبراطور يقبل الشكوى على ضباطه وهذا كان يكفي لادخال الرعب على قلوب الولاة الفاسدين وادخال الطمأنينة على رعاياهم

الولايات كلها ملك للامبراطور (٢) لانه يمثل الشعب الروماني فهو قائد جميع الجنود وسيد الناس طرًا ومالك الاراضي كافة (قال الفقيه كايوس ليس لنا في اراضي الولايات

---

(١) عثر على كتابات محي منها اسم دومنيسين على هذه الصورة

(٢) ترك اغسطس لمجلس الشيوخ بعض ولايات من اقل ولاياته منزلة ولكن ظل فيها حاكماً متحكما مثل ولاياته الخاصة كأنه صاحبها

الا التمتع بها والامبراطور وحده مالك لها) واذ كان من المتعذر ان ينصب الامبراطور في كل ولاية عنه الوكلاء الذين يختارهم بنفسه يرسل الى كل ولاية بضابط (يسمونه مندوب اغسطس لتولي وظيفة القضاء) وهذا المندوب يحكم البلاد و يقود الجيش و يطوف في ولايته لينظر المصالح المهمة و بيده الحياة والموت كالامبراطور . و يبعث الامبراطور ايضا بمحافظ لجبي الخراج وادخال المال في صندوق الامبراطور (و يسمونه نائب اغسطس)

فالضابط والمحافظ يمثلان الامبراطور ويحكمان على رعاياه و يقودان جنده ويثبتان ملكيته . و يختارهم الامبراطور ابداً من الطبقتين الشريفتين في رومية يختار الضباط من مجلس الشيوخ والمحافظين من الفرسان ولهؤلاء العمال مراتب للتشريف على نحو ما كان الحكام في رومية القديمة يتدرجون من ولاية الى اخرى ذاهبين من طرف المملكة الى طرفها (١) فمن سورية الى اسبانيا ومن انكلترا الى افريقية . واناك لتقرأ في الكتابات المكتوبة على قبور رجال ذاك العهد جميع المناصب التي شغلوها مبينة احسن بيان . وكتابة قبورهم تكفي لبيان تراجمهم وما تولد من اعمالهم

الحياة البلدية — وكان تحت هؤلاء العمال الكبار الذين يمثلون الامبراطور وهم لا يسألون عما يفعلون اناس من العامة الخاضعين يديرون شؤون انفسهم بانفسهم وللامبراطور الحق في ان يتداخل في شؤونهم الداخلية الا انه لا يسيء في العادة استعمال هذا الحق . فيطلب اليهم فقط ان لا يحاربوا وان يدفعوا على وتيرة واحدة ما يفرض عليهم من الاموال وان يحاكموا امام محكمة الوالي . وكان في كل ولاية كثير من الحكام المحكومين و يسمون اهل المدينة او البلديون ومن هنا جاءت كلمة الحكم البلدي والمجلس البلدي

تجري كل مدينة خاضعة للامبراطورية في ترتيباتها على مثال رومية نفسها فيكون لها مجلس الشعب وتنتخب حكامها لسنة و يقسمون الى فرق في كل فرقة عضوان ومجلس الشيوخ مؤلف من كبار ارباب الاملاك والاغنياء وارباب الاسر القديمة وفي الولايات كما في رومية ليس مجلس الامة الا صورة والحكم لمجلس الشيوخ اي للاشراف

من العادة ان يكون مقر الولاية مدينة اي مثل مدينة رومية مصغرة ولها معابدها واقواس نصرها وحماماتها العامة واحواضها ودور تمثيلها وميادين قتالها والعيشة فيها عيشة مصغرة من عيش رومية فتوزع الحنطة والدراهم على الفقراء وتولم الولائم العامة وتقام

(١) قال الفيلسوف ابيكيت لا يقدر كبار الرجال ان يتأصلوا في الارض كالنباتات بل عليهم ان يسيحوا كثيرا لاطاعة اوامر الامبراطور

الحفلات الدينية الكبرى والالعاب الدموية . الا ان رومية تقوم بما يجب لذلك من النفقات تأخذه من مال الولايات اما في الولايات فان الاشراف يقومون بالانفاق على حكومتهم واعيادها . والخراج الذي يجيء لحساب الامبراطور يحمل كله اليه ولذلك يقضى على اغنياء كل مدينة ان يقوموا بما يقتضي من النفقات للاحتفال بالالعاب واحماء الحمامات وتبليط الشوارع وبناء الجسور والمجاري والساحات . قاموا بذلك مدة تزيد عن قرنين وانفقوا عن سعة شهدت بذلك المصانع المنبثة في ارض المملكة وألوف من المكتوبات على الاحجار

المستعمرات — تقيم رومية في البلاد التي تشك في خضوعها لها جيشاً صغيراً تسكنه فيها فيبني مدينة تكون حصنا حصيناوتبعث اليه بأناس من الوطنيين الرومانيين يكونون جندا وفلاحين في آن واحد ويجزيء الجيش الاراضي المجاورة الى حصص متساوية توزعها عليهم وهذا ما يسمونه مستعمرة

ويبقى المستعمرون وطنيين رومانيين ويخضعون لجميع ما تأمر به رومية . وتختلف المستعمرة الرومانية عن المستعمرة اليونانية — التي كانت كثيرا ما تشق عصا الطاعة حتى انها لتحارب آثينة نفسها — بان تكون ابدا ابنة خاضعة لامها فليست المستعمرة الا حامية رومانية مرابطة بين الاعداء . وكانت اكثر هذه المحطات العسكرية في ايطاليا ولكن كان منها في مكان آخر مثل مستعمرة فاربون وليون وآرل فانها كانت مستعمرات رومانية .

جيش التخوم — لم يكن في المدن الداخلية جيش روماني لان سكان المملكة لا يرون الانتقاض على الحكومة فلم يكن للمملكة اعداء الا على الحدود وكان الاجانب ابداً على استعداد من مهاجمتها فالجرمان وراء نهري الرين والطونة ورحالة الصحراء وراء رمال افريقية ووراء الفرات جيوش المملكة الفارسية

ولذا كان من اللازم اللازب اقامة جند يكون على قدم الاستعداد على تلك التخوم المعرضة ابداً للتهديد . ادرك اغسطس ذلك فانشأ جيشا دائما فلم يكن جنود الامبراطورية من اصحاب الاراضي يؤخذون من حقولهم ليخدموا في الجندية بعض حملات بل كانوا اناسا من الفقراء جعلوا الحرب صناعة لهم فيدخلون الجندية ليخدموا فيها ست عشرة سنة اوعشرين سنة وربما جددوا هذه المدة

وعلى هذا كان للامبراطورية في رومية ثلاثون فرقة من الوطنيين اي ١٨٠ الفاولهم

بموجب العادة الرومانية مساعدون فيبلغ مجموعهم نحو ٤٠٠ الف رجل على التقريب وكان هذا الجيش قليلا بالنسبة لعظم تلك المملكة

ولكل ولاية على الحدود جيش صغير بعيد في معسكر دائم يشبه قلعة يجيء الباعة ينزلون بقربها فلا يعتم المعسكر ان يصبح مدينة وهكذا يعسكر الجند بازاء العدو فيحفظون شجاعتهم ودربتهم · مضت ثلاثة قرون والجند الروماني يدخل في كل حرب زبون مع البرابرة المتوحشين ولا سيما على ضفاف الرين والطونة في بلاد ندية قاحلة مغشاة بالغابات والمستنقعات · وربما بذل الجند الروماني في هذه الحروب التي لانتيجة لها من الشجاعة والشهامة اكثر مما بذل قدماء اليونان في فتح العالم

الآداب — لم يكن الرومان بالطبع امة فنون وقد أصبحوا كذلك فيما بعد مقتفين فيها أثر اليونان · فمن يونان أخذوا نموذجاً من فاجعاتهم وقصصهم الهزلية وملاحمهم واناشيدهم وأشعارهم الفلسفية والعامية والتاريخية · واقتصر بعضهم على ترجمة الاصل اليوناني (كما فعل هوراس في أناشيده) وكلهم اقتبسوا من اليونان افكارهم ومناحيهم ومزجوها عند ما احتذوا مثالها بما عرف فيهم من صفات الصبر والشهامة حتى صارت بعض آثارهم غريبة الغرائب في أسلوبها

واتفق الرومان على ان العهد الذي أزهرت فيه الآداب اللاتينية حقيقة كانت الخمسين سنة التي قضاها اغسطس في الحكومة فهو الوقت الذي نبغ فيه فرجيل وهوراس واوفيد وتيبول وبروبرس وتيت ليف ولكن عصر اغسطس (كما يسمونه) قد سبقه ولحقه قرنان ربما عادلاه في اخراج النوابغ ففي الجيل الاول (القرن الاول قبل المسيح) ظهر الشاعر الغريب المدهش لوكريس وقيصر رانير ناثر وشيشرون اخطب خطيب وفي الجيل اللاحق كتب سينيك ولوكين وتاسيت وبلين وجوفنال ما كتبوا

وبعض هؤلاء المؤلفين العظماء فقط من أسرة رومانية ومعظمهم ايطاليون وكثيرون من الولايات مثل فرجيل من مانتو وتيت ليف من بادو (في غاليا) وسينيك اسباني · وكأن الفصاحة هي الفن الوطني حقاً في رومية فكان الرومان كالطليان في ايامنا يحبون الكلام علناً · وكان الخطباء يأتون الى ساحات الاجتماع حيث تلتئم مجالس الامة في أواخر عهد الجمهورية يخطبون ويكثرون من الحركات وسط دوي القوم وشيشرون اعظم أولئك الخطباء وهو الوحيد الذي بقيت بعض قطع من خطبه

ولما سقطت الجمهورية انقضت أيام المجالس ففقدت الفصاحة لقلة المادة

اللغة اللاتينية — انتفعت آداب اللغة اللاتينية بفتوحات رومية فنقلها الرومان مع

لغتهم الى رعاياهم المتوحشين في الغرب فتناسى جميع شعوب ايطاليا وغاليا واسبانياوافريقية وضفاف الطونة لغاتهم الخاصة وتعلموا اللغة اللاتينية . ولما لم يكن لهم آداب وطنية خاصة اقتبسوا آداب حاكميهم فتكلم اهل الامبراطورية اذ ذاك بلغتي الشعبين الكبيرين القديمين فظل الشرق يتكلم باليونانية واخذ الغرب باجمعه يتكلم باللغة اللاتينية

فلم تكن اللاتينية اللغة الرسمية للوطنيين وكبار الرجال فقط كما هي الانكليزية لعهدنا في الهند بل ان الامة نفسها تتكلم بها ما امكن من الصحة بحيث ان القوم في اوربا اليوم بعد انقضاء ثمانية عشر قرناً مابرحوا يتكلمون الى اليوم بخمس لغات مشتقة من اللاتينية وهي الايطالية والاسبانية والبرتغالية والفرنسوية والرومانية

وانتشرت الآداب اللاتينية مع اللغة اللاتينية في عامة انحاء الغرب فما كانت يدرس في القرن الرابع في مدارس بوردو واوتون غير شعراء اللاتين وخطبائهم وظل الاساقفة والقسيسيون بعد هجوم البرابرة يكتبون باللغة اللاتينية ونقلوا هذه العادة ايضاً الى شعوب انكلترا والمانيا الذين احتفظوا بلغتهم الجرمانية . فباللاتينية كتبت في القرون الوسطى السجلات والعقود والشرائع والتواريخ والكتب العلمية . وفي الاديار والمدارس لاتقرأ ولا تنسخ ولا تعتبر غير الكتب اللاتينية وما عدا كتب العبادة لم يعرف غير مؤلفي اللاتين امثال فرجيل وهوراس وشيشرون وبلين لجون وما كانت النهضة العصرية الاوربية الا عبارة عن احياء مافقد من آثار اقلام كتاب اللاتين واصبح النسج على منوالهم اكثر من ذي قبل . فكما ان الرومان انشؤا لانفسهم آداباً خاصة لتقليدهم اليونان هكذا صار المحدثون من الاوربيين ينسجون على مثال كتاب اللاتين . وليت شعرى هل عاد ذلك بخير ام بشر؟ ومن يجرأ ان يفوه بذلك؟ فما لاجدال فيه اذاً ان لغاتنا الرومانية الاصل هي بنات اللاتينية وان آدابنا طافحة بالافكار والمنازع الادبية الرومانية وان العالم الغربي باسره مصبوغ بصبغة الآداب اللاتينية .

الصناعات — عثر الباحثون بكثرة على تماثيل وصور بارزة رومانية ابقتها الايام من عهد تلك الحكومة منها مانقل عن الآثار المصرية ويكاد يكون معظمها تقليداً لها ولكنها اقل من الاصل لطفاً وذوقاً . ومن اغرب الانموذجات الباقية النقوش البارزة والصور النصفية

فالنقوش البارزة كانت تزدان بها المصانع (كالمعابد والعمد واقواس النصر) والقبور والنواويس تمثل بها احسن تمثيل مشاهد حقيقية وحفلات ونذوراً وحروباً ومآتم وكل مايحيطنا علماً بالحياة السالفة . وان النقوش البارزة التي جعلت حول اعمدة تراجان ومارك اوريل لتجعلنا كأننا نشاهد مشاهد حرو بهاالعظيمة بتلك الرسوم تمثل لك الجنود تقاتل البرابرة

ويحاصرون قلاعهم ويأتون بالاسرى كما تشاهد النذور العامة والامبراطور يخطب شعبه

والصور النصفية هي في الاكثر صور الامبراطرة ونسائهم واولادهم واذ كثرت تماثيلهم في اطراف المملكة باسرها وعثر على كثير منها . حتى ان عند جميع المتاحف اليوم مجموعة من الصور النصفية الامبراطورية وهي صور حقيقية وربما كانت شبيهة باصحابها كل الشبه اذ نرى فيها سيماء كل امبراطور واضحة اي وضوح وكثيراً ماتكون بشعة مستكرهة بحيث لم يحاول النقاشون ان يزينوها ويخفوا من سحنات المصوَّرين

فعلم البناء هو الفن الروماني الحقيقي لانه يقوم بحاجة عملية وفيه ايضاً قلد الرومان اليونان باتخاذ الاروقة والعمد ولكن كانت لهم طريقة لايستعملها اليونان وهي العقود (الاقبية) اي فن وضع الاحجار المنحوتة تدعم بعضها بعضاً على شكل قوس مربع . فبالعقود تمكن الرومان ينشئوا ابنية اوسع واكثر تفنناً من ابنية اليونان

المصانع ــ اليك اهم انواع المصانع الرومانية منها «المعبد» وهو كثيراً مايشبه المعبد اليوناني وله دهليز متسع ويكون احيانا اكثر سعة تعلوه قبة . ومن هذا النوع معبد البانثيون الذي بني في رومية على عهد اغسطس . ومنها «الكنيسة الكبرى» وهي بناء مستطيل طويل يعلوه سقف وتحيط بها اروقة وفيها ينصدر الحاكم يحيط به نوابه وفيها يجتمع التجار ليتجادلوا في ثمن البضائع فالكنيسة هي «بورصة» ومحكمة معاً . وفي الكنائس الكبرى اقيمت بعد ذلك مجالس المسيحيين وظلت الكنائس النصرانية قروناً محتفظة باسماء الكنائس الرومانية واشكالها

ومنها المرازح (المراسح) ذات الدرجات «انفثياتر» والملعب وهي مؤلفة من عدة طبقات واروقة وضعت بعضها فوق بعض تحيط بالملعب وكل طبقة من هذه الاروقة يعلوه عدة صفوف من الدرجات وذلك مثل الكوليزة في رومية وميادين ارل ونيم . ومنها قوس النصر وهو باب شرف له بعض سعة بحيث يكفي لمرور مركبة منه وهو مزين بعمد ومزخرف بنقوش كثيرة ومن هذا النوع قوس النصر في اورانج . ومنها الجسر وهو يبنى على صف من الحنايا وسط النهر . ومنها المجاري التي تجلب فيها المياه وكثيراً ماتكون على شكل جسر لتمر فوق دار ومن هذا الضرب من المجاري القطعة من الجسر المسماة كارد

وقد كان الامبراطور اغسطس يفاخر انه افتتح في رومية زهاء ثمانين معبداً قال : « لقد وجدت مدينة من القرميد وهاءنذا اترك مدينة من الرخام » وعمل اخلافه كلهم على زخرفة رومية وقد ازدحمت المصانع حوالى الفوروم (الميدان) خاصة واصبح الكابتول مع معبده المعروف بمعبد المشتري اشبه شيء بالاكروبول في آثينة . وفي ذاك الحي

ايضاً انشئوا عدة ساحات ذات مصانع مثل ساحة قيصر وساحة اغسطس وساحة نرفنا وساحة تراجان وهي ازهاهن

استخدم الرومان (١) في ابنيتهم الحجارة التي وقعت تحت ايديهم في البلاد يرصفونها ببلاط متين صنع بالكلس والرمل بحيث اتت عليه الف وثمانمائة سنة وهو لم يتحتت بما اصابه من الرطوبة . ولا نقرأ في مصانع الرومان تلك البهجة التي تتجلى على المصانع اليونانية بلى انها متسعة متينة راسخة القواعد شأن الفتح الروماني . وما زالت ارض البلاد الى يومنا هذا طافحة بانقاض تلك المصانع ولم يبرح الباحثون يعثرون حتى في قفار افريقية والدهشة آخذة منهم على مصانع رومانية محفوظة سالمة . ولما أريد جلب الماء الى تونس لم يعملوا الا ان اصلحوا مجرى النهر الذي أُنشيء في العهد الروماني .

التجارة — اصبحت رومية اعظم مدينة في العالم (ويذهبون الى انه جاء عليها زمن كان فيها مليون نسمة) فكانت بالطبع مركز تجارة المملكة . ولقد مضت العصور القديمة والمتاجر تنقل في الماء اي في البحار وفي الانهار اكثر من الطرق التي يقتضي لها عجلات ثقيلة لنقل تلك المتاجر . فكانت المتاجر تنقل الى رومية من طريق البحر خاصة فتقلها السفن الى مرفإ اوستي عند مصب نهر التيبر ومنها توسق في قوارب تصعد النهر حتى تصل الى سفح جبل افنتين وتنزل شحنها في مرفإ رومية . وكانت البضائع الخاصة ببقية ايطاليا تفرغ في مرفاء بوزول في خليج نابولي ومن هناك يرسلونها في الطرق واذا تيسر لهم يرسلونها في قوارب تسير على الشاطيء او تجري صعداً في الانهار تجرها الخيول

وكانت رومية وايطاليا تصرفان اكثر مما تنتجان فتجارتهما خاصة تجارة واردات وكان تجار من الطليان ينزلون في اهم مرافيء العالم يجمعون فيها حاصلات كل بلد ليبعثوا بها الى رومية . وكنت تجد في كل بلد مركزاً للتجارة مثل بلرمة في صقلية وقرطاجنة في افريقية والاسكندرية في مصر ومن هذه البلاد كانت تجلب الى رومية الحبوب والزيت والفاكهة والبقول الناشفة ومن المراكز التجارية افيز في آسيا الصغرى وانطاكية في سورية ومنها كانوا يرسلون الاصواف والاقمشة والحنطة التي تخرجها البلاد الداخلية . ومن هذه المراكز اوليبيا على شاطيء البحر الاسود واليها كانت تأتي حنطة روسيا . ومنها قادش في اسبانيا كانت ترسل الى رومية فضة المناجم واوبار بتنكيا (في الاندلس) ومن هذه المراكز

---

(١) لا ينبغي ان يغرب عن الاذهان ان الصناعات الرومانية هي كالآداب الرومانية لم تنشأ بيد صناع من الرومان بل بيد اناس من سكان الولايات ربما كانوا من العبيد ولم يكن ثمت روماني الا الرجل الذي يعملون له اعمالهم

نار بون وارل في غاليا كانا يجلب اليهما في نهر الرون جلود بلاد الغال واخشابها (اما مارسيليا فكانت سقطت منزلتها القديمة ومرسى فريجوس اصبح مينا حربية) ٠

وكان الرومانيون يجلبون ايضاً بضائع من خارج فيبعث اليهم الشرق بادوات الزينة والرفاهية كالعطور والابازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والاحجار الكريمة واقمشة الصوف والحرير والعبيد السود والحيوانات النادرة (ولاسيما القرود) فكانت تجلب الى الاسكندرية من طريق البحر الاحمر او في النيل وتأتي الى انطاكية من طريق الخليج الفارسي و بادية الشام (مع القوافل) والى اوليا من طريق بلاد فارس و بحر الخزر وكان الرومان يستخرجون من بلاد الشمال المواد التي لم تهذبها يد الصناعة مثل عنبر البلطيق وقصدير انكلترا وكان يأتي من طريق غاليا الجلود والاديم والشمع وشعور النساء والعبيد

أُغسطس — مات أُغسطس ولم يخلف وريثاً يرثه مباشرة فخلفه ابن زوجته تيبر وهو الذي تبناه ومضى نصف قرن والامبراطور ابداً رجل من أُسرة اغسطس وادرك الرومان منذ ذاك فساد هذه الطريقة

فكان للامبراطور مدة حياته سلطة متناهية لاحد لها فهو الحاكم على هواه في الاشخاص والاحوال يحكم بالقتل و يصادر الاموال و يهلك من يريد اهلاكه بدون رقيب لا يقف امام ارادته حاجز من نظام ولا قانون ٠ حتى قال المشرعون الرومان : ان لامر الامبراطور قوة القانون ٠ و بذلك عرفت رومية الاستبداد الذي لا نهاية له على نحو الاستبداد الذي كان يجري في المدن اليونانية استبداد لم ينحصر في سور ضيق من مدينة بل كان عظيماً كالمملكة٠ فكما كان في يونان ظالمون اهل حشمة ووقار كان في رومية امبراطرة حكماء محتشمون ولكن قل في هؤلاء من لم يستهوهم دوار السلطة عند ما يرون انهم بلغوا ارقى رتبة يصل اليها انسان٠ ومن امبراطرة رومية من لم يستخدموا سلطتهم التي لم يسمع بمثلها الا لترسل اسماؤهم كالامثال فضرب المثل بنيرون وظلمه و بكلود خليفة تيبر وسخافته وكاليجولا وجنونه المطبق وتقليده حصانه رتبة قنصل وتطاوله الى ان يعبد كالارباب٠ فكان الامبراطرة يضطهدون الاشراف خاصة ليحولوهم عن كيد المكايد و يضغطون على الاغنياء ليصادروا أموالهم

وكانت هذه السلطة المتناهية سيئة النظام وهي تتمثل كلها في شخص الامبراطور ومتى هلك يبحث فيما تاه من الاعمال ٠ كان القوم عارفين بان العالم لا يستغني عن سيد ولكن ليس في شريعة ولا عادة ما يستدل به على ماهية ذاك السيد٠ فكان من حق مجلس الشيوخ وحده ان يعين الامبراطور ولكنه يختار ابداً بالقوة من اختاره الامبراطور السالف أو رضي عنه الجند ٠ ولقد عثر حراس القصر الامبراطوري بينا كانوا يبحثون فيه عقيب وفاة الامبراطور كاليجولا

على رجل اختبأ وراء الفرش وهو ترتعد فرائصه فرأوا انه من انسباء كاليجولا فعينه الحرس امبراطوراً وكان هو الامبراطور كلود

الحرس الامبراطوري — كان يحظر زمن الجمهورية على القائد ان يأتي في جيشه الى المدينة فاصبح الامبراطور رئيس الجيوش كلها وله في رومية حرس عسكري مؤلف من نحو عشرة آلاف رجل أقاموا منذ عهد تيبر في ثكنة حصينة بالقرب من المدينة . وينتخب هذا الحرس من قدماء الاجناد وتدر عليه الرواتب الكثيرة وتتوالى عليه الاحسانات وبهؤلاء الجنود يعتز الامبراطور فلا يخاف بائقة تصيبه من الناقمين عليه من أهل رومية . بيدان الخطر كان يأتي من الحرس نفسه واذ كانت القوة معهم اعتقدوا بانه يحل لهم ان يأتوا كل شيء وكان زعيمهم أوسع سلطة من الامبراطور

الثورات والحروب — استشاط أشراف الرومان غضباً مما أتاه نيرون من الفظائع وضروب الجنون فحدا سخطهم ببعض الولاة الى الانتقاض وخلع الطاعة فشعر اذ ذاك مجلس الشيوخ بقوة يستند اليها فأعلن بان نيرون عدو عام فلم يسعه الا الهرب ثم الانتحار .

وبعد موته (٦٨) وقع اختيار مجلس الشيوخ على والي اسبانيا المدعو غالبا فعينوه امبراطوراً ولكن الحرس الامبراطوري لم يره كريماً جواداً فذبحه ونصب مكانه أحد ندماء نيرون واسمه أتون . ثم ان الجنود المرابطة في تخوم جرمانيا ارادت ان تنصب بنفسها امبراطوراً فدخلت فرق نهر الرين الى ايطاليا فصادفوا الحرس الامبراطوري بالقرب من كريمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة في وقعة شعواء أخذت بطرفي الليل ثم نصبوا الامبراطور الذي اختاره مجلس الشيوخ وهذا القائد فيتليوس

وفي ذاك الحين انتخب جيش سورية زعيمه فسباسين الذي قاتل فيتليوس وعين مكانه (٦٩) وهكذا نصبت رومية ثلاثة امبراطرة في سنتين وأنزل الجند ثلاثة امبراطرة عن عروشهم . وفي خلال هذه الحروب نهب جنود جرمانيا مدينة وحرق معبد الكابتول .

الفلافيون — نُصب فسباسين امبراطوراً فوطد أركان السلم وكان ايطالياً وهو حفيد أحد الفلاحين حافظ على عادات له في الاقتصاد والسذاجة في عيشه . فرأى القسم الاعظم من مجلس الشيوخ قد تمزق شملهم والأسرات القديمة قد بادت أو هلكت فاستعاض عنها بأسرات ايطالية أو من اهل الولايات ولما تجدد مجلس الشيوخ على هذه الصورة كف عن ابداء العداء للامبراطور فخلف فسباسين أولاً (٧٩) ابنه تيتوس الذي مات للحال ثم ابنه دومتسين (٨١) الذي كان قاسيا غداراً مثل ظلمة اليونان

الانطونيون — اشتهر الخمسة الامبراطرة الآتون وهم نرفا وترا جان وادريان وانطونين

ومارل أوربل (٩٦ — ١٨٠) بالحشمة والحكمة ويدعونهم الانطونيين (وهذا الاسم لايوافق في الحقيقة الا الآخرين منهم) ولم يكونوا من نسل البيوت القديمة في رومية بل كان تراجان وادرين اسبانيين وولد انطونين في نيم ولم يكونوا أمراء من أسرات امبراطورية خلقت لتولي رقاب الناس منذ ولادتها . وقد تولى الحكم اربعة امبراطرة وهم عقيمون فلم يتسنَّ نقل الحكم بالوراثة . وكان الامبراطور يختار كل مرة من قواده وولاته أقدر رجل يخلفه ويتبناه ويعينه باختيار مجلس الشيوخ له وهكذا لم يبلغ عرش الامبراطورية الا اناس محنكون يخلفون آباءهم في مركزهم بدون قال وقيل .

ولقد كان عصر الانطونيين اهدأ العصور التي عرفها العالم القديم والحروب تنشب بعيدة عن تخوم المملكة ولم يحدث في الداخلية شغب عسكري بتاتًا ولا مظلمة ولا أحكام جائرة . فكبح الانطونيون جماح الجند بتدريبهم على النظام ونظموا المحاكم ومجلس الامبراطورية وهو مؤلف من الفقهاء والمشرعين واستعاضوا عمن حرروهم من العبيد الذين طالما سخط الرومانيون عليهم على عهد الاثني عشر قيصراً باناس من الموظفين النظاميين اختاروهم من أشراف الطبقة الثانية (يعني الفرسان) وما عاد الامبراطور ظالما يخدمه جند بل كان حقًا الحاكم الاول في الجمهورية لا يستعمل سلطته الا لما فيه نفع شعبه

حارب الانطونيون حروبًا كثيرة ليدفعوا الشعوب المحاربة التي كانت تحاول مهاجمة الامبراطور من ناحيتين . فحاربوا في أسفل نهر الطونة الداسيين وهم شعب بربري سكن البلاد الجبلية ذات الغابات التي نسميها الآن ترانسلفانيا كما حاربوا على الفرات حكومة البارثيين العسكرية الكبرى التي كانت جعلت المدائن عاصمتها قرب بابل وكانت مملكتهم تمتد على طول بلاد فارس .

ولقد حمل تراجان على الداسيين عدة حملات واجتاز الطونة وربح في ثلاثة مواقع واستولى على عاصمة ملك الداسيين (١٠١ — ١٠٢) وتفضل عليهم بالصلح ولما عاود الداسيون الحرب عمد تراجان ان يأتي عليهم فانشأ على نهر الطونة جسراً من حجر وهاجم ولايتهم فضمها الى المملكة الرومانية (١٠٦) وأنزل فيها طواريء ومستعمرين أنشؤا فيها مدناً وأصبحت ولاية داسيا بلاداً رومانية تكلم اهلها باللاتينية وتخلقوا بالاخلاق الرومانية .

ولما انجلت الجيوش الرومانية في اواخر القرن الثالث كانت قد استحكمت اللغة اللاتينية من الداسيين وظلت شائعة في بلادهم خلال القرون الوسطى على الرغم من غارات برابرة الصقالبة . وقد اطلق على الشعب الذي يسكن اليوم السهول في شمالي الدانوب اسم رومية فيدعى الروماني ويتكلم بلغة مشتقة من اللاتينية كالافرنسية والاسبانية

حارب تراجان البارثيين ايضاً فجاز الفرات واستولى على « المدائن » وهي عاصمتهم وتوغل في احشاء البلاد الى فارس ودخل الى سوس واخذ منها عرش ملوك فارس المعمول من الذهب الاصم . وانشأ اسطولاً على دجلة ونزل في النهر حتى مصبه وابحر في خليج فارس واستخلص من البارثيين البلاد الواقعة بين بلاد الفرات ودجلة وجعلها ولايتين رومانيتين بيد ان هاتين الولايتين انتقضتا بعد سفر الجيش الروماني .

اما الانطونيان الاخيران وهما انطونين ومارك اوريل فقد شرفا الامبراطورية بفضائلها وكان كلاهما يعيش ببساطة كما يعيش الافراد على غناهما دون ان يكون لهما مايشبه قصراً او سراياً وان يشعرا بانه كانت لهما سلطة وسيادة

ولقد لقب مارك اوريل على العرش بالحكيم وكان يحكم البلاد مدفوعاً بعامل الواجب على غير ارادته ومع انه كان يؤثر هذا قضى حياته في الحكم وقيادة الجيوش . وانك لترى فيما خطه في تذكرته البيتية من افكاره صورة الفيلسوف الرواقي الصالح الزاهد العازف عن العالم وهو على جانب من اللطف والحلم قال : « أحسن الاساليب في الانتقام من الاشقياء هو ان لا يعمل المرء عملهم والارباب انفسهم يعطفون على الاشقياء فلك ان تقتدي بالارباب »

ولقد كان مارك اوريل يأخذ برأي مجلس الشيوخ في عامة المسائل ويحضر جلساته بدون انقطاع . ولقد وقف في وجه كثير من الشعوب البربرية الجرمانية يرد غاراتها ويدفع عادياتها تلك القبائل التي اجتازت الطونة على الجليد ودخل الى شمالي ايطاليا واقتضى له ان يؤلف جيشاً فجند عبيداً وبرابرة (١٧٢) فانسحب الجرمانيون ولكن بينا كان مارك اوريل مشغولاً في سورية بقتال أحد القواد المتمردين عادوا على اعقابهم وهاجموا الامبراطورية ومات مارك اوريل على ضفاف الطونة (١٨٠)

ولما وقفت الفتوح (بعد تراجان) كانت الامبراطورية تمتد على طول جنوبي اوربا كلها وعلى طول الشمال من افريقية والغرب من آسيا ولا يقف في سبيلها الا الحدود الطبيعية فمن الغرب البحر المحيط ومن الشمال جبال ايكوسيا ونهر الرين والطونة وقافقاسيا ومن الشرق بوادي الفرات وبلاد العرب ومن الجنوب شلالات النيل والصحراء الكبيرة . فكانت الامبراطورية الرومانية عبارة عن البلاد التي تتألف منها اليوم كل من انكلترا واسبانيا وايطاليا وفرنسا والبجيك وسويسرا وبافيرا والنمسا والمجر والبلاد العثمانية في أوربا ومراكش والجزائر وتونس ومصر وسورية وفلسطين والاناضول أي انها ضعفا مملكة الاسكندر .

السلم الروماني — ابطل الرومان الحروب في داخلية بلادهم باخضاع جميع الشعوب

لسلطانهم · فتوطد السلم الروماني الذي وصفه احد كتاب اليونان بما يأتي: « لكل فرد ان يذهب حيث شاء فالمرافئ غاصة بالسفن والجبال أمينة على سالكيها أمن المدن لساكنيها ولم يبق داع للخوف وقد طرحت الارض سلاحها الحديدي القديم وتجلت في ثياب الاعياد · وها انتم أولاء قد حققتم قول هوميروس بان الارض ملك للجميع »

فاصبح الناس في الغرب للمرة الاولى في حلّ من انشاء بيوتهم وزرع حقولهم والاستمتاع باموالهم واوقاتهم دون ان يكونوا كل ساعة عرضة لمهدد يتهددهم باستلابها منهم او ان يذبحوا او يقادوا كالاسرى والعبيد · وهذا أمان قلما نقدره قدره اذ قد تمتعنا به كلنا منذ الصغر ولكن الظاهر انه كان يعد من حسنات الامور النادرة عند القدماء

سهلت الرحلة في تلك الامبراطورية المسالمة وأنشأ الرومان طرقًا في كل مكان مع محطات ومواقف وصنعوا مصوّرات (خرائط) لطرق المملكة وكان كثير من ارباب الصناعات والتجار يرحلون من طرف الى طرف آخر من المملكة · ويرحل علماء البيان والفلسفة في بلاد الامبراطورية ذاهبين من مملكة الى أخرى وهم يلقون المحاضرات ·

وكان ينزل في كل ولاية أناس من اهل الولايات القاصية فقد دلت الكتابات على الاحجار انه كان في اسبانيا اساتذة ومصورون ونقاشون من اليونان وفي غاليا صياغ وصناع آسياويون

وجميع هؤلاء كانوا ينقلون عاداتهم وصناعاتهم واديانهم ويمزجونها بما يرونه عند الامم التي ينزلون عليها ثم يعتادون بالتدريج على التكلم باللغة الرومانية وما انبلج فجر القرن الثالث عشر حتى غدت اللاتينية لغة بلاد الغرب المشتركة كما صبحت اليونانية لغة الشرق منذ قام خلفاء الاسكندر · فنشأت في رومية كما نشأت في الاسكندرية حضارة مشتركة سموها الحضارة الرومانية ولم تكن كذلك الا باسمها ولغتها واجتمعت حضارة العالم القديم في قبضة الامبراطور

الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث

السيفيريون — بدات الفتن الاهلية بعد عهد الامبراطرة الانطونيين فذبح الحرس الامبراطوري سنة ١٩٣ الامبراطور برتيناكس ورأوا ان يضعوا المملكة في المزاد فتقدم طالبان يريدان ابتياعها احدهما سولبسين تقدم على ان يعطي كل جندي خمسة آلاف فرنك والثاني ديديوس رفع مايدفعه لكل جندي الى ستة آلاف فرنك فحمله الحرس الى مجلس الشيوخ وعينوه امبراطورًا ثم لم يستطع القيام بما تعهد به فذبحوه

وفي خلال ذلك بويع بالملك ثلاثة قواد لثلاثة جيوش كبيرة وهما قائد بريتانيا وقائد

ايليريا وقائد سورية وسار هؤلاء الثلاثة المتنافسون الى رومية فوصلت فرق ايليريا قبل غيرها فعين مجلس الشيوخ القائد سبتيم سيفير امبراطوراً على رومية فنشبت عندئذحرب بان سالت فيهما الدماء انهاراً احداها لمدافعة جيش سورية والاخرى لمدافعة جيش برتانيا وظلت لسيفير الكلمة النافذة مدة سنين وهو الذي اوجز سياسته في كلمتين فقال : « ايها الابناء ارضوا الجند واهزؤا بمن بقي »

الفوضى والغارة — مضى قرن ولم يكن قاعدة في الحكومة غير ارادة الجند وكان في الامبراطورية ماخلا جيش الحرس الصغير في رومية عدة جيوش كبيرة على نهر الرين والطونة والشرق وانكلترا · وكل جيش يود ان يجعل قائده امبراطوراً والمتنافسون يتقاتلون حتى كتبت الغلبة لواحد فحكم بضع سنين ثم قتل(١) واذا اسعده الحظ بنقل السلطة الى ابنه من بعده فالجيش يتمرد على ابنه ذاته وتعود نار الحرب تستعر ·

وفي ذاك الحين نشأ امبرطرة غرائب في اطوارهم فكان ايلاجابال كاهناً سورياً لبس ثياب امرأة و ترك امه تؤلف مجلس شيوخ من النساء (مجلس شيخات و عجائز)ومنهم الامبراطور ماكسيمان وهو جندي بالعرض وجبار قاس وسفاك كان يأكل على مايقال ٣٠ لبرة من اللحم و يشرب عشرين لبرة من الخمر · وجاء زمن على هذه المملكة والذين يدعون الامبراطورية ثلاثون امبراطوراً انقطع كل منهم الى ناحية من المملكة (٢٧٨ــ٣٦٠) وسمى نفسه امبرطوراً فدعي هؤلاء الثلاثون بالثلاثين ظالما ·

و بينا جند البلاد مشغولون بقتال بعضهم بعضاً كان يرى البرابرة ان التخوم خالية من الحامية فيجتازون ارض الامبراطورية ويخربونها · وكان اقليم غاليا خصوصاً هو الذي يقاسي الامرين من هذه الغارات في القرن الثالث فيجتازها عصابات من المحاربين الجرمان كالالمان والفرنك واذ لم يجدوا فيها مدناً حصينة ولا جيوشاً نهبوا المدن وحرقوها واخذوا ماشاؤا من اهلها اسرى معهم وذبحوا الباقين · وقرصان السكسون يخربون شواطىء بحر المانش

كان هذا القرن الذي انقضى في حروب قرن خرافات فكنت تجد في كل مكان اناساً يعبدون ارباب المشرق مثل الرب ايزيس واوزيريس والربة الكبرى ولكن ميترا وهو رب فارسي رب عام اكثر من الارباب قاطبة في الامبراطورية · وميترا الشمس وهي مصوَّرة في المصانع التي انشئت اكراماً لها وهي تصرع ثوراً وقد كتب عليه ما يأتي : « للشمس التي تغلب للرب ميترا » وقد عثر على مثل هذه الرسوم في جميع اجزاء الامبراطورية · وعبادة الشمس ملتبسة مبهمة فهي احياناً اشبه بالشعائر النصرانية فيكون فيها عماد وولائم

(١) قدروا ان عدد الامبراطرة من القرن الاول الى الثالث ٤٥ مات منهم ٢٩ قتلاً

مقدسة ومسحة وتوبة وشموع ولاجل ان يقبل المرء في جملة اهل هذه العبادة يجب القيام باعمال من صوم ومحن مخوفة

وقد كان دين ميترا في اواخر القرن الثالث الدين الرسمي في المملكة. ودان الامبراطرة والجيش بهذا الرب القهار ولهذا الرب في كل مكان معابد على شكل مغاور ذات مذابح ونقوش بارزة وكان في رومية ايضاً معبد فخيم انشأه الامبراطور اورليان. وكان من اشد الحاجات الماسة في ذاك العهد البقاء مع الارباب على صلح ووئام فاخترعوا حفلات لتزكية النفس فيلبس المؤمن ثوباً ابيض مزيناً بالذهب ويقعد في اسفل هوة فيطبقونها على رأسه بلوح من الخشب مثقوب ويأتون بثور يقفونه على هذا اللوح فينحره الكاهن فيجري دمه من الثقوب على اثواب المؤمن ووجهه وشعره. وكانوا يعتقدون ان هذا التعمد بالدم يطهر المرء من السيئات كافة ومن يجري له يكون كيوم ولدته أمه في حياة جديدة ويخرج من الحفرة بشع الصورة ولكنه سعيداً مغبوطاً.

اختلاط الاديان — اخذت الاديان كلها في هذا القرن الذي تقدم فيه فوز النصرانية على غيرها بالاختلاط فتعبد الشمس تحت اسماء منوعة (وهي التربية وهليوس وبعل وابلكابال وميترا) وجميع هذه العبادات منسوخة بعضها عن بعض وكثيراً ما تجري على مثال العبادات النصرانية ومن اعظم الامثلة في هذا الاختلاط الديني ما كان يتوفر عليه اسكندر سيفير الامبراطور المحتشم الطيب ذو الذمة فقد كان في قصره مصلى يعبد فيه المحسنين للانسانية وهم ابراهيم واورفيه ويسوع وابولونيوس دي تيان.

ديوكلسين — بعد مرور زمن في الحروب الاهلية قام امبراطرة تمكنوا من وضع حد للشغب وكانوا قساة عاملين وجنداً ترقوا في درجات الجندية حتى اصبحوا زعماء وقواداً ثم صاروا امبراطرة. ويكاد يكون منشأ معظم اولئك الامبراطرة من ولايات نصف متوحشة كولايات الطونة وايليريا وبعضهم كانوا في طفولتهم رعاة او مزارعين. وكانوا في سذاجة اخلاقهم على مثال قدماء قواد الرومان ولما طلبت وفود ملك فارس ان يروا الامبراطور بروبوس رأوه شيخاً اصلع يلبس عباءة صوف ويضطجع على الارض ويتناول حمصاً ولحم خنزير وكانت هذه سيرة كوربوس دانتاتوس قبل خمسة قرون

ولقد كان هؤلاء الامبراطرة اشداء على الجند فاحدثوا في الجيش نظاماً وفي البلاد اماناً ولكنه نشأت بحكم الضرورة ثورة اضرم نيرانها الامبراطور ديوكلسين الذي تدرج من الجندية الى تولي مقام الامبراطورية (٢٨٥) وتنازل عن الملك بعد ان نظم شؤون الامبراطورية.

ولم يعد يكفي رجل واحد لتولي شؤون الحكم في تلك البلاد المتسعة والدفاع عنها فاتخذ كل امبراطور له كما اتخذ ديوكلسين من انسبائه واصحابه اثنين او ثلاثه يؤازرونه وعهد الى كل واحد النظر في جزء من مملكته · وفي العادة ان يُدعوا باسم « قيصر » ويحدث احياناً ان يتولى امبراطوران متكافئان يدعى كلاهما باسم اغسطس ومتى هلك احدهما يخلفه احد القياصرة اما الجيوش فلا تستطيع ان تنصب امبراطرة ·

واتسعت الولايات اي اتساع حتى ادى ذلك بديوكلسين الى تقسيمها فكان عددها ٤٨ ولاية في القرن الثاني فاصبحت زهاء ٩٠ ولاية (وغدت غاليا سبع عشرة ولاية بعدان كانت سبعاً) ؛ وامسى الحرس الامبراطوري في رومية خطراً على البلاد فاستعاض الامبراطور ديوكلسين عنه بفرقتين سماها فرقتي القصر ·

المدنية الرومانية على عهد الامبراطورية

مدينة بومبي — ذكر بلين الفتى في كتاب له قصة ثوران بركان فزوف (سنة ٧٩) الذي هلك فيه خاله بلين القديم · وكان المعلوم ان هذا البركان اخرب مدينتين صغيرتين نزهتين وهما هركولانوم و بومبي ولكن لم يعرف احد موقعهما · واكتشفت في القرن الثامن عشر بالعرض مدينة هركولانوم مغشاة بطبقة من الحمم ثم كشفت مدينة بومبي مدفونة تحت طبقة من الرماد وحجر الكذان · و بديء بالبحث في هركولانوم فعثر فيها على تماثيل صغيرة جميلة ومدارج مخطوطة محروقة توصل العلماء الى حل بعضها ولكن حالت صعوبة العمل في الحمم فوقف الباحثون عن التوفر على ما كانوا بدؤا به · وآثروا ان يبحثوا في بومبي حيث يسهل نزع الرماد وقد مضى القرن التاسع عشر باجمعه والهمم متوفرة على نزع الرماد عن المدينة حتى كادت تظهر باسرها الآن كما كانت ·

ظهرت بومبي للانظار على ما كانت عليه قديماً وقد سقطت السقوف من ثقل الرماد وفرَّ السكان من كثير من البيوت عند وقوع هذا البلاء ثم عادوا يفتشون عن اهم الاعلاق وانفس النفائس · وما برحت الحيطان قائمة ولم تمح منها الاعلانات المكتوبة بالحمرة بل ما زلت ترى فيها الخطوط التي خطها المارة بالفحم وسلمت الشوارع و بلاطها المحفور بسير المركبات والعجلات · وقد وجدوا ايضاً على الرماد ما تركته جثث الذين هلكوا اختناقاً من الرسوم وقد توصلوا بان جعلوا جبساً مائعاً في تلك الرسوم واخرجوها فكانت قوالب لتلك الاجساد الميتة ·

العيشة الرومانية — تصور بومبي للفكر كيف كانت العيشة في مدينة رومانية صغيرة فقد كانت هذه المدينة حديثة البناء ذات شوارع مصفوفة مقطوعة الى زوايا قائمة ومبلطة

ببلاط محكم الاجزاء ولها ارصفة الا ان الشارع الاعظم كان معوجاً و بلغ من ضيقه ان كان يتعذر على مركبتين ان تلتقيا في وسطه .

ولم يكن للمساكن غير نوافذ صغيرة وقليلة تطل على الشارع بل كانت الغرفة كلها نوافذ من وسط الدور يدخل اليها النور . وبهذا عرفت ان الشوارع كانت محاطة بحيطان ما عدا الشوارع الرئيسة وعلى طولها صفوف من الحوانيت يستأجرها السوقة والباعة .

وساحة المدينة متوسطة الحجم تحيط بها المباني والمصانع مثل ديوان مجلس شيوخ المدينة ومعابد صغيرة ومحاكم وسوق مسقوف ورواق ذو عمد وفيه كان يجتمع اهل البطالة وفيها داران للتمثيل حفر القسم الاعظم من الكبير فيهما في أكمة وهو يسع خمسة آلاف متفرج والصغير يسع الفاً وخمسمائة وفيها مشهد ذو درجات على شكل نصف دائرة « انفيتياتر » تقام فيه الالعاب ويتصارع فيه المصارعون . وفيها ثلاثة حمامات عامة (على الاقل) لاصغرها وهو الذي حفظ اكثر من غيره مقصورة للاستحمام واخرى للحمام السخن وثالثة للبارد وصوان (محل الثياب) وليس في الدور غير اخونة ومقاعد وصناديق وسرر وشمعدانات وكثير من المصابيح اذ لم يكن القدماء يكثرون من الاثاث . اما الغرف فصغيرة ويجعلون ولزينة كلها في قاعة الاستقبال الكبرى الا ان مصايف اغنى اغنياء السكان مبلطة بالفسيفساء والجدران مغشاة بصور جميلة فيها مشاهد اساطير وتزيينات من اكاليل وازهار اما الحوانيت فحالتها تشعر بضعف التجارة ولحوانيت باعة المشروبات اشارات مصورة وقد صورت في احداها صورة باخوس (رب الكرمة) يعصر عنقوداً . وكتب على حانوت آخر : «هنا فندق يؤجر غرفة ذات ثلاثة سرر» وقد عثروا في تلك المدينة على مخبز فيه رحيان تداران باليد وعلى معمل لقصر الثياب ودكان حلاق وبيت جراح وادواته من القلز (النحاس الاصفر) ومعمل نقش ودباغة .

المشاهد — كان للمشاهد في حياة هذا الشعب العطل من الاعمال في رومية شأن يصعب علينا تصوره فكانت المشاهد كما في يونان عبارة عن العاب اي حفلات دينية وتتعاقب المشاهد طول النهار وتعود من الايام التالية مدة اسبوع على الاقل .

والمشهد عبارة عن موعد تتواعد اليه الامة الحرة باسرها وهناك كانت تقام المظاهرات ففي خلال الحروب المدنية سنة ١٩٦ اخذ المتفرجون بلسان واحد يهتفون : السلم . والمشهد (الفرجة) كان بحسب ما تميل اليه النفوس في ذاك الزمن فقد مثل فيه ثلاثة امبراطرة فمثل كاليجولا في هيئة حوذي ونيرون ممثلاً وكومود مصارعاً . وللمشاهد ثلاثة اضرب : في المرزح او المسرح (المرسح) والملعب وشكل نصف الدائرة (انفيتياتر)

وكان المرزح على الاسلوب اليوناني والممثلون يمثلون وقد جعلوا اوجهاً مستعارة على وجوههم يشخصون قصصاً اخذوها من اللغة اليونانية . وقلما كان الرومان يقدرون مثل هذه الروايات قدرها لانها تعلو عن عقولهم وكانوا يؤثرون الروايات المضحكة الجافة المعروفة بالميم ولا سيما « البانتوميم » التي يشخصها المشخص دون ان يتكلم و يظهر عواطف الاشخاص الذين يمثلهم بحركاته وسكناته . تمتد بين اكمتين من جبل افانتين و بالاتين ساحة للسباق تحيط بها اروقة علتها مراق وادراج . وهذا المكان هو الملعب الاعظم اصبح يسع منذ وسعه نيرون ٢٥٠ الف متفرج . ثم وسع في القرن الرابع حتى صار صالحاً لاجلاس ٣٨٥ الف شخص وهناك كانوا يمثلون الفرجة التي يحبها الشعب الروماني وهي سباق المركبات ذات الاربعة الخيول فالمركبة الواحدة تطوف الملعب من اقصاه الى اقصاه ثلاث مرات وعليها ان تقطع ٢٥ شوطاً في اليوم الواحد . وسائقو المركبات تبع لشركات تزاحم كل منها الاخرى و يلبسون لوناً من الالبسة خاصاً بشركتهم فكانت الشركات اربعاً بادىء بدء ثم استحالت ثنتين وهما الزرقاء والخضراء ولكليهما شهرة في تاريخ التمرد . ولقد اولع القوم في رومية بسباق المركبات كما يولع الناس اليوم بسباق الخيل حتى كان موضوع حديث النساء والاولاد ايضاً كثيراً ما يتعصب الامبراطور لفريق دون آخر في السباق وتتكون من النزاع بين الزرق والخضر مسألة سياسية

انشأ الامبراطور فسبازين على ابواب رومية بناء الكوليزة وهي عمارة ضخمة ذات طبقتين تسع سبعين الف متفرج كانت عبارة عن ملعب مستدير حول ميدان يصطادون فيه و يتقاتلون فاذا ارادوا الصيد يجعلون الميدان غابة يطلقون فيها الوحوش الكاسرة فيجيء رجال مسلحون بحراب يصيدونها . وكانوا ينوعون المشهد بجعل الحيوانات الكثيرة في هذا المكان ولا سيما النادر منها كالاسود والفهود والفيلة والدببة والجواميس والكركدن والزرافة والنمور والتماسيح . وظهر في الالعاب التي احتفل بها الامبراطور بومبي ١٧ فيلاً و ٥٠٠ اسد في الميدان وكانت لبعض الاباطرة دار لغرائب الوحوش . ثم رأى القوم بدلاً من ان يجعلوا الرجال المسلحين امام الحيوانات ان يطلقوا الحيوانات على الرجال وهم عراة مقيدون . وشاعت العادة في جميع مدن الامبراطورية باستخدام المحكوم عليهم بالاعدام في هذه التسلية فافترست الحيوانات أُلوفاً من الناس من كل جنس وسن ومنهم كثير من شهداء المسيحيين على مرأى من الحضور .

المصارعون — كان قتال المصارعين (رجال بأيديهم السيوف) من اجل المشاهد الوطنية عند الرومانيين فينزل رجال مسلحون الى الميدان يتبارزون حتى يقتل بعضهم بعضاً

وبلغ الحال بالرومانيين على عهد قيصر ان صاروا يقتلون ٣٢٠ زوجاً من المصارعين في آن واحد وقد قتل اغسطس في حياته كلها عشرة آلاف رجل وقتل تراجان مثل ذلك في اربعة اشهر . وكان المغلوب يذبح في الحال الا اذا عفا الشعب عنه

وكثيراً ما يلقون بأناس من المحكوم عليهم في ميدان الصراع ولكن المتصارعين يكونون في الغالب من العبيد واسرى الحرب . وكل انتصار يجاب الى ميدان الصراع عصابات من البرابرة يقتل بعضهم بعضاً ليتلذذ المتفرجون (١) وكان في رومية مصارعون من كل بلد فمنهم الغاليون والجرمان والتراسيون وربما كان منهم الزنوج فيقتتلون باسلحة مختلفة عن اسلحتهم الوطنية عادة . وكان يحب الرومان ان يروا هذه المقاتلات في صور مصغرة .

وكنت ترى بين هؤلاء المقتتلين في الملعب اناساً من المتطوعة الاحرار حدا بهم حبهم للخطر ان يقدموا انفسهم للصراع وقواعده القاسية وان يقسموا لزعمائهم بانهم يقدمون ليضربوا بالعصي ويحرقوا بالحديد المحمى ويقتلوا تقتيلاً . وقد تجند غير واحد من اعضاء مجلس الشيوخ من هذه العصابات من العبيد والمتشردين بل تجند في زمرتهم الامبراطور كومود ونزل الى الميدان بذاته . ولا تقام هذه الالعاب الخطرة في رومية فقط بل في جميع مدن ايطاليا وغاليا وافريقية (اما اليونان فقد استنكفوا من قبول هذه الالعاب)

واليك صورة كتبت على تمثال اقيم لاحد اعيان بلدة منثورن : «قد اظهر في اربعة ايام احد عشر زوجاً من المصارعين ما برحوا يقتتلون حتى بعد ان سقط نصفهم في الميدان وصاد عشرة دببة هائلة ولا شك انكم تذكرونه ايها الوطنيون الاشراف»

وكان الشعب يهوى اهراق الدماء على نحو ما يجري اليوم باسبانيا في سباق الثيران . وينبغي للامبراطور كما ينبغي لملك اسبانيا ان يحضر هذه المجازر . ولقد فقد الامبراطور مارك اوريل ثقة العامة في رومية لانه اظهر مللاً من مشاهدة تلك الالعاب فكان يقرأ ويتكلم ويقابل الناس بدلاً من ان يتفرج . ولما صحب معه المصارعين ليستخدمهم في قتال البرابرة الذين هاجموا ايطاليا او شكت الغوغاء ان تتمرد وصرخوا قائلين : «انه يريد ان يسلبنا تسليتنا ليضطرنا الى التفلسف»

المدارس — لم يخطر للقدماء قط ان يعلموا الاولاد كلهم فليس العبيد وحدهم بل السواد الاعظم من سكان الامبراطورية لم يتعلموا القراءة . على انه لم يكن في المملكة

(١) شكر احد الخطباء الامبراطور قسطنطين في خطاب رسمي القاه لانه قدم جيشاً برمته من البرابرة الاسرى ليتصارع امام الجمهور ولانه استعمل قتل الناس لتسلية الناس . قال وليت شعري اي ظفر اجمل من هذا ؟

غير مدارس الاغنياء والوطنيين الرومانيين . وقلما نعرف المدارس التي يتعلم فيها ابناء الوطنيين والاجناد القراءة والكتابة . وقد كان راتب معلم المدرسة قليلاً جداً وآباء الاولاد هم الذين يؤدون اليه راتبه . وطريقة التعليم عبارة من ضرب الاولاد بمقرعة او بالعصي . وقد مثلوا في صورة وجدت في مدينة بومبي ولداً يمسكه اترابه بينا كان المعلم يضربه بالسوط .

وتعلم الأسرات الغنية اولادها على مؤدب عبد يكون رومياً في الغالب فيعلمهم النحو واللغة اليونانية . والمدارس العامة تقبل الشبان الاغنياء خاصة يرسلهم آباؤهم اليها ليتعلموا فيها الخطابة . والغاء المنابر لم ينزع من الناس ذوقهم في الخطابة ومرانهم عليها . وعلى ذاك العهد بدأ المفوهون او الخطباء يكثرون و يعلمون الناس كيفية الاداء فافتتحوا منذ القرن الاول في رومية مدارس يقبلون فيها الفتيان الاغنياء . وكان بعضهم يمرن تلاميذه على انشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة وقد حفظ لنا الخطيب سنيك عدة من هذه الدروس الخطابية وموضوعها اولاد مخطوفون ولصوص ومتشردون على اساليب مختلفة أسست على الولاء مدارس من هذا الطراز في جميع اقطار المملكة فكان في غاليا مدرسة قديمة في مدينة مارسيليا اليونانية يقصدها الطلاب من ايطاليا . واصبحت مدرسة اوتون منذ زمن اغسطس عامرة اكثر من غيرها بالطلاب وهي التي بقيت عامرة الى آخر ايام الامبراطورية .

ثم أنشئت مدارس من هذا النوع في الشمال منها مدرسة في ريمس واخرى في تريف . وكانت في الجنوب لعدة مدن مدارس من مثل هذه واشهرها هي التي اصبحت مدرسة بوردو بعد ذلك .

تنفق المدن على هذه المدارس فتعين لها الاساتذة وتدفع لهم اجورهم والمقصد الاول منها تعليم ابناء الأسرات الغنية التكلم باللاتينية واليونانية وان يكتبوا فيهما ليتمكنوا من ان يكونوا موظفين . ويعلم فيها النحو والبيان خاصة . وكان اشهر استاذ في مدرسة اوتون في القرن الرابع الخطيب اومين ارسله الامبراطور قسطنطين وكان مدحه . واعظم رجل في مدرسة بوردو هو اوزون مربي ابن الامبراطور (٣٦٩) ومؤلف عدة مقاطيع شعرية لاتينية متكلفة .

الاشراف — دثرت الأسرات القديمة الغنية في رومية الا قليلاً ولكن قام غيرها من الأسر الحديثة التي اغتنت بالصيرفة والتجارة والتزام الجباية واستثمار الاراضي المفتوحة . وكلما تمكن غني من ارباب الاملاك من ان يعينه الامبراطور حاكماً تشرف أسرته وبذلك شرفت

جميع الأُسرات الغنية في ايطاليا والولايات (حتى لم يبق في اواخر القرن الثالث الا من الفرسان العاديين) وكان كل عظيم من كبراء هؤلاء الملاك يعيش بين عبيده ملكاً صغيراً لا عمل له الا اتباع الشهوات وداره في رومية اشبه بقصر تغص غرفة التشريفات (الاتريوم) كل صباح باناس من الزبن (الزبونات) وهم اناس من الوطنيين يختلفون اليه لا مورطفيفة صباح كل يوم يسلمون عليه بالسيادة ويسايرون موكبه في الشارع · لان الاصطلاح يطلب ان لا يظهر الغني ابداً امام الجمهور الا ويحيط به جماعة · وقد ضحك هوراس من احد القضاة لمروره بشوارع تيبور في خمسة من العبيد فقط · وللكبراء خارج رومية مصايف بهجة على شواطئ البحر او في الجبال ينتقلون فيها لا عمل لهم والضجر آخذ منهم

ولم تكن واجهات لبيوت هؤلاء الاغنياء من الرومانيين على العكس من بيوتنا الحديثة بل كانت كلها دائرة من داخل اما من الخارج فلم تكن سوى حيطان عارية لا شيء فيها والغرف صغيرة وفرشها قليل وهي مظلمة لا يدخلها الضوء الا من قاعة التشريفات وهي في وسط البيت وفيها نصبت تماثيل الاجداد وفيها يستقبل الزوار ويدخل اليها النور من شق في السقف ووراءها البير يستيد وهي حديقة محاطة بصفوف من العمد وعليها تطل غرف الطعام مزينة الخرزينة وفيها سرر لجلوس الضيوف ويتناولون فيها الطعام لان ذلك كان من عادة اغنياء الرومان كما كان من عادة اليونان في آسيا · وكثيراً ما يكون بلاط الدار معمولاً بالفسيفساء ·

الاخلاق — وصف سينيك في رسائله وجوفنال في اهاجيه الرجال والنساء في عهده وصفاً مزعجاً حتى اصبح فساد رومية القياصرة مثلاً سائراً في الغابرين · على ان هذا ناشئ من دوام اضطرابات القرون الاخيرة للجمهورية مثل بذخ الاغنياء الغليظ وقسوة السادة مع عبيدهم وطيش النساء الممزوج بجنون · فلم يأت الشر من طريقة الحكم الامبراطورية بل من الافراط في جمع ثروات العالم اجمع بيد بضعة الوف من الاشراف او ادعياء الشرف وتحتهم بضع مئات من الاحرار يعيشون عيشاً سافلاً وملايين من العبيد يظلمون ظلماً هائلاً

وكانت الاسرة الكبرى تندثر بسرعة حتى هال الامبراطور اغسطس ما رأى من نقص عدد الرجال الاحرار فسن قوانين لحمل الناس على الزواج والعقاب على العزوبة و[illegible] كان تأثير هذه القوانين يحتاج الى زمن لم تنجع اصلاً · ولقد كثر عدد الاعزاب من الاغنياء حتى غدت مداهنتهم من الصناعات الرابحة وذلك ليوصي لهم من يدهنون لهم بشيء من المال يأخذونه بعدهم · ومن حسن التدبير ان لا يرزق الغني ولداً فيكون محاطاً بالمرائين والمتقربين · قال احد القصصيين الروحانيين : « ينقسم الناس في هذه المدينة الى طبقتين

منهم من يصطاد ومنهم من يصاد » وقال سينيك : « ان في حرمان الاولاد زيادة نفوذ المرء » .

الطبقات النازلة — فقد التمييز بين الوطنيين الرومانيين والغرباء موقعه ومكانته اذ لم يعد في رومية انتخابات وشمل حق التملك على التدريج سكان الولايات . وجاء زمن على عهد كاراكالا سنة ٢١٢) صدر فيه امر بمنح حق الوطنية لجميع سكان الامبراطورية ولم يشعر بهذا الامر كثيراً لان العمل كان جارياً عليه من قبل بالفعل

ويمتاز الرجل امتيازاً خاصاً بثروته التي يملكها ويقسم الناس الى طبقتين : الاغنياء ويدعون اشرف الشرفاء وهم اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان واعضاء مجالس الشيوخ في المدن وتتألف منهم طبقة قواد العشرة اما بقية الشعب وهم العامة فيتألف منهم الفقراء المدقعون والدوقة الحقيرون .

فالشرف الاشراف وحدهم يحسبون في المجتمع وهم يقومون بعامة الوظائف المدنية وجميع موظفي الامبراطور من طبقة اعضاء الشيوخ او طبقة الفرسان وجميع حكام المدن من قواد العشرة . ولهم كلهم امتيازات رسمية ومحال خاصة بهم في دور التمثيل وحضور الحفلات واذ حكم عليهم بالاعدام لا يصلبون ولا يلقى بهم للوحوش في الملاعب لان هذه العقوبات المخزية كانت خاصة بالغوغاء والعامة

ولقد عاش الفقراء في هذا المجتمع الارستوكراسي عيشة ضنكاً فيعيش فقراء رومية من الصدقات العامة او بالاختلاف الى الاغنياء ومداهنتهم وهذه العيشة كانت ضرباً مستوراً من الشحاذة . ويصبح الفقراء في القرى مستعمرين في اراضي كبار ارباب الاملاك الذين يعاملونهم معاملة تقرب من معاملة العبيد وترى الفقراء في المدن صناعاً او مرتزقة ومنزلتهم منزلة المعتقين من العبيد . واذا حسنت حال المدينة يكون لهم نصيب فيما يوزعه الحكام من الصدقات ويدخلون بدون اجرة الى مشاهد التمثيل والالعاب والحمامات العمومية وكنت ترى في جميع المدن حمامات حارة مؤلفة من مقاصير للاستحمام ذات احواض تأتيها الحرارة من موقد جعل تحت الارض . والحمامات في مدينة رومانية كمحال الرياضة في المدينة اليونانية هي مكان اجتماع من لا عمل لهم . بل كانت الحمامات في مدن الرومان اعظم من محال الرياضة عند جيرانهم اليونان مئات من المقاصير على اختلاف اجناسها فمن مقصورة باردة الى فاترة الى حارة الى صوان للثياب ومقصورة لدلك البدن بالزيت ومحل للمحادثة ومقاصير للرياضة وحدائق يحيط بكل ذلك سور عظيم . وقد شغلت خرائب حمامات كاركالا بالقرب من رومية مساحة عظيمة من الارض .

العبيد — وتأتي تحت طبقة الاحرار الفقراء الطبقة الاخيرة وهي طبقة العبيد الذين هم في بعض البلاد معظم السكان . والسادة من الرومانيين كالشرقيين لعهدنا كانوا يحبون ان يحيط بهم جمهور من العبيد . ففي البيت الكبير الروماني يعيش مئات من العبيد ينقسمون بحسب الخدم التي يتولونها فمنهم الموكلون بالفرش وتعهد الاواني الفضية والاعلاق والتحف ومنهم حفظة للثياب ومنهم وصائف ووصيفات ومنهم القيمون على المطبخ والحمام ومنهم رئيس المتكإ ومعاونوه ومنهم عبيد الموكب الذي يرافق سيد البيت وسيدته في الشوارع ومنهم حملة المحفة (المحارة) ومنهم الحوذيون والسواس ومنهم أمناء السر والقراء والنساخ والاطباء والمربون والممثلون والموسيقيون وارباب الصناعات من كل صنف لانهم في كل بيت كبير يطحنون الدقيق ويحيكون الصوف وينسجون الثياب . ومن هؤلاء العبيد من حبسوا انفسهم في المعامل يصنعون اشياء يبيعها سادتهم ويكون ربحها لهم ومنهم من يؤجرهم اصحابهم الى الخارج على انهم بناؤون او بحارة فقد كان لكراسوس خمسمائة عبد من المهندسين . وكل هؤلاء يدعون عبيد المدن .

عبيد الريف — كل ملك (تفتيش) كبير يتوفر على زراعته عصابة من العبيد فهم الحراثون والرعاة والكرامون والبساتنيون والصيادون يجعلون شراذم تتألف كل شرذمة من عشرة اشخاص . ويلاحظهم وكيل منهم يهيمن عليهم . ويرى صاحب الملك ان من دواعي اعجابه ان تخرج ارضه كل شيء فهو لا يبتاع شيئاً وكل حاجياته تنبت في ارضه وهذا مما يجعلونه من جملة الثناء على الاغنياء فصاحب الارض يؤوي اليه عدداً عظيما من عبيد الريف كما يسمونهم والملك الروماني اشبه بقرية ويسمى مصيفاً (فيلا) وقد بقي اسمها فاطلق عليه اسم مدينة (فيل) منذ القرون الوسطى وهو الملك الروماني القديم مكبراً

معاملة العبيد — يعامل العبيد بحسب اخلاق سيدهم فمن السادة المتنورين الذين اشتهروا بالانسانية شيشرون وسينيك وبلين فقد كانوا يطعمون عبيدهم طعاماً جيداً او يحادثونهم وربما اجلسوهم معهم على موائدهم ويسمحون ان يكون لهم اسرة وثروة صغيرة . وهناك سادة على العكس من هؤلاء عاملوا عبيدهم معاملة الحيوانات وعاقبوهم اشد العقوبات بل ربما قتلوهم لهوى في النفس . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد كان فويوس بوليون عتيق اغسطس يطعم السلور البحري (سمك مرينة) في بركته فكسر له احد عبيده آنية على غير قصد فما هو الا ان القاه في البركة ليكون طعاماً لسمكه

وصف الفيلسوف سينيك فظائع السادات بهذه العبارة : «اذا سعل أحد العبيد أو عطس خلال المأدبة أو طرد الذباب متهاونًا أو رمى مفتاحًا وسمع له صوت نكلب في

الاقتصاص منه وأي كاب فاذا اجاب رافعاً صوته قليلاً ودلت تلاميح وجهه على سوء خلق أيحق لنا ان نضرب به بالسياط ؟ وكثيراً مانبالغ في الضرب ونقطع له عضواً ونقلع سناً » وهكذا رأينا الفيلسوف ابيكتيت وكان عبداً اكسر مولاه ساقه . اما النساء فلم يكن أيضاً على شيء من الشفقة واليك كيف امتدح ادفيد احدى العقائل قال: «مشطوا رأسها امامي مرات ومافط غرزت الابرة في ذراع العبد الذي يمشطها »

وما كان الرأي العام ليحول دون هذه الفظائع فقد مثل جوفنال عقيلة غضبى على أحد عبيدها وهي تقول أصلبوه — وأي جريمة أتاها العبد حتى استحق هذا العذاب ؟ما انحسه وهل العبد من البشر ؟وسواء أتى امراً اداً ام لم يأت فاني أريد عقابه وآمر به وارادتي هي الحجة في هذا الباب

اما الشريعة فلم تكن الطف من الاخلاق فكانت في القرن الاول قبل المسيح توجب بان صاحب البيت اذا ذبح ان يقتل عبيده كلهم به . ولما أريد الغاء هذا القانون خطب ترازيا أحد معتبري الفلاسفة في مجلس الشيوخ مطالباً ببقاء هذا القانون.

وللعبيد مطبق تحت الارض يدخله النور من نوافذ ضيقة بعيدة بحيث لا يتيسر الوصول اليها فاذا اتوا مايغضب ساداتهم يسجنونهم فيه بالليل وفي النهار يبعثون بهم ليشتغلوا مقيدين بسلاسل من حديد ثقيلة . وكثير منهم من وسمت وجوههم بحديدة محماة

لم يعرف القدماء المطاحن الميكانيكية بل كانوا يطحنون الحنطة بمطاحن باليد يديرها العبيد وكان ذلك من اشق الاعمال يندبون اليها عقوبة لهم في العادة . وكانت المطحنة قديماً مثل محبس (لومان) وقال بلوت« كان يبكي أشقياء العبيد الذين يطعمون البولانتا (سويق من دقيق الذرة) وهناك يرن دوي الاسواط وقعقعة السلاسل والاغلال » وبعد ثلاثة قرون أي في القرن الثاني بعد المسيح وصف القصصي ابوليه داخل مطحنة بقوله: «ايها الارباب ما اتعس هؤلاء المساكين من البشر فقد اسودت جلودهم وتبرقشت من ضرب السياط ولا تستر ابدانهم غير خرق من قميص مدموغة جباههم محلوقة رؤوسهم مقيدة ارجلهم مشوهة ابدانهم من النيران مقروضة جفونهم من الدخان وقد علاهم غبار الدقيق»

ولم يكن العبيد يكتبون ولذلك لا نعرف ماهو رأيهم انفسهم في معاملة ساداتهم لهم . الا ان الموالي أنفسهم كانوا يشعرون بحقد عبيدهم عليهم . ولما انتهى الى بلين الحدث ما اصاب احد ارباب الاملاك من ذبحه في حمام بيد عبيده قال ملاحظا : « هو ذا الخطر الذي يتهددنا كلنا » . وقال كاتب آخر : «اصبح كثير من الرومان عرضة لحقد عبيدهم اكثر من حقد الظالمين»

الشركات — كان في جميع بلاد الامبراطورية في الشرق اليوناني اكثر من الغرب اللاتيني عدد كبير من الشركات مختلفة الضروب والاشكال · فمنها شركات لارباب الصناعة الواحدة وشركات للممثلين والمصارعين وشركات ادبية وشركات لاجتماع السكيرين على الشراب ولبعض هذه الشركات أعضاء من الرجال الاغنياء مثل جمعيات الجباة وكان اعضاؤها يلتزمون الاموال الاميرية · ومثل جمعيات التجار الذين يتجرون بين ايطاليا وغاليا ولكن معظم تلك الجمعيات كان مؤلفاً من صعاليك القوم ·

ولقد طال منع الحكومة الرومانية لهذه الجمعيات والشركات ثم تسامحت بها حتى اذا كان القرن الثالث اخذت تمد اليها يد مساعدتها ولكن الحكومة لم تمنع قط الجمعيات لدفن الموتى وكانت هذه الجمعيات تتألف من اناس مساكين لا يستطيعون ان يقتنوا ارضاً لتكون لهم قبراً فكانوا يشتركون ويدفعون اقساطا للحصول على سرب يكون مشتركاً بينهم ليدفنوا فيه امواتهم · فالمغارة او السرب المعدّ لدفن الموتى هو عبارة عن بناء مقبب وفيه صفوف كثيرة من المقاصير يجعل في كل واحدة منها رفات ميت ويسمونها برج الحمام بسبب شكلها ·

وعلى هذا كان اعضاء جمعية الموتى على ثقة من الحصول على مدفن لائق بعد موتهم وقبر دائم لهم على الدهر وهو ما كان القدماء يحرصون عليه كل الحرص ويسمون هذه الشركات لا بأسماء حزن لئلا تكون شؤماً بل يسمونها باسماء ارباب ويسمونها شركات الصغار وكان يدخل فيها كثير من العبيد · وتجعل جميع الشركات الا قليلا تحت حماية احد الارباب ليحميها (مثل جمعيات الاطباء التي اطلقوا عليها اسم اسكولاب) وما كان لكثير من هذه الشركات من غاية الا ان يتعبدوا كلهم جماعة · والحكومة لا تدر الارزاق الا على المعابد والكهنة وبعض الشعائر الرسمية · وجميع الاديان الاخرى كانت منظمة على هيئة جمعيات · ولاهلها صندوقهم وكاهنهم ومصلاهم ومذبحهم وحفلاتهم · وكانت الكنائس النصرانية اولاً شركات من هذا النوع ·

واهم الشركات شركات ارباب الصناعات فكان منها في عامة المدن حتى ان العواصم كان فيها عدة شركات من نوعها واعضاؤها في العادة من ارباب الصناعة الواحدة وتسمى كل شركة باسماء صناعات اعضائها فقد كان في افيز شركة حلاجي الصوف وفي جنيف شركة الملاحين وفي ليون شركة عملة البناء · وتقبل كل شركة في اعضائها اناساً من اهل صناعة اخرى · ومن العادة ان يكون لكل شركة عبادة فتعبد رباً وتقيم عيداً للاحتفال به يحملون فيه عَلَمه (ودامت هذه العادة في القرون الوسطى في شركات الصناع المسيحيين) وهذه

الشركة تقوم بدفن أعضائها متى ماتوا في مدافن لائقة . ولكل شركة مديران يختاران من المعلمين ويكونان في العادة وكيلا وامين صندوق ينتخبهما الاعضاء كلهم الا انه لم يكن لهما ادنى سلطة على ارباب الصناعة وما كان يكره احد على الدخول معهم

الحقوق الرومانية

دين البيوت — يعبد اعضاء كل اسرة باجمعهم اجدادهم ويجتمعون حول مزار واحد فار بابهم واحدة ولهم وحدهم ان ينظروا اليها ولا يحق لاحد ان يعبد اجداد أسرة الا اذا كان من فرع اولئك الجدود . ويقام المزار الذي يجعل فيه ارباب البيت في مكان منفرد من الدار لا يقترب منه غريب . والاسرة الرومانية اشبه بكنيسة صغيرة لهادينها وعبادتها لا يقبل فيهما احد غير اعضائها ولذلك تختلف كثيرًا عن الاسرة الحديثة لان نظامها ديني .

الزواج — اخذ الزواج الروماني يصير احتفالاً دينيًا فيسلم الاب ابنته المخطوبة الى خارج الدار فتحمل في موكب الى دار زوجها والناس يرددون كلمة مقدسة وهي : «العرس ايتها العروس » حتى اذا جاؤا بها الى دار زوجها يقدمون لها الماء والنار وهناك يقتسم الزوجان بحضور ارباب الاسرة قطعة من الحلواء معمولة من الحوارى وكان يسمى الزواج اذ ذاك شركة الحلواء .

وقد اخترع الرومان منذ الزمن الاطول ضربًا من الزواج يسوغ للطبقة الوسطى فقط وهو اما ان يبيع المخطوبة احد اوليائها واقربائها بحضور شهود من قبل زوجها ويصرح هذا بانه ابتاعها على ان تكون زوجه وهذا زواج البيع واما ان تجيء الزوج فتساكن زوجها ومتى قضيا سنة معًا يعتبران متزوجين وهذا الزواج بالعادة

الرومان كاليونان يرون الزواج فرضًا دينيًا والدين يأمر بان لا تندثر الاسر . وعند ما يتزوج الروماني يصرح بانه اتخذ زوجته ليكون له منها اولاد . وقد طلق احد اشراف الاغنياء زوجته وكان يحبها حبًا جمًا لانه لم يرزق منها اولادًا .

المرأة — ليست المرأة الرومانية حرة اصلاً فهي في شبيبتها ملك ابيها يختار لها زوجًا واذا تزوجت يصير امرها بيد بعلها ويقول الفقهاء انها في يده وانها مثل ابنته . وبالجملة فالمرأة سيد على الدوام بيده موتها وحياتها .

ومع هذا لم يعاملوا المرأة قط معاملة الرقيق بل هي مساوية في المكانة لزوجها ويدعونها أم الاسرة كما يدعون الرجل أبا الاسرة فهي سيدة في البيت كزوجها تسيطر على النساء الرقيقات فتكلفهن بجميع الاعمال الشاقة كطحن الحب وخبز الخبز وعجنه . وتجلس في قاعة التشريفات من الدار تنسج وتحيك وتوزع الاعمال بين الاماء وتلاحظ الاولاد وتدبير

شؤون البيت . وليست المرأة الرومانية كالمرأة اليونانية بعيدة عن الرجال بل تتناول الطعام على المائدة مع زوجها وتستقبل الزائرين وتذهب لتناول الطعام في المدينة وتظهر امام الناس في الحفلات وفي دور التمثيل وامام المحكمة . الا انها في العادة تكون جاهلة امية وذلك لان الرومانيين لا يهتمون بتعليم بناتهم . واهم صفة يعتبرونها في المرأة ان تكون زاهدة فاذا ماتت يكتبون على قبرها اشارة الى مدحها : « انها التزمت بيتها ولم تخرج منه وغزلت الصوف »

الاولاد — الولد الروماني لابيه بمثابة ملك له وللوالد الحق في ان يعرضه في الشارع فاذا اخذه يربيه في بيته اولاً والبنات يبقين في البيت ريثما يتزوجن وهن يغزلن ويحكن تحت ملاحظة امهاتهن والبنون يعملون في الحقول مع آبائهم ويتمرنون على استعمال السلاح

ليس الرومان شعباً مفتناً في الصناعات وغاية امانيهم ان يعرف ابناؤهم القراءة والكتابة والحساب وهم لا يطلبون على ذلك مزيداً فلا يعلمونهم الموسيقى ولا الشعر ويلقنونهم القناعة والصمت والحشمة في مآتيهم والطاعة في منازعهم .

ابو العائلة — ان من يطلق عليه اسم سيد البيت يدعوه الرومان ابا الاسرة . فابو الاسرة مالك للاملاك وكاهن في عبادة الاجداد وسلطان الاسرة فهو الحاكم المتحكم في بيته يحق له ان يطلق زوجته ويطرد ابناءه وان يبيعهم ويزوجهم بدون ان يأخذ رأيهم . ويحق له ان يستأثر بما يملكونه لنفسه بل وكل ما تحمله اليه زوجه وكل ما يكسبه اولاده . اذ لا يسوغ للمرأة ولا لاولادها ان يملكوا شيئاً وبالجملة فبيده حياتهم ومماتهم اي انه قاضيهم الوحيد . ان ارتكبوا جريمة فرب الاسرة يحكم عليهم لا الحاكم .

اصدر مجلس الشيوخ (١٨٦) الروماني امره ذات يوم باعدام جميع من اشتركوا في الاحتفال بعبادة باخوس فنفذ الحكم على الرجال . اما النساء اللائي اشتركن في الحفلة مع المجرمين فعمد المجلس الى آباء الاسرات في امرهن وهم الذين اعدموا نساءهم وبناتهم . كان الشيخ كاتون يقول « ان الزوج قاضي امرأته له ان يعمل بها ما يشاء فاذا ارتكبت غلطاً يعاقبها واذا تناولت خمراً يحكم عليها بالاعدام واذا خانت يقتلها » ولما كان كاتاليما يكيد المكايد لمجلس الشيوخ لاحظ احدهم ان ابنه اشترك في المكيدة فاوقفه وحاكمه فحكم عليه بالموت . وتدوم سلطة ابي الاسرة بدوام حياته والابن لا يخلص من عبوديته له حتى انه اذا اصبح قنصلاً يظل خاضعاً لسلطة ابيه . ومتى مات الاب يصبح الاولاد اصحاب بيوت اما امرأته فلا تكون حرة اصلاً بل تكون تحت سيطرة وريث زوجها بل تخضع لابنها نفسه

التملك — كانت الثروة في القرون الاولى لرومية عبارة عن ماشية وعبيد خصوصاً واللفظ الذي دل بعد على الدراهم معناه قطيع ويسمى المالك رب الاسرة . ومن المحتمل

ان الارض لم تكن تنتقل بالارث لان لفظة ارث عندهم تدل على ارض مساحتها فدانان وهو المكان الذي يكفي لانشاء بيت وحديقة . ولم يلبث الرومانيون ان قبلوا عادة اعتبار المالك لحقل صاحباً له وعندئذ وضع حق التملك للماشية والعبيد والاراضي والبيوت وكانوا يعرفونه بانه حق الانتفاع والتخريب (الاستعمال وسوء الاستعمال)

ثم صار لهذا الحق ان يتناول كل شيء من الحاجات والاثاث والدراهم والعقود والديون وحقوق الاستمتاع . ويجب على من اراد ان يملك شيئاً ان يملكه على الصورة التي عينتها العادة . واليك مثلاً كيف تجري صفقة المبيع : يضع البائع امام خمسة من الوطنيين ينوبون عن مجمع ومعهم سادس يمسك الميزان بيديه قطعة من النحاس في هذا الميزان تعادل ثمن المبيع . فاذا كان هذا حيواناً او عبداً يمسكه البائع بيده ويقول : هذا لي بموجب القانون الروماني ابتعته بهذا النحاس الموزون وزناً حسناً .

ثم ابتدعوا طرقاً اسهل لنقل الملك من يد الى يد فصاروا يكتفون بدفع المبيع الى المبتاع . وهذه الطرق لا تملك تمليكاً رسمياً بل يكون المقتني للملك متمتعاً به ولكن هذا التمتع يخوله نفس الحقوق كما لو كان مالكاً رسمياً له .

ولصاحب الملك الحق في ان يعطي املاكه بعده لمن يشاء واذا لم يوص بشيء من هذا القبيل يقتسم اولاده ثروته واذا اراد ان يغير نظام الوراثة يكتب وصيته . وكان يجري ذلك بمحفل امام مجلس الامة زمناً طويلاً ثم اصطلحوا على صورة متكلفة في البيع كأن يبيع المالك ماله لمن يريد ان يجعله وريثاً له وانتهت الحال بان اصبحوا يكتفون بوصية مسطورة وكان يحق لصاحب الملك خلال القرون الاولى ان يوصي لمن يشاء وان لا يترك شيئاً لاولاده ثم اكره القضاة آباء الاسر بالتدريج على ان يوصوا لكل واحد من اولادهم بقسم من ثروتهم فاخذ ينال كل ولد قسماً من الارث .

الواح الوصايا الاثنتا عشرة = لم يكن عند الرومان في مبدإ امرهم كسائر الشعوب القديمة شرائع مكتوبة بل كانوا يجرون على عادات الاجداد اي ان كل جيل يجري في كل شأن من شؤونه كما جرى الجيل السالف . وقد سنَّ حوالى سنة ٤٥٠ عشرة حكام منتخبين شرائع كتبوها في اثنتي عشرة لوحة من الحجر . وكانت هذه شريعة الاثنتي عشرة لوحة أنشئت احكاماً موجزة شديدة قطعية وما هي الا تقنين جاف قاس مثل الشعب النصف البربري الذي وضع له . فبموجب هذه الشريعة يعاقب الساحر اذا تلا كلمات سحرية ومر على حقله بغلة جاره . واليك حكم هذا القانون في المدين الذي لم يؤد ما عليه من دين : « اذا لم يدفع يرفع امره الى القضاء واذا عاقه المرض او السن عن الحضور يركب حصاناً او

محفة ويمهل ثلاثين يوماً فاذا لم يوف ما عليه يربطه الدائن بسيور او سلاسل وزنها ١٥ لبرة وبعد ستين يوماً يبيعه فيما وراء نهر التيبر وللدائنين اذا تعددوا ان يقطعوا المدين ارباً اربا ولا غبن اذا قطعوا منه قليلاً او كثيراً! قال شيشرون كانت شريعة الاثني عشرة لوحة منبع التقنين الروماني باسره وكان الاولاد في المدارس يستظهرونها بعد اربعة قرون من وضعها ·

الاشارات في الدعاوي — لا يكفي بموجب هذا القانون الروماني القديم اتفاق الاشخاص في مسائل البيع والشراء والارث فلا يكفي لاجل اخذ حكم المحكمة الرومانية ان يعرض الانسان قضية بل يجب عليه ان يلفظ عدة كلمات ويقوم ببعض اشارات تقضي بها العادة وكل قضية تقام امام المحكمة يجري تمثيلها بالاشارات · فللمطالبة بشيء يمسكه المدعي بيده وللاحتجاج على جار رفع حائطه على جاره يرمون بحجر على هذا الحائط · وهاك مايجري اذا اختلف اثنان في ملكية حقل · يأخذ الخصمان بايديهما كأنهما يريدان ان يتضاربا ثم يفترقان ويقول كل منهما : « اصرح بان هذا الحقل لي بموجب حقوق الرومانيين فانا ادعوك باسم محكمة القاضي الى مكان الحقل ليفصل فيه بيننا » فيأمرهما القاضي ان يذهبا الى الحقل قائلاً لهما : اذهبا فهذا طريقكما امام الشهود الحاضرين · فيخطو المتخاصمان بضع خطوات كأنهما ذهبا وفي ذلك رمز الى ذهابهما · فيقول لهما احد الشهود : ارجعا · وبذلك اشارة الى انهما ذهبا الى الحقل فيقدم كل من الخصمين مدرة من التراب وهي اشارة للحقل · وهكذا تبدأ الدعوى وعندئذ يستمع القاضي للمتخاصمين · والرومانيون كسائر الشعوب القديمة لايحسنون فهم غير ما يقع تحت انظارهم فبالماديات يتمثلون الحق الذي لا يرى ·

ولقد كان الرومان يحترمون هذه الاشكال القديمة من الاحكام من وراء الغاية فكانوا في القضاء كما هم في الدين يطيعون نص القانون دون ان يهتموا بالبحث عن معناه وعندهم ان كل دستور مقدس تجب المبالغة في تنفيذه ومن الحكم الجارية في قضاياهم ان كل مايفوه به اللسان يكون حقاً · فاذا غلط صاحب الدعوى في ايراد مدعاه يخسر قضيته واذا اقام رجل قضيته على جاره لانه قطع له كرمه يجب ان تكون الصورة التي يوردها امام المحكمة حاوية لكلمة «شجرة» فاذا استعاض عنها بكلمة «كرم» لايحكم له ·

واحترام هذه المراسيم على اطلاقها فتح للرومانيين سبيل الوفاق الغريب في أمور كثيرة فالشريعة تقول ان الاب اذا اباع ابنه ثلاث مرات يتحرر الولد من سلطة أبيه ومتى اراد روماني تحرير ابنه يبيعه ثلاث مرات متوالية وهذا العمل المضحك في بيعه يكفي لتحريره ·

وكانت الشريعة تقضي قبل البداءة بحرب ان يرسل مناد ينادي بها على تخوم العدو · ولما أرادت رومية اعلان الحرب على بيروس ملك ابير الذي كانت مملكته في عبر الادرياتيك رأت الحكومة الرومانية للقيام بهذه المصطلحات ان يبتاع احد رعايا بيروس وربما كان من الآبقين من الجندية حقلاً من رومية فاوهموا بان هذا الحقل اصبح ارضاً من بلاد ابير وراح المنادي يلقي فيها حربة ويدعو فيها للحرب علناً · وكان الرومانيون مثل جميع الامم الفتية يعتقدون باطلاً ان للمراسيم المقدسة فضيلة سحرية

الفقه — كانت شريعة الاثنتي عشرة لوحة والشرائع التي وضعت بعد موجزة ناقصة فكانت تعرض مسائل كثيرة لاحل لها في قانون من القوانين الموضوعة · ففي مثل هذه الاحوال الصعبة كانت العادة متبعة ان يعمد الى الاخذ برأي بعض اشخاص اشتهروا بمعرفتهم في مسائل الحقوق · وكانوا من اهل الاعتبار ومنهم قناصل قدماء او احبار فيكتبون آراءهم كتابة وتسمى فتاويهم اجوبة العقلاء · ومن العادة ان يكون لهذه الاجوبة شأن وقيمة لان اصحابها الحكماء على جانب من الاعتبار والحرمة · وقد زاد الامبراطور اغسطس بان عين بعض هؤلاء الحكماء وقرر ان تكون اجوبتهم قانوناً يعمل به · وعلى هذا صار الحقوق علماً وعلماء الحقوق او الفقهاء المشرعون يضعون القواعد الجديدة التي أصبحت سارية فنشأ بذلك علم الفقه

أمر القاضي — دعت الحال في رومية الى نصب حاكم اعلى لينفذ قواعد الحقوق المقدسة وللقنصل أو القاضي فقط ان يديرا شؤون محكمة او يحقان الحقوق · واذ كان القناصل يعنون بقيادة الجيوش فهم يعهدون في العادة بالنظر في الحقوق الى القضاة · وكان في رومية قاضيان حاكمان على الاقل يفصل احدهما في المسائل التي تحدث بين الوطنيين ويسمى قاضي المدينة وينظر الآخر في الدعاوي التي تنشأ بين الوطنيين والاجانب ويسمى قاضي الاجانب وهناك محكمتان لان الغريب لا يحاكم امام محكمة الوطنيين ·

وهذان القاضيان بالنظر لما لهما من السلطة المطلقة يفصلان القضايا على ما يتراءى لهما · بل ان قاضي الاجانب لم يكن مقيداً بقانون لان الشرائع الرومانية لم توضع الا للوطنيين الرومانيين · ولما كان كل قاض يتولى منصبه في القضاء سنة واحدة فهو يكتب عند دخوله أمراً يبين فيه القواعد التي ينوي اتباعها في الاحكام ويسمون هذا الامر امر القاضي · وبعد سنة عند ما تنتهي مدة القاضي يسقط قانونه فيحق لخلفه ان يسن قانوناً مخالفاً لقانون سلفه جملة واحدة ولكن جرت العادة ان يحتفظ كل قاض بما صدر عن اسلافه من الاوامر فيدخل فيها بعض التبديلات ويضيف اليها بعض زيادات · وهكذا تجمعت أوامر القضاة

قروناً . ثم انشأ الامبراطور هاردن في القرن الثاني « براءة القاضي » وجعلها قانوناً مرعي الاجراء .

واذ كان هناك محكمتان منفصلتان احداهما عن الاخرى وضعت قاعدتان متباينتان وقانونان مختلفان فتتألف من القواعد المتبعة التي يجري عليها قاضي المدينة في مسائل الوطنيين الحقوق المدنية أي حقوق المدينة ومن القواعد التي يجري عليها قاضي الاجانب تتألف حقوق الناس اي الشعوب (الغريبة عن رومية) فادرك القوم اذ ذاك ان اعدل هذه القواعد في الحقوق وابسطها واعقلها و بالاجمال افضلها الحقوق الاجنبية وان حقوق الوطنيين المأخوذة ضمن قواعد محصورة عن قدماء الرومان كان فيها خشونة وقواعد بربرية . اما حقوق الناس (الاجانب) فكان اساسها على العكس عادات التجار وعادات أناس من بلاد مختلفة نزلوا رومية وهي عادات سالمة من كل شائبة ووهم وطني أخذت بكرور الايام وافرها الاختبار قروناً كثيرة . ورأى القوم كيف كانت الحقوق القديمة مخالفة للعقل . فقد جاء في بعض الامثال الرومانية «ان الحق الناصع هو الذي تنقضه سلطة عليا ظالمة» وعلى هذا أنشأ قضاة الوطنيين يصححون القانون القديم و يحكمون باحكام العدل حتى بلغوا بالتدريج ان ينفذوا في الوطنيين نفس القواعد التي كان قاضي الاجانب يجري عليها في محكمته .

مثال ذلك ان القانون الروماني يقضي ان يرث الاقارب من الذكور فقط الا ان القاضي دعا الاقارب من النساء ان يشتركن في الارث . و يقضي القانون القديم بان لايكون المرء صاحب ملك الا اذا قام بالاحتفال في المبيع فاعترف القاضي بانه يكفي المبتاع ان ينقد البائع ثمن ماابتاعه وان يضع يده على الملك حتى يعد مالكاً — وانت ترى ان حقوق الاجانب تغلبت على الحقوق المدنية وأبطلتها

القانون المسطر — أنشئت الحقوق الرومانية على عهد الامبراطرة خاصة فاصدر الامبراطرة الانطونيون كثيراً من الاوامر واللوائح وكانت هذه رسائل تصدر عن الامبراطور جواباً عن الموظفين الذين يستطلعون طلع آرائهم فيساعدهم على القيام بهذا الاصلاح القضائي اناس من المتشرعين عندهم وظل بعض المشرعين في أوائل القرن الثالث زمن من حسنت سيرتهم او ساءت من الامبراطرة يضعون القوانين الجديدة في الحقوق و يصلحون ماوجدوه منها قديماً . ومن أشهرهم بابنين واولبين ومودستين و بولس فان تآليفهم هي التي كانت أساساً للحقوق الرومانية بعد

وهذه الحقوق التي نظمت في القرن الثالث لاشبهة بينها و بين الحقوق الرومانية القديمة بحال من الاحوال اذ القديمة لم تكن ترحم الضعفاء فاقتبس المتشرعون افكار فلاسفة اليونان

ولا سيما الرواقيين منهم وذهبوا الى ان الحرية حق طبيعي لكل من يولد حرًا أي ان العبودية مخالفة للطبيعة ولذلك رأوا انه يحق للعبد ان يطلب انصافه حتى من سيده وان هذا اذا قتل عبده يجب ان يعاقب عقاب القاتل وكذلك حموا الولد من ظلم ابيه

وهذا القانون الجديد هوالذي سموه بعد بالقانون المسطور وهو الحقيقة في قانون جروا فيه مع الفلسفة على نحو ما يأمر به العقل الناس كافة ولذا لم يبق فيه اثر للقانون الجائر المعروف بقانون الاثنتي عشرة لوحة · فليس القانون الروماني الذي حكمت به بلاد الامبراطورية باسرها زمنًا طويلاً ذاك القانون الذي لم يبرح بعضه داخلاً في قوانيننا بل هو قانون قدماء الرومان وضع بحسب عادات جميع الشعوب القديمة ونسج فيه على مثال الحكم المأثورة عن حكماء اليونان ثم مزج كل ذلك مزيجًا واحدًا وكتبه اناس من الحكماء والفقهاء الرومانيين قرونًا طويلة

النصرانية

تعليم المسيح (عليه السلام) = كان الاسرائيليون ينتظرون المسيح من نسل داود ملكاً لهم ومخلصاً فظهر عيسى في الناصرة في ولاية صغرى، من الشمال اسمها الجليل لا تكاد تعرف بانها يهودية · ولد من اسرة وضيعة تحترف بالنجارة · فسماه اتباعه من الروم المسيح اي الممسوح يعنون الملك الممسوح بالزيت المقدس كما دعي السيد والرب والمخلص · كانا نعرف الديانة المسيحية · فيكفي اذًا ان نبين ماهي التعاليم الجديدة التي نشرتها في العالم · فقد اوصى المسيح اولاً بالمحبة فقال « انك تحب الرب الهك من كل جوارحك وفكرك وستحب قريبك كما تحب نفسك فجماع الشريعة وتعاليم الانبياء داخلة في هاتين الوصيتين »

فمن الواجب محبة الغير واسعادهم ومتى قضى الله بين عباده يجعل على يمينه من اطعموا الجياع وسقوا العطاش وكسوا العراة · ويقول المسيح لمن يريد اتباعه اولاً : « اذهب فبع مالك وادفعه للفقراء ولقد كان القدماء يعتبرون الشريف والغني والشجاع هو الرجل الصالح الا ان هذا الاسم تغير معناه منذ جاء المسيح فاصبح الرجل الصالح هو الذي يحب غيره · فعمل الخير هو محبة الغير والسعي في نفعهم · والاحسان (وهو باللاتينية مرادف للحب) اساس التقوى · وغدت لفظة محب مرادفة للفظة محسن · وضع المسيح تعليمه في الاحسان بدلاً من التعليم الاسرائيلي القديم في الانتقام فقال « عرفتم بانه قيل العين بالعين والسن بالسن اما الآن فاقول لكم اذا ضربكم احد على خدكم الايمن فقدموا له الايسر · وقيل احبوا قريبكم وابغضوا عدوكم اما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم وافعلوا الخير مع من يبغضونكم وباركوا لمن يضطهدونكم لتكونوا ابناء ابيكم الذي في السماء الذي ينزل المطر على العادلين والظالمين

حتى ان المسيح وهو على الصليب استغفر لجلاديه فقال « اعف عنهم يارب فانهم لا يعرفون ما هم فاعلون » .

احب المسيح الناس قاطبة . ومات لا من اجل شعب واحد بل من اجل الانسانية كلها . وما قط ميز بين الاشخاص فكلهم سواء امام الله . ولقد كانت الاديان القديمة حتى دين اسرائيل دين شعب يحتفظ به ويكتمه بعناية احتفاظه بكنز ثمين دون ان تحدثه نفسه في تبليغه شعباً آخر فقال المسيح لتلاميذه اذهبوا اذاً وعلموا جميع الامم .

وبعد ذلك قام بولس احد الحواريين وقرر تعليم المساواة النصرانية بقوله : « لم يبق اولون ولا آخرون كما لم يبق روم ولا يهود ولا مطهرون ولا قلف ولا برابرة ولا عبيد ولا احرار فقد اصبح المسيح هو الكل في الكل . »

كان القدماء يذهبون الى ان الثروة تعلي شأن الانسان وينظرون الى ان الكبر عاطفة شريفة فقال المسيح : « طوبى للفقراء فان لهم ملكوت السموات » « من لم يتنازل عما يملكه لا يكون تلميذاً لي » حتى انه هو ايضاً كان يتنقل من مدينة الى مدينة ولا سبد له ولا لبد وعند ما كان تلاميذه يهتمون للمستقبل كان يقول لهم : « لا تقلقوا لما تأكلون ولا لما تلبسون والقوا بانظاركم الى الطيور في السماء فهي لا تزرع ولا تحصد ومع هذا فان اباكم السماوي متكفل برزقها »

. فعلى المسيحي ان يحتقر الثروة وان يشتد في الازدراء بالعظمة . كان تلاميذه يتنازعون ذات يوم فيمن يكون له المقام الاول في السماء فقال : « ان اعظمكم هو الذي يخدم غيره لان من يرتفع يسقط ومن يسقط يرتفع » وما زال البابا الى اليوم وهو خليفة القديس بولس يدعي بخادم خدمة المولى . كان المسيح يؤثر ان يجتذب اليه المساكين والمرضى والنساء والاولاد بل والضعاف والمحرومين واختار حوارييه من عامة الناس وكان يكرر على مسامعهم « تلطفوا وألينوا قلوبكم »

ملكوت الله — كان المسيح يقول انه جاء الى الارض ليؤسس ملكوت الله . فظن اعداؤه انه طامع في ملك وعند ما صلب كتبت على صليبه هذه العبارة : « يسوع الناصرة ملك اليهود » وهذا كان خلاف ما يقصده . فقد صرح المسيح نفسه بان ملكوتي ليس في هذا الارض . فلم يجيء ليقلب الحكومات ولا ليصلح المجتمع واجاب من سأله فيما اذا كان يجب اداء الجزية للرومانيين بقوله : « ادفع ما لقيصر لقيصر وأد ما لله لله . ولذا رضي المسيح بما رآه موجوداً وعمل على تهذيب نفسه وتكميلها لا على اصلاح المجتمع

ولاجل ان يفوز المسيحي بمرضاة الله ويكون اهلاً لبلوغ ملكوته لا يقتضي له ان يقدم

النذور ويقف عند حد ما رسمته الشريعة كما فعل الفريسيون اليهود او عبدة الارباب القديمة « فان المتعبدين الحقيقيين يعبدون اباهم بالفكر وبالحقيقة » وكلمة المسيح هي جماع آدابهم وهي : « كونوا كاملين مثل ابيكم الذي في السموات فانه كامل »

الحواريون — عهد الى الاثني عشر حوارياً الذين كانوا ملتفين حول المسيح ان يبشروا بتعاليمه في الامم باسرها · فدعوا بالحواريين (المرسلين) سكن معظمهم القدس ودعوا الى دينهم في ارض اليهودية · وكان المتنصرة الاول من الاسرائيليين ·

وكان شاول اول من دان بالنصرانية وخف يحمل تعاليم هذا الدين الى امم الشرق فقضى بولس (هو الاسم الذي اتخذه)حياته يطوف المدن اليونانية في آسيا الصغرى و بلاد اليونان ومكدونية داعياً الى الدين الجديد لا الاسرائيليين فقط بل ابناء الامم الاخرى قائلاً كنتم فيما سبق بدون المسيح بعيدين عن المحالفات والوعود وها قد التأم شملكم بدم المسيح لانه هو لا يميز بين الشعبين و ينظر اليهما كأنهما شعب واحد · ولم يعد من حاجة ان يكون المرء اسرائيلياً حتى ينتحل النصرانية فان الامم الاخرى التي نبذتها شريعة موسى قد تقاربت فيما بينها بفضل شريعة المسيح · وهذا الامتزاج هو بصنع القديس بولس ولذا سمي رسول الامم ·

كان المنتحلون للنصرانية باديء بدء من يونان آسيا الصغرى ثم تنصر كثيرون في جميع المدن الكبرى واتى زمن طويل والطائفة المسيحية في رومية ايضاً مؤلفة من ابناء يونان · فانتشر دين المسيح اولا ببطء على نحو ما بشر بذلك المسيح بقوله : « يشبه ملكوت الله حبة من الخردل فهي اصغر الحبوب ومع هذا ينبت منها نبات اطول من جميع البقول فتؤوي طيور السماء الى ظلها » ·

الكنيسة الاصلية — كان المسيحيون في جميع البلاد التي نزلوها يجتمعون للصلاة جماعة وانشاد اماديح المولى وللاحتفال بالعشاء السري وهي اكلة يتناولونها بالاشتراك تذكاراً لآخر اكلة للمسيح وتسمى اجتماعاتهم الكنيسة (المجلس)

ومن العادة ان يعامل المسيحيون في كنيسة واحدة بعضهم بعضاً معاملة الاخوة ويأتون بالعطايا لينفقوها على الارامل والفقراء والمرضى · واكثر رجالهم احتراماً بينهم الرهبان ومعنى ذلك القدماء يديرون شؤون الطائفة و يقومون بالفروض الدينية · و يتولى آخرون النظر في املاك الطائفة وكانوا يدعون الشمامسة (الملاحظون) ثم كثرت اعمال الكنيسة حتى انقسم سواد المسيحيين الى فرقتين احداهما جماعة المكلفين بالنظر في وظائف الطائفة وسموهم رجال الكهنوت (اي خدمة الرب) والباقون هم جمهور المؤمنين سموهم العامة (العلمانيين)

كان لكل مدينة كنيسة مستقلة فيقولون كنيسة انطاكية وكنيسة كورنت وكنيسة رومية وكلها في الحقيقة كنيسة واحدة وهي كنيسة المسيح حيث كان يربط الجميع الاعتقاد بايمان واحد . فالاعتقاد العام او الكاثوليكي كان هو المعول عليه دون سواه اما الآراء الخاصة (الهرطقات والالحاد) فكان يحكم عليها بانها اوهام واغلاط .

وبقي الكتاب المقدس عند اليهود اي العهد القديم مقدساً عند المسيحيين وصار لهؤلاء كتب اخرى جمعتها الكنيسة في مصحف واحد وسمتها العهد الجديد . فالاناجيل الاربعة تقص حياة المسيح والبشارة بما حمله من السلام . واعمال الرسل تذكر كيف انتشرت هذه البشارة في العالم . ورسائل الرسل هي رسائل ارسلها الحواريون الى مسيحيي العهد الاول والابوكاليبسيس (رؤيا القديس يوحنا الانجيلي او الجليان) هو ما اوحاه القديس يوحنا الى السبع كنائس في آسيا . كتبت جميع كتابات العهد الجديد باليونانية وهي اللغة التي كانت لغة المسيحيين الى اواخر القرن الثاني وقد انتشر بين المسيحيين كثير من الكتب زعموا انها مقدسة فرفضتها الكنيسة كلها وسموها المزورة

الاضطهادات— اضطهدت الديانة المسيحية منذ ظهورها فكان اليهود اعداءها الأُول اضطروا الحاكم الروماني في بلادهم الى صلب المسيح ورجموا القديس اتين (الشهيد الاول) واشتدوا في طلب القديس بولس وكانوا يقتلونه ثم وقع الاضطهاد على النصرانية من الرومان فان هؤلاء كانوا يتسامحون مع جميع اديان الشرق لان عبدة اوزيريس وميترا والربة الصالحة كانوا يعترفون بالاديان الرومانية مع اربابهم الا ان المسيحيين عبدة الله الحي كانوا يزدرون بالمعبودات الصغيرة القديمة بل ان الجريمة الكبرى التي تعد على المسيحيين في نظر الرومانيين انهم كانوا يأبون عبادة الامبراطور كما يعبد رب وان يحرقوا البخور على مذبح ربة رومية

وقد اصدر كثير من الاباطرة أوامر الى ولاتهم يأمرونهم بالقبض على المسيحيين واعدامهم . وقد كتب بلين وكان والياً في آسيا الى الامبراطور تراجان كتاباً يدل على الطريقة التي كان يعامل بها المسيحيون قال : «جريت الآن مع من اتهموا بانهم نصارى على الطريقة الآتية وهو اني أسألهم عما اذا كانوا مسيحيين فاذا اقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهدداً اياهم بالقتل فان اصروا أنفذ عقوبة الاعدام عليهم مقتنعاً بان غلطهم الذي يعترفون به مهما كانت فظاعته وان عنادهم الشديد وعدم طاعتهم يستحقان العقوبة . وقد وجهت الشكوى الى كثيرين بكتب لم تذيل باسماء اصحابها فانكروا بانهم نصارى وكرروا الصلاة على الارباب الذين ذكرت اسماءها امامهم وقدموا الخمر والبخور لتمثال

اتيت به عمدًا مع تماثيل الارباب بل انهم شتموا المسيح . ويقال ان من الصعب اكراه النصارى الحقيقيين . ومنهم من اعترفوا بانهم نصارى ولكنهم كانوا يثبتون بان جريمتهم وخطأهم محصوران في انهم اجتمعوا بعض ايام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على انه ربٌ وعلى انشاد الاناشيد اكرامًا له وتعاهدوا بينهم مقسمين الايمانات لا على ارتكاب جريمة بل على ان لا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزنوا ويوفوا بعهودهم . ورأيت من الضرورة للوقوف على الحقيقة ان أعذب امرأتين أمتين دعوهما خادمتي الكنيسة بيد اني لم اقف على شيء اللهم الا ما كان من خرافة سخيفة مبالغ فيها »

وعلى هذا فقد كانت الحكومة هي المضطهدة (١) الا ان العامة في المدن الكبرى كانوا اكثر اضطهادًا للمسيحيين فلم يكونوا يتسامحون مع هؤلاء الذين يعبدون الهًا آخر غير ارباب بهم ويحتقر هذه الارباب ويرون ان انكار المسيحيين لما يعبد الرومان يجلب على العالم غضب هذه الارباب . وكنت تسمع القوم اذا وقع قحط ومجاعة ووباء يهتفون هتافهم الذي اشتهر امره «النصارى للاسود » والشعب يكره الحكام على البحث عن المسيحيين ومطاردتهم .

الشهداء — هلك الوف من المسيحيين في خلال قرنين ونصف نالهم فيها الاضطهاد في طول المملكة الرومانية وعرضها وكان الهالكون من كل سن وجنس وطبقة . فالوطنيون الرومانيون تضرب اعناقهم كما جرى للقديس بولس والباقون يصلبون ويحرقون وكثيرًا ما يلقون للوحوش الكاسرة تنهشهم . واذا ابقوا عليهم يبعثون بهم الى الاعمال الشاقة في المناجم وكثيرًا ما كانوا يبالغون في عقاب النصارى بايجاد وسائل لاهلاكهم من كل نوع . ففي المقتلة العظمى التي وقعت في ليون سنة ١٧٧ اخذ المسيحيون بعد ان عذبوا وسجنوا في مطبق ضيق الى الملعب فاخذت الحيوانات الكاسرة تمزق اوصالهم ولا تقتلهم ثم اجلسوهم على كراسي من حديد محماة بالنار . واذ قاومت فتاة من الإماء اسمها بلاندين ان تعذب على هذه الصورة جعلوها في شبكة ووضعوها امام ثور غضبان .

وكان المسيحيون يتلقون بسرور هذا التعذيب الذي يفتح لهم ابواب السموات ويرون فيه وسيلة الى الاستشهاد علنًا في حب المسيح ولذلك كانوا يسمون انفسهم بالشهداء (اي الشهود) لا بالمنكوبين وعقوبتهم شهادة . بل انهم كانوا ينظرون الى تعذيبهم نظرهم الى قتال الالعاب الاولمبية ويرون انهم كالمصارع الظافر ينالون الفخار والتاج . وما برحوا حتى اليوم يحتفلون بعيد الشهداء واعيادهم موافقة للايام التي قتلوا فيها وكثيرًا ما كان احد من

(١) تقول الكنيسة ان المسيحيين اضطهدوا عشر مرات الاولى على عهد نيرون (٦٤) والثانية على عهد ديوكلسين (٣٠٣)

يحضرون تعذيب احد الشهداء يكتب قصته وكيفية توقيفه واستنطاقه وتعذيبه وعقوبته وهذه الكتابات على اختصارها طافحة بالعبرة وكانت تسمى اعمال الشهداء وتنتشر حتى بين الطوائف البعيدة من اقصى المملكة الى اقصاها وما هي الا مرددة المجد الذي احرزه المعترفون بالايمان الصحيح وداعية الى الترغيب في الجري على مثالهم

واقد حدا حب الشهادة بالوف من المسيحيين ان يعلنوا امرهم بانفسهم و يطالبوا بالحكم عليهم وامر احد حكام آسيا ذات يوم بالقاء القبض على بعض المسيحيين فجاء جميع متنصرة المدينة يتقدمون للمحكمة طالبين اليها محاكمتهم · فاستشاط الوالي غضباً فقتل بعضهم وطرد الآخرين قائلاً : «ارجعوا اليها الاسافل ان كنتم تحرصون كثيراً على الموت فهل عندكم قبور تسعكم وحبال نقيدكم » وكان بعض المسيحيين يدخلون المعابد ويقلبون فيها اصنام الارباب ليكونوا على ثقة من انهم يشنقون حتى قضت الحال ان تمنع الكنيسة مرات تعرض النصارى لنيل الشهادة

الدياميس — كان المسيحيون ينكرون العادة القديمة في احراق الموتى فاخذوا يدفنون موتاهم كاليهود في نواويس بعد ان يكفنوهم في اكفان فاحتاجوا الى قبور · واذ كانت الارض غالية الثمن جدًّا نزل المسيحيون الى تحت الارض وحفروا في الارض الرخوة التي كانت رومية قائمة عليها دهاليز طويلة وغرفاً ارضية وهناك كان المسيحيون في مقاصير احتفروها على طول الحواجز يدفنون موتاهم واذا اخذ كل جيل يحتفر لنفسه دهاليز جديدة صارت تحت الارض مع الزمن مدينة ارضية سموها الدياميس · ومثل هذه الدياميس كان في نابولي وميلان والاسكندرية الا ان اشهرها دياميس رومية · وقد فتحت في ايامنا فرأوا فيها الوفاً من القبور والكتابات النصرانية وباكتشاف هذا العالم المدفون تحت الارض نشأ فرع جديد من فروع العلوم التاريخية وهو علم الكتابات والآثار النصرانية · وقد شوهد ان قاعات المدافن في الدياميس منقوشة برسوم بسيطة وصور ولكنها تمثل مشاهد واحدة الاقليلاً وهي اما ان تصور المؤمنين من المسيحيين في الصلاة او الراعي الصالح وهو رمز للمسيح · وكانت بعض هذه القاعات اشبه بالمعابد وفيها دفنوا جثث القديسين الشهداء والمؤمنين الذين رغبوا في ان يدفنوا في جوارهم وكانوا يأتون كل سنة لتناول الاسرار · وكثيرًا ما التجأ المسيحيون في رومية خلال اضطهادات القرن الثالث الى هذه الكنائس الارضية للقيام بصلواتهم او للفرار من الطلب عليهم ·

قسطنطين

تغلب النصرانية — مضى القرنان الاولان للميلاد والمسيحيون ضعاف الشأن في

الامبراطورية الرومانية وجمهورهم من السوقة والعملة والعبيد المعتقين والعبيد ممن يضيعون في غمار الناس بالمدن الكبرى وقد مضى زمن والطبقة العالية تنكر وجودهم حتى ان سويتون في القرن الثاني لما تكلم في تاريخ القياصرة على المسيح قال انه رجل اسمه كريستوس يلقي الاضطراب بين سكان رومية . ولما اخذ الاغنياء والادباء يعنون بامر الدين الجديد لم يكن ذلك منهم الا ليهزؤا به ولا يذكرونه الا انه دين فقراء وجهلة . واذ جاءت النصرانية لمساكين هذا العالم بان وعدتهم الجزاء عن هذه الحياة في الآخرة كثر اشياعها والقائلون بالتدين بها ولم تحل الاضطهادات دون انتشارها بل قوتها وبعثت كلمتها فقد كان المسيحيون يقولون ان دم الشهداء بذر للمسيحيين ولقد ظل الاهتداء الى النصرانية ينتشر خلال القرن الثالث كله بين رجال الاسرات الكبرى لا بين الفقراء فقط وما جاءت اوائل القرن الرابع الا وقد اصبح الشرق كله اي البلاد التي تتكلم باللغة اليونانية مسيحياً بامره

وكانت هيلانة ام الامبراطور قسطنطين مسيحية فجعلتها الكنيسة في مصاف القديسات ولما زحف هذا الامبراطور على مزاحمه ملك رومية وضع على علمه شارة الصليب وشعار المسيح وكانت الغلبة التي كتبت له غلبة للنصرانية فسمح للنصارى ان يقوموا بشعائر دينهم دون ان يعارضهم احد (بامره الصادر سنة ٣١٣) ثم اخذ يعطف عليهم جهاراً . ومع هذا لم يتخل عن الدين القديم (الوثنية) . فبينا كنت تراه يرأس مجلس اساقفة المسيحيين الاعلى كان يلقب بلقب الحبر الاعظم ويحمل على خوذته مسماراً من الصليب الحقيقي ونقوده منقوش عليها صورة رب الشمس . وقد انشأ في مدينة القسطنطينية كنيسة نصرانية كما أنشأ معبداً تذكاراً لهذه الغلبة . ومضى نصف قرن كان فيه من الصعب معرفة دين المملكة الرسمي في الامبراطورية .

تنظيم الكنيسة — لم يخطر في بال المسيحيين حتى في الازمان التي نالهم فيها الاضطهاد ان يقلبوا كيان الامبراطورية ومنذ بطل اضطهادهم اصبح اساقفتهم حلفاء الامبراطور وعندها انتظمت حالة الكنيسة المسيحية بصورة قطعية على الصورة التي بقيت عليها الى يومنا هذا . فصار لكل مدينة اسقف يقيم في الحاضرة ويحكم على المسيحيين التابعين لها وتسمى الارض الخاضعة لاسقف ابرشية . وكان في اقطار الامبراطورية الرومانية ابرشيات واساقفة على قدر ما فيها من مدن وهذا هو السبب الذي من اجله كان الاساقفة كثيرين والابرشيات صغيرة في الشرق وفي ايطاليا حيث كثر عدد المدن . وعلى العكس في مدن غاليا فانه لم يكن بين الرين والبيرنيه سوى ١٢٠ ابرشية ومعظمها ما عدا ابرشيات الجنوب في الجسامة كولاية .

اصبحت كل ولاية مقاطعة كنائسية وسمي اسقف العاصمة باسقف المركز بعد رئيس الاساقفة . وكثيرًا ما ينظر الى اسقف اعظم مدينة في بقعة بانه ارقى الاساقفة في تلك الارجاء وكان اساقفة المدن الرئيسة بالشرق في القدس وانطاكية والاسكندرية والاستانة يدعون بالبطاركة وفوقهم كلهم البابا اسقف رومية وهو الرئيس الاعظم في الكنيسة . وفي هذا القرن انشئت المجامع الدينية الكبرى فكان في آسيا الصغرى اولا مجامع خاصة يجتمع فيها اساقفة ناحية من النواحي وكهنتها . وفي سنة ٣٢٤ دعا قسطنطين للمرة الاولى مجمعًا دينيًا عامًا من اهل الارض الى مدينة نيقية في آسيا الصغرى فحضره ٣١٨ رجلاً من رجال الكنيسة فتناقشوا في المسائل اللاهوتية وانشأوا الاعتراف بايمان الكاثوليك الذي سموه قانون نيقية وما زال المسيحيون ينشدونه الى اليوم في قداس كل احد . ثم كتب الامبراطور الى عامة الكنائس ان تمتثل ارادة المولى التي تجلت فيما اجمع عليه المجمع العام وكان هذا هو المجمع المسكوني الاول . واصبحت القرارات التي تقررها المجامع شريعة يجب على المسيحيين قاطبة ان يعملوا بها وسموها القوانين او القواعد . ويتألف من مجموع هذه القواعد القوانين الكنائسية .

الملاحدة (الهراطقة) = نشأ منذ القرن الثاني بين المسيحيين ملاحدة يخالفون في آرائهم السواد الاعظم من ابناء الكنيسة . وكثيرًا ما اجتمع الاساقفة في بلد ليعلنوا للمؤمنين بان المذهب الجديد باطل ويكرهوا مبتدعه على الرجوع عنه واذا ابى يخرجونه من الوحدة المسيحية . وقد يستجيش صاحب البدعة اعوانًا يقتنعون بصحة دعوته فلا يرون الرجوع عما وافقوه عليه ويظلون يدينون بما حكم المجمع برده من الآراء . ومن هنا نشأت المداوات والفتن الشديدة بينهم وبين المسيحيين المتعلقين برأي الكنيسة (الارثوذكس) واذ كان المسيحيون ضعافًا ومضطهدين لم يتنازعوا بينهم الا بالكلام والكتابة ولكن لما اصبحت البلاد مسيحية كلها استحال النزاع بين المسيحيين والمخالفين منهم في بعض الآراء الى اضطهاد الملاحدة وكثيرًا ما نشب منه حروب اهلية .

وتكاد تنشأ جميع البدع في ذاك العهد بين يونان آسيا ومصر على يد اناس من الاذكياء والسفسطائيين والمجادلين وقد نشأت تلك البدع في العادة من محاولة فهم اسرار التثليث والتجسد . وكانت بدعة آريوس اقوى جميع البدع فمن مذهبه ان الله الآب خلق المسيح وليس هو مثله فحكم المجمع النيقي بتبديعه ولكن مذهبه انتشر في بلاد الشرق عامة . ومذ ذاك العهد ظل الكاثوليك والآريوسيون يتنازعون بينهم ايهم يستأثر بالسلطة في الكنيسة والحزب الاقوى يعزل وينفي ويحبس واحيانًا يذبح زعماء الحزب المخالف . ومضى زمن

والقوة للآريوسيين وقد تحزب لقولهم عدة من الامبراطرة ثم ان الآريوسية كانت تقوى بكثرة دخول البرابرة في الامبراطورية وتمذهبهم بهذا المذهب ومعاضدتهم لاساقفته . فقضى الكاثوليك زهاء مائتي سنة حتى قضوا على هذا المذهب المبتدع .

اواخر ايام الامبراطورية

لما ذبح الجنود اخوة قسطنطين وابناء اخته سنة ٣٢٨ افلت منهم طفل في السادسة من عمره اسمه جولين فجعله الامبراطور نسيبه في اقاصي آسيا الصغرى ورباه على يد قسيسين مسيحيين فبعث به هؤلاء الى قبر الشهداء ينشد المزامير ويتلو الكتاب المقدس امام الشعب ولما شب رخص له بالقدوم الى الاستانة فانشأ يدرس كتب بلغاء الروم وفلاسفتهم واولع باحد الفلاسفة الافلاطونيين فانصرفت نفسه عن النصرانية . واتم دروسه في آثينا وتعلم فيها اسرار معبد الوزيس ثم جاهر بانه من اشياع الدين القديم علناً واخذ يحتفل بعبادة الارباب فلقبه المسيحيون بالمرتد .

كان جولين آخر من بقي حياً من الاسرة الامبراطورية واذ لم يكن للامبراطور قسطنطين وارث يرثه غير هذا اجمع امره على ان يلقبه باسم قيصر وبعث به قائداً على جيش غاليا (٣٥٥) وكانت البرابرة قد هاجمت هذه البلاد وجاءت عصابة من الالمانيين على مقربة من مدينة اوتون . واذ لم يكن لجولين خبرة بالحرب انصرفت همته الى درس الفلسفة فصرف شتاءً بطوله في تعلم صناعة الكر والفر وانشأ يريض نفسه ويتمرن ويتلو سيرة مشاهيرة الغزاة فلما تم له ذلك حمل على الالمان في جيش صغير من المشاة الرومانيين والفرسان البرابرة فكتب له الظفر في الحملة الثانية في سهل بالقرب من مدينة ستراسبورغ وركب اكتاف الالمان ورجعوا يجتازون نهر الرين (٣٥٧) وقضى جولين في غاليا ثلاث سنين اخرى وجعل مشتاه في بلدة لوتيس حاضرة الشعب البار يزي وهي مبنية في جزيرة من جزر السين وكان يدعوها « لوتيس المحبوبة » وهو اول من وصفها .

وفي هذه المدينة اتاه امر الامبراطور ان يبعث اليه بقسم من جيشه الى الشرق ليقاتل البارثيين الذين داهموا بلاد الامبراطورية فلم ير الجند ان يبتعدوا عن بلادهم الى مثل تلك القاصية وابوا ان يقاتلوا ثم اخذوا جولين ورفعوه على ترس (وكان هذا الاسلوب هو الذي يجري عليه المحاربون الجرمانيون في مبايعة ملوكهم) وحملوه وهم ينادون «جولين اغسطس» (٣٦٠)

فكتب جولين الى الامبراطور يريده على ان يرتضيه وصيفاً له فابى قسطنطين عليه ذلك فزحف جولين في جيشه على القسطنطينية وكان قسطنطين قضى نحبه قبل وصوله (٣٦١)

ولما خلا الجو لجولين واصبح امبراطوراً وحده اقام في الشرق وحاول ان يعيد الدين

القديم (الوثنية) فارجع الى الكهنة املاكهم ومناصبهم واعاد تقديم النذور الارباب بل اصدر امره الى المسيحيين بان يرجعوا المعابد التي كانوا حولوها الى كنائس

وانشأ يناهض النصرانية مباشرة وابى ان يعين المسيحيين في الوظائف وطرد المعلمين المسيحيين من المدارس قائلاً انه لايحق لهم ان يدرسوا كتباً يذكر فيها اسم الارباب وهم لايعتقدون فيها . وسعى الى اعادة الدين القديم الى حاله بان عهد الى الكهنة ان يقرؤا على العامة مواعظ ودروساً دينية الا ان الزمن خانه فسافر في حملة على البارثيين وغلبهم واصيب بسهم في احدى المعارك . وقيل انه صرخ وهو يجود بنفسه «لقد غلبتَ ياغاليلي !»

القضاء على الوثنية — لم يقض على دين السوقة القديم لاول مرة فقد اهتدى الشرق في الحال اما في الغرب فلم يبق مسيحيون الا في المدن بل ان الامة ظلت هنا أيضاً تعبد الاصنام وذلك لان الامبراطرة الاول المسيحيين لم يريدوا ان يقضوا القضاء الاخير على دين المملكة القديم بل كانوا يحمون القسيسين المسيحيين كما يحمون كهنة الارباب يرأسون المجامع الدينية ويبقون احباراً عظاماً . وكان الامبراطور فراسين سنة ٣٨٤ اول من ابى أن يلقب بالحبر الاعظم واذ عمّ التسامح في ذاك القرن بدىء باضطهاد الدين الروماني منذ غدا غير رسمي . واطفيء الموقد المقدس الذي كان يشتعل في رومية منذ احد عشر قرناً وطردت الكاهنات اللاتي كن في معبد فستا يوقدن النار كلما خمدت . واحتفل آخر مرة بالالعاب الاولمبية في بلاد يونان سنة ٣٩٤ . وعندئذ خرج النساك في مصر من الصحراء لينقضوا مذابح الارباب المزورة ويجعلوا بقاياها في قبور انوبيس وسيرابيس . وقام وارسل الاسقف السوري في مقدمة عصابة من الجند والمشعوذين لخرب معبد المشتري في افامية وأنشأ يجوب البلاد ويخرب المزارات فقتله الفلاحون فجعلته الكنيسة من القديسين

فما هو الا قليل حتى لم يبق عبدة اوثان الا في القرى يأوون اليها فراراً من المراقبة وهم فلاحون ممن بقوا يعبدون الاشجار المقدسة والينابيع ويجتمعون في المزارات البعيدة . واخذ المسيحيون يطلقون اسم الوثنيين (الفلاحين) على من كانوا سموهم الى ذاك العهد بالظرفاء وبقي ذاك الاسم يطلق عليهم . وهكذا اشتدت الحال على الوثنية في ايطاليا وغاليا واسبانيا الى اواخر القرن الرابع وطوي بساطها تحت طي السكوت .

التنظيم الجديد في الامبراطورية

رومية والقسطنطينية — خرب الغرب وقلّ سكانه في القرن الثالث بما تواتر عليه من الحروب والغارات فاصبح الشرق اليوناني القسم المهم من الامبراطورية . وكان ديوكلسين قد تخلى عن رومية وجعل عاصمته في نيكوميديا في آسيا الصغرى . اما قسطنطين فتوسع

في الامر اكثر من ذلك فانشأ رومية جديدة في الشرق وكانت القسطنطينية على رأس من البحر في محل لا يفصل او ربا عن آسيا غير خليج البوسفور الضيق في ارض كثيرة الكروم والغلات وتحت سماء صافية الاديم وانشأ طوارئه من الروم مدينة بيزانس وكان لها من الاحكام ما يجعلها سهلة على الدفاع ومرفأ وهو المعروف بقرن الذهب من احسن مرافىء العالم يؤوي ١٢٠٠ سفينة ويمكن سده بسلسلة طولها ٢٥٠ مترًا لئلا تتخطاه اساطيل العدو . فهناك أنشأ قسطنطين مدينته الجديدة القسطنطينية (مدينة قسطنطين) وجعل في اطرافها اسوارًا عالية وانشأ فيها ساحتين اثريتين تحيط بهما اروقة . وأنشؤا فيها قصرًا وملعبًا ودور تمثيل واقنية وحمامات ومعابد وكنيسة مسيحية

ونزع قسطنطين من المدن الاخرى ما كان فيها من التماثيل والنقوش البارزة المشهورة ليزين بها مدينته ولاجل اسكانها نقل اليها سكان المدن المجاورة بالقوة وقدر مكافآت والقاب تشريف للأسر الكبرى التي تنتقل اليها وقرر كما كان الحال في رومية توزيع الحنطة والخمر والزيت على الناس وتوفير المشاهد والفرج لهم

فكان تأسيس تلك العاصمة من السرعة الغريبة على نحو ما يحب القوم في الشرق فبدأ العمل بذلك في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٣٢٦ واحتفل بافتتاحها في ١١ ايار (مايو) سنه ٣٣٠ ولكن اسست بحيث تبقى على الدهر فقد صبرت القسطنطينية على هجمات المهاجمين عشرة قرون وبقيت بمقام عاصمة ابدًا والمملكة الرومانية تمزق ولا تزال الى اليوم اول مدينة في الشرق

ولما ترك الامبراطور رومية لم تعد مقرًا للحكومة وظل فيها مجلس اعيانها وان لم تعد له سلطة وبقيب مزاراتها واحتفالاتها كما بقيت الى اواخر القرن الرابع مركز الحزب الديني القديم .

القصر — اخذ الامبراطرة الذين نزلوا الشرق في التعود بعاداته (١) وانشؤا يلبسون ثيابًا ضافية من الحرير والقصب ويجعلون على رؤوسهم تاجًا مرصعًا باللؤلؤ ويحتجبون في قصورهم حيث كانوا يجلسون على عرش من ذهب يحف بهم وزراؤهم ويفصلهم عن الناس جمهور من الحشم والخدم والموظفين والحرس . وعلى من ينال شرف الحظوة من

---

(١) كثيرًا ما يتولى الامبراطورية اثنان احدهما في الشرق والآخر في الغرب وان تكن المملكة واحدة . فالامبراطوران وان كان احدهما ينزل الاستانة والآخر ايطاليا كانا يعنيان بان يكونا كشخص واحد . فكان القوم اذا خاطبوا احدهما يخاطبونه بالجمع فيقولون له انتم كأنهم يخاطبون الامبراطورين كليهما وهكذا نشأت عادة الخطاب بالجمع للمفرد لان الناس في القديم كانوا يخاطبون بصيغة المفرد «انت» حتى الملوك والامبراطرة

مواجهتهم ان يسجد امامهم ويمرغ وجهه في الارض علامة العبادة والخضوع و يطلقون عليهم القاب «المولى» و«الجلالة» و يعاملونهم معاملة الارباب وكل ما يمس اشخاصهم مقدس فيقولون القصر المقدس والغرفة المقدسة . ومجلس الامبراطورية المقدس والخزانة المقدسة .

فكان عيش الامبراطور في الامبراطورية الغربية (ايطاليا) من القرن الاول الى الثالث اشبه بحياة حاكم او قائد اما قصر الامبراطور في الامبراطورية الشرقية (القسطنطينية) فهو اشبه بقصر ملك فارس . وقد أطلق على طريقة الحكم في الامبراطورية الشرقية اسم الامبراطورية الواطئة معارضة لطريقة الحكم السالفة في القرون الثلاثة التي لقبوها بالامبراطورية العالية .

الموظفون — اصبح الموظفون اكثر عدداً مما كانوا ويحف بالامبراطور جيش صغير من الخاصة يحرسون قصره وهناك حرس وقرناء ووكلاء وخدم ومجلس عال وحجاب وسعاة وامناء سر ينقسمون الى اربعة مكاتب . واصبح الموظفون في الولايات اكثر سواداً ايضاً اذ رأى الامبراطور ديوكلسين الولايات متسعة فقسمها الى عدة قطع ففي غاليا مثلاً قسم ولاية ليون الى اربع واكيتين الى ثلاث . و بعد ان كان في الامبراطورية ٤٦ والياً اصبح فيها ١١٧ ثم فصلوا الوظائف فجعلوا مع الولاة والوكلاء قواداً عسكريين من دوقات وكنتية في الولايات الواقعة على التخوم .

واصبح جميع الموظفين لا تصلهم اوامر الامبراطور مباشرة فلا يخاطبون الا كبار الموظفين رؤسائهم . فيخضع الولاة لقائدي حرس القيصر والموظفون في الاشغال العمومية لحرس المدينة . وجباة الاموال الى الكونت الذي يتولى الاعطيات المقدسة . والوكلاء للكونت المشرف على الاملاك والضباط الى موالي الاجناد وجميع موظفي القصر يرجعون الى مولى التشريفات وخدمة القصر الى رئيس الغرفة المقدسة . وهؤلاء الرؤساء كالوزراء

وهذه الطريقة لا يصعب علينا فهمها فقد اعتدنا ان نرى موظفين وقضاة وقواداً وجباة ومهندسين على اختلاف في اعمالهم التي يتولونها ولكل واحد عمله الخاص و يرجع امرهم الى ناظر هو رئيس ديوانه . بل ان عندنا من النظارات اكثر مما في الاستانة . الا ان هذه الاداة الادارية التي ألفناها لانا نعرفها منذ الطفولة ليس فيها التباس ولا خروج عن حد الطبيعة . فقد كانت الامبراطورية الشرقية انموذجاً في هذا الباب واحتفظت به المملكة البيزنطية ومن ذاك العهد حاولت جميع الحكومات المطلقة ان تنسج على منوالها لان في ذلك من التسهيل في العمل ما ينتفع به من يتولون اعمال الحكم .

المجتمع في الامبراطورية الشرقية — كانت هذه الامبراطورية هي الحد الفاصل

في تاريخ الحضارة اجتمعت فيها سلطة الحاكم الروماني المطلقة مع نخفخة ملوك الشرق يتألف منهما سلطة لم يكن بها عهد الى ذاك العهد . وهذه السلطة التي لم يسمع بمثلها تأتي على كل شيء في يدها فلم يعد سكان الامبراطورية وطنيين رومانيين منذ القرن الرابع بل صاروا يدعون باللاتينية الرعايا (الخاضعون) وبالرومية « العبيد » فكانوا كلهم من ثم عبيد الامبراطورية ولكنهم يختلفون في المقام وهم درجات في الشرف الذي يوليهم اياه مولاهم ويورثونه ابناءهم واليك تلك المناصب بحسب درجاتها .

(١) اشرف الاشراف وهم الاسرة الامبراطورية

(٢) المشاهير وهم وزراء رؤساء الدواوين

(٣) المعتبرون وهم كبار ارباب المناصب

(٤) الممجدون وهم كبار الموظفين (ويدعون الاعيان)

(٥) اهل الكمال

ولكل صاحب شأن مقامه ولقبه ووظائفه . وا كثر الناس احتراماً الندماء والموظفون حتى صح ان يدعى ذاك العهد عهد الالقاب والتشريفات . وما قط شوهد الى حد تبلغ السلطة المطلقة اذا دعمها الجنون في الالقاب والميل الى ترتيب كل امر بالاكثار من القوانين وعليه فقد كانت الامبراطورية الشرقية مثالاً تاماً لمجتمع يدار بالآلة الصماء والحكومة فنيت في ارادة قيصرها فحازت اقصى ما يتطاول اليه حتى اليوم انصار السلطة المطلقة وسيكافح بعد اشياع الحرية زمناً طويلاً تلك التقاليد التي ابقتها امبراطورية الشرق .

حكومة المدينة — لم يعتن الرومان بجباية اموال الرعايا بانفسهم بل كان الامبراطور يكتفي ببيان الخراج المطلوب من كل ولاية (وذلك كل خمس سنين في الغالب) ويحدده كما يريد . ويعلم الوالي كل مدينة ما يجب عليها اداؤه . فحكومة المدينة هي التي تقدم المبلغ المطلوب . وما دامت المدينة غنية يجبي الوالي خراجها موزعاً له بين السكان فاذا عجزوا عن الدفع يحتم على من تولوا الخراج ان يسدوا العجز لانهم مسئولون عن الخراج وخزانة الامبراطورية لا تتنازل عن حقوقها .

ولقد كان منصب الجباية حتى القرن الثالث مرغوباً فيه كأنه من أسباب الشرف فيعد الجابي في مدينته كعضو الشيوخ في رومية . واذا افتقرت البلاد يعود منصب الجباية من المناصب التي تكسر متوليها فتزهق النفوس في توليتها . فرأى الامبراطرة ان يسنوا قانوناً لعقاب من يأبى جباية الخراج فصار الجابي يتولى ذلك رغم أنفه ويجب على كل من يملك خمسة وعشرين فداناً من الارض ان يكون احد الجباة طوعاً أو

كرهًا . وكثير من الجباة كانوا يؤثرون ان يخرجوا عما يملكون من الاراضي ويهربوا ويدخلوا في سلك الرهبنة والخورنة او الاستخدام والجندية . فأصدر الامبراطرة اوامرهم بالبحث عن هؤلاء الفارين وان يعادوا الى مدنهم بالقوة . وقد جاء في احد القوانين المسنونة انهم عبيد الامبراطورية

فكانت الحكومة تحاول ان تبقي مجالس الشيوخ في المدن على هذه الكيفية واذ كانت تخرب بيوتهم بخراجها اصبح عدد الجناة ابدًا في قلة . وكان مجلس الشيوخ يتألف على عهد الامبراطورية الغربية من مئة عضو . وفي القرن الرابع نشبت فتن في احدى الولايات فأمر احد الامبراطرة ان يأتوه برؤوس ثلاثة من الجباة من كل مدينة فكتب اليه الوالي « ليسمح حلمكم ان يقرر ما الذي يجب ان نعمله في المدينة التي ليس فيها ثلاثة من الجباة »

المستعمرون — وقع في الامبراطورية الرومانية مثل ما وقع في عامة المجتمعات القديمة مثل اسبارطة ويونان وايطاليا وهوان يضمحل الاحرار ويخلفهم العبيد ولم يبق في القرى ما يكفيها من الحراثين . لاجرم ان المدينة الرومانية لم تخرب بل كانت آخذة بالنماء . فقد كان عدد الوطنيين في القرن الاول زهاء مليون نسمة وفي القرن الثالث (٢١٢) صدر أمر الامبراطور بمنح جميع سكان الامبراطورية حق الوطنية فصار الوطنيون الرومانيون يعدون بالملايين (١) وبنمون باضمحلال سائر سكان العالم بيد ان الحكم الروماني كان سببًا في اضمحلال شعوب المملكة كما اضمحل به من قبل اهل ايطاليا وكان يقتضي له كثير من الجنود وكثير من العبيد

وبهذا الحكم يفلح الاغنياء ويصعب على صغار ارباب الاملاك ان يقفوا امام الكبراء فيستخدمون في الجندية او يخربون بيوتهم بأيديهم . ويقتني صاحب الاملاك الواسعة اراضيهم حتى أتى زمن لم يبق في بعض البلاد غير املاك واسعة يحرثها العبيد . وهؤلاء السكان من العبيد لا يتجددون فاذا عرض عارض من العوارض المألوفة اذ ذاك من مثل وباء وحرب وغارة برابرة وهلك جمهور من الحراثين في احدى الاملاك تبقى الارض بورا

نخلت القرى على التدريج ولا سيما ما كان منها على التخوم من الناس ولم يبق سكان الا في المدن بل صار في عدة انحاء من المملكة قفار حقيقية خلت من السكان والعمران

(١) كان سكان المملكة يدعون كلهم بالرومانيين منذ ذاك العهد ولما دخل البرابرة الى غاليا لم يجدوا فيها غاليين بل رومانيين حتى كان الشعب في الشرق حيث كان السكان يتكلمون باليونانية يدعى الى عهد الفتح العثماني بالشعب الروماني وما زالت الى اليوم بلاد الاستانة تدعى روم ايلي

فانشأ الامبراطرة يسكنون فيها عصابات من البربر ممن ضربوهم وأسروهم ليحيوا بهم موات تلك القرى · الا ان هؤلاء البرابرة لايملكون الاراضي بل يستعمرونها فقط مثل الهيلوتيين في اسبارطة ويقضى عليهم ان يبقوا في الارض التي أنزلوا فيها لايفارقونها ولا اولادهم بحال يؤدون الى صاحب الارض مالاً مقررا فمن تم كانوا مستأجرين الى الابد بالقوة · وليس هذا النظام جديدا بل كان في ايطاليا على عهد الامبراطورية الشرقية أناس من الطواريء من الاحرار الفقراء قيدوا انفسهم في خدمة صاحب ملك عظيم لينالوا منه أرضا يزرعونها · وزاد سواد هؤلاء الطواريء زيادة كبرى لما ضموا اليهم الاسرى من البربر

وهذه الطريقة الشديدة لم تكف في احياء امة لان اولئك الحراثين كانوا يفرون او يهلكون وفي القرن الخامس بعد مرور الجيوش العظمى من المخربين (داكيز واتيلا) كان في اراضي المملكة فراغ كبير تعذر على الامبراطرة ان يسدوه · وبقي في غاليا واسبانيا وايطاليا وفي الغرب كله جزء من الاراضي بورا لقلة العاملين فيها واقفرت ولايات التخوم وقد اضمحل الشعب الروماني في جميع حوض الطونة من سويسرا الى البلقان منذ القرن السادس فلم يكن في تلك البلاد الا أمم جرمانية او سلافية · حتى ان الفرنك لم يجدوا في البلجيك غير قفر ·

البرابرة في الجيش الروماني — هذه الاراضي الخالية تستدعي سكانًا جدداً فكان البرابرة يحاولون على الدوام ان يتخطوها وما دام للحكومة الرومانية بعض جيش لايصعب عليها ان تردهم على اعقابهم · الا ان الامر في التجنيد صار الى الصعوبة كايجاد المال · وألف سكان الامبراطورية حياة السكون ولم يعودوا يهتمون بخدمة الجندية · حتى اضطرت الحكومة ان تطلب جندا من كبار ارباب الاملاك فيأخذ هؤلاء بعض الطواريء الذين يعملون في اراضيهم فكان هؤلاء المساكين المأخوذين بالقوة من وراء محاريثهم جندا غير كفوء للقتال · وغدت الجنود منذ القرن الرابع من الضعف بحيث لاتستطيع حمل الدروع واستعاضت عن الخوذ بالقبعات

واصبح القواد يؤثرون ان يستعملوا المحاربين من البربر لانهم يقاتلون بهمة على الاقل وقد جندت الامبراطورية في خدمتها منذ زمن جنوداً من الجرمانيين يتناولون جرايات ويقاتلون باسلحتهم وكان اكثرهم من الفرسان واخذ امبراطرة الرومان في القرن الرابع يجندون منهم عصابات برمتها ينزلون مع نسائهم واولادهم وخدمتهم في اراض يهبونهم اياها على سبيل الجراية · ويحتفظ هؤلاء المحاربون النازلون في ارض رومانية بلغتهم وعاداتهم

و بـلاحم وزعمائهم و يدعون «المحالفين» و بلغ بالامبراطور انه اخذ يقبل منهم في جيشه شعوبًا برمتها مثل الوزيغوت والبورغند وكانوا اجتازوا التخوم بالقوة احيانًا ثم آثروا ان يكونوا في خدمته على ان يقاتلوه . فأصبحت اذ ذاك جيوش رومانية مؤلفة من شعوب بربرية يقودها قائد بربري . ولقد كان الجيش الروماني الذي رد غارة اتيلا سنة ٤٥١ مؤلفًا من الوزيغوت والفرنك والبورغند وصار كثير من القواد الرومان منذ القرن الرابع (سيلفانوس واربوكاست) ومعظمهم في القرن الخامس (مثل ستيلكون ورسيمير وادواكر) من اصل بربري ولم تعد الامبراطورية الرومانية محمية الا بأناس من المحاربين من البرابرة فاحتلها بعد ابناء جنسهم

طبقات الاطباء

من الكتب ما لو ظفر به المرء أغناه عن مكتبة وكم من مكتبة لا تغني عن كتاب . والكتب كالناس واحد بألف والف لا يساوي واحدا . ومن الكتب التي تعد بألف كتاب «عيون الانباء في طبقات الاطباء» لمؤلفه موفق الدين أبي العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ بصرخد من أعمال جبل الدروز في بلاد الشام الفه في دمشق برسم امين الدولة بن غزال بن أبي سعيد وزير الملك الصالح ابن الملك العادل

صاحب هذه الطبقات من الاطباء العلماء منقح الفكر منقح العبارة منظم الاسلوب حسن الطريقة ذكر في كتابه كما قال نكتًا وعيونًا في مراتب المتميزين من الاطباء القدماء والمحدثين ومعرفة طبقاتهم على توالي ازمنتهم وأوقاتهم وأودعه نبذة من اقوالهم وحكاياتهم ونوادرهم ومحاوراتهم وشيئًا من اسماء كتبهم ليستدل بذلك على ما خصهم الله تعالى به من العلم قال فان كثيرا منهم وان قدمت ازمانهم وتفاوتت اوقاتهم فان لهم علينا من النعم فيما صنفوه والمنن فيما قد جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة ما هو تفضل المعلم على تلميذه والمحسن الى من احسن اليه . وقد اودع كتابه جماعة من الحكماء والفلاسفة ممن لهم نظر وعناية بصناعة الطب وجملا من احوالهم ونوادرهم واسماء كتبهم وجعل ذكر كل واحد منهم في الموضع الاليق به على حسب طبقاتهم ومراتبهم وقسمه الى خمسة عشر بابا

الباب الاول في كيفية وجود صناعة الطب واول حدوثها . الثاني في طبقات الاطباء الذين ظهرت لهم اجزاء من صناعة الطب وكانوا المبتدئين بها وهم ثلاثة . الثالث في الاطباء اليونانيين الذين هم من نسل اسقليبيوس وهم ستة . الرابع في الاطباء اليونانيين الذين اذاع ابقراط فيهم صناعة الطب وهم تسعة . الخامس في الاطباء الذين كانوا منذ زمان

جالينوس وقريباً منه . السادس في الاطباء الاسكندرانيين ومن كان في ازمنتهم من الاطباء النصارى وغيرهم . السابع الاطباء الذين كانوا في اول ظهور الاسلام من اطباء العرب وغيرهم وهم عشرة . الثامن في الاطباء السريانيين الذين كانوا في ابتداء ظهور دولة بني العباس وهم اربعة وثلاثون . التاسع الاطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني الى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم وهم سبعة وثلاثون . العاشر الاطباء العراقيون واطباء الجزيرة وديار بكر وهم اثنان وثمانون طبيباً . الحادي عشر الاطباء الذين ظهروا في العجم وهم ثلاثة وعشرون . الثاني عشر الاطباء الذين كانوا في الهند وهم ستة . الثالث عشر الاطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب واقاموا بها وهم تسعة وثمانون . الرابع عشر الاطباء المشهورون من اطباء مصر وهم سبعة وخمسون . الخامس عشر الاطباء المشهورون من اطباء الشام وهم تسعة وخمسون . ورتبهم المؤلف على سني وفياتهم

كل من استعملوا عقولهم جادت والاطباء هم ممن يستعملون عقولهم ولذلك كان وما كتبه ابن ابي أصيبعة برهان على صحة العقل وجودة التأليف بحيث انك تقرأ كتابه وهو في ستمائة صفحة فلا تكاد تجد فيه مغمزاً اللهم الا بعض الفاظ واشعار قليلة بذيئة رواها لبعض المترجم بهم ولعل ذلك لم يكن منكراً في عصره او اطالة في ايراد بعض التراجم مثل اطالته في ترجمة ابي الحكم الاندلسي ونقل شعره وسديد الدين ابن رقيقة وشعره واكثر ما رواه من الشعر لابي القاسم هبة الله بن الفضل وغيرهم ممن جاد شعرهم ولكنه لا يخلو من بعض سخافات وعذره في ذلك انه يريد التنويه بالاطباء كيف كان حالهم ويود لو اتى لهم بكل ما قالوه . قلت مرة لاحد اساطين العلم ما بال ابن ابي أصيبعة استعمل بعض اشعار ونوادر سخيفة نقلها كأنه راض عنها على حين انه غاية في الكمال والعلم الصحيح فقال ان المؤلف اراد ان يجعل كتابه مرجعاً كبيراً وموردًا فائضاً في كل أطروفة وأطروبة ولذلك لما اهدى نسخاً لبعض من يغلب عليهم الوقار حذف هذه الزائدات ومن رآهم يحبون الاشياء على اصلها استنسخ لهم من كتابه نسخة تامة وهذا هو السبب في اختلاف النسخ التي ظفر بها طابع الكتاب .

وقصارى القول ان هذه الطبقات هي من الكتب الممتعة فلا تعد كتاباً للطب والاطباء بل هي كتاب في الحكمة والحكماء والمفننين من العلماء يتمثل فيه المطالع طرفاً من مدنية الاسلام ويقرأ فيه براهين دامغة على ان الناس في تلك القرون السبعة الاولى كانوا سواء على اختلاف مللهم ونحلهم يصف المؤلف المخالف بانه اوحد العلماء فاضل كامل ويذكر له من الصفات ما يتراءى معه لقليل الخبرة باخبار تلك الازمنة ان المؤلف ينقل عن اهل دين

المترجم بهم و يأتي بصفاتهم مجردة دون ان يلحقه شيء من تبعتها على ان ذلك كله من بنات افكار المترجم . ساوى العلم في نظره بين ابن دينه ومخالفه مساواة لم يغمط بها حقًا لمخالف ولم يبالغ بمن يود ويحالف كما ترى في ترجمة جبرئيل بن بختيشوع و يوحنا بن ماسويه وموفق الدين بن المطران وامين الدولة ابن التلميذ وحنين بن اسحق وهناك تجد تراجم كثير من العلماء ممن كان الطب بعض علومهم مثل الرئيس بن سينا وابي نصر الفارابي وابن الهيثم و يعقوب ابن اسحق الكندي وثابت بن قرة وكمال الدين بن يونس وابي بكر الرازي وابي بكر ابن زهر وابي الوليد بن رشد والسهروردي وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم من الاعلام الذين ترجمهم فاحسن ترجمتهم حتى لم يبق حاجة في النفس من امرهم .

تقرأ في هذا السفر تعريب التراجمة الاول في الاسلام مشفوعًا بنبذة من اخبارهم وتتراوح بين تلاوة الحكم المستعذبة والاشعار اللطيفة والنثر البديع بحيث تحكم بان الطبقات هي كتاب ادب ومحاضرة كما هي كتاب حكمة وطب تتنقل بين الاستفادة من هذه وترويح النفس بتلك فمن الحكم ما اوصى به ابقراط الاطباء فقال : ينبغي ان يكون المتعلم للطب في جنسه حرًا وفي طبعه جيدًا حديث السن معتدل القامة متناسب الاعضاء جيد الفهم حسن الحديث صحيح الرأي عند المشورة عفيفًا شجاعًا غير محب للفضة مالكًا لنفسه عند الغضب ولا يكون تاركًا له في الغاية ولا يكون بليدًا و ينبغي ان يكون مشاركًا للعليل مشفقًا عليه حافظًا للاسرار لان كثيرًا من المرضى يوقفونا على امراض بهم لا يحبون ان يقف عليها غيرهم و ينبغي ان يكون محتملاً للشتيمة لان قومًا من المبرسمين واصحاب الوسواس السوداوي يقابلونا بذلك و ينبغي لنا ان نحتملهم عليه ونعلم انه ليس منهم وان السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة و ينبغي ان يكون حلق رأسه معتدلاً مستويًا لا يحلقه ولا يدعه كالجمة ولا يستقصي قص اظافير يديه ولا يتركها تعلو على اطراف اصابعه و ينبغي ان تكون ثيابه بيضا نقية لينة ولا يكون في مشيه مستعجلاً لان ذلك دليل على الطيش ولا متباطئًا لانه يدل على فتور النفس واذا دعي الى المريض فليقعد متربعًا و يختبر منه حاله بسكون وتأن لا بقلق واضطراب فان هذا الشكل والزي والترتيب عندي افضل من غيره . هذا ما قاله ابو الطب ولو عمل الاطباء طرًا بمشورته لما ساءت ظنون العامة والخاصة ببعضهم .

ومن مواعظ افلاطون : اذا هرب الحكيم من الناس فاطلبه واذا طلبهم فاهرب منه . وقال من لا يواسي الاخوان عند دولته خذلوه عند فاقته . وسئل من احق الناس ان يؤتمن على تدبير المدينة فقال من كان في تدبير نفسه حسن المذهب . وقال الملك هو كالنهر الاعظم تستمد منه الانهار الصغار فان كان عذبًا عذبت وان كان مالحًا ملحت وقال اذا اردت

ان تدوم لك اللذة فلا تستوف الملتذ ابداً بل دع فيه فضلة تدم لك اللذة . وقال لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده فان الناس ليس يسألون في كم فرغ من هذا العمل وانما يسألون عن جودة صنعته وقال اذا طابق الكلام نية المتكلم حرك نية السامع وان خالفها لم يحسن موقعه ممن اريد به . وقال رجل جاهل لافلاطون كيف قدرت على كثرة ما تعلمت فقال لاني افنيت من الزيت بمقدار ما افنيته من الشراب . وقال اذا صادقت رجلاً وجب عليك ان تكون صديق صديقه وليس يجب عليك ان تكون عدو عدوه . وقال الافراط في النصيحة يهجم بصاحبها على كثير من الظنة .

ومن حكم ارسطو اعلم ان من علامة تنقل الدنيا وكدر عيشها انه لا يصلح منها جانب الا بفساد جانب آخر ولا سبيل لصاحبها الى عز الا بالاذلال ولا استغناء الا بافتقار واعلم انها ربما اصيبت بغير حزم في الرأي ولا فضل في الدين فان اصبت حاجتك منها وانت مخطئ او ادبرت عنك وانت مصيب فلا يستخفك ذلك الى معاودة الخطأ ومجانبة الصواب . وقال لا تبطل لك عمرًا في غير نفع ولا تضع لك مالاً في غير حق ولا تصرف لك قوة في غير غناء ولا تعدل لك رأيًا في غير رشد فعليك بالحفظ لما اتيت من ذلك والجد فيه وخاصة في العمر الذي كل شيء مستفاد سواه وان كان لا بد لك من اشغال نفسك بلذة فلتكن في محادثة العلماء ودرس كتب الحكمة . وقال: العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالمًا . وقال: اصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعًا لك . وقال: من نازع السلطان مات قبل يومه . وقال: اي ملك نازع السوقة هتك شرفه . وقال: اي ملك يسف الى المحقرات فالموت اكرم له . وكتب الى الاسكندر في وصايا له ان الارديا ينقادون بالخوف والاخيار ينقادون بالحياء فميز بين التطبيق واستعمل في اولئك الغلظة والبطش وفي هؤلاء الافضال والاحسان . وكتب اليه ايضًا ان الامور التي يشرف بها الملوك ثلاثة سن السنن الجميلة وفتح الفتوح المذكورة وعمارة البلدان المعطلة .

ومن كلام عبد اللطيف البغدادي : اجعل كلامك في الغالب بصفات ان يكون وجيزًا فصيحًا في معنى مهم او مستحسن فيه الغاز ما وايهام كثير او قليل ولا تجعله مهملاً ككلام الجمهور بل رفعه عنهم ولا تباعده عليهم جدًا . وقال : واياك والهذر والكلام فيما لا يعني واياك والسكوت في محل الحاجة ورجوع النوبة اليك اما لاستخراج حق او اجتلاب مودة او تنبيه على فضيلة واياك والضحك مع كلامك وكثرة الكلام وتبتير الكلام بل اجعل كلامك سردًا بسكون بحيث يستشعر منك ان وراءه اكثر منه وانه عن خبرة سابقة ونظر متقدم وقال: واياك والغلظة في الخطاب والجفاء في المناظرة فان ذلك يذهب ببهجة الكلام ويسقط

فائدته ويهدم حلاوته ويجلب الضغائن ويمحق المودات ويصير القائل مستثقلا سكوته اشهى الى السامع من كلامه ويثير النفوس الى معاندته ويبسط الالسن بمخاشنته واذهاب حرمته وقال لا تترفع بحيث تستثقل ولا تتنازل بحيث تستخس وتستحقر ·

ومن كلام رشيد الدين بن خليفة : احترم المشايخ ولو سكتوا عن جواب سؤالك فلعل ذلك لبعد العهد وكلال القوى او لانك سألت عما لا يعنيك او معرفتهم بعجز فهمك عن الجواب واعلم ان فوائدك منهم اكثر من ذلك وقال : اشتغل بكلام المشهورين الجامعة اولاً فاذا حصلت الصناعة فاشتغل بالكتب الجزئية من كلام كل قائل وقال: خذ كلام كل قائل عارياً عن محبة او بغضة ثم زنه بالقياس وامتحنه ان امكن بالتجربة وحينئذ اقبل الصحيح واذا اشكل فاشرك غيرك فيه فان لكل ذهن خاصية بمعان دون معان

وقال: الامراض لها اعمار والعلاج يحتاج الى مساعدة الاقدار واكثر صناعة الطب حدس وتخمين وقلما يقع فيه اليقين وجزآها القياس والتجربة لا السفسطة وحب الغلبة ونتيجتها حفظ الصحة اذا كانت موجودة وردها اذا كانت مفقودة وفيهما يتبين سلامة الفطر ودقة الفكر ويتميز الفاضل عن الجاهل والمجد في الطلب عن المتكاسل والعامل بمقتضى القياس والتجربة عن المحتال على اقتناء المال وعلو المرتبة · وقال : ما اكثر المتذين بالآمال من غير الشروع في بلوغها وقال: الآمال احلام اليقظان · وقال: اكثر من مطالعة سير الحكما · واقتد منها بما يمكن الاقتداء به في زمانك · وقال: كتب بعضهم الى شيخه يشكو تعذر اموره فكتب اليه انك لن تنجو مما تكره حتى تصبر عن كثير مما تحب ولن تنال ما تحب حتى تصبر على كثير مما تكره اه ومما يكاد يختص به كتاب الطبقات انك قد تأتي على ترجمة الرجل والرجلين ولا تفهم نحلته ومذهبه اذا لم يكن في اسمه او كنيته او لقبه ما يشعر بانه مسلم او غير مسلم وربما اشتبه الاسم ايضاً فان من الصابئة من اسمه حسن ومن المجوس من اسمه عثمان وعلي والعباس والنصراني يكنى بموفق الدين وقطب الدين ·

ومن اعجب ما قرأته ان قسطا بن لوقا البعلبكي وكان مسيحي النحلة الف كتاباً له في علة الموت فجأة لابي الحسن محمد بن احمد كاتب بطريق البطارقة والغالب ان اسم هذا ابوغانم العباس بن سنباط · وقد استفدت منه عدة الفاظ لم تكن مألوفة لزمننا مثل الجوارشنات للحبوب المستعملة والاقراباذينات اي تركيب الادوية والساعور وهو مقدم النصارى في الطب وفي التاج ان اصله ساعورا ومعناه متفقد المرضى وقد اشتق منه فعلاً فقال : كانا جميعاً يسعران المرضى اي يتفقدانها الى غير ذلك من الفصح والشوارد مثل قوله عن اسم كتاب لاحد المشاهير « المتمس » اي المحتال بالدين ونحوه على شيء يستره ·

والغالب ان المؤلف لم يدخر وسعاً في تنقيح كتابه وتصحيحه الى ان هلك فجاء زبدة في موضوعه فيه كل ما طاب وحلا فمن منظومه وهو مما نأخذه لنكتة فيه وخير الشعر مازاد معناه على لفظه وقصدت به غاية كما قال يعقوب بن اسحق الكندي

اناف الذنابى على الارؤس ... فغمض جفونك او نكس
وضائل سوادك واقبض يديك ... وفي قعر بيتك فاستحلس
وعند مليكك فابغ العلو ... وبالوحدة اليوم فاستأنس
فان الغنى في قلوب الرجال ... وان التعزز بالانفس
وكائن ترى من اخي عسرة ... غني وذي ثروة مفلس
ومن قائم شخصه ميت ... على انه بعد لم يرمس
فان تطعم النفس ما تشتهي ... تقيك جميع الذي تختسي

وكما وصى يحيي بن عدي ان يكتب على قبره

رب ميت قد صار بالعلم حيا ... ومبقى قد مات جهلاً وعيا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلودا ... لا تعدوا الحياة في الجهل شيا

وكما قال ابوطاهر بن البرخشي وقد رأى انساناً يكتب كتاباً الى صديق له فكتب في صدره العالم .

لما انمحت سنن المكارم والعلى ... وغدا الانام بوجه جهل قاتم
ورضوا باسماء ولا معنى لها ... مثل الصديق تكاتبوا بالعالم

وكما قال العنتري

الحق ينكره الجهول لانه ... عدم التصور فيه والتصديقا
فهو العدو لكل ما هو جاهل ... فاذا تصوره يعود صديقا

او كما قال

كن غنياً ان استطعت والا ... كن حكيماً فما عدا ذين غفل
انما سودد الفتى المال والعلم ... وما ساد قط فقر وجهل

وقوله

ومن نكد الدهر الغشوم وصرفه ... يجاور رعاً فيلسوف لاحمق

وكقول ابي بكر الرازي

نهاية اقدام العقول عقال ... واكثر سعي العالمين ضلال
وارواحنا في غفلة من جسومنا ... وحاصل دنيانا اذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى ان جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة   فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها   رجال فزالوا والجبال جبال

وكقول امية بن عبدالعزيز

مارست دهري وجربت الانام فلم   احمدهم قط في جد ولا لعب
وكم تمنيت ان القى به احدًا   يسلي من الهم او يعدي على النوب
فما وجدت سوى قوم اذا صدقوا   كانت مواعيدهم كالآل في الكذب
وكان لي سبب قد كنت احسبني   احظى به واذا دائي من السبب
فما مقلم اظفاري سوى قلمي   ولا كتائب اعدائي سوى كتبي

وكقول عبدالمنعم الجلياني

من لم يسل عنك فلا تسألن   عنه ولو كان عزيز النفر
وكن فتى لم تدعه حاجة   الى امتهان النفس الا نفر

وكقوله

قالوا نرى نفرًا عند الملوك سموا   وما لهم همة تسمو ولا ورع
وانت ذو همة في الفضل عالية   فلم ظمئت وهم في الجاه قد كرعوا
فقلت باعوا نفوسًا واشتروا ثمنًا   وصنت نفسي فلم اخضع كما خضعوا
قد يكرم القرد اعجابًا بخسته   وقد يهان لفرط النخوة السبع

ومثل قول امين الدولة بن التلميذ

سق النفس بالعلم نحو الكمال   تواف السعادة من بابها
ولا ترج ما لم تسبب له   فان الامور باسبابها

وكقوله

لا تحقرن عدوًا لان جانبه   ولو يكون قليل البطش والجلد
فللذبابة في الجرح الممد يد   تنال ما قصرت عنه يد الاسد

وكقوله

وارى عيوب العالمين ولا ارى   عيبًا لنفسي وهو مني اقرب
كالطرف يستجلي الوجوه ووجهه   منه قريب وهو عنه مغيب

وكقول سعيد بن عبدربه وكان جميل المذهب منقبضًا عن الملوك

امن بعد غوصي في علوم الحقائق   وطول انبساطي في مواهب خالقي

وفي حين اشراقي على ملكوته أرى طالبًا رزقًا الى غير رازقي
وايام عمر المرء متعة ساعة تجيء حثيثًا مثل لمحة بارق
وقد اذنت نفسي بتقويض رحلها واسرع في سوقي الى الموت سائقي
واني وان اوغلت او سرت هاربا من الموت في الآفاق فالموت لاحقي

وكقول ابي الفرج بن هندو

قوض خيامك من ارض تضام بها وجانب الذل ان الذل يجتنب
وارحل اذا كانت الاوطان منقصة فمندل الهند في اركانه حطب

وكقوله

اطال بين البلاد تجوالي قصور مالي وطول آمالي
ان رحت عن بلدة غدوت الى اخرى فما تستقر احمالي
كأنني فكرة الموسوس لا تبقى مدى لحظة على حال

وكقوله وكتبها على عود

رأيت العود مشتقًا من العود باتقان
فهذا طيب آناف وهذا طيب آذان

وكقوله

لنا ملك ما فيه للملك آلة سوى انه يوم السلام متوج
اقيم لاصلاح الورى وهو فاسد وكيف استواء الظل والعود اعوج

وكقول الرحبي

اذا تقضى شباب المرء في نغص فما له في بقايا العمر من ارب

وهناك من المنظومات الطويلة ما هو السحر الحلال . اما المنثور نظر يقته طريقة التسجيع التي غلبت على اهل القرن الخامس فمن بعدهم الا ان فيه المرسل مثل كلام لامين الدولة ابن التلميذ كتبه في ضمن رسالة الى ولده وكان يعرف برضي الدولة ابي نصر قال : والتفت هناك عن هذه الترهات الى تحصيل مفهوم تتميز به وخذ نفسك من الطريقة بما كررت بذهنك عليه وارشادك اليه واغتنم الامكان واعرف قيمته وتشاغل بشكر الله تعالى عليه وفز بحظ نفيس من العلم تثق من نفسك بان عقلته وملكته لاقرأته ورويته فان بقية الحظوظ تتبع هذا الحظ المذكور وتلزم صاحبه ومن طلبها من دونه فاما ان لا يجدها واما ان لا يعتمد عليها اذا وجدها ولا يثق بدوامها واعوذ بالله ان ترضى لنفسك الا بما يليق بمثلك ان يتسامى اليه بعلو همته وشدة انفته وغيرته على نفسه ومما قد كررت عليك الوصاة به علي ان لا تحرص

على ان تقول شيئًا لا يكون مهذبًا في معناه ولفظه و يتعين عليك ايراده فاما معظم حرصك فتصرفه الى ان تسمع ماتستفيده لامايلهيك و يلذ للاغمار واهل الجهالة نزهك الله عن طبقتهم فان الامر كما قال افلاطن الفضائل مرة الورد حلوة الصدر والرذائل حلوة الورد مرة الصدر وقد زاد ارسطوطاليس في هذا المعنى فقال: ان الرذائل لاتكون حلوة الورود عند ذي فطرة فائقة بل يؤذيه تصور قبحها اذى يفسد عليه مايستلذه غيره منها وكذلك يكون صاحب الطبع الفائق قادرًا بنفسه على معرفة مايتوخى و يجتنب كالتام الصحة يكفي حسه في تعريفه النافع والضار فلا ترض لنفسك حفظك الله الا بما تعلم انه يناسب طبقة مثالك واغلب خطرات الهوى بعزمات الرجال الراشدين واطمح بنفسك اليها نتركك في طاعة عقلك فانك تسر بنفسك وتراها في كل يوم مع اعتماد ذلك في رتبة علية ومرقاة من سماء

ومن رسالة في السعادة كتبها المؤلف الى رشيد الدين الصوري وقد اهدى اليه تأليفًا له يحتوي على فوائد ووصايا طبية وهي من السجع على خلاف عادته: ادام الله ايام الحكيم الاجل الاوحد الامجد العالم العامل الفاضل الكامل الرئيس رشيد الدنيا والدين معتمد الملوك والسلاطين خالصة أمير المؤمنين بلغه في الدارين نهاية سؤله وامانيه وكبت حسدته واعاديه ولا زالت الفضائل مخيمة بفنائه والفواضل صادرة منه الى اوليائه والالسن مجتمعة على شكره وثنائه والصحة محفوظة بحسن مراعاته والامراض زائلة بتدبيره ومعالجاته المملوك ينهي مايجده من الاشواق الى خدمته والتأسف على الفائت من مشاهدته ووصلت المشرفة الكريمة التي وجد بها نهاية الامل والارشاد الى المطالب الطبية الجامعة للعلم والعمل وقد جعلها المملوك اصلاً يعتمد عليه ودستورًا يرجع اليه لايخليها من فكره ولا يخل بما تتضمنه في سائر عمره وما للمملوك ما يقابل به احسان مولانا الا الدعاء الصالح والثناء الذي يكتسب من محاسنه النشر العطر الفائح وكيف لااشكر وانشر محاسن من لااجد فضيلة الا به ولا انال راحة الا بسببه فالله يتقبل من المملوك صالح ادعيته ويجزي مولانا كل خير على كمال مروءته ان شاء الله

واما فوائد الكتاب الطبية والاجتماعية فما ينبغي ان يفرد بالبحث ولا يسع الطبيب والاديب جهله فمن ذلك ماقاله ثابت به سنان قال ولما كان سنة تسع عشرة وثلثمائة اتصل بالمقتدر ان غلطًا جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل فامر ابراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سائر المتطببين من التصرف الا من امتحنه والدي سنان بن ثابت وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة فصاروا الى والدي وامتحنهم واطلق لكل واحد مايصلح ان يتصرف فيه و بلغ عددهم في جانبي بغداد ثمانمائة رجل ونيفًا وستين رجلا سوى من

استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم في صناعته وسوى من كان في خدمة السلطان . قلت وهذه الشهادة الطبية نالها من نالها من اطباء بغداد بعد العلم والعمل ولا عجب ان يكون لبغداد هذا العدد الدثر من الاطباء والقاهرة على مابلغت اليه من الحضارة في هذا العهد لا يتجاوز اطباؤها نصف هذا القدر . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة ان سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وما والاها كان اذا اكل الطعام حضر على مائدته اربعة وعشرون طبيباً وكان فيهم من يأخذ رزقين لاجل تعاطي علمين ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم

ونقل المؤلف من كلام لابي نصر الفارابي في معنى اسم الفلسفة قال اسم الفلسفة يوناني وهو دخيل في العربية وهو على مذهب لسانهم فيلسوفيا ومعناه ايثار الحكمة وهو في لسانهم مركب من فيلا ومن سوفيا ففيلا الايثار وسوفيا الحكمة والفيلسوف مشتق من الفلسفة وهو على مذهب لسانهم فيلسوفوس فان هذا التغيير هو تغيير كثير من الاشتقاقات عندهم ومعناه المؤثر للحكمة والمؤثر للحكمة عندهم هو الذي يجعل الوكد من حياته وغرضه من عمره الحكمة . وحكى ابو نصر الفارابي في ظهور الفلسفة ماهذا نصه : قال ان امر الفلسفة اشتهر في ايام ملوك اليونانيين وبعد وفاة ارسطوطاليس بالاسكندرية الى آخر ايام المرأة وانه لما توفي بقي التعليم بحاله فيها الى ان ملك ثلاثة عشر ملكاً وتوالى في مدة ملكهم من معلمي الفلسفة اثنا عشر معلماً احدهم المعروف باندرونيقوس وكان آخر هؤلاء الملوك المرأة فغلبها اوغسطس الملك من اهل رومية وقتلها واستحوذ على الملك فلما استقر له نظر في خزائن الكتب وصنعها فوجد فيها نسخاً لكتب ارسطوطاليس قد نسخت في ايامه وايام ثاوفرسطس ووجدوا المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها ارسطو فامر ان تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في ايام ارسطو وتلاميذه وان يكون التعليم منها وان ينصرف عن الباقي وحكم اندرونيقوس في تدبير ذلك وامره ان ينسخ نسخاً يحملها معه الى رومية ونسخاً يبقيها في موضع التعليم بالاسكندرية وامره ان يستخلف معلماً يقوم مقامه بالاسكندرية ويسير معه الى رومية فصار التعليم في موضعين وجرى الامر على ذلك الى ان جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومية وبقي بالاسكندرية الى ان نظر ملك النصرانية في ذلك واجتمعت الاساقفة وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل فرأوا ان يعلم من كتب المنطق الى آخر الاشكال الوجودية ولا يعلم مابعده لانهم رأوا ان في ذلك ضرراً على النصرانية وان فيما اطلقوا تعليمه مايستعان به على نصرة دينهم فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار وماينظر فيه من الباقي مستوراً الى ان كان الاسلام بعده بمدة طويلة فانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية وبقي بها زمناً طويلاً الى ان بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان

وخرجا ومعهما الكتب فكان احدهما من اهل حران والآخر من اهل مرو فاما الذي من اهل مرو فتعلم منه رجلان احدهما ابراهيم المروزي والآخر يوحنا بن حيلان وتعلم من الحراني اسرائيل الاسقف وقويري وسارا الى بغداد فتشاغل ابراهيم بالدين واخذ قويري في التعليم واما يوحنا بن حيلان فانه تشاغل ايضًا بدينه وانحدر ابراهيم المروزي الى بغداد فاقام بها وتعلم من المروزي متى بن يونان وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت الى آخر الاشكال الوجودية . وقال ابو نصر الفارابي عن نفسه انه تعلم من يوحنا بن حيلان الى آخر كتاب البرهان وكان يسمى ما بعد الاشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ الى ان قرئ ذلك وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الامر الى معلمي المسلمين ان يقرأ من الاشكال الوجودية الى حيث قدر الانسان ان يقرأ فقال ابو نصر انه قرأ الى آخر كتاب البرهان

ومن الفوائد التاريخية في الكتاب ما ذكره صاعد بن بشر في مقالته في مرض المراقيا ما عاينه في ذلك الزمان من اهوال وجدها ومخاوف شاهدها . هذا نصه وقال وانه عرض لنا من تضايق الزمان علينا والتشاغل بالتماس الامر الضروري ولما قد شملنا من الخوف والحذر والفزع واختلاف السلاطين وما قد بلينا به مع ذلك من التنقل في المواضع وضياع كتبنا وسرقتها ولما قد اظلنا من الامور المذعرة المخوفة التي لا نرجو في كشفها الا الله تقدس اسمه قال ابن ابي أصيبعة هذا ما ذكره اي صاعد وما كان في ايامه الا اختلاف ملوك الاسلام بعضهم مع بعض وكان الناس سالمين في انفسهم آمنين من القتل والسبي فكيف لو شاهد ما شاهدناه ونظر ما نظرناه في زماننا من التتار الذين اهلكوا العباد واخربوا البلاد وكونهم اذا اتوا الى مدينة فما لهم همّ الا قتل جميع من فيها من الرجال وسبي الاولاد والنساء ونهب الاموال وتخريب القلاع والمدن لكان استصغر ما ذكره واستقل ما عاينه وحقره ولكن ما طامة الا فوقها طامة اعظم منها ولا حادثة الا وغيرها تكبر عنها ولله الحمد على السلامة والعافية

ومن فوائده التاريخية أيضًا ما ذكره في ترجمة ابن بطلان قال ان مشاهير الاوباء في زمانهم وباء سنة ست واربعين واربعمائة فانه دفن في كنيسة لوقا بعد ان امتلأت جميع المدافن التي في القسطنطينية اربعة عشر الف نسمة في الخريف فلما توسط الصيف في سنة سبع واربعين لم يوف النيل فمات في الفسطاط والشام اكثر اهلهما وجميع الغرباء الا من شاء الله وانتقل الوباء من العراق فاتى على اكثر اهله واستولى عليه الخراب بطروق العساكر المتعادية واتصل ذلك بها الى سنة اربع وخمسين واربعمائة وعرض للناس في اكثر البلاد قروح سوداوية واورام الطحال وتغير ترتيب نوائب الحميات واضطرب نظام البحارين قال وتكامل خراب العراق والموصل والجزيرة واختلت ديار بكر وربيعة ومضر وفارس وكرمان

و بلاد المغرب واليمن والفسطاط والشام واضطربت احوال ملوك الارض وكثرت الحروب والغلاء والوباء

ومن فوائده الاجتماعية ماذكر في ترجمة اسرائيل بن الطيفوري ان الوزير الفتح ابن خاقان كان كثير العناية به فقدمه عند المتوكل ولم يزل حتى انس به المتوكل وجعله في مرتبة بختيشوع وعظم قدره وكان متى ركب الى دار المتوكل يكون موكبه مثل موكب الامراء واجلاء القواد وبين يديه اصحاب المقارع . قلت ولعل اصحاب المقارع مثل الذين يمشون امام عجلات الاعيان والامراء ومركباتهم في هذا القطر وهذه العادة من ابشع العادات التي ابقتها الايام . كما انه كان يحمل بين يدي الكبراء مشاعل في الليل كما ذكره في ترجمة ابي الفرج بن توما ومن فوائده الادبية قوله : ذكروا ان الاصل كان في اسم جالينوس غالينوس ومعناه الساكن او الهادي وقيل ان ترجمة اسم جالينوس معناه بالعربي الفاضل وقال ابو بكر محمد بن زكريا الرازي في كتاب الحاوي انه ينطلق في اللغة اليونانية ان ينطق بالجيم غينا وكافا فيقال مثلا جالينوس وغالينوس وكالينوس وكل ذلك جائز وقد تجعل الالف واللام لاما مشددة فيكون ذلك اصح في اليونانية اقول وهذه فائدة تتعلق بهذا المعنى وهي حدثني القاضي نجم الدين عمر بن محمد الكربدي قال حدثني ابنا غاثون المطران بشوبك وكان اعلم اهل زمانه بمعرفة لغة الروم القديمة وهي اليونانية ان في لغة اليونان كل ما كان من الاسماء الموضوعة من اسماء الناس وغيرهم فآخرها سين مثل جالينوس وديسقوريدس وانكساغورس وارسطو طاليس وديوجانس واريباسيوس وغير ذلك وكذلك مثل قولهم قاطيغورياس وباريتنياس ومثل اسطوخودس واناغالس فان السين التي في آخر كل كلمة حكمها في لغة اليونانيين مثل التنوين في لغة العرب الذي هو في آخر الكلمة مثل قولك زيد وعمرو وخالد وبكر وكتاب وشجر فتكون النون التي تتبين في آخر التنوين مثل السين في لغة اولئك اقول ويقع لي ان من الالفاظ التي في لغة اليونانيين وهي قلائل ما لا يكون في آخره مثلاً سقراط وافلاطن واغاثا ذيمون واغلوقن وتامور وباغات وكذلك من غير اسماء الناس مثل انالوطيقيا ونيقوماخيا والريطورية ومثل جند بيدستر وترياق فان هذه الاسماء تكون في لغة اليونانيين لا يجوز عندهم تنوينها فتكون بلا سين وذلك مثل ما عندنا في لغة العرب ان من الاسماء ما لا ينون وهي الاسماء التي لا تنصرف مثل اسماعيل وابراهيم واحمد ومساجد ودنانير فتكون هذه كتلك اه

اما فوائد الكتاب الطبية فكثيرة جداً فمنها ماوراه عن جالينوس ان كل بيت لا تدخله الشمس يكون وبيئاً وهو مثل قول الفرنسيس في امثالهم حيث لا تدخل الشمس

يدخل الطبيب . ومما ذكره ابن بختويه في كتاب المقدمات صفة تجميد الماء في غير وقته زعم انه اذا اخذ من الشب اليماني الجيد رطل و يسحق جيداً و يجعل في قدر فخار جديدة و يلقى عليه ستة ارطال ماء صاف و يجعل في تنور و يطين عليه حتى يذهب منه الثلثان و يبقى الثلث لا يزيد ولا ينقص فانه يشتد ثم يرفع في قنينة و يسد رأسها جيداً فاذا اردت العمل به اخذت تلجية جديدة وفيها ماء صاف واجعل في الماء عشرة مثاقيل من الماء المعمول بالشب و يترك ساعة واحدة فانه يصير ثلجاً وكذلك ايضاً زعم بعض المغاربة في صنعة تجميد الماء في الصيف قال : اعمد الى بزر الكتان فانقعه في خل خمر جيد ثقيف فاذا جمد فيه فالقه في جرة او جب مليء ماء قال فانه يجمد ما كان فيه من الماء ولو انه في حزيران او تموز

بقي في الكتاب كثير من النكات المضحكة ننقل بعضها للاحماض وترويحاً للنفوس فمما رواه يوحنا بن ماسويه العالم الطبيب المشهور وكان فكها ذا دعابة وظرف قال : شكا اليه رجل جرباً قد اضرَّ به فامره بفصد الا كحل من يده اليمنى فاعلمه انه قد فعل فامره بفصد الا كحل ايضاً من يده اليسرى فذكر انه قد فعل فامره بشرب المطبوخ فقال قد فعلت فامره بشرب الاصطمخيقون فاعلمه انه قد فعل فامره بشرب ماء الجبن اسبوعاً وشرب مخيض البقر اسبوعين فاعلمه انه قد فعل فقال له لم يبق شيء مما امر به المتطببون الا وقد ذكرت انك فعلته وبقي شيء مما لم يذكره بقراط ولا جالينوس وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيراً فاستعمله فاني ارجو ان ينجح علاجك ان شاء الله فسأله ماهو فقال ابتع زوجي قراطيس وقطعهما رقاعاً صغاراً واكتب في كل رقعة رحم الله من دعا للمبتلى بالعافية والق نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام والنصف الآخر في المسجد الغربي وفرقها في المجالس يوم الجمعة فاني ارجو ان ينفعك الله بالدعاء اذ لم ينفعك بالعلاج

وعلى الجملة فالكتاب مادة واسعة في علوم الحضارة فنشكر لناشره العالم الالماني الذي سمى نفسه امرأ القيس الطحان وهذا الاسم ترجمة اسمه الحقيقي ماكس موللر فقد طبعه في مصر وصححه على عدة نسخ وامهات صحيحة والحقه بفهرس الاعلام بحيث جاء مفيداً يكاد غلطه لا يذكر وبذل وقته وماله فيه حتى نفع العلم والادب وجلا كثيراً من الحقائق التي كانت مستورة وها قد اخذ الالمان اليوم يترجمونه الى لغتهم وسيتم طبعه قريباً واني لاوصي كل طالب علم وعاشق معرفة ان يقتنيه فهو من الكتب التي لا يليق بمنضدة ان تكون خالية من نسخة منه يأخذ كل مطالع منها ما يغلب عليه دع عنك ما هنالك من تاريخ يلقح كل حين فكراً جديداً ولو كان في موضوع هذا المصنف المفيد مئة كتاب من امهات كتبنا جميلة الطبع والوضع لعدت العربية في التاريخ والسير من اغنى لغات العصر .

سير العلم والاجتماع

تربية الحواس

لم يعن علماء التربية حتى الآن بان يجعلوا من جملة موادها تربية الحواس ولا يعلمون الولد في المدارس الابتدائية كيف يبصر ويسمع ويلمس ويشم ويميز الطعوم فيأتي الطفل من ذلك ما يروقه ويكون الجهل من هذا القبيل عاماً . فقد يبصر المبصرون بدون مبصر فيسيئون البصر وليس غير العادة من قاعدة للمشمومات والمطعومات ولا يعرف الناس استعمال اصابعهم لتمييز الاشياء بمجرد لمسها . وقد عُني الاستاذ المرغانس من اعضاء المجمع العلمي السميثوني في اميركا منذ بضع سنين بتلافي هذا النقص في تربية الحواس فوضع طريقة جربها في اولاده البنين منهم والبنات فجمع الى تمرين الحواس تهذيب العقل وهو مقر الحواس بل المركز العام لكل باصرة وسامعة ولامسة واخذ يعلم الاطفال على التفكر بسرعة وان يستخدموا كل حاسة بسرعة فربى خلايا الدماغ واول ما كان يعلم الطفل التمييز بين الالوان فانه استعمل لذلك أُطراً منوعة الالوان واطراً من الوان واحدة تختلف بعض الشيء ويكرر من هذه الأُطر نحو ثلاثين الف لون على نظر الطفل يعلمه التمييز بين الوانها باعيانها بحيث تتربى فيه ملكة النظر فلا يرتكب خطأ بعد في التمييز بينها .

ويبدأ بتعليم الطفل تمييز الالوان وهو في الثانية او الثالثة عند ما يأخذ يتكلم وينتهي من التعلم في السابعة او الثامنة . وفي الرابعة من عمره تربى فيه ملكة السمع بواسطة آلة الاستماع التي تحقق الاصوات وتقيها الارتجاجات ولتقوية العقل يضعون بين ايدي الطفل العاباً علمية من نحو خشبة مثقوبة ثقوباً كثيرة يدخل فيها مسامير مختلفة الحجم على اسرع ما يكون فيتربى بصره على التمييز في الحال بين المسمار الصالح للثقب الذي يريده وان تتناوله يده بسرعة وتدخله في محله . وهناك لعبة الخاتم وهي عبارة عن هدف تجعل فيه كلابات فيقضى على الولد ان يرمي بالخواتم بحيث تعلق في الكلابة الخاصة بها . وقد ذكر الاستاذ غرانس بان قوة العضلات يمكن انقاصها وزيادتها بزيادة الحرارة والبرودة في الاعضاء بل بواسطة المنبهات كالشاي والقهوة وذكر ان الصباح خير الاوقات للرياضة العضلية بعد ان يكون الانسان استوفى حظه من نوم الليل وانه لا بد من ان يعقب تلك الرياضة شيء من الراحة . وقد اخذت هذه الطريقة تسري في الولايات المتحدة واخذوا هناك يزهدون في انواع الرياضات القليلة الجدوى ليستعيضوا عنها بتربية الحواس والقوة فكانت النتيجة باهرة

الاستقامة في الخط

تألفت في باريز جمعية من كبار العلماء والاطباء تدعو الناس الى تعليم اولادهم الخط وهم على وضعة مستقيمة في اجسامهم لان اعوجاج الجسم وانحناءه مضران بصحة الكاتبين وهم يرون ان يلاحظ الولد الذي يكتب وهو منحنٍ مستنداً على طرف واحد وذراعه اليسرى بعيدة وذراعه اليمنى قريبة ملصوقة بالجسد ورجله اليسرى موضوعة امام اليمنى . فبدلاً من ان يحمل ثقل الجسد على طرفي الانسان ينزل على الذراع وحق الفخذ الايسر واذ كانت سلسلة الظهر سريعة العطب في الطفل لا تلبث ان تخرج عن اتجاهها الافقي فتلتوي وتنحني ويصيب الفقرات التواء ويقع اليسار من الصدر على طرف المنضدة فيضغط على الرئتين فيتولد من ذلك تشويه في الاعضاء وقص الصدر . وبهذا الوضع المائل يضطر الرأس الى الانحناء الى اليسار والى الامام وتقترب العينان من الورق فيضعف البصر . فالخط باحناء الجسم يورث انحراف سلسلة الفقار والحسر (ضعف البصر) . اما الخط بجعل الجسم مستقيماً والورق امام الكاتب مستقيماً فتستقيم به بالطبع وضعة الجسم والرأس وسلسلة الفقار ولا ينشأ عن ذلك ضيق ولا انحراف ولا عائق يضر بالصدر . وقد كاد هذا الرأي يعم الاساتذة والتجار والصناع ولذلك قامت هذه الجمعية تدعو الى تعليم الكتابة والاجسام مستقيمة . والاستقامة شرط في كل شيء لا في الكتابة فقط

فائدة الدموع

ادعى احد الاطباء ان ارسال العبرات مفيد لصحة الباكي فكتب احد مشاهيرهم مقالة في تأييد رأي صاحبه قال فيها : ان الدموع تجري في حالتين متناقضتين الحزن الشديد والفرح العظيم ففي الحزن يصحبها صراخ وعويل وفي السرور يشفعها ضحك وقهقهة واذا نظرنا في طبيعة الانسان الضاحك وطبيعة الباكي يتجلى لنا كيف يضحك ويبكي من محل واحد . ليس الضحك الشديد من حيث النظر الفسيولوجي الا تأثيراً وجهداً ففي حالتي الجهد والضحك تنقبض الاعصاب فتطبق فتحة الحنجرة ثم تخفض الحجاب الحاجز وتقف حركة الاعصاب التي يكون من تحركها تحريك الترقوة ثم يزيد الضحك كثيراً فنستعين بتحريك اعصاب اخرى فننثني سوقنا وافخاذنا وننكث بارجلنا الارض

ويتخلل التنفس شيء من الوقوف ولكنه لا يزيل حالة الاغماء التي تحدث في الضاحك ويكفيك ان تنظر الى عروق جبهته كيف تنتفخ والى شفتيه كيف تكلح والى وجهه كيف يحمر لتدرك الانقباض الشديد الذي يصيب دماغه وعند ما تنقبض الاوداج الخارجة

بكثرة الضحك وينقلب الدم من الودج الاصلي الى الودج الداخلي ويتراكم على الدماغ فيطفح هذا بالدم الذي لا يجري بما يحول دونه ودون التنفس وينفجر بما يدفق الدم الشرياني الواصل اليه وبواسطة عصب البصر الواقع بين الودجين يتجه الدم نحو الدماغ من جهة العيون ويحقن المتحمات والغدد الدمعية وعندها تفيض الدموع بتواتر الدم على تلك الصورة بمعنى ان الغدد الدمعية تحيل الدم الذي ينهال عليها الى دموع لان تركيب الدموع كتركيب الجزء السائل من الدمع . وفي تلك الحال يؤثر جريان الدمع في الدماغ المحتقن على صورة فصد ابيض يفصل دماغ الضاحك الذي يوشك ان يغمى عليه بما يتواتر اليه من الدم . والدموع نافعة في حالة الحزن ولكن عملها في تلك الحالة مخالف لعملها في حالة السرور فان كان الدماغ يحتقن في حالة الضحك فانه يقل دمه في حالة الحزن فجريان الدموع على صورة فصد لا يزيد الدم الا فقرًا في المراكز العصبية ولكن هذا الفقر في الدم ينتج ضربًا من ضروب السبات في الدماغ ونوعًا من الكسل الطبيعي وقلة المبالاة والاحساس في الدماغ فيقل بذلك التأثر من المصاب او الالم . وقلة الاحساس هذه في تخفيف ما اصاب المرء اشبه بمخدر صناعي كالكلوروفورم والاثير والالكحول فيضيع الحزن في العبرات كما يضيع في الالكحول . ومن العجيب ان التقطيب الذي نقطبه عند ما نبكي يحدث من انقباض الاعصاب الذي تفعل فعلها في الغدد الدمعية والشرايين البصرية وجميع اعصاب الجفون والاهداب وغيرها اذا انقبضت تؤثر في الغدد الدمعية وهكذا كانت الدموع فرجًا للمحزون كما هي فرج للطفل وسلامة دماغه فهو لها نعم المخدر واحسن مداوٍ من الاضطرابات كما يرى في النساء ايضًا وهن لا يقللن عن الاطفال بتأثراتهن .

مكتبة الاسكندرية

لما ظهر « الكتاب » الذي تكلمنا عليه في فصلين ضافيين (صفحة ٣٧٦ و ٤٥٧) من مقتبس هذه السنة أعجبنا به وبما ظهر من انصاف مؤلفه في كلامه على حريق مكتبة الاسكندرية الذي نسبه بعضهم زورًا لامير المؤمنين عمر بن الخطاب فبادرنا الى كتابة كلمات للمؤلف العالم نشكر له حسن صنيعه فجاءنا منه الكتاب الآتي ننشره بحرفه تتمة لهذا المبحث الذي خبط فيه بعضهم تقليدًا وبعضهم تعصبًا قال حفظه الله :

Paris, le 14 Août 1908

Monsieur,

J'ai été très touché de votre lettre, des sentiments de sympathie que vous m'exprimez, et des éloges que vous voulez bien donner, dans cette lettre ainsi que dans votre revue, à mon ouvrage le Livre. Soyez bien persuadé que ces éloges sont pour moi la meilleure récompense de mon travail, et le plus précieux encouragement que je pusse recevoir.

L'erreur historique relative à Omar et à la bibliothèque d'Alexandrie, erreur qui a régné si longtemps, tend de plus en plus à disparaître. Je suis heureux, pour ma part, d'avoir eu occasion d'aider à combattre cette erreur, et d'attester, en donnant les preuves que j'ai pu recueillir, ce que je crois être la vérité.

Veuillez etc. Signé :
Albert Cim

وهذا تعريبه

باريز في ١٤ اغسطس (آب) ١٩٠٨

سيدي

كان لما اظهرتموه في كتابكم وابديتموه من عواطف ودكم موقع كبير من نفسي على نحو ما كان لما تفضلتم به عليَّ في رسالتكم ومجلتكم من الثناء على تأليفي « الكتاب » فثقوا كل الثقة من اني اعد هذا المديح احسن مكافأة على عملي واغلى باعث على التنشيط الذي انطالُ الى نَيله ·

لشد ما استحكم الوهم التاريخي زمنًا بشأن عمر ومكتبة الاسكندرية وها هو آخذ بالاضمحلال · اما انا فقد اغتبطت بما سنح لي من الفرصة فكنت من العاملين على مكافحة هذا الوهم واثبت بالبراهين التي وصلت يدي اليها ما اعتقدت انه هو الحقيقة ·

وتفضلوا الخ التوقيع
البر سيم

المقتبس

الجزء الثاني عشر من المجلد الثالث

ذي الحجه سنة ١٣٢٦ موافق يناير (كانون ثاني) سنة ١٩٠٩

الحافظة والحفاظ

اي نعمة ينالها المرء اعظم من ان تعي ذاكرته كل ما تريد وعيه وتدخره الى ساعة حاجة للانتفاع به . الحافظة من العوامل المؤثرة في ترقية الافراد والجماعات وبدونها يصعب الوصول الى ادراك الحقائق وتمحيصها لانا اذا لم نستعن في كل مطلب من مطالب الحياة بتجارب من سبقونا ونحفظ المأثور عنهم لننسج على منواله كنا اشبه بمن يريد ان يبني له كل يوم بناء وظلت العلوم والصناعات والآداب في طفولتها الاولى تجري على نظام مضطرب اذ يكون كل امرئ وما يختار

والذاكرة او الحافظة حاسة يحفظ بها الذهن على صورة دائمة أُمورًا مضت وتأثرات وقعت فهي بذلك كما قال مونتين الفيلسوف (١٥٣٣ — ١٥٩٢) وعاء العلم وصوان الحكمة . وقال لاروشفوكولد الكاتب (١٦١٥ — ١٦٨٠) جميع الناس يشكون من حافظتهم وما قط شكا احد من عقله . وقال آخر : ان الذكاء بدون حافظة اشد بغربال لا يكاد يمسك ما تضعه فيه . وقال احدهم : الحافظة واسطة من وسائط الكمال وبدونها لا يستطيع امرؤ ان يقلد شيئًا وينسج على منواله . وقال كورنيل الشاعر : يجب لمن يتعمد الكذب ان يكون ذا ذاكرة جيدة . وهذا مثل قولهم اذا كنت كذوبًا فكن ذكورًا . وقال بيكتته الاديب السويسري (١٧٩٩ — ١٨٧٥) : لقد كان للحافظة شأن مهم جدًا عند الناس في العصور الاولى اكثر مما صار لها في القرون اللاحقة . كانت الحافظة قبل اختراع الكتابة هي التي تتولى خاصة نقل التقاليد الوطنية والدينية وعامة القوانين والعادات والشعر ولذلك كانت هذه الحاسة التي قلما نحفل الآن بأمرها عند قدماء الآريين مشابهة للفكر نفسه

اختلفت مذاهب الفلاسفة فيما اذا كانت الحافظة حاسة قائمة بذاتها او فيما اذا كان لكل حاسة فينا ذاكرة معينة ومعظم الحكماء وعلماء النفس على ان الحافظة حاسة مستقلة عن بقية حواس الانسان ولا يكاد احد يدرك كيف تعي الحافظة الارقام والاعداد وتحفظ العبارات والمفردات وتُحكِم اللغات واللهجات وتردد الالحان والاصوات . ويقول علماء النفس ان الشروط النفسية اللازمة لجودة الذهن متوقفة على جودة تركيب انسجة الدماغ وحسن تغذية هذه الانسجة . والتعب والشيخوخة من العوامل المؤثرة في ضعف الحافظة لانهما ملازمان لضعف تغذية الانسجة ولذلك قالوا ان درجة الحافظة لا تختلف بحسب الاشخاص بل تختلف في الشخص الواحد في ادوار مختلفة من حياته واذا صرفنا النظر عن الآفات العضوية التي تضرُّبها فان هناك ايضاً احوالاً اقل منها تزيدها ضعفاً الى ضعفها مثل اضطرابات المعدة وسوء الهضم والشقيقة فان جميع هذه العوارض على الجسم تغيرها تغيراً محسوساً

ولتركيب الدماغ وحالته تأثير ظاهر في الحافظة فقد ذكر بلين الطبيعي الروماني ان رجلا نسي حتى رسائله بعدان أُصيب بشجة في رأسه . وزعم البابا كليمان السادس ان حافظته قويت قوة عجيبة عقب ان أُصيب برضة شديدة في دماغه . وكيفما كانت الحال فللتمرين يد طولى في تخصيص الحافظة بشيء معين فالممثلون تقوى فيهم الملكة الحافظة الشفاهية وهي من اللوازم لهم في صناعتهم ورجال الشرطة تقوى فيهم الحافظة في تذكر صور الاشخاص وليس البشر كلهم سواء في الحفظ والاستظهار فمنهم من يحفظون الاشكال الهندسية وهم الذين خلقوا رياضيين بالفطرة ومنهم من يرزقون حافظة قوية في الانغام كالموسيقيين . وغيرهم في غير ذلك . ومن الناس من يذكرون الكلمات بسرعة غريبة ومن الاطفال من تقرأ لهم بصوت عال عدة صفحات فيستظهرونها في الحال ويتلونها على مسامعك لاول مرة . وتذكر الالفاظ خاصة يمتاز بها الاولاد في العادة اكثر من الكبار في السن ممن لا تكون قويت فيهم حاسة التفكر فيحفظون الكلمات التي يسمعونها على ايسر وجه بدون ان يفهموها والسبب في سهولة الحفظ عليهم فقدان قوة التفكر فيهم وعند ما يبدأ التفكر في معظم الناس تضعف الحافظة فيهم وقد تزول من بعضهم . والحافظة الشفاهية اذا كانت هي وحدها في الانسان لا تكون له سبيلاً الى التفكر ومن فقد الاولى فلا يأسف لحاله لانه يستطيع بقوة التفكر ان يأتي بالجيد من الافكار ولكن الحافظة وحدها قد تكون من اكبر العوائق عن جودة التصور .

وبعد فان للحافظة شأناً عظيماً في ترقية الفكر الانساني وبدونها يكون كل شيء عقيماً لا ثمرة له لانها واسطة لبقاء الافكار التي صدرت واحسن ذريعة للحصول على افكار جديدة

ولم يعرف القانون الذي تسير عليه كما ان جوهرها لم يدرك الباحثون حقيقته وغاية ماعرف من امرها انها تقوى بالانتباه والتمرن كما تقدم وان الكسل ابن الترف والكسل يجرح الحافظة ان لم نقل يقتلها

ذكر التاريخ كثيرين من ارباب الحافظة النادرة فمنهم في القديم ميتريداتس الكبير ملك شمالي غربي آسيا الصغرى (١٢٣—٦٣ق٠م) فقد كان يحكم على اثنين وعشرين امة مختلفة و يخطب امام كل منها بلغتها و يدعو كل واحد من جنده باسمه ٠ وذكروا مثل ذلك عن قورش ملك الفرس وثيموستقلس وسيبيون الآسياوي والامبراطور ادريان و يقال ان مزية الحافظة هيأت لاوتون الروماني تولي الملك ٠ وتعلم ثيموستقلس اللغة الفارسية في سنة

وكان ليبس اللغوي الاديب البلجكي (١٥٤٧— ١٦٠٦) يحفظ تاريخ تاسيت المؤرخ اللاتيني بالفاظه حرفاً بحرف وقد قال انه يرضى ان يقف جلاد و بيده سيف على رأسه وهو يتلو هذا التاريخ فاذا اخل بحرف واحد يضرب عنقه

وكان لرينودي بون حافظة سعيدة يذكر جميع الابيات اللاتينية واليونانية التي قرأها في صباه و يتلو صفحات برمتها من ديوان هوميروس وان كان مضى عليه اربعون سنة وهو لم ينظر فيه نظرة واحدة ٠ وكان هوج دونو الفقيه المشهور في القرن السادس عشر يستظهر القوانين المعروفة في عصره بالحرف الواحد ٠ وحفظ يوسف سكاليجه الاديب (١٥٤٠ — ١٦٠٩) الالياذة والاوذيسية في احد وعشرين يوماً ٠ ومن الطف مايروى في باب الحافظة ان احد الفلاحين في فرنسا جاء الى باريز يقصد صاحباً قديماً له كان استلف منه خمسة فرنكات منذ خمس عشرة وطلب اليه ان ينقده ماله قبله فتركه صاحبه وعاد فدفع اليه ليرة واحدة وخمسة فرنكات وقال له : هذا يا صاح فقد كنت نلت وانا في المدرسة ليرة جائزة عن حافظتي فرأيتك احدّ مني ذاكرة وانك احق بهذه الجائزة مني

***

ليس في الدنيا خير محض فقد اخترعت الطباعة منذ نحو خمسمائة سنة فعم نفعها اهل الارض كافة ولكن ما عمت ان نتج عنها بعض شر اذ اصبح الناس يعتمدون على الكتب في جماع علومهم وآدابهم بعد ان كان جل اعتمادهم على محفوظاتهم ومخطوطاتهم ٠ والغالب ان الاعتماد على الحافظة والحفاظ كان في الاسلام على اشده قبل تدوين الكتب وتأليف الرسائل والمصنفات ولما بلغ بعض الائمة تدوين الكتب اسفوا وعدوه من دواعي تقهقر العلم وانقطاع سند الرواية وما زالت الحال ترتقي بعض الشيء في بعض الاعوام ثم يزهد في الحفظ حتى انتشرت الطباعة في بلادنا بانتشار الصناعات الفكرية فامسى الناس يستندون

الى السطور بدل الصدور والقراطيس والاسفار بدل الحفظ والاستظهار · فضعفت بهذا الضعف الحافظة وان قويت المفكرة وقلت الرواية وان لم تقل الدراية ·

انقطع سند الحفظ الا في بعض ما لا يسع الامة جهله من القرآن وعلومه فاخذ بعضهم يفتاتون على من عُرفوا قديماً بسعة محفوظهم و يزيفون ولكن بدون برهان ما رواه طائفة الراوين من ابناء الاذكياء الحافظين · ولو صح الاعتماد على القاء الكلام على عواهنه في هذا الباب اذاً لسقط التاريخ وارتفعت الثقة من كل خبر حتى من مجيء الرسل وحروب الملوك ودثور الشعوب والمدن ومااليها · وما اشبه من يكذب باديء الرأي بلا دليل قاطع بمن يؤثر الهدم على البناء · وشتان بين المخرب والمعمر والمتلف والمخلف والمفسد والمصلح ·

ما عُنيت امة بتدوين دينها وحفظه ولغتها وضوابطها عناية المسلمين بدينهم ولغتهم فكان من امر حفظة الكتاب العزيز ما اشتهر في كل مصر وعصر ولا يزال في البلاد اثر من آثار تلك العناية · اماالاحاديث فقد عُنوا بها قديماً وجمعوا اشتاتها و بينوا صالحها من موضوعها وضعيفها من قويها مما يدركه كل من كان له المام بالمراجعة ونظر في كتب القوم·

لم يكن العلم في القرون الاولى للاسلام بالارث ولا بالمظاهر ولا بالوساطات والشفاعات بل كان بالاستحقاق وكد القرائح سير على قوانين بقيود و روابط ولذلك لم يكن ينال لقب حافظ من لم يحفظ ألوفاً من الاحاديث باسانيدها (١) فقد كانوا يطلقون اسم المسند على من يروي الحديث باسناده سواء كان عنده علم به او ليس له الا مجرد رواية و يطلقون اسم المحدث على من كان ارفع منه والعالم على من يعلم المتن والاسناد جميعاً والفقيه على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد والحافظ على من يعرف الاسناد ولا يعرف المتن والراوي على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد · وكان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى· والمحدث من عرف الاسانيد والعلل واسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند احمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني وضم الى هذا القدر الف جزء من الاجزاء الحديثة هذا اقل درجاته فاذا سمع ماذكر وكتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في اول درجات المحدثين ·وكان السلف يستمعون فيقرؤن فيرحلون فيفسرون و يحفظون فيعملون قال بعضهم

ان الذي يروي ولكنه ... يجهل ما يروي وما يكتب
كصخرة تنبع امواهها ... تسقي الاراضي وهي لا تشرب

سأل تقي الدين السبكي الحافظ جمال الدين المزي عن حد الحفظ الذي اذا انتهى اليه

(١) تدريب الراوي شرح تقريب النواوي

الرجل جاز له ان يطلق عليه الحافظ قال : يرجع الى اهل العرف فقلت واين اهل العرف قليل جداً قال : اقلّ ما يكون ان يكون الرجال الذين يعرفهم و يعرف تراجمهم واحوالهم و بلدانهم اكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب فقلت له : هذا عزيز في هذا الزمان ادركت انت احداً كذلك فقال : ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدمياطي ثم قال : وابن دقيق العيد كان له في هذا مشاركة جيدة . قال فتح الدين بن سيد الناس واما المحدث في عصرنا فهو من اشتغل بالحديث رواية ودراية وجمع رواة واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه فان توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من علل طبقته اكثر مما يجهله منها فهذا هو الحافظ واما ما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم كنا لا نعد صاحب حديث من لم يكتب عشرين الف حديث في الاملاء فذلك بحسب ازمنتهم .

وقال ابو زرعة الرازي : كان احمد بن حنبل يحفظ الف الف حديث قيل له وما يدريك قال : ذاكرته فاخذت عليه الابواب . وقال البخاري : احفظ مائة الف حديث صحيح ومائتي الف حديث غير صحيح . وقال الحاكم في المدخل : كان الواحد من الحفاظ يحفظ خمسمائة الف حديث سمعت اباجعفر الرازي يقول سمعت اباعبدالله بن وارة يقول كنت عنداسحق ابن ابراهيم بنيسابور فقال رجل من اهل العراق : سمعت احمد بن حنبل يقول صح من الحديث سبعمائة الف وكسر وهذا الفتى يعني ابا زرعة قد حفظ سبعمائة الف حديث . قال البيهقي : اراد ما صح من الاحاديث واقاويل الصحابة والتابعين وقال غيره : سئل ابو زرعة عن رجل حلف بالطلاق ان ابازرعة يحفظ مائتي الف حديث هل يحنث قال لا . ثم قال احفظ مائة الف حديث كما يحفظ الانسان سورة قل هو الله احد وفي المذاكرة ثلثمائة الف حديث وقال ابو بكر محمد بن عمر الرازي الحافظ : كان ابو زرعة يحفظ سبعمائة الف حديث وكان يحفظ مائة واربعين الفاً في التفسير والقرآن . وكان اسحق بن راهويه يملي سبعين الف حديث حفظاً واسند ابن عدي عن ابن شبرمة عن الشعبي قال : ما كتبت سواداً في بيضاء الى يومي هذا ولا حدثني رجل بحديث قط الا حفظته فحدثت بهذا الحديث اسحق بن راهويه فقال : تعجب من هذا قلت : نعم قال : ما كنت لاسمع شيئاً الا حفظته وكأني انظر الى سبعين الف حديث او قال اكثر من سبعين الف حديث في كتبي . واسند عن ابي داود الخفاف قال : سمعت اسحق ابن راهويه يقول : كأني انظر الى مائة الف حديث في كتبي وثلاثين الفاً اسردها . واسند الخطيب عن محمد بن يحيى بن خالد قال : سمعت اسحق بن راهويه يقول : اعرف

مكان مائة الف حديث كأني انظر اليها واحفظ سبعين الف حديث عن ظهر قلبي واحفظ اربعة آلاف حديث ضرورة وقال عبدالله بن احمد بن حنبل قال ابي لداود بن عمرو الضبي وانا اسمع : كان يحدثكم اسماعيل بن عباس هذه الاحاديث بحفظه قال : نعم مارأيت معه كتاباً قط قال له : لقد كان حافظاً كم كان يحفظ قال شيئاً كثيراً قال : اكان يحفظ عشرة آلاف قال عشرة آلاف وعشرة آلاف وعشرة آلاف فقد كان ابي هذا كان مثل وكيع . وقال يزيد بن هرون احفظ خمسة وعشرين الف حديث وقال الآجري : كان عبدالله بن معاذ العنبري يحفظ عشرة آلاف حديث

قال السبكي لم تر عيناي احفظ من أبي الحجاج المزي وابي عبدالله الذهبي والوالد وغالب ظني ان المزى يفوقهما في العلل والمتون والجرح والتعديل مع مشاركة كل منهم لصاحبه فيما يتميز به عليه المشاركة البالغة سمعت شيخنا الذهبي يقول: مارأيت أحداً في هذا الشأن احفظ من الامام ابي الحجاج المزي وبلغني عنه انه قال مارأيت احفظ من اربعة : ابن دقيق العيد والدمياطي وابن تيمية والمزي فالاول اعرفهم بالعلل وفقه الحديث والثاني بالانساب والثالث بالمتون والرابع باسماء الرجال . وكان الدمياطي يقول: مارأى شيخنا احفظ من زكي الدين عبد العظيم وما رأى الزكي احفظ من ابي الحسن علي بن المفضل ولا رأى ابن المفضل احفظ من الحافظ عبد الغني ولا رأى عبد الغني احفظ من ابي موسى المديني الا ان يكون الحافظ ابا القاسم بن عساكر ولا رأى ابن عساكر والمديني احفظ من ابي القاسم اسماعيل بن محمد التيمي ولا رأى اسماعيل احفظ من ابي الفاضل محمد بن طاهر المقدسي ولا رأى ابن طاهر احفظ من ابي نصر بن ماكولا ولا رأى بن ماكولا احفظ من ابي بكر الخطيب ولا راي الخطيب احفظ من ابي نعيم وابو نعيم مارأي احفظ من الدارقطني وابي عبدالله بن منده ومعهما الحاكم وكان ابن منده يقول : مارأيت احفظ من ابي اسحاق بن حمزة الاصبهاني وقال ابن حمزة : مارأيت احفظ من ابي جعفر احمد بن يحيى بن زهير القشيري وقال: مارأيت احفظ من ابي زرعة الرازي واما الدارقطني فمارأى احفظ من نفسه واما الحاكم فما رأى احفظ من الدارقطني بل وكان يقول الحاكم مارأيت احفظ من ابي علي النيسابوري ومن ابي بكر ابن الجعابي وما رأى الثلاثة احفظ من ابي العباس بن عقدة ولا رأى ابو علي النيسابوري مثل النسائي ولا رأى النسائي مثل اسحاق بن راهويه ولا رأى ابو زرعة احفظ من ابي بكر بن ابي شيبة وما رأى ابو علي النيسابوري مثل ابن خزيمة وما رأى ابن خزيمة مثل ابي عبدالله البخاري ولا رأى البخاري فيما ذكر مثل علي بن المديني ولا رأى ايضاً ابو زرعة والبخاري وابو حاتم وابو داود مثل احمد بن حنبل ولا مثل يحيى بن معين وابن راهويه ولا

رأى احمد ورفاقه مثل يحيى بن سعيد القطان ولا رأى هو مثل سفيان ومالك وشعبة ولا رأوا مثل ايوب السختياني نعم ولا رأى مالك مثل الزهري ولا رأى الزهري مثل ابن المسيب ولا رأى ابن المسيب احفظ من ابي هريرة ولا رأى ايوب مثل ابن سيرين ولا رأى مثل ابي هريرة نعم ولا رأى الثوري مثل منصور ولا رأى منصور مثل ابراهيم ولا رأى ابراهيم مثل علقمة ولا رأى علقمة كابن مسعود

هذا كان مبلغ القوم في حفظ الحديث وروايته على كثرة المتشابه فيه وتوفر الاسانيد والرواة بحيث لو اراد احد لهذا العهد ان يحفظ شيئاً مما كانوا يحفظونه لاختار استظهار اللغة الصينية واستسلها اكثر وذلك لضعف الحافظة من هذا المعنى وانقطاع سند هـذه العلوم الجليلة الا قليلا

كان الحافظ ابو عامر محمد بن سعدون من اعيان حفاظ الاسلام قال ابن عساكر انه احفظ شيخ لقيه وشيوخ ابن عساكر زهاء الف ومائتي شيخ وكان الفقيه اعلم الدين القمني يحفظ ما يسمعه من مرة واحدة . وكان الشافعي من احفظ اهل دهره قضى عشرين سنة في تعلم الادب والتاريخ وقال مااردت بهذا الا الاستعانة على الفقه ويروى انه نظر في كتاب لابي حنيفة فما كان من الغد الا ان غدا راوياً له مستظهراً اياه بجملته . وابن دريد صاحب المقصورة من علماء اللغة كان آية من آيات الله في اتساع صدره للرواية تقرأ عليه دواوين العرب فيسارع الى املائها من محفوظه

وقيل ان احمد بن حنبل امام المحدثين كان يحفظ الف الف حديث . قال سعيد بن جبير من اعلام التابعين قرأت القرآن في ركعة في البيت الحرام وقال اسمعيل بن عبدالملك كان سعيد بن جبير يؤمنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبدالله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت وليلة بقراءة غيره هكذا ابداً ولا عجب وهو الذي قال فيه احمد بن حنبل قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الارض احد الا وهو مفتقر الى علمه

وكان علي الرازي يقول من فهم هذا الكتاب (يعني الجامع الصغير لمحمد) فهو من اصحابنا ومن حفظه كان احفظ اصحابنا وان المتقدمين من مشايخنا كانوا لا يقلدون احداً القضاء حتى يمتحنوه فان حفظه قلدوه القضاء والا امروه بالحفظ . وذكر صاحب نفح الطيب انه كان خارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه مقلس تكون الفتيا في الاحكام والشرائع له وكان لا يجعل القالص منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث والمدونة

كان بديع الزمان الهمذاني يحفظ خمسين بيتاً بسماع واحد ويؤديها من اولها الى

آخرها و ينظر في كتاب نظرًا خفيفًا ويحفظ اوراقًا و يؤديها من اولها الى آخرها و ينظر في الاربعة والخمسة الاوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذًا و يسردها سردًا وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها · وكان ابو رياش احمد بن ابراهيم من رواة الادب يحفظ خمسة آلاف ورقة لغة وعشرين الف بيت شعر الا ان ابامحمد المافروخي برّز عليه لانهما اجتمعا اول ما تشاهدا بالبصرة فتذاكرا اشعار الجاهلية وكان ابومحمد يذكر القصيدة فيأتي ابو رياش على عيونها فيقول ابومحمد الا ان تهذها من اولها الى آخرها فينشد معه و يتناشدان الى آخرها ثم اتى ابومحمد بعدة بقصائد لم يتمكن ابو رياش ان يأتي بها الى آخرها وفعل ذلك في اكثر من مائة قصيدة حدثني بذلك من حضر ذلك المجلس معهما — قاله ياقوت في معجم الادباء ·

وكان الحفظ في كل فن شائعًا بين اهل الادب وطلاب العلم على اختلاف ضروبه عند العرب على نحو ما يتضح من تصفح سير رجالهم ولولم يكن استناد المؤلفين في الاغلب الاعلى ما في لوح محفوظهم لما تيسر لهم ان يؤلف احدهم عشرات من المجلدات يعجز العالم اليوم عن نسخها بل عن تصفحها

فقد كان العرب قبل البعثة يروون قصائد شعرائهم واغاني حداتهم كما يؤخذ من اجتماعاتهم في سوق عكاظ و مربد البصرة ولم تكن بضاعتهم من ذلك كثيرة لان امراء الكلام لم ينبغوا الا في الاسلام بظهور نور النبوة وفصاحة الكتاب العزيز · ولقد كان الراوية والنسابة ينشد عشرات بل مئات من القصائد كما يحفظ احدنا لهذا العهد الابيات القليلة غير متلعثم ولا متردد · خذ مثالاً لذلك حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٥ فقد كان على قلة بضاعته من العربية يروي المئات من القصائد للجاهليين والمخضرمين كما يروي فاتحة الكتاب و يذكر اشعار العرب وايامهم وانسابهم ولغاتهم كأنه يروي قصة وكان ملوك بني امية يرجعون اليه في هذا المعنى و يحلونه منزلة عالية من التجلة والاكرام روى الوليد ابن يزيد الاموي قال له يومًا وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية فقال : بأني اروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين او سمعت به ثم اروي لاكثر منهم ممن تعترف انك لا تعرفه ولا سمعت به ثم لا ينشدني احد شعرًا قديمًا ولا محدثًا الاميزت القديم من المحدث فقال : ثم فكم مقدار ما تحفظ من الشعر قال : كثير ولكني انشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام قال سامتحنك في هذا ثم امره بالانشاد فانشد حتى ضجر الوليد ثم وكل به من استحلفه ان يصدقه عنه و يستوفي عليه فانشده الفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك فامر له بمائة الف درهم ونوادره كثيرة

وكان الاصمعي المتوفى سنة ٢١٧ او قبلها صاحب لغة ونحو واماماً في اخبار العرب وملحهم وغرائبهم قال عمر بن شبة : سمعت الاصمعي يقول : احفظ ستة عشر الف أُرجوزة وقال اسحق الموصلي : لم ار الاصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون احداً اعلم به منه وحضر يوماً عند الفضل بن الربيع هو وابوعبيدة معمر بن المثنى فقال له : كم كتابك في الخيل فقال الاصمعي مجلد واحد فسأل اباعبيدة عن كتابه فقال: خمسون مجلدة فقال له: قم الى هذا الفرس وامسك عضواً عضواً منه وسمه فقال : لست بيطاراً وانما هذا شيء اخذته عن العرب فقال للاصمعي: قم وافعل انت ذلك فقام الاصمعي وامسك ناصيته وشرع يذكر عضواً عضواً و يضع يديه عليه وانشد ما قالت العرب فيه الى ان فرغ منه قال: ابوحمدون الطيب بن اسماعيل شهدت ابن ابي العتاهية وقد كتب عن ابي محمد اليزيدي قريباً من الف جلد عن ابي عمرو بن العلاء خاصة ويكون ذلك نحو عشرة آلاف ورقة لان تقدير الجلد عشر ورقات ·

قال ابونواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهم الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال · قلت ولذلك جاء شعر ابي نواس احسن شعر المولدين كما شهد له بذلك اصحاب الشأن في هذه الصناعة وفي مقدمتهم الجاحظ الذي فضل شعره على شعر العرب العرباء قال اسمعيل بن نوبخت: ما رأيت قط اوسع علماً من ابي نواس ولا احفظ منه مع قلة كتبه، ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا له الا قمطراً فيه جزاز مشتمل على غريب ونحو

قال ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب دخل ابوعمرو اسحق بن مراد الشيباني البادية ومعه دستيجتان من حبر فما خرج حتى افناهما بكتب سماعه عن العرب وكان ابوعمرو عالماً بايام العرب جامعاً لاشعارها و يروي عن عمرو بن ابي عمرو قال: لما جمع ابي اشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة وكان كلما عمل منها قبيلة واخرجها الى الناس كتب مصحفاً بخطه ويحكى انه اخذ عن المفضل الضبي ودواوين العرب وسمعها منه ابوحيان وابنه عمرو بن ابي عمرو وحكى ابوالعباس قال كان مع ابي عمرو الشيباني من العلم والسماع اضعاف ما كان مع ابي عبيدة ولم يكن من اهل البصرة مثل ابي عبيدة في السماع والعلم قال سلمة: املى الفراء كتبه كلها حفظاً لم يأخذ بيده نسخة الا في كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار الكتابين خمسين ورقة · ويقال ان الاصمعي كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل يحفظ نصف اللغة وكان ابو فيد يحفظ الثلثين وكان ابو مالك يحفظ اللغة كلها وكان الغالب على ابي مالك حفظ الغريب والنوادر · وكان ابن الاعرابي احفظ الناس للغات والايام والانساب وقال ابوالعباس احمد بن يحيى ثعلب : قال لي ابن الاعرابي : امليت قبل ان تجيئني يا احمد حمل جمل وقال ثعلب : انتهى علم اللغة والحفظ الى ابن الاعرابي وقال

ثعلب : سمعت ابن الاعرابي يقول في كلمة رواها الاصمعي سمعت من الف اعرابي خلاف ما قاله الاصمعي ·

وكان قتادة عالماً نحريرا واجمع الناس في اشعار العرب وانسابهم قال ابوعبيدة: ما كنا نفقد في كل يوم راكباً من ناحية بني امية ينيخ على باب قتادة فيسأله عن خبر او نسب او شعر وكان من انسب الناس · وكان ابن الكلبي النسابة واسع الرواية ومن اعلم الناس بالنسب وكان من الحفاظ المشاهير قال : حفظت ما لم يحفظه احد ونسيت مالم ينسه احد كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن فدخلت بيتاً وحلفت ان لا اخرج منه حتى احفظ القرآن فحفظته في ثلاثة ايام وتصانيفه تزيد على مائة وخمسين تصنيفاً وتوفي سنة ٢٠٤

وكان ابو عبيدة معمر بن المثنى من اعلم الناس بايام العرب واخبارهم واشعارهم قال الجاحظ : لم يكن في الارض خارجي ولا جماعي اعلم بجميع العلوم منه ومع انه كان يلحن ويخطىء اذا قرأ القرآن واذا انشد بيتاً لا يقيم وزنه واذا تحدث او قرأ لحن اعتماداً امنه لذلك فقد صنف قرابة مائة مصنف وكان يرى رأي الخوارج ولذلك كثر الطاعنون في نسبه ومشربه ومذهبه وتوفي سنة ٢٠٩

كان ابوالمحاسن الرُّوياني المتوفى سنة ٥٠٢ من رؤوس الافاضل في ايامه يقول لو احترقت كتب الشافعي لامليتها من خاطري · وقال ابو بكر النحوي: لما قدم الحسن بن سهل العراق قال: احب ان اجمع قوماً من اهل الادب فاحضر اباعبيدة والاصمعي ونصر ابن علي الجهضمي وحضرت معهم وافضنا مرة في ذكر الحفاظ فذكرنا الزهري وقتادة ومررنا فالتفت ابو عبيدة فقال : ما الغرض ايها الامير في ذكر من مضى وبالحضرة ههنا من يقول ما قرأ كتاباً قط فاحتاج الى ان يعود فيه ولا دخل قلبه شيء فخرج عنه فالتفت الاصمعي وقال: انما يريدني بهذا القول ايها الامير والامر في ذلك على ما حكى وانا اقرب اليك قد نظر الامير فيما نظر فيه من الرقاع — وكان نظر قبل ان يلتفت اليهم في رقاع بين يديه للناس في حاجاتهم فوقع عليها فكانت خمسين رقعة — وانا اعيد مافيها وما وقع به الامير على رقعة رقعة قال فامر واحضرت الرقاع قال: الاصمعي سأل صاحب الرقعة الاولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر في نيف واربعين رقعة فالتفت اليه نصر بن علي فقال: ايها الرجل ابقِ على نفسك من العين فكف الاصمعي ·

ومالي وتعداد الاسماء على هذا النحو فكتب القوم طافحة بها وانما يكفي منها التمثيل والقليل يغني · ولقائل ان هذا القدر من الحفظ كان بعضه شائعاً في القرنين الاولين والقرون الثلاثة وقد بالغ فيه الرواة حتى اتصل بنا على هذه الصورة وما حجتي في نقض هذا الاوقوع

امثال امثاله في كتب اهل القرون المتأخرة مما تواطأ الثقات على نقله وتحرزوا في اثباته .
ولقد كان الغرب في هذه المزية كالشرق اذ قد حذا المغاربة في حضارتهم وعلومهم حذو المشارقة . فقد كان ابن عبدون احد فحول شعراء الاندلس وكتابها مستكثرًا من الحفظ قال الوزير ابو بكر بن زهر : بينا انا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل شيخ امرته ان يكتب لي كتاب الاغاني لجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت له : أين الاصل الذي كتبت عنه لاقابل معك به قال : ما اتيت به معي فبينا انا معه في ذلك اذ دخل رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة اكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير اتقان وقال لي : يابني استأذن لي على الوزير ابي مروان فقلت له : هو نائم . هذا بعد ان تكلفت جوابه غاية التكلف حملتني على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكت عني ساعة وقال : ماهذا الكتاب الذي بايديكما فقلت له : ما سؤالك عنه فقال : احب ان اعرف اسمه فاني كنت اعرف اسماء الكتب فقلت : هو كتاب الاغاني فقال : الى اين بلغ الكاتب منه قلت : بلغ موضع كذا وجعلت اتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه فقال : وما لكاتبك لا يكتب قلت : طلبت منه الاصل الذي يكتب منه لاعارض به هذه الاوراق فقال : لم اجيء به معي فقال : يابني خذ كراريسك وعارض قلت : بماذا وأين الاصل قال : كنت احفظ هذا الكتاب في مدة صباي قال : فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمي قال يابني امسك علي قال : فامسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان اخطأ واوًا ولا فاء قرأ هكذا نحوًا من كراسين ثم اخذت له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء فاشتد عجبي وقمت مسرعًا حتى دخلت على ابي فاخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان ملتفًا برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفق على نفسه وانا بين يديه ويقول : يامولاي اعذرني فوالله ما اعلمني هذا الخلف الا الساعة وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول : ماعرفني وابي يقول : هبه ماعرفك فما عذره في حسن الادب . ثم ادخله الدار واكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلاً ثم خرج الرجل وابي بين يديه حافيًا حتى بلغ الباب وامر بدابته التي يركبها فاسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع اليه ابدًا فلما انفصل قلت لابي : من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم قال لي : اسكت ويحك هذا اديب الاندلس وامامها وسيدها في علم الآداب هذا ابو محمد عبد المجيد بن عبدون ايسر محفوظاته كتاب الاغاني — رواه المراكشي

وروى أيضًا قصة تشبهها قال انه لزم ابا جعفر الحميري آخر من انتهى اليه علم الآداب بالاندلس المتوفى سنة ٦١٠ نحوًا من سنتين فما رأيت اروى للشعر قديم ولا حديث ولا

اذ كر بحكاية تتعلق بادب او مثل سائر او بيت نادر او سجعة مستحسنة منه ادرك جلة من مشايخ الاندلس فاخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب واعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وافراط شغفه بالعلم قال لي ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر ابي الطيب قرئت عليّ او اكثرها فالفيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من اصل صحيح وتحرزت في نقلها فقال لي: مايمكن ان يكون في الدنيا اصل اصح من الاصل الذي كتبت منه فقلت له : اين وجدته قال: هو موجود الآن بين ايدينا وعندنا وكنا في المسجد في زاوية فقلت له: اين هو فقال لي: عن يمينك فعلمت انه يريد الشيخ فقلت: ماعلى يميني الا الاستاذ فقال لي: هو اصلي و باملائه كتبت كان يملي عليّ من حفظه فجعلت اتعجب فسمع الاستاذ حديثنا فالتفت الينا وقال : فيم انتما فاخبره ولده الخبر فلما رأى تعجبي قال: بعيداً ان تفلحوا يعجب احدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد ادركت اقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً

ومن نظر فيما أُثر عن الاندلسيين وحدهم من هذا القبيل يكتب اوراقاً كثيرة وكنت قرأت في الاستقصا ان من جملة من غرق مع السلطان ابي الحسن لما قصد المغرب في البحر باسطوله الغريق وكان مؤلفاً من نحو ستمائة قطعة مع من غرق من الفقهاء والعلماء والكتاب والاشراف ابو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي املى في مجلس درسه بمكناسة على حديث ياابا عمير مافعل النغير اربعمائة فائدة .

وقيل ان صدر الدين بن الوكيل و يعرف عند المصريين بابن المرجل من ائمة الشافعية حفظ المفصل فى مائة يوم و يوم والمقامات الحريرية في خمسين يوماً وديوان المتنبي على ماقيل في جمعة واحدة

وذكر المقريزي عن حكايات اهل الاندلس في الحفظ ان الاديب الاوحد حافظ اشبيلية بل الاندلس في عصره ابا المتوكل الهيثم بن احمد بن ابي غالب كان اعجوبة دهره في الرواية للاشعار والاخبار قال ابن سعيد : اخبرني من اثق به انه حضر معه ليلة عند احد رؤساء اشبيلية فجرى ذكر حفظه وكان ذلك في اول الليل فقال لهم: ان شئتم تخبروني اجبكم فقالوا له : بسم الله انا نريد ان نحدث عن تحقيق فقال اختاروا اي قافية شئتم لا اخرج عنها حتى تعجبوا فاختاروا القاف فابتدأ من اول الليل الى ان طلع الفجر وهو ينشد وزن (ارق على ارق ومثلي يأرق) وسماره قد نام بعض وضجر بعض وهو مافارق قافية القاف وقال ابو عمران بن سعيد: دخلت عليه يوماً بدار الاشراف باشبيلية وحوله ادباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرمة فمد الهيثم يده الى الديوان المذكور فمنعه منه احد الادباء

فقال: ياابا عمران اواجب ان يمنعه مني وما يحفظ منه بيتًا وانا احفظه فاكذبته الجماعة فقال اسمعوني · وامسكوه فابتدأ من اوله حتى قارب نصفه فاقسمنا عليه ان يكف وشهدنا له بالحفظ وكان آية في سرعة البديهة مشهورًا بذلك قال ابو الحسن ابن سعيد: عهدي به في اشبيلية يملي على احد الطلبة شعرًا وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجلا كل ذلك ارتجالاً ·

ل ابن خلكان: كان ابو الفرج الاصبهاني صاحب كتاب الاغاني يحفظ من الشعر والاغاني والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب مالم ار قط من يحفظ مثله ويحفظ دون ذلك من علوم اخرمنها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي ومن آلة المنادمة شيئًا كثيرًا مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والاشربة وغيرذلك· وذكر صاحب الصبح المنبي ان العلم الفرد في قوة الحافظة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما · ولقد شرط الملك المعظم عيسى لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة

قال ابو عمر الطلمنكي دخلت مرسية فتشبث بي اهلها يسمعون علي الغريب المصنف فقلت انظروا من يقرأ لكم وامسكت انا كتابي فأتوني برجل اعمى يعرف بابن سيده (وهوصاحب المخصص في اللغة الذي طبع مؤخرًا) فقرأه علي من اوله الى آخره فعجبت من حفظه · ولقدلازم ثعلب ابن الاعرابي فما رآه نظر في كتاب ·واخبار الاصمعي في الحفظ والرواية اشهر من ان تذكر وكذلك خلف الاحمر والكلبي وعبيد ودعبل · وكان ابو تمام لا يلحق في محفوظاته وقيل انه كان يحفظ اربعة عشر الف ارجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع · قال ابو الحسن محمد بن علي العلوي كان المتنبي يلازم الوراقين فاخبرني وزان كان يجلس اليه :قال مارأيت احفظ من هذا الفتى بن عبدان السقا (المتنبي) قلت له :كيف:قال اليوم كان عندي وقد احضر رجل كتابًا من كتب الاصمعي يكون نحوًا من ثلاثين ورقة ليبيعه فاخذه فنظر فيه طويلاً فقال له الرجل اريد بيعه وقدقطعتني عن ذلك فان كنت تريد حفظه فهذا يكون ان شاء الله تعالى بعد شهر قال فقال له ابن عبدان : فان كنت قد حفظته في هذه المدة فمالي عليك قال: اهب لك الكتاب قال: فاخذته من يده فاقبل يهذه علي الى آخره ثم استلمه فجعله في كمه وقام فتعلق به صاحبه طالبا بماله فقال ما الى ذلك سبيل وقد وهبته لي قال :فمنعناه منه وقلنا :انت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه · والامثلة كثيرة في هذا الباب والله اعلم ·

حماسة الخالديين (١)

الخالديان اخوان شقيقان من اهل القرن الثالث كتبا بعض المؤلفات ونسبت اليهما آداب وغرر ولم يكونا يفترقان في حال من الاحوال ولا نعرف في ادباء العرب شقيقين آخرين اتفقا على اخراج بنات افكارهما في مجلد واحد كما اتفقا على الخروج من بطن واحد الا اولئك الادباء الاخوة المشهورون عند الفرنسيس باسم كونكور و بول وفيكتور مارغريت و روسني (٢)

قال الثعالبي في اليتيمة : ابو بكر محمد وابوعثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان : ان هذان لساحران يغربان بما يجلبان و يبدعان فيما يصنفان وكان ما يجمعهما من اخوة الادب مثل ما ينظمهما من اخوة النسب فهما في الموافقة والمساعدة يحييان بروح واحدة و يشتركان في قرض الشعر و ينفردان ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان وكانا في التساوي والتشابك والتشاكل والتشارك كما قال ابوتمام

رضيعي لبان شريكي عنان عتيقي رهان حليفي صفاء

(١) النسخة التي اعتمدنا عليها استنسخها احمد بك تيمور من دار الكتب المصرية عن نسخة كتبها الحسين بن المصطفى الحلبي في رجب ١٠٨٤ و بلغت اوراق نسخة دار الكتب ١٥١ ورقة والورقة الاولى بخط جديد وفي رأينا ان نسخة الكتاب ليست قديمة الى هذا الحد

(٢) لكونكور Les Goncourt اخوان اسم الاول ادمون لويز انطوان والثاني جول الفرد هوو . ولد الاول سنة ١٨٢٢ ومات سنة ١٨٩٦ وولد الثاني سنة ١٨٣٠ ومات سنة ١٨٧٠ وقد أولعا بالادب وخدماه اجلّ خدمة واشتركا في تآليف لهما كثيرة منها القصص ومنها النقد ومنها الروايات التمثيلية ومما يؤثر عنهما ان المرء لا يحسن كتابة ما لم يره . ولهما مقام سام في عالم الآداب . وكان يختلف الى ادمون في منزله الذي سماه « الانبار » في نزل اوتيل جماعة من اهل الادب امثاله وفي هذا الانبار نشأ له فكر بتأسيس مجمع علمي حر ينفق عليه من ماله و يكون مؤلفاً من عشرة اعضاء وعين ثمانية منهم وخصص لكل واحد دخلاً سنوياً قدره ستة آلاف فرنك اي ٢٤٠ جنيه في السنة . اما بول وفيكتور مارغريت Paul et Victor Marguerite فهما اخوان من معاصرينا من اهل الادب ولد الاول سنة ١٨٦٠ والثاني سنة ١٨٦٧ ولهما تآليف كثيرة في الادب و يؤازران في جرائد فرنسا المهمة و يوقعان على كتابتهما بتوقيع واحد . و روسني Rosny اسم اخوين ايضاً هما يوسف هنري اونوري وجوستين بوريكس من كتاب القصص المعاصرين كذلك

بل كما قال البحتري

كالفرقدين اذا تأمل ناظر لم يعلُ موضع فرقد عن فرقد

بل كما قال ابواسحق الصابي فيهما

اری الشاعرين الخالديين سيرا قصائد يفنى الدهر وهي تخلد
جواهر من ابكار لفظ وعونه يقصر عنها راجز ومقصد
تنازع قوم فيهما وتناقضوا ومر جدال بينهم يتردد
فطائفة قالت سعيد مقدم وطائفة قالت لهم بل محمد
وصاروا الى حكمي فاصلحت بينهم وما قلت الا بالتي هي ارشد
هما في اجتماع الفضل زوج مؤلف ومعناهما من حيث يثبت مفرد
كذا فرقدا الظلماء لما تشاكلا علاً اشكلا هل ذاك ام ذاك امجد
فزوجهما ما مثله في اتفاقه وفردهما بين الكواكب اوحد
فقاموا على صلح وقال جميعهم رضينا وساوى فرقد الارض فرقد

وما اعدل هذه الحكومة من ابي اسحق فما منهما الا محسن ينظم في سلك الابداع مافاق وراق ويكاثر بمحاسنه وبدائعه الافراد من شعراء الشام والعراق وقد ذكرت ما شجر بينهما وبين السري في شأن المصالتة والمسارقة وما اقدم عليه السري من دس احسن اشعارهما في شعر كشاجم وكان افاضل الشام والعراق اذ ذاك فرقتين احداهما وهي في شق الرجحان تتعصب عليه لها لفضل مارزقاه من قلوب الملوك والاكابر والاخرى تتعصب له عليهما . ثم اورد صاحب اليتيمة من اشعارهما ما هو السحر الحلال وما اتفق لهما من التوارد مع السري او التسارق في زهاء عشرين صفحة . وقد ظفرنا للخالديين بكتابهما الحماسة او الاشباه والنظائر فرأيناه جمع فاوعى من شعر الجاهليين واشتشهد عليه بما اخذه عنهم المولدون او زادوه عليهم من المعاني والتصورات قالا في مقدمته :

الحمد لله بلا كيفية تقع بها الاحاطة عليه والازلي بلا وقت تنسب الصفات اليه حمداً يورد من جليل نعمه وجزيل قسمه مشرباً عذباً ومسحباً رحباً وصلى الله على سيدنا محمد ما اورق شجر واينع ثمر وعلى الطاهرين من عترته وسلم تسليماً وبعد فسح الله لنا في مدتك ووفقنا لما نؤثره من خدمتك فانا رأيناك باشعار المحدثين كلفا وعن القدماء والمخضرمين منحرفاً . وهذان الشريجان هما اللذان فتحا للمحدثين باب المعاني فدخلوه ونهجوا لهم طريق الابداع للمعاني فسلكوه اما سمعت زاد الله قدرك علواً ورفعة وسمواً قول الشاعر

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة اليها شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

ومن امثالهم السائرة ما ترك الاول للآخر شيئًا الا ان ابا تمام لم يرض بهذا المثل حتى قال يصف قصيدة له .

لا زلت من شكري في حلة لابسها ذو سلب فاخر
يقول من تقرع اسماعه كم ترك الاول للآخر

ومن المعنى الاول قول عنترة هل غادر الشعراء من متردم اي ما تركوا كلامًا لمتكلم فاذا كان عنترة وهو في الجاهلية الجهلاء ومالهم من فصاحة الفصحاء يقول مثل هذا القول فما ظنك بهذا العصر وقبله بمائتي سنة فلسنا بقولنا هذا ايدك الله نطعن على المحدثين ولا نبخسهم تجويدهم ولطف تدقيقهم وطريف معانيهم واصابة تشبيهم وصحة استعاراتهم الا انا نعلم ان الاوائل من الشعراء رسموا رسومًا تبعها من بعدهم وعول عليها من قفا اثرهم وقلّ شعر من اشعارهم يخلو من معان صحيحة والفاظ فصيحة وتشبيهات مصيبة واستعارات عجيبة ونحن اطال الله في العز بقاك وكبت بالذل اعداك نضمن رسالتنا هذه مختار ما وقع الينا من اشعار الجاهلية ومن تبعهم من المخضرمين ونجتنب اشعار المشاهير لكثرتها في ايدي الناس ولا نذكر منها الا الشيء اليسير ولا نخليها من غرر ما رويناه للمحدثين ونذكر اشياء من النظائر اذا وردت والاجازات اذا عنت ونتكلم على المعاني المخترعة ولا نجمع نظائر البيت والمتبعة في مكان واحد ولا المعنى المسروق في موضع بل نجمل ذلك في موضع ذكره وان كنا نعلم انك ادام الله تأييدك اعلم بما نحمله اليك ونعرضه منا عليك ومن اين لنا قرائح تنتج مالا تزال تريناه وتسألنا عنه من دقيق المعاني فطرائف السرقات ولقد اتى لك ايدك الله في بيتي ابي تمام والبحتري على غموض المعنى وبعده في النوعين من دقة النظر ولطيف الفكر ما لا يتوهم انه يطرد لسواك ولا يعن لغيرك وهو انك ايد الله عزك قلت لنا من اين اخذ البحتري قوله

ركبنا القنا من بعد ما حملا القنا في عسكر متحامل في عسكر

فلم يكن عندنا فيه شيء غير الاستحسان والتقريظ فعرفتنا ايدك الله انه مأخوذ من قول ابي تمام

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

ولا نعرف في النظر ادق من هذا ولا الطف الا انا نوفي الخدمة حقها بما نتكلفه من الاختيار والكلام على ما ذكرناه وبالله التوفيق

هذه هي المقدمة ومنها نفهم الغرض وتدرك صعوبة ما سلكه المؤلفان وما يحتاج اليه

هذا البحث من بعد النظر وسعة الاطلاع ولقد نتصفح الصفحات الكثيرة من هذا الكتاب فنقرأ فيها اشعاراً لم تكن معهودة لنا لقلة ما طبع من شعر العرب العرباء قالا بعد المقدمة قال المهلهل بن ربيعة

بكره قلوبنا يا آل بكر نغاديكم برهفة النصال
لها لون من الهامات جون وان كانت تغادى بالصقال
ونبكي حين نذكركم عليكم ونقتلكم كأنا لا نبالي

ابيات المهلهل هذه هي الاصل في هذا المعنى ومثله قول الحصين بن الحمام المري

نفلق هاماً من رجال اعزة علينا وهم كانوا اعق واظلما

فاخذه بعضهم فقال

قومي هم قتلوا أميم اخي فاذا رميت اصابني سهمي
ولئن عفوت لاعفون جللا ولئن رميت لاوهنن عظمي

واخذه مالك بن مطفوف السعدي فقال :

قتلنا بني الاعمام يوم أوارة وعز علينا ان نكون كذلكا
هم اخرجونا يوم ذاك وجردوا علينا سيوفاً لم يكن بواتكا

واخذه حرب بن مسعر فقال

ولما دعاني لم اجبه لانني خشيت عليه وقعة من مصمم
فلما اعاد الصوت لم اك عاجزاً ولا وكلاً في كل دهياء صيلم
عطفت عليه المهر عطفة محرَج صؤول ومن لا يعشم الناس يعشم
واوجرته لدن الكعوب مقوماً وخر صريعاً لليدين وللفم
وغادرته والدمع يجري لقتله واوداجه تجري على النحر بالدم

فاخذ هذا المعنى ديك الجن فقال في جارية كان يحبها فقتلها

قمر انا استخرجته من دجنة لبليتي وجلوته من خدره
فقتلته وله عليّ كرامة ملء الحشا وله الفؤاد باسره
عهدي به ميتاً كأحسن نائم والحزن ينحر عبرتي في نحره

والى المعنى الاول نظر ابو تمام فقال

قد انثنى بالمنايا في اسنته وقد اقام حياراكم على اللقم
جذلان من ظفر حران ان رجعت اظفاره منكم مخضوبة بدم

ومن هذا المعنى اخذ البحتري قوله

اذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها

وبيت البحتري اظرف وابدع من بيت المهلهل الا انه هو الذي ارشده الى المعنى ودله عليه ومثله للقتال الكلابي

فلما رأيت انه غير منتهٍ   أملت له كفي بلدن مقوَّم
فلما رأيت انني قد قتلته   ندمت عليه اي ساعة مندم

ولبعضهم

اتتني آية من ام عمرو   فكدت اغص بالماء القراح
فما انسى رسالتها ولكن   ذليل من ينوء بلا جناح

قوله ذليل من ينوء بلا جناح من الامثال الجياد المختارة

وقال جران العود النميري ولا يعرف في نسيب الاعراب وغزلهم احسن الفاظاً من هذه القصيدة ولا املح معاني والمختار منها قوله

ذكرتَ الصبا فانهلت العين تذرف   وراجعك الشوق الذي كنت تعرف
وكان فؤادي قد صحا ثم هاجه   حمائم ورقٌ بالمدينة تهتف
فبت كأن العين افنان سدرة   عليها سقيط من ندى الطل ينطف
اراقب لوحاً من سهيل كأنه   اذا ما بدا من آخر الليل يطرف
فلا وجد الا مثل يوم تلاحقت   بنا العيس والحادي يشل ويعطف
وفي الحي ميلاء الخمار كأنها   مهاة بهجل من ظباء تعطف
تقول لنار العيس صعر من السرى   فاخفافها بالجندل الصم تقذف
حمدت لنا حتى تمناك بعضنا   وقلنا اخو جدّ عن الهزل يصدف
وفيك اذا لاقيتنا عجرفية   مراراً وما نهوى الذي يتعجرف
فموعدك الوادي الذي بين اهلنا   واهلك حتى نسمع الديك يهتف
ويكفيك آثار لنا حين نلتقي   ذيول نعفيها بهن ومطرف
فنصبح لم يشعر بنا غير انه   على كل حال يحلفون ونحلف
فاقبلن يمشين الهوينا تهاديا   قصار الخطا منهن راب ومزحف(؟)
فلما هبطن السهل واحتلن حيلة   ومن حيلة الانسان ما يتخوف
حملن جران العود حتى وضعنه   بعلياء في ارجائها الجن تعزف
فبتنا قعوداً والقلوب كأنها   قطاً شرع الاشراك مما تخوف
علينا الندى طوراً وطوراً يرشنا   رذاذ سرى من آخر الليل اوطف

ينازعنا لذّا رخيا كأنه عوابر من قطر حداهن صيف
رقيق الحواشي لو تسمع راهب ببطنان قولاً مثله ظل يرجف
ولما رأين الصبح بادرن ضوءه كمشي قطا البطحاء اوهن اقطف
وما بنّ حتى قلن بالبيت اننا تراب وان الارض بالناس تخسف
فأصبحن صرعى في الحجال كأنما سقاهن من ماء المدامة قرقف
يبلغهن الحاجَ كل مكاتب طويل العصا او مقعد يتزحف
رأى ورقًا بيضا فشد حزيمه لها فهو أمضى من سليل والطف
ولن يستهيم الخرد البيض كالدمى هدان ولا هلباجة الليل مقرف
ولكن رقيق بالصبا متطوف خفيف لطيف سابغ الذيل اهيف
يلم كالمام القطامي بالقطا واسرع منه لمة حين يخطف
فاصبح في حيث التقينا غدية سوار وخلخال وبرد مفوف

أما قوله

فبت كأن العين أفنان سدرة عليها سقيط من ندى الليل ينطف

فمن أحسن ما قيل في الدمع وأجوده وشبيه به قول الآخر

لعينك يوم البين أسرع واكفا من الفنن الممطور وهو مروَّح

وقيل هذا البيت قد جوّد أيضاً وزاد على من تقدمه وأتى بعده وذاك انه لم يرض ان يكون دمعه مثل الفنن وهو الغصن الذي يقطر المطر على ورقه فهو يجري حتى قال وهو مروح اراد ان الريح تحركه فهو لايهدأ من القطر وليس بعد هذا نهاية في تحاور الدمع وسرعته وقوله ·

أراقب لوحًا من سهيل كأنه اذا ما بدا من آخر الليل يطرف

مليح التشبيه صحيح لان من تأمله رآه كأنه عين تطرف وقوله يصف قولها له

وفيك اذا لاقيتنا عجرفية مرارًا وما نهوي الذي يتعجرف

يقال ان النساء يملن الى من كان فيه دعابة ولهو ولا يملن الى غير ذلك فذكر جران العود عنهن انهن قلن له ا . ت على ماوصف لنا لان فيك عجرفية وقد وصفت لنا بغيرها حتى تمنيناك وما نحب الذي يتعجرف ويذكر ان كثيرا أنشد بعض نساء الاشراف قوله

وكنت اذا ماجئت اجللن مجلسي وأعرضن عنه هيبة لاتجهما
يحاذرن مني نبوة قد عرفنها قديما فما يضحكن الا تبسما

فقالت له ياابن أبي جمعة أبهذا القول تدعي الغزل والله لانال وصلنا وحظي بودنا الا

من يجري معنا كما نريد ويجعل الغي اذا أردناه رشدا قم لعنك الله فقام منقضعًا والى قولها نظر البحتري فقال :

ولا يؤدي الى الملاح هوى　　من لا يري ان غيه رشد

وقوله

ويكفيك آثار لنا حين نلتقي　　ذيول نعفيها بهن ومطرف

معنى مليح وقد اشترك فيه جماعة من الشعراء فأول ذلك امرؤ القيس في قوله

فقمت بها امشي تجر وراءنا　　على أثرنا أذيال مرط مرجل

وقال ابن المعتز

فقمت افرش خدي في الطريق له　　ذلا وأسحب اكمامًا على الأثر

ولابن المعتز في هذا المعنى زيادة حسنة على من تقدمه وقوله

فنصبح لم يشعر بنا غير انه　　على كل حال يحلفون ونحلف

كلام ظريف ومعنى مليح لانه قال لابد من تهمة تلحقنا فنحلف انا لم نفعل و يحلفون انا قد فعلنا وقوله

فاقبلن يمشين الهوينا تهاديا　　قصار الخطا منهن راب ومرجف

من احسن ما يكون في صفة المشي وقد أكثرت الشعراء في هذا الباب فمن مليحه قول بعضهم

يمشين مشي قطا البطاح تأودا　　قب البطون رواجح الأكفال

وانما شبهوا مشي المرأة بمشية القطاة لان فيها سرعة وتأيدا قال المنخل

ودفعتها وتدافعت　　مشي القطاة الى الغدير

وللاعشى في المشي شيء حسن واشياء يفرط فيها فمن الجيد قوله

غراء فرعاء مصقول عوارضها　　تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل

كأن مشيتها من بيت جارتها　　مر السحابة لاريث ولا عجل

وقد شبه بشار بن برد خفقان القلب بالكرة في تدورها وهو قوله

كأن فؤاده كرة تنزى　　حذار البين ان نفع الحذار

وهذا لعمري تشبيه جيد ومعنى صحيح وقال آخر وهو غير هذا المعنى فجود

كأن فؤادي في مخاليب طائر　　اذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

هذا ذكر ان فؤاده اذا ذكرت عشيقته قبض عليه ولم يذكر انه شديد الخفقان وهو يدخل في هذا المعنى او يقارب به فجود واحسن وزاد واورد معنى ثانيًا وهو قوله

كأن قلبي وشاحاها اذا خطرت وقلبها قلبها في الصمت والخرس

هذا ذكر ان قلبه مثل وشاحي صاحبته قلقاً وتحركاً ثم اتى بزاد في المعنى بقوله اذا خطرت ليكون اشد للحركة ثم اتى بمعنى وهو قوله وقلبها قلبها في الصمت والخرس . وقد ذكر ان قلبها غير خافق ولا قلق والقلب السوار وهم يصفون المرأة بضيق السوار والخلخال وقلة حركتهما فهذا الشاعر ذكر قلبه بالقلق وقلب من يحبها بالسكون فزاد وجوّد واما قوله في ذكر الحديث وحسنه

ينازعننا لذّا رخيما كأنه عوابر من قطر حداهن صيف

رقيق الحواشي لو تسمع راهب بيطنان قولاً مثله ظل يرجف

فهو حسن نادر الا ان الشعر في الحديث كثير وجيده وحسنه قول القطامي

فهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

يقتلننا بحديث ليس يفهمه من يتقين ولا مكنونه باد

ومن مليح هذا المعنى قول بشار

وحديث كأنه قطع الرو ض زهته الصفراء والحمراء

ذكر ان حديثها مثل الرياض في ملاحتها وانه يجمع جدا وهزلاً وقال بشار ايضاً

ولها مضحك كنور الاقاحي وحديث الوشي وشي البرود

وله ايضاً

دعتني حين شبت الى المعاصي محاسن زائر كالريم غض

كأن كلامه يوم التقينا تأخذن (؟) في طولي وعرضي

وله ايضاً

حوراء ان نظرت اليـ ـك سقتك بالعينين خمرا

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وقال بعض ولد اسماء بن خارجة الفزارى

وحديث الذه هو مما يونق السامعين يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن احيا نًا واحلى الحديث ما كان لحنا

ذكر انها تحدث بحديث يفهم ثم تخشى فتحصر من الوشاة فتلحن لهم بمعنى يعرفه واشارة يقف عليها لا يعرفها غيرها وغيره قال الله تعالى: ولتعرفنهم في لحن القول اي في معنى القول و يقال هذا لحن بني فلان اي لغه بني فلان ومن اجود ما قيل في هذا الحديث قديمًا وحديثًا قول ابن الرومي

من يجري معنا كما نريد ويجعل الغي اذا أردناه رشدا قم لعنك الله فقام منقضعًا والى قولها نظر البحتري فقال :

ولا يؤدي الى الملاح هوى   من لا يري ان غيه رشد

وقوله

ويكفيك آثار لنا حين نلتقي   ذيول نعفيها بهن ومطرف

معنى مليح وقد اشترك فيه جماعة من الشعراء فأول ذلك امرؤ القيس في قوله

فقمت بها امشي تجر وراءنا   على أثرنا أذيال مرط مرجل

وقال ابن المعتز

فقمت افرش خدي في الطريق له   ذلا وأسحب اكمامًا على الأثر

ولابن المعتز في هذا المعنى زيادة حسنة على من تقدمه وقوله

فنصبح لم يشعر بنا غير انه   على كل حال يحلفون ونحلف

كلام ظريف ومعنى مليح لانه قال لابد من تهمة تلحقنا فنحلف انا لم نفعل ويحلفون انا قد فعلنا وقوله

فاقبلن يمشين الهوينا تهاديا   فصار الخطا منهن راب ومرجف

من احسن ما يكون في صفة المشي وقد أكثرت الشعراء في هذا الباب فمن مليحه قول بعضهم

يمشين مشي قطا البطاح تأودا   قب البطون رواجح الاكفال

وانما شبهوا مشي المرأة بمشية القطاة لان فيها سرعة وتأيدا قال المنخل

ودفعتها   وتدافعت   مشي القطاة الى الغدير

وللاعشى في المشي شيء حسن واشياء يفرط فيها فمن الجيد قوله

غراء فرعاء مصقول عوارضها   تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل

كأن مشيتها من بيت جارتها   مر السحابة لاريث ولا عجل

وقد شبه بشار بن برد خفقان القلب بالكرة في تدورها وهو قوله

كأن فؤاده كرة تنزى   حذار البين ان نفع الحذار

وهذا لعمري تشبيه جيد ومعنى صحيح وقال آخر وهو غير هذا المعنى فجود

كأن فؤادي في مخاليب طائر   اذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

هذا ذكر ان فؤاده اذا ذكرت عشيقته قبض عليه ولم يذكر انه شديد الخفقان وهو يدخل في هذا المعنى او يقارب به فجود واحسن وزاد واورد معنى ثانيًا وهو قوله

كأن قلبي وشاحاها اذا خطرت وقلبها قلبها في الصمت والخرس

هذا ذكر ان قلبه مثل وشاحي صاحبته قلقاً وتحركاً ثم اتى بزاد في المعنى بقوله اذا خطرت ليكون اشد للحركة ثم اتى بمعنى وهو قوله وقلبها قلبها في الصمت والخرس . وقد ذكر ان قلبها غير خافق ولا قلق والقلب السوار وهم يصفون المرأة بضيق السوار والخلخال وقلة حركتهما فهذا الشاعر ذكر قلبه بالقلق وقلب من يحبها بالسكون فزاد وجوّد واماقوله في ذكر الحديث وحسنه

ينازعننا لذًا رخيما كأنه عوابر من قطر حداهن صيف
رقيق الحواشي لو تسمع راهب بيطنان قولاً مثله ظل يرجف

فهو حسن نادر الا ان الشعر في الحديث كثير وجيده وحسنه قول القطامي

فهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي
يقتلننا بحديث ليس يفهمه من يتقين ولا مكنونه باد

ومن مليح هذا المعنى قول بشار

وحديث كأنه قطع الرو ض زهته الصفراء والحمراء

ذكر ان حديثها مثل الرياض في ملاحتها وانه يجمع جدا وهزلاً وقال بشار ايضاً

ولها مضحك كنور الاقاحي وحديث الوشي وشي البرود

وله ايضاً

دعتني حين شبت الى المعاصي محاسن زائر كالريم غض
كأن كلامه يوم التقينا تأخذن (؟) في طولي وعرضي

وله ايضاً

حوراء ان نظرت اليـ ـك سقتك بالعينين خمرا
وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وقال بعض ولد اسماء بن خارجة الفزارى

وحديث الذه هو مما يونق السامعين يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن احيا نًا واحلى الحديث ما كان لحنا

ذكر انها تحدث بحديث يفهم ثم تخشى فتحصر من الوشاة فتلحن لهم بمعنى يعرفه واشارة يقف عليها لا يعرفها غيرها وغيره قال الله تعالى: ولتعرفنهم في لحن القول اي في معنى القول ويقال هذا لحن بني فلان اي لغة بني فلان ومن اجود ما قيل في هذا الحديث قديمًا وحديثًا قول ابن الرومي

وحديثها السحر الحلال لو انه   لم يجن قتل المسلم المتحرز
ان طال لم يُملل وان هي اوجزت   ودّ المحدث انها لم توجز
شَرَك القلوب ونزهة ما مثلها   للمطمئن وعقلة المستوفز

هذا نهاية ما قيل في هذا الباب وقد تناول ابن الرومي قوله ود المحدث انها لم توجز من بعض المتقدمين وهو قوله

من الخفرات البيض ود جليسها   اذا ما قضت أُحدوثة لو تعيدها

ومن مليح ما قيل في الحديث ايضاً قول بعض الاعراب:

وحديثها كالقطر يسمعه   راعي سنين تواصلت جدبا
فاصاخ يرجو ان يكون حيا   ويقول من فرح هيا ربا

وقال آخر:

وانا ليجرى بيننا حين نلتقي   حديث كسيح المريضين (?)مزعج
حديث لو ان اللحم يصلى بعضه   غريضاً اتى اصحابه وهو منضج

ومثله قول الراجز:

تقول لي وهي تجف الهودجا   قولا جميلا حسنًا شملجا
لو طبخ اللحم به لانضجا

والقول في الحديث كثير ولو استقصينا جميع ما فيه لخرج كتابنا عن الغرض الذي قصدناله وقوله :

ولما رأيت الصبح بادر ضوءه   كمشي قطا البطحاء او هن اقطف
وما بن حتى قلت باليت اننا   تراب وان الارض بالناس تخسف

هذا القول شبيه بقول بشار:

حتى اذا بعث الصباح فراقنا   ورأين من وجه الظلام صدودا
جرت الدموع وقلن فيه جلادة   عنا ونكره ان تكون جليدا

ومثله قول عبد الصمد بن المعذل :

فضحكن في وجه الدجى   وبكين في وجه الصباح

يريد انهن اشتهين طول الليل ليتمتعن بالحديث وبيت عبد الصمد احسن مما تقدمه واعرب الفاظا وقوله

فأصبحن صرعى في الحجال وبيننا   رماح العدى والجانب المتخوف

مأخوذ من قول امريء القيس

فاصبحت معشوقا واصبح بعلها عليه القتام كاسف الظن والبال
وقد يبلغن الحاج كل مكاتب طويل العصا او مقعد يتزحف
رأى ورقا بيضا فشد حزيمه لها فهو أمضى من سليل والطف

يذكر انه يرسل الى من يهوى بمن لا يؤبه له وقوله مكاتب ابن ضعيف ويجوز ان يكون قد كاتب هذا الرسول عن نفسه فهو يسأل الناس في مكاتبته فليس ينكر دخول البيوت وكلامه النساء او مقعد يتزحف اراد ايضاً ضعيفاً وهذا مثل قول الفرزدق

فابلغهن وحي القول عني وادخل رأسه تحت القرام
ضعيف ذو خريطة مهين من المتلقطي قرد القمام

ووصفه ايضاً بالضعف والمسكنة وانه يلقط القرد وهو ما يقع من الصوف في خريطة معه وقوله:

فاصبح في حيث التقينا غدية سوار وخلخال وبرد مفوف

اراد انا تجاذبنا وتعاركنا فتكسرت الاسورة والخلاخيل وتخرقت الثياب فمن أتى موضع التقائنا وجد فيه ماقلنا وهذا مثل قول عبد بني الحسحاس

فكم قد شققنا من رداء مطرف ومن برقع عن طفلة غير عانس
اذا شق برد شق بالبرد برقع دواليك حتى كلنا غير لابس

وقال الخالديان في مكان آخر: ومن اجود اشعار اهل الجاهلية بل هي مقدمة في قصائدهم قصيدة سويد بن أبي كاهل واولها

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع
حرة تجلو شتيتاً واضحاً كشعاع البرق في الغيم سطع
صقلته بقضيب ناعم من أراك طيب حتى نصع
تمنح المرآة وجهاً واضحاً مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
وأبيت الليل ما أرقده وبعيني اذا نجم طلع
فاذا ما قلت ليل قد مضى عطف الاول منه فرجع
رب من انضجت غيظا قلبه قد تمنى لي موتاً لم يطع
ويراني كالشجا في حلقه عسراً مخرجه ما ينتزع
مزبد يخطر ما لم يرني فاذا أسمعته صوتي انقمع
قد كفاني الله ما في نفسه ومتى ما يكف شيئاً لم يضع

لم يضرني غير ان يحسدني — فهو يرنو مثلما يرنو السرع
ويحييني اذا لاقيته — واذا يخلو له لحمي رتع
ساء ما ظنوا وقد أبليتهم — عند غايات المدى كيف أقع
كيف يرجون سقاطي بعد ما — جلل الرأس بشيب وصلع
أنفض الغيب برجم صائب — ليس بالطيش ولا بالمرتجع
فارغ الصوت فما يجهدني — قلب عود لا ولا شخت ضرع
هل سويد غير ليث خادر — اجدبت أرض عليه فانتجع
كم مسر لي حقداً قلبه — فاذا قابله شخصي دلع
ورث البغضة عن آبائه — حافظ العقل لما كان سمع
فسعى مسعاتهم في قومهم — ثم لم يظفر ولا عجزاً ودع
زرع الداء ولم يدرك به — ترةً فاتت ولا وهياً رقع
مقعياً يرمي صفاة لم ترم — في ذرى غيطاء ليست تطلع
لبت عاداً وأردت حميراً — وأبت هضبتها ان تقتلع
لا يراها الناس الا فوقهم — فهي تأتي كيف شاءت وتدع
فهو يرميها ولا يبلغها — وكذا الاحمق يرضى ما صنع
كمهت عيناه حتى انتضتا — فهو يلحي نفسه لما ندع
اذ رأى ان لم يضرها جهده — ورأى خلقاء ما فيها طمع
وعدو جاهد ناضلته — في تراخي الدار عنكم والجمع
فتساقينا بمر مقر — في مقام ليس يثنيه الفزع
وارتمينا والأعادي حضر — بنبال ذات سم قد نقع
بنبال كلها مذروبة — لم يطق صنعتها الا صنع
خرجت عن بغضه بينة — في ثياب الدهر والدهر خدع
فتخارصنا وقالوا انما — ينصر الألسن من كان خرع
ثم ولى وهو لايحمي استه — طائر الاتراف (؟) عنه قد وقع
ساجد المنخر لا يرفعه — خاشع الطرف أصم المستمع
فر مني هارباً شيطانه — حين لايعطي ولا شيئاً منع
ورأى مني مقاماً ثابتاً — صادق الحملة كتام الجزع
ولساناً صيرفياً صارماً — كالحسام العضب ما مس قطع

فكفاني الله ما في نفسه ومتى ما يكف شيئاً لم يضع

وقع الاختيار من هذه القصيدة على ما أثبتناه وتركنا منها ما لو أتينا به كان مختارا فاما قوله

مقعيا يرمي صفاة لم ترم في ذرى غيطاء ليست تطلع
غلبت عاداً وأردت حميراً وأبت هضبتها ان تقتلع
لا يراها الناس الا فوقهم فهي تأتي كيف شاءت وتدع

وما بعد هذه الابيات من هذا المعنى فهو يشبه قول زيد بن احمد البردعي يمدح يوسف ابن أبي الساج ويصف قلعة

وكأنما تلك الشوا مخ حول قلعتها عشائر
وكأنها حسانة غيداء أو في غيد غرائر
شمطاء عن دار توا رثها الاكابر فالاكابر
لا الروم رامتها ولا قصرت تطاولها القياصر
وتأبهت عن ذي رعيـ ن وذي نواس وذي شناتر
عذراء لما تفترع سبلا ولا شعرت لماهر
معقومة ما امغلت لكنها أم الحناكر
بكر قوابلها العوا مل والمذلقة البواتر
في فرع سامقة على خلقاء باسقة العراعر
عنقاء عازبة المسا لك والموارد والمصادر
زعراء حصاء القرى جرداء زلاء المآخر
صماء ملساء الهوا دي والحناجر والكراكر
روقاء لم تكسر وكم شربت نواجزها الاواشر
مثل الربابة في السماء خلاء انجمها الزواهر
يرتد عن شرفاتها نقد النواظر وهو سادر
منظومة ابراجها مطوية طي القناطر
مثل الهوادج والفوا لج تحتها الهذل المشافر
محجوبة حجابها ما بين مأمور وآمر

هذا الشعر من اجود ماوصفت به قلعة وهو اكثر من هذا الا انا اختصرناه وللشعراء في ذكر القلاع وصفاتها اشعار تكثر وتتسع ونحن نذكر منها ههنا شيئاً مما نختاره فمن جيد ذلك

قول كعب الاشقري او غيره من شعراء خراسان في ايام الفتوح يقول في قلعة افتتحها المسلمون

محلقة دون السماء كأنها غمامة صيف زال عنها سحابها
فما يلحق الاروى شماريخها الدنى ولا الطير الا نسرها وعقابها
وما روعت بالذئب ولدان اهلها ولا نبحت الا النجوم كلابها

ولنا في صفة القلعة أيضاً قصيدة انفذناها الى الامير سيف الدولة الى الشام

وخرقاء قد تاهت على من يرومها بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يزر عليها الجو جيب غمامة ويلبسها عقداً بانجمه الشهب
اذا ماسرى برق بدت من خلاله كما لاحت العذراء من خلل الحجب
فكم ذي جنود قد اماتت بغصة وذي سطوات قد اباتت على عتب
سموت لها بالرأي يشرق في الدجى ويقطع في الجلي ويفرع في الهضب
فابرزتها مهتوكة الجيب بالقنا وغادرتها ملصوقة الخد بالترب

ولنا اليه من قصيدة اخرى في هذا المعنى انفذناها اليه الى الشام

وقلعة عانق العيوق سافلها وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لها ارضاً توطأ قطريه مواشيها
اذا الغمامة راحت خاض ساكنها حياضها قبل ان تهمي عواليها
يعد من انجم الافلاك مرقبها لو انه كان يجري في مجاريها
على ذري شامخ وعرقد امتلأت كبراً به وهي مملو بها تيها
له عقاب عقاب الجو حائمة من دونها فهي تخفى في خوافيها
ردت مكائد املاك مكائدها وقصرت بدواهيهم دواهيها
اوطأت همتك العلياء هامتها لما جعلت العوالي من مراقيها
ولم يقس بك خلقاً في البرية اذ رأت قسي الردى في كف باريها

وقال مسكين الدارمي

ونار دعوت المعتفين بضوئها فباتوا عليها اهديت بهم سفرا
تضرم في ليل التمام وقد بدت هوادي نجوم الليل تحسبها جمرا
وضيف يخوض الليل خوضاً كأنما يخوض به حتى تأوبني بحرا
وكم من كريم بوأته رماحنا فتاة أناس لا يسوق لها مهرا
وما انكحونا طائعين بناتهم ولكن نكحناها بارماحنا قسرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية اذا لقي الابطال يطعنهم شزرا

فما ردها فينا السباء وضيعة ولا عيرت فينا ولا طبخت قدرا
ولكن جعلناها كخير نسائنا فجادت بهم بيضاً غضارفة زهرا
اذا لم تجد بداً من الامر فاته رحيب الذراع لا تضيق به صدرا
ولا تأمن الخلان الا اقلهم عليك اذا كانت صداقتهم مكرا
وني امرؤ لا آلف البيت قاعداً الى جنب عرسي لا افارقها شبرا
ولا مقسم لاتبرح الدهر بيتها لاجعله قبل الممات لها قبرا
اذا هي لم تحصن امام فنائها فليس ينجيها بنائي لها قصرا
ولا حامل ظني ولا قيل قائل على غيره حتى احيط به خبرا
وهبني امرأ راعيت مادمت شاهدا فكيف اذا ماغبت من بيتها شهرا

اماقوله :

وكم من كريم بوأته رماحنا فتاة اناس لا يسوق لها مهرا

فاليه نظر ابو تمام في قوله:

لم تطلع الشمس منهم يوم ذلك على بان باهل ولم تعرب على غرب

الا ان بيت ابي تمام اجود بناء ورصفاً واما ذكره النساء بما ذكر فلا نعلم ان احداً ذكرهن بأحسن من ذلك ولا اجود ويقال ان عبد الملك بن مروان سابق بين ابنيه مسلمة والوليد وكانت ام مسلمة ام ولد وام الوليد عبسية فسبق الوليد مسلمة فقال رجل من اخوال الوليد من بني عبس احسن والله امير المؤمنين الذي يقول:

نهيتكم ان تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فيدركوا
وما يستوي المرآن هذا ابن حرة وهذا ابن اخرى ظهرها متشرك
فيصطك لحذاه ويرتش كفه ويلقى على الاعواد لا يتحرك
وادركنه جداته فخاجته الا ان عرق السوء لا بد مدرك

فاعجب عبد الملك هذا القول لميله الى الوليد فقال مسلمة وسمع الكلام : كذب يا امير المؤمنين بل احسن من هذا واصوب قول مسكين الدارمي وذكر الابيات التي قدمناذكرها قبل هذا فتعجب الناس من ذكاء مسلمة في ذلك الوقت وقلة دهشه واما ابياته في ذكر قلة الغيرة فقد ورد مثلها في موضع آخر من شعره

الا ايها الغائر المستشيط علام تغار اذا لم تغر
فما خير عرس اذا خفتها وما خير بيت اذا لم يزر
يغار على الناس ان ينظروا وهل يفتن الصالحات النظر

واني سأخلي لها بيتها فتحفظ لي نفسها او تذر

وما نعلم ان احدًا من الشعراء سهل ترك الغيرة غير هذا وظنه كان يقول بالاباحة والا فأي شيء دعاه الى هذا القول الذي يأنف منه الاحرار · ولقد روي ان بعض العلوية قال في هوى له

ولما بدا لي انها لاتحبني وليس هواها عن فؤادي بمجلي
تمنيت ان تهوى سواي لعلها اذاعرفت طعم الهوى ان تجودلي

فجاء رجل يسأل عنه فقال مافعل المتديث في شعره فهذا عيب عليه ماقال في غير زوجته ونسب الى التديث بما قال ولقد عيب على القائل

اهيم بدعد ماحييت فان امت فواحزنا من ذايهيم بها بعدي

فقال له بعض من سمع هذا البيت وما همك بمن ·· بعدك وشتان بين مسكين الدارمي في اغفاله امرأته وتركه الغيرة عليهاو بين الذي يقول

اذا كنت ذا عرس تضن بوصلها فلا تخرجنها تبتغي ليلة القدر
فلا تدخل الحمام عرسك انني أخاف من الحمام قاصمة الظهر

والى هذا اشار ابو علي البصير في قوله

دهتك بعلة الحمام خشف ومال بها الطريق الى سعيد
ارى اخبار بيتك عنك تخفى فكيف وليت اعمال البريد

والى هذا نظر عثمان بن سعدان بقوله

سألت زوجها الخروج عن الحـ ـق ويارب باطل في الحقوق
واستقامت على الطريق اليه ساعة ثم عرجت في الطريق
لم تخف فتنة الفتون لما في قلبها من تلهب وحريق
واقامت بمأتم اللهو لأما ثم شق الجيوب والتخريق

ويروى ان جميل بن معمر كان يقول ما رأيت مصعب بن الزبير يمشي بالبلاط لحقتني الغيرة على بثينة وهي بالجناب وبينهما مسيرة عشر ليال للراكب المجدالمسرع و يقال انه لم ير في الدنيا رجل كان اغير من مالك بن طوق تزوج امرأة من بني تغلب فجاء اخوها يزورها فأقام سنة حتى وصل الى من أدى رسالته اليها

هذه نموذجات من حماسة الخالديين بها تعرف ما هو فضل صاحبيه وما فائدة هذا الكتاب في فن الادب فان بيان كل شعر ونسبته لقائله الاول ومن حذا على منواله ومن كان المنتحل او السارق له مع شرح محال الغموض والدلالة على الرائق من القول كل هذا مما يفتح

الذهن و يمين الكاتب والشاعر وقد اخبرنا احد كبار اهل العلم انه لم يطبع كتاب في جودة هذا الكتاب حتى الآن في علم الادب فحبذا لو تصدى احد ارباب المطابع لطبعه . وقد كنا نود ان نفيض في الاقتباس منه اكثر ولكن خفنا ان تضيق صفحات المقتبس لان كل ما نقله المؤلفان حريٌّ بان ينقل و يؤثر وقد ختما كتابهما وهو في ٢٢٣ ورقة من قطع النصف بهذه الاسطر: قد اخترنا في هذا الكتاب من اشعار العرب و بديع معانيهم وظريف استعاراتهم وتشبيهاتهم ما وقع في جملة من الورق كثيرة وضمّنّاه عدة اجزاء ولو اردنا اضعاف ذلك لما تعذر علينا ولكنا نقوم به الا انا ملنا الى الاختصار وتجنبنا الاكثار وفيما ذكرنا من ذلك مقنع و بلاغ ودلالة على فضل المتقدمين وجميع ما اثبتناه فاختيار من اشعارهم المشهورة والمجهولة وما لنا الا الجمع والتأليف ولعل غيرنا ممن يقرأ هذا الكتاب يرذل شيئاً مما اخترناه و يهجن شعراً نقلناه وهذا غير مشربنا ولا ناقص لنا لان لكل انسان اختياراً ولعل آخر ممن يتصفحه يعرف النظير لشيء مما ذكرناه وهو لا يعرف غيره فيشنع علينا و يقول تركوا نظائر ولم نشرط انا نأتي بجميع النظائر ولعلنا اعرف بما خرجه الزاري علينا منه الا انا تركناه لمعنى ويجوز الا نعرفه لانا لم نحط بجميع العلم . والشعرا اكثر مما يحصى . والغرض الذي ذكرناه واردناه من البينة على محاسنهم فقد بلغناه والآن نبدأ بعون الله وحسن توفيقه في اختيار اشعار المحدثين وغريب معانيهم وحسن استعاراتهم بعد هذا الكتاب ليشتمل الكتابان على الفنين من الشعر القديم والمحدث ونرجو ان يقع هذا الكتاب الآخر موقع الكتاب الاول من قلب من صنفناه من اجله ايده الله ان شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين

ابو دلامة والمستقبل (١)

قضت المطامع ان نطيل جدالا ... وابين الا باطلا ومحالا
في كل يوم للمطامع ثورة ... باسم السياسة تستجيش قتالا
ما ضرَّ من ساسوا البلاد لو انهم ... كانوا على طلب الوفاق عيالا
امن السياسة ان يقتل بعضنا ... بعضاً ليدرك غيرنا الآمالا
لا درّ درُّ اولي السياسة انهم ... قتلوا الرجال ويتموا الاطفالا

(١) المقتبس — نظم الناظم العالم صاحب هذه القصيدة قبل اعلان الدستور العثماني او اطلاق الحرية بثلاثة اشهر فكأنه ادرك بسمو فكره ما سيكون

غرسوا المطامع واغتدوا يسقونها بدم مُهريق على الثرى سيالا
نثروا الدماء على البطاح شقائقاً وتوهموها الروضة المحلالا
تفنى الجيوش ولا ضغائن بينها سبقت ولا ترةً ولا اذحالا
قالوا كرهت الحرب قلت لانها دارت لتغتصب الحقوق الا لا
واجلت فكري في الحروب فلم اجد ابداً لهن سوى الخمور مثالا
طاشت منافعها الصغار عن الورى ورست مآثمها الكبار جبالا
ما اجشع الحرب الضروس فانها تحسو النفوس وتأكل الاموالا
كم سح من رهج الحروب على الربى وَبلُ الدماء فزادها امحالا
لولا الحروب ومحرقات صواعق منها لا بقلت الربى ابقالا
تُجت بنا الارض الفضاء وماحوت في غير ما زمن الفطحل جمالا

***

ابني السياسة ان سلكتم بالورى طرق الرشاد فعلموا الجهالا
ان جرت الحرب الكمال لامة فالعلم احرى ان يجر كمالا
ان الحياة كثيرة اعمالها فدعوا الانام وحاربوا الاعمالا
وتقحموا حرب الحياة فانها للحر اضيق مأزقاً ومجالا
واستلئموا زرد الوفاق واشرعوا فيها تعاونكم قناً ونصالا
واقنوا لكم بيض المساعي شزباً تجري رعالاً للمنى فرعالا
واعلوا على صهواتهن رواكضاً للمكرمات تسابق الآجالا
ودعوا صيالاً في الملاحم ان في هذي الحياة ملاحماً وصيالا
او كلما طمع القوي شراهة اكل الضعيف تحيفاً واغتالا
لاغرو ان يلد الزمان بره كأبي دلامة من بنيه رجالا
اذ راح يقتل بالعواطف قرنه قتلا ادام حياته واطالا

***

اذ جهز «المنصور» جيشاً قاده «روح» يريد مع «الشراة» قتالا
فمضى وفيه ابو دلامة مكرهاً للحرب اخرج كي يصب نكالا
حتى اذا التقت الجيوش وعبئت صفاً فصفاً يمنة وشمالا
برز الكمي من الشراة مجرداً للسيف يطلب من يطيق نزالا
فاجال روح في الجنود لحاظه والقوم ينتظرون منه مقالا

فدعا اليـه ابا دلامة قائلاً   ياليت دونك ذلك الرئبـالا
فجرى اليـه ابو دلامـة هازلاً   ثم استقال فلم يكن ليقالا
فشكى لروح جوعه فازاده   بدجاجتين وحثه استعجالا
فانصاع من عجل وسمط زاده   ومضى يخب لقرنه مختـالا

***

فاتى وقد شهر الكمي بوجهـه   سيفاً يروع غراره الاغوالا
فدنا اليـه ابو دلامـة قائلاً   مهـلاً فاغمـد سيفك القصالا
اني اتيت وما انيت مقاتلاً   من لست اطلب عنده اذحالا
فاسمع مقـالة من اتاك ولم يكن   فيما يكون مخادعاً محتالا
واعلم باني لا اخاف منيتي   جبناً ولا اتهيب الابطالا
لكن ارى سفك الدماء محرماً   واعيذ رأيك ان تراه حلالا
امن المروءة ان نريق دماءنا   سفهاً لمطمع طامع وضلالا
هل كنت من قبل اللقاء رأيتني   يوماً وهل مني لقيت نكالا
او هل طرقت خيام قومك جانباً   او هل خربت بجيهم آبالا
ما ذا جرى بيني وبينك قبل ذا   مما يجر خصومة وجدالا
حتى شهرت عليَّ سيفك تبتغي   ضرباً يقطع مني الاوصالا
فار بأ بنفسك ان تكون من الاولى   زحفوا جنوناً للوغى وخبالا

***

فرأى الكمي مقاله متعالياً   حقـاً وكل حقيقة تتعالى
فعنا واذعن للحقيقة مغمداً   سيفاً اجادته القيون صقالا
ولوى العنان من المطهم قائلاً   رُح بالامان فلا لقيت وبالا
فمشى اليـه ابودلامـة مخرجاً   زاداً تعلق بالسموط مشالا
ودعاه ياابن اولي المكارم راشدا   اكرم اخاك بوقفة اجهالا
اني لارجو ان تكون مواكلي   في ذا الشواء الا تحب اكالا
فتدانيا متخالفين واقبـلا   وهما على فرسيهما اقبـالا
حتى اذا اكلا شواءً ادبرا   بعد الوداع ووليا الا كفالا

***

رجعا فسار ابو دلامة ظافرًا والمهر يجفل تحته اجفالا
حتى اذا وافى الامير وقام عن كثب ترجل دونه اجلالا
وغدا يقول وكان روح ضاحكاً اني كفيتك قرني الرئبالا
وقتلته بالقول لا بمهندٍ والحرب احرى ان تكون مقالا
واخذت في الهيجا عليه مواثقاً ان لا يعود ينازل الابطالا

***

ان الهواتف لا تزال بمسمع مني تقول اذا شكوت الحالا
لا تيئسن فالزمان لنفس فارقبه ان يتبدل الابدالا
والدهر طاه سوف ينضج اهله بالحادثات يزيدها اشعالا
ان الدهور وهن امهر سابك ستزد اضداد الورى اشكالا
حتى كأني بالطباع تبدلت غير الطباع وزلزلت زلزالا
وكأنني ببني الملاحم اصبحوا لابي دلامة كلهم امثالا

بغداد معروف الرصافي

حكومة الشورى في المملكة العثمانية

من أدق المسائل واعضلها مسألة تولية الملك واختيار الاصلح لحكم الناس بالعدل والعقل. مسألة شغل بها البشر في كل دور من ادوارهم فقضت ولا تزال تقضي في تأييد سلطة الملوك ملايين من الناس. على هذا كان الحال في حكومات الفرس والرومان واليونان وهي ارقي الامم القديمة وعلى هذا صار أمر حكومات العرب بعد الاسلام في القرون الوسطى والحكومات الافرنجية في القرون الحديثة

الناس بخير ما حافظ ملوكهم على النظام في الجملة فاذا استرسلوا في شهواتهم واهوائهم واستهانوا بمن تولوا رقابهم فعاملوهم معاملة الانعام التي يرثها الابن عن ابيه ويتصرف فيها بما يشاء يفسد الامر وتنتشر الفوضى ويتراجع العمران ويبذعر السكان . سنة من سنن هذا الكون منذ قامت المجتمعات الاولى وما من شيء يدل الآن على زوالها من العالم كل الزوال .

لا بد للناس من طاعة زعيم يرجعون اليه ببعض أمور دنياهم ولو صورة فاذا استقام

هذا الزعيم وسار بشورة اهل الرأي من قومه استقامت شؤونهم وتسددت مراميهم . وقد كان من الخلافة الاسلامية وهي تجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية اثر عظيم من الجري على هذه الطريقة باشراك الخليفة اصحابه وسروات بلاده في حربه وسلمه وغنمه وغرمه الا ان هذه الصورة من الحكم لم يطل عهدها كثيراً فانقلبت بعد زمن قليل الى ملك عضوض بسعي معاوية بن ابي سفيان وغدا يتقلدها صاحب القوة بل كل ابن يوصي له بها ابوه مهما كانت اخلاقه وكفاءته وسنه

قال ابراهيم الانصاري وهو ابراهيم بن محمد المفلوج من ولد ابي زيد القاري :الخلفاء والائمة وامراء المؤمنين ملوك وليس كل ملك يكون خليفة واماماً قال : ولذلك فصل بينهم ابو بكر رضي الله تعالى عنه في خطبته فانه لما فرغ من الحمد والصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ان اشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك فرفع الناس رؤوسهم فقال : ما لكم ايها الناس انكم لطعانون عجلون ان من الملوك من اذا ملك زهده الله فيما عنده ورغبه فيما في يدي غيره وانتقصه شطر اجله واشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويتسخط الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنه لذة الباه لا يستعمل العبرة ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم القسي (الرديء) والسراب الخادع جذل الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره وضحي ظله حاسبه الله فأشد حسابه واقل عفوه الا ان الفقراء هم المرحومون وخير الملوك من آمن بالله وحاكم بكتابه وسنة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وانكم اليوم على خلافة النبوة ومفرق المحجة وسترون بعدي ملكا عضوضاً وملكا عنودا وأمة شعاعاً ودما مفاحا فان كانت للباطل نزوة ولاهل الحق جولة يعفو بها الاثر ويموت لها البشر فالزموا المساجد واستشيروا القرآن والزموا الطاعة ولا تفارقوا الجماعة وليكن الابرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر اي بلاد كخرسة (؟) ان الله سيفتح عليكم اقصاها كما فتح عليكم ادناها .

وبعد فان معاوية مبدأ شقاء هذه الامة بملوكها افسد امرها كما قال الحسن البصري ليحقق اطماع نفسه ولم يكفه سفك دماء المسلمين في وقعة صفين حتى قام يعهد بالخلافة لابنه يزيد من بعده وفي العرب وقتئذ من رجالات قريش والصحابة بقية صالحة اضطرهم الى مبايعة يزيد والسيوف مصلتة على رقابهم في مسجد المدينة واحتال لذلك بكل حيلة تأبى النفس الشريفة ان تأتيها . فأصبح خلفاء الاسلام بعد ان كانوا مساوين للرعية أرباباً يتحكمون بالاموال والدماء والاعراض تحكم الحر المطلق الذي لا يسأل عما يفعل يقوون بضعف الناس ويغتنون بإفقارهم ويعتزون باذلالهم

جاء خلفاء من بني أمية و بني العباس عقلوا معنى الخلافة وادركوا حقوق الرعية وعرفوا ان الشورى لا تستقر الا اذا كان الخليفة كاملا في ذاته وصفاته فأحبوا ان يجعلوا الملك بانتخاب الاصلح بعدهم كعمر بن عبد العزيز الذي مثل الخلافة الاسلامية على قاعدة الشورى احسن تمثيل ولطالما قال وقد رأى محمد بن ابي بكر : لو كان لي من الامر شيء لقلدته الخلافة بعدي . ولكن بني مروان يشق عليهم ان تخرج الخلافة عن رسمها القيصري الذي رسمه كبيرهم لتكون كالبقرة الحلوب ينتفع بها الاقرب فالاقرب من الخليفة . وكذلك فعل المأمون وقد رأى علي بن موسى الرضا اعقل اهل زمانه واشرفهم فعهد اليه بالامر من بعده فلم يرض عن صنيعه آل بيته ولا الطالبيون ورماه اهل السنة بالتشيع والشيعة بالاعتزال وهو المفرد العلم في عدله وسيرته وايثار مصلحة الامة على مصلحة نفسه وآله .

ومنذ ضعف امر بني العباس واستولى ملوك الطوائف ضعف امر الخلافة بل ذهب رسمها جملة واصبح الملوك بحسب الاتفاق ان صلح واحد من مئة يجيء اخلافه يفسدون ماوضعه . ساعد على ذلك في الاكثر ضعف الآداب والاخلاق وزهد المتأخرين بعلوم الدنيا والدين فصح فينا قول ذي عمرو من امراء اليمن لجرير بن عبدالله (١) : « انكم معشر العرب لن تزالوا بخير ما كنتم اذا هلك امير تآمرتم في آخر فاذا كانت بالسيف كانوا ملوكاً يغضبون غضب الملوك ويرضون رضا الملوك » بل صدق علينا ما رواه الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال لا تزال هذه الامة تحت يد الله مالم يمار قراؤها امراءها ولم يزك صلحاؤها فجارها ولم يمار اخيارها اشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة وملأ قلوبهم رعباً .

ولقد كتب لبني عثمان ان يتغلبوا على معظم بلاد الاسلام ويبنوا دولتهم على انقاض حكومات كثيرة فدان لهم المغرب الاوسط والمغرب الادنى و برقة ومصر والشام واليمن والحجاز والعراق والجزيرة وآسيا الصغرى وجزر البحر الرومي ومكدونية وغيرها من بلاد البلقان وكانت كلها تئن من وطأة الحكم المطلق في كل عصر من اعصارها وتتحفز لشق عصا الطاعة اذا امكنتها الحال على نحو ما وقع للمغربين ومصر وبلاد اليونان والبلغار ورومانيا والصرب والبوسنة والهرسك والجبل الاسود وكريت وقبرص فانسلخت عن جسم الدولة بمساعدة أوربا لها من الخارج ومساعي سكانها من الداخل

والسبب الاعظم في ذهاب القاصية من بلاد الدولة كونها ما برحت منذ اول تأسيسها دولة سيف وسنان لا دولة علم وعرفان . وفخامة الملك لا تجدي اذا لم تنظم شؤونه بنظام الاجتماع

(١) صحيح البخاري باب ذهاب جرير الى اليمن ص ١٦٦ ج ٥

والعلم الصحيح . فخربت البلاد بسياسة التفريق بين العناصر والاجناس بيد ان دوام الحال على ذلك محال مادامت أوربا شاخصة ابصارها نحو الشرق تتحفز كل ساعة لاكتساحه منذ زهاء مئة سنة وتتطاول الى استعماره القطعة بعد القطعة .

عرف وخامة العاقبة اهل الرأي في الامة العثمانية فقاموا منذ نحو اربعين سنة ينادون في الدعوة الى لم الشعث ومجاراة الحكومات الاوربية في نظامها امثال شناسي وكمال ومدحت وفاضل وسعاوي وهم طليعة الاحرار الابرار الى نبذ الحكم المطلق والاستعاضة عنه بالحكم المقيد اي ترك الحكومة الاستبدادية الشخصية والاخذ بسنن الحكومة المدنية الشورية لتشارك الامة سلطانها في ادارة شؤون البلاد وهو يشرف عليها اشرافاً وينفذ ما تقرره تنفيذاً كما هو حال اعاظم ملوك الارض لهذا العهد امبراطور الالمان وملك الانكليز وميكادو اليابان ورئيس جمهورية اميركا على اختلاف طفيف في كيفية تأليف مجالسهم واشراك ذوي الرأي من اهلهم في سلطانهم

وما فتئ الاحرار ينشرون دعوتهم في جرائد لهم انشؤها وجمعيات الفوها وكانتهم تزيد انتشاراً كلما اشتدت الحكومة في ارهاقهم ولا سيما في المدارس العالية في الاستانة . والمدارس العالية مجمع شمل اذكياء الطلاب من الترك والعرب والجركس والارناؤد واللاز والروم والارمن حتى اذا عادوا الى بلادهم وتفرقوا في الولايات يضيفون الى تذمر الاهلين من فساد الاحكام تذمراً ويكثرون سواد الحانقين على ذلك النظام الرث القديم

ولما اوشكت الدولة العلية ان تسقط سنة ١٢٩٣ باجتماع كلمة أوربا عليها أعلن القانون الاساسي بسعي مدحت باشا واعوانه ولم تتمتع الامة اربعة اشهر بافتتاح مجلس نوابها حتى أقفل فعادت الحكومة ترسف في قيود الحكم الاستبدادي على كيفية اشد من قبل ففسدت النيات والتاثت الاحوال وتنكرت الاخلاق وهزلت الفضيلة وبات القول الفصل للرشى والمحاباة والشفاعات وراجت سوق النفاق رواجاً لم تعهده آثينة في آخر ايامها ولا رومية عند زوال سلطانها بل ولا فروق لما تأذن الله بانحلال الدولة البيزنطية منها وكثر الغش والخديعة وغلوا في التجسس والوقيعة وكثرت الهجرة من البلاد فهجرها قسم عظيم من العاملين والمفكرين من اهلها وتقهقر عمرانها فوصلت بعض اقطارها الى درجة من الفقر لم يعرف التاريخ انها بلغتها في وقت من الاوقات وامسى العاقل يعجب من بقاء الدولة العثمانية على هذه الحال وما بقي منها الى اليوم هو من اخصب بقاع الارض جمعت اطايب الكور من القارات الثلاث أوربا وآسيا وافريقية وهي الصلة والعائد بين شرق المعمور وغربه واهلها من اقوى العناصر ذات الحضارة القديمة المستفيضة كان لها ايامها الغر

المحجلة وفيهم العرب والفينيقيون والحيثيون والروم والبابليون والاشوريون والمكدونيون والارمن واليهود

زاد ضغط الحكومة على الامة في السنين الاخيرة وضعفت فيها كل ملكة ونال الجند حظ وافر من الشقاء فصار المرابطون منهم والغزاة لا يطعمون الا ما يحفظ عليهم رمقهم فقط وكثيراً ما كانوا يهلكون جوعاً كما وقع لهم في اليمن مرات وقد يخدمون السنين ولا يلبسون ثياباً تقيهم حمارة الحر وصبارة القر . والجند سياج السلطنة اذا استهين به فهنالك العطب .

دامت هذه الحال زمناً واحرار الضباط من الناشئة الجديدة لا يجسرون على بث دعوتهم علناً فلما زاد بؤس الاجناد اخذوا يبثون فيهم مبادئ الثورة فرأوا نفوسهم مستعدة لقبول ما يلقى عليها فتمرد اولاً بعض الجند في آسيا الصغرى ثم سرت روح التمرد الى جند مكدونية وقد ايقن الجنود بأن الدولة لا تهتم بأرواحهم اهتمامها بالبنادق التي يحملونها . واتفق ان ضاقت صدور الارناؤد في مكدونية من طمع الدول الاوربية فيهم وادركوا ان حكومتهم تسلمهم وتلقي مني عجزت حبالهم على غاربهم كما فعلت مع غيرهم فيهلكون تحت سلطة الحكومات الاجنبية على نحو ما وقع لمسلمي البوسنة والهرسك وبلغاريا ورومانيا والصرب والجبل الاسود . ولما تم كل هذا قام الارناؤد وهم في الشجاعة كعرب البادية يداً واحدة في مناصرة ذاك الجيش المطالب بالدستور واتحد الفيلقان الاول والثاني في مكدونية وتبعهما الفيلق الرابع في كردستان

وكانت جمعية الاحرار التي جعلت شعارها «الاتحاد والترقي» ودبرت امرها تدبير من طب لمن حب تستعين على قضاء حاجتها بالكتمان الشديد فتنقل اسرارها شفاهاً واذ عرف القابضون على ازمة الاستبداد بما تنزع اليه وهالتهم عاقبة شأنها وكانت طغمة الجواسيس قد هوئلت فيه نادي الضابطان البطلان نيازي بك وانور بك الى الدستور او يزحفان بجندهما على الاستانة فلم يسع صاحب البلاد الا ان يعيد العمل بالقانون الاساسي الذي كان اوقفه منذ احدي وثلاثين سنة فصدرت الارادة بوضعه موضع العمل صبيحة يوم الجمعة ٢٥ جمادى الثانية هجرية الموافق ١١ تموز سنة ١٣٢٤ شرقي و ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨ غربي وبوشر بانتخاب نواب الامة وها نحن نكتب بعد مضي شهرين على اعلان الحرية في البلاد وقد انقلب كيانها الا قليلا

فسبحان من قلب بالجيش نظام المملكة العثمانية كما انشأ بأبي مسلم الخراساني دولة الخلافة العباسية . وانقلاب الحكومة المطلقة في السلطنة العثمانية الى حكومة مقيدة لا يقل

في الغرابة عن تأسيس ابي مسلم لدولة بني العباس لما عرفت به الامة في عهدها الاخير من التخاذل والفشل ورميته من الذل والصغار ولما بلغ من سلطان الاستعباد على النفوس الذي طوي الآن بساطه آخر الدهر ان شاء الله . فساغ ان نطلق على الدولة المستبدة الماضية ما « نقل عن علي بن عيسى بن الجراح قال : سألت اولاد بني أمية ما سبب زوال دولتكم قال: اربع خصال اولها ان وزراءنا كتموا عنا ما يجب اظهاره لنا والثانية ان جباة خراجنا ظلموا الناس فارتحلوا عن اوطانهم فخربت بيوت اموالنا والثالثة انقطعت الارزاق عن الجند فتركوا طاعتنا والرابعة أيس الناس من انصافنا فاستراحوا الى غيرنا فهذا كان سبب زوال دولتنا »

صارت الدولة للاحرار وقبضت بمعونة شيخ الاسلام السيد جمال الدين افندي على قياد السلطنة وطهرت دواوين الحكومة من المخربين والمتجسسين واشقى الامراء كما قال القاضي الفاضل من سمن كيسه واهزل الخلق وابعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق . فبدأ أولئك المصلحون بالاستانة وثنوا بالولايات ولا يزالون بفضل وزارتهم الحرة يمحون عن الوظائف كل من وصم بالخيانة والاضرار بالناس ويوسدونها الى كل حر عارف وتوشك ان تغدو دولة بني عثمان من ارقى حكومات هذا العصر اذا ظلت سائرة نحو عشر سنين على النهج الذي اختطته من النظر في احوال البلاد والامة باخلاص في القصد وتيقظ لما يقطع طريق الرجعة على المستبد والسعي الى ترقية الدولة والامة في الماديات والمعنويات

نكتب هذا وقد خنس شيطان التفريق بين عناصر الدولة واهل النحل المختلفة فيها بعد ان وسوس القرون بينهم وغدا المسلم وغيره بل والتركي ومواطنه سواء في الحقوق مع مواطنه لا يمتاز عربي عن عجمي الا بالعمل الصالح ولا مسلم عن ذمي الا بما ينفع البلاد . وقد اطلقت حرية الاجتماع وحرية القول وحرية الكتابة بعد ذاك الضغط المميت وألغيت الجاسوسية التي جملت وكدها في كشف عورات الناس بما لا يفيد شيئاً في حياة الدولة وبطل الاصطناع والشفاعة والمحاباة والمداجاة واصبح كل فرد يثمن بقيمته وفتحت امام ابناء البلاد ابواب الثروة والرخاء وبات الامل معقوداً بان ينسى الناس او يتناسون ذاك التاريخ المخضب بالدماء مدة ستمائة سنة

ومن الجدير بالتدوين ان الامة نالت هذا الدستور الجديد بدون اهراق دماء على نحو ما جرى للامم الغربية قبلنا ولم تتعد اسباب نيله التهديد والايهام وليس انتقال الامر من يد قادرة الى يد اخرى من الامور الهينة اللينة وكأن الله اراد خيرا بهذه الامة فحفظ لها

دماءها من الاهراق في هذا السبيل ولطالما اهرقتها طائعة اوكارهة فيما لا يجدي نفعاً

هذا والدستور عهد يكتتب بين الراعي والرعية او بين الحاكم والمحكوم عليه ولم يكن ما يشبهه في الحكومات القديمة على ما اجمع عليه المحققون وان كان للرومان مجلس اعيان ولجمهورية اليونان نواب ولدولة العرب دار ندوة · والاولى ان يقال ان الدستور آخر ما بلغته الحكومة الراقية في البشر وهو زبدة انواع الحكم واسلمها وانفعها وانه من عمل القرون الحديثة يعلن في الغالب زمن الثورات والازمات و يكون اما بتعديل النظامات القديمة او بالغائها وقد اختارت الحكومة العثمانية تعديل القديم ونعما فعلت فكانت اول حكومة اسلامية سبقت الى الدستور كما كانت انكلترا اول دولة اوربية جاء من مدنها وكلاء عن الامة ودخلوا في الشورى العامة الاهلية سنة ١٢٦٥ م قال رو برتسون: ولو لم يكن من الشورى في اوربا الا ابطال الرق لكفى فقد كان اهل الفلح والقرى ارقاء تابعين لملك الارض التي كانوا يزرعونها فكان للمالك حق التصرف فيهم مع الارض بالبيع لمالك آخر وصار لفظ سيد ولفظ عبد وهما من افظع الالقاب البشرية وابغضها الى النفوس متروكين رأساً و بطل استعمالها جملة واحدة · فعسى ان يكون الدستور العثماني النظري الآن عملياً في البلاد كالدستور الانكليزي الذي ادهش الامم وهو عملي صرف لم يسطر حتى الآن وان يأخذ العثمانيون خلاصة ما تعلمته الحكومات الديمقراطية الدستورية بطول التجارب فتكون دولة بني عثمن كالمانيا في علمها و بريتها وانكلترا في سياستها و بحريتها وفرنسا في ماليتها و زراعتها واميركا في شركاتها وعظمتها وما ذلك ان صحت العزائم بعزيز ·

بين العرب والفرس

من اشهر القصائد الاجتماعية العربية قصيدة لقيط بن يعمر الايادي ينذر قومه غزو كسري اياهم وكان لقيط كاتباً في ديوان كسرى فلما رآه مجمعاً على غزو اياد كتب اليهم بهذا الشعر فوقع الكتاب بيد كسري فقطع لسان لقيط وغزا اياداً · قال ابن دريد في كتاب الاشتقاق الذي نشره وتسنفيلد سنة ١٨٥٤ : ومن رجالهم لقيط بن معبد صاحب القصيدة التي انذر بها اياداً لما غزتهم الفرس وهي

كتاب في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من اياد

يعني جزيرة العرب وله قصيدة اخرى على العين مشهورة · وقد تيسرت لناعدة مظان

ومنها بعض مخطوطات فعارضنا القصيدة عليها واثبتنا منها هنا اصح الروايات واضفنا اليها بعض زيادات وها هي بنصها المعجب.

يادار عمرة من محتلها الجزعا · هاجت لي الهم والاحزان والجذعا (١)
تامت (٢) فؤادي بذات الجزع خرعبة (٣) · مرت تريد بذات العذبة البيعا
بمقلتي خاذل ادماء طاع لها · نبت الرياض تزجي وسطه ذرعا
وواضح اشنب الانياب ذي أشر (٤) · كالأقحوان اذا ما نوره لمعا
جرت لما بيننا حبل الشموس (٥) فلا · يأساً مبيناً ترى منها ولا طمعا
فما ازال على شحط يؤرقني · طيف تعمد رحلي حيث ما وضعا
ارى بعيني اذا أمت حمولتهم (٦) · بطن السلوطح لا ينظرن من تبعا
طوراً اراهم وطوراً لا أبينهم · اذا تواضع خدر ساعة لمعا
يا ايها الراكب المزجي على عجل · نحو الجزيرة مرتاداً ومنتجعا (٧)
ابلغ اياداً وخلل في سراتهم · اني ارى الرأي (٨) ان لم أعص قد نصعا
يالهف نفسي ان كانت اموركم · شتى واحكم امر الناس ما اجتمعا
اني اراكم وارضاً تعجبون بها · مثل السفينة تغشى الوعث والطبعا (٩)
الا تخافون قوماً لا ابا لكم · امسوا اليكم كامثال الدبا سرعا (١٠)
ابناء قوم تآووكم على حنق · لا يشعرون اضر الله ام نفعا
احرار فارس ابناء الملوك لهم · من الجموع جموع تزدهي القلعا (١١)
فهم سراع اليكم بين ملتقط · شوكاً وآخر يجني الصاب والسلعا (١٢)

---

(١) الرواية في امالي ابن الشجري : الجرعا بدل الجزعا والجرع والاجرع والجرعاء الرملة لا تنبت · وفي رواية والوجعا بدل الجذعا (٢) تامت تيمت اي عبدت وذللت ومنه تيم الله كأنه عبد الله (٣) الخرعبة الشابة الحسنة القوام (٤) الشنب دقة في الاسنان وعذوبة والأشر حسن الاسنان وحدة اطرافها (٥) الشموس من الدواب الذي لا يكاد يستقر (٦) وفي رواية : ارى بعيني اذا مالت حمولتهم (٧ في النسخة المطبوعة

بل ايها الراكب المزجي مطيته · الى الجزيرة مرتاداً ومنتجعا

وفي رواية المسري بدل المزجي (٨) في رواية : ارى الامر بدل الرأي (٩) الطبع الصدأ يكثر على السيف والطبع تدنس العرض وتلطخه واستعاره هنا للغشاء والكدر (١٠) الدبا صغار الجراد والنمل (١١) ازدهيت فلاناً تهاونت به (١٢) الصاب والسلع شجران مران

لو ان جمعهم راموا بهدته (١) شمَّ الشماريخ (٢) من ثهلان لانصدعا
في كل يوم يسنون الحراب لكم لا يهجعون (٣) اذا ما غافل هجعا
خزر عيونهم كأن لحظهم حريق نار ترى منه السنا قطعا (٤)
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم من دون بيضتكم (٥) ريًّا ولا شبعا
وانتم تحرثون الارض عن سفه في كل معتمل تبغون مزدرعا (٦)
وتلحقون حيال الشول آونة وتُنتجون بدار القلعة الرُّبَعا (٧)
وتلبسون ثياب الامن ضاحية لا تفزعون (٨) وهذا الليث قد جمعا
انتم فريقان هذا لا يقوم له هصر الليوث وهذا هالك صقعا
وقد اظلكم من شطر ثغركم هم له ظلل (٩) تغشاكم قطعا
مالي اراكم نياماً في بُلهنية (١٠) وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
فاشفوا غليلي برأي منكم حسن يضحي فؤادي (١١) له ريان قد نقعا
ولا تكونوا كمن قد بات مقتنعاً (١٢) اذا يُقال له ادفع غمة كنعا
يسعى ويحسب ان المال مخلده اذا استفاد طريفاً زاده طمعا
فاقنوا جيادكم واحموا ذماركم واستشعروا الصبر لا تستشعروا الجزعا (١٣)
واشروا تلادكم في حرز انفسكم وحرز نسوتكم لا يهلكوا هلعا (١٤)
ولا يضع (١٥) بعضكم بعضاً لنائبة كما تركتم باعلى بيشة نخعا
اذكوا العيون وراء السرح واحترسوا حتى ترى الخيل من تعدائها رُجعا
فان غلبتم على ضن (١٦) بداركم فقد لقيتم بامر حازم (١٧) فزعا

---

(١) في رواية بشدته (٢) الشماريخ والشناخيب رؤوس الجبال (٣) في رواية لا يغفلون (٤) تخازر قبض جفنه ليحدد النظر . وفي رواية حريق غاب بدل حريق نار (٥) في رواية من دون قتالكم (٦) وفي رواية في كل ناحية تبغون مدرعا (٧) وفي رواية وتلقحون حيال الخ وبدل الرَّبَعا الرُّبعا وهي الناقة الصغيرة والبيضة هنا كناية عن مقر الدار . ومحلة القوم . ويقال هذا منزل قلعة اذا لم يكن مستوطناً والقوم على قلعة اي رحلة (٨) في رواية لا تجمعون (٩) وفي رواية هول له ظلم (١٠) البلهنية العيش اللين (١١) برأي منكم حصد يصبح فؤادي له (١٢) مكتنعاً

(١٣) صونوا جيادكم واجلوا سلاحكم وجددوا للقسي النبل والشرعا

وفي رواية بدل جيادكم خيالكم وبدل سلاحكم سيوفكم (١٤) وفي رواية تلادكم بدل بلادكم واهلكم بدل نسوتكم ولا يهلكوا بدل لا تهلكوا (١٥) ولا يدع (١٦) ضن (١٧) الحازم

هيهات لا مال من زرع ولا ابل يرجى لغابركم ان انفكم جدعا
لا يلهكم ابل ليست لكم ابلاً ان الغدور بخطب منكم قرعا(١)
لا تثمروا المال للاعداء انهم ان يظفروا يحتووكم والبلاد معاً(٢)
والله ما انقلب الاموال منذ بدا(٣) لاهلها ان أصيبوا مرة تبعا
ياقوم ان لكم من ارث اولكم ان ضاع آخره او ذل واتضعا
ماذا يردُّ عليكم عزُّ اولكم مجداً قد اشفقت ان يفنى وينقطعا
فلا تغرنكم دنيا ولا طمع ان تنعشوا بزماع ذلك الطمعا
ياقوم لا تأمنوا ان كنتم غيراً على نسائكم كسرى وما جمعا
ياقوم بيضتكم لا تفجعن بها اني اخاف عليها الازلم الجذعا (٤)
هو العناء الذي تبقى مذلته ان طار طائركم يوماً وان وقعا
هو الجلاء (٥) الذي يجتث اصلكم فمن رأى مثل ذا رأياً (٦) ومن سمعا
قوموا قياماً على امشاط (٧) ارجلكم ثم افزعوا قد ينال الامن (٨) من فزعا
وقلدوا امركم لله دركم (٩) رحب الذراع بامر الحرب مضطلعا
لا مترفاً ان رخاء (١٠) العيش ساعده ولا اذا عض (١١) مكروه به خشعا
لا يطعم النوم الا ريث يبعثه هم تكاد حشاه تحطم الضلعا (١٢)
مسهد النوم تعنيه اموركم يروم منها الى (١٣) الاعداء مطلعا
ما انفك يحلب در (١٤) الدهر اشطره يكون متبعاً طوراً ومتبعا
وليس (١٥) يشغله مال يثمره عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

---

(١) ان العدو بعظم منكم قرعا (٢) وفي نسخة ان يظهروا يحتووكم والتلاد معاً (٣) والله ما انفكت الاموال مذ ابد (٤) الجذع من الابل الذي اتى له خمس ومن الشاء ما تمت له سنة و يقال للمهر في السنة الثانية جذع ويقال للدهر الازلم الجذع لانه جديد ابداً وقوله اخاف عليها الازلم الجذعا اراد الدهر و يقال اراد الاسد (٥) الفناء (٦) يوماً (٧) المشط سلاميات ظهر القدم وهي عظام الاصابع واحدتها سلامى (٨) الامر (٩) الدر اللبن ولله دره اي لله عمله و يقولون في الذم لادر دره اي لا كثر خيره (١٠) رخي (١١) حل (١٢) في رواية

لا يطعم النوم الا حيث يحقره هم يكاد شباه يقصم الضلعا

(١٣) على (١٤) قوله حلب فلان الدهر اشطره معناه مرت عليه ضروب من خيره وشره واصل ذلك من اخلاف الناقة لها خلفان قادمان وخلفان آخران فكل خلفين شطر (١٥) فليس

قد استمر على شزر مريرته ❊ مستحكم السنّ لا قحماً ولا ضرعا (١)
كمالك بن سنان (٢) او كصاحبه ❊ زين القنا(٣) يوم لاقى الحارثين معا
اذ عابه عائب يوماً فقال له ❊ دمث لجنبك قبل النوم (٤) مضطجعا
فساوروه فألفوه اخا علل ❊ في الحرب يحتمل الرئبال والسبعا (٥)
مستنجداً يتحدى الناس كلهم ❊ لو قارع القوم عن احسابهم قرعا (٦)
هذا كتابي اليكم والنذير لكم ❊ لمن رأى مثل ذا رأياً ومن سمعا (٧)
فقد(٨) بذلت لكم نصحي بلا دخل ❊ فاستيقظوا ان خير العلم ما نفعا

---

(١) في رواية

حتى استمر على شزر سريرته ❊ مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعا

والحبل المشزور المفتول مما يلي اليسار وامررت الحبل شددت فتله والمرة شدة الفتل والمرير الحبل الشديد فتلاً والقحم الشيخ الهرم والضرع الشيخ الضعيف (٢) اخ قنان (٣) عمر الفتى (٤ الليل (٥) وفي رواية

فثاوروه فالفوه اخا علل ❊ في الحرب لاعاجزاً نكساً ولا ورعا

وفي اخرى بعد هذا البيت

عبل الذراع ابياً ذا مزابنة ❊ في الحرب يختتل الرئبال والسبعا

(٦) لو صارعوه جميعاً في الوغى صرعا (٧) لمن رأى الرأي بالابرام قد نصعا وفي رواية لمن رأى رأيه منكم (٨) وفي رواية فقد بذلت وفي اخرى لقد محضت لكم ودي بلا دخل والدخل كالدغل والدخل العيب في الحسب و بنو فلان في بني فلان دخل اذا انتسبوا معهم وليسوا منهم · وفي نسخة تقديم البيت الاخير في الاصل على الذي سبقه

الاكتشافات الحديثة في القطب الشمالي

قالت مجلة مستندات الترقي ما مثاله: كانت اول حملة أرسلت لاكتشاف القطب الشمالي سنة ١٥٥٣ فقام شانسلور ودورفورث و ويلوغبي من الانكليز يحاولون الاهتداء من طريق الشمال الى طريق بحري للوصول الى آسيا الشرقية ودعي هذا الطريق بطريق الشمال الشرقي. وما برح حب اكتشاف القطب آخذاً بمجامع العقول حتى ساق كثيرين الى تقحم تلك الصحاري الجامدة في الشمال لكشف ماوراءها من اسرار. ولئن فترت الهمم في سبيل اكتشاف القطب من سنة ١٦٥٠ الى ١٧٥٠ بالنسبة لبقية الادوار الا ان الرغبة في اكتشافه لم تنقطع منذ ذلك العهد. ومهما اعتقد الناس بان ما ورد في أسطورة قديمة من ان في بحار الشمال جبلاً من المغناطيس كان يدعو السفن والملاحين الى اكتشافه فتهلك فيه—وهي اسطورة من الاساطير الخيالية العارية من كل حقيقة—فان القطب الجغرافي من الارض وان لم يره احد حتى الآن قد اثر في العقول تأثير ذلك الجبل من المغناطيس وكان من قوة تلك الجاذبية ان كانت السبب في هلاك ارواح كثيرة من البشر.

وظل ذاك اللغز القديم بدون حل بعد جهاد لا يوصف مدة ثلاثة قرون ونصف ووقعت مصائب هائلة في القطب والقطب نفسه لم يكتشف. على ان هذه المسألة قد فقدت في العهد الاخير شيئاً كثيراً من شأنها العلمي. ومع هذا فلم يفت الباحثين علم ما يصادفونه في القطب ونزعوا من الافكار ماكان عالق فيها مدة قرون من ان وراء تلك الاسوار الكالحة من الجليد مناخاً معتدلا وعدوه من باطل التقدير وقالوا ليس فيها الا الجليد والثلوج وبحر عميق فيه بعض جزر تختلف كبراً وصغراً ولا تزال مجهولة وهذا ما يرونه في جوار القطب كما رأوا مثله حتى الآن في الاصقاع القطبية

ولا يرجى من اكتشاف القطب الشمالي حل مشكل ينفع العلم وما يتنافس فيه الذاهبون في هذا السبيل لبلوغ القطب ليس سوى عبارة عن ضرب من ضروب الارتياض اللهم الا ما كان من حيث الفائدة الجغرافية الصرفة. بيد ان الانسانية لا يقر لها قرار ان لم يكتب لاحد شجعان الزمان ان يدوس ذاك الطرف الآخر من محور الارض. والظاهر ان هذا اليوم وان طال العهد على قدومه غير بعيد الآن. فان ما تم من تقدم اكتشافات القطب في الخمس عشرة سنة الاخيرة قد بلغ حداً لم يكن يظن بلوغه حتى قوي الامل بان ستكافئ تلك الهمم الماضية على جهادها قريباً والزمن حلال كل معضل. يعلم ذلك

بادئ نظر لمن يلقي ببصره على تاريخ القطب والبعثات اليه وما بلغه الباحثون من العرض الشمالي ·

قام المقدام بارنتس الهولاندي فبلغ للمرة الاولى سنة ١٥٩٦ الدرجة الثمانين من العرض ومضى على الناس زهاء مائتي سنة حتى تيسر لهم ان يتقدموا الى الامام ثلاث درجات أخرى وكان الصياد سكورسبي اول من وصل في الحقيقة الى الدرجة الثالثة والثمانين من العرض سنة ١٨٢٢ ولم يصل الرحاله مارخام الاميركي الا في سنة ١٨٧٦ الى شمالي غرانلاندا اي الى الدرجة ٨٣/٢٠ وبعد ست سنين بلغ وطنيه سوكفود الدرجة ٨٣/٢٤ وهكذا مضت ثلاثة قرون ولم يصل البشر الى أكثر من الدرجة ٨٣ في التقدم نحو القطب ولكن لم تمض اقل من خمس عشرة سنة حتى كثر التقدم في اصقاع القطب وزاد شأنها أكثر من القرون الثلاثة الاخيرة فكان الرحاله نانسن اعظم فاتح فتح للمواميين باكتشاف القطب طرقاً جديدة فكان بذلك فاتح عهد سيؤدي ولا شك الى الاهتداء للقطب وافتتاحه افتتاحاً اخيراً فوصل مع رفيقه جوهانسون في ٧ نيسان (ابريل) الى الدرجة ٨٦/١٤ في شمال الارض المعروفة بأرض فرنسيس يوسف ولكنه اضطر الى الرجوع على اعقابه وتقدمت بعثة الدوق دي زابروز الى أبعد من ذلك نحو الشمال فبلغ بعض اعضائها درجة ٨٦/٣٣ الى شمالي ارض فرنسيس يوسف وقليلاً نحو الغرب من الجهة التي وصل اليها نانسن · ووصل الاميركي بري في مارس ١٩٠٦ الى الدرجة ٨٦/٦ وكان بلغ سنة ١٩٠٢ الى درجة ٨٧/١٧

وهذا جدول بأسماء البعثات الى القطب وما تم فيها من التقدم منذ بدىء بارسالها الى عهدنا ·

تاريخ البعثة	اسم رئيس البعثة	جنسيته	اقصى ما وصلت اليه من درجات العرض	الجهة
١٥٥٣	شانسلور دورفورث وويلوغبي	انكليز	٧١/٧٠	شمالي اوروبا
١٥٨٧	دافيس	انكليزي	٧٢/٢٠	بحر بافين
١٥٩٤	بارنتس	هولاندي	٧٧/٥٥	زامبل الجديدة
١٥٩٦	«	«	٨٠/١١	سبيتزبرغ
١٦٠٧	هودسون	انكليزي	٨٠/٢٨	شرقي غرانلاندا
١٧٧٣	فيبس	«	٨٠/٤٨	سبيتزبرغ
١٨٠٦	سكورسبي البكر	«	٨١/٣٠	شرقي غرانلاندا
١٨١٧	سكورسبي الفتى	«	نحو ٨٢	«
١٨٢٢	«	«	٨٣	«

١٨٣٤	غراه	دانيمركي	الى ما بعد ٨٣	"
١٨٧٦	ماركام	اميركي	٢٠/٨٣	شمالي غرانلاندا
١٨٨٢	سوكود	"	٢٤/٨٣	
١٨٩٥	نانسن	نروجي	١٤/٨٦	ارض فرانسيس يوسف
١٩٠٠	كاني	ايطالي	٣٣/٨٦	" "
١٩٠٦	بري	اميركي	٦/٨٧	شمالي غرانلاندا

ومن الفوائد التي حدثت من السعي في اكتشاف القطب للعلوم ولا سيما للجغرافية اننا عرفنا من بعثة نانسن ان رأس القطب الشمالي — ربما كان مقابلاً من الجهة الثانية للقطب الجنوبي — مغشى من كل مكان ببحر قليل العمق ليس فيه الا بعض جزائر وارض عظيمة ذات اتساع كبير هي غرانلاندا . وقد اثبت سفردروب وهو صديق نانسن المخلص بعد بضع سنين ان الشاطيء الشمالي من غرانلاندا ولم يكن يعرف منه الى ذاك العهد غير قسم صغير — لا يمتد نحو الشمال . وقد قطع الدوق دورليان سنة ١٩٠٥ جزءاً من الشاطيء الشرقي الذي لم يعرف في شمال رأس بسمرك . واحدث الاكتشافات اكتشاف بري الذي ابان انه يوجد في شمالي غرانلاندا بحر عميق وتيار عظيم يذهب الى الشرق . وتبين من البعثات الى ارجاء شمالي القارة الاميركية بان الشاطيء الشمالي الاميركي من الغرب متصل كل الاتصال ببحر القطب الذي يسمى هناك بحر بوفور على حين ان مجموع الجزائر الغربية الموجودة في الشرق تمتد ولا شك الى ابعد من ذلك نحو الشمال نحواً اكثر مما كان يظن حتى الآن . اذ قد شوهدت في شمالي ارض اكسل هيبرغ في المحل الآخذ نحو الشمال جزيرة جديدة سموها ارض كروكر

وبينا كانت الفوائد كثيرة مهمة من السعي في ارتياد الارجاء القطبية خلال السنين الاخيرة في شمالي اميركا كان ما بذل من الجهاد في شمالي آسيا للوقوف على اسرار المحيط المتجمد غير مثمرة ادنى ثمرة وقد هلك سنة ١٩٠٣ البارون تول الروسي الالماني ولم يبق اثرًا وهو يحاول بلوغ ارض سانيكوف والغالب انه هلك واتباعه جوعًا

ولقد حصرت دائرة الارجاء القطبية التي لا تزال غير معروفة في دائرة ضيقة في غضون السنين الاخيرة بفضل الرحالتين نانسن وبري خاصة . وما برح القطب يغر كثيرين من ارباب الرحلات فقد مضت على الرحالة اندره الذي سافر يوم ١١ يوليو ١٨٩٧ من سبيتزبرغ في منطاده احدى عشرة سنة ولم يأت خبر عنه وربما لم يتعد اكثر من الدرجة الثالثة والثمانين من العرض وهو الذي ساق نفسه الى الحتف هذا لم نقل الى ان اقدامه على ما اقدم

عليه كان من الجنون المطبق ان لم يكن الانتحار بعينه . وليس هو وحده الذي حاول ان يقطع ثلوج القطب في منطاد تخلصاً من ركوب البحر والمركبات التي لا تجل لها فقد حاول ذلك غيره كالاميركي ولمان الذي اخنق في المرة الاولى ويحاول في الثانية بلوغ النجاح .

والآمال معقودة الآن بان النجاح ينال بري وامندسون وتكتب اسماؤهم في سجل اعظم العاملين في خدمة العلم باكتشاف القطب وكلاهما الآن بعد بعثة الى تلك الارجاء المتجمدة وسيسافر الاول هذه السفرة للمرة السابعة على باخرته ليبحث عن طريق لبلوغ القطب والناس يؤملون له الخير لانه ابان في رحلاته السابقة عن حذر عظيم وهمة عالية وكانت رحلاته مفيدة فكاد يبلغ الدرجة التي يرمي اليها لولم يداهمه الشتاء وتيارات الثلوج واذا اسعده الحظ وبدونه لا يستطيع اكبر الرجال عقلا ان يعمل عملاً يذكر — فان سفرته ستكون بعد سنة مسفرة عن افتتاح القطب واذا خانه الحظ ايضاً في رحلته هذه فان رصيفه امندسون النروجي الذي يعمل لهذا القصد منفرداً سيجني ثمار هذا الظفر اول الجانين من الناس . وللاميركان والنروجيين في الثلاثين سنة الاخيرة يد في السعي لاكتشاف القطب . ويرجى ان يكون لامندسون ثمرة النجاح بعد بري اذا اخفق هذا . وبعثتا هذين الرجلين هما اهم البعثات الاخيرة واغناها وانفعها ويؤمل ان تحل بهما هذه المشكلة التي شغلت بال الناس اعواماً وقروناً

التأليف في الملوك

كان الكثير من الملوك رغبة في العلم لاشراف نفوسهم الملكية على علو قدره وجلالة امره فمنهم من كان يرغب فيه ويقرب اهله ويسعى في نشره . ومنهم من اشتغل به وسعى في تحصيله حتى فاز بحظ وافر منه . ومنهم من زاد على ذلك فالف فيما عني به من العلوم غير ان المؤلفين فيهم قليلون لمنع شواغل تدبير المملكة والقيام باعباء امورها في اكثر الاوقات من التفرغ للتأليف . ومن الملوك الذين الفوا عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن . وفي كثير من خزائن الكتب شيء من مؤلفاته واغرب مؤلفاته كتاب (١) عثرنا

(١) هو من الاسفار التي دخلت حديثاً الى خزانة كتب احمد بك تيمور في القاهرة . وهذه النسخة كانت ملكاً لذاك الملك الجليل

عليه في هذه المدة الفه في صنع الاصطرلاب بعد ان زاول عمله مدة واتقنه وقد اجاد في هذا الكتاب اجادة وافرة بحيث قرب هذه الصناعة على الراغبين فيها ولم يستعمل الابهام الموجب للايهام . فاحببنا ان نورد منه ما ذكره في المقدمة لتقف على اسلوب الكتاب والغرض منه قال :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون والثقة يقول العبد الفقير الى الله تعالى عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول غفر الله له الحمد لله الذي لا يبلغ اداء حمده الحامدون وشكرًا له على نعمه فوق ما شكره الشاكرون فهو الواحد الذي لا تحيط به الظنون جعل النجوم دلائل يهتدي بها المهتدون فقال سبحانه وعلامات وبالنجم هم يهتدون . احمده حمد مقصر واستهديه الى طريق الصواب واستنصر وصلواته على محمد النبي الكريم الذي اثنى عليه في كتابه العزيز الحكيم فقال مادحًا له : وانك لعلى خلق عظيم . وعلى آله المنتخبين صلوة وسلامًا دائمين متلازمين الى يوم الدين ورضي الله عن الصحابة اجمعين . وبعد فلما كان الاصطرلاب اشرف آلة وضعت في علم الفلك وطريقه اوضح طريق بين في هذا الفن سلك احببت ان اجمع في عمله رسالة موضحة قريبة المسلك بطريقة مصححة فما زلت أداخل أصحاب هذا الفن واستجلب درّهم بالبحث المستحسن لنعرف من منهم يورد من فنونه ويبين ويصوّر خلاف غيره ويبرهن حتى ايقنت النفس بما مثلوه وعرفت نقل الاصل الذي اصلوه فتشجعت بان كررت التعلم والتحرير والتصوير لاشكاله الموضوعة والتقدير الى ان حسنت ما لم يحسنوا من آلته وعرفت ما يختار من عمله وصناعته ولم يذكروا في علمهم بالتحقيق سوى المقنطرات والبروج والكواكب بالتدقيق واستكفوا فيما عداها بحسن الروية من غير تقدير فلم ازل افكر فيما اهملوه حتى وضعت له المقادير تابعًا لما رسمه الاولون من الحساب مكتسبًا ما امكنني منه الاكتساب فوضعت على غاية ما بلغ الاجتهاد اليه ووقع عند التخيير الاختيار عليه ما يغني الصانع في تيسير المعرفة ويكفيه عن كثير من الكتب المصنفة وعليه في وضع المقنطرات والكواكب المعول والعمدة على وضعها وتحريرها على المصنف الاول مع معرفتي بفك حروفها واعدادها وابعاد مراكزها وانصاف اقطارها ولست بالمدعي في معرفة هذه الصناعة ولا ممن يتخذها حرفة وبضاعة بل اجتهدت فيها والتمست واحتذيت من ضوء سناها واقتبست فالفت هذه الرسالة لتكون للصانع اوضح دلالة وسميتها معين الطلاب على عمل الاصطرلاب فمن وقف عليها فليتسامح عما فرط وليكن اول من لعذر بسط فان الحليم اذا رأى حسنًا مخفيًا اظهره واذا رأى قبيحًا منشورًا ستره ونسأل الله الهداية في الصلاح والبلوغ الى افضل المقاصد والنجاح انه العظيم الحنان والكريم المنان .

اعلم ان الاصطرلاب يعمل بحالات فمنها ما يكون تامًّا وعدد مقنطراته تسعون ومنها ما يكون ثنائيا وعدد مقنطراته خمسة واربعون ومنها ما يكون ثلثًا وعدد مقنطراته ثلثون ومنها ما يكون خمسًا وعدد مقنطراته ثمانية عشر ومنها ما يكون سدسًا وعدد مقنطراته خمسة عشر ومنها ما يعمل عشرًا لصغره وضيق مداراته وعدد مقنطراته عشرة فالتام هو الذي يكون درج بروجه ومقنطراته مقسومة على درجة درجة والنصف ما كان بروجه ومقنطراته مقسومة على درجتين درجتين والثلث ما كان درج بروجه ومقنطراته مقسومة على ثلاثة ثلاثة والخمس ما كان درج مقنطراته وبروجه مقسومة على خمسة خمسة والسدس ما كان درجه ومقنطراته مقسومة على ستة ستة والعشر ما كان درج بروجه ومقنطراته مقسومة على عشرة عشرة واما الرسوم التي لا يقع فيها اختلاف في جميع الاصطرلابات فهي دوائر المدارات أعني مدار السرطان والحمل والجدي وخط نصف النهار وخط الاستواء فان هذه الخطوط كلها في جميع الاصطرلابات لا يقع فيها خلاف البتة وانما تختلف دوائر المقنطرات وهذا الذي اتصل الى علمنا من اعمال الاسطرلابات واعمال التارجهار فانه لا يمتنع ان يكون قد زيد على هذه الاقسام التي ذكرناها ولم نطلع عليه فليس لنا ان نقطع بان هذه الاقسام التي ذكرناها هي التي تعمل فقط فعلى هذا ما كان صغيرًا وقسم على درجة او درجتين او ثلاث تزاحمت خطوط المقنطرات لا سيما عند المركز فلاجل ذلك جعل ما صغر منها على عشر عشر واصحها ما كانت مقنطراته مقسومة على درجة درجة ليتحقق منها الصحة لان ما كبر منها وكان فتحه ذراعًا بالحديد خلص نصف درجة اي تقسم درجته الواحدة بنصفين لسعة ما بينها وبين المقنطرة الثانية وما كان فتح ذراعين جديد خلص عشر دقائق اي تقسم درجته الواحدة بستة اقسام كل قسم منها عشر دقائق وما كان منه اربعة اذرع او خمسة بالحديد خلص دقيقة اي تقسم الدرجة الواحدة بستين قسماً كل قسم منها دقيقة لان كل ما اتسعت الآلة صح تقسيمها ويؤدي الى الصواب لاحاطة النظر واحاطة الصانع بالصنعة والتمكن من قسمة الدقائق بين الدرجات لكبر الآلة فيؤدي ذلك الى الضبط والى الصحة فقد قيل ان الحاكم من خلفاء المصريين عمل ذوات الحلق وهي تسع حلقات الحلقة يدخل فيها الفارس راكبًا برمحه فيكون وزن الحلقة الواحدة نفسها الفي رطل وكانت جوانبها محززة مربعة على زوايا قائمة حتى اذا ركب بعضها في بعض كانت كصفيحة واحدة فيرصد بها وبها حققوا طول مصر وعرضها ثم ان التتر لما طلبوا الرصد صنعوا دائرة بناء طول حلقة سعتها عشرون ذراعًا فاستخرجوا ربع دائرة من محيطها ثم بنوا جدارًا طوله مائة ذراع ونصبه مائة ذراع مربع وضعوا عليه ربع دائرة طول قائمها على زوايا قائمة ستون ذراعًا وطول القطر

الآخر الممتد على الارض مثل ذلك والقوس تسعون درجة كل درجة ذراع قوسية اي قطعة من قوس هذا الربع ودرجوه درجاً كدرج القطر من اسفله الى اعلاه ليعملوا اشغالهم لاخذ الارتفاع واتفقوا على ذلك اموالاً طائلةوقيل ان هلاوون اخذ آلة الحمالين وجعلها على رأسه ليرد عنه الم الحجر وحمل حجراً كبيراً فلم يبق احد الا وحمل وبهذه الآلة الارتفاعية حصل الارتفاع بدقائقه وربما بثوانيه فقوس كل درجة هي ذراع فتمكنوا بهذه الآلة واستخرجوا بها اعمال الرصد وطوله وما ارادوا من باقي الاعمال. واوردنا هذه الحكاية ليعلم منها فائدة كل ما كبر من الاصطرلابات وزيادتها فائدة في التحقيق ومع ذلك اذا كان الاصطرلاب سعته كما قلنا في فتح ذراعين وما فوقه الى خمسة فلا يمسك باليد وقت اخذ الارتفاع لكبره وعظمه بل يرفعه شخص بيديه وآخر يأخذ به الارتفاع فان عظم علق على سيبا بقدر ما يتمكن منه الناظر وهو معلق بالسيبا فعند اخذ الارتفاع يرفع الناظر العضادة ويخفضها حتى يصح له اخذ ارتفاعه من الشمس او الكواكب واول ما يبتدىء به الراسم من العمل يخط خطاً باي قدر شاء ثم يقسمه بتسعين قسماً اجزاء صحيحة محكمة بقدر الجهد والطاقة فان صحة العمل موقوفة على قسمة الخط المذكور فمتى كان في القسمة خلل لم تصح بها الاعمال والخط هو المسطرة المقسومة وهذا مثالها (وهنا اورد صورتها) وان كانت هذه المسطرة بخلاف المسطرة الستينية التي ذكرها الفرغاني في كتابه فان تلك مقسومة بستين قسماً فاذا اردت عمل هذه المسطرة الستينية التي يقاس منها اعمال الاصطرلاب فانك تبدأ اولا بعمل مسطرة صحيحة من خشب صلب .

الى ان قال : فاذا اردت عمل الاصطرلاب كبيراً كان او صغيراً على أي قدر شئت عمله من الاقدار فانما يكون كبره وصغره من حساب هذه المسطرة لانه متى أراد الاصطرلاب كبيراً كبر في طول المسطرة ليتباعد مابين أقسامها ومتى اراد الاصطرلاب صغيراً صغر المسطرة ليتقارب مابين أقسامها لان فتح نصف قطر دائرة الاصطرلاب بقدر الثلث من طول المسطرة المقسومة بتسعين جزءاً ويكون قسمة هذه المسطرة اما في مسطرة من خشب صلب كالابنوس والعاج او ما كان في صلابتهما من الخشب والعاج وماشاكله في الصلابة واللون والعاج أجود من الابنوس لكونه اسود لا تتبين فيه اجزاء المسطرة وان كانت من نحاس كانت اجود من الجميع اذ المراد بالصلابة ان لاينزل شيء من رأسي البيكار في الخشب فيختل العمل فاذا اراد قسمة الصفائح فانه يبدأ اولاً بفتح البيكار بقدر مايغلب على ظنه انه نصف قطر الصفيحة اه وفي آخر الكتاب شهادتان من اهل هذه الصناعة تشهدان له باتقانها والبراعة فيها وهذه صورة الاولى منهما :

بسم الله الرحمن الرحيم و به نستعين الحمد لله الذي قدر مقادير الكواكب واظهر من مكنونات الغيب اسرار العجائب وسير النيرين كتهادي الكواعب واجرى المتحيرات كجري القواضب وقدر بروجها بين السابق واللاحق والطالع والغارب وجعل النجوم السبعة متحيرة بالقواعد والمراتب فنسبة الشمس كالسلطان والقمر كولي العهد والصاحب وزحل كالقهرمان والمشتري كالحاكم والمريخ كصاحب الجيوش والكتائب والزهرة كالخادم والمطرب وعطارد كالوزير والكاتب فسبحان خالق هذه المحاسن والغرائب ووصفها في كتابه المنزل على سيد الانبياء والشهداء والاباعدوالاقارب فقال عز وجل :انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله الكرام واصحابه الاطايب وبعد فأقول وانا اقل عباد الله واصغرهم ابراهيم بن ممدود الحاسب الملكي المظفري الاشرفي :اني لما شاهدت الاصطرلابين قسمة السدس من عمل مولانا الملك الاشرف عمر بن مولانا ومالك رقنا السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول خلد الله ملكهما وطول عمرهما من سنة ٦٨٩ وصحة جميع ماعمله بهما من صحة الدوائر والمقنطرات والمراكز وانصاف الاقطار والكواكب والحجرة والصفائح سبكاً وضرباً قسمة ووضعاً وصحة قسمة دائرة البروج وصحة العضايد وعيار المجموع فيهما ولم اجد فيهما مأخذاً الا ان كان اليسير من جهة الصانع الخراط ومولانا خلد الله ملكه عارف به وباصلاحه فشهدت له بالفضيلة وبتجويده في صناعة الاصطرلاب ووضعت له خطي هذا شاهداً على صحة ذلك واجزت له ان يعمل ماشاء من ذلك اي من الاصطرلابات بما استقريته من اتقانه ومعرفته وذكائه وخبرته واختباري له في ذلك وامتحاني اياه وكذلك في اصطرلابين عملهما في سنة ٦٨٩ احدهما اصغر من الآخر قسمة السدس والاكبر فيهما قسمة الثلث اجزته وشهدت له بالصحة في الاربع اصطرلابات المذكورة وكذلك اجزته في عمله لساعات مستوية يستخرجها بترجهار يعمله علماً وعملاً وان يعمل منها ماشاء لوثوقي بعلمه وعمله فيما استقريته من اعماله في جميع ماذكرته عنه نفعه الله بالاستفاده ونفعنا بما افدناه وكتب اقل العبيد المظفري الاشرفي ابراهيم بن ممدود الجلاد الموصلي الحاسب في شهور سنة ٦٩٠ هجرية على صاحبها افضل الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه اجمعين وشرف وعظم ثم اقول وانا اقل عباد الله ابراهيم الحاسب الملكي المظفري الاشرفي ان مولانا الملك الاشرف بن مولانا السلطان الاعظم الملك المظفر خلد الله ملكهما جدد اصطرلاباً قسمة السدس سنة ٦٩١ هجرية صحيحة وتحرير بالغ اعظم مما قبله مما استدللت به على زيادة فضائله فالله تعالى يزيده من فضله وينور باطنه بعلمه بمنه وكرمه وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم

واقول ايضاً ان مولانا الملك خلد الله ملكه اوقفني على سموت باصطرلاب قسمة الثلث سنة ٦٩٢ والسموت لعشرات فاستقربت الكثير منها اعني من السموت التي عملها بالآلات الصحيحة و بالحساب فوجدتها في غاية الصحة والتناسب مما استدللت بصحة يده وجودة ذهنه وتمكنه في العمل فحكمت بصحة مايعمله من السموت واجزت له ان يعمل بعد ذلك ما شاء من الاصطرلابات المسمتة وكذلك مما يعمله من الساعات الزمانية والمستوية وخطي الفجر والشفق باي اصطرلاب شاء وذلك من جمادى الآخرة سنة ٦٩٢ والحمد لله حق حمده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه كتب ذلك اقل العبيد المظفري الاشرفي ابراهيم الحاسب في التاريخ المذكور

وهذه صورة الشهادة الثانية منهما : بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما وكذلك يقول العبد الفقير الى الله تعالى حسن بن علي الفهري المظفري اني شاهدت الاصطرلابات التي اتقن احكامها ووضعها مولانا ومالكنا السيد الاجل العالم الانبل الملك الاشرف ممهد الدنيا والدين عمر بن مولانا ومالكنا السلطان الاجل السيد الاوحد العالم العادل الملك المظفر شمس الدنيا والدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول خلد الله مملكتهما فمنها اثنان قسمة السدس عملا في سنة تسعين وستمائة واثنان احدهما قسمة السدس والآخر اكبر منه قسمة الثلث عملا في سنة تسع وثمانين وستمائة واصطرلابان قسمة السدس ايضاً عملا في سنة احدى وتسعين وستمائة وشاهدت جميع ما عمل بها من صحة الدوائر والمقنطرات والمراكز وانصاف الاقطار والقطرين المتقاطعين على ظهورها وامتحنت حروف العضائد المستعملة وقيام الشظايا على العضائد ومقابلة ثقوب الشظايا بعضها لبعض على موازاة حروف العضائد المستعملة واعتبرت كل واحد من ربعي الارتفاع فيها وادراجها من الواحد الى التسعين ومربعات الظل واصابعها الاثني عشر واقدام الظل واعتبرت ارباع الحجرة في جميعها وادراجها الثلاث مائة وستين وخط وسط السماء مع وتد الارض وخط المشرق والمغرب وانتهاء اطراف كل واحد من هذين القطرين الى محاذاة ارباع الحجرة ودوائر المقنطرات ودائرتي مداري المنقلبين ودائرة مدار اول الحمل واول الميزان وخط العصر وخط الفجر ومغيب الشفق والساعات الزمانية وفي الاصطرلاب السداسي الصغير المعمول في سنة تسع وثمانين وستمائة خطوط للساعات المستوية متقاطعة مع خطوط الزمانية ثم بعد ايام قريبة شاهدت الاصطرلاب قسمة الثلث المعمول في سنة تسع وثمانين وستمائة وقد سمت صفائحه الثلث لست عروض وهي عرض يج ··وعرض يجه وعرض يد ه وعرض يد ل وعرض ·· وعرض كا ه فوجدت سموتها متقنة العمل صحيحة محققة قسمتها بعشر قسي

عشر قسي من قسي السموت ووجدت الجميع من الاصطرلابات المذكورة بقسمتها وتاريخها كاملة الجودة والتحقيق والصحة واجزت له صناعة الاصطرلاب ووضعها سبكا وضربا ورسما لما استقريته من اتقانه ومعرفته وذكائه وفطنته واختباري لاعماله التي احكمها وامتحاني اياها ثم اجزت له ان يعمل ماشاء من الساعات المسنوية يستخرجها بطرجهارية بحكمه علماً وتحقيقاً وشاهدت طرجهارين من احكامه وعمله احدهما فضة والثاني نحاس فوجدتهما في غاية التحقيق فليعمل ماشاء منها فقد وثقت بما استقريته منه في جميع ما ذكرته في خطي هذا ووثقت بثقوب معرفته وفطنته نفعه الله بالعلم والعمل آمين وذلك بتاريخ اليوم الثاني من رجب الاصب سنة اثنتين وتسعين وستمائة احسن الله خاتمتها وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله اه

وفي الكتاب تساهل في كثير من المواضع في اللغة والاعراب وهو مما يغمض عنه في مثل هذه الكتب لاسيما ان كان من طبقة الملوك الذين لا يساعدهم الوقت على التنقيح والمهم في مثل هذا هو تعليم الصناعة بأي عبارة كانت

القاهرة ناظر في الكتاب

مطبوعات ومخطوطات

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة

طبع احمد افندي ناجي الجمالي ومحمد امين افندي الخانجي واخوه هذا الكتاب للحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ وجلال الدين هذا من المكثرين من التأليف وبعضها جيد ممتع . اما هذا الكتاب فهو ظاهر من اسمه جمع فيه تراجم مختصرة النحاة في كل عصر مستنداً فيه على ما انتهى اليه من كتب طبقاتهم على اختلاف العصور وقد تبين من الكتب التي سردها في المقدمة ان معظم كتب التاريخ المفقودة الآن كانت في عصره موجودة بكثرة واستدللنا على ان الزهد في هذا الفن كثر بعد التسعمائة . والاربعة القرون الاخيرة هي عصور الظلمات لا محالة . وقد بدأه بالمحمديين ثم ذكر الاحمديين ثم ساق اسماء الرجال على حروف المعجم ووقع في ٤٦١ صفحة بالقطع الكبير وهو يطلب من مكتبة محمد امين افندي الخانجي الكتبي الشهير في الحلوجي باثني عشر قرشاً ورقاً وخمسة عشر قرشاً مجلدا وهو من الكتب التي يجدر بكل طالب نحو ان يقتنيه ليعرف رجال فنه ويطلع على احوالهم ونكاتهم وآدابهم . وقد اعتمد الطابعون في طبع هذا الكتاب على نسخة في دار الكتب

المصرية وصححوها بقدر الامكان على ما ظفروا به من النسخ واجادوا انتقاء حروف طبعها فشكرًا لهم ·

نهضة الامة وحياتها

هي مقالات كانت دبجتها براعة الشيخ طنطاوي جوهري المشهور بكتبه العصرية ونشرها تباعًا في جريدة اللواء الغراء فحازت استحسان القراء وهي في موضوعات شتى اجتماعية وعلمية · وقد قدم له صالح بك حمدي حماد من ارباب الاقلام في هذه العاصمة مقدمة ذكر فيها ما حواه الكتاب فقال انه ضم ثلاثًا وخمسين رسالة او بحثًا جمعت فاوعت مما يهمّ معاشر المسلمين في جميع اقطار المعمور معرفته والاطلاع عليه فصور رجال الامة اجمل تصوير وارشد الحكام ايما ارشاد ووصف الامم المظلومة احسن وصف وقال في المدنية وعلومها ما شاء ان يصوغ قلمه البليغ وجال جولة في علوم الاسلام والازهر ورجال الدين وافاض في شرح المجالس النيابية ببيان لم ينسج على منواله وذكر تأليف الكتب وتصنيف الاسفار وبيان التأليف عند الامم وكيف يؤلف التاريخ ثم الشعر ودرجاته وذكر نظام الجندية والقرعة العسكرية الى غير ذلك من الافكار العالية التي تدل على علو كعبه في البيان والتبيين وقد وقع هذا السفر في ٢٨٤ صفحة ويطلب من ادارة اللواء والمكاتب الشهيرة فنثني على مؤلفه وناشره وطابعه بما هم اهله ونشكرهم على هذه الهدية النفيسة ·

تاريخ الحضارة

للمسيو شارل سنيوبوس احد اساتذة كلية السوربون في باريز كتاب في ثلاث مجلدات سلسل فيه تاريخ الحضارة فالاول في الحضارة عند الامم القديمة والثاني في الحضارة في القرون الوسطى والعصور الحديثة والثالث في الحضارة المعاصرة · وقد عرب صاحب هذه المجلة الجزء الاول منه الآن وبعد ان نشر في المقتبس تباعًا افردناه في كتاب على حدة وهذا المجلد فيه ذكر الحضارة عند امم الشرق القديمة من المصريين والكلدانيين والاشوريين والبابليين واليهود والفينيقيين والفرس وامم الغرب القديمة وهم اليونان والرومان وقد توسع المؤلف كثيرًا في الكلام على هاتين الامتين حتى لم يبق في النفس شيء من امرهما كل ذلك على اسلوب لطيف وتنسيق في الغاية من الجودة وقد التزمنا فيه التعريب بالحرف مخافة ان يضيع شيء من معانيه وان كان هذا النوع من الترجمة لا يُحمد في الاغلب · وهو في زهاء ٢٢٠ صفحة من صفحات المقتبس ويطلب في القاهرة بستة قروش اميرية من مكتبة

المؤيد بشارع محمد علي بالقاهرة ومكتبة هندية بالموسكي ومكتبة البابي الحلبي . ومن دمشق من مكتبة محمد افندي هاشم الكتبي .

الدين الاسلامي والتمدن

كراسة الفها باللغة الافرنسية السيد ابو بكر عبد السلام بن شعيب من تلمسان اتى فيها بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تثبت ان الاسلام موافق كل الموافقة لروح التمدن الحديث فضلاً عن منافاته للمدنية كما يدعي بعضهم في اوربا وقد اورد بما اورده خلاصة الشرع الاسلامي رداً على من يصورونه في صورة تغاير حقيقته وقال ان فرنسا اذا احبت ان لا يعود المسلمون من اهل الجزائر الى ما كان عليهم اجدادهم العرب من الهمجية قبل الاسلام وجب عليها ان تضاعف عدد المدارس وتسهل على ابنائهم دخولها وتجعلهم بحيث يكونون على استعداد لادراك مباديء دينهم والتسامح رائدهم . وقد نشرت هذه الرسالة في المجلة الوطنية بباريز اولاً فنشكر لغيرة كاتبها وادبه الغض وهي تطلب منه في تلمسان احدى ولايات الجزائر

سير العلم والاجتماع

آثار خوزستان

اقليم خوزستان في فارس من الاقاليم التي رخصت حكومتها لفرنسا ان تأخذ منها جميع ما تعثر عليه من الآثار كما عقدت معها عقداً سنة ١٩٠٠ يكون بموجبه لفرنسا حق استخراج العاديات من فارس كلها دون غيرها وقد حفر المسيو مورغان العالم الاثري في سوس عاصمة ذلك الاقليم فظفر فيها بآثار مهمة حملها في ثمانين صندوقاً وراح يعرضها في متحف اللوفر بباريز وقد كتب عنها بعضهم في جريدة «الآنال» فصلاً ضافياً قائلاً ان المغرم ازال في سوس قائماً على ساق وقدم منذ بضع سنين برياسة هذا العالم الاثري وسوس هي المدينة الغربية التي خربت مرات واعيد بناؤها فانشأ بالآجر المستخرج من انقاض الاسوار في تلك المدينة قصراً حصيناً اشبه بقلعة ليكون في مأمن للقيام بمهمته وقد نجز بناء هذا الحصن وكانت هذه البعثة الاثرية من قبل عرضة لنهب اللصوص من سكان البوادي . وا كتشف في الحفريات الحديثة بقايا المدينة الاولى التي كانت قبل المسيح بخمسة آلاف سنة وا كتشفوا

كمية من الخزف والاواني المنقوشة التي رسمت على مثال الصناعة اليونانية مما استدل منه على ان الصناعة الكلدانية اساس الصناعة اليونانية فان ملوك خوزستان بعد ان خربوا بلاد الكلدان اخذوا الى عاصمتهم سوس كل ما كان عند المغلوبين من الاعلاق والنفائس وزينوا به قصورهم . وانك لتجد هذه الاعلاق المذكرة بتلك الحضارة في سوس اكثر مما تجد منها في بابل نفسها . وقد جمعت تلك البعثه ما طالت اليه يدها من الخزف المنقوش الذي كانت جعلت منه جدران قصر ملوك الاخمانيين ومتى جمعت كلها يكون منها صورة تامة يتأتى الوقوف بها على واجهات ذلك القصر وكيف كانت . قال ولقد دهشنا بما شاهدناه من تلك الاواني والاكواب والصحاف المنقوشة بالمشجر اللطيف وبصور الحيوانات التي جعلت على نسق دلَّ على ذوق اكيد وذكاء حقيقي وتحققنا ان هذا الخزف صنع بحذق يوازي حذق صناعنا في صنع الصيني وقد جعلوا منه اشكالاً كثيرة فمنه تماثيل دينية او العاب للاولاد او عجلات صغيرة او غير ذلك من التحف والطرائف . وفي هذه المجموعة النفيسة تماثيل لمشاهير منها بعض رجال معروفين مثل تمثال الملك مونيشتوزو الذي اتى المسيو مورغان بقانونه الذي كتبه منذ اربعين قرناً قبل المسيح وقد كتبت على التمثال كتابة تؤكد انه ملك سوس بعينه

الانتحار

اثبت الاستاذ قيصر لومبروزو الفيلسوف الطلياني ان الحب هو اول باعث على الانتحار واذ ان الرجال في العادة اكثر اقداماً على الانتحار من النساء في الغالب فقد بلغ عدد المنتحرين في ايطاليا في سنة ١٨٧٥ و٧٧ و٧٨ — ٢٥١٦ مقابل ٥٦٩ منتحرة وان عدد المنتحرات بعوامل الحب هو من ٧٠ الى ٧٥ في المئة . وعدد الرجال من ٢٠ الى ٤٠ في المئة وكذلك الحال في فرنسا فان عدد المنتحرين ١٧٠٠٠ مقابل ٦٠٠٠ من النساء فينتحر بدواعي الغرام ٢٨ في المئة من النساء وسبعة في المئة من الرجال فقط وبهذا صدق المثل الافرنجي القائل « فتش عن المرأة » اشارة الى انها سبب كل بلية

مساويء الملح

ثبت بالتجارب الكيماوية والفسيولوجية مؤخراً ان الملح المستعمل في المطابخ لاجل تحضير الاطعمة يأتي في بعض الاحوال باضرار شبيهة بالتسمم . ويكفي ان الكلى لا تفرز الفضلات من كلورور الصوديوم بكمية كافية وتبقى في الجسم فتحدث فيه اضطرابات . وكان الاطباء يصفون لمن يصاب بهذا التسمم الاقتصار على اللبن لان فيه راحة للكلى ولا ينشأ من تناوله

اقل تأثير في اخراج الفضلات . فيقل بالتدريج معدل الالبومين الذي يخرج في البول بواسطة استعمال اللبن و يزول التورم والاستسقاء . الا ان الناس لا يروقهم تناول اللبن و يريدون ابدال غيره به و يسوغ لهم استعمال اللحوم والخبز والسكر والارز والمعجنات على شرط ان لا يكون فيها ملح قبل الطبخ ولا بعده . وقد قال الدكتور فندال القائل بحذف الملح من الطعام ان احدهم اصيب بانتفاخ في كعبه ثم سرى الى ساقه فكان يألم كثيرًا فوصف له استعمال الخبز واللحم والبطاطا والزبدة ولكن بدون ملح فأسرع شفاؤه اكثر من اللبن ولكن لما اضافوا الى الطعام شيئًا من الملح عاود المرض المريض . فمن ثم يرى الطبيب المشار اليه ان يمتنع تمامًا عن اخذ الملح في بعض الامراض .

الكنس

رأت بعض المجلات العلمية ان خير واسطة لدفع مضار الغبار من الدخول عند كنس الشوارع من النوافذ والابواب بل من السريان الى انوف المارة وافواههم هو ان لا يكنس الكناسون الا بعد ان يرش الرشاشون وكذلك الحال في نفض البسط والاثاث فان على من اراد ان لا يضر بصحة الناس ان لا ينفضها قبل ان يرشها بماء لتصبح ندية وان من الواجب على البلديات ان لا تغفل هذا الامر الصحي .

اللبن الحليب

منذ تبين ان في بعض البقر جراثيم السل تنقل عدواها بواسطة لبنها اخذ الغربيون وهم ائمة في الوقاية يحترزون من اخذ الحليب من بقرة مريضة و يبالغون في التوقي الا ان النفوس ما زالت على كثرة النظافة التي اصبحت طبيعية في الفلاحين واهل المدن في الغرب غير مطمئنة في هذا السبيل فانشأت مدينة روبيه في فرنسا محلا لتربية البقر يعني فيه بصحتها ونظافتها عناية لا يكاد يصدقها العقل كما يعنى بصحة من يحلبونها ونظافة اجسامهم واطرافهم

اجور الكتاب

فرنسا من اكبر بلاد الحضارة كتابًا ولذلك قلت فيها اجورهم حتى لا تكاد تقوم بنفقات الطبقة الوسطى منهم اما في انكلترا فان الكتاب قلائل وهم يعيشون في سعادة اكثر فقد زادت اجورهم خمسين في المئة منذ خمس عشرة سنة . ونسب بعضهم ذلك لوجود نقابات للكتاب تنظر في مصلحتهم كما تنظر في مصلحة ارباب المطابع . ويقال ان تسعين في المئة من المسائل الادبية في لندرا تفض بواسطة ست نقابات تمحضت لهذا الغرض فتدفع المجلات ثمن القصة في الغالب من ثلاثة جنيهات الى خمسة في كل الف كلمة وممن

يربحون كثيرًا من كتابتهم كبلنغ الكاتب فانه يأخذ شلنًا عن كل كلمة تخطها يده و يأخذ كونان دويل ثلاثة فرنكات عن كل كلمة من سلسلة رواياته شارلوك هولمز . اما في هذا الشرق الادنى فقد ارتقت اجور الكتاب في السنتين الاخيرتين فابتدأت مصر تدفع للطبقة العالية من كتاب الجرائد رواتب متناسبة مع ثروة الصحف وحالة البلاد وتتبعها الاستانة الآن التي تنسج على منوال الصحف الاوربية في محرريها ومؤازريها ومكاتبيها .

غلاء المنازل

ارتفعت اجور المنازل في جميع عواصم الارض في هذا القرن قرن الازدحام والاجتماع وقد نشرت نظارة الاشغال في باريز احصاء جاء فيه ان المنزل الذي كان يؤجر بثمانين فرنكاً سنة ۱۸۱۰ اصبح يؤجر بمئة وعشرين سنة ۱۸۵۰ و بمائتين وعشرين سنة ۱۸۷۰ و بثلثمائة وعشرين سنة ۱۹۰۰ و بثلثمائة وخمسين سنة ۱۹۰۳ ومثلها قواعد الولايات وان تكن النسبة اقل

النساء والاطفال

قررت فرنسا ان يمنع العاملات اذا كانت سنهن اقل من ١٤ من حمل رزم وزنها اكثر من خمسة كيلوغرامات والاولاد ان لا تتجاوز حمولتهم اكثر من عشرة كيلوغرامات . كما حظرت على الفتيان والفتيات ان لا يستعملن الدراجات الحمالة التي تسير بالبترول الا اذا تجاوزن سن الثامنة عشرة

المواليد

يولد في كل الف امرأة تختلف اعمارهن من ٢٥ الى ٥٠ في برلين ٤٧ مولودًا من عائلة غنية و١٥٧ من عائلة فقيرة وفي باريز يولد في طبقة الاغنياء ٣٧ مولودًا و١٠٨ اولاد في الطبقة الفقيرة و يولد في فينا ٧١ مولودًا في كل بيت غني و٢٠٠ في الالف في البيوت الفقيرة وفي لندرا ٦٣ مولودًا غنيًا في الالف و١٤٧ مولودًا فقيرًا

الهواء

حملت بعض الصحف الباريزية حملة صالحة على قلة الهواء الذي يتخلل الاحياء والشوارع وقالت ان الفراغ آخذ بالقلة مع الزمن وان قلة الساحات العامة والحدائق هو الذي يكثر من الامراض ولا سيما السل وانه ثبت ان الاحياء القليلة الساحات والفسحات كانت اكثر تعرضًا لهذا الداء الوبيل . وللندرا ١١٦٨ هكتارًا من الارض البراح ما عدا احدى عشرة حديقة في وسطها وفي باريز ٢١٤ هكتارًا من الفراغ ما عدا غابة بولونيا التي تحسب ضاحية فالواجب الاكثار من الحدائق لان الهواء هو الصحة

التمثيل للاولاد

رأى مارك توين الكاتب الاميركي المشهور ان تقام دار للتمثيل خاصة بالاطفال والشبان فلبي طلبه وانشؤا دار تمثيل سموها « مسرح تربية البنين والناشئة » ولا يمثل فيها الا المولعون بفن التمثيل ويقتصرون في تمثيلهم على الروايات المدرسية وبذلك يمتنع كثير من الشبان عن غشيان دور التمثيل التي لا تمثل فيها الا الخلاعة والرقاعة

جيش المتمردات

قال احد كتاب الانكليز لا يزال عدد المتمردات من العاملات الانكليزيات في ازدياد في انكلترا زهاء خمسة ملايين ونصف من النساء العاملات وهو جيش اضخم من جيش كسركس ملك الفرس بل اكثر من سكان لندرا . فمنهن ٨٦٧٠٠٠ عاملة في معامل القطن و ٩٠٣٠٠٠ في المصنوعات اليدوية و ٨٠٥٠٠ في التجارة ونحو مئة الف في الزراعة و ٥٥٧٨٤ حاسبة و ٢٠٠٠٠٠ معلمة و ٤٤٠٠٠ موسيقية وممثلة و ٧٩٠٠٠ مرضعة و ٢٩٢ طبيبة . ومن هؤلاء النساء ثلاثة ملايين لم يتزوجن وان كن جاوزن العشرين من العمر ومنهن مليون رضين ان يبقين عانسات بعد بلوغهن الخامسة والثلاثين وعدد الايامى منهن ٧ ١٢٤٦٤ ايامى

العامل العظيم

تبين ان اديسون مخترع الكهربائية اشتغل مدة اربعين سنة كل يوم ست عشرة ساعة اي انه عمل ما يوازي عمل العامل المهم في مئة سنة فيدان المرء لا يعجب من عظمة اعمال كبار الرجال بقدر ما يعجب من مقدرتهم على معاناة العمل .

مطاعم الشعب

أي امرىء فيه ذرة من الانسانية يمر بجماعة من العملة وقت الظهر وهم يتغذون ولا تأخذه الشفقة عليهم ويتأثر لجور هذه المجتمعات في قوانينها . تعطي الغني حتى تتخمه وتمنع الفقير حتى تميته . ولكن ابن هذه البلاد جبل على القناعة من طبعه اذا حاز الخبز القفار عده نعمة وان تيسر له ان يلته بشيء من مرق المخلل او يجمع معه الزيتون او البصل او الفجل اغتبط وعد ذلك سعادة . واليوم الذي يتناول فيه اللحم والارز والبقول والفول هو يوم عيده وهنائه .

بيد ان ابن الغرب ليس كابن الشرق في هذه الحال وذلك لان مناخ الغرب يقتضي من جيد الاطعمة ما يقدر معه العامل ان يقاوم هواء بلاده ويتحمل مشاقها

ولاسيما عملة المعامل . وهناك جمعيات وافراد كثيرون ممن اسبغ الله عليهم نعمه يفكرون للبائس الفقير اكثر مما يفكر لنفسه ويأسفون لحرمانه فيسعون لتعميمه حتى يساوي اهل السعة في بعض ما يجب لقوام جسمه من المطعم والمسكن لتستفيد بلاده منه اذا جادت صحته وسلمت آدابه

هناك يتأثر المحسن اذا رأى اولاداً يأكلون قليلاً لفقرهم ويطعمون أردأ الاطعمة ويشفق الفسيولوجي على الفتيات العاملات لقلة ما يدخل معدهن من الطعام المغذي ويهتم الاخلاقي اذا رأى ابنة تهيم في الشوارع على وجهها لتملأ بطنها . ولذلك قام فيهم امثال الاميرة دي غال (الملكة فيكتوريا) في لندره ومرغريتا مورجانستين في برلين وروتشيلد في باريز وغيرهم او غيرهن في عواصم الغرب وقواعده حيث تصعب المعيشة لازدحام اقدام السكان .

ولم ير القوم هناك احسن من انشاء مطاعم للشعب على النحو الذي اسسه جماعة من محسني اليونان في الاسكندرية يأكل فيها العامل او العاملة هنيئاً مريئاً لقاء دريهمات تمكنه حالته من ادائها كل يوم . وكانت سويسرا هي السابقة الى انشاء امثال هذه المطاعم والاستكثار منها وبعضها مما انشأه النساء . وكم للنساء في الغرب من يد في الخيرات كما لهن ايد في غيرها .

رأى اصحاب المعامل هناك ان مصلحتهم تقضي عليهم بان يتغذى عملتهم تغذية جيدة فانشؤا لهم مطاعم يبيعونهم فيها جيد الطعام بثمن بخس وذلك لان هذه المطاعم لا يقصد منها اربابها ربحاً كثيراً بل يطلبون ان تقوم بنفقاتها فقط وتسر عملتهم وتقتصد لهم من اوقاتهم ومالهم وتنفعهم في صحتهم وتدفع عادية الامراض عنهم . وقد اسست في باريز مدرسة عالية اشبه بكلية للشعب وفي جوارها مطاعم للتلاميذ يتناولون طعاماً جيداً بثمن بخس كما يتعلمون مجاناً

وزاد عدد هذه المطاعم في أوربا في العهد الاخير ولا سيما في انكلترا والسويد والنروج وسويسرا والمانيا وفرنسا بسبب كثرة المدارس التي يتعلم فيها الفتيات فن الطبخ وتدبير المنزل فيعانين صنع الوان الطعام ليتعلمن بالعمل وكل ما زاد منه ترسله ادارات المدارس الى مطاعم انشأتها في الجوار لتبتاعها العملة والعاملات ولا سيما العاملات بثمن قليل

ولا تتوخى معظم تلك الشركات والجمعيات الربح من تأسيس مطاعم الشعب وقد رأت بعضها ان تحدد القدر المقتضي لرأس المال من الارباح وما زاد عنه وهو قليل ايضاً يستعين به على انشاء مطاعم أخرى في احياء أخرى او مدن أخرى . وكانت انكلترا بدأت تانشاء هذه المطاعم على عهد كانت الملكة فيكتوريا اميرة دي غال قبل توليها عرش

اجدادها ففتحت هي وزوجها المطعم بيدها واكلت منه وجبة كلفتها اربعة بني ونصفًا (٤٥ سنتيماً) ثم كثرت المطاعم على هذا النحو في انكلترا واكثرها لايكلف زيادة عن نصف فرنك كل وجبة تحتوي على بقول ولحوم وجزء من لبن

وفي المانيا جمعيات كثيرة من النساء انشأت في أمهات مدن الالمان ولا سيما الصناعية مطاعم كثيرة تكلف الوجبة فيها اربعين سنتيما والطاهيات والخادمات هناك من النساء . وقد انشيء فيها محال لبيع اللبن والشاي والزبدة والقهوة باثمان رخيصة لتقاوم أعمال المحال التي تبيع المسكرات . وتفردت المانيا وحدها بانشاء مطاعم للمرضى الناقهين تقدم اطيب الاطعمة بحسب وصية الطبيب بأثمان لا تزيد الوجبة منها عن ستين سنتيما . والفضل في ابتكارها أولاً لمعمل كروب المشهور ثم عمت هذه الطريقة معظم اقطار المانيا

وللنساء السويسريات يد طولى في انشاء مطاعم للشعب . ومن جملة الفنادق التي انشأتها فنادق ينام فيها المرء ويأكل ويشرب ولا يدفع اكثر من ثلاثة فرنكات ونصف وترى فيها النظافة على أتم ما يمكن ان يكون والمواد جيدة ولا تجد في معظم هذه المطاعم أثرًا للمشروبات الروحية وفي بعضها محال للمطالعة والتسلية المشروعة . وقد نجحت مطاعم الشعب في ولايات فرنسا اكثر من نجاحها في باريز لغلاء الاجور فيها وارتفاع اسعار مواد الاجور وثبت بالاستقراء للباحثين انه لايتأتى اطعام شاب في مطعم طعامًا كافيًا بأقل من فرنك و١٥ سنتيما الى فرنك وربع

ويرى بعض الاجتماعيين ان مطاعم الشعب يجب ان لاتحصر عملها في اطعام الطعام الجيد للفقراء ممن ينتابونها بل ان تعلمهم وتربيهم وأن لايكتفى فيها فقط بحظر بيع المشروبات الروحية بل ان يستعاض عنها بالاشربة والحلواء المحللة الصحية ماينسى معها الذين اعتادوا تناول الالكحول ان لا يعاودوا احتساءها . والسكر احسن مولد للحرارة في الجسم ومعين على الهضم ولذلك رأت المانيا ان تدفع كل يوم ستين غرامًا من السكر لكل جندي يتناوله مع الماء والقهوة والشاي . وان البلاد التي لا يطيب ماؤها حري بها ان تغلي الماء على النار في الاوقات التي لاتنتفع بها وتمزجه بقشر البرتقال أو الاقحوان فاذا جاء المستطعمون يتناولون منه فيجعلون فيه سكرًا او يكرعونه صرفًا وهو يغنيهم عن كل شراب وينشط اجسامهم . وظهر من فوائد مطاعم الشعب ان الامراض كانت تقل بين من يطعمون فيها لانهم يكرهون على غسل ايديهم قبل الجلوس الى الموائد . ومعلوم ان طريق الفم هو الواسطة العظمى في العدوى من الامراض ولا سيما الهواء الاصفر فكان من هذه المطاعم ان عمت المختلفين اليها ان يطهروا ايديهم طوعًا او كرهًا .

هكذا يعمل الغربيون وعلى هذه السنة جرى بعض النزالة اليونانية في الاسكندرية منذ اشهر ففتحوا مطاعم لامتهم يصرف فيها القليل وينتفع فيها بالجزيل . فهل لافراد في امتنا ان ينهضوا بدافع الشفقة على مثال الامم الناهضة فيؤسسون مطاعم للبائسين ولا سيما في العواصم ومدن الاقاليم الكبرى حيث الغلاء ضارب بجرانه بما يعد معه غلاء اكبر مدينة في اوربا رخصاً وسعة

آداب الجرائد

كتب الدكتور رنيول في مجلة مستندات الترقي مقالة في الجرائد السياسية وآدابها قال فيها وهو يقصد في الاكثر صحف فرنسا : ان المرء يقع اختياره في الغالب على مطالعة جريدة من الجرائد تطلعه على الشؤون السياسية والحوادث المنوعة والعلوم والآداب بل على كل مطلب من المطالب اللازمة ولذلك كانت الجرائد هي المهذبة العظمى للامة الا انها تستعمل مالها من التأثير في الشر احياناً فمن جرائدنا من جعلت همها الوحيد لفت الانظار الى مطالعتها فهي تبذل في هذا السبيل كل شيء فتدعو من اجل ذلك اشرف العواطف وتقلبها الى شهوات ضارة فتجعل الوطني مهوساً والمؤمن متطرفاً والمتسامح مبتدعاً والمنتخب المتعقل سياسياً ناقصاً وتوقد نيران التباغض بين الاجناس والطبقات والاديان والآراء وبفضل الجرائد تنقسم الامة الى شطرين متعاديين يوشك ان يحمل احدها على الآخر في المسائل العادية كاعادة النظر في احدى القضايا

هذه الجرائد تعظم الحوادث الساذجة لتستكثر من القراء . ان دعت الى الاجتماع لسباق الخيل نقلب علم الفروسية ظهراً الى بطن وان احبت عقد مؤتمر من التجار تضاعف ثروة الامة عشرة اضعاف ماهي عليه وان اقترحت الاحتفال بسباق السيارات تزعم انها احيت هذه الصناعة . نعم هي تدعي أيضاً انها تظهر المحكوم عليهم من الابرياء وتشهر الصناعات السامة وتشرف على المطاعم المغشوشة .

للاستكثار من القراء تقيم الجرائد مسابقات سخيفة فهي تقترح عد حبات الخرنوب الموجودة في زجاجة وان تحزر الكلمات المحذوفة من رفرف (قصة في اسفل الجريدة) تافه وان يعثر على كنز مخبوء في احدى المتنزهات العامة وذلك بان تعلن بانها تدفع جوائز تقدرها بمئات الالوف من الفرنكات . هي تعمل ذلك ولا حرج عليها لانه لا يكلفها غير الوعد فاذا ما انحل الاشكال المطلوب حله فلا يكون الا على يد شريك لها تقاسمه الربح او لا تعطيه منه شيئا

لاجل ان تحبب الجرائد الى الناس قراءتها تغرس فيهم الميل الى قلة الرصانة وسماع

اللغو والعبث فتقص عليك كيف ان احدى الممثلات تلبس قفازيها (كفوفها) وتركب في المركبة وتذكر كل تفصيل عن غانية اشتهرت وتورد لك اسماء اشأم الاشرار مورية انهم من الابطال تستجلب عليهم الرحمة وتفاوضهم بعناية · لا كثار هذه الجرائد قراءها تستخدم رقة القلب الكاذبة في العامة بان تأتيهم بحوادث غريبة منوعة ومدهشة تقيم وتقعد · فان مخبري الجرائد يجتمعون كل مساء في القهوة فاذا لم تحدث في المدينة حوادث خصام ولا توقيف احد بالقوة ولا انتحار ولا فجائع عشق ولا غيرها مما يقتضي عليهم ان ينشروه في جرائدهم يخترعون شيئاً منها بالاتفاق بينهم اتفاقا لا يخرج احد عنه

هذه الجرائد تدعو الناس الى قراءتها بنشر انباء الاكتشافات الكاذبة والمبالغة في رفع اقدار ادعياء العلم الى السماكين وتتملق للمتأدبين المنحطين والموسيقيين الساقطين · نعم هي تساعد على نمو الفضائح مدعية انها مولعة بالحق ولكنها تتحرز من افشائها اذا كان فيه مس احساس بعض الشركات الكبرى · وحدث ما شئت ان تحدث عن تلطفها في ذكر نقابات باعة الخمر فهي تتوقى من ذكر اسم سكير وتستعيض عنه عند ما يأتي في باب الاخبار المنوعة بلفظ الغضوب او فاقد الصواب

ومتى افلحت تلك الجرائد بكثرة سواد قرائها لا تستنكف من بيع اعمدتها للاعلان عن ارباب المومسات وبائعي السميات واللصوص · لا تراعي فيما تنشر إلاًّ ولا ذمة ما دام المعلنون يدفعون لها اجور اعلاناتهم · وليس احسن من الجرائد للرقيق الابيض يطلب على لسانها احدهم على صفة انه رجل في بلد بعيد يريد فتاة لتكون في بيته وصيفة او معلمة او مؤنسة فاذا حملت اليه لا تجد المسكينة غير بيوت الريبة تنتظرها وكذلك الحال في المتجرات بالاعراض من النساء فانهن يعمدن الى الصحف فيجعلنها وسيطة بينهن وبين زبنهن مقترحة بانهن يعطين دروساً في اللغة او يعرضن تحفاً ونفائس ·

ولقد يجعل باعة الترياق والادوية الشافية من الصحف واسطة لممارسة طبهم ولا ينالهم عقوبة فيوصون باستعمال العقاقير الضارة مثل خلاصة التيرويد والمسهلات السريعة وغيرها · وكذلك يفعل الماليون فيها للاعلان عن مسائل لم تحوي في مطاويها الغش والخديعة وتخرب بيوت السذج من الناس ·

وكثيراً ما تبلغ الحال بتلك الجرائد ان تهدد بعض الناس او يرضونها بما تريد ولتنشر خبر فضيحة وقعت واعدة ان تأتي من الغد بشرح واف على ما جرى والله اعلم متى يجيء هذا الغد اذا خف اليهم المفضوح فرشاهم ليسكتوا

ايها القارىء انك اذا ابتعت الجريدة الفلانية تعتقد بانها لا تكلفك غير فلس واحد فانزع

هذا الوهم من نفسك فكثيراً ما يكون منها اضرار بصحتك وثروتك وشرفك فما تدفعه من ثمنها يجعلك شريكا لها في جرائمها ·

ولقد سرى فساد هذه الجرائد ولصوصيتها في الاخلاق حتى ان القوم لم يعودوا يفكرون في لومها · ولما اتهم في قضية برزخ باناما اناس من مشاهير كبار رجال السياسة طالب الصحافيون منهم باجرة المقالات المنشورة كأنهم يطالبون بحق ولكن تلك المبالغ التي قبضوها تجاوزت الاجرة المعتادة بما لا يقال ·

هذا والحكومة تعين الجرائد على ما هي في سبيله فهي لا تكتفي باعطائها مبالغ من المال سرًّا بل توافقها على جميع مطالبها فتساعدها حين الحاجة بجندها لتستخدمها اعلانًا عن نفسها وتضع قسماً من اسطولها تحت امر ارباب الجرائد ليجعلوا صفة رسمية لسباق القوارب الذي يقومون به وتسحب الحكومة يانصيب باسمها اكرامًا للصحف · قال لي احد مديري الجرائد ذات يوم : انا لا ادعو الى الفنون ولا الى الآداب ولا الى العلم انني تاجر وأريد ان انظر في مصلحتي وما جريدتي الا حائط يعلق اعلانه عليه كل من يؤدي اجرته · قال هذا ولكن فاته ان هذا الحائط متحرك يدخل في كل مكان ويزيد عدده الى مالا نهاية له ويبيعه من القاريء · فانت ايها الصحافي مسمم لعقول العامة لا تقل في ضررك عن ذاك (البدّال) الذي يغش المأكولات ·

سأل احد كبار اغنياء الاميركان ذات يوم عن احسن الطرق التي يتيسر له ان يصرف فيها جزءاً من ثروته في عمل خيري ولو سمع مني لرأى حاجتنا ماسة كل المساس الى تأسيس جريدة سياسية ذات وقار وحشمة واعني بها جريدة تقول الحقيقة ابدًا او ما تعتقد انه الحقيقة ولا تنشر الا الاعلانات التي تعترف بصحة مافيها اهـ

صدور المقتبس

نحمد الله على ان وفقنا الى الجري على سنة النمو الطبيعي في هذه المجلة وهدانا الى سبيل التسهيل في اقتباس الفوائد واقباسها جهد الطاقة على صورة مقبولة في الجملة ولم يزين لنا الخوض الا فيما درسناه واعتقدنا فيه الغناء . ونشكر لموآزرينا من اهل العلم وحملة الاقلام الذين جعلوا من المقتبس مباءة لبنات افكارهم وخزانة لخلاصة ابحاثهم كما نثني على من نشطونا على اطراد الخطة التي سلكناها ونوهوا بها ولا سيما تلك الفئة الفاضلة العاقلة من علماء المشرقيات من الغربيين سواء كان بما نشروه في مجلاتهم او بتفضلهم بمكاتبتنا بما يشف عن حسن ظن بضعفنا وفضل ادب فطرت عليه نفوسهم . ولقد لقينا في عامنا هذا من اقبال القراء في كل قطر نقام فيه للعربية سوق ما اغتبطنا به فزاد الطلب على السنتين السالفتين حتى اضطررنا الى اعادة طبع عدة اجزاء كانت نفدت من عندنا فاستقام بذلك حسابنا ووازى الدخل الخرج في نفقات الطبع والنشر

ونرجو من المشتركين ان يعذرونا على اسراعنا في اصدار الاربعة الاجزاء الاخيرة من السنة الثالثة دفعة واحدة . فقد اضطررنا بسبب ارتفاع الضغط عن العقول وانتشار حرية المطبوعات في البلاد العثمانية الى مغادرة هذا القطر السعيد وسيصدر المقتبس ان شاء الله في غرة المحرم القادم من مدينة دمشق قاعدة بلاد الشام بعد ان صدر في عاصمة القطر المصري ثلاث سنين آخذين على النفس ان لا نحيد قيد شبر عن الخطة المرسومة فنصرف العناية في تمحيص المسائل بقدر ما تسمح به الحال وتخير الموضوعات التي تفيد وتلذ . وفي الختام نودع وادي النيل ونهدي سلامنا لاهله علمهم الله علماً يحفظون به كيانهم ويعلي بين المتحضرين شانهم . ونستغفره عز سلطانه مما طغى به القلم وزلت به القدم انه اكرم مسؤول

فهرس المجلد الثالث من المقتبس

« تمت »